

مايكل أورين

القوة والإيمان والخيال

أمريكا في الشرق الأوسط
منذ ١٧٧٦ حتي اليوم

ترجمة
آسر حطيبة

القوة والإيمان والخيال

أمريكا في الشرق الأوسط منذ ١٧٧٦ حتى اليوم

تأليف
مايكل أورين

ترجمة
آسر حطيبة



القوة والإيمان والخيال

مايكل أورين

Power, Faith, and Fantasy

Michael B. Oren

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٠٠٥ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٧.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٠٩.

المحتويات

المزيد من الثناء على الكتاب

«يمثِّل [هذا الكتاب] إنجازًا بارزًا. هذا عملٌ في غاية الأهمية سيغيِّر الطريقةَ التي ينظر بها الأمريكيون إلى الدَّور الذي يلعبونه في الشرق الأوسط وخارجه. حكايته شائقة، وتحقيقه موسوعيٌّ.»

والتر راسيل ميد

«يلبِّي كتاب مايكل أورين هذا حاجةً حقيقية. لطالما كان الأمريكيون معنيِّين بالشرق الأوسط على مدار تاريخهم، لكنَّ أحدًا من قبلُ لم يوثِّق هذا حتى جاء أورين ووثَّقه بعنايةٍ تامة وحيوية كبيرة. أنصح بشدة بقراءته.»

جون لويس جاديس، جامعة ييل

«إن كنتَ تظنُّ أن علاقة أمريكا بالشرق الأوسط بدأت في عهد روزفلت وترومان، فإنَّ كتاب مايكل أورين هذا الذي استفاض في تحقيقه وكتبَه ببراعةٍ، سيمثِّل لك كشفًا مهمًّا كما كان لي. بشخصياته المذهلة — من المبشِّرين المخلِصين والمتحوِّلين المستقلين في آرائهم والسُّياح المبهورين، بل وحتى بشخصية جورج بوش، من القرن التاسع عشر — لا يوفِّر هذا الكتاب جرعةَ قراءةٍ ماتعة فحسب، بل يمثِّل دليلًا أيضًا على أن المرء لا يفهم قضيةً ما فهمًا كاملًا حتى يعرف تاريخها.»

نيال فيرجسون، مؤلف كتابَي «الصنم» و«الحرب العالمية»

«يمثِّل [هذا الكتاب] تجربةً قوية؛ فهو مكتوبٌ ببراعة ومُحقَّقٌ له بعناية، ومثيرٌ للاهتمام للغاية، كما أنه مفيدٌ ومُثرٍ.»

هنري كيسنجر

«كما يشي اسمُ الكتاب، كانت العلاقات مع تلك المنطقة الإسلامية بصورة كبيرة مدفوعةً بمزيج من الدوافع — السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية والرومانسية. والجنود والمغامرون والدبلوماسيون والتجار والمبشِّرون والسُّياح كلهم يمثِّلون شخصياتٍ أساسيةً في الدراما التاريخية الثرية التي يقصُّها كتاب أورين … إنه يقدِّم سردًا رزينًا.»

ستيفن كيلمان، صحيفة «سان أنطونيو كارنت»

«ذو أهمية كبيرة في مثل هذا الوقتِ الصعب: حجَّته مبينة، ويعجُّ باللحظات المعبِّرة والمؤثِّرة.»

مجلة «كيركوس ريفيوز»

«هذا التحقيق المثير للاهتمام والكاشف والمثير للدهشة في كثيرٍ من الأحيان عن تاريخ انخراط الولايات المتحدة في الشرق الأوسط على مدارِ ٢٣٠ عامًا يأتي في التوقيت المناسب تمامًا … كان أورين في أفضلِ حالاته وهو يقدِّم وصفًا لشأن أمريكا في القرن العشرين؛ حيث حلَّت محلَّ بريطانيا باعتبارها قوة «إمبريالية» في المنطقة. وهذا ما يجذب كلًّا من الباحثين والقرَّاء العاديِّين على حدٍّ سواء.»

جاي فريمان، مجلة «لايبراري جورنال»

«ممتاز وماتع … لو كان باستطاعة جورج دبليو بوش قراءةَ هذا الكتاب المذهل قبل أن يشنَّ عمليةَ تحرير العراق … لأدرك مدى فداحةِ أن تطلِق النارَ أولًا ثم تطرح الأسئلةَ لاحقًا في الشرق الأوسط على مدارِ الأعوام المائتين المنصرمة.»

دوجلاس ليتل، مجلة «فورين أفيرز»

«يخلُص أورين إلى أن الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط وممارسةَ السلطة فيه «جلبا خيرًا أكثرَ مما أثارا الجشع، وسبَّبا أضرارًا أقلَّ بكثير مما تسبَّبا فيه من نفع.» إن مَن سيقرءون دراستَه الرزينة للعلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط على مدارِ قرنين من الزمان سيجدون صعوبةً في الاختلاف معه.»

رونالد رادوش، مجلة «ويكلي ستاندرد»

«كتاب أورين سردٌ شامل وبليغ لفترة قرنين من العلاقات.»

مجلة «بابليشرز ويكلي»

«لفهمِ الوقت الراهن ولاتخاذِ قرارٍ واعٍ بشأن المستقبل، من المهم كثيرًا أن نقرأ التاريخ، وقد أهدانا مايكل أورين نظرةً استثنائية على وجود أمريكا في الشرق الأوسط.»

موقع «بوك فيوز دوت كوم»

«تحقيقه مستفيض … الكتاب مذهل فيما يتعلَّق بخطوطه العريضة — تحليل ٢٣٠ عامًا من التاريخ السياسي والعسكري والثقافي بحصافةٍ وتقدير لمواضع الغموض — وتفاصيله السرِّية، سواء كانت رسمًا لشخصياتٍ غير معروفة كثيرًا أو إقرارًا لحقائق مثيرة للدهشة. ومقاربةُ أورين تسلِّط الضوءَ كثيرًا على الأحداث الراهنة … ومن الواضح في سردِه أنه روائي أيضًا؛ فهو ماهر في بثِّ الروح في الشخصيات والحفاظ على انخراط القرَّاء مع النص.»

ساندي براوارسكي، «جويش ويكلي»

«بوصفه استقصاءً عميقًا للعلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط، يسدُّ هذا الكتاب المهم للغاية فجوةً موجودة بالفعل في الأعمال الخاصة بهذا الموضوع … هذا تأريخ ثريٌّ بصورة رائعة ومثيرة للتأمُّل … نرشِّحه لكل المكتبات العامة والأكاديمية.»

مجلة «لايبراري جورنال»

«هذا الكتاب يترك القارئ في حاجةٍ إلى المزيد منه حتى وهو يبلغ من الصفحات ما يتجاوز ٧٠٠. وبفضل سلاسة النص والتفاصيل، نجد المعلومات الكثيرة فيه مستساغةً، ومعظمها آسرٌ تمامًا ... وباستخدام هذا الاستقصاءِ دليلًا إرشاديًّا، يمكن لأي قارئ أن يُصبح مُلمًّا إلمامًا تامًّا بوقائعِ منطقة الشرق الأوسط الشاسعة.»

ستيف واينبرج، «سانت لويس بوست ديسباتش»

«يقدِّم هذا الكتاب سياقًا غنيًّا بالتفاصيل بهدف تقييم الدور الأمريكي المضطرب الآن في الشرق الأوسط.»

لورنس جروسمان، «ذا نيو ليدر»

«يعرف أورين كيف يحكي قصة، وكيف يتلاعب بالجُمل ويحيك التفاصيل الماتعة.»

جلين ألتشولر، «بالتيمور صن»

«ليس هناك من مقدمة لتاريخ الولايات المتحدة في الشرق الأوسط أفضل من هذا الكتاب المستساغ القراءة إلى حدٍّ بعيد.»

بول كولينز، «سيدني مورننج هيرالد»

«لا يقدِّم أورين دراسةً مفصَّلة للتاريخ الحديث في الشرق الأوسط فحسب، بل يقدِّم نظرةً شاملة لا غنَى عنها بما فيها من نقاط التحوُّل والتوجُّهات الحاسمة.»

جاك فيشل، «كورير ميل»

«لعدم وجود كتاب آخر يتمتَّع بمثلِ ما يتمتَّع به هذا الكتاب من رؤية شاملة لموضوعه، فإنَّ الشخصيات الكثيرة التي يقدِّمها لنا أورين والقصصَ التي خاضها لتحقيقٍ مفصَّل عن تعاطي هذه الشخصيات مع بعضها ستشكِّل جميعها تفكيرنا عن أمريكا والشرق الأوسط طَوال أعوام قادمة ... والآن يبقى

هذا الكتاب أفضلَ تأريخ لدينا لما مرَّ بنا من تاريخ، وسيظلُّ دليلًا مرشدًا من أول الأمر إلى آخره.»

كريستوفر ديكي، «نيوزويك»

«كتاب مايكل بي أورين الرائع هذا وعنوانه يمثِّلان رؤيةً ضليعة وشاملة لعلاقات أمريكا الطويلة والمتشعِّبة أكثر في المنطقة، وهو ترياقٌ نحن في أمسِّ الحاجة إليه، إنه يعطينا صورةً شاملة عن دوافع الانخراط في المنطقة الذي بدأ حين كانت الجمهورية لا تزال في مهدِها، حين كانت إسرائيل مجرَّد حُلم، ولم يكن محرِّك قاطرة الأمر قد أصبح حتى مخطَّطًا ... هذه قصة يرويها أورين برزانة، ويبثُّ في مواضيعها الكبرى الروحَ من خلال سلسلة من الشخصيات الجذابة المثيرة للاهتمام.»

جيرارد بيكر، «ذا تايمز» (لندن)

«يذكر السيد أورين قائمةً من الألقاب — التي يُنظر إلى بعضها بتقدير كبير — عن موضوع أمريكا والشرق الأوسط أخفقَت في تقديم «الرؤية الشاملة لانخراط أمريكا الذي يعود إلى قرون في الشرق الأوسط بكل جوانبه العسكرية والاقتصادية والثقافية.» هذا هو ما يقدِّمه السيد أورين بالضبط، ويكمُن قدرٌ كبير من متعة قراءة هذا الكتاب في إدراك مدى براعته في ذلك ... يزخر الكتاب بالقصص القصيرة والمقالات والشخصيات والأشخاص التي تمسُّ هذا الموضوع، والتي تشكِّل سرْدَ السيد أورين ... إنْ قلنا إنَّ هذا الكتاب مناسبٌ لوقته فإننا سنعمِّم هذا الحكم على كل كتب التاريخ المُحكَمة الكتابة ... وبقدرِ ما يتمتَّع به كثير من هذه القصص من سحرٍ وجاذبية، فإنَّ قيمة الكتاب الحقيقية لا تتأتَّى إلا حين يأخذه القارئ جزءًا واحدًا لا ينقسم. هناك في كل صفحة اعتبارٌ دقيق وماتع بشأن أهمية التاريخ وعلاقته بالحاضر ... لقد أسهم السيد أورين إسهامًا كبيرًا فيما يتعلَّق بإمكانيةِ فهمِ العلاقة التاريخية بين أمريكا والشرق الأوسط. إنه لكتابٌ جديرٌ بأن يكون على قائمة كتبك.»

ديفيد أ. سميث، «واشنطن تايمز»

«أحدُ أهم الكتب التي تتناول هذا الموضوعَ والتي نُشرت هذا العام أو من قبلُ ... إن هذا الكتاب بقلم الكاتب الإسرائيلي مايكل أورين يسدُّ فجوةً لطالما كانت موجودةً في تأريخ الشرق الأوسط. حتى صدور هذه الطبعة الرائعة التي حُقِّقت بدقةٍ عالية في هذا الشهر، ببساطة لم يكن هناك تأريخٌ شامل للانخراط الأمريكي في المنطقة ... إنَّ ما أنجزه أورين واجبةٌ على صنَّاع السياسات وعامة الناس قراءتُه على حدٍّ سواء. ففي الفترة التي يمثِّل فيها الإرهاب العالمي، لا سيما في الشرق الأوسط، التحديَ الأكبر للديمقراطية، ينبغي لمعظم الأمريكيِّين أن يقرءوه ويفهموه.»

جوناثان إس توبين، «جيروسلم بوست»

«في تأريخه البارز للعلاقة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، يقدِّم مايكل أورين بحثًا حُقِّق تحقيقًا كاملًا، وسردَه بطريقةٍ آسرة ليرويَ لنا جوانبَ ممَّا عايشه بنفسه ... يمتاز هذا الكتاب الأخَّاذ بتناول الكثير من الشخصيات البارزة في التاريخ الأمريكي ... إن أورين لروائيٌّ ساحر. وقدرتُه على الانتقال من التأريخ الدقيق للتفاصيل إلى رسم صورةٍ شاملة للتاريخ، ليست بالأمر الهيِّن، لكنه يفعل ذلك برشاقةٍ وميلٍ إلى الأسلوب الدرامي.»

روبرت ساتلوف، «نيويورك بوست»

«ما يفعله أورين هو الاقتطاف من التاريخ وتجميع باقة واحدة سهلة القراءة. وهو يتَّبع التفصيل من دون أن يبدوَ حديثه أكاديميًّا، وهذا الأمر يمثِّل ميزةً واضحة حين تجالس كتابًا به أكثر من ٧٠٠ صفحة من التاريخ ... إن كنت تتمتَّع ولو بقدر ضئيل من الفضول، فإن هذا الكتاب سيأخذك في رحلةٍ مليئة بالاكتشافات.»

زاكاري ريد، ريتشموند تايمز ديسباتش

«يتتبَّع أورين بفاعلية الخيوطَ الكثيرة التي تربط أمريكا بالشرق الأوسط ويسخِّرها، بدءًا ببعثاتها التبشيرية إلى تعطُّشها الشديد للبترول. إن الكتاب

يمثِّل صورةً بانورامية، تتنوَّع بين مغامرات الزوار الأوائل مثل جون ليديارد الذي وقع في غرام منطقة أوريجون حين أبحر مع الكابتن كوك ليصبح أولَ أمريكي يستكشف الشرق الأوسط، إلى رصدِ مارك توين الانتقادي الذي كتب يقول إنَّ مدينة القدس الشريف «معدَمة ومثيرة للاشمئزاز»، وتعجُّ بالمجذومين والحمقى والحجَّاج الغربيِّين. إنَّ كتاب أورين هذا لهجينٌ نادر: فهو جذَّاب إذا ما عددناه مصدرَ ترفيهٍ وتسلية، ومفيدٌ بعدِّه عملًا مرجعيًّا عن علاقة أمريكا الطويلة والمتقلِّبة بالشرق الأوسط.»

مايك فرانسيس، «ذا أوريجونيان»

«كتاب جذَّاب ... لقد عرفتُ الكثير مما لم أكن أعرفه من هذا التأريخ الشامل والمتعمِّق للتفاعل بين أمريكا والشرق الأوسط، الذي دام مدة ٢٣٠ عامًا ... هذا عملٌ هائل، يرتكز على مئات المصادر الأصلية والأرشيفية — من الخطابات والمذكِّرات والكتب والوثائق الحكومية، التي يحيكها معًا بمهارةٍ لينسجَ منها سردًا سلِسًا يتراوح بين التفاعلات الثقافية والسياسية والاقتصادية.»

جوديث ميلر، «نيويورك صن»

إهداء

إلى يوسي كلاين هليفي

زميلي وصديقي الذي ساعد في جعل هذا الكتاب ممكنًا،

وإلى زوجتي سالي

التي تجعل كلَّ شيء ممكنًا.

شكر وتقدير

تتسع قائمة مَن أريد شكرهم وتطول بقدرِ اتساع نهر الأردن في مخيِّلة الأمريكيِّين. وتبدأ بالأستاذ الجامعي إل كارل براون بجامعة برنستون، الذي ذَكر أثناء دورة عن تاريخ الشرق الأوسط الحديث قبل عشرين عامًا أن قدامى محاربي الحرب الأهلية ساعدوا في تحديث الجيش المصري وأنشئوا مدارس لمحو الأمية. وقد عرفتني تلك المحاضرة بموضوع وجود أمريكا في الشرق الأوسط، وهو موضوع شائق لكن الأبحاث فيه ضئيلة. وبعد فترة قصيرة من وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، سألني صديقي العزيز ومحرِّر كتبي روبرت وايل عن الكتاب الذي لم يُكتب عن الشرق الأوسط بعدُ والذي لا بد أن تتم كتابته، ولم أجد صعوبةً في الرد عليه.

ومنذ ذلك الحين، ساعدني عددٌ كبير من الأصدقاء والزملاء والطلاب في رحلتي خلال تاريخ أمريكا في الشرق الأوسط. وأذهب بأول كلمات شكري إلى مركز شاليم في القدس؛ إلى رئيسه دان بوليسار، ومؤسِّسه يورام هازوني، وإلى مجلس إدارة شاليم الذي يرأسه روجر هيرتوج الذي أتطلع إليه باعتباره مرشدًا ومعلِّمًا. ويحق امتناني إلى ديفيد هازوني، المحرِّر الراجح العقل لجريدة «أزور»، الصادرة عن مركز شاليم، وإلى المتحدثة باسم المركز المفوَّهة ستيفاني بيرسون. وبالكاد أستطيع التعبيرَ عن تقديري — وإعجابي — لفريقي الخاص في شاليم، لميرا زولوف، وليورا بيترز، ونوا هارنك، ومساعدي المخضرم نوا بيزموث. ومن بين المتميزين في مركز شاليم الذين أسهموا بوقتهم وموهبتهم في هذا الكتاب، بيشاي هيتزني، وراشيل كافيتز، ومارينا بيليبودي، وجالينا توكر، وأنات ألتمان، وكارين برونفاسر، وأهارون هورفيتس. عِلاوة على ذلك، أودُّ أن أثنيَ على منحة البحث السخية من مايكل موسكوفيتس، الصديق العزيز لمركز شاليم، التي أُنشئت إحياءً لذكرى والده زيدي يويل موسكوفيتس.

ومن خلال برنامج منحة كلية شاليم، تشرَّفت بالعمل مع عدد من الباحثين الشباب المخلصين الذين ساعدوني في تحديد مواضع المصادر في الكتب، وانتقاء الفقرات والاقتباسات ذات الصلة. ويذهب جزيل شكري إلى سارا رونيس، وراشيل إيزاكس، وفريدريك ميتون، وبين جرين، وباري فايس، وأرييل بيري، وجوناه فروكتر، وأليسون جوردون، وجنيفر فاينبرج، وسيسليا تسفايباخ، وسول أدليسكي، وجيسون زيلبرمان، ورافي فاينجولد، وشون هوفمان، وريبيكا بورنستاين، وجو جرانت، وميشيل مارجوليس، وأفيجيل شوجرمان، وجيفري يوسكوفيتس، وريبيكا هاريس، وجيكوب فيكتور، وآرون روتستاين، وموردخاي ليفي إيشيل، وأيالون إلياخ، ونوام كاتلر، وماثيو لوتشهايم، وباتيا نادلر، وبول كاندل، وربيكا رور، وزفيكا كريجر. وأخصُّ بالشكر الشباب الذين وضعوا مهاراتهم المتميِّزة في الكتابة والتحرير في مسوَّدة الكتاب، وهم ويليام فيلدمان، وجيريمي إيرشو، وجايب شاينمان، وأديليا مالموت، وأريانا كروشنسكي، وأليزا زالسبرج.

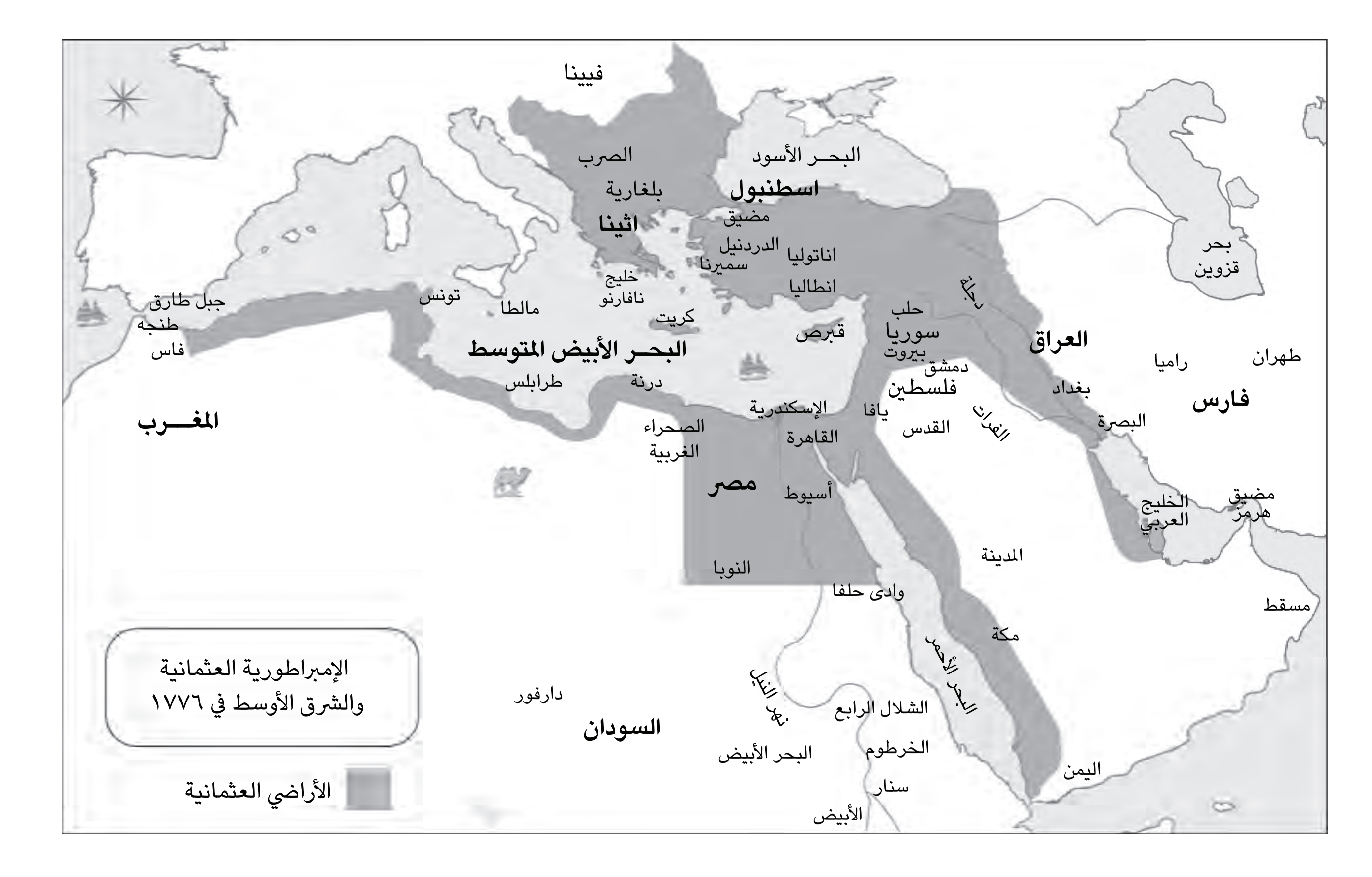
وأوجِّه شكري أيضًا إلى يائيل هارتمان، وإيفلين إيمرز، وإليانور بيرجيس، وآلي يايشوجلو، وسيث روبنسون، الذين قاموا عدة مرات بدور مساعديَّ البحثيِّين في الولايات المتحدة. وأوجِّه شكري بوجه خاص إلى إيتان جولدستاين، مساعدي الرئيسي الذي لم يكلَّ ولم يملَّ، صاحبِ المواهب المتعددة، والذي أتوقَّع له أن يصبح أحد أعظم علماء الدبلوماسية الأمريكية.

لقد أنعم الله عليَّ بعدة أصدقاء ساندوني خلال هذا المشروع وقدَّموا لي ملاحظاتٍ عظيمةَ القيمة حول النص. فأوجِّه شكري لماثيو ميلر، ومارتي بيريتز، وروث يودكوفيتس، وآن لويز أنتونوف، وروز شوارتس، وناعومي وجوناثان برايس، وتوفا هارتمان، ومارشال هوبنر، وهيلين كاتس، وجون كريفين، ومارك جيرسن، ودان كليونسكي، وجيروم وإلين ستيرن، ومايكل وسوزان آشنر، وإلى حماي بيرت إديلستاين.

وأريد كذلك أن أوجِّه شكرًا خاصًّا للأستاذ الجامعي جون جاديس، ولروبرت لوفيت أستاذ تاريخ الدبلوماسية بجامعة ييل، للمساعدات التي قدَّماها لي في مجال استكشاف سياسات الشرق الأوسط التي اتبعها جون كويسني آدامز، ووالتر راسل ميد، الزميل الأقدم في قسم هنري كيسنجر في قطاع السياسة الخارجية الأمريكية بمجلس العلاقات الخارجية، لنظرته الثاقبة وآرائه السديدة حول تأثير الشرق الأوسط على وضع الدستور الأمريكي وعلى حركة التبشير الأمريكية. وأوجِّه شكري كذلك إلى طلبة جامعتَي ييل وهارفارد الذين قدَّموا لي آراءهم الجديدة لمحاضرات وقراءات الدورة المستقاة من الكتاب.

وأوجِّه خالص شكري لجانين لوتشيانو، مديرة النشر بدار نورتون للنشر، ولفريقها المخلص الذي يضم توم ماير، ولويز بروكيت، وراشيل والتسمان، ونانسي بالمكويست، وجوليا دراسكين، وأوتو زونتاج، وبيل راسين، وإلين تشونج. وفوق الجميع أدين بالشكر العميق لبوب وايل، حيث يمتلئ هذا الكتاب بحكمته ونظرته الثاقبة.

ولن يكفي أيُّ شكر للتعبير عن امتناني للتشجيع والحب المستمرين اللذين تلقيتهما خلال هذا المشروع من والدي ومن زوجتي ومن أبنائنا يواف ونوام وليا. إليكم أوجِّه شكري الخاص.


الإمبراطورية العثمانية
والشرق الأوسط في ١٧٧٦
الأراضي العثمانية
فيينا
الصرب
البحـر الأسود
بلغارية
اسطنبول
اثينا
مضيق
الدردنيل
سميرنا
اناتوليا
انطاليا
خليج
نافارنو
كريت
دجلة
حلب
سوريا
بيروت
قبرص
العراق
بحر
قزوين
جبل طارق
طنجه
فاس
تونس
مالطا
البحـر الأبيض المتوسط
طرابلس
درنة
دمشق
فلسطين
يافا
القدس
الفرات
بغداد
البصرة
راميا
طهران
فارس
المغـــرب
الإسكندرية
الصحراء
الغربية
القاهرة
مصر
أسيوط
الخليج
العربي
مضيق
هرمز
النوبا
المدينة
وادى حلفا
مسقط
مكة
البحر الأحمر
نهر النيل
دارفور
الشلال الرابع
السودان
الخرطوم
البحر الأبيض
سنار
الأبيض
اليمن

خريطة ١

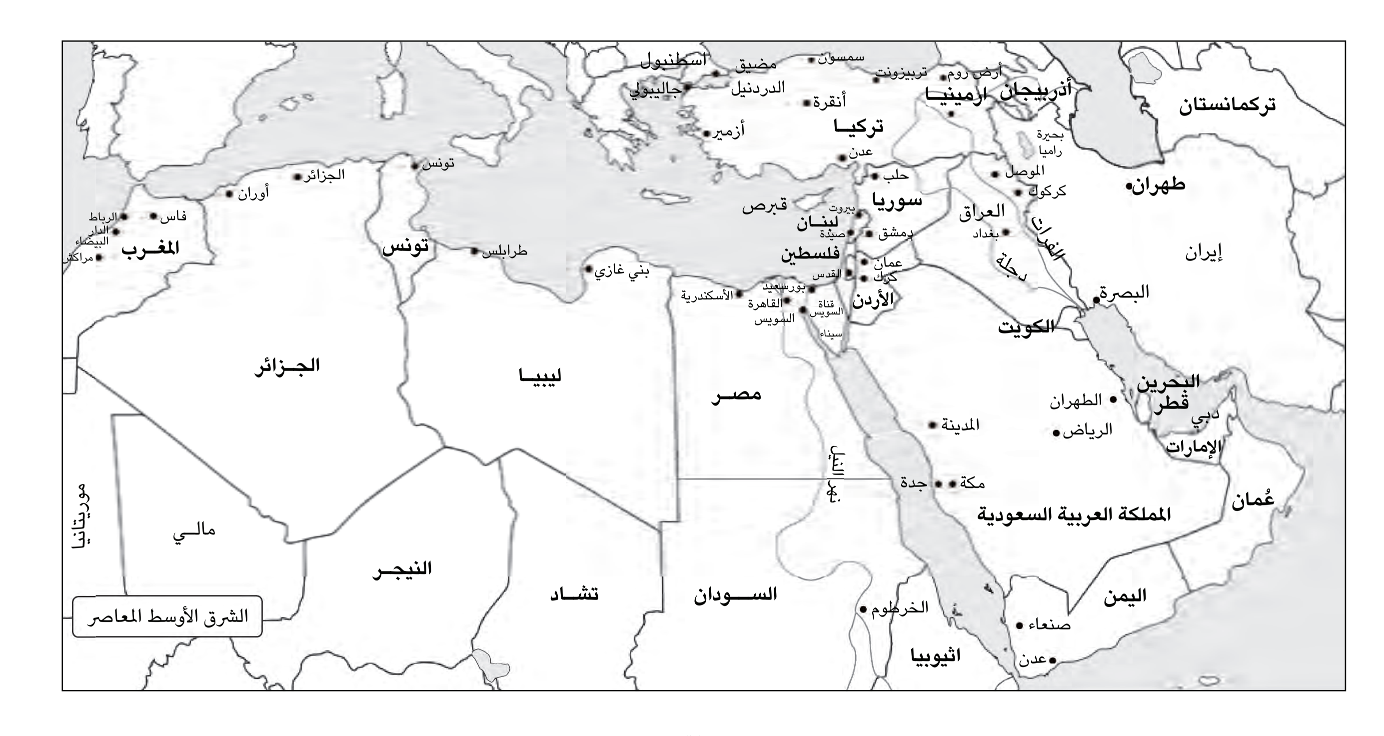

البحر الأسود
روسيا
أنقرة
تركيا
بحيرة فان
بحيرة راميا
مرسين
أورفا
الأسكندرونا
الموصل
فارس
اللاذقية
قبرص
سوريا
فرنسا
لبنان
بيروت
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
العراق
بريطانيا
بغداد
حمدان
كيرمانشاه
فلسطين
القدس
عمان
الفرات
إمارة شرق الأردن
مصر
العقبة
حوف
البصرة
الكويت
الحجاز
بلاد العرب
البحر الأحمر
بلدان الشرق الأوسط في ظل الانتداب البريطاني بعد الحرب
الحدود
سكك حديدية

خريطة ٢



لبنــان
سـوريا
صفد
عكا
حيفا
بحـر
الخليل
الناصرة
البحر الأبيض المتوسط
نابلس
تل أبيب
يافا
عمـان
القدس
البحـر
الميت
الخليل
غزة
رفح
بئر سبع
إمارة شرق الأردن
خطة تقسيم الجمعية العامة
للأمم المتحدة عام ١٩٤٧
مصـر
الدولة اليهودية
الدولة العربية
وصايات دائمة
العقبة

خريطة ٣


الشرق الأوسط المعاصر
تركمانستان
طهران
إيران
أذربيجان
ارمينيا
تركيا
سوريا
لبنان
فلسطين
الأردن
العراق
الكويت
البحرين
قطر
الإمارات
عُمان
المملكة العربية السعودية
اليمن
اثيوبيا
السودان
مصر
ليبيا
تونس
الجزائر
المغرب
تشاد
النيجر
مالي
موريتانيا
اسطنبول
مضيق
الدردنيل
جاليبولي
سمسون
تربيزونت
أرض روم
أنقرة
أزمير
عدن
حلب
بحيرة
راميا
الموصل
كركوك
قبرص
بيروت
صيدة
دمشق
بغداد
عمان
القدس
كرك
بورسعيد
الأسكندرية
القاهرة
قناة
السويس
سيناء
البصرة
الطهران
الرياض
دبي
المدينة
مكة
جدة
الخرطوم
صنعاء
عدن
بني غازي
طرابلس
تونس
الجزائر
أوران
فاس
الرباط
الدار
البيضاء
مراكش

خريطة ٤



سفن الأسطول الأمريكي تستعد لدخول قناة السويس في يناير ١٩٠٩.

ترتيبُ الأحداث وفقًا للتسلسل الزمني

١٧٧٦–١٨٠٠

١٧٧٦: بإعلان الولايات المتحدة استقلالها تفقد حماية البحرية البريطانية لها، وتواجه القراصنة البرابرة وحدَها.

١٧٧٧: المغرب يعترف باستقلال الولايات المتحدة.

١٧٨٤: القراصنة المغاربة يستولون على البارجة البوسطنية «بيتسي».

١٧٨٥: جون لامب يرأس أولَ بعثة أمريكية دبلوماسية في الشرق الأوسط.

١٧٨٥: توماس جيفرسون وجون آدامز يقابلان مندوبَ طرابلس.

١٧٨٧: بسبب حاجتها لمواجهة شمال أفريقيا، الوفود تجتمع في فيلادلفيا لوضع مسوَّدة دستور.

١٧٨٨: وصول جون ليديارد — أوَّل أمريكي يستكشف الشرق الأوسط — إلى مصر.

١٧٩٤: الكونجرس يصوِّت لصالح تكوين سلاح للبحرية «يكفي لحماية تجارة الولايات المتحدة من القراصنة الجزائريِّين.»

١٨٠١–١٩٠٠

١٨٠١: طرابلس تعلن الحربَ على الولايات المتحدة.

١٨٠٣: طرابلس تستولي على الباخرة «يو إس إس» فيلادلفيا وطاقمها المكوَّن من ٣٠٥ بحَّارة.

١٨٠٤: القوات الأمريكية تحرق الباخرة «فيلادلفيا» في ميناء طرابلس.

١٨٠٥: ويليام إيتون وجنود البحرية الأمريكية وبعض المرتزقة يهاجمون مدينة دارنا على ساحل شمال أفريقيا. وجيفرسون يعقد اتفاقَ سلام منفصلًا مع طرابلس.

١٨١٥: جيمس ماديسون يرسل أسطولًا أمريكيًّا لإجبار مدن الجزائر وطرابلس وتونس على التوقُّف عن مهاجمة السفن الأمريكية.

١٨١٩: ليفي بارسونز وبليني فيسك — أول مبشِّرَين أمريكيَّين إلى الشرق الأوسط — يغادران بوسطن.

١٨٢١: بدءُ حرب الاستقلال اليونانية، مما يجبر الولايات المتحدة على الاختيار بين مبادئها الديمقراطية ومصالحها الاقتصادية في الدولة العثمانية.

١٨٢٣: بليني فيسك يؤسِّس أولَ مدرسة أمريكية في الشرق الأوسط.

١٨٣٠: الرئيس أندرو جاكسون يعقِد اتفاقيةً بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية.

١٨٣١: وصول ديفيد بورتر — أول سفير أمريكي إلى الشرق الأوسط — إلى إسطنبول.

١٨٣٢: واشنطن إيرفينج ينشر كتاب «قصر الحمراء» الذي يضم مجموعةً من القصص العربية. الولايات المتحدة توقِّع اتفاقية تجارية مع مسقط (عُمان اليوم).

١٨٣٥: الرحَّالة الأمريكي جون لويد ستيفنز يصل إلى الإسكندرية.

١٨٣٧: إدوارد روبنسون يؤسِّس حقلَ علم آثار الإنجيل.

١٨٣٧: المبشِّرة الأمريكية هارييت ليفرمور ترحل إلى فلسطين.

١٨٤٠: الباخرة «السلطانة» تصبح أولَ باخرةٍ شرق أوسطية ترسو في الولايات المتحدة.

١٨٤٢: سايرس هاملين يفتتح مدرسةً على أطراف إسطنبول، واضعًا بذلك الأساس لمدرسة «روبرت كوليدج».

١٨٤٤: واردر كريسون، القنصل ومرمِّم الآثار الأمريكي، يرحل إلى فلسطين.

١٨٤٨: ويليام فرانسيس لينش يصبح أولَ مستكشِف يبحر عبْر نهر الأردن من بحيرة طبرية إلى البحر الميت.

١٨٥١: كلوريندا مينور تصل إلى فلسطين بهدفِ تأسيس مدرسة زراعية تمدُّ اليهود بالمهارات الضرورية لإقامة دولة.

١٨٥٦: هيرمان ميلفيل يقوم بجولة في الشرق الأوسط.

١٨٥٨: واشنطن ترسل الدبلوماسي إدوين دي ليون إلى يافا للمطالبة بالعدالة لضحايا هجوم عربي على مستعمَرة ديكسون. العبد السابق ديفيد إف دور ينشر كتابًا عن رحلته عبْر الشرق الأوسط.

١٨٦٢: يتقدَّم دانييل بليس باقتراحٍ رسمي لافتتاح أولِ جامعة حديثة في العالم العربي وهي «الكلية السورية البروتستانتية»، التي سُمِّيت فيما بعدُ «الجامعة الأمريكية ببيروت».

١٨٦٣: الرئيس لينكولن يعارض وجودَ القوات المصرية في المكسيك.

١٨٦٥: إلقاء القبض على جون سورات في مصر، وهو أحدُ المتآمرين في اغتيال لينكولن.

١٨٦٦: جورج آدامز يختار ١٥٦ أمريكيًّا لتكوين مستعمرة في فلسطين.

١٨٦٧: مارك توين يقوم بجولة في الشرق الأوسط وينشر انطباعاته في كتاب «الأبرياء في الخارج».

١٨٦٨: الخديوي المصري إسماعيل يستعين بالمحاربين القدامى في الحرب الأهلية الأمريكية لتحديث جيشه وتقوية العلاقات المصرية الأمريكية.

١٨٧٢: الجنرال ويليام تيكومسيه شيرمان ورالف والدو إيمرسون يقومان بجولة في الشرق الأوسط.

١٨٧٨: الرئيس السابق يوليسيس إس جرانت يقوم بجولة في الشرق الأوسط.

١٨٨٠: وضعُ المسلَّة المصرية القديمة المعروفة باسم «إبرة كليوباترا» في متنزَّه «سنترال بارك» بنيويورك.

١٨٨١: أتباع عائلة سبافورد يؤسِّسون المستعمَرة الأمريكية في القدس.

١٨٨٢: جنود البحرية الأمريكية يرسُون في مدينة الإسكندرية بمصر بعد أن قصف البريطانيون المدينة. والشاعرة إيما لازاروس تصبح رائدةَ الصهيونية الأمريكية.

١٨٨٣: صامويل بينجامين يرأس أولَ بعثة رسمية أمريكية إلى بلاد فارس.

١٨٨٨: الشاعر اللبناني والناشط السياسي أمين ريحاني يصل إلى الولايات المتحدة.

١٨٩٠: صامويل زويمر — أول مبشِّر غربي يخترق الجزيرة العربية — يبدأ رحلته إلى الشرق الأوسط.

١٨٩١: ويليام بلاكستون يقدِّم دعوته التاريخية للمساندة الأمريكية لإقامة دولة يهودية في فلسطين إلى الرئيس بينجامين هاريسون.

١٨٩٣: ملايين الأمريكيِّين يشاركون في خيالات الشرق الأوسط بالمعرض العالمي الكولومبي بشيكاجو.

١٨٩٦: كلارا بارتون تسافر إلى تركيا لمساعدة ضحايا الأعمال الوحشية التركية من الأرمن.

١٨٩٧: انعقاد أول مؤتمر صهيوني في بازل بسويسرا بمشاركة أربعة أمريكيِّين.

١٩٠٠–١٩٤٥

١٩٠١: المسيحيون المحليون يختطفون إيلين ستون — المبشِّرة الأمريكية في بلغاريا — في محاولةٍ لتمويل ثورتهم ضد تركيا.

١٩٠٢: واضع النظريات الأمريكي ألفريد ماهان يصطك مصطلح «الشرق الأوسط».

١٩٠٤: رئيس العصابة المغربي ريسولي يختطِف رجلَ الأعمال الأجنبي أيون بيرديكاريس الذي يعمل في المغرب.

١٩٠٦: تيودور روزفلت يساعد في حل خلاف فرنسي ألماني حول الحقوق الإمبراطورية في شمال أفريقيا خلال مؤتمر «ألجيريكاس».

١٩٠٩: إنشاء إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية.

١٩٠٩: مقتل المبشِّر الأمريكي هوارد باسكرفيل خلال قيادته ثورةَ مزارعين إيرانيِّين.

١٩١٠: تيودور روزفلت يقوم بجولة في الشرق الأوسط.

١٩١٢: هنرييتا زولد تؤسِّس منظمة المرأة الصهيونية «هاداسا».

١٩١٥: السفير الأمريكي في تركيا هنري مورجنثاو يحاول مساعدةَ ضحايا الإبادة الجماعية من الأرمن. والسفن الأمريكية تجلي اليهود من فلسطين والمبشِّرين من بيروت.

١٩١٧: لويس برانديس يساعد في إقناع وودرو ويلسون بدعم إعلان بلفور، الذي يطالب الحكومة البريطانية بإقامة وطن لليهود في فلسطين. وأمين الريحاني يدعو العرب الأمريكيِّين إلى التطوع في الخدمة العسكرية.

١٩١٨: الرئيس وودرو ويلسون يَعِد دول الشرق الأوسط بمنحها حقَّ تقرير المصير.

١٩١٩: مؤتمر باريس للسلام، والرئيس وودرو ويلسون يحاول بلا جدوى أن يؤمِّن استقلال الشرق الأوسط.

١٩٢١: رودلف فالنتينو يقوم ببطولة فيلم «شيخ الجزيرة العربية»، أول فيلم خيالي عن الشرق الأوسط تنتجه هوليوود. وجولدا مائير تغادر ويسكنسن متجهةً إلى فلسطين.

١٩٢٣: نشرُ كتاب «النبي» لخليل جبران.

١٩٢٤: شركات البترول الأمريكية والأوروبية تكوِّن شركة بترول العراق. والصحفي لويل توماس يصدِر كتاب «مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب». والولايات المتحدة تعترف بالانتداب البريطاني على فلسطين.

١٩٢٨: إبرام اتفاقية الخط الأحمر المحدِّدة للمناطق التي يُسمح لشركة بترول العراق بالتنقيب فيها في الشرق الأوسط.

١٩٣١: تشارلز كرين يقابل ابنَ سعود، واضعًا أسسَ التعاون السعودي الأمريكي في المستقبل.

١٩٣٢: المهندس الأمريكي كارل تويتشيل يُجري مسحًا للجزيرة العربية بحثًا عن المياه والمعادن والبترول.

١٩٣٣: المملكة العربية السعودية تمنح شركات البترول الأمريكية حقَّ التنقيب عن البترول.

١٩٣٨: والتر لودرميلك — أحدُ المنادين بالحفاظ على الموارد الطبيعية — يبتكر نظامًا للري للمجتمع اليهودي في فلسطين.

١٩٣٨: المهندسون الأمريكيون يعثرون على البترول في الدمام بالمملكة العربية السعودية.

١٩٣٩: الصهاينة الأمريكيون يعترضون على إصدار بريطانيا للكتاب الأبيض الذي يحدُّ من هجرة اليهود إلى فلسطين.

١٩٤٢: بدءُ عملية الشعلة بقيادة القوات الأمريكية لغزو شمال أفريقيا. ممثِّلو الصهيونية يجتمعون في فندق بالتيمور بنيويورك ويعلنون هدفَهم، وهو تأسيس دولة يهودية مستقلة في فلسطين.

١٩٤٣: الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تضغطان على فرنسا لاحترام استقلال لبنان. وجيمس ماكولي لانديس يصبح مديرَ مركز إمداد الشرق الأوسط. باتريك هيرلي — المبعوث الشخصي للرئيس روزفلت إلى الشرق الأوسط — يوصي بتقديم دعم أمريكي للحركة الوطنية.

١٩٤٥: فرانكلين روزفلت يقابل ابنَ سعود على شاطئ لبة المرة الكبرى، موطِّدًا دعائمَ الشراكة السعودية الأمريكية. وإدارة ترومان الجديدة تُجبر فرنسا على سحبِ قوَّاتها من سوريا، وتُوقِف المحاولات السوفييتية للهيمنة على ليبيا.

١٩٤٦– الحاضر

١٩٤٦: الولايات المتحدة تنجح — من خلال الأمم المتحدة — في الضغط على الاتحاد السوفييتي من أجل الانسحاب من إيران.

١٩٤٧: الرئيس ترومان يعلن مبدأه في الدفاع عن اليونان وتركيا ضد هجمات الاتحاد السوفييتي. والولايات المتحدة — بالإضافة إلى ٣٢ دولة أخرى — تصوِّت لمصلحة قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ القاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين، عربية ويهودية.

١٩٤٨: الولايات المتحدة تعترف بدولة إسرائيل بعد تأسيسها بإحدى عشرة دقيقة.

١٩٥٢: وكالة الاستخبارات الأمريكية تساعد مجموعةَ الضباط الأحرار — ومن بينهم البكباشي جمال عبد الناصر — في الاستيلاء على السلطة في مصر.

١٩٥٣: انقلاب بمساعدة وكالة الاستخبارات الأمريكية ينحِّي القائدَ الإيراني الوطني «مصدَّق» من السلطة.

١٩٥٥: إنشاء حلف بغداد، وهو تحالفٌ ضد الشيوعية تدعمه الولايات المتحدة.

١٩٥٦: أزمة السويس. الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي يجبران بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على سحبِ قواتهم من الأراضي المصرية ويؤيدان تأميمَ الرئيس عبد الناصر قناةَ السويس.

١٩٥٧: الرئيس أيزنهاور يقرُّ مبدأ الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية.

١٩٥٨: القوات الأمريكية تصل إلى لبنان لدعم الحكومة الموالية للغرب برئاسة كميل شمعون.

١٩٦١: الرئيس كينيدي يبادر بمراسلة الرئيس المصري عبد الناصر.

١٩٦٢: إدارة الرئيس كينيدي توافق على بيع صواريخ هوك المضادة للطائرات لإسرائيل. وفيلم «لورنس العرب» يُطرَح في دُور السينما ويلقى نجاحًا واستحسانًا من الجمهور.

١٩٦٧: الولايات المتحدة تساند إسرائيل في حرب الأيام الستة وانتصارها على الجيوش العربية واحتلالها للضفة الغربية وغزة والقدس ومرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء. وإدارة الرئيس جونسون تقدِّم مبادرة لعملية سلام بين العرب وإسرائيل على أساس صيغة الأرض مقابل السلام المتضمَّنة في قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢.

١٩٦٩: وزير الخارجية الأمريكية ويليام روجرز يعلن خطتَه لسلام بين العرب وإسرائيل بناءً على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢.

١٩٧٠: منظَّمة التحرير الفلسطينية تحاول الاستيلاء على السلطة في الأردن، عن طريق صراعٍ دموي عُرف باسم «أيلول الأسود».

١٩٧٣: الولايات المتحدة تفتح جسرًا جويًّا مع إسرائيل بعد أن شنَّت مصر وسوريا هجومًا مفاجئًا عليها. والمملكة السعودية تتزعَّم عمليةَ قطعِ البترول عن الولايات المتحدة بسبب مساندتها لإسرائيل.

١٩٧٤: تنجح دبلوماسية هنري كيسينجر المكُّوكية في فكِّ اشتباك القوات المصرية والإسرائيلية في شبه جزيرة سيناء.

١٩٧٩: الرئيس جيمي كارتر يتوسَّط للتوصُّل إلى اتفاق سلام بين مصر وإسرائيل. واحتجاز اثنين وخمسين أمريكيًّا — معظمهم من موظفي السفارة الأمريكية في طهران — من قِبل مؤيدي الثورة الإسلامية في إيران.

١٩٨٠: فشلُ محاولة لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيِّين في إيران. والرئيس كارتر يعلن للكونجرس التزامَه بالدفاع عن المصالح الأمريكية في الخليج العربي.

١٩٨١: الطائرات الأمريكية تقصف طائرتين حربيتين ليبيتين في خليج سدرة. وإدارة الرئيس ريجان تَدين هجومَ إسرائيل على المفاعل النووي العراقي بأوسيراك.

١٩٨٣: عملية تفجير انتحارية بتنظيم من حزب الله تقتل ٢٤١ من مشاة البحرية الأمريكية الذين أُرسِلوا لحفظ السلام في لبنان خلال الحرب الأهلية.

١٩٨٤: الولايات المتحدة تسحب قواتها من لبنان. واختطاف ويليام باكلي، رئيس مكتب وكالة الاستخبارات الأمريكية ببيروت، وتعذيبه حتى الموت.

١٩٨٦: ردًّا على هجومٍ إرهابي على الجنود الأمريكيِّين في ملهًى ليلي ببرلين يأمرُ الرئيس ريجان بقصف ليبيا.

١٩٨٦: تفجُّر فضيحة إيران–كونترا، كاشفة الستار عن صفقات أسلحة غير قانونية بين البيت الأبيض في عهد ريجان وحكومة إيران الثورية.

١٩٨٧: انطلاق الانتفاضة الفلسطينية في غزة والضفة الغربية.

١٩٨٧: البحرية الأمريكية ترافق ناقلات البترول الكويتية لردعِ أي هجوم إيراني محتَمل.

١٩٩٠: العراق يغزو الكويت.

١٩٩١: تحالف بقيادة الولايات المتحدة ينجح في طرد القوات العراقية من الكويت، لكنه يُبقي على الرئيس صدَّام حسين في السلطة. وبعد الحرب تدعو الولايات المتحدة إلى مؤتمر مدريد للسلام، في محاولةٍ للتوصل إلى اتفاق سلام عربي إسرائيلي عام.

١٩٩٣: توقيع اتفاقية أوسلو في حديقة البيت الأبيض، وهي نتاجُ مفاوضات سرية بين إسرائيل والفلسطينيِّين في النرويج.

١٩٩٦: مقتل تسعة عشر من القوات الأمريكية في هجومٍ إرهابي على مجمَّع أبراج الخُبَر السكني في المملكة العربية السعودية.

١٩٩٨: الرئيس كلينتون يتوسَّط في عقدِ اتفاق مرحلي انتقالي فلسطيني إسرائيلي في مزرعة واي ريفر. وفي ردِّ فعلٍ لهجمات القاعدة في أفريقيا، ضربت الولايات المتحدة أهدافًا يُفترض أنها إرهابية في السودان.

٢٠٠٠: مفجِّر انتحاري يقتل ١٧ بحَّارًا على متن المدمِّرة الأمريكية «يو إس إس كول» بالقرب من سواحل اليمن.

٢٠٠١: هجماتٌ للقاعدة على نيويورك وفرجينيا وبنسلفانيا تؤدي إلى مقتل ما يقرُب من ثلاثة آلاف مدني.

٢٠٠٢: الولايات المتحدة تعلن الحربَ على حكومة طالبان في أفغانستان وتنجح في إسقاطها.

٢٠٠٣: الولايات المتحدة تغزو العراق.

تمهيد جديد

دخلت الطابق السابع من وزارة الخارجية الأمريكية، ذلك المبنى القائم منذ أوائل ستينيات القرن العشرين، وقد أُعيدت زخرفته على الطراز المعماري الشائع في أواخر القرن الثامن عشر. فبالإضافة إلى تزويد المبنى بأثاث ينتمي إلى تلك الفترة، عُلقت على جدرانه صور لوزراء خارجية الولايات المتحدة. سرتُ في هذا الرواق الشهير كي أتسلم موافقة التعيين، وهي وثيقة تشهد بصلاحيتي لأداء دور السفير فوق العادة والمفوض في الولايات المتحدة الأمريكية.

الدولة التي كنت سأمثلها هي إسرائيل. وهي تقع في قلب منطقة الشرق الأوسط، وتعترف باللغة العربية واللغة العبرية بوصفهما لغتيها الرسميتين، وبرغم أن جذور أغلب مواطنيها متأصلة منذ زمن طويل في المنطقة، لم تكن إسرائيل قَط دولةً يهودية بين الدول الإسلامية، وهو ما يُعَد مثار جدل واندهاش. فلا يمر فصل من فصول السنة دون أزمة، وتُشَن باستمرارٍ معارضة لإسرائيل؛ حقها في الدفاع عن نفسها أو حتى في الوجود. حذَّرني رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو مثلما حذَّرني وزيرا الدفاع والخارجية؛ إذ قال: «سوف تكون مهمتك صعبة.» لكنني لم أتردد. فهذا المنصب كان حلم حياتي.

تربيت في الولايات المتحدة وأنا فخور بهُويَّتي الأمريكية؛ فقد نشأت في ظل المحرقة وصعود نجم أول دولة يهودية في ألفَي سنة. وبعلمي بالالتزامات والفرص التي تفرضها تلك المرحلة التاريخية، صممت يومًا ما أن أعيش في إسرائيل. وفي فترة المراهقة، كنت أقطع العشب وأزيل الجليد كي أكسب مالًا كافيًا للسفر إلى إسرائيل والعمل في مزرعة جماعية مجانًا، أو كما يُطلَق عليها «كيبوتس». ثم، بينما كنت أحضر مؤتمرًا شبابيًّا يهوديًّا في واشنطن، رأيت السفير الإسرائيلي بالولايات المتحدة. دخل إلى القاعة بمظهر خجول وفي

الوقت نفسه فخم، في حين وقف الطلاب على كراسيهم وصفَّقوا تحيةً له. كان اسمه إسحاق رابين، وهناك قلت لنفسي: «هذا ما أطمح إليه.»

كان الطريق إلى تحقيق حلمي طويلًا وشاقًّا. فسعيًا مني للدمج بين الدراسة العملية والخدمة العامة، درست تاريخ الشرق الأوسط مع التركيز على البعد الدبلوماسي. وكانت نشأة الروابط بين إسرائيل والولايات المتحدة أيضًا مثار اهتمام خاص لديَّ، وبشكلٍ أوسع نطاقًا، تطور العلاقات مع الغرب. وهذه الدراسة أمدَّتني بالعمق والسياق اللازمَين لتصوري للقضايا المعاصرة، لا سيما في الفترة الأخيرة، في الوقت نفسه الذي خدمتُ فيه بصفة حكومية وعسكرية في مناصب مختلفة في إسرائيل. وعلى النقيض، عند العودة إلى الحياة الأكاديمية، جعلتني الخبرة المهنية منفتحًا على ثقل عملية صنع القرار وتعقيداتها، وألهمتني الحذر من استخلاص استنتاجات سهلة.

وبعد أن كتبت عن السنوات الأولى من الصراع العربي الإسرائيلي، شرعت في مشروعي الأكثر طموحًا: أول تاريخ شامل للانخراط الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط. فلطالما أدركت الحاجة إلى مثل هذا الكتاب، منذ أن كنت طالب دراسات عليا عندما علمت أن الأمريكان ظلوا منخرطين في منطقة الشرق الأوسط على مدار قرنين من الزمان وليس فقط في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ثم حلَّت فظائع الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وفجأة، تعيَّن على الأمريكان اتخاذ قرارات مصيرية في منطقة الشرق الأوسط، لكن كانت تنقصهم الخلفية التاريخية لتأطير تلك القرارات. سعيت لتقديم السياق الضروري عبر هذا الكتاب.

أعمق إنجاز للمؤرخين هو رؤية أعمالهم وقد أصبحت جزءًا من الجدل الوطني الذي يقرأ عنه الطلاب والصحفيون وصانعو السياسات ويستوعبونه. وقد وجدت نفسي أنا كذلك أعتمد على الأشياء التي يكشف عنها الكتاب في محادثاتي مع الزعماء الأمريكيين والإسرائيليين. ثم، في ربيع ٢٠٠٩، استدعتني الحكومة الإسرائيلية إلى الخدمة بصفة سفير إسرائيل في الولايات المتحدة، وحققت حلم حياتي.

ورغم أن الكتاب لم يكن معي وأنا أدلف إلى رواق وزارة الخارجية، كانت دروسه حاضرة بقوة. فقد كانت صورة إليهو روت معلَّقة على الحائط، وهو، حسبما تذكرت، كوزير للحرب في عام ١٩٠٤، ساعد في تحرير الرهائن الأمريكيين في منطقة الشرق الأوسط، وساعد، بعد عامين لاحقًا، في منع نشوب حرب أوروبية ضد المغرب. وعلى مقربة من روت، كانت صورة ويليام ماكسويل إيفرتس، راعي الإرساليات التبشيرية الأمريكية العاملة في منطقة الشرق الأوسط ووزير الخارجية الذي أزاح الستار في عام ١٨٨٠ عن

مسلة مصرية في سنترال بارك في نيويورك. كما كانت صورة ويليام هنري سيوارد، وزير خارجية الرئيس لينكولن، معلقة، وكان سيوارد المروج للجامعات الأمريكية في الشرق الأوسط، كما أنه افتتح أول ملعب للبيسبول في المنطقة. وكان هناك أيضًا روبرت لانسينج، الذي انضم إلى الرئيس وودرو ويلسون في إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، وجورج مارشال، الذي حذَّر هاري ترومان من أنه لن يصوت له في انتخابات عام ١٩٤٨ إذا اعترف الرئيس بإسرائيل. وعلى مسافة غير بعيدة من جون فوستر دالاس، وزير الخارجية الذي أنقذ الزعيم المصري الشاب جمال عبد الناصر من الهزيمة في أزمة السويس عام ١٩٥٦، عُلقت صورة دين راسك، الذي أشرف على كارثة الزعيم نفسه في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. هنري كيسنجر، مؤسس الدبلوماسية المكوكية في البحث عن السلام العربي الإسرائيلي، وكوندوليزا رايس، التي تولت هذا المسعى مرة أخرى حتى عندما كانت أمريكا تحارب في العراق؛ مررت بهم جميعًا في طريقي للحصول على الموافقة بتنصيبي سفيرًا. ومن المفارقة أن الصورة الأخيرة كانت لوزير الخارجية الأول، جون جاي، الذي أشرف على بداية أطول صراع أمريكي في الخارج، وتحديدًا في الشرق الأوسط.

واصطفَّ على طول الجدران شهود على أكثر من ٢٠٠ عام من التطلعات الأمريكية في الشرق الأوسط، من مبادرات ومواجهات ومشاورات وأخطاء واختراقات لا حصر لها؛ بعضها مشبع بالمثالية، وبعضها الآخر مدفوع بالمصلحة الذاتية. ولكن معظمها مليئة بالأمل. هنا، باختصار بصري، كانت قصة العلاقة التي لا تزال حيوية بالنسبة للولايات المتحدة وحلفائها. وإدراكًا للمسئوليات الهائلة التي تحملها كل فرد من هؤلاء الأفراد في التعامل مع المنطقة، شعرت على الفور بالفخر والتواضع عند تولي مهامَّ شاقَّة مماثلة. ومع ذلك، شعرت بالارتياح أيضًا عندما علمت أن أجيالًا من الأمريكيين في الشرق الأوسط شنوا الحرب وسعوا إلى السلام، وانخرطوا وانسحبوا، وأظهروا درجات متأرجحة من التسامح، وبطاقةٍ نادرًا ما تضعف، سعوا إلى عرض مبادئهم في المنطقة. إن معرفة مسار ذلك الماضي من شأنه أن يساعدني في استكشاف المستقبل.

بعد عدة أسابيع من حصولي على موافقة وزارة الخارجية، شرعت في الخطوة الأخيرة لأصبح سفيرًا. نقلتني سيارة رسمية، تُرفرف فيها الأعلام الأمريكية والإسرائيلية، إلى البيت الأبيض. لقد جئت لتقديم أوراق اعتمادي للرئيس، في حفل تكريمي. عندما دُعيت إلى غرفة مجلس الوزراء — نفس الغرفة التي كشف فيها الرؤساء أيزنهاور ونيكسون وكارتر عن مبادئهم للدفاع عن الشرق الأوسط — كتبت في سجل الزوار عن إرث أمريكا الذي يمتد

لمائتَي عام في المنطقة. تذكرت قبل أن يتم اصطحابي إلى غرفة روزفلت: «لقد فكر الآباء المؤسسون في جعل موسى والخروج الختم الأعظم للجمهورية.». وكانت على رأس رف الموقد صورة لثيودور روزفلت، الذي أبحر عبر نهر النيل عندما كان طفلًا مهووسًا بالعجائب، وأثار بعد ذلك بكثيرٍ أول احتجاج مناهض لأمريكا في الشرق الأوسط. وبعد ذلك، دخلتُ المكتب البيضاوي، حاملًا أوراق اعتمادي.

جئت إلى هذا المنصب في منعطف حاسم في تدخل أمريكا في منطقة الشرق الأوسط. فقد انخرطت البلاد في حربين معقدتين في المنطقة، ولا تزال تكافح ضد التهديدات الإرهابية وتسعى جاهدة لتحقيق السلام العربي الإسرائيلي، في حين يطاردها كابوس إيران المسلحة نوويًّا. وكان نفط الشرق الأوسط قضيةً واسعة الانتشار، وكذلك علاقات أمريكا مع العالم الإسلامي الأوسع. أثار الانكماش الاقتصادي المستمر تساؤلات حول تكاليف ومزايا إبراز القوة الأمريكية في جميع أنحاء العالم، وخاصةً في منطقة الشرق الأوسط. وكانت علاقات إسرائيل الطويلة الأمد مع الولايات المتحدة أيضًا في حالة ديناميكية؛ إذ تعمقت في بعض النواحي وتكثفت في جوانب أخرى. وكانت التحديات كثيرة.

إن تقدير هذه التحديات، وتحليل تداعياتها على كلٍّ من إسرائيل والولايات المتحدة، كان يمثل جزءًا رئيسيًّا من وظيفتي بصفتي سفيرًا؛ لأن كل ما تفعله أمريكا في منطقة الشرق الأوسط يؤثر على إسرائيل. وفي تقييمي لتداعيات تواصل الرئيس باراك أوباما مع المسلمين، على سبيل المثال، وزياراته المبكرة لمصر وتركيا، تذكرت الجهود المماثلة التي بذلها فرانكلين ديلانو روزفلت وجون فيتزجيرالد كينيدي وردود الفعل التي أثاراها. وعلى العكس من ذلك، عند دراسة قرار الرئيس بتصعيد العمليات العسكرية ضد تنظيم القاعدة في مختلف أنحاء الشرق الأوسط، أشرت مرةً أخرى إلى قرارات توماس جيفرسون وجيمس ماديسون، اللذين تصدَّيا أيضًا لهجمات ضد الأمريكيين من قِبل لصوص من منطقة الشرق الأوسط. وأثار توريد الأسلحة الأمريكية إلى العديد من دول الشرق الأوسط سابقة المبيعات التي وضعها أندرو جاكسون والمخاطر التي تكبَّدتها تلك المعاملات. وفي مخاطبتي الجماعات المسيحية المؤيدة لإسرائيل، سمعت أصداء جون آدامز، ولينكولن، وويلسون، الذين ألهمتهم عقيدتهم بدعم فكرة الدولة اليهودية في الأرض المقدسة. إن افتتاح فروع للجامعات الأمريكية في الشرق الأوسط أعاد إلى الأذهان افتتاح الجامعة الأمريكية في بيروت وكلية روبرت بالقرب من إسطنبول، قبل أكثر من ١٥٠ عامًا. وبينما أعلن الرئيس أوباما التزامه بتحقيق السلام العربي الإسرائيلي الشامل، وتعيين مبعوث خاص لهذا الغرض، كان بوسعي أن أنظر إلى

الوراء إلى الرؤساء والمبعوثين السابقين الذين سعوا إلى تحقيق الهدف الرفيع نفسه، وكان بوسعي أن أقيِّم أيٌّ منهم حقق تقدمًا ولماذا.

سوف تنخرط أمريكا في الشرق الأوسط لسنوات عديدة قادمة، وسواء كانت تحاول فهم الحاضر أو التنبؤ بالمستقبل، فإن الإحساس بالماضي سيكون ضروريًّا. لقد كتبت هذا الكتاب في الأصل لمساعدة الأمريكيين على فهم علاقاتهم بمنطقة ذات أهمية بالغة لرفاهيتهم وأمنهم؛ واليوم، كسفير، أقدِّر فائدته للإسرائيليين وغيرهم من شعوب منطقة الشرق الأوسط أيضًا. إن الأمريكيين، المتسلحين بقوتهم، والمحفزين بإيمانهم، والمدفوعين بخيالاتهم، سوف يظلون بارزين في الشرق الأوسط، كمتعهدين للتغيير والرؤى.

واشنطن العاصمة

ديسمبر ٢٠١٠

القوة والإيمان والخيال



جون ليديارد

مقدمة

الطريق إلى المجد

من شجرة صَنَوبر بيضاءَ كبيرةٍ نحتَ جون ليديارد قارِبًا بيديه وأبحر به في نهر كونيتيكت. كان شابًّا قويًّا يجدِّف وشعره البني ينسدل على ظهره، وأنفه الأقنى يتجه نحو مقدمة القارب. ووسط المياه التي ارتفع منسوبُها نتيجةً لذوبان الثلوج في الربيع أبحر ليديارد مئات الأميال نحو مصبِّ نهر كونيتيكت على المحيط الأطلنطي، وكان عليه اجتياز مسافات شاسعة قبل أن يبلغ غايته، وهي بلادٌ تعجُّ بأطلالٍ كالمتاهات وصحارٍ تلفحها الشمس الحارقة. ولم يكن جون ليديارد يعلم في ذلك الوقت من عام ١٧٧٣ بأنه سيصبح أولَ مواطن في الولايات المتحدة المستقلة يستكشف منطقةَ الشرق الأوسط، ويسجِّل انطباعاته عنها، ويقرِّبها إلى أذهان الأمريكيِّين.

لم يكن اهتمام ليديارد في ذاك الربيع منصبًّا على الوصول إلى الشرق الأوسط، بل كان يرغب في الهروب من رقابة القسِّ إليعازر ويلوك رئيس جامعة دارتموث المستبد. وكان ويلوك قد اقتنع بأن ليديارد — الذي يعيش على الحدود في نيو هامبشير، والذي عاش ذات مرة بين قبائل الإيروكوي — يمكن أن يصبح قسًّا ومبشِّرًا عظيمًا؛ لذا ضغط عليه للالتحاق بالجامعة. أما ليديارد ابنُ الثالثة والعشرين فكان ولعُه بالاستكشاف يفوق كثيرًا ولعَه بدراسة اللاهوت. وكان يتوق إلى المغامرة، ليصبح — كما كتبَ ذات مرة إلى والدته الأرملة — «أكبر رحالة في التاريخ ... غريب الأطوار، نسيج وحدِه، سريع الحركة، غامض، محب للاستطلاع ... شامخ كالشهاب.» استمرَّ ليديارد في الدراسة فصلًا دراسيًّا واحدًا في دارتموث قبل أن يبحر بقاربه على نهر كونيتيكت، متجهًا نحو المحيط والعالم.[1]

لم تكن بداية رحلة ليديارد واعدةً؛ فقد كان بحَّارًا عاديًّا على متن سفينة تجارية متجهة إلى جزر الهند الغربية. ولم تكن الحياة على ظهر السفن المملوءة بالفئران في أواخر القرن الثامن عشر ممتعةً بأي صورة من الصور، وعندما استدارت السفينة شرقًا تجاه البحر الأبيض، قرَّر ليديارد أن يهرُب من جديد. فغادر السفينةَ عند جبل طارق في يوليو ١٧٧٦، وانضم إلى جنود البحرية البريطانية. وفي الشهر نفسِه دخلت بريطانيا الحرب ضد مستعمراتها الأمريكية المتمرِّدة التي كانت عندئذٍ قد اتَّحدت تحت اسم الولايات المتحدة، وكان من الممكن أن يجد ليديارد نفسَه في مواجهة أبناء بلده. ولكن شاء القدَر ألا يخدمَ على بارجة حربية، بل على السفينة «ريزولوشن» التي كان قائدها جيمس كوك أشهر قبطان إنجليزي.

كان كوك — مكتشف تاهيتي وجزر هاواي — يستعد في ذلك الوقت لرحلته الثالثة حول العالم، عابرًا المحيطَ الهادئ ومتجهًا نحو سواحل أوريجون وألاسكا بحثًا عن ممرٍّ بحري عبْر القارة، هو الممر الشمالي الغربي الأسطوري. كان ليديارد يدوِّن مذكِّراته خلال الرحلة، واصفًا بكل حيوية سكانَ بحر الجنوب الذين قابلهم والوشم يغطي أجسادهم، وكذلك محاربي هاواي الذين هاجموا وقتلوا كابتن كوك في ١٤ فبراير ١٧٧٩. ولكن لم تستطِع بشاعةُ هذا الحادث أن تقلِّل من جمال منطقة أوريجون المملوءة بالغابات والواقعة على الساحل الشمالي الأمريكي. كان ليديارد تواقًا إلى العودة إلى تلك المنطقة، وتحقيق ثروة من خلال بيع الفِراء. لذا اتَّخذ أولَ خطوة في طريق تحقيق حُلمه بأن غادر السفينة عند شواطئ لونج أيلاند في ١٧٨٢، ورجع إلى موطنه الأصلي.

ومع أن الولايات المتحدة كانت قد أوشكت في ذلك الوقت على أن تحصُل على استقلالها، فإن جيشها ظلَّ في حالة تأهُّب للحرب، وكان يمكن أن يخدم ليديارد بين صفوفه، ولكنه كان قد ركن إلى الدَّعة ولم يرغب في التطوع. فقد رأى نفسه «يتنقل في الحياة … بين طرفَي نقيض» هما السعادة والتعاسة، «وأنه كائن لا ينتمي إلى أي ميدان ولا يصلح لأي مجال». نشر ليديارد مذكِّراته عن رحلة الكابتن كوك، وأصبحت أولَ كتاب في أدب الرحلات يُطبع في الولايات المتحدة، ويُعَد ذلك الكتاب — بمعاييرِ القرن الثامن عشر — من الكتبِ الأكثر مبيعًا. وفي سنِّ الثالثة والثلاثين كان ليديارد قد رأى من العالَم ومن القارة الأمريكية أكثرَ من أي شخص آخر عاش في تلك الفترة. ومع ذلك ظلَّ عقله معلَّقًا بأوريجون، وبحُلمه في إقامة مركز لتجارة الفِراء. وعندما فشل في إيجاد مؤيدين لمشروعه في الولايات المتحدة، ترك ليديارد بلاده مرةً أخرى ليبحر عام ١٧٨٥ إلى فرنسا.

كان ليديارد يجسِّد روح الرُّواد الأوائل التي كان يقدِّرها الفرنسيون في ذلك الوقت، مما مكَّنه من التعرُّف بعدد من كبار الشخصيات في باريس. وصادق ليديارد أيضًا بينجامين فرانكلين، أولَ سفير أمريكي في فرنسا، بالإضافة إلى الثوري المتَّقد حماسةً توم بين، وبطل البحرية جون بول جونز. أما أعمقُ علاقاته وأكثرها تأثيرًا فكانت مع رجل أرستقراطي لم يكن يشترك — فيما يبدو — إلا في صفاتٍ قليلة مع هذا البحَّار البسيط الذي كان يعيش في الغابات.

«حين كنت في باريس تعرَّفت بجون ليديارد ... رجل عبقري غزير العلم يتحلَّى بالجرأة والشجاعة الفائقة.» هذا ما كتبه توماس جيفرسون، الذي كان قد خلف فرانكلين سفيرًا للولايات المتحدة بفرنسا. وكان جيفرسون طويلَ القامة نحيفًا فاتح البشرة، وهذه الصفات تمثِّل تناقضًا تامًّا مع صفات هذا الرحَّالة المفتول العضلات الذي عركته الظروف والمغامرات. ومع ذلك توثَّقت علاقتهما سريعًا. كان جيفرسون يرى في ليديارد «رجل الحقيقة، صاحب الشجاعة الفائقة والشخصية المغامِرة الجوالة». وفي ردِّه على هذا الثناء والمديح، أطلق ليديارد على جيفرسون «أخي وأبي وصديقي».[2]

كان جيفرسون مفتونًا بوصف ليديارد لأوريجون وسال لُعابه لفكرة أنه قد يعثر على مجرًى مائي بين هذه المنطقة والساحل الشرقي للولايات المتحدة. وقد أقنع ليديارد بالعودة إلى أوريجون عن طريق روسيا ومضيق بيرنج، ثم البحث عن هذا الممر الشمالي الغربي الأسطوري. وطلبَ جيفرسون من الإمبراطورة الروسية كاثرين العظيمة أن تسمح لليديارد بالعبور سالمًا عبْر بلادها. ولم توافق كاثرين على هذا المشروع، معتبرةً إياه «خيالًا»، ولكن هذا التشكك من جانبها لم يثنِ ليديارد. وفي شتاء ١٧٨٧ انطلق ليديارد في رحلته من ستوكهولم إلى سانت بطرسبرج، ثم أكمل رحلته بالقارب والزلاجة الثلجية مسافة ثلاثة آلاف ميل من الجليد نحو شرق سيبيريا. وهناك ألقى عملاء كاثرين القبضَ عليه، وجرى ترحيله من روسيا.

أثَّرت هذه المحنة في ليديارد كثيرًا فبدا عجوزًا، لكنها لم تثنِ من عزمه ولا إصراره. وأعلن أن «الوجه الأمريكي لا يتحمَّل كما يتحمَّل القلب الأمريكي». واستمرَّ ليديارد يراسل جيفرسون، واضعًا نظرياتٍ كانت آنذاك ثورية بأن الأمريكيِّين الأصليِّين كانوا أحفادَ مهاجرين من آسيا فيما قبل التاريخ، وأن كل البشر — بصرفِ النظر عن جنسهم — ينحدرون من سلفٍ واحد. لكنه لم يتخلَّ قطُّ عن طموحه في استكشاف مناطق خارج الخريطة، وانتقل ليديارد إلى لندن بحثًا عن راعٍ جديد. وهناك لفَت انتباه الجمعية الأفريقية

وسكرتيرها هنري بوفوي. وانبهر بوفوي «برجولة ليديارد، وانفتاح أساريره، وحيوية نظرات عينيه»، فاقترح على ليديارد أن يستكشفَ ضفاف النيل، من القاهرة وحتى سِنَّار في شرق السودان، وهي رحلةٌ لم يقُم بها أي غربي من قبل. وأبدى ليديارد رغبته في التحرك فورًا، ولكن بوفوي شرح له أن الجمعية قد خطَّطت رحلاتها بدقة، وأنه لن يتمكَّن من التوجه إلى مصر قبل عدة أشهر على الأقل.

استعدَّ ليديارد جسمانيًّا بالركض مسافة عشرين ميلًا، وذهنيًّا بالانكباب على خرائط الشرق الأوسط، التي كان معظمها غيرَ مستقًى من الواقع. فاتصل بالسفير الأمريكي في بريطانيا، ويليام ستيفنس سميث، واتفقا — عن طريقه — على «توظيف مواهبه وبذل جهده في سبيل خدمة وطنه»، وأن تكون استكشافاته باسم الولايات المتحدة. وأخيرًا، في ٣٠ يونيو ١٧٨٨ غادر ليديارد لندن متجهًا إلى مارسيليا بعد أن استكمل جميعَ استعدادات السفر. وقد كتب في رسالةٍ أخيرة لوالدته: «من هنا سيبدأ طريقي … عبْر البحر المتوسط … إلى القاهرة العظيمة. أما ما وراء ذلك فمجهول، وستبدأ منه اكتشافاتي. أما أين سينتهي بي المطاف وكيف، فستعلمينه إذا بقيتُ على قيد الحياة.» وكتبَ رسالة لجيفرسون يشكره فيها على صداقته وثقته، واعدًا إيَّاه بالحفاظ عليهما. تنبَّأ ليديارد قائلًا: «أنا لا أعتقد أن الجبال أو المحيطات ستقف عقبةً أمام وصولي إلى المجد. فقلبي مشتعلٌ حماسةً.»

كان جون ليديارد متجهًا إلى الشرق الأوسط، وهي منطقةٌ غارقة في الغموض. وندَر أن زارها غربيٌّ من قبل، فما بالكُ باختراق أعماقها؟ فما الذي كان يتوقَّع العثور عليه هناك، بجانب المشقة والعداوة؟ وما أوجه التشابه في التاريخ والعقيدة والثقافة التي كان يمكن أن تربط هذه البلاد البعيدة الغريبة بديمقراطية الولايات المتحدة الحديثة؟ وما المستقبل المشترك الذي قد ينتظر هذين الجزأين غير المتوافقين من العالم؛ الولايات المتحدة والشرق الأوسط؟

كانت مثل هذه الأسئلة مطروحة في ثمانينيات القرن الثامن عشر، ومع ذلك فقد استمر الأمريكيون في الإلحاح عليها منذ ذلك الحين. بينما كان ليديارد — الذي سوف نصف رحلته بالتفصيل في الفصل التالي — أولَ أمريكي يستكشف الشرق الأوسط، وواحدًا من ملايين من بني جلدته الذين سافروا عبر قرنين من الزمان إلى المنطقة ودرسوها وكتبوا عنها وحاربوها. هذا التفاعل كان لا بد أن يُحدِث تحولًا في الشرق الأوسط، لكنه أثَّر أيضًا على الولايات المتحدة، تارة بالضَّعف وتارة بالقوة وتارةً بالانقسام.

كانت رحلة ليديارد إلى الشرق الأوسط بالفعل «ممرًّا إلى المجد» له ولغيره من الأمريكيِّين، في الحاضر والماضي. وحينما رسَت سفينته في مصر، قال ليديارد: «انتبهوا،

إنني أتيت بشخصيةٍ جديدة إلى العالم، وموضوعٍ جديد للتراجم والسير.»[3] وكان بإمكانه أن يضيفَ «بداية لمشاركة الولايات المتحدة بصورة متميزة في الشرق الأوسط».

تمهيد

استحضار الماضي

قليلٌ من الأمريكيِّين يمكنهم اليوم معرفةُ مَن هو جون ليديارد، أما مَن يقدِّر مساهمته في علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط فعددُهم أقلُّ بكثير. غير أنه منذ حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وبالتأكيد منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر، زادت معرفةُ الأمريكيِّين بالشرق الأوسط إلى حدٍّ بعيد. ومنذ خمسة عشر عامًا، كم عددَ مَن كان يعرف منهم معنى كلمة «جهاد»، أو «القاعدة» أو «انتفاضة» أو «الوهابيين»؟ وكم عددَ مَن كان بإمكانه أن يفرِّق بين العرب والإيرانيين؟ والبعثيِّين والإسلاميين؟ والسنة والشيعة؟ يضاف إلى ذلك أن أسماء مدن الشرق الأوسط كالفالوجة وجنين أصبحت أقربَ إلى أذهان وأسماع الأمريكيِّين اليوم من مدن الوسط الأمريكي.

إن معرفة الأمريكيِّين المطَّردة بالشرق الأوسط تعكس الدورَ الرئيسي الذي تحتله المنطقة في حياتهم الآن. لقد أصبحت الولايات المتحدة متضامنةً ومشاركة في الشرق الأوسط بصورة كبيرة تمسُّ حتى وجودها وكيانها. فالصراعات الإثنية والدينية والتهديدات الإرهابية والبحث عن مواردَ للطاقة والوقود يمكن الاعتمادُ عليها أصبحت موضوعاتٍ تَفرض نفسها على وسائل الإعلام في الساحة الأمريكية بوجه عام، وعلى خطة العمل القومية بوجهٍ خاص. وأصبح الشرق الأوسط يمثِّل إلهامًا دينيًّا لملايين الأمريكيِّين أيضًا، كما أصبح مصدرَ تخوُّفِ كثير منَّا. وتحوَّلت العمليات التي تقوم بها الجيوش الأمريكية في منطقة آسيا إلى شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط، وحلَّ الاهتمام باللغة العربية محلَّ الاهتمام بالروسية، خاصةً لهيئات الاستخبارات الأمريكية. وأصبحت علاقات الولايات

المتحدة بالشرق الأوسط أكثرَ مادية من علاقاتها بأمريكا الجنوبية وأفريقيا وأوروبا، وأكثر إلحاحًا من علاقاتها بكوريا الجنوبية أو حتى بالصين، وبذلك أصبح الشرق الأوسط بوجه عام مؤثرًا على أمن الولايات المتحدة وسلامة كل مواطنيها.

وعلى الرغم من هذه الأهمية القصوى للشرق الأوسط، فلا يزال الأمريكيون — إلى حدٍّ بعيد — غيرَ واعين بتاريخ بلادهم الثري المتعدد الجوانب في هذه المنطقة. فيبدو أن معظمهم يعتقد أن الولايات المتحدة أصبحت نشطةً في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية، أو مع بدايات الصراع العربي الإسرائيلي، أو مع اكتشاف النفط السعودي. والدهشة هي ردُّ فعل الغالبية على أي ادعاء بأن العلاقات مع منطقةٍ تبعُد عنهم نحو خمسة وثلاثين ألف ميل (من نيويورك إلى أقربِ مدينة في الشرق الأوسط وهي سيدي إفني بالمغرب) ربما كان لها هذا التأثير على صياغة الدستور وتكوين البحرية الأمريكية. وسيندهش معظمهم إذا عرفوا أن الأمريكيِّين وشعوب الشرق الأوسط قد تقابلوا ليس فقط في حقول النفط والمعارك فحسب، ولكن في مجالات الفن والتعليم والأعمال الخيرية أيضًا. فالأمريكيون هم أولُ مَن بنى جامعة حديثة في الشرق الأوسط، وبدأ كلٌّ من العَلم الأمريكي وتمثال الحرية من تجربة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

يرجع نقصُ المعرفة بتاريخ الشرق الأوسط — ولو جزئيًّا — إلى عدم وجود كتاب شامل في هذا الموضوع. ففي حين يستطيع أيُّ بريطاني مهتم بقراءة تاريخ بلاده أن يراجع كتاب إليزابيث مونرو الكلاسيكي: «هيمنة بريطانيا بالشرق الأوسط» أو غيره من الأعمال المميزة الأخرى التي وضعها ويليام روجر لويس، فإن الأمريكيِّين عليهم الخوض في مجموعة كبيرة من المؤلفات ليتمكنوا من الحصول على الموضوعات التي يبغونها في هذا المجال. وقد وُضِعَت عشرات الكتب عن حروب البربر — وهو أولُ صراع أمريكي مع الشرق الأوسط — وعن سياسة الولايات المتحدة نحو تسوية الأوضاع في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن لا توجد دراسة واحدة عن التدخُّلات العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط أو عن الدَّور الذي لعبته الولايات المتحدة في عمليات التحرُّر من الاستعمار. كما تحتل قائمةُ المؤلفات التي تتناول السياسة الأمريكية نحو إسرائيل والصراع الفلسطيني عدةَ صفحات، ولكن لا يوجد عمل واحد عن التراث الأدبي الأمريكي في الشرق الأوسط أو عن اندماج اقتصاديات الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ عام ١٧٧٦.

لكنَّ عديدًا من الباحثين سعَوا إلى تحرِّي جوانبَ أكبرَ فيما يخص تاريخ الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. ففي كتاب «رواد الشرق» الذي نُشر عام ١٩٦٧، قدَّم ديفيد

فيني سردًا نابضًا بالحياة للأمريكيِّين العاملين والمسافرين والمبشِّرين في المنطقة في أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وبعد ذلك بعامين أضاف جيمس فيلد عمقًا أكاديميًّا إلى استقصاء فيني الشعبي، فألَّف كتاب «أمريكا وعالَم البحر المتوسط»، ١٧٧٦–١٨٨٢. وسار جون دي نوفو على نهج فيلد من خلال كتابه «المصالح والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسط»، ١٩٠٠–١٩٣٩ الذي يُعدُّ عملًا موسوعيًّا، وبعد دي نوفو وضع جوزيف جرابيل كتابَه الرائد «الدبلوماسية البروتستانتية والشرق الأدنى: التأثير التبشيري على السياسة الأمريكية»، ١٨١٠–١٩٢٧. أما آخر هذه الدراسات الموسَّعة فكانت دراسة بعنوان «العلاقات الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط»، ١٧٨٤–١٩٧٥ نُشرت منذ ثلاثين عامًا ووضعها توماس برايسون. ومنذ ذلك التاريخ ركَّز المؤرِّخون على فترةٍ ما بعد الحرب العالمية الثانية وعلى الأبعاد السياسية والاستراتيجية لعلاقة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وتُعدُّ كُتب «الرؤساء الأمريكيون والشرق الأوسط» لجورج لينشيفسكي، و«الوجه الآخر للصراع العربي الإسرائيلي» لستيفن سبيجل، و«عملية السلام» لويليام كوانت ثلاثةَ أمثلة من أفضل الكتابات في هذا المجال. ومن الكتب الرئيسية الأخرى كتاب «المستعربون» لروبرت كابلان، وهو كتابٌ يغطي فترة زمنية واسعة، لكنه يبحث بصورة أساسية تأثيرَ وزارة الخارجية الأمريكية على سياسة الشرق الأوسط.

وتلك القائمة ما زال ينقصها بحثُ النطاق الكامل للعلاقات الأمريكية الشرق الأوسطية التي دامت قرونًا في جميع الجوانب العسكرية والاقتصادية والثقافية. ولم تسعَ أيُّ دراسة إلى التعرُّف على الموضوعات المكرَّرة في هذا التاريخ، أو إلى تقديم إطارٍ منهجي لتحليله. وحتى يومنا هذا لم تقدِّم أيُّ دراسة عرضًا أكاديميًّا لدور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، أي عرض ميسَّر للعلماء وعامة القراء على السواء. ويسعى هذا الكتاب إلى ملء ذلك الفراغ.

إن كتابة مثل هذا العمل تثير العديد من التحديات، وعلى رأسها إجابةُ السؤال الآتي: «أين يقع الشرق الأوسط؟» ومع أن مصطلح الشرق الأوسط يكاد يكون اليوم مقبولًا ومعروفًا في العالم بأسرِه، فالواقع أنه لا يوجد إجماعٌ على حدوده. فكثير من الباحثين يصنِّفون المغرب وتونس والجزائر على أنها دول شرق أوسطية، في حين يَعُدُّ آخرون دول شمال أفريقيا كيانًا منفصلًا. وأقسام دراسات الشرق الأوسط ببعض الجامعات تستبعد أفغانستان وباكستان من نطاق دراساتها، ولكن برامج أخرى منها تغطي القوقاز وجنوب غرب آسيا. وكلما عُدنا تاريخيًّا إلى الوراء ازداد عُمق الخلافات حول معايير المنطقة.

فالمؤرخون يختلفون حول ما إذا كانت دراسة الشرق الأوسط في القرن الثامن عشر يجب أن تتضمَّن بلغاريا العثمانية واليونان، أو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتبع شرقًا أدنى منفصلًا وغامضَ المعالم. وينفي بعضهم أن يكون الشرق الأوسط قد ظهر للوجود قبل ١٩٠٢، عندما استُخدم هذا المصطلح لأول مرة.

يعمل هذا الكتاب على حلِّ تلك المشكلات عن طريق التعامل مع «الشرق الأوسط» بوصفه مرادفًا للمنطقة التي كان الأمريكيون — ومعظم الأوروبيِّين — فيما مضى يعرفونها باسم «الشرق». فعلى الأقل قبل القرن العشرين كان «الشرق» يتكوَّن من منطقة واسعة تمتد من الأناضول ومنطقة تراقيا الغربية إلى شمال أفريقيا ومصر، ومن الجزيرة العربية إلى الخليج العربي. وكانت البلاد الخاضعة لسيطرة العثمانيِّين في أوروبا وآسيا الوسطى تندرج أيضًا تحت هذا التصنيف مع أنها أصبحت أقلَّ «شرقية» بعد حصولها على الاستقلال. هذه البلدان كانت ترتبط في أذهان الأمريكيِّين بحضارةٍ مشتركة، ولباس متشابه، وتقارب في العمارة، والفنون، والمعتقَدات الدينية، وأنظمة الحكم. ومع ذلك فلا يزال معظم الأمريكيِّين يصنِّفون الليبيين والإيرانيِّين والفلسطينيِّين والتونسيِّين واللبنانيِّين ضمن إطار جغرافي سياسي يُطلِقون عليه اسم «الشرق الأوسط».

بعد تحديد مفهوم الشرق الأوسط، تصبح مهمتنا التالية هي توضيحَ هيكل الدراسة. وهنا أيضًا تثور تساؤلاتٌ رئيسية. هل يجب أن نوجِّه اهتمامًا متساويًا لكافة مراحل تاريخ العلاقات الأمريكية الشرق أوسطية؟ أم نختار فقط الفترات التي لم يُكتب عنها إلا القليل؟ وما الذي — بخلاف المنظور — يمكن أن يسهم به الكتابُ بجانب الموضوعات التي نوقشت من قبل، مثل سياسة أيزنهاور نحو أزمة السويس عام ١٩٥٦، أو موقف نيكسون من الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٧٣؟ وكيف يمكن لنصٍّ يعتمد على أوراق دبلوماسية مصنَّفة على أنها سرِّية ولم تُفتح ملفاتها بعدُ أمام الجمهور والعامة واستعمالها لإعادة بناء أول قرنين من علاقات الشرق الأوسط بالولايات المتحدة، وفي توثيق الثلاثين عامًا الأخيرة من هذا التفاعل؟

الإجابات عن كل تلك التساؤلات تنعكس على هيكل الكتاب وبنائه. ووفقًا لذلك تقدِّم الأجزاء الستة الأولى من الدراسة عرْضًا مفصَّلًا لعلاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين. أما الجزء الأخير فيستقصي أحداثَ السنواتِ الستين الأخيرة، بدءًا بالحرب الباردة وانتهاءً بحرب العراق. وخلال صفحات الكتاب بأكمله، سنجد أن التركيزَ سيكون على تعريف الأنماط الأساسية

لدخول الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، مع متابعة الموضوعات التي تمتد كالخيط المشترَك خلال النص، رابطةً بعضه ببعض وموضِّحةً إياه.

أكثر تلك الموضوعات التي تفرض نفسَها وتظهر بوضوح هو موضوع القوة. فالقوة تشير إلى السعي وراء المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط من خلال العديد من الوسائل: العسكرية والدبلوماسية والمالية. والقوة هي التي ظهرت في قرار الرئيس ماديسون بإرسال بوارجَ حربية إلى الجزائر عام ١٨١٥، وفي جهود لنكولن عام ١٨٦٣ لإثناءِ مصر عن التدخُّل في المكسيك. لكن الولايات المتحدة لجأت أيضًا إلى استخدامِ القوة في الشرق الأوسط لحماية مواطنيها الذين كانوا يقيمون هناك، وللدفاع عن الأقليات المهدَّدة بالخطر. فعندما أنقذت الباخرة «يو إس إس إنديبندنس» مبشِّرين أمريكيِّين من الخطر في لبنان عام ١٨٤٤، أو عندما قامت الباخرة «تينيسي» بإجلاء لاجئينَ يهودٍ من فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، لم تكن القوة تخدم مصالحَ اقتصادية أو سياسية فقط. بل كانت تساند الإيمان الأمريكي.

أما الإيمان — وهو الموضوع الثاني — فيشير إلى تأثير الدِّين في تشكيل المواقف والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسط. ومع أن الكاثوليك واليهود لعِبوا دورًا نشطًا في تحديد مسار العلاقات الأمريكية في المنطقة، خاصةً بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كانت السيطرة للنفوذ البروتستانتي. غادرَ أولُ المبشِّرين البروتستانت بوسطن متوجهًا إلى الشرق الأوسط عام ١٨١٩ بهدفِ إعادة فلسطين إلى السيادة اليهودية وإنقاذ أرواح المسيحيِّين الأرثوذكس والموارنة والدروز. ولكنَّ الإيمان بالنسبة إلى الولايات المتحدة كان له بُعدٌ دنيوي ومدني أيضًا، يدفع الأمريكيِّين إلى تصدير مفاهيمهم الوطنية والديمقراطية للخارج. ومع ذلك فقد فشِلت الإرساليات التبشيرية في التنصير وفي إعادة بناء دولة يهودية، لكنها نجحت في تأسيس أول جامعات حديثة في تركيا والعالم العربي. فعن طريقِ غرسِ مشاعر الانتماء الوطني والاعتزاز في نفوس طلابها، تمكَّنت هذه المؤسسات من إطلاق قوًى جبارة جديدة في الشرق الأوسط، وغيَّرت سياسة المنطقة بلا رجعة.

الموضوع الثالث هو الخيال. فلطالما سلبت فكرةُ الشرق الأوسط عقولَ الأمريكيِّين، وسَحرتهم بصورٍ خيالية تملؤها مآذن المساجد والأهرامات والواحات والجمال والكُثبان الرملية. ونجد جذورَ تلك الصور الرومانسية عن الشرق الأوسط في الإنجيل من خلال الصور الخيالية التي رسمها للصحراء، وهو يُعد عادةً أكثرَ الكتب قراءةً في الولايات المتحدة. وأسهم كتاب «ألف ليلة وليلة» — وهو كتابٌ خيالي من العصور الوسطى — في صبغ الشرق الأوسط

بأجواءٍ جنسية. وبإغراءٍ من تلك الصورِ الجذابة سافرت أعدادٌ كبيرة من الأمريكيِّين خلال القرن التاسع عشر إلى الشرق الأوسط، ووصفوا أدقَّ تفاصيل الطبيعة والتضاريس وصفًا تفصيليًّا بكلِّ دقة في كتاباتهم. وفيما بعد، عندما حلَّت التسجيلات الصوتية والمرئية محلَّ الكتب باعتبارها الوسائلَ الأساسية لتخليد الأساطير، أصبحت الأعمال المستوحاة من الشرق الأوسط هي الأكثر رواجًا في هوليوود وفي مجال الموسيقى. ولم تؤثِّر هذه الأعمال فقط على رؤية الجمهور للمنطقة، بل أثَّرت أيضًا على سياسات الحكومات الأمريكية. فالخيال — كما سيظهر فيما بعدُ — قد أسهم في قرار الرئيس بوك برعاية رحلة بحرية استكشافية إلى نهر الأردن، وكذلك في قرار الكونجرس عام ١٨٥٦ بإنشاء سلاح للجِمال بجِمال عربية مستوردة من مصر.

ولم يكن واحد من تلك الموضوعات حكرًا على علاقات الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط؛ فالأوروبيون قد أدخلوا عناصرَ القوة والإيمان والخيَال في سياساتهم نحو الشرق الأوسط أيضًا. ومع ذلك فإن استمرار تلك الأنماطِ على مدارِ أكثرَ من ٢٠٠ عام من تدخُّل الولايات المتحدة في شئون الشرق الأوسط — والتفاعل الديناميكي بينهما — كان أمرًا انفردت به الولايات المتحدة.

يهدُف هذا الكتاب إلى تقديم فهمٍ أكثرَ عمقًا وتنوعًا لهذا الجزء المحوري من تاريخ الولايات المتحدة عن طريق بحثِ تلك الموضوعات وإعادةِ تشكيل تاريخ العلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط. ويقدِّم الكتاب أيضًا خلفيةً تاريخية لتحليل الدَّور الحالي للولايات المتحدة في المنطقة. فسياسات الولايات المتحدة في العراق وإيران وفي الصراع الفلسطيني الإسرائيلي تُعَد اليوم محلَّ جدال واسع داخل الولايات المتحدة وخارجها. وهدف هذا الكتاب ليس الانحياز لأي جهة أو الدعاية لها في هذه الخلافات، أو الدعوة إلى مسارٍ معيَّن. بل يسعى إلى تقدير الميراث المشترَك لهذين العالَمين اللذين أحيا فيهما واللذين أقدِّرهما بنفس القدْر وأكنُّ لهما الاحترام نفسه؛ الولايات المتحدة والشرق الأوسط.

الباب الأول

أمريكا في أيامها الأولى تواجه الشرق الأوسط



الفصل الأول

تهديدٌ قاتلٌ ومخزٍ

فجأةً في عام ١٧٧٦ صار الأمريكيون وحدَهم، وقبل ذلك كان التجار من العالم الجديد يبحرون عبْر المحيطات في سفنهم وقواربهم ومراكبهم الشراعية ولا يخشون أحدًا؛ فهم على ثقةٍ بأن أقوى بحرية في التاريخ تقوم على حمايتهم. ولكن هذا الشعور بالأمان بُدِّد بين ليلة وضحاها عندما اشتعلت الثورة؛ فالبحرية البريطانية الضخمة التي كانت تحمي التجارةَ الأمريكية ضد أيِّ مخاطرَ أصبحت عدوَّها اللدود. ولأن الولايات المتحدة لم تكن تملك أسطولًا خاصًّا بها يقوم على حمايتها، فقد كانت سفنها تتعرَّض للهجوم بدءًا من اللحظة التي تغادر فيها مراسيها لتبحر في عَرض البِحار بلا حول ولا قوة.

إن غياب القوات البحرية لم يهدِّد البحَّارة الأمريكيِّين فحسب، بل هدَّد بقاء البلاد نفسِها. فقد كانت أمريكا في القرن الثامن عشر دولةً بحرية تعتمد إلى حدٍّ بعيد على التجارة الخارجية؛ لأن معظم المدن الأمريكية كانت تتمركز على الساحل الشرقي، فضلًا عن توفُّر الموانئ الطبيعية وتمتُّعها بوفرة من أفضل أنواع الأخشاب اللازمة لصناعة السفن. وكانت أيُّ ضربة لهذه التجارة تعني ضربةً قوية للولايات المتحدة الناشئة، خاصة في ذلك الوقت الذي كانت تصارع فيه من أجل الحفاظ على استقلالها الهشِّ ضد خطر الإفلاس الذي تواجهه. وفي حين كانت الجيوش الأمريكية تحارب الجيشَ البريطاني الذي يفوقها خبرةً وتدريبًا وعتادًا هو الجيش البريطاني، حافظت المستعمرَات السابقة على طُرُقها البحرية بكلِّ ما أُوتيت من قوة. وكان أحد هذه الطرق البحرية يتَّجه جنوبًا إلى جزر الهند الغربية، ولكنَّ طريقًا آخر لا يقل أهميةً كان يمتد عبْر المحيط الأطلنطي شرقًا إلى موانئ البحر المتوسط.

يمتد حوض البحر المتوسط من صخرة جبل طارق إلى سواحل الشام وسواحل الأناضول، وكان يُعَد حينذاك إحدى المناطق القليلة في العالم التي ظلَّت بمنأًى عن الهيمنة الأوروبية، حيث كان بمقدور التجار الأمريكيِّين السعي وراء تحقيق ثروة بكل حرية. ومع أن الرحلة من أمريكا الشمالية حتى البحر المتوسط نادرًا ما كانت ممتعة، حيث كانت تتطلَّب الإبحارَ ستة أسابيعَ على متن سفن باردة مزدحمة وغير صحية، فإن الأرباح عادةً ما كانت تفوق المصاعب. وكان التجار المحليون يرحِّبون بسرورٍ بمقايضة منتَجات الشرق من الزبيب والتين والأطعمة الشرقية بمنتَجات العالم الجديد من الأخشاب والتبغ والسُّكر، وكانت تجارة الخمور المعروفة باسم «بوسطن بارتيكيلر» من أنجح التجارات، وكان أحفاد المهاجرين الأوائل إلى نيو إنجلاند يَصنعونها ويبادلونها ببراميلَ من الأفيون التركي، الذي كان المستعمرون يصدِّرونه إلى كانتون والصين، أو يعودون به إلى الولايات المتحدة لاستعماله في الأغراض العلاجية. وفي سبعينيات القرن الثامن عشر كان خُمس الصادرات السنوية للمستعمَرات تقريبًا يذهب إلى موانئ البحر المتوسط على متنِ أكثرَ من مائة سفينة أمريكية. وقال أحدُ رجال الأعمال البريطانيِّين تعليقًا على ذلك: «اذهبوا حيث شئتم، فلن تجدوا ميناء صغيرًا ولا كبيرًا … إلا وفيه أمريكي … يجتهد في مساومة السكان المحليين.»[1]

قبل الثورة، كان الخطر الأوحد الذي يهدِّد تجارة الولايات المتحدة الحيوية في البحر المتوسط يأتي من الشرق الأوسط. فقد كان القراصنة العرب — الذين يُطلقون على أنفسهم اسم «المجاهدين» — يهاجمون السفنَ الغربية ويستولون على حمولاتها ويأسِرون أطقمها. كان هؤلاء «القراصنة» — كما أطلق عليهم الأمريكيون الأوائل — يبحرون من إمبراطورية المغرب المستقلة والمناطق العثمانية شبه المستقلة كطرابلس وتونس والجزائر، وهي منطقةٌ شرق أوسطية معروفة في مجموعها في اللغة العربية باسم «المغرب العربي». أما الغربيون فأطلقوا عليها اسمًا مختلفًا، وهو اسمٌ يشير إلى الجشع والقسوة، فقد أطلقوا عليها اسم «منطقة البربر».

ظلَّ هؤلاء البربر كابوسَ أوروبا منذ القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر. وكان معظم الرجال الذين يأسِرهم القراصنة — ومنهم ميجيل دي سيربانتيس الذي استقى مسرحيتَه الأولى من محنته في الأسر — يباعون عبيدًا محكومًا عليهم بالأشغال الشاقة القاتلة في المناجم والسفن. أما النساء الأوروبيات — اللائي كان جمالهن الأشقر موضعَ تقدير كبير — فكن يجلِبن أفضلَ الأسعار في سوق الجواري. كان الهرب شبهَ

مستحيل، وهناك قصةٌ عن سيدة تُدعى ماريا مارتن، وهي مواطنةٌ بريطانية اختطفها القراصنة الجزائريون، وقالت إنهم خلعوا عنها ملابسَها وأخضعوها لتفتيشٍ شامل، ثم قيَّدوها بسلسلة في زنزانة مظلمة مدةً تزيد على سنتين، كلُّ هذا لمجرد أنها رفضت أن تصبح مِلْك يمين. دفع اليأسُ بعض هؤلاء الأسرى إلى إعلان إسلامهم، وقضَوا مدةَ أسْرِهم في العمل مستشارين وأطباءَ، وانضم آخرون إلى أسطول القراصنة خونةً مرتدِّين. ولكن ظل معظمهم في حالةِ انتظارٍ يائسٍ أملًا أن تفتديَهم عائلاتهم من الأسْرِ، فلم يكن يملِك الفدية الباهظة إلا قليلٌ منهم.[2]

ومع أن ضربات قراصنة شمال أفريقيا كانت موجَّهة بصورة أساسية ضد الأوروبيين، فإنهم بين الحين والحين كانوا يوجِّهون ضرباتهم إلى ضحايا من العالم الجديد. وقد وقع أولُ هجوم موثَّق عام ١٦٢٥ عندما استولى قراصنةٌ مغاربة على سفينة تجارية قادمة من مستعمرات أمريكا الشمالية. وبعد ذلك بعشرين عامًا صدَّ بحَّارة من كامبردج بولاية ماساتشوستس هجومًا جزائريًّا، لكنَّ الجزائر استولت على سفينة أخرى من ماساتشوستس وثلاث عشرة سفينة من فرجينيا عام ١٦٧٨. وكان من بين الأسرى الإنجليز الذين افتدتهم بلادهم من الأسر عام ١٦٨٠ — وعددهم ٣٩٠ أسيرًا — أحد عشر من سكان نيو إنجلاند ونيويورك. وقال حاكم ولاية ماساتشوستس، سيمون برادستريت، في بيانٍ له: «كنَّا قد فقدنا بالفعل خمس أو ست سفن، استولى عليها القراصنة، ولا يزال المزيد من مواطنينا يعانون ذلَّ الأسْر.» كان جوشوا جي واحدًا من هؤلاء، وهو تاجرٌ من بوسطن عانى «محنًا وآلامًا» — عملًا بالسخرة، وتعذيبًا، وإيذاء جسديًّا من آنٍ لآخر — وذلك خلال سبع سنوات قضاها في الأسْر، وقد ذرف الرجل «دموع الفرح ... وشكرَ ربَّه ... على رحمته الواسعة» عندما فُكَّ أسْره.[3]

غير أن هجمات القراصنة ضد سفن العالم الجديد شهِدت تراجعًا في القرن الثامن عشر، بعد أن أصبحت السفن الأمريكية تحت حماية الأسطول البريطاني الذي كان يتمدَّد بسرعة، ويتمتَّع بالتفوق التكنولوجي. وكانت مراكب القراصنة ذات الشراع الواحد وسفنهم الصغيرة لا تحمل الواحدةُ منها أكثرَ من عشرين مدفعًا وبضع عشرات من الرجال المسلَّحين. مما جعلهم يفكِّرون مرتين قبل الهجوم على سفينةٍ تحميها سفنُ البحرية الملَكية، التي تحمل الواحدة منها في المتوسط ٨٥٠ رجلًا ومائة مدفع. لم يزِد شمال أفريقيا في نظر البريطانيِّين عن ذبابة لا تكاد تستحق هجومًا بسفينة واحدة، فضلًا عن شن حرب. ولجأت لندن — بدلًا من مقاومة القراصنة — إلى تملُّق الدول البربرية

بدفع «رسوم» سنوية، وهو بديلٌ مهذَّب لكلمة «إتاوة». حصل القراصنة على هذه الرشوةِ مقابل عدم المساس بالسفن البريطانية. فتحوَّل اهتمامهم إلى قوًى أقلَّ فتكًا، كالبرتغال والدنمارك وإسبانيا.

ظلَّت السفن الأمريكية تتمتع بالحماية حتى صدور إعلان الاستقلال عام ١٧٧٦. وسرعان ما أصبحت سفن الولايات المتحدة مستهدَفة، ليس فقط من قِبل قراصنة شمال أفريقيا، بل — وهو الأسوأ — وإنما أيضًا من الأسطول البريطاني الذي كان فيما مضى يعمل على حمايتها. ومع ذلك تمكَّنت البحرية الأمريكية الناشئة من مواجهةِ تلك التحديات تحت قيادة القباطنة الشجعان من أمثال جون بول جونز، وأيضًا بمساعدة السفن الحربية الفرنسية. ولكن بانتهاء الحرب عام ١٧٨٣ كانت معظم السفن الحربية الأمريكية قد أُسِرت أو بِيعت أو غرقت. وكانت الولايات المتحدة لا تكاد تستطيع الدفاعَ عن سواحلها، فضلًا عن حماية تجارتها عبْر البِحار. وقال بيرس لونج عضو الكونجرس عن ولاية نيو هامبشير، ومعه كلُّ الحق: «لسنا الآن في حالةٍ تسمح لنا أن نخوض حربًا ضد أي دولة، خاصة ضد دولةٍ [الجزائر] لا نتوقَّع منها سوى ضربات عنيفة.» وكان الأسطول الجزائري الصغير المكوَّن من تسع بوارج حربية كبيرة وخمسين قاربًا مسلَّحًا يتفوَّق على نظيره الأمريكي في التسليح تفوقًا كبيرًا. وأكَّد ذلك اللورد شيفيلد البريطاني، وهو المُعارض الشهير لاستقلال الولايات المتحدة، قائلًا: «لا يستطيع الأمريكيون حمايةَ أنفسهم [من البربر]؛ إذ لا يمكنهم أن يزعموا أن لديهم أسطولًا بحريًّا.»

أمريكا عاجزة عن الرد

كان اللورد شيفيلد يملك أسبابًا وجيهةً للشماتة بالولايات المتحدة. فلم يكن بالإمكان تكوينُ أسطول بحري لأي دولة إلا عن طريق حكومة مركزية قوية، وهو ما كان ينقص الولايات المتحدة. فقد كانت ولاياتها مرتبطة ارتباطًا ضعيفًا بعضها ببعض من خلال بنود اتفاقية الاتحاد الكونفيدرالي، ولم تكن الولايات تستطيع أن تفرض ضرائبَ قومية، فضلًا عن تكوين جيشٍ موحَّد. بل إن بنود الاتفاقية كانت تعارض تمامًا تكوينَ أسطول بحري دائم في أوقات السِّلم. وفي حين كانت الكونفيدرالية تسمح نظريًّا لأية ولاية «تعاني هجمات القراصنة» بامتلاك بعض السفن الحربية للدفاع عن نفسِها، فإن أيًّا من الولايات لم يكن لديها فعليًّا القدرةُ على بناء قوة عسكرية تكفي لصد هجمات البرابرة. هذا بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة لم تكن تستطيع أن تخوض حربًا ضد شمال أفريقيا

إلا بموافقة تسعٍ من بين ثلاث عشرة ولاية تملك كلٌّ منها الحقَّ في ممارسة «سيادتها وحريتها واستقلالها».

لم يكن الأمريكيون يرغبون في التخلي عن الامتيازات التي تتمتَّع بها ولاياتهم في سبيل تقديم جبهة موحَّدة للعالم، وعزَّز ذلك نفورهم من الشئون الدولية عامة. وقد حذَّر جورج واشنطن قائلًا: «لا يمكن أن نثقَ بأي دولة إلا فيما يخدُم مصالحها الخاصة»، ومن وجهة نظر الأمريكيِّين كانت الدول الأوروبية أقلَّ الدول التي يمكن الوثوق بها. فالخوف من الانجراف في شئونٍ أجنبية أدَّى إلى معارضة الكثير من الأمريكيِّين لإنشاء أسطول بحري قد يدخل في مواجهة مع الأساطيل الأوروبية، أو الأسوأ من ذلك، يوجِّه مدافعه إلى المؤسَّسات الديمقراطية الوليدة للأمة الأمريكية. وبعد نجاتهم بشقِّ الأنفُس من مواجهة أحدِ أساطيل أوروبا (الأسطول البريطاني)، خشي كثيرٌ من الأمريكيِّين أيَّ قوة بحرية، حتى لو كانت أسطولَهم. كان هناك أيضًا جانبٌ مالي لتلك المعارضة؛ فبناء السفن الحربية يكلِّف أموالًا باهظة، وكانت الخزانة الأمريكية ترزح تحت وطأة ديون الحرب الهائلة، ولم تكن قادرة على تحمُّل مزيد من الأعباء.[4]

أجبر نقصُ البوارج الحربية وعدم وجود تفويض ببنائها الولايات المتحدة على أن تتغلَّب على نفورها من السياسة الأوروبية، وتطلُب عونَ حلفائها الثوريِّين في فرنسا. كان على فرنسا — وفقًا لاتفاقية التحالف التي وقَّعتها مع الولايات المتحدة عام ١٧٧٨ — «أن تبذُل ما في وُسعها ... لحماية ... سفن الولايات المتحدة ومواطنيها وبضائعها ... ضد الهجمات وأعمال العنف والسلب ... التي ترتكبها دولُ البربر.» ولكن عندما طالبت الولايات المتحدة فرنسا بتنفيذ ذلك الاتفاقِ كانت الاستجابة سلبية. فقد حرص الزعماء الفرنسيون على ترويج تجارتهم ودعمِها في البحر المتوسط، وخشُوا تأثيرَ المنافسة الأمريكية على الموانئ الفرنسية الجنوبية؛ تولون ونيس ومرسيليا. وانتهى الفرنسيون إلى أنه «لا توجد مصلحةٌ لفرنسا في منحِ الأمريكيِّين إبحارًا هادئًا وآمنًا في البحر المتوسط»، وقوبل الطلبُ الأمريكي بالرفض.

بعد هذا الخذلان الفرنسي أصبح الأمريكيون فريسةً سهلة للقراصنة. ففي سبتمبر ١٧٨٣ طاردت سفنُ القراصنة الجزائريِّين قافلةَ سفن أمريكية في طريق عودتها إلى الولايات المتحدة بعد إجراء مباحثات سلام مع بريطانيا. وقال بينجامين فرانكلين ساخرًا: «إذا لم يكن هناك قراصنةٌ جزائريون، فمن مصلحة بريطانيا أن تخلقهم خلقًا»، مرددًا

بذلك اعتقادًا سائدًا لدى الأمريكيِّين بأن بريطانيا تدفع للقراصنة سرًّا. والحقيقة أن قراصنة شمال أفريقيا لم يكونوا بحاجةٍ إلى تشجيع من بريطانيا أو غيرها من دول أوروبا لمهاجمة سفن الولايات المتحدة التي أصبحت بلا سندٍ من حلفاء أو سلاح، ولا تملِك حتى القدرة المالية لدفعِ الإتاوة.[5]

ظهرت جرأةُ قراصنة شمال أفريقيا واستهتارهم في مهاجمة السفن الأمريكية في أكتوبر ١٧٨٤، عندما هاجموا السفينةَ «بيتسي». فقد كانت تلك السفينة التي تصل حمولتها إلى ٣٠٠ طن تبحِر من بوسطن إلى جزر تينيريف التي تبعُد مسافة ١٠٠ ميل من سواحل شمال أفريقيا عندما واجهت سفينةً مجهولةَ الهوية. وباستخدام صفٍّ من المجاديف المزدوجة تمكَّنت تلك السفينة الخفيفة من الاقتراب من «بيتسي»، ووضعت جانبها في مواجهة جانب السفينة «بيتسي» التي أثقلتها حمولتها، ثم بدأ القراصنة بصدورهم العارية وعماماتهم وسراويلهم الفضفاضة في الهجوم على بيتسي والانتشار فيها، «وسيوفهم بين أسنانهم ومسدَّساتهم المحشوة في أحزمتهم»، كما وصفهم أحدُ البحَّارة الأمريكيِّين. وذكر شاهد آخر أنهم «أشاروا إلينا جميعًا بالسير إلى الأمام، مؤكدين لنا بلغاتٍ عديدة أننا إن لم نطِع أوامرهم فسيقتلوننا جميعًا.» وجرَّدوا أفرادَ طاقم السفينة من معظم ملابسهم، واستولوا على جميع مقتنياتهم، قبل أن يحبسوهم في مخزنِ السفينة، تمهيدًا لبيعهم في سوق العبيد بالمغرب.[6]

بعد ثلاثة أشهر من الاستيلاء على بيتسي استولت الجزائر على سفينتين أمريكيتين أخريين، هما دوفين وماريا. وأسَرَت واحدًا وعشرين فردًا من أفراد الطاقم الأمريكيِّين، الذين قُيدوا بالأغلال ثم سيقوا في موكبٍ تحيط به الحشود الهاتفة في شماتة حتى بلاط الداي حسن، الذي قيل إنه بصقَ في وجوههم، وقال: «الآن ظفرتُ بكم أيها الكلاب المسيحيون، سأجعلكم تأكلون الأحجار.» ويذكر أحدُ البحَّارة واسمه جيمس ليندر كاثكارت، وكان عمره حينئذٍ ١٧ عامًا، أنهم وُضِعوا في قبوٍ «مظلِم تمامًا … حيث ينام العبيد على عمقِ أربعة طوابق تحت الأرض … والكثير منهم عراة تقريبًا، أما الباقون فلم يكن يستُرهم في الشتاء القارس إلا بطانية بالية.» كانت الوجبة اليومية — حسب قوله — مكوَّنة من ١٥ أوقية من الخبز، وكان أقلُّ قدْر من المقاومة يُعاقب بالجلد بالعصا على القدمين أو بقطع الرأس أو بالإعدام بالخازوق.

يقول ممثِّل ولاية فرجينيا الوطني الغيور ريتشارد هنري لي، أحدُ المشاركين في التوقيع على وثيقة الاستقلال: «اللعنة ألف مرة على القراصنة الجزائريِّين الذين أعلنوا

الحربَ على تجارتنا.» أما وزير الشئون الخارجية، جون جاي، فحذَّر من أن «الشر المستطير» للبرابرة لا يهدِّد فقط تجارة الولايات المتحدة، بل يكشف أيضًا ضَعفها التام أمام القوى الأوروبية المتربصة. وأدَّت بعض التقارير التي لا أساسَ لها من الصحة لبعض الصحف عن هجمات القراصنة على سفنٍ أمريكية إلى تصاعدِ المخاوف. فقال جون بول جونز الذي عُرف برباطة الجأش معبِّرًا عن قلقه: «الجزائريون يبحرون في مجموعات متفرقة مكوَّنة من ست أو ثماني سفن، ويصلون إلى الجزر الغربية.» ومع كل هذه الهجمات — الحقيقية والخيالية — فإن الولايات المتحدة لم تفكِّر مرة واحدة في أن تثأر من القراصنة. وفيما عدا طرد ثلاثة من يهود فرجينيا بتهمة التجسس لمصلحة شمال أفريقيا، ظلَّت الولايات المتحدة على سلبيتها.

كانت الولايات المتحدة قد حصلت على استقلالها للتو، وواجهت بالفعل أولَ تهديد أجنبي خطير من الشرق الأوسط. ولم يكن الاستيلاء على السفن «بيتسي» و«دوفين» و«ماريا» إلا بدايةً للعديد من حوادث الاختطاف والأسْر التي واجهتها الولايات المتحدة بعد ذلك في المنطقة. غير أن أزمة البربر أثارت تساؤلاتٍ أساسية حول طبيعة الولايات المتحدة وهويتها وفرص بقائها؛ فهل تستطيع الولايات الأمريكية البقاء إذا حاولت مواجهة هذا الخطر، كلٌّ منها على حدة، أم عليها أن تتحد معًا في دفاع مشترك فعَّال؟ وهل يحذو الأمريكيون حذوَ أوروبا في دفعِ رشوة للقراصنة، أم يتمرَّدون على هذا الأسلوب ويبادرون بالتصدي لهم؟ ومع أن الإجابة عن تلك التساؤلات قد تبدو اليومَ واضحة، فإنها لم تكن كذلك في أواخر القرن الثامن عشر. «لن يكون من السهل دعوةُ جميع الولايات للعمل معًا أمةً واحدة؛ فأمريكا عاجزة عن الرَّد.» هكذا قال لورد شيفيلد ساخرًا.[7]

براءة أم استقلال؟

كان على الأمريكيِّين أولًا قبل أن يتمكَّنوا من إثبات خطأ شيفيلد، أن يخوضوا في مناقشاتٍ مطوَّلة ومضنية حول جوهر دستور بلادهم وشخصيتها. وكان من بين أكثر المشاركين حماسةً في هذا الجدال توماس جيفرسون، الحاكم السابق لفرجينيا وواحد من أهم مَن أسهموا في وضع إعلان الاستقلال. كان جيفرسون أحدَ ملاك الأراضي الذين يعيشون في الأقاليم، ولم يذهب قط أبعدَ من باريس، ولم يشارك في أي حرب، ومع ذلك أصرَّ توماس جيفرسون على أنه يفهم الشرق الأوسط والحاجة إلى مواجهته بالقوة.

كان توماس جيفرسون مزيجًا من المتناقضات، شأنه شأن بلاده التي كانت تناهض السياسة الأوروبية لكنها متعطشة إلى التجارة الخارجية، وتتوق إلى الوحدة القومية إلا أنها تسعى إلى حماية استقلال الولايات، وتلتزم بحقوق الإنسان لكنها تنكر أحقيةَ السود وأهل البلاد الأصليِّين في التمتُّع بهذه الحقوق. كان جيفرسون مسرفًا في التأنُّق أحيانًا ورثَّ المظهرِ أحيانًا أخرى، ثرثارًا تارةً وصموتًا تارة أخرى، وكان يدَّعي أنه رجل من عامة الشعب وهو يعيش في مَعزِل عنهم بضيعة مونتيتشيللو الفخمة. وكان من بين المتناقضات العديدة التي حيَّرت كتَّاب سيرته الصراعُ بين الجانب المتخاذل في شخصيته والجانب المنادي بالمساواة، وبين تمسُّكه بالنظام الجمهوري واعتناقه فلسفةَ أبيقور، وبين حبه للسلام وحماسته الشديدة للثورة الفرنسية الدموية. كان جيفرسون كما كتب المؤرخ جوزيف إليس «يجمع بين العمق الشديد والسطحية المتناهية، بين العلم الغزير والسذاجة غير العادية، بين البصيرة الثاقبة في قراءته للآخرين والقدرة المخيفة على خداع الذات.»

كان تناقض جيفرسون أبرزَ ما يكون في مواقفه تجاه القراصنة البربر. فقد كان هو شخصيًّا يمتلك عبيدًا سودًا من أصول أفريقية، وكان يستغل واحدةً منهم — هي سالي هيمنجز — جنسيًّا، لكنه لم يستطِع قط تقبُّل فكرة امتلاك الأفارقة لعبيدٍ بيض، أو انتهاكهم حرمةَ النساء البيض. وقد قرأ القرآن وعديدًا من الكتب عن الشرق الأوسط، بل إنه حتى حاول تعليمَ نفسه بعض اللغة العربية، لكنه اعتبر كلًّا من المنطقة وديانتها الأساسية شيئين غريبين عن عالمه، بل لا يمتَّان إليه بصلة.

ولكن ظلَّ موقف جيفرسون ثابتًا لا يتزحزح في أمرٍ واحد. فقد كان يؤمن أن الأمريكيِّين المعتزِّين بكرامتهم، الحريصين على أموالهم، يفضِّلون «حشْد السفن والرجال لمحاربة القراصنة بالقوة على جمع الأموال لرشوتهم». وقد تحوَّلت هذه النزعة الفريدة بالطبع إلى «موقفٍ ثابت ومستقل» كان جيفرسون يأمُل أن تتسم به السياسةُ الخارجية الأمريكية، موقفٍ يقوم على رفض الرضوخ للابتزاز؛ فردعُ البربر بدلًا من مهادنتهم سيحمي الاقتصاد الأمريكي ويبعث رسالةً واضحة إلى أي قوًى أخرى قد تناصب أمريكا العداء. قال جيفرسون: «سننال بهذا الموقف احترامَ أوروبا. والاحترام يعني حمايةَ المصالح.»[8]

في خريف عام ١٧٨٤ كان جيفرسون يشغَل منصب «مبعوث» أمريكا لدى فرنسا (كان للقب السفير وقعٌ ملكي في آذان الأمريكيِّين الثوريين) وممثلها في عديد من القصور الملكية الأوروبية. وقد أوصى أولًا بأن تتحد الولايات في مواجهة البربر مع إسبانيا

والبرتغال ونابولي والدنمارك والسويد وفرنسا. وكانت الأساطيل البحرية المشتركة لتلك الدول ستحتفظ بوجود دائم على ساحل شمال أفريقيا، مما يجبر أهلها على التوقُّف عن القرصنة والاشتغال بمهنٍ سلمية بدلًا منها، كالزراعة مثلًا كما اقترح جيفرسون. ولكن بسبب عدم ثقته في ردِّ فعل أوروبا على هذه المبادرة القادمة من الولايات المتحدة الحديثة النشأة، طلب جيفرسون عونَ الماركيز دي لافاييت، النبيل الفرنسي الذي ساعد الثورة الأمريكية. روَّج لافاييت لتلك المبادرة على أفضلِ وجه، ولكن الاستجابات كان معظمها سلبيًّا. وفي حين أبدى عددٌ من الممالك اهتمامًا بالمبدأ، فإنها رفضت أن تُسهم بسفنها في أي تحالف، واستمرَّت في دفعِ الإتاوة للقراصنة. أما الفرنسيون فرفضوا فكرةَ التحالف في حد ذاتها.[9]

كانت استجابة الولايات الأمريكية للاقتراح أكثرَ إحباطًا بالنسبة إلى جيفرسون. فقد رفض الكونجرس بكل عناد تخصيصَ المليوني دولار اللازمة — وفقًا لحسابات جيفرسون — لبناء أسطولٍ يحمل ١٥٠ مدفعًا. وخصَّص الأعضاء بدلًا من ذلك ٧٠ ألف دولار لشراء ما أسماه الوزير جاي «نفوذ … القصور الملكية، التي ينتشر فيها الفساد والمحسوبية». وانهارت آمال جيفرسون. فصفات «الشرف والحرص» التي كان يظن أنها ستمنع الأمريكيِّين من الخضوع للبربر، على غرار الأوروبيين، أثبتت أنها دوافعُ غير كافية. وكان يبدو أن الأمر يحتاج إلى مزيدٍ من أعمال السلب والنهب حتى يقتنع أهل بلاده بضرورة توحيد أمَّتهم والدفاع عن أنفسهم، وعلَّق جيفرسون قائلًا: «لا بد أن ترى الولايات العصا. بل ربما يجب استخدامها مع البعض منهم.» وفي غضون ذلك لم يكن بمقدور جيفرسون سوى مواصلةِ تقديم الرشاوى للجزائريين، ولكن بمنتهى التقزُّز.[10]

ولتنفيذ تلك الصفقة الحسَّاسة وقعَ اختيار الكونجرس على جون لامب، وهو رجلُ أعمال من كونيتيكت ليست لديه أي خبرة دبلوماسية، لكنه عمِل من قبلُ في تجارة البِغال في منطقة البحر المتوسط. وكان جيفرسون قلِقًا بشأنه لأن «سلوكه ومظهره لا ينبئان بخير». لكنه عزَّى نفسه فيما بعدُ بالأمل في كون لامب «رجلًا عاقلًا لديه بعض المواهب التي قد تساعد في التفاوض». لكن سرعان ما ظهر افتقارُ لامب إلى الكفاءة في اللحظة التي وطئت فيها قدماه أرضَ الجزائر في فبراير ١٧٨٦. فقد ضلَّله القنصل الفرنسي جون بابتيست دي كيرسي الذي كان يساند الولايات المتحدة ويشجبها سرًّا أمام الداي حسن. وفشل لامب في ضمان الإفراج عن أسير أمريكي واحد. وتلقَّى بدلًا من ذلك مطالباتٍ بفدًى إضافية، من بينها صورةٌ للجنرال واشنطن، الذي اعترف الداي بإعجابه به. أما قبطان

السفينة «دوفين» الأسير ريتشارد أوبراين، الذي كان شاهدًا على ذلك الخزي، فقد قال: «أتمنَّى ألا أرى الكابتن لامب في بلاد البربر مرةً أخرى إلا لشراء البِغال والجياد.»[11]

بذلك انتهت أولُ مبادرة دبلوماسية لأمريكا في الشرق الأوسط بالفشل، ولكن هذا الفشل في الجزائر لم يثبِّط الولايات المتحدة عن السعي وراء عقدِ اتفاقات مع دول البربر الأخرى. بل الواقع أنه حين كان لامب يهين نفسه ويذلها أمام الداي، كان أمريكي آخر يحاول التفاوضَ مع طرابلس، المدينة الرئيسية في ليبيا الحديثة. وحانت الفرصة عندما عرض الممثل الشخصي لباشا طرابلس — وهو واحد من النبلاء يُدعى عبد الرحمن الأجار — أن يستضيف جون آدامز، مبعوثَ الولايات المتحدة لدى بريطانيا، في منزله بلندن. تردَّد آدامز في قبول الدعوة خوفًا من أن تدور المناقشة فقط عن الإتاوة، ولكنَّ الأنباء عن تصاعُد المخاطر التي تهدِّد التجارة الأمريكية في البحر المتوسط أقنعته بالحاجة إلى عقدِ اتفاق سلام على الأقل مع دولة واحدة في شمال أفريقيا.

بدا عبد الرحمن باشا لأول وهلة عجيبًا وهمجيًّا في أعينِ آدامز الناقدة، وبدت هيئته «مشئومة» توحي «بالطاعون والحرب». ولكن هذا النفور المبدئي زال عندما رحَّب الباشا بضيفه بغليون وفنجان صغير من القهوة المركَّزة. وبمزيج من الإسبانية والإيطالية والفرنسية سأل الباشا آدامز عن بلاده الجديدة، فأجاب المبعوث سعيدًا بوصفٍ مفصَّل لحكومة بلاده وشعبها وطقسها وأراضيها. علَّق عبد الرحمن باشا قائلًا إن هذا «شيء عظيم»، لكنه أدهش آدامز عندما واصل دون توقُّف واصفًا الولايات المتحدة بأنها «عدو طرابلس». وقال الباشا إن دول البربر «تسيطر على البحر المتوسط، ولا تستطيع دولةٌ أن تبحر فيه دون عقد اتفاقية سلام معها». وفوق هذا وذاك، فإن ثَمن هذا السلام هو ٣٠ ألف جنيه، إضافةً إلى جنيه للباشا شخصيًّا. وكان مثلُ هذا المبلغ ضروريًّا لإرضاء تونس، حسب تقديرات عبد الرحمن، وضعفه للمغرب والجزائر. وكان مجموع تلك المبالغ يصل إلى نحو مليون دولار، وهو ما يمثِّل تقريبًا عُشر ميزانية أمريكا السنوية.[12]

كتب آدامز مذهولًا: «مجرَّد القراءة عمَّا جرى في تلك المقابلة يُعَدُّ جُرحًا في كرامة الكونجرس لا يمكن شفاؤه، وقد يكون أكثر لياقةً أن نكتبه ... لمسرح نيويورك.» ولأن آدامز كان مشهورًا بالغرور، فقد كان هادرًا في غضبه بسبب صفاقة عبد الرحمن باشا الذي يمثِّل دولة قوية، لكنها بدائية، خاصة إذا قورنت بالولايات المتحدة المستنيرة. وحزن آدامز بسبب أن «المسيحية جعلت كلَّ البحَّارة جبناء حسب معايير المسلمين». كما أبدى حزنه أيضًا على أنه سيجري إرضاء «طغاة بلا مشاعرَ لا يهتمون بحياة رعاياهم أكثرَ

مما يهتمون بالديدان التي تزحف على شجرة تفاح». وشارك آدامز جيفرسون اعتقادَه بأن أفضلَ السبل للحفاظ على كرامة أمريكا هو قتال القراصنة، لكنه ظل يتشكك في الجدوى الاقتصادية للحرب. وعندما وضع آدامز في حساباته الخسائر التي ستتكبَّدها التجارة البحرية للولايات المتحدة، وارتفاع أسعار التأمين، وفداحة الدَّين الأمريكي، خلَص إلى أنه من الآمن أن تقدِّم أمريكا «هدية واحدة قيمتها مائتا ألف جنيه» بدلًا من المخاطرة بخسارة «مليون جنيه سنويًّا في التجارة». وأكَّد آدامز: «لن نحارب البربر إلا إذا قرَّرنا أن نحاربهم إلى الأبد» وحتى القضاء عليهم، ولكنه خشي أن تكون محاربة القراصنة أمرًا «شديدًا لا يتحمَّله شعبنا».[13]

اعترف جيفرسون الناطق بلسان الشعب بأن لديه وعيًا «بالنزعة» الأمريكية أكبر من آدامز «المنعزل»؛ لذا ظلَّ على ثقته بأن الشعب الأمريكي سيحارب شمال أفريقيا إذا أُتيحت له الوسائل الكافية وتُرك له الخيار. غير أن جيفرسون — بوصفه رجل دولة — لم يستبعد إمكانيةَ الحل الدبلوماسي لمشكلات القرصنة ضد أمريكا، إذا أُتيحت الفرصة لذلك. ومَن ثم انضم جيفرسون في مارس ١٧٨٥ إلى آدامز في لندن في محاولةٍ أخيرة لمنع نشوب «حرب عالمية مروِّعة» وللتوصل إلى اتفاقٍ مع طرابلس.

وأمام عبد الرحمن باشا أعاد الأمريكيون مرةً أخرى التأكيدَ على مشاعر الود التي تكنُّها الولايات المتحدة لكل دول العالم ومنها طرابلس. وقالا إن الشعب الأمريكي يحاول جاهدًا تجنُّب إراقة الدماء، وأنه مستعد من أجل هذا للدخول في اتفاقية صداقة دائمة مع طرابلس بشروطٍ غير مجحفة. كان يبدو أن عبد الرحمن باشا ينصت باهتمام لهذين المبعوثَين. ولكن عندما جاء دوره في الحديث، كرَّر فقط مطالبته بالمليون دولار. ثم عبَّر عن مبدأ سيصبح يومًا ما مألوفًا للأمريكيِّين، لكنه أثار ذهول هؤلاء الأمريكيِّين الأوائل؛ إذ قال:

> مكتوب في القرآن أنَّ كل الأمم التي لا تعترف بهيمنة المسلمين تُعدُّ آثمة، وأنه من حق المسلمين وواجبهم أن يقاتلوا مَن تطوله أيديهم منهم، وأن يجعلوا كلَّ أسراهم عبيدًا، وأنَّ مَن يُقتل من المسلمين في تلك الحرب فمصيره الجنة.

كان آدامز قد سمِع ما يكفي. فقد عرف أن الشيء الوحيد الذي يقود أهلَ شمال أفريقيا هو الطمع، وأن التفاوض لا يؤدي إلا إلى «إثارة شهية هؤلاء البربر» ويجلِب الخزيَ على الولايات المتحدة. ولكن بسبب عدم ثقته بمدى استعداد أمريكا للقتال ظلَّ

آدامز يرى أن الرشوة هي الحل الوحيد أمام بلاده. وخلَص جيفرسون إلى نتيجةٍ مُفادها «أنه لو أُرْسِل ملاك في هذه المهمة لَمَا استطاع أن يفعل أيَّ شيء» لإرضاء أهل طرابلس؛ لذلك عارض أي مساعٍ أخرى لإغرائهم بالمال. لكن جيفرسون دأب أيضًا على تأكيد أن الأمريكيِّين سيحملون السلاح للدفاع عن كرامتهم وسعادتهم، وأن السلام مع البربر لن يكون ممكنًا إلا «عن طريق الحرب».[14]

أراد الكونجرس — الذي كان لا يزال مترنحًا من أثر الثورة — أن يتجنَّب الحرب، فأصدر في يونيو ١٧٨٦ أوامره لجيفرسون وآدامز وفرانكلين بالتفاوض على اتفاق سلام مع المغرب. ادعى حاكم تلك الإمبراطورية، سيدي محمد بن عبد الله، أنه أولُ ملِك يعترف باستقلال الولايات المتحدة، وأولُ زعيم مسلم يسعى إلى معاهدة رسمية مع تلك الجمهورية الناشئة. ولكن الكونجرس تباطأ ونجح في إثارة حفيظة الإمبراطور، وردًّا على ذلك بدأ المغاربة في الاستيلاء على السفن الأمريكية، بدءًا بـ «بيتسي» في أكتوبر ١٧٨٤. وقد لفَت ذلك انتباه الأمريكيِّين، فشدَّ فرانكلين وجيفرسون وآدامز الرِّحال «مسلَّحين فقط ببراءتهم وبغصن زيتون» في محاولةٍ لامتصاص غضب الإمبراطور. وفي مقابل هدية قيمتها ٢٠ ألف دولار ضَمِن المفاوِضون إطلاقَ سراح بيتسي واتفاقية سلام وصداقة وتبادُل إشارات السفن. وبذلك بدأ أطول عَقد ممتد في تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، وهو أيضًا أولُ عَقد يحمل كتابة عربية وتاريخًا هجريًّا (شهر رمضان من عام ١٢٠٠ للهجرة). وأصبحت القنصلية الأمريكية في طنجة — التي أُقيمت بمقتضى هذه الاتفاقية — بذلك أقدَم مبنًى دبلوماسي أمريكي والأثرَ الوطني الوحيد لأمريكا في الخارج.[15]

ومع أن جيفرسون كان أحدَ المشاركين في إبرام الاتفاقية مع المغرب، فقد كان يخشى أن تظل الاتفاقية بلا مغزًى، ما دامت أمريكا تنقصها «الخزانة العامة والقوة العامة» الضروريتان لضمان الالتزام ببنود الاتفاقية. لذلك أوصى بوقف أيِّ مفاوضات أخرى مع شمال أفريقيا حتى تتخذ الولايات المتحدة «خطوات ... قد تصحِّح فكرتَهم ... عن عجز الحكومة الفيدرالية». وفي تلك الأثناء أسرعت دول البربر الأخرى في تقليد أسلوب المغرب في انتزاع التنازلات الأمريكية. فما إن أُفرج عن بيتسي إلا وكانت قد استُهدفت مرةً أخرى، هذه المرة من تونس، وجرى تغيير اسمها رسميًّا إلى ماشودا.

هذه المخازي لم تؤرِّق جيفرسون فقط، بل أرَّقت جورج واشنطن أيضًا، وهو أكثرُ أمريكي نال الاحترام عبْر الزمن. كافح واشنطن للتغلُّب على ضَعف بلاده وقلة حيلتها عام ١٧٧٦، وأحسَّ «بأعمقِ مشاعر الخزي» وهو يرى أمريكا وقد «أصبحت تدفع الجزية

لتلك العصابات، التي لا يتكلَّف محوها من وجه الأرض أكثرَ من نصف المبلغ الذي تلقَّته إتاوةً». وكان واشنطن يعتقد — على غرارِ جيفرسون — أن الشعب الأمريكي يفضِّل مواجهة البربر على الرضوخ للابتزاز، لكن لا تزال تنقصه سفنٌ حربية للقتال. وقال لرفيق السلاح السابق لافاييت: «إني أتضرَّع إلى السماء أن يكون لنا أسطولٌ بحري لتأديب أعداء الإنسانية هؤلاء، أو سحقهم تمامًا.»

مع ذلك ظلَّت الحقيقة الواقعة هي أن الولايات المتحدة لا تمتلك أسطولًا حربيًّا، ولا حتى وثيقة دستورية لتكوين أسطولٍ حربي، فكتب محرِّر جريدة «سنتينل»، بنجامين راسل، لجون آدامز: «من دون نظام حكم قومي سنصبح عمَّا قريب نهبًا لكل دول الأرض.» وكتب الكابتن أوبراين بمناسبة مرور عامين على سجنه في سجون جزائرية مع واحد وعشرين من طاقم السفينتين دوفين وماريا: «فاقت آلامنا كلَّ ما يمكن أن تتخيَّله.» وساد شعورٌ عام بالغضب والمهانة، وعبَّر ديفيد همفريز، مساعد الجنرال واشنطن أثناء الحرب، والدبلوماسي والشاعر المخضرم، عن ذلك الشعور بأبياتِ شعر قال فيها:

«انظر أي مستقبل مظلم يحطِّم فرحتنا!
وأي صفاقة وجرأة تدمِّر تجارتنا؟
يا إلهي! العصابات التي تملأ أمواج بحارِك
قد استولت على سفننا، وجعلت من رجالنا الأحرار عبيدًا.»[16]

وبدافع من صورة البحَّارة المسجونين في شمال أفريقيا والسفن الأمريكية المهدَّدة بالخطر، اجتمع مندوبون من ١٢ ولاية من الولايات الثلاث عشرة في فيلادلفيا في مايو ١٧٨٧. وكان الغرض من هذا الاجتماع هو التفكيرَ في إحلالِ ميثاق وطني ذي صيغة أكثرَ قوميةً محلَّ البنود الكونفيدرالية المعمول بها، وذلك لتدارك نقاط الضَّعف التي أدَّت إلى إذلال الولايات المتحدة أمام البربر. وكان الرئيس الشرفي لهذا المؤتمر الدستوري هو جورج واشنطن، الذي دعا ممثلي الولايات إلى الابتعاد عن «أي حديث عن عقابِ الجزائريِّين حتى تتبلور حكمةُ الاتحاد وقوَّته ويجري تطبيقهما بصورةٍ أفضل». لم يكن من السهل تجاهُل هذا المطلب من بطل الثورة، فتجنَّب المشاركون في المؤتمر أيَّ إشارة إلى البربر. ولكن بصفتهم مواطنين في دولةٍ تعتمد على التجارة، لم يتمكَّنوا تمامًا من تجاهُل مسألة تكوين أسطول بحري لحماية تلك التجارة. وتحدَّث جيمس ماديسون — الأرستقراطي الفيرجيني الضئيل الجسد الذي كان المجلس يعتبره أكثرَ المشاركين ديناميكيةً — بالنيابة

عن الكثيرين عندما كرَّر الحديثَ عن مخاوفه من وجود أسطول بحري قوي، لكنه اعترف بحاجة أمريكا الماسة إلى قوةٍ بحرية. فقال: «الضَّعف يجلِب الذل. وأفضلُ طريقة لتجنُّب الخطر هو أن تكون لدينا المقدرة على مواجهته.»[17]

ومع محاولات التهوين من شأن العلاقة بين الشرق الأوسط والاتحاد الأمريكي أثناء المؤتمر الدستوري، فإن هذه العلاقة ظهرت بوضوح في المناقشات الساخنة التي جرَت على مستوى الولايات حول إقرار الدستور المقترَح. وذكر القس توماس ثاتشر أن «استعباد بحَّارتنا ... في الجزائر يكفي لإقناعِ أكثر المتشككين بيننا بحاجتنا إلى حكومة عامة». وقال ناثانيل سارجنت إنه من «السخف» التفكير في أن الولايات المتحدة يمكنها أن تستمر تحت البنود غير الفاعلة لاتفاقية الاتحاد الكونفيدرالي، وأن تستمر في الدفاع عن نفسها ضد «قراصنة أعالي البِحار.» وبدأ دعم الدستور كإطار لحماية التجارة الأمريكية عبْر البلاد كلها، وليس فقط في نيو إنجلاند البحرية. وتساءل هيو ويليامسون من نورث كارولاينا، وهو طبيب وعالِم فلك شهير: «ما الذي يمنع القراصنة الجزائريِّين من الرسوِّ على سواحلنا وأسرِ مواطنينا واسترقاقهم؟» أما جورج نيكولاس، المحامي من كنتاكي، فتساءل: «ألا يمكن أن يستوليَ الجزائريون على سفننا؟ ألا يمكنهم ... نهب سفننا وتدمير تجارتنا دون مشقة؟» وكانت الإجابة الوحيدة من وجهة نظريهما لمنعِ حدوث ذلك هي الاتحاد.[18]

لكن هذا المنطق القوي لم يبدِّد مخاوفَ هؤلاء الذين كانوا لا يزالون يخشون توسُّع السلطة المركزية؛ لذا أصبح كثيرٌ من المناقشات طويلًا ومشحونًا بالعَداء. وفي دفاعٍ مستميت عن الدستور انضم ماديسون إلى كلٍّ من جون جاي وألكسندر هاملتون من نيويورك في كتابة سلسلة من المقالات سُميت فيما بعدُ «الأوراق الفيدرالية». وكانت هذه أيضًا تؤكِّد على الرابطة الأساسية بين السفن التجارية والسفن الحربية. وكتب هاملتون صاحبُ العقلية التجارية الواقعية: «إذا أردنا أن نكون شعبًا يعمل بالتجارة ... فعلينا أن نسعى إلى امتلاك أسطول بحري في أقرب فرصة.» (الأوراق الفيدرالية، المقالة رقم ٢٤). وحذَّر من أنه بدون «أسطول بحري متَّحد ... ذي مكانة محترمة ... فإن العبقرية التجارية والبحرية الأمريكية ستضيع تمامًا». (المقالة رقم ١١). وفي إشارةٍ خاصة إلى تهديدات شمال أفريقيا أكَّد ماديسون (في المقالة رقم ٤١) أن الاتحاد وحدَه هو الذي يستطيع أن يحفظ «القوة البحرية» للأمة من «جشع القراصنة والبربر». وتكشف الرسائل الخاصة لجاي منهجًا أكثرَ شراسة؛ إذ قال: «كلما أُسيئت معاملتنا في الخارج، ازداد اتحادنا وتآزرنا في الداخل.» بل إنه رحَّب بهجمات القراصنة التي ستَضطرُّ الولاياتِ إلى التكاتف ضد «مخاطر القراصنة الجزائريين وقراصنة تونس وطرابلس».[19]

وكانت هناك محاولةٌ أكثر جرأة، وإن نسيَها الكثيرون، لجعل الشرق الأوسط يدافع عن الدستور، وكان صاحبها هو بيتر ماركو. كان يُطلق عليه «بيتر الشاعر»؛ وُلد بيتر في سان كروا وتلقَّى تعليمه في أكسفورد، وكان يشتهر بكونه واحدًا من أبرزِ شعراء فيلادلفيا وكتَّابها الصحفيين. وفي بداية مناقشات إقرار الدستور عام ١٧٨٧ نشر روايةً هزلية عنوانها «الجاسوس الجزائري في بنسلفانيا»، وفيها يقوم عميلٌ جزائري اسمه محمد بالتجسُّس على الدفاعات الأمريكية، ومن خلال ذلك يمتدح ماركو الحريات الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة، لكنه يسخر من تفكُّك الولايات الأمريكية. فيقول: «البلاد ينخر فيها التفكُّك والانشقاق، ويمكن نهبُها بلا أدنى مشقة، وأسرُ شبابها وفتياتها.» وللإسراع بتدمير أمريكا، جعل ماركو محمدًا يوصي بالاستيلاء على رود أيلاند — الولاية الوحيدة التي قاطعت مؤتمرَ الدستور — وتحويلها إلى قاعدةٍ لعمليات القرصنة الجزائرية.

ساعدت المنشورات من أمثال «الأوراق الفيدرالية» و«الجاسوس الجزائري» على ترجيح كِفة الفيدراليين. ومكَّن الدستور — الذي أُقر رسميًّا في ٤ مارس ١٧٨٩ — الكونجرس من إعلان الحرب «ومن تكوين أسطول بحري والمحافظة عليه». ولعِب تهديدٌ قادم من الشرق الأوسط دورًا ملموسًا في تكوين ولايات متحدة فعليًّا، أي أمة متماسكة متكاتفة قادرة على الدفاع ليس عن حدودها فحسب، بل أيضًا عن مصالحها الاقتصادية الحيوية بالخارج. «وهكذا وبطريقةٍ غير مباشرة كان الداي الجزائري العنيف واحدًا من الآباء المؤسِّسين للدستور الأمريكي»، حسبما كتب مؤرخ الدبلوماسية الأمريكية توماس بيلي. وكان موضوع استخدام الأمريكيِّين لقواهم الاتحادية للقتال من عدمه موضوعًا لا يزال محلَّ تساؤل.[20] فقد استمرَّت جماعاتٌ في التعبير عن رفضِها لفكرة إنشاء أسطول بحري خشيةَ الدخول في مواجهاتٍ أجنبية. وتردَّد الكثيرون أيضًا بشأنِ حمل السلاح تحت أي ظرف، مفضِّلين مبدأ «البراءة وغصن الزيتون» أمام البربر على أيِّ موقف يتَّسم بالاستقلال والكرامة.

العجز والغضب

كان توماس جيفرسون يذرَع غرفةَ مكتبه في برودواي بنيويورك جيئةً وذهابًا، محاولًا أن يجد حلًّا لرفض أمريكا استخدام قوَّتها. فبعد مغادرته باريس في نهاية عام ١٧٨٩، قَبِل جيفرسون منصبَ وزير الخارجية، وهو منصب منحه راتبًا سنويًّا يقدَّر بثلاثة آلاف وخمسمائة دولار، وخمسة من المساعدين، وجعله المسئول الأول عن حل أزمة البربر.

لم تؤثِّر هذه الترقية تأثيرًا يُذكر في رأي جيفرسون بشأن القراصنة، أو «كلاب البحر» كما كان يسمِّيهم، أو «عصابة وضيعة من اللصوص». كان جيفرسون مثالًا للأمريكيِّين الذين كانوا ينظرون إلى المنطقة فيما بعدُ باعتبارها مرتعًا للطغيان والفساد والتخلف، أي صورة النقيض لما يعيشون فيه من ديمقراطية وثقافة وطهارة. وكانت عصابة من المجاهدين المسلمين المصرِّين على استرقاق البحَّارة الأمريكيِّين الأبرياء تستحق في نظره طلقاتِ المدافع لا أجولةَ الذهب، ولكن بسبب معارضة الرأي العام الأمريكي لاستخدام القوة، لم يكن أمام جيفرسون خيارٌ سوى الاستمرار في المفاوضات مع شمال أفريقيا من أجل إطلاق سراح الأسرى.

وعن طريق وساطة بعض الرهبان الفرنسيِّين الأعضاء في جماعة دينية هدفُها افتداء العبيد المسيحيين، عرض جيفرسون على الجزائريِّين فديةً مخفَّضة للغاية، بالإضافة إلى هدايا متنوِّعة. ولكن الداي رفض هذه المبادرات، وعندما حظرت سلطات الثورة الفرنسية أنشطةَ جماعة الرهبان المسيحيين، فقدَ جيفرسون وساطتهم. ومرَّت شهورٌ تلقَّى فيها خطاباتٍ مفعمة بالألم من السجناء الأمريكيِّين الذين كان العديد منهم مرضى يوشكون على الموت بالطاعون. وبسبب معاناته من «القلق المستمر على أسرانا» شعر الوزير أن السياسة الأمريكية قد وصلت إلى طريق مسدود؛ فهي تملك وسائلَ دستورية لمحاربة البربر، لكنها لا تزال غير راغبة في استخدامها، وبذلك كانت «معلَّقة بين العجز والغضب».

وأخيرًا في ديسمبر ١٧٩٠، أوصى جيفرسون — بعد أن أصابه الإحباط — بأن تخوض أمريكا الحرب. وبرَّر ذلك للكونجرس قائلًا: «تحرير مواطنينا مرتبطٌ ارتباطًا شديدًا بتحرير تجارتنا في البحر المتوسط. والمعاناة التي يمرُّ بها كلاهما ترجع إلى السببِ نفسه، والخطوات التي ستُتخذ من أجل حل إحدى المشكلتين قد … تتضمَّن حل المشكلة الأخرى.» كان جيفرسون قد دافع في السابق عن حق الكونجرس في تقرير السياسة الخارجية، مشبِّهًا الامتيازات المقصورةَ على الرئيس في هذا المجال بسلطات الباشا الجزائري، لكنه في هذا الموقف ندِم على ذلك الدعم. وكان مجلس الشيوخ قد رفض للمرة الثانية دعوةَ جيفرسون للحرب، لكنه خصَّص مبلغ ١٤٠ ألف دولار لدفع الإتاوة والفديات. أما مهمة تقديم هذه الرشوة فوقعت على عاتق وزير الخارجية.[21]

أذعن جيفرسون على مضض، لكنه اختار مبعوثَه رجلًا يعرف أنه لن يشتريَ قط السلامَ مع البربر. كان هذا الرجل قبطانَ السفينة «بيتسي» وأول ضابط أمريكي يرفع علم الثورة، إنه جون بول جونز الذي اشتهر بأنه قبطانٌ ماهر، وإن كان متقلِّب المزاج.

وتقديرًا لخدماته للولايات المتحدة أثناء حرب الاستقلال ساعده جيفرسون في الانضمام إلى البحرية الروسية. وحقَّق جونز انتصاراتٍ رائعة على بحرية الأتراك العثمانيين، ونشأت لديه كراهيةٌ عميقة لحكام الشرق الأوسط. وكان يؤمن بأن إعلانَ الحرب على القراصنة هو السبيل الوحيد ليصبح الأمريكيون «شعبًا عظيمًا يستحق الحرية». كانت خطة جيفرسون تقضي بإرسال جونز إلى الجزائر ومعه ٢٥ ألف دولار، وهو مبلغٌ ضئيل كان الداي سيرفضه بالتأكيد. وعندها يغضب الكونجرس ويقرِّر تخصيصَ اعتمادات مالية كافية لتكوين حامية بحرية تتمركز دائمًا في البحر المتوسط، كان تفكير جيفرسون يتَّجه إلى أن «جون بول جونز ومعه ست سفن حربية سيدمرون تجارةَ القراصنة تدميرًا شاملًا ويمزقونهم إربًا». فأرسل أوامره إلى فندق باريس حيث يقيم جونز، لكنها وصلت بعد فوات الأوان. فقد أُصيب القبطان بمرض غامض وفارق الحياة عن عمر يناهز الخامسة والأربعين.[22]

وقع اختيار جيفرسون التالي على توماس باركلي مبعوثًا له، وكان أحدَ مَن شاركوا في المفاوضات مع المغرب، وقد وصل حتى لشبونة قبل أن يقع هو الآخر فريسةً للمرض. أما المبعوث الثالث ديفيد همفريز، فكان هو نفس الشاعر المحارب الذي قال: «يا إلهي، العصابات التي تعجُّ بها بِحارك، قد استولت على سفننا … وجعلت أحرارنا عبيدًا!» وصل همفريز إلى جبل طارق، ليفاجأ بأن الجزائريِّين قد استولوا على ١١ سفينة أمريكية، وأسروا ١١٩ بحَّارًا. فلم يبدُ منطقيًّا أن يطالب بحرية طاقم بحَّارة دوفين وماريا والجزائرُ مستمرة في أسرِ آخرين؛ لذلك عاد همفريز أدراجه إلى الوطن.

وبعد خمسة عشر عامًا كاملة من إعلان الاستقلال، كانت الولايات المتحدة لا تزال تواجه تهديداتٍ كبيرة من القراصنة البربر، وكان بعض التجار الأمريكيِّين قد تدنَّوا إلى تزوير بطاقات المرور التي كان البربر يصدرونها للدول التي تدفع لهم إتاوة، وهو ما كان يكفل الحمايةَ لسفنهم، واضطُر آخرون إلى تأجير بوارج حربية هولندية أو إسبانية بأسعار باهظة لمرافقتهم عبْر البحر المتوسط. وكان الخطر عظيمًا لدرجةِ أن وزير الخزانة ألكسندر هاميلتون تساءل «عما إذا كان من الأجدى — نظرًا للموقف مع الجزائريِّين — استدعاءُ سفينة أجنبية لنقل جون جاي إلى بريطانيا».[23]

غير أن الرأي العام حول موضوع البربر كان يشهد تحولًا. وكان الأمريكيون قد سئموا تهديدات الاختطاف والتكاليف الباهظة لتأمين شحناتهم، وفوق هذا وذاك، إهدارُ كرامتهم. وأقسم جورج واشطن — بوصفه الآن رئيسَ الولايات المتحدة — أن يستخدم

كلَّ ما في وُسعه من أجل «تحرير هؤلاء الأسرى التُّعساء الحظ» في الجزائر. وكانت تثير قلقه أيضًا الحربُ الأخيرة في أوروبا — فرنسا الثورية ضد بريطانيا وغيرها من الدول المحافظة — بالإضافة إلى وجود سفن حربية أجنبية بالقرب من السواحل الأمريكية. لذلك صرَّح أمام الكونجرس في ديسمبر ١٧٩٣ قائلًا: «إذا أردنا تجنُّب أيِّ إهانة، فعلينا أن نكون قادرين على الرد عليها.» اتَّفق الكونجرس مع الرئيس، وقرَّر أخيرًا فتح باب المناقشة حول تكوين أسطول بحري.[24]

لقي الاقتراح معارضةً من بعض النواب الذين كانوا لا يزالون على رأيهم بأن بناء السفن الحربية مكلِّف للغاية، وأنها — بعد البناء — تشكِّل تهديدًا للسلام والحرية، وقال إبراهام بولدوين، نائب جورجيا، في هذا الشأن: «الرشوة وحدَها هي القادرة على شراء الأمان من الجزائريين.» في حين اعترف جون نيكولاس، نائب فرجينيا، قائلًا: «إننا لا نقوى على مواجهةِ الجزائريِّين في البحار.» وحذَّر إبراهام كلارك نائب نيوجيرسي وهو يستعرض الحاجة إلى وزيرٍ للبحرية وعدد كبير من الموظفين بالوزارة من أن «القوى الأوروبية مجتمعة ستجد في الأسطول الأمريكي ذريعةً للحرب». ولتقليل المخاطر والنفقات الأمريكية، اقترح كلارك أن «تُستأجر البحرية البرتغالية لمحاربة القراصنة».

أثارت هذه «الخطوات الجبانة» اشمئزازَ جون سميث، نائب ميريلاند، كما أنها لم تكن تتَّفق مع «معايير الجمهوريات السابقة في جميع العصور السابقة». وذكر شخص آخرُ من ميريلاند هو ويليام فانس موراي أن القراصنة «في صراعٍ مع الولايات المتحدة منذ حرب الاستقلال»، وأنهم لم يتركوا للأمريكيِّين خيارًا سوى الحرب. أما فيشر آيمز من ماساتشوستس، وكان من أشدِّ أنصار التجارة الحرة، فقد بدا متشائمًا للغاية عندما قال: «إن تجارتنا على وشْك أن تنمحي تمامًا، وإن لم نجهِّز جيشًا فيمكننا أن نتوقَّع قريبًا جدًّا وجودَ الجزائريِّين على أعتاب السواحل الأمريكية.»

وبالإضافة إلى الاعتبارات الاستراتيجية والمالية اتخذ الجدال حول الأسطول البحري بعدًا دستوريًّا، مما وضع أنصارَ تكوين حكومة مركزية قوية على المحك في مواجهة معارضيها الكثيرين. وفي تغييرٍ مفاجئ للسياسة سمح جيفرسون لمخاوفه من السلطة الفيدرالية أن تتغلَّب على رغبته الطويلة الأمد في مواجهة البربر عسكريًّا، وعارض بناء الأسطول. أما زميله وأشد المعجبين به جيمس ماديسون فتساءل عما إذا كانت البلاد تمتلِك ما يكفي من الأخشاب للقيام بهذا المشروع. وفي المقابل أيَّد الزعيم الفيدرالي جون آدامز الخطة، على غيرِ المتوقَّع؛ فلطالما شكَّك آدامز في مدى استعداد الشعب الأمريكي

لمحاربة القراصنة. ولم يكن العنصر الحاسم في النهاية اقتصاديًّا ولا سياسيًّا، بل نفسيًّا. فأغلبيةُ أعضاء الكونجرس — بصرف النظر عن مشاعرهم نحو الفيدرالية — لم يعودوا يتحمَّلون الخضوعَ للبربر. وجرى إقرار القانون بأغلبية بسيطة؛ خمسون صوتًا ضد تسعة وثلاثين، وبشرط أن يتوقَّف بناءُ السفن فور تحقيق السلام مع الجزائريين.

في ٢٧ مارس ١٧٩٤ أقرَّت واشنطن قانونًا يجيز تخصيص ٦٨٨٨٨٨٫٨٢ دولارًا لبناء ست بوارج حربية «تكفي لحماية تجارة الولايات المتحدة من القراصنة الجزائريين». وكانت السفن ستتمتع بالقوة والمرونة عن طريق أقصى حدٍّ للتسليح بوجود ٤٤ مدفعًا، أي أقل من نصف العدد الموجود على السفن الحربية الأوروبية، بما يعني أنها ستكون في حالة مثالية لقتال القراصنة. وبذلك وُلدت البحرية الأمريكية ولادةً متعسِّرة لكنها مشرِّفة، ولم يكن الهدف من ورائها السيطرة على البِحار، بل تحريرها.[25]

غير أن إنشاء الأسطول كان يسير ببطء شديد. فقد تأجَّل مشروع بناء البوارج بسبب نزاعات على العقود بين الولايات، وسرعان ما تجاوز حدودَ ميزانيته. وبدا أن القادة الأمريكيِّين الصائحين «الملايين من أجل الدفاع ولا سنت واحد من أجل الإتاوة» ردًّا على المطالبات الفرنسية لدفع إتاوة حماية، بدا كأنهم لا يزالون على استعداد للتفكير في طريقةٍ ما لدفعِ إتاوات لشمال أفريقيا. وفي تلك الأثناء كانت رسائل المساجين والأسرى تتوالى على الولايات المتحدة، وبدأت في الظهور في الصحف. فكتب صامويل كالدر، قبطان السفينة «جاي» أنه «جيء به إلى الجزائر مكبَّلًا وعاريًا وجائعًا»، وكتب صارخًا: «الموت سيكون راحةً لي ومرحبًا به أكثرَ بكثير من استمرار الوضع الحالي.» وتساءل قبطان آخرٌ هو ويليام بنروز: «ماذا ينتظر رجالنا بحق السماء؟» وحذَّر من أن الموت الوشيك لرجال طاقمه سيبقى على الدوام «وصمةَ عارٍ في جبين الولايات المتحدة ونقطة سوداء في تاريخها».

واضطُرت الحكومة — بوازع من ضميرها المتألم — أن تفتِّش عن أموالٍ للتعويض. فوعد الهولنديون ببعض القروض، ثم نكثوا بوعدهم. ثم بدأت الكنيسة والجمعيات الخيرية في جمع تبرُّعات بالمبالغ المطلوبة. وأخيرًا في صيف عام ١٧٩٥ أُصدر أمرٌ لديفيد همفريز بمعاودةِ محاولةِ «استرضاء الداي ودفع الإتاوة» وعقدِ اتفاق سلام مع الجزائر.

كان همفريز أنيقًا ذا ملامحَ جذابة، وكان يبدو مناسبًا تمامًا للبلاط البرتغالي الذي يتَّسم بالفخامة، حيث كان يعمل مبعوثًا للولايات المتحدة. لكنه سرعان ما اكتشف أن الدبلوماسية في الغرب تختلف كثيرًا عن نظيرتها في الشرق الأوسط. كان الداي حسن فظًّا

ووقحًا ومتقلِّب المزاج. وقال له: «إذا عقدتُ سلامًا مع الجميع فماذا أفعل بقراصنتي؟ إنهم بالتأكيد سيقطعون رأسي.» ولكن الخوف من الموت لم يثنِ الداي عن المطالبة بفدية خرافية قدرُها مليونا دولار مقابل إطلاق سراح الأسرى. وأصرَّ أيضًا على الحصول على سفينتين من الولايات المتحدة تحمل كلٌّ منها ٣٦ مدفعًا. وبدا أنه لا جدوى من الاستمرار في المفاوضات.[26]

كان همفريز — على الرغم من مظهره الرقيق — مفاوضًا بارعًا؛ فقد تمكَّن من تخفيض طلبات الداي حسن، وتمكَّن في ٥ سبتمبر ١٧٩٥ من الحصول على توقيعه على اتفاقية صداقة، لكن الاتفاقية لم تكن بحالٍ من الأحوال نصرًا لأمريكا. فحسب شروطها كانت الولايات المتحدة لا تزال مطالَبة بمنح الجزائر سفينة، بالإضافة إلى مجموعةٍ من الهدايا «٢٥ صندوقًا من أربعة أنواع مختلفة من الشاي ... وستة قناطير من السُّكر المكرَّر ... وبعض الخناجر الأنيقة، بالإضافة إلى صندوقٍ من المقصات ... وبعض الشيلان المطرَّزة بالزهور»، وكانت قيمتها الإجمالية أكثرَ من ٦٥٠ ألف دولار.

مع ذلك رفض الداي حسن الإفراجَ عن المختطفين المسجونين حتى يتلقَّى ما طلبه مقدَّمًا. وللحصول على المال لجأت الحكومة الأمريكية إلى جويل بارلو، وهو شاعرٌ من أصدقاء همفريز كان يعيش في باريس، استخدم بارلو اتصالاته الأوروبية، لكنه فشل في جمعِ المبلغ المطلوب لإرضاء الداي. وثار الداي على بارلو ذي الأنف العريض والحاجبين الكثيفَين عندما عاد إليه خاويَ الوِفاض. قال: «أنت كاذب وحكومتك كاذبة. سأكبِّلك بالأغلال، وأعلنُ الحرب.» وفي آخر لحظة وجد بارلو رجلَ أعمال يهوديًّا في الجزائر وافق على إقراض الولايات المتحدة المبلغَ المطلوب وسفينةً لنقل الأسرى المختطَفين.

وشهِد بارلو في فبراير ١٧٩٧ بعد تسليم الأسرى الثمانية والثمانين في فيلادلفيا أن «رجالنا قد تصرَّفوا عامةً بدرجة من الصبر والتهذيب جعلت حالتَهم أفضلَ من حالة العبيد». ونزل كثيرٌ من أهالي المدينة إلى الميناء لتحية البحَّارة المحرَّرين، غامرين إيَّاهم بالورود ومقدِّمين لهم الكعك والمشروبات. وقال جون فوس، أحدُ هؤلاء الأسرى، معبِّرًا عن شكره: «لم تقُم أيُّ دولة مسيحية بشيء كهذا لمواطنيها الذين يجدون أنفسهم في موقف مثل موقفنا. فقد قدَّمت الولايات المتحدة مثالًا للإنسانية لكل حكومات العالم.» وكان الداي سعيدًا أيضًا، وتبرَّع بالمساعدة في الوصول إلى اتفاقاتٍ مماثلة بين الولايات المتحدة وكلٍّ من تونس وطرابلس.

كانت المدينتان على استعدادٍ للاتفاق، وسرعان ما حذتا حذوَ الجزائر في مهاجمة الأمريكيِّين أولًا، ثم التفاوض معهم من منطلق قوة. ولم يُضِع حاكم طرابلس مراد

رئيس — وهو مرتدٌّ من أصلٍ اسكتلندي كان يُعرف في السابق باسم بيتر ليسلي — وقتًا فنهب ثلاث سفن أمريكية، في حين هاجم القراصنة التونسيون السفينةَ «إليزا» الآتية من بوسطن. ولأن الولايات المتحدة لم تكن تملِك سفنًا حربية، فإنها لم تتمكَّن من الرد بالقوة على تلك الهجمات، وإنما تمكَّنت فقط من إرسال بارلو إلى شمال أفريقيا من أجل جولةٍ أخرى من المفاوضات، وتمكَّن بارلو في النهاية من عقدِ اتفاقات مع كلٍّ من تونس وطرابلس، بتكلفة إجمالية ١٦٠٠٠٠ دولار.

كانت الحكومة توجِّه الآن ما يقرُب من ٢٠٪ من دخلها السنوي لدول البربر، تدفعها في شكل ذهب أو أحجار كريمة، أو — وهو الأغرب — في شكل مدافع أو ذخيرة أو سفن حربية، أي أدوات القرصنة ذاتها. وكانت المبالغ من الضخامة بحيث بدأت الدول الأوروبية في الشكوى من أن الولايات المتحدة تبالغ في تدليل القراصنة، وتتسبَّب في رفع مبالغ الفدية. وسأل بارلو جيفرسون باشمئزاز: «إلى أي مدًى سيستمر هذا النظام البربري، وإلى أين سينتهي؟» وتنبَّأ الدبلوماسي بأنها مسألةُ وقت فقط قبل أن ترفع دول القراصنة الإتاوات وتجدِّد حروبها ضد أمريكا. ولكن بدلًا من الاستماع إلى تحذيرات بارلو أعلن الكونجرس أن السلام مع شمال أفريقيا قد تحقَّق وخفَّض ميزانيةَ بناء السفن الحربية.[27]

ولكن خارج المجلس التشريعي كان العديد من الأمريكيِّين قد سئموا سياسةَ بلادهم القائمة على ذم القراصنة بالكلمات واسترضائهم بالرشاوى. وظهر تصاعُد حدة النقد بشكل أساسي على الفنون. ففي عام ١٧٩٧ نشرَ رويال تايلر — وهو محامٍ محترم من نيو إنجلاند يهوى كتابةَ القصص الروائية — روايةَ «الأسير الجزائري»، وهي مذكِّرات خيالية لجرَّاح على متن سفينةٍ اسمه أبدايك أندرهيل، أسرَه القراصنة واستعبدوه. يتحمَّل أندرهيل «الجوع والمرض والتعب والإهانة والجَلد، والجروح وغيرها من ألوان التعذيب الوحشي»، لكن كل هذا لم يثنِه عن ذمِّ أولئك الذين يعقدون «اتفاقات مهينة مع القراصنة»، وأولئك الذين يمدونهم بالأسلحة لانتزاع مزيد من التنازلات المهينة، وأنهى تايلر روايتَه بصرخةِ تحذير — جديرة بضمِّها إلى «الأوراق الفيدرالية» — مذكرًا الأمريكيِّين «بضرورة توحيد قوانا الفيدرالية لفرضِ احترامنا المستحَق على الأمم الأخرى» وأن يكون «هدفنا الأول هو الاتحاد فيما بيننا».

انضم كتَّاب آخرون إلى تايلر في عدمِ فهْم الأسباب التي تدعو الولايات المتحدة إلى الرضوخ لما تمليه عليها شمال أفريقيا، وهي القوية الآن بدستورها وبأسطولها البحري الذي يفترض أنها تقوم ببنائه، واعترضت سوزانا روسون، أشهرُ كاتبة مسرحية في

الولايات المتحدة ومؤلِّفة مسرحية «عبيد في الجزائر، أو الصراع من أجل الحرية»، قائلة: «ماذا؟ نستسلم مذعنين؟ ونقدِّم أنفسنا عبيدًا لعصابةٍ من الأوغاد القراصنة الكفرة الأفظاظ؟» ووجَّه شاعرٌ مجهول سؤالًا مشابهًا، وهو أحدُ المشاركين في معركة بنكر هيل وأحد الأسرى في الجزائر، مقدِّمًا الإجابةَ أيضًا، فقال:

هل ما تزال كولومبيا تخشى أن يكون لها
ابنٌ حرٌّ ومواطن وطني؟
إذن وجِّهوا عدوانيتكم نحو سواحل البربر،
حرِّروا أبناءكم، وأذلوا قوةَ الأفارقة.[28]

وكاد الإحباط يصيب تايلر وروسون والمؤلِّف المجهول. فقد استمر الرئيس جون آدامز — الذي كان لا يزال متشككًا في استعداد الشعب الأمريكي لمقاومة البربر — في دفعِ الإتاوة لدول شمال أفريقيا، بل عيَّن بها ممثلين دائمين للولايات المتحدة. وكما لو كان يريد أن يؤكد المكانةَ المتدنية للولايات المتحدة أصبح الأسيرُ المحرَّر ريتشارد أوبراين قنصلًا في الجزائر، وأُرسل جيمس كاثكارت إلى طرابلس. وعلى العكس من ذلك لم يُعط هذا المنصب في تونس لسجينٍ سابق، بل لموظف حكومي لم تطأ قدماه من قبلُ أرضَ الشرق الأوسط، ولم يتَّخذ قط موقفًا من القراصنة. إنه ويليام إيتون، ذلك الشابُّ الذي يتَّسم بالصراحة والشجاعة، لكنه مع ذلك أصبح من ألدِّ أعداء البربر.

تسلَّم القناصل مناصبَهم في مارس ١٧٩٩ عقب تدشين أمريكا أخيرًا ثلاثًا من البوارج الست التي وافق الكونجرس على بنائها. كانت تلك السفن تحمل في المجمل ١٢٤ مدفعًا، وتحميها كتائب من سلاح البحرية الذي أُنشئ حديثًا، وبذلك كانت السفن «يونيتد ستيتس» و«كونستيتيوشن» و«كونستيليشن» تمثِّل قوةً صغيرة لكنها فعَّالة. بدأت البحرية الشابة في إثبات ذاتها بجدارة من خلالِ ما يشبه حربًا غير معلنة مع فرنسا في البحر الكاريبي، حيث حاولت البوارج الحربية لنابليون أن تسدَّ الطريق على تجارة أمريكا مع بريطانيا. اكتسبت أمريكا الثقةَ بعد الانتصارات التي حقَّقتها قرب سواحلها، وأصبحت مهيَّأة لمواجهة تحدياتٍ أكبرَ وأكثر تعقيدًا في الخارج.

ومع هذه الثقة كانت الأمة لا تزال متردِّدة بشأن استخدام قوَّتها الجديدة ضد شمال أفريقيا. وقد كتب كاثكارت في إحدى رسائله من طرابلس قائلًا: «يقول هؤلاء البربر إنهم كثيرًا ما سمِعوا عن السفن الحربية الأمريكية، لكنهم لم يروا أيًّا منها. والنتيجة التي

يستخلصونها من ذلك هي إما أننا لا نملكها، أو أننا نفضِّل دفْعَ إتاواتٍ كبيرة على أن نرسلها إلى البحر المتوسط.» فهل يستمر الأمريكيون في دفعِ الإتاوة — تأسيًا بأوروبا — ويتحمَّلون العار، أم يصبحون — كما كان يتمنَّى همفريز — «واضعي نظامٍ لاستئصال شأفَة القراصنة؟»[29]

كان انشغال أمريكا بالشرق الأوسط حتى الآن يدور بصورةٍ أساسية حول تساؤلات عن القوة الاقتصادية والعسكرية. ولكن الشرق الأوسط لم يجذب كلَّ الأمريكيِّين لأسبابٍ تجارية أو استراتيجية؛ فقد انجذب آخرون بسبب رؤيتهم الرومانسية للمنطقة، ومن أجل رغبتهم في المغامرة والبحث عن حدودٍ جديدة. كان أول هؤلاء الأمريكيِّين هو جون ليديارد، الرحَّالة العالمي والمغامر الذي قدَّمنا له في التمهيد. فلمدة خمسة أشهر كاملة من عام ١٧٨٨ كتب ليديارد تقاريرَ مملوءةً بالحيوية عن تجاربه في مصر؛ قلبِ العالم العربي. كان وصفُه يملأ أذهان الكثيرين من الأمريكيِّين بصورٍ غريبة وواضحة عن الشرق الأوسط، ومنهم صديقُ ليديارد الحميم — ورئيسه فيما بعدُ — توماس جيفرسون. ففي السابق كان جيفرسون، مثل الغالبية العظمى من أبناء جِلدته، يرى في المنطقة معقلًا للقراصنة الكفرة البغيضين، بالإضافة إلى كونها معقلًا للعجائب. فقد كان الشرق الأوسط بالنسبة إلى جيفرسون ومعاصريه ليس مجرَّد معقلٍ للقوة فحسب، بل مسرح للخرافات والأساطير الجذابة للغاية.

الفصل الثاني

الشرق الغامض والعداء

إن مصطلح «الشرق الأوسط» ابتكره أدميرال أمريكي عام ١٩٠٢، وقبل ذلك كان الأمريكيون والأوروبيون يتحدَّثون عن المنطقة مشيرين إليها بكلمة «الشرق». وكان هذا المصطلح يشير، دون تحديد دقيق، إلى مساحة الأرض الممتدة ما بين المغرب ومصر، ثم تنحني عبْر الجزيرة العربية نحو الشام قبل أن تصل في النهاية إلى تركيا. ولكن هذا التقسيم لم يقُم تمامًا على جغرافية المكان؛ فالدار البيضاء مثلًا تقع إلى غرب مدريد ومارسيليا وروما. لذلك يمكننا القول إن مصطلح الشرق كان يصف إقليمًا تجمعه حضارةٌ مميزة، وأساليبُ حكم وهياكل اجتماعية وأنماط من العمارة والملبَس. وكان سكان تلك المنطقة معروفين للغربيِّين بمسمياتٍ عدة؛ العرب، وأهل الشام، والجزائريين، والبربر، والأتراك، وكان الاعتقاد السائد أنهم معادون للغرب ويتحدَّثون لغةً ذات وقعٍ غريب على الأذن الأمريكية. أما ما كان يميز الشرق أكثرَ من مواصفاته السياسية والفنية أو اللغوية فكان هذا الدِّين المسمَّى الإسلام. كان الأمريكيون في القرن الثامن عشر ينظرون إلى أتباع تلك العقيدةِ باعتبارهم «الآخر» المختلِف عنهم تمامًا. كانوا من وجهةِ نظرهم كتلةً غريبة غير متناسقة، وينحدرون من حضارة عظيمة انهارت منذ زمن طويل، إلى جانب أنهم بدائيون، يتميزون بالعنف والقسوة.

سراب واعد وخادع

انتقلت الصورُ السلبية عن الشرق من العالم القديم إلى العالم الجديد في أذهان المهاجرين الأوروبيِّين الأوائل. شرع كريستوفر كولومبوس في اكتشافِ طريق جديد إلى الأرض المقدَّسة في عام ١٤٩٢؛ بل إنه اصطحب معه مترجمًا عربيًا لهذا الغرض، ومن ثَم فإن «كلَّ ما أجمعه من مكاسبَ نتيجةَ هذا المسعى يجب أن يخصَّص لغزو القدس.» بعد مرور ما يزيد

قليلًا على قرن من الزمان، سافر جورج سانديز — الذي صار وزيرَ المالية في مستعمرة فرجينيا — إلى الشرق الأوسط ووجده منطقةً مملوءة بالوحشية والقذارة. وقال: «أعتقد أنه لا يوجد مكانٌ كهذا في العالم يَعِد مَن يراه بالكثير ... ولكنه يخيِّب توقعاتِ زائريه.» شارك حاكم فرجينيا جون سميث سانديز في رأيه، وكان الأول قد حارب قبل ذلك بصفته مرتزقًا ضد العثمانيين. وكانت درعه تحمل رسمًا يمثل رءوس الأعداء التي حصدها. وقد وصلت فكرةُ تفوُّق الغرب على الشرق مع المهاجرين إلى بليموث إلى جانب أفكارٍ مبدئية عن الديمقراطية والعدل الاجتماعي. وكانت هناك صخرة قرب المستعمرة، قيل إنه كتب عليها: «تنهار الأمم الشرقية وينتهي مجدُها، وتقوم الإمبراطورية حيث تغرُب الشمس.»

ومع أن الولايات المتحدة كانت تفخَر في بداياتها بالتسامح الديني، فإن هذا التسامح نادرًا ما كان يمتد إلى الإسلام، الذي لم يكن يُعَدُّ دينًا على الإطلاق. وكان كثير من رجال الدين البارزين، من أمثال كوتون ماثر وجوناثان إدواردز، يندِّدون بالإسلام بوصفه عقيدةً باطلة وفاسدة أخلاقيًّا. وكان صامويل لانجدون، رئيس جامعة هارفارد، يرى أن محمدًا من الأنبياء الكذبة، بل الأسوأ «أنه رسول الشيطان». ازداد هذا الانطباع السلبي عن الإسلام رسوخًا عن طريق الترجمات المغرِضة للقرآن. فكانت ترجمة ألكسندر روس المنشورة عام ١٦٤٩ تهدُف إلى كشف «المتناقضات والتجديف والكلام الفاحش والقصص الخيالية المضحكة» في ذلك الكتاب، بحيث يمكن للمسيحي «أن يعرف أعداءه معرفةً أفضلَ ... فيتمكَّن من التغلُّب عليهم». وبالمثل كانت الترجمة التي وضعها المحامي جورج سيلز عام ١٧٣٤ تهدُف إلى تمكين البروتستانت من «مهاجمة القرآن بنجاح» وتأمُل في «أن يكون القدَر قد احتفظ لهم بمجد القضاء على الإسلام». كان أكثر كتب الحِقبة الاستعمارية شعبيةً عن محمد هو الكتاب الذي ألَّفه همفري بريدو عام ١٦٩٧، وكان الغرض منه واضحًا في عنوانه: «فضحُ حقيقةِ المحتال».[1]

انعكس هذا المزيجُ من الحقائق والمعلومات المضلِّلة عن الشرق الأوسط الذي تعرَّض له الأمريكيون إبَّان الاستعمار على أول قصة قصيرة كُتبت في العالم الجديد، وهي كوميديا ساخرة بعنوان «رحلة حج بابا بومبو إلى مكة». كُتبت هذه القصة عام ١٧٧٠ بقلم فيليب فرينو وهيو هنري براكنبريدج، وهما زميلا دراسة لجيمس ماديسون بجامعة برينستون. تصف هذه القصة كيفيةَ ظهور النبي محمد أمامَ طالبٍ غشَّاش اسمه بومبو، فيأمره أن «يغير ديانته ويتحوَّل إلى الإسلام، ويصبح مسلمًا حقيقيًّا». فيرتدي بومبو زيًّا إسلاميًّا، ويذهب في رحلةٍ ستةَ أسابيع إلى الحرم النبوي الذي دُفن فيه النبي. وهناك

يغسل الزائرُ يديه وقدميه، ويخلع بقيةَ ملابسه. قال: «سجدتُ على الصعيد الخالي، عاريًا، مولِّيًا وجهي ناحيةَ الشرق، أستجدي النبيَّ أن يغفرَ لي خطاياي.» ويبدو واضحًا في النص أن براكنريدج وفرينو كان عندهما بعض المعرفة بالطقوس الإسلامية، لكنهما أخطآ في تصوير محمد فشبَّهاه بيسوع المسيح الذي ما زال يظهر أحيانًا للتائبين ويمنحهم الخلاصَ مع أنه مدفون في ضريح مقدَّس. ويستجيب محمد بالفعل لدعاء بومبو وصلواته فيغفر له خطاياه، ويمكِّنه في النهاية من العودة إلى نيوجيرسي.

وصلت الصورُ السلبية عن الشرق الأوسط أيضًا عن طريق مذكِّرات الدبلوماسيِّين والرحَّالة الأوروبيين، التي نُشر منها أكثرُ من مائة مذكِّرة بنهاية القرن الثامن عشر. ومع أن معظم هذه الكتب وُضعت بالفرنسية، فإن بعضها، ومنها كتاب جيمس بروس «رحلات لاكتشاف منبع النيل»، كانت متاحةً للقارئ الإنجليزي. وكانت هذه الكتب ترسم صورةً للشرق الأوسط على أنه مكانٌ غريب، رومانسي وخطير في آنٍ واحد. وتصِف نساءه بأنهن لعوبات، ورجاله بأنهم متحرِّرون ونبلاء. ومع ذلك كان كتَّاب آخرون مثل الجغرافي ليو أفريكانوس في القرن السادس عشر، وهو مسلِم تحوَّل إلى الكاثوليكية، يصف شعوبَ المنطقة بأنهم «همجيون، وغارقون في الغنائم والأسلاب، يفقئون أعينَ سجنائهم المسيحيِّين ويقطعون أيديهم وأرجلهم». أما الانطباعات الأكثر عدلًا عن الشرق فجاءت من الرحَّالتين الفرنسيين؛ سافاري وفولني، وبأقلام الكتَّاب الكلاسيكيِّين؛ هيرودوت وثوسيديدس وهوميروس. ومع ذلك فباستثناء اللمحات التي يمكن اقتناصها من التجَّار الذين كانوا يتاجرون في المنطقة أو من العبيد المتحدثين بالعربية، فإن الأمريكيِّين في عصر ليديارد لم يكن لديهم إلا قدرٌ ضئيل جدًّا من المعلومات عن الشرق الأوسط، وكانت المعلومات القليلة التي يملكونها مضلِّلة، إلى جانب أنها كانت غير موضوعية بصورة مخزية.[2]

ترك هذا الافتقار الشديد إلى أي معرفة حقيقية بالشرق الأوسط فراغًا كان من السهل جدًّا ملؤه بإشاعاتٍ عن المنطقة، لا تدور فقط حول عدائها المزعوم للغرب وكلِّ ما يمُت له بصلة، وإنما تتحدَّث أيضًا عن عجائبه المبهرة التي لا حدَّ لها. وكانت صورة المنطقة باعتبارها مركزًا للمُتع الحسية والبصرية مستقاةً من مصادرَ عديدة، وكان أكثرها ثراءً متوفرًا على أرفف كتب أمريكا قبل الاستقلال. وكان الإنجيل — وهو نصٌّ كان يعرفه كل الأمريكيِّين الأوائل تقريبًا معرفةً وثيقة، وينظرون إليه باعتباره حقيقةً راسخة — هو المصدرَ الرئيسي للخيالات عن الشرق الأوسط. وكان العهدان القديم والجديد يقدِّمان

صورةً شاملة للأهرامات والمعابد والحدائق المعلَّقة والواحات والصحاري، وكانت المقاطع التي تصف هذه العجائبَ تثير عند قراءتها في كنائس بنسلفانيا بأجوائها الكئيبة أو في المنازل التي تعصف بها الرياح في المناطق الحدودية؛ أحلامًا عن الشرق الأوسط حتى بداخل أكثرِ المسيحيِّين تشددًا. فكان الكثيرون يحلمون برؤية هذه العجائب بأنفسهم.

في المرتبة التالية للإنجيل، كان كتاب «ألف ليلة وليلة» من أكثرِ الكتب شيوعًا بين الأمريكيِّين الأوائل. وكان أيضًا مصدرًا خصبًا لما يحيط بالشرق الأوسط من أوهام. يتألَّف الكتاب من مجموعة من القصص الرومانسية الفارسية في العصور الوسطى، وظهرت أول ترجمة إنجليزية له في عام ١٧٠٨، وحقَّقت شعبيةً كبيرة في الإمبراطورية البريطانية لا سيما المستعمرات الأمريكية. ولم يكن من الصعب معرفةُ أسباب ذلك؛ فمغامرات علي بابا والسندباد وعلاء الدين ومعاناة شهرزاد وهي تحكي القصص خوفًا على حياتها كانت تنقل الأمريكيِّين من حياتهم الشاقة إلى عالمٍ مثير من الكنوز المخبأة والبُسط الطائرة والجواري الحِسان المختبئات خلف نقابٍ يزيدهن إثارةً. ويمكن للمرء أن يتخيَّل النشوة الحسية التي تثيرها مثل تلك الكتابات في رجال دين نيو إنجلاند أو رجال الدولة الصارمين عند قراءة مقطع كالمقطع الآتي من مقدِّمة الكتاب:

> وفجأة انفتح باب سرِّي لقصر السلطان، وخرجت منه عشرون امرأة، تتوسطهن السلطانة … خلعت النساء نُقُبَهن وأرديتَهن الطويلة، ليتمتعن بحريةٍ أكبر، أمام عشرة من الخدم السود … وأخذ كلٌّ منهم عشيقته. أما السلطانة فلم تقف طويلًا وحدها، بل صفَّقت بيديها … وفورًا ظهر لها عبدٌ أسود … جرى ناحيتها مسرعًا، واستمرَّت هذه الجماعة معًا حتى منتصف الليل، وبعد أن اغتسلوا جميعًا في بحيرة كبيرة … ارتدوا ملابسهم ودلفوا مرةً أخرى إلى داخل القصر.[3]

أضفت عجائب الكتاب المقدَّس والمثيرات الحسية على الشرق الأوسط جوًّا كالأحلام، ولكن هل كان ذلك يكفي لجذب الغربيِّين إلى زيارة المنطقة والمخاطرة بمواجهة سِماتها الأخرى الأقلَّ إثارةً وجاذبية؟ كانت إجابة غالبية الأمريكيِّين أكثرَ مباشرةً من الأوروبيين للغاية: الشرق الأوسط يمثِّل لهم فرصةً للتحرك. وباعتبار الأمريكيِّين مواطني دولة مشهورة باحترام الفردية والنشاط، وشعبًا محبًّا للحركة بحيث جعل حتى كراسيه «هزازة» — كما لاحظ أحدُ الأجانب — فإنهم كانوا يعشقون الحركة ويتوقون للمغامرة.

لذلك كان هناك آلافُ المغامرين الأمريكيِّين التواقين إلى البحث عن مساحاتٍ واسعة ومناطق جديدة. ولم تكن المساحات الشاسعة لقارة أمريكا الشمالية كافيةً لبعضهم لإشباع حبِّهم للمغامرة والتَّرحال. فكانوا لا ينظرون فقط إلى البرِّية غرب نهر أوهايو وما وراء المسيسبي، ولكنهم كانوا يتطلَّعون أيضًا إلى الاتجاه المضاد، نحو الشرق. فالشرق كان يعني لهم أكثرَ من الخيال؛ فقد كان أفقًا بلا حدود، ينتظر الاستكشافَ والمغامرة. وأما الأمريكيون من أمثال جون ليديارد المغامر الرومانسي، فكان الشرق الأوسط يمثِّل الحدود النهائية المنشودة عندهم.[4]

أمريكي من كونيتيكت في مصر

وصل ليديارد إلى تلك الحدود في الأسبوع الأول من يوليو ١٧٨٨، عندما رست سفينته في الإسكندرية بمصر، كان ميناء متربًا شديدَ الازدحام، يتكدَّس فيه ستة آلاف نسمة، كانت المدينة خامدةً لكن تعمُّها الفوضى في نفس الوقت، ولم تكن تحمل أثرًا لمجدِها الغابر، ولم تكن تحمل ملامحَ أساطير الشرق الأوسط التي كانت تملأ خيال ليديارد. ولذلك كتب في بداية خطاب إلى جيفرسون: «يبدو منظر الإسكندرية عامةً أكثرَ بؤسًا مما كنت أتخيَّل». وكانت المآسي التي يعانيها سكانُها أكثرَ من أن يحصيَها؛ «الفقر والسطو والقتل والشغب والتعصُّب الأعمى والاضطهاد والأوبئة القاتلة».

كان الانهيار الذي شهِده ليديارد عرَضًا من الأعراض التي أصابت الإمبراطورية العثمانية، التي كانت مصر لا تزال جزءًا منها في أواخر القرن الثامن عشر. وكثيرًا ما كان الغربيون يطلقون عليها تركيا أو الباب العالي (نسبةً إلى بابِ قصرِ كبيرِ الوزراء)، نشأت هذه الإمبراطورية في القرن الرابع عشر وتوسَّعت بانتظامٍ لتسيطر على الشرق الأوسط بأكمله، إلى جانب أجزاءٍ كبيرة من آسيا الوسطى وشرق أوروبا. وكان الجيش العثماني القوي قد قام بغزوات متكررة ضد أوروبا المسيحية انتهت بحصارِ فيينا عام ١٦٨٣. ولكن هذا الهجوم كان نقطةَ القمة للإمبراطورية التي بدأت بعدها في الانهيار. وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر أفلَ نجمُ العثمانيِّين ولم يعودوا أشباحًا تخيف الغربَ كما كانوا من قبل. فأهلُ فيينا الذين كانوا يصابون بالرعب لمجرد ذكرِ «جماعات البربر» و«الأتراك المتوحشون» عندما وقفوا على أبوابِ مدينتهم، أصبحوا اليوم يتمتَّعون بأحدثِ صيحات الملابس التركية، ويرتادون المسرحَ لمشاهدة «اختطاف من جناح الحريم»، وهي

أوبرا كوميدية من تلحين موتسارت تدور حول عملية إنقاذ امرأة إسبانية من جناح حريم عثماني.

كان انهيار الإمبراطورية أوضحَ ما يكون في الأقاليم الناطقة بالعربية. وهذه الدول التي كانت يومًا ما ممالكَ ثرية ومتنوِّرة ومهدَ روَّاد عالميِّين في العلوم والرياضيات؛ قد أصبحت في نهاية القرن الثامن عشر مجرَّد مناطقَ متخلِّفة شبه إقطاعية. ولم يُصِب التغييرُ حياةَ القطاع العريض من السكان إلا قليلًا منذ العصور الوسطى. فلم تكن هناك مطابعُ ولا ساعات ولا مؤسسات علمية حديثة. كانت الطُّرق الممهَّدة نادرة، وبسبب عدم وجود سلطة مركزية قوية كان المسافرون معرَّضين لمخاطرَ كثيرة. ولم يجرؤ على اقتحام هذه المنطقة الخطِرة إلا قليلٌ من الأوروبيين، وكان وجودهم ينحصر في المدن الساحلية، حيث كانوا يعيشون تحت حماية قنصلياتهم. أما السكان المحليون فلم تكن لديهم هذه الميزة، فبعد ضَعف السيطرة العثمانية، أصبح الفلاحون تحت رحمة حكام الأقاليم وعصابات اللصوص.

وكانت الأوضاع سيئةً بصورةٍ خاصة في مصر. فقد كان نحو ثلاثة أو أربعة ملايين نسمة لا يملِكون إلا ما يقيم أودَهم، وكانت الأمراض والمجاعات تفتك بهم سنويًّا. وبدلًا من محاولة التغلُّب على تلك المآسي، كان حكام الدولة العثمانية يعيشون في صراعٍ دائم على السلطة مع أسرة المماليك المحليين، كانوا يدمِّرون القرى ويدوسون بأقدامهم الفلاحين التعساء. وعام ١٧٨٨، عندما كان موتسارت على وشْك تأليف أوبرا ثانية تقع أحداثها الخيالية في الشرق الأوسط، هي أوبرا «الناي السحري»، وبعد قليل من وضعِ الولايات المتحدة لهرمٍ على الجانب الخلفي لخاتمها الرسمي، كانت مصر — مهد الحضارة — قد وصلت إلى أدنى درجات الانحطاط.[5]

كانت هذه هي مصر المتدهورة التي قابلها ليديارد في الإسكندرية، ومع ذلك فقد رفض ليديارد أن يصدِّق أن انهيار المدينة كان مثالًا على انهيار البلد كلِّه، فرحل إلى القاهرة بحثًا عن الشرق الأوسط الأسطوري. استغرقت الرحلة خمسةَ أيام في النيل، وهي تجربة كان يتوق لها بشدة، لكنه هنا أيضًا أُصيبَ بالإحباط. وتساءل: «هل هذا هو النهر العظيم ملِك الأنهار، الذي تحوَّل إلى إحدى عجائب الدنيا؟!» لم يكن النهر في تقديره الشخصي يزيد على نهر كونيتيكت إلا قليلًا.

وفي القاهرة قدَّم ليديارد خطابَ اعتماده الملكي إلى سنيور روزيتي، قنصل فينيسيا القائم بمصالح بريطانيا في المدينة، وعلِم ليديارد أنه كما يشير الغربيون إلى كل

شعوب الشرق الأوسط بـ «الشرقيين»، فإن مسلِمي الشرق الأوسط ينظرون إلى الأوروبيِّين والأمريكيِّين باعتبارهم «فرنجة»، وهو لفظٌ أطلقوه عليهم منذ عهد الحملات الصليبية. ونصحَه القنصل من أجل سلامته بألا يكثرَ من الظهور وأن يسافر مرتديًا الزي الوطني لأهل البلد. وكانت فكرةُ أن يخفيَ المسيحي هويَّته فقط لإرضاء المسلمين فكرةً «مذلة ومهينة ومؤلمة للغاية» من وجهة نظر ليديارد. وقد شكا لجيفرسون من «العار الذي يلحق بأبناء أوروبا؛ إذ يُضطرون إلى تحمُّل تلك العجرفة على يد عصابات من المتعصبين الجهلة»، ومع ذلك فقد عمِل ليديارد في النهاية بنصيحةِ القنصل. فاستبدل بسرواله الأوروبي الضيِّق وقبَّعته الغربية سروالًا شرقيًّا وعمامة، ونجح بذلك في قضاء ثلاثة أشهر مثمرة في استكشاف النيل دون مضايقات.

في جميع تلك الرحلات، أثبت ليديارد أنه مراقبٌ دقيق لتضاريس مصر ومعالمها؛ فقد سجَّل ارتفاع الأهرامات ومدى الامتداد العمراني، وحاول التكهُّن بطول القوافل. وتعاطفَ ليديارد مع أحوال العامة، مقدِّرًا أنها «أدنى من أحوال أيِّ مكان غير متمدن». ودفعه فضوله أيضًا إلى ساحات المعارك بين جيوش المماليك والعثمانيين، التي لم تكن قد انتهت إلى نتيجةٍ حاسمة في ذلك الوقت. وبسبب شعور القائد المملوكي بالإحباط لهذه النتيجة غير الحاسمة طلب من ليديارد أخيرًا أن يقود جيوشَه. وعلَّق الأمريكي على ذلك قائلًا: «هذا أبعدُ ما يمكن أن يصل إليه أمريكي من كونيتيكت؛ أن يُعرض عليه الاضطلاع بدور في الحرب الأهلية بمصر.»

لقد أحزن ليديارد كثيرًا مدى التدهور الذي وصلت إليه مصر، وألقى باللوم في ذلك على روسيا، بسبب إضعافها لتركيا، وربما كان ذلك بعضًا من بقايا نقمته على كاثرين «إمبراطورة روسيا»، لكنه ألقى باللوم أيضًا على المسلمين بسبب «إيمانهم بالخرافات ولكونهم مجموعة من عصابات الحرب»، وعلى الإسلام «الذي أضرَّهم أكثرَ من أي شيء آخر» أيضًا. وكان معجبًا من ناحيةٍ أخرى بقدرة المسلمين على المزجِ بين التقوى والتجارة، وأبدى إعجابه أيضًا بـ «ارتباطهم القوي بالحرية». وكانت صورةُ البدوي الراكبِ الجمل الذي لا توقِفه حكومةٌ ولا حدود — وهي صورة مشابهة لصورة المغامر الاستعماري أولًا، ثم راعي البقر الأمريكي فيما بعدُ — موضوعًا ونمطًا مكررًا في الكتابات الأمريكية عن الشرق الأوسط، ولها تأثيرٌ مستمر على سياسة الولايات المتحدة في المنطقة.

غير أن ليديارد لم يجد في الشرق الأوسط شيئًا من الخيال باستثناء أسطورة البدوي المحب للحرية، ولم يجد بالتأكيد شيئًا من حكاياتِ ألف ليلة وليلة. وشكا لجيفرسون

قائلًا: «لا شيءَ يستحق السخرية أكثر من الخرافات الشعرية والنثرية التي تحكي عن هذا البلد.» وقارن بين الأشجار اللامعة و«الهواء المحمَّل بالتراب والحرارة، والحشرات والناموس والعناكب والذباب والبرص والحمَّى والعمى المنتشر بشدة». ومثل جيفرسون كان ليديارد ينظر إلى مجتمع الشرق الأوسط باعتباره مرآةً تعكس ما يحدُث في أمريكا، فمقابل الكراهية والظلام في الشرق الأوسط يوجد التنوير الأمريكي. فكتب: «مصر جميلة، ولكن على الورق فقط.»

في تلك الأثناء كان ليديارد يُعِدُّ لرحلته إلى أفريقيا. فاستشار القائد المملوكي إسماعيل بك، الذي حذَّره من قُطَّاع الطرق القادرين على التحول إلى حيواناتٍ مفترسة، ونصحه أيضًا أن يسافر بمتاعٍ قليل وألا يحمل مقتنياتٍ ثمينة. ثم حجز له مكانًا في القافلة التالية المتَّجهة إلى مدينة سِنَّار التي تبعُد أكثرَ من ألف ميل إلى الجنوب. وفي خطابه الأخير بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٧٨٨ نصح ليديارد جيفرسون بألا يأتيَ إلى مصر أبدًا، وأن يحرق كلَّ كتابات سافاري وثوسيديدس وهوميروس — التي تصوِّر مباهجَ الشرق وعجائبه. ثم ودَّع صديقه بطريقته الدرامية المميزة قائلًا: «أنا ذاهب وحدي ... لا تنسني فأنا لن أنساك ... والحق أن عزائي الوحيد سيكمُن في تفكيري فيك وتذكُّرك في لحظاتي الأخيرة. فعِش سعيدًا.»[6]

كان هذا بالفعل الوداعَ الأخير. فقد أُصيب ليديارد بنوبة عصبية بسبب انزعاجه من تأخُّر رحيله أدَّت إلى إصابته بمرض الصفراء. ولعلاج تلك الحالة تناولَ ليديارد جرعات كبيرة من زيت الزاج (الاسم القديم لحمض الكبريتيك) ثم لجأ إلى تناولِ تركيزٍ عالٍ من الطرطير المقيِّئ (مادة سامة كانت تُستعمل قديمًا دواءً مقيِّئًا). وبدأ بعدها في تقيؤ الدماء، ثم وُضع تحت رعاية «أشهر الأطباء في القاهرة»، وبعد أربع وعشرين ساعة تُوفي الرجل الذي كان قد أكَّد لوالدته قبل وفاته بقليل أنه «يتمتَّع بكامل الصحة والعافية»، وأنه «سحق العالم تحت قدميه وسخِر من الخوف ولم يأبه للخطر».

دُفن جون ليديارد في تلال الرمال على ضفاف نهر النيل في مقبرةٍ متواضعة، لم يَعُد موقعها معروفًا اليوم. وترك وراءه مخطوطةً لم تُنشر بعنوان «تقديرًا للنساء»، وصف فيها الجنس الآخر بأنهن «لطيفاتٌ مهذَّبات كريمات عطوفات رقيقات»، لكنه لم يترك متاعًا شخصيًّا يُذكر.[7] إلا أن الإنجاز الذي حقَّقه كان هائلًا. فقد كانت أول مرة يسافر فيها مواطنٌ أمريكي إلى الشرق الأوسط ويكتب تقاريرَ دقيقة عنه، وكان حينئذٍ منطقةً لا يعرفها الأمريكيون إلا عن طريق الإنجيل والقصص الخيالية.

وضَحَ تأثير هذا المثال عام ١٧٩٢، عندما عدَّد هنري بوفوي مآثرَ ليديارد في مجلة المرأة، وهي مجلة شهرية رائدة تصدر في فيلادلفيا. بدأ المقال بسلسلة من القصص العاطفية تدور حول موضوعاتٍ شرق أوسطية، قصص تشبه «ألف ليلة وليلة» عن المرأة في الشرق الأوسط التي «تصبح جريئةً صعبةَ المراس عندما تسيطر عليها عاطفة الحب مع أنها رقيقة وخجولة بصفة عامة». ولكن كانت هناك أيضًا دراسات مفيدة عن عادات المصريِّين والشراكسة والدروز ووصفًا لمدن الشرق الأوسط يؤكِّد صحة انطباعات ليديارد. فقد كتب مسافرٌ مجهول: «كلُّ مَن يتعرَّف حديثًا بهذه المناطق ينبهر بتنوُّعها، وتختفي كل فكرة كوَّنها بنفسه، لكنه يبقى غارقًا في الانبهار والدهشة.»

وبانتهاء القرن وبدء قرن جديد، سار أمريكيون آخرون على دربِ ليديارد، فرحلوا إلى الشرق الأوسط، كان أحد هؤلاء جويل روبرتس بوينسيت من تشارلستون، الذي أصبح فيما بعدُ وزيرًا للحربية، وهو أيضًا مكتشف الزهرة التي لا تزال تحمل اسمه. وعندما نزل ضيفًا على الشاه الفارسي عام ١٨٠٦، كُرِّم ورُفِّه عنه بـ «فتيات جميلات راقصات مرتديات سراويل حمراء طويلة، ويغطي وجوههن النِّقاب». وشاهد أيضًا «بِركة بترول» أو «أرض النار الأبدية» التي تنبَّأ بأنها ستُستخدم يومًا ما وقودًا. بعد ذلك باثني عشر عامًا نبتت في رأس جورج باريل من بوسطن «فكرة الاستماع إلى الناي الشرقي وصوتٍ عذبٍ لشقراء شركسية» بعد قراءته قصصًا خياليةً شرقية عديدة. لذلك شدَّ الرِّحال إلى الأناضول، ولكنه اكتشف أن صوت الناي يشبه «موسيقى القِرَب عندما تؤدَّى على نحوٍ سيئ» وأن الشركسيات الشقراوات يوجدن فقط في سوق الجواري. ومع ذلك ظل باريل يحثُّ الأمريكيِّين على التخلي عن «أفكارهم وتحيُّزاتهم المسبقة» السلبية عن الشرق، وأن يحذوا حذوَه في السفر إلى هناك.

أبقَت هذه الحكايات — حتى عندما كانت تزيل الغموضَ المحيط بالشرق الأوسط — على الخيالات المحيطة بالشرق الأوسط، وأغرت أعدادًا متزايدة من الرجال والنساء بالذهاب إلى سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين. وظلَّ مَن بقي منهم في بلاده يحلُم بالمنطقة. وصدر نحو ثلاثين كتابًا عن مصر في الولايات المتحدة في الربع الأول من القرن التاسع عشر وحده، وسُمِّيت أربع مدن أمريكية على الأقل القاهرة، وثلاث مدن بغداد والمدينة. وسُمِّيت مدينتان مكة، وواحدة حلب وأخرى الجزائر. وبعد أن أزالت رحلات ليديارد الغموضَ المحيط بالشرق الأوسط، ظل الشرق الأوسط محطَّ أنظار كثير من الأمريكيِّين، سواء المغامرون أو كبارُ السياسيين، ومنهم توماس جيفرسون.

كان جيفرسون يظن طَوال الوقت أن ليديارد سيعود من مصر ويبدأ بتنفيذ خطته للسفر عبْر أمريكا على قدميه بحثًا عن الممر الشمالي الغربي. وانهارت تلك التوقعات في مارس ١٧٨٩ عندما قرأ جيفرسون خبرَ وفاة صديقه في إحدى صحف باريس. فأسرع بالكتابة إلى توم بين الذي كان قد انتقل إلى لندن طالبًا منه التأكُّد من ذلك بالتعاون مع الجمعية الأفريقية. وكتب له بين معزيًا: «... كان ليديارد عضوًا محبوبًا ومميزًا في الجمعية، وهي تنعاه بكل الأسى والأسف.» وأطرى سير جوزيف بانكس، أحدُ أهم رعاة ليديارد في لندن، مواهبَ ليديارد، مؤلفًا ومفكرًا مستنيرًا. قال: «هذا الرجل، خصبُ التفكير وواسع المدارك.»[8]

حقَّق جيفرسون في النهاية حُلمه بشَقِّ طريق عبْر أمريكا الشمالية، بمساعدة المستكشفَين لويس وكلارك. ولكن في الوقت الراهن كان اهتمامه برسم السياسة الخارجية لبلاده يفوق اهتمامَه باستكشاف أجزائها الداخلية. وكانت علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط من بين أهم وأعقد الموضوعات التي كانت تواجه الرئيس المستقبلي. وهنا ظهرت قيمةُ مشاهدات ليديارد. فقد مكَّنت جيفرسون من رؤيةِ المنطقة بعيونٍ أمريكية؛ ثاقبة النظر، وحرَّرته من الخيالات. فتمكَّن جيفرسون بصفته رئيسًا للولايات المتحدة من التعامل مع الشرق الأوسط على نحوٍ يخلو من الأوهام والخيالات، ويركِّز فقط على القوة.

الفصل الثالث

بوتقة الهوية الأمريكية

كان ويليام بينبريدج ابنًا لطبيب ناجح من نيويورك، وكان بحَّارًا في سن الخامسة عشرة، ثم أصبح قبطانًا قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وكان زوجًا محبوبًا وأبًا لأربعة أبناء، يحترمه ضباطه وطاقم العاملين معه، وربما كانت تنتظره حياةٌ عظيمة، لولا حظُّه التَّعس الذي كان يصاحبه دائمًا. ففي مواجهة مع سفينتين حربيتين أثناء «شبه الحرب» مع فرنسا مثلًا اضطُر إلى التخلي عن قيادة السفينة «ريتالييشن» دون إطلاق قذيفة واحدة.

ومرةً أخرى تدخَّل سوء حظه في سبتمبر ١٨٠٠، عندما تلقى أوامرَ بالإبحار بالسفينة «جورج واشنطن» باتجاه الشرق الأوسط. ظلَّت الولايات المتحدة أكثرَ من ثلاث سنوات تقتطع جزءًا كبيرًا من دخلها القومي لتقدِّمه إتاوةً إلى دول البربر. وكثيرًا ما كانت موانئ شمال أفريقيا تستضيف السفن الأمريكية التي تحمل الأخشاب والبهارات والأسلحة وغير ذلك، بهدف إثراء واسترضاء الحكام المحليين. وكانت حمولة جورج واشنطن قد بلغت قيمتها نحو ٥٠٠ ألف دولار من البضائع الموجَّهة إلى الجزائر إتاوةً.

من وجهة نظر بينبريدج كان تسليمُ هذه الإتاوة يُعَد من الخزي والعار، وضاعفَ من إحساسه بذلك أن جورج واشنطن كانت أول سفينة في الأسطول البحري الأمريكي تدخل البحر المتوسط. ومع ذلك فقد توقَّع بينبريدج — باعتباره ممثلًا لبلاده — أن يُظهر له الآخرون الاحترام، لكنه تلقَّى على العكس من ذلك وابلًا من الإهانات. إذ قال له الداي حسن: «أنتم تدفعون إتاوةً تصبحون بها عبيدًا لي.» وعلى الرغم من استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية، فإنها كانت لا تزال تدفع إتاوةً للسلطان، وهذه المرة أمرَ الداي حسن بينبريدج أن يحمل تلك الإتاوة إلى إسطنبول. وعندما رفض القبطان، ذكَّره الداي حسن بأن السفينة «جورج واشنطن» ترسو تحت مدافع المدينة تمامًا، وفي مرمى نيران السفينة

«كريسنت»، وهي سفينة تحمل ٣٢ مدفعًا كان الرئيس آدامز قد منحها للجزائريين. ومن أجل «حفظ السلام … ولمنع اختطاف السفينة وأسرِ طاقمها وضباطها … ولمنع نهب واستعباد مواطني الولايات المتحدة» أذعنَ بينبريدج لأوامر الداي.

وعلى وجهِ السرعة جرى شحن جورج واشنطن بـ ١٥٠خروفًا، و٢٥ بقرة، و٥ جياد، و٤ ظباء و٤ نمور و٤ أسود، بالإضافة إلى مجموعةٍ متنوِّعة من النعامات والببغاوات. وإلى كل ذلك أضيف ما يوازى مليون دولار في شكل ذهب ومجوهرات وسلع، وصاحبَ كلَّ ذلك السفير الجزائري وعائلته ونحو مائة من العبيد الأفارقة. لم يكن بينبريدج قد بلغ بعدُ الثلاثين من عمره، وكان قوي البنية ذا وجهٍ ممتلئ وشعر مصفَّف بطريقةٍ أنيقة، وكان معتزًّا بنفسه؛ لذا ثار ضد هذا التعسف والإجحاف. أما مشهد استبدال العلم الجزائري بالعلم الأمريكي فكان أكثرَ إيلامًا لبينبريدج من المشقة والرائحة الكريهة التي عمَّت السفينة. فقال: «الخزي والعار هذان يجعلانني أفكِّر في هذه الكلمات الثلاث: الولايات المتحدة المستقلة». ثم أقسم ألا يحملَ أبدًا أيَّ إتاوة إلى الجزائر «إلا إذا سمحوا لي بتسليمها من فوَّهات مدافعنا».

استغرقت الرحلة إلى إسطنبول ثلاثة أسابيع، وكانت — كما كتب بينبريدج — «أسوأ ما يكون». لكنَّ أفراد طاقمه كانوا يجدون شيئًا من الراحة في تغيير اتجاه السفينة أثناء صلاة المسلمين، ويضحكون على المصلين في سجودهم وهم ينزلقون على سطح السفينة، ويجاهدون للمحافظة على توجُّههم ناحية القِبلة. لكن هذا الضَّحك توقَّف عندما غادرت السفينة بحر إيجة ودخلت ممر الدردنيل المحصَّن تحصينًا قويًّا. وبسبب عدم وجود «فرمان» معهم يسمح لهم بالمرور، تفتَّق ذهنُ بينبريدج عن فكرة ذكية؛ إذ أمر بإطلاق ثماني طلقات تحيةَ مدفعية، ثم انتظر أن تردَّ القلعةُ التحية، وعندها في ظل الدخان والاضطراب السائد، مرَّ بالسفينة عبْر بحر مرمرة. كانت أمامه عاصمة الإمبراطورية، أو القسطنطينية، كما كان الغربيون لا يزالون يصرُّون على تسميتها أمامه. وبذلك أصبح بينبريدج أولَ عسكري أمريكي تقع عيناه على مركزِ حكمِ العثمانيين.[1]

كان ذلك مشهدًا رائعًا للغاية بكل المقاييس؛ فقد كان يحمل مزيجًا من القباب والمآذن والقِلاع اللامعة. ولكن مع كل هذه العظمة الظاهرة فقد كانت البنية الأساسية تنخر فيها عقودٌ كاملة من الفساد وسوء الحكم والإدارة، وكان السلطان الشاب سليم الثالث قد قام بمبادراتٍ لوضع حدٍّ لهذا التدهور عن طريق قيامه بإصلاحات واسعة، ومحاولته تحديثَ جيشه. فطالب ضباطه بتعلُّم الفرنسية، وتشاور مع خبراء أوروبيين،

من بينهم ضابطُ مدفعية بارع اسمه نابليون بونابرت. ردَّ نابليون مجاملةَ سليم الثالث بغزو مصر في يوليو ١٧٩٨، ثم زحف على السواحل السورية في أكبر عملية غزو أوروبية للمنطقة منذ الحملات الصليبية. وفي ظل غارات الروس والنمساويِّين والبريطانيِّين التي حاصرت الدولةَ العثمانية من كل جانب، واستغلال التجار الأوروبيِّين للامتيازات الأجنبية التي منحها لهم الباب العالي، لم تكن إسطنبول ترحِّب بالغربيين.

ومع ذلك فقد كان بينبريدج مواطنًا تابعًا للدولة الغربية الوحيدة التي يُكِنُّ لها العثمانيون احترامًا؛ فقد كانوا يرون الولايات المتحدة مملكةً على جزيرة منعزلة نجحت في التحرُّر من الحكم الأوروبي، ولم تطمع قط في أراضي العثمانيين. وكان العثمانيون قد شاهدوا العلَم الأمريكي ذا الخطوط والنجوم مرةً واحدة فقط على صارية سفينة فرنسية زائرة يوم الاحتفال بذكرى سقوط الباستيل عام ١٧٩٣، ولكن هذه النظرة الوحيدة دام أثرها طويلًا. والآن عندما شاهدوا نفس العلم على صارية السفينة «جورج واشنطن»، وهي تشقُّ طريقها عبْر نقطة سيراجليو، قيل إن السلطان شبَّه نجوم ذلك العلَم بـ «الأجرام السماوية» الموجودة على الراية التركية، واستخلص من ذلك أن الدولتين مرتبطتان فلكيًّا.[2]

لذلك كان استقبال إسطنبول لبينبريدج وديًّا، بل أخويًّا. فاستُدعيَ إلى قصر قائد البحرية العثمانية وشقيق زوجة السلطان، وهناك أبهر القبطان مستمعيه بقصص في وصف بلاده. وبسبب هذا الانبهار وبتأثير هذا الانطباع الجيد، كتب قائد البحرية العثمانية إلى ويليام لوتون سميث — أول مبعوث أمريكي يوفَد إلى الباب العالي — يصفُ له مدى سعادته لاستضافة القبطان الأمريكي وسفينته، ومعبرًا عن أمله في زياراتٍ مماثلة في المستقبل. ثم أغدق على بينبريدج الهدايا، ووافق على طلبه بإلغاء حكم إعدام الضابط المسئول عن مضيق الدردنيل، الذي سمح للسفينة الأمريكية بالمرور. وقُدِّمت تحية ملكية للسفينة «جورج واشنطن» عند خروجها من المضيق عائدةً إلى موطنها محاطة بكل حفاوة.

ولكن الحفاوة التي قوبل بها بينبريدج في إسطنبول لم تخفِّف وطأةَ الإهانة التي تعرَّض لها في الجزائر. ولم يهدأ غضبه حتى عقب عودته إلى الولايات المتحدة وحصوله على وسام الشجاعة. وقال بينبريدج محنقًا: «آه لو أدرك الأمريكيون ضَعف القراصنة، إذن لاختاروا الحربَ بلا شك. فأنا واثق أنهم ما كانوا ليستمروا في دفع الإتاوة لهؤلاء الكفرة الدنيئين!»[3]

محنة وانتصارات

لم يكن بينبريدج وحدَه يشعر بالغضب. فحسب قول وزير الخارجية جيمس ماديسون، «أثَّرت صفاقة الداي كثيرًا في مشاعر» الشعب الأمريكي، ورئيسه الجديد، توماس جيفرسون.

ففي الأعوام الخمسة عشر التي تعامل فيها جيفرسون مع هذه القضية، كان موقفه من دول البربر ثابتًا لا يتغيَّر. فقال: «لا نهاية لمطالبهم، ولا أمان لوعودهم مطلقًا.» واستمر على إيمانه بأن القوة — وليست الإتاوة — هي الردُّ الذي يحفظ لأمريكا كرامتها ومالها، ثم أعلن أنه «عدوٌّ لكل تلك الرشاوى والإتاوات والمذلة.» وأقسم بصفته رئيسًا ألا يُذعِن للابتزاز بعد ذلك أبدًا. بل قرَّر «إرسال سفن أمريكية إلى سواحل شمال أفريقيا» وإرسال «البارود والرصاص اللازمين لتأديب الجزائريين».

ومع ذلك، ولأنه رجل المتناقضات على الدوام، فقد تولَّى جيفرسون منصبَ الرئاسة داعيًا إلى انعزال أمريكا عن الشئون الدولية، ومكررًا معارضته للمواجهات العسكرية. ثم أخرج عددًا من سفن الأسطول من الخدمة، وخفَّض أعداد الضباط العاملين عليها. والغريب أنه ظل يتطلع إلى تكوين تحالف دولي ضد البربر، والعمل «بالتناوب» مع القوى الأوروبية لتخليص البحر المتوسط من القراصنة.

ولكنَّ الأوروبيِّين لم يتخلَّوا قط عن نفورهم المبدئي من فكرة التحالف التي طرحها جيفرسون. وفي تلك الآونة تضاعفت «إهانات شمال أفريقيا»، كما كان الرئيس يطلق عليها. فقد استولت طرابلس على السفينتين الأمريكيتين كاثرين وفرانكلين وطالبت بزيادة الإتاوة بمقدار ١٠٠ ألف دولار، وطالبت تونس أيضًا بالمزيد؛ أربعين مدفعًا و١٠ آلاف بندقية وسفينة تحمل ٣٦ مدفعًا، ولخَّص جيمس كاثكارت القنصل الأمريكي في تونس، الموقفَ بتأكيده أن «شراء السلام مع طرابلس معناه الحرب مع تونس». وكان الخيار القائم أمام الولايات المتحدة آنذاك بسيطًا للغاية؛ فإما أن تتخلَّى تمامًا عن التجارة عبر البحر المتوسط، أو تستعد للحرب من جانب واحد.[4]

واختار جيفرسون الحربَ، ولكن هذا الاختيار واجهته عقبةٌ قانونية كبيرة. فدستور الولايات المتحدة — الذي كان الردُّ على تهديدات البربر من بين أسباب وضعه — يجعل إعلانَ الحرب من حق الكونجرس فقط، وليس الرئيس. ولأنه لم يكن واثقًا من اتخاذ الكونجرس مثلَ هذا القرار، قرَّر جيفرسون أن يتخطى المجلس التشريعي بإصدار أمر ببدء عملية إحكام للسيطرة، وهو ما يكاد يكون إعلانًا للحرب. وبناءً على ذلك صدرت

أوامرُ للبحرية بتنفيذ الاتفاقيات القائمة مع شمال أفريقيا، ولكن مع الرد على أي اعتداء للقراصنة بـ «حرق سفنهم أو إغراقها أو تدميرها».

وقد أرسى جيفرسون سابقةً للرؤساء الأمريكيِّين بالتفافه حول الكونجرس وتحايله عليه بالموافقة على القيام بعمليةٍ عسكرية في الشرق الأوسط. ولكن في حالته لم تكن هذه المناورة ضرورية. فبينما كان جيفرسون يتَّخذ قرار التحرك، اشتعل التوتر مع طرابلس. فقد حذَّر يوسف قرمنلي باشا القنصل الأمريكي كاثكارت بأن «التباطؤ في دفع المستحقات التي تدينون بها لن يكون في مصلحتكم». وفي ١٤ مايو ١٨٠١ سارت جيوش قرمنلي نحو القنصلية الأمريكية، وحطَّمت سارية العلم. وهي طريقةُ طرابلس التقليدية في إعلان الحرب. وهكذا أُعلنت الحرب رسميًّا على الولايات المتحدة لأول مرة منذ حصولها على الاستقلال.[5]

لم تنتظر الولايات المتحدة وقوعَ أي عدوان آخر من طرابلس، بل أرسلت فيلقًا إلى الشرق الأوسط على وجه السرعة. ووصلت البوارج «إسيكس» و«بريزيدنت» و«فيلادلفيا» مع القارب «إنتربرايز» الذي يحمل اثني عشر مدفعًا إلى جبل طارق؛ حيث حاصرت السفينة «ماشودا» — السفينة المنكوبة بيتسي سابقًا — في الميناء. ثم عَبَرت البحر المتوسط لحصار ميناء طرابلس وإطلاق بضع قذائف على المدينة «لإمتاع» قرمنلي. وفي أثناء تلك العمليات صادفت السفينة «إنتربرايز» السفينةَ «طرابلس»، وهي من سفن العدوِّ تحمل أربعة عشر مدفعًا. وعندئذٍ لجأت إنتربرايز إلى حيلةٍ كانت تُعَد في ذلك الوقت مقبولةً في الحروب البحرية، فرفعت علم بريطانيا، واقتربت حتى أصبحت سفينةُ العدوِّ في مرمى نيرانها. وفجأةً رفعت العلم الأمريكي، وأمطرت السفينةَ «طرابلس» بوابل من الرصاص، فمزَّقت أشرعتها وقطعت حبال صواريها. ثم اقتحمت فرقةٌ من طاقم «إنتربرايز» بقيادة القبطان ديفيد بورتر سفينةَ القراصنة وألقت حمولتها وأسلحة طاقمها في البحر، وجرَّدوا قبطانها الريس محمد سوس من سيفه. وسُمح للسفينة «طرابلس» بالعودة إلى ديارها، حيث جُلِد سوس علنًا، وأُلقيت عليه القاذورات. ومن بين طاقمه البالغ ثمانين بحَّارًا، جُرح ثلاثون وقُتل ثلاثون، ولم يُصَب أمريكي واحد.[6]

كانت أول مواجهة أمريكية في الشرق الأوسط نصرًا ساحقًا للأمريكيِّين، لكنه كان نجاحًا قصيرَ الأمد للغاية. لم يجد قباطنة طرابلس بأسطولهم وسفنهم ذات الغاطس القليل العمق مشقةً في تجاوز الحصار في الميناء. وحتى السفينة «ماشودا» فرَّت من الحصار. وأذهل ذلك قائدَ الفيلق ريتشارد ديل، المحاربَ المحنَّك الذي أُسر مرتين وأُصيب

ثلاث مرات في حرب الاستقلال، والذي أبحر تحت قيادة جون بول جونز. لعن ديل «أهلَ شمال أفريقيا جميعًا؛ الجزائريِّين والتونسيِّين وأهالي طرابلس»، ولم يرَ وسيلةً لحماية التجارة الأمريكية غير الاحتفاظ بقوة أمريكية دائمة في البحر المتوسط، تتكوَّن من أربع بوارج على الأقل. وإلا فلن يكون أمام الولايات المتحدة خيارٌ سوى اللجوء مرةً أخرى للرشوة.

صاح جيفرسون العصبيُّ المِزاج في مجلس وزرائه ووجهه يزداد احمرارًا: «هل نشتري السلام؟» وأدرك أن الانتصار لا يمكن أن يتحقَّق دون أسطولٍ أكبر بكثير، ولكن ذلك كان يتطلب إعلانًا للحرب، وهو دور الكونجرس الذي كان في نية الرئيس أن يتحاشاه من البداية. ولكن المدهش أن الكونجرس كان متجاوبًا. فقال نائب فرجينيا جون ستراتون: «أنا مقتنعٌ تمامًا أن مواطنينا المشتغلين بالتجارة لهم الحقُّ نفسه في الحماية مثل المزارع الذي لا يغادر موطنه ويقيم بمزرعته.» وفي ٦ فبراير ١٨٠٢، أصدر الكونجرس قانونًا بحماية تجارة الولايات المتحدة وبحَّارتها ضد قراصنة طرابلس، وكان هذا القرار بمثابةِ إعلان فعلي للحرب.[7]

زاد حجمُ الفيلق ليصبح خمس بوارج وسفينة، ودُعِّم بفرقة من الجنود، وسُمح له باستخدام «كل قوَّته لإبقاء سفن العدوِّ في موانئها، وأن يهاجم أيَّ سفينة تحاول الفرار ويستولي عليها». ولكن كانت هذه المحاولة محكومًا عليها بالفشل، تمامًا مثل المحاولة الأولى ضد طرابلس.

لاحت نُذُر هذا الفشل في ليلة ٢٥ مايو، عندما غرِق أحد عشر قاربًا محملًا بالقمح على ساحل طرابلس، وتمكَّن فريق بقيادة الضابط بورتر من إضرام النار في نصف القوارب وتشتيت طاقمها غير المدرَّب. وقال ضابط البحرية هنري وادزورث، عمُّ الشاعر لونجفيلو: «لا بد أن أعترف أنه كان تدريبًا جيدًا.» ولكنَّ الطرابلسيِّين تمكَّنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، وأطلقوا نيرانًا كثيفةً أصابت بورتر في فخذيه، وخلَّفت خمسة عشر قتيلًا من البحَّارة. وهكذا سقط أول ضحايا أمريكا في القتال بمنطقة الشرق الأوسط دون أن تحرز أمريكا نجاحًا يُذكر.

وظلَّت سفن طرابلس تتجنَّب البوارج الأمريكية، أو تسرع نحو الشاطئ إذا أصبحت على مرأًى منها بحثًا عن الأمان تحت مدافع المدينة. وكان إحباط الأمريكيِّين قد زاد بسبب قائدهم ريتشارد موريس، الذي كان يبدِّد شطرًا كبيرًا من وقته على موائد العشاء مع الضباط البريطانيِّين في جبل طارق، بصحبة زوجته وابنه. وبدلًا من حشد قواته للقيام

بهجوم منظَّم، وصل موريس إلى شواطئ طرابلس وهو يلوِّح بعلم أبيض و٥٠٠٠ دولار رشوة للباشا.

كان يوسف قرمنلي — الذي وصفه كاثكارت بأنه «رجلٌ حثالة فاقد لأي إحساس بالشرف» — حاكمًا قاسي القلب، استولى على السلطة بقتل أحد أخويه ونفي الآخر، ولم يكن رضاؤه يُشترى بثَمن بخس. ولم يكن من السهل إخافته. وقد قال لموريس «إنني لا أخشى الحرب؛ فهي مهنتي.» وكان الباشا قد توصَّل إلى أن الأمريكيِّين لا يختلفون عن الأوروبيِّين في شيء، وأنهم «سيتحدَّثون كثيرًا، ولن يفعلوا شيئًا، وسيأتون في النهاية خاضعين، طالبين السلامَ حسب شروطي أنا». ولذلك طالب الولايات المتحدة بهدايا قيمتها ٢٠٠ ألف دولار، بالإضافة إلى ٢٠ ألف دولار تُدفع سنويًّا. وذُهل موريس من هذه المطالب الضخمة، وخشي أن يَقبض عليه قرمنلي ويطالب بفديةٍ مقابلَ إطلاق سراحه، فهرب إلى سفينته. ولكنَّ البحرية الأمريكية حاكمته عسكريًّا بسبب «سلوكه السلبي العشوائي» وجرَّدته من رتبته.[8]

كان جيفرسون قد أقسم أن «يعتمد أمان تجارتنا على ... قوَّتنا وشجاعتنا في البحار»، لكن مثل هذه الوعود كانت تبدو جوفاء عام ١٨٠٣. شجَّع تحدي طرابلس للولايات المتحدة تونس والجزائر أيضًا، فرفعتا مطالبهما بالإتاوة، وأعلن المغرب أيضًا الحربَ فجأةً على الولايات المتحدة. ونصح روفوس كينج — مبعوثُ أمريكا إلى بريطانيا — حكومتَه قائلًا: «لا بد أن يكون أمنُنا في مواجهة البربر قائمًا على القوة وليس على المعاهدات؛ على السفن الحربية وليس على الهدايا والمساعدات.» ووافقه جيفرسون على ذلك بكل تأكيد، لكنه كان مثقلًا بالديون بسبب شراء ولاية لويزيانا من فرنسا، وكان الاحتفاظ ببارجتين فقط في البحر المتوسط يمثِّل عبئًا ماديًّا، فضلًا عن شن هجوم شامل.

كان الرئيس يتمتَّع بميزة واحدة مهمة. تلك الميزة تمثَّلت في القائد الجديد لأسطوله إدوارد بريبل الذي كان يعمل ضابطًا بحريًّا صارمًا في الثانية والأربعين من عمره من مدينة مين، وكان مهووسًا بالانضباط والنظافة. ولم تؤثِّر الأمراض العديدة التي أُصيب بها في سفينة سجن بريطانية أثناء الثورة في مظهره القوي، أو شَعره الأحمر الناري وأنفه المخلبي، أو رغبته في مواجهة القراصنة. قال بريبل «إن البربر شرذمةٌ من الأوغاد الخبثاء المخادعين الخونة»، وأقسم «أن يضرب ... صاحب السمو البربري» الباشا «حتى نصل إلى وضعٍ أكثرَ ملاءمة لوجهة نظرنا من الوضع الحالي».[9]

كان ويليام بينبريدج يبحر تحت قيادة بريبل، وبينبريدج هو قبطان السفينة جورج واشنطن العاثر الحظ الذي تعافى من آثار الخزي الذي تعرَّض له في الجزائر ليقود واحدةً

من أفضل البوارج الأمريكية، وهي السفينة «فيلادلفيا» التي تحمل ٣٦ مدفعًا. وبعد دخول البحر المتوسط بقليل عام ١٨٠٣ اشتبك بينبريدج مع السفينة المغربية مركوبة، التي ثبَت عند معاينتها أنها البارجةُ الأمريكية المسلوبة «سيليا»، وطاقمها مقيَّد بالسلاسل في باطن السفينة. وكتب القبطان في تقريره أنه «يتمنَّى أن يحقِّق هذا الأسر نتائجَ طيبة لمصلحة الولايات المتحدة»، مؤكدًا «التسامح» و«الإنسانية» اللذين يجدهما الأسرى المغاربة «لترك انطباع طيب في نفوسهم عن الشخصية الأمريكية».

وفي غضون ذلك ألقى بريبل مرساتَه في ميناء طنجة وطلب مقابلةَ الإمبراطور. وعندما اقترب منه دون أن ينحنيَ له أو يخلع سيفه سأله سليمان: «هل تخشى الأَسر؟» فأجاب بريبل: «لا، وإذا أقدمتَ على ذلك فإن سفني ... ستدمر مدفعيتكم وقلاعكم ومدينتكم بأسْرِها.» وفي الحال وافق المغرب على تجديد اتفاقية عام ١٧٨٦ دون قيد أو شرط.

بدَت رحلةُ بريبل مبشِّرة بالنجاح في بدايتها، ولكنها — مثل العمليات السابقة — انتهت أيضًا بالهزيمة. فبعد ظهر يوم ٣١ أكتوبر، وأثناء مطاردة مركب طرابلسي صغير بالقرب من الشاطئ، ارتطمت فيلادلفيا بحاجزٍ صخري وغرقت، وبُذلت جهود محمومة لتحريك السفينة — بقَطعِ الصاري الأمامي أو إلقاء المعدَّات في البحر — أو حتى إغراقها، ولكن بلا جدوى. وقرَّر بينبريدج الاستسلامَ عندما وجد مدافعه مثبَّتة في زوايا غير فعَّالة، ورأى تسعًا من سفن العدوِّ تقترب، وجُرِّد هو و٣٠٧ من رجال طاقمه من ملابسهم الرسمية، وتُركوا يرتعدون بردًا خارجَ مبنى القنصلية الأمريكية السابقة، في حين نجح المنتصرون في سحب السفينة «فيلادلفيا» إلى الميناء باستخدام حبال غليظة، وتباهى قرمنلي بإضافة هذه السفينة إلى بحرية «طرابلس» وأُعيد تسميتها «هبة الله».

وكتب بينبريدج إلى وزير البحرية قائلًا: «بعميق الأسى والأسف أبلغكم خسارةَ الولايات المتحدة للبارجة فيلادلفيا»، معلنًا بذلك أسوأ كارثة حربية أصابت الولايات المتحدة منذ الثورة. وتذكَّر بينبريدج المهانةَ التي تعرَّض لها في رحلته الأولى إلى الشرق الأوسط، وكيف أن «الاستسلام لأي عدوٍّ مهانةٌ ... ولكن الاستسلام لعدوٍّ همجي ... خزي». إلا أن موقف بريبل كان أكثرَ شراسة وعدوانية؛ ففي رسالة مكتوبة بالحبر السري المصنوع من عصير الليمون ألحَّ بينبريدج على قائده ألا يسمح لطرابلس بأن تهنأ بتلك الغنيمة وأن يدمِّر السفينة «فيلادلفيا» على الفور.[10]

لم يكن بريبل بحاجةٍ إلى إقناع. «أدعو الله أن يكون الجنود والضباط ... قد عقدوا العزم جميعًا على استحباب الموت على العبودية». لذلك أعدَّ خطةً جريئة؛ حيث يبحر

الأمريكيون على متن سفينة طرابلسية صغيرة — استولوا عليها حديثًا — نحو الميناء، ثم يصعدون بهدوء إلى سطح السفينة «فيلادلفيا» ويشعلون فيها النار. واختار بريبل لقيادة هذه العملية ابنَ أحدِ أبطال البحرية الأمريكية، وهو ضابطٌ شاب وصفه أحد زملائه بأنه «يتحلَّى بروح الفرسان، وسلوكه مهذَّب للغاية، ويجمع إلى شخصيته الجذابة دماثةَ الخلق». وكان اسمه ستيفن ديكاتور.

كان له أنفٌ رفيع رقيق، وفمٌ جذاب، ورموش طويلة مقوَّسة، مما جعل ديكاتور يبدو شاعرًا أكثرَ منه مقاتلًا. ومع ذلك فقد اشتُهر منذ طفولته بشجاعته وقوَّته البدنية، عندما دافع — فيما يقال — عن أمِّه ضد مجموعة من المجرمين. وكان قد قتل ضابطًا إنجليزيًّا في مبارزةٍ بجزيرة مالطا في أوائل ذلك العام، واضطُر إلى الهروب من الجزيرة. والآن — في سن الخامسة والعشرين — كان ديكاتور يخدُم على السفينة «إسيكس»، عندما تلقَّى أوامرَ بريبل بقيادة الحملة. وحين طلب متطوِّعين قال: «نحن الآن على وشْك البدء بحملة قد تنتهي بموتنا أو عبوديتنا الدائمة، أو مجد خالد.» وتطوَّع الطاقم بأكمله.

في التاسعة والنصف من ليلة ١٦ فبراير ١٨٠٤، والقمر لا يزال هلالًا، بدأ ديكاتور حملته، وكان معه على المركب الصغيرة التي أُعيد تسميتها إنتريبيد سبعة وستون متطوعًا يرتدون زيَّ البحَّارة المالطيِّين. وكان في مواجهتهم مدافعُ السفينة «فيلادلفيا» التي تطلق قذيفتين في المرة الواحدة، ومدفعية «طرابلس» بأكملها، وهو ما وصل في مجموعه إلى ١٥٠ مدفعًا.

وبمساعدة بحَّار يتحدَّث العربية، تمكَّنت إنتريبيد من التوغل في الميناء والإسراع نحو فيلادلفيا. ثم همس ديكاتور بأمرِ الصعود إلى السفينة. واجتاح المتطوعون السفينةَ بسرعة، وقتلوا عشرين من حرَّاسها، وأشعلوا فيها النيران. وصاح حراس طرابلس: «الأمريكيون!» ولكنَّ صيحاتهم جاءت بعد فوات الأوان؛ لأن النيران كانت قد أشعلت مدافع السفينة التي انطلقت قذائفها نحو المدينة. وبعد ذلك بعشرين دقيقة تطلَّع ديكاتور ورجاله بانبهار إلى النيران وهي تلتهم السفينة. وروى أحدُ البحَّارة «أن النيران ... كانت تمسك بحبال الأشرعة والصواري، فتتكوَّن أعمدة من النيران. هذا في حين كانت قذائف مدافعها توحي بأن روحًا توجهها».[11]

أشادت أوروبا بأسرِها بهذه العملية. ووصفها اللورد نلسون البريطاني بأنها «أكثر العمليات جرأة في هذا العصر»، وقال البابا بيوس السابع إن البحرية الأمريكية «قدَّمت للمسيحية أكثرَ مما قدَّمته أقوى الدول في العالم المسيحي في قرون طويلة». ولكن على

الرغم من شجاعة ديكاتور كان لا يزال أمام بريبل مهمةُ استعادة بينبردج وطاقمه؛ فالرجل الذي تعهَّد ذات مرة «بأن يقضي حياته في البحر المتوسط» بدلًا من «أن يدفع سنتًا واحدًا إتاوةً أو ثمنًا للسلام» كان يعرض على الباشا الآن مبلغًا ضخمًا مقداره ١٠٠ ألف دولار لافتداء الأسرى. لكن قرمنلي سخر من العرض، وطالب بأكثر من ١,٥ مليون دولار مقابل إطلاق سراح الأسرى.

استأنف بريبل هجومَه شاعرًا بالخزي والغضب، فقصف ميناء طرابلس وأغار عليه. وفي حركة موحَّدة جريئة اخترق ديكاتور وخمسة عشر من رجاله مسلَّحين «بالخناجر والحراب والسيوف والبلطات»، صفوفَ العدوِّ وصعِدوا إلى سفنه. ومع أن ديكاتور أصيب بحربة في ذراعه، فقد أطلق النارَ على أحد قباطنة القراصنة وراوغ قرصانًا آخرَ حاول أن يضرب عنقه. ولكنَّ أخاه — الذي كان أيضًا ضابطًا بحريًّا — كان أقلَّ منه حظًّا، ولقي مصرعه إثر إصابته بطلق ناري في رأسه. وبنهاية اليوم كان الأمريكيون قد قتلوا ٤٧ طرابلسيًّا، وأسروا ٥٦ منهم. وقال ديكاتور: «مات بعض المسلمين كالرجال، ولكن العدد الأكبر منهم مات كالنساء.» إلا أن بريبل أطفأ نيران حماسته. فعندما علِم أن ديكاتور استولى على ثلاث سفن حربية «فقط» وبَّخه قائلًا: «ثلاث فقط! وأين الباقي؟»

كان لدى بريبل سببٌ وجيه للغضب؛ فبعد ستة أشهر وآلاف من طلقات المدافع، ظلت طرابلس على حالها. يقول د. جوناثان كاوديري، الجرَّاح الأسير الذي كان على متن السفينة «فيلادلفيا»، في ملحوظةٍ له إن «هذه المحاولات شجَّعت الطرابلسيين، بدلًا من أن تردعَهم». وفي تلك الأثناء كانت حصة السجناء الأمريكيِّين اليومية من الغذاء قد انخفضت إلى «ثماني أوقيات من الخبز، وقليل من الزيت الرديء»، وتكرَّر ضربهم وجرُّهم إلى الصحراء للعمل هناك. وتضاءل الأمل في انتشالهم من محنتهم في ٧ أغسطس، عندما عُزل بريبل من القيادة. فقال تعليقًا على ذلك: «يؤسفني أن مؤسَّستنا البحرية محدودةُ الموارد لدرجة أن تحرمني من وسائلَ تساعدني على إخضاع الدكتاتور الطرابلسي المتغطرس وتحرمني من المجد المرتبِط بذلك.» ولكن قبل رحيله صمَّم بريبل على القيام بمحاولةٍ أخيرة يائسة من أجل تحقيق النصر.[12]

كانت إنتربييد تحمل الآن ١٥ ألف رطل من البارود وكانت مشحونةً بالقذائف العنقودية والمتفجرات. وكان أحدُ أصدقاء طفولة ديكاتور، وهو الكابتن ريتشارد سومرز، بالإضافة إلى ضابطين آخرين، هما ادزورث وجوزيف إسرائيل، وعشرة من البحَّارة، قد تطوَّعوا لقيادة السفينة إلى الميناء. وكانت الخطة أن يشعلوا فتيلًا ثم يهبطوا إلى مركب تجديف صغير، ويهربوا قبل أن تنفجر السفينة وتدمِّر أسطولَ الباشا.

في ليلةٍ غير مقمرة يغلِّفها الضباب يوم ٣ سبتمبر شاهد الفيلق إنتريبيد وهي تختفي عن الأنظار، وظلوا يحدقون في الظلام ساعتين، حتى شقَّ الأفقَ انفجارٌ «مدوٍّ وهائل». ووصف أحد شهود العِيان، وهو البحَّار روبرت سبنس، رؤيته للقذائف تضيء الظلام «كأنها عدة كواكب»، ثم «ألسنة من اللَّهب ... ترتفع إلى عَنان السماء». انفجرت إنتريبيد لأسباب مجهولة قبل أن تصل إلى هدفها وقُتل كلُّ مَن عليها. في صباح اليوم التالي كان بينبريدج يعرج جراء جُرح أصيب به، ومع ذلك فقد ذهب إلى الشاطئ لرؤية الجثث المتفحِّمة والأشلاء. وتوسَّل إلى الباشا للسماح له بدفنهم، لكنَّ طلبه رُفض، وأصرَّ الباشا على أن تُترك الجثث للكلاب.

وكتب السير ألكسندر بول، الحاكمُ البريطاني لمالطا، رسالةً إلى بريبل، قائلًا: «لقد أحسنت بعدم شراء السلام مع الأعداء»، ولكن ذلك لم يكن ليعزِّي القائد. فقد كان لا يزال حزينًا على النصر الذي ضاع من بين يديه، وبسبب تفكيره المستمر في الأسرى الأمريكيِّين في طرابلس. ومع ذلك فقد كان بريبل من وجهةِ نظر الشعب الأمريكي بطلًا. وفاقت الاحتفالات التي استُقبِل بها عند عودته إلى واشنطن في يناير عام ١٨٠٥ احتفالاتِ إعادة تنصيب الرئيس جيفرسون لفترة ثانية، التي تصادف إقامتُها في نفس اليوم. وجرى الاحتفال أيضًا بديكاتور، ومنحه سيفًا ذهبيًّا، وترقيته إلى رتبة «قبطان»، وكان أصغر قبطان في البحرية الأمريكية.[13]

على أن التكريم وحدَه لم يخفِ حقيقةَ أن الولايات المتحدة خاضت حربًا في الشرق الأوسط، وفشلت في تحقيق النصر حتى ذلك الوقت. ولم يكن لديها أيُّ عذر مقبول لذلك الفشل؛ لأن بحريتها أصبحت تمتلك عددًا من السفن الحربية يكفي لهزيمة كل أساطيل القراصنة مجتمعة. وأكَّد ماديسون أن «السلام مع طرابلس كان لمدة طويلة حسب شروطنا وفي نطاق سلطتنا»، ولكنَّ أعضاءً آخرين بارزين في الحكومة ظلوا على تردُّدهم بشأن استخدام قوة الأسطول. ورأى وزير الخزانة ألبرت جالاتين السويسري المَولد أنَّ دفع رشوة إلى القراصنة سيلحق بالولايات المتحدة «الخزي الذي لحِق بكثير من الدول التي لا تقلُّ قوةً واهتمامًا بالأمر عنها»، مفضلًا ادخارَ الـ ٩٠٠ ألف دولار لصيانة الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط. وظل الرأي العام أيضًا على انقسامه بشأن اللجوء إلى القوة، مع عدم ثقته بالتكلفة النسبية لخوض حرب أو شراء سلام.

أصبح نقص الدعم والمساندة للتحرُّك العسكري داخل الحكومة وبين الأمريكيِّين عامةً همًّا ثقيلًا يجثم فوق صدر جيفرسون. وعندما بدأ مدةَ رئاسته الثانية اعتبر أزمةَ

الشرق الأوسط على رأس أولويات السياسة الخارجية الأمريكية. فكتب يقول إن فقدان السفينة فيلادلفيا «كان أخطرَ أزمة واجهت الإدارة الحالية» وإنه «وصمةٌ في جبين الولايات المتحدة» تهدِّد بكشف ضَعفها أمام العالم أجمع. أما أكثرُ ما كان يؤرِّق جيفرسون فهو جهود الدبلوماسيِّين الأمريكيِّين في أوروبا، الذين آلوا على أنفسهم أن يطالبوا بمساعداتٍ فرنسية وروسية وحتى عثمانية لافتداء الأسرى الأمريكيِّين. فقد كان جيفرسون يخشى أن يؤديَ هؤلاء المبعوثون — عن طريق «استجداء الأموال من كل دولة» — إلى حرمان الولايات المتحدة من «رغبتها المشروعة في الانتقام» وأن يجعلوا «شرفَها في الحضيض». ومن أجل تفادي هذه الكارثة كان على الرئيس أن يسمح للبوارج الحربية بضربِ المدن الجزائرية وتدميرها تمامًا، لكنَّ التفويض الشعبي للقيام بذلك لم يكن في متناول يديه بعدُ.[14]

ولكن كان هناك أمريكيٌّ واحد لم يؤثِّر فيه غيابُ الحماسة الشعبية لاستخدام القوة. هذا الرجل هو ويليام إيتون؛ كان إيتون قد تعلَّم من خلال عمله قنصلًا لأمريكا في تونس، أنَّ دفْعَ إتاوة للقراصنة لا يثمر سوى الخزي والعار. ويغري القراصنةَ بطلب المزيد، وتعلَّم أن القوة هي الشيء الوحيد الذي يُحترم في الشرق الأوسط، وأنه ليس أمام الولايات المتحدة خيارٌ عدا القوة إذا أرادت تحقيق السلام.

البطولة الجديدة

يبدو إيتون ذا ملامحَ رقيقةٍ راقية شبه مثالية، ومع ذلك فقد وصفه أحدُ معاصريه بأنه «يشبه كلبَ بولدوج كبيرًا في مظهره وشخصيته». وقد ظهرت نزعته العدوانية منذ كان في السادسة عشرة من عمره عندما هرب من مزرعة والده في كونيتيكت ليقاتل في الجيش، ثم التحق بجامعة دارتموث حيث درس اللغتين اللاتينية واليونانية، وحفظ حملات قيصر والإسكندر الأكبر. واكتسب إلى جانب ذلك مهارةً في رمي السكاكين فكان يصيب هدفه بدقة من مسافة ثمانين قدمًا، وكان يحلُم بالعودة في يوم من الأيام إلى ساحة المعركة. واعترف لأرملةٍ كان يواعدها: «لن يحبَّك أحدٌ كما أحبُّك أنا، لكنني أوثر ميدانَ مارس (إله الحرب) على جنة فينوس (إلهة الحُب والجمال)». تطوَّع إيتون مرةً أخرى في الجيش، وأصبح نقيبًا تحت قيادة الجنرال «أنتوني واين المجنون» في الحرب ضد الهنود في أوهايو.

كان إيتون يعتبر نفسَه «رجلًا لا يتَّسم بالخنوع، أو المبالغة في الورع ... أو السذاجة»، لكنه كان مغرورًا يجد صعوبةً في الانصياع للأوامر. وبعد تسريحه من الجيش وجد عملًا

موظفًا في الهيئة التشريعية لفيرمونت، وكان من الممكن أن يخبوَ نجمه، لولا علاقةٌ عائلية كانت تربطه بتيموثي بيكرنج، وزيرِ خارجية جون آدامز. ففي عام ١٧٩٩ اختاره بيكرنج ليكون أولَ قنصل أمريكي في تونس، وهي مهمةٌ كانت تبدو مناسبةً لشخصيته تمامًا.[15]

كان إيتون يحمل في ذهنه أفكارًا خياليةً عن الشرق الأوسط مثل سلفه جون ليديارد. وقد أقسم أن يظلَّ على إيمانه «بربٍّ واحد» وأن يمحق «فكرة أن المسيحيِّين والمسلمين أعداءٌ طبيعيون». وكانت أوامره تقضي بمساعدة التونسيِّين على التحول من القرصنة إلى مهنٍ سلمية كالزراعة مثلًا. ومع ذلك فإن الهدايا التي حملها معه إلى شمال أفريقيا، ومن بينها سفينتان حربيتان أمريكيتان، حملت للتونسيِّين رسالةً مضادة، مُفادها أن القرصنة مربحة. قَبِل البيك التونسي الرشوة، ثم هدَّد فورًا بتجديد الحرب مع الولايات المتحدة. وكان على إيتون أن يسترضيَه بالكثير من الأقمشة الفخمة، والساعات الذهبية، والعِصي المرصَّعة بالأحجار الكريمة، وبلغت قيمة هذه الأشياء ٦٠٠٠ دولار، وفي المقابل طالبه البك بتسديد فاتورة مخزية قيمتها ٨٠٠ دولار، ثمنًا للبارود الذي استُخدم في تحية القنصل الجديد عند وصوله!

وفي بداية عام ١٨٠٠ كتب إيتون يقول: «إن عامًا من المعاناة أطولُ من خلود في النعيم، ألا يكفي ما أنا فيه ليكون هو الجحيم؟» كانت هذه الفترة القصيرة كافيةً لمحو أي أفكار خيالية من ذهن إيتون، ولجعله مشمئزًّا للغاية. وكانت شكاواه من تونس عديدةً لدرجةٍ يصعُب تصنيفها؛ «أبخرة خانقة من بحيرات راكدة، أنفاس جثث عفنة ... وشمس حارقة لا تُحتمل ... أشد حرارة من التبغ والخمر ... مسلمون وحشيون، ويهود مخادعون، وإيطاليون خونة ... جِمال كسولة، وبِغال عنيدة، وعرب همَج.» ومع أنه بذل جهدًا عظيمًا للتعرُّف بالثقافة المحلية، وأتقن أربع لهجات، وسافر في طول المنطقة وعرضها، فإنه لم يجد شيئًا يصون للشرق الأوسط صورتَه في نظره، ولخَّص فكرته عنه قائلًا إنه «أرضُ اللصوصية والشذوذ»، ولا يخضع أهله «لأي وازع من شرف أو أمانة».

أما ما ضايقَ إيتون أكثرَ من كل المنغِّصات الحسية فكان الخجل والعار اللذين شعر بهما وهو يرى الولايات المتحدة تحوِّل ثروتها التي جمعتها بشرفٍ ونزاهة إلى طغاة شمال أفريقيا. وقال بعد أن علِم بالإهانة التي تلقَّاها كابتن بينبريدج على يد الجزائريين: «هنيئًا لكِ يا بلادي! كم أنت مهانة!» ثم شعر بالخزي مرةً أخرى عندما أعلنت طرابلس الحربَ على الولايات المتحدة في مايو ١٨٠١، وعندما تكرَّر فشلُ بحرية الولايات المتحدة في حماية تجارتها. وتساءل: «ألا يوجد أمريكيون يجري في عروقهم دمٌ حار وكرامة تؤرق

نومهم عندما يهينهم القراصنة؟ هل أصبحنا نستبدل مجدنا في مقابل الأمان من قراصنة البربر؟»

اقترح إيتون ردًّا شجاعًا على أسئلته. فوضع خطةً بأن يشنَّ ألفٌ من البحَّارة الأمريكيِّين هجومًا على تونس، ويطيحوا بالبيك، ويبثوا الرعبَ في قلوب حكام البربر الآخرين. ولكن وزير الخارجية ماديسون رفض الخطة، وأمر إيتون — بدلًا من ذلك — باسترضاء البيك بمبلغ ٢٠ ألف دولار. وثار القنصل قائلًا: «ربما يجب على الحكومة أن ترسل دُورًا عائمةً للعبادة تتحرَّك في هذا البحر كبوارج حربية»، واقترح أن يتغيَّر شعار الولايات المتحدة من نسرٍ يسدِّد السهام إلى نسرٍ يمسك «بسيجار أو قوس كمان». ولم يستطِع إيتون أن يفهم سببَ فشل الرئيس والكونجرس في استيعاب فكرة أنَّ دفع الإتاوات ورفضَ استخدام القوة يشجِّع القراصنة ويزيد من الخطر الذي تتعرض له السفن الأمريكية. وكتب يقول: «ليس هناك إلا لغة واحدة فقط يمكن التعامل بها مع تلك الشعوب، هي لغة الإرهاب.»[16]

كان إيتون قد شارف على اليأس م ن تقلُّب الأمريكيِّين عندما قابل حامد قرمنلي — الشقيق المنفي لحاكم طرابلس — في سبتمبر عام ١٨٠١. وبسبب إعجابه بشجاعة حامد ونبله، اقترح إيتون أن تساعده الولايات المتحدة على استعادة حقِّه في العرش، على أن يكون حليفًا تعتمد عليه في المنطقة. فتغيير نظام الحكم في طرابلس كان هو السبيل الوحيد لتمكين الأمريكيِّين من «استعادة شرفهم القومي بالحديد والنار وليس بالذهب» كما شرح إيتون. ولكنَّ ماديسون، الملتزم بالمبادئ والمتردِّد على الدوام، تراجع عن الفكرة في آخر لحظة. فأجاب إن «للقنصل مطلَق الحرية في تطبيق حماسته وحساباته فيما يخص حامدًا، ومع ذلك فإن الولايات المتحدة لن تتدخل في الصراعات الداخلية لأي دولة».

استشاط إيتون غضبًا. فقد بدا أن الحكومة مصرَّة على «شراء زيت الورد لتعطير ذقن ذلك القرصان [قرمنلي]» بدلًا من «المدافع لردعه عن طيشه». وحذَّر من أنه في خلال عشر سنوات ستطول غارات القراصنة المدنَ الساحلية الأمريكية، وسيغتصبون نساءها، ويأسِرون صبيانها. ونصح المسئولين في واشنطون ساخرًا أن يبدءوا بارتداء ملابس العبيد من الآن.

ستتذكَّر الأجيال التالية من الأمريكيِّين إيتون باعتباره بطلًا ورائدًا ومتمردًا، متناسين أنه كان أيضًا مبغِضًا للبشر، حادَّ الطباع، شديدَ القسوة في نقد زملائه القناصل، ومتعصبًا. فقد أساء إلى وزير الخزانة جالاتين واصفًا إياه ب «يهودي جبان»، ووصف جيفرسون

بأنه «كلب ذليل» يرتعد أمام سياط البربر.[17] غير أنَّ إيتون الشرير كان شديدَ الدهاء في معاملاته المالية، وهي النزعة التي زادت استياء رؤسائه ومضيِّفيه التونسيين. وكانت هذه المكائد هي الحجةَ التي تذرَّع بها البيك لطرد القنصل، وبذلك عاد إيتون في أبريل عام ١٨٠٣ إلى الولايات المتحدة.

لم يتنازل إيتون عن خطته لاستبدال حامد بيوسف قرمنلي، وفور وصوله إلى واشنطن بدأ يسعى للحصول على دعم الكونجرس. وأكَّد للأعضاء أن شعب طرابلس «هؤلاء الأطفال السُّمر السذَّج» سيلتفون حول حامد المُطالب بالعرش. وفي تلك الأثناء وصلت أنباءُ استيلاء طرابلس على السفينة «فيلادلفيا» وأسرِ طاقمها بالكامل. وآلمت إيتون أنباءُ هذه الكارثة. فإذا كان وضع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط مذلًا قبل ذلك، فقد أصبح الآن ميئوسًا منه تمامًا.

وأخيرًا آتت حملةُ إيتون ثمارها في مايو عام ١٨٠٤، عندما عُيِّنَ ممثلًا للولايات المتحدة في دول البربر. وفي أول فرصة أبحر إلى مصر، التي كان حامد المنفيُّ قد فرَّ إليها هربًا من أخيه. فكتب له إيتون مواسيًا: «كتب الله عليك أن تلاقي المِحن. ونحن نعتقد أنه قضى أيضًا أن تنتهيَ متاعبك الآن.»[18]

لكنَّ الحقيقة أن متاعب إيتون لم تكن قد بدأت بعد. فأثناء رحلته في نهر النيل برفقة الضابط بريسلي نيفيل أوبانون ومجموعة صغيرة من ضباط البحرية، واجه إيتون دواماتٍ وغارات من البدو، وابتزاز من مسئولين عثمانيِّين فاسدين. وأخيرًا عثر على حامد بائسًا ومحاصَرًا في مكانٍ يُطلق عليه برج العرب، على بُعد نحو ١٥٠ ميلًا من القاهرة. وهناك، في ٨ مارس ١٨٠٥، جمع إيتون جيشه.

كانت القوة متباينةً أشدَّ ما يكون التباين؛ فقد كانت مكوَّنة من ٩ أمريكيِّين، و٩٠ طرابلسيًّا، و٦٣ مرتزقًا أوروبيًّا، و٢٥٠ بدويًّا. وكان التسليح ضعيفًا للغاية. وعلَّق إيتون على ذلك قائلًا: «سأُضطر إلى الاعتماد على قوة الغضب المتأصلة في العرب ... بديلًا عن مدفعية الميدان، والبنادق، والذخيرة.» جمع إيتون جنوده وقال لهم إن كل البشر سواسية في الولايات المتحدة، بصرف النظر عن عقيدتهم، ولا تمايز بينهم إلا بصدقهم وإخلاصهم. ووزَّع كمياتٍ كبيرة من الذهب، وكان يقول: «المال هو الرب الوحيد الذي يعرفه العرب»، ووعدهم ببذل أقصى ما في وُسعه لوضع حامد في السلطة. ووعد حامدٌ بدوره أنه سيقيم علاقاتِ سلام مع الولايات المتحدة فور توليه السلطة، كما تعهَّد بإطلاق سراح كل الأسرى الأمريكيِّين في طرابلس. رقَّى إيتون بعد ذلك نفسَه إلى رتبة «جنرال»، وارتدى حلةً بيضاء

فاخرة صمَّمها بنفسه، ثم بدأ عمليةً لم تجُل بخاطر أي قائد منذ العصور القديمة، وهي أنه بدأ زحفًا لمسافة خمسمائة ميل عبْر الصحراء الغربية تحت الشمس الحارقة.

كتب يقول عن ذلك: كانت الرحلة «على الرمال الحارقة والجبال الصخرية ... عبْر أكثر صحاري العالم جدبًا» مضنيةً حقًّا. فبعد اثني عشر يومًا قلَّت الحصة اليومية لكل فرد من الأرز غير المطبوخ (بسبب ندرة المياه) إلى النصف. ولكن البيئة القاسية والمؤن الشحيحة كانت أهونَ العقبات التي واجهت إيتون. فقد كانت المعارك التي نشبت بين المسلمين والمسيحيِّين في جيشه أشدَّ خطرًا، وهدَّد البدو — الذين كانوا يطالبون يوميًّا بزيادةِ أجورهم — بالثورة أو ترْك الخدمة. وشكا إيتون منهم قائلًا: «إنهم لا يعرفون معنى الوطنية أو الحق أو الشرف، ولا ولاء عندهم إلا لما يحقِّق مصلحتهم.» وتبيَّن أن حامد أيضًا مصدرُ إزعاج؛ فقد كان لا يكفُّ عن الشكوى من خوفه من يوسف وعدم ثقته بالأمريكيِّين. وتصاعد التوترُ عندما انضم حامد إلى البدو في هجومٍ على قافلة المؤن، ولم يوقفهم سوى صفٍّ لإطلاق النار نظَّمه إيتون وجنود البحرية الأمريكية.

بعد أن تغلَّب إيتون على كل تلك الصعاب، توجَّه هو وقوَّته وقد أنهكهم العطش إلى خليج بومبا — على بُعد نحو ثلاثين ميلًا من طبرق — حيث كان من المفترض أن تنتظرهم سفينةٌ حربية أمريكية تحمل مؤنًا. ولكن الخليج كان خاليًا. مرَّت أيام كاملة، وبدا موت الرجال الأربعمائة مؤكدًا، عندما حدثت المعجزة وظهر شراعٌ فجأة في الأفق. كانت السفينة الأمريكية «آرجوس» قد وصلت محمَّلة بالأغذية والمياه. واصل جيش إيتون المسيرَ غربًا نحو درنة بعد أن تجدَّدت قواه، وهو ثاني أكبر ميناء في المنطقة، ويُعَد موقعًا مثاليًّا لشن الهجوم الأخير على طرابلس. وفي ٢٥ أبريل اتَّجه إيتون على فرسه نحو أبواب درنة وطالب المدينة بالاستسلام. وصاح موجِّهًا حديثَه إلى حاكم المدينة: «لا تدعوا اختلافَ الدِّين يدفعنا إلى سفك دماء الأبرياء»، مؤكدًا له أن هدفه الوحيد هو تنصيبُ حاكم شرعي على العرش. وكان ردُّ الحاكم مقتضِبًا: «رأسي أو رأسك.»

لم يَعُد بإمكان إيتون أن يتلكأ؛ فقد اكتشف أن فرقةً كبيرة من رجال قرمنلي تسرع إلى درنة قادمة من طرابلس. وبينما اقتربت السفن «آرجوس» و«هورنت» و«نوتيلوس» من درنة وبدأت في دكِّ حصونها، تناول إيتون سيفه وأعطى الإشارةَ بهجوم مباشر. قُتل اثنان من جنود البحرية الأمريكية وأُصيب إيتون بطلقٍ ناري في رُسغه، ومع ذلك فقد تمكَّن المهاجمون من اختراق الأسوار واقتحام المدينة. دارت الاشتباكاتُ بالأيدي والأسلحة البيضاء، ولكن بعد أربع ساعات كان العلَم الأمريكي يرفرف على المدينة، غير أن المعركة

لم تُحْسم بعدُ؛ فقد ظهر ثلاثة آلاف جندي من جيش يوسف، وشنُّوا هجومًا مضادًّا على الفور، أوقف إيتون هجومه وخسر ٦٠ جنديًّا. ومع ذلك ظل إيتون — الذي نصَّب نفسَه جنرالًا — على ثقةٍ بقدرة رجاله في التغلُّب على الحصار واستئناف السير نحو طرابلس. وفي أواخر مايو ظهرت السفينة الأمريكية «كونستليشن» على مقربةٍ من الساحل برسالة عجيبة من القائد صامويل بارون. الرسالة كان مُفادها أن الحكومة الأمريكية تسحب دعمها لحملة تنصيب حامد بسبب توصُّلها إلى اتفاقٍ مناسب مع يوسف.[19]

كان جيفرسون متشككًا في جدوى تغيير قيادة طرابلس بالقوة منذ البداية، مع أنه لم يفصح عن ذلك لإيتون قط. وأثناء بحثه عن بديل دبلوماسي، لجأ الرئيس إلى توبياس لير، وهو معاونٌ سابق لجورج واشنطن يبلغ من العمر اثنين وأربعين عامًا. وكان طويل الوجه ويتَّسم بالجِدية والعملية، ولم يكن من النوع الذي يقود جيشًا من المرتزقة عبر الصحراء ليهاجم قلعةً أو حصنًا للعدوِّ، بل كان يفضِّل أسلوب المفاوضات بدلًا من ذلك. ويرى أن إيتون خيالي مغرور، كما كان يرى في حامد شخصًا ضعيفَ الشخصية غير قادر على توقيع أي اتفاقية، فضلًا عن الالتزام بها. ففضَّل لير التفاوضَ مع يوسف فقط، مقدِّمًا عرضًا بتبادل مائة أسير حرب طرابلسي مقابل أسرى السفينة «فيلادلفيا»، ودفع «فرقًا» لطرابلس يُقدَّر بـ ٦٠ ألف دولار.

كان يوسف حينئذٍ مهدَّدًا بعدوٍّ قوي رابض في درنة، فتلقَّى العرض بحماسة بالغة. حتى إنه وافق على السماح لحامد بالعودة إلى طرابلس، إذا انسحب إيتون مع قواته. وعندما تم الانتهاء إلى هذا القرار في ٤ يونيو ١٨٠٥، أبحرت السفينة «كونستيتيوشن» إلى ميناء طرابلس. وسارت إلى جانب حطام السفينة «فيلادلفيا» المتفحِّم، وحيَّاها الطرابلسيون بإحدى وعشرين طلقة مدفع. وكان على متنها بينبريدج و٢٩٦ رجلًا من رجاله (كان ستة منهم قد قُتلوا، وتحوَّل خمسة إلى الإسلام)، وكانوا قد نالوا حريتَهم بعد ١٩ شهرًا عصيبة قضوها في الأسر.

ذاع خبرُ الاتفاق في شمال أفريقيا بكامله، فتنازلت الجزائر عن مطالبها بإتاوة إضافية. وأكَّدت تونس معاهدةَ الود والصداقة، وسافرت بعثةٌ تونسية لإظهار حسن النوايا إلى واشنطن، حيث أفرطوا في شرب الخمر، والتمتُّع بصحبة فتاة يونانية تُدعى جورجيا، واستمتعوا كثيرًا حتى إن ثلاثة منهم رفضوا العودةَ إلى الوطن، لكنهم نجحوا في النهاية في تجديد معاهدة تونس مع أمريكا. وفي تلك الأثناء كان النجارون الأمريكيون في طرابلس قد حوَّلوا صاريًا من صواري السفن إلى سارية جديدة لعلم قنصلية الولايات

المتحدة. كان لير سعيدًا بنتائجِ دبلوماسيته، وتوقَّع أن يكون «السلام بين أمريكا ودول البربر مشرِّفًا للغاية» لدرجةٍ تبهر كلَّ دول أوروبا.[20]

أما إيتون فكان على عكسِ لير محبَطًا وحزينًا. فقد قطع واحدةً من أقسى الصحاري في العالم، وخاض معاركَ عنيفة ضد قوًى كبيرة، وقضى تسعين يومًا مرتديًا نفس الزي، ليتلقى في النهاية الأمرَ بالانسحاب! وكان رأيه أنه من الأفضل أن تكون السفينة «كونستيتيوشن» «مغطَّاةً بالدم والموت عن أن تشهد بعض الأتراك الحقيرين يفوزون على طاقم من البحَّارة الأمريكيِّين». وأنذر إيتون القائدَ بارون بأن قرار جيفرسون قد أضرَّ بقوة الردع الأمريكية إلى الأبد، وأن القراصنة سيوجِّهون ضرباتهم مرة أخرى، وبعنفٍ أكبر وشراسة أشد. ولكن كان لدى القائد أوامرُ بمغادرة درنة، فنُقِل إيتون والمسيحيون من جيشه بسفن أمريكية تحت جُنْح الظلام. أما البدو فيتذكَّر إيتون أنهم «أطلقوا اللعنات والصيحات»، وهم يدمِّرون ما تبقَّى من المعسكر.[21]

لم يكن إيتون ليتسامح فيما رأى أنه خيانة من لير وخدعة من جيفرسون. وقد اشتكى لأصدقائه في الكونجرس قائلًا: «الشرف ينهار والإنسانية تقطر دمًا.» واتهم الإدارة بالتواطؤ على «قتل الآباء، وقتل الإخوة، والخيانة، والغدر … والقرصنة المنظَّمة». وعلى الرغم من حدة طباعه كان كثيرٌ من أعضاء الكونجرس يَعُدونه بطلًا، وإحياء لشخصية الأسد الأفريقي الجغرافي الشهير الذي جاب الشرق الأوسط في القرن السادس عشر. وقد أثنى عليه القائد بريبل قائلًا: «لقد حزتَ شرفًا أبديًّا وأسَّستَ شهرة بلادك في الشرق.» ومع ذلك فحتى أقوى مؤيدي إيتون لم يكونوا مستريحين لفكرة إقصاء ملِك شرعي، والمخاطرة بسلام واعد ومفيد.[22]

كان هذا الحسُّ العقلاني نفسُه هو ما حرَّك جيفرسون وحفَّزه. لقد حقَّق هدفه الذي سعى إليه طويلًا بتكوين قوة عسكرية قادرة على فرض إرادة الولايات المتحدة على البربر، ولكنه في نفس الوقت تعلَّم أن استخدام القوة في الشرق الأوسط قد يكون محفوفًا بكثير من التنازلات الأخلاقية. فقد أُقصي قرمنلي بالفعل، ولكنه حصل على الثَّمن. وكانت الولايات المتحدة قد أهانت أحدَ حكام الشرق الأوسط وأذلته، مما حقَّق لها كثيرًا من حرية التجارة وحفظ الكرامة، ولكن كان لا يزال عليها أن تقضيَ على الممارسات المنتشرة للرشاوى والإتاوات.

كانت طبيعة النصر الأمريكي المحدود واضحةً في الخطاب السنوي لجيفرسون أمام الكونجرس في ديسمبر ١٨٠٥. فوقف الرئيس الذي لا يخلو من المتناقضات والذي أقال

من قبلُ عشراتٍ من ضباط البحرية وعارض بناءَ البوارج يقترح توسعًا غير مسبوق في الدفاعات البحرية للبلاد. وأعلن أنه ستُحصَّن الموانئ البحرية، وتُنظَّم دورياتٌ للحراسة. وأعلن أيضًا بدْءَ حملة لتوظيف قباطنة جدد، وبناء بوارج بحرية ضخمة تحمل كلٌّ منها ٧٤ مدفعًا، وهي باكورة الإنتاج الأمريكي من هذا النوع.

كشف جيفرسون عن هذه الخطة، كما كشف أيضًا كيف خلقت «عمليةٌ قامت بها مجموعةٌ صغيرة من رجالنا … تحت القيادة الشجاعة للقنصل السابق إيتون» الانطباعَ اللازم للوصول إلى اتفاقٍ مع طرابلس. ونتيجةً لذلك أُطلق سراح الأسرى الأمريكيِّين، وحُرِّر أيضًا التجار من المشقة التي كانوا يعانونها. «ومع أن الولايات المتحدة لا تزال بحاجةٍ إلى القيام بمراقبة دقيقة للبحر المتوسط، فإن حكام البربر يبدون عامةً مائلين في الوقت الحالي إلى احترام اتفاقيات الصداقة والسلام.»[23]

لا شك أن كلمات جيفرسون أثارت موجةً من التصفيق الحماسي. ومع ذلك فربما يكون استخدام الرئيس للمحدِّدات اللفظية مثل «يبدو» و«في الوقت الحالي» قد أزعج كثيرًا من أعضاء الكونجرس. وربما لاحظ بعضهم أيضًا غيابَ أي ضمانات لسلامٍ دائم مع شمال أفريقيا، أو لإنهاء دفع الإتاوات. بل ربما يكون بعضهم قد توقَّع أن البحرية الأمريكية، بعد تطويرها وتقويتها، سيتعيَّن عليها يومًا ما أن تحارب البربر مرةً أخرى.

الرصاص والبارود

في ٢٢ يونيو ١٨٠٧ غادرت البارجة «تشيزابيك» التي تحمل ستة وثلاثين مدفعًا ميناء نورفوك بفرجينيا في طريقها للانضمام إلى الفيلق الأمريكي في البحر المتوسط. وفور مغادرتها المياه الإقليمية واجهت السفينة «ليوبارد» البريطانية التي تحمل خمسين مدفعًا. وكانت بريطانيا تحتاج إلى مزيد من البحَّارة في حربها ضد نابليون؛ لذا طالبت بحق تفتيش السفن الأمريكية بحثًا عن الهاربين من الجيش البريطاني لإعادة ضمهم إلى البحرية الملكية. واقتربت ليوبارد، ولكن القائد الأمريكي جيمس بارون — الأخ الأصغر لصامويل بارون — تماسك ولم يهتز. وكانت المعركة من جانب واحد فقط بصورة مخزية. فبسبب نقص فتائل الإشعال اللازمة لتشغيل المدافع، لم يتمكَّن الأمريكيون من إطلاق النار إلا على جانب واحد فقط من السفينة «ليوبارد»، قبل أن يستسلموا تمامًا.

وبسبب وقوع هذا الحادث عقبَ النجاحات التي تحقَّقت في شمال أفريقيا بفترة قصيرة، كانت هزيمة تشيزابيك ضربةً مؤلمة لكرامة البحرية الأمريكية والبلاد كلها. أدانت

محكمةٌ عسكرية بارون بتهمة الإهمال، وكان ضمن هيئة المحكمة ديفيد بورتر وستيفن ديكاتور. والأسوأ أن البحرية اضطُرت إلى تقليص حجم فيلق البحر المتوسط من أجل تحصين السواحل الأمريكية. ومع أن جيفرسون كان يتباهى بالانتصارات الأخيرة على البربر، فقد أوصى بكل هدوء بدفع إتاوات إضافية للجزائر «من أجل ضمان السلام في تلك المنطقة عندما لا يتوفَّر في غيرها».

لم يكن من الغريب أن تسارع الجزائر لاستغلال الضَّعف الأمريكي. فهاجم القراصنة الجزائريون في فبراير ١٨٠٩ السفينةَ «سالي» من فيلادلفيا، وأسروا خمسة عشر من أفراد طاقمها. وذكر البحَّار توماس نيكلسون من نيوجيرسي أنهم «أطلقوا عدة قذائف باتجاهنا، ثم وثبوا على السفينة شاهرين سيوفهم، وشنُّوا هجومًا عنيفًا، ضربونا بلا رحمة وأصابونا إصاباتٍ بالغة ... ثم حبسونا ٤٨ ساعة بلا طعام». ومرةً أخرى أُلقيت القاذورات على الأمريكيِّين وسِيقوا في الشوارع قبل بيعِهم في مزاد علني. أما مَن حاول الهرب منهم فقد تلقَّى العقابَ المعروف في تلك الحالة، الذي وصفه نيكلسون قائلًا:

> كانوا يجرِّدون الشخص من ملابسه، ثم يُدخِلون سيخًا حديديًّا في أسفل العمود الفقري، ويدفعونه بمحاذاة العمود الفقري حتى يظهر من بين كتفي الشخص، متحاشين أيَّ أعضاء حيوية. ثم كان السيخ يُرفع عاليًا في الهواء ويُعرض البائس على العبيد الآخرين، وهو يتلوى من عذابٍ لا يُطاق.

كانت قدرة الولايات المتحدة على الردِّ على هذه الإهانات قد تدهورت تمامًا في يونيو ١٨١٢ بسبب نشوب الحرب مع بريطانيا. وبعد ذلك بثلاثة أشهر فقط، استولى القراصنة الجزائريون على السفينة «إدوين»، وهي سفينةٌ من مدينة سالم، وأسروا طاقمَها المكوَّن من ١١ بحَّارًا. وقال الداي الحاج علي باشا: «إن سياستي ورأيي أن أزيد — لا أن أخفِّض — عددَ عبيدي الأمريكيِّين. ولن أطلق سراحَهم ولو مقابل مليون دولار.» وتكرَّر هذا السيناريو الجزائري في كلٍّ من تونس وطرابلس، اللتين عاودتا الهجومَ على السفن التجارية الأمريكية، وأعلنتا ولاءهما للتاج البريطاني.

ومع أن الولايات المتحدة كانت مسلَّحة بخمسين سفينة حربية، فإنها كانت تواجه الآن البحريةَ الملكية المكوَّنة من ٨٠٠ سفينة، رُبعها من البوارج الضخمة، ولم يكن بإمكان الولايات المتحدة توفيرُ بارجة واحدة للبحر المتوسط. وتنبَّأ توبياس لير قائلًا: «إذا استطعنا حلَّ خلافاتنا مع بريطانيا بحيث نتمكَّن من إرسال قوة بحرية إلى هذا البحر ...

فسنذل الجزائريِّين ونمرِّغ أنوفهم في التراب.»[24] ولكنَّ بريطانيا لم ترضَ بحل الخلافات وإنهاء الحرب، ولم يجد الرئيس جيمس ماديسون بديلًا عن رشوة القراصنة مرةً أخرى.

لم يَعُد مبدأ دفع الإتاوة يحظى بتأييد الشعب الأمريكي، ولتنفيذ هذه المهمة البغيضة اختارت الإدارة رجلًا متميزًا هو موردخاي مانويل نوا. عندما كان موردخاي في السابعة والعشرين من عمره، كان صحفيًّا ناجحًا وسياسيًّا وكاتبًا مسرحيًّا، وكانت تربطه علاقاتُ صداقة وطيدة مع بعض الشخصيات العامة، مثل ستيفن ديكاتور وجويل بارلو. ولأنه كان من أصولٍ برتغالية يهودية، فقد أبلى بلاء حسنًا أيضًا في دفاعه عن حقوق اليهود وهويتهم. ولذا كان يبدو المرشَّح المثالي للوساطة في قضية البربر؛ فاليهود — حتى المنتمون إلى أصولٍ أوروبية — كان يُنظر إليهم على أنهم وسطاء محايدون بين الغرب المسيحي والشرق الأوسط المسلم. بل إن يهوديًّا آخر، هو الكولونيل ديفيد فرانكس، كان الممثِّل الشخصي لجورج واشنطن في مفاوضاتِ عقدِ الاتفاقية مع المغرب عام ١٧٨٦. واعتمد ماديسون على هذه السابقة في تعيين نوا قنصلًا للولايات المتحدة في تونس، ومنحه صلاحياتٍ لإنفاق ٣٠٠٠ دولار فدية لكل أسير. وكان على القنصل أن يقول إن هذه المبالغ تبرَّعت بها عائلات الأسرى، ولا علاقة لها البتة بالحكومة الفيدرالية.

رحلَ نوا إلى الشرق الأوسط على متن السفينة «جويل بارلو» في مايو ١٨١٣، واتصل من فوره بالداي الجزائري. وتوصَّل إلى قرار بالعفو عن ستة أمريكيِّين، ولكن مقابل فدية عظيمة قدرُها ٢٥٩١٠ دولارات. وقد أثار هذا الرقم ذعرَ الرئيس ماديسون، وخشي أن يعرف الشعب الأمريكي به، فتحجَّج بذريعةٍ لاستدعاء القنصل إلى الولايات المتحدة. فقال: «يمكن تبرير هذا المبلغ بكراهية المسلمين لديانته. فقد عرف أنه يهودي.» ومع أنه لا أحدَ في تونس كان قد عبَّر عن مثل تلك المشاعر، فإن نوا اضطُر إلى العودة إلى الوطن.[25]

ساعد ماديسون في سَنِّ عادةِ تعيين يهود أمريكيِّين في المناصب الدبلوماسية في الشرق الأوسط، ولكنَّ هذه الليبرالية كانت تشوبها الممارسةُ المستمرة لدفع الإتاوات. وكان يمكن لمثل هذه الهفوات أن تتكرَّر ما دامت الولايات المتحدة غيرَ قادرة على مقاومة طلبات القراصنة وعلى الاستجابة لتهديداتهم بقوة السلاح. ولكن الولايات المتحدة كانت غير قادرة على استجماع مثل تلك القوة أو الشجاعة، ما دامت الحرب مستمرة مع بريطانيا.

لم تهدِّد حرب ١٨١٢ أمنَ الولايات المتحدة فقط — فقد أحرق البريطانيون عاصمتها — بل هدَّدت أيضًا وحدتها التي حققتها بشِق الأنفس؛ فقد فكَّر أهل نيو إنجلاند المعارضين للحرب في الانفصال. ومع ذلك فقد أمكن تجنُّب هذه الكارثة بإصرار ومثابرة بعض قادة

القوات البرية مثل أندرو جاكسون، القائدِ الذي لعب فيما بعدُ دورًا مصيريًّا في علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وقامت القوات البحرية بدور متميز. فعن طريق تطبيق الخبرات والتجارب التي اكتسبوها من محاربة البربر، تغلَّب الأمريكيون على البريطانيِّين وأغرقوا بعضَ سفنهم واستولوا على بعضها. أما الحساب مع الجزائر فلم يُحسم حتى انتهت الحرب بتوقيع معاهدة جنت عشيةَ عيد الميلاد ١٨١٤. وضجَّ الشعب الأمريكي مطالِبًا بالقصاص من القراصنة، فوقَع على عاتق الرئيس تحديدُ موعد التنفيذ وكيفيته.

لم يكن اتخاذ القرارات سهلًا على جيمس ماديسون. ففي الرابعة والستين كان قد أصبح رجلًا مغضَّن الوجه خائرَ القوى، وحكيمًا حذرًا، وكان كثيرَ الخلاف مع أعضاء حكومته. والآن وقد وجد نفسه محاصَرًا بين الضغط الشعبي للثأر من البربر وعدم رغبته في خوض حربٍ أخرى بهذه السرعة بعد إحلال السلام، فقد أصابه التردُّد، ومرَّت ثلاثة أشهر كاملة قبل أن يتَّجه إلى الكونجرس ويطالب بإعلان الحرب رسميًّا، واستجاب له الكونجرس على الفور، وتلقى قائد الحملة — ستيفن ديكاتور — أوامرَ بالتهديد بإيقاع «كوارث خطيرة» بحكام شمال أفريقيا، وألا يرضى بأقلَّ من «سلام دائم وعادل».

غادر ديكاتور نيويورك في ١٥ مايو على رأس فيلقٍ قوي مكوَّن من ١٠ سفن، منها البارجة «جيريير» التي تحمل ٤٤ مدفعًا، والتي استُولِي عليها حديثًا من البريطانيين. وبعد ذلك بشهر واحد اشتبكت السفينة «جيريير» بالقرب من ساحل إسبانيا مع سفينة جزائرية تحمل ٤٦ مدفعًا، وقتلت قبطانَها الريس حميدة و٣٠ من أفراد طاقمه، ثم طارد ديكاتور سفينةً أخرى للعدوِّ — هي إستيديو — حتى جنحت، وأسرَ ٥٠٠ بحار، أما الأمريكيون فقد فقدوا سبعةً من رجالهم بسبب مدفع معطَّل.

وفي صبيحة يوم ٢٨ من يونيو استيقظ عمر باشا «داي» الجزائر الجديد مذعورًا على ١٠ سفن حربية أمريكية راسية في مينائه. فاستنجد الداي بالبريطانيين، وذكَّرهم بتأكيدهم له «أن الأمريكيِّين سيُمحَون تمامًا من على وجه البحار في خلال ستة أشهر»، وقال لهم «إنهم الآن يشنُّون علينا حربًا بسفن كانت مِلكًا لكم في يوم من الأيام!» ولكن الموائد كانت قد انقلبت على أصحابها. فبريطانيا لم تَعُد في حالة حرب مع الولايات المتحدة، ولن تستطيع الجزائر وحدَها الدفاع عن نفسها ضد الأسطول الأمريكي. ولم يكن أمام الداي خيارٌ سوى مقابلة ديكاتور والمرشَّح الجديد لمنصب القنصل الأمريكي ويليام شيلر. وُلد شيلر في كوبا وتلقَّى تعليمه في جامعة برينستون، وكان مفاوِضًا يتميز بالدهاء والعناد، وكانت آراؤه عن أهل شمال أفريقيا تُردِّد بقوة صدى آراء إيتون. ومنها:

«الإسلام، الذي يتطلب القليل جدًّا من الإرشادات ... يبدو مناسبًا تمامًا لمفاهيم الشعوب البربرية، إنني مندهشٌ من أن يُسمحَ لقوة غير ذات قيمة إلى هذا الحد بإعاقة ومضايقة عالَم التجارة والمطالبة بإتاوات وفِدْية مقابل الأسرى.»

قدَّم ديكاتور وشيلر للداي ما وصفاه بأنه شروط «مستنيرة وليبرالية، نمليها من فوق فوَّهات مدافعنا». ولم يكن على الجزائر أن تتوقَّف فقط عن أخذ الإتاوات من الولايات المتحدة، بل كان عليها أيضًا دفْعُ ١٠ آلاف دولار تعويضًا، بالإضافة إلى الإفراج غير المشروط عن الأسرى الأمريكيِّين. وحذَّر ديكاتور الداي قائلًا: «إذا أصررتَ على تلقي البارود إتاوةً، فعليك أن تتوقَّع أن تتلقى قنابلَ معه.» وتوسَّل عمر باشا إلى ماديسون، وخاطبه متملقًا إياه بـ «إمبراطور أمريكا ... صديقنا النبيل ... وسند كل الملوك المسيحيين، والأرفع مكانةً بين الأمراء ... السعيد العظيم الحبيب». ولكن هذه الطريقة لم تُجدِ نفعًا؛ فقد أجاب الرئيس ماديسون: «إنَّ من سياسات أمريكا الثابتة أنه ما دام السلام أفضلَ من الحرب، فإن الحربَ أفضل من الإتاوة. والولايات المتحدة، في حين أنها لا تتمنَّى الحربَ مع أي دولة، فإنها لن تشتري السلام بأي ثَمن.» وظهر إصرار ماديسون جليًّا ذلك الصيفَ عندما وقفت السفينة «إندبندنس» قربَ سواحل الجزائر. وكان قبطانها هو ويليام بينبريدج، وقد ظلَّت في منطقة شمال أفريقيا باعتبارها المركز الرئيسي لهذا الأسطول. وهكذا ظهرت أول قوة أمريكية دائمة عبر البحار.[26]

في تلك الأثناء كان ديكاتور قد تقدَّم نحو تونس وطرابلس، مطالبًا بتعويض عن السفن التي جرى الاستيلاء عليها والإفراج عن باقي المختطفين. وعاد الأسطول إلى الولايات المتحدة حاملًا أعلام ٢٩ سفينة من سفن العدوِّ، وحِيكت الأعلام معًا وصُنع منها بساط قُدِّم للسيدة الأولى دوللي ماديسون، وعادت السفن الأمريكية إلى الوطن ومعها سبعة أسرى من طرابلس، وعُرِضوا في عدة مسارح بمدينة نيويورك باعتبارهم «مسلمين حقيقيِّين». وانتهت بذلك أكثرُ من ثلاثة عقود من الصراع بين الولايات المتحدة وشمال أفريقيا. وكان قراصنة البربر الذين استولوا على ٣٥ سفينة أمريكية وأسروا ٧٠٠ بحَّار وهدَّدوا بقاء أمريكا وجرحوا كرامةَ الأمريكيِّين، قد انتهَوا.

وفي النهاية يبقى أن نسأل: هل كان هذا الصراع مبرَّرًا؟ من الناحية المالية البحتة، كانت الإجابة لا قاطعة؛ فقد وصل ثَمن محاربة طرابلس وحدَها بين عامي ١٨٠٢ و١٨٠٥ إلى ٣ ملايين دولار، وهو مبلغٌ أكبر بكثير من الإتاوات التي دفعتها الولايات المتحدة إلى دول البربر الأربع في تلك السنوات. وكان جون آدامز على حقٍّ في تقديره أن محاربة القراصنة

ستكون أكثرَ تكلفة من رشوتهم. ولكن استفادة أمريكا من الناحية الاستراتيجية فاقت نفقاتها. فقد أمكن تنفيذُ مبدأ جيفرسون بضرورة تبني «موقف حاسم ومستقل» في الشرق الأوسط، كما مكَّن الولايات المتحدة من حماية نفسها من الابتزاز وكسب الاحترام الدولي. وعلَّقت جريدة «نايلز ويكلي ريجستر» على ذلك قائلة: «كلمة أمريكي أصبحت من أكثر الكلمات فخرًا في العالم. ونحن على خطأ كبير إذا لم تمنحنا هذه الحرب مع الجزائر نفوذًا إضافيًّا في المجالس الأوروبية.» ولم يأتِ هذا الفخر من فراغ. فبعد الحملة الأمريكية بسنة، اتَّبع أسطولٌ إنجليزي هولندي مشترَك مثالَ ديكاتور، عن طريق فرضِ إرادته على الجزائر. وكما قال أحد البريطانيِّين: «لم يكن من الممكن أن تحتمل إنجلترا ما كانت الولايات المتحدة قد رفضته وعاقبت عليه.»

غيَّرت حروب البربر نظرةَ أوروبا للولايات المتحدة، وبدَّل ذلك الانتصار بلا شك صورةَ الأمريكيِّين عن أنفسهم. فقد ملأتهم الحرب بمشاعر الفخر الوطني والحيوية وإحساس رائع بالهوية. وانتشرت الرموز الوطنية، كالأعلام والنسور الصلعاء وأشكال العم سام. وأثنت جريدة «نايلز ويكلي ريجستر» على «الطاقة التي تمنحها الحرية لأبطالها، وأنها تقوي قضيتَها عند مواجهة أي دكتاتورية». والجماهير — التي كانت تنكمش وتقشعر أبدانها عندما تذكر سوزان روسون «العجز الأمريكي» في «عبيد في الجزائر» — أصبحت الآن تلتهب حماسةً بمسرحية «حصار طرابلس» لجيمس إليسون. وسعِد الأمريكيون أيضًا بكلمات الشاعر جوزيف هانسون عن المسلم الذليل:

الباشا المسكين سينزعج قريبًا،
فالزيارة غيرُ مرحَّب بها منه …
إنهم يتقدَّمون على مقرُبة مائة قدمٍ من القلعة؛
وتحيته بارود وقنابل؛
فالبحرية لا تبخل بهما؛
والباشا العظيم يستحقهما.[27]

انتهت حروب البربر بانتصار الولايات المتحدة، ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى المشاركين الأساسيِّين في تلك الحرب من الأمريكيِّين. فقد استُقبل ستيفن ديكاتور استقبالَ الأبطال، وذاع صيتُه بعد أن صاغ عبارة «وطني سواء على حق أو على باطل». ولكن بعد ذلك بخمس سنوات قُتل هذا القائد في مبارزةٍ مع جيمس بارون، القبطان السابق

للسفينة «تشيزابيك»، الذي لم يغفر لديكاتور قط محاكمته عسكريًّا. وقد دُفن ديكاتور في البداية في فيلادلفيا بجانب جثمان المفاوِض جويل بارلو، ثم نُقل إلى الأكاديمية البحرية بأنابوليس. وكان بارلو قد عُيِّن مبعوثًا للولايات المتحدة في فرنسا عام ١٨١١، ورافق نابليون في غزو روسيا، ثم مات متجمدًا في بولندا. أما ويليام بينبريدج فكانت نهايته تقليدية؛ فقد توفِّي وفاةً طبيعية بعد قيادة الأسطول على مقرُبة من بوسطن وفيلادلفيا. ولم يتغلَّب بينبريدج قط على إحساسه بسوء حظه في البحر المتوسط، مرددًا: «لقد ضاعت مني فرصةُ الحرب أو التفاوض» مع البربر. أما توبياس لير فقد تعرَّض للملاحقة بسبب دوره في اتفاقية طرابلس حتى بعد الحدث بسنوات، فانتحر في واشنطن في أكتوبر ١٨١٦.

ولم يتعافَ إيتون قط من تجربته المريرة في شمال أفريقيا. ومع أن التجربة مكَّنته من تقدير الولايات المتحدة، حيث «يسمح لنور الله أن يضيء الأذهان»، فإنه بقي على مرارته. وبدافعٍ من الثأر، انضم عام ١٨٠٦ إلى المؤامرة التي دبَّرها آرون بور لغزوِ منطقة لويزيانا. لكنه فيما بعدُ تحوَّل إلى شاهد ملك ضدَّه. ومع هذه النقطة السوداء فقد منحه المجلس التشريعي لماساتشوستس ١٠ آلاف فدان من الأراضي الزراعية «بسبب رغبته في تكوين ذكرى عمل بطولي». فعاش هناك دون عمل، عيشةً منعزلة أشبه بعيشة الرهبان، مدمنًا على الشراب. وقد أفضى إلى صديقٍ قديم له من الجيش عام ١٨١٠ قائلًا: «إنني أعيش تحت حصارٍ محكم. فملك الموت يدفعني إلى الداخل، ويرسم خطوطًا … حول قلعتي»، ثم تُوفي في العام التالي.

أما توماس جيفرسون العجوز فكان يتابع من ضَيعتِه بمونتيتشيللو أنباءَ انتصارات ديكاتور في شمال أفريقيا وسقوط القراصنة البربر. وقد استعاد علاقتَه بصديقه وغريمه القديم جون آدامز، فكتب إليه عن فخره بالبحرية الأمريكية، التي أسماها «الحائط الخشبي للولايات المتحدة»، والتزامها «بإحكام السيطرة على دول البربر». وعلى الرغم من المعارضة الشديدة لتكوين قواتٍ بحرية أمريكية، والهزائم التي مُنيت بها أمريكا في معاركها الأولى في الشرق الأوسط، فإن البحرية الأمريكية خرجت قوةً حربية عالمية. بل إن فيلق البحر المتوسط كان في حالةِ تأهُّب دائمة وقت وفاة الرئيسين جيفرسون وآدامز في ٤ يوليو ١٨٢٦، وهو ما واكبَ العيد الخمسين لميلاد الدولة.

عاش ميراث الحروب البربرية الأمريكية في وجدان الولايات المتحدة، في مقاطعة بريبل بولاية أوهايو، ومدينة إيتون بولاية نيويورك، وفي مدينة طرابلس بولاية آيوا، وكذلك في العشرين بلدة المسمَّاة على اسم ستيفن ديكاتور. ولا يزال جنود البحرية الأمريكية حتى

اليوم يردِّدون أغنيةَ «إلى سواحل طرابلس» (مع أنهم في الحقيقة لم يتجاوزوا درنة)، ويحملون سيفًا معقوفًا يشبه كثيرًا السيفَ الذي أهداه حامد للملازم أوبانون. أما أقدمُ نُصب تذكاري حربي في البلاد فقد شُيِّد بقرار من الكونجرس في مدينة أنابوليس تخليدًا لذكرى الانتصار على شمال أفريقيا. ومن التذكارات الأخرى جرسُ السفينة «فيلادلفيا»، الذي انتُشل من البحر وأُعيد إلى الولايات المتحدة عام ١٨٧١، أما أبرز رموز الحرب فقد يكون أقلَّها شهرة، وهو النشيد الوطني الأمريكي الذي يقف الأمريكيون تحيةً له في مباريات كرة القدم وغيرها من المناسبات العامة. وُضِع النشيد الوطني أولَ الأمر تكريمًا لبينبريدج وديكاتور عام ١٨٠٥ على أنغامِ لحنٍ إنجليزي قديم، وكان يحوي عبارات: «انحنت الرءوس المعمَّمة» أمام «جباه الشجعان» و«راية بلادنا المرصَّعة بالنجوم». ولم تتغيَّر كلمات النشيد إلا بعد معركة فورت ماكهنري في أثناء حرب عام ١٨١٢ على يد مؤلِّفه فرانسيس سكوت كي.[28]

كانت الولايات المتحدة بعد نصف قرن من تأسيسها لا تزال وحدَها، ولكنها كانت قادرة تمامًا على الدفاع عن تجارتها. وازدهرت التجارة الأمريكية بعد تحرُّرها من سطوة القراصنة. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر سجَّلت موانئ البحر المتوسط زيادةً في السفن الأمريكية الزائرة تُقدَّر بأربعة أضعاف. وأصبحت الولايات المتحدة تورِّد للمنطقة ١٢ مليون جالون من الخمور سنويًّا، وتشتري معظمَ إنتاج تركيا من الأفيون. وقد علَّق أحد المبشِّرين عندما وصل إلى الأناضول على ذلك قائلًا: «يا لضيعة مسيحيي أمريكا. فتجَّار الأفيون يجدون فيها سوقًا رائجة لسمومهم!» ولكن لم يشاركه معظمُ الأمريكيِّين هذه المشاعر، بل نظروا فقط إلى الجانب المشرق، واستمتعوا تمامًا بقوَّتهم الجديدة، وفي خطابٍ أمام الكونجرس في الثاني من ديسمبر ١٨٢٣ منع الرئيس مونرو أيَّ تدخُّل أوروبي في العالم الجديد، ولا بد أن شجاعة هذا القرار كانت ستُعدُّ نوعًا من الجعجعة قبل بضع سنوات؛ قبل حروب البربر واستعراض أمريكا لعضلاتها في الشرق الأوسط.[29]

غير أنَّ هذه الإنجازات العظيمة في مجال العلاقات الخارجية لم تخفِ التناقضات التي ظلَّت تثير الاضطرابات الداخلية في الولايات المتحدة. ومع أنَّ عدد سكان الولايات المتحدة قد تضاعف أكثرَ من خمس مرات في السنوات الخمسين الأولى بعد الاستقلال، ووصل إلى ١١ مليون نسمة، فإن خُمس هذا العدد كان لا يزال من العبيد. وإذا كانت حروب البربر قد مكَّنت الأمريكيِّين من الاتحاد في مواجهة التحديات الخارجية والداخلية،

فإنَّ قضيةَ العبيد الأمريكيِّين ذوي الأصول الأفريقية زادت من فُرقتِهم وانقسامهم بلا رجعة. ولكن حتى هذا الصراع تأثَّر بأسطورة البربر وبتجارب الأسرى الأمريكيِّين في شمال أفريقيا.

وقد كان لقليلٍ من الأحداث في فترةِ ما بعد الاستقلال تأثيرٌ جذري على أمريكا أكثرَ من حربها مع الشرق الأوسط. فقد دفع التهديد القوي من تلك المنطقة المستعمرات السابقةَ إلى الاتحاد وجمعِ مواردها معًا، وإلى تكوين قوة بحرية وتوجيهها بعيدًا عن السواحل الأمريكية. وباختيار أمريكا للقتال بدلًا من مهادنة القراصنة، وخروجها بذلك عن مسلكِ أوروبا، استطاعت الدولة أن ترسِّخ شخصيتها القومية. ولن يضطر مواطنوها بعد ذلك إلى احتمال «الإهانات المذلة» التي تعرَّض لها بينبريدج عام ١٨٠٠، ولن يترددوا أبدًا — كما فعل بينبريدج — في التفكير في كلمات «الولايات المتحدة المستقلة». ففي بوتقةِ هذا الصراع الذي دام ٣٠ عامًا تشكَّلت الهوية الأمريكية.

استعرض الأمريكيون تلك الهويةَ المحدَّدة الجديدة، فاندفعوا في مغامراتٍ في الشرق الأوسط فيما وراء شمال أفريقيا، نحو الجزيرة العربية والأناضول والهلال الخصيب. ولم يَعُد هدف عدد كبير منهم البحثَ عن الثروة أو الأمان أو حتى التحقُّق من صحة الأساطير التي سمِعوها عن تلك المنطقة. بل كان هدفهم هو حمْلَ مِشعل التنوير والخلاص إلى المنطقة، وإعادة تشكيلها وفق النموذج الأمريكي. فتخلى الشباب والشابات عن الخيال وتبرءوا من البارود والقنابل، وأخذوا يغرسون قيمَهم عن طريق الأناجيل والكتب فقط، في المدارس والمستشفيات، بدافعٍ من إيمانهم العميق.

الفصل الرابع

تنوير العالم وتحريره

احتشد الناس في مقاعدِ كنيسة «أولد ساوث» ببوسطن، وأطلُّوا من نوافذها المدعَّمة بالقضبان. وكانوا قد انتظروا هذا اليوم — ٣١ أكتوبر ١٨١٩ — بشغفٍ كبير، مقتنعين تمامًا أنه بداية عهد جديد، وربما عالَم جديد بأسرِه. وكانت همهماتهم التي تحوَّلت إلى طنينٍ عالٍ تنبئ بوصول أحد علماء الدين الأجلاء. ومع ذلك فعندما فُتحت الأبواب، لم يظهر كاهنٌ أو حتى شمَّاس، بل مجرد قسين متواضعين، في نحو الخامسة والعشرين من عمرهما. وسكت الجمع فجأةً عندما تقدَّم أحدهما، وهو قصيرٌ ذو أنف عريض ويرتدي نظارة، وصعِد إلى المنبر. كان اسمه ليفي بارسونز، ولم يكن موضوعُ خُطبته هو الإنجيل ولا القيامة، بل اليهود.

بدأ بارسونز بقوله: «إنَّ مَن علمونا طريقَ الخلاص هم اليهود. فقد حفظوا الإنجيل بأمانة وإخلاص، وعمِلوا بجِد، وعانَوا وماتوا مدافعين عن ديننا. كان ربنا هو ربهم، وكانت جنتهم هي جنتنا.» والأهم — كما ذكر بارسونز — هو أنهم منحوا الإنسانيةَ مُخلِّصها؛ «نعم يا إخوان، فمَن يشفع لكم الآن عند رب العرش ... يهودي!» وانتهى إلى أنه لكي يُظهِر المسيحيون شكرَهم لكرم اليهود يجب عليهم أن يعيدوا لذلك الشعبِ سيادتَه على وطنه الذي ورد في الإنجيل، والذي سكنه آباؤهم من قبلِهم.

أوضح بارسونز كيف عاش اليهود ١٨ قرنًا في عزلةٍ سياسية، مشرَّدين بلا وطن، ومحرومين من الاستقلال، غير أنه آنَ أوانُ رفعِ هذا الظلم. وقال: «اعترفوا أنه لا يزال في صدر كل يهودي رغبةٌ جامحة للعيش في الأرض التي منحها الله للآباء، وهي رغبةٌ لا يمحوها حتى اعتناق المسيحية.» كان هذا الوطن هو فلسطين، الذي كان يومًا ما بلدًا رائعًا، لكنه لم يَعُد الآن بلدًا مستقلًّا ولا حتى إقليمًا منفصلًا، بل أصبح بلدًا عثمانيًّا يسكنه قليلٌ من الأتراك. بلدٌ راكد متخلِّف، ينتظر أن يستعيده أصحابه الحقيقيون. ثم

أضاف: «وسيستعيدونه بالتأكيد!» فإذا انتهى الاحتلالُ العثماني لفلسطين، «فلن يمنع عودةَ اليهود الفورية إليها سوى معجزة!»

لم يكن بارسونز يدعو بالطبع إلى غزوٍ عسكري، فلم تكن أمريكا في وضعٍ يسمح لها بقتال العثمانيِّين حتى بعد انتصار أمريكا في حروب البربر، بل كان يدعو إلى برنامجِ دعوةٍ سلمية. وبناءً عليه كان المبشِّرون المسيحيون سيسافرون إلى الشرق الأوسط، إلى أسوار القدس المبارَكة، وهناك يقومون بأسمى أعمال الخير والصلاح بحيث تغري اليهود بالعودة إلى الوطن واستقبال يسوع المسيح. إن قيامَ دولة يهودية في فلسطين سيفي بكل الشروط اللازمة للمجيء الثاني، كما أكَّد بارسونز. وعلى ذلك سيغمُر النور المقدَّس ليس فقط اليهود، بل أيضًا المسلمين ومسيحيي الشرق الضالين. وعندها ستبدأ ألفُ سنة من السلام والتضامن الروحي، وستنحني الإمبراطورية العثمانية — بل كل الإمبراطوريات — أمام مجد المسيح؛ «وستتوجه كل العيون نحو القدس.»

تلقَّى الشعب هذه الحقائقَ مندهشًا ومذهولًا وانتظر بشغفٍ متزايد كلمات الرجل الثاني. كان هذا هو بليني فيسك؛ أطولَ قامةً من بارسونز وأكثرَ هندامًا، وأقلَّ كلامًا. تحدَّث بدوره عن الحاجة إلى عمل معجزات في الأرض المقدَّسة، للمساعدة في تحقيق الخلاص، مهما كانت المخاطر. ثم تلا من الكتاب المقدَّس: «والآن ها أنا ذا أذهب إلى أورشليم مقيَّدًا بالروح»، فانفجر الحضور بالبكاء.

إذا نظرنا من منظور القرن الحادي والعشرين فقد نرى أن فيسك وبارسونز وجمهورهما كانوا متطرفين في عقائدهم ولا يعبِّرون إلا عن هامش المجتمع الأمريكي. فزعمُهما أنهما القادران وحدَهما على إنقاذ اليهود والمسلمين وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط سيبدو ساذَجًا بالتأكيد في نظر كثير من الأمريكيِّين اليوم. إن لم يكن معبِّرًا عن الغرور؛ فلماذا يتبنَّى أبناء أحد أقدم الحضارات والوارثون لأحد أعرق التقاليد في التاريخ عقيدةَ هؤلاء الغرباء المحدَثين، المبشِّرين بالبروتستانتية منذ أقلَّ من ثلاثمائة عام وأبناء دولة عمرها أقلُّ من خمسين عامًا؟

ولكن هؤلاء الأمريكيِّين لم يكونوا يمثِّلون نسبةً هامشية بالمرة. فتعاليم الميثودية والكنيسة المشيخية الأمريكية والأبرشانيِّين كان لها أتباعٌ كثيرون في الولايات المتحدة، متخطيةً كل حواجز الطبقات والتعليم والجنس. فكان من بين المبشِّرين وأتباعهم مزارعون وتجار، وأطباء وأصحاب حرف، وكان من بينهم مَن تلقَّوا قدرًا ضئيلًا من التعليم ومَن تخرجوا في أرقى الجامعات، رجالًا ونساء على السواء. ولأنهم كانوا متشربين

حتى النخاع بالقيم الأمريكية، مثل الفردية والمزايا المدنية والوطنية فقد رأوا أنهم حمَلَة ميراث الثورة. وفي هذه الكنيسة نفسِها — كنيسة «أولد ساوث» — قبل ذلك بخمسة وأربعين عامًا كان أعضاء منظمة أبناء الحرية قد تجمعوا قبل مسيرة ارتدَوا فيها ملابسَ الهنود الحمر للتخلُّص من الشاي البريطاني في ميناء بوسطن.

لم تتملك الحماسة للحملة التي اقترحها فيسك وبارسونز فقط الأمريكيِّين الذين عاشوا زمنًا في أمريكا، بل سيطرت أيضًا على كثير من المهاجرين الجدد. ولم تكن الحماسة كذلك مقصورة على بوسطن أو ما يسمَّى مناطق حزام الكتاب المقدَّس (المناطق التي يسيطر عليها البروتستانت المتشدِّدون) بنيو إنجلاند. بل قوبل القسيسان بكل حفاوة وتَرحاب في كل مدينة رحلا إليها في رحلتهما عبْر الجنوب والولايات الحدودية غرب جبال اللجني لجمع التبرعات لرحلتهما. وقال بارسونز فرحًا: «بدأت روح البعثات التبشيرية تسيطر على ثروة الكنائس الأمريكية ونفوذها.»

واشتركت كلُّ هذه الجماعات في إيمانها بأن أمريكا لها دورٌ أسندَه إليها الربُّ بأن تكون «نورًا للأمم» وأن تكافح من أجل السلام العالمي. وقال المؤرخ أوليفر إلزبري عن فيسك وبارسونز وآلاف الشباب والشابات الذين قُدِّر لهم أن يسيروا في رِكابهما: «كانوا عازمين على الارتقاء بالإنسانية إلى مستوًى أفضل من الحياة. وكانوا يسعون إلى تقديم أفضلِ ما كان في أمريكا وقتها إلى العالم الوثني.» وكان المبشِّرون ينفردون بالجمعِ بين السذاجة والاستخفاف بعقول الآخرين، بين الغرور وعدم التكلُّف، ومع ذلك فقد كانت نياتهم حسنةً للغاية في الوقت نفسه؛ وكان تكبُّرهم حميدًا في جوهره.

غادر المصلُّون كنيسةَ «أولد ساوث»، على دقات أجراسٍ ابتكرها بول ريفير، وأفكارهم أبعد ما تكون عن نيو إنجلاند. كانوا يفكِّرون في ركنٍ بعيد من أركان الإمبراطورية العثمانية، وفي الأحداث الجسام التي ستقع هناك عما قريب. وفي تلك الأثناء كان ليفي بارسونز وبليني فيسك قد سافرا إلى واشنطن، حيث أمدَّهما وزير الخارجية جون كوينسي بخطابات تشهد باستقامتهما. وبذلك كان القسان الشابان قد استكملا استعداداتهما ليصبحا أول مبشِّرَين أمريكيَّين في الشرق الأوسط، وهي المنطقة التي آمنا أن «صفقاتٍ عظيمة هناك قد أثَّرت في أقدارِ كل العصور والأمم إلى الأبد».[1]

رحل جون ليديارد إلى مصر بحثًا عن المغامرة، ودافع رجالٌ مثل ويليام إيتون وستيفن ديكاتور عن بلادهم ضد قراصنة شمال أفريقيا. ولكن كان الهدف الوحيد لرحيل فيسك وبارسونز إلى الشرق الأوسط هو نشْرَ دينهما. فكيف حسبا إذن — هما

وكثير من أهل بلادهما — أنه عن طريقِ نشر البروتستانتية الإنجيلية في الشرق الأوسط ذي الأغلبية المسلِمة يمكن إنقاذ العالم بأجمعه؟ ولماذا كان لديهما هذا القدرُ الكبير من الثقة بأن شباب الولايات المتحدة الناشئة يمكنه تحويلُ الشعوب العريقة للمنطقة إلى المسيحية، ويمكنه بذلك إنقاذُ الإنسانية جمعاء؟

«التشابه إلى حد التطابق»

نستطيع أن نجد إجاباتٍ على تلك الأسئلة قبل قرنين من الزمان، محفورةً في الأفكار التي قامت عليها الولايات المتحدة.

قال ويليام برادفورد، المحافِظ المستقبلي لمستعمرة بليموث، عندما غادر السفينةَ «مايفلاور» عام ١٦٢٠: «دعنا نعلن كلمةَ الرب في صهيون.» كان برادفورد يردِّد كلماتِ أرميا، ولم تكن صهيون عنده أرضَ كنعان الموعودة، ولكن نسختها الحديثة: أمريكا، ولم يكن سكانُها هم بني إسرائيل القدامى، ولكن ١٠١ من المسافرين الذين وصلوا مع برادفورد، وهم رفاقه من التطهريِّين.

لم تعكس ملحوظاتُ برادفورد فقط اكتشافَ عالَم جديد، ولكن أيضًا إعادة اكتشاف العهد القديم، ومع بداية الإصلاح الديني أُتيح لشعب إنجلترا الاطلاعُ على الكتب التي كانت الكنيسة الكاثوليكية قد تجاهلتها زمنًا طويلًا، وهي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وسفر القضاة وسفر الملوك وأسفار الأنبياء. وأحدَث اطلاعُهم على هذه الأسفار تحولًا كبيرًا. فقد قامت إنجلترا بتغيير القصة الواردة في الإنجيل بسهولة، من قصة إبراهيم إلى كتاب دانيال، واعتبرتها قصتَها الوطنية، واصلةً ما أسماه الشاعر ماثيو أرنولد «عبقريتنا وتاريخنا نحن الإنجليز وعبقرية وتاريخ الشعوب العبرية». أثْرَتْ عباراتُ الإنجيل اللغةَ الإنجليزية، وساعدت مفاهيمُ الكتب المقدَّسة مثل الحرية الاجتماعية والعدالة على تقوية الحكومة البرلمانية. وبرعت أعدادٌ من الإنجليز — من عامة الشعب ورجال الدِّين على السواء — في اللغة العبرية، وأصبحوا يطلِقون على أولادهم أسماءً من العهد القديم، مثل جيسي وسارة وصامويل وريبيكا.

كان الدافع وراء تبنِّي تاريخ العهد القديم قويًّا بصورة خاصة بين التطهريين، أكثر الإصلاحيِّين الإنجليز صلابةً. ففي بحثهم عن دِين مثالي لم تلوِّثه السياسة أو الطبقات الاجتماعية، وعن مُثل موازية لمفاهيمهم، تذكَّر التطهريون اليهود وعقيدتهم القديمة. فقد كانوا يؤمنون بأن الله قد تحدَّث مباشرةً إلى الشعب المختار، وحفظ عهده معهم، ونجَّاهم

من الاضطهاد. وخلَص التطهريون من ذلك إلى أنهم ورثةُ هذا العهد والعَقد، وأنَّ إسرائيلَ جديدًا قد بدأ رحلةَ شتات جديدة من العبودية إلى الحرية، موجَّهًا نحو الأرض الموعودة. وبدافعٍ من هذا الحسِّ بالتميز والاختيار، رحل الحجاج من إنجلترا إلى هولندا، ومن هناك إلى بليموث روك، محطتهم الأخيرة نحو الخلاص.

كان التطهريون قد وضعوا بصمتَهم وهويتهم على هوية اليهود، وبذلك فرضوا خريطةَ كنعان القديمة على الجديدة. وقال إدوارد روبنسون، وهو أحدُ أبناء هؤلاء التطهريِّين وقد عاش في القرن التاسع عشر، وعُرف بأنه أبو الآثار الإنجيلية: «لم تُعرف الكتابات المقدَّسة أو تُقدَّر في مكانٍ أكثرَ من هذا. فأسماء سيناء والقُدس وبيت لحم والأرض الموعودة أصبحت ترتبط بأقدمِ ذكريات الأمريكيِّين وأكثرها قدسيةً.» ولأن الأمريكيِّين كانوا أكثرَ درايةً وعلمًا بجغرافية الأرض المقدَّسة من علمهم ودرايتهم ببيئتهم الغريبة والجديدة؛ فقد نتج عن ذلك إطلاقُ أسماء دينية مثل سالم وشيلوه وصهيون على أكثرَ من ألف مدينة في أمريكا الشمالية. وكانت دراسة اللغة العبرية إلزاميةً في مدارس عديدة وكليات العالم الجديد، مثل برينستون؛ حيث حصل جيمس ماديسون على شهادته في اللغات، وفي ييل ودارتموث وكولومبيا، التي وضعت رموزًا عبرية على شعاراتها. وحتى سكان أمريكا الأصليِّين — الهنود الحمر — الذين تتبَّع نسلَهم العديدُ من المستعمرين وأرجعوهم إلى القبائل العشر المفقودة، تم وضعُ أثرهم على ألواح الإنجيل الممسوحة. وقال القس صامويل ويكمان لبعض المجتمعين في كنيسة «هارتفورد» عام ١٦٨٥: «القدس كانت ونيو إنجلاند أصبحت. هم كانوا، وأنتم أصبحتم … شعبَ عهد الله.» وقد عبَّر بيتر فوجلر، جَد بنجامين فرانكلين، عن نفس الفكرة بصورةٍ أكثرَ لباقةً عندما قال: «في نيو إنجلاند هم كاليهود، ومتشابهان كأقرب ما يكون.»[2]

وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كانت ثقةُ أمريكا الاستعمارية باختيارها الإلهي قد ساعدت على إشعال جذوة الصحوة الدينية الكبرى، وأُسِّسَت كنائسُ جديدة مثل المعمدانية والميثوديست والكنيسة المشيخية الأمريكية، وأُنشئت جامعاتٌ جديدة كبرينستون ودارتموث لتساعد في نشر عقائد هذه المذاهب. أما الأفكار الكالفينية القديمة الخاصة بحتمية القضاء والقدَر فجرى التخلُّص منها، والاستعاضة عنها بثقةٍ أمريكية جديدة في قدرة الفرد على تخليص روحه عن طريق وهبِ نفسه تمامًا لأنشطة الدعوة والدين. ومع ذلك فلم يكن على المسيحيِّين أن يبحثوا عن خلاص أنفسهم فقط، بل عن خلاص الآخرين أيضًا عن طريق قيادتهم إلى ميلاد روحي جديد. وبسبب ثقتهم بقدرتهم

على القيام بتلك المهمةِ تطلع كثيرٌ من الأمريكيِّين إلى ألفية جديدة، وعصر ذهبي، تكون فيه كلُّ أمة مكوَّنة من شعب حر. وتكون فيه الأرض كلُّها «مجتمعًا واحدًا، جسدًا واحدًا في المسيح»، كما تنبَّأ بذلك رجلُ الدين جوناثان إدواردز. هلَّلت أمريكا البروتستانتية لذلك الحدَث المستقبلي، الذي تنبَّأ به مؤسِّسوها، مردِّدين قولَ مَتَّى في إنجيله (١٤:٥–١٦): «نور العالم» ... «المدينة على الجبل» التي ليس لها مثيل.

كانت صورة المستعمَرين عن أنفسهم باعتبارهم بني إسرائيل الجددَ قد حصلت على أهمية خاصة في حرب الاستقلال. ووُضِع الملك جورج الثالث في دَور الفرعون، ولعِب المحيط الأطلنطي دورَ البحر الأحمر، وشبَّه الكتَّابُ الوطنيون جورج واشنطن بموسى، وجون آدامز بيشوع، وهما اللذان قادا شعبيهما نحو الحرية. أما ألكسندر هاملتون، الذي كان عضوًا في الكنيسة الأسقفية، وقد تعلَّم قراءةَ العبرية في شبابه، فقد كان مصيرُ أمريكا عنده شبيهًا بمصير اليهود، أي إنهما شعبان «كان تاريخهما منفصلًا تمامًا عن تاريخ الإنسانية، وهو نتاج تأثير خطة قدرية مصيرية». أما عزرا ستايلز — رئيس جامعة ييل — فقد لاحظ أن عدد بني إسرائيل الموجودين بجبل سيناء، وهو ثلاثة ملايين، هو عدد سكان الولايات المتحدة نفسه في زمن الاستقلال. أما صامويل لانجدون — رئيس جامعة هارفارد — فاقترح «إمكانيةَ إحلال الولايات الثلاث عشرة للاتحاد الأمريكي محلَّ الأسباط الاثني عشر من بني إسرائيل». وكانت صورة تلك الأسباط العابرة للبرية نحو أرض كنعان تزيِّن ختم الولايات المتحدة الذي اقترحه فرانكلين وجيفرسون.[3]

ومع ذلك فلم تمنع هذه الحماسة الدينية التي اجتاحت الولايات المتحدة الجمهوريةَ الشابة الناشئة من فصل الكنيسة عن الدولة. ففي اتفاقية عام ١٧٩٦ مع طرابلس أعلنت الولايات المتحدة أنها «لم تؤسَّس بأي شكل على الدين المسيحي، وأنها لم تَخُض حربًا قط ... ضد الدول الإسلامية ... بناءً على أي وازع ديني»، وهو تأكيدٌ وافق عليه مجلس الشيوخ بالإجماع. ولكن مع ذلك فقد استمر الإيمان والعقيدة في اختراق كل ركن من أركان الحياة في أمريكا، ومنها الحكومة. فكثيرًا ما كان رجال الكونجرس وأعضاء الحكومة وحتى الرؤساء يدعون إلى أنشطةٍ تبشيرية داخل وخارج الولايات المتحدة.

انتعشت الديانة البروتستانتية في الولايات المتحدة بسبب حرية الحدود وعدم وجود قيود لكنيسة وطنية موحَّدة، وزاد عددُ أتباعها وقويت سلطتها أيضًا باختراعها وسائلَ جديدة لابتكارات روحية. وبنهاية القرن الثامن عشر كان شلال الطاقة الدينية قد تحوَّل إلى صحوةٍ ثانية أكَّدت العودةَ إلى الأصول، والإيمان بالخلاص القادم. وقال أحد وزراء

كونيتيكت عام ١٨١٥: «لقد دخلنا تلك الفترة المُهَيِّئة للألفية الجديدة»، واصفًا فترةً تتوقَّف فيها كل الحروب، ويكون لكل مجتمع كنيسته، ويكون لكل عائلة مباركتها اليومية. وكان هناك تركيزٌ واهتمام خاص بتحويل اليهود إلى الإنجيلية، وتوحيد إسرائيل القديمة بالجديدة. وازدهرت وانتعشت وانتشرت مؤسسات الأنشطة الدينية، مثل مؤسسة المرأة للترويج للمسيحية بين اليهود، محقِّقة نتائجَ رائعة من حيث عدد المتحولين إليها. وانتشرت نبوءةٌ عامة، مُفادها أن «معبد الرب سيهبط بين البشر قريبًا». وفي مدن وقرى نيو إنجلاند ونيويورك كان الشباب على استعداد تام لوهب حياتهم لتحويل هذه الرؤية إلى حقيقة.

دعت الصحوة الثانية الأمريكيِّين إلى الانغماس — ليس فقط في الروحانيات — بل أيضًا في فخرهم ببلادهم. ونصح بليني فيسك قائلًا: «يجب على المسيحيِّين أن يطوِّروا وطنيتهم إلى درجة كبيرة. فما الذي يمكن أن يكون أكثرَ تناسبًا، من نار متوهجة وحماسة سياسية موجَّهة للمسيح؟» أثار هذا المزيج من حب الوطن والتوجُّه للرب دهشةَ ألكسيس دي توكفيل، باعتباره أحدَ أكثر صفات أمريكا تميزًا. واستخلص هذا الفرنسي عام ١٨٣٥ أن المسيحية لها «تأثير أكبر بكثير على أرواح البشر … في أمريكا» أكثر من أي مكان آخر في العالم، وأنه فقط في الولايات المتحدة يُرْبط بين الدين و«السلوكيات الديمقراطية» و«روح الاستقلال الفردي».

تشبَّع كثير من الأمريكيِّين بهذا المزيج من التقوى والوطنية، فكانوا على استعدادٍ تام لإنقاذ العالم؛ روحانيًّا عن طريق تدريس الإنجيل، وسياسيًّا عن طريق الترويج والدعوة للحرية. وبقي الدافع للاستمرار في هذه المهمة أمرًا ثابتًا في السياسة الخارجية الأمريكية، مما منح توازنًا لهروبها السابق من التدخُّل في الشئون الخارجية، وأصبحت نقطةً تجمَّع حولها على الدوام قادتُها المختلفون، فمع كل اختلافاتهم حول الأمور الروحية اتَّفق الآباء المؤسِّسون بالإجماع على التزامهم بالإيمان المدني الدنيوي. أما جيفرسون — الذي كان ربوبيًّا — فكانت الولايات المتحدة عنده «شيئًا قيمًا للإنسانية، تُجَمِّع كلَّ الأمم على اتصال حر يهدف إلى السعادة». أما آدامز — المؤمن بإله واحد — فكانت أمريكا عنده … «تصميمًا … رائعًا للقدَر لتنوير الجاهل وتحرير الأرض».[4]

ظهر التزام أمريكا برؤيتها لتحسين العالم أجمع، دينيًّا ودنيويًّا، عام ١٨٠٨، في ويليامز كولدج بماساتشوستس. ففي عاصفة صيفية مشبَّعة بالبرق، اختبر خمسة طلاب ثقتَهم بالله عن طريق اختيار أكثر المخابئ ضَعفًا، وهو كومة من القش، ليختبئوا فيها.

وقال لهم قائدهم صامويل ميلز: «إنني أنا وأنتم كائنات صغيرة للغاية، ومع ذلك فعلينا ألا نرضى حتى يكون لنا تأثيرٌ ممتد إلى أبعدِ ركن من هذا العالَم المدمَّر.» ونجا الطلاب الخمسة كلهم. وخرجوا من التجربة مبتلين ولكنهم كانوا ممتلئين بالرغبة في تدريس الإنجيل خارج الولايات المتحدة. وقد انتشر حادث كومة القش في كلياتٍ أخرى، مثل هارفارد وبراون ويونيون، وخاصة في ميدلبيري وكلية آندوفر للاهوت، حيث درس كلٌّ من بارسونز وفيسك. وسرعان ما كان الطلبة يقدِّمون طلباتٍ في كنائسهم المحلية لرعاية مجهودات تبشيرية خارج الولايات المتحدة، ضاغطين على الكبار للقيام بخطوات تنفيذية.

وقد سارع الكبار بالتصرُّف بالفعل. فعام ١٨١٠ قاموا بتأسيس المجلس الأمريكي للبعثات التبشيرية بالخارج. وكان المجلس مكوَّنًا من رجال دين من طوائف مختلفة، بالإضافة إلى رجال صناعة وأطباء ومحامين، وكان هدف المجلس هو ترسيخ وجود مراكز التبشير أو «المحطات» في جميع أنحاء العالم غير البروتستانتي. وكان رأي أحد مؤسسي المجلس، القس صامويل هوبكنز «أن امتداد الحب المسيحي هو فقط الذي يمكنه تقريب الإنسانية من الألفية التي ستضع حدًّا للفقر والاضطهاد والظلم.»

كانت كل هذه الشرور ستُمْحى في البداية من الجنوب الأمريكي، وفيما بعدُ من أفريقيا والهند والصين. ولكن من بين كل الأنشطة الإنجيلية لم تُثِر إحداها اهتمامَ المجلس كما أثاره الشرق الأوسط. فها هي ذي منطقةٌ لم تتمكن أيُّ قوة أوروبية من امتلاكها بعد، تقع على مفترق الطرق الحضارية — وهي منطقة بُوركت فوق هذا وذاك بوجود أقدس البلاد وسطها. وقال ليفي بارسونز، وهو يستمع إلى أجراس كلية ميدلبري معلنةً انتهاءَ حرب عام ١٨١٢، إنه يسمع «تأوهات العالم الشرقي، تنطلق نحو عَنان السماء، طالبةً الخلاص». وأعلن فرحًا أن «صهيون سيزدهر».[5]

وإذا كان صهيون يعني بذلك الأرضَ الموعودة في أمريكا لقائد الحجاج ويليام برادفورد، أما ليفي بارسونز الذي عاش بعد ذلك بقرنين فكان يعني بصهيون الأرض الأصلية القديمة لإسرائيل، التي أصبح اسمها الآن فلسطين. وفي حين أنه كان يمكن تحويلُ ديانة الكثيرين حول العالم، فإن المبشِّرين آمنوا بأن فلسطين فقط هي البلد التي يمكنهم أن يحدِثوا أثرًا فوريًّا وعميقًا فيها. فهناك ستمتزج رغبتان معًا؛ تلك التي يتمنَّاها البروتستانت في الاتحاد مع أسلافهم الروحيِّين — أي اليهود — والأخرى الرغبة الشديدة في عودة المسيح.

لم يكن الانبهار الذي أظهره كثيرٌ من الأمريكيِّين البروتستانت نحو اليهود نابعًا من أي اتصال مكثَّف معهم، فقد كان يعيش في الولايات المتحدة في ذلك الوقت نحو ٤٠٠٠

يهودي، وهو ما كان يمثل نحو ٠٫٤٪ من مجموع السكان حينئذٍ، ولم ينبع من الرغبة في عَقد صداقة شخصية معهم. بل الحقيقة أن بعض الكتابات الإنجيلية المبكرة تضمَّنت بعض الملحوظات التي قد تبدو اليوم معاديةً للسامية بالتأكيد، منها إصرارهم على أن يُعَمَّد جميع اليهود في النهاية. ومهما كانت المشاعر التي كانوا يكنُّونها لهم بوصفهم مواطنين ينتمون إلى نفس الوطن، فإنها كانت مختلفة عن عواطف الإنجيليِّين نحو اليهود باعتبارهم أبناءَ عمومتهم في المعتقَد والأداة للخلاص المستقبلي. وعن طريق الإسراع لتنفيذ وعود الرب بإعادة اليهود إلى موطنهم الأصلي، سوف يتمكَّن المسيحيون من إعادة تشكيل ظروف سيادة اليهود كما كانت في عهد المسيح، وتمهيد المسرح لعودته. كان هذا هو مفهوم الإعادة أو «العودة وإعادة الوضع إلى ما كان عليه» وكان تأثيره عظيمًا. ذلك لأن اللاهوت المسيحي صوَّر في إحدى المرات خسارةَ اليهود لسيادتهم على أنه عقابٌ لرفضهم فكرةَ الظهور الأول للمسيح، ولكنَّ الإنجيليِّين كانوا يرون إعادةَ إحياء الدولة اليهودية على أنه شرطٌ أساسي للظهور الثاني للمسيح على الأرض.

لم يكن مفهوم الإحياء جديدًا على البروتستانتية الأمريكية ولا مقصورًا عليها. ويمكن أن نجد أفكارًا مشابهة لها في مقال السير هنري فينش عام ١٦٢١ «الإحياء العالمي العظيم أو دعوة اليهود»، ويمكن أن نجدَ صدًى له أيضًا في أشعار جون ميلتون، وفلسفة جون لوك. وفي طريق التطهريِّين إلى العالم الجديد صحِبَهم هذا المفهوم إلى هولندا؛ حيث طلبوا من الحكومة الهولندية «نقل أبناء إسرائيل وبناته ... إلى الأرض التي وُعد بها آباؤهم ... في صورة ميراث أبدي». وكان بعض رجال الدين واللاهوت الأمريكيِّين المستعمِرين، من أمثال جون كوتون، الوزير الرئيسي في ماساتشوستس باي، وإنكريس ماثر، أول رئيس لجامعة هارفارد، قد دعوا إلى القضاء على الإمبراطورية العثمانية لإتاحة عودة اليهود. وبحلول الصحوة الثانية، كان حُلم إعادة الحكم اليهودي إلى الأرض المقدَّسة يتحول سريعًا إلى مبدأ ثابت. فقد تنبأ عزرا ستايلز من جامعة ييل بأن «عودة الاثني عشر سبطًا إلى الأرض المقدَّسة» سيحدِث انفجارًا من الطاقة الروحية يكفي «لتحويل العالم أجمع». وتناول رجل دين آخرَ من نيو هيفن، هو ديفيد أوستن، هذه النبوءةَ حرفيًّا، وأنفق كل مدخراته في بناء موانئ وفنادق ومخازن استعدادًا لمغادرة اليهود. وفي عام ١٨٠٨ صرَّح آزا ماكفارلاند، وهو أحد أبناء طائفة البريسبيتاريان في ماساتشوسيتس زمن حادثة كومة القش أنه «عندما تنهار الإمبراطورية ... سيبدأ اليهود في العودة إلى فلسطين ... وسيأخذ المسيح لنفسه المُلك والسلطة».[6]

ويجب ملاحظةُ أن حمَّى الإحياء ظهرت متجاهلةً أيَّ تفكير في الوجود الحسي أو الرغبة السياسية أو الدينية لآلاف العرب الذين كانوا يعيشون في فلسطين حينذاك. وبدلًا من التركيز على شعوبٍ لا هويةَ لها فضَّل الأمريكيون وقتها التركيزَ على أحداث الشرق الأوسط؛ فقد بدا غزو نابليون لمصر، وهزيمة قراصنة البربر، على شاكلة مقدمات وإشارات لتحرير فلسطين. وتنبأت جريدة «نايلز ويكلي ريجستر» في عدد من أعداد عام ١٨١٦ بأنه حالما يُطرد العثمانيون «الضعفاء المتخلفون، سيجعل اليهود الصحراء تزدهر كزهرة، وستنافس القدسُ مرةً أخرى مدنَ العالم في جمالها وبريقها وثروتها». وتنبأ إلياس بودينو، رئيس مؤتمر القارة، ومؤسِّس جمعية الإنجيل الأمريكية أن «قوة الله العظيم ستدعو اليهود من منفاهم وتعيدهم إلى بلدهم المحبوب ... فلسطين». وتخيَّل جون آدامز بطريقةٍ أوضح «مائة ألف إسرائيلي، منظَّمين مثل جيش فرنسي، يسيرون نحو فلسطين ويغزونها». وكتب القنصل الأمريكي السابق في تركيا عام ١٨١٩ إلى الرئيس السابق موردخاي نوا: «أتمنى حقيقةً أن يعود اليهود مرةً أخرى إلى فلسطين أمةً مستقلة.» وفي ذلك العام نفسه استقل بليني فيسك وليفي بارسونز البارجةَ «سالي آن» وبدآ أخيرًا رحلتهما إلى الشرق.[7]

يوم الأشياء الصغيرة

اتَّبع بارسونز وفيسك طريقًا في البحر المتوسط كثيرًا ما سار فيه التجار الأمريكيون، وهي رحلةٌ تستغرق ستة أسابيع من نيو إنجلاند إلى سميرنا (إزمير اليوم) على سواحل تركيا على بحر إيجة. ولا يمكن للمرء أن يتخيَّل مشاعر الصدمة والغربة التي شعر بها هذان القسان الشابان عندما دخلا هذه المدينة الشرق أوسطية القديمة، التي يقال إنها مهدُ ميلاد هوميروس. فعلى عكس مدينة بوسطن المنظَّمة وغير المكدَّسة التي تركاها وراءهما، كانت سميرنا «لؤلؤة الهلال الخصيب» مكوَّنة من مجموعة من الحارات الملتوية والروائح الغريبة والموسيقى غير المتناغمة. وقال أحد الزائرين الأمريكيِّين المعاصرين معلقًا على ذلك: «لا يوجد بين الولايات المتحدة وتركيا أيُّ وجه شبه يجعلهما تنتميان إلى نفس العالم.» ومع ذلك، فقد استقبل مسيحيو سميرنا اليونانيون الذين كانوا يمثلون نحو نصف عدد سكان المدينة الأمريكيِّين بكل حفاوة وتقدير، وقضى القسان الشهرين التاليَين في التأقلم مع ما حولهما وفي دراسة اللهجة والعادات المحلية. ونصحهما صامويل ورسيستر، سكرتيرُ المجلس الأمريكي، قائلًا: «لا تقوما بأي فعل مجنون أو متسرِّع، ولا

بما يمكن أن يصدم مشاعرَ الناس هنا، ولا تعرِّضا أنفسكما لغضب الآخرين ومقتهم.» ووفقًا لهذه النصائح، أنفق فيسك وبارسونز ٤٨ دولارًا على شراء ملابس شرقية وستة دولارات ونصف لتلقي دروس في اللغة العربية.

وبدءًا من شهر مارس عام ١٨٢٠ رحل الاثنان في رحلة تمتد ٣٠٠ ميل داخل آسيا الصغرى، زائرين كلَّ واحدة من المدن السبع التي زارها القديس بولس، وقاما باستطلاع المنطقة بهدف «التبشير». ومع وجود عدد قليل من اليهود هناك، فإن المنطقة كانت مكدَّسة بالسكان من المسيحيِّين الشرقيِّين، واليونانيِّين الأرثوذكس، والأرمن، وكان البروتستانت ينظرون إليهم باعتبارهم على ضلال روحاني، ولديهم استعدادٌ تام لإعادة الميلاد. وكان هناك أيضًا مسلمون يعتبرهم الأمريكيون أتباعَ عقيدة غريبة وغامضة، وأنهم في أشد الحاجة إلى الخلاص. وكتب ورسيستر بخطٍّ بارز لفيسك وبارسونز: «ما الذي يمكن تحقيقه؟ وبأي الوسائل؟» لم يكن السؤال يخصُّ اليهود فقط، بل يخصُّ أيضًا المسلمين والمسيحيين، ليس فقط في فلسطين، بل أيضًا في «مصر وسوريا وفارس».

ومع ذلك فقد ظلت فلسطين التي هي «ساحة الأحداث العظيمة» هدفَهما الأساسي، وموقعهما المفضَّل لأول وقفة دائمة لهما. اختار بارسونز أن يذهب أولًا. فكتب يقول: «السماح بمجرد توقُّع الخير الروحاني الذي سيعود على صهيون هو ميزةٌ لا يمكن التعبير عنها. فبروح موسى سيمكنني أن أقود جيوش إسرائيل إلى كنعان الروحية». حمل بارسونز معه أحمالًا ثقيلة: خمسة آلاف كتاب ديني، منها أناجيل بتسع لغات مختلفة. وتلقَّى من أصدقائه المبشِّرين الإنجليز نصيحةً «أن يذهب في هيئة الرجل النبيل المثقَّف، وأن يمارس الرياضة في الصباح، وأن يأكل القليل من الفاكهة في البداية، وأن يرتديَ ملابس ثقيلة، وعمامةً على رأسه». ونصحوا له أيضًا أن يسافر فقط في عيد الفصح وموسم الحج، عندما لا يكون الأجانب محلَّ تشكُّك ومظهر لافت في فلسطين.[8]

ومع أن فلسطين لم تكن بلدًا مميزًا في ذلك الوقت، فإنها كانت محلَّ اهتمام العثمانيين، ولو لم يكن ذلك لأي سبب آخر سوى مركزها بوصفها ملتقى الديانات الرئيسية. وأظهرت السلطات حساسيةً خاصة نحو القدس؛ فقد كان أهل الملل المختلفة يتمتَّعون باستقلالهم، وكان الأجانب ممنوعين من الإقامة فيها. ولم يكن لدى الحاكم ولا رؤساء تلك الملل أيُّ استعداد لاستقبال أجنبي من فئة مسيحية تهدُف إلى إحداث اضطراب في هذا التوازن القديم قِدمَ الدهر. ولكن بارسونز تذكَّر مهمته — التي عبَّر عنها ورسيستر بقوله «إعادة العالم إلى الرب وإلى الأخلاق وإلى السعادة»، فصمَّم على الخروج

من سميرنا في ديسمبر ١٨٢٠، ودخل المدينةَ المقدَّسة بعدها بثلاثة أشهر، متجمدًا من البرد وعلى أرجل مصابة متعبة بسبب السير وسوء حالة الطرق.

ادعى بارسونز أنه أولُ مبشِّر أمريكي يصل إلى تلك «الحوائط المقدَّسة». وعلى عكس بقية البلاد، التي كان المسافرون الغربيون يجدونها متخلِّفة، حتى بالمقارنة بمناطقَ أخرى من الشرق الأوسط، وقليلة السكان، وفقيرة ومقفرة للغاية، انبهر بارسونز بمدينة القدس. فعندما تسلَّق جبلَ الزيتون ونظر من أعلى إلى المدينة القديمة غربًا، وإلى البحر الميت في الجنوب الغربي، رأى أنه «لا يوجد مكانٌ في العالم يمتلك منظرًا أجمل من هذا، أو يرتبط بأحداثٍ أكثرَ قداسة أو إلهامًا». وقد تلقَّى ترحيبًا دافئًا غير متوقَّع من الكنائس هناك، خاصةً من اللاتينيِّين، لكنه لم ينجح في تحويل أي يهودي من يهود المدينة البالغ عددهم عشرة آلاف إلى الإنجيلية، وما أحزنه أكثرَ أنه علِم أن القانون الإسلامي يحرِّم بناءَ كنائس جديدة، ويحدِّد عقوبة ارتداد المسلم عن دينه بقطع رأسه؛ لذلك كان أكثرَ المرشحين للتحوُّل هم الأرمن واليونانيون، «المسيحيون بالاسم» كما كان المبشِّرون يسمونهم، وكانوا يرونهم أتباعَ «مسيحية فاسدة قديمة». وكان بارسونز يأمُل أن تقوم هذه التجمعات المحلية بدور الرابطة الطبيعية مع اليهود والمسلمين، وأن تلهمَهم بالتزامها وتمسُّكها بالمسيح. فكتب في تقرير إلى فيسك بعد وصوله إلى القدس بنحو ثمانين يومًا: «هذا هو بالفعل مركزُ العالم أجمع. لذلك يجب ألا نتخلَّى عن فكرة الوقفة الدائمة هنا، فالباب قد انفتح بالفعل.»

اجتمع بارسونز بزميله مرةً أخرى في ربيع عام ١٨٢١، ولكن الوضع في سميرنا كان قد تدهور في تلك الأثناء. فقد ثار اليونانيون، وهي جزءٌ من أملاك الدولة العثمانية منذ القرن الخامس عشر، وسرعان ما امتدَّت نيران الثورة إلى التجمعات اليونانية في الأناضول. وبدافع من العداوات والكراهية القديمة اكتسح العساكر الأتراك المنطقة، وحرقوا وقتلوا دون تمييز، واضطُر المبشِّران الأمريكيان إلى الاختباء في سفينة أمريكية زائرة، هي يونايتد ستيتس؛ وكانت هذه هي المرة الأولى من بين عدة مرات ساعدت فيها السلطات الأمريكية في الشرق الأوسط ممثِّلي العقيدة الأمريكية. ومع أن بارسونز أصبح آمنًا، فإنه أصيب بالدوسنتاريا. ومع ذلك فقد ظلَّ متفائلًا وواثقًا بأن «الاضطرابات الحالية ستضمن … انضمامَ كل الممالك إلى المسيح». ولكن حتى يحدُث ذلك، قرَّر الأمريكيان أن يرحلا عن الأناضول، وأن يعودا إلى الأمان النسبي في مدينة الإسكندرية.

بقي بارسونز حيًّا بصعوبة حتى وصوله إلى المركب. وكان من الضروري حملُه إلى خارج السفينة وهو يرتعد. وفي شتاء عام ١٨٢٢ رافق فيسك زميلَه في مرضه، مقدِّمًا له

الدواء ومصليًا من أجل شفائه. ولكنَّ مجهوداته ذهبت سدًى. فكثيرًا ما كتب بارسونز عن رغبته في الاستشهاد، وفي فبراير استُجيبت صلواته.

أصاب خبرُ وفاته المجلسَ الأمريكي بالذهول. وألَّف أحد القساوسة من شباب المبشِّرين مرثيةً قال فيها:

روحك يا بارسونز جذبتها أغنية
تنشر جناحيها وتطير لأعلى ... لا تتعب ...
مَن سيكدح من أجل أبناء يهوذا؟
ومَن مثلك سيدمِّر قومَ محمد؟[9]

ولكن ذلك لم يكن ليؤثِّر في حركة التبشير ولا في حماسة بليني فيسك. فقد رحل إلى مالطا لتسلُّم مطبعة من المجلس، وللقاء بديل لبارسونز. وكان ذلك البديل هو القس جوناس كينج، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أمهرست، كان قويَ البنية، وقد تطوَّع من قبلُ ثلاثَ سنوات للخدمة في مجال التبشير. وقابل الاثنان بدورهما الإنجليزيَّ جوزيف وولف، وهو ابنٌ لحاخام يهودي كان قد تحوَّل إلى الكاثوليكية قبل أن يصبح إنجليكانيًّا، ويتزوَّج من ابنة إيرل أوكسفورد. وقالت التعليمات الجديدة التي وردت لهذه المجموعة، وكانت تهدُف إلى تشجيع المبشِّرين على المثابرة في نشر النور والحياة في مناطق الظلام وموت الأخلاق: «لا ترهقوا أذهانكم وإلا ستفقدون أملَكم وشجاعتكم.» رحل فيسك وكينج وولف إذن إلى مصر، وقد قرَّرا استكمال الرحلة إلى فلسطين.

تابعوا النيل حتى طيبة، ووزَّعوا نحو ٩٠٠ إنجيل و٣٧٠٠ منشور ديني، وتحاوروا مع الشخصيات الدينية التي قابلوها، سواء أكانوا حاخامات أو شيوخًا أو قساوسة. وقابلوا أيضًا الحاكمَ اللبناني المنفي بشير الثاني المتحوِّل من الإسلام إلى المارونية، الذي كان سعيدًا للغاية عندما عرف أن ضيوفه أمريكيون. وسجَّل فيسك في مذكراته: «حيَّانا بحرارة، ومنحنا نظرةً أرضت غرورنا بكوننا أمريكيِّين.» ولم يكن انبهارُ الأمير الدرزي بخليفة المبشِّرين بسيطًا، فدعاهما إلى زيارة قلعته في لبنان. وقبِل الأمريكيان العرضَ، واستأجروا دليلًا و١٣ جملًا ليعبروا بها صحراءَ سيناء، وهم يغنون ويتحدَّثون معًا. ثم ساروا شمالًا نحو البحر المتوسط إلى فلسطين، حيث كان استقبالهم أكثرَ جفاءً وبرودًا بكثير. ويتذكَّر جوناس «تقاطر العربُ علينا كزخَّات المطر ... بسيوفهم وبنادقهم وعِصيهم الغليظة ... مطلقين صرخاتٍ عالية كصرخات الحرب لدى متوحشي أمريكا

الشمالية». فأصيب فيسك إصابةً سطحية في رأسه. ونجت المجموعة، ولكن بدلًا من أن تتَّجه داخليًّا إلى الطريق الخطر نحو القدس، استمروا في السير بمحاذاة الساحل، ووصلوا أخيرًا إلى بيروت.[10]

كانت المدينة بسكَّانها الثمانية آلاف ومنازلها البيضاء وكنائسها المنتصِبة على التلال المطلَّة على الخليج أكثرَ نظامًا من القدس وسميرنا (أزمير)، وأكثرَ أمانًا أيضًا. ورغم قُربها من الأرض المقدَّسة، فإنه لم يكن بها أيُّ مظهر من مظاهر عدم الاستقرار السياسي، وكان موقعها القريب من البحر يسهِّل الهرب. بالإضافة إلى أن الدبلوماسيِّين البريطانيِّين كان وضعهم مستقرًّا في بيروت، وكلهم حماسة لمد حمايتهم لأناسٍ يشاركونهم الدِّين والثقافة، وأهدافهم غير استعمارية. أما أكثرُ ما أسعد المبشِّرَين فكان وجودَ أعداد كبيرة من المسيحيِّين الشرقيِّين والدروز وجالية صغيرة من اليهود في جبل لبنان السوري، مما يعني فرصًا أكبرَ للتحوُّل إلى المسيحية.

وفي الوقت الذي عاد فيه كينج إلى الولايات المتحدة تابعَ وولف رحلته. واستقر فيسك في بيروت. وزارَ مناطقَ مختلفةً، وصار يجيد العربية واليونانية، ويكتب لجريدة «ميشينري هيرالد» في موطنه مقالاتٍ مفصَّلة عن أسفاره. وقرَّر في ذلك الوقت الإجابةَ عن أسئلة صامويل ورسيستر: «ما الذي يمكن تحقيقه؟ وبأي الوسائل؟» فإذا لم يتمكَّن المبشِّر من تحويل شعوب الشرق الأوسط، فيمكنه على الأقل تعليمُ أطفالهم. فقد آمن فيسك أنه عن طريق تعليمهم القراءةَ والكتابة حسب الطُّرق الأمريكية، يمكنه تفتيحُ أذهان الناس لاحتمال الخلاص عن طريق المسيح. وفتحت مدرسةُ فيسك أبوابها للقبول باعتبارها المدرسةَ الأولى من بين عدة مؤسسات أمريكية قُدِّر لها أن تغيِّر وجهَ الشرق الأوسط، عام ١٨٢٣.

شهد هذا العام أيضًا وصولَ تعزيزات جديدة من أمريكا، منهم: إيزاك بيرد، خرِّيج جديد في جامعة ييل، ووِيليام جوديل من دارتموث، كان الاثنان قد جلبا زوجتيهما، وهو ما عكس وعيَ المجلس بالدور الذي يمكن أن تقوم به النساء في الأنشطة التبشيرية. وقد ساعد بيرد وجوديل فيسك في إدارة المدرسة، وانضمَّا إليه في جولات تبشيرية في كثيرٍ من مدن الشرق الأوسط، من دمشق إلى أنطاكية وحلب.

كان التفاؤل والحيوية اللذان أظهرهما المبشِّرون مبررًا للاحتفال في بوسطن. فقد تفاخر المجلس الأمريكي بنجاحه في توصيل الإنجيل «للدروز والموارنة والسوريِّين واليونانيِّين»، وفي تأسيس مراكز دائمة في «هذه البقعة من العالم المثيرة للاهتمام

للغاية فلسطين». وتفاخر المبشِّرون بأنه «غرست معايير الصدق والاستقامة، ولن تُقتلع من مكانها أبدًا». وتنبَّأ سيرينو دوايت، المؤرِّخ الشهير وقس مجلس الشيوخ الأمريكي، باليوم الذي «سيشقُّ فيه المبشِّرون المحمَّلون بالكتب طريقَهم إلى أكثر الأركان المسلمة ظلمةً، وذلك عندما يجري الإعلان عن مدِّ الخلاص في مصر والجزيرة العربية وفارس».

مثل هذا الإطراء الذاتي كان في الحقيقة دون سندٍ ولا مبرِّر. فبالرغم من مجهودات المبشِّرين غير المنقطعة، فقد نجحوا فقط في تحويل عدد صغير جدًّا من المسيحيِّين الشرقيِّين، وكان معظمهم من الفقراء المعدِمين، وليس أمامهم خيار سوى قبول وظائف أو صدقات من الكنيسة. وفي لبنان تصاعدت معارضةُ المارون، وهم فئةٌ كاثوليكية مرتبطة تقليديًّا بفرنسا وتدير سائرَ مدارسها على نفس نهج مدارس الليسيه الفرنسية. وأكَّد أحدُ الأساقفة المارونيِّين «أنه من غير المقبول بأي حال من الأحوال تعليمُ النساء قراءةَ كلمة الرب، فهن على قدرٍ كافٍ من السوء الآن، علِّموهن القراءة والكتابة ولن يكون هناك عيشٌ محتمَل معهن!» وهدَّد المطران بفصل أي ماروني من الكنيسة يحضُر قداسًا بروتستانتيًّا، وأمر أن تُتلف كلُّ المنشورات التبشيرية، ومن بينها الإنجيل.

كانت العقبات كبيرةً كذلك في مناطقَ أخرى من الشرق الأوسط. واعترف إلناثان جريدلي، خرِّيج جامعة ييل بعد وصوله إلى سميرنا (أزمير) عام ١٨٢٥: «لا يتحدَّث المبشِّرون بأي قدرٍ من الثقة عن تحويل شخص واحد من السكان المحليِّين. فلا يستطيع عشرة منهم أن يدَّعوا أنهم ينصتون للخطبة التي تُلقى عليهم.» ورسم إيلي سميث صورةً أكثر كآبة، وهو لغوي موهوب أعاد إحياءَ حروف اللغة العربية، وجاب المنطقةَ بتفويض من المجلس الأمريكي. فمع حزنه على «بلاد الظلام هذه، ووجود أشباح للموت ... والجهل واللامبالاة والشر» فقد حكى عن حادثةٍ في مصر بين رجل مسلم وزوجته اللذين كان قد تحوَّلا حديثًا إلى المسيحية، فقال:

> جيء بالزوجة أمام المحكمة، وأُدينت، وحُكم عليها بالغرق في النيل ... استمرت في الصراخ: «سأموت مسيحية» ولكن ذلك زاد من غضب منفِّذي الحكم، فسارعوا بإعدامها، في أثناء ذلك كانت النار قد أُوقدت على الشاطئ لحرق زوجها ... لكنه ... أنقذ نفسه بالشهادة بأنه مسلم، أما زوجته فلم تعترف بذلك قط.

وواجه بليني فيسك نفسَ المصير تقريبًا في القدس. فقد قُبِض عليه لتوزيعه كتيبات دينية عام ١٨٢٥، حيث وُضعت الأغلال في يديه وعُذب ثم أُفرج عنه فقط بعد التماس شخصي من القنصل البريطاني. وتساءل فيسك: «هل كان المسيح نفسه سيحقِّق أيَّ نجاح تحت هذه الظروف؟»[11]

في هذه الأثناء كان فيسك مرهقًا ومريضًا وفي حالة نفسية سيئة. كان الطلبة بمدرسته — ومعظمهم من اليهود — قد باعوا كتبَ العهد الجديد التي بحوزتهم ورقًا، وقُبض على واحد من القليلين الذين تحوَّلوا على يديه، واسمه أسعد الشدياق، بتهمة الكفر وتُرك ليموت في السجن. وبسبب مطاردة الموارنة والمسلمين لفيسك شعر أيضًا بأن المجلس يضيق عليه الخناق، وقد اتهمه فيسك بإعادة تحرير تقاريره للتقليل من صداقة المطارنة اليونانيِّين والصعوبات التي واجهها أثناء محاولته تحويلَ اليهود. وعندما تحدَّد موعد عودته إلى الوطن في أكتوبر ١٨٢٥، قام فيسك برحلة أخيرة إلى الناصرة، لكنه اختُطف في الطريق وضُرب من قِبل عصابات من العرب. وحُمل فيسك مرةً أخرى إلى بيروت، وعُولج هناك بالأعشاب، ومات مِيتةً مؤلمة للغاية.[12]

وكتب أحدُ رجال الدين المجهولين: «يمكن للمرء إعادةُ كتابة كتاب ... اليهود بالأسماء الشهيرة ... للعاملين المسيحيِّين في بلد الإنجيل. ويجب أن يأتيَ على رأس تلك الأسماء بليني فيسك وليفي بارسونز.» ورغم أنف الطلبة المتمردين ومعارضة المطارنة الموارنة لم يُكتب لمدرسة فيسك البقاءُ فقط، بل توسَّعت أيضًا. وبنهاية العشرينيات من القرن التاسع عشر كانت هناك تسع مدارس عاملة في لبنان، انضم إليها نحو ستمائة طالب، أكثرُ من سدسهم من الفتيات. وأكَّدت محطة بيروت للمجلس أن «مستقبل واحتمالات النفع لم تكن مزدهرةً أكثرَ من ذلك في يوم من الأيام، وأنه يبدو أن بابًا واسعًا وفعَّالًا ينفتح بالفعل أمامنا». وبتشجيع على هذه الثقة، أرسل المجلس عددًا إضافيًّا من المبشِّرين إلى جبل لبنان، ومن هناك إلى المنطقة بأسرها. وكان صامويل ورسيستر قد حذَّر فيسك وبارسونز «ألا يحقرا يومًا الإنجازات الصغيرة».[13] ومع أن إنجازاتهما بدَت صغيرة للغاية، فقد فتحت طُرقًا وقنواتٍ أمام إدخال وعرض العقيدة الأمريكية، دينيًّا ومدنيًّا، إلى الشرق الأوسط.

وكانت الحِقَب التالية بمنزلة فترة محدَّدة وحاسمة لكلٍّ من أمريكا والشرق الأوسط، فقد تميَّزت تلك الفترة من تاريخ الشرق الأوسط بعدم الاستقرار بسبب الضَّعف المتنامي

للدولة العثمانية، وبسبب محاولات الدول الكبرى اقتطاعَ مناطق لتكون تحت السيطرة الأوروبية الكاملة، وهو ما أدَّى إلى فترة طويلة من التقلبات وبِحار بلا شطآن من الدماء. وفي تلك الأثناء كان الأمريكيون المستعمِرون يتَّجهون غربًا نحو كاليفورنيا وأريجون، ونحو فلوريدا وتكساس جنوبًا. وكان الاتحاد قد ضمَّ مناطقَ محدَّدة حديثًا على الخريطة، بعضها لديه عبيد وبعضها لا يملك عبيدًا، وقد أعاد هذا إلى الأذهان التساؤلَ عما إذا كان بإمكان هذه الولايات الممتدة أن تظل موحَّدة بالفعل إلى الأبد.

وأفرز التوسُّع الأمريكي وعدم استقرار الشرق الأوسط علاقاتٍ جديدة شديدة التشابك. وبمساعدة التكنولوجيا الحديثة ووسائل الانتقال الثورية تمكَّنت أعدادٌ هائلة لم تُشاهَد من قبلُ من الأمريكيِّين من السفر إلى الشرق الأوسط، واختراق بعض أجزائه التي لم يكن الوصول إليها ممكنًا قبل ذلك. وكانت شعوب المنطقة عادةً ما تحسِن استقبال هؤلاء الزائرين، والتفاعل معهم على عدة مستويات؛ تجاريًّا وتعليميًّا واستراتيجيًّا.

وفي قلب هذه العلاقة الديناميكية كان لا بد أن تتحسَّن كثيرًا موضوعاتٌ محدَّدة لعلاقة أمريكا بالشرق الأوسط، كالقوة والإيمان والخيال. وبدلًا من بعض المغامرين المنفردين كجون ليديارد، وأصحاب دعوة انتشار القوة كويليام إيتون، ومبشِّرين كبليني فيسك جاء أناسٌ يحملون مزيجًا من هذه الصفات جميعًا، كالتجار الإنجيليِّين، والبحَّارة المبشِّرين، ورؤساء الدول المستكشفين. واضطُر واضعو السياسات الأمريكيون لأول مرة إلى الاختيار بين الاهتمام بمصالح البلاد التجارية والاستراتيجية في الشرق الأوسط، وبين اتباع مُثُلهم الأخلاقية والروحية.

الباب الثاني

الشرق الأوسط وأمريكا ما قبل الحرب الأهلية



الفصل الخامس

اندماج وصراع

في يونيو ١٨٢١، وتحت لهيب شمس السودان، توقَّف ضابط مصري ليشرب من ماء النيل. كان مسافرًا تسعة أشهر، متحديًا التيارات التي تحطِّم القوارب، ورجال القبائل العدوانيِّين، والحرارة الحارقة. وتقدَّم ببطء هو وقواته على متن قوارب محمَّلة بالمدافع والذخيرة والمؤن. كانت مهمتهم هي إخضاعَ العصابات التي تعوق سيرَ التجارة المصرية داخل أفريقيا، بالإضافة إلى توسيع نفوذ الحاكم المصري محمد علي. وكان اسم الضابط محمد أفندي، الذي يصفه معارفه بأنه «أبيض البشَرة، رقيق المظهر» — وهو لون بشَرة غيرُ شائع في الشرق الأوسط — لكن تبدو عليه «سيماء الجِدية والسكينة التي يتميز بها المسلمون». جثا محمد أفندي على ركبتيه وضمَّ كفيه ورفع بهما الماءَ إلى شفتيه الجافَّتين، ولكن قبل أن يرشف رشفةً واحدة دعا السماء — أو هكذا كتب فيما بعدُ — «أن تمنح الرخاءَ لجمهورية الولايات المتحدة الحرة العظيمة».

وُلد محمد أفندي قبل ذلك التاريخ بأربعة وثلاثين عامًا، بكامبريدج ماساتشوسيتس، في زمن مؤتمر الدستور، وسُمي باسمه المسيحي: جورج بيثون إنجليش. وكان ضِمن دفعة الخريجي من جامعة هارفارد عام ١٨٠٧، درس القانون أولًا، ثم تحوَّل إلى دراسة اللاهوت والعبرية. وكان إنجليش — شأنه شأن ليفي بارسونز وبليني فيسك والعديد من طلاب المدارس الإكليريكية الذين درسوا أسفار موسى الخمسة في ذلك الوقت — يكنُّ احترامًا عميقًا لليهود ورغبةً في تصحيح «الشرور العظيمة والتعذيب الشيطاني» الذي تعرَّضوا له من قِبل المسيحيِّين. ولكنه تمادى إلى ما هو أبعدُ من الندم، فقد قادته معرفته بالعهد القديم إلى التشكيك في صحة الإنجيل تاريخيًّا ودينيًّا، ودفعته إلى قراءة ترجمة إيطالية للقرآن تعود إلى عام ١٦٨٨. واستخلص منها «أن المسلمين، الذين يُعَدون الأكثرَ عددًا بين أصحاب الأديان في العالم اليوم» أولى بنبوءات الإنجيل من غيرهم، وأنهم أطاعوا

نواهي موسى عن عبادة الأوثان، «مثل عبادة الملائكة والأموات التي انتشرت في ثلاثة أرباع العالم المسيحي». وليس من المستغرَب إذن أن تثير هذه الهرطقة هجومًا مضادًّا من رجل دين متخرج في جامعة هارفارد هو ويليام إيليري تشاننج ومن إدوارد إيفيريت، عضو مجلس الشيوخ ووزير الخارجية فيما بعد. ولكن ذلك لم يثنِ إنجليش، وترك كامبريدج باحثًا عن مصادرَ جديدة للإثارة في العالم.

رحل غربًا، وهو ما كان يعني في ذلك الوقت نحو أوهايو، وجرَّب العمل بالصحافة قبل أن يستقر على ضفاف نهر واباش عضوًا في طائفة «بيوريتانيكال هارموني». وعندما سئم من المثالية، رحل عام ١٨١٧ إلى واشنطن، حيث زار صديقًا قديمًا، هو جون كوينسي آدامز، وزير الخارجية الجديد. وحصل آدامز لصديقه إنجليش على وظيفةِ ملازم أول بحري في فيلق البحر المتوسط. لكن إنجليش ملَّ أيضًا الخدمةَ على السفن، فحروب البربر كانت قد انتهت، وبعد وصوله إلى مصر استقال من البحرية الأمريكية.

يبدو أن الشرق الأوسط قدَّم لهذا المتمرد كلَّ ما كان ينقص حياته؛ الغرابة والمغامرة والدِّين الذي كان فيما مضى مصدرَ إلهام له في كليته. وبدلًا من العودة إلى ماساتشوستس التقليدية المملة، ظلَّ إنجليش في مصر، وتحوَّل إلى الإسلام، وسمَّى نفسه محمدًا.[1]

من هارفارد إلى سِنَّار

كان إنجليش منفتحَ الذهن إلى درجة الهرطقة، ولم يكن نموذجًا للأمريكيِّين في ذلك الزمن. لكنه أظهر في ارتباطه بالشرق الأوسط نفسَ السِّمات التي جمعت بين شخصيات متباينة مثل جون ليديارد وليفي بارسونز وويليام إيتون. فكان يلهمه الإنجيل، وتفتنه أساطيرُ الشرق، وتسحره أبَّهة السلطان، وبذلك كان إنجليش يمثِّل اندماجًا لعناصر العلاقة بين بلاده والشرق الأوسط، وهو مزيجٌ يزداد انتشارًا.

في عام ١٨٢٠ كان إنجليش قد أتقن العربية والتركية، وكان مستعدًّا لوضع مواهبه في خدمة الدولة المصرية. وعن طريق وساطة القنصل البريطاني، تمكَّن من مقابلة إسماعيل باشا، نجل محمد علي. انبهر إسماعيل بالخبرات المتنوِّعة لإنجليش، وكان أكثر ما أثار اهتمامه مدة خدمته الوجيزة بالجيش. فقد كانت مصر وقتَها تعمل على تحديث جيشها، وكانت تتطلع من أجل ذلك إلى الاستعانة بمستشارين أوروبيِّين. ومع أن إنجليش خدم في البحرية الأمريكية، ولم يتخطَّ قط رتبةَ الملازم، فقد خرج من اجتماعه مع إسماعيل حاملًا لقب «طوبجي باشا»، أو رتبة لواء، ومسئولًا عن المدفعية المصرية.

وإذا كان هدف إسماعيل هو رفعَ كفاءة الهجوم المصري، فإن إنجليش — بنزعته الرومانسية — لم يكن أفضلَ مَن يقوم بتلك المهمة، فبدلًا من تحديث فرقته، حاول الأمريكي إحياءَ أحد أقدم الأسلحة المصرية، وهي مركبة حربية، عجلاتها مزوَّدة بنصال لتقطيع المشاة إربًا. فشلت التجربة بالطبع فشلًا ذريعًا، وقبل أن يقوم بتجربة ثانية، صدرت أوامرُ لإنجليش بقتال المتمردين في السودان. وفي حين كان إسماعيل يتقدَّم برًّا مع طليعة الجيش، كان على إنجليش ومعظم فرقته أن يتبعوهم على مياه النيل. وفي سبتمبر ١٨٢١ ركب إنجليش وقواته المؤلَّفة من ستة آلاف جندي — من العثمانيِّين والبدو وأهل شمال أفريقيا — قواربَهم من شلال وادي حلفا، متوجِّهين نحو مناطق غير مألوفة لمعظم المصريين، ومجهولة تمامًا للغربيِّين.

كانت الرحلة عبْر مائة ميل من الدوامات والشلالات شاقةً للغاية. ويذكر إنجليش أن «جانب القارب قد اقترب إلى نحو ياردة من الزَّبد الأبيض، ونزع ريِّس المركب (قائد الدفَّة) عمامته عن رأسه، ورفع يديه معقودتين إلى السماء صارخًا: «لقد ضِعنا!» أما بقية أفراد الطاقم فكانوا يتضرَّعون إلى الله ليساعدهم. ونجا المستكشِف من هذه المحنة ليصاب بالتهاب شديد في عينيه أفقده بصرَه أيامًا. ومع ذلك فقد شُفي إنجليش واستطاع العبور بكل القوارب ما عدا واحدًا رسا عند النيل الأبيض.

ومثلما فعل ويليام إيتون قبْله بخمسة عشر عامًا، قاد إنجليش رحلةً استكشافية كبيرة عبْر جزء قاحل من الشرق الأوسط، ومثل جون ليديارد، ترك وصفًا حيًّا لكلِّ ما رآه، من القرى المهدَّمة إلى المناطق الجرداء القاحلة. فذكر سوءَ حالة العبيد، وعجرفة اللصوص، والقلق الذي أصاب رجلَ قبيلة في العشرين من عمره، أُجريت له عملية ختان. أما أكثرُ ما بهره فكان المعابد والآثار، التي «أصبحت الآن أطلالًا، يعلوها التراب»، وهي التي كانت تقف بين شاطئ النهر. كان كثيرًا ما يزورها متسللًا من فرقته في الليل، وشهد إنجليش بأن «رحلة في النيل يمكن أن تُعَد درسًا في التاريخ الأخلاقي للبشر. ففي كل مرحلة تقريبًا نقابل آثارًا تدُل على دكتاتورية الإنسان وإيمانه بالخرافات».

قاد إنجليش قواته من البحر الأبيض عبْر المناطق الريفية التي دهمها الخديوي إسماعيل بفرسانه حديثًا، وعبر القرى المحترقة والحقول المقفرة المملوءة بالجثث. وأحنقه سلوكُ الجنود المصريين، الذين كانوا يسرقون وينهبون ويخرِّبون، فكتب يسبُّهم سبًّا شديدًا. وشاهد فزِعًا أربعين منهم «وهم يدقُّون بالمطارق الثقيلة أوتادًا خشبية مدبَّبة طولها ٦ أو ٨ بوصات في مؤخِّرات المتمردين». ولكن كانت هناك مشاهدُ أكثر إيلامًا في

انتظار إنجليش في سِنَّار، وهي نفس المدينة التي حاول ليديارد الوصولَ إليها دون جدوى قبل ذلك بأكثرَ من ثلاثين عامًا. وجد إنجليش — بدلًا من الأنزال المزخرفة المفعمة بالحياة التي كان يتخيَّلها — أربعمائة كوخ قذر مصنوعة من الألياف، يسكنها أناس «مقزِّزون»، يأكلون القطط والقوارض، أما نساؤهم فقال عنهن إنجليش إنهن «أقبح نساء الأرض اللائي وقعت عليهن عيناي».

لم يكن إنجليش أحسنَ منهم حالًا بكثير؛ فقد كان رثَّ الثياب وكان الجوع قد بلغ منه مبلغه. ومع ذلك فقد اعتبرت الحملة ناجحة، وبسطت مصر سلطانها على السودان. وحين كان إنجليش يتعافى في الإسكندرية، تعرَّف بالمبشِّر جوزيف وولف اليهودي البريطاني الذي تحوَّل إلى المسيحية وحاول إقناعه بالعودة إلى المسيحية. وقابل إنجليش أيضًا بليني فيسك، الذي كان حزينًا لفقدِ ليفي بارسونز الذي توفِّي قبل وقت قريب. وقام هذا المبشِّر أيضًا بمحاولات لإعادة الجنرال الضال إلى طريق الصواب، لكنها باءت بالفشل. وقال فيسك معنفًا إنجليش: «عداء عنيد للحق يسيطر على روحك، وأنا أعتبر حالتك من أسوأ الحالات التي عرفتها وأخطرها».

لم يكن إنجليش مهتمًّا بالرجوع إلى عقيدته السابقة، لكنه كان يحنُّ إلى وطنه الأول. وفي نهاية عام ١٨٢٢ رحل عن مصر واستقل سفينةً عائدًا إلى الولايات المتحدة. ونشر مذكِّراته عن رحلته الاستكشافية إلى السودان التي جذبت إليه وإلى الشرق الأوسط الكثيرَ من الانتباه. وعلَّق جون آدامز — الذي صار عجوزًا في ذلك الوقت — بعد قراءته الكتاب قائلًا: «عمَّا قريب سنجد البواخر الأمريكية ... تجوب نهر النيل مثلما تجوب أنهار هدسون وباتوماك والميسيسيبي.»[2] وكان جون كوينسي، نجل الرئيس السابق، منبهرًا أيضًا، واستقبل إنجليش بسعادةٍ في وزارة الخارجية. ودعا الوزير صديقَه القديم إلى دخول السلك الحكومي مجددًا. وكانت مهمته تقوم على استخدام مهاراته النادرة في إبرام أول اتفاقية في التاريخ بين الولايات المتحدة والإمبراطورية العثمانية.

الرشوة والنُّحاس الأصفر

كانت العلاقات بين أقدم إمبراطورية في العالم في ذلك الوقت وأحدث جمهورية فيه يغلِّفها الغموض منذ أواخر القرن الثامن عشر. فكانت نظرة الرئيس آدامز إلى الباب العالي نابعةً من اعتباره أمرًا حيويًّا للتجارة الأمريكية و«مسرح السياسة في أوروبا»، وفي عام ١٧٩٨ اختار ويليام لوتون سميث — عضو الكونجرس عن ساوث كارولينا — ليكون

أولَ مبعوث للولايات المتحدة في الدولة العثمانية. ولكن سميث رفض العرض، وظل المنصب شاغرًا. ورأى جيفرسون أيضًا أنه «من المناسب تبادُل التمثيل الدبلوماسي مع الباب العالي»، على الأقل مثل بروسيا، لكنه لم يتابع تنفيذَ تلك الخطة قط. كانت الولايات المتحدة تهزم البربر، وتضاعف تجارتها إلى أربعة أضعاف مع الشرق الأوسط، وتبعث إليه بمئات من المبشِّرين — كلُّ ذلك دون علاقات رسمية مع أكبر قوة في المنطقة.

وكان عدم وجود أي اتفاقية بين واشنطن والباب العالي يرجع — إلى حدٍّ بعيد — إلى المشاعر المعادية للإسلام في أمريكا، لكنه كان يعكس أيضًا سياساتٍ معادية للولايات المتحدة في أوروبا. وقد عمِلت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا على الحيلولة دون أي مفاوضات بين السلطان العثماني والرئيس الأمريكي، خوفًا من تعرُّض هيمنتهما الاقتصادية في الشرق الأوسط للخطر. وخلَص تقرير عثماني أُعد للسلطان محمود الثاني في ديسمبر ١٨٢٠ إلى أنه «لن ينتفع الباب العالي من عقدِ اتفاقية تجارية مع الجمهورية الأمريكية؛ لأن مثل هذه الاتفاقية ستثير حفيظةَ بريطانيا العظمى». وأضاف الكاتب أن الأمريكيِّين قد أظهروا سلوكًا عدوانيًّا في صراعهم الأخير مع الأقاليم التابعة للدولة العثمانية في الجزائر وتونس وطرابلس. لهذا تعرَّض التجار الأمريكيون العاملون في الشرق الأوسط لفرض رسوم باهظة، وصاروا معرَّضين للاعتقال دون مبرِّرات من الشرطة العثمانية. ويتذكر جورج باريل من بوسطن بعد زيارته إسطنبول عام ١٨١٨: «كان رجالنا تحت رحمة أهل البلد، بسبب عدم وجود سفير أمريكي لدى الباب العالي.» ولكن كان هناك أمريكي واحد يسعى إلى حماية مصالح أهل بلاده، وهو ديفيد أوفلي، من فيلادلفيا سابقًا.

ومع أنه لم تصل إلينا أيُّ صورة كافية عن أوفلي، فإنه يمكن للمرء أن يتخيَّله مرتديًا سترةً سوداء بسيطة يفضِّلها أتباع طائفة الكويكر، وتبدو عليه أمارات الحَزْم والإقدام. لم يكن انجذاب أوفلي إلى الشرق الأوسط بسبب معتقداته الدينية فحسب، بل بسبب حبِّه لجني الربح أيضًا. ولكن بعد تأسيس مكتب تجاري في مدينة سميرنا عام ١٨١١، سرعان ما وجد أوفلي أن الرسوم الجمركية الباهظة تعيق عملَه، ولما فاض به الكيل من دفعِ ما أسماه بـ «حماية وهمية ضد مخاطر وهمية»، تناول أوفلي عدةَ أكواب من القهوة ودخَّن عددًا لا يُحصى من النارجيلات مع موظفين عثمانيِّين، حتى تمكَّن في النهاية من الوصول إلى قصر قبودان باشا، قائد البحرية الإمبراطورية. وهناك دفع أوفلي ٢٠٠٠ دولار عام ١٨١٥ «بقشيشًا» لكي يحصُل للأمريكيِّين على نفس المزايا التي يتمتَّع بها الأوروبيون خارج حدود بلادهم، لكنه اضطُر إلى تكرار نفس السيناريو مرةً أخرى في العام التالي،

بعد إعدام قائد البحرية بتهمة الخيانة، ولكن عندئذٍ كان أوفلي قد تعلَّم ما اعتبره قواعدَ دبلوماسية الشرق الأوسط، وهي مزيجٌ من «الرشوة والنُّحاس الأصفر».

انتعشت أحوال أوفلي، وأصبح في النهاية يتعامل مع ثلثي السفن الأمريكية التي تزور ميناء سميرنا، فيقوم بتخزين حمولاتها ويتولَّى أعمال صيانتها، حتى إنه كان يقوم أيضًا بسَجن البحَّارة المشاغبين مقابل ٦٠ دولارًا كلَّ عام، لكنه لم يتمكن من إصدار جوازات السفر أو حماية الممتلكات الأمريكية. وظل الفشل يلاحق جهودَ أوفلي لإقامة علاقات دبلوماسية حقيقية بين بلده الأصلي والبلد الذي اختاره مقرًّا له بسبب المعارضة الأوروبية.[3]

بدا الأمل ضعيفًا في تحقيق أي تقدُّم حتى عام ١٨١٩، عندما اختمرت فكرةُ الوصول إلى اتفاق أمريكي عثماني في ذهن جون كوينسي آدامز المتَّقد الذكاء. آدامز الذي وصفه المؤرخ جون جاديس بأنه «أكثرُ الخبراء الاستراتيجيِّين الأمريكيِّين تأثيرًا في القرن التاسع عشر»، كان يشعُّ ذكاءً، بدءًا بجبهته العريضة وانتهاءً بفمه الحازم وحاجبيه المقوَّسين المتسائلين المندهشين. وكان آدامز في شبابه قد مثَّل بلاده في بعضٍ من أشهر القصور الملكية في أوروبا، ويستطيع الآن، وهو وزير الخارجية البالغ من العمر اثنين وخمسين عامًا، أن يدرك أهميةَ إقامة علاقات دبلوماسية بين أمريكا وإسطنبول. إن هذه الاتفاقية ستكفُل الحماية لتجارة الشرق الأوسط التي كان آدامز — باعتباره من نيو إنجلاند — يقدِّر قيمتها كثيرًا، وستوفِّر مزيدًا من الأمن للمبشِّرين الذين كان الوزير يدعمهم باعتباره مسيحيًّا مخلصًا.

اتَّبع آدامز أسلوبًا هادئًا، واختار محاميًا بارعًا موضعَ ثقة من نيويورك مبعوثًا له، اسمه لوثر براديش. وكان براديش ناجحًا مثل أوفلي على المستوى التجاري وشديدَ التمسك بمعتقداته، وأصبح فيما بعدُ رئيسًا لجمعية الكتاب المقدَّس الأمريكية. تنكَّر براديش في زي سائح بريء، واستقل السفينة «سبارك» الأمريكية، وخطَّط للإبحار إلى إسطنبول، لكن السفينة مُنعت عند مضيق الدردنيل من دخول بحر مرمرة. واضطُر براديش إلى مغادرة السفينة في سميرنا، والتوجُّه برًّا إلى العاصمة العثمانية.

كان براديش مهيبًا قليلَ الكلام، وهو ما لم يجعل منه أفضلَ المؤهلين للدبلوماسية الخشنة المتَّبعة في الشرق الأوسط. وكان يشعر بالعار بسبب الحاجة المستمرة إلى تقديم رشاوى إلى حالت أفندي، وزير الخارجية العثماني، مع تجنُّب أي تدخُّل أوروبي. ومع ذلك فقد بدا العثمانيون وكأنهم مهتمُّون بعقد صفقة، خاصة إذا تضمَّن الأمر هدايا من

السفن الحربية والذخيرة الأمريكية. وورد في مذكرة مرفوعة إلى السلطان: «مع أن الولايات المتحدة كانت فيما مضى دولةً صغيرة، فإن قوَّتها أصبحت اليوم تضاهي قوةَ بريطانيا. فمصانع المدافع ومخازن الذخيرة ومصانع البارود وترسانات الأسلحة الخاصة بهم في حالة جيدة للغاية.» وبناءً على ذلك، قدَّر براديش أن الاتفاقية ستتكلف نحو ٥٠٠٠٠ دولار منها ٧٠٠٠ «حتى يظل حالت أفندي على موقفه الحالي»، وأن إتمام الاتفاق قد يؤدي إلى توتُّر شديد في العلاقات مع بريطانيا.[4] وربما رأى آدامز أن هذا ثَمنٌ فادح — فلم تذكر السجلات التاريخية شيئًا بهذا الشأن — ولكن على أي حال فإن موضوعَ الاتفاق الأمريكي العثماني سرعان ما أصبح مستبعدًا. فقد اغتيل حالت أولًا، ثم انشغل العثمانيون بدءًا من عام ١٨٢١ بالتمرد الذي وقع في اليونان.

كان الغربيون في القرن التاسع عشر ينظرون إلى اليونان باعتبارها بلدًا أوروبيًّا يقع في الجنوب، على مدخل الشرق الأدنى. غير أنها كانت من الناحية السياسية جزءًا لا يتجزأ من الدولة العثمانية، وكان لها أثرٌ في الأحداث في الشرق الأوسط بأجمعه، كما أظهرت حربُ الاستقلال فيما بعدُ. نشِب الصراع العِرقي بين اليونانيِّين والأتراك في سميرنا أيضًا، وشارف ليفي بارسونز وبليني فيسك على الموت أثناءه. أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فقد أصبحت الأزمة مصدرًا لمشكلاتٍ لا تنتهي، مما وضع علاقاتها مع المنطقة في مواقفَ حرِجة لم تشهدها منذ حروب البربر. وفي حين فرض الصراع ضد شمال أفريقيا على الأمريكيِّين أن يختاروا بين رشوة القراصنة أو محاربتهم، فإن الحرب اليونانية أبرزت تساؤلًا أكثرَ أهمية. هل يجب على الولايات المتحدة أن تعطي الأولوية لمصالحها الاقتصادية في الشرق الأوسط، أم يجب عليها أن تتجاهل الاعتبارات المالية وتتمسَّك بمبادئها الديمقراطية؟

كان ردُّ الفعل الأمريكي على التمرُّد اليوناني نابعًا إلى حدٍّ بعيد من شغف الأمريكيِّين بكلِّ ما هو يوناني، وهي حركة ثقافية وسياسية اهتمَّت بالحضارة الإغريقية القديمة. وكان المثقفون الأمريكيون يحبون الكلاسيكيات تمامًا مثل لورد بيرون وغيره من المثقفين الأوروبيِّين في ذلك الوقت، فأسموا أولادَهم بأسماء أبطال التاريخ والأساطير الإغريقية. وأطلقوا على مدنهم أسماءَ مدن إغريقية كأثينا وإسبرطة وطروادة. وكانت الرسومات والأنماط الإغريقية واضحةً في كل زاوية من زوايا الحياة الأمريكية، من الفن والعمارة إلى الأدب والحكم. وفي خطابٍ إلى صديقه المسن جون آدامز عبَّر توماس جيفرسون عن

شوقه البالغ «لرؤية لغة هوميروس وديموستينيوس تسري بنقاء من شفاه شعب حر مبدع خلاق». وشاركه كثيرٌ من الأمريكيِّين في هذا الحُلم، عن طريق رؤيتهم لليونان — بجانب إسرائيل التي وردت في الإنجيل — باعتبارها مهدَ حضارتهم، وسعْي اليونان للتحرُّر باعتباره مماثلًا لصراع أمريكا نفسها حديثًا ضد الحكم الفاسد.

لم تَلقَ الثورة اليونانية قبولًا من الجانب الرومانسي لأمريكا فحسب، بل من قناعاتهم الدينية أيضًا. وكان قطاعٌ كبير من الأمريكيِّين يرى في هذا الصراع مواجهةً حاسمة بين الإسلام والمسيحية، ويرى أن اليونانيِّين هم صليبيو هذا العصر. وحتى المطبوعات التي تبدو عِلمانية في الظاهر مثل مجلة «نورث أمريكان ريفيو» استطاعت أن تدَّعي أنه «أينما امتدت هيمنةُ السلطان، تُهدَم كنائس القرى وتُسوَّى بالأرض أو تُدنَّس بشرور الإسلام». وأكَّدت عدةُ سيدات من نيويورك هذه النقطة عن طريق إقامة صليب هائل، نُقشت عليه كلمات «من أجل قضية اليونانيِّين» على مرتفعات بروكلين، حيث تسهُل رؤيته من مانهاتن. وفي ردِّه على جيفرسون اعترف جون آدامز بأن «خياله القديم يتحوَّل إلى نوع من حماسة المبشِّرين من أجل قضية اليونانيِّين.»

كانت شدةُ هوس الأمريكيِّين بالثقافة الإغريقية ومعارضتهم للإسلام معروفةً بلا ريب للحكومة اليونانية المؤقتة عندما طالبت إخوانها المواطنين في بنسلفانيا وواشنطن وفرانكلين بالمساعدة في تخليص اليونان من البربر، الذين دنَّسوا أرضها مدة أربعمائة عام. وكانت الاستجابة حماسيةً للغاية. بل إن رئيس جامعة هارفارد إدوارد إيفيريت أعلن «أن هذا النداء ... لا بد أن يوضِّح للأمريكيِّين ... الدورَ التاريخي المجيد الذي يجب أن تلعبه بلادنا في الإحياء السياسي للعالم.» أما الجنرال ويليام هنري هاريسون — رئيس الولايات المتحدة فيما بعدُ — فنادى بتعبئة عامة من أجل اليونان، معلنًا «أن قيم الإنسانية والسياسة والدين كلَّها تدعو إلى ذلك. يجب أن يرفرف علم الولايات المتحدة على بحر إيجة.»

استجاب آلاف الأمريكيِّين بحماسة لهذا التحدي. وتكوَّنت جمعيات في جامعات ييل وكولومبيا هدفُها تحرير اليونان، وأقيمت أيضًا حفلات لجمع التبرعات أو «الحفلات اليونانية» في مدن ألباني وريتشموند وسافاناه. وأصدرت المجالس التشريعية قراراتٍ تعترف بحق اليونان في الحرية، وشُكلت لجان لإيجاد مأوًى لليتامى اليونانيِّين وجمع التبرعات لمساعدة المتمردين. وكتب القس توماس روبينز من ولاية كونيتيكت في مذكراته: «عُقد اجتماع هنا لمساندة اليونانيِّين. واحتشد الناس، وجُمع ٦٠ دولارًا.» وفي المحصلة

تبرَّع الأمريكيون بمبلغ ١٠٠٠٠٠ دولار، أي ما يوازي مليوني دولار اليوم، وساعدوا على تمويل بناء السفينة «هدسون» التي تحمل ٦٤ مدفعًا وترفع العلم اليوناني.

ولكن التبرعات المادية وحدَها لم تكن كافية عند بعض الأمريكيِّين، الذين كانوا على استعداد لتقديم معاشهم لليونانيِّين، وحتى حياتهم إذا أمكن. فقد تبرَّع صامويل جريدلي هاو، الداعي إلى تحرير العبيد والطبيب والرائد في تعليم المعاقين، الذي كان أيضًا زوج جوليا وارد هاو، مؤلِّفة كتاب «معركة النشيد الوطني للجمهورية»، تبرَّع بتقديم خدماته الطبية في اليونان. وقد ألهمت مذكرات هاو وذكرياته عن تجاربه الحية التي يصفُ فيها الرجال اليونانيِّين الذين ذُبِحوا «مثل الحيوانات البرية في الشوارع» وعن القساوسة الذين شُنقوا، والنساء والصبية الصغار الذين رُحِّلوا «ليخدموا الغرائزَ الوحشية للأغنياء»، ألهمت آخرين ليسيروا على خطاه. وكان من بينهم جورج جارفيس من نيويورك، الذي خدم بصفةِ فريق في الجيش اليوناني، وجيمس ويليامز، الأمريكي من أصول أفريقية من بالتيمور، الذي كان قد حارب مع ستيفن ديكاتور في الجزائر، وكان يحارب البحرية التركية الآن في اليونان.[5]

كان الدعم الشعبي للثورة اليونانية يعني أن الكونجرس لا يمكنه تجاهُل الموضوع أكثرَ من ذلك. فقد أصرَّ عضو الكونجرس عن ولاية كنتاكي هنري كلاي أنه على الولايات المتحدة أن تفكر في الاعتراف بدولة يونانية مستقلة. وقال نائب ماساتشوستس دانيال وبستر، في خطاب له: «أنا أفكِّر في اليونان الحديثة وليس القديمة ... في اليونانيِّين الأحياء وليس الأموات، في اليونان التي تحارب من أجل بقائها الإنساني عامة»، داعيًا ليس فقط إلى مساعداتٍ دبلوماسية لليونان، بل أيضًا إلى تقديم مساعدات عسكرية إلى اليونانيِّين الذين يحاربون بنبل وشجاعة. ومع ذلك فلم يدعم كل الأمريكيِّين هذه التوصيات. فقد تذكَّر كثيرٌ من سكان نيو إنجلاند، موطن وبستر، الصعوبات التي واجهتهم في حروب البربر، فعارضوا أيَّ سياسة قد تستفز الباب العالي إلى التدخُّل في تجارة البحر المتوسط أو في العمل التبشيري في الدولة العثمانية.

ولكن كيف كان يمكن المواءمة بين مصالح التجار والمبشِّرين في الشرق الأوسط وبين الشغف بالتراث الإغريقي الذي أظهره كثيرٌ من الأمريكيِّين؟ كانت هذه هي المعضلة التي واجهت جون كوينسي آدامز. ففي حين اعترف آدامز وزير الخارجية بالفائدة الجمة الروحية والمادية للحفاظ على العلاقات الودية مع الباب العالي، فقد كان مؤمنًا أن الإسلام دينٌ «تعصُّب وضلال، قائم على مشاعر العداوة الطبيعية لدى المسلمين نحو غيرهم

وإخضاع الآخرين بحدِّ السيف». وكان يطمح إلى أن يكون واضعَ أول اتفاقية عثمانية أمريكية، لكنه في نفس الوقت كان متفقًا مع الأمريكيِّين الذين كانوا ينظرون إلى الحرب اليونانية باعتبارها الحلقةَ الأخيرة في الصراع بين المسيحية و«عقيدة المسلمين القائمة على العنف والغرائز الحسية».

كان هناك عامل يتعيَّن على آدامز أن يأخذه في الاعتبار عند صياغة سياسته تجاه اليونان. فقد كان قلقًا من أنَّ تدخُّل الولايات المتحدة في القارة الأوروبية لمصلحة اليونان قد يقلِّل من شأن معارضتها غزواتِ أوروبا الأخرى في الجانب الغربي من الكرة الأرضية، كما ورد في وثيقة مونرو. وكانت تلك الاعتبارات تمثِّل ضغوطًا قوية عليه، لدرجةِ أنه عندما أعلن الرئيس جيمس مونرو نيتَه في تعهُّد أمريكي بمساعدات عسكرية للثورة، عمل آدامز بقوة على إقناعه بالعدول عن ذلك. وكان من بين ما قاله أن الأوروبيِّين سيستغلون ذلك بالتأكيد في الإعلان بتجديد جهودهم الاستعمارية في أمريكا الجنوبية للسيطرة على التجارة في البحر الكاريبي. ونجح أخيرًا في إقناع الرئيس بالعدول عن رأيه. وقال مونرو أمام الكونجرس: مع أن الولايات المتحدة «تميل إلى منح اليونان ... حريتها وسعادتها»، إلا أنها لن تتدخل في شأن أوروبي داخلي.[6]

وقد دعَم القرارُ الأمريكي بوقف المساعدات لليونان صورتَها دعمًا كبيرًا في إسطنبول. وتزامن ذلك مع فتور العلاقات بين أوروبا والباب العالي. لذلك كان الوقت مناسبًا للغاية لآدامز لتجديد بحثه عن اتفاقية عثمانية أمريكية، معتمدًا مرةً أخرى على مواهب جورج بيثون إنجليش.

أمريكي مسلم في عاصمة الإسلام

أصدر آدامز توجيهاته لإنجليش، بعد أن عيَّنه مبعوثًا أمريكيًّا سِريًّا إلى العثمانيين، قائلًا: «ستبلغني بالتقدُّم والنجاح اللذين ستحرزهما عن طريق خطاب شخصي. وستبلغنا — كلما أتيحت لك فرصةٌ آمنة — بأي معلومات تجارية أو سياسية تتنامى إلى علمِك، وتكون ذات أهمية للولايات المتحدة.» كانت أول مهمة لإنجليش هي الوصول إلى القبودان الجديد، هوزريف محمد باشا، إن لم يكن إلى السلطان ذاته.

كتب إنجليش أنه سافر باعتباره أمريكيًّا مسلمًا آتيًا من بلدٍ بعيد لزيارة عاصمة الإسلام، ودخل إسطنبول في ٥ نوفمبر ١٨٢٣، مرتديًا الزيَّ المحلي، واستأجر غرفةً في أقدم أحياء المدينة. وبحذرٍ شديد بدأ في بناء وتكوين علاقات، أولًا مع أمين مكتبة السلطان،

ثم مع موظفين أعلى منصبًا. وكانت كل علاقة منها تقرِّبه من هدفه أكثرَ فأكثر، ولكن على حساب أن يصبح هو نفسه مستهدفًا. وأسرَّ إلى آدامز كاتبًا: «موقفي مملوء بالمخاطر والترقُّب والقلق. فأنا كثيرًا ما أسمع اللعنات تنصبُّ على رأسي باعتباري جاسوسًا يونانيًّا متنكرًا، وحتى خادمي لا يرافقني في خروجي … حتى لا يصاب بطلقةٍ تستهدفني».

وفي ٤ يناير تمكَّن إنجليش أخيرًا من مقابلة هوزريف، وكان رجلًا مشغولًا بالموقف العسكري في اليونان و«مهتمًّا للغاية باتخاذ خطوات للحفاظ على مكانته وحياته». وكان هوزريف أيضًا مهتمًّا بالمطالب الأوروبية بأجزاء من دولته، وبمخططات حول أسواق الشرق الأوسط. لذلك أكَّد له إنجليش أن الولايات المتحدة ليست لديها أيُّ مطامع في أراضٍ عثمانية، لكنها تطالب فقط بإتاحة فرص تجارية مفتوحة ومفيدة للطرفين معًا. إلى جانبِ أن أمريكا دولة تحترم كلَّ الأديان، ومنها الإسلام، حيث «يتمتَّع المواطن المسلم … بنفس المزايا التي يتمتَّع بها المواطن المسيحي». ترك ذلك الحديث انطباعًا جيدًا لدى قبودان، فوافق على مناقشة صياغة اتفاقية، على أن يحدُث ذلك سرًّا على متن سفينة، لتجنُّب أي مؤامرات أوروبية. كما فهم إنجليش أن سِرية الاجتماع ستضمن أيضًا تسلُّم القبودان كافة الرشاوى، وإلا سيُضطر إلى مشاركة الغير فيها. وأكَّد المبعوث الأمريكي لآدامز أنهما «تفاهما جيدًا حتى الآن».

ومع ذلك فلم يطمئن آدامز. بسبب ميل إنجليش إلى أساليب العباءة والخنجر — أي الأساليب غير المباشرة المستترة — كما أنَّ لجوءه المتكرر لاستخدام الرشاوى أثار قلق الوزير المستقيم صاحب الأسلوب المباشر، فتشكَّك في قدرة مبعوثه على عقد اتفاقات دولية. واستنادًا إلى ذلك، خفَّض رتبة إنجليش إلى مجرد مترجِم لجون روجرز، قائد أسطول البحر المتوسط. وأصدر آدامز توجيهاته لروجرز بمتابعة الاجتماعات مع القبودان، والتوصُّل مع العثمانيِّين إلى مزايا مشابهة لتلك التي تتمتَّع بها بريطانيا وفرنسا، وأن يحذر أن تُفسَّر تصرفاته على أنها مع أو ضد اليونانيِّين. ويمكنه أيضًا أن يَعِد هوزريف أن «وساطته في هذا الاتفاق ستقدَّر جيدًا».[7]

كان روجرز — الذي خاض حربَ البربر ونال نياشين عنها — ضابطًا يسير حرفيًّا حسب الأوامر، وجرى تعيينه لتخليص البحرية من آفاتِ السُّكْر والمبارزة، وليس للقيام بمباحثاتٍ حساسة مع قادة عثمانيِّين. وأدَّى عدم لياقته الدبلوماسية — الذي ضاعف منه انشغال هوزريف بقضية اليونان — إلى تأجيل أيِّ مناقشات حول الاتفاقية. وأخيرًا في ٥ يوليو ١٨٢٦، أي بعد سنتين ونصف السنة من وصول إنجليش إلى إسطنبول،

التقى القائد الأمريكي والقبودان العثماني بين جزر تينيدوس وليسبوس. واستقل بحَّارة من السفينة «نورث كارولينا» والسفينة «كونستيتيوشن» سفينةً ترفع العلَم العثماني مرتدين زيَّ البربر، وقاموا بتسلية طاقمها بنشيد فلتحيا كولومبيا. وتُبودلت الهدايا؛ حرير ونارجيلة لروجرز، وخواتم وبنادق وعُلبة نشوق مرصَّعة بالجواهر لهوزريف. في حين كان إنجليش يقوم بالترجمة، اتفق الرجلان على أن يغادر روجرز إلى سميرنا وأن ينتظر ورودَ خبر بالموافقة على الاتفاقية. ثم غادر القبودان، ملقيًا التحيةَ ببنادقه ورافعًا العلم الشخصي للسلطان، وهو شرفٌ لم يحظَ به أيُّ غربي من قبل.

رحل روجرز بالفعل إلى سميرنا، حيث حضر حفلاتٍ وقابل صغار الموظفين، باعتباره ضيفَ أوفلي. وانتظر مدةً تزيد على العام، لكنه لم يتلقَّ أيَّ جواب من الباب العالي. وفي تلك الأثناء كان آدامز قد أصبح رئيسًا، وفي وضعٍ أفضل للضغط من أجل عقدِ اتفاقية. ولكنه إذا كان قد أُطلِق عليه «الفصيح البليغ» عندما كان وزيرًا مميزًا، فإن أداءه بوصفه رئيسًا للدولة لم يكن من الطراز الأول. فبدلًا من استمالة الأتراك، أصدرت إدارته عدة تصريحات تساند استقلالَ اليونان، مما ولَّد شائعات بأن الولايات المتحدة كانت تمدُّ المتمردين بالسلاح سرًّا. واشتكى السلطان قائلًا: «انظروا كيف لا يحفظ هؤلاء الفرنجة عهودهم ومواثيقهم أبدًا. من الحكمة أن نحترم وضْعَ بريطانيا العظمى وأن نماطل الأمريكيِّين بالسياسة.» وزاد آدامز من التباعد بينه وبين الأتراك، عندما صرَّح بتعاطفه مع «اليونانيِّين المعذَّبين في هذا الصراع غير المتكافئ بالمرة»، ومتمنيًا لهم «انتصارًا للإنسانية والحرية».

لم ينجح آدامز في اكتساب عداوة العثمانيِّين فحسب، بل اكتسب عداوة جورج إنجليش أيضًا، الذي انتقد تهوُّره، وألقى عليه باللوم في تضاؤل أي أمل في التوصُّل إلى اتفاقية. ولم تكن تلك هي اللحظة المناسبة لانتقاد رئيسٍ محبَط بسبب سنوات طويلة من الفشل في التوصل إلى اتفاق — ولو محدودًا — مع إسطنبول. ولم يساعد ديفيد أوفلي في تحسين رأيه في إنجليش، فقد وصفه بأنه غير مستقر ومتلوِّن، ومتعاون سرًّا مع السلطان. ولصقت به التهمة. فقرَّر آدامز إنهاءَ أي علاقة له مع مبعوثه الشخصي وصديقه القديم ... متهمًا إياه «بسوء التصرُّف المشين، وبتصرُّفات غريبة تصل إلى حد الجنون». وكتب قائلًا: «لا يمكنني الاستمرار معه بعد الآن.» أبحر إنجليش عائدًا إلى أمريكا، وحاول أن يشرح قضيته في البيت الأبيض بلا جدوى. وتوفي إنجليش في ٢٠ من سبتمبر عام ١٨٢٨، عاطلًا عن العمل، وهو الذي كان في السابق طالبًا للدراسات الدينية، وضابطًا في البحرية، ولواءً مسلمًا. ولم يمُت في عاصمة الإسلام، بل في عاصمة الولايات المتحدة، موطنِه الأصلي.[8]

عام المعجزات: ١٨٣٠

صادف موت إنجليش تدهورًا حادًّا في الوضع السياسي في الشرق الأوسط، وتضاءلت فرص التوصُّل إلى اتفاقيةٍ أمريكية تركية. واستغلالًا للوضع العثماني المعقَّد في اليونان، قام الحكام المحليون في شتَّى أنحاء الدولة بمحاولات للاستقلال. وأثناء ذلك كانت القوى العظمى تخشى أن يؤدي انفصال اليونان عن الحكم العثماني إلى بداية تفكُّك الدولة العثمانية، وإلى إشعال حربٍ أوروبية حول أجزائها المفكَّكة. لذلك سعَوا إلى الحفاظ على الوضع القائم في اليونان، ولكن الباب العالي أرسل أسطولًا مصريًّا عثمانيًّا مشتركًا إلى جنوب اليونان. ردًّا على ما اعتبره تدخلًا أجنبيًّا في شئونه الداخلية، وواجهت الزوارق الحربية الفرنسية والبريطانية والروسية الأسطولَ التركي المصري المشترك، وأغرقت ثلاثة أرباع سفن السلطان قُرب خليج نافارينو (الذي يسمَّى بيسلوس اليوم) في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧.

شجَّعت الهزيمةُ التركية في نافارينو اليونانيِّين على المطالبة بالاستقلال، وأدَّت إلى طمع وتزاحم الدول الأوروبية على الأقاليم العثمانية، أي إلى نفس الوضع الذي كانت القوى العظمى تحاول تجنُّبه. وعلى ذلك، غزت روسيا عام ١٨٢٩ جزءًا شاسعًا من بلغاريا، وبعدها بعام أنزلت فرنسا ٢٤٠٠٠ جندي في الجزائر، لتبدأ فترةُ احتلال امتدَّت إلى ١٣٠ عامًا. وكانت هذه هي بداية ما أُطلِق عليه «المسألة الشرقية»، وإلى سؤال: «ماذا نفعل بشأن الإمبراطورية العثمانية المتفككة؟» التي كان مقدرًا على أوروبا أن تأرق بشأنها في فتراتٍ طويلة من القرن التالي، متسبِّبة في إشعال فتيل حرب في القرم، ومساهمة في اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وهكذا أيضًا نبتت فكرةُ شرق أوسط يتكلَّم العربية ومتحررًا من الحكم العثماني. وقد كان محمد علي من المرتزقة الألبان السابقين، وقد أُرسل إلى مصر في أوائل القرن للمساعدة في تحرير البلاد من نابليون، وكان محمد علي غاضبًا بسبب خسارة السفن الحربية ورفضِ العثمانيِّين دفْعَ مقابل خدماته في قتال اليونانيِّين. ولأنه كان مستقلًّا عن إسطنبول في كل شئون الدولة إلا بالاسم، ومدعومًا بصورةٍ قوية من الفرنسيِّين، فقد استعدَّ محمد علي للسير بجيشه إلى الأناضول وتأسيس إمبراطورية خاصة به.[9]

لم يمثِّل استقطاع القوى الأوروبية وحلفائها المحليِّين للأقاليم العثمانية دافعًا قويًّا للتوصل إلى اتفاقٍ بين القادة العثمانيِّين وقادة دولة غربية أخرى، هي الولايات المتحدة.

بالإضافة إلى أن الأمريكيِّين كانوا قد هلَّلوا لانتصارات أوروبا في نافارينو، بل سُميت مدينة في ولاية ويسكونسن باسم المعركة، ولكنَّ العثمانيِّين كانوا على استعداد لتجاهل هذه الهفوات أو الزلات، بسبب حاجتهم إلى إيجاد توازن دبلوماسي أمام الأوروبيين، بالإضافة إلى حاجتهم إلى مصدر إمداد لسفنهم الحربية. ويقال إن وزير الخارجية العثماني قال لأحد التجار البريطانيِّين: «مهما يكن سلوككم تجاهنا، فإن الأمريكيِّين سيظلون أصدقاءنا الأوفياء. وإن سفينة أمريكية تساوي اثنتين من سفنكم من نفس الحجم.» وفي حين كان القناصل الأوروبيون يهربون من إسطنبول خشيةَ الانتقام، كان الترحيب بالأمريكيِّين يجري في العاصمة، ويُبلغون باهتمام السلطان المتجدِّد بعقد اتفاقية معهم. ولكن المشاعر العدائية تجاه الأتراك استمرت في الولايات المتحدة، وهو ما أدَّى إلى عدم التوصل إلى أي استجابة إيجابية لهذا العرض حتى عام ١٨٣٠، وحينها كان رئيس جديد قد تولَّى السلطة في البيت الأبيض هو أندرو جاكسون.

كان أندرو جاكسون طفلًا فقيرًا ويتيمًا، وقد عمِل جنديًّا، وتحوَّل إلى محامٍ متميز وعضو في مجلس الشيوخ وبطل من أبطال حرب عام ١٨١٢. وبذلك كان مختلفًا تمامَ الاختلاف عن الرئيس السابق صاحب الامتيازات العديدة. ولم يكن يمتلك التزام آدامز بالقواعد الدبلوماسية؛ لذلك كان يدير شئونه الخارجية بأسلوب «عصا التأديب» أكثرَ منه بأسلوب «البلاغة والفصاحة». وكان جاكسون يرغب في التجارة مع الإمبراطورية العثمانية، ولم يكن مستعدًّا لأن توقفه أيُّ عقبة عن القيام بذلك، حتى لو كان ذلك هو التعاطف الشعبي مع اليونان. ومن بين قرارات السياسة الخارجية الأولى التي أصدرها، أعلن جاكسون تصميمَه على «عدم ترك أيِّ وسيلة يمكن استخدامها لتحصُل أمريكا على المزايا نفسها التي تتمتَّع بها القوى العظمى الأوروبية في الدولة العثمانية»، وأنه سيسعى حثيثًا نحو عقد اتفاقية رسمية مع الباب العالي.

وقع اختيارُ جاكسون على ديفيد أوفلي مفاوضًا، يرافقه قائدُ البحرية الأمريكية، جيمس بيدل والتاجر النيويوركي تشارلز ريند. وبدأ الثلاثة مباحثاتٍ سِرية في إسطنبول في فبراير ١٨٣٠، ليواجهوا العقبات البريطانية المعتادة. ومع ذلك ثابر الأمريكيون، ونتيجةً لذلك وقَّعت أمريكا أول اتفاقية تجارة وإبحار مع الدولة العثمانية في ٧ مايو. ومنحت تلك الاتفاقيةُ حقوقًا خارجية للولايات المتحدة وسُمح لها بالتجارة في البحر الأسود. وعُرضت الاتفاقية على الكونجرس فأثنى جاكسون عليها قائلًا: «إنها من أطيب المشاعر ... التي أبداها السلطان ... وإنه موقف متنوِّر اتُّخذ لدعم العلاقات بين البلدين.» وأعلنت

أمريكا من جانبها التزامها بإمداد البحرية العثمانية بأنواعٍ مختلفة من الزوارق الحربية، بخصومات خاصة.[10]

يجب إذن أن نتذكَّر عام ١٨٣٠ باعتباره نقطةَ تحوُّل في علاقات أمريكا ما قبل الحرب في الشرق الأوسط. فهو العام الذي حصلت فيه الولايات المتحدة على وضعٍ قانوني وتجاري في البلاد العثمانية يوازي الوضعَ الأوروبي، وهو العام الذي أسَّس فيه الرئيس الأمريكي سابقةَ بيع أسلحة أمريكية للمنطقة أيضًا. وأُقيم حوض سفن في إسطنبول، وُصف بأنه «خاضع تمامًا للسيطرة الأمريكية وللوائح التنظيمية الأمريكية»، وأُنشئ في هذا الحوض ١١ سفينة، و١٢ بارجة حربية، بالإضافة إلى أكبر سفينة حربية وصل وزنها إلى ٩٣٤ طنًّا، هي السفينة «محمود». وسُمِح للضباط الأمريكيِّين بالعمل مستشارين على هذه السفن في حين تلقَّى الضباط الأتراك تحت التمرين تدريباتٍ على متن سفن أمريكية سعيًا إلى «تحسين قدراتهم في مجال البحرية». وبالإضافة إلى تجديد البحرية العثمانية وإعادة تأهيلها، سلَّحت الولايات المتحدة أيضًا القوات البرية التركية بمسدسات من نوع هاربرز فيري وبنادق كولت ومدافع من الطراز الأمريكي.

ومع ذلك فقد كانت مبيعات الأسلحة تمثل قِطاعًا محدودًا فقط من الازدهار الذي شهدته التجارة الأمريكية في الشرق الأوسط بدايةً من عام ١٨٣٠، وتحت مظلة حماية الاتفاقية الجديدة أصبح التجار يجوبون الإمبراطورية حاملين أحدَث منتجات الصناعة الأمريكية، من الأسنان الصناعية إلى آلاتٍ يمكنها — كما أقسم مخترعوها — «إخراج قذائف بدون بارود». أما المنتجات الأمريكية مثل «المقاعد والمناضد، والكتب والمكتبات، وساعات الحائط والنوافذ الزجاجية» فكانت تمثِّل فقط بعضًا من المنتجات التي تبادلتها الولايات المتحدة مقابل التمور والتين والسجاد، وذلك حسب قول أحد المبشِّرين المتمركزين في الأناضول. وكانت المنسوجات الأمريكية تلقى تقديرًا خاصًّا في المنطقة، وذكر أحدُ الزائرين الأمريكيِّين لدمشق أنه شاهد كمياتٍ هائلة من القطن الأمريكي محمَّلة على قوافل متجهة إلى آسيا الصغرى، ولاحظ آخرُ آلاتٍ في الأناضول تحمل ختمَ محلج تريمونت، لويل، ماساتشوستس. وانتشرت كلمة «ميركاني» لتعني «القماش» في منطقة الخليج العربي وفي تركيا عُرفت باسم «أمريكانو».[11]

ورسَّخ رجال الأعمال الأمريكيون أوضاعهم في جميع أنحاء الدولة العثمانية، وبدءوا في الخروج إلى ما بعد حدودها. فاشترَوا من اليمن نصف المحصول السنوي من البن، وفي

مسقط (عمان اليوم) اشترَوا اللبان العربي وقرون الخرتيت والعاج. وعام ١٨٣٢ أبحر رجلُ أعمال من نيو هامبشير اسمه إدموند روبرتس على متن السفينة «بيكوك» محمَّلًا بأسلحة وخرائط وعملات أمريكية متجهًا إلى المخا ومسقط. وسُمح له بدخول قلعة السلطان سيد سعيد، الذي كان يتعافى من جروحٍ أصابته أثناء حربه مع الوهابيِّين. فكتب يقول: «كانت القاذورات والبُقع الموجودة على الحائط هي بقايا دم ومخ العديد من الضحايا.» ووقَّع سعيد معه اتفاقيةَ تجارة مع الولايات المتحدة، وكانت الأولى من نوعها بين بلاده والغرب، وأهدى حديقةَ حيوان واشنطن زوجًا من الأسود. وأرسل أيضًا مبعوثه الشخصي نعمان إلى الولايات المتحدة، حيث تبِعت جموع من الأمريكيِّين يتملَّكهم الفضول جولتَه لتفقُّد الآثار والنوادي وسكة حديد لونج أيلاند المشيَّدة حديثًا. وعندما زار دبلوماسي بريطاني قلعةَ سعيد عام ١٨٣٣، وجد أن جدرانها لم تَعُد ملطَّخة بالدماء، ولكن الشيء الذي أزعجه كثيرًا كان صور الانتصارات الأمريكية في حرب عام ١٨١٢.[12]

كان اتساع التجارة الأمريكية في الشرق الأوسط المضطرب يعني دورًا أكبرَ للبحرية الأمريكية. وفي إشارةٍ إلى «التأثير العنيف» لأسطول البحر المتوسط على شمال أفريقيا، آمن جاكسون أن القناصل الأمريكيِّين في المنطقة «لا يشبعون من الحديث بشأنه». ولتأكيد هذه النقطة، أُرسلت السفينة «كونكورد» عام ١٨٣٢ إلى الإسكندرية، حيث أصبح قائدها ماثيو بيري أولَ قائد أمريكي يزور مصر، وهو الذي قُدِّر له فيما بعد أن يفتح اليابان أمام الغرب. وفي العام التالي زارت السفينة «ديلاوير» القاهرة ويافا وبيروت، يقودها المحارب القديم في حروب البربر دانيال باترسون. وكتب مبشِّر أمريكي من لبنان واصفًا كيف قام أربعون ألف شخص «من المسلمين والمسيحيِّين والدروز ... من المزارعين والقساوسة والشيوخ والأمراء» بالالتفاف حول السفينة، وكان في استقبالهم طاقمُ السفينة بزيهم الأنيق المبهر، وتراجع أحد النبلاء العرب — الذي بهرته تلك الصورة — عن فكرته السابقة عن الأمريكيِّين باعتبارهم «وحشيِّين وغير متمدنين»، وبدلًا من ذلك اعتبرهم «متفوقين على كل الأمم الأخرى ... من حيث الأدب والعطف علينا نحن الأغراب». وفي عيون الكثيرين من مراقبي أحوال الشرق الأوسط أصبحت أمريكا تتحدَّى التفوق البحري الذي طالما تمتَّعت به بريطانيا في المنطقة، ووصل الأمر بإبراهيم ابن محمد علي، إلى إعلان أن بريطانيا تمتلك ثاني أفضل أسطول بحري في البحر المتوسط «بعد أمريكا».[13]

وأضاف النشاط التجاري والبحري المتزايد بدوره وجودًا دبلوماسيًّا قويًّا في الشرق الأوسط، ولكن أمريكا ظلَّت متباطئة بصورةٍ تدعو للأسف في تلبيتها لذلك الدعم. فقد

كانت هناك عدةُ قنصليات أمريكية في المنطقة، يعمل في معظمها أجانبُ غير مؤهلين لتلك الوظائف، حتى إن بعضهم لم يكن يتحدَّث الإنجليزية. وكانت أجورهم متدنيةً للغاية. أما القناصل المولودون في أمريكا فكثيرًا ما أثبتوا أنهم أقلُّ تأهيلًا لتلك الوظائف؛ ففي طنجة مثلًا، كان القنصل جيمس ليب، المشهور بسُكْره وعربدته، يلتفُّ بالعلم الأمريكي كل ليلة، ويشير إلى سفن حربية أمريكية وهمية في خياله، في حين نجح نظيره في تونس، الممثل الفاشل هوارد بين، في تأليف أغنية «ما أجمل الوطن فقط» (هوم سويت هوم). واشتكى أحدُ أبناء نيويورك بعد زيارة المنطقة في فترة الثلاثينيات من القرن التاسع عشر من أن «النظام القنصلي الأمريكي كله خاطئ للغاية، وسيئ السُّمعة ومهين لنا ولوطننا. فالعلم الأمريكي ... يرفرف على منازل اليونانيِّين والإيطاليِّين واليهود والعرب وكل تلك الشعوب المختلطة. ولكن لم يرفرف علمٌ من تلك الأعلام فوق مضيق الدردنيل؛ لأن القنصل هناك كان فقيرًا لدرجة لم تمكِّنه من شراء علم».[14]

من الواضح أن هذا التمثيل الهزيل الفقير كان غيرَ مناسب لبلدٍ يزداد اهتمامًا بالشرق الأوسط يوميًّا. وقد اتخذت إدارة الرئيس جاكسون خطواتٍ تنفيذية سريعة لحل تلك المشكلة. ففي عام ١٨٣١ قامت بتعيين أول قائم بالأعمال لأمريكا في إسطنبول، واختارت لتلك المهمة رجلًا مميزًا وعنيدًا للغاية، هو ديفيد بورتر.

الشيطان وديفيد بورتر

كان ديفيد بورتر معروفًا بين أصدقائه باسم سندباد، وقد وصل إلى مقر عمله الجديد بعد رحلة عمل أسطورية، وإن كانت في كثيرٍ من الأحيان سيئة السُّمعة. كان ابنًا لقبطان بحري ثوري، وقد قاد بورتر الابن سفينةً استولت على السفينة «طرابلس» عام ١٨٠١، وجُرح في هجمة جريئة على الساحل، ثم أُسِر مع طاقم السفينة «فيلادلفيا». وفيما بعدُ، في حرب عام ١٨١٢، أصبح أولَ قبطان أمريكي يستولي على سفينة حربية بريطانية، وأول مَن يبحر حول كيب هورن. ولكن كان لبورتر أيضًا جانبٌ متهور تلقائي. فقد قتل رجلًا في حانة، وكان شاهدًا على المبارزة التي قُتل فيها ستيفن ديكاتور، وهاجم قلعةً في بورتوريكو لم تردَّ التحيةَ على سفينته. ولأنه كان لا يعرف الحياء، فقد ترك زوجته في تشيستر، بنسلفانيا، ليعيش مع أخته غير المتزوجة في إسطنبول، وكان يرسل رسائل يومية إلى وزارة الخارجية مع مبعوثين مختلين. كان بورتر قصيرَ القامة، داكن البشرة، خشنًا، له عينان تخترقان الواقفَ أمامه، ولم يكن مضيافًا لزائريه، ولا متقبلًا للشرق

الأوسط. فكتب مرةً يقول بعد مقابلة مع السلطان محمود الثاني: «إلقاء السلام عند الشرق أوسطيِّين أمرٌ يضايق بحق. لماذا لا يكتفون فقط بالتحية العادية؟»

كان مِزاج بورتر يشبه مِزاج أندرو جاكسون، وكان أيضًا يشاركه في تصميمه على تحسين علاقة أمريكا بالعثمانيِّين. وكان يحب بصورة خاصة أن يطرِب مستمعيه من العثمانيين بحكايات عن عجائب الصناعة الأمريكية. فكان يؤكد أنه «لا توجد منطقة في العالم تشتهر بوجود رجال مبتكرين ومهارات تقنية عالية مثل الولايات المتحدة». وللتدليل على تلك العبقرية، اقترح بورتر تقديمَ هدية للسلطان وهي قارب يسير بالبخار على هيئة بجعة، رأسها ورقبتها ملتصقان بالمقدمة، والأجنحة بمحركات مرتبطة بالمقود، والذيل بمؤخرة القارب. ولكن وزارة الخارجية رفضت الفكرة، مفضِّلة عليها أن تُقدَّم عُلب النشوق التقليدية المرصَّعة بالجواهر. ولكن بورتر وصل بالفعل بجياد هزازة مصنوعة في بوسطن، هديةً لأبناء السلطان، وقبعاتٍ حربية أمريكية لجنود السلطان. وتلقَّى السلطان الهدية الأولى بسرور، أما الثانية فلم يتحمَّس لها كثيرًا.[15]

أقام بورتر في فيلا أنيقة تُطلُّ على مضيق البوسفور، وشرع فورًا في إصلاح أحوال التمثيل الدبلوماسي الأمريكي في الشرق الأوسط. وكلما سنحت الفرصة كان يتم تعيين يهود في مناصبَ قنصلية، وكان أداؤهم يُتابع ويُقيَّم باستمرار. وقد ساعد هذا القبطان السابق على مراقبة حوض السفن، وجلب لها أفضل النجارين من نيو إنجلاند وشحناتٍ كاملة من خشب البلوط، لضمان تفوُّق منتجاتها حتى على المعايير الصارمة للبحرية الأمريكية. لقد ترك ذلك كلَّه انطباعًا رائعًا لدى السلطان محمود الثاني، فرُقِّي بورتر من قائم بأعمال إلى سفير، ليكون بذلك أولَ سفير للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. فكتب يقول: «لا يبدو أن أحد الدبلوماسيِّين هنا يعرف أنه لا شيء يضاهي التأثير الأمريكي»، مضيفًا بتواضع: «لو كان لديَّ مهارةُ ميترنيخ أو تاليراند … ما كانت لتصير لي مكانة أعلى في عيون الأتراك.»[16]

كان بورتر على استعدادٍ تامٍّ لاستغلال تلك المكانة، حتى من أجل انتقاد السياسات العثمانية. فعندما قُبض على عدد من اليهود السوريِّين وعُذِّبوا بتهم قتل ملفَّقة — وهو ما عُرف في التاريخ باسم سبِّ وسفك الدماء الدمشقية عام ١٨٤٠ — ندَّد بورتر رسميًّا «بتلك الممارسات الوحشية المخيفة». وذكَّر الباب العالي بأن الولايات المتحدة «لا تفرِّق بين المسلمين واليهود والمسيحيِّين، متمنيًا أن تُحْمى هذه الفئة المظلومة، التي وُلد من بينها بعضُ أفضل رجال أمريكا وأكثرهم وطنية». وأسَّس بورتر قاعدةً استمرت حتى القرن

العشرين، وهي مدُّ مظلة الحماية الأمريكية إلى يهود الشرق الأوسط. في هذه المرة نجح التدخل الأمريكي. ونتيجةً للاعتراضات الفرنسية والبريطانية أيضًا عمل العثمانيون على حفظ التحقيق وضمان خروج المتهمين من السِّجن.[17]

ولكن أكبر الصعاب التي واجهت بورتر لم تكن تدور حول يهود الشرق الأوسط، ولكن حول مسيحيي بلاده. فقد أدَّت محاولاتُ المبشِّرين الأمريكيِّين لتحويل العرب المسيحيِّين إلى البروتستانتية في سوريا وجبل لبنان، إلى إثارة حفيظة رجال الدِّين المحليِّين، وخاصة البطريرك الماروني. وفي عام ١٨٤١ كتب البطريرك رجاءً إلى الباب العالي بطرد الإنجيليِّين البروتستانت من الدولة العثمانية، ولإصدار أمرِ الطرد توجَّه الباب العالي إلى السفير الأمريكي.

ومع أنه لم يكن متدينًا، فإن بورتر أظهر إعجابه بالمبشِّرين ومجهوداتهم الرائدة في التعليم. حيث يقول: «أنا أومن أن أمةً تجيد القراءة وتمارسها بانتظام لا يمكن أن يطول بها الأمد لفهم مصالحها الحقيقية ... وعندها لن تتأخر عن القيام بأي خطوات تنفيذية.» ومع أن مسئولية بورتر الأولى هي دعم الاتفاقية الأمريكية العثمانية، وليس الترويج للأفكار الأمريكية، فإن مجهوداته في هذا المجال أصيبت بإحباط كبير بسبب المبشِّرين واحتقارهم للسلطة العثمانية. فقال لهم يوبِّخهم: «تجنَّبوا القيام بكلِّ ما من شأنه أن يجرح ... مشاعر ... المسلمين»، مؤكدًا أن الاتفاقية لا تحمي الأمريكيِّين الذين «يستفزون ... السكانَ المحليِّين لتغيير ديانتهم أو طقوسهم الدينية»، وحذَّرهم إن استمروا في محاولات تحويل المواطنين العثمانيِّين عن ديانتهم «أن يقوموا بذلك على مسئوليتهم الخاصة وأن يتحملوا وحدَهم عواقب ومخاطر ذلك».

وفي توبيخه للمبشِّرين وإظهاره حساسيةً تجاه قلق العثمانيِّين كان بورتر ينفِّذ فقط توجيهات الرئيس جاكسون التي مكَّنت الولايات المتحدة من إظهار نفسها بمظهر القوة الاقتصادية والصديق للشرق الأوسط. وللأسف، تولَّت إدارة جديدة حُكمَ الولايات المتحدة، وكان وزير خارجيتها رجلًا متعجرفًا ومتسلطًا. إنه دانيال وبستر، المناصر للهيلينيين ومنتقد الأتراك الذي لا يلين، وكان قليلَ الصبر بشأنِ ما كان يرى أنه تعصُّب عثماني. ومع انتقاده من جانبِ أحدِ رجال الدِّين بأنه باع روحَه للسياسة، فإن وبستر كان في الحقيقة على عكس ذلك؛ فقد كان عضوًا شرفيًّا في المجلس الأمريكي للتبشير بالخارج. وفي رأي هذا المجلس كان بورتر — وليس وبستر — هو الذي ركبه الشيطان برفضه حمايةَ المبشِّرين. وقال أعضاء المجلس إن هؤلاء الأمريكيِّين عاشوا دومًا في سلام باعتبارهم

«مواطنين من الفرنجة في بيروت» بدون أي محاولات لتحويل الموازنة أو خرق القوانين العثمانية. واقتنع وبستر بذلك؛ ففي رسالةٍ مؤلمة مؤرَّخة في ٢ فبراير عام ١٨٤٢ وبَّخ بورتر بسبب تقاعسه عن مساعدة المبشِّرين، وأمرَه «ألا يُغفِل أيَّ مناسبة … لمدِّ كلِّ سبل العون لهم».[18]

ترك هذا التوبيخ أثرًا سيئًا ومرارة في نفس بورتر، ولكن ليس لفترة طويلة؛ فقد توفي في العام نفسه عن عمرٍ يناهز ٦٣ عامًا. ولكن ميراثه استمر عن طريق العديد من أفراد أسرته — من آل بورتر وهيب وفاراجت وبراون — الذين أدَّوا أدوارًا رئيسية في الشرق الأوسط، وأيضًا في النماذج والمبادرات التي أسَّسها للعلاقات الأمريكية مع المنطقة. فبالإضافة إلى بيع الأسلحة وتعريف حكام الشرق الأوسط بالتكنولوجيا الأمريكية، دعم بورتر صورةَ أمريكا بوصفها قوةً في المنطقة تقف على قدمِ المساواة مع أوروبا، لكنها على عكس الأوروبيِّين لم يكن لها أيُّ مطامع فيها. وبفضل ديفيد بورتر حقَّقت الدبلوماسية الأمريكية خطًى واسعة في الشرق الأوسط مقارنةً بالأيام التي كان يُضطر فيها المبعوثون السرِّيون من أمثال جورج إنجليش إلى التسلل متخفين في شوارع إسطنبول، وإلى أن يديروا مفاوضاتهم في السر. ومع ذلك، ورغم نجاحه في تأسيس صداقة مع العثمانيين، فقد فشل بورتر في النهاية في الحفاظ على صداقة أبناء وطنه، الذين كانوا أنشطَ ما يكونون في المنطقة. فقد كان للمبشِّرين تأثيرٌ على العلاقات بين الشرق الأوسط وأمريكا ما قبل الحرب فاق تأثيرَ رجال السياسة والخدمات والتجار الأمريكيِّين.

الفصل السادس

المصير الحتمي للشرق الأوسط

الجرأة التي أظهرها المبشِّرون عند تحدي بورتر كانت دليلًا على ظهور تحالف جديد بين قادة الكنيسة ومتَّخذي القرار في الولايات المتحدة. فحركةُ التبشير كانت قد نمَت بصورة واضحة منذ أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر، عندما فشل أوائل مبعوثيها إلى الشرق الأوسط، ليفي بارسونز وبليني فيسك، في جذبِ متحولين إلى ديانتهم، ثم ماتا مِيتةً مؤلمة. وحتى الإنجازات المتواضعة لخلفاء فيسك، إسحاق بيرد ووليام جوديل وإيلي سميث، فيما يخصُّ تأسيس مدارس في سوريا كان من الصعب إرجاعها إلى قدرة المبشِّرين فقط، حيث لم يكن لها أي تأثير على السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. فالطريقة التي أُرسل بواسطتها مجموعاتٌ صغيرة من الرجال والنساء آلافَ الأميال تتخلَّلها مناطقُ وطُرق وعرة، هي التي أدَّت إلى نجاح تحويل علاقة بلادهم مع المنطقة بأكملها، وكذلك تغيير المنطقة ذاتها. ويُعتبر هذا الوضع قصةً مثيرة بحق. إنها ملحمة مملوءة بالمشقة والدماء.

قواعد انطلاق الشمس والصليب

في بداية عام ١٨٢٧ كان المبشِّرون قد نجحوا عن طريق مدارسهم في ترسيخ مركزهم في سوريا، ولكن الهدف النهائي لتحويل فلسطين إلى البروتستانتية كان لا يزال بعيدَ المنال. وفي تلك السنة قرَّر المجلس الأمريكي والجمعية النسائية للترويج للمسيحية ببوسطن أن يرسلا بعثةً أخرى إلى القدس، يترأسها قسٌّ في الثلاثين من عمره من بركيشايرز اسمه جوسيا برور. وقد قال عنه أحد أساتذته: «يتميز بهدوء الطبع والتواضع والقدرة على إصدار أحكام جيدة، وورعٌ وتقي لا تشوبه شائبة.» كُلِّف برور إذن باستكمال مهمة

بارسونز وفيسك، اللذين فشلا في تأسيس قاعدة دائمة في المدينة المقدَّسة، وأيضًا في البدء بتجميع اليهود معًا. «كانت أمهاتنا المهاجرات سيفرحن كثيرًا ... إذا عرفن أن ... بناتهن سيعاودن إرسالَ الإنجيل إلى القدس!» هذا ما أعلنه برور وهو يرحل من ماساتشوستس؛ فقد كان واثقًا بقدرته على استبدال «العلم الأبيض رمز السلام بالعلم العثماني الأحمر الدموي» على جدران القدس.

ولكنَّ السلام كان آخر شيء اكتشفه برور في فلسطين؛ فقد وصل إلى تلك البلاد بعد الهزيمة العثمانية المدوِّية في نافارينو عام ١٨٢٧، وكانت الهزيمة إيذانًا ببدء تفكُّك الدولة. وكانت الغالبية العظمى من الفلسطينيِّين المسلمين في ذلك الوقت لا يزالون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم رعايا للدولة العثمانية، ويدينون بالولاء لها، وكانوا لا يزالون يعتبرون كلَّ الغربيِّين، سواء الأمريكيون أو الأوروبيون، من «الفرنجة» الذين يهدِّدون الدولة الإسلامية. وباءت جميع محاولات برور بالفشل لإقناع السكان المحليين بأن البحرية الأمريكية لم تَعُد حتى موجودة بنافارينو، وبأن الولايات المتحدة تحترم السيادة العثمانية. ولم تقنعهم مظاهرُ الود والنيات الحسنة نحو الثقافة الإسلامية التي أظهرها برور أثناء توزيع نسخ من العهد الجديد. وبعد طرده من قريتين في منطقة طبرية، وبعد أن ملأ القُمل جسدَه وأصابت العلل جسده، بتَر برور مهمَّته. وعاد إلى بوسطن محاطًا بالخزي والعار والفشل.[1]

ومع ذلك فقد ظلَّ الأمل يراود المجلسَ الأمريكي في أن تُؤسَّس محطة أو قاعدة في القدس. وأشار كبار السن في المجلس إلى تحسُّن الأحوال في البلاد المقدَّسة منذ عام ١٨٣١، وهي السنة التي أرسل فيها محمد علي — مدفوعًا بغضبه بسبب رفض الدولة العثمانية تعويضَه عن خسائره في نافارينو — جنودًا مصريِّين لغزو سوريا وفلسطين. ومُنح المصريون — أصحاب الحداثة — مزايا غير مسبوقة للملل غير المسلمة في المنطقة، واستغلالًا منه لذلك الموقف الأفضل نسبيًّا، وافق المجلس على إرسال بعثة أخرى إلى فلسطين. واختير لقيادتها هذه المرة ويليام وإليزا تومسون، وهما زوجان شابان تقابلا في جامعة برينستون، بمدينة نيوجيرسي، حيث كان هو يدرُس الإنجيل وكانت هي تقوم بتدريسه. تزوَّج الاثنان عام ١٨٣٣ وتطوَّعا من فورهما مبشِّرَين.

لم يرحِّب جميع سكان فلسطين بإصلاحات محمد علي. فالأغلبية المسلمة عارضت الحقوق المساوية للمسلمين التي منحتها مصر للمسيحيِّين واليهود المحليين، وعارضت الانفتاحَ الذي أظهرته مصر تجاه الأجانب. وتصاعد الغضب ضد المحتلين، وبعد محاولات

لفرض الضرائب على الفلاحين المسلمين وتجنيدهم إجباريًّا في الجيش المصري، تحوَّل هذا الغضب إلى ثورة عارمة. ووصلت المجازر وحمَّامات الدم إلى قمتها في فلسطين عام ١٨٣٤، وتزامن ذلك مع وصول آل تومسون إلى القدس.

كانت إليزا عندئذٍ حاملًا في شهرها التاسع وغير قادرة على الهروب من المدينة. ولم يكن أمام ويليام تومسون من خيار سوى تركها بالمدينة ومحاولة العثور على أي مساعدة في يافا. وانتابه القلق وهو يسمع شائعات عن أعمال العنف بالمدينة قائلًا: «لم أسمع حرفًا واحدًا عن مسز تومسون منذ غادرت القدس.» كانت إليزا قد حبست نفسَها في المنزل، وقد أصابها الرعب من «زئير المدافع وتهدُّم الجدران وصرخات الجيران ورعب الخدَم والتوقُّع المستمر للمجازر». ومع ذلك، فقد أنجبت صبيًّا أسمته توماس. وعاد الأب في ٢٢ من يوليو، متتبعًا قافلةَ إمدادات مصرية، ليجد القدس أطلالًا وزوجتَه مريضة للغاية. ثم وافتها المنية بعد ذلك بأسبوعين.

وكتب تومسون في وصف فلسطين: «بلد مهدَّمة وبقايا بشَر. أما نهر الأردن فلا يستحقُّ حتى تسميته بنهر في أمريكا.» ولكن شكاواه لم تقلِّل من همَّة المبشِّرين الآخرين ومحاولتهم العملَ في القدس. فوصل جورج وايتنج وبيتسي تيلدن بعد فترة قليلة من وفاة إليزا تومسون، لكن لم يستطِع أيٌّ منهما تحمُّل المشقة وشظف العيش فيها. وتكشَّفت فلسطين الساحرة الواردة في الإنجيل عن «بلد للشياطين، ملعونة وغير مباركة» في رأي المبشِّر الرائد إسحاق بيرد. وبنهاية عام ١٨٣٤، اضطُر المجلس الأمريكي إلى الاعتراف بأنه لم يمكن «تحويل روح واحدة من الضلال إلى الهداية وطريق الرب». ثم قرَّر وقفَ أي رحلات تبشيرية إلى فلسطين. ومن هنا تحوَّل اهتمام المبشِّرين إلى موقعٍ آخر في الشرق الأوسط، ألا وهو على وجه الخصوص المنطقة التي تحيط بجبل لبنان.[2]

استمرَّت عائلتا بيرد وجوديل في التوسُّع في مدارسهما وبناء مدارس جديدة في بيروت وما حولها، ولكن الأحوال في المدينة بدأت في التدهور بعد الغزو المصري عام ١٨٣١. ونشِبت معاركُ بين الموارنة المساندين للمصريِّين والدروز الذين استمروا على ولائهم للباب العالي، مما نتج عنه تبادُل للنيران وصل إلى حدِّ خوف الأمريكيِّين من الخروج من منازلهم أو حتى الجلوس بقرب النوافذ. واستغل الموارنة أيضًا تلك الفوضى لزيادة لعناتهم ضد البروتستانتية وإظهار معارضتهم للمدارس البروتستانتية. واعترض ويليام جوديل قائلًا: «يُظهِر الأتراك … سماتٍ شخصية أفضلَ بكثير من المسيحيين. ففكرة التصرُّف بشرف تبدو بعيدة للغاية عن قلوب المسيحيين.» كان المبشِّرون منعزلين ومهدَّدين؛ لذلك انتهوا

إلى خلاصة أنه لا يمكنهم البقاءُ في لبنان. وبدءًا بعائلة بيرد جرى ترحيلهم على سفينة نمساوية، حتى تمكَّنت المجموعة كلُّها من الهرب.

أصبح الأمريكيون لا يحتملون الوضعَ في سوريا وفلسطين، ولكن في سميرنا، التي كانت مدينةً ذات أغلبية مسيحية، ومدخل المبشِّرين إلى الشرق الأوسط، كان الوضع أيضًا قد أصبح عدائيًّا. وكانت المحاولة الأولى لتأسيس قاعدة دائمة في سميرنا على يد متسلق الجبال الهاوي إلناثان جريدلي عام ١٨٢٦ قد فشلت بعد أن ذهب هذا القس الشاب لتسلُّق الجبال فأصيب بداء الرئة ومات. أما بديل جريدلي فكان دانيال تمبل، الذي ظهر في وصفِ أحدِ كتَّاب السيرة أنه كان «سوداويًّا غامضًا ومتعجرفًا»، وتقليديًّا محافظًا عنيدًا. لقد تسلَّق السلَّم من أوله من الفقر في الريف إلى الحصول على منحٍ في جامعات دارتموث وأندوفر. ولكن لا شيء في نيو إنجلاند كان قد أعدَّ تمبل للشرق الأوسط، حيث لقيت زوجته حتفها مسمومة هي واثنان من أطفالهما الأربعة. وعاد المبشِّر محطَّمًا إلى أمريكا، مع ابنيه الناجيَين، فكتب يقول: «مجرد فكرة تعليمهم في هذا الجزء المقفِر المحروم من العالم يثير أعصابي ويصيبني بالتوتر.»

ومع ذلك تمكَّن تمبل من التغلُّب على نفوره من الشرق الأوسط، وفي عام ١٨٣٣ أبحر مرةً أخرى إلى سميرنا، هذه المرة مع زوجته الجديدة ومعهما مطبعة. وسرعان ما كانت أناجيله وكتبه تدرَّس في مدرسة للبنات المسيحيات التي قام جوشوا برور بتأسيسها، وهو نفس الشخص الذي تراجع عن فلسطين قبل ذلك بخمس سنوات، وكانت تقوم على رعاية المدرسة في ذلك الحين جمعيةُ سيدات ميسوري في نيو هيفين. وتساءل برور: «إن لم يفتح السيفُ بابًا … أمام مبشِّر مسيحي في بلد مسلم، ألا يمكننا أن نأمُل أن يقوم بذلك التطوُّر التدريجي للحضارة؟» وقد وضحت الإجابةُ بحلول عام ١٨٣٨، وعندئذٍ كانت أكثر من مائتي فتاة قد سُجِّلن في المدرسة.[3]

ظل نجاح المبشِّرين في سميرنا استثنائيًّا، وظل انعدام الحد الأدنى من الأمان يقف عائقًا أمام مجهودات التبشير في أي بلد من بلاد العثمانيِّين الأخرى. لذلك وضع المجلس الأمريكي عينَه على منطقةِ ما وراء حدود الإمبراطورية، وهي منطقة بحيرة يورميا شمال غرب إيران، وعلى مجتمع المسيحيِّين السُّريان الذين كانت الشائعات تقول إنهم يعيشون هناك. ووقعت مهمةُ الوصول إلى تلك المجموعة الغامضة على عاتق هاريسون جراي أوتيس دوايت، وكان خريجًا حديثًا في جامعة أندوفر، كما وقعت أيضًا على عاتق المبشِّر

اللبناني الخبير إيلي سميث. فتقابل الرجلان في سميرنا في مايو ١٨٣٠، متخفِّيَين في عمامات وعباءات، وحدَّدا هدفًا لهما أن يصبحا «أول أمريكيَّين يَطآن أرضَ أرمينيا».

ولكن كان أمامهما طريق مملوء بالمصاعب والمشاق، توجَّها شرقًا نحو إرزوروم. وسارا ثلاثة أسابيع عبْر أراضٍ لا تصلها المياه، دون رؤية أي قرية. واشتكى سميث العالِم الضعيف البنية من اضطراره إلى النوم في حظائر الحيوانات، «محاطًا بكل أنواع القاذورات»، ومن اضطراره أيضًا إلى الاستيقاظ وهو يعاني حرارةً مرتفعة وعيناه كليلتان. ثم أصيب بمرض الكوليرا على أبواب مدينة تيفليس، ولم يَعُد يستطيع السيرَ، واضطُر دوايت إلى ربطه في عربةٍ يجرها حمار. وأخيرًا وصل الأمريكيان إلى هدفهما ودخلا أرميا منهكَين في مارس.

بدَت المدينة في البداية، مقارنةً ببيروت والقدس غير المستقرتين، وكأنها جنةُ عدن. فتحْت حكمِ أسرة قاجار المنفتحة نسبيًّا كانت فارس تعيش فترةً من الاستقرار الداخلي متحرِّرة من تدخلات القوى العظمى، مثل روسيا وبريطانيا. في أرميا وجد المبشِّران أن الحكومة لا تتدخل في العظات التي يلقيانها، وأن دِين السُّريان القائم على الإنجيل لا يختلف كثيرًا عن معتقداتهم. وعبَّر سميث عن سعادته قائلًا: «شعرت برغبة أكبر في الاستقرار بينهم فورًا ... أكثر من أي شعب آخر رأيته من قبل.»

بعد استقرارهما، أسَّس الأمريكيان مدرسةً، سرعان ما كان أربعون طالبًا يتلقَّون فيها دروسًا في الرياضيات والإنشاء باللغة الإنجليزية والترانيم. ووصل مبشِّرون جدد لدعم المحطة أو القاعدة الدائمة؛ جاستين وشارلوت بيركنز عام ١٨٣٢، وبعدها بثلاث سنوات وصل أساهيل وجوديث جرانت. وكان أساهيل في الثامنة والعشرين من عمره، من يوتيكا، نيويورك، داكنَ البشرة، متوسِّط الطول، وذا طاقة غير تقليدية، «كانت عيناه تلمعان، وكان تعامله لطيفًا مملوءًا بالحماسة». وكان أيضًا طبيبًا ابتدع تقليدًا للمبشِّرين، وهو تقديمُ رعاية طبية مجانية لشعوب الشرق الأوسط. في عامه الأول في أرميا، عالج جرانت عشرة آلاف مريض. وكان يتذكَّر بفخرٍ أن «المرضى والمشلولين والمكفوفين كانوا يتجمعون بالمئات، وسرعان ما انتشر صيتي إلى الخارج في البلاد المجاورة».

لم يُتِح صبرُ جرانت له علاج المرضى فحسب، بل أتاح له أيضًا فرصةَ استكشاف الأماكن المقفِرة في الجنوب وحتى كردستان، مواجهًا العصابات، بحثًا عن مزيد من السُّريان. وعندما عاد إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٠، أكَّد الطبيب للمجلس أن قاعدة أرميا تزدهر، وأنه يجب إرسال بعثة جديدة إلى ما يُطلَق عليه اليوم العراق. فوافق المجلس وأرسل كولبي ميتشيل وآبيل هندزديل مع زوجتيهما إلى الموصل.[4]

كان البروتستانت الأمريكيون قد سجَّلوا أولَ انتصار لهم في الشرق الأوسط بلا منازع، ولكن بعدها بدأت عدةُ كوارث معًا؛ أصابت حمَّى التيفويد آل ميتشيل بالاضطراب وشبه العمى، وكان ذلك بعد تعرُّضهم لعاصفة رملية. ومع أنَّ آل هندزديل تمكَّنوا من الوصول إلى الموصل، فإنهم كانوا غيرَ قادرين على القيام بأي نشاط بسبب سوء حالتهم. وبسبب الأمراض أيضًا توفِّيت إليزابيث دوايت وابنها جون وأطفال آل بيركنز الخمسة، وكانت شارلوت بيركنز تشكو الصرعَ، فعادت إلى الولايات المتحدة. أما سارة سميث، زوجة إيلي، فلقيت حتفَها في حادثة غرق سفينة قرب قبرص، وتوفيت زوجته الثانية، ماري وارد تشابين، بالدوسنتاريا.

واعترف إيلي سميث بكثير، وهو لا يشير إلى أرميا فقط، بل إلى الشرق الأوسط بأكمله فقال: «يُعَدُّ تدهور الصحة وقِصر الحياة من التضحيات الضرورية للعمل في مجال التبشير.» وكانت النساء — اللاتي ضعُفت صحتهن بشدة بعد ولادة الأطفال — يتعرضن أكثرَ من غيرهن لمشكلات صحية وللوفاة. فكتبت ماري فان لينيب، التي كانت قد غادرت هارتفورد، كونيتيكت عام ١٨٤٣ لتذهب إلى الأناضول: «أخشى أحيانًا أن يكون المرض عقابًا من الله بسبب عدم شكري للبركة التي منحها لي. وأحاول أن أصلي لكي أكون أكثرَ استعدادًا للمعاناة.» وكان المبشِّرون عرضةً لهجوم العصابات، ولم تكن الحكومة العثمانية تقدِّم لهم سوى حماية ضعيفة للغاية لا يُعتدُّ بها. وقال ويليام جوديل هازئًا تعليقًا على ذلك: «دائمًا ما تكون قبَّعة المرء أكثرَ أمانًا في الولايات المتحدة من رأسه بأكملها في تركيا.» ولكن ظل المرض هو أكثر القتلة كفاءةً، ومسئولًا عن معدَّل وفيات المبشِّرين الأمريكيِّين في الشرق الأوسط بصورة تعدَّت بكثير معدلات وفيات المستعمرين على الجانب الغربي. وكان ثلث المبشِّرين الذين غادروا الولايات المتحدة متجهين للشرق الأوسط بين عامي ١٨٢١ و١٨٤٦ قد توفُّوا أثناء خدمتهم. وتوفِّي معظمهم بعد وصولهم بفترة قصيرة. وكان يقال للمبشِّرين الشباب المغادرين: «تقترب ساعةُ الموت عندما تغادرون سواحل بلادكم، مع احتمال ألا تروها مرة أخرى أبدًا.» أما ماري فان لينيب فقد توفيت في السنة الأولى من وصولها.

إنَّ ما بدا رؤيةً براقة لقواعدَ دائمة تحت شمس الشرق الأوسط أصبح لا نتيجة له سوى المعاناة والموت، وبذلك تحوَّلت المحطات إلى قواعدَ تبشيرية. وحتى أساهيل جرانت لم ينجُ من هذا المصير. ففي فترة قصيرة فقدَ هذا الطبيب زوجته واثنين من أبنائه الثلاثة. لكنه تمكَّن مع ذلك من الاحتفاظ بإيمانه ومن تأسيسِ بعثةٍ قُرب الموصل، لكن تلك البعثة

أيضًا كان مصيرها الدمار. ففي أواخر ربيع عام ١٨٤٣ هاجم الأتراكُ والأكرادُ المواطنين السُّريان هناك، وقتلوا منهم ثمانمائة وشرَّدوا الآلاف. واعترض جرانت على اتهام المبشِّرين بأنهم هم مَن أثاروا هذه المذبحة وبدءوها، عن طريق تشجيع المجتمع إلى السعي وراء الاستقلال عن حكم المسلمين. وأعلن جرانت، وهو يجاهد من أجل تهدئة السُّريان، وربما نفسه أيضًا: «ليكن لنا عزاءً أننا كنَّا عاملًا محددًا ومؤثرًا — إلى حدٍّ ما — في إثارة الاهتمام بالصلاة ومغزاها.»

ولكن كيف تمكَّن المبشِّرون — في وجه كل تلك المتاعب والهزائم — من التمتُّع بهذا التأثير في الولايات المتحدة، وإلى حدٍّ بعيد، من تحديد سياسات بلادهم عبْر البحار؟ وما العوامل التي مكَّنت الأمريكيِّين من التعافي من هزائمهم المؤلمة، وإعادة تنظيم صفوفهم، وإعادة بناء كلِّ ما دُمِّر؟ قال دليلٌ عربي ذات مرة موبخًا ومنتقدًا مبشِّرًا كان قد وصل لتوه: «تعتقدون أيها الأمريكيون أن بإمكانكم القيامَ بأي شيء يمكن للمال شراؤه أو للقوة أن تحقِّقه. ولكن لا يمكنكم التغلُّب على الله تعالى.»[5] وكان القسُّ يتفق معه بالتأكيد على أن الله لا يمكن التغلب عليه، لكنه كان يؤمن أيضًا بأن التصميم والإرادة والثروة يمكنها أن تحقِّق المعجزات، خاصة في الشرق الأوسط.

انتفاض المسيحية

بدأت موجة التحوُّل للمبشِّرين عام ١٨٤٠، عندما قامت القوى الأوروبية — خوفًا على تكامل الدولة العثمانية وتماسكها — بطرد الجنود المصريِّين من سوريا وفلسطين. وأُعيد الاستقرار نسبيًّا إلى المنطقة، ولكن دون المساس بالحقوق التي مُنحت للأقليات تحت حكم محمد علي. بل على العكس؛ فتعبيرًا عن شكره للأوروبيِّين لإعادتهم أقاليمَه إلى دولته، تعهَّد السلطان عبد المجيد باحترام «حرية وممتلكات وشرف كل واحد من الرعايا، دون النظر إلى ديانته». وسمح للأجانب أيضًا بالإقامة بصورة دائمة في القدس، وجرى أخيرًا الاعترافُ بالمواطنين البروتستانت في الدولة باعتبارهم أصحابَ ملة شرعية. أما المبشِّرون، فلم تكن هذه التطورات إلا من عمل الرب. وقد قال أحدهم: «منذ سنوات قليلة كان لا يزال هناك تعصُّب عنيد … وروح لا تهدأ للمطاردة والفرقة، أما الآن فيوجد تسامحٌ وقبول تام!»

كان لتيسير المعوِّقات تأثيرٌ فوري على أنشطة المبشِّرين في سوريا وجبل لبنان. فتمكَّن آل بيرد وجوديل من إعادة ترسيخ وضعهم في بيروت، والترحيب بجيل جديد

من البروتستانت، بقيادة ويليام إيدي وهنري جيساب. وبعد عودته إلى لبنان قادمًا من أرميا بدأ إيلي سميث في إعداد ترجمة عربية للإنجيل، وفي تطوير أول مطبعة ذات حروف متحركة باللغة العربية، أسماها «الأمريكية العربية». وفي عَقد من الزمان كانت مطابع سميث تُنتِج خمسين ألف مجلد سنويًّا بأربع عشرة لغة محلية، تتضمَّن ترجماتٍ لكتاب «ابنة بائع اللبن» و«تقدُّم الحجاج»، اللذين كانا أول كتابَي قراءة للمرحلة الابتدائية. وكانت الهزيمة الوحيدة التي مُني بها سميث من محاولته مواءمة الموسيقى المحلية مع الطقوس الدينية البروتستانتية. واعترف بأنه «ليس وحدَه مَن وجد غِناء العرب غير موسيقي في آذانه، بل وجد الموسيقيون الغربيون أيضًا أنه ... من المستحيل ... تقليدُ نغماتهم».[6]

كان النجاح الجديد الذي حقَّقه المبشِّرون ناتجًا عن الظروف المحسَّنة في الشرق الأوسط، لكنه كان أيضًا نتاجًا للتغييرات الجذرية في الولايات المتحدة. فقد شهِدت فترة الأربعينيات من القرن التاسع عشر بزوغ أيديولوجية «القدَر الجلي»، وهي نسخةٌ أكبرُ وأكثر تطرفًا من ادعاء الكويكرز القديم بأن الرب منحهم حقًّا في أرض الميعاد الجديدة، الذي برَّر به الأمريكيون غزوهم لقارة أمريكا الشمالية كلِّها. وتحت هذه الراية، قام مواطنو أمريكا البالغ عددهم ١٧ مليونًا بالانتشار في ربوع الولايات الست والعشرين وفي المناطق الشاسعة غرب نهر الميسيسيبي وشمال نهر ريو جراندي، مقتلعين مجتمعاتِ الأمريكيِّين الأصليِّين من جذورها، ومطاردين المكسيكيِّين في طريقهم. ولكن كان لهذا المفهوم بُعد تعليمي على العالم أجمع. فحسب قول الصحفي النيويوركي جون أوساليفان، الذي وضع هذا المصطلح، فإن القدَر الجلي أوجب على أمريكا أيضًا أن «تؤسِّس على الأرض خلاصَ الإنسان وأخلاقياته» لنشر مبادئها الدينية والدنيوية في الخارج.

تواءم البُعد التعليمي العالمي لفكرة أو مبدأ المصير الحتمي مع حسِّ المبشِّرين بالهدف، وأعاد الطاقة والحيوية للحركة في أكثر نقاطها إظلامًا. وقال دوايت مارش، رئيسُ بعثة الموصل: «إن قدَر أمريكا مرتبط بقدَر العالم، ولن تكون أمريكا بمأمن إلا بخلاص الإنسانية.» وقد ألهمت التبشِيريين الحركةُ الدعوية المنتشرة بأمريكا وروحُ البحث العلمي التي شهدتها. كانت هذه هي أمريكا؛ المستحدثات العلمية الخارقة، وتكنولوجيا تشارلز جوديير للإطارات المطاطية، وحركة النُّحاس التي يُعتمد عليها للساعات التي اخترعها تشونسي جيروم. وكان من بين المنتجات الحديثة التي أدخلها المبشِّرون الأمريكيون

إلى الشرق الأوسط آلات التصوير وماكينات الخياطة وأداة ثورية للاتصال من اختراع ابن أحد أعضاء المجلس الأمريكي، هو صامويل مورس. وقد اعترف ويليام جوديل بأنه «يجب إعطاء صدمات للسكان المحليِّين؛ إذ تبدو تلك الصدمات وكأنها تحرِّكهم خطوةً للأمام نحو الألفية الجديدة».

ولكن الأكثر أهميةً من النواحي الفنية التقنية كانت صورة القوة العسكرية التي أظهرتها الولايات المتحدة في فترة المصير الحتمي، وقد أثَّرت في المبشِّرين كثيرًا. وكما أعلن إيلي سميث، فإن شعوب الشرق الأوسط «يجب أن تعلم أننا دولةٌ قوية، ولا توجد طريقةٌ أخرى لإعلامهم هذا إلا أن نُشعِرهم بذلك مباشرة». ومِثل المبشِّرين على الحدود الأمريكية، الذين كانوا يستعينون بمشاة الجيش الأمريكي عندما يتهدَّدهم خطر الهنود الحمر، كان سميث وزملاؤه من البروتستانت يستعينون بالحكومة الفيدرالية ودبلوماسييها وحتى بسفنها الحربية لحمايتهم من غضب الحكام المسلمين. فعندما جاء دابني كار خلفًا لديفيد بورتر سفيرًا لأمريكا في إسطنبول عام ١٨٤٢، أعلن عزمَه حمايةَ المبشِّرين «بكلِّ ما في وسعه»، وإذا اقتضت الضرورة «عن طريق استدعاء الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط كلِّه إلى بيروت». كان كار، أحدُ أحفاد توماس جيفرسون، ملتزمًا بما صرَّح به. فبعد سنة كانت السفينة «إنديبيندنس» تقوم بجولة كبيرة في الموانئ السورية والمصرية. وكانت الأوامر الصادرة إليها تقضي «بالاستعلام عن مدى الأمان والازدهار الذي تشعر به البعثاتُ التبشيرية ... وبمدِّها بكل المساعدات التي تطلبها».

كان امتزاج البعثات الدينية والسلطة الدنيوية علامةً من علامات فترة المصير الحتمي في كل من أمريكا الشمالية والشرق الأوسط. ومع ذلك وعلى عكس البعثات التي كثيرًا ما كانت تشكِّل نواةَ قلاعٍ ومدن المستقبل في الغرب الأمريكي، فإن المحطات أو القواعد الدائمة التي أسَّسها البروتستانت الأمريكان في الشرق الأوسط لم تكن قط نواةً لمطامع في أراضيه. ولم ترتبط قط بمصالحَ تجارية، كما كان الأمر مع المبشِّرين في هاواي. وكان غياب أي أجندة أو مطامع استعمارية أو اقتصادية هو ما يميز المبشِّرين في الشرق الأوسط، ليس عن زملائهم في الولايات المتحدة فقط، بل أيضًا عن الوعاظ الأوروبيِّين الذين كثيرًا ما كانوا عملاء لحكوماتهم في تلك البلاد. لذلك خلَص قنصل فرنسي في بيروت بعد تمحيص دقيق إلى أنه «مقتنع أن الدافع الوحيد لوجود الأمريكيِّين في الشرق الأوسط دينيٌّ بحت، وأنا ببساطة لا أرى أيَّ دافع سياسي خفي أو شرير».

كان المبشِّرون الأمريكيون في الشرق الأوسط يرون المصيرَ الحتمي ليس فقط نموذجًا لغزو المناطق، بل ضمانًا لجذب الأرواح والأذهان. واستمروا في الاستهزاء بالإسلام باعتباره دينًا رجعيًّا مضللًا، ورفضوا أيضًا كلَّ صور المسيحية الشرقية باعتبارها متخلِّفة وعفا عليها الزمن. كان منهجهم نحو شعوب المنطقة وثقافاتها مملوءًا بالعجرفة، مع أن تعاليهم كانت مشوبةً بطيبة القلب. وأمام حشدٍ من اللبنانيِّين الغاضبين، أعلن ويليام جوديل بكل صدقٍ «لقد جئنا بكلِّ ما أوتينا من طيبة قلب بغرض رفع شعوبكم ... من حالة الجهل والانحطاط والموت التي تعيشونها».

كان ملايين الأمريكيِّين في ذلك الوقت يساندون مجهودات الخلاص هذه. وبدءًا بحملات صغيرة بعد حروب البربر، ازدهرت حركةُ المبشِّرين في العقود الأربعة حتى وقت وقوع الحرب الأهلية، وتحوَّلت إلى شغفٍ على المستوى القومي. وانهال الدعم على البعثات التبشيرية ليس فقط من الكنائس عبر البلاد، بل أيضًا من الصحافة والكونجرس وحتى من البيت الأبيض. وبإلهام من رؤية المصير الحتمي، فإنَّ عمال المصانع والمزارعين وخريجي المدارس الصغيرة وخريجي الجامعات الرائدة، الشماليون منهم والجنوبيون على السواء، تطوَّعوا لمهامِّ التبشير بالبروتستانتية في الخارج. لذلك لم يكن هناك عامةً نقصٌ في المتطوعين. وربما يكون أكبر دليل على تأثير المصير الحتمي على مشروعات التبشير هو الميزانية السنوية للمجلس الأمريكي، التي ارتفعت من ١٠٠٠٠ دولار في عهد فيسك وبارسونز إلى ٢٥٠٠٠٠ بحلول منتصف القرن.[7]

كان تأثير الظروف المحسِّنة للمبشِّرين العاملين في الشرق الأوسط مع الحيوية التي عادت إلى حماسة البروتستانت أوضحَ ما يكون في حالة سيروس هاملين. فقد وُلد في ماين عام ١٨١١، وأصبح يتيمًا في سنٍّ مبكرة مما اضطره إلى العمل مساعدًا في المزارع. إلى جانب ذلك درس أيضًا، وفاز في النهاية بمنحة لكلية بودوين؛ حيث أصبح الطالب المفضَّل لهنري وادزورث لونجفيلو، وتخرَّج الأولَ على فصله. كان وسيمًا للغاية، وإن كان شاربه غريبًا للغاية أيضًا. لذلك كان هاملين يمثل نموذجًا لعصر المصير الحتمي. ولذلك أيضًا وصف بأنه «ذو إرادة حديدية، ينزِع إلى الشجار، وديكتاتور». لكنه لم يعمل بالوعظ الديني، بل أعدَّ نفسه للعمل في مجال التبشير، لكنه بيَّت في نفسه أن يجمع بين التبشير للبروتستانتينية وعبقرية عصر الثورة الصناعية. فالصناعة — عند هاملين — كانت أكثرَ من مجرد إجراء للإنتاج؛ بل كانت أيضًا أداةً لتطهير الأرواح. وصل هاملين إلى إسطنبول عام ١٨٤٠، وشرع فورًا في تعليم الشباب المحلي مبادئَ الرياضيات وقواعد اللغة الإنجليزية وتعريفهم ببعض طقوس المسيحية.

تزامن وصوله مع الانفتاح الذي قام به السلطان على الغرب. ونتيجةً لذلك، حصل هاملين على موافقةٍ بتأسيس مدرسته في بيبيك، التي تبعُد عن إسطنبول خمسة أميال. وفي بداية عام ١٨٤٢، كان هناك أربعون تلميذًا مسجَّلون في المدرسة، يقضون نصفَ اليوم في قاعات الدرس والنصف الآخر في تصميم أفران ومصائد للفئران ويعملون على تشغيل طواحين الدقيق. كانت المقاومة الوحيدة لهذا المنهج الحديث تأتي من البطريرك الأرمني، الذي كان معظم التلاميذ من رعيته، ومن المزارعين المسلمين الذين كانوا يلقون الحجارة على المدرسة، مما جعل بها «ثقوب»، على حدِّ قول هاملين. ومع ذلك فقد تمكَّن من إصلاح الخسائر ومن مصالحة البطريرك، وأخبر هاملين المجلس، وهو راضٍ تمامًا، أنه قد ترك أثرًا دائمًا على التعليم العثماني. وأثار روحًا عامة للفضول العلمي، وأكَّد أن «الشرق الراكد بدأ يتغيَّر»، ولكن دون أن يلاحظ كم هذا التغيير. لم يكن لدى هاملين أيُّ فكرة عن أن مدرسته المتواضعة ستتحول يومًا ما إلى أول جامعة تركية حديثة.[8]

تعافى المبشِّرون الأمريكيون تمامًا من وضعهم حيث شارفوا على الفَناء التام في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. وبنهاية فترةِ ما قبل الحرب كانت أحوالهم مزدهرة؛ إذ كان مئات المسلمين والمسيحيِّين واليهود يدرسون في مؤسساتٍ تبشيرية في جميع أنحاء الدولة العثمانية، ويقرءون كتبًا تُخرِجها المطابع الدينية الأمريكية، ويتشربون بالأفكار الأمريكية. وشرح المعلِّم المصري الرائد الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الوضعَ قائلًا: «هذا البلد (الولايات المتحدة) من أعظم الدول المتحضرة في العالم. فسكانها … قد حرَّروا أنفسهم من قبضة الإنجليز وأصبحوا أحرارًا ومستقلين اعتمادًا على أنفسهم … ومسموح لديهم باتباع كل العقائد والأديان.» واستجابةً لطلب السلطان عبد المجيد، قام المبشِّرون أيضًا بتأسيس مدرسة على الطراز الأمريكي للتدريب العسكري. وتمكَّن هؤلاء الضباط الشباب [الأتراك] — عن طريق المهارات اللغوية التي اكتسبوها — من قراءة أحدثِ النشرات العسكرية الأمريكية، بالإضافة إلى أكثرِ الأعمال إثارةً لجيفرسون وهاملتون وباين.

وبجانب محاولات تحويل أهالي الشرق الأوسط عن عقيدتهم وتعليمهم قام المبشِّرون أيضًا بتنوير أبناء بلدهم في الوطن. فعن طريق رسائلهم ومقالاتهم وتقاريرهم التي لا يُحصى عددها، قدَّم المبشِّرون البروتستانت للأمريكيِّين صورًا للحياة في الشرق الأوسط كانت أكثرَ تفصيلًا — وأقلَّ بريقًا — من أي قصص من الإنجيل أو من كتاب «ألف ليلة وليلة». وقامت المراسلات التبشيرية أيضًا بدور المصدر الرئيسي لإدوارد سالزبري

من جامعة ييل، الذي أصبح عام ١٨٤١ أولَ أستاذ أمريكي للغة العربية، وأصبح أيضًا أولَ أستاذ للجمعية الأمريكية الشرقية، التي أُسِّسَت في العام التالي بهدف دراسة ثقافات الشرق الأوسط القديمة والحالية. وانضم سالزبري بدوره إلى المبشِّرين في الترويج للتعليم التقدُّمي في سوريا وغيرها من الأقاليم العثمانية. وقد شهِد هذا العالم بأن «بلاد الغرب، ومنها بلادنا نحن، تَدين بتنوُّع ثقافاتها للشرق، وقد آنَ الأوان لرد هذا الدَّين».

ومع إنجازاتهم المذهلة، استمر المبشِّرون في مواجهة عدة أخطار في الشرق الأوسط، وفي معالجة إحباطات يومية. فاشتكى ويليام إيدي المقيمُ في بيروت على سبيل المثال من «عدم وجود سكك حديدية هنا؛ فتُنقل الأحمال والأفكار عن طريق قوافل الجِمال». ولم تأتِ أكبر المعارضات للمبشِّرين من الشرق الأوسط، بل من المجلس الأمريكي ذاته. إذ استشعر الكثيرون من كبار السن فيه أن التركيزَ على الكتب المدرسية والطب قد حجب الهدف الأساسي من البعثات التبشيرية، وهو الخلاص. وخلَص الدكتور جون ثورنتون كيركلاند، الرئيسُ السابق لجامعة هارفارد، بعد زيارة لسوريا عام ١٨٤٢ إلى أنه «إذا قُدِّمت المسيحية للبشَر بصورتها البسيطة دون تقنيات المدارس، فقد تلقى قبولًا أكثرَ وأشمل». وأجاب المبشِّرون بأن هذه الخدمات تساعد على كسب ثقة السكان المحليِّين، مع تهيئة الأجواء الفكرية والمادية التي قد تدفعهم إلى التحول إلى البروتستانتية في المستقبل. وكان لكيركلاند زوجةٌ، هي إليزابيث التي سنتعرَّف عليها باعتبارها رحَّالة رائدة إلى الشرق الأوسط، اختلفت إليزابيث مع زوجها ومع المجلس، وانحازت إلى جانب المبشِّرين. وأكَّدت ذلك بقولها: «هؤلاء الناس (تقصد المبشِّرين) قد وجَّهوا اهتمامهم نحو تأسيس المدارس كإعداد وتمهيد (لأهل تلك البلاد) لدخول المسيحية. وبصورةٍ عامة فإنَّ المبشِّرين الأمريكيِّين يحظون بدرجاتٍ قصوى من الاحترام.»[9]

ولم يحسِم هذه المسألةَ المجلس الأمريكي ولا المبشِّرون، ولكن حسمتها شعوب الشرق الأوسط، عن طريق مطالباتها المتصاعدة بالتعليم الحديث وخدمات الرعاية الصحية. ومع عدم استجابتهم لرسالة المبشِّرين الدينية، فإنهم ظلوا على تقديرهم لأعمالهم الخيرية وتقبَّلوا وجودهم بينهم. واستغلالًا لذلك الانفتاح، أصبحت أعداد متزايدة من الأمريكيِّين تتبع مشاعرها التلقائية إلى المنطقة. وكان من بينهم نوعان من الأنماط الممتزجة، المبشِّر العالِم، والمبشِّر الجندي، وكان كلاهما يرحل إلى الشرق الأوسط، الذي أصبح أكثرَ المناطق تقديرًا من قِبل الأمريكيِّين، بحثًا عن المعرفة وقدسية الحياة.

مغامرات في الجنة المقدَّسة

تمطَّى الراكب على سَنام الجمل ونظر إلى الأجواء الحارة المترِبة مضيِّقًا عينيه. لم يكن بالمغامر التقليدي، فلم يكن عريضَ الصدر كجون ليديارد أو مهيبًا كجورج إنجليش، كان إدوارد روبنسون في السادسة والأربعين، بدينًا قصيرَ النظر، وكان أستاذًا للكتابات الدينية بكلية الوحدة للدراسات الدينية بنيويورك. ومثل سراب الصحراء الخادع، كانت صورة روبنسون كرجل ضعيف صورةً خاطئة للغاية. بل الواقع أنه كان قادرًا على ركوب الجياد ثماني ساعات متواصلة تحت أشعة الشمس الحارقة وهو يراجع إنجيله وبوصلته. وكان قد قضى الشهر الأخير في عبور جبال سيناء الوعرة دون شكوى، منبهرًا «بغرابتها وعظمتها»، ومذكرًا نفسه أن هذه هي نفس القمم التي عبَرها موسى وبنو إسرائيل. وأخيرًا، في مارس ١٨٣٨ استعدَّ روبنسون للخروج من الصحراء ودخول بلد «رومانسي ومثير». نظر من نظارته المتَّسخة، فرأى المياه اللازوردية لخليج العقبة. أما وراءها فرأى أرض اليهودية، واعترف قائلًا: «مع أنني لست عاطفيًّا، فإنني لم أستطِع منعَ نفسي من الانفجار بالبكاء.»

كان روبنسون جزءًا من طابور طويل من الأمريكيِّين الذين كانوا يأتون أفواجًا إلى البلد المقدَّسة في الحِقب السابقة على الحرب الأهلية. وللتكيُّف مع هذه الكثافة، عيَّنت الولايات المتحدة وكلاء قنصليِّين في ست مدن فلسطينية رئيسية، مما جعله أكبرَ تمثيل لبلدٍ غربي في المنطقة. ولكن كانت هذه القنصليات متخمةً بهجوم من المبشِّرين والسائحين والمستعمرين والباحثين، وكلهم منجذبون إلى خبر التسامح الذي يُعامل به الأجانب في فلسطين، وبسبب الوصف المبهر لعجائبها.

كان الكثير من تلك الروايات — على أقلِّ تقدير — مبالغًا فيه؛ فقد كتب ويليام تومسون، المبشِّر الذي تحدَّثت رسائله بقسوة عن فلسطين وتركَ البلاد لاحقًا ليذهب إلى بيروت، كتب كتاب «البلد والكتاب»، وهي قصة حماسية مبهجة، بها العديد من الصور المثالية. فقد ادَّعى فيها أن بلد الإنجيل هذا لم يَعُد مقفِرًا وقاسيًا، بل جنة «من الجبال الشاهقة، المغطاة بالثلوج، ومن سهولٍ مغطاة بأزهار نضرة، بالإضافة إلى بحيرات وأنهارٍ ومجارٍ مائية جرى تعميدها بالجمال». بيع من هذا المجلَّد ثلاثون طبعة في الولايات المتحدة، وساعد على تثبيت الخيالات الشبيهة بالأحلام المحيطة بفلسطين، ولكن هذه الأجواء الغامضة كانت سريعًا ما تختفي وتتبخَّر عندما يصل الأمريكيون ويواجهون واقعًا أكثرَ كآبة، وقال القنصل الأمريكي في يافا تعليقًا على ذلك: «لا توجد دولة أخرى في

العالم ... كُتب عنها مثل هذا الكمِّ الكثير، وعُرف عن حقيقتها هذا الكمُّ القليل»، ملاحظًا «الحالةَ الشديدة الإثارة من التوقعات والخيالات» عن فلسطين، التي كثيرًا ما دفعت أبناءَ وطنه إلى ما عُرف بـ «كآبة ما بعد الحج».[10]

ولكن إدوارد روبنسون كان يمثِّل استثناءً لتلك القاعدة. فمع أنه كان من الأبرشانيين، فإنه لم يسمح قط للمعتقدات الدينية أن تحجُب حكمه العلمي. فقد نشأ طفلًا في مزرعةٍ بولاية كونيتيكت، وكان يحلُم بزيارة الأماكن المقدَّسة في فلسطين يومًا ما، وكشخص ناضج راشد صمَّم على التخلص من «هذا الكمِّ الضخم من التقاليد، الغريبة في مصدرها، والمريبة في سِماتها وشخصيتها» التي تحيط بتلك الأماكن. وكان التطهريون قد فرضوا خريطةَ إسرائيل القديمة على أرضهم الموعودة الجديدة أمريكا، وأصبح روبنسون الآن خلفهم ويسعى إلى إعادة التعرُّف على تلك الخريطة وحقيقتها التاريخية.

وبصحبة إيلي سميث، المبشِّر المتحدث بالعربية، توجَّه روبنسون إلى الشمال، عبر المنطقة المعروفة اليوم باسم الضفة الغربية. أصابه الريف الملوَّث «بالركود والظلام الأخلاقي» باكتئابٍ حقيقي، مِثله مثل طبيعة سكانه «الذين لا يمكن الاعتماد عليهم». ومع ذلك فقد كانت تلك المدن الحقيرة تبدو مألوفةً لروبنسون «وكأنها حُلم جديد يتحقق». وتضخَّم إحساسه بهذا الحُلم في ٤ من أبريل ١٨٣٨ — وكان يوم عيد الفصح — عندما قام مع سميث «مثل العبرانيِّين القدامى في وقت عيد الفصح اليهودي» بدخول القدس. كانت هناك مجموعةٌ من ثمانية مبشِّرين وعائلاتهم في استقبالهم، وكان هذا أكبرَ تجمُّع شهدته المدينة للبروتستانت.

ومع ذلك فلم يؤثِّر هذا في روبنسون، وفي فجر اليوم التالي كان بالخارج، مسلَّحًا بمقياس طوله مائة قدم، لقياس أسوار القدس. وباستخدام الإنجيل وغيره من كتبِ الحكايات الكلاسيكية كدليل، تعرَّف على بركة سلوان، وبالرغم من قِصَر نظره وجسده البعيد عن الرشاقة، فقد نجح روبنسون في الزحف مسافة ١٧٥٠ قدمًا في نفقٍ ضيق مملوء بالحجارة، ووصل إلى نافورة العذراء داخل المدينة القديمة. وتعرَّف أيضًا على موقع بقايا جسر ضخم، كان يوصل يومًا ما إلى معبد هيرود، الذي يُعرف اليوم باسم قوس روبنسون. خرج بعدها روبنسون إلى الريف، بحثًا عن المواقع التي وردت في الكتابات الدينية، عن قناعةٍ بأن أسماءها العربية الحالية تتضمَّن أصداءً من أسمائها العبرية الأصلية. وعلى ذلك وجد روبنسون في اسم القرية العربية «السموع» آثارًا من الاسم العبري أشْتَموع. ووجد أيضًا أن الجش هي التسمية العربية للاسم العبري جوش هالاف،

وأن الجب كانت جيبون؛ حيث تمكَّن يوشع من إيقاف الشمس. وأطلق أحدُ المبشِّرين على روبنسون لقب «المعلِّم الأكبر للقياس في العالم»، وذلك بعد أن تمكَّن من استعادة ماضٍ أسطوري، ورسَّخه في واقع اليوم.

كان إدوارد روبنسون قد قام برحلةٍ استكشافية ثانية إلى فلسطين عام ١٨٥٢، ونشر مجلَّدين ضخمين من أبحاثه، وأصبح بذلك أولَ أمريكي تمنحه جمعية لندن الجغرافية الملكية ميداليةً ذهبية. وأسَّس أيضًا حقلًا معرفيًّا جديدًا تمامًا، هو علم الآثار الإنجيلي، وهو علمٌ أمريكي خالص، ولم يكن هذا العِلم متاحًا للعلماء وحدَهم، بل لرجال الدين والعامة أيضًا. وجذب لفلسطين أمريكيِّين آخرين أيضًا، مزجوا بين عقيدتهم وإيمانهم من ناحية، وبين رغبة قوية في الاستكشاف، تمامًا مثل روبنسون.[11]

وكان ويليام فرنسيس لينش أحدَ هؤلاء الرحَّالة، وهو قائد بحري «ومسيحي جاد ومحب للمغامرة» جاب أمريكا الجنوبية والشرق الأقصى من قبل. وكان في نفس عمر روبنسون، أي في السادسة والأربعين، ولكنه كان رشيقًا وذا عينين حادتين، أي إنه كان صورةً مثالية للفيرجيني الشجاع. في مايو ١٨٤٧ كان الملل قد بلغ به مداه، بسبب غياب أي نشاط أو تحرُّك في حرب المكسيك؛ لذلك طلب لينش إجازةً لزيارة فلسطين. واقترح أن يكون أولَ غربي يبحر بطول نهر الأردن بأكمله، من بحيرة طبرية إلى البحر الميت، «للترويج لقضية العلم وتطوير خدمات البحرية الأمريكية». أما فيما عدا القيمة العلمية والدراسية والتحفيزية فكان لينش يأمُل في أن تقوي رحلته روابطَ أمريكا بالأرض المقدَّسة، وأن يحدُث عن طريقها الإسراع بالخلاص على مستوى العالم.

اختار لينش بنفسه طاقمًا مكونًا من خمسة ضباط وتسعة بحَّارة من «الشباب المفتولي العضلات المولودين في أمريكا والذين لا يتعاطون الخمر»؛ غادر لينش نيويورك متوجهًا إلى إسطنبول، وقدَّم نفسه في بلاط السلطان عبد المجيد وأحدَث ضجة برفضه خلعَ سيفه تحيةً للسلطان، ولكنه حاز رضا السلطان مرةً أخرى عندما قدَّم له كتيبًا به مجموعات صور للهنود الحمر هديةً من الرئيس جيمس بوك. ومقابل ذلك حصل لينش على فرمان أو قرار إمبراطوري يمنحه «حماية من العرب». ولكن القائد لم يعتمد على ذلك الضمان؛ لأنه عندما وصل إلى بيروت استعان بخدمات هنري جيمس أندرسون المبشِّر الطبيب. وفكَّر لينش: «في حالةِ إصابتي بطلقٍ ناري، لن يكون هناك غنًى عن الجراحة.» كما استأجر الأمريكيان عدةَ حراس من البدو أيضًا، واشترَوا ترسانةً من الأسلحة المختلفة.

حُمِّلت الأسلحة والأجهزة العلمية ومعدَّات التخييم على ظهور الدواب. من جمالٍ وغيرها، وشُحن قاربان من الحديد المجلفن على حاملات للسلاح، ثم رُبطت بظهور

الجمال. وبخروجهما من مدينة أيكر الساحلية، مضت هذه القافلة العجيبة مسافةَ ثلاثين ميلًا في ريفٍ رأى الأمريكيان أنه مقفرٌ بدرجة كئيبة وغير مأهول بالسكان. ومع ذلك فقد أصرَّا على الاحتفاظ بمعنوياتهما عالية، عن طريق غناء «فلتحيا كولومبيا» (هيل كولومبيا) وأغنية «يانكي دودل» وأغنية «العلم المملوء بالنجوم» (ذا ستارسبانجلد بانر)، بالإضافة إلى معاقرة الخمر بين الحين والآخر. وكتب إدوارد مونتاجو أحد البحَّارة: «نحن الأمريكيِّين لا نتردَّد ولا نخاف؛ فنحن لا نخشى العرب المتجولين ولا تأثير الأمراض ... ولا حرارة الشمس ولا رياح الصحراء الخانقة.» كان الرجال مغرمين غرامًا خاصًّا بقائدهم، الذي قال عنه مونتاجو: «أحدُ أفضل الرجال وأكثرهم إنسانيةً وفكرًا وكرَمًا.» ووصفه أيضًا بأنه بطل «ذو روح وثَّابة يتميز بها أمريكيو المولد بصورة خاصة».

بدا الأمر وكأن لينش أيضًا سعيدٌ بكلِّ ما يراه، من العَلم الأمريكي المرفرف فوق جنوده، إلى منظر بحيرة طبرية. وكانت مجرد فكرة أنه يسير على نفس السواحل التي وطئها يسوع المسيح ويلمس المياه التي سار عليها، تثيره وتملؤه بالفرح. تمامًا مثل كرَم الضيافة الذي أظهره له ولطاقمه المجتمع اليهودي القديم في مدينة طبرية. فقد دعا تاجرٌ غنيٌّ اسمه حاييم وايزمان الأمريكيِّين إلى الإقامة في منزله، واحتفى بهم ببذخ. وبعدها بأسبوع في ١٠ أبريل ١٨٤٨، ودَّع لينش ورجاله وايزمان واستقلوا القواربَ المصنوعة من المعدن.

يقول لينش: «لا بد أن المنظر من الشاطئ كان لا مثيلَ له. فالطاقم في قوارب حربية، وقلاعها الناصعة البياض مُشرَعة، وأعلامها ترفرف، وإيقاع الدفة منضبط ونحن نبحر على السواحل الخضراء الساكنة لبحيرة طبرية.» سُمِّي أحد القاربين بفاني ميسون على اسم ابنة وزير البحرية وسُمِّي الثاني فاني سكينر على اسم ابنة أحد كبار القادة، وكان تصميم القاربين المعدنيَّين يسمح لهما بمقاومة دوامات نهر الأردن الشهيرة وتياراته الجارفة. وكان هناك قاربٌ صغير بالإضافة إليهما، وأُطلق عليه اسم العم سام. لقد كان النهر بالفعل صاخبًا، وتجمَّعت جماهيرُ من السكان المحليِّين على الشاطئ للمشاهدة. ويتذكَّر لينش المحب للإثارة والمبالغة كيف كان هو وطاقمه «رحالةً مجهولين في بلاد موحشة مجهولة لا ترحِّب بهم»، حيث كانت «القبائل البربرية من العرب المحبين للقتال ... تدعو المرء تلقائيًّا إلى تحسُّس سلاحه ... أو القبض على مقبض سيفه».

ولكن العالِم لينش أرهق نفسه في تسجيل عمق النهر ودرجات حرارة مياهه، وفي وصف البيئة المحيطة. وحاول — مثل روبنسون — تحديدَ موقع الأحداث المذكورة في

الإنجيل بدقة، خاصة أماكنَ عبور بني إسرائيل إلى أرض كنعان أو المكان الذي صارع فيه يعقوب الملاك، مع أن النتيجة لم تكن دقيقةً بالمرة. وفيما حوله يتخيَّل لينش أن هناك «أراضيَ مملوءة بذكريات مقدَّسة، وآثار أقدام المسيح الفادي، التي غذَّتها الدماء، والتي أصبحت مباركةً بوجود قبره فيها».

مرَّت ستة أيام قبل أن يقترب البحَّارة المنهكون من أريحا، وكان لينش يؤمن أنه لا يوجد مسيحي زار هذه المنطقة منذ عصر الصليبيين، وأن احتمالات اعتداءات البدو كانت عاليةً للغاية. وفي حركة مناورة تعلَّمها من المقاتلين الهنود في الغرب الأمريكي، جمع رجاله وقواربه في دائرةٍ دفاعية. وقد أثبتت هذه المناورة أنه لا ضرورة لها. ذلك لأن المتطفلين الوحيدين كانوا بعضَ الحجَّاج المسيحيين، ومنهم اثنان من الأمريكيِّين كانا قد خلعا ثيابَهما ونزلا إلى نهر الأردن للاستحمام.

بعد ذلك أكملت المجموعة العشرين ميلًا الباقيةَ على وصولها لمحطتها؛ البحر الميت، وكتب مونتاجو يقول: «الرجال يمكنهم الطفو بسهولة على سطحه، ويمكنهم نتفُ ريش دجاجة أو قراءة الصحيفة وهم طافون.» أما لينش فلم يكن في حالة مزاجية جيدة، بل انتابته كآبة بسبب جفاف الصحراء من حوله وبسبب نقص المياه العذبة، فقال: «بالتأكيد وقعت لعنة الله على هذا البحر!» وكان عزاؤه الوحيد هو مياه عين جدي، التي أعاد لينش تسميتها «تكريمًا لأعظم الرجال الذين أخرجهم العالَم حتى الآن»؛ جورج واشنطن.

قضى لينش الأسابيعَ الثلاثة التالية في إجراء تجارب على مياه البحر الميت، التي اعتقد أنه قد يكون لها فوائدُ طبية، وقضاها أيضًا في استكشاف أطلالِ قمران وماسادا. ثم سار إلى الكرك في الأردن الحالية؛ حيث كان يوجد بعض المسيحيين، أبناء وأحفاد الصليبيِّين الذين افتخروا بغزوهم في يوم من الأيام، والذين كانت الأغلبية المسلمة تضطهدهم بشدة. ومع انشغاله التام فقد وجد لينش وقتًا للاستمتاع بليالٍ رومانسية في الصحراء، حيث «الخيام بين نيران الحراسة الموقدة، والجبال الداكنة في الخلفية، والنجوم فوقها والقوارب مربوطة إلى الساحل». وكان يتابع أخبارَ الوطن، عن طريق البريد الذي كان يصل إلى القنصل الأمريكي في القدس، فيوصله بدوره إليه؛ أحدُ تلك الطرود جاءه بخبرِ وفاة جون كوينسي آدامز، الرئيس الذي كان قد حاول فتحَ الشرق الأوسط أمام الأمريكيِّين قبل ذلك بعشرين عامًا. وبكى لينش قائلًا: «انسجمت فكرة الموت مع البيئة من حولنا؛ فأنزلنا الأعلام وساد الوجوم المكان.»

في ١٠ من مايو رفع لينش العلمَ نفسه على طوفٍ راسٍ في البحر الميت، وأمر بفك القوارب الحديدية. ثم توجَّه هو ورجاله شمالًا نحو القدس والناصرة وقيصرية. كانت

انطباعاته عن تلك المواقع وغيرها من الأماكن الشهيرة مشابهةً لانطباعات كثير من الحجاج الأمريكيِّين؛ مزيج من الاشمئزاز بسبب قلة الجَمال فيما حولهم، مع سمو روحي. وكان الطريق مرهقًا للغاية، فحين وصلوا إلى دمشق كان كل رجال لينش يهذون بسبب الحمَّى. أما الملازم أول ديل — أحدُ رجاله — فمات في منزل إيلي سميث ببيروت، ودُفن بجانب ويليام تومسون.[12]

عاد لينش إلى نيويورك وإلى استقبالٍ ممتزج غير متوقَّع. فالذين انتقدوا الرئيس بوك لإرساله الجيشَ الأمريكي ليحارب ضد المكسيك كانوا ينتقدونه الآن بسبب إهداره ٧٠٠ دولار من المال العام على رحلةٍ استكشافية أخرى لا ضرورة لها. ومع ذلك فقد حقَّقت مذكرات لينش عن الرحلة مبيعاتٍ هائلة. كان مجلَّدًا وصفيًّا وإرشاديًّا غريبًا، لكن نبرته كانت مملوءة بالعناد والإصرار. وكان المؤلِّف قاسيًا في رسمه صورةَ العرب، مدعيًا أن «حبهم الكبير للذهب ... الذي يستولون عليه من بين يدي الغريب غير المسلَّح، أو يقتنصونه من صديقٍ لا يتوقَّع منهم شرًّا»، ومع ذلك فقد دافع عن فلسطين بنفس الحماسة، مؤكدًا أن لها مستقبلًا اقتصاديًّا مبشِّرًا. وقدَّم لينش عدةَ أفكار لتطوير الأرض المقدَّسة، منها خطةٌ لإعادة تسكين الأمريكيِّين السُّمر في مزارعَ تؤسَّس في سهل الأردن. وكان مفتاح نجاح تلك البرامج هو الأمان، كما كان يؤكد. فكتب يقول: «خمسون من الفرنجة أقوياء الشكيمة مسلَّحون جيدًا ... يمكنهم إحداث ثورة في البلد كلها.»

واختتم لينش كتابَه بدعوة حماسية لإعادة اليهود إلى فلسطين. فالشعب اليهودي «مقدَّر له أن يكون أولَ عنصر من عناصر حضارة العرب»، ووسيلةً لإعادة إحياء المنطقة بأكملها. توسَّع الدكتور أندرسون — طبيبُ البعثة الاستكشافية — في عرض لينش، وتحت رعاية الجمعية الأمريكية للجغرافيا والإحصاء نشرَ طلبًا يدعو الولايات المتحدة إلى الترويج للاستعمار اليهودي في فلسطين. فقد قال: «التأثير اليهودي كان كبيرًا فيما يسمَّى المنطقة العربية السورية، وسيمنح دفعةً جديدة لتجارة الشرق، وتجارة العالم كله.»[13]

حان وقت العودة

الاقتراح القائل بأن تقوم الولايات المتحدة بمساعدة اليهود في العودة إلى فلسطين لم يكن جديدًا، ولم يُعَدَّ متطرفًا بصورة مُبالغ فيها في فترةِ ما قبل الحرب. فأفكار إعادة اليهود التي سادت بين الكنائس الإنجيلية في أمريكا الاستعمارية كانت قد تعمَّقت لدى عامة الناس. وفي حين ظلَّ الأساقفة والموحدون على رفضهم لتلك الفكرة، كانت جماعات

المنهجيِّين والأبرشانيِّين والمشيخيِّين قد تبنَّت الفكرة. وكان كثير من الأمريكيِّين يؤمنون بأن اليهود بدءوا بالفعل العودةَ إلى وطنهم، وهي منطقة قليلة السكان، أكَّد لهم المبشِّرون أنه يمكنها استيعابُ الملايين، وكانت المقولة الشهيرة للورد شافتزبري، الإصلاحي الإنجليزي المعاصر هي «وطن بلا شعب لشعبٍ بلا وطن». وقال قسُّ كونيتيكت توماس روبنز في مذكراته في يونيو ١٨٣٨: «تبدو هناك تحركاتٌ غير معتادة بين اليهود.» أما سارة هايت فهي امرأةٌ من لونج أيلاند رحلت إلى الشرق الأوسط في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وكانت مقتنعةً تمامًا بقُرب تجمُّع اليهود في فلسطين، وكانت تقول متنبِّئة: «سيأتي الله بشعبه المختار ... لإعادة بناء هيكلهم والتعبُّد فيه.» وكانت بذلك تتنبأ بما أسمته «انقضاء عهد الكفرة».

ظهرت الدعوة إلى عودة اليهود في أجلى صورها في فترةٍ ما قبل الحرب في دراسةٍ كُتبت عام ١٨٤٤، باسم «وادي الرؤية» أو «إحياء العظام الجافة لإسرائيل»، التي قام بها عالِم الإنجيل وأستاذ العبرية الشهير بجامعة نيويورك، جورج بوش. فقد انتقد فيها «العبودية والاضطهاد اللذين قرَّبا اليهود من التراب وأذاقاهم الذل» ودعا إلى «تحسين سُمعة اليهود بين أمم العالم» عن طريق إعادة تكوين دولتهم في فلسطين. هذه العودة لم تكن لتفيد اليهودَ وحدَهم، بل الإنسانية جمعاء، مكوِّنة «رابطةً للاتصال» بين الإنسانية والرب. وتنبأ بوش بأن ذلك «سينهي سوءَ سُمعتهم، وسيوضح ظاهرةً رائعة بين جميع الأمم والألسنة المختلفة التي تنطق بالحق». ولكن البعض انتقد هذا الكتاب، فانتقد «تقرير برينستون» ما أسماه «الاعتقاد في إعادة اليهود حرفيًّا التي ازداد تصديقُ وإيمان المسيحيِّين بها منذ سنوات». ومع ذلك فقد استمر قطاعٌ متزايد من الأمريكيِّين في تصديق جورج بوش — وهو جَد رئيسَين لاحقين يحملان الاسم نفسه — وحُلمه بدولة يهودية.

من وجهة نظر بوش — وكما كانت الحال مع معظم مَن آمنوا بعودة اليهود إلى أرضهم الموعودة — كان دور المسيحيِّين في إعادة تأسيس الكيان اليهودي يقتصر على الصلاة والدعاء، وفي أفضل الحالات تقديم «حوافز» ضرورية لليهود للعودة إلى فلسطين.[14] ولكن بعض أتباع هذا الفكر سعَوا إلى دورٍ أكثرَ إيجابية في إعادة توطين اليهود، فكانوا يسافرون إلى الأرض المقدَّسة، ويقيمون هناك، ويُعِدُّون العُدة لعودة اليهود.

أحدُ أمثلة ذلك النشاط قدَّمته إحدى أحدث الطوائف وأكثرها إثارةً للجدل، وهي طائفة المورمون. كان مؤسِّس الحركة، جوزيف سميث، مؤمنًا إيمانًا عميقًا بإعادة توطين اليهود، وأرسل عام ١٨٤١ مبعوثَه الشخصي، أورسون هايد، في رحلةِ حجٍّ إلى القدس.

فتسلَّق هذا الأخير جبلَ الزيتون، وأنشأ على قمَّته مذبحًا ودعا ربه أن «يعيد المُلك إلى بني إسرائيل، وأن يجعل القدس عاصمةً لهم، وأن يستمر شعبها في كونه مميزًا، أمةً وحكومة». وقد دمج المورمون فيما بعد هذا الدعاءَ في صلواتهم، وبنَوا في موقع المذبح الذي شيَّده هايد فرعًا لجامعة بريام يونج.

وأما واردر كريسون، فكان أكثرَ نشاطًا وأكثرَ اقتناعًا وتطرفًا من هايد، وقد أقام إقامةً دائمة في فلسطين، ووهب حياته لإعادة توطين اليهود. كان أبًا لستة أبناء يقيمون في فيلادلفيا، وكان في السابق من المورمون، وقبْلها من الكويكرز، وكان كذلك من الشيكرز. آمن كريسون بإعادة توطين اليهود في سن السادسة والأربعين، وكان ذلك عام ١٨٤٤. في تلك السنة، قابل كريسون موردخاي نوح، الذي كان قنصلًا في تونس من قبلُ، وكان قد بدأ حملةً لإعادة سيادة اليهود على فلسطين. جرَّب وفشل في دعوة أمريكيِّين يهود آخرين إلى مشروعه؛ لذلك بدأ في الترويج له بين المسيحيِّين. وتساءل: «أين يمكن أن ندعوَ إلى استقلال بني إسرائيل بثقةٍ أكبرَ عن مهد الحرية الأمريكية؟» تردَّد صدى التساؤل عند كريسون، الذي أصبح مقتنعًا بأن الله خلق الولايات المتحدة خاصةً لإنقاذ ودعم اليهود، وأن النسر الأمريكي — تحقيقًا لنبوءة إليشع — «سيغطي البلد بجناحيه». ثم أعلن أنه «لا خلاص لليهود، إلا بقدومهم إلى إسرائيل».

كتب كريسون من فوره لوزير الخارجية جون كالهون، وطلب أن يتم تعيينه قنصلًا في القدس. وتزامن هذا الطلب مع بحث وزارة الخارجية عن الدبلوماسيِّين المقبولين لدى المبشِّرين، وبعد الحصول على ضماناتٍ عن «نزاهة وكفاءة» كريسون وافق كالهون على تعيينه. كان كريسون ذا ذقن داكن وعينين نافذتين وأنف كبير؛ أي إنه كان يمثل الصورة المثالية لرسول متحمِّس. رحل كريسون بالسفينة في ٢٢ يونيو ١٨٤٤، حاملًا معه علمًا أمريكيًّا وحمامة بيضاء كان ينوي إطلاقَ سراحها عند وصوله. وتذكَّر قائلًا: «تركت زوجتي التي تزوجتها في شبابي … وستة أطفال أحياء، ومزرعة ممتازة. كل شيء كان مريحًا حولي. ولكنَّ نور وعد الله الثمين … (في إشارة إلى عودة اليهود) أصبح مضيئًا … لدرجةِ أنني لم أستطِع البقاءَ في الوطن».

وصل كريسون إلى فلسطين، واستقر في القدس، مؤسِّسًا «ختمًا قنصليًّا»، ومدَّ مظلة الحماية الأمريكية على يهود المدينة، الذين كان الكثيرون منهم علماءَ فقراء يعتمدون على المساعدات والجمعيات الخيرية من الخارج. في تلك الأثناء كان كالهون قد علِم من مصادرَ في فيلادلفيا أن كريسون «ضعيفُ العقل» وأن «البقية الباقية من عقله مشوَّشة

إلى حدٍّ كبير». وهو ما أدَّى إلى إلغاء تعيينه قنصلًا. وبمنتهى البساطة تجاهلَ كريسون الأوامر، واستمر في مساعدة اليهود. وخلال اجتماعٍ مع المؤلِّف الساخر البريطاني ويليام ثاكيري، وهو مؤلِّف كتاب «فانيتي فير»، شرح كيف ستقوم بلاده عما قريب — بالتنسيق والتعاون مع القوى الأوروبية — بالتدخُّل لضمان تأسيس دولة مستقلة لليهود. فكتب ثاكيري: «كريسون ليست لديه أيُّ معرفة بسوريا إلا ما يستقيه من النبوءات، وأنا أشكُّ في أن تكون أيُّ حكومة قد استقبلت أو عيَّنت سفيرًا أو قنصلًا بهذا القدْر من الغرابة».[15]

استمرَّ كريسون في إبهار زوَّاره برؤًى للدولة اليهودية وبسلوكياته الغريبة الشبيهة بالغياب عن الوعي. ولكن كريسون لم يكن الأمريكي الوحيد المؤمن بعودة اليهود إلى وطنهم، ولم يكن كذلك بالضرورة أكثرَهم غرابةً. وبنفس القدْر من الغرابة وعدم التقليدية كانت هارييت ليفرمور، كاتبة الروايات والمغنِّية والشاعرة والواعظة المبشِّرة بعودة اليهود.

كانت ليفرمور ابنةَ عضو مجلس النواب عن نيو هامبشاير، وقد تحوَّلت من فتاة تتشبَّه بالرجال إلى آنسة بريئة، تتميز بالأناقة والعيون الداكنة، وفي سنواتِ ما بعد حرب ١٨١٢ رفضت طابورًا طويلًا من الشباب المتقدِّم للزواج بها. ولما رُفضت بدورها من طبيب شاب بالجيش، يئست تمامًا من خوض أي تجربة رومانسية، بحثًا عن حبٍّ أكبرَ وأسمى. فقالت: «تعبت من العالم، ويئست من أي أمل في سعادة دنيوية، ثم اتخذتُ قرارًا ... أن أصبح متدينة». أخذها هذا القرارُ أولًا إلى الأبرشانية، ثم المشيخانية، فالكويكرز، لكنها لم تقتنع بأيٍّ منهم، فاتجهت إلى المعمدانية وأسَّست طائفةً خاصة بها، أسمتها الحاج الغريب. آمنت ليفرمور بأنها صاحبةُ قدرة على التنبؤ بالمستقبل، وأنها مبعوثة إلى الهنود الحمر، الذين آمنت أنهم من نسل الأسباط العشرة التائهة. ظهرت هذه وغيرها من الأفكار التي لا أساسَ لها في روايتها «دلائل من الكتب الدينية لصالح شهادة المرأة في الاجتماعات»، التي موَّلها بعضُ أهالي واشنطن ذوي النفوذ، ومنهم عضو مجلس الشيوخ جون تايلر ودوللي ماديسون. ووصلت تلك الطائفةُ إلى قمَّتها في عام ١٨٢٧، عندما خطبت ليفرمور في كلٍّ من مجلس الشيوخ ومجلس النواب. وقال جون كوينسي آدامز عنها: «إنها أكثرُ الخطباء الدينيِّين الذين سمِعتهم في حياتي بلاغةً. فلا توجد كلمات يمكنها أن توفيَها حقَّها من حيث إثارتها للمشاعر والأحاسيس».

حدَثت نقطة التحول في حياة ليفرمور بعد عشر سنوات، عندما جذبتها تقاريرُ عن إعادة توطين اليهود في فلسطين إلى الشرق الأوسط. فتسلَّحت بخطابٍ من وزارة الخارجية، يشهد «بنزاهتها واستقامتها الدينية والأخلاقية»، وزارت ديفيد بورتر في إسطنبول، ثم

استقلَّت سفينةً بخارية إلى بيروت. في جنوب المدينة، في جبال صيدا، توقَّفت لزيارة السيدة هيستر ستانهوب، وهي سيدة بريطانية انطوائية في الخمسين من عمرها، كانت تعمل من قبلُ سكرتيرةً لخالها رئيس الوزراء، ويليام بيت. كانت ستانهوب أيضًا قد انتقلت إلى الشرق الأوسط أملًا في التشجيع على إعادة توطين اليهود في فلسطين. لكنها يئست من نجاحها في تلك المهمة، فاستأجرت قلعةً صليبية وأطلقت على نفسها «راهبة لبنان». ولأنهما كانتا من الجميلات في السابق وممن آمنوا بإعادة اليهود إلى موطنهم كان يجب أن تتفاهم السيدتان سريعًا، لكنهما تعاركتا حول أي منهما هي المختارة حقًّا، وأيهما ستصاحب الربَّ عند دخوله منتصرًا إلى القدس.

من صيدا تابعت ليفرمور رحلتها إلى المدينة المقدَّسة، فاستأجرت سكنًا متواضعًا فوق جبل صهيون. ومن هناك خطَّطت للإشراف على بناء مستعمرة تعليمية لليهود العائدين. ومثل الكثيرين من المؤمنين بالعودة، شاركتهم ليفرمور في فكرةِ أن كل الدول تتطلب أساسًا زراعيًّا، وأن المسيحيِّين لديهم واجبٌ ديني هو إعادة تعريف اليهود بالزراعة. سعَت ليفرمور إذن إلى رؤية المستعمرة كاملة ومنتهية، ثم إلى تخصيص حياتها للعبادة والتأمُّل «لمواجهة مصيرها ... وهو الشهادة».

ولكن كان تمويل المستعمرة أكثرَ إرهاقًا وتكلفةً مما تنبأت به ليفرمور ومما توقَّعته، وسرعان ما نضبت مواردها. وبسبب رغبتها في «ما يقيم أودَها ويسدِّد ديونها ويعيدها إلى جبل صهيون فقط»، حاولت ليفرمور توزيعَ نسخ مطبوعة من محاضراتها وعِظاتها، ولكن الأمر انتهى بتسوُّلها في شوارع وطرقات مدينة القدس. غير أن التسول لم يُجدِ نفعًا. وغادرت ليفرمور فلسطين وهي على شفا الموت جوعًا، عائدةً إلى الولايات المتحدة منكسرةَ الخاطر. وتوفيت في عام ١٨٦٨ — شهيدةً بالفعل بالنسبة إلى البعض — في بيتٍ للفقراء بمدينة فيلادلفيا.[16]

ولكن ظلَّت فكرةُ عودة اليهود حيةً بوضوح، تمامًا مثل رؤية تحويل اليهود الذين كان معظمهم من أهل المدن إلى مزارعين فلسطينيِّين. وفي حين كانت أحوال هارييت ليفرمور تتدهور في القدس، وصل واعظٌ أمريكي آخرُ إلى المدينة، وكلُّه حماسة لبدء مشروع بناء المستعمرة. كان جيمس تيرنر باركلي طويلًا مهيبًا، لكن البعض كان يصفه بأن «له جرائم متواضعة». كان رجلًا من عصر النهضة — طبيبًا ومخترعًا ومهندسًا. وكان الناس ينبهرون بخطِّه، الذي وصفه أحدُ المصادر بأنه قادر على أن يكتب صلوات الرب بحروفٍ بلغ من صِغرها ودقَّتها أنه يمكن «كتابتها كلها على عملة من فئة الخمسة

سنتات». وجاءت أهم إنجازات باركلي سلبًا في عام ١٨٣١، عندما اشترى مونتيتشيللو، وهي مزرعة جيفرسون الكلاسيكية، التي كان قد أصابها التدهور والدمار منذ زمن. حاول باركلي إعادةَ إحياء المزرعة من خلال إنتاج الحرير، لكنه فشل فشلًا ذريعًا. ومن بعدها اتَّجه للدين. فأصبح مشيخانيًّا، ثم انضم إلى طائفة أتباع كمبل، وهي حركة ألفية، تهدُف إلى إعادة حكم المسيح على الأرض. ومن أجل تحقيق هذا الهدف رحل باركلي في عام ١٨٥٠ إلى فلسطين.

ومثل ليفرمور سعى باركلي إلى تأسيس مستعمرة لإعادة تعليم وتأهيل اليهود للزراعة. لكنه سرعان ما واجه نقصًا مشابهًا في التمويل والموارد. أصابه الإحباط، فعاد أدراجه إلى ممارسة الهندسة، وحصل على عملٍ في ترميم قبَّة الصخرة. كما ألَّف كتابًا حقَّق مبيعات عالية، بعنوان «مدينة الملِك العظيم»، وفيه وصف مدينة القدس — تمامًا مثلما فعل ويليام تومسون قبل ذلك، كان وصفه مبهرًا، وأخذ من خلاله يدعو إلى فكرة إعادة توطين اليهود، تمامًا مثلما فعل جورج بوش من قبله. وأكَّد أن «الرب لم يطرد أبناءه (اليهود) الذين اعترف بهم من قبلُ؛ وكذلك يجب أن نفعل نحن أيضًا». بل كان رأيه أن المسيحيِّين يجب أن يتبنَّوا اليهود، قائلًا: «سنقف إلى جانبكم؛ لأننا سمِعنا أن الربَّ معكم».[17]

ساعدت مثل هذه الدعوات على صرفِ الانتباه عن فشل أصحاب دعوة عودة اليهود في تأسيس مركز دائم في فلسطين للمساعدة في إعادة اليهود إلى موطنهم، كما آمنوا. وقد سعى بروتستانت آخرون إلى تحقيق النجاح فيما فشِل فيه ليفرمور وباركلي، وإلى استكمال بناء المستعمرات في الأرض المقدَّسة. كان أكثر تلك الشخصيات لفتًا للأنظار وأكثرهم عنادًا وإصرارًا هي كلوريندا ماينور. كانت تابعةً للطائفة الأسقفية طوال عمرها، ومتزوجة من رجل أعمال ثري من فيلادلفيا، وفي مرحلة منتصف العمر أصبحت ماينور من السبتيِّين (المجيئيين)، ثم بدأت في الاستعداد لليوم الآخر. وفي ملاحظةٍ لها قالت: «يُظهِر عددٌ كبير من المسيحيِّين الكثيرَ من التعاطف نحو اليهود، وينتظرون ... الزمنَ المحدَّد لدعم صهيون». وحسبت ماينور «الوقت الموعود» فتوصَّلت إلى أنه «وشيك»، وفي عام ١٨٥١ تركت زوجَها وأبحرت إلى فلسطين، قائلة: «كانت قناعةُ روحي تزيد في كل ساعة أن الرب يناديني للذهاب!»

بعد الوصول إلى يافا بقليل، قابلت ماينور جون ميشولام، وهو يهوديٌّ بريطاني كان قد تحوَّل إلى المسيحية، وكان يشارك ماينور رغبتَها في تعريف اليهود «بأنشطة محبَّبة».

ولكن جهودهما — مثل سابقيهما — توقَّفت بسبب نقص التمويل. وعلى ذلك توجَّهت ماينور إلى أصدقائها في الولايات المتحدة، الذين أجابوا طلبَها بإرسال سبعة متطوِّعين، وخيام وأدوات وبذور وأدوية بقيمة ٢٥٦ دولارًا. فجرى شراء قطعة أرض قابلة للزراعة بالقرب من قرية أرطاس، بالقرب من بيت لحم، وأُسست مدرسةُ الزراعة للأعمال اليدوية لليهود في الأرض المقدَّسة. كما قدَّم البارون موسي مونتيفيوري، وهو رجل خيِّر يهودي من أصول إنجليزية، دعمًا إضافيًّا لهما؛ لأنه كان يرحِّب بأي مساهمة في تأسيس مستعمرة يهودية في فلسطين. وقد تنبَّأت ماينور في كتابها «مدٌّ من القدس» الذي حقَّق مبيعات ضخمة، تنبَّأت بأن «زمن دعم الرب لصهيون قد آنَ، وأن الرب سيمُدُّ يده مرةً أخرى لإعادة مجدِ بني إسرائيل». وقد بدا وقتَها أن نبوءتها ستتحقق.[18]

ولكن خلال سنتين، كانت مجموعة أرطاس قد تفكَّكت. وقد حدَث الشِّقاق أولًا بسبب رفض اليهود إظهارَ ولو قدرًا ضئيلًا من الاهتمام بالزراعة، ولكن السبب الأكثر تأثيرًا الذي قضى على المشروع تمامًا، كان الخلافَ الذي نشأ بين ماينور وميشولام. ورغم ذلك ظلَّت «تابيثا الحديثة» — كما كانت ماينور تسمَّى أحيانًا — على تفاؤلها، فانتقلت من أرطاس إلى مزرعةٍ صغيرة خارج يافا، وأسمتها «جبل الأمل». وأهداها مونتيفيوري بستانَ برتقال، فتمكَّنت من العيش بصعوبة، بمساعدة اثنين من المبشِّرين الألمان، هما يوهان وفريدريش جروسشتاينبيك. وبثَّت رسالةً إلى اليهود الأمريكيِّين عبْر جريدة «أوكسيدنت» اليهودية قائلة: «إذ أمكن لأصدقائنا العبريِّين في الولايات المتحدة أن يساعدونا، فسنقدِّم لهم ... حسابًا تفصيليًّا لكل نفقاتنا. لا تضيعوا الفرصة، ولا تتركوا المعذَّبين للفَناء». ولكن وصلتها عدةُ تبرعات زهيدة فقط. وعلى ذلك فشِلت فكرةُ المزرعة، وأشهرت ماينور إفلاسها. ثم ماتت في عام ١٨٥٥ عن عمرٍ يناهز التاسعة والأربعين.

ورغم ذلك ثابرَ بعض البروتستانت الآخرين. فبعد وفاة ماينور اشترى مزرعةَ «جبل الأمل» واردر كريسون، وهو قنصلٌ عيَّن نفسَه بنفسه، وكان شخصيةً لها بعض السِّمات الخاصة المختلفة عن غيرها، ورأى كريسون في مستقبل المزرعة «مزرعة أمريكية نموذجية» لتعليم اليهود كيفيةَ زراعة الأناناس والموز والليمون. قريبًا منهم كان والتر ديكسون من مدينة جروتون بماساتشوستس قد أسَّس مستعمرةً أخرى لليهود. كان ديكسون قد عيَّن الأخوين جروسشتاينبيك اللذين كانا قد تزوَّجا ابنتيه ألميرا وماري. وبسبب تكرار مطاردة البدو لهم سعَت البعثة الأمريكية الزراعية — كما كان ديكسون يطلِق على مشروعه — إلى طلب المساعدة من البحرية الأمريكية، التي استجابت بإمداده

ببعض الأسلحة والذخائر. وبذلك أُبعِد هؤلاء المتطفلون مؤقتًا، وتمكَّنت المستعمَرة من البقاء والاستمرار.[19]

على مدى أربعين عامًا، بدءًا بليفي بارسونز وبليني فيسك في عام ١٨١٩، استمر الأمريكيون في بذلِ مجهوداتهم لبثِّ دعائم إيمانهم وقناعاتهم الدينية والدنيوية في الشرق الأوسط، في بعض المناطق البعيدة منها، وفي قلب فلسطين أيضًا. ولكنهم لم يكونوا الوحيدين في هذا المجال. فالمبشِّرون من فرنسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا كانوا قد اقتحموا المنطقةَ أيضًا، مؤسِّسين مدارسَ ومستشفيات ومستعمرات. وقد اشتكى البروتستانتي ويليام إيدي من لبنان من أن «أوروبا تسعى للتفوق على أمريكا في التعليم والوعظ في هذا البلد». ولكن لم تستطِع أيُّ دولة أن تنافس التوسُّع الجغرافي والنطاق الحرفي الواسع واستثمار الموارد البشرية والمالية للبعثات الأمريكية إلى الشرق الأوسط.

ظل ولاء المبشِّرين يمثل انعكاسًا للأدوار التي وهب أمريكيو القرن التاسع عشر أنفسَهم لها باعتبارهم منفِّذي المصير الحتمي، وأيضًا باعتبارهم حمَلَة ثمار عصر النهضة الصناعية وثورتها، وحاملي لواء الديمقراطية في العالم. وكانت الحماسة التبشيرية دالةً أيضًا على الحاجة الأمريكية المستمرة لحدودٍ جديدة، وتجارب طازجة، وإلى التحرُّك قُدُمًا. ومن خلال ملاحظته لتلك الاحتياجات، علَّق المفكر السياسي الفرنسي أليكسيس دي توكفيل على «الحماسة الصاخبة» للأمريكيِّين، قائلًا: «يبدو وكأن قوةً خارقة موجودة بوفرة لديهم … تدفعهم. وهو عدم استقرار غريب، حتى في وسط تلك الوفرة.»[20] ولكن عدم الاستقرار هذا لم يكن مقصورًا على البروتستانت. فقد غامر عددٌ كبير من الأمريكيِّين — من ربَّات المنازل والمهنيِّين والفنانين ورجال الأعمال، وحتى العبيد — إلى الشرق الأوسط في فترةِ ما قبل الحرب الأهلية، منجذبين إلى المنطقة، تدفعهم قناعاتُهم الدينية، والأكثر من ذلك، أحلامهم الواسعة.

الفصل السابع

تحت عيون الأمريكان

«أكاد أتخيَّل نفسي في جنةِ محمَّد.» صرَّح بذلك واشنطن إيرفنج، الشاعرُ وكاتب السِّيَر وأفضلُ قصصي أمريكي في زمنه، وهو يتنهَّد. كان هذا عام ١٨٢٩، وكان إيرفنج بالفعل هو أشهر كاتب أمريكي احتُفي به، وهو كذلك مؤلِّف «أسطورة سليبي هولو»، وصاحب شخصيات ريب فان وينكل وإيكابود كرين. لكنه كان محاميًا وضابطًا أثناء حرب عام ١٨١٢، وصديقًا لديفيد بورتر ودانيال وبستر، إلى جانب كونه دبلوماسيًّا عُيِّن حديثًا في السفارة الأمريكية في مدريد. ومن هناك تمكَّن إيرفنج من زيارة غرناطة، التي كانت في العصور الوسطى العاصمةَ المبهرة لملوك المسلمين، ومقرَّ قَصر الحمراء العظيم. وقد تركته تلك التجربة سعيدًا منتعشًا، ذاهلًا، وشاعرًا وكأنه تائهٌ في حُلم شرقي و«يحيا في ألف ليلة وليلة».

كان إيرفنج منبهرًا بالشرق الأوسط منذ زمنٍ بعيد. فصور القصور الصحراوية والحريم كانت جذابة بالنسبة إلى نزعته إلى الحزن والرومانسية في آنٍ واحد؛ وأمَّا صاحبنا الأعزب ذو الشعر المجعَّد والوجه الصبياني الصغير القادم من تاريتاون بنيويورك فكانت المنطقةُ بالنسبة إليه ملهمةً للأفكار. ففي عام ١٨٠٧، وبعد رؤية سجناء من أمريكا الشمالية أثناء حرب البربر، اخترع إيرفنج شخصيةَ مصطفى كيلي خان، وهو قبطان سفينة شراعية طرابلسية استُولي عليها، يعرض مصطفى من سجنه في نيويورك ملحوظاتٍ نقدية حادة حول المجتمع الأمريكي. فيقول لعاصم، قائد العبيد في مدينة باشاو حول النساء الأمريكيات: «لقد أكَّد لي الطبيب الشهير أن خُمسهن على الأقل لديهن قوة شخصية! وقد رأيت بنفسي امرأةً ذات مظهر جذاب وهي تشدُّ زوجها من أذنيه، وارتعش شاربي ... غضبًا بسبب الحالة المتردية التي وصل إليها هؤلاء الكفرة الأشقياء»، نُشرت خطابات مصطفى في سلسلةٍ تحت عنوان «سالماجوندي»، ولم تهاجم فقط النساء

الماجنات، بل أيضًا المحامين والضباط والساسة الفاسدين، وحتى الرئيس جيفرسون، الذي وصفه بأنه «رجل شديد الغرور، لا يمكن مقارنتُه سوى بكيس كبير من الهواء».

مثَّل الشرق الأوسط مرةً أخرى مخرجًا فكاهيًّا عام ١٨٢٤، عندما تعاون إيرفنج في كتابة مسرحية «أبو حسن»، وهي مسرحيةٌ مستوحاة من قصة خيالية في «ألف ليلة وليلة». يقول فيها بطل الرواية لرفيقه، هارون الرشيد: «ملكٌ عظيم مثلك يمكن أن تكون له مئاتُ العشيقات، ولكنني الآن راضٍ بنصف دستة منهن. يا أيتها الطبيعة، كم من السهل إرضاؤك!»

ولكن عام ١٨٢٩ لم يكن إيرفنج يجد شيئًا مضحكًا أو فكاهيًّا في أطلال غرناطة، بل تأمُّلات ورهبة فقط. وبعد الزيارة بقليل، شرع في كتابة «غزو غرناطة»، وهي قصة تاريخية مملوءة «بالمغامرات الرومانسية وصور الغزوات عبر المناطق الجبلية، وهجمات شجاعة على قصور مبنية على حافة جبال ... تتفوَّق على أي خيال». ثم جاءت «قَصر الحمراء»، وهي أكثرُ أعماله التي لاقت تقديرًا واستحسانًا. وكانت مكوَّنة من مختارات من قصص خيالية عربية، يتألق فيها سحرةٌ مهيبون، وراكبو خيل بسيوفهم المعقوفة، وأميرات في حاجة دائمة إلى الإنقاذ؛ وكان الكتاب يهدُف إلى المزج بين «الحقائق العارية» و... «أوهام الخيالات».[1]

نُشرت قصة «قَصر الحمراء» عام ١٨٣٢، وكانت تهدُف إلى تفنيد الخيالات والخرافات التي استمر الأمريكيون في الإيمان بها حول الشرق الأوسط. ولكن رأى البعضُ أن مجرَّد القراءة عن هذه المنطقة غيرُ كافٍ، وأصرُّوا على زيارة هذه البلاد المملوءة بالخيال ورؤيتها بأنفسهم. وخطَّط إيرفنج واشنطن لجولة في الشرق الأوسط، مبحرًا من جنوب إسبانيا إلى المغرب، ولكنَّ بعض الواجبات الدبلوماسية اضطرَّته إلى الذهاب إلى أماكنَ أخرى. هذا على العكس من آخرين لم يكونوا ليتشتَّتوا عن هدفهم هذا. وعلى عكس مبدأ هنري ديفيد ثورو «أنا أذهب إلى الشرق مضطرًّا فقط، ولكني أذهب إلى الغرب بملء إرادتي»، استعدُّوا لاستكشاف «الشرق».

المرح أو القتال أو الدُّعابة

لم يكن ثمَّة شيء يقف في طريقهم. فقد تحرَّروا من قراصنة شمال أفريقيا، وأصبحوا تحت حماية أسطول بحري دائم في البحر المتوسط؛ لذلك لم يَعُد هذا البحر يمثِّل عائقًا أمام المسافرين الأمريكيِّين. بل على العكس، فقد أصبح هذا البحر الآن وسيلةً لفيضٍ

متزايد من الأفراد المشتاقين إلى استكشاف الشرق الأوسط. وبحلول العشرينيات من القرن التاسع عشر كان تاجر سميرنا ديفيد أوفلي يشتكي من الطلبة الأمريكيِّين المفلسين الذين كانوا يَظهرون على أعتاب منزله أحيانًا، في حاجة شديدة إلى مأوًى وطعام. وحكى أمريكيون آخرون في المنطقة عن مقابلتهم بني وطنهم الذين كانوا يعيشون في المنطقة منذ فترة طويلة. فكان هناك مثلًا نيويوركي يعيش في إسطنبول، وقد تحوَّل إلى الإسلام وأصبح إمامًا، وكذلك صياد من نيو إنجلاند كان يجوب النيل، صائدًا التماسيح والقطط. وحكى قبطانٌ تابع لتاجر أمريكي في زيارة لمدينة مخا عام ١٨١٩ عن اجتماعه برجل من فيلادلفيا كان يخدم في جيش السلطان لما يقرُب من عشرين عامًا، كما كان يرافق الزُّوارَ الغربيِّين في العشرينيات من القرن التاسع عشر رجلٌ من مناطق أوهايو الفقيرة المتخلفة، عُرف باسم النبي داود.

وفي حين بدأ أمريكيو القرن التاسع عشر في القدوم إلى الشرق الأوسط، كانت آثارٌ لا تقدَّر بثمن تجد طريقها إلى الولايات المتحدة. فقد تلقَّت مدينة بوسطن أولَ مومياء عام ١٨٢٣، وكانت هديةً من تاجر أمريكي في سميرنا، وتلقَّت مدينة بالتيمور ٦٨٩ قطعة أثرية مصرية من الكابتن منديز كوهين، سليلِ أسرة يهودية شهيرة، كان قد استكشفَ أعالي نهر النيل. أما رجل الأعمال جون لويل من بوسطن فتمكَّن أيضًا من إرسالِ تحفٍ إلى بلاده من مصر عام ١٨٣٢، قبل أن يلقى حتفَه في حادث غرق سفينة في الخليج العربي. وظهرت في مدينة سالم بماساتشوستس وفي مدينة تشارلستون بكارولينا الجنوبية قِطعٌ فنية قديمة من الشرق الأوسط، جمعَها ووهبها لها تجارٌ محليون. وقد ساعدت هذه المجموعات على إثارة الاهتمام بالأشكال المصرية القديمة الكلاسيكية، خاصةً الأهرامات وأبا الهول والمسلَّات. ومن الملاحظ أن بناء تمثال واشنطن بدأ عام ١٨٣٣ برخامٍ مقدَّم هديةً من السلطان العثماني.[2]

تزامن تزايدُ الشغف الأمريكي بماضي مصر البعيد مع فضولٍ زائد حول الشرق الأوسط الحالي. فلم يرغب الرحَّالة والمطرودون فقط في المجيء إلى المنطقة فجأةً، بل ولا الحجاج ولا العلماء ولا المبشِّرون، ولكن رغب في المجيء إليه أيضًا مهنيون وأفرادٌ محترمون في المجتمع. فلم يَعُد الشرق الأوسط عند هؤلاء مجرَّد ساحةٍ للمعارك، أو موقع من المواقع التي ذكرها الإنجيل، أو سوق جديدة للتجارة، بل أصبح منطقةً حرة غير مقيدة، ويمكن لأي مغامر أمريكي مستعدٍّ استعدادًا جيدًا أن يستمتع بحرية الحركة فيها.

كان عدد الزوار الأمريكيِّين في الشرق الأوسط قد تصاعد باطراد في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. فحسب شروط الاتفاقية العثمانية الأمريكية، تمتَّع الزوار الأمريكيون بحماية القناصل الأمريكيِّين، وتمتَّعوا بحصانة ضد الاعتقال العشوائي أيضًا. وسُهِّل الانتقال إلى المنطقة، بسبب ظهور تكنولوجيا المركبات البخارية. فبدءًا من عام ١٨٣٨ كان بإمكان أيِّ شخص من بوسطن أن يستقل القطار إلى نيويورك، ثم يبحر بالسفينة البخارية المتجهة إلى إسطنبول أو الإسكندرية. وبكثير من الطمأنينة التي لم يكن ليديارد ليتصوَّرها، وبكثير من السرعة التي كان بليني فيسك ليحسدهم عليها، توافدَ الأمريكيون على الشرق الأوسط.

ومع ذلك فقد كانت الرحلة لا تزال تتطلَّب طاقةً كبيرة وصبرًا لتحمُّل عدة مشاق. كانت الرحلة تتطلب ٢١ يومًا، بتوقُّف في لندن ومارسيليا ومالطا، وكان على المسافرين أن يحملوا معهم زادًا من القديد المملَّح والخبز الجاف. لذلك قال عضو مجلس الشيوخ ويليام هنري سيوارد من نيويورك، ووزير الخارجية المستقبلي، وهو في طريقه إلى فلسطين أواخرَ فترة الخمسينيات من القرن التاسع عشر: «لا يوجد مرسًى هنا، ولا أَسِرَّة ولا مناضد ولا مؤن ولا أطباق. والقمرات مملوءة … بالنمل والصراصير وكل أنواع الحشرات.» وعند وصولهم إلى الشاطئ كان الزوَّار يُحتجزون في الحجر الصحي فتراتٍ تصل إلى أسبوعين، وتحت ظروفٍ أكثر قسوةً من ظروف البحر. ومقابل هذه المنغِّصات، كان الركَّاب مطالَبين بدفع نحو ١٩٠ دولارًا، وهو ما كان يوازي راتبَ عضو مجلس الشيوخ عام ١٨٤٠، أو راتبَ سنة لعاملٍ يدوي في الجنوب.[3] ومع ذلك فقد كانت السفن المتجهة إلى البحر المتوسط تقريبًا دائمًا محجوزة لأمريكيِّين مسافرين في إجازات بحثًا عن مغامراتٍ مثيرة.

كان أحد هؤلاء المغامرين هو جون لويد ستيفنز من نيويورك، وكان من أتباع الطائفة البراهمية الهندية، تخرَّج في جامعة كولومبيا، وكان عضوًا في الإدارة السياسية للحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة. وبعد قراءة كتاب «ألف ليلة وليلة» قرَّر أن يرى بنفسه «الرفاهية والفخامة التي جعلت النبيَّ يومًا ما يبتسم»؛ لذلك استقلَّ في ديسمبر عام ١٨٣٥ سفينةً بخارية متجهة إلى مصر. وكان ستيفنز مثالًا للأمريكيِّين الستين الذين كانوا يسجِّلون أنفسهم سنويًّا بالقنصلية الأمريكية في الإسكندرية في العقود الثلاثة التالية لعام ١٨٣٠. كان معظمهم يعيش في المدن الشمالية، ولكن بعضهم كان أيضًا من الجنوب، مثل جيمس كولي، بائعِ الكتب من مدينة ميسيسيبي. وكانت النساء أيضًا يزرن الشرق الأوسط في تلك الفترة، واثنتان منهن كانتا سارة روجرز هايت من لونج أيلاند، وإليزابيث

كابوت كيركلاند، ابنة عضو مجلس الشيوخ عن ماساتشوستس ذات الخمسة والأربعين عامًا، قد كتبتا مقالاتٍ شديدة الجاذبية عن تجاربهما. أما أكثرُ المسافرين تميزًا فكان ديفيد دور، وهو من العبيد الأمريكيِّين السُّمر من لويزيانا، وقد جال في الشرق الأوسط مع سيده عام ١٨٥٤. وهرب فيما بعدُ إلى أوهايو، ونشر كتابًا يحكي عن رحلته تلك، تحت عنوان «رجل ملوَّن حول العالم»، وأهداه إلى «أم العبد» وكذلك إلى «آثار السابقين الذين ينتمي إلى سلالتهم».

ومع تبايُن خلفياتهم، فإن هؤلاء المسافرين الأمريكيِّين كانوا يشتركون في انطباعات واحدة عن الشرق الأوسط. فجميعهم كانوا معتادين على المدن الأمريكية الشديدة التنظيم والتجانس والتناسق؛ لذلك كانوا يشعرون بالارتباك ولا يسهُل عليهم التعرُّف على وجهتهم بسبب التنظيم الملتوي لشوارع الشرق الأوسط الشبيهة بالمتاهة، وبسبب تنوُّع ثقافات السكان. كان وصف جيمس كولي للقاهرة في عام ١٨٤٢ هو: «شوارع ضيقة ومظلمة ... متربة وتشبه السجون وغريبة للغاية.» وكان هذا الوصف لا يختلف بالمرة عن وصف ستيفنز. وفي حين انبهر ستيفنز «بالتركي الشجاع وسيفه البراق، وباليوناني الماكر، وبالأرمني الجاد وباليهودي المحتقر بثوبه الحريري الطويل وعمامته المميزة»، استغرب كولي «الأزياء القومية للعرب والأرمن والأقباط والمصريِّين واليونانيِّين واليهود والسوريِّين والأتراك ... وكلهم يبدون سعداء ... وسط القذارة وفي ثيابهم الرَّثة». ونفس هذه المشاعر العدائية والصدمة أصابت سارة هايت عند دخولها إسطنبول عام ١٨٣٩. فقالت: «كلُّ ما رأيته هو كتلة من الأبنية غير المتناسقة، بُنيَت على غير قاعدة أو أساس هندسي، وخلافًا لأي ذوق حسن.»

ومثل نظرتهم الأولى إلى مدن الشرق الأوسط أخضع الأمريكيون مجتمعَ الشرق الأوسط لنفس الأحكام القاسية. فوصل معظمهم إلى المنطقة محمَّلين بأحكام مسبقة ضد الإسلام، وسرعان ما وجدوا تأكيدًا وتثبيتًا لتلك الأحكام. فالإسلام عند ستيفنز كان «دينًا زائفًا»، يتَّبعه «مسلمون متعصبون متعالون ومضلَّلون»، وكان الإسلام عند كولي «مذهبًا للجهل والخرافات، يؤمن به المجانين والبلهاء والنصَّابون». وكانت هايت تستهجن الإسلام «الذي ... يشدُّ كل بلد ينتشر فيه ... إلى الأسفل». وحتى ديفيد دور، الذي كان يمدح الإسلام في البداية بسبب تقبُّله للسود، انتهى به الأمر إلى الخوف من المسلمين باعتبارهم «متعصبين وقاطعين لرءوس المسيحيين».[4]

لقد افترض الأمريكيون — بوجهٍ عام — أن القسوة ترتبط بالإسلام ارتباطًا وثيقًا، وأنه من الأمراض المزمنة في كل ثقافات الشرق الأوسط. وللدِّلالة على هذه التهمة، ربط

ستيفنز بين زيارته محكمةً قاهرية حيث كان الرئيس يتناول المسلِّيات والمكسرات، وبهدوء تام أمر بجلد أحد رعاياه. ويحكي ستيفنز: «عندما سمِعت السوط يخترق الهواء وأول صرخة عالية، لم أعُد أستطيع التحمُّل»، مضيفًا كان رئيس المحكمة مبتسمًا طوال الوقت. وكان الأمريكيون مستاءين بصفةٍ خاصة بسببِ ما اعتبروه إساءةَ معاملة نساء الشرق الأوسط. وكان كولي يدَّعي أن نساء العرب «يُحْتَفظ بهن كالطيور في أقفاصٍ ويُغذَّين كالوحوش في عرين»، وذكر أيضًا رؤية إحداهن وهي مقيدة وزوجها يضربها ومجموعة من الناس تشاهد ذلك مع موافقتهم على ذلك. ولكن لم يكن النساء وحدَهن ضحيةَ القسوة في الشرق الأوسط، كما اكتشف الأمريكيون. ففي جولة في المغرب عام ١٨٤٢ اندهشت إليزابيث كابوت كيركلاند من الاضطهاد الجماعي لليهود. فكتبت: «كان أحد التجار اليهود الأغنياء مضطرًّا إلى خلع نعله قبل المرور بعتبة باب عبد أسود، وكان المسلمون يطاردونهم في الشوارع كلما مرُّوا بهم، تمامًا كما يفعلون مع أي كلب.» وفيما بعدُ في القاهرة قابلت كيركلاند المنظرَ الآتي: «رجل ممدد أمامنا، ورأسه مفصول عن جسده وقد وُضع بين رجليه». وقد علمت أن الرجل الضحية كان متهمًا بالاشتغال بالسياسة.

كانت سياسة الشرق الأوسط موضوعًا آخرَ لانبهار الأمريكيِّين، وسببًا لاشمئزازهم. وبقناعتهم بأن الديمقراطية الأمريكية تمثِّل أعلى صور سيادة البشر، كان السائحون الأمريكيون ينظرون إلى الحكام الديكتاتوريِّين بمزيجٍ من الاحتقار والاشمئزاز. فقد أدان ستيفنز النظامَ الشرقي الذي «تتعلَّق فيه الحياة بحبل رقيق، بحيث إذا تركت رجلًا في السلطة فغالبًا لن تراه مرةً أخرى»، وكان دور يشفق على السلطان الذي «يعيش ملِكًا، ويموت مغفلًا». أما د. فالنتاين موت، أحدُ أشهر جراحي نيويورك فقد صُدم بسبب خشونة نبلاء الشرق الأوسط الذين قابلهم عام ١٨٤٣. فكتب عن أميرٍ مصري وأحدِ أحفاد محمد علي: «إن جلالته يتضمَّن شحمًا أكثرَ مما يحوي عقلًا.» أما المحرِّر والقس التابع للبحرية والتر كولتون، الذي كان ليبراليًّا مثل موت، وباحثًا عن إيجابيات الحياة في الشرق الأوسط، فقد ارتعش عند معرفته أن السلطان يستطيع بإشارةٍ من يده أن يأمر بقطع ألف رأس مرةً واحدة. فانتهى عام ١٨٣٦ إلى خلاصةٍ مُفادها أن «الإسلام هو مقبرة الحق والحرية».

اتفق هؤلاء الرحَّالة المسافرون على أن الشرق الأوسط يعاني عدةَ مشكلات، ويمكن علاجها كلها ببساطة عن طريق نبذِ الدين الإسلامي وتبنِّي الثقافة الغربية. وقال كولتون تعليقًا على ذلك: «نفس المجهود الذي يُبذل لرفع المسلمين فوق القيود المزِّقة للديكتاتورية سيضعهم على أطلال دينهم. فعصا الصولجان والهلال، والمذبح وكرسي

العرش كلُّها ستغرَق معًا.» كان كولي ينتظر بشغفٍ زمنًا يقوم فيه المسلمون بتبنِّي «عقيدةٍ أكثرَ تنويرًا وثباتًا» لكي يمكنهم الانضمام إلى أسرةِ «الأمم المتحضرة». أما هايت فقد تمادت شيئًا عندما دعت إلى «حملة صليبية دولية» لإذلال المسلمين وتفكيك الدولة العثمانية. وتنبأت هايت بأن بريطانيا قد تستولي على مصر يومًا ما، وكذلك على أجزاءٍ من آسيا الصغرى، وأن فرنسا ستحتل سوريا وشمال أفريقيا. ولكن يجب أولًا أن يختفيَ الإسلام من الساحة تمامًا.

من منظور القرن الحادي والعشرين كان الأمريكيون الذين انتقدوا الشرق الأوسط بسبب ادعاءاتٍ عن فساده وقسوته وتعصُّبه بالتأكيد منافقين. إذ قامت دولُهم نفسها باستعباد نحو سدس سكانها، وتحت راية «المصير الحتمي» طردت عددًا من قبائل السكان الأصليين. وكانت عمليات الشنق لا تزال وسيلةَ تسلية للعامة في أمريكا في القرن التاسع عشر، وازدهر الفساد السياسي، ممثلًا في الجناح السياسي للحزب الديمقراطي. ومع ذلك فقد كانت مذكِّرات الرحَّالة الأمريكيِّين تكشف القليل جدًّا من باب الرقابة أو الاستعداد لمقارنة أوجه النقص في بلادهم، مقابل تلك التي وصفوا بها الشرقَ الأوسط. بل كانت كتاباتهم تُظهِر حبًّا واحترامًا لأي شيء قريب أو بعيد عن كونه أمريكيًّا. اعترف إدوارد جوي موريس، عضو مجلس النواب المستقبلي وسفير الولايات المتحدة لدى الباب العالي، قائلًا: «هناك حسٌّ وطني بين الأمريكيِّين في الخارج لا أعتقد أنه يوجد بين أي شعب آخر.» وقد ثبَّت نجوم وخطوط العلم الأمريكي فوق الأهرامات المصرية عام ١٨٤١. وانتهى الأمر بالفنان ويليام بارتلت، الذي جاء إلى القاهرة عام ١٨٤٩ بحثًا عن «مدينة صلاح الدين وألف ليلة وليلة»، بالمقارنة بين «مصر المتدهورة تحت الظلم والقمع ... ودِين مُضلِّل، وبين أمريكا التي تزداد قوةً كلَّ يوم، والتي هي بلد النور والحرية والازدهار والمسيحية!»

وكان لدى الولايات المتحدة المَثل الأعلى للحرية والفضيلة، وكثير من الدروس لتقدِّمها للشرق الأوسط، كما كان السياح الأمريكيون يؤكدون. فقد كانوا ينتظرون بشغفٍ اليومَ الذي يقوم فيه المبشِّرون والمهندسون والمعلِّمون ورجال الدولة — حسب كلمات سارة هايت — «باختراق الظلام الذي يكتنف ذلك البلدَ الكافر» وإعادة تشكيل المنطقة حسب النموذج الأمريكي.[5] تجاهلَ الرحَّالة الأمريكيون نقصَ المساواة والعدل اللذين كانا يلطخان مجتمعهم في موطنهم، ونظروا إلى مرآة الشرق الأوسط المكسورة بزجاجها المغبَّش، فكانت الصورة التي رأوها مثاليةً لا غبار عليها.

نظر الأمريكيون إلى الشرق الأوسط من عيونٍ متشابهة، وقاموا بجولاتهم فيه حسب تخطيطٍ شبهِ موحَّد. فبعد الوصول إلى المنطقة، إما عن طريق الإسكندرية أو إسطنبول، كان لا بد لهم من المرور بالقاهرة للقيام بزيارةٍ ضرورية للأهرامات وبرحلة نيلية. وبسبب الخطر الشديد لتلك الرحلة، كان لا بد لهم من استئجار حراس مسلَّحين وترجمان — أي ستة عشر رجلًا في حالة سارة هايت. ولدواعي الأمن أيضًا، كان الأمريكيون يُنصَحون بارتداء الزي القومي لتلك البلاد، الذي كان يتكوَّن في حالة ستيفنز من «شبشبٍ أصفر وقفطان أزرق وسيف وبندقيتين تركيتين كبيرتين». وعندما كان المسافرون غير مشغولين بهشِّ الذباب أو الشحَّاذين، كانوا يركِّزون انتباههم على الآثار المصفوفة على جانبي النهر، التي كانت مصدرًا لحزنٍ مهيب، وأيضًا مصدرًا لتذكارات مجانية. وفي تبرير بأنها «احتياجات علمية» قَطع موت قطعةً من مسلةٍ قديمة. وكسرَ ستيفنز رسمَ صقرٍ من جدار معبد، مبرِّرًا فَعلته بأنه «يحافظ على تلك القطعة الأثرية الثمينة من مصير العدم الذي ينتظرها (في مصر)». وكان الأمريكيون يسعدون أيضًا بممارسة صيد الضِّباع والتماسيح والطيور. ولكن أكثر الأنشطة التي كانت تسعدهم — على الأقل فيما يتعلَّق بالرجال — كان النظر بشهوة واستمتاع إلى نساء الشرق الأوسط.

واتباعًا للنظرة الرومانسية الغربية إلى الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر باعتباره مركزًا للحمَّامات التركية والنساء، صال وجال الرجال الأمريكيون في مرحلةِ ما قبل الحرب الأهلية في المنطقة في حالةٍ من الاستثارة الدائمة. وبسبب اعتيادهم رؤيةَ وجوه النساء العارية، كانوا مهووسين برؤية نساء الشرق الأوسط، مع أنهن كن منتقبات عادةً، ولكنهن لم يكن يكترثن بتغطية أجسادهن. وقد حكى دور مثلًا عن التقاء نظراته بنظرات إحدى الفتيات اللاتي يغطين وجوههن قائلًا: «كنتُ على استعداد لدفع خمسة جنيهات مقابل رفعِ نقابها.» وحاول إغراءَ أخرى مقابل ٢٥ دولارًا. وتحكي فصولٌ كاملة من كتابه بكل دقة عن غسل المخصيِّين لبنات الحريم، وعن فنِّ الرقص الشرقي. «حركات واهتزازات للجسد ... مما يمكن فقط تخيُّله» وفكَّر فالنتاين موت في أيدي النساء المخضَّبة بالحنَّاء، وعيونهن المكحَّلة ذات الرموش الطويلة. وركَّز ستيفنز على الشفاه، متخيلًا كيف أنها تحيي بدويًّا متعبًا في آخر النهار. ولكنَّ القليل من السائحين كان لديهم ولعٌ بالجنس مثل ناثانييل باركر ويليس، وهو شاعر وناشر لكتابات إدجار آلان بو. جاب ويليس الشرقَ الأوسط عام ١٨٥٢، محاولًا «أن يحصُل على نظرة من زوجة سائق الجمل أو ابنته، ولكن دون جدوى». لكنه نجح أخيرًا في النظر إلى فتاةٍ يهودية، «مخلوق رشيق رقيق في الرابعة

عشرة من العمر، لها جسدُ كيوبيد الإغريقي»، بالإضافة إلى فتاة عربية من العبيد «لها عيونٌ سوداء دافئة ... رفعت جفونها الثقيلةَ الناعسة ونظرت عفويًّا من باب مفتوح». وفي كلتا الحالتين — تنهَّد ويليس — «لم أرَ في حياتي شيئًا بهذا القدْر من الجَمال».[6]

ومن مصر والنيل كان السيَّاح الأمريكيون يتَّجهون عادةً إلى الشرق، نحو لبنان وسوريا. وبسبب مخاطر القبائل المتمردة وقُطاع الطرق كانوا يحملون معهم هنا أيضًا مجموعةً متنوِّعة من الأسلحة، تشمل المسدسات والبنادق القصيرة وسيوف المبارزة. فكتب الشاعر بايارد تيلور — مترجم رائعة جوته «فاوست» — في رحلته إلى بيروت عام ١٨٥٣: «كانت أسلحتنا على استعدادٍ تام، ولم نترك أمتعتنا بعيدةً عن عيوننا البتة.» وتتذكَّر إليزابيث كابوت لودج أنه في حين كان زوجها يسير «مدجَّجًا بالسلاح، كنت أرتدي ملابسي الإفرنجية وعمامةً على رأسي وفوقها قطعةُ قماش قطنية بيضاء تغطي جزءًا كبيرًا من وجهي». ومع المخاطر، فإن القرى الريفية وجَمال العصور الوسطى في حلب ودمشق مكَّنا الأمريكيِّين من استعادة بعض الرومانسية التي كانوا قد فقدوها في القاهرة والإسكندرية. فتايلور صوَّر نفسه مثلًا على أنه صليبي يسير في معركةٍ ضد صلاح الدين. وأخذ يفكِّر متأملًا: «حتى الأشجار والحشائش تسمع أبواقَ العصور الوسطى، وقعقعةَ الدروع الأوروبية.»

كانت قمة أي جولة في سوريا هي الحجَّ إلى قلاع السيدة هيستر ستانهوب، وهي نفسها راهبة لبنان التي كانت قد استضافت هارييت ليفرمور عام ١٨٣٧. ويبدو أن تقليد زيارة ستانهوب كان قد ظهر قبل ذلك بخمسة عشر عامًا عن طريق نيويوركي اسمه جورج رابيلج، وهو رجلٌ «عادي في الخمسين من عمره، له عاداتٌ ثابتة»، وكان يقضي ساعاتٍ كثيرة في صحبة هذه السيدة. كانت تمدُّه بالغذاء الجيد والصحبة الممتعة؛ لذلك عندما غادر القلعة ومعه عينةٌ من الحرير الدمشقي كانت ستانهوب قد طلبت منه تسويقه في أمريكا. وللأسف مع وصول ستيفنز وهايت لم تَعُد ستانهوب تقابل زوارًا غيره. وتشرح هايت ذلك الوضع قائلة: «كان أصدقاؤها قد ابتعدوا عنها، وكانت ثروتها قد استُنفِدت ... من قِبل عرب خبثاء ... يستهزئون ... بعقيدتها.» وكان المبشِّر الأمريكي ويليام تومسون أحدَ القلائل الذين كانت هايت توافق على استقبالهم. وأقام لها قدَّاس الفقراء عندما عثَر تومسون على جثَّتها الذابلة عام ١٨٣٩.

لم يكن هناك شيء عند الأمريكيِّين في الشرق الأوسط يعادل زيارةَ فلسطين، ولا حتى الإبحار على صفحة النيل أو تسلُّق الأهرامات أو مشاهدة النوبيات الجميلات. كانت إثارة

المسافرين وتشوُّقهم يزدادان كلما اقتربوا من الأرض المقدَّسة؛ وكان ذلك يقاس بعدد مرات مراجعتهم للإنجيل. أما كولي، فكانت رؤيةُ سَحرة الثعابين تثير ذكريات الإنجيل العبري (العهد القديم في التوراة)، وكانت مشاركة الفلاحين طعامَهم تذكِّره بمتَّى («الذي يغمس معي يدَه في الصفحة»). وتساءل ستيفنز: «هل يمكن أن يكون ذلك حُلمًا؟» وهو يقف على شاطئ البحر الأحمر «في نفس النقطة التي توقَّف عندها شعب الله المختار ... ليشهدوا انقسامَ البحر» أو فوق جبل سيناء «يسترجعون ذلك اللقاءَ العظيم بين الإنسان وخالقه». واختلطت الطبيعة والكتابات الدينية في نفس اللحظة التي كان الأمريكي يطأ فيها الأرض المقدَّسة؛ فهنا كانت المدن التي قرأ عنها وسمِع بها منذ طفولته، التي اشتقَّت منها كثيرُ من المدن الأمريكية أسماءها، وصاحت هايت: «كل ذكرياتي التاريخية ... تعود بقوة إلى ذاكرتي. فقد رأيت في كل وجه بطريركًا، وفي كل ... رئيس قبيلة أحد الحواريين.»

ومع ذلك فقد كانت الخيالات والأحلام حول فلسطين، مثل تلك الدائرة حول مصر ولبنان قبل ذلك، سرعان ما تتبخَّر. فبدخول الناصرة وطبرية ويافا وبيت لحم كان الأمريكيون يكتئبون بسبب عدم عثورهم على المواضع المثالية كما وردت في الإنجيل، وبدلًا من ذلك كانوا يجدون أماكنَ راكدة مملوءة بالأشواك والأطلال والتراب. وصاحت سارة قائلة: «ما أشدَّ التدهورَ الذي أصاب الأرض المقدَّسة الآن!» وقد صُدمت بصورة خاصة بسبب قلة السكان وفقرهم المدقع، حتى بمقاييس الشرق الأوسط. حتى إن «وجه الأرض قد تقلَّص إلى ... برية موحشة.» وقرَّر دور أن مدينة أريحا «لا تستحق الذِّكر»؛ فهي مجرَّد أرض جرداء قاحلة مملة، «مغطَّاة بقطع من الحجر والطوب المكسور». وقال ستيفنز إن أكثرَ ما أصابه بالإحباط كان مدينتي بيت لحم والقدس التي تغلُب عليها المآذنُ المزينة «بالرخام الملوَّن ... والزينات الرديئة». قضى دور قُرابة الأسبوعين في القدس وغادرها «متمنيًا ألا أعودَ هنا ثانية أبدًا».

ودون استثناء، كان الأمريكيون يعودون من رحلتهم إلى الشرق الأوسط خالين من أي إحساس بالحُلم أو الأوهام الجميلة. ولم يجد دور — الذي كان يرى في الشرق الأوسط وطنًا لأجداده — شيئًا قريبًا منه في المنطقة؛ فقط كلاب وسحرة ثعابين وسائقو جِمال يحتقرون أيَّ شيء غربي. واشتكى فالنتاين موت وهو محبَط قائلًا: «لا شيء يشير إلى أن هذا البلد وناسه يسيرون إلى الأمام. ليس هناك أيُّ دليل على ارتفاع شأنهم معنويًا أو فكريًّا.» أما أكثرهم تذمرًا فكان جون لويد ستيفنز. فبعد شهرٍ من محاولة العثور «على صور رائعة لمناظر من الشرق» تحوَّل ستيفنز الذي كان له يومًا ما وجهُ صبي صغير

وعينان برَّاقتان إلى شخص دائم التذمُّر مملوء بالمرارة يتصيَّد الأخطاء، وكان يرى أن الشراهة في الأكل والكسل وسوء الأخلاق والغياب التام للنظافة خصائصُ محلية للشرق الأوسط، وهي سِماتٌ غير محتمَلة. فقال: «لم أرَ بين الرحَّالة في الصحراء أيَّ سمات تجعلني أقدِّر مزايا هذه الحضارة أكثرَ فأكثر.»[7]

وبرغم الصور الكئيبة المخيفة التي رسمها هؤلاء الرحَّالة، فقد نالت الكتب التي ألَّفها المغامرون الأمريكيون شعبيةً خاصة. فقد نشر جون لويد ستيفنز، الذي اشتُهر فيما بعدُ باستكشافه معابدَ قبائل المايان من الهنود الحمر في يوكاتان بأمريكا الجنوبية — كتابًا بعنوان «أحداث خلال رحلة إلى مصر وشبه الجزيرة العربية والأرض المقدَّسة» عام ١٨٣٧، وباع منه ٢١٠٠٠ نسخة في سنتين. وقدَّر النقاد أيضًا كتاب كولتون «زيارة إلى القسطنطينية وأثينا» واصفين إياه بأنه «متخَم بالمعلومات عن الحياة … في الشرق وأخلاقياته»؛ ووصفوا كتاب كولي «أمريكي في مصر: رحلات في الجزيرة العربية والأرض المقدَّسة» بأنهما «حديثان ومميَّزان في بنائهما ويحتويان على قدرٍ كبير من … الإمتاع». وكانت «المجلدات القيمة» لهايت «مملوءة بالحياة والحيوية»، حيث تخيَّل أحدُ النقاد نفسه مسافرًا «إلى تلك المناطق المثيرة للاهتمام مع السيدة الكاتبة الموهوبة». وبعد نجاح كتابه، قام بايارد تايلور بجولة مربحة، ارتدى فيها زيًّا عربيًّا، وألقى على الجمهور الأمريكي محاضراتٍ عن الإسلام. ونال ديفيد دور أيضًا شهرةً محدودة، وقالت جريدة «بلين ديلر في كليفلاند» عن كتابه إنه «تصويري ومثير للاهتمام للغاية».

وبدلًا من تشويه الأوهام الأمريكية عن الشرق الأوسط، كانت شهادات الرحَّالة والمسافرين تزيدها صقلًا. فكلما ازدادت صورة المنطقة كآبة، ازدادت جاذبيتها للأمريكيِّين. واستمر كتَّاب الولايات المتحدة في التفكير والتأمل في موضوعاتٍ تخص الشرق الأوسط. فإدجار آلان بو، الذي امتدح كتابَ ستيفنز بسبب «حريته … وصراحته … وغياب أي نفاق فيه» كان قد ألَّف قصيدةً باسم «الأعراف»، بإلهام من ألف ليلة وليلة. ثم ألَّف كتاب «حكايات عن كلِّ ما هو غريب وعربي». وعاد واشنطن إيرفنج مرةً أخرى إلى الموضوعات الإسلامية. في عام ١٨٥٠ نشر دراسةً في مجلدين باسم «محمد وخلفاؤه»، ومع أنها انتقدت الرسول، فإنها أوضحت «روحَه الحماسية ذات الرؤية البعيدة» و«السِّمة الواضحة السامية في طريقه المنير».

هذه الكتابات، من أعمال أدبية ونوادر، زادت من إقبال وتدفُّق الأمريكيِّين على الشرق الأوسط. وبحلول منتصف القرن لم يكن يتفوَّق على عدد زوار الشرق الأوسط

من الأمريكيِّين سوى الزوار الإنجليز. أما سوريا فكانت أكثرَ البلاد استقبالًا للزوار، وقد افتخر يوسف الترجمان العربي الذي رافق الكاتب الشهير والفنان جي روس براون من كنتاكي عام ١٨٥٣ قائلًا: «لقد أخذتُ ألف سائح أمريكي في جولة عبر سوريا. نعم ... أنا أحب الأمريكيِّين! ... فهم مستعدون لكل شيء ... المرح أو القتال أو الدُّعابة.»[8]

ولكنَّ وصْفَ يوسف لم يكن لينطبق على أكثرِ المسافرين الأمريكيِّين كآبةً واضطرابًا ومناهضة للحرب، والذي كان أيضًا أكثرهم إبداعًا. وكان ابنًا لتاجرٍ نيويوركي مفلس، علَّم نفسه بنفسه، وعمِل خادمًا على السفن وصائد حيتان، وخدم في البحرية الأمريكية وعاش بين آكلي لحوم البشر في بحر الجنوب، قبل أن يستقر به المُقام في مزرعة غربي ماساتشوستس. إنه هيرمان ميلفيل الذي أبحر إلى الشرق الأوسط في ديسمبر عام ١٨٥٦، وهو لا يحمل معه غير فرشاة أسنان وغيار واحد من الملابس.

نادِني بإسماعيل

كان ميلفيل مريضًا ويائسًا لأن كتابه الأخير «موبي ديك» كان قد باع ثلاثة آلاف نسخة فقط، كان في السابعة والثلاثين من عمره، وهو يحاول جاهدًا إثارةَ حماسة قرائه. وكانت صور من الشرق الأوسط — معظمها مستقًى من ألف ليلة وليلة — قد شدَّت انتباهه فترات طويلة. وكان كلٌّ من ستيفن ديكاتور وديفيد بورتر قد ظهرا شخصياتٍ في قصصه الخيالية. وكان المسافر المُطارد الضخم الجثة الذي يدفع البطلَ في قصة ميلفيل «ريدبيرن» إلى الرحيل إلى «بلاد بعيدة بربرية» على الأغلب شخصيةً شكَّلها ميلفيل حسب الشخصية الحقيقية لجون لويد ستيفنز، وجاء ذكر جون ليديارد «رحَّالة نيو إنجلاند العظيم» في كتاب «موبي ديك». والآن ميلفيل، الذي كان يحثُّ قراءه على مناداته بإسماعيل (وهو حسب الإنجيل أبو العربِ كلِّهم) مصرًّا على رؤية «الجزيرة العربية الحجرية» بنفسه. كان هدفه هو العثور على إلهامٍ لنسخةٍ شرق أوسطية من تايبيي، وهو أكثر كتب المغامرات التي ألَّفها شعبية ورواجًا. لذلك كتب في مذكِّراته: «أنا الآن مملوء بهذه الرحلة الشرقية المجيدة. فكِّر في الأمر! القدس والأهرامات!»

ودخل ميلفيل منطقةَ الشرق الأوسط عبر إسطنبول مثل سارة قبل عشرين عامًا، وانبهر بها فورًا. فقال يصِفها: «تخيلوا كومةً ضخمة من قصاصات القماش البالية للعديد من الأمم، أُلقي عليها كثيرٌ من الألوان، وجُمعت كلُّها في صُرَّة كبيرة، تتصارع معًا

وتتحدَّث بكل اللغات واللَّهجات.» ومثل ستيفنز وكولي، كان ميلفيل يرتعد لمجرد ذكر «الشوارع التي لا تحمل أسماء، شوارع يملؤها هواءٌ ملوَّث ومنازل مهدَّمة». وكان يتخيَّل «أنه وراء كل عارضة خشبية فيها يوجد شخص منتحِر». وقد اندهش هو أيضًا من التنوُّع الطائفي والكثافة الجنسية للمدينة، فتخيَّل أن «وراء كل شُباك يوجد وجهٌ يهودي أو يوناني أو أرمني، وأن من الأكواخ القديمة تبرز فتياتٌ جميلات كالزهور والورود التي تنمو في إناء مكسور». وكما حدَث مع كثير من السواح الأمريكيِّين من قبل، صُدم ميلفيل من الكيفية التي بها «اجتمع الملايين من أهل الشرق الأوسط على رفض لبِّ الحضارة الغربية، بينما لبُّ هذه الحضارة هو الكثير من أخلاقنا وكل عقيدتنا وديننا».

وتبعًا للخطة التقليدية لتلك الرحلة، شدَّ ميلفيل الرِّحال إلى مصر. وتوقَّف في الإسكندرية لمشاهدة عامود السواري الذي بدا له «مثل عصًا ضخمة من الحلوى بعد مصِّها فترةً طويلة». ثم تابع رحلته إلى القاهرة، التي وصفها بأنها «حفلةٌ تنكُّرية للموتى»، وزار أيضًا الأهرامات. وهناك، عند سفح هذه الآثار الضخمة، وقع ميلفيل أسيرًا لما يشبه غيبوبةَ المتصوف، قائلًا:

> «البخار تحت القمم. الطائرات الورقية تدور في الفضاء، محلِّقة فوق القمم. وعند الزوايا مثل الحافات المكسورة ... يقف الأدلَّاء العرب في ثيابهم البيضاء الواسعة. يقودوننا نحو السماء وكأنهم ملائكة ... يغمرني شعور بالرهبة والرعب. أخاف العرب ... وفكرة أن الإله وُلد هنا ... شيءٌ هائل لا نهاية له غير مفهوم وبغيض. هذه هي الدرجات التي رقد عندها يعقوب ... ويمكن أن تكون قد بدأت منذ الخليقة.»

لم تكن أحلامُ اليقظة تلك غريبةً على ميلفيل، أو غير مرحَّب بها. فقد كان يتوق إلى تجاربِ ما وراء الطبيعة السامية، وإلى لحظات التنوير الروحي والميتافيزيقي، التي يمكنها أن ترفعه فوق هذه الحياة التي لا إبداع فيها، وتسمح له بإلقاء نظرة على الحقيقة. وبوصوله إلى تلك المراحل السامية في مصر، توقَّع أن يحصُل على مثلها، إن لم يكن أعلى منها، في فلسطين، التي كانت محطته التالية.[9]

واعترف ميلفيل بعد وصوله إلى يافا بقليل أنه «لا بلد تتبخَّر فيه التوقُّعات الرومانسية سريعًا مثل فلسطين». وانضم إلى قافلةٍ مكوَّنة من ثلاثين عربيًّا من راكبي الجياد، الذين كانوا يسعدون بإفراغ بنادقهم في كل بركة مياه أو زرعة صبار، معذبًا بسبب الحشرات

وأشعة الشمس الحارقة، ثم ارتقى تلالَ يهوذا. تساءل قائلًا: «هل قحط تلك البلاد نتاجُ حضن الرب؟» ثم أجاب: «البؤساء هم المفضَّلون في الجنة.» وبدلًا من رفعه إلى أعالي السماء، هبطت المناظر المحيطة به إلى أسفل السافلين، فأصبح في حالة من الوجوم والهلاوس والانقباض. وقال: «العفن الأبيض يجتاح مساحاتٍ من البلد؛ البَرص ونتاج اللعنات والجبن القديم والعظام والأحجار، كلُّها مهدَّمة ومكسَّرة ... فأنت ترى التشريح؛ تقارن بين تلك المنطقة والمناطق العادية الطبيعية، وكأنك تقارن هيكلًا عظميًّا برجل صحيح البدن متورِّد الوجه.»

وكلما ازداد توغُّله في البلاد، ازداد كآبةً وانقباضًا، وأثَّرت كآبته تلك على نظرته المبدئية إلى مدينة القدس، التي كتب عنها: «تنظر المدينة إليك مثل عين رمادية باردة لرجل عجوز بارد.» ولم يكن شيء يبهجه؛ لا مسجد عمر ولا المقبرة المقدَّسة، التي ظن أن رائحتها تشبه «الخرائب». وكان يسخر من المرشدين السياحيِّين الذين يحاولون إبراز الأماكن التي تحدَّث عندها المسيح، وفي نفس اللحظة، يشيرون إلى المطعم الذي يقدِّم أفضل أنواع القهوة. لقد كان سليل التطهريِّين الذين اعتبروا الأمريكيِّين «شعبًا متميزًا مختارًا؛ إنهم بنو إسرائيل هذا الزمان». لذلك لم يشعر ميلفيل بأي تقارُب مع اليهود الذين قابلهم. ووصفهم بأنهم «يهيمون في فراغ الآثار الخالية من الحياة في القدس، كالذباب الذي اتَّخذ من جمجمةٍ مقرًّا له».

كانت فكرةُ إعادة اليهود مقزِّزة لميلفيل، فأسماها: «الجنون اليهودي غير المعقول». وقد رفض تصديقَ أن فلسطين — البلد الصحراوي — يمكنه احتمالُ قيام دولة فيه، أو أن اليهود يمكن تحويلهم إلى مزارعين. ولم تكن لديه ثقةٌ في قدرة المبشِّرين على تحويل العرب الأرثوذكس الشرقيِّين — فضلًا عن تحويل المسلمين — إلى بروتستانت على الطراز الأمريكي. فقال ضاحكًا: «يمكنهم تحويل الطوب إلى كعك عرس، إذا أمكنهم تحويلُ الشرقيِّين إلى مسيحيِّين بروتستانت.»

لم يَرُق موقف ميلفيل من اليهود والمبشِّرين لأول أمريكي قابله في فلسطين، وهو واردر كريسون. إذ كان القنصل السابق الذي تحوَّل إلى صاحب مزرعة قد بدأ بدوره رحلةً بدنية وروحية. وكان يؤمن أنه بتكوين دولة إسرائيل في فلسطين يمكن للولايات المتحدة إنقاذُ نفسها من الاختلاف حول قضية العبيد، فكتب: «اختار الربُّ صهيون ... لتكون مركزَ هذا العالم ... ولا يمكن أن يكون هناك اتحاد أو انسجام ... من دون هذا التجمُّع.» وفي نفس الوقت كانت «أبحاث» كريسون حول العهد الجديد واتصالاته المكثَّفة مع اليهود قد قادته إلى التساؤل حول معتقداته هو، وإلى اعتبار نفسه واحدًا من هؤلاء

الذين جاء هو لتعميدهم. فترك ما أسماه «نشارة خشب المسيحية» ليتَّجه إلى «الأصل»، فأصبح يهوديًّا وخُتِن، واتَّخذ لنفسه اسمًا عبريًّا هو مايكل بواز إسرائيل.

في تلك الأثناء كانت «المزرعة الأمريكية النموذجية» التي أنشأها كريسون تبوء بفشلٍ تلو الآخر، وفي محاولة للحصول على بعض التبرُّعات، عاد كريسون إلى موطنه فيلادلفيا. ولم تستقبله زوجته بالأحضان، بل بدعوى قضائية مدنية تهدف إلى الحصول على باقي الأصول التي يمتلكها في أمريكا، مستغلةً تحوُّله الديني دليلًا على عدم أهليته الذهنية لإدارة شئونه. كانت جلسة المحاكمة حدثًا عامًّا، حضره أكثرُ من مائة شاهد، من بينهم موردخاي نوح، الذي دُعي للشهادة. وفاز المدَّعى عليه، وقالت جريدة «بابليك ليدجر» الصادرة في فيلادلفيا إن «ذلك يحدِّد إلى الأبد مبدأ يقرِّر أن الرأي الديني لأي شخص لا يمكن أن يُعَدُّ اختبارًا لقدرته الذهنية والعقلية». وعلى ذلك رحل كريسون — إسرائيل — عائدًا إلى فلسطين، وتزوَّج بسيدة يهودية، وانتقل إلى مدينة القدس. وهناك في يناير ١٨٥٧ تقابل مع هيرمان ميلفيل.

ربما مرَّت المقابلة على الرجلين دون أي حدَث يُذكر. فكتب ميلفيل باقتضابٍ عن كريسون أنه «أمريكي تحوَّل إلى اليهودية»، وأنه طلَّق زوجته في فيلادلفيا، وتزوَّج من سيدة يهودية من القدس. ولم يكتب شيئًا أكثرَ من ذلك في مذكراته. وحدَّد ميلفيل كلمةً واحدة لوصف الرجل الذي — كالعرب — تخلَّى عن كل هاجسٍ سيطر عليه. كانت هذه الكلمة الوحيدة هي «حزين».[10]

ومع ذلك فلم ينتهِ تفاعُل ميلفيل مع الأمريكيِّين المؤمنين بعودة اليهود بلقائه مع كريسون. فقد زار فيما بعدُ مقرَّ المزرعة الأمريكية النموذجية، وهي المستعمرة التي كان يديرها والتر ديكسون، والأخوان جروسشتاينبيك وعدد من الأُسر الأمريكية، من بين هؤلاء كان آل سوندرز — تشارلز ومارثا — من رود أيلاند، أول مَن استضاف ميلفيل. وكان الزوجان في منتصف الأربعينيات قد فشِلا في البحث عن الذهب في كاليفورنيا، قبل أن يعيدا اكتشافَ عقيدتهما ويبحرا إلى فلسطين. وصف ميلفيل السيد سوندرز قائلًا: «ميكانيكي عجوز ... أرهق حرَّ الشرق الأوسط أعصابه. ضعيف بطبيعته وأضعف بمرضه، لكنه رجل محترم.» وظنَّ ميلفيل أن ابنته أيضًا تبدو مريضة، ولديها حنينٌ لموطنها الأصلي. على العكس منهما كانت السيدة سوندرز، فقد كانت تدرس اللغةَ العربية على يد شيخ مجاور، وتتصرَّف وكأنها «طبيبة» تداوي المرضى الفقراء، كانت امرأةً شجاعة مقدامة، تحب قراءة «كتاب نساء بطلات»، الذي اعتبره ميلفيل «المثال والنموذج الذي تسير وراءه

طموحاتها». وقد عبَّر الزوجان عن استيائهما من اليهود الذين «يأتون مدَّعين أن بهم مسًّا، ثم يحصلون على ملابسَ ويختفون». كان تشارلز سوندرز قد يئس من تعليم أي يهودي أصولَ الزراعة، ولم يَعُد يأمُل في تحويل أيٍّ منهم إلى البروتستانتينية، ولكن مارثا ظلت على تفاؤلها. ونقل عنها ميلفيل قولَها: «عمل الرب يجب أن يتمَّ.» أما هو فكان يظن أنها «تنتظر الوقت الذي يحدِّده الرب».

من بيت آل سوندرز انتقل ميلفيل إلى ضيافة والتر ديكسون، الذي وصفه ميلفيل بأنه «أمريكي شمالي حقيقي، في حوالي الستين من عمره، ذو لحية شرقية طويلة، ويرتدي قميصَ الأمريكيِّين الشماليِّين الأزرق اللون، ومعطفًا طويلًا على طريقة الكويكرز». وكان من بين الحضور أيضًا زوجته الجافة سارة. وقد أورد ميلفيل جزءًا من حديثه معهما في مذكِّراته:

ميلفيل: «هل استقرَّت بك الأمور هنا نهائيًّا؟»

السيد ديكسون: «استقر بي الأمر على أرض صهيون.» (بتأكيد وإصرار)

السيدة ديكسون (وكأنها تخشى حديثَ زوجها عن هوايته وكأن الأمر يؤلمها)**:** «كان الطريق إلى هنا موحلًا بعضَ الشيء، أليس كذلك؟» …

ملفيل: «هل يعمل أيٌّ من اليهود لديك؟»

السيد ديكسون: «لا أملِك ما أستأجرهم به. لذلك أؤدي العملَ بنفسي، مع ابني. إلى جانب أن اليهود كسالى ولا يحبون العمل.»

ميلفيل: «ألا تعتقد أن ذلك يمثِّل عقبةً أمام تحويلهم إلى مزارعين؟»

السيد ديكسون: «هذا هو بيت القصيد. فالمسيحيون يجب أن يعلِّموهم بصورةٍ أفضل. والحقيقة هي أن الوقت قد حان. يجب أن يمهِّد المسيحيون الطريقَ إلى ذلك.»

كانت زيارة مزرعة ديكسون ختامًا لزيارة الكاتب التي استمرَّت ١٩ يومًا لفلسطين، وهي تجربة متميزة لكنها شاقة مجهدة. وكان الشرق الأوسط، تلك المنطقة الجذابة التي كان ميلفيل يأمُل أن تعيد إحياء إلهامه وعمله المتدهور. قد أثبتت أنها مصدرُ إحباط فظيع، واشتكى ميلفيل قائلًا: «الأمر كلُّه نصف محزن، ونصفه الآخر ساخر، مثل بقية العالم.»

ومرَّت عشرون سنة قبل أن يتَّضح تأثير رحلة ميلفيل إلى الشرق الأوسط في كلاريل؛ ملحمته الشعرية الطويلة. وعلى مدى ١٨٠٠٠ بيت شعري وفي قالب شعري لم يستسغه النقادُ والقراء على السواء، يحكي هذا العمل قصةَ طالب علوم دينية أمريكي، هو كلاريل،

في رحلة حجِّه إلى فلسطين. في الأرض المقدَّسة حيث يقوم التجار والمبشِّرون «باسم المسيح والتجارة بإهدار آخر مساحات في الغابات في العالم»، يقابل الشاب مجموعةً من الشخصيات المشحونة بالتزامها بذلك التحدي العاطفي. وأكثر تلك الشخصيات تميزًا كانت شخصية ناثان، وهو شخص غريب منحرف، من التطهريِّين، وقد غيَّر عقيدتَه إلى اليهودية مثل واردر كريسون. ففي حين كان كلاريل يصبو إلى إعادة استقطاب ناثان للمسيحية، إذا به يقع في حبِّ روث، ابنة المرتد. هذا التناقض بين ناثان وكلاريل، والتعامل المتناقض للعديد من اليهود في القصيدة — اليهود الأفارقة والهنود، واليهود الغربيون واليهود الرحَّالة — كان يمثِّل الصراع الروحي الذي يمر به ميلفيل نفسه. وظلَّ هذا الصراع بلا حل، بسبب مقتل ناثان على يد عصابة من العرب، تبِعه موت روث ميتةً تتقطع لها نياط القلوب.

ومع أنه كان من الواضح أنها أدواتٌ أدبية، إلا أن موت ناثان وروث كان له جذوره في واقع الشرق الأوسط أيضًا. وبعد عام من رحيل ميلفيل، في ١١ يناير ١٨٥٨، دخلت مجموعةٌ من خمسة عرب مزرعةَ ديكسون، بزعم أنهم يبحثون عن بقرةٍ تائهة. وخرج الأمريكيون لمساعدتهم في البحث، ووقعوا في الفخ من فورهم. وجرى فريدريك جروسشتاينبيك لالتقاط بندقيته، لكنَّ عيارًا ناريًّا أُطلق عليه فصرخ قائلًا لزوجته ماري التي كانت قد خرجت هي الأخرى للمساعدة، وهو ينزف على الأرض: «يا رب اغفر لي كلَّ ذنوبي وساعدني على تحمُّل هذا الألم الرهيب.» وجُرَّت ماري، التي تشبَّثت بعامود سرير مكسور، إلى الساحة؛ حيث اغتُصبت بوحشية مراتٍ عديدة. واغتُصبت أيضًا سارة ديكسون، وجُرح زوجها جروحًا عديدة وضُرب حتى أصابته حالةُ إغماء. أما كارولين ابنتهم الصغرى فقد تمكَّنت من النجاة عن طريق تمثيل أنها ميتة في أحد الأركان. وتتذكَّر ماري: «جلسنا نصف ساعة على الأقل دون حَراك في الظلام.»[11]

لم تَعُد مستعمرة ديكسون إلى سابقِ عهدها بعد هذا الهجوم. فقد فرَّ الناجون إلى الولايات المتحدة، وبينهم يوهان جروسشتاينبيك، الذي قصَّر اسمَه وأمركَه. أما حفيده، جون، فأصبح مؤلِّف روايات، من بينها «شرق عدن» و«عنب الغضب»، وكلُّها ذات أبعاد إنجيلية مأساوية.

سفن البحر والصحراء

قد تمرُّ حادثةُ هذا الهجوم والانتهاك الصارخ لأسرة أمريكية مسالِمة تقيم في الشرق الأوسط مرورَ الكرام فيما قبل، ولكن بحلول أواخر القرن التاسع عشر لم يَعُد بالإمكان

سرقةُ ونهب الأمريكيِّين المقيمين في المنطقة وهم محميون محصَّنون. كان وضعُ الأمريكيِّين في المنطقة قد تغيَّر تغيرًا جذريًّا منذ أيام جورج بيثون إنجليش، عندما غيَّر اسمَه وديانته ليثبتَ وطنيته في أرض النيل. وقد ندَّدت وزارة الخارجية بشدة بالهجوم على مزرعة ديكسون، مطالبةً بعقابِ مرتكبي الحادثة. ولكن السلطات العثمانية ماطلت في الموضوع. وأرسلت واشنطن أوامرها الغاضبة إلى قنصلها بالإسكندرية، إدوين دي ليون بالتقدُّم إلى يافا فورًا وإرسال اعتراض إلى الحاكم.

لم يكن دي ليون قنصلًا عاديًّا؛ فقد كان في السابق ناقدًا ومراسلًا أدبيًّا، من كارولينا الجنوبية. وكان قد أظهر أُلفة وحزمًا كبيرًا في علاقاته بالموظفين المصريين، وبذلك كسب ثقتهم. وكان دي ليون يهوديًّا أيضًا، وهو سليلُ أسرة يهودية محترمة من أصول إسبانية؛ وكان قد عُين في تلك الوظيفة بوزارة الخارجية بسبب الفكرة السائدة بأن اليهود يكوِّنون رابطةً طبيعية بين أمريكا المسيحية والشرق الأوسط المسلم. وأوصلته السفينة «سانت لويس» إلى الإسكندرية عام ١٨٥٣، وبسرعة كسب دي ليون ثقةَ خلفاء محمد علي؛ عباس حلمي، وسعيد. وقد أثبتَت هذه الصلات قيمتَها وأهميتَها ونفعها عندما تمكَّن دي ليون من ضمان مأوًى للمسيحيِّين الهاربين في مصر، بعد سلسلة من المذابح ضد تجمُّعات الروس الأرثوذكس في القرم.

أصرَّ دي ليون على الحصول على حكمٍ عادل لضحايا مزرعة ديكسون، وعلى أن يقوم العثمانيون بـ «تصرُّف فوري وحازم وفعَّال لن تكون الحياة والممتلكات الأمريكية ... آمنةً دونه أبدًا في سوريا، ولن ينال اسمُ أمريكا ما يستحقه من احترام». فوصل إلى يافا في ٥ مارس ١٨٥٨، وطالب على الفور بمقابلة الحاكم، وقد قابله بالفعل، ولكن دي ليون رفض أيَّ نوع من أنواع كرم الضيافة التي عُرضت عليه.

تساءل مضيِّفه المستاء: «هل بلادنا في حالة حرب بحيث تُعاملنا بهذه الطريقة؟»

فأجابه دي ليون بغلظة: «نحن نَعُد الحاكم الذي يقبَل قتلَ الرجال وانتهاك النساء، بل ويعتِّم على ذلك، يعلن الحربَ علينا. وها أنتم أولاء قد بدأتم، ولم نبدأ نحن. وإذا كان الحاكم يرفض اعتقالَ مرتكبي الجريمة، فإن الولايات المتحدة سترسل سفينةً حربية لإلقاء قنابل على مساحاتٍ شاسعة من البلاد، ولن تترك حجرًا على حجر في يافا.»

اتخذ المحافظ الحاكم — على الفور — موقفًا أكثرَ ليونةً وتعاونًا، واعتقل عددًا من أعضاء قبيلة بدوية ذات شأن، وجدت معها بعض مقتنيات آل ديكسون. وكانت مطالب دي ليون قد أُجيبت، ولكن فجأةً تزايدت مشكلاته. فقد أحاط المئات من أقارب وعشيرة

المساجين المسلَّحين بأسوار المدينة، مطالبين بالثأر. وواجهت القنصل معضلة: إما أن يفرِج عن المتهمين، أو يخضع للحصار. لكنه لم يختَر أيًّا منهما.

كان يفهم الشخصية العربية جيدًا، كان يفهمها بما يكفي بما يعني أن ظهور أي تردُّد من جانبه قد يقف حجرَ عثرة أمام نجاح مهمته؛ لذلك جمع دي ليون الحاكم والترجمان وبعض الإنكشارية، ومجموعهم ثمانية رجال، واستصدر لهم أوامرَ بالحصول على خيل وبنادق. ثم قاد تلك القوةَ إلى خارج المدينة، مخترقًا صفوفَ البدو المتربِّصين بهم. وتفاخر فيما بعدُ قائلًا: «أرهبتهم جرأةُ تلك الحركة»، مضيفًا أن البدوَ منذ ذلك اليوم أطلقوا عليه اسم «المجنون، وهو لقبٌ يجعل للمرء نوعًا من الحصانة في الشرق». ولكنَّ الحاكم كان أقلَّ رضًا، كما لاحظ دي ليون؛ فقد أجبر أحدَ اليهود موظفًا مسلمًا على «عقاب مسلمين آخرين من أجل ... إرضاء مسيحيِّين».

حُوكم المتهمون، وثبتَت التهمة عليهم، ومع ذلك فقد رفض دي ليون اعتبارَ قضية آل ديكسون منتهيةً. فقد افترض أن «طبيعة العِرق الشرقي مثل طبيعة النَّمر: يتوق إلى المزيد من الدماء بعد أن جرَّب الدماء المسيحية». وآمن بأنه ستكون هناك هجماتٌ أخرى على مواطنين أمريكيِّين في المنطقة، إلا إذا قامت الولايات المتحدة باستعراض قوَّتها. ولتأمين «الرءوس غير المحمية للمسيحيِّين واليهود في فلسطين» نصح دي ليون الحكومةَ بإرسال سفينة حربية إلى الشرق الأوسط، «علامةً أو دليلًا على قوَّتنا».[12]

أخذت الحكومة بنصيحة دي ليون، وفي أكتوبر ١٨٥٩، ظهرت السفينة الأمريكية «ماسيدونيان» عند السواحل السورية. كان قبطان السفينة هو يوريا ليفي، وهو شخصيةٌ مثالية، اشتهر بسبب تصريحه بأنه «يفضِّل العمل خادمًا على سفينة في البحرية الأمريكية على أن يكون قبطانًا في أي أسطول آخر في العالم»، وبالإضافة إلى ذلك، يرجع الفضل إليه في إيقافِ عادةَ الجلد التي كانت تُمارس في البحرية. كان ناجحًا في عالم رجال الأعمال أيضًا، فاشترى مزرعةَ مونتيتشيللو من جيمس تيرنر باركلي، المبشِّر في القدس، وأعاد إليها جاذبيتها على نمط جيفرسون. ولكنَّ الأكثر تميزًا من ذلك أنه نجح في أن يصبح أول يهودي أمريكي يصل إلى مرتبةِ عميد في البحرية الأمريكية.[13]

وهكذا حدَث أن اثنين من اليهود الأمريكيِّين، هما دي ليون وليفي، أصبحا من أشد المدافعين عن المسيحيِّين الأمريكيِّين في الشرق الأوسط، وهو موقفٌ متناقض بلا شك؛ ولكنه كان يعكس الثقةَ التي يمكن للولايات المتحدة استعراضها في المنطقة. والأهم أن هذه الحادثة كانت مؤشرًا على مدى قوة الأدوات الدبلوماسية والحربية التي يمكن وضعها

في خدمة الدِّين المسيحي الأمريكي (البروتستانتي) في الشرق الأوسط، وهو مزيجٌ متميز للغاية.

ولكن كان لا يزال ينقص ذلك المزيجَ العنصرُ الأسطوري، إلا أن هذا أيضًا كان سيُضاف عما قريب من قِبل أمريكي آخر متميز. إنه جورج بيركنز مارش الذي وُلد في فيرمونت وتعلَّم في دارتموث؛ وعمِل في تربية الماشية، وكذلك في مجال المطاحن وفي بناء الجسور وفي المحاجر قبل أن يرِث ثروةً ويهَبَ نفسه للفن. وفضلًا عن ذلك وجد وقتًا في عام ١٨٤٠ لدخول مجلس النواب الأمريكي (الكونجرس)؛ حيث عقَد صداقةً قوية مع زميله عضو الكونجرس العجوز جون كوينسي آدامز. وبعدها بعشر سنوات غادر مارش واشنطن ليترأس السفارةَ الأمريكية في إسطنبول. وكان انطباعه عن الأتراك أنهم «أناسٌ أجلاف» وأن الشرق الأوسط «مكانٌ بائس مملوء بكل أنواع الشرور ... الاغتصاب والقتل والسرقة والثأر الديني». ومع ذلك فقد أصبح سفيرًا ناجحًا وفعالًا، فروَّج لبيع السفن الحربية الأمريكية الصُّنع للباب العالي، ونظَّم أول بعثة عثمانية بحرية إلى الولايات المتحدة. وبالإضافة إلى ممارسة سلطاته باشر مارش أيضًا — وهو ابنُ قسٍّ منهجي — ميولَه الدينية، وفي أول فرصة أُتيحت له زار فلسطين.

أثبتَت الرحلة أنها رحلةُ تحوُّل لمارش، ليس فقط بسبب المرض الذي قارب أن يموت بسببه قُرب الناصرة. ففي فترة النقاهة والشفاء، فكَّر وتأمَّل في الحال السيئة التي وصلت إليها الأرض المقدَّسة، التي كانت غاباتها قد أُزيلت وتربتها قد جفَّت بسبب قرون طويلة من الزراعة العشوائية والرعي غير المنظَّم والإهمال. وفكَّر مارش أن أمريكا يمكن أن يصيبها الجفاف بدورها إذا استغلَّ مواطنوها بيئتَهم باستهتار، وإذا ظلَّ قادتهم غير عابئين بذلك. وهناك في فلسطين وضع مارش الأفكارَ التي ضمَّنها فيما بعدُ في عمله الرائع «الإنسان والطبيعة» الذي دعا فيه الحكومةَ إلى حماية الحياة البرية والموارد القيِّمة. وقاده هذا الدافع نفسه إلى حماية الولايات المتحدة من كوارثَ بيئية كتلك الحادثة في الشرق الأوسط، فبادر بحركة حماية البيئة الأمريكية وتكوين معهد بحثي قومي عن الطبيعة، وهو معهد سميسونيان.

ترجع نشأة فكرة الحفاظ على البيئة إلى تجربة مارش الدينية في الشرق الأوسط، ولكن المنطقة كانت تثير خيالاته الريفية أيضًا، فحينما كان في طريقه إلى القدس، انبهر بالحيوان الذي شبَّهه ميلفيل يومًا بـ «رجل الدِّين المرتدي ربطةَ عنق منشَّاة، مزيج من

النَّعامة والجرادة»، كان يقصد الجَمل. وكان لدى مارش تشبيهٌ آخر للجَمل، هو «سفينة الصحراء»، وكان يؤمن أنه إذا صُدِّرت إلى الولايات المتحدة يمكن أن تنتعش تلك الجِمال في الأجواء الجافة للجنوب الغربي، لتوصيل البريد وإحياء طُرق التوصيل بين المراكز المختلفة. والأكثر نفعًا أن الهجَّانة سيكون بإمكانهم إخضاعُ «قبائل ساكني الجبال وغيرهم، وضرب وإرهاب ... القبائل الوحشية القابعة على حدودنا».[14] وتخيَّل مارش أن ما بدأ خيالاتٍ عن الجِمال سينتهي إلى استعراضٍ للقوة الأمريكية.

قدَّم مارش رؤيته لسلاح الجِمال في معهد سميسونيان في يناير ١٨٥٥، وعلى الفور وافقه وزير الحربية جيفرسون ديفيز. وقال مبررًا ذلك: «عندما كان نابليون في مصر استخدم ... تلك الحيوانات نفسها في إخضاع العرب الذين كانت عاداتهم وبلادهم أقربَ ما تكون لعادات الهنود الحمر في الغرب الأمريكي.» وكانت النتيجة تأسيسَ مجلس النواب (الكونجرس) للشركة الأمريكية للجِمال، وخُصِّصت لها ميزانية قدرها ٣٠٠٠٠ دولار. وقُدِّم هذا المبلغ إلى ثلاثة من أقرباء السفير الراحل ديفيد بورتر، وهم إدوارد بيل، وجوين هاريس هيب، وديفيد ديكسون بورتر، الذين استعانوا بجهود دي ليون في مصر. واشتُري ٧٩ جملًا من عدة موانئ في الشرق الأوسط، وحُمِّلت على السفينة «سَبلاي»، وهي السفينة نفسها التي كانت قد أوصلت ويليام لينش إلى فلسطين. وقد تفاخر الضابط المسئول عن هذه الصفقة، الرائد هنري واين، قائلًا: «سيتمكَّن الأمريكيون من إدارة الجِمال ليس فقط بنفس المهارة، بل أفضل من العرب، وسيقومون بذلك بطريقةٍ أكثرَ إنسانية وبذكاء أكبر بكثير.» ومع استعراض القوة والشجاعة من قِبل واين، استقل خمسة من قادة الجِمال العرب السفينةَ معهم، من بينهم الحاج علي، أو كما كان الأمريكيون يطلقون عليه «هاي جولي».

وبعد أسابيع من الأمواج والبحار المضطربة، وصلت الجِمال في ١٤ مايو ١٨٥٦ إلى محطتها في إنديانولا، تكساس. وكان استقبالهم مدويًا؛ حيث اندفعت البِغال والخيول والماشية المحلية جريًا عند رؤية هذه الحيوانات الغريبة الشكل. وعرف الأمريكيون أن الجِمال يمكنها أن تحتفظ بالماء، لكنها أيضًا سهلة الاستفزاز والانتفاخ ورائحة أنفاسها كريهة، وهي قادرةٌ على إحداث أعراضٍ لراكبيها تشبه دُوار البحر. ولكن أهالي مدينة جالفستون تجنَّبوا تلك الحيوانات تمامًا وقاطعوها، كانت تُوقَّع على مَن يخرق تلك المقاطعة غرامة قدرها ٥٠ دولارًا. ومع ذلك فقد تابعت القافلة مسيرتها، ما بين عواصف رملية وأمطار غزيرة، من مدينة سان أنطونيو إلى مدينة فورت ديفاينس (قلعة التمرد)

بأريزونا. وتساءل ماي ستايسي، الجندي الذي كان يصاحب القافلة: «ماذا تمثِّل هذه الجِمال؟» وأجاب بنفسه: «الاندفاع الأمريكي للأمام، الذي يُخضِع حتى الطبيعة ذاتها بسبب طاقته الكبيرة ومثابرته وإصراره.»

كان جيف ديفيز سعيدًا منتشيًا. فقال: «هذه الاختبارات تؤكد مدى فائدتها في نقل العتاد الحربي والعسكري.» وقرَّرت الحكومة شراءَ ألف جمل إضافية، يُقدَّم إحداها لمجلس النواب من قِبل الملازم بورتر. ولكن الخطة لم تتحقَّق؛ فقد أصاب الركودُ السفرَ بالجِمال، وذلك بسبب ظهور الحصان الحديدي (القطار). أما الجِمال الباقية فبيعت إما للمناجم أو للسيرك، أو تُركت لترتع بحريةٍ في الصحراء الجنوبية الغربية. ونفق آخرُها واسمه توبسي، في حديقة حيوان لوس أنجلوس عام ١٩٣٤. أما الحاج علي (هاي جولي) الذي أصبح فيما بعدُ متخفيًا وعمِل ضمن سلاح الفرسان الأمريكي، فكُرِّم بتمثال تذكاري على هيئة هرم وطريق رئيسي أُطلق عليه اسمه. وبذلك انتهت قصةُ أمريكا القصيرة مع الجِمال، وغطَّاها النسيان بسبب العواصف التي هبَّت على كلٍّ من الشرق الأوسط والولايات المتحدة.[15]

في عام ١٨٦٠ كانت التوتُّرات العِرقية الكامنة تحت السطح منذ فترة طويلة في سوريا، التي أذكى جذوتَها الأوروبيون، قد وصلت إلى قمَّتها واندلعت نيرانها على مستوى البلد كلِّه، فذبح بعض الجنود الدروز ١٢٠٠٠ ماروني ويوناني أرثوذكسي ويوناني كاثوليكي. وكتب المبشِّر الأمريكي هنري جيسوب عن إحدى المذابح: «كانت أنهار الدم تصل للكاحلين، وتتدفَّق نحو البالوعات وتخرج من مواسير الصرف ثم تتدفَّق في الطرقات مرةً أخرى، ولم تُدْفن جثة واحدة.» وكان الحجم الهائل لتلك المذابح وأعمال العنف قد أذهل البروتستانت الذين وجبَ عليهم فجأةً إطعام نحو ١٥٠٠٠ لاجئ «يتملَّكهم الجوع والرعب ويعوِزهم المأوى». وبذلك وجد الأمريكيون أنفسهم مرةً أخرى وسط نيران الشرق الأوسط دون فهمٍ أو إنذار. وأخيرًا، وبسبب خوفهم على حياتهم تراجع المبشِّرون إلى بيروت، حيث أصبحوا بدورهم مستحقين للعون والمساعدة والصدقة.

كان حجم الحروب الأهلية الهائل في الشرق الأوسط، مهما يكن مرعبًا، يتضاءل بجانب الانشقاق الكبير الذي أصاب أمريكا. ففترةُ ما قبل الحرب الأهلية في التاريخ الأمريكي كانت تندفع نحو نهاية كارثية. وكانت حِقبة أخرى مهمة امتدَّت أربعين عامًا في علاقات البلد بالشرق الأوسط تقترب من نهايتها، وهي فترةٌ تميزت بتغييرات جذرية وبعيدة المدى.

وبناءً على تراثٍ ما بعد الفترة الاستعمارية في المنطقة — حروب البربر والبحث الأولي عن المغامرة، وبداية ظهور مجهودات التبشير — تدخَّل الأمريكيون في الشرق الأوسط بمزيجٍ من الثقة والفضول والحماسة. ولأنهم لم يعودوا في موقف ضَعف، اقترب الدبلوماسيون الأمريكيون من حكام الشرق الأوسط من منطلقات القوة والصداقة بصورة متزايدة. وفي الوقت نفسه جاب المستكشفون والسائحون المنطقةَ بكثير من اللَّهفة، وعن طريق كتاباتهم قدَّموا للآلاف من أبناء وطنهم طيفًا واسعًا من ثقافات الشرق الأوسط المتباينة. وبلغ الشغف الشعبي بالمنطقة مداه، يحفِّزه الفنانون الأمريكيون الذين رسموا بحرية تامة، مستخدمين أنماطًا ونماذجَ شرق أوسطية، في بحثهم عن مصادرَ للإلهام تتعدَّى «ألف ليلة وليلة». وفي تلك الأثناء كان البروتستانت الأمريكيون قد تعافَوا من نكساتهم المأساوية، ليضعوا أسسَ شبكة تعليمية ساعدت على بثِّ الأفكار الجمهورية والوطنية في الشعوب المحلية.

وبدلًا من مجرَّد مهاجمة الشرق الأوسط أو إظهار ردِّ فعلٍ من أي نوع تجاهه، كان الأمريكيون يتفاعلون معه لأول مرة على عدة مستويات؛ استراتيجية وتجارية وثقافية وعلمية. ومع أن العلاقات لم تكن دائمًا متبادَلة من حيث الاحترام، أو خالية من التوترات، فإن شعوب الولايات المتحدة والشرق الأوسط كانت تشارك في تفاعلاتٍ متنوِّعة ومثمرة للغاية. فقد بدءوا — مهما كانت البدايات متردِّدة وغير سلسة — في التعرُّف على بعضهم.

وفي حين كانت العلاقات بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط تزداد قوة، فإن القضايا الأساسية للتدخُّل الأمريكي في المنطقة — القوة والإيمان والخيال — اختلطت بدورها، فتضاربت أحيانًا، لكنها في النهاية كانت تمتزج بلا رجعة. وبينما كان الأمريكيون يتباعدون عن بعضهم في أمريكا. كان موعد انتخاب جيفرسون ديفيز رئيسًا للكيان الكونفيدرالي المنفصل حديثًا قد اقترب. ووجد ويليام فرنسيس لينش — القبطان في البحرية الكونفيدرالية — نفسَه في حرب وصراع مع ديفيد ديكسون بورتر ويوريا ليفي، اللذين ظل كلٌّ منهما على ولائه للاتحاد. أما إدوين دي ليون فخدم في الولايات الجنوبية، في حينِ حمل يوهان شتاينبيك السلاحَ لمصلحة الشمال. وأُصيب ديفيد دور إصابةً بالغة، في محاربته من أجل تحرُّر جورجيا وانفصالها.[16]

وكانت الأمة المتحدة دستوريًّا — ونتيجةً جزئية لتجربة أمريكا في الشرق الأوسط — تتفتَّت بسرعة. كما أن الحرب الأهلية القادمة ستُغيِّر بطريقة جذرية الجمهوريةَ من عدة وجوه، ومع ذلك كان سينتج عنها أيضًا تأثيرٌ مستمر على شعوب المنطقة، بدءًا بالمغرب

ومرورًا بسوريا ووصولًا إلى الأناضول. وكانت أولى جامعات المنطقة على الطراز الغربي ستُقام، وتدخل أحدثُ التكنولوجيا للمساعدة في تحديث تلك المجتمعات التقليدية. لقد لعبَ الصراع في الولايات المتحدة دورًا مهمًّا في حفر قناة السويس أيضًا، وهو ما أثَّر بدوره على سياسة المنطقة لِما يزيد على قرن كامل من الزمان. وفي حين تصارع الأزرق والرمادي حول مستقبل البلاد، كان الجنود ورجال الكنيسة والرحَّالة الأمريكيون يغيِّرون معًا الشرقَ الأوسط ويحدِثون تحولاتٍ فيه.

الباب الثالث

الحرب الأهلية وإعادة التعمير



الفصل الثامن

التصدُّع

العبودية هي القضية التي أدَّت إلى تزايد انقسام الأمريكيِّين في الفترة ما بين الثورة والحرب الأهلية، ولم يكن لها ظاهريًّا أيُّ علاقة ملحوظة بالشرق الأوسط. لقد كانت مشكلةً أمريكية، وكان على الأمريكيِّين وحدَهم، وليس على المصريِّين أو المغاربة، مواجهتها وحلها. ومع ذلك، فقد احتل الشرق الأوسط — منذ الأيام الأولى للجمهورية — مكانةً بارزة ومحورية أحيانًا في الصراع بين معارضي العبودية ومؤيديها. ومن صور هذا الصراع ما ظهر في الجريدة الرسمية الفيدرالية، عدد مارس عام١٧٩٠ في مقالٍ بعنوان «عن تجارة العبيد». وقد اشتُهر أن هذا المقال سُطِّر بقلم سيدي محمد إبراهيم، وهو أميرٌ جزائري يمتلك عددًا كبيرًا من العبيد ويرغب في الدفاع عن حقه في الاحتفاظ بهم، ونوَّه المقال عرضًا إلى أن عبيد هذا الأمير كانوا من الأمريكيِّين البِيض ولم يكونوا من السود الأفارقة.

وتساءل سيدي محمد في مقاله: «إذا توقَّفت حملاتنا ضد المسيحيِّين ... وعن جعل شعوبهم عبيدًا ... فمَن الذي سيفلِح لنا أرضنا؟» كان تساؤلًا بليغًا؛ لأن الإجابة كانت واضحة: ففي غياب الأسرى «العبيد» الأمريكيِّين ينبغي على الجزائريِّين أنفسهم أن يعملوا في فلاحة الأرض. ولكنَّ الأمير عبَّر أيضًا عن اهتمامه بأحوال العبيد، وقلقه بشأنِ ما إذا كانت سنوات الأَسْر قد سلبتهم القدرةَ على الحياة بحرية اعتمادًا على أنفسهم. وأضاف أنهم بتحرُّرهم سيكون من المؤكد أن يتحولوا إلى عبء اجتماعي، وسيكونون معرَّضين لظروف عمل لا إنسانية. وبدلًا من «إخراجهم من النور إلى الظلمات»، تساءل سيدي محمد عما إذا كان العبيد الأمريكيون سيكونون أفضلَ حالًا تحت «شمس الإسلام» ومتمتِّعين برعاية وعناية الجزائر. وانتهى إلى قوله «... لا نريد أن نسمع المزيدَ عن هذا الاقتراح غير المستساغ؛ فقبول هذا الاقتراح ... سيؤدي إلى حالةٍ عامة من الفوضى ... وعدم الرضا».

أثار هذا المقال جدلًا كبيرًا في جميع أنحاء الولايات المتحدة، بسبب هوية كاتبه الخيالية، فشخصية سيدي محمد كانت من بنات أفكار بنجامين فرانكلين. وكان فرانكلين عجوزًا في ذلك الوقت، ولكنَّ ذهنه كان متوقدًا. فعن طريق سردِ الحجج نفسها لتبرير استعباد السود في الولايات المتحدة — أي افتراض عدم قدرتهم على التواؤم مع الحرية أو على البقاء دون حماية البِيض — للدفاع عن استعباد القوقازيِّين من قِبل الجزائر كان فرانكلين يسعى إلى تعرية نِفاق ملَّاك العبيد الأمريكيِّين. وتزامن هذا التشبيهُ مع جدل عنيف دار في مجلس النواب عن شرعية تجارة الرِّق، وهو مشروع انتهاك الدولة لحقوق الإنسان؛ أي الدستور ضد وثيقة الاستقلال. ولكن الفجوة بين مؤيدي ومعارضي العبودية كانت غيرَ قابلة للجَسْر، واستسلم مجلس النواب للوضع الراهن. وفشِل آخرُ اختراعات فرانكلين — فقد مات بعدها بثلاثة أسابيع — في تحقيق هدفه. وأدَّت قضية الرِّق في السبعين عامًا التالية إلى مزيد من التفسُّخ والانقسام بين الشعب الأمريكي.[1]

مؤسَّسات غريبة متشابهة

لم يكن فرانكلين أولَ مَن عثر على خطوط متوازية بين مفهوم الرِّق في الولايات المتحدة وممارساته في الشرق الأوسط. فقبل ذلك بعدة سنوات، وتحديدًا في عام ١٧٧٦، انتقد القس صامويل هوبكنز عدمَ إيمان أعضاء كنيسته مالكي العبيد في مدينة نيوبورت في رود أيلاند. وقال موبِّخًا: «إذا كان عدة آلاف من أطفالنا عبيدًا في الجزائر أو في أي جزء من المناطق الخاضعة للسيطرة التركية ... أكنا ندَّخر وُسعًا أو مالًا ... من أجل تحريرهم؟» وكان هوبكنز — أحدُ المؤسِّسين المستقبليِّين للمجلس الأمريكي للبعثات الأجنبية — قد تساءل عن ماهية الأمريكيِّين الذين يضيق صدرُهم إزاء السجناء المسيحيِّين في شمال أفريقيا، وإذا ما كان نفس الأشخاص الذين لا يُظهِرون أيَّ اهتمام أو تعاطف تجاه المأساة التي يعيشها العبيد في الولايات المتحدة؟ وأجاب قائلًا: «السبب واضح. إنهم من السود.»

لقد كانت المقارنات بين نوعَي الرِّق، الأمريكي والشرق أوسطي، تزداد انتشارًا بعد حصول الولايات المتحدة على استقلالها، وبدء البربر في خطف الأمريكيِّين. ولهذا وبَّخ جون جاي أبناءَ وطنه لإظهارهم تعاطفًا مع البحَّارة المختطَفين في الجزائر، في حين أنهم لا يبالون بخدَمِهم في المنازل، تمامًا كما فعل القس هوبكنز من قبل. وفسَّر ذلك قائلًا: «العبيد الأمريكيون في الجزائر كانوا بيضَ البشرة، في حين كان العبيد الأفارقة في نيويورك سود البشرة.» ولاحظ مراسلٌ في جريدة «نيوجيرسي» الرسمية الذي يطلِق

على نفسه اسم هيومانوس (الإنساني)، فقال في عدد سبتمبر ١٧٨٦: «لا شك أن أسياد العبيد السود يرتعدون لمجردِ فكرة أن يكونوا عبيدًا للجزائريين، وأن يُعامَلوا من قِبل الدكتاتوريِّين البرابرة بنفس الطريقة، ولكن هل هم أقلُّ دكتاتوريةً من أتباع محمد؟» وفي العام التالي أبلغت مارثا جيفرسون أباها مالكَ العبيد وسفير أمريكا في باريس عن سفينة من فرجينيا هربت بأعجوبة من الجزائريِّين لمجرَّد أن تعود إلى وطنٍ يسمح بالرِّق. وقالت حزينة: «يا إلهي ألم نتَّعظ بعدُ؟ إن قلبي ينفطر … أن يُعامَل أشقاؤنا في الإنسانية بهذه الوحشية … على يد العديد من أبناء وطننا.» وكانت مارثا إحدى المعارضات الأوائل للرِّق مثل جمعية إلغاء الرِّق في بنسلفانيا، وحثَّت الحضورَ في مؤتمر الدستور على النظر في مأساة الأمريكيِّين في الجزائر باعتبارها عِقابًا إلهيًّا «على الظلم والقسوة التي نعامِل بهما الأفارقة البؤساء». وسأل كاتبٌ مجهول قرَّاءه عام ١٧٨٩: «أيهما أسوأ: استعباد الأمريكيِّين للأفارقة، أم استعباد الأفارقة للأمريكيِّين؟» وكانت الإجابة بسيطة من وجهة نظره: «إنهما واحد.»

إن أوجه الشبه بين الرِّق الأمريكي والشرق أوسطي من الموضوعات التي تلقى رواجًا كبيرًا بين الكتَّاب الأمريكيِّين الأوائل. فقد هاجم رويال تايلر الخبيرُ القانوني من نيو إنجلاند في روايته الصادرة عام ١٧٩٧ باسم «الأسير الجزائري» سلبيةَ الأمريكيِّين نحو البربر، وهاجم أيضًا نفاقَ أمريكا تجاه مسألة الرِّق. فقَبل أسْرِه على يد القراصنة عمِل بطلُ روايته أبدايك أندرهيل جرَّاحًا على متن سفينة لنقل العبيد اسمها «سمباثي»، وهو بالطبع اسمٌ ساخر، وفي هذه الرواية يُعامَل الأفارقة «مثل قطعان الماشية أو الخنازير»، ويتعرَّضون للضرب والاغتصاب والجوع. فيقول: «فكَّرت في بلادي واحمرَّ وجهي خجلًا». وبعد أسرِ القراصنة واستعبادهم له لاحقًا، يقسِم أندرهيل أنه إذا حُرِّر فسيطير «إلى الولايات الجنوبية وسيجثو على ركبتيه يناشدهم أن يكفوا عن حرمان مخلوقاتٍ مثلهم من الحرية التي منحها الدستورُ حقًّا لا يمكن أخذُه أو التنازلُ عنه لأنه حقٌّ للإنسانية جمعاء». هذا، كما شهد عام ١٧٩٧ إصدارَ قصيدة مجهولة باسم «أمريكي في الجزائر» لأحد الوطنيِّين، في السادسة والسبعين من عمره، زعم أنه يكتب من داخل سجن جزائري. ويصف مآسي ورعب السَّحْل في الشوارع والإهانات والضرب، ثم الإلقاء بهم عند قدمَي الداي، ويشبِّه الشاعر محنتَه بمحنة الأمريكيِّين السود، قائلًا:

ألا تتضمَّن هذه الآلة المقدَّسة
قوانين الطبيعة وحقوق الإنسان؟

إذا كان الأمر كذلك، فمن أين حصلت
على حق ربط الأفارقة في سلاسل وقيود الرِّق؟
لقد وُلد البشر أحرارًا
أما أبناء أفريقيا فيبقون عبيدًا.[2]

وكانت هناك مقارناتٌ أكثر انتقادًا لأمريكيِّين مرُّوا بتجربة العبودية في الشرق الأوسط. فقد شجَب جيمس ستيفنز وهو بحَّار حُرِّر من الأسرِ في الجزائر عام ١٧٩٦، «الممارسات المروِّعة للرِّق في الولايات المتحدة»، وتساءل: «بأي وجهٍ إذن يمكننا أن نوبِّخ البربر الذين يكرِّرون ويقلدِّون ممارساتنا مع ... مواطنينا؟» أما ويليام إيتون فلم يتوقَّف عن انتقاد شمال أفريقيا بسبب استعبادهم للأمريكيِّين، وكذلك المؤسسات القائمة في وطنه. وأعلن من تونس عام ١٧٩٩ أن «البربرية هي الجحيم، وعلى هذا المنوال فإن هذا ينطبق على كل أمريكا إلى الجنوب من بنسلفانيا، ما دام هناك ظلمٌ ورِقٌّ وبؤس!»

لقد كانت أكثر تلك الشهادات تأثيرًا هي شهادة جيمس رايلي وهو قبطانٌ بحري في الثامنة والثلاثين من عمره، من كونيتيكت، أصولي متعصِّب، ومتطوع عسكري في حرب عام ١٨١٢. فعندما كان رُبانًا لسفينة تجارية عام ١٨١٥ تحطَّمت السفينة قُرب السواحل الإسبانية، وأسرَه العرب، واقتيد عبر الصحراء. وفي نهاية المطاف، وصل إلى مدينة أغادير المغربية، حيث دفع القنصل البريطاني كفالةً للإفراج عنه، ولكنه «لم يُفرَج عنه» قبل أن يُضرَب بعنف ويُحرَم من الماء ويُخَفَّض ثمنه إلى تسعين جنيهًا فقط في سوق العبيد. وعندما عاد إلى واشنطن قابل رايلي الرئيس مونرو الذي شجَّعه على نشر قصته، وأصبح كتاب رايلي «آلام في أفريقيا» يمثِّل قمة الإثارة على المستوى القومي، وبيعت منه نحو مليون نسخة على مدى الأربعين عامًا التالية. وكان القراء يجدون الفصلَ الأخير — خاصةً — جذابًا ومثيرًا، حيث يحكي المؤلِّف عن الرعب الذي عاشه عندما تذكَّر العبيد السود في سوق النِّخاسة بمدينة نيو أورلينز، ومن ثَم دعا الأمريكيِّين إلى نبذِ «شجرة الرِّق الملعونة، وإلى كسرِ عصا الظلم والطغيان». وكان من أكثر المعجبين بالكتاب قارئ شاب كان يفضِّل القراءة على العمل في مزرعة والده بإنديانا، إنه إبراهام لنكولن. وعند توليه منصبَ الرئاسة — بعد ذلك — كان يَعُد كتاب «آلام في أفريقيا» والإنجيل وكتاب «تقدُّم الحاج» من الكتب التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل حياته وفكره.

ولم يكن لنكولن وحدَه الذي توصَّل إلى نبذ الرِّق عن طريق كتابات الأمريكيِّين الذين شهدوا وعايشوا تجربةَ الرِّق بأنفسهم. فإن بعضَ المعارضين البارزين للرِّق، ومن بينهم

هوراس مان وتشارلز ويلز براون وتيودور باركر أشاروا إلى وحشيةِ الرِّق في الشرق الأوسط عندما كانوا يطالبون بتحرير الأمريكيِّين السود منه. وقد أصرَّ بعضهم على أن عبيد شمال أفريقيا من الأمريكيِّين البِيض يَلقَون معاملةً أفضل وأكثر رحمة من العبيد في الولايات المتحدة. وفي مقال بعنوان «الرِّق الأبيض في الدول البربرية» قارن تشارلز سمنر — أستاذ القانون بجامعة هارفارد الذي أصبح فيما بعدُ نائبًا عن ولاية ماساتشوستس — «الولايات البربرية الأمريكية» بتلك التي في شمال أفريقيا، فكانت النتيجة لمصلحة الأخيرة، واتَّهم سمنر الجنوب الأمريكي بأنه يُظهِر «أقلَّ قدْر من مزاعم العدل والإنسانية».[3]

لقد كانت قسوة الرِّق في الشرق الأوسط مقزِّزة ومنفِّرة بصورة خاصة للمبشِّرين الأمريكيِّين الذين يخدمون في المنطقة، وكان معظمهم من المعارضين للرِّق. وكانت السفينة المحمَّلة بالعبيد السود المبحِرة نحو القاهرة عام ١٨٢٣ — على سبيل المثال — تُعَدُّ عند ليفي بارسونز وبليني فيسك «مشهدًا ينجح دائمًا في استثارة أكثرِ المشاعر إيلامًا في صدورنا». وبعد ذلك بعشرين عامًا ومن قمَّة جبل صهيون، تنبأت هارييت ليفرمور «بكوارثَ كبيرة على المستوى القومي» تنتظر الولايات المتحدة عقابًا لها على سماحها بممارسة الرِّق.

ولكنَّ أكثر المقارنات البارزة كانت مقارنةً قام بها أمريكيون من أصول أفريقية، لم يشبهوا مأساتهم في الولايات المتحدة بمأساة الأمريكيِّين في الجزائر، بل بمأساة بني إسرائيل القدامى في مصر. وبذلك كانت الأرض المقدَّسة تمثِّل لهم رمزًا للحرية، وهو ارتباطٌ ظهر عن طريق كنائسهم التي كثيرًا ما كانت تسمَّى باسم صهيون وبأسماء دينية يهودية أخرى، وتغنَّوا بها أيضًا في موسيقاهم. ويتذكَّر فريدريك دوجلاس قائدُ الأمريكيِّين الأفارقة الشهير أنَّ «أيَّ مراقب واعٍ كان بإمكانه التعرُّف في غنائنا المتكرر: يا كنعان ... يا كنعان شيءٌ أكثر من الأمل في الجنة. قصدنا الشمال، وكان الشمال كنعان.»[4]

ومن الغريب أن هؤلاء الذين كانوا أقلَّ ميلًا إلى الربط بين نوعي الرِّق هم الأمريكيون الذين سافروا إلى المنطقة. فبدءًا بجون ليديارد عام ١٧٨٨، كان الأمريكيون المتجهون إلى الشرق الأوسط يصرُّون على زيارة سوق العبيد المحلي. وعبَّروا في كتاباتهم عن مدى الرعب في المشاهد التي شهدوها، ولكنهم لم يربطوا قط بينها وبين المشاهد المماثلة في بلادهم. وفي القاهرة كان د. فالنتاين موت مصدومًا لرؤيته عمليةَ بيع امرأة بيضاء، وصفَها بأنها «رمزُ الجَمال لعِرقٍ يُعَدُّ الأكثر مثاليةً بين البشر»، معلنًا أنه «مشهد يقطع نياط القلب»، لكنه لم يذكر ولو مرة واحدة المزادات التي كانت تقام لبيع النساء السود في موطنه. أما ناثانييل باركر ويليس فأبدى تعاطفه مع عبيد شرق أوروبا — الذين مرَّ

بهم في إسطنبول — «المقيَّدة أرجلهم ... وهم في حالة نفسية سيئة ويتجمَّدون من البرد». ولكنه لم يأتِ أيضًا على ذكر السلاسل البشرية من السود المارين وسط الجنوب الأمريكي. وفي مقابلته قافلةَ عبيد في جدة (بالسعودية اليوم) انبهر جون لويد ستيفينس «بمدى قُرب أسلوب الإنسان للدرجات الدنيا من الحيوانات»، لكنه مع ذلك لم يشجُب التعامل اللاإنساني للملايين من مواطنيه.

ومن بين الكثيرين من السيَّاح الأمريكيِّين الذين سجَّلوا رحلاتهم في بلاد المسلمين، يبدو أن اثنين فقط هما اللذان استخلصا روابطَ واضحةً بين الرِّق في الشرق الأوسط «والمؤسَّسة الغريبة» للرِّق في وطنهما. كان الاثنان من الجنوب، ومع ذلك فقد أسهمت ملاحظاتهما في إيضاح الانقسامات التي سرَت في بلادهما بعدها بقليل. وقد قارن جيمس كولي بين أحوال العبيد في الشرق الأوسط والسود في موطنه المسيسبي، وقال: «إنهم يحصلون على غذاء جيد وسعداء ومهذَّبون.» وعرض ديفيد دور — الذي وصف نفسه «بالرجل الملوَّن» — وجهةَ نظر مخالفة، عندما أعلن تعاطفه مع العبيد البِيض والملوَّنين الذين رآهم في الشرق الأوسط. وتذكَّر السنوات الطوال التي قضاها وهو عبدٌ والملايين في الولايات المتحدة الذين ينتظرون التحرُّر، وتجرأ متسائلًا: «متى نصبح أكثرَ الحكومات تحررًا في العالم؟»[5]

الشمال والجنوب والشرق الأوسط

بعد كثيرٍ من المعارك المغرِقة في الدموية بدءًا من ١٢ أبريل ١٨٦١ جرى الرَّد على تساؤل دور عندما فجَّر الانفصاليون ميناء فورت سمتر. ومنذ ذلك اليوم وحتى استسلام الجنوب بعدها بأربع سنوات كان الأمريكيون منشغلين بكوارثهم الداخلية، ولم يكن لديهم أيُّ حماسة للاهتمام بشئون الشرق الأوسط. وبصرف النظر عن الملابس التي اقتبسوها من جنود المشاة الجزائريِّين في الجيش الفرنسي؛ الطربوش والسروال والقفطان التي كان يرتديها العديد من الوحدات الشمالية، لم يكن لدى الأمريكيِّين أيُّ شيء يذكِّرهم بضلوعهم في شئون الشرق الأوسط في فترةٍ ما قبل الحرب الأهلية. وكان الاهتمام الرئيسي لكلٍّ من قادة الاتحاديِّين والانفصاليِّين يدور حول ضمان مساندة حكام المنطقة لقضيتهم، أو — إذا لم يتحقَّق ذلك — ضمان حيادهم في الصراع الداخلي الأمريكي.

وعبَّر وزير الخارجية ويليام هنري سيوارد عن قلقه من قيام حكومات الشرق الأوسط «المعتادة تقديمَ فروض الاحترام لمظاهر القوة واحتقار مظاهر الضَّعف» باستغلال ضَعف

وانقسام الولايات المتحدة. وبالفعل كان السفير الأمريكي لدى الباب العالي جيمس ويليامز القادم من ألاباما قد حاول إقناعَ الباب العالي بنبذِ الاتحاديِّين والاعتراف بالانفصاليين.

وبرغم أنه كان قد احتفى بتنصيبه في قاعة مآدب أُطلق عليها «قصر علاء الدين الإسلامي»، لم يركن أبراهام لينكولن إلى خيالات الشرق الأوسط. على ذلك أقام الرئيس لنكولن، إدوارد جوي موريس من بنسلفانيا مكانه، مؤكدًا للسلطان رغبتَه في «الاستمرار في توطيد علاقات الصداقة التي كانت دومًا قائمةً بين الإمبراطورية العثمانية والحكومة الأمريكية». ولكنَّ العثمانيِّين الذين كانوا يقاومون المحاولات الانفصالية في اليونان والبلقان لم يكونوا بحاجةٍ إلى كثير من الإقناع؛ ففي ردِّه على لنكولن أكَّد السلطان عبد العزيز «تعاطفه» مع الشمال معبِّرًا عن أمله في أن «تُسَوَّى الخلافات مع الجنوب عما قريب بصورةٍ تحفظ للاتحاد كيانَه». واتخذ السلطان خطواتٍ استثنائية لتجديد معاهدة عام ١٨٣٠ مع الولايات المتحدة، وعمِل على منعِ سفن الانفصاليِّين من الإبحار في المياه الإقليمية العثمانية.[6]

كانت علاقات أمريكا بالشرق الأوسط عامةً مستقرة، وتتَّسم بالاحترام المتبادل، في أثناء الحرب بين الولايات، وكانت هذه العلاقات على العكس تمامًا من الوحشية التي أظهرها الأمريكيون بعضهم نحو بعض. ومع ذلك فقد كانت مخاطر اعتبارهم ضعفاء قد ظهرت بجلاء في حادثتين غامضتين.

جرَت الحادثة الأولى في فبراير ١٨٦٢، في رحلة هنري مايرز وتوماس تونستال إلى المغرب. هناك، كان مايرز من جورجيا صراف الرواتب على سفينة الانفصاليِّين «سمتر» التي تمكَّنت من الاستيلاء على ١٨ سفينة اتحادية قبل دخولها ميناءَ جبل طارق. وبحثًا عن مؤن، استقل مايرز وتونستال القادم من ألاباما الذي عمِل فيما مضى دبلوماسيًّا أمريكيًّا في إسبانيا، سفينةً فرنسية متجهةً إلى كاديز، لكنها توقَّفت في طريقها للقيام بجولة سياحية لزيارة معالم طنجة. وثبَت أن جاذبية الشرق الأوسط باهظةُ الثمن عليهما، حينما عرف القنصل الأمريكي جيمس دي لونج بوجودهما بالمدينة.

كان دي لونج قاضيًا سابقًا من أوهايو، في الخمسين من العمر، وطنيًّا عنيدًا ولديه ميولٌ كبيرة للقيام بأعمال متهورة، وقد وصل إلى مبنى القنصلية المهمَل في نوفمبر ١٨٦١، وطالب من فوره وزارةَ الخارجية بإرسال عَلم أمريكي كبير عليه ٣٤ نجمة، بالإضافة إلى عدة صور في إطار لواشنطن ولينكولن وكل الوزراء الحكوميِّين. ومتسلحًا بهذه الصور طالبَ دي لونج بعدها الحكومةَ المغربية أن تمتنع عن الاعتراف «بما يسمَّى الانفصاليِّين

الجنوبيين»، مع منعِ سفنهم من الرسوِّ في الموانئ المغربية. وبعد خمسة أيام من وعد الحكومة المغربية له بأنها ستقوم بذلك، أي في ٢٠ فبراير علِم دي لونج أن المتمردين المنشقين قد رسَوا في طنجة.

وتوعَّدهم القنصل قائلًا: «يمكن للمواطنين الأمريكيِّين أن يتحدثوا ويخططوا للخيانة والتمرُّد في الوطن، لكنهم لن يقوموا بذلك حيث أُوجَد أنا، إذا كنتُ أملك السلطةَ لمنع ذلك.» وبالتعاون مع سلطات البربر، استصدر دي لونج أمرًا باعتقال مايرز وتونستال وقيَّدهما بالأغلال في أعلى غرفة بالقنصلية. وحاول الاثنان الهربَ مرةً بعد مرة، مقدِّمَين رشوةً للحراس المغاربة على هيئة ساعات يد خاصة بهم، وحاولوا كسرَ قيودهم بسكين مخبَّأة في سروال مايرز ولكن بلا جدوى. وفي تلك الأثناء كان مايرز قد طلب مساعدةَ البحرية الأمريكية لنقل أسراه من طنجة. فكتب قائلًا: «أريد حضورَ شخص عسكري إلى هذا الخليج»، لكنه كان يشعر أن تصرُّفاته قد تكون محلَّ جدل.

لقد كان دي لونج واعيًا لحادثة وقعت منذ أربعة أشهر عندما استولت السفينةُ الحربية التابعة للاتحاد المسمَّاة «سان جاكينتو» على السفينة «ترنت»، وهي سفينة تجارية بريطانية، وأسرَت اثنين من الدبلوماسيِّين الانفصاليِّين الموجودين على متنها. وأثار اعتقالهما أزمةً سياسية عندما اتهمت لندن الولايات المتحدة بانتهاك الحياد البريطاني. وخوفًا من أن تقوم حكومة جلالتها بالانتقام عن طريق الاعتراف بالانفصاليِّين، تراجعت حكومة لنكولن، وأُفرِج عن المعتقلَين وحلَّ شخص آخر محلَّ قبطان السفينة المسمَّاة «سان جاكينتو». وكان دي لونج يخشى مصيرًا مشابهًا لأنه سجنَ موظفين انفصاليِّين على أرضٍ من المفترَض أنها حيادية أيضًا.

وبالفعل شجبت فرنسا فورًا ما اعتبرته خرقًا لحيادها، وقالت إن مايرز وتونستال قد أبحرا إلى طنجة تحت حماية العَلم الفرنسي. أما قبطان السفينة «سمتر»، رافائيل سمز، فقد اتَّهم «القنصل العديم الضمير» باستغلال «الجهل السياسي» للمغرب، مما دعا الإمبراطور محمد الرابع إلى إغلاق ميناء طنجة. وفي تسجيلٍ لاعتراضه ذكَّر دي لونج الحاكمَ بالماضي البربري للمغرب، وسأله عما إذا كان يمكن إنهاء «سبعين سنة من الصداقة المستمرة» بين الأمريكيِّين والمغاربة «من أجل القراصنة الانفصاليين».

ولكنَّ وضْعَ دي لونج استمر في التدهور؛ ففي ٢٧ من فبراير أصبح يائسًا عندما أحاط بالقنصلية ثلاثمائة أجنبي، معظمهم من الفرنسيين، المطالبين بالإفراج عن المعتقلين. ولكنَّ هذا الرجل المملوء بالحيوية والقادم من أوهايو رفضَ الانصياع لهم. وقال: «لقد

سمعت بعصابات بربرية في بلاد بربرية، ولكن هذه أول مرة أسمع فيها بشعب مسيحي كامل في بلادٍ شبه بربرية يتجمهر من أجل التدخل في قرارات قنصل مسيحي.» لقد كان احتمال اندلاع العنف قائمًا، إلا أن ظهور السفينة الأمريكية «إينو» منع ذلك. فقد كانت الحِراب مثبَّتة عليها، ونزل ثلاثون بحَّارًا حربيًّا منها إلى الشاطئ، وكانت هذه أولَ سفينة ترسو على شواطئ شمال أفريقيا منذ حروب البربر، وتمكَّن هؤلاء البحَّارة من المرور من خلال المتجمهرين. وأصدر دي لونج بعد ذلك إنذارًا: فإما أن يعيد محمد الرابع فتْحَ الميناء ويسمح للأسرى بالرحيل، وإما أن تقوم الولايات المتحدة بإغلاق قنصليتها. وبين خيارٍ باسترضاء الفرنسيِّين أو التخلي عن الأمريكيِّين، أخذ الإمبراطور جانب واشنطن. وبعد ذلك بأقلَّ من ساعة، وتحت حراسة جنود مغاربة، وتحت عيون «ثلاثة آلاف مشاهد على الأقل» قاد دي لونج وضباطُ مشاة البحرية الأمريكية مايرز وتونستال إلى السُّلم المتحرِّك للسفينة «إينو».

أخبر دي لونج زملاءه القناصل وهو سعيد بأنه «إذا كانت هناك حربٌ أهلية مؤقتة دائرة في بلادي الحبيبة، فلا يزال لدينا اتحادٌ ودستور، وسنحفظهما باسم الرب ... عبر الأجيال المتعاقبة، ولدينا أيضًا عَلم ... لن يُهان على يد الأوروبيِّين الهمج على سواحل أفريقيا.» ولكنَّ فرحته كانت مبكِّرة. وخوفًا من انقسام علاقات الاتحاد بفرنسا تراجعَ لنكولن مرةً أخرى وأفرج عن تونستال ومايرز من سجنهما في بوسطن. ومثل قبطان السفينة «سان جاكنتو» من قبل، استُبدل دي لونج. وتساءل القنصل السابق عما إذا كان تساهُل لنكولن سيكون له أثره، فيتسبب في تشكُّك قادة الشرق الأوسط في قوة أمريكا.

ولكنَّ طَرْد دي لونج من الخدمة لم يكن نذيرًا بتدهور مكانة أمريكا في المغرب أو في أي مكان آخر في المنطقة. بل على العكس من ذلك؛ فقد أدَّى اعتراض الاتحاد لسفن الانفصاليِّين بقوة إلى تحسين وضع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وجاء الدليل على ذلك التحسُّن عام ١٨٦٥، عندما دُعِيَت الولايات المتحدة إلى الانضمام إلى تسع دول أوروبية لتأسيس فنارة في طنجة. وكان ذلك الاتفاق — مع صِغَره بمقاييس القوى العظمى — علامةً مميزة لأمريكا؛ لأنها كانت أولَ اتفاقية دولية متعدِّدة الأطراف تشارك فيها.[7]

وشكَّلت الحرب الأهلية ضغوطًا على علاقات الولايات المتحدة بإحدى دول الشرق الأوسط، هي مصر. وكان محور الخلاف بعيدًا عن المنطقة وحتى عن ميادين القتال في بنسلفانيا وفرجينيا. والحقيقة أن مصر وأمريكا وصلتا إلى طريقٍ مسدود — ويا للعجب — في المكسيك.

فمنذ إصدار وثيقة مونرو عام ١٨٢٣، كانت الولايات المتحدة تسعى إلى منعِ مزيد من التدخُّل الأوروبي في نصف الكرة الأرضية الغربي. ولكن بعد ذلك بأربعين عامًا، عندما كانت جيوش أمريكا مشتبكة في معاركَ دموية، لم تكن قادرة على فرض سياستها. واستغلالًا لهذا الوضع المصاب بالعجز، تآمر إمبراطور فرنسا نابليون الثالث على تكوين إمبراطورية في العالم الجديد، بدءًا بالمكسيك. وفي يناير ١٨٦٣، أرسل ٣٠٠٠٠ جندي إلى فيرا كروز بأوامرَ مشدَّدة لاحتلال مكسيكو سيتي. وسار معهم فيلقٌ مكوَّن من ٥٠٠ مصري، كان الخديوي سعيد باشا حاكم مصر قد تطوَّع بإرسالهم، باعتباره من أكبر حلفاء فرنسا. وكان معظم هؤلاء الجنود من السودانيِّين الذين اعتقدت فرنسا أنهم معتادون الأجواءَ الحارة للمكسيك، وأنهم محصَّنون ضد الإصابة بالحمَّى الصفراء.

كانت إدارة الرئيس لنكولن غاضبة بسبب هجوم نابليون، وفي غاية الإحباط والشعور بالخذلان من موقف مصر. وكانت العلاقات بين واشنطن والقاهرة — وإن لم تكن قط حميمة — دائمًا علاقاتِ صداقةٍ وتفاهم وود. وفي بداية الحرب الأهلية كانت الحكومة المصرية قد وافقت على طلب وزارة الخارجية الأمريكية بطرد نائب القنصل الأمريكي روبرت ولكنسون الذي ظلَّ على ولائه للجنوب. وكانت وزارة الخارجية الأمريكية بدورها قد أشادت «بمساهمة مصر» الكريمة في مساعدة «أرامل وأيتام المدافعين عن الاتحاد»، وأشادت كذلك بشجاعة العديد من الشباب المصريِّين المتطوعين للقتال إلى جانب الشماليين. ولكن هذه العلاقات الجيدة كانت معرَّضة للخطر آنذاك، بسبب وجود القوات المصرية قُرب الحدود الأمريكية، في تعارضٍ مع وثيقةٍ شهيرة منذ زمن طويل.[8]

استمرَّ الفرنسيون في غزو المزيد من الأراضي المكسيكية، ونصَّبوا الدوق النمساوي ماكسميليان ملكًا عليها. وكان أداءُ الفريق المصري في كل تلك المدة رائعًا، من حيث الرِّقابة على الموانئ وحماية قاطرات السكك الحديدية. ومات منهم نحو ١٠٠ فرد، من بينهم قائدهم العقيد جبار الله محمد، بسبب الحمَّى.

وظلَّت الولايات المتحدة لا تملك سلطةً للتدخل، على الأقل حتى موقعة أبوماتوكس عام ١٨٦٥ وانتصار جيش الاتحاد فيها. وعندها فقط أصبح بإمكان وزارة الخارجية الأمريكية إرسالُ قنصلها في الإسكندرية تشارلز هيل برسالةٍ صريحة إلى سعيد باشا. وحذَّره هيل من تكرار ما قام به في المكسيك بناءً على طلب قوة ودية، مذكِّرًا إياه بأن الولايات المتحدة تملك الآن ١٠٠٠٠٠ جندي أسود، هم كمثل السودانيِّين في المكسيك، من حيث ملاءمتهم للخدمة في الشرق الأوسط. وأنه يمكن إنزالهم بسهولةٍ في مصر،

«عن طريق استخدام مبدأ التدخل الذي يساند الإمبراطوريةَ في المكسيك، والذي يعتمد عليه الباشا في إرسال جنوده، ويمكننا أيضًا استخدامه للانتقام في أي وقت».

أحدَث التهديد الأثرَ المطلوب، فتراجع سعيد باشا عن إرسال المزيد من الإمدادات للمكسيك. وهزم المتمردون الجمهوريون الفرنسيِّين في النهاية، وأعدموا ماكسميليان التَّعس. أما المصريون الناجون — وكانوا الجنود المسلمين الوحيدين المتحدِّثين بالعربية الذين عمِلوا في الأمريكتين حتى ذلك الحين — فقد أبحروا عائدين إلى بلادهم.[9]

كانت الحرب الأهلية قد انتهت، وكان بإمكان الولايات المتحدة مرةً أخرى أن تتعامل مع الشرق الأوسط بصفته دولةً واحدةً غير مجزأة ولا منقسمة. وكانت الحرب قد ذكَّرت الأمريكيِّين بمخاطر نظر حكام المنطقة إليهم باعتبارهم دولةً ضعيفة، وذكَّرتهم أيضًا بحاجتهم إلى إظهارِ ما يشبه القوةَ على الأقل. أما الآن واقتصادها يتحوَّل سريعًا إلى الصناعة، ومليون فرد من أفرادها يحملون السلاح، فقد كان بإمكان الولايات المتحدة أن تُظهِر قوَّتها الاقتصادية والعسكرية بصورةٍ واضحة. ولم يخفَ هذا التحول على حكومات الشرق الأوسط التي كان العديد منها يشتري بقايا ومخلَّفات الحرب الأهلية من عتاد وسلاح، وينظر إلى الولايات المتحدة على أنها عاملُ توازن للإمبريالية الأوروبية.

وبرسوخ وضعهم قوةً عظمى، تمكَّن الأمريكيون من استئناف رحلات الحج إلى الأرض المقدَّسة، واستئناف استكشاف حقيقة أساطير الشرق الأوسط، تمامًا مثلما كانوا يفعلون قبل الحرب الأهلية. وكان لنكولن يتوق إلى الانضمام إليهم. فاستقل مع زوجته مركبةً في مساء يوم ١٤ أبريل ١٨٦٥؛ وكان ابنهما قد ذهب لمشاهدة مسرحية أخرى تحمل اسم «علاء الدين»؛ وتحدَّث الرئيس عن حُلم راوده بزيارة القدس في يوم من الأيام. وفيما بعدُ، عندما وصلا إلى محطتهما بمسرح فورد، واتَّخذا مكانيهما، مال لنكولن مرةً أخرى نحو زوجته وهمس: «كم أتوق لزيارة القدس.»

ولكن أثناء العرض أُطْلِقت النار على لنكولن فلم يُقدَّر له أن يسافر إلى الشرق الأوسط، ولكنَّ أحدَ الموالين للجنوب، الذي اتُّهم في قضية اغتياله، طلب اللجوءَ السياسي في القدس. فقد كان هاريس سورات الابن مراسلًا وجاسوسًا سابقًا للانفصاليِّين، وارتبط بجون ويلكس بوث الذي قام بعملية الاغتيال وبأعضاءٍ آخرين في هذه المؤامرة. وفي حين تمكَّنت القوات الاتحادية من قتل واعتقال الرءوس الكبيرة لهذه المؤامرة، تمكَّن سورات من الهرب، وكان عمره واحدًا وعشرين عامًا. هرب أولًا إلى كندا ثم إلى بريطانيا وإيطاليا

وأخيرًا إلى مصر. وكان القنصل الأمريكي في الإسكندرية تشارلز هيل قد تلقَّى تحذيرًا قبل وصوله، فراقب الركَّاب المغادرين للسفينة حتى وجد واحدًا «ينمُّ شكلُه عن أنه أمريكي» فأمر باعتقاله. وفي ٢١ ديسمبر ١٨٦٥ اقتيد سورات مكبَّلًا بالقيود على متن السفينة «سواتارا» معادًا إلى واشنطن. ومع انتهاء القضية إلى حفظ التحقيق — فقد مات سورات رجلًا حرًّا مطلَق السراح عام ١٩١٦ — إلا أن الولايات المتحدة مدحت «الموقف الودي المتفهم» للحكومة المصرية، وقدَّمت إليها صورةَ الرئيس الراحل هديةً.[10]

وقد يكون الأمر غريبًا على قارئ من القرن الحادي والعشرين، ولكن القول إن الفصل الأخير من ملحمة الحرب الأهلية كُتب في الشرق الأوسط مناسبٌ تمامًا. فالكارثة التي أدَّت في البداية إلى تصدُّع الولايات المتحدة ثم رأب هذا الصدع كانت أيضًا هي المحرِّك وراء العديد من التقلُّبات الاقتصادية في عددٍ من أجزاء المنطقة، والعديد من ثورات التقدُّم في مجالات التعليم والصحة والاطلاع غير المسبوق على الغرب. ومع ذلك فقد كان أثرُ الحرب أكبرَ ما يكون على مصر، وهي دولة لم تكن معروفة للأمريكيِّين في فترةِ ما قبل الحرب الأهلية، لكنها أصبحت في عصر إعادة التعمير، محورَ اهتمام الولايات المتحدة.

الفصل التاسع

الشماليون والجنوبيون على ضفاف نهر النيل

يمكن تلخيصُ التأثير البعيد المدى للحرب الأهلية على مصر في كلمة واحدة؛ القطن. فقد اشتُهرت مصر منذ قديم الأزل بإنتاجها من الكتان وغيره من المنسوجات الراقية، إلى حدِّ أن كلمة cotton الإنجليزية مشتقَّة من كلمة «قطن» العربية؛ وعام ١٨٢٠ استوردت مصر بذورَ القطن الجديد من نوعية جوميل. كان هذا القطن عالي الجودة وطويل التيلة، وسرعان ما أصبح النوعَ المفضَّل لدى مصنِّعي المنسوجات في أوروبا. وتضاعفت مبيعات هذا المحصول، مما زاد من ثروة محمد علي، الذي سعى إلى احتكار سوقه العالمية. ولاحظ زائرٌ غربي لمصر أن «كل فدان في وادي النيل كان مخصصًا لزراعة القطن، فالحقول كلها مغطَّاة بالزهور البيضاء، وتدور أحلام الفلاحين كلهم حول القطن». وكان ويليام هودجسون — وهو الأول في قائمة طويلة من المستعربين في وزارة الخارجية الأمريكية — قد زار مصر عام ١٨٣٤، وقارن بينها وبين «مزارع الجنوب في أمريكا»، وانتهى إلى أنها خصبةٌ للغاية، ولكنَّ الفلاحين المزارعين في أسوأ حال. وأكَّد هودجسون لرؤسائه أنه مع ذلك «لم يؤثِّر سوءُ الإدارة هذا على جودة القطن المصري، الذي تهتم الولايات المتحدة به في المقام الأول».

اتسعت رقعة إنتاج القطن المصري عام ١٨٣٧، باستيراد مصر أولَ آلة حلج من الولايات المتحدة. تأثَّر محمد علي بهذا الاختراع إلى حدِّ أنه قام عام ١٨٤٦ بتعيين د. جيمس ديفيز، المزارع من كارولينا الجنوبية، لتطبيق الأساليب الأمريكية لزراعة القطن. وصل ديفيز إلى مصر مع أربعة من «العاملين السود»، وكلُّه حماسة للعمل، فقط ليواجه إحباطًا كبيرًا بسبب البيروقراطية المصرية المشينة. وعاد ديفيز، إلى موطنه بمدينة كولومبيا بعد

عامين وقد فقدَ إحدى عينيه بسبب حادث أثناء العمل، حاملًا تسع عباءات من الفرو قدَّمها له الحاكم المصري هديةً.[1]

كانت مصر لا تزال تعتمد على أساليبَ بدائية في الزراعة؛ لذلك لم تتمكَّن من منافسة الإنتاج الضخم والأرخص سعرًا للولايات الأمريكية الجنوبية، الذي استمر في تلبية المتطلبات الأوروبية. ولكن هذا التوازن المختل تغيَّر تمامًا بنشوب الحرب الأهلية. فقد منع الانفصاليون تصديرَ القطن الأمريكي إلى أوروبا، في محاولةٍ منهم للضغط على بريطانيا وفرنسا لمساندتهم، بالإضافة إلى أن تبِعات الحرب كان لها أثرها أيضًا؛ اجتمعت كلُّ تلك العوامل على حرمان محالج أوروبا من خاماتها الطبيعية، وزاد سعر القطن المصري أربعة أضعاف، وارتفع كذلك سعر الفدان المصري المخصَّص لزراعته. وسعد قادة الاتحاد بذلك أيَّما سعادة. فقال وزير الخارجية سيوارد: «إن زيادة الرقعة المنزرعة بالقطن … في مصر له أهميةٌ كبرى لبلادنا … فالولايات الجنوبية التي انقلبت علينا ستكون عمياءَ عن مصلحتها إذا لم ترَ كيف يتلاشى ازدهارها وكل آمالها، عندما ترى مصر … وهي تمدُّ العالَم باحتياجاته من القطن.» وبلغ الأمر بواشنطن أن أرسلت مندوبًا إلى القاهرة لحثِّ المصريِّين على زيادة المساحات المزروعة بالقطن. وفي الوقت الذي كانت فيه بالات القطن تصاب بالعفن في موانئ الانفصاليِّين، ارتفعت الصادرات المصرية منه إلى عَنان السماء، من ٧ ملايين دولار عام ١٨٦١ إلى ٧٧ مليونًا بعدها بأربع سنوات فقط؛ أي بزيادة مقدارها ١١ ضعفًا.

وذهب معظم هذا الدخل إلى يد رجل واحد، هو إسماعيل، حفيد محمد علي. فقبل وصوله إلى الحكم بعد وفاة عمِّه سعيد عام ١٨٦٣، كان إسماعيل في الثانية والثلاثين من عمره، وكان من أكبر ملَّاك الأراضي الزراعية في مصر، ومهتمًّا للغاية بتطبيق أحدث التكنولوجيا الزراعية. وكان كتومًا وذكيًّا وطموحًا، وقد تلقَّى تعليمه في مدرسة سان سير. قرَّر سعيد باشا أن يستغل ثروته وثروة مصر المتنامية في تحويل بلاده إلى قطعة من أوروبا. فزيَّن مدنَ مصر بقصور ضخمة فخمة وطرقٍ حديثة، وأسَّس مجلسًا استشاريًّا على غرار النمط الغربي، ضمَّ عددًا من النواب، وشقَّ العديد من قنوات الري في الصحراء، ومدَّ خطوط السكك الحديدية والتلغراف. ومثل لنكولن، ألغى سعيد باشا نظامَ السُّخرة، الذي قام بموجبه ٢٠٪ من الفلاحين بشقِّ قناة السويس قهرًا وغصبًا، وساعد على تأمين وحدة مصر عن طريق شراء لقبٍ يورَّث هو لقب الخديوي من العثمانيِّين. ولم تكن أيٌّ من تلك الإنجازات أهدافًا في حدِّ ذاتها، بل كانت وسائلَ لتحقيق هدف إسماعيل باشا

النهائي، وهو الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية. ولتحقيق ذلك كان بحاجة إلى جيش قوي.

لذلك قرَّر الخديوي إسماعيل الحصولَ على أحدثِ الأسلحة والمعدَّات لجنوده، بالإضافة إلى استقدام طاقم من المستشارين الغربيِّين لتدريبهم.[2] وكان العُرف قد جرى على قيام الحكام المصريِّين بتعيين ضباط فرنسيين وبريطانيِّين مدرِّبين عسكريِّين، ولكنَّ إسماعيل كانت لديه شكوك بأن القوى الأوروبية تخطِّط لضم بلاده إلى إمبراطورياتها. وعلى العكس من ذلك، كانت الولايات المتحدة قد اشتُهرت حديثًا بأن قوَّتها الحربية تتساوى مع قوة أي دولة أوروبية وهي أيضًا لم تُظهِر قط أيَّ اهتمام استعماري بمصر.

ماضٍ رتيبٌ وعلاقات فاترة

لم تكن مصر محورَ اهتمام الأمريكيِّين على الإطلاق على عكس سوريا وفلسطين، اللتين كانتا مركزًا لنشاطٍ تبشيري أمريكي كبير. ومع أن الولايات المتحدة كانت لها قنصليات في الإسكندرية والقاهرة، وأن صنَّاع السفن الأمريكيِّين كانوا يمدُّون البحرية المصرية بالسفن، فإن التجارة بين البلدين ظلَّت هامشية للغاية. وكان النشاط التبشيري محدودًا جدًّا في بلاد النيل، حيث لم تُبن مدرسةٌ واحدة ولا مستشفى واحد قبل عام ١٨٦١. في تلك الأثناء لم تكن الحكومة الأمريكية تُظهِر أيَّ اهتمام بالشئون المصرية، ولا حتى عندما دعا الفرنسي فرديناند دي ليسبس صاحبُ فكرة قناة السويس الولايات المتحدة إلى الاشتراك في هذا المشروع عام ١٨٥٧، متنبئًا بأن تلك القناة «ستقصِّر المسافة البحرية بين بومباي ونيو أورلينز وبوسطن ونيويورك بمقدار ١١١٠٠ كيلومتر»، لم يكلِّف الرئيس بوكانان نفسَه حتى عناء الردِّ عليه. وكانت الاتصالات بين مصر وواشنطن مقصورةً على تبادُل الهدايا في المناسبات، مثل النموذج المصغَّر لأبي الهول الذي تلقَّاه بوكانان مسرورًا، ومصرحًا بأنه «تمثال غريب الشكل».

ومع أن العلاقات بين مصر وأمريكا كانت دائمًا وديةً، إلا أنها أصبحت فاترةً بوجود القوات المصرية في المكسيك. ولكن مهما كانت المنغِّصات التي سبَّبتها مصر لواشنطن بسبب تعاونها مع فرنسا، فإن تعاون مصر في مقاطعة قطن الولايات الجنوبية وازنَ ذلك تمامًا. وقد رحَّب تشارلز هيل — وهو القنصل نفسه الذي هدَّد بغزو مصر — بزيادة ثروة مصر عن طريق مبيعات القطن. وكتب: «أظهر حكامُ مصر دومًا الودَّ نحونا، وقدَّروا وضعنا واحترموا حقوقنا.» وبعد النزول في فيرا كروز بعام واحد؛ أي في ديسمبر ١٨٦٤، أعلن لنكولن أمام الكونجرس أن «علاقاتنا بمصر مُرضية للغاية».[3]

ولكن من وجهة نظرِ إسماعيل كانت العلاقات «المُرضية» مع الولايات المتحدة غيرَ كافية. وعن طريق متابعته الدقيقة عن قُرب للحرب، انبهر الخديوي بكفاءة الأسلحة الأمريكية وقوة صناعة الشمال. ولاحظ أيضًا السرعةَ التي استعادت بها الولايات المتحدة قوَّتها ووضعها القوي ضمن دول العالم. وآمن إسماعيل بأن الأمريكيِّين مقدَّر لهم أن يلعبوا دورًا مهمًّا في شئون العالم، وأنه يمكنهم مساعدةُ مصر في سعيها نحو الاستقلال. ولم يكن المستشارون العسكريون الأمريكيون ليحدِّثوا الجيش المصري فحسب، بل كانوا سيمدُّون أيضًا جسرًا بشريًّا بين مصر وهذه القوة المتنامية التأثير. وقبل ذلك بخمسين عامًا، كان جَد إسماعيل الأكبر قد عيَّن المغامر جورج بيثون إنجليش لتحديث جيشه، ولكن الخديوي سعى آنذاك إلى تعيين عدد كبير من أقرانه في بلدٍ يبعُد عنه آلاف الأميال ودون أي تاريخ سابق للتعاون مع مصر. ولمساعدته في هذه المهمة الصعبة، ولتنفيذ ذلك اتَّجه إسماعيل إلى أمريكي غير تقليدي بالمرة.

كان من الممكن أن يكون ذلك الأمريكي قد اقتُلع من إحدى روايات المغامرات — كان ممتلئ الجسم وذا لحية، مخاطرًا ومتميزًا. وحين قابل إسماعيل عام ١٨٦٨، كان تاديوس موت قد خدَم بصفته ضابطًا في الجيشَين المكسيكي والإيطالي، وبحث عن الذهب في كاليفورنيا، وأبحر إلى الشرق الأقصى، وترأس سلاح فرسان الاتحاد في لويزيانا. وهو أيضًا ابنُ الطبيب فالنتاين موت، الجرَّاح النيويوركي، الذي كان قد جاب مصر والشرق الأوسط في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الحين كان قد حافظ على علاقةٍ حميمة مع السلطات العثمانية. تبِع تاديوس والده إلى إسطنبول، وتزوَّج من ابنة إقطاعي عثماني ثري، وتعلَّم اللغة التركية وتحدَّثها بطلاقة، وأصبح ذا مكانة في بلاط السلطان. وهناك، في إحدى الحفلات الملكية، قابل موت إسماعيل ونجح في تركِ انطباع جيد لديه، وعلى الفور عرض عليه الخديوي رتبةَ جنرال ومهمة تجنيد الضباط الأمريكيِّين السابقين للعمل ضباطًا في الجيش المصري.

قبِل موت المهمةَ، وعند عودته إلى الولايات المتحدة نقل طلبَ إسماعيل لعدد من الجنرالات الانفصاليِّين السابقين، منهم بوريجارد وجونستون وبيكيت، وكذلك إلى العميد الاتحادي فيتز جون بورتر، ابنِ أخي ديفيد بورتر. ولم يُظهِر أيٌّ منهم أدنى اهتمام بالخدمة في مصر أو المساعدة في إيجاد محاربين قدامى يقبلون تلك المهمة. ولكن بورتر قدَّم موت إلى ويليام تيكومسيه شيرمان، القائدِ ذي اللحية الخشنة، الذي كان يشغَل حينها منصبَ القائد العام للقوات المسلحة الأمريكية. ومع أنه كان عنيفًا في قضائه على

الانفصاليين، فإنه كان متعاطفًا مع الجهود المصرية للانفصال عن الباب العالي. وكان متحمسًا لإيجاد وظائفَ للكثيرين من الضباط المتمرسين ذوي الخبرة، الذين شاركوا في الحرب الأهلية، سواء بجانبه أو ضدَّه، واضطُر الجيش للاستغناء عنهم.

أحدُ هؤلاء القادة كان ويليام وينج لورينج، الذي اختير لقيادة المستشارين الأمريكيِّين. وكان قد نجا من المعارك ضد قبائل الهنود الحمر والمكسيكيِّين والمورمن وفقدَ ذراعًا، كان محاميًا سابقًا وسياسيًّا من فلوريدا اشتُهر بنزاهته التي لا تتزعزع. وكان يقطُن منطقةَ الحدود، وقاد في إحدى المرات كتيبةً لمسافة ٢٥٠٠ ميل إلى أوريجون دون أن يفقد جنديًّا واحدًا. كان قصيرًا ممتلئ الجسم ذا حماسة متقدة، وقد وقف في مواجهة كتيبة من الشماليِّين في فيكسبرج، مشجِّعًا جنودَه على القضاء عليهم، ثم احتمل بعدَها بشجاعةٍ ألمَ طلقةٍ استقرت في صدره. ولم يكن لورينج غريبًا عن الشرق الأوسط؛ فقد عمِل في سلاح الهجَّانة بالجيش في فورت ديفاينس، ثم جاب الدولة العثمانية قبيل ضربِ قلعة «فورت سمتر». وكان قد ملَّ عملَه مستشارَ استثمارات في نيويورك، فتلقَّى بلهفةٍ عرضَ شيرمان ودعوتَه.

وكذلك فعل تشارلز بومروي ستون، الخريج اللامع في كلية ويست بوينت الحربية، واللغوي الذي انتقده التاريخَ فيما بعدُ باعتباره «جنديًّا سيئ الحظ» ودرايفوس الأمريكي. تطوَّع ستون مبكرًا في صفوف الشماليين، وعُيِّن لقيادة دفاعات واشنطن العاصمة، ولكن سرعان ما ألقي عليه اللوم بسبب هزيمة الاتحاد في بولز بلاف، وسُجِن ستة أشهر دون محاكمة. ومع انكساره المعنوي والبدني — بسبب وفاة زوجته أثناء سَجنه — فقد تمكَّن من العودة إلى الخدمة، فقط ليُلقى عليه اللوم مرةً أخرى بسبب هزائم إضافية مُني بها الاتحاد. ثم عمِل أخيرًا في إدارة أحد المناجم بفرجينيا، وهناك عثر عليه شيرمان عام ١٨٦٩، بائسًا ومتطلعًا لأي تغيير.

أصبح لورينج المفتش العام لقوة المستشارين الأمريكيِّين، وأصبح ستون رئيس الأركان. وانضم إليهم في البداية ١٨ عسكريًّا، منهم الكولونيل صامويل لوكيت، الشاعر والفنان ومصمِّم دفاعات الانفصاليِّين في فيكسبرج؛ ومن جيش شمال فرجينيا جاء العميد رولي كولستون، والقبطان ويليام بريجز هال، الذي حرَّر سفينة عبيد قرب أفريقيا، ثم أبحر نحو الجنوب بجرأة تامة. وصاحبَ هؤلاء الانفصاليِّين السابقين صديقٌ شخصي للرئيس لنكولن، هو المستشار العقيد فاندربيلت آلن، وهو سليل عائلة فاندربيلت حديثي الثراء، وكذلك القبطان يوجين فيشيت من ميشيجان، الذي شارك في كل المعارك الرئيسية

من شيلوه وحتى أتلانتا.[4] ومع أنَّ هؤلاء المحاربين القدامى كانوا من ألدِّ الأعداء قبلها بسنوات قليلة فقط، فإنهم استقلوا السفينةَ نفسها، وعانوا دُوار البحر معًا، ونزلوا الإسكندرية في أغسطس عام ١٨٦٩، مرتبكين ولكنهم متَّحدون بصفتهم أمريكيِّين في الشرق الأوسط.

البناءون العظام

تزامن وصول الأمريكيِّين مع فترةٍ مشئومة في مصر. فالازدهار الاقتصادي الذي أشعلته الحرب الأهلية كان قد تبخَّر فجأة، بسبب حلول السلام. وتبعًا لذلك هبط سعر القطن المصري أيضًا. وكانت سنوات الوفرة قد تركت آثارها على مصر، في شكل تراث معماري مذهل تمثَّل في دار الأوبرا المصرية، حيث قُدِّمت أوبرا عايدة للموسيقار الإيطالي فيردي لأول مرة عام ١٨٧١، وبُنيت مدينة الإسماعيلية القريبة من القاهرة، وأُقيمت فيها قنوات وجسور على نُظُم متقدمة، وأُنشئ منتجع علاجي على الطراز الأوروبي في ضاحية حلوان. أما أكثرها روعةً فكانت قناة السويس، التي افتُتحت رسميًّا عام ١٨٦٩، وأُقيمت لذلك ثلاث ليالٍ من الاحتفالات، دُعي إليها ملوك أوروبا، وقد كانت تلك واحدةً فقط من بين العديد من الحفلات الباذخة التي أقامها الخديوي. ولكن مع هذا كلِّه، فقد أثقل الخديوي كاهلَ الشعب المصري بدَين وصلت قيمته إلى ١٠٠ مليون دولار. وحينذاك، لم يَعُد التعامل بالقطن مقبولًا تأمينًا للدَّين، وطالبت القوى الأوروبية بحق التدخُّل في الشئون المالية المصرية.[5]

ولم يظهر شبحُ الإفلاس هذا للأمريكيِّين أثناء رحلةٍ قاموا بها من الإسكندرية لزيارة معالم مدينة القاهرة. فبالإضافة إلى الأهرامات، زاروا القاعةَ التي استضاف فيها محمد علي عام ١٨٠٤ قائدَ العبارة البحرية بارون مع رجال أسطول البحر المتوسط. ولكنها لم تترك انطباعًا قويًّا لدى هؤلاء الضباط، أما ما ترك أثرًا كبيرًا فيهم فكان حالة الشوارع الصاخبة القذرة، والبيك المحلي الذي أكثرَ من الشكوى بسبب وصول عدد من الأمريكيِّين، قائلًا إنَّ على بعضهم العودة إلى بلادهم. كان جيمس موريس مورجان شابًّا مغامرًا في الرابعة والعشرين من عمره، هو مَن أوصلَ ختم الانفصاليين إلى البريطانيين، ثم أصبح المرافق الشخصي لجيفرسون ديفيز، وقد أجاب على البيك بدعوته إلى المبارزة. ومع عِلم ستون أن تلك الدعوة كانت من قبيل الخداع فقد وافق عليها. ولكن البيك تراجع عن شكواه، وأوصل ضيوفه إلى فندق أورينتال، حيث قام خيَّاط ملابس إيطالي بتفصيل

ملابس سوداء للضباط، وكانت حسب قول مورجان «كأنها صورةٌ طبق الأصل من رداء قس مشيخي».

انتقل الضباط من الفندق عبْر النيل إلى طريقٍ اصطفَّ على جانبيها النخيل، وإلى عالَم آخر؛ أعمدة مصفوفة وسجاجيد فخمة وثريات متدلية، وكان ذلك هو قصر الجزيرة. ومشدوهًا قال الملازم أول تشارلز إيفرسون جريفز: «الشرق بكل فخامته وسِحره، والغرب بحضارته وذوقه الراقي قد اجتمعا هنا.» كان إيفرسون جريفز خريجًا في جامعة أنابوليس، عريضَ الكتفين، وقد قبِل العمل في مصر ليتمكَّن من الإنفاق على زوجة وخمسة أطفال يعيشون في مزرعته المتعثِّرة في جورجيا. وأضاف: «التناغم والتمازج قد اجتمعا معًا لتشكيل مكان سكن مثالي لم يُشاهَد مثله منذ جنة عدن.» وأخيرًا سُمح لهم بالدخول إلى البلاط الداخلي، وهم يحاولون جاهدين تقليدَ انحناءات رئيس التشريفات، ثم شرفوا أخيرًا بمقابلة الخديوي. وعند هذا الحد تلاشى انبهارهم. فقد كان الخديوي إسماعيل سمينًا قصيرَ القامة، وكانت لديه عادةُ إغلاق أحد جَفنيه عند الحديث، وكانت هيئته عامةً تثير الرِّيبة في محدِّثه. أما كلماته، التي ألقاها بالفرنسية، وترجمها الملازم تشارلز شاييه لونج، فقد أثَّرت فيهم كثيرًا. فعند ذكرِ فترة خدمتهم الأخيرة في الحرب الأهلية، وتماسُك ونزاهة الولايات المتحدة، مدحَ الخديوي «حماستهم والتزامهم وتقديرهم السليم» في مساعدة مصر على تحقيق استقلالها. وأعلن: «عندما يحدُث ذلك، إن شاء الله، سأمنحكم أرفعَ وأعلى أوسمة الشرف.»[6]

ومن أجل استحقاقِ هذا التقدير الكبير شرع الأمريكيون في العمل فورًا. فأسَّس ستون مقرًّا في القلعة المطلة على القاهرة، في جناحٍ كان مخصصًا يومًا ما لحريم محمد علي. وهناك كوَّن أول هيئة للأركان العامة في الجيش المصري، وأسَّس مكتبةً بها ما يقرُب من ٤٠٠٠ كتاب والعديد من الخرائط، بالإضافة إلى مطبعةٍ لطبع مواد التدريب وكتيباته. وعلى نهج النموذجين البريطاني والأمريكي، وضع أولَ قواعد للسلوك والآداب داخل الجيش المصري. في تلك الأثناء كان لورينج يقوم بحصرٍ للأسلحة المصرية التي تلزم مصر من أجل الدفاع عن نفسها. وكانت النتيجة سيئة. فقد كان الجيش يمتلك عددًا محدودًا من المدافع، معظمها عفا عليه الزمن، ولم يكن يمتلك أيَّ ذخيرة على الإطلاق. وكانت كل المدافع متداعية، والاتصالات بين الفِرق المختلفة، سواء عن طريق السكك الحديدية أو الاتصالات السلكية، منهارة تمامًا. والأسوأ من كل ذلك كانت حالة الجيش ذاته، وقد وصفه لورينج بأنه «من العصور الوسطى». فقد كان مكوَّنًا من أربعين ألف

فلاح ذي ثياب رثَّة، وغير ملتزمين بأي نظام، وقد درَّبهم ضباطٌ عديمو الخبرة على نمط تدريبات حروب نابليون.

كان إصلاح تلك الحالة مهمةً شاقة وعسيرة، وقد قسَّمها ستون ولورينج بينهما. فتولَّى الجنرال الوحيد الذراع مسئوليةَ الدفاع عن ساحل البلاد. وبمساعدة المهندس وقائد السفن الحربية للانفصاليِّين إبَّان الحرب الأهلية الكولونيل بيفرلي كينون، صمَّم لورينج سلسلةً من الحصون الخفية على طول الساحل الاستراتيجي من الإسكندرية وحتى رشيد، مغطيًا إياها بمدافعَ قوية. وتولَّى ستون أمرَ إعادة تأسيس الجيش من الصفر. وكان يساعده في ذلك ألكسندر رينولدز، عميدُ معارك شيكاموجا وأتلانتا، وابنه فرانك، الذي كان الثاني على دفعته لدى تخرُّجه في كلية ويست بوينت الحربية؛ أما أول الخريجين فكان جورج أرمسترونج كستر، وهو سليلُ عائلة من فيلادلفيا كانت قد انحازت إلى الجنوب. كان هنري سيبلي قائدًا آخرَ من قادة التمرُّد الانفصاليِّين، وهو أيضًا مخترع الخيمة المخروطية الشكل ذات الوتد الواحد، وكان رفيقَ سفر سابقًا ليوليسيس جرانت، وقد تولَّى سلاح المدفعية. وقسَّم ستون والعاملون معه الجيشَ إلى كتائب، وأسَّسوا هيئتين لتنظيم المبيت والسكن من ناحية، وتنظيم دفع الرواتب من ناحية أخرى، وشيَّدوا مصانعَ لإنتاج الأسلحة.

أسَّس الأمريكيون لمصر جيشًا حديثًا، وعن طريقه قدَّموا لها فرصةً للحفاظ على استقلالها يومًا ما. ولكن كما تعلَّم إسماعيل أن بناءَ القصور والحدائق واستصدار القوانين لا يضمن سيادةَ مصر، فإن الأمريكيِّين أيضًا فهِموا أن الأزياء والتكتيكات وحدَها لا تصنع جيشًا متحدًا. أما الحاجة الحقيقية فكانت إلى أفكارٍ محفِّزة، مثل حبِّ الوطن والانتماء والالتزام بالواجب نحو المجتمع. وكان العسكري المصري يجد صعوباتٍ في تعلُّم مثل تلك الأفكار الغريبة عليه، ولكن دون القدرة على قراءة كتاب أو جريدة — وهي مهارة كان يفتقدها ٩٠٪ من الجنود وثلث الضباط — كانت المهمة تقترب من المستحيل. ولعلاج هذا النقص، أسَّس المستشارون مدرسةً في العباسية، لنحو ١٥ ألف ضابط مكلَّفين وغير مكلَّفين للتدريس باللغة العربية. ووصل عددٌ كبير من هؤلاء بصحبة أبنائهم، مطالبِين بأن يتلقى أبناؤهم تعليمًا أيضًا. ووافق ستون على أنه «من حق أي ضابط أن يصحبه ابنُه من أجل التعليم». وسرعان ما كان نحو ثلاثة آلاف طفل مصري في ملابسَ أنيقة يدرسون في مدارسَ ابتدائية كوَّنها المحاربون الأمريكيون السابقون. وقال لوكيت تعليقًا على ذلك: «الجيش هنا هو صانعُ الحضارة والتحضُّر، أما الجنرالان ستون ولورينج فهما المعلِّمان.» وفي ثلاث سنوات، صار ثلاثة أرباع الجنود يجيدون القراءةَ والكتابة.

وهكذا أصبح ممثلو القوة الأمريكية في الشرق الأوسط وسطاءَ لنقل الإيمان المدني إلى الشرق الأوسط، وكان الخيال أيضًا حافزًا ودافعًا كبيرًا لهم. فعندما ارتدى الضباط زيَّهم الأزرق الجديد، وأكتافهم وأحزمتهم موشَّاة بالذهب، وسراويلهم وعماماتهم جديدة، تباهى مورجان بأنه «لامع كالبرق، بحيث يمكنك أن تتوقَّع قدومَ الرعد»؛ لذلك كان يُحْتَفل بهم بدعواتٍ مكثَّفة إلى الحفلات والسهرات، واستمرت الاحتفالات الدولية بضباط اسماعيل أسبوعًا كاملًا. وكانت هذه الحفلات «مبهرة وأكبر من القدرة على الاحتمال» من وجهة نظر الكولونيل ويليام ماكنتاير داي، الذي كان عضوًا سابقًا في سلاح المشاة بويست بوينت وأيوا، فجَمال السيدات وأناقتهن وملابسهن الملوَّنة وهن يتناولن الشراب المسكِر في سرادقات مُخملية جعلته يتأوَّه. فقال: «لقد وصلت إلى حدود الخيال، وكل شيء يتراقص أمام ناظري كحُلم جميل.»[7]

ولكن سرعان ما تبخَّر جَمال تلك الصورة. فمثلُ كثيرٍ من الزائرين الأوائل للمدينة الذين انبهروا في البداية ثم أصابهم الإحباط بسبب الحقيقة والواقع، أصاب واقعُ الشرق الأوسط الضباطَ الأمريكيِّين بالإرهاق. فعبَّر لورينج عن احتقاره للإسلام، واتهمه بأنه دِينٌ «وُلد على حد السيف ومعارِض لأي تنوير، وهادم لكل فكر أو نشاط مستقل». واشتكى أيضًا من أنه يُعلَّم شباب المسلمين «نفس الدروس البربرية ... التي قادت أسلافهم إلى العنف والإجرام»، لكنه كان يأمُل أن يظهر «لوثر عربي» ليضعَ حدًّا «لهذا التلقين للكره». وعلى العكس من ذلك، انبهر الملازم جريفز باحترام وتقديس المسلمين ليسوع المسيح. فقد قال: «في هذا الصدد هم أفضلُ حالًا من اليهود أو الموحِّدين (الربوبيين)»، لكنه كره خضوعَ نساء المسلمين لرجالهم. فقال: «كل مجهودات جلالته ليصبح شعبُه متمدنًا وليبثَّ الحضارة فيه ستذهب هباءً إلا إذا أزال كل الحريم والمخصيِّين من البلاد.» أما ويليام داي، الذي انبهر يومًا ما بجمال وفخامة وأبَّهة الشرق فسرعان ما أصابه اليأس والقنوط من التعصُّر في المصريين، الذين يتمسَّكون بماضٍ قاسٍ وغامض، على عكس الأمريكيِّين، الذين يمتلكون «روحًا خلاقة ... ومحلِّقة ... مثل رحالة خيالي في رحلة إلى المستقبل». وباعتبار داي أحدَ الجنود الذين حاربوا الهنودَ الحمر، وانتهى إلى الإعجاب بهم، لكنه لم يجد شيئًا يستحق الثَّناء في المصريين، فقال إن لديهم ميلًا كبيرًا إلى «الكذب والمطالبة ببقشيش وإلى الابتزاز والتزوير والسرقة والفساد ... والقتل!»

زاد هذا النفور من الانعزال الثقافي للأمريكيِّين وعدم رغبتهم في تعلُّم اللغة العربية أو العيش في حيٍّ لا يسكنه الأوروبيون. وكان عدمُ التفاهم هذا متبادلًا بينهم وبين المصريين.

فقد وبَّخ جيمس مورجان مثلًا أحمد عرابي لأنه كان يقوم للصلاة كلَّ صباح، بدلًا من تنظيف بندقيته، وكان أحمد عرابي هذا ضابطًا له شأنٌ وتأثير في مستقبل البلاد، وقد لعِب دورًا مهمًّا فيها، وقد ردَّ عرابي على مورجان بالتنديد «بأفكار المسيحية». وأثار مورجان مرةً أخرى مشاعرَ المواطنين المحليِّين عندما غازل فاطمةَ ابنة الخديوي، البالغة من العمر تسعة عشر عامًا، غزلًا صريحًا. وعندما أمرَ رئيسُ شرطة القاهرة مورجان بإحضار كوب ماء له، كانت إجابة زوج ابنة وزير خزانة الانفصاليِّين هي إلقاء الماء على وجهه بعنف.

ولكن كل تلك العوائق لم تقف حائلًا أمام استكمال الضباط مهمَّتهم الأساسية. وبحلول عام ١٨٧٣، كانت مصر تمتلك كلَّ مؤهلات جيش غربي حديث، ومدارس بحرية وحربية، وقادة غواصات وألغامًا، ونظامًا لنقل الأوامر. وقال صامويل لوكيت: «الجيش – الضباط والجنود – على مستوًى عالٍ يتساوى مع مستوى بلادنا.»[8] كان الضباط قد حقَّقوا نتائجَ عظيمة، بحيث أُرسل تاديوس موت مرةً أخرى إلى الولايات المتحدة لمحاولة جلبِ آخرين.

ومن سوء الحظ أن قام هذا الصَّرح العسكري على قاعدة اقتصادية ضعيفة؛ حيث كانت ديون مصر قد تضخَّمت بصورة تثير المخاوف. ولأنه لم يَعُد بالإمكان الاعتماد على عائدات القطن أو قناة السويس في تحقيق دخلٍ كافٍ لسداد تلك الديون، تشبَّث إسماعيل بآخر مصدر للدخل، وهو غزو جنوب السودان. فهناك في منطقة جنوب السودان، وهي ما نطلق عليه اليوم أوغندا وأثيوبيا وجمهورية أفريقيا الوسطى، كانت تتوافر مناجمُ لا حصرَ لها من الذهب واللبان والعاج. وكان محمد علي قد استولى على أجزاءٍ كبيرة من تلك البلاد، وإن كانت تحت الحكم المصري بالاسم وليس فعليًّا؛ ففي حقيقة الأمر كان عدد بسيط جدًّا منها قد وُضع على الخريطة أو أُخضِع بالفعل. وكان ترسيخ سيطرة مصر على هذه الأقطار المتمردة، وتجنُّب مخطَّطات بريطانيا وفرنسا بشأنها، مهمةً تتطلب شجاعةً نادرة وقوة ومهارة، وكلُّها مواصفات يمتلكها الأمريكيون، حسبما كان يرى إسماعيل.

قلوب مظلمة

بناءً على ذلك أُرسِلَت بعثتان. أولاهما تجربة استكشافية في أعماق السودان، سارت على النيل وصولًا إلى وادي حلفا على خطى ونهج جورج إنجليش قبل ذلك بخمسين عامًا، وكانت المسيرة بقيادة أحد أكثر الخبراء الأمريكيِّين حُنكة واحترامًا، هو رولي كولستون، الذي كان أستاذًا للجيولوجيا، كما كان عميدًا في جيش الانفصاليِّين. خطَّط كولستون

للإبحار لمسافة ٤٠٠ ميل على نهر النيل، قبل الانحراف إلى الجنوب الغربي نحو مدينة العبيد في قلب السودان. وهناك كان سيقابل مجموعةً أخرى آتية من البحر الأحمر، يقودها نيويوركي ذو شوارب تشبه مقودَ الدراجة اسمه إيراستوس سبارو بيردي.

غادر الفريقان مصرَ في نوفمبر عام ١٨٧٤، وسارا مدة ثلاثة أشهر عبر مناطق دارفور وكردفان، عبر قرًى فقيرة، تسكنها «نوعيات غريبة ومخيفة من البشر»، بالإضافة إلى أسواقٍ غير مشروعة لتجارة العبيد»، كما كتب كولستون. وكان ثمانية من المصريِّين المرافقين لهم يموتون يوميًّا بسبب الإرهاق والأمراض، ونفق عدد أكبر من الحيوانات لنفس الأسباب. وأخيرًا، أصيب كولستون نفسه بمرضٍ في المثانة، أدَّى إلى إصابته بالشلل في نصفه السفلي. ومع ذلك فقد رفض أن يرجع، واستمر في جمعِ عينات من الأحجار والنباتات، وفي كتابة التقارير. وقال كولستون: «مع أنني مشلول بسبب مرضٍ خطير … يبدو أنه مميت، فإنني أرغب في القيام بواجبي حتى آخر لحظة.» وانتقلت القيادة منه إلى شابٍّ من نيو إنجلاند، هو الرائد هنري براوت، ثم أمر كولستون بربط نفسه على حصانٍ واتجه إلى القاهرة.

في تلك الأثناء كان بيردي قد نجح في الوصول إلى مدينة الهراس على خليج السويس، قبل الانعطاف غربًا نحو مدينة أسوان، حيث توقَّع أنه من الممكن بناءُ سدٍّ على النيل في يومٍ ما. وعلى العكس من كولستون الهادئ الخفيض الصوت، كان بيردي مرتفعَ الصوت مختالًا متباهيًا، لكنه من ناحية أخرى كان يمتلك خبرة طويلة في استكشاف أجزاء من كولورادو وكاليفورنيا. وكان بإمكانه أيضًا الاعتماد على مساعِده الممتاز، ألكسندر ماكومب ميسون، وهو أرستقراطي من فرجينيا، ومن بين ميزاته أنه عمِل مرتزقًا في شيلي وكوبا وبحر جنوب الصين، بالإضافة إلى أنه كان من عدد قليل من الأمريكيِّين الذين يجيدون العربية. نجح بيردي وميسون في التقابل مع براوت وفي مسح مائة ميل مربع من المناطق التي لم تظهر على أي خريطة من قبل، فقاموا بقياس معدَّلات هطول الأمطار وتتبَّعوا طرقًا تصلح لإنشاء السكك الحديدية. ولكن تبيَّن لهم أن المنطقة غير واعدة اقتصاديًّا، بسبب القيود المتمثلة في القبائل المحلية. وقال تقريرهم النهائي: «قد تثير تلك القبائل اهتمامَ القائمين بالأعمال الخيرية أو المبشِّرين. ولكن باعتبارهم رعايا للحكومة المصرية … فلن يضيفوا شيئًا إلى … ثروة الدولة أو قوَّتها أو مجدها.»[9]

زادت النتائج المخيِّبة للآمال التي توصَّلت إليها البعثة الأولى من أهمية البعثة الثانية، التي كانت أكثرَ طموحًا في التوغل داخل أفريقيا. واختار إسماعيل أحدَ الإنجليز رئيسًا

لها، هو المقدِّم تشارلز جوردون، وعيَّنه محافظًا للأقاليم الاستوائية المصرية كما كان يُطلَق عليها. وكان جوردون مهندسًا بروتستانتيًّا، وهو الذي قمع ثورةَ تاي بنج، مما منحه لقبَه الذي اشتُهر به، وهو «الصيني»، كان جوردون أحمرَ البشرة، وله وجه صبي صغير، مع أنه كان في الخمسين من عمره، وكان شديد التناقض ولديه قدرةٌ فائقة على التعاطف الشديد أو الغضب العارم. ومع اتهامه بإلغاء تجارة العبيد وفرض احتكار القاهرة للعاج، فإن جوردون كان يهدُف في الحقيقة إلى إحكام السيطرة المصرية على منابع النيل، قبل أن تدَّعي بريطانيا أو فرنسا أيَّ حق لهما فيها. ولنفي أيِّ انطباع بأنه ينحاز إلى أيٍّ من تلك القوى، اختار جوردون مجموعةَ ضباط من جنسيات متنوِّعة، واختار أمريكيًّا من ميريلاند نائبًا له، كان في الثانية والثلاثين من عمره اسمه تشارلز شاييه لونج.

منح جوردون نائبَه ومساعده أربعًا وعشرين ساعة للاستعداد، ثم غادر يوم ٢١ من فبراير عام ١٨٧٤، مستقلًّا قطارًا ثم سفينة بخارية، وسار على قدميه مسافةً تقترب من ٣٠٠ ميل إلى البربر، وهي مدينة تجارية محاذية للنيل. ولكن في الطريق تدهورت العلاقة بين الرجلين. فقد كان شاييه لونج فيما عدا سجله الحربي شاعرًا محبطًا وممثلًا يميل إلى المبالغة والتأنُّق الشديد، والميل إلى ارتداء القبَّعات الحريرية والعباءات؛ لذلك كان يترك انطباعًا لدى كثير من معارفه بأنه «شخص ضعيف رخو». وكان رأي جوردون فيه أنه «يفكِّر كثيرًا فيما قام به في السابق ... وهو ما لا يفيد فيما يجب القيام به الآن». ولكنَّ إسماعيل لم يكن يشاركه هذا الرأي، واعتبر أن هذا الأمريكي مغامرٌ بطبيعته، وأنه قادرٌ على اختراقِ الأحراش الأوغندية وعقدِ اتفاق مع ملكِها. وعلى ذلك، ففي حين تراجع جوردون إلى الخرطوم (التي لقي حتفَه فيها بعد ذلك بعشر سنوات على يد متمردين مسلمين)، تابع شاييه لونج سيرَه مدة شهرين فيما بين «مطر وطين وملاريا وبؤس وحمى الأدغال» متوجهًا إلى روباجا، القريبة من مدينة كمبالا اليوم، وهي عاصمة الملِك موتيزا.

ومن المدهش أن استقبالَ هذا الأمريكي كان حارًّا للغاية. فقد أشار الملك موتيزا ذو اللون النحاسي وهو مرتدٍ عمامةً بسيفه إلى وجوب إظهار الاحترام للضيف. وتذكَّر شاييه لونج بسعادة أن «عشرة آلاف من رعايا الملك سجدوا له وأنوفهم في التراب». ولكن سعادته تلك تحوَّلت إلى رعب، عندما قام «عدد من المحاربين ... تبعًا لعادة مروعة، بخنق المجاورين لهم بحبال، ثم هشَّموا رءوسهم بهراوات».

ولكن شاييه لونج تمكَّن من عدم إظهار تقزُّزه، وأبهج ميتوزا بمرآة وصندوق موسيقى وبطارية أصابت الملكَ بصعقة خفيفة. وتُبودلت الهدايا: حرير وأحجار ثمينة وحصان (كان الأول من نوعه في أوغندا) من مصر، ومن موتيزا: صبي أمهق وثماني فتيات صغيرات، من بينهم ابنته. ثم وُقِّعت الاتفاقية. وهنَّأ شاييه لونج نفسَه بأن «كل حوض النيل أصبح تحت السيطرة المصرية، وأن الهدفَ الأساسي من البعثة قد تحقَّق».

ولكن مهمته لم تكن قد انتهت بعدُ. فعند عودته لم يتَّخذ شاييه لونج الطريقَ المباشر، بل عرَّج على طرقٍ جانبية، في محاولةٍ منه لإثبات أن نهر النيل يبدأ من بحيرة فيكتوريا في جنوب غرب أوغندا ويسير نحو بحيرة ألبرت، محاذيًا حدودَ ما أصبح يُعرف فيما بعدُ بجمهورية الكونغو. وجدَّف الأمريكي ومرافقوه من المحليِّين مدة ستة أيام مخيفة، عبر نباتات النهر الكثيفة، ليخرجوا منها إلى بحرٍ مفتوح وإلى مواجهة ٧٠٠ محارب من قبيلة بونيارو. قال شاييه لونج: «أظهِروا لهم العداء التام، وأطلقوا النار عليهم»، هكذا أمرَ رجاله بينما يصوِّب بندقيته على صدرِ زعيم قبيلة بونيارو. ونجحت الخطة، فقُتل اثنان وثمانون منهم، وهرب الباقون، ولكن ليس قبل أن يصاب هو نفسه في وجهه بحروق من أثرِ رصاصة. ثم كُتبت له النجاة مرةً أخرى عندما قابل قبيلةً من أكلةِ لحوم البشر في قرية نيام نيام، ثم من سهامٍ مسمومة أطلقها ٨٠٠٠ رجل من قبيلة يانباري، وكذلك من هجومٍ ليلي قام به فهد. وبعدها بثلاثة أشهر دخل رجلٌ مريض ومهترئ الثياب على جوردون. يتذكَّر شاييه لونج قائلًا: «كان شَعري قد طال ووصل إلى كتفي. وزادت لحيتي الطويلة من مظهري المريض، في حين تشكَّك جوردون في هويتي بسبب جُرح مؤلم في أنفي وعيني المغلقة المتورمة.» أما في القاهرة فظنَّه زملاؤه أحدَ الشحاذين.

ومع أن المستكشفين البريطانيِّين سخروا من اكتشافاته، ولقَّبوه بـ «القرصان الأمريكي»، فإن شاييه لونج كان بالفعل قد حدَّد موقعَ بحيرة كيوجا، وكان قد سافر مسافة مائة ميل كانت مجهولة من النيل من قبلُ، وكان قد تتبَّع مسارَ النهر عبْر أوغندا. وفرض سيطرة وهيمنة مصر من الصحاري السودانية إلى الغابات الممطرة الاستوائية في أفريقيا الوسطى، مكوِّنًا بذلك إمبراطوريةً واسعة خصبة. وقال الخديوي على الملأ في معرض مدحه: «هذا الضابط الشاب ... قدَّم لمصر في عدة أيام ما لم يقدِّمه أيُّ جيش ... في أربع سنوات، وكانت تكاليف الرحلة مليونين ونصف مليون دولار.»[10] ولكن الحاكم المصري لم يكن يملك هذه المبالغ الطائلة، وكذلك لم يتبقَّ له وقت طويل. فأصحاب

الديون الأوروبيون كانوا قد بدءوا بالفعل في الاستيلاء على بعض الأصول، مع الضغط عليه لإشهار إفلاسه. وكان هو بحاجة شديدة إلى وسائلَ تعينه على استغلال المواقع الثرية التي حدَّدها له جوردون وشاييه لونج، وهو طريق وصول إلى أفريقيا أقصرَ وأقلَّ إرهاقًا وتعذيبًا من طريق الـ ٣٠٠٠ ميل الذي يبدأ من القاهرة.

في تلك الأثناء كان شاييه لونج قد عقَد العزم على قضاء فترة الاستشفاء والنقاهة في موطنه بميريلاند. ولكنه لم يكد يصل إلى مدينة باريس حتى وصلته أوامرُ بالعودة إلى مصر فورًا. وفي سبتمبر عام ١٨٧٥ قاد ١٣٠٠٠ جندي وأبحر لمسافة ٥٠٠ ميل إلى خليج عدن، وإلى ما يسمَّى اليوم ساحل الصومال. وأرسل له إسماعيل برقيةً يقول فيها: «لا حاجةَ بي إلى تكرار القول إنه يجب الحفاظ على السرية بعد وصولك محطةَ البعثة. أنا أعتمد على حماستك ونشاطك وذكائك.» وكان على شاييه لونج أن يحاول إيجادَ طريق مائي، دون إثارة شكوك البريطانيِّين، عن طريق نهر جوبا غرب أوغندا. وكانت بعثة أخرى ستصل إلى الشمال، فيما يسمَّى أثيوبيا اليوم، لقمع الملك المتمرد جون. فإذا نجحت هاتان العمليتان، فسيُرْبَط وسط وشرق أفريقيا ربطًا فعالًا ومؤثرًا، وسيُضمان إلى مصر.

وفي حين غزا شاييه لونج قلعةً تابعة لسلطان زنزبار، واستمر في السير نحو جوبا، كانت الحملة الحبشية تواجه فشلًا سريعًا. وكان القائد كولونيلًا دانمركيًّا اسمه آرندروب. وكان — مع حب زملائه له — عديمَ الخبرة بساحات المعارك. لكنه مع ذلك رفض اقتراح الرائد جيمس دينيسون، ضابطه الإداري، بتعزيز فيالقه الثلاثة، وعدم المجازفة بالدخول في وادٍ قد يكون فيه فخٌّ منصوب. وكان دينيسون أصغرَ سنًّا بكثير من آرندروب، لكنه محارب عتيد من المحاربين القدامى، وقد أثبَت أن له رؤيةً مستقبلية صائبة. ففي أقلَّ من ساعة كان جنود الملك جون قد قتلوا ألفين من المصريين، ومعهم أيضًا القائد الدانمركي التَّعس.[11]

وللانتقام لهذه المذبحة، أرسل إسماعيل قوةً قوامها ١٢٠٠٠ جندي مسلَّحين ببنادق تُحشى من الخلف ومدافع من نوعية كروب وأسلحة حديثة أخرى. ورغم مرور عشر سنوات منذ آخر قيادة للورينج لأي قوات في ساحات المعارك، فقد طلب منه أن يكون رئيس أركان الحرب، وذهب معه أمريكيون آخرون؛ لوكيت وجريفز وداي وجرَّاح الجيش جيمس جونسون، والقبطان ديفيد إسيكس بورتر، وهو ابنُ أخي أول سفير أمريكي في إسطنبول. ومع ذلك، ومن أجل إسكات همهمات العامة حول مذبحة المصريِّين تحت قيادة الأجنبي آريندروب، رأى إسماعيل أنه من الأفضل منْحُ القيادة العامة للحملة لوزير

الحربية راتب باشا. ولم يكن راتب باشا قد قاد رجالًا في ساحة المعركة من قبلُ مثل آريندروب. وقال عنه داي إنه رجل «رقيق وحساس تمامًا مثل جسده، وهيئته منكمشة بسبب فجوره كما تنكمش المومياء بسبب الزمن». ولم يكن أكبر هموم الوزير التميز في المعركة، بل التأكد من راحة الأمير حسن، ابن إسماعيل، المعتل الصحة الضعيف البنية، الذي قرَّر مرافقة الجيش.

أبحرت القوة إلى ميناء موساوة الذي يسيطر عليه المصريون في فبراير عام ١٨٧٦، وعلى الفور تمكَّنت من الدخول إلى ريف إريتريا، وهي منطقةٌ ذكَّرت داي بشجيرات البلوط في تكساس. وأثبتَت البيئة هناك أنها غير مناسبة، بل قاتلة للحيوانات، حتى إن المئات منها نفق نتيجةً للعطش إضافةً إلى المرض وضربِها المستمر من راكبيها المصريين. وحُمِّلت المائتا بغلٍ الباقية بأمتعة حسن الفاخرة، من خيام وأثاث ونبيذ، وبقي عدد قليل منها لتحميل المعدَّات الحربية المهمة. وفي غضون ذلك كان راتب قد تأكَّد رأيُ لورينج فيه، وهو أنه «جبان متهالك متشرِّد أخلاقيًّا وجسديًّا وجسمانيًّا». فقد رفض التحالف مع القبائل التي أظهرت لهم الود، ورفض إرسال استطلاع من الكشافة أو أوتاد أو حتى الاتفاق على خطة حرب. وبدلًا من ذلك سارَ على خطى آرندروب المضلِّلة، ووصل مع ستة آلاف من جنوده إلى وادي جورا، الذي تحيطه التلال من كل جانب، ووصفه لورينج قائلًا: «هو موقع ممتاز يمكن للملك جون شنُّ هجوم علينا منه، وهو طريقٌ مسدود تمامًا، ومن أسوأ ما يمكن لأي جيش أن يدخل فيه.»

كان أفضل ما يمكن أن يقوموا به في هذا الوضع الخطر، هو أن يطلب لورينج من لوكيت أن يبنيَ حصنًا صغيرًا. واشتكى داي من ذلك، ولكن هذا الحصن أثبَت جدواه وأنقذ حياتهم. فحالما انتهَوا من العمل، وصل الملك القوي الوسيم جون إلى جورا برفقة أسدين من أسوده. وكان معه أيضًا جيشٌ شعبي مكوَّن من خمسين ألف مقاتل، بالإضافة إلى أجساد جنود آرندروب التي مُثِّل بها، وهم يلوِّحون بها تهديدًا وإنذارًا للمصريين. وخاف راتب، ورفض اقتراحَ لورينج في القيام بضربةٍ وقائية، متعللًا بضرورة الحفاظ على حسن والدفاع عنه، وتراجع إلى الحصن الآمن.

وجاء الهجوم يوم ٧ من مارس، وكان مدمِّرًا. فقد انكسر خطُّ تلاحم المصريِّين فورًا وهربوا جميعًا. وأُصيب داي إصابةً بالغة في قدمه، وكان ينظر بلا حولٍ له ولا قوة: «الجرحى والشيوخ والمشاة والفرسان ورجال المدفعية والجياد التي بلا فرسان وحيوانات التحميل» كلهم يعدون فِرارًا من الخوف وهم يمرون بجانبه. وتجمَّع الجنود في وادٍ

قام فيه الأحباش بذبحهم جميعًا، بصورةٍ ذكَّرتهم بكارثة المفاجأة للفيدراليِّين في معركة بيترسبرج. وتذكَّر لورينج، الذي كان ينظر من الحصن، أنه كان «من المستحيل وصفُ إحساسي بالرعب وأنا أشاهد هذا المشهد الرهيب. فلم يترك المصريون أنفسَهم يُذبحون على يدِ حَفنة من المتوحشين فقط، بل ساروا … بملء إرادتهم نحو العدوِّ». وبقي الأمل الوحيد في المدفعية المصرية، تحت قيادة عثمان باشا، حيث كانت مدافعه قريبة جدًّا من مجال العدوِّ. ولكنَّ عثمان باشا خاف من ارتداد النيران إلى صفوفه، وقنع بمجرد الاختباء خلف المتاريس. وظلَّت مدفعيته الحديثة صامتة. ولم يكن أمام داي من خيارٍ سوى أن يصعد مرةً أخرى إلى لورينج والضباط الآخرين المتحصنين بالحصن.

كان وضع المدافعين ميئوسًا منه. فلورينج، الذي ادَّعى أنه نجا في عدد من المعارك يفوق أيَّ أمريكي آخر — وصل عددها إلى ٧٥ معركة حسبما ذُكر — كان مروَّعًا بشدة. لأنه رأى الوادي يضجُّ بالحياة فجأةً «بسبب الحشود المتحركة» الحاملة للسهام والسيوف والدروع اللامعة، ثم سمع «أصواتًا مخيفة … كعواء وزئير الوحوش». وكانت تلك مشاهدَ وأصوات الأحباش وهم يهبطون في الطريق إليهم. كانوا بالفعل قد ذبحوا المصريِّين المصابين، الذين تُركوا وهم يتألَّمون بشدة في ساحة المعركة. وكان بإمكان داي أن يسمع توسُّلاتهم طالبين الرحمة، التي لم يُستجَب لأيٍّ منها. فقال: «نجَوا من الطلقات فقط ليشعروا بطعن السيوف والخناجر في أجسادهم. وقاوموا العِصي فقط ليلاقوا الطعنات … لقد كان هؤلاء المتوحشون شديدي التعطُّش للدماء.» وبدا وكأن هناك مذبحةً في الطريق، تشبه إلى حدٍّ بعيد مذبحةً مشابهة وشيكةَ الوقوع بين الفرسان الأمريكيِّين على بُعد آلاف الأميال، على ضفاف نهر بيج هورن في ولاية مونتانا. ومع ذلك فقد كان راتب لا يزال مصرًّا على عدم إصدار أوامره بهجومٍ مضاد، مفضِّلًا بدلًا من ذلك الاختباءَ بين أجولة دقيق الذرة في مخزن الأغذية بالحصن. أما الأمريكيون فلم يكن أمامهم سوى التهديد بقتل جنودهم بأنفسهم إذا لم يُظهِر المصريون بعضَ المقاومة.

وبسبب ذلك التحفيز والتهديد، تمكَّن المصريون من إطلاق نيرانٍ نجحت في حماية الحصن وحمايتهم. وسجَّل لورينج بفزع كيف كان المدافعون «يُهرعون من الحصن ويُظهرون شجاعتَهم بقتل المصابين من الأحباش الشجعان، والتمثيل بالأموات منهم، بفصل أيديهم وأقدامهم ونثرها يمينًا ويسارًا». وللانتقام لرجاله، قام الملك جون بإعدام ٨٠٠ من الأسرى المصريين، وتعذيب الباقين، ومن بينهم د. جونسون، الذي كُسرت ساقه بسبب رصاصة أصابتها.

جهَّز الأمريكيون أنفسهم لهجومٍ ثانٍ، وكان من المتوقَّع أن يكون الأخير. ورأى داي، عندما نظر من إحدى فجوات الحصن، «مجموعةً من الأشكال المهشَّمة والمشوَّهة … أجسادًا عارية تنزف دمًا … وأجسادًا بلا أطراف، ورءوسًا منفصلة، ولحمًا لا يزال ساخنًا طريًّا وكأنه حي، وكلها غارقة في دماء بشرية». وكان من السهل على رجال القبائل أن يفتكوا بعدوهم حينئذٍ، ولكن الملك جون الماكر رأى أنه لا فائدة من مزيد من المذابح، وأنه سيحقِّق استفادةً أكبرَ عن طريق عقدِ اتفاقِ هدنة أو وقف إطلاق النار. وأرسل مندوب سلام من طرفه إلى المصريين.

وكتب لورينج غاضبًا: «ما إن دخل هذا المندوب المعسكر، إلا وبدأت الاحتفالات. فوُضِع طعامٌ فاخر على مائدة الأمير، وسار كلُّ شيء في بهجة، وكأن شيئًا لم يكن.» وبعد أن تُبودلت الهدايا القيمة والأحضان، وافق راتب على الانسحاب. واستأذن حسن من الاجتماع، متعللًا بذهابه للصيد، وعاد مسرعًا إلى موساوة، حيث كان يخت والده بانتظاره ليقله بسرعة إلى القاهرة. وتبِعه طابور طويل من ٤٠٠٠ جندي مصري في ثيابٍ رثة وحالةٍ أكثرَ سوءًا بعدَها بعدة أيام.

ولكنَّ المهانة التي لقيها لورينج ورجاله لم تتوقَّف عند حدِّ الحبشة، بل زادت بعودتهم إلى القاهرة. فقد أجرى راتب الترتيبات اللازمة ليُستقبَل بطلًا، في حين ادَّعى عثمان قائد المدفعية أنه قتل بنفسه ١٠٠٠ من الأحباش، وكتب لورينج عن عثمان: «لو كان في أي جيش آخرَ لحوكم عسكريًّا وأُعدم كأي جبان.» أما الأمريكيون فمثَلوا أمام محاكم عسكرية بالفعل؛ الكولونيل دينيسون لأنه اعتُبر مذنبًا بسبب الإخفاق التام لحملة آرندروب، وأُدين داي لضربه ضابطًا مصريًّا رفضَ المشاركة في المعركة على وجهه. ولم ينجُ حتى شاييه لونج من اللوم. فقد انتُقد بسبب فشله في إيجاد طريق من جوبا إلى أوغندا، فالنهر يميل إلى الجنوب وليس إلى الغرب، واعتُبر مذنبًا أيضًا لإظهاره «حماسةً زائدةً» عند مهاجمة حصن زنزبار. وبسبب إصابته بالملاريا، عاد هذا المستكشف إلى وطنه، غيرَ مشكور على مجهوداته، مثله مثل بقية الضباط الأمريكيِّين.[12]

وسرعان ما نُسيت إساءة الخديوي لمستشاريه الأمريكيِّين، في غمار الأزمة المحيطة بديون مصر الخارجية، التي قُدِّرت برقم فلكي، هو ٥٠٠ مليون دولار. واضطُر إسماعيل إلى بيع أسهم مصر في شركة قناة السويس لبريطانيا، وإلى وضعِ أموال مصر تحت سيطرة دولية متنامية. وفي يونيو عام ١٨٧٨، أوصى المشرفون الأوروبيون على مصر بعمل استقطاعات كبيرة من الميزانية. وأُغلقت مدارسُ تعليم العساكر المصريِّين وأولادهم،

وجرى التخلُّص من جميع المستشارين الأمريكيِّين تقريبًا. وحزِن لورينج قائلًا: «كانت تلك جريمةً ضد الإنسانية، ولا يمكن لأي كلمة أن تصفها وصفًا مناسبًا.»

وهكذا بعد عَقد كامل من الخدمة، غادر المستشارون الأمريكيون مصر، فرحل موت إلى إسطنبول، مستشارًا لعدد من السلاطين، وعمِل داي مستشارًا لملك كوريا. ودخل شاييه لونج الدوائرَ الدبلوماسية، بعد تخرُّجه في مدرسة الحقوق بجامعة كولومبيا. وعمِل لوكيت مهندسًا، وصمَّم خطوط السكك الحديدية لشيلي. وعمِل براوت تنفيذيًّا في شركة خطوط السكك الحديدية أيضًا. ولكن ذلك لا يعني أنهم جميعًا حققوا نجاحًا في حياتهم العملية؛ فمثلًا، أدمن سيبلي ورينولدز الابن الخمرَ حتى تُوفِّيا متأثرَين بها. ولم يتعافَ كثير من الأمريكيِّين من الأمراض التي أصيبوا بها في أفريقيا، ومات كثيرٌ منهم بسببها، من بينهم بيردي وكولستون. وكانت الحكومة المصرية مَدينة لهم جميعًا، ولبعضهم بضع سنين، وفي النهاية وصلتهم المبالغُ المستحقَّة لهم، بالإضافة إلى ٦٠٠٠ دولار معاشًا. وقد مكَّن هذا المبلغ تشارلز إيفرسون جريفز من سداد الرهن على مزرعته في جورجيا، وبناء بيت عليها. واحتفظ بحمار في تلك المزرعة ليذكِّره بتجاربه في مصر حتى نهاية حياته.

أما لورينج فربما كان أكثرهم حظًّا؛ فقد عاد إلى الولايات المتحدة، ليكتب مذكِّراته ويجوب الحدودَ الغربية. وقد توفِّي في نيويورك عام ١٨٨٧، ووقف إلى جانب سريره كلٌّ من شاييه لونج وستون، ودُفن في موطنه بفلوريدا، وحضر جنازته عشرة آلاف شخص. واحد فقط من هؤلاء الضباط ظلَّ في مصر، هو تشارلز ستون. فقد رُقِّي إلى رتبة فريق وظلَّ في منصبه هذا حتى عام ١٨٧٩، عندما قامت فرنسا وبريطانيا — بعد أن فاض بهما الكيل بسبب رفض إسماعيل منحهما السيطرةَ الكاملة على اقتصاد بلاده — بالضغط على العثمانيِّين لترشيح والٍ على مصر يكون أكثرَ تعاونًا معهم.

غادر الأمريكيون مصر، وبعضهم يحمل مشاعرَ ودٍّ وولعٍ تجاهها، في حين كان البعض الآخر يحمل مشاعرَ أقلَّ دفئًا بكثير. واشتكى لوكيت وهو يتذكَّر: «لقد خُدع كلُّ رجل خرج من مصر. فالأمر كلُّه كان خدعةٌ كبرى، كلُّها مظاهر وكلُّها أوهام.» وخلَص داي إلى أنه ليس بإمكان أي شخص تحقيق أي إنجازات في مصر «إلا إذا مُنِح صلاحيات كبيرة»، وأضاف: «يجب على أي أجنبي ذكي ألا يخدمَ مصريًّا.» ولكن ستون كان له رأي مختلِف. فقال: «كانت مصر ودودةً وكريمة للغاية معنا في أوقات الرخاء. وعندما تزدهر مرةً أخرى ستعاود معاملتنا تلك المعاملة الحسنة.» وتذكَّر لورينج أيضًا: «في أثناء

السنوات العشر لإقامتي في مصر، لم أرفض ولو مرة واحدة مقابلةَ إسماعيل، ولم يكن بيننا إلا كل احترام وود.»

كان مجموع الضباط الذين شاركوا في الحرب الأهلية الأمريكية، سواء من الشماليِّين أو الجنوبيين، الذين استكشفوا مصرَ وحاربوا من أجلها، ٤٨ ضابطًا. هؤلاء بنَوا لمصر جيشًا وشيَّدوا مدارس وشقُّوا طرقًا جديدة في أفريقيا. وأثنى عليهم داي في مذكراته قائلًا: «كانوا رجالًا ذوي سمعة جيدة مثيرة للاحترام … ومعلِّمين يطمحون إلى المساعدة في عملية تطوير وتحضر … بلد على نهر النيل، وتدفعهم رغبةٌ جادة في تحصيل المعرفة وهم ينشرونها.»[13] ومع أن إسهامات بعضهم كانت مؤقتةً وعابرة، إلا أن مفاهيم الوطنية والمواطنة التي قدَّموها لمصر لم يكن بالإمكان العودة بها إلى الوراء. وقد أصبح — بالفعل — الجيش الذي أسهموا في بنائه هو أكبرَ قوة لتحرير وتحديث مصر، وظل على هذه الحال مدةً تزيد على قرن من الزمن.

ورغم كل ذلك فلم يكونوا وحدَهم مَن قام بمجهودات لبثِّ الأفكار والأنماط الأمريكية بين شعوب الشرق الأوسط. ففي أماكنَ أخرى من المنطقة كان المبشِّرون يقومون ببناء مدارس مشابهة، وعن طريقها بُثَّت أيضًا نفس أفكار المدنية والقومية. وكما تأثَّر الضباط الأمريكيون بمصر، تأثَّر أيضًا الأمريكيون البروتستانت بالحرب الأهلية، سواء من الأهوال التي أحدثتها، أو من الآمال التي نتجت عنها.

الفصل العاشر

نفيرُ الإقدام إلى العلا

لولا الرِّقُ والإجحاف العنصري اللذان انتشرا حتى في الشمال المناهض للرِّق، لما زار إدوارد ويلموت بلايدن الشرق الأوسط. فقد وُلد في سانت توماس في جزر الهند الغربية الدنماركية عام ١٨٣٢، وأعدَّ نفسه ليكون بحَّارًا كوالده، لكنه رفض التخلي عن حُلمه بدراسة اللاهوت. فترك منزله وهو في سن الثامنة عشرة، وانتقل إلى نيوجيرسي، بغرض الالتحاق بكلية راتجرز الدينية. كان وسيمًا وبليغًا وذا أخلاق عالية، وهكذا كان مستوفيًا لكل متطلبات القبول بالكلية، إلا شرطًا واحدًا هو جنسه وعنصره. فقد كان إدوارد بلايدن داكنَ البشرة. وقد رفضته كلية راتجرز، وافترض هو أنه لن يجد المساواة في أيِّ مكان آخر في الولايات المتحدة، وعليه قرَّر الهجرة إلى ليبيريا.

تأسَّست ليبيريا عام ١٨١٧ ملجأً للعبيد السابقين في الولايات المتحدة، وظهرت بعدها بثلاثين عامًا دولةٌ مستقلة على غرار نموذج الجمهورية الأمريكية، لكنها أيضًا استوردت بعضَ الأفكار الأمريكية المسبقة، ومنحت مزايا خاصة لمجتمع المهاجرين الصغير وحرَّمتها على الملايين من سكان ليبيريا المحليِّين. ولكن عندما وافقت الكنيسة المشيخية على انضمامه إليها اختار بلايدن الابتعادَ عن قبائل ليبيريا المحلية. وتوغَّل في غرب أفريقيا، إلى سيراليون والمناطق التي تشكِّل نيجيريا اليوم. وهناك لأول مرة واجه دِينًا مختلفًا، هو الإسلام، وكان بلايدن يجهل تمامًا كلَّ شيء عنه.

وسرعان ما عرف بلايدن أن المسلمين الأفارقة «يعتمدون على أنفسهم، وأنهم أشخاص منتِجون، ومستقلون ومسيطرون ومساندون دون هيمنة وطن أم». وقال بلايدن إن من مزايا الإسلام أنه أنقذ أهل تلك البلاد من الروحانيات المُبالغ فيها، بتعليمهم ومنحهم الثقةَ اللازمة للفخر بأنفسهم. أما الأهمُّ من وجهة نظر بلايدن فكان أن الحضارة الإسلامية التي وصلت إلى هؤلاء الأفارقة «عن طريق المبعوثين العرب» الذين كانوا ذوي لون بشرة

وخلفية ثقافية مشابهة جعلت منهم درعًا واقية ضد صائدي العبيد ومتتبِّعيهم، الذين كانوا في غالبيتهم من الوثنيين، حسب رأيه.

تأثَّر بلايدن كثيرًا بما رآه من الإسلام، فتوقَّف عن الاستمرار في أي مجهودات بروتستانتية أخرى، ووهب نفسَه لمدِّ الجسور بين المسلمين والمسيحيِّين في أفريقيا. وآمَن أنه عندما تترسَّخ تلك العلاقة يمكن لأفريقيا أن تقوم بدور الرابط بين المجتمعات القديمة في الشرق الأوسط وبين الحضارة الغربية، وأن ذلك سوف يمثِّل حافزًا «لتدمير العنصرية ... وإعادة الوفاق بين الأمم». وزادت زيارات بلايدن لمصر ولبنان وسوريا من التزامه بتحقيق حُلمه.

لم تتضمَّن رؤيته هذه المسلمين والمسيحيِّين وحدَهم، بل ضمَّت اليهود أيضًا، حيث كان بلايدن ينظر إليهم «بكل احترام ورهبة». وكان قد اكتسب هذا الاحترام من نشأته وسط المجتمع اليهودي في سانت توماس، وفي مراحلَ لاحقة من حياته آمن بلايدن أن اليهود مصيرهم إلى التحالف مع السود لبثِّ روح الأخوة في العالم أجمع. وآمن أيضًا أن إعادة تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين سيصبح مثالًا وقدوةً للتحرُّر الأفريقي. وكتب يقول: «أنا جادٌّ ... في تقديم الرجاء إلى بني إسرائيل أن يتذكروا موطنَ إقامتهم الأول وحياتهم، وأن يساعدوا إثيوبيا في مدِّ يدها إلى الرب.»

عمِل بلايدن في مرحلةٍ لاحقة وزيرًا لخارجية ليبيريا وسفيرًا لها في بريطانيا، بالإضافة إلى أنه عمِل محررًا وأستاذًا متميزًا للكلاسيكيات. وقد كان يطمح في أن يكون محررًا للعبيد، مثل إبراهام لنكولن وغيره من المنادين بإلغاء الرِّق. فقال في إحدى زياراته المتعدِّدة للولايات المتحدة: «لن يكون مؤلِّف قصة العبد الهارب بيل هو مَن سيخلِّده التاريخ، بل كاتب «وثيقة التحرر». ولن تكون ذكرى جيف ديفيز هي مثال الإثارة للإنسانية، بل ذكريات ما يسمَّى بجنون جون براون.»[1]

أما الأجيال التالية فشهِدت لبلايدن بكثير من التقدير بسبب أفكاره الملهِمة عن الاتحاد والترابط الأفريقي وحركة المسلمين السود. ولكنَّ القليلين منهم اعتبروه قدوة ومثالًا لمعاصريه البروتستانت في الشرق الأوسط، لأنهم كانوا جميعًا بيضَ البشرة وغير مقتنعين بالدِّين الإسلامي. ومع ذلك، فمن خلال طاقته وحيويته وإصراره وحُلمه بأن ترتبط شعوب الشرق الأوسط كلُّها يومًا ما في شبكة من المثاليات المشتركة، فيمكن القول إن بلايدن يمثِّل تلك الحركة بالفعل. وسعى المبشِّرون مثل بلايدن إلى توحيد شعوب الشرق الأوسط عن طريق بثِّ قيم مشتركة وهويات جديدة. وكانوا هم أيضًا بدورهم يطمحون

إلى تحويل الآلام والعذاب الذي تسبَّبت فيه الكراهية العنصرية في الولايات المتحدة إلى قوة لتحسين العالم أجمع. فحسب قولهم لن يدقَّ النفير لحنَ التقهقر أبدًا، وظهر ذلك عن طريق «ترنيمة دعوة الجمهورية للمعركة» التي لم تدْعُ فقط إلى الانتصار على عدم المساواة في الولايات المتحدة، بل إلى «عصر جديد من المشاعر الطيبة نحو الشرق الأوسط».

بذور الخردل

كانت حركة التبشير في الولايات المتحدة ترتبط تقليديًّا بالدعوة إلى وقف الرِّق، وكان التسامح بشأن الاختلافات العنصرية والعِرقية من بين القيم التي جلبها البروتستانت معهم إلى الشرق الأوسط. وكما قال هنري جيسوب «إذا كان الرب يقبل أعضاءَ الآلة السياسية للحزب الديمقراطي جنبًا إلى جنب مع الجمهوريِّين السود»، فيمكن بالتأكيد لمدارس التبشير أن تقبل كلَّ الطلبة، بصرفِ النظر عن العِرق أو الجنس. فمن وجهة النظر التبشيرية، جاءت الحرب الأهلية انتقامًا متأخرًا للغاية بسبب عدم تقبُّل كل الأجناس وعدم المساواة بينهم، وخطوة نحو إصلاح هذا الوضع. وكتب جاستين بركنز من الموصل: «هذا الصراع الكبير كان بالفعل ... طريقةَ الرب في دفعنا نحو التخلص من واحد من أكبر الشرور التي أصابت العالم. فالحرب ضرورية للوصول إلى الحريات، وحتى لحياة أمتنا.» وقدَّر إدوارد جوي موريس، سفير أمريكا لدى الباب العالي، أن من بين ١٥٠ مبشِّرًا كانوا يخدمون في الشرق الأوسط وقتَ اندلاع الحرب، لم يتعاطف أحدٌ مع الانفصاليِّين، ولا حتى هؤلاء الذين كان الجنوب يرحِّب بهم.

وبينما دفعت الحرب بمعظم الأمريكيِّين إلى توجيه اهتمامهم للداخل، مركِّزين على أزمتهم الداخلية، ومتجاهلين تمامًا الشئونَ الدولية، منح ذلك الصراعُ المبشِّرين دافعًا إضافيًّا. وتنبأ سكرتير المجلس الأمريكي روفوس أندرسون، بناءً على اعتقاد راسخ، بأن «التاريخ سيذكر تلك الحرب على نحوٍ رائع». ومع الاستقطاعات الكبيرة في الميزانية ونقص عدد المتطوعين في سنٍّ مناسبة بسبب تجنيدهم في الجيش، فإن حركة التبشير في الشرق الأوسط قد ازدهرت. ففي مصر مثلًا، التي كانت بلدًا تجاهله المبشِّرون البروتستانت فترةً طويلة، أبحر القس جون هوج وعائلته لمسافة ١١٦٠ ميلًا في النيل وقاموا بزيارة ٦٣ قرية وألقَوا مواعظَ على ما يقرُب من ٧٠٠٠ شخص. وعند وصولهم إلى أسيوط، وهي مدينة قبطية في منتصف المسافة بين القاهرة وأسوان، أسَّس هوج مدرسةً للبنات أصبحت فيما بعدُ أحد أرقى المؤسَّسات التعليمية في مصر. وافتتحت ماري بريسكو بالدوين مدرسةً

أخرى في يافا، وكانت ماري سيدةً بسيطة من فرجينيا، قدَّم لها قائد بحرية الاتحاد ديفيد فاراجوت، الابن المتبنَّى لديفيد بورتر، التمويلَ اللازم. أما الرائدة النسائية ماري ميلز باتريك فأسَّست كلية نسائية في إسطنبول. وافتتح زوجان من الكويكرز هما إيلي وسيبيل جونز، اللذان اعتنيا بالجرحى الشماليِّين في أثناء الحرب، مدرسةَ الأصدقاء الأمريكيِّين في رام الله، فيما يسمَّى اليوم الضفة الغربية. وبنهاية الحرب الأهلية، كان في سوريا وحدَها ٣٣ مدرسة تبشيرية ينتظم ألف طالب بالدراسة بها، ٢٠٪ منهم من البنات.[2]

وجاء في تقريرٍ للسفير موريس: «تمتَّع المبشِّرون في الشرق الأوسط بحريةٍ ووعي لم يتمتَّع بهما الخارجون على الدِّين المؤسَّس في بعض أكثر الممالك تنويرًا في أوروبا.» واستغلالًا لهذا الانفتاح، توسَّع الأمريكيون البروتستانت في نشاطاتهم في المنطقة. فزاد عدد المدارس والمستشفيات والكنائس، لدرجةِ أنه بحلول عام ١٨٧٠ شعرت طائفةُ الأمريكيِّين البروتستانت بضرورة تقسيم الشرق الأوسط إلى ساحاتٍ منفصلة لعملياتها. وعلى ذلك تولَّى الأبرشانيون مسئوليةَ العمل التبشيري في تركيا، في حين كانت مصر وسوريا وإيران من نصيب المشيخيِّين. أما أصغر الكنائس، وهي الكنيسة الهولندية الإصلاحية، فتُركت لها أقلُّ المناطق سكانًا وأقلها وعودًا، وهي الجزيرة العربية والخليج العربي.

وهكذا كان الشرق الأوسط مفتوحًا تمامًا أمام المبشِّرين، كما لم يحدُث من قبل في فترةِ ما قبل الحرب الأهلية، رغم نفور قطاع كبير من السكان الأصليِّين، بل وكراهيتهم الشديدة، لوجود المبشِّرين بينهم. واستمرَّت الكنائس الشرقية في رفض الأمريكيِّين، ونعتتهم بالمحدَثين المتعجرفين، واحتُقروا لذلك السبب. ووعظ البطريرك القبطي القس هوج قائلًا: «لقد كان لدينا الإنجيل قبل أن توجد أمريكا. ولسنا بحاجة إلى تعاليمكم.» ولم تحقِّق مجهودات البروتستانت نجاحًا يُذكر في تحويل اليهود إلى البروتستانتية، وظلوا ممنوعين من محاولة تحويل المسلمين. واشتكى تقريرٌ مشيخي في فترة السبعينيات من القرن التاسع من أن «المسلمين والرهبان وأهالي موسكو يرفضوننا بكل قوة.» ولم يكن لدى الوعاظ إلا أملٌ ضئيل في تغيُّر الموقف، حتى من قِبل حكوماتهم. وحفاظًا على سياسة ديفيد بورتر الأصلية بتجنُّب أي احتكاكات غير ضرورية مع الباب العالي، ذكَّرت وزارة الخارجية المبشِّرين بأن «أي أجنبي معارض للقوانين العثمانية ليس مضطرًّا إلى العيش تحتها». أما هؤلاء المضطرون إلى ذلك «فعليهم أن يتحمَّلوا قسوةَ وضعهم وأن يحسبوا حسابَ ذلك». وظهر مدى قسوة هذا الوضع عام ١٨٦٢، عندما اغتيل اثنان من المبشِّرين الأمريكيِّين؛ أحدهما في مدينة أدرنة والآخر في مدينة الإسكندرونة بتركيا.[3]

وكان العداء من قِبل السكان المحليِّين مثبطًا لعزائم المبشِّرين بالفعل، لكنه لم يفتَّ في عضُدهم كما فعل فشلهم في تحويل أي أشخاص إلى معتقداتهم. فأربعة عقود من العمل الشاق من قِبل الأمريكيِّين لم تتمكن من إنقاذ سوى ٣٠ روحًا في سوريا كلها وعدد مماثل في الأناضول. وكان متوسط تكلفة كل مرتدٍّ تقترب من ١٦٠٠٠ دولار، حسب تقدير الكاتب بينارد تيلور، «وهو مبلغ كان يمكن أن يحوِّل إلى المسيحية عشرة أضعاف عدد الوثنيِّين الإنجليز». وهناك كاتب آخرُ، هو هنري فيلد، قرَّر أن «إرساليات التبشير المسيحية لا تترك أثرًا قويًّا على المسلمين أكثرَ من أثر هواء الصحراء على منحدرات جبل سيناء»، وأن «المتحولين من المسيحية إلى الإسلام في يوم واحد يزيد عددهم على مجموع المتحوِّلين الذين نجح المبشِّرون في تحويلهم من الإسلام إلى المسيحية في قرنٍ كامل». وردًّا على تلك الإحصائيات الكئيبة، ذكَّر المجلس الأمريكي المبشِّرين بالصعوبات التي تغلَّبوا عليها من قبلُ في الشرق الأوسط، وذكَّرهم أيضًا بالاستفادة الكبيرة التي ستعود عليهم من تلك المنطقة. وفي كلماتٍ يبدو أنها مستقاة من تجارب الحرب الأهلية، تحدَّث قادة التبشير عن «خوض غمار الحرب ضد قلاع الإسلام والأرثوذكسية التي عفا عليها الزمن. فمن ساحات الحرب نفسها تظهر نداءات وصرخات استغاثة مرةً أخرى من القلة الضعيفة غير القادرة على تحمُّل ... قوى الظلام والإثم.»

ولكنَّ قرقعة السيوف لم تتمكَّن من التغطية على فشل البروتستانت في إعادة تشكيل الشرق الأوسط على نمط طقوسهم، أو في وقف الجدل حول تعليم الشعوب المحلية التي ليس لديها أيُّ نية أو استعداد لقبول المسيح. واستمرَّ أعضاء المجلس في الإصرار على أن مهمة المبشِّر هي تحقيق الخلاص، وليس إنشاء وإدارة المدارس والمستشفيات، في حين كان البروتستانت يرون أن عملَهم «نصف الدنيوي» لم يكن أقلَّ إلحاحًا وضرورة أخلاقية، بل هو وسيلة «لبث النور» في الشرق الأوسط.[4]

أما الجدل الدائر حول المدارس التبشيرية فكان مكثفًا بصورةٍ خاصة في إسطنبول، حيث سعى سيروس هاملين — الذي شُوهد آخرَ مرة وهو يدرِّس للطلبة الأرمن كيفيةَ صُنع الخبز والأفران كجزء من تعليمهم — إلى إنشاء أول جامعة حديثة في المنطقة. وبدءًا من عام ١٨٦٠ قدَّم هاملين التماسًا إلى السلطات العثمانية للسماح له بافتتاح مدرسة جديدة موسَّعة، ولكن السلطان — تحت ضغطٍ من الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية — اعترض على هذا الطلب. ومن حسن الطالع أن قائد البحرية فاراجوت زار إسطنبول ضيفًا شخصيًّا على السلطان، ونجح في استخراج التصاريح اللازمة له. وشرع هاملين

في شراء قطعة أرض للجامعة في تلال بيبيك المطلَّة على بحر البوسفور، ثم حصل على مجموعةٍ من الكتب من جامعة هارفارد. وبقيت أمامه عقبةٌ واحدة، وهي أكبر العقبات، ألا وهي: المجلس الأمريكي الذي رفض تمويلَ أي مؤسَّسات دنيوية.

وبناءً على ذلك استقال هاملين من المجلس، وفي مايو عام ١٨٦١ عاد إلى الولايات المتحدة بنيةِ جمعِ تبرعات للجامعة بنفسه. وكان يأمُل في إمكانية الاعتماد على معارف ابن عمِّه هانيبال هاملين، أولِ نائب للرئيس لنكولن. لكنه أصيب بالإحباط للمرة الثانية، وهذه المرة كانت بسبب نشوب الحرب. واعترف هاملين بأنه «لا أحدَ يرغب في إلقاء نقوده في مشروعٍ به مخاطرة كبيرة في بلدٍ أجنبي، عندما يكون بلده نفسه في خطر». وعاد أدراجه إلى إسطنبول يائسًا وحزينًا، لكن عند مروره بمدينة باريس، تصادف أن التقى بروبرت راينلاندر روبرت، وهو رجلٌ خيِّر من مدينة نيويورك. تأثَّر روبرت بأمل هاملين وحُلمه بنفس قدرِ تأثُّره بهاملين نفسه، فقدَّم له منحةً مبدئية بمبلغ ٣٠٠٠٠ دولار؛ وكانت تلك الدفعة الأولى من مئات الآلاف من الدولارات لبدء البناء. وبدأ هاملين بالعمل، فأسَّس قواعدَ لإحدى القاعات، التي سُميت فيما بعدُ باسمه. وكان هذا أول بناء في الشرق الأوسط يقام بعوارضَ مصنوعة في أمريكا.

فتحت كلية روبرت أبوابها عام ١٨٦٣، وهي السنة نفسها التي دارت فيها معاركُ جيتيسبرج وفيكسبرج وشيكاموجا، وسجَّل بها أربعة طلاب فقط أسماءهم. ولكن سرعان ما ارتفع هذا الرقم إلى أكثر من مائة طالب، عندما حصلت المدرسة على تصريح رسمي من السلطان عبد العزيز وعلى توثيقٍ من مجلس الأوصياء. ومع أن الدراسة بالكلية كانت تتَّجه أساسًا نحو العلوم التطبيقية والهندسية (أدخل أحدُ أساتذتها التلغرافَ إلى الشرق الأوسط)، فإن الكلية كانت أيضًا جسرًا ومعبرًا لنقل وتوصيل الأفكار الغربية إلى الشرق الأوسط، وتشكيل أجيال جديدة من المحدَثين الأتراك. ومن بين خرِّيجيها كان خمسة من رؤساء الوزارة في المستقبل، منهم أول رئيسة وزراء للبلاد. وقال هاملين وهو يشاهد إنجازه: «لقد أثبت هذا العمل أنه يملِك عونًا إلهيًّا يفيض على مَن حوله؛ فهي بذرة الخردل التي تحوَّلت إلى شجرة مثمرة.»[5]

ولكن هاملين لم يكن المبشِّر الوحيد الشاهد على ازدهار التعليم على النمط الأمريكي في الشرق الأوسط. فقد بُنِيَت جامعة ثانية، في وقت لاحق في بيروت كان لها نفس القدْر من التأثير الإيجابي، وكانت نتيجةً لمجهودات دانييل بليس.

كتب دانييل بليس عن أول نظرةٍ ألقاها على السكان المحليِّين في الشرق الأوسط عام ١٨٥٥؛ سواء كانوا من العرب أو الأرمن أو اليهود، فقال: «كانت وجوههم خاليةً من أي

تعبير. ومن الصعب تصوُّر أن بعضهم لديه روح.» كان بليس قد قدِم إلى المنطقة مع زوجته آبي لافتتاح إرسالية في القرى العربية النائية في جبل لبنان، وهي مهمة تطلبت قدرةً هائلة على تحمُّل المشاق. ولكن القوة البدنية كانت فقط واحدةً من بين العديد من الصفات التي كان يتمتَّع بها بليس. وكان بليس قد أصبح يتيمًا مثل هاملين في سن مبكرة، وعمل في عدة مزارع ومصانع في فيرمونت، قبل أن يحصُل على منحة بكلية أمهرست. وفي سن السابعة والثلاثين آنذاك، كان يسير وسط جبالٍ تعلوها الثلوج للوصول إلى غايته. ونجح في خمس سنوات، في تعلُّم العربية وتأسيس مدارس ابتدائية منفصلة للبنات والبنين.

وكان بليس قد أظهر مرةً أخرى إصرارَ المبشِّرين على ترك أثرٍ دائم في الشرق الأوسط، بصرف النظر عن المخاطر التي يواجهونها. ولكن قوَّتهم تلك لم تستطِع أن تحميهم من القتال المستمر الذي نشِب بين الموارنة والدروز في عام ١٨٦٠. فقد أجبرت أعمالُ العنف معظمَ المبشِّرين في سوريا — ومن بينهم بليس — على البحث عن ملجأ في بيروت. ومن هناك، وبرغم فقره اتَّصل بليس بعدد من البروتستانت القدامى، مثل ويليام تومسون وهنري جيسوب وهاريسون دوايت، وزار مدارسَهم بنفسه. فرأى كيف أن كثيرًا من طلبتهم يغادرون بلادهم فور تخرُّجهم، متجهين إلى أمريكا. ولاحظ أنه من وجهةِ نظر هؤلاء أن «أرض الميعاد لا تُعَدُّ غربَ نهر الأردن وشرقه، بل غرب نهر الميسيسيبي وشرقه». وفي عكس هذا الاتجاه، دعا بليس إلى منهجٍ دراسي يبث في الطلبة حبَّ الوطن والالتزام بالواجب نحو المجتمع. ودعا إلى تدريب المعلمين المحليِّين في أقرب فرصة، وأن تكون لغة التعليم والتدريب هي العربية.

في أول يوم من أيام عام ١٨٦٢، قدَّم بليس للمجلس الأمريكي اقتراحَه بتأسيس أول كلية حديثة في العالم العربي. وقد قوبل اقتراحه هذا بفتورٍ تام، ونظر روفوس أندرسون إلى المشروع باعتباره انحرافًا آخرَ عن مجهودات التبشير، لكنه من ناحية أخرى قدَّر قيمته في إعادة الحيوية للقاعدة السورية، وهما «خياران أحلاهما مرٌّ». وفي النهاية حصل المشروع على موافقة المجلس، ولكن كان على بليس أن يجمع مبلغ ١٠٠٠٠٠ دولار بنفسه، وقد جمعها من مساهماتِ عدد من المتبرِّعين البريطانيِّين والأمريكيِّين، من بينهم السيدة فرانكلين ديلانو، وهي من عائلة أستور، التي تُعدُّ من أقدم العائلات في بوسطن، والعمة الكبرى للرئيس الثاني والثلاثين. وبهذه المَبالغ اشترى بليس قطعةَ أرض مطلَّة على خليج سان جورج، كانت «بيتًا للضِّباع ومجمَّع قُمامة لأحشاء الذبائح». واستأجر

فصولًا مدرسية في مبانٍ قائمة بالفعل. وبعد ذلك بأربع سنوات، وضع المبشِّرون في بيروت حجرَ الأساس للكلية السورية البروتستانتية الجديدة، التي كان بليس أولَ رئيس لها. ومما لا شك فيه أنه أصاب معظمَ أعضاء المجلس في أمريكا بصدمةٍ عندما قال: «إن الرجل، سواء أكان أبيضَ أم أسودَ أم أصفرَ، يهوديًّا أو مسلمًا أو مسيحيًّا أو حتى وثنيًّا، يمكنه دخول الكلية والتمتُّع بمزاياها ... ثم الخروج منها مؤمنًا بربٍّ واحد أو عدة أرباب أو غير مؤمن بأي ربٍّ على الإطلاق.»[6]

لكنه أضاف بعد ذلك: «سيكون من المستحيل على أي شخص أن يستمر معنا طويلًا دون أن يعلم أننا نؤمن بأننا على حق، وأن يتعرف على أسبابنا للإيمان بذلك.» وكان بليس بذلك يعترف بما كان يعرفه هاملين وهوج ومعظم المبشِّرين بالفعل، لكن لا أحدَ منهم كانت لديه الجرأة على التصريح به. فبسبب فشلِ الأمريكيِّين في نقل معتقداتهم الروحانية إلى الشرق الأوسط، كان عليهم أن يَقنعوا ببثِّ الأفكار الدنيوية بشأن الوطنية والجمهورية والحفاظ على الحريات الفردية. وقد ضربت هذه المبادئ بجذورها بين طلبة الكلية، الذين زاد عددهم من ١٦ طالبًا إلى عدة آلاف، وعن طريقهم انتشرت في المنطقة بأسْرِها. ومن بين الخريجين الأوائل كان يعقوب صروف وفارس نمر، رائدا الصحافة الحديثة في مصر، والدكتور شبلي شميل، المناظر الدارويني والمعلِّق الاجتماعي، وناصف اليازجي وبطرس البستاني واضعا القواميس، اللذان حدَّثا اللغةَ العربية المكتوبة. وفي معرض تقريظ إنجازاتهم في محاضرةٍ ألقاها على طلبة الكلية عام ١٨٦٦، قال إدوارد ويلموت بلايدن إنه «يتطلع إلى اليوم الذي يمكن فيه إرسال الطلبة من ليبيريا إلى سوريا لتعلُّم اللغة العربية، وستسهم الكلية السورية في بثِّ البروتستانتية ليس فقط في غرب وجنوب آسيا، بل أيضًا في شمال وغرب أفريقيا».

أما أكبر إسهامات الكلية تأثيرًا واستمرارًا فلم تكن إسهاماتها الأدبية، بل السياسية. فحسب رأي جيسوب كانت «رسالتها العظيمة» هي تكوين «فينيقيا جديدة وسوريا جديدة»، مبنية على الأخوة والولاء للوطن الأم. وقد استند هذا الهدف إلى فكرةٍ جديدة، مُفادها أن الشعوب المختلفة لسوريا تشكِّل قومية عربية منفصلة. فقال أحدُ رجال الاستخبارات الخاصة بالهيئات التبشيرية المعاصرة في تلك الفترة: «لا يمكن لأي شخص أن ينظر إلى الأتراك السِّمان غير الجذابين، ثم يشعر أن العربَ المملوئين بالحيوية والإحساس، سكان الجبال الأشداء والبدو الرُّحل، خُلقوا ليكونوا رعاياهم.» كانت الغالبية العظمى من السوريِّين لا تعرف نفسَها حسب قوميتها، ولكن حسب دِينها أو قبيلتها أو

إقليمها؛ بنفس هذا الترتيب. وكان الأمل ضعيفًا في أي انسجام أو ترابط، وأضعف في أي اتحاد ضروري للحصول على الاستقلال.

ولكن الولايات المتحدة قدَّمت نموذجًا لتحقيق ذلك التضامن. فالبلد الذي كان مكوَّنًا من عدة ولايات وعديد من الأعراق، كان قد نجح في الحصول على حريته من إمبراطورية عالمية، وحارب للحفاظ على تلك الوحدة. وكان بليس يأمُل في أن «يمتلك كلُّ المسيحيِّين في الإمبراطورية التركية الروحَ التي كان يمتلكها الأمريكيون عام ١٧٧٥!» وتحقَّق أمله. فقد تزايدت أعداد خريجي الكلية السورية البروتستانتية المعتنقين للنموذج الأمريكي، وأعلنوا أنفسهم أنصارًا للعروبة. وبالتعاون مع جيرانهم المسلمين، الذين كانوا يشتركون معهم في ماضٍ وتراث ثقافي مشترك، عمل هؤلاء النشطاء على جمع كل البلاد العربية معًا في دولة واحدة ذات سيادة. وكتب المؤرخ العربي الشهير جورج أنطونيوس أن الكلية قدَّمت «الانفعال الفكري» المطلوب من أجل «إعادة صحوة العرب»، وهي صحوة غيَّرت سياسات المنطقة بصورةٍ جذرية. وبسبب فشلهم في تحويل أهالي تلك المناطق إلى بروتستانت، وعن طريق تلبية متطلبات الإيمان بالمدنية الأمريكية، كان المبشِّرون قد ساعدوا في تشكيل هوية جديدة تمامًا في الشرق الأوسط. فبعد خمسين سنة من دفع قراصنة شمال أفريقيا للأمريكيِّين لتكوين ولايات متحدة فيدرالية متميزة، كان المعلِّمون الأمريكيون يدفعون الشعوبَ المختلفة في الشرق الأوسط إلى التوحُّد في أمة عربية فريدة من نوعها.[7]

ومع ذلك فقد ظلَّ مبشِّرون آخرون على رفضهم التخلي عن هدفهم التبشيري الأصلي، وهو الدعوة إلى البروتستانتية. واستمرَّ هؤلاء في التمتُّع بمساندة «قطاع كبير وذكي من الشعب الأمريكي»، وذلك حسب قول ويليام هنري سيوارد، الذي كان هو نفسه من أكبر المساندين لإرساليات التبشير. وقرَّر وزير الخارجية، المعروف أيضًا بتعاطفه مع فكرة إعادة اليهود إلى فلسطين، أن يمدَّ الحماية الأمريكية إلى يهود الشرق الأوسط. فبعد سلسلة من المذابح المدبَّرة ضد يهود المغرب عام ١٨٦٣، أصدر أوامره إلى القنصل الأمريكي في طنجة «بالقيام بكلِّ ما في وسعه من مجهود وسلطة» لحماية «بني إسرائيل المغاربة» من «الوحشية البربرية» لحكوماتهم.

ومثل العديد من الأمريكيِّين، ثابر سيوارد على الإيمان بقرب عودة المسيح، رغم الكوارث المحيطة بالأمة. ومن وجهة نظر بعض المبشِّرين الأمريكيِّين البروتستانت كانت المجازر التي حاقت بأمريكا أخيرًا قد أثبتت أن الإيمان وحدَه ليس كافيًا. فالمسيحي الملتزم

— في عُرفهم — يجب ألا يتوقَ فقط إلى الخلاص، بل يجب أن يعمل من أجله. وقد حفَّزت هذه القناعة أحدَ الأمريكيِّين، وهو جورج آدامز، على قيادة عشرات من أتباعه إلى فلسطين، بهدف استعمار البلد وإعادة السيادة إلى اليهود وإعداد العالم للسلام.[8]

على أجنحة النسر

معلوماتنا عن حياة جورج آدامز المبكِّرة متناثرة وغير مترابطة. فتقول أفضلُ الروايات أن مكان ميلاده هو مدينة أوكسفورد، بولاية نيوجيرسي، عام ١٨١١ أو ١٨١٣. وكان ابنًا لمزارع، وتدرَّب ليكون خياطًا. ولكن عندما بلغ الثلاثين من عمره، كان جورج آدامز قد نبذ مهنتَه ليقوم بالعمل في مسرح شكسبير، وابتعد عن موطنه كثيرًا. وصفه معارفه بأنه يبدو ذكيًّا مشاكسًا، ذو بنية متوسطة وعينين سوداوين وشعر داكن. «كانت شفتاه مزمومتين مغلقتين كالمحارة المغلقة»، وعيناه قريبتين إحداهما من الأخرى للغاية. وكان أيضًا مدمنًا للخمر، وبعد ظهوره المتكرر ثمِلًا أثناء العروض المسرحية، مُنِع تمامًا من الظهور على خشبة المسرح.

عند هذه النقطة لا يبدو آدامز أفضلَ مرشَّح لقيادة حركة إحياء في فلسطين، خاصة أنه كان شخصًا لا يملك أيَّ معتقدات دينية. بدأت رحلتُه مع الإيمان عام ١٨٤٤، عندما تحوَّل آدامز إلى المورمونية. وقد جمعته صداقةٌ بأورسون هايد، أولِ مبعوث من المورمون إلى القدس، وكان يحلُم بتكرار وتقليد رحلة حج هايد إلى الأرض المقدَّسة. ولكن قبل مغادرته كان قد طُرد من الكنيسة، بسبب فجوره واختلاسه بعضَ الأموال، ثم ظهر بعد ذلك مرة أخرى في مدينة سبرنجفيلد بولاية ماساتشوستس، وكان قد أصبح قسًّا من أتباع كامبل. لكن سرعان ما طُرِد وجُرِّد من الرداء الكنسي مرةً أخرى بسبب عصبيته الشديدة. فهرب آدامز من سُمعته السيئة، وانتقل إلى مدينة إنديان ريفر بماين. وتزوَّج بسيدة من أهالي البلدة، قوية الإرادة والبنية، وأسَّس كنيسة المسيح الخاصة به. ومن منبره وعلى صفحات نشرته الشهرية «سيف الحق ورسول السلام» تنبأ آدامز بالعودة الثانية، أثناء عصر الإخاء والازدهار المالي. وقد كان شرط ظهور هذا العصر الذهبي من وجهة نظره هو إعادة اليهود إلى فلسطين. فقال: «حُكمُ المسيحِ على الأرض وعودة اليهود إلى أرض كنعان على وشْك الحدوث قريبًا جدًّا.»

وبدءًا من عام ١٨٦٢، حين كانت قوات الاتحاد والانفصاليِّين يطعن بعضها بعضًا في حقول شيلوه وأنتيتام، ظل جورج آدامز في ماين، يمشِّط الولاية بحثًا عن متطوعين. وكان

ينادي في اجتماعات الإحياء، وشعره الطويل يتطاير في الهواء ونظرة داكنة تتراقص في عينيه: «عمَّا قريب ستنفض فلسطين عن نفسها ترابَ الزمن وستنهض وتتلألأ في مجدها، كما كانت في الماضي!» وأخيرًا توجَّه إلى الأرض المقدَّسة، وأخذ معه مديرَ مكتب بريد المدينة، أبراهام ماكنزي، لتقييم مدى تقبُّله ومعايشته لفكرة الاستيطان. وكان تقريرهما متخمًا بالثناء. فقد ادعى آدامز أن تربة فلسطين ممتازة، وأن جوَّها مشابه تمامًا لجو ولاية كاليفورنيا. وبمساعدة الاختراعات الأمريكية الحديثة، مثل «لوح قالب جونسون المتحرِّك» و«مثقاب سميث المتميز ذو الحركة المزدوجة» فإنه بإمكان البلد أن يستقبل سنويًّا آلافَ المستوطنين وجماعات من السياح. وأصبح بالإمكان إعادةُ تعليم اليهود الزراعةَ والفلاحة.

وعن طريق هذه الأنباء السعيدة، تمكَّن آدامز من تجنيد ١٥٦ أمريكيًّا لمساندة قضيته؛ فنانين وصيادين ومزارعين وتجار مع زوجاتهم وأولادهم. وقد غيَّر اسمه إلى جورج واشنطن جوشوا آدامز، ثم أخذ يصيح: «العودة العظيمة، كما تنبأ بها الرسل والحواريون، بدأت الآن.» ونصح آدامز أتباعه بوضع مدخراتهم معًا، وكان مجموعها ٤٢ دولارًا، لتسديد مصاريف السفر إلى فلسطين.[9]

ومع أن آدامز كان، من دون شك، غريبًا فإنه مَثَّل أفكارًا استمرت في شغْل قطاعات رئيسية من المجتمع الأمريكي، ومن بينهم بعض الشخصيات المرموقة. وفي اجتماع مع أبراهام لنكولن عام ١٨٦٣، اعترض رجل الكنيسة القيادي هنري ونتورث مونك على واقع أن اليهود، على عكس الزنوج، لا يزالون في وضعٍ يجب تحريرهم منه. وقال: «لا يمكن أن يكون هناك سلامٌ دائم في العالم إلا إذا كفَّرت الدول المتحضرة ... عن ألفي سنة من اضطهاد اليهود ... وذلك عن طريق إعادتهم إلى وطنهم القومي في فلسطين.» ومع أنه لم يُعرف عن الرئيس لنكولن قط أنه كان متدينًا، فإنه وافق على الفور، وقال: «إعادة اليهود إلى وطنهم القومي في فلسطين ... حُلم نبيل يشترك فيه كثير من الأمريكيِّين.» وأضاف أنه عندما نفوز في الحرب، سيتمكَّن الأمريكيون مرة أخرى من «رؤية الرؤيا وحُلم الأحلام»، وقيادة العالم لتحقيقها.

أشارت ملحوظاتُ لنكولن إلى مدى جاذبية فكرة إعادة اليهود إلى وطنهم لدى قطاع عريض من الأمريكيِّين، واستمرَّت فلسطين بدرجة كبيرة هوسًا قوميًّا. وكان هذا الهوس قد هدأ قليلًا بسبب نشوب الحرب، لكنه عاد بكل قوة بعد انتهائها. وبعد سنتين من اغتيال لنكولن، لاحظ فيكتور بوبوشيه، القنصلُ الأمريكي في القدس الذي كان جنديًّا اتحاديًّا

سابقًا وفقد ساقًا في معركة كولد هاربور، أن ٥٠٠ من الأمريكيِّين كانوا قد دخلوا فلسطين في الثمانية عشر شهرًا السابقة، وأن الرحلات إلى فلسطين كانت محجوزة بالكامل، نتيجةَ تأجُّج مشاعر الحجيج ورغبتهم في زيادة معرفتهم بالبلد. واعترف الأسقف وعضو مجلس النواب هنري وايت وارن بعد وصوله إلى يافا بأن «هذا أول بلد أشعر فيه أنني في بلدي، مع أنني لم أبقَ قط في بلد مختلف عن بلدي بهذا القدْر». وكتب مراسل الحرب الأهلية الشهير جون راسل يانج: «أنت تأتي إلى الأرض المقدَّسة بشعور وكأنك تعود إلى منزلك. فبصورةٍ ما تشعر أنك تنتمي إلى هنا.» وأصبح بالإمكان زيادةُ معرفة الأمريكيِّين بفلسطين، وهي المعرفة التي وجدت جذورها في القراءة اليومية للإنجيل، عن طريق الاشتراك في جمعية استكشاف فلسطين، المتخصِّصة في دراسة جغرافية الأرض المقدَّسة. وكان بإمكانهم أيضًا زيارةُ حديقة فلسطين، التي كان فيها نماذج للمزارات الرئيسية — الناصرة وبيت لحم والقدس — التي شُيدت على ضفاف بحيرة إيري. وتفاخرت مجلةُ هاربر قائلة: «نحن نعرف أكثرَ بكثير عن بلد اليهود، من العرب الجهلة الذين يحكمونها.»[10]

ولكنَّ الانشغال بفلسطين والإيمان بعودتها إلى اليهود في النهاية لم يكونا شيئًا واحدًا. فكما سخِر هيرمان ميلفيل من واردر كريسون وآل ديكسون، كان رفض رجال الدِّين المرموقين، خاصةً من الكنائس التي لها شعبية كبيرة، لفكرة إعادة اليهود. وقد يقال إن القس وارن شعر بأنه في وطنه الثاني في فلسطين. وكتب فيليب شاف من كلية اللاهوت الاتحادية بحماسة عن أول مرة وقعت عيناه فيها على القدس عام ١٨٧٨. وبعدها بفقرة واحدة دعا إلى تدمير «الأحياء القذرة الكئيبة للمدينة» وكان يعني بها الأحياءَ اليهودية. أما وارن وشاف، فكانت الحال البائسة لليهود عنده دليلًا على تحقُّق نبوءة الإنجيل، وعقابًا لهم على رفضهم للمسيح. وبدا «تقرير برينستون» وكأنه يتحدَّث نيابةً عنهم وعن غيرهم من الوزراء المحافظين عام ١٨٦٦، عندما ندَّد بفكرة إعادة اليهود لأنها «خاطئة للغاية» وضد «كل تعاليم العهد الجديد ... ومضرة بمصالح الدِّين الحقيقي».

لم يحقِّق المعارضون لفكرة الإعادة، رغم أصواتهم العالية وهجومهم الشرس شيئًا، فلم يستطيعوا تحصيلَ قوة ولا شعبية المدافعين عن الفكرة. وكان من بين هؤلاء المشيخي ناثانييل كلارك بيرت من أوهايو، الذي عاد من رحلة إلى فلسطين عام ١٨٦٧، وهو يدعو الله «أن يعود اليهود إلى البلد الذي كان يومًا ما بلدهم، بوعد من الله وهِبة منه». وفي العام التالي، تنبأ قسٌّ من فيلادلفيا، هو هنري رايلي، أن «شعب الله سيتجمع قريبًا من شتاته بين الأمم، وسيعود إلى سيادة فلسطين». وفي مجال الكتب خاصة، تمتَّع مساندو حكم

اليهود لفلسطين بتفوُّق واضح على معارضي الفكرة. ففي مذكِّراتها التي حققت أعلى المبيعات، وكانت بعنوان «الحاج في سوريا»، عبَّرت سارة باركلي جونسون، ابنة المبشِّر جيمس تيرنر باركلي، عن أملها في أن تشهد في يوم من الأيام «الجنس اليهودي … عائدًا إلى مدينته القديمة … وبلد أسلافه من قبل» وأن تعود فلسطين إلى «أصحابها الأحق بها». أما كتاب ويليام برايم «حياة الخيام في الأرض المقدَّسة» الذي حقَّق انتشارًا أكبر، فكان مجموع مذكِّرات تجارب الكاتب في فلسطين. وباعتباره محرِّر جريدة «نيويورك جورنال أو فكوميرس» كتب برايم متفائلًا إن ماضي البلاد كان «مغطًّى بهالة مقدَّسة»، وتخيَّل كيفية منح الدولة اليهودية المستقبلية مؤنًا غذائية «مستوردة من يافا تحملها الجِمال من بلادِ ما وراء البحار».

كان هوس أمريكا بفلسطين يزداد تفاقمًا بعد الحرب الأهلية، وزادت معه النزعة الرومانسية بشأن إعادة اليهود. واعترف مقالٌ في جريدة «نيويورك تايمز» بأن «الكثير قد قيل لعدة أجيال من اليهود حول استعادتهم للقدس، وكيف أنه أمرٌ مقبول للغاية أن يفكِّر المرء في أنهم سيقومون بذلك أخيرًا. فهم حقًّا يستحقون القدس». قليل فقط من الأمريكيِّين هو مَن تبنَّى هذا الشعور أكثر من جورج آدامز وأتباع كنيسته، الذين قاموا في أغسطس عام ١٨٦٦ بركوب السفينة «نيلي تشابين» المتجهة إلى فلسطين. وأعلن آدامز: «أبناء أفرايم يتجمَّعون من أجل العودة.»[11]

استغرقت الرحلة من بوسطن إلى يافا ٤٢ يومًا؛ أي نحو ضِعف المدة المعتادة. ومع ذلك فقد رفض أيٌّ من الحجيج أن يشتكيَ، وأقسم أحدهم أنه «يفضِّل أن يجلس وحدَه على لوح خشبي وأن يصاب بدُوار البحر وتبِعاته عن أن يفوِّت رحلةً لفلسطين». ولكنَّ مِحَنًا أكثر قسوة كانت بانتظارهم بعد رسوِّ السفينة «نيلي تشابين». فبعد الانهيار العنيف الذي شهدته مستوطنة آل ديكسون، والخلاف الذي أحدَثه ذلك مع الولايات المتحدة، قرَّرت الحكومة العثمانية ألا تسمح بتأسيس أي قواعد أو مستوطنات بروتستانتية أخرى. لذلك اضطُر الحجاج المرافقون لآدامز إلى إقامة مخيم على الشاطئ، بين أكوام نُفايات الجزارين المحليِّين وقبور مائتين من ضحايا وباء الكوليرا الأخير. وقال أحد كتَّاب اليوميات منهم: «التنفس وسط هذا الكمِّ الكبير من النُّفايات المتحللة كان أمرًا سيئًا للغاية. فقد كان الشاطئ وكأنه مرحاض للعالم بأسره».

ومع كل هذه المنغِّصات، ظلَّت الروح المعنوية للأمريكيِّين مرتفعة. فقد وجد بحَّارة السفينة «تيكانديروجا»، الذين كانوا في استراحة على شاطئ يافا في سبتمبر عام ١٨٦٦،

أن المستوطنين كانوا لا يزالون متفائلين بشأن فرصهم في النجاح. ووصف آدامز بكثير من الإثارة خططَ إنشاء مدينة على النمط الأمريكي، بها «كنائس وفنادق وكليتان»، بالإضافة إلى إعادة بناء المعبد، الذي لا بد أن يكون كاهنه الأكبر عضوًا من أسرة روتشيلد. وقد بدأت الخطوة الأولى نحو تحقيق هذه الرؤية أوائل عام ١٨٦٧، عندما منح نائبُ القنصل الأمريكي هيرمان لوفنتال، وهو ألماني يهودي متحول إلى المسيحية، منح المجموعةَ عشرة أفدنة من الأرض الصالحة للزراعة خارج نطاق المدينة. ومع أن ذلك كان أقلَّ بكثير من الثلاثة ملايين فدان التي وعدَهم آدامز بها، فإن المستوطنين شرعوا في العمل فورًا. وفي أيام، كان ١٧ منزلًا سابقة التجهيز مستوردة من ماين قد أُعيد تركيبها، وشُيِّد مبنًى للاجتماعات. وأعلن آدامز، الذي أطلق على نفسه لقب «الرئيس آدامز» وهو يرفع العَلم الأمريكي «في كل يوم من أيام الرب»: «لقد أصبحنا نحن أهالي المستوطنة متحررين من أي حكومة على الأرض.»

ولكن سرعان ما هاجمت العصابات محصولَ المزارعين، وعندما حلَّ الشتاء كانوا مهدَّدين بمجاعة. وشُوهد آدامز أكثرَ من مرة وهو ثملٌ، ويتجادل بعنف مع زوجته، ويندِّد بلوفنتال واصفًا إياه «بالوحش في شكل إنسان، ويهودي خبيث ... يعارض أيَّ تقدُّم مسيحي». وبعد أقلَّ من ستة أشهر من نزولهم الأرضَ المقدَّسة كان ١٧ أمريكيًّا قد لقوا حتفَهم، ضحايا للدوسنتاريا والتعرُّض للأجواء غير الملائمة. وقال آدامز يطمئن بقيةَ الناجين، الذين كان معظمهم قد بدأ يشكِّك في علاجاته: «ضعوا ثقتَكم في الله واستخدموا قليلًا من الخمور.»

ووصلت تقاريرُ متناقضة بشأن بؤس المستوطنين إلى الولايات المتحدة. ففي خطاب إلى جريدة «نيويورك تايمز»، نفى أحدُ المستوطنين الادعاءات القائلة إن هذا المجتمع الصغير يواجه الفشل، وأصرَّ على أن «السيد آدامز يتمتَّع بسمعة حسنة بين اللاتينيين واليونانيِّين والأرمن والمارون والأتراك والعرب واليهود والمسلمين». وجاء خبرٌ آخر في جريدة «بانجور تايمز» أن العرب كانوا «أفضلَ أصدقائنا» ويظن أنه «أمرٌ رائع أن يعيش الشخص في بلدٍ عاش فيه يومًا ما الرسلُ والبطاركة والمسيح ذاته». ولكنَّ مقالات أخرى كشفت عن ماضي آدامز ووصفته بـ «المغامر الأفَّاق الشقي». ووصفت شائعاتٌ متناقضة المستوطنين تارةً بأنهم متورطون في حرب أهلية مصغرة، وتارةً بأنهم يمارسون الحب الحر.

في تلك الأثناء كانت المستوطنة قد أصبحت منطقةَ جذب للسياح الأمريكيِّين. وكان رجل الصناعة الشهير في كونيتيكت تشارلز إليوت يصف المستوطنين بأنهم «غير محميِّين

وكأنهم على حدود ولاية تكساس». وأعلن القسُّ هنري ويتني بيلوز أن آدامز «متعصِّب ديني صلب الرأي». ومع ذلك فقد كان مشهد المنازل المتواضعة الشبيهة بالأكواخ، ويحيط بكلٍّ منها حديقة صغيرة منسَّقة، منظرًا لا يقاوم لمراسلِ السفريات والرحلات جون سويفت. فكانت المستوطنة عنده مايفلاور حديثةً (مايفلاور هي السفينة التي كانت تقلُّ الحجاج في الماضي إلى القدس)، وكانت مجتمعًا «للأمريكيِّين الشماليِّين الحقيقيين، الذين تسلحوا بالدِّين في يد ... وبالمحراث الأمريكي في اليد الأخرى»، والذين كانوا يطمحون إلى «إعادة إحياء الأرض بناءً على المبادئ الأمريكية». وقد اقتبس جون سويفت حديثَ آدامز المملوء بالتفاخر عن خططه «لبثِّ المدنية في العرب المضلَّلين» عن طريق زرعِ الديمقراطية في صفوفهم وتكوين دولة يهودية. وكانت زوجة آدامز الملقَّبة بالرئيسة، قد أكَّدت لسويفت أن الخلاص بات وشيكًا؛ لأن «النسر الأمريكي رمزَ الحرية أصبح يرفرف بجناحيه ويطير طيرانَ المجد من أحدثَ إلى أقدمِ بلد على الأرض».[12]

كان السؤال عمَّا إذا كان آدامز يمثل نقطةَ فخر للولايات المتحدة أم إحراجًا لها، قد عُرض في نهاية الأمر أمام وزارة الخارجية. وأرسل وزير الخارجية سيوارد صديقَه القس والتر بيدويل لاستكشاف المستوطنة. فوصل بيدويل إلى يافا في مارس عام ١٨٦٧، وباستثناء سيدة «شاحبة الوجه ومثقَّفة للغاية» كانت تريد العودةَ إلى الوطن، وجد بيدويل أن المستوطنين كانوا عامةً راضين عن حياتهم، وواثقين في مستقبلٍ مثمر ينتظرهم. وبالفعل، مقارنةً بأكوام القمامة والأكواخ في ميناء يافا، كانت المستوطنة تبدو رائعة في عيني بيدويل. ولكنَّ أغسطس جونسون، القنصل الأمريكي في دمشق، كان قد وصله انطباع مختلف تمامًا. كان متزوجًا من ابنة الكاتبة البروتستانتية سارة باركلي؛ لذلك كان منحازًا للمبشِّرين، ولكن ما رآه في يافا أصابه بالاشمئزاز. وفي خطابٍ له حذَّر الرئيس واشنطن من أنه عما قريب «سيطلب الأمريكيون من العرب الصدقة ... ليتجنبوا الموتَ جوعًا في الشوارع. وعن طريق إيقاظ حواسِّهم وتحريرهم من سحرِ آدامز فقط يمكن أن يكون لهؤلاء الأمريكيِّين أملٌ ما في البقاء».

حدَثت الصحوة في الصيف، عندما كانت الوفيات بين المستوطنين قد وصلت إلى ستين شخصًا. وبسبب انهيارهم ويأسِهم نشر ٢٢ منهم «نداءً إلى القلوب الخيِّرة وإلى الإنسانية جمعاء» في الصحافة الأمريكية، وتوسَّلوا إلى الحكومة الفيدرالية أن تنقلهم. وسألوا القنصلَ بوبوشيه: «كيف يمكننا أن نثق في يد أو قلب أي شخص يتعثَّر في طريقه ثملًا، ولا يقدِر على قراءة كلمة الرب؟» وفي خطابٍ إلى حاكم ماين، جوشوا لورنس

تشامبرلين، قالوا إنهم فقراء للغاية، لا يملكون أيَّ طعام أو دواء، وأن ممتلكاتهم سرقها «النصَّاب الشرير آدامز». وذكَّروا تشامبرلين، وهو من أبطال معركة جيتيسبرج، بأن الكثيرين منهم «قد ساروا وراء العَلَم الأمريكي في العديد من المعارك في الجنوب»، وأنهم يستحقون مساعدةَ بلادهم.

وأخيرًا أثَّرت تلك التوسلات في وزارة الخارجية، فخصَّصت ٣٠٠٠ دولار لنقل المستوطنين. وكان ذلك المبلغ يكفي فقط ستة عشر منهم، ولكنَّ آخرين وجدوا أماكنَ في سفنٍ تابعة للبحرية الأمريكية. وحذَّرهم آدامز من أن «حالهم سيتدهور وسيصبحون شحاذين وفقراء»، لكنه في النهاية رحل معهم، تحت ادعاء أنه سيجمع تبرُّعات للمجموعة في بريطانيا. وعاود الظهور بعد ذلك في كنيسة معمدانية في فيلادلفيا عام ١٨٧٣، وكان يلقي المواعظ وينفي أيَّ رابطة بينه وبين جورج واشنطن جوشوا آدامز من يافا.

وبنهاية فصل الصيف كان نحو خمسين مستوطنًا قد عادوا إلى إنديان ريفر، يملؤهم الخجل من أنفسهم. وجلب أبراهام ماكينزي معه خيمةً بدوية، وافتتح مشروعًا يبيع عن طريقه «تربة فلسطينية أصلية». ولكنَّ أربعين منهم ظلُّوا في يافا، ونجحت واحدةٌ من بينهم فقط، هي رولا فلويد، في إيجاد عمل ثابت في مجال قيادة وإرشاد السياح الأمريكيِّين في القدس. ومع أن المستوطنة عُرفت باستمرار بـ «الماليكان» — أي مكان الأمريكيِّين — فإن الأدفنتست الألمان اشترَوا معظمَ مبانيها. وانتقلت ملكيةُ بيت آدامز إلى بلاتون أوستينوف، وهو بارون روسي يهوى ويمتهن جمع الأنتيكات، وجد الممثِّل بيتر أوستينوف. وهكذا كُتبت نهاية أليمة أخرى لإحدى تجارب الأمريكيِّين البروتستانت لتأسيس مستعمَرة مخصَّصة لعودة اليهود إلى فلسطين. ولخَّص القنصل البريطاني في يافا، نويل تمبل مور، الموقفَ قائلًا: «فشلُ المستوطَنة الأمريكية في يافا ... هو تكرارٌ لمصير تجاربَ سابقة مشابهة. ولا يبدو أن هناك أملًا في نجاح مثل هذه التجارب.»[13]

وبدا الأمر وكأن النسر الأمريكي، الذي كان سيوصل اليهودَ إلى السيادة في موطنهم القديم، حسب خيالات السيدة آدامز، قد طوى جناحيه. فبعد انهيار محاولات الاستيطان الأولى لهارييت ليفرمور وكلوريندا مينور وآل ديكسون، ثَبَّط تفكُّك جماعة آدامز من همةِ كثير من الأمريكيِّين البروتستانت الحالمين بالاستقرار الدائم في فلسطين. ومع ذلك فقد قامت إحدى العائلات، وهي عائلة سبافورد، التي سنستعرضها في فصلٍ لاحق، بمحاولة تكوين مستوطَنة أمريكية في القدس، في حين أسَّس مبشِّرون آخرون مدارسَ ومستشفيات في كل أنحاء البلاد. واستمر اندفاعُ الأمريكيِّين نحو فلسطين — بل إلى جميع أنحاء الشرق الأوسط — في التنامي، لا يدفعهم فقط الورعُ والتقى، ولكن شغف للمغامرة لا يهدأ ولا يفتُر.

الفصل الحادي عشر

الهجوم الأمريكي

كانت جولة في الشرق الأوسط تُعدُّ فيما مضى رحلةَ مخاطرة، ولكن بحلول فترةِ ما بعد الحرب الأهلية أصبحت تلك الرحلة نزهةً مقبولة. فقد شهدت العقود بعد عام ١٨٦٠ تزايدًا يصل إلى عشرة أضعاف عدد الأمريكيِّين المبحرين إلى الخارج، لم يكونوا من المبشِّرين وحسب، بل كانوا أعدادًا متنامية، من السياح كذلك. وصدر أكثرُ من ألفي كتاب عن السفر في الولايات المتحدة في تلك الفترة، وكانت كل رحلات السفن البخارية محجوزة مقدمًا لفترات طويلة. وكان معظم هؤلاء المسافرين متجهًا نحو أوروبا، ولكنَّ جزءًا كبيرًا منهم كان يقوم باستكشاف الشرق الأوسط أيضًا. وقد شهد أحدُ زوار سوريا، وهو الدكتور جيكوب فريز أن «عدد المسافرين الأمريكيِّين يفوق بكثير الأعدادَ القادمة ... من أي بلد آخر»، وهي حقيقةٌ أكَّدها الفنان فريدريك تشرش، مؤسِّس مدرسة هدسون ريفر. فعندما وصل إلى دمشق عام ١٨٦٨، اكتشف تشرش أن الأمريكيِّين كانوا قد استولَوا على كل حجرات فنادق المدينة. فقال: «القلة الإنجليزية هنا تقف وأيديها في جيوبها، وتصرخ: يا لهم من أمريكيِّين غريبي الأطوار!» وفي مصر أيضًا كان عدد السياح الأمريكيِّين قد ارتفع من ستين سائحًا في السنة، وهو معدَّل ما قبل الحرب الأهلية، إلى نحو خمسمائة. ويقال إنه في بدايات السبعينيات من القرن التاسع عشر كان المرشدون البدو عند الأهرامات يتحدَّثون الإنجليزية بلكنةٍ أمريكية، ويسمُّون حميرَهم «يانكي دودل» (وهي أغنية أمريكية شهيرة).

وبسبب التخفيض الكبير في الأسعار وتقليل وقت السفر من نيويورك إلى مصر إلى سبعة عشر يومًا «فقط»، تشجَّع الأمريكيون على الإبحار شرقًا. ومع ذلك، فإن ظهور هذا «العصر البدوي»، كما أسمَته مجلة «بوتنام»، لم يكن وحدَه السبب في هذا النزوح الأمريكي غير المسبوق. فقد استمرَّ الأمريكيون في الانجذاب إلى الشرق الأوسط من خلال

«المسك العربي، والألوان البهيجة، أي هذه الخيالات الكاملة»، حسب كلمات مؤلِّف كتب الرحلات تشارلز دادلي وارنر. وكان عدم الاستقرار والرغبة القديمة في الخروج إلى ما وراء وبعد الحدود يدفع الأمريكيِّين أيضًا إلى الشرق، خاصةً بعد تلاشي الحدود الغربية. أما الأهم فكان الرغبة في الخروج إلى العالم، بعد أربع سنوات من سفك الدماء ورغبتهم في رؤية ومعايشة جَمال الحياة. لذلك قال نوبار باشا، وزير الخارجية لهنري فيلد، وهو مراسلٌ من ماساتشوستس عام ١٨٧٨: «آه منكم أيها الأمريكيون! أنتم البدو الرُّحل الحقيقيون!»

وكان بإمكان الأمريكيِّين أن يُشبِعوا رغبتهم في التجوال عن طريق السياحة في الشرق الأوسط، ولكن ليس من دون التعرُّض للمخاطرة المصاحِبة لذلك، إن لم تنعكس تلك المخاطرة على حياتهم أيضًا. وظلَّ السياح هدفًا جذابًا لقُطَّاع الطرق؛ لذلك كان يفضَّل أن يستأجر الأمريكيون حراسًا، وأن يحملوا معهم دومًا خناجرَ وأسلحة بيضاء أخرى. وقد حاول أحدُ النيويوركيين، واسمه كلاين، تجاهُل هذه التحذيرات، والإبحار عبر نهر الأردن وحدَه. لكن ذلك اضطرَّه إلى دفعِ إتاوة قدرها ٧٠٠٠ دولار لبدوي مسلَّح، وهو مبلغ كان يُعدُّ ثروةً عام ١٨٧٨. كان السفر في تلك المناطق يمثل خطرًا على النساء بصورة خاصة إذا كن غير مرتديات للحجاب أو النقاب ووحدهن، وكثيرًا ما كن يشعرن أنهن مهدَّدات جنسيًّا من البيئة المحيطة بهن. فالممثلة الذائعة الصيت روز إيتينج، التي جالت في الشرق الأوسط في أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر، اعترضت بشدة على ضرورة تغطية شعرها عند الخروج أو اصطحاب مُرافق من الرجال، وهي ممارسات وجدتها السيدات الأمريكيات اللاتي اعتدن الخروج والدخول كما يشأن — منغِّصة للغاية. وكانت الأمراض المنتشرة أكثرَ خطرًا من السرقة أو التحرش الجنسي للمسافرين الأمريكيِّين؛ فقد ظلَّ مرض الدوسنتاريا هو القاتل الرئيسي؛ إذ كان السببَ في وفاة مارثا وهيلين ووسلي ابنتي رئيس جامعة ييل، حين كانتا تعبُران لبنان عام ١٨٧٠. وكان طقس الشرق الأوسط «غيرَ مناسب للأجانب، وقاتلًا للسياح في كثير من الأحيان»، حسب أقوال القنصل الأمريكي في دمشق أغسطس جونسون، الذي شهد بأنه «يمكن رؤية قبور الرحَّالة والمستكشفين الجدد ممتدةً من مدينة تل القاضي إلى مدينة بئر سبع، ومن القدس إلى دمشق». واشتكى القنصل الأمريكي في الإسكندرية من ضياع معظم وقته في إعادة شحن جثث الأمريكيِّين الذين لاقَوا حتفَهم في رحلاتهم إلى مصر.[1]

ولكنَّ الأمريكيِّين استمروا في التجوال عبْر الشرق الأوسط بكثير من اللَّهفة وعدم الاكتراث، غيرَ آبهين لتلك المخاطر. وقد بدا لإليزا بوش من لندن، أن الأمريكيِّين الذين

قابلتهم في مصر في السبعينيات من القرن التاسع عشر «ليس لديهم أفكارٌ أكثر من التحرك بأقصى سرعة من مكان إلى مكان». في حين اندهش الإنجليزي جون ماكجريجور من أن «أبناء عمومتنا يقومون بمشاهدة الآثار والمرور عليها بسرعة فائقة». وحتى الضباط الأمريكيون العاملون في مصر اندهشوا من العدد الكبير من الزوار الأمريكيِّين للبلاد من ناحية، ومن الجولات السياحية الفائقة السطحية من ناحيةٍ أخرى. وقال أحدهم: «عادةً ما يأتون في أفواج وجماعات، فيُحشرون في الفنادق كالسردين، ثم يُقادون في جولات عبْر البلاد كقطعان الخِراف.»

ويبدو أن المرات القليلة التي تمهَّل الأمريكيون فيها أثناء رحلتهم في الشرق الأوسط كانت بهدف سرقة آثاره أو تدميرها. فقد ترك الأمريكيون آثارَهم على الأهرامات والمعابد والقبور والمسلات، في شكل رسوم للعَلم الأمريكي أو إزالة لقطعِ أحجار مكتوبة بالهيروغليفية. وتخصَّص الزوار الأمريكيون في الرسم على الآثار، ولكنَّ إحداها كانت هي الأشهر والأكثر انتشارًا، وهو توقيع «باول تاكر، نيويورك، ١٨٧٠»، الذي وُجد على العديد من الآثار القديمة. وما لم يستطِع الأمريكيون سرقتَه أو تشويهه، كانوا نهمين لشرائه. وعن ذلك قال ضابطٌ اتحادي سابق: «كثيرًا ما يفكرون من خلال حافظات نقودهم، ويعجبون بالأشياء من خلال شيكاتهم، ويقدِّرون الأمور بتثاؤبهم». وهناك مغتربٌ أمريكي آخر في مصر، وهو تاجرٌ من نيوجيرسي كان يطلِق على نفسه اسم «سميث الأثري»، استغلَّ هذا الشَّغف الشديد بالآثار، وحقَّق ثروة من بيع القطع الفنية الحقيقية والمزيفة للأمريكيِّين.

لم يتفوَّق على قلة الاحترام التي أظهرها الأمريكيون لماضي الشرق الأوسط سوى احتقارهم لمجتمعه الحالي. ومثل زوارِ ما قبل الحرب الأهلية للمنطقة، استمر السياح الأمريكيون في فترةِ ما بعد الحرب في انتهاكِ ما اعتبروه حياةَ القسوة والحرمان في الشرق الأوسط. فالإساءة الواضحة في معاملة النساء، التي حكم عليها تشارلز دادلي وارنر بأنها «الحُكم النهائي ضد دِين الرسول محمد»، كانت أمرًا لا يزال له تأثيرٌ منفِّر بصورة خاصة. وحتى أثناء العبور السريع عبر المنطقة، ظلَّ إحساس الأمريكيِّين بتفوقهم الثقافي بالنسبة إلى الشعوب المحلية ثابتًا لا يتزعزع، وكذلك توقُّعاتهم بضرورة تلقي الاحترام اللازم تبعًا لذلك. فعندما اعترض حارسٌ مسلم الطريقَ إلى مقبرة داود في القدس مثلًا، ثار الدكتور فريز، الذي عُرف بهدوء طبعه فيما مضى، وصاح: «يا للاحتقار الذي يظهره هؤلاء الفلاحون البؤساء لبلد الحضارة في هذا الزمان»، ودعا أمريكا المسيحية إلى الأخذ بالثأر، «إما بالطرق الدبلوماسية أو بالسيف».

وكان الأمريكيون قد أظهروا بالفعل وجهَهم القبيح في الشرق الأوسط، ولكن لم يكن كلهم من الحمقى أو المدمِّرين أو الرافضين لثقافات الشرق الأوسط. فقد قال رالف والدو إيمرسون في مايو عام ١٨٧٢ وهو يبحر عبر النيل: «يمثِّل هذا الشعب نموذجًا لدرسٍ مستمر في التميز والتأنق في الشكل والحركة. فشراع البحر المتوسط هو ظلُّ الأهرامات، والأهرامات هي أبسط أشكال الجبال.» وبعدها بعدة سنوات قام فريدريك دوجلاس بنفس الرحلة، وتخيَّل أن خلفاء بناة الأهرام يمكنهم المساعدة في «مقاومة الأفكار الأمريكية المسبقة ضد الأجناس البشرية الداكنة البشرة»، وكيف أن العرب الأشداء المستقلين «الإخوة غير الأشقاء للزنوج» سيمثلون نموذجًا «لتنشئة شعوبٍ ملوَّنة حسب تقديرهم وحكمهم الشخصي».[2]

غابت مثل هذه الملحوظات عن الشرق الأوسط تمامًا من أدبِ رحلاتٍ ما قبل الحرب الأهلية، وهي تشهد بذلك على تسامُح واتساع أُفق هؤلاء المفكِّرين. لكنها تشير أيضًا إلى إحساسٍ عميق بالإهانة والذل بسبب عذاب الحرب الأهلية. وجاء هذا التواضع، بجانب الفضول والحيوية والإقبال على الحياة، من عددٍ كبير من الأمريكيِّين الزائرين للشرق الأوسط بعد معركة أبوماتوكس. وكانت صفوفهم تتضمَّن محامين وكتابًا وأغنياء مدلَّلين، ولكن جاء معهم أيضًا لأول مرة عمال ومعلِّمون وموظفون، فكانت هذه هي ديمقراطية السفريات الأمريكية. ورافقهم أيضًا بعض أشهر الشخصيات، وهم قادة الحرب الأهلية وأبطالها.

موكب فخم متلألئ

قال ويليام هنري سيوارد ذات مرة: «تُعدُّ الولايات المتحدة هي فلسطين التي يأتي … منها الخلاص السياسي لكل الجماهير المقهورة.» والآن، في عمر السبعين، كان وزير الخارجية السابق يستعد لرحلة إلى الأرض المقدَّسة الحقيقية، مما جعله أشهرَ أمريكي يزور الشرق الأوسط حتى ذلك الحين. وكانت هذه رحلته الثانية إلى المنطقة. أما الأولى فكانت قبل الحرب الأهلية، وفيها حصل عضو مجلس النواب سيوارد على ثلاثة جياد من بغداد، بالإضافة إلى صندوق «آثار» ورمح بدوي. وفي العَقد التالي كان سيوارد قد حقَّق شهرةً واسعة بوصفه معارضًا شرسًا للرِّق، وأيضًا باعتباره رجلَ الدولة الذي ساعد على إقناع فرنسا وإنجلترا بعدم الاعتراف بالانفصاليين، وأيضًا باعتباره المفاوض في عملية شراء ألاسكا. وقد نجا سيوارد من حادث مروِّع بعربة جياد عام ١٨٦٥، لكنه أصيب إصابةً

خطيرة بعدها في محاولة لاغتياله كجزء من مؤامرة بوث، تركته طريح الفراش سنة كاملة. وقد توفيت زوجته وابنته في تلك الفترة، ولكن سيوارد تعافى من وعكته وعاد مرةً أخرى إلى عمله حتى عام ١٨٦٩. وكان لأي رجل أقلَّ منه قوةً أن يستقيل في تلك الفترة، ولكن مع قِصَر قامة سيوارد وعدم نمو ذقنه فإنه لم يكن ضعيفًا على الإطلاق. فلم يكد يغادر الحكومة حتى استقل سفينةً متجهًا إلى مصر.

كان استقباله في بلاد النيل حافلًا؛ فقد رافقه عددٌ كبير من ضباط سلاح الفرسان ذوي القبعات والريش إلى الأهرامات، ونقلته مركباتٌ ملكية بين شاطئي النهر لزيارة الآثار، وكذلك لمشاهدة قناة السويس المحفورة حديثًا. ومع أن هذا الاستقبال الحافل أرضى غرور سيوارد، فإنه ظلَّ على انتقاده للعديد من جوانب المجتمع المصري. فرؤية الزوجات المتعدِّدات والعبيد الأفارقة ذكَّره بالمورمون والانفصاليِّين (وكان يكرههما معًا). ومع ذلك فقد أشاد سيوارد بمحاولاتِ الخديوي لإجراء إصلاحات سياسية واجتماعية. وفي خطبة موجَّهة لمجموعة من شباب الضباط، أكَّد سيوارد على الحاجة إلى تعليمٍ عالمي في مصر، وعلى ضرورة تكوين كوادرَ محلية قادرة على تولِّي المناصب الحكومية التي كان يحتكرها الأجانب حتى ذلك الحين. وعندها فقط كان يمكن تحرير مصر من «عبوديتها المزدوجة»؛ الأولى من تبعيتها للدولة العثمانية، والثانية من ضَعفها … أمام دول أوروبا المسيحية.

غادر سيوارد مصر، وأبحر نحو الشمال الشرقي، حتى أبصر عَلمًا أمريكيًّا يرفرف فوق القنصلية الأمريكية في يافا. وحمَله عمال شحن عرب أقوياء من زورقه إلى الشاطئ، حيث استقبله إعلانٌ إمبراطوري باعتباره «الرئيس السابق لوزراء حكومة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية». وفي رفقة فرسان عثمانيين، تقدَّم سيوارد نحو القدس، حيث قام بجولة بين القاعات المعتِمة والمتربة للقبر المقدَّس، وزار الجدار الغربي ورأى جماعات اليهود المصلين به، وزار أيضًا جبل الزيتون البراق. وقد انتشى من هذه المناظر. أما أكثرُ ما أصابه بالإلهام فكان معبدًا يهوديًّا في القدس بُني بتبرعات من يهود أمريكيِّين. وعند حضوره قدَّاس يوم السبت هناك، شاهد وهو مشدوه «حاخامًا يهوديًّا يرتدي ثوبًا طويلًا مزدانًا بالنقوش» يتلو صلواته بالعبرية أولًا «رئيس الولايات المتحدة ثم لتخليص الاتحاد من المتمردين الانفصاليين». ومع أنه كان بإمكان الزائر أن يقول إن هذا الدعاء قد استُجيب جزئيًّا بالفعل، فإنه جلس مكانه، لا يحرِّك ساكنًا، وهو يشهد المصلين من حوله يدعون «للسيد سيوارد بالصحة … وبعودة آمنة إلى وطنه».

عاد سيوارد بالفعل إلى الولايات المتحدة، ولكن قبل ذلك توقَّف في إسطنبول في زيارةٍ لا تُنسى. وفي ٤ يوليو عام ١٨٧٠ ترأس احتفالات يوم الاستقلال في كلية روبرت كوليدج.

وخرج رئيس الكلية سيروس هاملين و١٥٠ من طلبة الكلية لتحيته. فكان الطلبة يرتدون لباسًا أبيضَ وقبَّعات من القش، وكانت الفتيات يرتدين فساتين من الكتان وزنانير. وقد أمتعوه بأناشيد «وطني هو وطنك» و«ترنيمة المعركة للجمهورية». وفي قاعة حفلات مغطَّاة بالأعلام التركية والأمريكية، وبعد وجبة شهية أمريكية مكوَّنة من الديك الرومي والفاصوليا المطبوخة والكعك المقلي، ألقى سيوارد كلمة، جاء فيها: «كان الظن أن كل الأفكار العظيمة يجب أن تأتي من الشرق إلى الغرب، ولكننا بدأنا نرى ما يأتي من الغرب إلى الشرق خيرًا.» واستمر في شرحِ أن كلية روبرت تمثِّل كرمَ الأمريكيِّين، حتى في أوقات الحرب، وحثَّهم على حب الغير، خاصة بعد أن توحَّدت دولتهم وتحسَّنت الأحوال. وأضاف: «لا يكفي الحفاظ على وضع بلادنا المستقر؛ إذ يجب تطويرُ روحنا الوطنية والمحافظة عليها أيضًا.»[3] وبعد مشاهدةِ مباراة كرة مضرب أمريكية على ملعب يطلُّ على مضيق البوسفور، غادر سيوارد إسطنبول، ليجوب أوروبا في رحلةٍ استمرت ستة أشهر. وأخيرًا عاد متشبعًا بتلك الرحلات المتميزة، إلى موطنه في مدينة أوبرن بنيويورك، حيث توفي في العام التالي.

كانت رحلة سيوارد سابقةً ونموذجًا لغيره من شخصيات الحرب الأهلية الراغبين في القيام برحلات شبه رسمية إلى الشرق الأوسط. وكان أكثر هؤلاء دقةً في الملاحظة هو جورج ماكليلان، قائد جيش منطقة بوتوماك والمرشَّح الرئاسي الذي فشل. وقد وصل إلى الإسكندرية في أواخر أكتوبر عام ١٨٧٤، وشرع فورًا في رحلةٍ مدتها ١٠٠ يوم على النيل، متوقفًا فقط لمشاهدة الآثار وللتعرُّف على كرم الضيافة البدوي. ولكن لم تثِر أيٌّ من التجارب ماكليلان أكثرَ من مقابلةٍ بالمصادفة مع اثنين من الضباط الأمريكيِّين، هما رولي كولستون وإيراسموس سبارو بيردي، اللذان كانا في طريقهما لاستكشاف صحاري دارفور. وعلَّق ماكليلان بكثير من التعاطف معهما أن «أحدهما حارب مع جيش الاتحاد، والآخر في جيش الانفصاليين. والآن يجلس الأمريكيان صديقَين جنبًا إلى جنب على ضفاف النيل».

كان ماكليلان رجلًا دقيقًا، قليلَ الحجم وأنيقًا، وكان منتقدوه يطلقون عليه «نابليون الصغير». وقد أصدر ماكليلان هذا أحكامًا قاسية على مجتمعات الشرق الأوسط. فمع أنه أقرَّ بأن المصريِّين كانوا «أناسًا طيبي القلب، أذكياء ويعملون بهمة ونشاط»، فإن الإسلام حوَّلهم إلى أناسٍ مخادعين ومتعصبين دينيًّا. وأضاف أن معظم المسلمين «ليس لديهم أيُّ شيء غير حياتهم ليفقدوه في هذه الدنيا، ولديهم الكثير ليفوزوا به في الآخرة، عن طريق

الصراع مع غير المؤمنين». من ناحيةٍ أخرى لم يكن الغربيون ليفهموا شعوبَ الشرق الأوسط أبدًا «ما دمنا نحكم عليهم ... بالمقاييس التي نطبِّقها على أنفسنا بدلًا من أن نزن سلوكياتهم بمعاييرنا». ومع ذلك فقد آمن ماكليلان أن التغيير يمكن إحداثه بالتدريج في المنطقة، عن طريق التعليم والتعرُّض بصورة أكبر للغرب والاحتكاك به.[4]

كان الجمهور الأمريكي يتتبَّع بنهمٍ حكايات زيارات سيوارد وماكليلان للشرق الأوسط. لكن لا واحدة من تلك الرحلات كانت لتُقارن بالأحاسيس التي أثارتها رحلةُ أحد أكثر شخصيات قادة الحرب الأهلية جاذبيةً وإثارةً للجدل. ففي مارس عام ١٨٧٢، أي بعد سبع سنوات من قيادة جيوشه المنتصرة عبر مدينة الإسكندرية بفرجينيا، هبط الجنرال شيرمان في مدينة الإسكندرية بمصر، مقدمًا عرضًا للسلام.

كانت أولى انطباعات شيرمان عن المصريِّين مشجِّعة للغاية. فكتب إلى ابنه تومي، الطالبِ بجامعة جورج تاون: «إيمانهم بمحمد أمرٌ يدعو للاحترام.» وتذكَّر أنه «منذ عشرين عامًا مضت ... كان أيُّ كلب يهودي أو مسيحي يُطارَد ويُرجَم. وكان المسلم الورِع يظن أنه بذلك يقوم بفعلٍ يؤهله لدخول الجنة في الآخرة». ولكن الآن أصبح المصريون يرحِّبون بالغربيين، بسبب «مهاراتهم الميكانيكية، فهم يأتون بالمحركات البخارية لمساعدة العمال الفقراء ... ويمهِّدون الطرق عبر الصحاري الجافة، وينشئون التلغراف الذي يحمل الرسائل من القاهرة إلى السويس، في دقيقة واحدة». وتنبأ المحارب السابق بأن العِلم الحديث سيكسر كلَّ العوائق والعقبات بين الشرق الأوسط والغرب، وسيمحو كلَّ الأفكار المسبقة.

ولكن ملاطفات شيرمان المبدئية لم تلبَث أن تحوَّلت إلى نفاد صبر مع الشرق الأوسط وجوانبه المتقلبة. فقد اشتكى من أن القاهرة «مدينة جافة» مزدحمة «بجموع من النساء والرجال والأطفال من نحو عشرين عِرقًا مختلفًا، ومعهم جِمال وحمير وجياد وكلاب وحشرات». وادَّعى أيضًا أن الزنوج الأمريكيِّين عندما كانوا عبيدًا كان لديهم منازلُ أفضل من تلك، وأن النساء المصريات: «يُبعن ويُشترين مثل الحيوانات تمامًا». أما أكثر ما أثار شيرمان فكان المصريِّين الذين يظنون أنفسهم أفضلَ من الغربيين، ويهتمون بمُرافقه العسكري الملازم أول فريدريك جرانت، ابنِ الرئيس، أكثرَ مما يهتمون به. وقد أقسم أنه «سيحرك الأهرامات من مكانها» بدلًا من إظهار الاحترام «لعِرق يبدو ويتحدَّث ويتصرف تمامًا كالهنود الحُمر».

وهدأ غضبُ شيرمان مؤقتًا بسبب زيارة من الجنرالين لورينج وستون، وعن طريق جولة شخصية قام بها إلى قناة السويس برفقة فرديناند دي ليسيبس. وقدَّم الخديوي له

ترضيةً إضافية بإعادة عرض أوبرا عايدة من أجله شخصيًّا، وقدَّم له دبوسًا ماسيًّا ثمنُه ٢٠٠٠٠٠ دولار. ولكنَّ هذا الاستقبال الحافل الذي لقيه شيرمان في مصر لم يكن شيئًا بجانبِ ما لقيه من حفاوة في إسطنبول. فقد عامله السلطان عبد العزيز معاملةَ رؤساء الدول، واستعرضا معًا طابورًا وراء آخر من حرس الشرف الملكيِّين، وكلُّهم مسلَّحون بالبنادق، واستعرضا أيضًا أساطيلَ مكوَّنة من سفن حربية مصنوعة في الولايات المتحدة. وركب عربات الترولي التي استُورِدت من أمريكا قبل تسييرها في سان فرانسيسكو بعام كامل؛ وقام أيضًا بزيارة «أداء واجب» لكلية روبرت كوليدج.[5]

وأصبحت رحلة شيرمان مثل سيوارد من قبلُ تمثِّل استمرارًا لتمازج الخيال الأمريكي عن الشرق الأوسط مع ازدياد ارتفاع مكانة أمريكا بوصفها قوةً اقتصادية وحربية. فلم يزُر المنطقة مواطنون عاديون مثل يعقوب (جيكوب) فريز وتشارلز دادلي وارنر فقط، ولكن زارها أيضًا موظفون ذوو مراتب عالية، سابقون وحاليون؛ أما أكثر الرحلات التي أظهرت هذا المزيج فكانت رحلة قائد قوات الاتحاد والرئيس السابق للولايات المتحدة، يوليسيس جرانت، أشهرِ أمريكي في عصره.

كان جرانت قد حقَّق خطوات واسعة منذ أن كان مزارعًا فاشلًا وبائع حطب وسمسار عقارات، ونجا كذلك من حالة إفلاس وحالة إدمان كحوليات وفضائح سياسية وبعض أسوأ المعارك في ذاكرة الإنسانية. والآن في سن الخامسة والخمسين وكمواطن عاديٍّ، كان جرانت لا يزال شخصيةً شهيرة، وهو أول أمريكي منذ جورج واشنطن يشغَل أعلى منصب حربي ومدني في البلاد. وللاحتفال بهذا الانتصار، وللهرب من اتهاماتٍ مستمرة بالفساد في فترة رئاسته، قام جرانت وزوجته جوليا برحلة حول العالم. فبدآ بأوروبا في مايو عام ١٨٧٧، واستمرا شرقًا، وأطلق على هذه الرحلة اسم «أكثر الرحلات تميزًا في كل التاريخ المسجَّل ... وكأنها قصة رومانسية».

تحوَّلت هذه الرومانسية الخيالية إلى حقيقة وواقع في ٥ يناير عام ١٨٧٨، عندما أوصلت السفينةُ فانداليا «آل جرانت» إلى الإسكندرية. وقد مرَّت عدةُ ساعات قبل أن يتمكَّنا من مغادرة السفينة، بسبب ظهور طابور لا نهايةَ له من الضباط جاء لتحيتهما. وكتبت جوليا عن ذلك: «يمكن أن يظن أيُّ شخص بسهولة أننا جئنا لتدمير الإسكندرية بدلًا من القيام بنزهة.» واستمر الاستقبال الحافل عندما وصلت الجماعة إلى الشاطئ، حيث اصطفَّ على طريق عربة الجياد آلافٌ من المستقبلين والمحيِّين، وهم يلوِّحون بالشعلات والفوانيس، ويهتفون «لملك أمريكا». وقالت لافتة عريضة كبيرة «أهلًا بالجنرال جرانت»، وكان أحد حروف اسمه مقلوبًا.

وإذا كان سيوارد وشيرمان قد تلقيا معاملةً خاصة، فإن استقبال آل جرانت كان احتفاء برئيس بالفعل. فقد نزل الضيفان في قصر النزهة الفخم، وكان به طاقمُ خدَم كامل على مدار الساعة. وتتذكَّر جوليا: «كان علينا فقط أن نصفِّق بأيدينا! وسرعان ما يظهر خادم مرتديًا ثوبًا أبيضَ بخطًى غير مسموعة.» وزار الزوجان المزارات المعتادة ومنحا المصريِّين مشاهدَ لم يروها من قبل، منها مشهد رئيس سابق وزوجته وهما يتأرجحان على ظهر حمار نحو الأهرامات، وركبا قاربًا على صفحة نهر النيل، واصطادا ضِباعًا وتماسيح وهما يتغنيان بأناشيد أمريكية مثل «رالي راوند ذا فلاج، بويز» و«ستار سبانجلد بانر».

كانت مصر لآل جرانت كنيجاتيف فيلم التصوير، فيها الأبيض والأسود، وفيها الفخامة والأبَّهة والفقر. فقال جرانت، وهو يحدِّق في أبي الهول: «يبدو وكأنه ظلَّ يفكِّر طوال الدهر دون أن يتكلم كثيرًا.» وأضاف: «رأيت ما يثيرني ويشدني في مصر أكثرَ من كلِّ ما رأيت وشاهدت في رحلاتي الأخرى.» ولكن جوليا لم يكن لديها نفس القدْر من الإعجاب. فقد قالت: «لا يسَع المرءَ إلا أن يفكِّر هنا في فراغ الإنسان وضَعفه وغروره وعمله. فمصر مكان ميلاد ومهد الحضارات، ومصر بانيةُ المعابد والمقابر والأهرامات العظيمة ليس فيها أيُّ شيء.»

كانت المشاهد القديمة تثير جرانت بالتأكيد، ولكن ليس بنفس القدْر ولا الوضوح الذي تثيره به صورٌ من ماضيه البعيد. وصاح وهو يأخذ باليد الباقية لضابط حاربَ إلى جانبه في حرب المكسيك وضدَّه في الحرب بين الشمال والجنوب: «إنه لورينج الذي لم أرَه منذ ثلاثين عامًا.» وأضاف: «وها هو ذا أيضًا ستون، الذي لا بد أنه يصبغ شعرَه ليكون بهذا القدْر من الشيب.» ولكن مقابلته مع ماري، ابنةِ الجنرال روبرت لي، التي كانت تزور مصر بالمصادفة أيضًا، لم تكن حسنة. فقد كانت امرأةً ذات روح متوقِّدة، ورفضت أن تتناول العشاء مع عدوٍّ أبيها السابق، قائلة: «لن أجلس معه إلى طاولة واحدة، حتى لو كان في ذلك إنقاذٌ لحياته.» وبدلًا من ذلك تسلَّقت قمةَ الهرم الأكبر، وأخذت تلوِّح بعَلم الانفصاليين.[6]

وتبعًا للتقليد الأمريكي في زيارة الشرق الأوسط رحل جرانت بعد مصر إلى فلسطين. وقد وجدَت جوليا مدينةَ يافا «مكانًا فقيرًا وقذرًا للغاية»، ولكن زوجها استمر في شعوره بالإثارة. وقد شعر أن الأرض المقدَّسة «يمكنها أن تغذِّي كلَّ هذا الجزء من الشرق الأوسط»، فقط إذا كانت أيادٍ أمريكية هي التي تزرعها. كانت مرشدتهما هي لورا فلويد،

خبيرة مستوطنة آدامز، وبدأ الزوجان في تسلُّقهما نحو القدس وسطَ طبيعة خلابة. ووقف طابور من الفلاحين والبدو لتحيتهم، وهم يرتدون ما بدا للزائرين وكأنه أثواب من عصر الإنجيل. وقالت جوليا: «لم يستطِع الجنرال أن يضع قبَّعته لحظة، بسبب ردِّه التحيةَ على الجماهير أثناء مرورنا.» أما أكثرُ المشاهد إبهارًا فكانت خارج أسوار المدينة القديمة: «صفٌّ مزدوج من العساكر راكبي الخيل، وفرقة موسيقى عسكرية وموكب رائع برَّاق.»[7]

غادر يوليسيس جرانت فلسطين متجهًا إلى إسطنبول، حيث عومل مرةً أخرى كالملوك، وأُقيمت الحفلات على شرفه وأخذ في جولات إلى البازارات واستعرض حرسَ الشرف المسلَّح بسيوف الحرب الأهلية وأسلحتها. وأسَّست رحلته إلى الشرق الأوسط، مثل رحلات سيوارد وشيرمان، نموذجًا لكثير من الزيارات التي قام بها قادةٌ أمريكيون في القرن والنصف التاليَين. كان جدول الرحلات دائمًا مزدحمًا للغاية، وكانت الحاجة إلى الاحتفاظ بالمظاهر لا تتوقَّف. وأما جرانت، فكانت فترات الراحة الوحيدة من ذلك الإيقاع تكمُن في قراءة كتابٍ جاء به من موطنه. كان الكتاب يدور عن الشرق الأوسط، لكنه لم يكن الإنجيل أو رسائل أحد المبشِّرين، بل كان كتاب رحلات صامويل لانجهورن كليمينس، المعروف باسم «مارك توين».

البراءة المفقودة

بالنسبة إلى توين، كانت القاهرة مدينةً مثل مدينة إلينوي على حدود نهر الميسيسيبي وكان عظيم التُّرك مجرَّد قاربٍ بخاريٍّ، أما كلمة «العرب» فكانت كلمةً مهينة تُطلَق على عمال التحميل في الميناء. كان توين واحدًا من رجال جيش الانفصاليين، وقائدًا لقارب نهري ومنقِّبًا، قضى معظم سنوات عمره الاثنتين والثلاثين في تحرك مستمر إلى أبعدِ نقطة إلى الغرب من موطنه في ميسوري، دون أدنى تفكير في الاتجاه شرقًا، أو إلى الشرق الأوسط. ولم تكن لديه أيُّ رغبة في رؤية الأرض المقدَّسة، ومع نشأته المشيخية الصارمة، ومعرفته الجيدة بالإنجيل، فإنه كانت تنقصه «المشاعر الدينية الصحيحة» كي يصبح واعظًا، وكان يحتقر إرساليات التبشير التي تجعل الناسَ «بؤساء على الدوام، عن طريق إخبارهم ... بمدى جمال مكان اسمه الجنة ونعيمها، وكيف يكاد يستحيل الوصول إليه». ومع ذلك فقد عانى توين أيضًا عدمَ الاستقرار الذي يصيب سكان الحدود. وبحلول ربيع عام ١٨٦٧، ورغم أكثر من أربعين عامًا من الرحلات البحرية، ورحلة سريعة حديثًا إلى هاواي، فإنه كان «قد سئم البقاء في مكان واحد». وعندها فقط، علِم بأول رحلة بحرية فاخرة

حول العالم، مع محطات توقُّف في المغرب ومصر وفلسطين. كانت خطة الرحلة تثيره، فيسترجع صورًا من كتاب طفولته المفضَّل «ألف ليلة وليلة». وكتب مسرورًا إلى والدته: «أنا أرحِّب … بالهواء الذي يحرِّك الروحَ المتعبة نحو البلاد المشمسة للبحر المتوسط!»

في ذلك الوقت، كان توين ذو الشارب والأنف المعقوف يشتهر بسرعة في سان فرانسيسكو، بسبب مقالاته القصيرة الساخرة، حول الحياة الأمريكية ومحاضراته باعتباره «الضاحك الوحشي من منحدرات المحيط الهادئ». كانت الرحلة قد نظَّمها عدد من «مشاهير بروكلين»، وأطلق عليها «نزهة على نطاق واسع» مع شخصيات عامة، من أمثال القس هنري وارد بيتشر والجنرال شيرمان. وقد بدت هذه الرحلة مادةً مثالية لمقالاته الساخرة. وعلى ذلك توجَّه توين إلى جريدتين، هما جريدة «ألتا كاليفورنيا» الصادرة في سان فرانسيسكو، وجريدة «نيويورك تريبيون»، عارضًا إرسالَ مقالاتٍ منتظمة عن الرحلة، مقابل قيمة التذكرة وقدرها ١٢٥٠ دولارًا. وتساءل متفاخرًا: «أليست هذه خطة رائعة؟ خمسة أشهر من التحرُّر التام من أي نوع من الواجب، وفي حضرة مجموعة من الناس ذهبوا فقط لإمتاع أنفسهم، ولن يذكروا أبدًا أيَّ كلمة عن العمل.» وافق محررو الجريدة على الفور، وفي ٨ يونيو، استقل توين السفينةَ «كويكر سيتي»، مرتديًا «نظارة خضراء ومعه شمسية خضراء وغطاء للوجه من أجل مصر … وملابس مناسبة لرحلات الحج القاسية في الأرض المقدَّسة». وكانت تلك السفينة مجهَّزة بكل سبل الراحة، ومن بينها مدفع لتحية الملوك.

لم يكن بيتشر ولا شيرمان من بين الركَّاب، وبدلًا من المشاهير، وجد توين عددًا من الأمريكيِّين الطيبين، معظمهم في مرحلة منتصف العمر، ومن وسط الغرب الأمريكي. ولكن المؤسف أكثر من ذلك أنه بدلًا من «السماح للركَّاب بالتجول على سطح السفينة نهارًا، وملئها بالصيحات والمرح والضحك، والرقص والتجوُّل على سطحها ليلًا، والتدخين والغناء والعشق»، وُزِّعَت كتبُ تراتيل على المسافرين، ودعوات لحضور قدَّاس يومي في كابينةٍ أطلق عليها توين سرًّا «المعبد اليهودي». واشتكى الكاتب الساخر من أن «رحلة الملذات إلى الأرض المقدَّسة» كما كان يطلق عليها قد تحوَّلت إلى «جنازة من دون جثَّة». وأوصى بأن يُغَيَّر اسمها إلى «مسيرة جنائزية إلى الأرض المقدَّسة».[8]

ومع كل ذلك تمكَّن توين من عقدِ صداقات مع بعض الركَّاب، «ثمانية من بين خمسة وستين راكبًا»، وبصورة خاصة مع صحفيتين، هما ماري فيربانكس وإميلي سيفيرنس، اللتين تجاهلتا عباراته الغريبة وهذَّبتا من سلوكياته الخشِنة. في تلك الأثناء كانت السفينة

قد عبرت المحيط الأطلسي متجهةً إلى أولى محطاتها، مدينة طنجة المغربية، حيث كان القنصل الأمريكي جيمس دي لونج قد ألقى القبضَ على مبعوثَي الانفصاليِّين مايرز وتونستال قبلها بخمس سنوات. وقال توين مراوغًا، وهو يدخل الميناء المغربي: «السفر قاتل للأحكام المسبقة والتعصُّب وضيق الأفق.»

بدأ توين بقوله: «أليست هذه صورةً شرقية جميلة؟» ثم تابع وصفه «المدينة المزدحمة ... المملوءة بالقبور البيضاء، وجيوش بني البشر ... غير مألوفي الشكل». ومثل الكثير من الكتَّاب الأمريكيِّين قبله، انتقد توين نُظم حكم الشرق الأوسط، بسبب فسادها المفترض. وقد انتقد إمبراطور المغرب، وأطلق عليه لقب «ديكتاتور بلا روح ولا قلب»، يسيء معاملةَ رعاياه، وحتى زوجاته. «هو يظن أن لديه ٥٠٠ زوجة ... أو دزِّينة منهما أو شيئًا من هذا القبيل، لا يهم.» وانتقد تحريم المسلمين دخولَ «الكلاب المسيحية» منازلَهم ومساجدهم، وارتعد بسبب قسوة قطع أرجل وأيدي المجرمين. وقال: «إنهم يقطعون ما حول العظمة قليلًا، ثم يكسِرون الأطراف. أحيانًا تتحسَّن حالة المجرم، ولكنهم عامة لا يشهدون تحسنًا.» ومع ذلك، فإن مارك توين، الشديد الانتقاد والقوي الملاحظة، لم يفُتْه جَمال ورومانسية المدينة. فاعترف قائلًا: «طنجة بلدة من أغربِ ما يكون. والروح الحقيقية لها لا يمكن إيجادها في أي كِتاب سوى كتاب «ألف ليلة وليلة».»

وفي معرض نقده كما في مدحه، كان توين يشبه إلى حدٍّ بعيد الزوَّار الأمريكيِّين الأوائل للشرق الأوسط، ومع ذلك فقد كانت هناك سمةٌ واحدة تميِّز كتاباته عن كل كتابات باقي الزوار السائحين. ففي حين كان أسلافه ينظرون إلى المنطقة ويرون في قسوتها وتخلُّفها صورةً معكوسة لتسامحهم ورقيهم، أظهر توين الأمريكيِّين بنفس القدْر من ضيق الأفق والخشونة. فقبل ذلك بسبع سنوات، وقبل اندلاع الحرب الأهلية، كان من الممكن للقارئ الأمريكي أن يعترض على مثل هذا الوصف. ولكنَّ الموت العنيف لـ ٦٠٠٠٠٠ جندي أجبر الأمريكيِّين على النظر لأنفسهم وتقييمها، وعلى التساؤل عما إذا كان بإمكانهم ادعاء البراءة أو امتلاك الحق في وصف أي ثقافة أخرى بأنها «غير متحضرة». نعم، نصح توين بني وطنه بتفضيل حكمٍ بالموت على العيش في الشرق الأوسط، لكنه واسى أيضًا شعوب الشرق الأوسط، التي يدهسها «قطيع غريب ... ممن يسمُّون أنفسَهم أمريكيِّين ... ويظنون أن لهم الحق في الفخر بذلك».[9]

غادرت السفينة مدينةَ طنجة، متخذةً مسارًا يوصلها إلى شرق البحر المتوسط، ولكنه أعادها مرةً أخرى إلى أوروبا والميناء الفرنسي، مارسيليا. واستقل توين القطار إلى باريس،

ووصل في وقتٍ مناسب لمشاهدة موكبٍ أقامه نابليون على شرفِ ضيفه السلطان العثماني. وأمدَّ هذا الحدث الكاتب بمادة لمراجعة انطباعاته عن الإمبراطورية التركية، حتى قبل أن يكوِّن تلك الانطباعات. ومع كيلِ توين المديحَ للدكتاتور الفرنسي الضئيل القامة، الذي كان قد فرغ لتوه من غزو المكسيك — قمة «الرقي والتقدُّم والحضارة الحديثة» — فإنه كال الإهانات لعبد العزيز، فقال:

> ... رجل داكن قصير القامة، ذو ذقن سوداء وعينين سوداوين، غبي، يمنحك انطباعًا سيئًا ... عند أول مقابلة ... يمثِّل حكومةً تقوم على الدكتاتورية والدماء والجشع ... وُلد على العرش، ضعيفًا غبيًّا، جاهلًا تقريبًا مثل أقل واحد من عبيده ملك مملكة واسعة ... يملك بين يديه سلطةَ حياة وموت الملايين؛ وهو ينام ويأكل ويلعب مع جارياته الثمانمائة ... ويؤمن بالمخلوقات الخرافية والجن والقصص الخيالية لـ «ألف ليلة وليلة»، ولديه احترامٌ لسحرة اليوم، ويكون عصبيًّا في حضور السكك الحديدية وسفنهم البخارية والتلغراف.

وباعتبار توين كاتبًا ساخرًا ومعلقًا اجتماعيًّا، نادرًا ما كان يوجِّه كلماتٍ رقيقة حانية لأي مجموعة دينية أو عِرقية. ولكنَّ احتقاره للمسلمين لم يكن له مثيل. فقد كان يعتبرهم «شعبًا قذرًا خشنًا جاهلًا غير متقدِّم يؤمن بالخرافات»، وأكَّد أيضًا أن «المؤمنين بالله مضلَّلون بسبب الروايات الخرافية لـ «ألف ليلة وليلة»». وكانت مثل هذه التصريحات والأحكام تعكس أحكامًا مسبقة عميقة الجذور لدى الأمريكيِّين ضد الإسلام، بالإضافة إلى ميلِ توين إلى اتهام المسلمين باعتناق خرافات الشرق الأوسط، التي كان هو نفسه يسهم فيها. أما مدى تلك الأوهام فاتضح لتوين تمامًا عندما رست السفينة «كويكر سيتي» في إسطنبول.

كان الشعور بالاختلاف التام يثير الاضطرابَ في توين. فكلُّ الشوارع كانت تبدو له كالمتاهة، وكان الناس يرتدون «ثيابًا غريبةً ومتنافرة وزاعقة الألوان» وكأنه مهرجان عنيف للألوان وغير منسجم. وقد اشتكى توين من كثرة القبور والمساجد، وندرة الخمور، وكثرة وجود غريبي الأطوار: «سيدة ذات ثلاث أرجل، ورجلٌ له عين في خدِّه ... وقزم ذو سبعة أصابع في كل يد، وليس لديه شفة عليا، وليس له فكٌّ.» ولم تكفِ كلُّ الصفات السلبية توين لوصفِ تقزُّزه واشمئزازه. وكانت الحمَّامات التركية مصدرَ نفوره بصورة خاصة، وهي الحمَّامات التي طالما حلَم بها. لكنه وجدها الآن «فقيرة وواسعة وعارية،

ليس بها أيُّ رومانسية ولا شيء من أبَّهة الشرق». ومع ذلك، ففي تَجواله في الأسواق الخارجية، بين البائعين والجِمال والشيوخ المدخني النارجيلة، نسي توين تقريبًا نفوره، واعترف قائلًا: «الصورة لا ينقصها شيء؛ فهي تعود بك فورًا إلى طفولتك المنسية، فتحلُم مرة أخرى بعجائب «ألف ليلة وليلة».»

وكلما تعمَّق توين في توغُّله في المنطقة تزايد نفوره من كلِّ ما هو شرق أوسطي. فمدينة دمشق التي كانت تبدو له على البعد «مثل جزيرة من اللؤلؤ والمجوهرات تلمع وسط بحر من الزبرجد» تحوَّلت إلى «مكانٍ للتلوُّث وعدم الراحة» عندما اقترب منها. أما الرجال السوريون الذين قابلهم فكانوا «كالحشرات الآدمية»، وخليطًا متنافرًا من «الثياب الرثَّة والقذارة والوجوه المريضة الممصوصة، لونهم مريضٌ ووجوههم مملوءة بالجروح والبثور، وعظامهم ناتئة»، أما النساء فكن قبيحاتٍ «بحيث لا يمكنهن الابتسام بعد العاشرة مساء السبت دون كسر السبت (صيام اليهود عن كل شيء)». وقد سخِر من جهل المرشدين البدو وأسمائهم الصعبة التي لا يمكن نطقها بطريقةٍ تثير الغيظ. وبسبب يأسه من ذلك الأمر، أطلق توين على جميع العرب اسم فيرجسون، وعلى قراهم جونزبورو. واعترف وهو غير سعيد أن «النظر للابن الأصلي للصحراء يعني نزعَ الرومانسية عنه إلى الأبد».[10]

من سوريا تابع توين ومجموعته الطريقَ الأمريكي المعتاد إلى فلسطين، ولكن هنا تنتهي أوجه الشبه. فمع أن عددًا قليلًا من المسافرين فقط هو الذي كان يجرؤ على استخدام أوصافٍ للأرض المقدَّسة غير صيغ المبالغة والتفضيل، فإن توين وصف فلسطين بأنها «لا أمل فيها، مقفرة، كسيرة الجناح، وأن قراها مزدانة … بكراتٍ من روث الجمال، أما شوارعها فمملوءة بالأحجار أكثرَ من الريف». وقال: «إذا جُمعت الأشعار المكتوبة … عن هذه المناظر الطبيعية العديمة الجَمال … فسيكون لدينا أكثر المجلَّدات ترشيحًا للحرق.» ومثل الكثيرين من الأمريكيِّين قبله، الذين تربَّوا على قصص المعجزات والخيال في الإنجيل، أصيب توين بخيبةِ أمل بسبب الحجم الصغير للمزارات في فلسطين؛ فقد قدَّر توين أن نهر الأردن يصل إلى نصف عرض أي شارع أمريكي، وقدَّر أيضًا أن بحر الجليل صغير لدرجة أنه رفض تسديدَ رسوم العبارة الباهظة لنقله إلى ضفته الأخرى. وتساءل: «هل من المستغرَب أن المسيح سار هذه المسافات؟» وقدَّر أنه يمكن وضع ثلاث دول بحجم فلسطين بيسر وسهولة داخل ولاية ميسوري، مع إيجاد مكان لرابعة.

في فلسطين اقتربت وقاحة توين من الكفر، خاصة في القدس. فقد كانت المدينة في نظره خاليةً من أي قدسية، فوصفها بأنها مكان «كئيب ومقفِر وخالٍ من الحياة».

وكانت «قذرة وفقيرة» ومملوءة بالحمقى والمصابين بالبرص والعميان. وكان الأمر يبدو وكأن توين يستقي سعادته من التهكُّم على الحجيج، وخاصة المشيخيِّين منهم، الذين حضروا للبحث عن حُلمهم بأرض الميعاد، فقط ليجدوا هذا الخراب. وقد تجادل بينه وبين نفسه عما إذا كان عليه أن يكذب على قرائه فيحكي «كيف انتزع نفسه بصعوبة … من فلسطين»، لكنه أعاد التفكير وكتب: «إن المرء ليسعد بترك هذا المكان.»

ولكن في النهاية لم يتمكَّن حتى مارك توين، السليط اللسان في مهاجمة التقاليد الغريبة الأطوار، من كتمان إعجابه بالنساء والرجال «الذين قطعوا آلاف الأميال، في تعب ومشقة، من أجل الإبحار فوق البحر المقدَّس وتقبيل التربة المقدَّسة». كان دنيويًّا بحتًا، كثيرًا ما تهكَّم على الكتاب المقدس، لكنه لم يستطِع مقاومةَ شراء إنجيل مغلَّف بالجلد الطبيعي من إسطنبول وقراءته طوال الرحلة، ثم شراء نسخة ثانية لوالدته من القدس. ولم يستطِع أيضًا إنكارَ شعور «بالغرابة والسحر والروحانيات» تغلَّب عليه في بعض الأحيان في فلسطين، فكتب: «أجلس هنا حيث وقف المسيح، وأنظر إلى النهير والجبال التي نظر إليها المسيح، ويحيطني رجال ونساء غامضون، رآه أسلافهم وتحدثوا إليه، وجهًا لوجه.»

فوراء جدله الكثير كان يكمُن شوقُ توين إلى إيمان ثابت لا يتزعزع مثل الذي كان لدى أسلافه، ونقاء كان قد فقده هو وكثيرون من جيله. واعترف مرة ثانية قبل مغادرة الأرض المقدَّسة: «لا أستطيع فهمَ ذلك. فالرب حسب فهمي كان يوجد دائمًا بين السَّحاب.»[11]

وأخيرًا غادرت سفينته «كويكر سيتي» ميناء يافا، ولكن ليس قبل أن يستقلها أربعون راكبًا جديدًا؛ أطفال وعجائز ومتزوجون حديثًا، وكلهم من الأمريكيِّين. كان هؤلاء هم الناجين من مستوطنة إنديان ريفر، أناس بسطاء، حكى عنهم توين أنه «أُسيء إليهم بصورة مخزية من قِبل نبيهم»، جورج آدامز. وكان منظر هؤلاء السذَّج الحزانى الجائعين يمثِّل لتوين الأوهامَ المثيرة للشفقة التي يأتي بها الأمريكيون إلى الشرق الأوسط، وإلى فلسطين بصورة خاصة. وخلَص إلى أن «فلسطين ليست جزءًا من هذا العالم الواقعي، بل هي بلد من الأحلام».

ومع ذلك فقد توقَّف توين لآخر مرة في الشرق الأوسط، وفي مصر بالتحديد، وقد كانت خاتمةً سيئة فاترة. ولأنه كان قد استنفد نقدَه اللاذع للحضارة الإسلامية، وجَّه توين إهاناته للسياح الأمريكيِّين، الذين «يحتلون» الفنادق، و«للأمريكيِّين المخرِّبين» الذين

كشطوا وكسروا أجزاءً من عامود السواري بالمطارق الثقيلة. وأخيرًا غادرت السفينة الإسكندرية متجهةً إلى الوطن، وركَّابها يرتدون «ملابس بربرية وتركية وفارسية». وتضمَّنت التذكارات الأخرى بذورًا لشجرة برتقال تمكَّن أحد السياح من إعادة زرعها في فلوريدا، بالإضافة إلى عدد من المومياوات التي عُرضت فيما بعدُ في متحف بارنوم. ومن بين كل الأمريكيِّين المغادرين للسفينة في نيويورك يوم ١٩ من نوفمبر عام ١٨٦٨، لم يكن هناك مَن هو أكثر استفادة من رحلة الشرق الأوسط من مارك توين. فسرعان ما جعله الكتاب الذي وضعه عن هذه الرحلة من أشهر الكتَّاب الأمريكيِّين.

كان كتاب «الأبرياء في الخارج» أو «تقدُّم الحاج الحديث» يتكوَّن من المقالات التي أرسلها للجرائد. وقد حقَّق توين منه ربحًا قُدِّر بأكثر من ٣٠٠٠٠٠ دولار، وبيع منه نصف مليون نسخة. فقال متفاخرًا: «مثل مبيعات الإنجيل تمامًا.» كان العنوان يمثل توين تمامًا: عفويًّا وطلقًا وساخرًا؛ وذلك لأن الرحلة لم تكن رحلة حج، والمشاركون فيها كانوا أبعدَ ما يكونون عن البراءة. ومع ذلك فقد تقبَّل القراء تلك المفارقة، التي أسماها مؤرِّخ مبكِّر لتوين «إنجيل الصدق». فقد ساعدت حروب البربر قبل ذلك بخمسين سنة الأمريكيِّين على تعريف أنفسهم، والآن، بعد صراع دموي، كان أمريكي زائر للشرق الأوسط قد دقَّق في هذا التعريف وزاده قتامةً.

كان نشرُ كتاب «الأبرياء في الخارج» بمنزلة بداية لمستقبل توين العملي بوصفه روائيًّا وكاتبَ مقالات ومعلِّقًا اجتماعيًّا ناجحًا للغاية. وأصبح أيضًا من بعدها ناشرَ يوليسيس جرانت وصديقه، الذي قرأ الكتاب في رحلته إلى الشرق الأوسط. ولكن توين لم يَعُد قط إلى الكتابة عن تلك المنطقة. فقد بدأ في كتابة مسرحية هزلية عن أمريكي متحوِّل إلى الإسلام، يؤسِّس حريمًا على نهر الميسيسيبي، بالإضافة إلى نسخة مقلَّدة من «ألف ليلة وليلة» تقوم فيها شهرزاد بإنقاذ نفسها عن طريق إثارة مَلل الملك بحكاياتها. لكنه لم يكمل أيًّا منهما.[12] فمن الواضح أن توين بعد أن شاهد الواقعَ والحقيقة لم تكن لديه أيُّ أفكار رومانسية بشأن الشرق الأوسط، ولا حتى بصورة فكاهية.

قد يكون مارك توين نجح في تبديد خيالات الأمريكيِّين في الشرق الأوسط، لكنه لم يستطِع تبديدَ خيالاتهم عنه. وقد ظهر ذلك بجلاء في ٢٦ سبتمبر عام ١٨٧٢، عند افتتاح «التنظيم العربي القديم لنبلاء الضريح الصوفي»، وهي جماعة منبثقة عن الماسونيِّين، أسَّسها الدكتور والتر فليمنج، وهو جرَّاح سابق أثناء الحرب الأهلية، مع الممثل بيلي

فلورنس، الذي كان قد قدَّم عروضًا في القاهرة والجزائر، اتخذ أعضاء تلك الجماعة السيف والهلال شعارًا لهم، وارتدَوا غطاء الرأس المغربي (الفز أو الطربوش). وقد أطلقوا على أول معابدهم اسم مكة، وعند دخولهم كان الأعضاء يحيِّون بعضهم بعضًا بتحية الإسلام العربية «السلام عليكم». وكانت الجماعة، التي بدأت هذا الأمر بصفة هزلية، قد تطوَّرت إلى جمعية خيرية، وبعد ذلك بقرن واحد كان لديها مليون عضو و٢٢ مستشفى متخصصًا في أمراض الأطفال ومعالجة الحروق.

أما عند الجمهور الأمريكي العريض فقد ظلت أيضًا أوهام الشرق الأوسط منتشرةً على نطاق واسع. فمن بين أكثر الأمور جاذبيةً في المعرض المئوي بمدينة فيلادلفيا لعام ١٨٧٦ كان جناح مصر والسودان. فتحت لافتة كبيرة مدوَّن عليها «أقدم شعوب العالم يرسل تحيته الصباحية إلى أكثرِ الدول شبابًا» شاهد الزائرون نماذجَ لمعبد رمسيس و٢٠٠٠ عينة من القطن المصري. أما في الجناح التركي، فكان بإمكان الجمهور تذوُّق القهوة التركية وشراء أغراض عثمانية «أصيلة»، كالسجاجيد والسيوف، وبالطبع الفز أو الطرابيش. أما أكثرُ العروض جاذبيةً وإغراءً فكانت فيلا مغربية ذات قباب مزدانة بزينة خشبية، زعم رعاة المعرض أنها مستوردة من طنجة، هذه البلدة الناعسة التي وصفها مارك توين في كتابه.[13]

وسواء كان الأمريكيون يحيِّي بعضهم بعضًا بالعربية أو يقومون بشراء الطرابيش أو يضحكون على الأجزاء الساخرة في كتاب «الأبرياء في الخارج»، فإنهم كانوا لا يزالون مفتونين بالشرق الأوسط، أو بصورةٍ أدقَّ بالخرافات والأساطير التي ظلَّت عالقة بخيالاتهم وأذهانهم.

الفصل الثاني عشر

الصحوة

أصبح بإمكان الأمريكيِّين الآن أن يتخيلوا ويحلُموا. فقد اتحدوا بعد انشقاقٍ حادٍّ، كما كانوا على أعتاب ثورة صناعية ثانية، أقوى بكثير من الأولى، وأصبح لديهم إنتاجٌ نوعي ذو ثِقَل أدَّى إلى ريادتهم العالمَ في مجال تصدير الآلات والمنسوجات والبترول. وزاد عدد السكان بسبب موجات الهجرة إلى البلاد بنسبة ٤٠٪ في العقود التالية للحرب الأهلية، وانتشروا في ٣٧ ولاية. ومع انتشار الشعب الأمريكي الرحيب، فقد كان مترابطًا عن طريق أكثر من ربع مليون ميل من السكك الحديدية وخطوط التلغراف. وفي بداية عام ١٨٨٠ أُضيف إلى كل هذا ١٣٣٠٠٠ هاتف أيضًا. وفي مجال إنتاج الصلب كانت المصانع الأمريكية تسدُّ بطموحها الكبير الفجوةَ بينها وبين أوروبا، وتقوم بتوزيع نصيبٍ متنامٍ من إنتاجها نحو مجال التسليح والمركبات الحربية. ولم يكن تمازُج كلِّ هذه الطاقة ينحصر داخل أمريكا الشمالية فقط. فالآن، ومع استقرار حدودها الغربية، وجَّهت البلاد اهتمامها إلى ما وراء حدود قارتها، أي نحو أمريكا الوسطى والمحيط الهادي والشرق الأقصى. وإذا كانت الولايات المتحدة لم تكن قد وصلت بعدُ لتصبح قوة استعمارية على قَدَم المساواة مع فرنسا وبريطانيا، فإنه كان لها دورٌ مهم وحيوي في الشئون الدولية.

فيما يتعلَّق بالشرق الشرق الأوسط كان الدور التقليدي لأمريكا هو دَور المحرِّرة والداعمة لحقوق الأقليات، والمساعِدة على استقلال الأقاليم العثمانية كاليونان والمجر. وبسبب الثَّمن الباهظ الذي دفعه الشعب الأمريكي في سبيل اتحاده واستقلاله، شعر بحقِّه — بل بواجبه — في ضمان هذه المزايا للشعوب الأخرى أيضًا. وكانت هذه المساعدات مدعومةً الآن بقوة اقتصادية وعسكرية. فمع ارتباط إعادة التعمير ببعض الفساد، ومع استمرار الأحكام المسبقة ضد الأمريكيِّين السود في الشمال والتشريعات العنصرية في

الجنوب، ثم القضاء نهائيًّا على قبائل السكان الأصليِّين من الهنود الحمر في الغرب، تمكَّن الأمريكيون من جلبِ الحرية إلى الشرق الأوسط.

العَلَم الأمريكي في إمبراطورية الهلال

مع الغموض الذي أحاط إلى حدٍّ ما بالوثائق المسجَّلة رسميًّا عن تلك الفترة، فإن أول أمريكي حاول مساعدةَ العرب على تحقيق استقلالهم كان يقيم في سوريا عام ١٨٦٨. فقد قاد تشارلز لامار وأندرو رومر والكولونيل أوريلي، وكلُّهم من محاربي الحرب الأهلية القدامى، ثمانين عربيًّا في ثورة ضد الحُكم العثماني. كان المتمردون مسلَّحين بالبنادق ومدافع الهاون، واشتبكوا مع قوة عثمانية قُرب مدينة حماة بسوريا. كان القتال عنيفًا، وبعد أن قُتلت إبل المتمرِّدين، أُسِرَ رومر ولامار. ووُضِعا في زنزانة ضيقة ورطبة بجانب المراحيض، ثم أُرسلا مقيَّدين إلى إسطنبول، حيث سُجنوا عدة شهور. وانتاب القنصل الأمريكي في دمشق أغسطس جونسون القلق من أن يترك هذا الحادث انطباعًا لدى شعوب الشرق الأوسط بأن «الأمريكيِّين يتعاطفون مع ... مساعي الانقلاب على الحكومات الدكتاتورية» ويشجِّعون على التمرُّد. وأكَّد جونسون أنه على عكس القوى الأوروبية، فإن رسالةَ أمريكا للمنطقة هي «رسالة إنسانية وليست سياسية».[1]

وقد أثبَت تصريح جونسون صوابه؛ فقد انتشرت بالفعل صورةُ الأمريكيِّين باعتبارهم محاربين من أجل الحريات. وبحلول أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر كانت القوى الوطنية المحارِبة ضد العثمانيِّين في جزيرة كريت تناشد مجلسَ النواب الأمريكي تقديمَ معونات عسكرية وإنسانية لها. وطلب البهائيون في بغداد مساعدةَ الأمريكيِّين في إنقاذ قائدهم بهاء الله من المنفى التركي. في تلك الأثناء كانت واشنطن قد استمرت في إظهار اهتمامها بالجاليات اليهودية في جميع أنحاء الشرق الأوسط؛ في فلسطين وفارس وشمال أفريقيا. وصرَّح الرئيس رازرفورد هيز أمام مجلس النواب في ديسمبر عام ١٨٨٠ بأن الولايات المتحدة لم «تضيِّع فرصةً تستطيع عن طريقها الضغطَ على إمبراطور المغرب من أجل احترام حقوق الرعايا اليهود هناك». وقال اليهود الممتنون في الدار البيضاء إعرابًا عن شكرهم لوزارة الخارجية الأمريكية: «إن هذا الشعب البائس يوجِّه أنظاره إلى الولايات المتحدة، الدولة العظمى الراعية للحرية والمساواة.» وصرَّح قادة اليهود بالقدس بأن «العَلَم الأمريكي سيضيء براقًا لامعًا في إمبراطورية الهلال، وسيبارك شعب الله المختار في البقعة المقدَّسة لأسلافنا المشتركين في الولايات المتحدة إلى الأبد.»[2]

كان اهتمام الأمريكيِّين بضحايا التعصُّب والعنصرية في الشرق الأوسط أوضحَ ما يكون في بلغاريا. ومع أنها لم تُعَدَّ قط جزءًا من الشرق الأوسط، فإن بلغاريا كانت لا تزال مقاطَعة عثمانية في الوقت الذي قامت فيه القوات التركية عام ١٨٧٦ بذبح نحو ١٥٠٠٠ بلغاري مسيحي. وللتحقيق في هذا الحادث المروِّع، أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية دبلوماسيًّا مهذبًا هو يوجين شايلر، الذي كانت له ترجمات للكاتب الروسي تورجنيف، والذي كان قد حصل على أول درجة دكتوراه من جامعة ييل. وصل شايلر إلى صوفيا وما حولها، وقال في أحدِ تقاريره اليومية بتاريخ ١٤ أغسطس: «في بانيجويشتي قتلت القواتُ النظامية ٣٠٠٠ شخص … وقد اعتدت على معظم النساء والصبيان وكبار السن من الرجال.» كما أرسل ينيواريس ألويسيوس ماكجاهان، وهو أمريكي يختلف عنه تمامًا، تقاريرَ مشابهة. كان صحفيًّا من مدينة بيدجن روست ريدج بولاية أوهايو، ذا لحية ويشبه الدُّب. وأُعيد نشر تقارير ماكجاهان ومقالاته في جريدة «نيويورك تايمز»، التي وصفت «جثث الأطفال المذبوحين بالمئات، وأكوامًا كاملة من جثث الفتيات اللاتي اغتصبن أولًا ثم قُتلن … وأيضًا الكنائس المملوءة بالجثث». وكان لشهادات شايلر وماكجاهان دورٌ فعَّال في تحويل الرأي العام الدولي ضد تركيا، وعلى تشجيع الروس على مهاجمة العثمانيِّين عام ١٨٧٨م، وهي الحرب التي فقد ماكجاهان حياته فيها بسبب إصابته بمرض التيفود. حصلت بلغاريا بعد ذلك على استقلالها، وقد وضعَ شايلر مسوَّدة دستورها، بالتعاون مع عدد من خريجي كلية روبرت كوليدج، وهي المدرسة الأمريكية في البوسفور.[3]

لم تكن الولايات المتحدة قد عبَّرت عن استيائها من الباب العالي بهذا الوضوح منذ توقيع الاتفاقية العثمانية الأمريكية قبل ذلك بخمسين عامًا. وكان الاستياء هذه المرة متبادلًا؛ فقد أعلن الباب العالي أن شايلر أصبح شخصًا غيرَ مرغوب فيه، وطُرِد من الأراضي العثمانية. ولكنَّ هذه الاحتكاكات لم تتدخل في الإجراءات الدبلوماسية اليومية بين البلدين، أو في التجارة المربحة بينهما. ففي ٤ أغسطس عام ١٨٧٣م افتتح العثمانيون أولَ سفارة للشرق الأوسط في واشنطن، في حين كانت السفن الحربية الأمريكية الزائرة لإسطنبول تُقابَل بتحيات طلقات المدافع والموسيقى العسكرية التي تؤدي السلام الوطني الأمريكي. وعام ١٨٧٧ وحدَه استوردت الولايات المتحدة ما قيمته ١٦٧٠٠٠ دولار من الأفيون والبهارات، بالإضافة إلى عدد من الأغراض من بازارات الدولة العثمانية، وأمدَّت الدولة العثمانية بما هو أكثر من ٤٫٥ ملايين دولار من البترول والمعدَّات العسكرية. وقال سيروس هاملين منتشيًا في تقرير له إن تركيا أصبحت «تحصُل على بنادقها … من مدينة بروفيدنس برود أيلاند، والذخيرة من مدينة نيو هيفين بكونيتيكت!»

كان تأثير الولايات المتحدة يظهر في أجزاءٍ أبعدَ وأبعدَ من المنطقة. ففي ديسمبر عام ١٨٧٩م، أصبحت السفينة الأمريكية «تيكونديروجا» أولَ سفينة حربية أمريكية تمرُّ من مضيق هرمز متجهةً إلى الخليج العربي. وبذلك دخلت السفينة الأمريكية بسرعة ٦٠ ميلًا مجالَ ما كان يُعدُّ في السابق بحيرةً بريطانية فقط، في المجرى المائي المسمَّى شط العرب، ومنه إلى موانئ البصرة بالعراق وبوشهر بإيران. وأما عند قائد السفينة «تيكونديروجا» روبرت ويلسون شافلدت، فقد كان استعراض القوة الأمريكي هذا لا يهدُف فقط إلى فتح أسواق جديدة، ولكن أيضًا إلى الإعلان عن الأفكار الأمريكية. وأعلن شافلدت، الذي كان في السابق قائدًا للسفينة «كويكر سيتي»: «لا يوجد مكانٌ آخر في العالم يكون فيه من الضروري إظهارُ هذا القدْر من القوة ... من أجل نشرِ معرفة إحدى الدول المتمدينة.»

كانت قدرة أمريكا على إثبات نفسِها في الشرق الأوسط — استراتيجيًّا وتجاريًّا وخيريًّا — قد ظهرت عن طريق حادثة دبلوماسية وقعت عام ١٨٨١م وأوشكت على التسبُّب في أزمة. كان المكان هو قصر السلطان في إسطنبول؛ حيث كان السفير الأمريكي الجديد، ليو والاس، قد وصل لتقديم مسوِّغاته. ولكن بدلًا من السماح له بدخول البلاط، اضطُر والاس إلى الانتظار عدةَ ساعات بالخارج. وشرح ترجمان والاس أن مثل هذه المعاملة السيئة تمثِّل ممارساتٍ معتادةً في القصر، تهدُف إلى تعريف الغربيِّين بمكانتهم الحقيقية.

كان لوالاس حضورٌ طاغٍ، بالرغم من النظَّارة والشوارب، وكان قد قاد جيوش الاتحاد في بعض أكثر معارك الحرب الأهلية دموية، وعندما كان حاكمًا لنيو مكسيكو، طارد ذات مرة المجرمَ بيلي ذي كيد. وبالإضافة إلى شجاعته، كانت لوالاس آراءٌ دينية قوية. وعندما كانت تلك الآراء تجتمع مع خياله الخصب كانت النتيجة إلهامًا لكتابة رواية حقَّقت مبيعات هائلة، هي «بن هور». كان والاس رجلًا اعتاد احترام الآخرين والحصول على احترامهم، ولم يعتَد الإهانات. والآن كأنه عاد إلى أرض المعركة، اقتحم والاس صفوف حراس القصر، ثم اقتحم الغرفة الإمبراطورية، وسار مباشرةً نحو السلطان.

وعلى العكس من أسلافه، عبد المجيد وعبد العزيز، ذوَي التفكير الإصلاحي، كان عبد الحميد الثاني محافظًا للغاية ودائمَ التشكك في الغربيين. فحدَّق في هذا المقتحم الجريء الوقح، وتجاهل الترجمان الذي ركع وطلب الصفح عن فَعلة سيده الوقحة. في تلك الأثناء كان والاس قد حيَّاه تحيةً عسكرية، وأبقى يده على ذلك الوضع. ومرَّت دقائق مليئة بالتوتر قبل أن يتحوَّل تجهُّم السلطان إلى ابتسامة. ثم تقدَّم للأمام، معلنًا أن ضيفه «رجل جاد» وصافحه بحرارة.[4]

أُتيحت لوالاس فرصٌ أخرى للاعتراض على الممارسات العثمانية، ولإظهار قوة الشخصية الأمريكية في الشرق الأوسط. ولكن في العقود الباقية من القرن التاسع عشر لم ينبُع التحدي الحقيقي لارتفاع شأن الأمريكيِّين في المنطقة من الباب العالي، بل من القوى الأوروبية. فقد ثارت مشاعر الأوروبيِّين بسببِ ما اعتبروه تدخلًا أجنبيًّا وانتهاكًا لمنطقةٍ تُعدُّ منطقة نفوذ أوروبي حصريًّا. لذلك حاولت تلك القوى منعَ الأمريكيِّين من توسيع رقعة نفوذهم في كل أنحاء الدولة العثمانية. ومن الأمثلة المبكِّرة لهذا الاحتكاك ما حدث في مصر، عندما عارض الأوروبيون محاولةَ أحد الأمريكيِّين الحصول على تذكار شرق أوسطي ومشاركة مواطنيه في أمريكا التمتُّع به.

علامة بارزة على التقدير الدولي

لم يكن هذا أيَّ أمريكي، بل قُطب السكك الحديدية ويليام فاندربيلت، الذي كان يجسِّد مفهومَ مارك توين «لعصر الذهب»، الذي كان يعني الثروة والوفرة والتفاؤل. كان فاندربيلت قد انبهر بالتقدير الذي لاقاه جرانت في مصر. ثم نما إلى سمعِه أن باريس ولندن وروما حصلتا على مسلة مصرية قديمة، فطلب فاندربيلت من وزارة الخارجية أن تساعده في الحصول على مسلةٍ مماثلة لموطنه بمدينة نيويورك. وافقت الوزارة، وأرسلت توجيهاتٍ إلى قنصلها بالإسكندرية، إلبرت إيلي فارمان، لطلب لقاء الخديوي إسماعيل.

قال فارمان للخديوي إسماعيل: «اقترب عدد سكان الولايات المتحدة من ٥٠ مليونًا، وعما قريب سيتضاعف هذا الرقم.» وأضاف أن الكثيرين من هؤلاء سيزورون نيويورك يومًا ما، «وإذا تمَّت إقامةُ مسلة هناك ... فسيتلقَون معلومةً عن تاريخها القديم، وأنها كانت هديةً من جلالته إلى الشعب الأمريكي». كان فارمان محاميًا درَس في كلية أمهرست، وترجع أصوله إلى وارسو بنيويورك، والآن، في سن الثامنة والأربعين، كانت له جبهة عالية وعينان حساستان ولحية كثيفة كلحية الفلاسفة. وفي السنوات الثلاث منذ تعيينه، كان قد عمل بالقرب من مبشِّرين أمريكيِّين للمساعدة في تحرير العبيد الأفارقة من أسيادهم المصريين، مما سبَّب الضيق والتنغيص للسلطات المحلية. ومع ذلك فقد نجح فارمان في تكوين صداقة دافئة تتميز بالصراحة مع الخديوي إسماعيل؛ لذلك لم يجد صعوبةً ولا حرَجًا في التصريح له مباشرةً برغبة فاندربيلت. وقال القنصل إن تفكير الولايات المتحدة يتجه إلى مسلتين، إحداهما في الأقصر والثانية في الكرنك.

وبسبب شعور الخديوي إسماعيل بالامتنان والدَّين للضباط والمعلِّمين الأمريكيين، الذين كانوا قد اشتركوا في الدفاع عن مصر ورخائها، ولأنه كان ممتلئًا بالحماسة لتقليل مكانة القوى الأوروبية التي كان مدينًا لها، عن طريق رفع مكانة الولايات المتحدة، فقد وافق إسماعيل بلا تردُّد على هذا الطلب. فذكر مسلة أكثرَ إبهارًا عن المسلتين المذكورتين، مشيرًا إلى مسلةٍ عمرها ٣٠٠٠ عام، مصنوعة من الجرانيت، كانت يومًا ما تزيِّن معبد القيصر بالإسكندرية، وهي المعروفة باسم «إبرة كليوباترا». وأضاف أنه يمكن للأمريكيِّين الحصولُ على المسلة مجانًا، باعتبارها «تذكارًا آخر للصداقة التي كانت موجودة على الدوام بين حكومتي الولايات المتحدة والخديوي».

أذهلت أنباء عرض إسماعيل أمريكا. وأكَّد فارمان أن «إبرة كليوباترا» كانت بالفعل ذات جودة أعلى وقيمة تاريخية أكبر من المسلتين الممنوحتين لبريطانيا وفرنسا، كما أن نقلها إلى نيويورك سيظل «حدثًا تاريخيًّا محفورًا في الأذهان». وأخبر الرئيس هيز مجلسَ النواب أن الهدية تمثِّل «علامة واضحة على التقدير الدولي» للأمة الأمريكية بأسرِها.

ولكن في معرض مدحه للكرم المصري، لم يفطِن الرئيس إلى التنبؤ باستياء أوروبا بسبب ما اعتبرته إغاراتٍ أمريكية على الشرق الأوسط. فأولًا، ادعى الإيطاليون أنهم يمتلكون الأرضَ المُقام عليها المسلة، واعترضوا على نقلها. ثم أصرَّت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا على أن جميع الممتلكات المصرية، ومن بينها القطع الفنية، مملوكة لهما باعتبارها ضمانًا لديون إسماعيل لهما. واعترض فارمان قائلًا: «ليس للأوروبيِّين — الذين تمتلئ عواصمهم بكنوز مصرية قديمة — الحقُّ في قول أنه لا يجوز نقلُ قطعة واحدة إلى الولايات المتحدة.» وكان الرأي العام الأمريكي كذلك غاضبًا، فحذَّرت جريدة «نيويورك هيرالد» من أن القوى الأوروبية «ستشير إلينا بازدراء، ملمِّحة إلى أننا لن نستحق أيَّ وضع كريم إلا إذا حصلنا على تلك المسلة».

في تلك الأثناء كان التدخل الأوروبي في شئون مصر الداخلية قد ازداد، مع مطالبَ بخلع الخديوي إسماعيل. وتلقَّى الحاكم خطابًا موجهًا إلى «الخديوي السابق»، معلِمًا إياه «بعزله». وجرى استبدال هذا الحاكم الهادئ النبرة صاحب الرؤية المستقبلية، الذي كان يطمح في تحويل مصر إلى بلدٍ مستقل على النمط الغربي، والذي بنى المسارح وشقَّ القنوات، والذي جاء بالضباط الأمريكيِّين لتحديث جيشه، بابنه توفيق «الأكثر مرونة». وتم بذلك أيضًا التغاضي عن أي فرصة لأمريكا في الحصول على مسلة، ولكن فاندربيلت رفض الخضوع للإجراءات الأوروبية. فأرسل ضابطًا بحريًّا سابقًا، هو هنري هنيتشرش جورنج

إلى الإسكندرية، ومعه توجيهاتٌ وإرشادات برفض كل محاولات التدخل، واستعادة المسلة فورًا.

ومِثل فاندربيلت، كان جورنج مبتدعًا ومتينَ البنية، مجسِّدًا بذلك العصر الأمريكي الجديد. حصل على تكليفٍ بصفته ضابطًا في الحرب الأهلية، وترقَّى في المناصب حتى وصل إلى مساعد للقائد، ثم أصبح قائدًا للسفينة «جيتيسبرج»، ورافق الرئيس يوليسيس جرانت في رحلته إلى الشرق الأوسط. وكان جورنج أيضًا عضوًا متحمسًا في جماعة الماسونيين، وشاركهم في ارتباطهم القوي بالآثار المصرية القديمة. عندما وصل إلى مصر في أكتوبر عام ١٨٧٩، قضى الأشهر التسعة التالية وهو يعمل على نقل المسلة وقاعدتها التي تزن خمسين طنًّا. وبمساعدة مائة من العمال المصريِّين ورافعة استخدمت يومًا لبناء جسر بروكلين، جرف ١٧٣٠ ياردة مكعبة من الأرض من حول قاعدة المسلة. وبعد خلعها سُحِبَت الإبرة، التي يصل طولها إلى سبعين قدمًا، برًّا إلى سفينة بخارية مصرية، ثم وُضِعَت داخل هيكل السفينة المحفور بطريقة خاصة لاستيعابها. وبلغت تكلفة تلك العملية أكثرَ من ١٠٠٠٠٠ دولار، ولكن فاندربيلت تكفَّل بكل المصاريف. وفي يوليو عام ١٨٨٠ كانت المسلة معدَّة للسفر.

وكتبت جريدة «نيويورك هيرالد»: «من الغريب والعجيب أن يأمُل سكان أي مدينة كبرى في السعادة من دون مسلة مصرية.» وأُضيف ثِقَل للمسلة وسُيِّرَت على مسارات حديدية، فانزلقت إلى رصيف ميناء نيويورك بالشارع الغربي الحادي والخمسين. ومن هناك قامت مجموعة مكوَّنة من ٣٢ حصانًا بجرِّها عبر المدينة إلى الشارع الخامس، فالشارع الثاني والثمانين، حيث يدخل القطار الجزءَ الغابي من متنزه سنترال بارك. وكان بانتظارها في شوقٍ شديد ٢٠٠٠٠ نيويوركي مبتهج وراء متحف متروبوليتان المبني حديثًا، وكان معهم وزير الخارجية ويليام ماكسويل إيفارتس.

كان إيفارتس ابنًا لسكرتير المجلس الأمريكي؛ لذلك نشأ ورِعًا تقيًّا ومساندًا قويًّا لإرساليات التبشير في الشرق الأوسط. قام إيفارتس ليخطب في الحشد المجتمع، لكنه في هذه المناسبة لم يخطب خُطبة دينية، بل فلسفية. فنظر إلى بحرٍ من القبعات والمظلات، وتساءل بصوتٍ عالٍ عما إذا كانت أي دولة، حتى لو كانت ثريةً بالقدْر الذي يتيح لها شراءَ مسلة، يمكنها أن تقاوم قوى الانحطاط؟ وتساءل: «هل تتوقعون ازدهارًا مستمرًّا؟ هل تتوقعون أن تزيد الثروات دون أن ينحط الإنسان؟»

لكن معنى كلمات إيفارتس ضاع وسط هُتافات الجمع المحتشد. فقد كان مستمعوه مشدودين للنتائج المترتبة على تلك اللحظة أكثر من أي تأملات تاريخية، وكانوا أكثرَ وعيًا

بإنجازات بلدهم في الأعوام العشرين الماضية أكثرَ من قلقهم على مستقبلها. كان الانشقاق قد أحدَث بينهم انقسامًا في أثناء الحرب الأهلية، لكن الشعب الأمريكي أصبح متحدًّا مرة أخرى ويرتفع إلى مكانة عالمية عالية ومميزة. وفي الشرق الأوسط، كما في أي مكان آخر في العالم، جرى الاعتراف بالولايات المتحدة قوةً اقتصادية وحربية عظمى. ولم تَعُد القوى الأوروبية إلى السعي للاعتراض على حق الأمريكيِّين في العمل على رعاية مصالحهم في المنطقة، أو لتأسيس علاقات مع الحكام المحليين. وقد وضُح ارتفاعُ الشأن هذا من هزة كبيرة، عندما أنزلت الرافعات المسلة التي يصل وزنها إلى ٢٢٠ طنًّا على قاعدتها الأصلية. وتمَّت إقامة المسلة راسخةً ومتجهة إلى الشرق.[5]

الباب الرابع

عصر الاستعمار



الفصل الثالث عشر

فجر الإمبراطوريات

استيقظ أهالي الإسكندرية عند شروق شمس يوم ١١ يوليو عام ١٨٨٢، وهم يرون ظلالًا تنذر بسوء، تمتد عبر أفق البحر المتوسط. وكانت أخبار هذا المشهد الشبيه بالسراب قد انتشرت بسرعة في المدينة، وسرعان ما كانت حشود من المواطنين الفضوليِّين تتجمع عند رصيف الميناء. ونظر الفلاحون والموظفون والتجار في صمتٍ تام إلى الخيالات الرابضة وراء الميناء، في حين كانت مجموعات من جنود المدفعية تتجه مسرعة لمدافعها. وكان كثيرون منهم يعون جيدًا أن تاريخ أمتهم، إن لم يكن تاريخ الشرق الأوسط بأجمعه، على وشْك التغير والتحول. فقد كانت التقلبات والاضطرابات السياسية التي هزَّت مصر وشرخت كبرياءها وأحلامها في الاستقلال، قد تفجَّرت.

وكانت تلك الارتجافات قد ازدادت حدَّتها في السنوات الثلاث الأخيرة، التي أعلنت القوى الأوروبية خلالها أيضًا إفلاسَ مصر، وطردت الخديوي إسماعيل، وأحلَّت ابنه توفيق «الطيِّع» بدلًا منه. وأثار هذا التدخل السافر في الشئون المصرية معارضةً بين صفوف الوطنيين المصريِّين الذين تزايدت أعدادهم، بقيادة الزعيم أحمد عرابي الذي كان يتمتع بحضور طاغٍ لدى الجماهير. كان أحمد عرابي من أصولٍ ريفية، وذا خلفية إسلامية صارمة، وكان قويَّ البنية، ذا أنف عريض وشواربَ كثيفة. وكان يشغَل أعلى منصب وصل إليه مصري في الجيش، وقد أقسم أن تكون «مصر للمصريين»، وسعى إلى طرد النُّخبة التركية التي كانت لا تزال تسيطر على الجيش المصري، وتحرير مصر من كل ديونها الأجنبية. لذلك تآمر الخديوي ودائنوه الأوروبيون على اعتقال عرابي. ولكن ذلك ما كان ليخرس «عُرابي» أو يردِعه. وبحلول عام ١٨٨٢ كان عرابي يهدِّد بخلع الخديوي، وقامت المظاهرات في القاهرة والإسكندرية لمناصرته، ثم امتدَّت إلى قناة السويس. وخوفًا على أمن مواطنيها في مصر، والأهم من ذلك، على أمن قناة السويس، قرَّرت بريطانيا أن تتدخل.

وفي يوم من أيام شهر يوليو، وتبيَّن أنها سفن حربية بريطانية. وفي تمام الساعة السابعة إلا عشر دقائق صباحًا أضاءت أنوارٌ مبهرة ظهورَ تلك السفن، وبعدها بثوانٍ قليلة ومع فرقعات عالية وانفجارات تصمُّ الآذان أُلْقِي وابل من القنابل على الحارات الملتوية والحدائق الأنيقة في مدينة الإسكندرية. وتفرَّق المشاهدون الواقفون على أرصفة الميناء، وخلت شوارع المدينة المكتظة عادة. ولكن الجيش المصري صمد في مواقعه، قذفت مدافعه — التي تعدَّت المائة والتي كانت مخبأةً في مخابئَ خدعت العدوَّ، شيَّدها قدامى محاربي الحرب الأهلية الأمريكية — سفنَ البحرية البريطانية. ومع ذلك لم تستطِع الإسكندرية بكل تحصيناتها المهيبة مقاومةَ الضرب المنظَّم من سفن البحرية الملكية المدرعة. وأُسكِتت مدفعية الشاطئ واحدة وراء الأخرى، وتفرَّق المدافعون عنها الذين بدَت عليهم المعاناة من صدمة القذائف. وبحلول الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر كانت المعركة قد انتهت. وكان المئات من البشر — من بينهم جنود ومدنيون — قد قُتلوا، وجُرح أضعاف هذا العدد. وبدأ الاحتلال البريطاني لمصر، الذي كان مقدَّرًا له أن يستمر ٧٢ عامًا.

تراث متضارب

مع أنَّ غزو مصر كان أمرًا رهيبًا، فإنه كان فقط أحدَ الأحداث المهمة التي تمثل مرحلة واحدة في عمليةٍ استعمارية طويلة، كان من نتائجها احتلال ربع مساحة الكرة الأرضية، منها سب ة ملايين ميل مربع احتلتها بريطانيا وفرنسا وحدَهما. وكانت سيطرة أوروبا على أجزاء كبيرة من الأرض وعدد كبير من الشعوب تمثِّل للولايات المتحدة معضلةً رئيسية، خاصة في الشرق الأوسط. فإذا كان على أمريكا أثناء حرب الاستقلال اليونانية أن تختار بين حماية مصالحها الاستراتيجية مع تركيا وبين الحفاظ على مبادئها الديمقراطية، فإنه كان يتعيَّن عليها الآن أن تختار بين نوعين من العقائد: دينية ومدنية، فهل كان على الأمريكيِّين أن ينحازوا إلى جانب أوروبا المسيحية ضد الإسلام، الذي من المفترَض أنه عندهم دِين متخلِّف ومنحط؟ أم إلى جانب ضحايا نفس الاستعمار الذي كانت الولايات المتحدة قد اقتنصت منه حريتها؟ وهل كانت الولايات المتحدة، وهي الداعية إلى حرية شعوب الشرق الأوسط تستطيع التنديدَ بأوروبا صراحةً، في الوقت الذي كان الأمريكيون فيه يستقرون نهائيًّا في قارتهم ويتطلعون إلى الحصول على مناطقَ في البحر الكاريبي والمحيط الهادئ؟

بدأ الأمريكيون في طرحِ هذه الأسئلة المحيرة بدءًا من عام ١٨٢٩، عندما غزا الفرنسيون الجزائرَ. فقد رفض ديفيد بورتر، الذي كان قد اختير قنصلًا للولايات المتحدة في مدينة الجزائر، أن يخدم تحت الاحتلال الفرنسي؛ لذلك عُيِّن في إسطنبول. وأرسلت وزارة الخارجية هنري لي ليحل محلَّ بورتر. كان هنري لي حفيد الوطني الثوري ريتشارد هنري لي. وأعلن القنصل الجديد احترامه «للفرنسيِّين الذين حاربوا بجانب الأمريكيِّين تحت لواء الجنرال واشنطن»، وكان يكره القراصنة الجزائريِّين كراهيةً عميقة، وقال متذكرًا: «لا أظن أنني قد شعرت بتوهُّج وفخر ناتج عن الانتصار، أكثرَ مما كان عندما رأيت الجيوش المسيحية المنتصِرة ... تسوق أفواجَ البربر أمامها».

وفي الخمسين عامًا التالية، ثار جدل كبير بين الأمريكيِّين حول احتلال أوروبا أجزاءً من الشرق الأوسط. فذكريات الزائرين الأمريكيِّين للمنطقة كانت متخمةً بآراءٍ تؤيد تفكيك الدولة العثمانية وتقسيمها بين بريطانيا وفرنسا. وكان هذا الحنين هو ما يطمح إليه بصورة خاصة كثيرٌ من المبشِّرين الأمريكيين، الذين كان العديد منهم يتمتَّع بحماية القنصليات الأوروبية، والذين كانوا ينظرون إلى القوى الاستعمارية على أنها رسل الإرادة الإلهية. فقال المبشِّر القديم جوناس كينج عام ١٨٦٥، مشيرًا إلى تزايد النفوذ البريطاني في مصر وانتهاكات فرنسا لشمال أفريقيا: «اليد التي تحرِّك العالم فقط يمكنها أن تحقِّق كلَّ ذلك.» ولكن في حين كان الأمريكيون عامةً يعبِّرون عن دعمهم لاحتلال أوروبا للشرق الأوسط، كان بعضهم الآخر يقوم بمظاهرات احتجاجية. فأعلن ريتشارد هنتون من كنساس، وهو قائد وحدة جنود مشاة أمريكيِّين سود في الحرب الأهلية، أنه «في حين يتعيَّن على الولايات المتحدة أن تقود عمليةَ تجديد وتحديث آسيا، فإنه لا يمكننا أن نتبع خطوات أبناء عمومتنا الأوروبيين، وأن نصبح معتدين عدوانيِّين مثلهم». وندَّد القس جورج بوتس «بغزوات أوروبا الدموية» للشرق باعتبارها «ذنبًا قوميًّا كبيرًا، يبرِّر ... انتقامًا مؤلمًا ... (من الله)». وفي حديثٍ أجرَته معه جريدة «نيويورك تايمز» في نوفمبر عام ١٨٥٢، ذكَّر بوتس، وكان من المشيخيِّين، الأمريكيِّين «بواجب الأمريكيِّين بصفتهم شعبًا عادلًا ... يخشى الله، نحو معاملة الأمم الأخرى بصفتهم جيرانًا لهم، وألا يقلِّدوا شهوة أوروبا التوسعية».[1]

ازداد تناقضُ الموقف الأمريكي تجاه الاستعمار في الشرق الأوسط عمقًا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، عندما كانت المنطقة تعانى اضطراباتٍ سياسية مطوَّلة. وفي حين كان الأوروبيون يناقشون المسألةَ الشرقية، أي ما إذا كان عليهم أن يحافظوا على «رجل أوروبا المريض» كما كانوا يطلقون بازدراء على تركيا، أو تقسيمها إلى أجزاء

عديدة بطريقةٍ آمنة، كانت الحركات الوطنية من قبرص وحتى البلقان تسعى إلى التحرر من الحكم العثماني. وفي محاولةٍ لوقف — أو على الأقل مراقبة — هذا الانهيار، اجتمعت القوى العظمى في برلين عام ١٨٧٨. وهناك منحت بريطانيا حقَّ السيطرة على قبرص، وضمنت روسيا استقلال صربيا وبلغاريا. وبدا وكأن الوضع الدولي آخذٌ في الاستقرار، ولكنه كان استقرارًا مؤقتًا فقط. فسرعان ما بدأت ألمانيا في إرسال مستشارين حربيِّين لإسطنبول، في حين ادعت إيطاليا أن لها حقًّا في ليبيا. وانهارت اتفاقية برلين بعد ثلاث سنوات فقط، أي في أبريل عام ١٨٨١، عندما عبرت القوات الفرنسية من الجزائر إلى تونس، واستولت على مدينة تونس، ووضعت البلاد بأكملها تحت الوصاية الفرنسية الدائمة.

وقال الدكتور جورج واشنطن فيش، القنصلُ الأمريكي في تونس، متنهدًا: «يبدو وكأن الفرنسيِّين سيستقرون هنا.» كان فيش وهو جرَّاح سابق في جيش الاتحاد، في الخامسة والستين من عمره. وبعد وفاة زوجته وطفليه بمرض التيفود انتهج الدبلوماسية مهنةً. وكان يمكن لهذه الأحداث أن تجعل منه رجلًا متحجِّر المشاعر، ولكن رؤية القوات الفرنسية وهي تعذِّب أهل تونس المسالمين كانت تخيفه وتستفزه، فقال معترضًا: «أقولها بكل صراحة ووضوح ... الفرنسيون ... يستغلون الحكومةَ التونسية لمصالحهم الخاصة.» ولكن على عكس فيش، كانت الصحافة الأمريكية تكاد تنفجر فرحًا بالهجوم الفرنسي، فقالت صحف نيويورك: «كلما خضع بلدٌ حكامُه سيئون لسيطرة الأوروبيين، تأكَّد أن الحضارة هي التي ستفوز.» أما مجلة «هاربرز»، فمدحت «الحملة السريعة الرائعة التي أثارت الخيال وأحيت ذكريات فترات مجيدة من الماضي البعيد».[2]

وإذا كان الأمريكيون قد انقسموا في ردود أفعالهم تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس، فإنهم كانوا أكثرَ اتحادًا في حكمهم على احتلال بريطانيا لمصر. فعلى عكس شمال أفريقيا، لم تكن مصر قد شنَّت قط حربًا على الولايات المتحدة؛ لذلك ظلَّت العلاقات بين البلدين ممتازة، في حين كانت بريطانيا قد حاربت الولايات المتحدة مرتين. ومن ناحيةٍ أخرى، كانت الولايات المتحدة تنظر إلى مصر دائمًا باعتبارها ضمن دائرة نفوذها، وظهر ذلك عن طريق اهتمامها بإنشاء مؤسسات تعليمية وثقافية فيها، مع عدم اهتمامها بقناة السويس على الإطلاق. وتبعًا لعدم الاهتمام ذلك كان الرؤساء الأمريكيون من جرانت إلى جارفيلد يرفضون طلبَ مصر بمساعدتها ضد المطامع البريطانية. وأعلن مساعد وزير الخارجية ويليام هنتر في عام ١٨٧٩ أنه «سيكون من جنون حكومتنا أن تتدخَّل في مسألة الديون المصرية»، وأضاف: «لا يوجد رجل في أمريكا يهتم بتخليص مصر من محنتها.»

وأثار قذف الإسكندرية بالقنابل تياراتٍ من المواقف الأمريكية المتناقضة، القائمة على التعاطف مرة والاشمئزاز من المستعمرين مرةً أخرى. ومدح القس فيليب شاف من نيويورك الهجوم البريطاني باعتباره «انتصار الصليب على الهلال»، ولكن جريدة «لوس أنجلوس تايمز» ندَّدت به باعتباره «تصرفًا بربريًّا مخزيًا». وتنبأ يوليسيس جرانت بأن بريطانيا ستحرِّر مصر في يوم من الأيام، كما حرَّر الاتحاد الأمريكي الزنوج، ولكنَّ الجنرال آدم بادو، المساعدَ الحربي للرئيس جرانت، شجَب أيضًا الغزو «انتقادًا للأمة الإنجليزية وغضبًا على حضارة هذا العصر». وتجلَّى عمق هذا التناقض في جريدة «نيويورك تايمز» التي مدحت هزيمةَ «العرب المتعصبين ... الذين قد يتبعون خليفةً جديدًا في حرب مقدَّسة»، لكنها أيضًا ندَّدت «بالخزي المستمر» لإنجلترا، التي تحارب مرةً أخرى «من أجل ضرائب دون تمثيل دبلوماسي».[3]

وأجبر هجوم بريطانيا على مصر الولايات المتحدة مرةً أخرى على الاختيار بين ولائها للحضارة الغربية من ناحية، والتراث الأمريكي المناهض للاستعمار من ناحية أخرى. فهل كان الأمريكيون على استعداد للوقوف بجانب مبادئهم المناهضة للاستعمار على حساب مصالحهم التوسُّعية العالمية؟ كان معظم الأمريكيِّين يفكِّرون في هذه المعضلات الأخلاقية، وهم يتابعون الأحداثَ في مصر التي تبعُد عنهم آلاف الأميال. وكان آخرون شهودًا على الغزو البريطاني، ولم يكن بإمكانهم التفكيرُ في هذا الأمر. فبالنسبة إليهم كان هذا التناقض ترفًا بعيدَ المنال.

جني ثمار الزوبعة التي تمرُّ على مصر

عندما نشِبت الأزمة في مصر كان تشارلز شاييه لونج، الضابط الأمريكي المتأنق الذي حاول الاشتهار عن طريق استكشاف أفريقيا، قد فرغ لتوه من دراسة القانون، وعُيِّن في منصب دبلوماسي بالإسكندرية. وبناءً على طلب وزارة الخارجية، انضم إلى أربعة زوارق حربية، ملحقة بالأسطول البريطاني المتجه إلى مصر. وكانت مهمته هي إجلاء الجالية الأمريكية الصغيرة في الإسكندرية، في حالة نشوب أعمال عنف على نطاق واسع في المدينة. ومع أن السفن الحربية الأمريكية لم تكن مشارِكة في الهجوم، فإن مجرد وجودها في المياه الإقليمية المصرية في شهر يوليو من ذلك العام، وهي تتبادل التحيةَ مع المدمِّرات البريطانية، كان إشارةً على مدى اقتناع واشنطن بأن خضوع مصر أمرٌ لا مفر منه.

ومن على جسر السفينة الأمريكية «جالينا» راقبَ شاييه لونج التبادلَ العنيف للنيران بين البريطانيِّين والمصريِّين. ولكن سرعان ما انتهى هذا المشهد الملحمي باندلاع النيران في

المدينة، وهو ما دفع الآلاف من سكانها نحو البحر. واستغلالًا لهزيمة الجيش المصري، كان مثيرو الشَّغب قد هاجموا أكثرَ أحياء الإسكندرية أناقةً، مدمِّرين ومضرمين النار في المنازل وقاتلين أيَّ شخص يعتبرونه أجنبيًّا، سواء كان فرنسيًّا أو إيطاليًّا، مسيحيًّا أرثوذكسيًّا أو يهوديًّا. ووقف القادة البريطانيون بلا حول ولا قوة غير قادرين على وقف أعمال العنف تلك. فقد كانت لديهم أوامر بضرب المدينة فقط، وليس احتلالها. ولكن شاييه لونج لم يستطِع الوقوفَ متفرجًا فقط. فجمع قوةً قوامها ١٦٠ متطوعًا وبحَّارًا وضابطًا بحريًّا ومعهم بنادقهم ومسدساتهم، في محاولةٍ لحماية القنصلية الأمريكية وإنقاذ أكبر عدد ممكن من الناجين.

كانت أولى القوات وصولًا إلى الشاطئ في حركة الإغارة البريطانية هي القوة الأمريكية، وكان المشهد الذي قابلها مروِّعًا. ويحكي شاييه لونج: «كان في البحر عدد كبير من الجثث البشعة المنظر لرجال ونساء وأطفال منتفخة ومليئة بالهواء.» وقد لاحظ أن معظم الضحايا كانوا من «يهود الشام» الذين ذُبحوا أثناء فرارهم من منازلهم المحترقة، ولكن من بين الوفيات التي قُدرت بأربعمائة، كان هناك أيضًا عددٌ من المسيحيِّين اليونانيِّين والأرمن. «وكان يجري اختطاف الرجال والنساء والأطفال، وتوثيقهم بالحبال، ثم سحلهم عبر الشوارع. وبعد تعذيب رهيب وتمثيل بهم كانوا يُقتلون، وتُعرض لحومهم للبيع في مزاد هزلي ساخر.»

واندفع الأمريكيون إلى جحيم النيران. وتمكَّنوا من إطفاء بعض الحرائق الخطيرة، ومن تطويق مبنى القنصلية وتحويله إلى مستشفًى ومخبأ مؤقت. ثم قاموا بدوريات حراسة في المدينة، مما أعاد إليها بعضَ النظام، حتى بدأت طلائع القوات البريطانية أخيرًا في الهبوط بعدها بأربعة أيام. وفي أثناء تلك الفترة، كان ثلاثمائة من اللاجئين قد أرسلوا إلى السفن المنتظرة. وشهد قبطان إحدى السفن الأمريكية واسمُها كوينبوج قائلًا: «حبستُهم جميعًا في مؤخرة السفينة؛ الفرنسيِّين والإيطاليِّين واليونانيِّين والأتراكَ والسوريِّين. وكان بينهم ثلاثة من الأمريكيِّين؛ اثنان من المبشِّرين وأحد القضاة.»

من أجل هذه العملية الجريئة، تلقَّت الولايات المتحدة الشكرَ من عدد من الدول الأوروبية. وأظهرت بريطانيا على وجه الخصوص تقديرها «للبحَّارة والضباط البحريِّين الذين أسهموا ... في الحفاظ على الأرواح والممتلكات بالإسكندرية ... عندما سقطت في أيدي العصابات ومشعلي الحرائق». ولكن لم تؤيد أي حكومة من تلك الحكومات اقتراحَ شاييه لونج بإعادة تسمية حي القنصليات الذي أُعيد بناؤه من «حي القنصليات» إلى

«حي الولايات المتحدة». ولم تؤيد أيٌّ منها اقتراحَه بإقامة لوحة تذكارية «تخليدًا لذكرى الأمريكيِّين ... الذين أنقذوا حياةَ العديد من المسيحيِّين وأنقذوا مدينة الإسكندرية». ومع أن مكتشِف بحيرة كايوجا والمنابع الأوغندية للنيل عبَّر عن رغبته في الاستمرار بالعمل في القنصلية الأمريكية بالإسكندرية، فإنه نُقل إلى كوريا. وكما شرح أحد الضباط البحريِّين الذين صادقوا شاييه لونج، فإنه يبدو أن طلبَه بالبقاء في مصر قد ضاع في خضم أوراقِ تزايدِ المصالح الدولية لأمريكا. وقال: «نحن نسيطر على نصف العالم، ورغمًا عنا نجد أنفسنا متورِّطين في المصالح الاستعمارية للنصف الآخر.»[4]

ومهما كانت خيبةُ أمل شاييه لونج بسبب ردود الفعل الفاترة لدوره في الغزو البريطاني، فإنه لم يعبِّر عن أي تحفُّظات على الهجوم ذاته. وقد شعر أن الخديوي كان حاكمًا فاسدًا غير فعَّال، وأن الوطنيِّين المصريِّين ما هم إلا مجموعة من المتعصبين الرِّعاع. ولم يشاركه في هذه الأحكام كلُّ الأمريكيِّين المقيمين في مصر. وتبنَّى رجلان على الأخص، وكلاهما دبلوماسي، موقفًا معاكسًا للغاية.

كان إلبرت إيلي فارمان، القنصل الأمريكي بالإسكندرية، الذي كان قد حصل على «إبرة كليوباترا» لنيويورك ببراعة شديدة، غاضبًا للغاية بسبب الأحكام الظالمة التي رآها تُمارس ضد مصر. وقد أعدَّ فارمان قائمة بأسماء عدد من منفِّذي هذه الجرائم، من بينهم «العبقري الشرير فرديناند دي ليسيبس والمصرفيِّين اليهود أشباه شايلوك» (شخصية المرابي اليهودي في مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير)، الذين أغرقوا البلاد في الديون. ولكنَّ أعظم استياءاته كانت ضد «القوى الأوروبية العدوانية» التي بدا أنها مصرة على «إلحاق أكبر الضرر بالبلاد الضعيفة والصغيرة». ومنذ عام ١٨٧٩ تنبأ فورمان بأن بريطانيا وفرنسا سرعان ما ستشعلان الاضطرابات الداخلية في مصر، مختلقتين مبرِّرات للغزو. وفيما بعدُ ادَّعى أن اضطرابات عام ١٨٨٢ كانت «بتحريضٍ من أحد الرعايا البريطانيِّين».

وعلى قدرِ استيائه من بريطانيا العظمى، عبَّر فارمان عن تقديره غير المحدود لأحمد عرابي. كان فارمان بذلك ممثِّلًا لعدد متنامٍ من الدبلوماسيِّين الأمريكيِّين المتعاطفين مع الوطنية المصرية الذين يمقتون الاستعمارَ البريطاني. وكان من المؤمنين بالصورة الرومانسية للعربي المحب للحرية، وهي الفكرة المفضَّلة بين الرحَّالة الأمريكيِّين، بدءًا بجون ليديارد وحتى مارك توين. فمن وجهة نظر فارمان كان عرابي — ويعني اسمه ساكن الصحراء — بطلًا كبيرًا، فقال: «لم يكن هناك وطني أكثرُ شعبية ... ولم يكن هناك وطني بعيدًا تمامًا عن أي دوافع أو طموح شخصي مثله. فقد كان مثلًا وقدوة لشعبه.»

لم يكن فارمان وحدَه المعجب بعرابي. كان من المعجبين به أيضًا سيمون وولف، القنصل الأمريكي في القاهرة. كان أحدَث مثال للتقليد المؤكِّد على إسناد المناصب الدبلوماسية في الشرق الأوسط للأمريكيِّين اليهود وولف الذي وُلد في بافاريا، وهو كاتب سيرة موردخاي نوح، بالإضافة إلى عمله محاميًا في واشنطن الذي جعله وثيقَ الصلة بكلٍّ من الرئيسين لنكولن وجرانت. وقد عُيِّن في البيت الأبيض قبل اغتيال الرئيس جيمس جارفيلد بيوم واحد، وكان الذي اغتيال هو أيضًا محاميًا غاضبًا بسبب فشله في الحصول على منصب قنصلي؛ وقد وصل وولف إلى مصر في ٩ سبتمبر عام ١٨٨١، وهو اليوم الذي ثار فيه عرابي.[5]

كان قادمًا جديدًا إلى البلاد ويعاني مرضًا في مَعِدته آلمه وعذَّبه طوال فترة إقامته وعمله في مصر، وقد قرَّر وولف «أن يأخذ جانب الحيطة والحذر في تعاملاته وأن يتحسَّس طريقه على مهل وبتؤدة». واستشعر أن الأوروبيِّين سينتهزون أيَّ فرصة وأقلَّ استفزاز لاحتلال مصر، وأنهم أثناء ذلك سيقومون بإشعال شرارة مذبحة للأجانب المقيمين فيها. وقد أخبر وزارة الخارجية أنه «هنا على رقعة الشطرنج المحدودة هذه تُمارس لعبة الدبلوماسية الأوروبية»، مؤكدًا أنه من واجب أمريكا أن تحمي مواطنيها المقيمين في مصر، وأن تسعى إلى تجنُّب وقوع كارثة. وقد وضع وولف هذه الأهداف نصبَ عينيه، فطلب وجود ثلاث سفن حربية أمريكية قبالة الساحل المصري، وسعى إلى عقد اتصالات مع عرابي.

عُقد الاجتماع يوم ١١ نوفمبر في منزل الجنرال تشارلز ستون، الذي أصبح المستشار الوحيد المتبقي في مصر. كان وولف ذا بنية متينة ورأس حليق وأنف بارز وشارب مرتفع لأعلى. وقد لاحظ أن هناك شبهًا بينه وبين عرابي، ولكن التشابه لم يكن جسديًّا أو ظاهريًّا فقط. فقد كان وولف يشارك عرابي إيمانَه بأن المصريِّين هم «أصحاب الأرض» وأنهم يستحقون التحرُّر من الظلم والطغيان. وبعد تأكيده له أن الولايات المتحدة «ليست متورطة بأي صورة في سياسة الهلال الخصيب أو أوروبا» وأنه يتحدَّث إليه «كأخٍ في الإنسانية ... وفرد من بلد حر ... قاسى شعبه بدوره الطغيان وذاق مرارة الاستبداد»، حثَّ وولف عرابي على أن يُظهِر بعضَ المرونة وأن يحذر «حصان طروادة المتمثِّل في النفوذ الفرنسي والإنجليزي». ثم ألقى القنصل خطابًا كان مميزًا للغاية، حتى بمعايير القرن التاسع عشر، قال فيه: «باعتباري يهوديًّا من بني إسرائيل، وأخًا للفرع العربي في الأسرة الإنسانية، فإنني أقدِّر تمامًا كلَّ ما يصبو إليه المصريون. وأشعر بكثير من الامتنان

للمسلمين لاستضافتهم وحمايتهم لنا وللحرية التي تمتَّع بها إخواني سنواتٍ عديدة في الدول الإسلامية.»

تأثَّر عرابي بهذا الاعتراف، ووعد بتطبيق «الإدارة والحكمة» وأكبر قدرٍ من ضبط النفس. وسعِد وولف بذلك أيَّما سعادة. فقال: «يندُر أن تجد مصريًّا لا يعرف ... أن الولايات المتحدة صديقةٌ لهم، وأننا لسنا هنا لننهب ونستعبِد، ولكن لنساعد ونشجِّع.»[6] ولكن بحلول نهاية فصل الربيع، كان التفاؤل الذي راود القنصل في الخريف يبدو بلا أساس. فمهما كان مدى ضبط النفس الذي أظهره عرابي، فإنه لم يكن كافيًا لوقف تدهور السياسة الداخلية في مصر، ولا لمنع تبرير البريطانيِّين لغزوهم لها. وفي المعركة التالية، أُجليَ الرعايا الأمريكيُّون من المدينة، باستثناء عائلة واحدة، هي عائلة الجنرال ستون.

كان تشارلز ستون آنذاك في الثامنة والخمسين من عمره، وفي بزته الرسمية الفضية ذات الضفائر الذهبية على نمط فاندايك، وأوسمته اللامعة، كان يمثِّل صورةَ رجل الدولة العجوز من ناحية، ونفوذًا قويًّا غير رسمي من ناحية أخرى. ولكن وراء هذه الواجهة الرائعة كانت ترقد شخصية بسيطة في غاية الولاء للقضايا التي كان يؤمن بها. وفي مصر كان ستون قد رأى ضباطه يُطعن في سيرتهم وتُشوَّه سمعتُهم ويُطْرَدون، ورأى محبوبه الخديوي إسماعيل منفيًّا. ومع ذلك فقد ظل وفيًّا لخليفة إسماعيل، ووقف إلى جانبه عندما هدَّد ثوارُ عرابي بإحراق قصر الخديوي والسفن الحربية البريطانية القريبة من السواحل المصرية.

كان للجنرال ستون تحالفٌ آخر لا يهتز. فقد ترمَّل في الحرب الأهلية، وتزوج مرة أخرى من سيدة من لويزيانا اسمُها جيني، وأنجبا أربعة أطفال. وقد فرَّق نشوب الأزمة بين أفراد تلك العائلة، مخلفًا ستون وابنه جون ابن الثلاثة عشر عامًا في الإسكندرية، بعيدًا عن جيني والبنات المراهقات الثلاث في القاهرة. وفجأةً كان على الجنرال اختيار أحد أمرين إما التخلي عن الخديوي توفيق من أجل العودة إلى عائلته أو البقاء مع الخديوي وترْك نساء العائلة يدافعن عن أنفسهن. وقد اختار البقاءَ على أمل أن ينجح في إقناع البريطانيِّين بعدم الغزو، أو إذا فشل في ذلك، فقد ينجح في إقناعهم بعدم إطلاق النار قبل إجلاء الأجانب المقيمين بالمدينة الذين يبلغ عددهم ٨٠٠٠ شخص.

بعد اطمئنانه على ابنه في أعقابِ نقله للأمان داخل السفن الحربية الأمريكية، قضى ستون يوم العاشر من يوليو في التوسُّل إلى الموظفين البريطانيِّين في مصر للتوسط لدى

البحرية البريطانية الواقفة بعيدًا عن الشاطئ. فوجدهم «يتناولون عشاءهم في هدوء في المدينة التي كانوا على وشْك ضربِها بالقنابل، ويناقشون وهم يضحكون التأثيرَ المحتمَل لضرب الإسكندرية بالأسلحة الثقيلة». وعلِم ستون أن معظم البريطانيِّين قد تركوا المدينة، وأن ضرْبَ المدينة كان مقررًا له أن يبدأ خلال ٢٤ ساعة؛ وبذلك لم يكن من الممكن إجلاءُ كل الأجانب من القاهرة، التي تبعُد عن الإسكندرية ١٢٠ ميلًا. واجه ستون معضلةً صعبة؛ فإما أن يحذِّر زوجته بشأن المعركة الوشيكة، ويجازف بذلك بفرار جماعي من الأجانب، أو أن يبقى صامتًا ويدعو ويصلي من أجل عدم حدوث كارثة. وقال: «شعرت بأنه إذا تصارعت أربع سيدات في محطة للقطار من أجل الحصول على مقعد، في وسط مجموعة من الأوروبيِّين الخائفين، فإن فرصتهن في البقاء ستكون شبه معدومة.» ولم يرسل البرقية قط.

وبدلًا من ذلك، سارع بزيارة الثكنات والمستشفيات، والعناية بالمصابين وحثِّ الشرطة على فعل أي شيء ضد مثيري الشغب. وسادت الفوضى في كل مكان، «فكانت جماعات من النساء من كل طبقات المجتمع يجرين في كل اتجاه، وكانت الغالبية العظمى منهن ... تحمل طفلًا صغيرًا وتقود أطفالًا آخرين، وفوق كل هذا كن يصطحبن رجالًا مسنِّين ... يسيرون بشقِّ الأنفس». وعندما لم يكن مشغولًا بالعمل في المساعدات الإنسانية، كان ستون مستمرًّا في خدمة الخديوي، ومطلعًا على الوضع العسكري عن طريق تقارير تُهرَّب إلى القصر في صناديقِ ذخيرة أو ملفوفة في خِزانات البنادق. وخلال كل ذلك كان يفكر في نساء عائلته والمصاعب والمشقة التي لا بد أنهن يكابدنها.

وكان بالفعل محقًّا في قلقه عليهن. فبدلًا من الانضمام إلى النازحين من القاهرة، حبست نساء آل ستون أنفسَهن في المنزل ومعهن أسلحة ومؤن تكفي ثلاثة أشهر. وفي الخارج في الشوارع كانت النساء المصريات يزغردن ويرمين المنزلَ بالحجارة، في حين كان الأطفال يصرخون: «الموت للمسيحيِّين». وحتى الخدَم الذين كانوا معهن منذ زمن طويل كانوا يلعنون الأمريكيِّين. وباستثناء مصادفة جعلت ضابطًا يتمكن من الدخول عبر الحصار المفروض على المنزل، لم يكن للعائلة أيُّ اتصال بالعالم الخارجي ولم تصلهن كلمة واحدة من الجنرال ستون. كانت جيني ستون في الثالثة والأربعين من عمرها، مليئة بالحيوية، ولم تفزعها تلك الأجواء. وأعلنت: «لم يُخلَق بعدُ العربي الذي يخيفني.» وجمعت بناتها في المطبخ، وحثَّتهن على «الشجاعة وأن يواجهن الموتَ كالجنود الشجعان» وأن يحمين شرفهن بأي ثَمن. وقالت: «أتوقَّع منكن أن تحمين أنفسكن، حتى لو تطلب الأمر إطلاقَ رصاصة في قلوبكن. ولا تضطرِرْنَني إلى القيام بذلك بنفسي.»

وبعد أكثر من أسبوعين من الحبس، قرَّرت جيني أن الطريق الوحيد لحماية بناتها هو قيادتهن للخارج بنفسها. وأُصيبَ الضباط الذين سمعوا بالخطة بالذهول، واقتنعوا تمامًا بأن النساء الأربع سيُقتلن لا محالة. وذهبت تحذيراتهم هباءً. وتذكَّرت أصغر بناتها، فاني، رحلةَ العائلة بعربة الجياد وسط قلب القاهرة، قائلة: «خلقنا ضجةً وإثارة لأول مرة في حياتنا. فقد كان يبدو أن كل رجل وامرأة وطفل مندهش تمامًا لرؤية أربع سيدات مسيحيات يقدن عربتَهن بجرأة عبر شوارع القاهرة.» وفي ٨ من أغسطس وصلت سيدات آل ستون إلى بورسعيد، متعبات ومُغبَّرات، لكنهن ما زلن يتحلين بالشجاعة التامة، وهناك كان بانتظارهن الأب المتوتر المتشوق، وذراعاه مفتوحتان لاستقبالهن. وعلى متن السفينة الأمريكية «كوينبوج» احتضنهن.[7]

في نفس ذلك الشهر وصلت قوة بريطانية قوامها ٢٠٠٠٠ جندي تحت قيادة الجنرال جارنت ولسلي إلى الإسكندرية، تحمل أوامرَ بالقضاء على ثورة عرابي. ووقعت المعركة الحاسمة يوم ١٣ من سبتمبر عند منطقة التل الكبير؛ حيث قضى البريطانيون تقريبًا على الجيش المصري في نحو أربعين دقيقة. وأُسِر عرابي وحُكم عليه أولًا بالإعدام بتهمة التحريض على الثورة، ولكن نُفي بعدها إلى سيلان. وتلقَّى ولسلي الشكر من البرلمان وتكريمًا من الملكة، وكرَّمه الخديوي توفيق بنوط العثمانلية، وكان أعلى وسامٍ مصري حينها.

وعلى العكس من ذلك كان إلبرت فارمان، منهارًا. وكتب: «كانت معركة التل الكبير أقربَ إلى المذبحة، منها إلى المعركة.» ومنحه الخديوي أيضًا وسامًا تقديرًا لخدماته لمصر، لكنه لم يستطِع احتمالَ رؤية قوات ولسلي وهي تخترق القاهرة. فحالما استكمل مسئولياته في المساعدة على تقييم الخسائر التي حاقت بالجاليات الأجنبية بمصر، عاد فارمان إلى مكتب المحاماة الخاص به في وارسو بنيويورك، وأصبح ناشطًا في مجال القضايا المدنية. غادر شاييه لونج أيضًا مصرَ وهو مملوء بالمرارة. ففي نظره كان عرابي «عسكريًّا سيئًا للغاية، ورسولًا فقيرًا للغاية». أما شعار «مصر للمصريين» فلم يكن في نظره سوى «خديعة وفخ». وغادر القاهرة أيضًا سيمون وولف، وتابع حياته محاميًا ورجلًا خيِّرًا في واشنطن، واستمر في صداقته للرئيسين ماكيلني وويلسون. وقد اشمأز وولف مما عدَّه غدْرَ البريطانيِّين بعرابي، وتنبأ بأن الشعب المصري سيثور يومًا ما ويطرد الطغاة الأوروبيِّين. وقال: «فاض الكيل، ومَن يزرع الهواء لا بد أن يحصد العواصف.»[8]

ومن آخر الأمريكيِّين المغادرين مصرَ كان الجنرال المهيب ستون. فمع تقليده وسام نجمة مصر تقديرًا لخدماته أثناء ثورة عرابي، فإنه شعر أن «مصر أصبحت مقاطعة

بريطانية وأن أيَّ أملٍ في تكوين دولة مستقلة قد انطفأ». واستمر على قناعته أن البريطانيِّين هم المسئولون عن التحريض على مذبحة الأجانب بالإسكندرية، والاستهزاء بقوة عرابي قائدًا. وفي ديسمبر عام ١٨٨٣ أخذ ستون عائلته وما بقي من مكتبته وأوراقه — التي كان البريطانيون قد نهبوها — وعاد إلى منزله في لونج أيلاند. وتابع عمله السابق مهندسًا مدنيًّا، وسرعان ما بدأ في تحقيق أهم إنجازاته، وهو إقامة رمز خالد للأمريكيِّين ومنارةً لشعوب الشرق الأوسط.

تنوير العالم

كان المشروع من بنات أفكار رجلٍ كان ستون قد قابله في مصر، وهو نحَّات من مقاطعة الألزاس الفرنسية يصغُره بعشر سنوات، اسمه فريدريك أوجيست بارتولدي. ونشأت الفكرة في رأسه في أثناء رحلة إلى الأقصر، بسبب إعجابه الشديد بالآثار القديمة للمنطقة، التي أسماها الفنان المنبهر «كائنات جرانيتية ذات شموخ ثابت»، ولاحظ كيف تبدو عيونها «مثبتة على مستقبلٍ لا حدودَ له». في تلك اللحظة قرَّر بارتولدي الوسيم ذو الشعر الداكن أن يقلِّد هذه العظمة وهذا الجَمال، وأن يضمن من ذلك خلودَ اسمه أيضًا. وجاءه الإلهام مرة أخرى في الحفل الفخم لافتتاح قناة السويس. فقد قرَّر نحتَ تمثال يشبه فلاحة مصرية تحمل شعلةً للحرية لأعلى. كان هذا التمثال، الذي كان ارتفاعه ضِعف ارتفاع تمثال أبي الهول، سيحرس المدخل البحري لأمريكا، وربما يكون فنارةً أيضًا. وسيكون اسمه «مصر تجلِب النور لآسيا».

قضى بارتولدي عامين في رسم مسوَّدات وتكوين نماذج من الفخار لفكرته، وأيضًا في محاولة إقناع الخديوي إسماعيل بتمويلِ إقامة التمثال. ولكن بحلول عام ١٨٧١ كان إسماعيل قد أشهر إفلاسه وأصبح غير قادر على سداد ديونه، أو تمويل التمثال. وحزينًا سعى بارتولدي إلى مواساةِ نفسه عن طريق رحلة بحرية إلى الولايات المتحدة. وحين كان يبحر داخلًا إلى ميناء نيويورك، مرَّ بجزيرة بيدلو الشبيهة بالبيضة. وفجأةً لم يَرَ أمامه الموقع الجديد لتمثاله فحسب، بل رأى أيضًا معنًى جديدًا له. وأثمرت سنوات طويلة من المفاوضات عن اتفاق، يقوم الأمريكيون بموجبه بسداد تكلفة قاعدة التمثال وتسدد فرنسا تكلفة التمثال ذاته، الذي كان سيقوم ببنائه جوستاف إيفل. وتبقى فقط العثور على كبير مهندسين أمريكي لهذا المشروع. وهنا تذكَّر بارتولدي، ستون.

كان الجنرال الذي سُجن في جزيرة بيدلو في أوائل الحرب الأهلية يعرف المنطقة جيدًا. وحصل على مساعدة جيمس مورجان وصامويل لوكيت، وقد خدم كلاهما في مصر في السابق. فبدأ بإقامة قاعدة طولها ٨٩ قدمًا، وجمع ٣٥٠ قطعة من نحاس برج إيفل. ومع أن ميعاد التسليم الأصلي تزامن مع مئوية استقلال أمريكا، فإن التسليم الفعلي لم يتم إلا بعد ذلك بعَقد كامل، أي في أكتوبر عام ١٨٨٦، قبل عام واحد من وفاة ستون.

آلاف المشاهدين الذين استمعوا إلى الرئيس جروفر كليفلاند وهو يناشدهم «ألا ينسوا أن الحرية جعلت منزلها هنا» رأوا تكوينًا لا يشبه ما تخيَّله بارتولدي في مصر. فقد استُعيض عن الفلاحة المصرية بامرأة غربية الملامح. وتغيَّر اسم القطعة من «جلب النور إلى آسيا» إلى «الحرية تنير العالم». وبقيت الشعلة فقط، لم تنطفئ.

وفي الأربعين عامًا التالية، منحت «ليدي ليبرتي ملايين المهاجرين أولَ لمحة لهم عن أمريكا، مُحيِيةً الأملَ في صدورهم من أجل حياة أفضل ومشيرة لهم باحتمالات الحرية. ولكن بالنسبة إلى المصريين، كما كان الأمر بالنسبة إلى عديد من شعوب الشرق الأوسط التي قُدر لها أن ترزح تحت نيران الحكم الأجنبي خلال تلك الفترة، لم تكن هناك أي رموز شهيرة من هذا النوع. فعلى عكس الأمريكيِّين، لم تكن لديهم أيُّ فرص للتقدُّم أو الاستقلال. لذلك تساءل أمين الريحاني، الشاعر العربي الأمريكي، الذي لعب دورًا حيويًّا في علاقات بلاده بالشرق الأوسط: «متى ستتوجَّهين جهةَ الشرق، أيتها الحرية؟ ألن يرى المستقبل أبدًا تمثالًا للحرية قُرب الأهرامات؟»[9]

ربما كان رفع الستار عن تمثال الحرية ورسالته عن الاستقلال العالمي بمنزلة نهاية معضلة أمريكا حول الاستعمار. ومع ذلك فقد كان هذا الحدَث نفسه هو بداية هوس بإقامة المستعمرات وتكوين إمبراطورية أمريكية تمتد إلى كوبا وبورتوريكو وهاواي والفلبين. وخروجًا على تقاليدهم الراسخة بتمييز أنفسهم عن أوروبا، خاصة في مجال السياسة الخارجية، أصبح الكثير من الأمريكيِّين يؤمنون ويتبعون فلسفة أوروبية واسعة الانتشار هي فلسفة «الاشتراكية الداروينية»، التي أكَّدت تفوُّق الجنس القوقازي على كل الأجناس الأخرى. وتحت مظلة هذه الفلسفة تحمَّل البريطانيون «مسئوليةَ الرجل الأبيض»، والفرنسيون «رسالتهم الحضارية» في أفريقيا وآسيا، في حين أكَّد الأمريكيون أنَّ قدرَهم هو أن يغزوا ليس فقط قارتهم، بل أيضًا أجزاءً بعيدة من العالم.

وكان من الواضح أن الشرق الأوسط لم يكن جزءًا من هذا القدْر. فالولايات المتحدة لم تكن بها حاجة إلى غزو بلد من أجل الحصول على مكانة كقوة عالمية في المنطقة، لأنها

كانت قد حصلت على تلك المكانة من دون سفك للدماء، عن طريق مؤسساتها التعليمية والطبية. وحتى إذا كانوا قد أرادوا ذلك، فإن الأمريكيِّين كانوا سيجدون صعوبةً كبيرة في الحصول على مستعمرات في منطقةٍ كان الأوروبيون يسيطرون عليها فعليًّا. ولكن في حين لم يكن للولايات المتحدة أيُّ طموحات استعمارية في الشرق الأوسط، فإن تجربتها هناك قدَّمت نموذجًا ممتازًا لتوسيع رقعة الهيمنة الأمريكية عبْر البحار. وكما قال المؤرخ جيمس فيلد فإن «المجتمعات المسلمة في شمال أفريقيا والشرق الأدنى قدَّمت المدرسة التي مورس عن طريقها المنهج الأمريكي تجاه العالم غير الغربي». وبتشجيع العمل التبشيري وتسهيل السياحة ووضع أساطيل دائمة لحماية تجارتها، وضعت أمريكا أسسَ إمبراطورياتها في البحر الكاريبي والشرق الأقصى.

ومع ذلك فإن كلَّ الأمريكيِّين لم يساندوا مشاركةَ بلادهم في السباق الاستعماري. فقد رفضت شخصياتٌ شهيرة مثل رجل الصناعة أندرو كارنيجي والفيلسوف ويليام جيمس نظريةَ الاشتراكية الداروينية وندَّدت بغزو الشعوب والدول الأجنبية. وأسَّسا معًا اتحادًا ضد الاستعمار، وحصلا على مساندة ألد أعداء الاستعمار، وهو مارك توين، ودعمه. ومع أنه اعتبر نفسه في إحدى المرات «استعماريًّا قحًّا يريد للنسر الأمريكي أن يصرخ في المحيط الهادئ» فإنه أُصيب بخيبةِ أمل بسبب قمع القوات الأمريكية العنيف للثوار الفلبينيِّين عام ١٨٩٩. وقد شعر أن الولايات المتحدة حادَت عن هدفها الأصلي في العالم، وهو تقديم الحريات بدلًا من قمعِها. وانتهى توين إلى أنه «مُعارض للاستعمار، وأعارض أيضًا أن يضع النسر الأمريكي مخالبَه على أي بلد آخر».[10]

ولكن وجهة نظر توين لاقت قبولًا لدى قلةٍ من الأمريكيِّين فقط. أما القطاع الأكبر منهم فأيَّد الخطط الاستعمارية وانضم إلى هوس «الجنجوإيزم»، وهي لفظة تعني «عسكرة الشئون الخارجية» وهو مصطلح أخذ يتردَّد في صراع بريطانيا مع العثمانيِّين. وكان الأمريكيون عمومًا ينظرون إلى الاستعمار باعتباره قوةً تؤدي إلى تغيير إيجابي في الشرق الأوسط، وإلى فرص محسَّنة لأنفسهم. وكانت الخطة تقضي بأن يرفع الأوروبيون النقابَ عن المنطقة، ويفتحوها أمام المشروعات الأمريكية النشطة؛ تجاريًّا وثقافيًّا وفوق كل ذلك، دينيًّا.

وكان أكبر قطاع مؤيد للاستعمار ضمن قطاعات المجتمع الأمريكي هو ما يمكن أن يُطلَق عليه اليوم «الذين يقودهم إيمانهم». فعند هؤلاء كانت السيطرة التنويرية الأوروبية على الشرق الأوسط تعني عددًا أكبرَ من المدارس وإرساليات التبشير وفرصةً لتحرير

الشعوب من الحكم الإسلامي. ولم يحلُم بتلك الآمال عددٌ كبير من المسيحيِّين فقط، بل أيضًا ولأول مرة، عدد متزايد من اليهود الأمريكيِّين. فقد لاحظوا أن تمثال الحرية يتوجَّه بالفعل نحو الشرق، وعلى الأقل في خيالهم، يتوجَّه بصورة خاصة نحو فلسطين.

الفصل الرابع عشر

تقوى الإمبراطورية

أصبح تمثال الحرية رمزًا مميزًا للأمريكيِّين، تمامًا مثل النص المدوَّن على قاعدته: «أعطوني المتعبين والفقراء، والحشود التي تتوق للتنفُّس في حرية». هذه هي الكلمات المنتقاة من البيت الثاني من قصيدة «التمثال العملاق الجديد» التي كتبتها إيما لازاروس، وهي شاعرة يهودية من نيويورك، ومع كونها وطنية بلا حدود، إلا أنها لم تظهر في البداية أيَّ اهتمام بالدِّين أو بالشرق الأوسط.

وقد انتهت هذه اللامبالاة للازاروس عام ١٨٨١، عندما أعطى القيصر الروسي موافقته على تنفيذ مذابح مدبَّرة ضد قرى اليهود، وراح ضحيتَها الآلاف. وتزامنت هذه الوحشية مع ذروة المستقبل العملي للشاعرة ذات الثلاثين عامًا؛ فقد كانت تكتب الشعر منذ سن السابعة عشرة. ولكن عند ذلك الوقت فقط كان إنتاجها قد بدأ في نيلِ المديح والثناء من عامة القراء، بالإضافة إلى كبار أدباء ذلك العصر مثال إيمرسون وهنري جيمس ووالت ويتمان.

كانت لازاروس داكنةَ البشرة ومفعمة بالحيوية والنشاط، ذات أنف بارز وسِمات أرستقراطية ورِثتها من أسلافها اليهود الشرقيِّين. ولم تنكر لازاروس قط تراثَها، لكنها لم تحتفِ به أيضًا. لكن أخبار المذابح والوحشية في روسيا وعدم مبالاة العالم بما يجري هناك حفَّزها فجأةً على إعادة فحص جذورها والبحث عن حلٍّ لِما كان يسمَّى حينئذٍ ب «المشكلة اليهودية». وقد انتهت إلى أن الحل يكمُن في تكوين «وطن لمن لا وطن لهم، وهدف للحائرين، وملجأ للمضطهدين، ودولة لعديمي الهوية» في فلسطين. وفجأةً أصبحت لازاروس تكتب نوعًا مختلفًا من الشعر، وهو نوع كان يحث بني جِلدتها على «تذكُّر مجد غضب المكابيِّين» و«استيقظي يا إسرائيل استيقظي!»

المصباح والباب الذهبي

لم تكن لازاروس هي اليهوديةَ الوحيدة التي مرَّت بحالة تحوُّل وطني في الثمانينيات من القرن التاسع عشر. فالصهيونية أو الإيمان بحق الشعب اليهودي في أرض بني إسرائيل كانت تُنبِت جذورًا لها بين يهود شرق أوروبا. وكانت جماعات صغيرة من الصهاينة قد هاجرت إلى فلسطين واستقرت في أرضها القاحلة غير المرحِّبة بهم. وعلى عكس ٢٦٠٠٠ يهودي كانوا مقيمين في البلد بالفعل، ومعظمهم من الحاخامات أو التجار الحضريين، حاول المستوطنون الجدد إعادةَ تعريف اليهود بالحياة الزراعية، وهو نفس الهدف الذي سعى إليه الأمريكيون البروتستانت، أمثال كلوريندا ماينور وجورج آدامز، بغرضِ إعدادهم للحكم.

ظلَّت الحماسة للصهيونية مقصورةً على أوروبا، في حين لم يكن لها وجود يُذكر بين اليهود الأمريكيين. وكانت الثمانينيات من القرن التاسع عشر بمنزلة بداية فترة الهجرة اليهودية المكثَّفة إلى الولايات المتحدة. فقد دخل أكثرُ من مليونين ونصف المليون أوروبي شرقي البلاد، وكان العديد منهم يبحرون أمام تمثال الحرية في طريقهم إلى «الأرض الممهَّدة بالذهب». ومع أن هؤلاء القادمين الجدد كانوا أكثرَ تقليديًّا من اليهود الألمان الذين كانوا قد استقروا في أمريكا في فترة سابقة من نفس القرن، فإنهم كانوا مشغولين للغاية بالاندماج في أرض الميعاد الجديدة، مما ألهاهم عن التفكير في العودة إلى أرضِ الميعاد القديمة الأصلية. وقد أسهم هؤلاء اليهود الأمريكيون إسهامًا كبيرًا في دعم بني دينهم في فلسطين. حيث بنى مموِّلون مثل يهوذا تورو، رجل الخير الشهير من نيو أورلينز، أولَ الأحياء الحديثة في القدس، أما ناثان ستراوس، الشريك في ماسيز، فقد اشترى الأرض التي أطلقت إسرائيل عليها اسم مدينة ناتنيا؛ تيمُّنًا باسمه وأُقيمت على تلك الأرض، والمدينة لا تزال قائمةً وتحمل الاسم نفسه إلى اليوم. ولكن معظم أعضاء الجالية الأمريكية اليهودية لم يكونوا مستعدين لوهب حياتهم للصهيونية، مفضِّلين على ذلك السكن الضيِّق والعمل في الورش في المدن الأمريكية على صحاري فلسطين ومستنقعاتها.

ولكنَّ عدم الاهتمام اليهودي بالصهيونية لم يثبط همَّة إيما لازاروس. وقد أكَّدت أن فلسطين ستكون هي الملجأ لليهود الأوروبيِّين المضطهدين، ولكنها لن يكون لها نفس المعنى لليهود الذين ينعمون بالحرية في الولايات المتحدة. وإن هؤلاء سيستمرون في الإقامة في المدن الأمريكية الرئيسية، والأفضل من ذلك سوف ينعمون «بتجديد شبابهم وسط سهول المراعي في تكساس والوديان الذهبية لجبال سييرا». وحتى بدون الدعم الأمريكي

كانت لازاروس واثقةً من أن إقامة دولة جديدة سيكون بمنزلة «مركز أساسي» للشعب اليهودي بأسْرِه، وسيمنحه «دافعًا في محكمة الدول» وصبغة إنسانية عن طريق كونه مثالًا للسلام والحياد. وكتبت: «سيحقِّق العالم مكاسب، تمامًا مثلما سيحقِّق بنو إسرائيل مكاسب.»

ولكنَّ تأكيدات لازاروس لم تحقِّق لليهود الأمريكيِّين الراحةَ المنشودة، فقد كان هؤلاء يخشون انتشارَ العداء للسامية على الدوام. وكانت هناك خشيةٌ ثانية وهي أن تؤدي مساندتهم للصهيونية إلى زرعِ بذور الشك فيما يخص ولاءهم للولايات المتحدة. لذلك أكَّدت اجتماعات اتحاد الإصلاح عام ١٨٨٥ على ما يأتي: «نحن لا نعتبر أنفسنا أمة، بل مجتمعًا دينيًّا. لذلك لا ندعو إلى العودة إلى فلسطين ولا إحياءً … للدولة اليهودية.» وألقى العالِم اليهودي المحافظ إبرام إيزاك محاضرةً على لازاروس، قال فيها: «إنه من غير الحكمة الدعوة إلى جنسيةٍ وهوية منفصلة … في وقت قد يكوِّن فيه المعادون للسامية انطباعًا بأن اليهود … هم فقط الفلسطينيون والساميون والشرقيون.» وذكرها بأن الصهيونية لها علاقة بإعادة الإحياء، وهو مفهوم مسيحي يهدف إلى تحويل كل اليهود إلى المسيحية.

ولكن مرة أخرى لم تقف مثل تلك الملحوظات العنيفة حائلًا في وجه لازاروس بل دفعها ذلك إلى القيام بحملةٍ لامرأة واحدة من أجل حقوق اليهود، في العمل «عمالةً فنية ومحاربين ومزارعين» في دولتهم الخاصة المستقلة. وأسَّست جمعية تحسين أحوال اليهود الشرقيِّين وتهجيرهم، وروَّجت للصهيونية عن طريق شعرها ونثرها الحماسيِّين. وقد أخبرت صديقة لها أن «فكرة الدولة اليهودية، تفتح أمامنا منظورًا واسعًا فيما يتعلق بالماضي والمستقبل»، وهي فكرة كانت حيةً للغاية في تلك اللحظة، بحيث طردت كل الموضوعات الأخرى من ذهنها. كانت لازاروس من أشد مؤيدي الاستعمار التنويري، وكانت تتطلع إلى اليوم المنتظَر الذي تغزو فيه أوروبا الشرقَ الأوسط، فتزيح بذلك عن الولايات المتحدة عبءَ تحرير الأرض المقدسة. وقد ثابرت على الإيمان بأن اليهود الأمريكيِّين سيتغلبون في النهاية على تردُّدهم وينضمون إليها في رفع المصباح على «الباب الذهبي» لفلسطين — كما جاء في قصيدة «التمثال العملاق الجديد».

كان تفاؤل لازاروس في غيرِ موضعه. فقد بقيت وحدَها في قيادة حملتها من أجل فلسطين يهودية. أما مجتمعها الخيالي فقد تبخَّر في الهواء، بسبب نقص التمويل والأعضاء. وفي سبتمبر عام ١٨٨٧ مِرضت الشاعرة بالسرطان على ما يبدو، وماتت بعد ذلك بشهرين.

ويبدو أن تراث لازاروس الخاص بالصهيونية قد اندثر معها. فقد فشلت الحركة في نيل أيِّ احترام أو تحالف أو دعم، ولو من جزء صغير من اليهود الأمريكيِّين. ومن بين المائتي مندوب للمؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ — وهو اجتماع شبِّه عندئذٍ بالمؤتمر الدستوري في فيلادلفيا والرسو عند صخرة بليموث — رحَّب به فقط أربعة أفراد من أمريكا الشمالية.[1] وهكذا أصبح على حُلم إعادة السيادة لليهود في فلسطين أن ينتظر قليلًا لجذب انتباه يهود أمريكا. ولكن الملايين من بني وطنهم من غير اليهود ظلُّوا على هوسهم به. وكان حبُّ الشعب اليهودي هو دافعهم وحافزهم الأكبر، ليس هدفًا في حد ذاته، بل وسيلة للإسراع بعودة المسيح.

النُّصْب التذكاري المتغاضَى عنه

بحلول العَقد الأخير من القرن التاسع عشر كانت المسيحية في الولايات المتحدة قد وصلت إلى قمة «السيادة البروتستانتية»، وهو مصطلح وضعه العلماء لوصف الفترة التي تدخَّل الدِّين فيها في كل مناحي الحياة والمجتمع. وكانت كنيسة الحي ونشاطاتها المختلفة — الخدمات والصلوات والمقابلات الاجتماعية ومدارس الأحد — قد أصبحت محور الحياة الأمريكية. وتكاتفت شعوب الكنائس لجمع التبرُّعات للإرساليات في الخارج، وللترحيب بالوعاظ المتجولين الزائرين للمنطقة. ولكن فيما وراء الأبعاد الإقليمية كان الدِّين في أمريكا ينتشر على نطاق قومي أوسع. وبمساعدة صحافة نشطة، أصبح بإمكان رجال الدين المشاهير الوصولُ إلى ملايين القراء أسبوعيًّا، إن لم يكن يوميًّا، ناشرين مواعظهم وكتاباتهم.

أحدُ أشهر هؤلاء وأكثرهم احترامًا كان دي ويت تالماج، وهو شخصية إنجيلية، ذو عينين عميقتين وفم ينمُّ عن الإصرار، وأنف منضبط الزوايا. كان قسًّا لمعبد بروكلين الشهير ومستشارًا للرئيس جروفر كليفلاند؛ لذلك كان له قاعدة واسعة من الحضور لمواعظه ومحاضراته. وكانت هذه تشمل نطاقًا واسعًا، بدءًا بالعلاقة بين الدِّين والدنيا إلى مغريات الإجازات الصيفية. ومع ذلك فإنه لم يهتم بأي موضوع قدْر اهتمامه الذي وصل إلى حدِّ الهوس بفلسطين. فقال: «قرأت عن هذا الموضوع، وتحدَّثت عنه ووعظت عنه وغنَّيت عنه وصليت عنه وحلَمت به حتى وصلت توقعاتي إلى ما يشبه جبال الهيمالايا في قمتها.»

وأخيرًا أرضى تالماج شوقَه للأرض المقدسة، في الأول من ديسمبر عام ١٨٨٩، عندما غادر بسفينة بخارية إلى سواحل يافا. وقد جاء، مثل معظم رجال الدين المسيحيِّين في تلك الأيام، وبداخله كراهية لـ «لعنة الأمم، هذا العجوز القديم الأزل»؛ أي الإمبراطورية

العثمانية. وكان يكنُّ أيضًا كراهية للإسلام، الذي ندَّد به باعتباره غير أخلاقي بالنسبة إلى الحضارة الغربية. ولكن تالمان، الذي كان من أشد أنصار الإحياء، لم يكن مهتمًّا بالوضع الحالي لفلسطين تحت الحكم الإسلامي بقدرِ اهتمامه بمستقبلها باعتبارها دولة اليهود. وقد شهد أن «كل أصابع القدَر في تلك الأيام تشير إلى استعادة اليهود لفلسطين»، وتنبأ بأن اليهود العائدين سيحوِّلون ذلك البلد من أرض مقفرة جرداء إلى جنة عدن ثقافيًّا واقتصاديًّا.

ومع أن تالمان كان مهتمًّا بصورة أساسية بالتحرُّر، فإن مفهومه للدولة اليهودية كان شبيهًا بمفهوم إيما لازاروس. فهو أيضًا كان يعرف أهميةَ وضرورة العثور على ملجأ للاجئين اليهود من روسيا وشرق أوروبا؛ حيث تنبأ بأن مظاهر العداء للسامية سرعان ما «ستتضاعف أضعافًا مضاعفة». وقد اتفق أيضًا مع لازاروس على أن يهود الولايات المتحدة لن يُتوقَّع منهم أن يهاجروا. وقال: «سيكون من الجنون أن يتركوا رفاهيات المدن الأمريكية حيث يعتبرون من أفضل المواطنين، ويعبُروا بحرَين لبدء حياتهم من الصفر في بلد غريب عليهم.» وبدلًا من ذلك كان اليهود الأمريكيون سيتحالفون مع الأمريكيين المسيحيِّين في بذلِ مجهود على مستوى العالم أجمعَ للتأثير على السياسات الحكومية تجاه الشرق الأوسط. وعلى الأقل في هذا الصدد كان مختلفًا عن لازاروس. ففي حين افترضت الشاعرة أن أوروبا ستخلِّص فلسطين من العثمانيِّين، آمن القس بأن أمريكا يجب أن تقود العالم في استخلاص الأرض المقدسة من براثن الإسلام.[2]

الاقتراح القائل بأن تقود الولايات المتحدة مجهوداتٍ دولية لتحرير فلسطين من الحكم الإسلامي، وأن تعمل على استقرار اليهود فيها، كان يبدو بالتأكيد وهمًا في فترات الحرب الأهلية أو ما قبلها. ولكنَّ أمريكا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت قد اختلفت تمامًا، بعد أن أصبحت عملاقًا صناعيًّا له الحق في الاستئثار بمركز عالمي. لذلك كان من الطبيعي أن يضم تالماج مجهوداتِه إلى مجهودات أحد هؤلاء الماليين الصاعدين، وهو عملاق العقارات ويليام يوجين بلاكستون، في السعي وراء تحقيق حُلمه في أن تقوم أمريكا بتحرير أرض فلسطين.

وُلد بلاكستون في آدامز بنيويورك عام ١٨٤١، وعلَّم نفسه بنفسه، وكوَّن نفسه بنفسه. وعندما أتم ثلاثين عامًا، كان قد كوَّن إمبراطورية عقارات، ومعها كان لديه وقت للسعي وراء اهتماماته الحقيقية البروتستانتية. وفي عام ١٨٧٨، حضر مؤتمر نياجرا، الموجَّه لعودة اليهود إلى فلسطين، وخرج منه متعصبًا بشدة لفكرة إعادة اليهود إليها.

وكانت النتيجة «المسيح عائد»، وهو كتاب خرج فيه بلاكستون عن العقيدة التقليدية، عن طريق إعفاء اليهود من شرط التحوُّل للمسيحية قبل أو بعد تجمُّعهم. وتساءل فيه: «هل نندِّد — نحن المسيحيِّين — باليهود بسبب عدم قبولهم للدليل الذي تأكَّد عبر التاريخ بأن المسيح هو العائد المنتظَر، ونرفض الدليل الآخر بأن عودته الثانية وشيكة؟» وقد أصبح هذا المجلد، الذي تُرْجِم فيما بعد إلى ٣٦ لغة، وطُبع منه حوالي مليون نسخة، أحدَ أهم أبحاث هذا العصر. ولكن الإنجازات الأدبية كانت تعني القليل لبلاكستون. ومع مظهره الخادع وصلعته، فقد كانت لديه خططٌ أكبر. وبعد استكماله جولة في فلسطين عام ١٨٨٨، بدأ في تنفيذها.

وفي مذكرة قدَّمها بلاكستون للرئيس بنجامين هاريسون ووزير الخارجية جيمس بلين يوم ٥ من مارس عام ١٨٩١ كتب يقول: «نحن نؤمن بأن هذا هو الوقت المناسب لكل الأمم، وخاصة الأمم المسيحية الأوروبية، لإظهار التعاطف مع إسرائيل. فهناك مليونا يهودي روسي يناشدون تعاطفنا معهم ويناشدون كذلك عدلَنا وإنسانيتنا»، وهم في أشد الحاجة إلى ملجأ في فلسطين. وكما كانت أوروبا قد نجحت في فصل صربيا وبلغاريا عن الدولة العثمانية، كان أيضًا بإمكان الولايات المتحدة أن تحرِّر فلسطين من أجل اليهود. وكل ما على الرئيس هو أن يقوم بالدعوة إلى عقد مؤتمر دولي للقادة، يتضمَّن أباطرة ألمانيا والنمسا والمجر، وفيكتوريا ملكة بريطانيا لتقرير أفضل السبل لتحقيق هذا الهدف. «منذ أيام حكم كسرى ملك فارس لم يقدَّر ... لأي آدمي مثل تلك الفرصة لتحقيق أهداف الرب فيما يخص شعبه القديم المختار.»

وكما هو متوقَّع، سرعان ما وضع تالماج توقيعَه على المذكرة، ولكن على غير المتوقَّع قام بذلك أيضًا أكثر من ٤٠٠ من المشاهير؛ رجال دين ورجال أعمال وصحفيِّين وساسة. لم تكن هذه شخصياتٍ مثيرة للجدل ولا ثانوية، لكنها كانت تمثِّل قمة الهرم الأمريكي؛ ماليًّا وسياسيًّا وثقافيًّا: فكان منهم جون روكفلر وتشارلز سكربنر وبيربرينت مورجان وقاضي المحكمة العليا ميلفيل فولر وعضو مجلس النواب ويليام ماكنلي. ووقَّع عليها أيضًا عشراتٌ من اليهود، مما جعل تلك أولَ سابقة يتعاون فيها أشخاص من هاتين العقيدتين على دعم ادعاء حق اليهود في فلسطين.[3]

ومع أن توصيات بلاكستون كانت متطرِّفة، فإن مذكِّرته كانت في حقيقتها تتماشى مع سياسة أمريكا منذ أمد طويل. فعلى مدارِ ما يقرُب من عَقد كامل، أي منذ حدوث المذابح الروسية عام ١٨٨١، كانت واشنطن تحثُّ الباب العالي على فتح فلسطين أمام

هجرة اليهود. وقد أصدرت وزارة الخارجية تعليماتها للسفير الأمريكي في إسطنبول، ليو والاس، بمناقشة الأمر شخصيًّا مع السلطان عبد الحميد الثاني. ولأنه كان مؤمنًا بإعادة إحياء السيادة اليهودية على فلسطين، فإن والاس لم يتردَّد لحظة في الضغط من أجل إعادة استيطان اليهود في فلسطين. وكان خلفاؤه؛ أوسكار ستراوس وسولومون هيرش — مع أنهما من اليهود المعادين للصهيونية — قد تابعا الموضوع أيضًا. ولكن لم يُكتب لمحاولاتهما الاستمرار. كانت الدولة العثمانية تخشى الصهيونيةَ وأي مجهودات ومحاولات تُبذل لتفكيك الإمبراطورية، ولها كلُّ الحق في ذلك؛ لذلك وضعت قيودًا تعسفية متشددة على هجرة اليهود إلى فلسطين. وقد ندَّد الدبلوماسيون الأمريكيون بهذه الإجراءات، ووصفوها بأنها «تعسفية ... وضد الدستور الأمريكي تمامًا»، ولكن كل ذلك لم يُجدِ نفعًا. ومن جانبها لم تظهِر القوى الأوروبية أيَّ ميل أو استعداد للتدخل لمصلحة اللاجئين، أو لتقليد الموقف الأمريكي تجاه فلسطين.

وبسبب منْعِ الأوروبيِّين دعمَهم ومساندتهم لمذكرة بلاكستون ومعارضة العثمانيين الصريحة لها، امتنع هاريسون عن اتخاذ أيِّ خطوات عنيفة أو متطرفة في موضوع فلسطين. واستمر بلاكستون في الترويج للقيادة الأمريكية لمساندة الحملة من أجل الدولة اليهودية، ولكن لا هاريسون ولا الرؤساء التالون له، كليفلاند وماكينلي، استجابوا له. وكما يحدُث كثيرًا في تجربة أمريكا مع الشرق الأوسط، فإن الحقيقة عند رجلٍ ثبَتَ أنها خيالٌ ووهم عند رجل آخر، في حين أن السياسة تحدِّدها دائمًا القوة.[4]

ولكنَّ رفْضَ الإدارات المتتالية لدعم تكوين دولة يهودية لم يثنِ أعدادًا كبيرة من المسيحيِّين الأمريكيِّين عن عزمهم، ولم يمنعهم من الاستمرار في تقدير الفكرة والإعجاب بها، وقد بدأ بعضهم في وصف أنفسهم بأنهم صهاينة، مثل بلاكستون. ولكن بين جمهور العامة كانت الحماسة الصريحة لإعادة إحياء اليهود تتقلص بوضوح. فالكنيستان المنهجية والمشيخية كانتا تنجذبان نحو الاتجاه السائد للأغلبية وتتخليان عن كثير من تعاليمهما المعبِّرة عن الإيمان بالعصر الألفي السعيد، ومن بينها فكرةُ إعادة إحياء السيادة اليهودية على فلسطين. وكانت البروتستانتية الأمريكية عامة تتحرك بعيدًا عن الحماسة لفكرة الإحياء التي استولت عليها منذ أواخر القرن الثامن عشر، وتعود مرة أخرى إلى ممارساتٍ أكثر تقليدية. ومع أن تجديد السيادة اليهودية على فلسطين ظل حُلمًا للعديد من الأمريكيين، فإن الإحساس بضرورته وأهميته كان قد ضعُف كثيرًا.

هذا الضَّعف الذي أصاب الحماسة لفكرة الإحياء والانتقال من البروتستانتية إلى أشكالٍ أكثرَ تقليدية من العبادة ظهر بجلاء من المحاولة الأخيرة لتكوين مستعمرة أو

مستوطنة أمريكية في فلسطين. وقد دارت الملحمة هذه المرة حول عائلة سبافورد وتابعيها، وحول دبلوماسي أمريكي، هو سيلاه ميريل، الذي أصبح خَصمهم اللدود.

كلُّ ما يتعلَّق بروحي فهو على ما يُرام

كان آل سبافورد — هوراشيو وآنا — زوجين محترمين يذهبان إلى الكنيسة بانتظام، ويعيشان في شيكاجو، وصديقين مقربين من ويليام بلاكستون. وقد نجيا من الحريق الكبير عام ١٨٧١، فبدأت آنا وأربع من بناتها رحلةً ترفيهية إلى بريطانيا، ولكن السفينة غرقت عند اصطدامها بسفينة أخرى، وفُقدت الفتيات الأربع. وبعدها بقليل، توفِّي ابنهما الوحيد مريضًا بالحمَّى القرمزية. وقال هوراشيو وهو مدمَّر لكن يملؤه الإيمان: «عندما تتوالى الأحزان الكبيرة، ومهما كان قدَري، فقد علمتني أن أقول كلَّ شيء يتعلق بروحي على ما يُرام، وهي ترنيمة لا يزال الكثير من البروتستانت يتغنَّون بها. وقرَّر آل سبافورد أن يحولا مأساتهما الشخصية إلى قوة روحية، فأسَّسا مذهبًا جديدًا هو مذهب «الذين لا يُقهرون»، وقرَّرا الانتقال إلى القدس.

ولكن مرَّ عَقد كامل قبل أن تصل العائلة مع ١٢ من أتباعها إلى يافا. وتوجَّهت المجموعة من فورها إلى القدس «مستقلة مرْكبات أمريكية الصنع» كانت في يوم من الأيام ملكًا لمستوطنة آدامز المنكوبة. ولكنَّ فشَلَ تلك المستوطنة قبل ذلك بخمسة عشر عامًا لم يثنِ مجموعةَ آل سبافورد عن محاولة تأسيس مستوطنتهم الخاصة في القدس. فاستأجر الحجاج منزلًا كبيرًا خارج أسوار المدينة القديمة، وشرعوا في صناعة المنسوجات والمنتجات الخشبية والطوب. وسرعان ما افتتحوا هم أيضًا مدرسةً للبنات ومتجرًا يبيع تذكارات للأرض المقدسة. وعُرفت هذه المستوطنة باسم «المستوطنة الأمريكية الجديدة»، وسرعان ما أصبحت مزارًا سياحيًّا. وكان من بين زوارها مشاهيرُ من أمثال الجنرال البريطاني تشارلز «الصيني» جوردون، وكان في طريقه إلى السودان، حيث قتله المحاربون المسلمون فيما بعد. وتذكَّر أحدُ آل سبافورد قائلًا: «لقد علمني كيف أشتم.»

ومثل الأمريكيِّين الأوائل الذين استوطنوا فلسطين، سعى «الذين لا يُقهرون» إلى تقليد حياة المسيح، «رجل الآلام»، الذي عانى كثيرًا على الأرض، وحصل على مجد السماوات فيما بعد. وقد كانوا يتطلعون بدورهم إلى تحقق نبوءات الإنجيل، خاصة تلك المتعلِّقة بعودة اليهود إلى وطنهم الأم. ولكن على عكس مَن سبقوهم، لم تشعر مجموعة سبافورد بأي ضرورة أو ضغوط للمساعدة في إعداد اليهود للتجمُّع والعودة، أو لتعليمهم الزراعة. فقد

كان يكفيهم تسلُّق جبل الزيتون يوميًّا، وهم يحملون معهم فقط الشاي والكعك. وقد اعترفوا «أنهم يتمنَّون أن يكونوا أولَ مَن يقدِّم المرطِّبات للمسيح عند عودته».[5]

تميَّزت المستوطنة الأمريكية أيضًا بأنها استمرت، ولم تشهد مصيرَ المَزارع السابقة، فلم تشهد مجاعة قط، ولا أمراضًا ولا عصابات. ومع أن بناء المستوطنة تزامن مع فترة حُكم عبد الحميد الثاني الذي كان يكره الغربيِّين ويعاديهم، فإن «الذين لا يُقهرون» تمتَّعوا بعلاقات ممتازة مع الحاكم العثماني للقدس، ومع الجاليات الدينية الأخرى الأقدم بالمدينة. وقد واجهت مجموعةُ سبافورد عدوًّا واحدًا حقيقيًّا، ومن سخرية القدَر أنه كان أمريكيًّا.

كان يحمل درجةَ الدكتوراه في اللاهوت، وقسًّا في أسطول للأمريكيِّين السود في الحرب الأهلية. لذلك كان سيلاه ميريل يبدو وكأنه يشترك في الكثير من الأمور مع «الذين لا يُقهرون»، وكان يشترك معهم في تسامحهم وتقواهم وشجاعتهم. وشاركهم أيضًا في حب فلسطين. وبدءًا من عام ١٨٨٢ عمِل فتراتٍ عدة قنصلًا لأمريكا في القدس، وفي ربع القرن التالي كتب عددًا من الكتب عن تاريخ الأرض المقدَّسة وطبوغرافيتها وآثارها. ومع ذلك فقد كان وجهه الطيب الأبوي ونظارته التي تجعله شبيهًا بالمثقفين ووجه يخبئ ميلًا إلى البخل، واقتناعًا بأنه لا يوجد مكانٌ للمستوطنة الأمريكية أو أفكارها الهدامة في هذا البلد.

ندَّد ميريل بآل سبافورديت — كما كان يطلق عليهم — ونعتهم بأنهم كفرة ونصابون، متهمًا إياهم باختطاف الشباب وغسل مخِّهم، واتهمهم، على الأقل في مناسبة واحدة، بمهاجمته بنيةِ قتله. وحثَّ سكان القدس ألا يشتروا منهم أيَّ بضائع، وأخبر السياح بضرورة تجنُّب متجر المستوطنة. وقال: «إنهم يكرهون حكومة الولايات المتحدة ... وكل الأمريكيِّين ... المقيمين في القدس خارج دائرتهم.» وقدَّم القنصل أيضًا وثائقَ من سكانٍ سابقين في المستوطنة يشهدون فيها «بممارسات فسق» يشجِّع عليها آل سبافورد، منها وضع الأفراد غير المتزوجين معًا في حجرات مظلمة، ثم إجبارهم على الاعتراف بخطيئتهم.

وتصاعد الغليان بعد أن قرَّر ميريل — وهو عالِم آثار هاوٍ — أن يحفر في منطقة تاريخية خارج أسوار المدينة القديمة، تصادف أنها تتضمَّن أيضًا مقبرة المستوطنة الأمريكية. ومع أنه ادَّعى فيما بعدُ أنه نقلَ المقابر والرُّفات بكل ضمير، فإن عائلة سبافورد المصدومة اشتكت من عثورها على عظام هوراشيو سبافورد وقد أُخرجت

من باطن الأرض وتناثرت هنا وهناك. قاسى ميريل من سرطان الحلق ومن اعتراضات مساندي المستوطنة الأمريكية، فاستقال في النهاية. ولكن في ذلك الوقت كانت تلك الجالية قد اندمجت مع مجموعةٍ سويدية وفقدَت هويتها الأمريكية المميزة. وأُعيد تأثيث المنزل فندقًا ومطعمًا، وقد أضحى بعد ذلك الحدَث بقرن كامل الضاحيةَ السكنية المفضَّلة للصحفيين الأجانب. وبذلك أصبحت كل عداوة ميريل بلا طائل.

لم يَفُق عداوةَ ميريل للمستوطنة الأمريكية إلا كراهيته لليهود وحركة الصهيونية الناشئة. ومرة أخرى — باعتباره أستاذًا سابقًا للعبرية بجامعة أندوفر ورجلًا مشتقًّا اسمُه الأولُ من العبرية — كان يُتوقَّع من ميريل أن يتعاطف مع اللاجئين اليهود ومع مجهوداتهم لتأسيس دولة. ولكن اليهود — حسب قول ميريل — كانوا ملامين على كثير من المعاناة التي لاقوها. فشخصيتهم وانعدام «عادات النظافة والتصرُّفات الحضارية» لديهم كانت هي السبب وراء إثارة المذابح الروسية والحركات المعادية لليهود في أماكنَ أخرى. وكان يقول: «اليهودي لا يحتاج إلى معاملة لينة طيبة ... بل يحتاج إلى أن يعرف مكانه وحدوده في هذا العالم.» وطلبت منه وزارة الخارجية الأمريكية أن يقدِّم آراءه بشأن مذكِّرة بلاكستون، فرفضها ميريل باعتبارها «أحدَ أكثر الخطط التي عُرضت على الجمهور جموحًا». ووصف اليهود بأنهم متخلفون بسبب «طقوسهم التافهة» وأنهم يهتمون فقط بجمع المال، وتنبأ أن معظمهم لن يستقر أبدًا في فلسطين التي لا ترحِّب بهم ولا تمنحهم أيَّ مكسب، حتى لو مُنحوا تلك الفرصة. وانتهى القنصل إلى حثِّ الولايات المتحدة على تجنُّب أي اتصال بالصهيونية ووقف أي نوع من أنواع التعاطف معهم. «فهم جنسٌ ضعيف يمكن أن تصنع منهم جنودًا أو مستوطنين أو مواطنين عاملين.»[6]

وباحتقار سيلاه ميريل لسعادة آل سبافورد بالألفية الجديدة وعدم تعاطفه بالمرة مع الصهيونية كان يعكس بعضَ الآراء التي كانت تكتسب شعبيةً بين معظم الأمريكيين البروتستانت. ومع ذلك كانت أشكال إحيائية من العبادات لا تزال لها شعبية كبيرة في الولايات المتحدة. وكذلك الأمر لمعاداة السامية؛ فمع أنها كانت مقبولة سرًّا، فإنها كانت غير مقبولة علنًا. وكان الدعم والتأييد لفكرة إعادة سيادة اليهود على فلسطين قد أصبح أقلَّ حماسة، لكنه استمر على انتشاره. وكان ميريل يعكس وجهةَ نظر الرأي العام المتعلقة بمثل تلك الموضوعات بدرجةٍ أقل من رجل أمريكا المفضَّل، مارك توين. ومع أن توين كان كثيرًا ما يهجو البروتستانت في كتاباته، فإنه احتفظ باحترام دفين «للدِّين القديم»، وفي

حين كشفت كتاباته تحيزًا ضد اليهود، فقد نفى هو أيَّ عداوة لهم. وكان موقف توين من الصهيونية غيرَ معروف قبل عام ١٨٩٧، عندما بدأ زيارةً إلى فيينا استغرقت سنتين. وفي تلك الفترة وجد توين أن الناس يظنونه من اليهود. واتصل أيضًا بشخصيات يهودية شهيرة، منهم تيودور هيرتزل، الصحفي وكاتب المسرحيات وأبو الحركة الصهيونية.

وتزامن وصول توين إلى فيينا مع خاتمة فضيحة درايفوس المدوية. كان ضابطًا في الجيش الفرنسي واتُّهِم زورًا بالتجسس لمصلحة ألمانيا، وكان يهوديًّا يَعُدُّ نفسه فرنسيًّا أكثر من كونه يهوديًّا؛ لذلك أصبح ألفريد درايفوس محورَ اهتمام المعادين للسامية وهجومهم، وهو الهجوم الذي شنَّه الجيش والكنيسة الكاثوليكية وغيرهما من العناصر المحافظة. وكان صيتُ محاكمة درايفوس قد ذاع وانتشر في أوروبا، خاصةً في النمسا، حيث كان العداء للسامية قد أصبح قانونيًّا باعتباره إعلامًا صحفيًّا واتجاهًا سياسيًّا.

وبصرف النظر عن تحفُّظات توين على اليهود، فقد صُدم بالسب والتشهير الذي حدَث ضد درايفوس. فقد جاء إلى فيينا لمرافقة ابنته كلارا، وهي موسيقية متزوجة من يهودي نمساوي. وعن طريقها تمكَّن من مقابلة العديد من مثقفي المدينة اليهود، ومنهم سيجموند فرويد، الفيلسوف والمعالِج النفسي الصاعد. وهكذا تعرَّف توين على مساوئ المعاداة للسامية، مع أنها لم تكن بالوضوح الذي كانت عليه عندما أصبح هو ذاته هدفًا لها. فقد لاحظت صحافة فيينا أنَّ اسمه الأول — صامويل — مفضَّل بين اليهود، وأن أنفه كان كبيرًا ومعقوفًا. لذلك أطلقت عليه «اليهودي مارك توين».

وردَّ توين عليها بمقالٍ ساخر بعنوان «فيما يخص اليهود»، وفيه هاجم حقيقةَ أن عددًا قليلًا من المسيحيِّين وقفوا علنًا لمناصرة أبناء عمومتهم الروحيين. وكانت محاكمة درايفوس مقزِّزة بصورةٍ خاصة. فقال عنها: «إنها غير إنجليزية، وغير أمريكية، إنها فرنسية.» وقد أوشك توين على نسيان سياسته، عندما أشار إلى حب اليهود المفترَض للمال، وتردُّدهم في خدمة بلادهم أثناء الحرب — وقد اعتذر لاحقًا عن هذه الزلات — لكنه عَوَّض ذلك عن طريق مدح ذكاء وثقافة اليهود. وقال: «الفرْق بين ذهن المسيحي المتوسط وذهن اليهودي المتوسط هو الفرق بين ذهن الضفدع الصغير وذهن رئيس الأساقفة. وهو جنس رائع، بل أعتقد أنه أفضل الأجناس التي أخرجتها الدنيا.»

ظهر انجذاب توين الجديد لليهود عن طريق اهتمامه بهيرتزل. فأثناء تغطيته محاكمةَ درايفوس لإحدى صحف فيينا، أصبح مقتنعًا أن اليهود لن يتمكنوا أبدًا من الانسجام والتمازج في أوروبا، بل أصبح واجبًا عليهم أن يهاجروا ويجدوا دولةً مستقلة

لهم. لذلك دعا إلى المؤتمر اليهودي الأول، ونشر رؤيته لكيان سياسي مستقبلي، في كتاب «الدولة اليهودية». وكان هيرتزل وتوين قد تقابلا مرةً سابقة، لفترة قصيرة، في حفل استقبال في باريس عام ١٨٩٤. وكان هيرتزل محبطًا بسبب «رؤيته لرجل قصير ... مهتز قليلًا ... صاحب نظرة خاوية وخدود متهدِّلة»، بدلًا من الرجل الكوميدي ذي الصدر العريض الذي كان قد تخيَّله. وقد بلغ به الأمر إلى عدم التعرُّف على كاتب توم سوير وهاكلبري فين الإنجليزي الهوية.

كان اجتماعهما التالي بعد ذلك بأربع سنوات في فيينا، وقد أثبت أنه أكثر إرضاءً للطرفين معًا، وليس فقط لهيرتزل. وكان من الواضح انبهار توين بالصحفي ذي الشخصية القيادية الجذابة الذي تحوَّل إلى صاحب رؤية، ذي عينين داكنتين ولحية كثيفة مربعة، والذي كثيرًا ما كان يذكِّره بتمثال مايكل أنجلو للنبي موسى. وبعد حضور افتتاح مسرحية هيرتزل «الضاحية الفقيرة الجديدة»، وهي قصة يهودي اسمه صامويل يرفضه المجتمع المسيحي، عرض توين على هيرتزل أن يقوم بترجمة هذه المأساة من أجل عرضها على مسارح نيويورك. وأظهر احترامًا للحركة التي كان هيرتزل قد أسَّسها. وبطريقته الساخرة أظهر توين مساندتَه للاقتراح القائل بتكوين دولة يهودية عن طريق إظهار معارضته لها. فقال: «إذا كان هذا التجمُّع في فلسطين لأكثر العقول دهاءً في العالم سيكون على أرض بلد حر، فأعتقد أنه من الحكمة وقفُ هذا المشروع، فليس من العقل أن نسمح للجنس اليهودي بالتعرف على مدى قوَّته. لأنه إذا كانت الجياد ستعرف مدى قوَّتها، فليس من الحكمة أن نركبها بعد ذلك.»[7]

لم يتمكَّن توين من ترجمة «الضاحية الفقيرة الجديدة». وبدلًا من ذلك حوَّل اهتمامه إلى انتقاد قمع أمريكا للثورة الوطنية في الفلبين وإلى التنديد بالاستعمار. ولكن توين لم ينظر إلى الاستيطان الصهيوني في فلسطين على أنه صورة من صور الاستعمار. ولم يندِّد بالتعديات البريطانية والفرنسية في أماكنَ أخرى من الشرق الأوسط. وفي هذا الصدد أيضًا كانت آراؤه تمثل آراءَ معظم الأمريكيِّين في فترة انتهاء القرن وبداية القرن التالي. وسواء كانوا مساندين للاستعمار أو مناهضين له، فإن معظمهم كان لا يزال يتطلَّع إلى اليوم الذي يتحرَّر فيه الشرق الأوسط من حُكم الطاغية ليحذوَ حذو الولايات المتحدة ويتشبَّه بها. ولم يكن هذا التحول بالضرورة ليحدُث عن طريق الغزو، ولكن بالأعمال الخيرية والعمل الجاد للوعاظ والمعلمين والأطباء. وربما كانت هذه هي نهاية القرن البروتستانتي، ولكنَّ عددًا كبيرًا من الأمريكيِّين كان لا يزال يساند إرسالياتها.

رسل إلى الإسلام

في سنوات ما بين ١٨٨٥ و١٨٩٥ كانت ميزانية المؤسسات التبشيرية للشرق الأوسط قد تضاعفت سبعة أضعاف. فبالإضافة إلى أكثر من ٤٠٠ مدرسة وتِسع كليات ينتظم فيها أكثر من ٢٠٠٠٠ طالب، كانت تلك الأموال تذهب أيضًا إلى تسعة مستشفيات وعشر صيدليات تعالج ما يقرُب من ٤٠٠٠٠ مريض سنويًّا. وإضافة إلى الدوريات والجرائد والأناجيل الصادرة بخمس لغات من لغات الشرق الأوسط، كانت المطابع الأمريكية تخرِج قُرابة أربعة ملايين كتاب دراسي حول موضوعاتٍ تتنوَّع ما بين الفلك وطب الأسنان والطباعة وفلسفة الأخلاق.

وكانت مساهمات المبشِّرين لرفع المستوى الأخلاقي والتعليمي في الشرق الأوسط قد أصبحت مصدرًا لفخر الأمريكيِّين ومعيارًا لقياس أعمالهم الخيرية مقارنةً بالاستعمار والجشع الأوروبي. وكتب أحدُ الأمريكيين، هو سيمون وولف، من القنصلية الأمريكية بالقاهرة: «لا يمكن أن نثنيَ ثناءً كافيًا على مواطنينا من الرجال والنساء الأتقياء الذين يقومون ... بواجبهم ... بغير خوف هنا، وسط الرمال والشمس الحارقة. مجرد ذكر الولايات المتحدة أو الأمريكيِّين يمثِّل جوازَ سفر إلى قلوب المصريِّين وثقتهم.» وأكَّد أحد خلفاء وولف، وهو لويس إيدينج، هذه المقولة بقوله: «إن الأمريكيِّين يحتلون مصر تمامًا كما تحتلها إنجلترا.» وأضاف إيدينج أن «بريطانيا طوَّرت البلاد اقتصاديًّا، والولايات المتحدة شكَّلت سكانها على هيئة مواطنين.»[8]

وكذلك كان المبشِّرون يستمتعون بهذه الإنجازات ويفخرون بها، ولكنَّ فشلهم في تحقيق هدفهم الأصلي — وهو الخلاص — كان لا يزال يؤلمهم. وقد اعترف هنري جيسوب، عميد الأمريكيِّين البروتستانت في لبنان، قائلًا: «في الحرب ضد الإسلام نضع فقط دروعنا، ولسنا على أي استعداد للتلويح بأعلام النصر بعد.» كان جيسوب يلمِّح إلى حقيقة أنه مع تأسيس أكثر من ١٠٠ كنيسة وعملِ أكثر من ٢٠٠ مبشِّر في جميع أنحاء الدولة العثمانية، فإن مجموع المتحولين إلى المسيحية ظل قليلًا للغاية. وهاجر الكثير منهم فيما بعدُ إلى الولايات المتحدة، حتى إن الكلية السورية البروتستانتية، التي كان ينقصها أساتذة يتحدثون العربية، غيَّرت لغةَ التدريس بها لتصبح الإنجليزية.

إن الشرق الأوسط يتميز بأنه لم تؤثِّر فيه أيُّ مغريات ثقافية أو مادية تأثيرًا فعالًا لإبعاد سكانه عن معتقداتهم التقليدية وتبنِّي المعتقدات الأمريكية البروتستانتية. وعلى عكس الشرق الأقصى، حيث كانت الخدمات التي يقدِّمها المبشِّرون الأمريكيون تسهِّل لهم

عمليةَ تحويل السكان المحليين، فإن شعوب الشرق الأوسط لم ترَ أيَّ تناقض بين تسلُّم الإرشادات والرعاية الطبية من البروتستانت والاحتفاظ بعقيدتهم الأصلية. وقد اشتكى طبيبٌ مغتاظ من أنه «لم يدخل أحدٌ مستشفى الإرسالية وهو بحاجة إلى علاج بدني بقدْر حاجته إلى علاج روحي، عن طريق التعرف أكثرَ على يسوع المسيح».

وتجلَّى فشل المبشِّرين في حالة ألكسندر راسيل ويب. فقد كان هذا النيويوركي في السابق قنصلًا لدى الفلبين، وتحوَّل من المشيخية إلى الإسلام عام ١٨٨٨. ثم عاد إلى مسقط رأسه بعدها بخمس سنوات، في صحة جيدة ومطلِقًا لحيتَه ولابسًا عمامة. وشرع في تأسيس أحدِ أول المساجد في أمريكا، بالإضافة إلى جرائد إسلامية. لم تكن مجهودات ويب لتحويل الولايات المتحدة إلى الاسلام أكثرَ نجاحًا من محاولات المبشِّرين لتنصير الشرق الأوسط. ولكنَّ حمْلَته أكَّدت التحديات التي يواجهها البروتستانت من إسلام شامخ يجذب إليه تابعين جددًا.

كان هذا الامتناع الإسلامي يمثل عائقًا لمجهودات التبشير؛ لذلك قرَّر بعض الأمريكيِّين أن يصبحوا «مبشِّرين جددًا»، وهو مصطلح اخترعه هوارد بليس، الذي كان قد خلَف والده رئيسًا للكلية السورية البروتستانتية. وكان الهدف الآن هو الدعوة إلى إنجيل «اجتماعي»، يعرِض المسيح كلما وأينما أُتيحت الفرصة، «بصرف النظر عن النتيجة أو الأثر في أي ارتباطات كنسية». ومن وجهة نظر بليس ودائرته من رجال الدِّين القابعين في راحة واسترخاء في بيروت كان هذا التعريف الجديد للدور التبشيري يعني أن المؤسسات الدينية والطبية يمكنها أن تستمر في التوسُّع، حتى على حساب الأنشطة البروتستانتية البحتة. وقد يتقبَّل الشرق الأوسط يومًا ما الولايات المتحدة سياسيًّا وثقافيًّا، ولكن من الناحية الروحية سيكون دائمًا إسلاميًّا.

لم يكن كلُّ المبشِّرين مستعدين لتبنِّي هذه الدعوة الاجتماعية الحديثة، والتخلي عن سعيهم وراء متحوِّلين جدد. وكان الكثيرون منهم لا يزالون على استعداد للتقدم إلى الأمام وإنجيلهم في يدهم إلى أبعد المناطق، وهم يواجهون قُطَّاع الطُّرق والأمراض.[9] وبالفعل شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر مجهودات مضاعفة لتأسيس قواعدَ ومحطاتٍ في شرق الأناضول وفارس والسودان.

ولكن لم يكن هناك بروتستانتي واحد قد وطئ الجزيرة العربية. فهي مساحة شاسعة، شمسها حارقة وبلا ماء، تعادل مساحة الولايات المتحدة غرب الميسيسيبي، وتضم الجزيرة العربية اليوم اليمن والمملكة السعودية والإمارات في الخليج العربي. وفي

التسعينيات من القرن التاسع عشر، كانت الجزيرة العربية جزءًا من الدولة العثمانية بالاسم. وكانت أيضًا مهدَ المدن المقدَّسة مكة والمدينة، وكذلك مهدًا للطائفة الإسلامية المعروفة باسم الوهابية. وقد كوَّنت تلك الحركة تحالفًا مع آل سعود، وهو ما دعم المحاربين الوهابيِّين في معاركهم ضد القبائل الصحراوية الأخرى. بيئة كهذه ما كانت لتستقبل أبدًا شخصًا أمريكيًّا يسعى إلى تحويل المسلمين إلى حواريِّين للمسيح. ولكن هذه بالضبط كانت طموحات صامويل مارينوس زويمر، وهو مبشِّر في الثالثة والعشرين من عمره، من فريزلاند، ميشيجان.

كان واحدًا من ١٣ ابنًا لقس هولندي إصلاحي. لذلك آمن من سن مبكرة بأن قدَره هو أن يقوم بالتبشير في بلاد غريبة عبْر البحار. وفي مدرسة اللاهوت كان يحدق ساعات طويلة في بندول إيقاعٍ وضعه معلِّمه أمام الفصل، وكان كلما مات شخص في آسيا قبل أن يُنْقَذ روحه دقَّ. لذلك قرَّر زويمر أن يحقق قول الإنجيل «آه، لقد عاش إسماعيل قبلكم»، وأن يقوم بالدعوة في الجزيرة العربية. وكانت تلك المنطقة تعدُّ منذ زمن بعيد منطقةَ نفوذ هولندي خالص، ولكن الكنيسة رفضت تمويلَ إرساله إلى هناك، لاقتناعها بأن العرب لا يمكن إنقاذ روحهم أبدًا. وكان على زويمر أن يحصل على تمويل للرحلة بمجهوداته الذاتية. وتمكَّن من تحصيل معرفة مبدئية بسيطة للغاية عن قراءة الخرائط والأدوية واللغة العربية. ومتسلحًا بتلك المعرفة، انطلق زويمر في يونيو عام ١٨٩٠، متوجهًا إلى «قلب الإسلام».

توجَّه زويمر أولًا إلى القاهرة، ثم عبْر البحر الأحمر إلى جدة. ولم يكن يحمل معه متاعًا كثيرًا؛ إذ لم يكن معه سوى مجلَّدين من كتاب تشارلز دوتي «رحلات في الصحراء العربية». وقد باعهما فيما بعد لضابط بريطاني شابٍّ اسمه لورنس. وفي الطريق إلى الجنوب، ادَّعى زويمر أنه أول غربي يدخل مدينة صنعاء اليمنية. وتقديرًا لذلك، دُعي إلى الانضمام إلى الجمعية الجغرافية الملكية. ثم دار حول طرف شبه الجزيرة العربية متوجهًا شمالًا عبر الخليج العربي إلى البصرة، حيث التقى مع زميل من مدرسة اللاهوت هو جيمس كانتين، وهناك أسَّس أولَ قاعدة له.

وسرعان ما تعلَّم الأمريكيان أن الوعظ في وسط العراق المسلِم أمرٌ غير مستقر ولا ثابت. كان زويمر شابًّا أشقرَ ذا ملامح نوردية شمالية ويصل طوله إلى ستة أقدام. وقد ألقت السلطات العثمانية القبضَ عليه ووضعته تحت الحراسة ومنعته من الوعظ. ومع ذلك، فقد تمكَّن هذا «المحرِّك البخاري المرتدي للسراويل» — كما أطلَق عليه زميلٌ له —

من الهرب من البصرة والانتقال إلى مسقط بعمان، ثم إلى البحرين. وتحكي مذكراته عن مقابلات عجيبة وغريبة مع رجالٍ يأكلون السحالي، ويتسلَّحون بأسلحة من بقايا الحرب الأهلية الأمريكية، وأيضًا عن لقائه بأمريكي يبحث عن الذهب في فارس. وفي أثناء رحلات زويمر سُرِق متاعه وهُدِّد بقطع رأسه، وتعرَّض للجفاف بسبب درجة الحرارة التي وصلت إلى ١٠٧ فهرنهايت. فقال: «الرحلات في بلاد العجائب لا تمر من دون مصاعب.» وبمرور الوقت، انضم إليه شقيقه الأصغر بيتر عن طريق كميل عيطاني، أحدِ المسلمين القلائل الذين تنصَّروا في بيروت، وأيضًا عن طريق المبشِّرة البريطانية إيمي ويلكس، التي أصبحت زوجته وأمَّ أبنائه الأربعة. وكانا معًا يوزِّعان الأناجيل ويرعيان المرضى ويجدان مأوًى للعبيد الهاربين. ووجدا الوقتَ لتأسيس أول طاحونة هواء في مسقط، التي جرى استيراد أجزائها من ووبون بوسكنسون.

كان تقديم الخدمات الدينية والدنيوية تقليدًا أمريكيًّا في الشرق الأوسط منذ العشرينيات من القرن التاسع عشر، ولكن تقديمها كان له ثَمن. فقد مرِضت زوجة زويمر واثنتان من بناته وشقيقه بيتر. وتوفِّي كميل عيطاني مسمومًا — حسب ظن زويمر — بيد والده. وأخيرًا، بعد التضحية بحياة كل هؤلاء ووقفِ عشرين سنة من عمره على مجهودات التبشير، اضطُر زويمر إلى الاعتراف بأن الكنيسة الهولندية الإصلاحية كانت على حق؛ فالعرب لا يمكن تحويلهم إلى المسيحية.

لذلك عاد زويمر إلى ممارسة معروفة ومعتادة بين المبشِّرين في الشرق الأوسط؛ فقد بدأ بافتتاح مدارس. وقال: «بلدٌ من دون … مثل هذه المدارس لا يمكن أن يحقِّق تقدمًا. ففي يوم من الأيام سيكون التعليم في الجزيرة العربية على ما هو عليه الآن في أمريكا.» وتبِع بناءَ المدارس بناءُ المستشفيات، وجيء بطبيب بدوام كامل من بالتيمور، هو بول هاريسون. ويذكر هاريسون فيما بعدُ أن «كلَّ ما يمكن للمبشِّر أن يقوم به هو منحُ أي مهتم صورة للحياة المسيحية وفرصة لاتباع هذا الدِّين». وكان عدم تعميد واحد من هؤلاء المرضى يمثِّل بلا شك تحديًا لإيمان هاريسون وزويمر — لكنه لم يتمكَّن من كسره تمامًا.

كان اللقب الذي أُطلق على صامويل زويمر تقديرًا له هو «الرسول إلى الإسلام»، لكنه قام أيضًا بدور تقليدي آخرَ للمبشِّرين، هو تعريف الشرق الأوسط إلى الأمريكيِّين. وقد ألَّف عشراتٍ من الكتب عن العالم الإسلامي؛ أعرافه ومنظوره ومعتقداته. وعند عودته من الجزيرة العربية دَرَّس في جامعة برينستون، وساعد على تأسيس قسم دراسات الشرق الأدنى بها. ودرست أجيال كاملة من الطلبة هناك، كان كثيرون منهم أبناء وبنات

المبشِّرين، وكانوا يتخرجون فيها ليصبحوا من المهتمين بشئون الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الأمريكية، وتنفيذيِّين في شركاتٍ أمريكية تعمل في منطقة الشرق الأوسط. وقد علَّق أحد الممولين المشاهير لتلك الإرساليات قائلًا: «المؤسسات الأمريكية الدينية الخيرية في الشرق الأدنى تميل إلى مزجِ الخدمات الدينية والتعليمية والطبية مع استثمارات الأعمال.»[10] وقد تذكَّر القادة العرب تلك الخدمات في بدايات القرن التالي، عندما وجبَ عليهم الاختيار بين شركات البترول الأمريكية والبريطانية.

ومع أنَّ مهمة زويمر كان هدفُها تبشيريًّا في البداية، إلا كان لها آثار هائلة على المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للولايات المتحدة. فالمجهودات المتواضعة لنشر المعتقدات الدينية الأمريكية في شبه الجزيرة العربية أنتجت في النهاية نفوذًا أمريكيًّا كبيرًا في المنطقة.

جنود الحملة الصليبية الأمريكية

أصبح الجمع والمزج بين الإيمان والسلطة في علاقة أمريكا بالشرق الأوسط يزداد وضوحًا قُرب نهاية القرن التاسع عشر. فكثيرًا ما كان القادة الأمريكيون المؤيدون للاستعمار يرفعون واجهةَ الدِّين لتبرير سياساتهم، في حين كان رجال الدِّين البارزون يمجِّدون الاستعمار باعتباره سلاحًا في الحرب من أجل خلاص العالم. فصرَّح جوسياه سترونج، القس الأبرشي ذو المذهب الدارويني الاجتماعي المتطرف: «ستصبح أمريكا يدَ الله اليمنى في معركته ضد جهل العالم واضطهاده وذنوبه. بلدنا هذا ... يجب أن يتولَّى زمامَ القيادة في الصراعات النهائية للمسيحية من أجل الاستحواذ على العالم.» وفي حملة صليبية مشتركة تعاون المبشِّرون والجنود ورجال الدولة بلا حدود بعضهم مع بعض، ليس فقط في شبه الجزيرة العربية، بل في شتى أنحاء الشرق الأوسط.

هذا المزيج من السياسة الخارجية والحماسة الدينية كان واضحًا في فارس بصورة خاصة. فالمبشِّرون الأمريكيون كانوا نشطين منذ زمن طويل في أورميا وهمدان وتبريز، ولكن تلك المناطق لم تكن لها جاذبية خاصة لوزارة الخارجية. ولم تكن الاتفاقية الاقتصادية الموقَّعة بين الولايات المتحدة وفارس عام ١٨٥٦ قد فُعِّلت بعدُ، ولم تكن الدولتان قد تبادلتا السفراء قط. وتغيَّر هذا الوضع عام ١٨٨٣، عندما ناشد حكام دولة قاجار الفارسية واشنطن أن تساعدهم في مقاومة المحاولات الروسية والبريطانية للسيطرة على

البلاد. واستجابت إدارة تشستر آرثر إيجابيًّا، ليس تعاطفًا مع فارس، بل خوفٌ على سلامة المبشِّرين في فترة الاضطرابات الداخلية والدولية.

وكان رئيسُ أول بعثة رسمية أمريكية إلى فارس ابنًا لمبشِّرين، وهو صامويل جرين ويلر بنجامين، كان رسامًا ومؤرخًا فنيًّا في السادسة والأربعين من عمره. وعند اقترابه من طهران، حيَّته — كما كُتب — حاشيةٌ ملكية تضمَّنت ستة محافظين وألفَ فارس واقفين «يرتدون أرقى الأزياء الأوروبية … وبها بعض لمسات الفخامة الشرقية». وبعين الفنان لاحظ ويلر تفاصيلَ الديكور والزي الفارسي، خاصة زيَّ الشاه ناصر الدين، الذي كانت أزرار معطفه مصنوعة من الماس «الذي تصل حجم الواحدة منه إلى حجم بيضة الحمامة». ولأنه كان دبلوماسيًّا متمكنًا، فقد عدَّد هذا المبعوث قائمةَ المنتجات: «الحديد والفحم والنحاس والكبريت … والقمح والذرة وقصب السُّكر والتبغ والأرز والفواكه … الاستوائية وشبه الاستوائية» التي اقترحت فارس تبادلها مع الولايات المتحدة، مقابل أسلحة أمريكية متقدمة، خاصةً بنادق جاتلنج. ولكن الولايات المتحدة ظلَّت تسوِّف وتماطِل في الاتفاق. فعدا سلامة وأمان إرساليات التبشير، كانت الولايات المتحدة قد نفضت يدَها من أي مصالح اقتصادية أو استراتيجية في الخليج العربي.[11]

ومع ذلك فقد اضطرَّ الوجودُ المتزايد للإرساليات في الشرق الأوسط والاستعدادُ المتنامي أيضًا للمبشِّرين للتمرُّد على السلطات المسلمة، اضطرَّا الولايات المتحدة إلى تبني سياسةٍ قائمة على القوة تجاه المنطقة. وكانت وفاة هوارد باسكرفيل (٢٤ عامًا)، وهو مبشِّر قُتل دفاعًا عن مزارعين متمردين في تبريز، هي الشرارةَ التي ولَّدت اعتراضات دبلوماسية عنيفة من واشنطن. ولم يقتصر هذا الاتجاه على فارس. ففي تركيا أيضًا نبذت الولايات المتحدة السياسةَ التي أسَّسها ديفيد بورتر في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، التي كانت تقضي بمنع الحماية عن المبشِّرين الذين يستثيرون ويستفزون الحكام المحليِّين. فكتب الكابتن تشارلز سبيري في فبراير عام ١٨٨٥، عندما كان في زورقه يستعرض قواته على سواحل الأناضول: «هؤلاء الأتراك متهمون بأنهم قاموا بشيٍّ … أحد المبشِّرين على النار … في مطبخه، ومن المفترض أن نبحث نحن عن … إرضاء السلطان.» وكان الفصل بين الدِّين والدولة الذي يُتَّبع بحرص شديد في أمريكا، ينهار يومًا بعد يوم فيما يخص علاقة أمريكا بالشرق الأوسط. ورافق الكابتن سبيري السفير ليو والاس في جولة للمزارات المسيحية في شرق البحر المتوسط. ولاحظ سبيري أن «حج» والاس على حساب الدولة تمامًا.

كان البَوْن بين الأنشطة الدينية والحكومية في الشرق الأوسط يقل أكثرَ وأكثر بسبب ظهور عائلاتٍ تبشيرية قادرة على القيام بتأثير بعيد المدى على علاقات أمريكا الخارجية. وكان أبناء المبشِّرين الأصليِّين الذين جاءوا إلى المنطقة — آل بليس وآل بيرد وآل دودج وآل دوايت — يهيمنون على مؤسَّساتها الثقافية الرئيسية. وكانت لهم علاقات وثيقة بجامعاتٍ أمريكية رائدة، أهمها برينستون، وبعائلات أمريكية عريقة راقية، مثل آل روكفلر ومورجان وروزفلت. وكان المؤيدون الرئيسيون لمجهودات التبشير يعملون في الدوائر الاجتماعية نفسها التي تُوجَد فيها النخبة السياسية، ويرسلون أولادَهم إلى المدارس نفسِها ويتحالفون معهم بالمصاهرة. وعن طريق اتصالاتهم الشخصية مع متَّخذي القرار، تمكَّن المبشِّرون ومؤيدوهم من وضع البروتستانتية والدعوة إليها على رأس أولويات أمريكا في الخارج، خاصةً في الشرق الأوسط. وقال أحد القناصل في المنطقة إن تسعة أعشار وقته على الأقل كان موجهًا للتعامل مع الإرساليات وهمومها المتعددة. وقال: «حتى وزير الخارجية كان يرتجف عندما يدخل عليه رئيس إحدى جمعيات الإنجيل.»[12]

وكان الأمريكيون يحتفلون بقوةِ وسلطةِ ونفوذِ إرسالياتهم في الشرق الأوسط، ولكن هذه البهجة والفرحة لم يشاركهم فيها حكامُ المنطقة. فقد ازدادت شكوى العثمانيِّين من صفاقة البروتستانت، ومن وجود السفن الحربية الأمريكية على سواحلها. ثم وصل التوتر بين الولايات المتحدة والباب العالي إلى ذروته بدءًا من تسعينيات القرن التاسع عشر بسبب الإبادة الجماعية للأرمن.

كان الأرمن من سلالة شعب قديم عاش في المنطقة بين البحر الأسود وبحر قزوين، وبين جبال طوروس وجبال القوقاز، وقد تحوَّلوا إلى المسيحية منذ وقت مبكر، وكانوا رسميًّا تحت الحماية العثمانية، لكنهم كثيرًا ما كان يُضطهَدون كونهم أقليةً تحت الحكم العثماني. وبسبب مستوى تعليمهم العالي ونجاحهم العملي، كانوا فئةً منبوذة من المجتمع، وكان الأتراك يشكُّون في أن ولاءهم يتجه إلى القوى المسيحية، وإلى روسيا بصورة خاصة، وكانوا يتآمرون جميعًا لتفكيك الإمبراطورية العثمانية. واندلعت تراكمات الاضطهاد العثماني والغضب الأرمني أخيرًا في ربيع عام ١٨٩٤، عندما تحركت الجيوش التركية لقمعِ تمرُّد محلي، ولكنها استمرت في هدم قرًى بأكملها وذبحِ كل سكانها. وقال تقرير القنصل الأمريكي في تريزيبوند: «قُتل أي أرمني على مرمى البصر، وسُرقت منازلهم ومتاجرهم. وكانت الجثث ملقاةً في الشوارع، وكلها تشهد بطريقةِ موتها المريعة.» وقد

مات نتيجةَ ذلك ٢٠٠٠٠٠ أرمني، وهو ما يعادل ٢٠٪ من السكان ودُمِّر عدد لا يُحصى من المنازل.

وقال العنوان الرئيسي لجريدة «نيويورك تايمز» في سبتمبر عام ١٨٩٥: «هولوكوست أرمني»؛ أي مذبحة أرمنية، مستخدمةً بذلك مصطلحًا أصبح فيما بعدُ مرادفًا للإبادة العِرقية. وقد أجمعت الصحافة الأمريكية على الدعوة إلى تدخُّل سريع لحماية الأرمن و«التخلص من بقعة الغليان هذه في الدولة العثمانية، إن لم يكن بالحل السياسي فباللجوء إلى السلاح». وتبنَّى رجال الدِّين موقفًا موحدًا من قضية الأرمن، مع أن معظمهم كانوا يتبعون الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. وقالت مجلة «العالم الكاثوليكي»: «لن تمحوَ كل العطور العربية أو تغسل اليد التركية بحيث تجعلنا نحتمل أكثرَ من ذلك قيادتهم زمامَ الأمور في شبر واحد من الأرض المسيحية»، في حين دعا القس دي ويت تالماج «السفن الحربية للقوى الغربية إلى الاقتراب إلى أقرب نقطة ممكنة من قصور القسطنطينية، وتفجير هذه الحكومة الملعونة إلى جزيئات مفتَّتة». وكان الغضب العالمي يوازي غضبَ الحزبين الأمريكيِّين في مجلس النواب؛ فقد طالب نيوتن بلانشارد، النائب الديمقراطي عن لويزيانا، بتدخُّل أمريكي لمحو «هذه البقعة من حضارة هذا العصر». أما زميله النائب الجمهوري عن إلينوي شيلبي كولوم، فقد أعلن أن «شيطان الكراهية والتعصب الملعون قد نشر الخراب والدمار والموت». وفي حملته الرئاسية لعام ١٨٩٦، عدَّ ويليام ماكينلي حمايةَ الأرمن، والاستحواذ على هاواي، وضمان استقلال كوبا عن إسبانيا، ضمن أولويات شئونه الخارجية.[13]

كان ردُّ الفعل الأمريكي على المذابح الأرمنية — التي كانت الأولى ضمن سلسلة من أعمال العنف التي سرعان ما انتشرت في الشرق الأوسط — له عدة مبرِّرات. فقد كان هناك نفورٌ كامن استشعره الأمريكيون نحو الإسلام، وتعاطف كامن بنفس الدرجة مع المسيحيين المضطهَدين تحت الحكم الإسلامي. وكان الرأي العام في أمريكا يميل أيضًا إلى التعاطف مع الأرمن، الذين عُرف عنهم العمل الجاد والقيم العائلية، وكان يميل إلى النظر إليهم باعتبارهم «أمريكيي الشرق». وأخيرًا، ارتبط الأرمن في ذهن الأمريكيِّين بمدارس الإرساليات التي تخرَّج فيها الكثيرون منهم، والتي كان يُنظر إليها باعتبارها امتدادًا للولايات المتحدة. وكانت بعض هذه المؤسسات قد أُضيرت للغاية خلال المذابح، مما دفع إلى مطالباتٍ بتعويضات ليس فقط للأرمن، بل بنفس القدْر للبروتستانت العاملين فى البلاد.

وصرَّح الخبير البروتستانتي فردريك ديفيز جرين في دراسته الشهيرة بعنوان «المذابح الأرمنية» أو «سيف محمد» أن «سياسة حكومة الولايات المتحدة تجاه هذه الأزمة العالمية لم تفرِز أيَّ نتائج فيما يتعلَّق بقضايا الإنسانية، وهو أمر مخزٍ من وجهة نظر الشرف القومي، ويُعدُّ أمرًا انتحاريًّا فيما يتعلق بالمصالح الأمريكية». ولعلاج ذلك الفشل، استغل المبشِّرون علاقتهم الجيدة بمجلس النواب الأمريكي وبالرئيس ماكنلي. فقدَّم رئيس كلية روبرت، جورج وشبورن، طلبًا لوزير الخارجية وابن عمِّه، جون هاي، بضرورة مواجهة الأتراك مواجهةً صريحة. في نفس الوقت كان جيمس أنجيل، وهو أبرشاني متزمِّت، عمِل سفيرًا لأمريكا لدى الباب العالي، يحثُّ المجلس التشريعي على الموافقة على اتخاذ خطوات عسكرية ضد تركيا. وأصرَّ على إرسال أسطول من الزوارق الحربية فورًا «لرج نوافذ السلطان».

وأثبتت ضغوط وشبورن وأنجيل قدرتَها على الإقناع؛ ففي ديسمبر عام ١٩٠٠ اتَّجهت السفينة «كنتاكي» نحو تركيا. وبعد مائة عام تمامًا من تأكيد السفينة «جورج واشنطن» عدمَ فعالية أمريكا في الشرق الأوسط من خلال توصيل الإتاوة الجزائرية لتركيا، وصلت السفينة الحديثة «كنتاكي» إلى سميرنا، تحمل أكثرَ من خمسين مدفعًا. وكان ريد بيل كيركلاند، قبطانُ السفينة ذو الوجه الأحمر، قد حذَّر والي سميرنا صراحةً أنه «إذا استمرت تلك المذابح فسأكون ملعونًا إن لم أنسَ التعليمات الموجهة إليَّ (بضبط النفس) ... وأجد ذريعةً لتدمير بعض المدن التركية، وسأقتل أيَّ تركي أقابله». ومع أن المترجم حاول تهدئةَ نبرة الخطاب، ووصل الرسالةَ بابتسامة، فإن رسالة كيركلاند كانت قد وصلت. فدفع السلطان ٨٣٠٠٠ دولار تعويضًا للمبشِّرين، وأصدر أمرًا بشراء مدمِّرة أمريكية.[14]

ومع ذلك فلم تكن العضلات هي الوسيلةَ الوحيدة التي لجأ إليها الأمريكيون للتعبير عن قلقهم واهتمامهم بشأن أرمينيا. فما إنْ وصلت أخبار المذابح إلى أمريكا الشمالية إلا وكانت جمعيات مساندة الضحايا تتكوَّن في كل مدينة رئيسية. ففي بوسطن، أثبتت جوليا وارد هاو، التي كان زوجها قد تطوَّع للقتال في حرب الاستقلال اليونانية عام ١٨٢٥، الذي اشتهر بصفته مؤلفًا للنشيد المفضَّل لدى قوات الاتحاد، أثبتَت قدرتها على جمْع التبرعات التي نظَّمتها جمعية أصدقاء أرمينيا المتحدين. أما الغرفة التجارية في نيويورك فكوَّنت لجنة أرمينيا الوطنية للإغاثة، وهي نخبة كان مساندوها يضمون قاضي المحكمة العليا ديفيد جوسياه برور، ورجل الخير الأمريكي اليهودي جيكوب شيف، ومنفِّذ السكك الحديدية تشوسني ديبيو. وأسهم جون روكفلر بمئات الآلاف من الدولارات لهذا المجهود،

في حين تبرَّع آخرون ممن لا يملكون المال الكافي بأغطيةٍ وملاءات وملابس وأغذية. وكانت النساء الأمريكيات نشطاتٍ بصورة خاصة في هذا المجال، تدفعهن تقاريرُ عن اغتصاب آلاف الفتيات الأرمنيات واستعبادهن.

وتدفَّقت المساهمات، ولكن ظلَّت المشكلة هي كيفية توصيلها إلى الضحايا. ولإيجاد حل لتلك المشكلة، لم تتوجَّه لجنة الإغاثة إلى وزارة الخارجية أو إلى الإرساليات ولا حتى إلى البحرية الأمريكية. بل توجَّهت إلى سيدة في الرابعة والسبعين من عمرها، كانت من أكثر السيدات تميزًا في عصرها؛ إنها كلارا بارتون.

وُلدت كلارا بارتون في يوم عيد الميلاد في فترةِ رئاسة جيمس مونرو، وتربَّت في مزرعة بماساتشوستس، لكنها فيما بعدُ عمِلت مدرِّسة في واشنطن. وفي الحرب الأهلية عمِلت في وظيفة أخرى، فكانت تعتني بالجرحى الاتحاديِّين وتشرف على وصول الإمدادات وتوزيع المؤن بين القوات، وعن طريق ذلك حصلت بارتون على وضعٍ أسطوري، وأُطلق عليها «ملاك ساحة المعركة». وبعد الحرب، قامت صداقةٌ بينها وبين فريدريك دوجلاس وسوزان أنتوني، وتعاونت معهما في صراعهما من أجل المساواة بين السود والبِيض وتحسين وضع المرأة وتقليل معاناتها، وتطوَّعت في هيئة الصليب الأحمر الأوروبية الحديثة التكوين. وعادت إلى الولايات المتحدة وكلُّها إصرار على تأسيس فرع وطني لتلك الهيئة، وحقَّقت حُلمها في عام ١٨٨١ بتأسيس الصليب الأحمر الأمريكي.

بعد ذلك بخمسة عشر عامًا كانت كلارا قد تعدَّت سنَّ التقاعد بكثير، فأصبحت امرأة حكيمة ضئيلة الحجم، وكانت ابتسامتها الدائمة تجعل خدودها دائمة البروز. وكثيرًا ما كانت هذه الابتسامة حمايتها الوحيدة عندما كانت تواجه إرهاب البيروقراطية العثمانية. فقد رُفض طلبها بوضع رمز الصليب، فكان عليها أن تعرِض حملتها بوصفها مبادرة خاصة لمساعدة كل رعايا الدولة العثمانية، بصرف النظر عن ملَّتهم. وتمكَّنت من إدارة شئونها من إسطنبول تحت رقابة الجيش. ووعدت وزيرَ الخارجية العثماني بـ «لن أقدِّم استشارة ولا نصيحة، ولن أسمح بأي تحرُّك خفي أو سري ضد حكومته. أتوقَّع معاملة بالمثل».

ونجحت بارتون في الحصول على تعاون السلطات التام وفي توجيه سلسلة من البعثات المحمَّلة بالأغذية والأدوية إلى عمق المناطق الأرمنية. ومع أن أعضاء اللجنة الوطنية الأرمينية للإغاثة أظهروا استياءهم من حصول بارتون وحدَها على كل التقدير والثناء، واعترض بعضُ الأمريكيِّين أيضًا على المساعدات التي كانت تقدِّمها للأقليات

التركية المضطهَدة في مناطقها، فإنها كوَّنت سُمعة رائعة باعتبارها «أكثر أمثلة الرحمة التي عرفها العالم الحديث كمالًا». وقامت الدولة العثمانية أيضًا بتكريمها بقلادة.

وظلت مساعدات أمريكا للأرمن مجهودًا تعاونيًّا لأعضاء كل الملل والأحزاب، في سابقةٍ لا مثيل لها، جمعت كلَّ الموارد الدينية والسياسية. وقد كانت تمثل استمرار عقود من العناية الأمريكية بأقليات الشرق الأوسط المضطهَدة، ومنها اليهود والبهائيون والمسيحيون الأرثوذكس. وفي حين آمنَ كثير من الأمريكيِّين أن قدرَهم هو السيطرة على قطاعات كبيرة من العالم، أصروا أيضًا على إنقاذ العالم من الاضطهاد والقمع. وأثنى القس سترونج على أمريكا باعتبارها «ممثلة لأكبر الحريات وأنقى أشكال المسيحية وأرقى الحضارات، التي كان قدرها أن تطبع مؤسساتها على الإنسانية جمعاء». وعلى العكس من ذلك أقسمت بارتون «أن تخرق ديكتاتورية الإبقاء على الوضع الحالي» عن طريق تحرير الشعوب المستعبَدة والتخفيف من معاناتها. كانت تفاعلات أمريكا مع الشرق الأوسط تتأرجح بين تلك الدوافع المختلفة — الاستعمارية والإنسانية — أي بين التابعين لمنهج سترونج العسكري والتابعين لمنهج كلارا بارتون الإنساني، وليس هذا في التسعينيات من القرن التاسع عشر فقط، بل على امتداد العقود التالية.[15]

ويبدو أن هذه العلاقة الديناميكية بين القوة والإقناع في علاقة أمريكا بالمنطقة لم تترك مجالًا لعنصر الخيال. ومع ذلك، فالحقيقة هي أن النزعات الرومانسية استمرت في تلوين نظرة الأمريكيِّين ورؤيتهم للمنطقة، وفي توجيه سلوكهم تجاهها. وبالفعل، كلما كانت نهاية القرن تقترب، كانت الأساطير حول حسية الشرق وعناصر الإثارة فيه تظهر أكثرَ وأكثر في أذهان كثير من الأمريكيين. ولم تدعم هذه الأوهام وتقوى عن طريق قراءة الروايات والمذكرات عن الشرق الأوسط، أو حتى بالسفر والتَّرحال إليه، بل عن طريق زيارة وحيدة لقلب أمريكا في وسط الغرب.

الفصل الخامس عشر

الأساطير الإمبراطورية

كان بإمكان شخصين حديثي الزواج من ستوكتون بكاليفورنيا أو معلِّمة متقاعدة من باترسون بنيوجرسي أثناء زيارتهم شيكاجو في صيف عام ١٨٩٣ مشاهدة أروع مشاهد الأبَّهة والفخامة التي تضاهي ما عُرض في أي زمان على الأمريكيِّين في قارتهم. فعلى امتداد ستة أفدنة مملوءة بالحدائق اليابانية والممرات المائية المحاطة بالأزهار والمطاعم التي تستوعب سبعة آلاف شخص استضاف معرض كولومبيا العالمي ٦٥ ألف عرض. وقد ذكرت مجلة «سينشري» أن أرض المعارض «توهَّجت بحيوية الأفراد الذين مرَّروا شعلة الحضارة عبر المحيط وكان تأثيرهم العاطفي والرومانسي واضحًا على العالم أجمع.»

ومع أن المعرض في ظاهره كان قد أقيم لإحياء الذكرى الأربعمائة لاكتشاف كولومبس للعالم الجديد، إلا أن المعرض كان يحتفل ضمنيًّا بتحوُّل أمريكا من مجتمع زراعي بصورة رئيسية إلى قوة صناعية لها شأنها، كما كان يهدُف أيضًا إلى الترويح عن عدد كبير من العمال ليصرف نظرهم عما أصابهم من جراء ذلك التحول. وكان مخطِّطو المعرض يسعون إلى إضفاء إحساس بقدْر مشترك من الفخر لكل الأمريكيِّين لتبوُّء بلادهم تلك المكانة العالمية. وتلهَّف الأمريكيون على الاحتفال والتسلية والإثارة حيث حضروا زَرافاتٍ ووُحْدانًا إلى شيكاجو، ليس فقط من كاليفورنيا ونيو جرسي، بل أيضًا من ٤٣ ولاية ومقاطعة، ووصل مجموع الحضور ٢٧٫٥ مليونًا.

وكان من بين الحضور الزوجان من ستوكتون والمدرِّسة المتقاعدة من باترسون، قدِموا وهم يركبون القطار مثلهم مثل معظم الزائرين، واتجهوا جميعًا شرقًا نحو «المدينة البيضاء» بقاعاتها للفنون الجميلة ومبانيها المائتين، التي كان لا يفوق أطولها سوى عجلة المهندس جورج فيريس التي وصل ارتفاعها إلى ٢٦٤ قدمًا. ومن هناك كان بإمكانهم التجوُّل في سرادقات خُصِّصت لاستعراض التقدُّم في مجالات النقل والتصنيع والكهرباء،

في حين عَرضت سرادقات أخرى ثقافات ٢٣ دولة أجنبية وإنجازات السيدات الأمريكيات. وكان الشعور بالنشوة يسري في أجسامهم عند رؤية خريطة الولايات المتحدة المصنوعة بالكامل من المخللات أو لرؤية تمثال فارس نُحت بإبداع من البرقوق.[1] وكان بإمكانهم اختلاسُ النظر إلى الصور المتحركة عن طريق الآلة العصرية للصور التلفزيونية التي استحدثها توماس إديسون، والإحساس بالتضاؤل أمام أكبر مدفع في العالم وهو المدفع الذي صنعه كروب ويزن ربع مليون رطل. وبين أن يحدِّقوا، وهم فاغرو الأفواه، في أحدث الاختراعات «الإنسانية» في مجال عقوبة الإعدام؛ أي الكرسي الكهربائي. وكان في حالة استرخاء على ضفاف بحيرة تحفها أشجار الصفصاف أو فوق المنطقة الفسيحة ذات الأعمدة الكلاسيكية المطلَّة على بحيرة ميشيجان، وهم يتناولون وجباتٍ أمريكية خفيفة: بسكويتًا ناشفًا وقِطعًا صغيرة من بسكويت القمح، والهمبورجر والحلوى. ولاحقًا، بعد غروب الشمس، كانوا يحملقون مذهولين؛ حيث أضاء نحو ٢٠٠ ألف مصباح متوهج، تعمل بـ ١٢٧ محركًا.

وبدلًا من التوجُّه إلى أرض المعارض، كان بمقدور السائحين التوجُّه شمالًا إلى منتزهٍ ممتد يُدعى «ميدواي بليزانس». وهنا، أشكالٌ من الترفيه العادي بانتظارهم مثل الألعاب الكرنفالية والعروض الغريبة وعروض «وايلد ويست» التي يشارك فيها بافلو بيل كودي، ومحترفة الرماية آن أوكلي، وأكثر من مائتي فارس أمريكي وهندي. وعلى طول «ميدواي»، يوجد أكثر عنصر جذب على الإطلاق. فبتجاوز جولات المناطيد، وعمليات إعادة إنتاج باسيليكا وبلارني كاسل لسانت بيتر، بتجاهل المرشدين والباعة الجائلين، قد يدخل مواطنو كاليفورنيا ونيوجيرسي — وسط شيكاجو — الشرق الأوسط.

هوراشيو من الجزائر

تذكَّر عددٌ من الأمريكيِّين عام ١٨٩٣ بكثير من البهجة والسرور السرادقاتِ المغربية والمصرية في المعرض المئوي بفيلادلفيا قبل ذلك بستة عشر عامًا. وكان كثيرون منهم يرحِّبون بفرصة مشاهدتهما مرة أخرى، وإعادة هذه التجربة المليئة بغموض الشرق. ولكن فيما يخص سول بلوم، الذي كان طفلًا صغيرًا عام ١٨٧٦، لم تنبُع فكرة إحضار الشرق الأوسط إلى أمريكا من معرض فيلادلفيا، بل من جريدة جزائرية تصدر في باريس.

كان أصغرَ ابن من بين ستة أبناء ليهوديَّين أرثوذكسيَّين مهاجرَين من بولندا، وقد ترعرع بلوم في سان فرانسيسكو، لكنه لم يتلقَّ أي تعليم رسمي. وفي سن السابعة بدأ

العمل في مصنع للفُرش، لكنه سرعان ما تحول إلى أعمال أخرى، منها الدعاية والإعلان، والعقارات ثم أكثرها إثراء، وهو المسرح. وببلوغه التاسعة عشرة كان قد أصبح رجلًا ثريًّا، فقرر أن يقوم بجولة في أوروبا، وكانت تلك إجازته الأولى منذ بدأ العمل. فزار العاصمة الفرنسية عام ١٨٨٩، وتجوَّل فاغر الفم في المعرض الدولي بها، وكان أكبر المعارض التي أُقيمت على الإطلاق، وبه عروض لعجائب تقنية وطبيعية، ولكن أكثرها تأثيرًا كانت تلك العجائب المفترَض أنها مستوردة من الشرق الأوسط. فقد قلَّد المهندسون الفرنسيون شوارعَ القاهرة تقليدًا دقيقًا — حتى إن المباني دُهنت لتبدوَ قذرة كما هي في الواقع — إضافةً إلى قرية جزائرية شوارعها ضيقة ومتعرِّجة. وامتلأ بلوم إعجابًا. وبعد مرور ستين عامًا قال متذكرًا: «لقد أدركت أن شابًّا طويلًا نحيفًا من العرب ذا موهبة في ابتلاع السيوف عبَّر عن ثقافةٍ كانت عندي أعلى مرتبةً من العُروض التي تقوم بها مجموعة من المزارعين السويسريِّين الجادين، الذين يقضون يومهم في صناعة الجبن والشوكولاتة بالحليب. فالصلابة الروحية للعرض فاقت بكثير قوةَ الإثارة العاطفية التي يبثُّها نسيج من الكنفاه من مرحلةٍ ما قبل عصر النهضة.»

وكانت هذه التجربة بمنزلة فرصة، ليس فقط لذهن بلوم، بل أيضًا لحسِّه التجاري. فقال: «كنت أعلم أنه لم يُرَ شيء مثل هؤلاء الراقصين ولاعبي الأكروبات وآكلي الزجاج وبالعي العقارب في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وكنت واثقًا بأنه يمكنني أن أحقِّق ثروة بهم ومعهم في الولايات المتحدة.» كان بلوم قصيرَ القامة (خمسة أقدام وست بوصات فقط)، ولم يكن بلوم ضخمَ الجثة، وكانت ابتسامته الواسعة وأنفه الكبير الحجم يبدوان وكأنهما يضغطان على عينيه الضيقتين، كان شخصية مجهولة لدى الفرنسيِّين ويجهل اللغةَ الفرنسية تمامًا؛ لذلك بدا وكأنه لا يمكن أن يحقِّق نجاحًا في باريس في نهاية القرن. ومع ذلك فقد كانت نفس قوة الإقناع التي جعلت منه رجلًا ثريًّا في أمريكا هي التي مكَّنته من احتكار عرض القرية الجزائرية مدةَ سنتين مقابل ألف دولار. وكان هذا العَقد يمنحه حقَّ القيام بجولة عالمية، ولكن بلوم لم تكن لديه النية لاستغلال تلك النقطة. إذ قال: «بقية العالم عليه أن ينتظر حتى آتي بالقرية الجزائرية إلى أمريكا.»

ولكنَّ محاولة حثِّ الفرنسيِّين على نبذِ اتفاقهم مع الجزائريِّين أثبتت أنها أقلُّ صعوبةً لبلوم من إقناع رؤساء معرض شيكاجو الأجلَّاء باستضافتهم. فقد كان منظمو المعرض ينظرون إلى «ميدواي بلايزنس» باعتبارها منتزهًا ثقافيًّا، وليس مقرًّا لإقامة المهرجانات. لذلك منحوا حقَّ تطويره لعالِم في الأعراق البشرية من جامعة هارفارد. ويتذكَّر بلوم:

«كان اختيار هذا السيد الشقي ... لمنصب إقامة الحفلات والتسلية، يشبه اختيارَ ألبرت أينشتاين مديرًا لسيرك بارنوم وبيلي.» ومع ذلك، فبعد تعيينه مديرًا للمنطقة الترفيهية بالمعرض، كان بلوم يحاول إقناعَ المشرفين أن القرية يمكن أن تُدِرَّ ربحًا وتكون تثقيفية في آنٍ واحد. واستطرد في اقتراحه ألا يقام عرضٌ للجزائريِّين وحدَهم، بل للمصريِّين والمغاربة والتوانسة والسودانيِّين والأتراك أيضًا. كانت ستُعرض جميعها في عرضٍ يُطلَق عليه اسم «العالَم المحمدي» ويكون موقعه وسطَ ميدواي، على مسافة قصيرة من عجلة فيريس.[2]

وعلى مدى ثمانين عامًا، بدءًا من تعيين موردخاي نوح قنصلًا لأمريكا في تونس وإدوين دي ليون في مصر، ومرورًا بتعيين أوسكار ستراوس وسولومون هيرش سفيرَين لدى الباب العالي، كانت الولايات المتحدة تنظر إلى مواطنيها اليهود باعتبارهم جسرًا طبيعيًّا إلى الشرق الأوسط. والآن، ومع أن دافعه الوحيد كان تجاريًّا، فإن أمريكيًّا يهوديًّا آخرَ كان يؤدي هذا الغرض ويلعب هذا الدور من جديد. وعلى عكس أبناء دينه العاملين بالخارج، لم يكن لبلوم أيُّ اهتمام باستعراض قوة بلاده في الشرق الأوسط، أو بتأمين ممثِّلي العقيدة الأمريكية هناك. بل كان هدفه هو إتاحة عجائب وثقافات الشرق الأوسط لعدد كبير من الأمريكيِّين، مما يمكِّنهم من رؤية أحلامهم ولمسها بأيديهم.

الشرق الأوسط في ميدواي

افتُتح المعرض رسميًّا في الأول من مايو عام ١٨٩٣، وسط ترحيب دولي. وألقى كلمةَ الافتتاح جروفر كليفلاند. وكان كثيرٌ من هياكل المعرض وإنشاءاته لم يُستكمل بعدُ، ولكنَّ الجزء الخاص بالشرق الأوسط في ميدواي كان متخَمًا بالزائرين. ففي القرية الجزائرية، قامت عشرات الشابات من ذوات البشَرة الخمرية المرتديات سراويلَ شفافةً لا تخبئ شيئًا، وصديرياتٍ مزركشةً زاهية، يُنزِلن نقابهن أثناء مروره. وقد علَّق «بلوم» فيما بعدُ قائلًا: «أشكُّ كثيرًا في أنَّ أي شيء شبيه بذلك يمكن أن يُرى في الجزائر، لكنني لم أكن مهتمًّا بتلك التفاهات في ذلك الوقت». ولم تكن أيضًا الأعداد الغفيرة من الزوار الأمريكيِّين الذين جاءوا إلى الموقع مبالين. كانوا غير مبالين بالشرق الأوسط الحقيقي؛ لأن اهتمامهم الأساسي كان تأكيد أوهامهم من الخرافات والأساطير الكامنة في أذهانهم حول تلك المنطقة التي كانت تفرخها «ألف ليلة وليلة»، ورسومات إيرفنج وميلفيل وتوين.

وفي معرض ميدواي بشيكاجو دبَّت الحياة فجأة في تلك الأساطير الخرافية. وكان العروسان القادمان من كاليفورنيا والمدرِّسة المتقاعدة القادمة من نيوجيرسي يقتربون من

الحشد ويلمَحون قمم المآذن، والأعلام الحريرية والخيام المتعددة الألوان. ويسمعون القس إيجلستون الفيرجيني، يقول بازدراء وثورة على تلك المشاهد: «دفٌّ صغير ينبعث منه صراخ مخيف (يقال له موسيقى) من فتياتٍ غير أمريكيات.» وسرعان ما كانوا يقابلون مشهدًا مشابهًا للمشهد الأول الذي كان جون ليديارد قد وصفه منذ أكثر مائة عام: شوارع مكتظة بشعوبٍ شرقية ترتدي أزياء مثيرة: عرب وأقباط وأرمن ويهود، وكلهم يثرثرون بألسنة مختلفة. وكان أصحاب المتاجر المرتدون عماماتٍ بيضاء وأحذية مذهبة يبيعون السجاد والسيوف وغيرها من التذكارات «الأصيلة». في حين كانت سيدات لابسات أغطية للرأس يحملن أواني الماء فوق رءوسهن. وكتبت إحدى السائحات مشيرةً إلى نفسها باسم السيدة مارك ستيفنز: «كانت ذكريات قصص الطفولة عن يوسف وإخوته، وابنة فرعون وخادماتها وهن منحنيات على موسى الرضيع تمرُّ أمامنا. وبقليل من الخيال كان حُلمنا عن الشرق يتحقَّق أمام أعيننا.»

وقفت السيدة ستيفنز مشدوهةً منبهرة، ولم يكن لديها أيُّ اهتمام لتقصي عدد الذين جاءوا من الشرق الأوسط بالفعل، وكم عدد الممثلين الذين جيء بهم من جاليات شرق أوسطية في شيكاجو. ولكن جوستاف جوبي، مراسل جريدة «سينشري» لم يكن سهلَ القياد ولا الرضا إلى هذه الدرجة، فأكَّد أنه «في منطقة ميدواي الترفيهية يوجد أكبر مجموعة من الأشياء المزيفة والمقلَّدة في العالم». وقال كوبي إن كل شيء كان مزيفًا وعلى وجه الخصوص تلك الشخصية التي ترتدي ثوبًا خشنًا وتلعب دورَ أعظمِ «صوفي مسلم»، وأنه من دواعي فخري أن ذلك الممثل كان أمريكيًّا.

وكانت بعض العروض تستقدِم بالفعل أفرادًا من الشرق الأوسط؛ فقد جُلب خمسة وستون رجلًا وامرأة وطفلًا من شتى أنحاء المناطق العثمانية لملء السرادق التركي. وكانوا — بالإضافة إلى مجموعةٍ من الأكشاك والمساجد ومنازل صغيرة على الطراز التركي — يساعدون على خلق أجواء شرقية مختلفة تمامًا، ومن خلالها يمكن للأمريكيِّين التجوال فيها والتحديق في السرير الفضي الخاص بالسلطانة، أو مشاهدة عرض «الشرق المتوحش» الذي كان يقدِّمه البدو الذين يرمون الرماح وهم يمتطون الجياد. وكان بإمكانهم التقليب في بضائعَ أكثر من أربعين متجرًا لبيع التذكارات في «البازار الكبير»، أو مشاهدة مسرحية تركية مع ترجمة فورية باللغة الإنجليزية، أو تدخين نارجيلة في المقهى، وهم يحتسون القهوة العربية أو عصير الليمون أو البرتقال.

كان للسرادق التركي، الذي أخرجه يهودي آخرُ هو جوزيف ليفي، شعبيةٌ واسعة. كما كان ذلك أيضًا للقصر البربري بقاعاته ذات المرايات ومتحف الشمع والرعب، والخيمة

الفارسية ونموذج قبائل شمال أفريقيا. أما أكثر الأشياء جاذبيةً وإثارةً من كل ذلك فكان نموذج شوارع القاهرة مثل نموذج مدينة باريس. كان هذا نموذجًا مقلَّدًا بدقة، ليس بيد فرنسي، بل بيد مجريٍّ اسمه ماكس هيرتز؛ المهندس الخاص بالخديوي المصري. كان النموذج يظهِر النوافذ ذات المشربيات، ونافورات المياه، وسوقًا بها ستة أماكن للعرض، وتقليدًا لمسجد قايتباي، وبيت جمال الدين الياهبي، وهو تاجرٌ مصري خيالي. وجيء بمصريين حقيقيِّين لتمثيل نماذج من الحياة اليومية: ١٨٠ شخصًا يرتدون ملابسَ الدراويش وصانعي الخيام والشحاذين وقارئي الطالع. وجرى استيراد حمير وكلاب. وبالطبع جرى استيراد جِمال يمكن ركوبها مقابل خمسين سنتًا. وقال أحد راكبي الجِمال: «كانت هذه رحلة ممتعة للأحبة، ورحلة شاقة على ظهور الجِمال من ممتلئي الجسم والمحتشمين.»

أما مَن لم تكن لديه ميولٌ لمثل هذه المغامرات فقد قدَّم نموذج القاهرة له إلى جانب ما سبق معابدَ مصرية مزيَّنة من العصر الفرعوني، ونسخًا من مقابر قديمة، ومومياوات. وكان التأثير المُجمل لكل ذلك ساحرًا للغاية. فقالت السيدة ستيفنز منبهرةً: «كانت القاهرة رائعةً وهي تسبح في أشعة الشمس الذهبية وقتَ الغروب. أما عندما يظهر القمر ويلقي بضوئه الرمادي ... على مبانيها العتيقة وأناسها الذين يبدو عليهم سَمت الجِد، فقد كان الزائر يشعر أنه زار مصر بالفعل.»[3]

كان «العالَم المحمدي» يعرض أيضًا نوعًا آخر من العروض المثيرة للاستياء، وهو نوع طالما ربطه الرجال الغربيون بالشرق الأوسط. فكانت كلٌّ من شوارع القاهرة والقرية الجزائرية مجهَّزتين بمسارحَ فخمة، كان بالخيمة الفارسية قصرٌ للإثارة، كانت فيه نساء يرتدين ما يسمَّى لباسًا شرقيًّا: تنُّورات شفافة ووسط عارٍ ومجموعة كبيرة من الحُلي. وكن يقدِّمن رقصات الثعابين والشمعدانات على قرع الطبول والمزامير. فكتبت السيدة ستيفنز: «هذا الفن الراقص من بلاد النيل يتضمن شدًّا للعضلات، وهو ما يذكِّرنا بقطة تعاني حالةَ مغص»، وتتذكَّر أيضًا راقصةً أغضبها الجمهور ... فهدَّدته هو والموسيقيِّين كذلك. ولكن حتى نوبات الغضب التي كان يمثِّلها هؤلاء كانت لا تعني شيئًا بجانب عبث وفُجر الراقصات الشرقيات، أو كما كان بلوم يطلِق عليهن «راقصات هزِّ البطن».

ولأن هذه العروض كانت تجذب الرجال بوجه خاص، فقد انفصل الزوج الكاليفورني عن عروسه التي بدَت شبه فاقدة للوعي، وتركها خارج مسرح هذا العرض مع المدرِّسة الساخطة. وبالداخل كان بإمكان الزوج أن يحدِّق في «عينات ونماذج من الجَمال الشرقي»

وهو يتلوى في حركات مثيرة بلا ملابس تقريبًا. وقال أحد المتفرجين بعد مشاهدة «رقصة الحب»، وهي رقصةٌ فردية: «هذه هي العاطفة الحيوانية غير المصقولة للشرق، وليس العاطفة المتعفِّفة للبلدان المسيحية. فكل حركة في جسد الراقصة تمثل شاهدًا على حيوانيتها.» وكان عددٌ قليل من الراقصات هن مَن يضاهين توحُّش فهريد مهزار، سورية المولد، التي أُطلِق عليها مصر الصغيرة، وقد قيل عن رقصتها «الأصيلة» إنها «تحرم الرجل من النوم ليلًا سنواتٍ عديدة». وكان يصاحب هذا العرضَ أغنيةٌ قصيرة يعزف بلوم موسيقاها على البيانو، وقد قلَّدها بعد ذلك ساحرو ثعابين عدة في أفلام الصور المتحركة، وكانت مصر الصغيرة تبهر مشاهديها من الرجال بحركاتها المثيرة. وكما قال أحد المشاهدين لاهثًا:

> هي تتلوى وهي ترقص، وترتسم على وجهها ابتسامةٌ حالمة، أما عيناها فنصف مغمضتين، وتظهر أسنانها البيضاء بين شفتين زادهما فن التجميل احمرارًا وامتلاء ... حركاتها ثعبانية مبتذلة، وهي تهبط إلى أسفل فأسفل حتى تكاد تلمس أرضيةَ المسرح تتلوى، ونصف وجهها مغطًّى بمنديل يد.

ولكن لم يكن كل المشاهدين على نفس هذه الدرجة من الانبهار. فقد طالب أنتوني كومستوك، مؤسِّس «جمعية قمع الرذيلة» السمين ذو الشوارب بأن يصدِر مجلس النواب قرارًا بحرق كتاب «ألف ليلة وليلة» ومئاتٍ غيره من الكتب «الإباحية». وطالب أيضًا بمنع مثل هذه العروض. وندَّدت العجوز جوليا وارد هاو بالرقص الشرقي باعتباره «رقصة فظيعة ومن أكثر الحركات تشويهًا للبطن». ثم انتهت إلى أنه «غير لائق ولا محترم». ومع ذلك فلم تكن الغالبية العظمى من زائري المعرض يبدون أيَّ اعتراض على مصر الصغيرة، بل فضَّلوا أن يلقوا باللوم على منتقديها المتزمتين. وتساءلت جريدة «شيكاجو تريبيون» ساخرة من هاو «عما إذا كانت اعتراضات السيدات الفاضلات بسبب التعدي على الأخلاق أم بسبب خوفهن من أن تصاب الراقصات بالتهاب في الغشاء البريتوني إذا استمررن في القيام بتلك الحركات المتقلصة والملتوية.»[4]

وأثبتت سرادقات الشرق الأوسط أنها من أكثرِ العروض جاذبيةً في المعرض، حتى إنها كانت تبيع بمقدار ٦٠٪ من التذاكر أكثرَ من الفقرة التي تليها نجاحًا، وهي عجلة فيريس. فقد سار نحو ٢٫٥ مليون شخص في شوارع القاهرة، وقال التقرير الرسمي

الأخير إن ٥٠٠٠٠ شخص ركبوا الجِمال. وكانت هذه تجربة ثقافية آمنة للعديد من هؤلاء الزوَّار. فقال نائب نيويورك تشونسي ديبوي: «إن إقامة هذا المعرض منحت زائريه الفرصةَ للاطلاع على أحوال هذه الشعوب البربرية شبه المتحضرة والتعرُّف عليها، من دون المرور بمشكلات ومخاطر ومشاق السفر إلى بلادهم والاتصال المباشر بهم.» وكان «معرض ميدواي نموذجًا لقدس جديدة: ترفع المعنويات وتعالج الروح» لآخرين، مثل السيدة ستيفنز. أما معظم الأمريكيِّين، ومن بينهم المدرِّسة والزوجان، فقد كان لقاؤهم بالشرق الأوسط في شيكاجو ببساطة مبهجًا للغاية. فقال جون هاي، وزير الخارجية الكئيب عادةً، وهو يضحك ضحكة مكتومة: «لقد ضحكنا من قلوبنا، وهذا المعرض يجعل حتى شيكاجو تبدو مملة للغاية.»

لذلك كان لسول بلوم كلُّ الحق في أن يفرح وينتشي. فقال: «كانت الجماهير تتدفَّق، وأصبح لديَّ منجم للذهب.» وبناء على سمعته التي جناها في شيكاجو، انتقل بلوم بعدها بقليل إلى نيويورك، وأصبح نائبًا في مجلس النواب، ولعب عن طريق هذا المنصب دورًا مهمًّا في علاقات أمريكا بالشرق الأوسط. وعندما كان بلوم يعود بذاكرته إلى الوراء كان يندم فقط على أن الرقص الشرقي الذي كان يعتبره «مثالًا للتناغم والانسجام والجمال» قد تدهور فيما بعدُ إلى عرض ساخر، وأسفه الثاني كونه فشل في الاحتفاظ لنفسه بحقوق تأليف ونشر أغنية ساحر الثعابين. وكان يفتقد صحبةَ الجزائري، وهو عملاق أسمر اسمه آرتشي وكان بمنزلة حارسه الشخصي في المعرض.

استمرَّ معرض شيكاجو ستة أشهر فقط، ولكن نموذج بلوم للشرق الأوسط — الذي أطلقت عليه مجلة «سينشري» «عاصمة هارون الرشيد الجديدة» — ظلَّ صداه يتردَّد عقودًا طويلة. وجرى تغيير اسم «رقصة البطن» إلى «هوتشي كوتشي» وزيادة درجة إثارتها، وأصبحت فقرةً ثابتة في العروض المسرحية. وتسبَّبت مصر الصغيرة في كثير من الفضائح الاجتماعية لدى الطبقة الراقية، وإلى ظهور عددٍ من النصَّابين. ورقصت أجيالٌ كاملة من الأمريكيِّين على أنغام «رقصة والتز شوارع القاهرة» وتغنَّت بأغنية «إنها لم ترَ قط شوارعَ القاهرة»، في حين غنَّى الأطفال أغنيةً تقول «سيدات فرنسا لا يرتدين ملابس داخلية»، على نفس النغمة الشرقية التي أعدَّها بلوم. وبتشجيع من نجاح معرض ميدواي أصبحت كلُّ المعارض منذ ذلك التاريخ تتضمَّن سرادقات للشرق الأوسط. وقدَّم سيرك بايلي وبارنوم والإخوة رينجلنج مواكبَ فخمة لها أسماءٌ جذابة مثيرة، مثل: «فارس: أروع عرض شرقي شوهد في أي بلد» و«حجة رومانسية رائعة وشرقية إلى مكة».[5] ومن أجل

استمرار الأوهام الشرق أوسطية كانت تكفي زيارةٌ واحدة لأي من هذه العروض الجذابة التي كانت تنافس بسهولة أيَّ قراءة لكتاب «ألف ليلة وليلة»، مما عمَّق من انطباع تلك الأساطير في خيال الأمريكيِّين.

ربما يكون أهم إنجازات ميدواي هو تكوين الأساطير، ولكنَّ منظمي المعرض لم ينسوا قط هدفَهم الأساسي التعليمي. فبجانب الترفيه قاموا أيضًا برعاية إلقاء حوالي ٦٠٠٠ محاضرة على نطاق واسع من الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والدينية. وشارك فيها معظمُ مشاهير المتحدِّثين والمحاضرين في البلد، منهم القس دي ويت تالماج، وأستاذ شاب من جامعة برينستون هو وودرو ويلسون، الذي تحدَّث عن ضرورة وأهمية الإصلاح الجامعي. وحضَرها أيضًا ويليام بلاكستون، الذي وزَّع مذكرةً لمصلحة إقامة دولة يهودية في فلسطين، بالإضافة إلى أحدثِ مقترحاته لحل النزاعات الدولية عن طريق التحكيم. ودعا مارك توين إلى إلقاء محاضرة عن كتاباته الخيالية، لكنه اضطُر لملازمة الفراش بسبب مرض معوي. ولكنَّ أهم محاضرة في سلسلة المحاضرات تلك كانت محاضرة لا علاقة لها بالتعليم، أو حتى بالخيال أو العقيدة، لكنها كانت تتعلَّق بتوجهات القوة والسلطة الأمريكية.

فقد قال فريدريك جاكسون تيرنر، وهو مؤرِّخ في الثانية والثلاثين من عمره من جامعة هارفارد: «سيكون من الجنون أو التسرُّع أن نؤكد أن السِّمة التوسعية للحياة الأمريكية قد توقَّفت تمامًا.» فالحقيقة أن «الطاقة العصبية التي تؤدي إلى عدم الاستقرار» التي دفعت الأمريكيِّين لغزو حدودهم وما وراءها، و«هذه الخشونة والقوة الممتزجة بالحدة والفضول والرغبة في المعرفة وتعلُّم المزيد» كانت تدفعهم إلى إخضاع مناطقَ أخرى أكبرَ فيما وراء البحار. ومع أن تيرنر كان ضئيل الحجم ويشبه صبيًّا صغيرًا، فإن صوته بدا قويًّا وهو يدعو إلى استعمار مهاجم واضح لا لبس فيه. وكانت هذه الدعوة تسير تمامًا ضد دعوات توين وأعضاء اتحاد منعِ الاستعمار، الذين كانوا يحثون الولايات المتحدة على تمييز نفسِها عن أوروبا الجشعة واتباع سياساتٍ أكثر تنويرًا وإيثارًا. ومع ذلك، فحين كانت البلاد تعبر إلى القرن العشرين وتسعى إلى مدِّ نفوذها في الشرق الأوسط ومناطق أخرى، كان صوت تيرنر، وليس صوت توين، هو المرافق لها. وكان هذا الصوت يقول: «الطاقة والحيوية الأمريكية ستظل تطالب بمساحاتٍ أوسع لممارساتها.»[6]

الفصل السادس عشر

منطقة أُعيدَ تسميتها وتنظيمها

ظهر مصطلح «الشرق الأوسط» أولَ مرة في طبعة سبتمبر عام ١٩٠٢ من مجلة «ناشونال ريفيو» التي تصدُر في لندن، وكان عنوان المقال هو «الخليج العربي في العلاقات الدولية». وكانت المجلة تصدُر في بريطانيا العظمى، ولكن محرِّرها كان مواطنًا أمريكيًّا من الولايات المتحدة. وبصفته ضابطًا شابًّا على السفينة الأمريكية «إروكوا»، أبحر ألفريد ثاير ميهين عام ١٨٦٧ حول شبه الجزيرة العربية وبهرته استراتيجية المنطقة بصفتها ملتقى طرق بين ثلاث قارات. ولقرون طويلة، كان الغربيون يشيرون إلى البلاد التي كانت تحت حكم المسلمين ما بين فاس وكابول وبغداد وبلجراد باسم المشرق. والآن، بانفتاح اليابان والصين على الغرب وتصاعُد الصراعات الاستعمارية في آسيا والمحيط الهادي، ظهرت الحاجة إلى التفرقة بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى من ناحية، وبين الشرق الأدنى وبلغاريا والبلقان ومناطق شبه الجزيرة العربية وفارس والخليج العربي من ناحية أخرى.

لم يلبِّ ميهين فقط تلك الحاجة، لكنه كوَّن أيضًا مفهومًا استراتيجيًّا جديدًا تمامًا. وبدلًا من الوجود على ظهر سفينة، أصبح ميهين يوجد في فصول الدراسة، وأصبح من أعظم المنظِّرين البحريِّين في زمنه. وفي كتابه الكلاسيكي «القوة البحرية والولايات المتحدة» (١٨٩٧)، ركَّز على الصلة بين وضع الدول العظمى والسيطرة على التجارة الدولية عن طريق الأساطيل البحرية الضخمة. وكان ميهين يرى أنه للحفاظ على طرق الاتصال والتجارة بين الشرق والغرب، يجب على تلك القوى أن تحكم «عنق الأراضي التي تربط آسيا بأفريقيا، التي تتضمَّن الجزء الآسيوي من تركيا وفارس ومصر والحوض الشرقي للبحر المتوسط»، وهي المنطقة التي أسماها الشرق الأوسط. وكانت الدولة التي ستنجح في السيطرة على الشرق الأوسط هذا: قناته وسواحله ومحطَّات الفحم به، ستفوز بالسباق من أجل الشرق الأقصى الأبعد والأكثر ربحًا، وعلى ذلك ستسيطر على العالم أجمع.[1]

كانت توصيات ميهين موجَّهة لبريطانيا، التي كانت القوة البحرية المسيطرة في ذلك الحين، لكن كان لها أيضًا مغزًى ومعنى متصاعد للولايات المتحدة. وباقتراب القرن الجديد، كانت أمريكا قد تفوَّقت على أوروبا في استهلاك الطاقة وفي مجموع المخرجات الصناعية، وكانت تتفوق على بريطانيا في التجارة الخارجية. وكان سكانها قد وصل عددهم إلى ٦٤ مليونًا — وكان التالي لعدد سكان روسيا مباشرة — يستخرجون الفحم والحديد والذهب والفضة، ويقطعون الأشجار والخشب أكثرَ من أي دولة أخرى في العالم. وكان إنتاج أمريكا من الصلب أكثرَ من إنتاج بريطانيا وألمانيا مجتمعتين. ولأنه لم يكن لها أيُّ أعداء رئيسيِّين في الخارج، ولأن قادتها كانوا رؤساء يمتلكون سلطاتٍ واسعة في السياسة الخارجية، فقد كان الشعب الأمريكي مهيأً لتحدي أوروبا على الصدارة والأولوية في الشرق الأقصى وفي الشرق الأوسط، الذي كانت حدوده قد وُضِعت حديثًا.[2]

وكانت إحدى علامات النفوذ الأمريكي المتزايد في المنطقة هي التوسُّع الثابت من حيث الحجم والتنوُّع في التجارة. فكانت الولايات المتحدة التي ختمت القرن العشرين باعتبارها أكبرَ مستهلك لبترول الشرق الأوسط هي نفسها الولايات المتحدة التي كانت عام ١٩٠٠ تمدُّ المنطقة بالكثير من البترول والكيروسين. وليس أقل مفارقةً من ذلك أن الدولة التي اشتهرت يومًا ما بتبغها الجيد قد بدأت في استيراد التبغ التركي لأول نوع أمريكي من السجائر، الذي كانت تزيِّن علبته صورةُ جمل. ومع ذلك فقد فاقت الصادرات الأمريكية للشرق الأوسط وارداتها منه بنسبة ١٤:١. لذا قال القنصل البريطاني في إسطنبول، تشارلز ديكنسن في تقرير له: «تدعو صحف … إنجلترا وألمانيا والنمسا إلى الانتباه إلى حقيقة واقعة، هي أن منافسًا تجاريًّا جديدًا وخطيرًا قد دخل الحلبة»، وأضاف أنه من بين البضائع التي كانت متوافرة في الوكالة الأمريكية الشرقية كان هناك «أثاث مكتبي ومنزلي … وأجهزة كهربائية، وآلات من شتى الأنواع، وآلات طباعة … وكلها معروضة بشكل جذاب للغاية».

وفي الوقت الذي فرضت فيه دواعي نمو النشاط التبشيري وجودًا أكبرَ للبحرية الأمريكية في الشرق الأوسط، تطلَّبت التجارة النامية أيضًا حمايةً أكبر من السفن الحربية الأمريكية. وفي حين كانت السفن الحربية مثل «كنتاكي» و«جورج واشنطن» تقوم بزيارات متفرقة للموانئ العثمانية، كانت سفن الرأس الرخامي وسان فرانسيسكو تجوب سواحلَ شرق البحر المتوسط وتقوم بمراقبتها بصفة دورية. وكما لو كانت تنفِّذ تعليمات ميهين، كانت البحرية الأمريكية قد بدأت في تصنيع ١٦ سفينة حربية كوَّنت في النهاية «الأسطول الأبيض العظيم»، الذي كان أولَّ قوة قتالية أمريكية عالمية.

كانت قوة الأسطول الأبيض العظيم ونفوذه في الشرق الأوسط أمرًا تنبأ به جورج برنارد شو، الكاتب المسرحي الأيرلندي البريطاني؛ ففي مسرحيته الكوميدية باسم «تحوُّل الكابتن براسباوند»، التي كتبها عام ١٨٩٩ وتقع أحداثها في المغرب، قدَّم شو شخصية هاملين كيرني، وهو «أمريكي من الغرب ... قوي البنية، تتصارع كل دول العالم القديم في شرايينه». ويطالب كيرني، وهو قبطان بحري، بالإفراج الفوري عن اثنين من الرعايا البريطانيِّين كان يؤمن بأن شيخًا متعصبًا ضد المسيحيِّين قد أخذهما رهينة. ويخبر السلطان بلباقة أنه «ما دام البحث سيكون بالمدافع الرشاشة، فإن العودة الفورية للبريطانيِّين ... ستوفِّر الكثير من المتاعب على كل الأطراف». وينجح هذا التهديد، فيُفْرَج فورًا عن الأسرين. ويختم شو مسرحيته ببعض التأملات في شخصية كيرني: «فالعالم يفكِّر إلى حدٍّ بعيد في مستقبله الذي بين يديه، ويفكِّر بانبهارٍ فيما سيصل إليه في قرن أو اثنين».[3]

ولم يكن على شو أن ينتظر كلَّ هذه المدة ليقابل تجسيدًا واقعيًّا لشخصية القبطان كيرني. ففي سبتمبر عام ١٩٠١ قام فوضوي مسلح وقاتل محترف باغتيال ويليام ماكينلي. وتولى نائبه المشاكس المولع بالقتال منصبَ رئيس الولايات المتحدة من بعده.

رجلٌ لكل المهن

محب للطبيعة. قائد شجاع. صياد ومزارع. مستكشف مقدام. مؤلف ودقيق الملاحظة، وحماسي. كانت كل تلك الصفات مكتوبة على النُّصْب التذكاري لروزفلت في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي بنيويورك. وكانت بالفعل المهن والاهتمامات والإنجازات التي حقَّقها هذا الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة تفوق قدرة استيعاب أي شخص طبيعي، فضلًا عن شخص بدأ حياته مدللًا مريضًا. ومع ذلك فمن الممكن إطالة تلك القائمة لتتضمن تسميةً إضافية، هي: خبير بشئون الشرق الأوسط. ويمكن إرجاع هذه الخبرة إلى نوفمبر عام ١٨٧٢، عندما قام الصبي ذو الأربعة عشر عامًا، المبكِّر النضج — الذي كان يُطلق عليه عندئذٍ تيدي — برحلة مع أسرته إلى مصر وسوريا وفلسطين.

ومثل العديد من المسافرين الأمريكيِّين من قبله، انبهر روزفلت بفكرة الشرق الأوسط. فكتب في مذكِّراته عن أول نظرة ألقاها على الساحل المصري: «كم نظرت إليه! هذه هي مصر، بلد أحلامي ... بلد كان عريقًا عندما كانت روما في بداية نشأتها، وكان عريقًا عندما جرى احتلال طروادة! كان منظرًا يوقظ ألفَ فكرة في الأذهان، وهو ما حدَث

بالفعل.» كان وصف هذا المراهق للإسكندرية يشبه إلى حدٍّ بعيد وصفَ كل الأمريكيِّين الذين زاروا المدينة في القرن التاسع عشر: الفوضى ومواكب الأجناس المختلفة وأزياؤها. وشاهد روزفلت أيضًا «لمحة من الآثار المصرية القديمة التي يعجز أيُّ لسان عن وصفها». فقال: «انتابتني مشاعرُ مختلفة، لكنني لم أقُل شيئًا. فأنت لا تستطيع التعبير عن نفسك في مثل هذه المناسبات.»

وقامت الأسرة بالجولة التقليدية المعتادة على ضفاف النيل، وتقابلت مع رالف والدو إيمرسون وتناولت معه الغداء، وقامت أيضًا بممارسة تقليد أمريكي يقضي بذبحِ ما اصطادوه من النهر. وقام تيدي باصطياد سمكة وحشوها وتحنيطها، وكانت تلك أولَ عينة من مجموعة علمية كبيرة عُرفت قيمتها العالية فيما بعدُ. وظهرت أيضًا قدرته على التفاوض، التي خدمته كثيرًا في حياته الدبلوماسية. فقد أخذ يفاوض البائعين على شراء طيور السمان في السوق. وقال فخورًا: «العرب يتكلمون كثيرًا.» وفيما بعدُ، سار على خطى مارك توين عن طريق عبور سوريا وفلسطين على ظهر حصان. وكما هو متوقَّع من شخص يحضُر مدرسة الأحد بالكنيسة الهولندية الإصلاحية بانتظام، فإن الشاب روزفلت كان متأثرًا إلى حد بعيد بالأماكن المقدسة التي شاهدها، ليس فقط المسيحية منها، ولكن أيضًا بمسجد عمر وحائط المبكى. ولكن — مثل توين أيضًا — وجد روزفلت القدس «مدينة صغيرة للغاية» ونهر الأردن ضيقًا بدرجة مخيِّبة للآمال، «وهو ما نطلق عليه «نُهير» في أمريكا».

وعاد روزفلت من الرحلة مريضًا بالربو، لكنَّ مرضه زاده إصرارًا عن ذي قبل على تقوية جسده وزيادة قوة تحمُّله. وعاد ومعه أيضًا حسٌّ أقوى بالشرق الأوسط امتزج بمرور الوقت باهتماماته بالخرافات والأساطير، بالإضافة إلى أنه لوَّن تفكيره الاستراتيجي. وكشف أيضًا عن جانبٍ عنيف من شخصيته بصفته مساعدًا لوزير البحرية عام ١٨٩٨، قبل التطوع للحرب في كوبا عندما قال: «إسبانيا وتركيا هما القوتان اللتان أتمنى تدميرهما أكثرَ من أي شيء آخر في العالم.»

كان صديقًا لكلٍّ من ألفريد ثاير ميهين والقس جوسياه سترونج. لذلك كان بداخله إيمان شبه صوفي بمميزات القوة البحرية، وكذلك إيمان قوي بحق أمريكا الذي لا يُنازع في استخدام تلك الميزات. فقد كانت الدول في رأيه مثل الأفراد: بعضها ضعيف وبعضها قوي. وكان يقع على عاتق تلك الأخيرة واجب الدفاع عن الضعيفة. وكانت بعض الشعوب البربرية وشبه البربرية غير مؤهَّلة لحماية حقوق الأجانب قُبالة حقوق أبنائها، أو حماية

مواطنيها ضد الأجانب، بحيث يكون على الدول «ذات الشرف والاستقامة» واجب حمايتها. لذلك أثنى روزفلت على بريطانيا لأخذها بثأر مقتل جينرال جوردون على يد قوى إسلامية في السودان عام ١٨٩٨، من أجل هزيمة مَن يمارسون «التعصب والطغيان والتشدُّد وعدم التسامح الديني». وكان من رأيه أن الولايات المتحدة عليها واجب التدخل لمصلحة الأرمن وغيرهم من شعوب أوروبا الشرقية المهدَّدة «بسوط الأتراك البغيض».[4]

وقبل دخول البيت الأبيض، ركَّز روزفلت على أمريكا الجنوبية والشرق الأقصى على وجه الخصوص، مستثنيًا الشرقَ الأوسط من خططه تمامًا. وظلَّت هذه المنطقة من وجهة نظره هامشية بالنسبة إلى المصالح الأمريكية، ومصدرًا لعدد قليل من البضائع ذات القيمة، وحكرًا على النفوذ الأوروبي فقط. ومن المفارقات الغريبة أنه بعد أيام فقط من توليه الرئاسةَ جاء أول اختبار حقيقي لفلسفة روزفلت فيما يخص الشئون الخارجية من الدولة العثمانية، وهو نفس الكيان الذي كان يتطلع إلى تدميره.

فقد علِم روزفلت أن عصاباتٍ بلغارية كانت قد اختطفت مبشِّرة أمريكية هي إيلين ستون ومعها كاترينا تسيلكا، الزوجة الحامل لأحد خريجي المدارس التبشيرية. وكان المختطفون، مع ارتدائهم الزيَّ التركي يتحدَّثون لغة تركية ركيكة، حيث في الحقيقة الأمر كانوا من المحليِّين الذين يحاولون تمويل ثورتهم ضد تركيا. وقد طالبوا الولايات المتحدة بذهبٍ قيمته ١٠٠٠٠٠ دولار، ومنحوا الحكومةَ الأمريكية مهلة مدتها ١٨ يومًا للسداد، متناسين إسهامات أمريكا السابقة في صراع بلغاريا من أجل الاستقلال.

شكَّكت هذه الحادثة روزفلت في حسِّه بالواجب النبيل نحو الشعوب المضطهدة، وأجبرته على التعاون مع العثمانيِّين «غير المتحضرين» ضد البلغار الساعين لحريتهم. ولم يكن في الإمكان القيامُ بأكثر من إعلان أن «شعب الولايات المتحدة غاضب إلى أقصى درجة» بسبب اختطاف السيدتين حتى يتم إطلاق سراحهما. وفكَّر روزفلت في إرسال زوارق حربية إلى المنطقة، أو إنزال قوات عسكرية فيها. لكنَّ ردَّ فعل الشعب الأمريكي لم يكن واضحًا فيما يتعلَّق بتدخل عسكري أمريكي بعد وفاة ماكينلي بوقت قصير لهذه الدرجة. وكان من المحتمل أن يقوم المختطِفون — إذا شعروا بمحاولة لإنقاذ الرهينتين — بقتلهما فورًا. ولم يكن بإمكان الرئيس حتى أن يخصِّص أموالًا لفدية تسيلكا وستون؛ لأن ذلك كان من حق مجلس النواب فقط. ومثلما وجد جورج واشنطن نفسه عام ١٧٩٠ بلا حول ولا قوة لاستعادة الرهائن الأمريكيِّين في الجزائر، كذلك لم يكن أمام روزفلت سوى الانتظار من دون القيام بأي محاولة، وأن يقوم الشعب الأمريكي بجمع تبرُّعات لدفع فدية الرهينتين.

ومن حسن الطالع أن انهمرت التبرعات. فالصورة التي رسمتها الصحافة لستون على أنها فتاة ساذجة بريئة قد أثَّرت في الجمهور، رغم أنها كانت في الحقيقة في أواسط العمر ومملة وتشبه ناظرات المدارس، لكنَّ الأمريكيِّين قدَّموا إسهامات وتبرعات سخية لإنقاذها. واتصل جورج وشبورن، رئيس كلية روبرت كوليدج، بالاتصال بالمختطفين، وأقنعهم بمد المهلة. وجاءت أنباء الإفراج عن الأسيرتين في الأول من مارس ١٩٠٢، وقد صاحبها احتفال صاخب من الأمريكيِّين في جميع أنحاء الولايات المتحدة، ولكن الرئيس كان يغلي ويزبد في داخله. وقال متمتمًا: «ليس من شأن النساء أن يخرجن للتبشير في هذه البلاد الوحشية»، وأقسم ألا يكون مقيَّد اليدين هكذا مرةً أخرى.[5]

ولم يمر أكثرُ من عام إلا وكان قرار روزفلت هذا يتعرَّض لتحدٍّ ثانٍ، ومرة أخرى كان ذلك في الشرق الأوسط. ففي ٢٧ من أغسطس عام ١٩٠٣ وصلت إلى واشنطن أنباءٌ تفيد اغتيال نائب القنصل الأمريكي في بيروت. وكان الضحية ويليام ماجي ليسين، وهو ابن لمبشِّر من براتسبرج بمينسوتا في الثلاثين من عمره، يقال إنه قد اعترض على الهجمات التركية المتجدِّدة ضد الأرمن والمبشِّرين الأمريكيِّين الذين حاولوا الدفاع عنهم. وعندها لم يتردَّد الرئيس: ففي اليوم التالي أصدر أوامره للسفن الحربية «سان فرانسيسكو» و«بروكلين» و«ماكياس» بالتوجُّه بأقصى سرعة إلى لبنان. وكانت النية هي المطالبة بالاعتقال الفوري لقاتلي الدبلوماسي الأمريكي ومعاقبتهم، ويكون ذلك برهانًا للأمريكيِّين لنفاد صبر الرئيس روزفلت مع الباب العالي. ولكن قبل وصول السفن نمى إلى علم البيت الأبيض أن ماج ليسين حيٌّ يُرزق. فقد كانت رصاصة طائشة قد مرقَت بقرب أذن الدبلوماسي أثناء أحد الأفراح العربية، لكنها لحسن الحظ لم تصبه.

ولكن لم يكن من السهل تهدئة روزفلت. فحتى وإن كان ماج ليسين سالمًا، فإن المبشِّرين كانوا ما زالوا في خطر. وعلى ذلك اتخذت السفن الحربية مواقعها في ميناء بيروت، ووجهت أضواءها الكاشفة على المدينة، وهدَّدت بفرض حصار عليها حتى يضمن الأتراك سلامةَ كلِّ المبشِّرين الأمريكيِّين العاملين في سوريا. وجرى تسليح ٥٠٠ من مشاة البحرية الأمريكية وإعدادهم للنزول إلى بيروت، تحسبًا لإمكانية رفض الباب العالي تلك المطالب.

وعندما علِم شكيب بك، السفير العثماني في واشنطن، بأنباء الهجوم الوشيك، دخل هائجًا دون استئذان على مكتب وزير الخارجية هاي. وتساءل معترضًا: «لقد سمحنا للمبشِّرين بحرياتٍ عديدة في بلادنا، فماذا كانت النتيجة؟» فبدلًا من التعبير عن

شكرها وامتنانها، كانت الإرساليات قد خطَّطت «لمحو بلاده من خريطة العالم»، عن طريق تشجيع الأرمن على الثورة. وتساءل الدبلوماسي: «لنفترض أني أسَّست ... مدرسة للأمريكيِّين الزنوج، فهل يقول المعلِّمون لهم ... إنهم يجب ألا يُذعِنوا للإعدام شنقًا من دون محاكمة وأن يثوروا على تلك الأوضاع؟ هل تعتقد أنني سأبقى طويلًا في ذلك البلد أو أن مدرستي ستزدهر؟»

وفشِلت اعتراضات شكيب في إقناع روزفلت بالعدول عن خطته. فاستقرت السفن الحربية الأمريكية عدة أسابيع قرب بيروت، وفي الأعوام التالية كانت تعود إلى الشرق الأوسط، وإلى سميرنا بالتحديد. وأصدر الرئيس إليها تعليماتٍ بالبقاء في حالة تأهُّب مستمر على السواحل التركية، تذكرةً بالتزام أمريكا بحماية كل المواطنين المقيمين في الشرق الأوسط.[6]

ومع أن قضيتَي ستون وماج ليسين كانتا تُقلِقان روزفلت، فإنهما كانتا تمثِّلان مجرَّد تحدٍّ رهيب لهيبته في المنطقة، وفرصة لممارسة دبلوماسيته المبنية على أساس المواجهة بالسفن الحربية. وقد بدأت هذه المأساة في طنجة مساء يوم ١٨ من مايو عام ١٩٠٤، عندما هجمت عصابة من مائتين من رجال القبائل المسلَّحين على منزل رجل الأعمال البهيج ابن الأربع والستين عامًا، أيون بيرديكاريس، ونهبته. وقد وصفه القنصل الأمريكي بأنه «أشهر مواطن أمريكي في المدينة». ضرب المهاجمون خَدَم بيرديكاريس وأخذوه عَنوة هو وابن زوجته، ثم اصطحبوهما على ظهر الجياد في الطريق الوعر إلى جبال ريف رهائنَ. وقد أصبحا من ساعتها سجينين لرئيس قبيلة بربري مهيب وإن كان ضئيل الحجم، وهو المعروف في المنطقة باسم محمد رسول الله. وقد عُرف في الولايات المتحدة اختصارًا بـ «النبي محمد».

وقد أقسم رايسولي «بكل مقدَّساتنا» أن أسيريه لن يمسَّهما أيُّ ضرر إذا أحجما عن محاولات الهرب، وقال رايسولي لسجينه بيرديكاريس إنه لا يستهدف الولايات المتحدة، ولكن يطلب العدالة من سلطان المغرب عبد العزيز، الذي كان قد اضطَّهد قبائل جبال ريف فتراتٍ طويلة. وكان رايسولي يرغب في وضع نهاية لذلك السلب والنهب، إضافةً إلى رغبته في الحصول على تعويض عن الانتهاكات السابقة، في شكل فدية كبيرة. وكما هو متوقَّع رفض السلطان تلك المطالب، مما أجبر رايسولي على تعديل موقفه. فصرَّح بأنه لن يُفرج عن بيرديكاريس حتى تطالب واشنطن المغرب بتحقيق تلك المطالب.

كان وزير الخارجية جون هاي مشهورًا بشجاعته في معالجة ثورة الملاكمين التي وقعت في الصين عام ١٩٠٠، ومطالبته «بباب مفتوح» للتجارة الأمريكية في الشرق

الأقصى، لكنه لم يكن يمتلك صبرًا كافيًا لرايسولي. فقد رفض شروط رئيس القبيلة واصفًا إياها بكلمة واحدة بأنها: «منافية للعقل»، ثم أصدر تعليماته للقنصل الأمريكي في طنجة بتجنُّب «كلِّ ما من شأنه أن يُعدَّ ... تشجيعًا على الابتزاز». وأصرَّ روزفلت أيضًا على أن الولايات المتحدة «لن تنزل عند مطالب هؤلاء اللصوص المغاربة»، ودعا بريطانيا وفرنسا إلى الانضمام إليه في تحالف مسلَّح لتحرير بيرديكاريس. ولكن البريطانيِّين والفرنسيِّين رفضوا عرضه، بل اتخذ الفرنسيون خطوةً إضافية بتقوية دفاعات طنجة ضد أي هجوم أمريكي محتمل.

زمجر روزفلت وهو مفعم بالغضب قائلًا: «كنت أفضِّل أن أكون رئيسًا حقيقيًّا مدة ثلاث سنوات ونصف السنة، عن أن أكون رئيسًا صوريًّا مدة سبع سنوات ونصف السنة.» ولكنه اضطُر إلى تخفيف حدة هذا الكلام المفعم بالعظمة عندما عِلم أن بيرديكاريس غادر الولايات المتحدة في أثناء الحرب الأهلية، هربًا من الخدمة العسكرية، ولم يَعُد — حتى — مواطنًا أمريكيًّا. كما أن صدى نشر هذه الواقعة سيُضعف موقفَ روزفلت أمام رايسولي، ويصيبه بالحرج في عامٍ تُجرى فيه الانتخابات. ومثل هذا المأزق كان يمكنه أن يردعَ أو يخيف أيَّ رئيس آخر غير روزفلت، لكنَّ ردَّ فعل روزفلت تمثل في إصدار أوامره إلى قوة مهمات مكوَّنة من سبع سفن حربية بالتوجه فورًا إلى سواحل المغرب.

وفي صباح ٣٠ من مايو ظهرت المقدِّمة البيضاء للسفينة الحربية «بروكلين»، وشوهدت السفينة عند السواحل المغربية قرب طنجة. وسرعان ما نزلت فرقة من مشاة البحرية الأمريكية في الميناء لحراسة القنصلية الأمريكية، في حين استعد ١٢٠٠٠ جندي آخر لاحتلال طنجة، إذا تطلب الأمر. وللمرة الرابعة في أقل من قرن (في حروب البربر، وفي الحرب الأهلية، وفي غزو بريطانيا لمصر) كانت القوات الأمريكية تتدخل في الشرق الأوسط. ولكن هذا التحرك كان مجرد تحذير، كما أوضح روزفلت للسلطان في برقية قائلًا:

> يرغب الرئيس في القيام بكلِّ ما من شأنه أن يضمن إطلاق سراح بيرديكاريس. ويرغب في أن يكون مفهومًا بوضوح تام أنه إذا قُتل بيرديكاريس فإن هذه الحكومة ستطالب بالقصاص من قاتله.
>
> نريد بيرديكاريس حيًّا أو رايسولي ميتًا.

ومن مدينة واشنطن التي ليس بيدها زمام هذا الموضوع، تحوَّل روزفلت إلى جيفرسون نشط سعيًا وراء «موقف مستقل وحاسم» تجاه الشرق الأوسط. وعلى ذلك

أذعنت حكومة المغرب لضغوط روزفلت، ودفعت لرايسولي الفديةَ التي كان يطالب بها. وفي ٢٣ من يونيو أُطلِق سراح بيرديكاريس. ولم يُصَب الأسير بيرديكاريس بأي أذًى فيما عدا عظمة فخذ تحرَّكت من مكانها عندما وقع من فوق فرسه، بل إنه أثنى على مختطفه ومدحه، واصفًا إياه بأنه «أحد أكثر الشخصيات التي قابلتها جاذبيةً وإثارة للاهتمام». ولكن إعجابه الشديد كان موجهًا للبلد الذي كان قد فارقه بمحض إرادته، و«لهذا العلم وهذا الشعب، وهذا الرئيس الواقف وراء تلك البوارج على بُعد آلاف الأميال، الذي خلَّصني من ذلك».[7]

كانت ملحمة تدخُّل روزفلت في المغرب، مكتظة بصور فرسان يحملون سيوفًا معقوفة حادة، وأسرى لا حول لهم ولا قوة، وقوات مشاة البحرية الذين يُهرعون إلى إنقاذهم قد أثارت مرةً أخرى خيال الأمريكيِّين حول الشرق الأوسط، ملهمةً عددًا من الكتب الرومانسية، وبعد ذلك بسنين عديدة، فيلمًا في هوليوود. ولكن بالإضافة إلى إثارة وتغذية الخيالات في أمريكا، لطَّفت هذه الواقعة من الانطباع الدولي عن القوة الأمريكية. ومع أن بعض منتقدي روزفلت في الولايات المتحدة قد ادعوا أن الإدارة الأمريكية قد بالغت في إنفاقها على البحرية وفي إظهار قوَّتها عبر البحار، فإن الرئيس ظل على عناده وإصراره. وتساءل: «هل يعترضون على أن السفن الحربية الأمريكية ظهرت في الوقت المناسب في ميناء بيروت أثناء محاولة اغتيال موظف أمريكي رسمي، أم يعترضون على ظهورها في ميناء طنجة عند اختطاف مواطن أمريكي، وأنه في الحالتين جرى تصحيح الوضع ومعالجة الخطأ؟» وأضاف: «هل اعترضوا عندما تبِع زيارةَ سرب أمريكي لسميرنا الحصولُ على الامتيازات التي طال انتظارُنا لها فيما يخص المبشِّرين الأمريكيِّين في تركيا؟»

ومنح الشرق الأوسط روزفلت فرصةً أخرى للرد على منتقديه، وكان ذلك أيضًا في المغرب؛ حيث قامت منافسة حامية الوطيس بين ألمانيا وفرنسا، جرَّت معها أوروبا كلَّها إلى حرب شعواء. وقد أرادت الولايات المتحدة أن تبقى على الحياد، وأعلنت ذلك بالفعل. ولكن روزفلت، الذي كان قد فاز لتوه بجائزة نوبل بسبب وساطته في الحرب الروسية اليابانية، كان يؤمن بأنه يمكنه القيامُ بدور حمامة السلام مرة أخرى بين فرنسا وألمانيا. لذلك أصبحت الولايات المتحدة، التي لم تكن قد شاركت قبل ذلك في مؤتمرات للدول الكبرى حول الشرق الأوسط، أصبحت ترعى وتشارك في المناقشات الدائرة حول المغرب، التي عُقد اجتماع بشأنها في الجزيرة الخضراء بإسبانيا في يناير عام ١٩٠٦.

وكانت التعليمات التي صدرت للمبعوثين الأمريكيِّين في المحادثات محدَّدة ودقيقة للغاية: ألا «ينحازوا إلى جانب دون الآخر»، وأن يظلوا «في مقاعد المتفرجين المتابعين»

فقط، وألا يظهِروا «أيَّ اهتمام أكثر من رغبة طيبة في أن يسود السلام العالم». ولكن روزفلت ناور ببراعة من وراء الكواليس. ومع أنه كان شخصيًّا يحب القيصر الألماني المهرج فيلهيلم الثاني، فإن الرئيس روزفلت عمل على تقديم مصالح بريطانيا وفرنسا، التي شعر أنها أقرب لمصالح الولايات المتحدة. فكانت النتيجة العمل على منح فرنسا وإسبانيا الحقَّ في تنظيم أحوال المغرب ومراقبتها معًا، لكنه استثنى برلين تمامًا. وشرح روزفلت ذلك قائلًا «إنه سيكون من المفيد للغاية ولمصلحة شعب المغرب إذا تحمَّلت فرنسا مسئوليته وقامت نحوه بما قامت به نحو شعب الجزائر.» ولكنَّ الحقيقة هي أن الرئيس كان له مآربُ أخرى أكثر من مصالح المغرب. فأثناء مناقشة اتفاق متعدِّد الأطراف في الجزيرة الخضراء، قام الرئيس أيضًا بضمان مصالح بلاده التقليدية في المنطقة، ومنها حماية يهود شمال أفريقيا من الاضطهاد، وكذلك ضمان حماية التجار الأمريكيِّين من القيود والمصروفات الجائرة الظالمة.

وفي الجزيرة الخضراء، اتخذ روزفلت أولَ خطوة نحو إشراك الولايات المتحدة في المسألة الشرقية. وظلَّت المبادئ التي أكَّد عليها في المؤتمر: مساندة التحالف الفرنسي البريطاني، والحفاظ على حقوق الأقليات وحرية التجارة الأمريكية، ظلَّت هي أحجار الزاوية للدبلوماسية الأمريكية في المنطقة في الخمسين سنة التالية. وقد أثبت روزفلت أن الأمريكيِّين لم يقوموا فقط باختراع اسم «الشرق الأوسط»، بل لعبوا أيضًا دورًا بالغَ الأهمية في إعادة تشكيل المنطقة سياسيًّا وجغرافيًّا.[8]

تضاربٌ متكرر

كان وضع أمريكا بصفتها قوةً كبرى أمرًا شبه معترَف به دوليًّا عند نهاية رئاسة روزفلت، وقد احتفل به الأسطول الأبيض العظيم برحلة حول العالم طولها ٤٥٠٠٠ ميل. إذ قامت ٢١ سفينة على متنها ١٤٠٠٠ بحَّار بعبور بحر العرب وانحرفت إلى خليج السويس. وكانت تلك أكبرَ قوة أمريكية دخلت الشرقَ الأوسط على الإطلاق. وكان أيضًا أكبرَ أسطول يعبر قناة السويس، مغلقًا هذا المجرى المائي أمام مرور أي سفينة أخرى في الأيام الثلاثة الأولى من عام ١٩٠٩. وفي حين كانت السفن تتزوَّد بالفحم في بورسعيد، كان البحَّارة يذهبون في إجازة إلى القاهرة، يرتدون فيها الطرابيشَ الحُمر، ويلتقطون صورًا بعضهم لبعض أمام الأهرامات (انظر غلاف الكتاب). وكانوا يتجوَّلون في الأسواق على ظهور الحمير. وقال أحدهم باستمتاع: «لقد منحنا القاهرة هزةً عنيفة، لم تشهدها منذ

زمن بعيد.» ولكن بحَّارة آخرين لم يستمتعوا بهذا القدْر. قال أحدهم: «كان الشحاذون والحمَّالون والمرشدون والمحتالون النصَّابون من كل جنسية تحت الشمس … يحتشدون حولنا: رجال سود وبيض وسُمر وصفر، يرتدي بعضهم أثوابًا طويلة هفهافة وبعضهم يكاد يكون عريانًا تمامًا، وكلهم يفرضون أنفسهم علينا، وقد سمعوا — بلا ريب — عن الأمريكي السهل المنال.» وقد انتهى أولُ ظهور للأسطول في الشرق الأوسط بصورة ودية، عندما عمِل مئات الأمريكيِّين والعرب جنبًا إلى جنب لاستخراج السفينة «جورجيا» التي جنحت في طين قناة السويس.[9]

بعد عام واحد من مرور الأسطول الأبيض العظيم بمصر زارها روزفلت شخصيًّا. وعبْر أربعة عقود كاملة، منذ زيارته الأخيرة، كانت بلاد النيل قد تغيَّرت تمامًا. فالاحتلال العسكري المحدود، الذي قالت عنه بريطانيا في يوم من الأيام إنه مؤقت، كان قد توسَّع وامتدَّ وأصبح احتلالًا دائمًا، تعترف به اتفاقية مع الفرنسيِّين، ويتخلل كل زاوية من زوايا حياةِ المصريين. ولكنَّ هذا الاحتلال كان أيضًا قد أشعل نيران الحركة الوطنية المصرية، التي كانت قد ازدهرت منذ زمن عرابي، وتحوَّلت إلى حركةٍ شملت البلاد كلَّها: الضباط والطلاب والمثقفين والمفكِّرين والزعماء الدينيِّين. وكانت المظاهرات تطالب بالاستقلال الفوري لمصر، ولذلك كثيرًا ما كانت تحدُث صِدامات بينها وبين القوات البريطانية. وصلت تلك الصِّدامات إلى قمَّتها في ٢١ من فبراير عام ١٩١٠، عندما قتل أحدُ المسلمين رئيسَ الوزراء المصري القبطي بطرس غالي، وهو جَد السكرتير العام للأمم المتحدة فيما بعد. وبعدها بخمسة أشهر وصل تيودور روزفلت إلى مصر.

ومع أنه لم يَعُد رئيسًا، فإنه كان لا يزال يجذب أفواجًا من البشَر التواقين لسماع آرائه وأفكاره عن الأخلاق والشئون الدولية. ولكن تلك الآراء أصابت المصريِّين بخيبة أمل كبيرة. فقد شدَّد روزفلت على حاجة مصر لتبني مبادئ الديمقراطية والعمل الجاد والسوق الحرة، لكنه تنبأ أيضًا بأن الأمر «سيتطلب سنوات — وربما أجيالًا كاملة — قبل أن تتمكَّن مصر من الحكم الذاتي». ونصح طلاب الجامعة بالتعاون مع السلطات البريطانية، ونصح ضباط الجيش بالبقاء بعيدًا عن السياسة تمامًا. وحذَّر روزفلت من أنه في حالة مغادرة بريطانيا للأراضي المصرية، فإن النساء سيُحرمن من حقوقهن الأساسية، وسيُغتال المزيد من الأقباط. وقال لجورج أوتو تريفيليان، رجل الدولة البريطاني، وهو أيضًا مؤرِّخ للثورة الأمريكية: «الكثيرون من قادة الحركة الوطنية يثيرون صخبًا، لكنهم في الحقيقة عاطفيون فقط وضعفاء … ولا يمكن الاعتماد عليهم.» وأكَّد أن الغرب ليس

لديه ما يخشاه من هؤلاء «الشرقيِّين اللابسي الزيِّ الأوروبي»، لكنَّ الخوف كله من أتباعهم من «الجماهير المسلمة ... الملتزمة بطرد الأجانب، ونهب وقتل الأقباط، والعودة إلى العنف والفساد الذي تفشَّى تحت الحكم الإسلامي ذي الطابع القديم».

وفي الأغلب لم يكن روزفلت واعيًا لحقيقة أن الكثيرين من «هؤلاء القادة الوطنيِّين الصاخبين» كانوا قد تلقَّوا تعليمهم في الكلية السورية البروتستانتية في بيروت، وأن بعض كبار ضباط الجيش المصري درسوا في مدارس وكلياتٍ أسَّسها المحاربون القدامى المشاركون في الحرب الأهلية الأمريكية. وكان التوق للحرية الذي يعبِّرون عنه — ولو جزئيًّا — من صُنع الولايات المتحدة. وقد تجمَّع المئات من هؤلاء الوطنيِّين خارج الفندق الذي كان يقيم فيه الرئيس الأمريكي السابق للقيام بأول مظاهرة ضد للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وصاحوا: «يسقط روزفلت، يسقط الاحتلال.» وهاجم رئيسُ التحرير الأزهريُّ المحترم الشيخ علي يوسف روزفلت بسبب طعنه في قدرة مصر واستعدادها للحكم الذاتي، وبسبب ثنائه على القوة التي تمنع مصر من إثبات ذاتها. وتنبأ بأن مثل هذه الوقاحات سيتردد صداها في شتى أنحاء المنطقة وما وراءها؛ «لأنه عندما تُهان مصر، يستشعر كل مسلم على وجه الأرض هذه الإهانة». وعلى عكس روزفلت، تذكَّر الشيخ علي يوسف إسهامات أمريكا من أجل حرية الشرق الأوسط. وقال: «نحن نؤمن أن الأمريكيِّين لا يزالون ... أصدقاء للحرية. أصدقاء الشعوب المحكومة على غير رغبتها.»

ولكنَّ مثل تلك العِظة لم يكن لها تأثيرٌ يُذكر على القائد الذي كان قد رفض أن ينصاع لرايسولي أو السلطان العثماني أو القيصر الألماني. استعاد روزفلت رحلةَ طفولته على ضفاف النيل، وأصرَّ على الثناء على «الذكاء والقدرة والحس العالي بالواجب» الذي كان البريطانيون عن طريقه يسعون إلى «التقريب بين القرن السابع (الذي يعيش فيه المصريون) والقرن العشرين الحالي». وأضاف أن هذه «المهمة الشاقة كانت أمرًا مشرفًا وساميًا لا تستطيع القيام به سوى دولة قوية وعظيمة». ومع ذلك فقد تساءل عما إذا كان بإمكان البريطانيِّين في مصر أو الفرنسيِّين في شمال أفريقيا أن يحقِّقوا في نهاية المطاف نجاحًا في مهمتهم. حتى إنه تخيَّل أنه بإمكان الولايات المتحدة القيام بتلك المهمة، في حالة فشل البريطانيِّين فيها. فقال: «سنعمل على تسيير الأمور بدقة متناهية ونظام.» ففي ذهن روزفلت كان التضارب الذي أبداه بعض الأمريكيِّين تجاه الغزوات الغربية للشرق الأوسط — بل وأيضًا تجاه الاستعمار عامة — قد تلاشى».[10]

في تلك الأثناء كان الدافع الاستعماري يزدهر في ذهن الأوروبيِّين. ففي أكتوبر عام ١٩١١ غزت القوات الإيطالية طرابلس ودارنا، بادئةً حملة دموية استمرت عشرين عامًا لإخضاع ليبيا. وفي العام التالي استغلت فرنسا الامتيازات التي حصلت عليها بمساعدة روزفلت في الجزيرة الخضراء، وقامت بالسيطرة على المغرب. وأصبح الشرق الأوسط بأكمله، من المحيط الأطلسي إلى قناة السويس، تحت الاحتلال الأجنبي، في حين كانت عدة قوى تتنافس على السيطرة على سوريا وفلسطين والخليج العربي. وكانت ألمانيا قد حقَّقت اختراقًا في الخفاء، لكنه عميق، عن طريق تقديم أسلحة ومستشارين حربيِّين للجيش التركي، ووضع نظم للسكك الحديدية عبْر الدولة العثمانية لنقل القوات الحربية والجيوش. وكان الشرق الأوسط — حسب تعريف ميهين — قد أصبح معترفًا به كيانًا قائمًا بذاته ومنطقة متميزة، لا ترتبط دولها وشعوبها جغرافيًّا فقط، بل عن طريق سِمات مشتركة تتعلَّق بالدِّين واللغة والثقافة. وبالإضافة إلى كل ذلك، أصبح يربط بينها رباطٌ من المستعمرات والمحميات والوصايات، وكلها ترزح تحت الحكم الأوروبي.

ومع أن الولايات المتحدة كانت الآن قوةً عظمى قائمة بذاتها، فإنها كانت تنظر لمعظم تلك الأحداث بتباعدٍ يقترب من اللامبالاة وعدم الاهتمام. كانت إدارة الرئيس ويليام هوارد تافت أكثرَ اهتمامًا بوضع أمريكا في الشرق الأقصى وأمريكا الجنوبية من اهتمامها بالاحتلال الغاصب لليبيا والمغرب، وكانت أكثر تركيزًا على التجارة الخارجية، من الانشغال والقلق بشأن المحور التركي الألماني. وفي حين رحَّبت واشنطن بالانقلاب الناجح الذي قامت به مجموعةٌ من شباب الأتراك العصريِّين عام ١٩٠٨، وبالصراع من أجل الإصلاح الدستوري في إيران، فإن حماستها من أجل هذه التطورات لم تكن انعكاسًا لتعاطفها، بل تعبيرًا عن أملها في تحسين التجارة. وبالفعل، فعندما التمست الدولة العثمانية مساعدةَ تافت في متابعةِ ما قام به روزفلت من المساعدة في حل الخلافات التي حرَمتها من ٤٠٠ ألف ميل مربع من إمبراطوريتها، أقسم الرئيس الممتلئ الجسم الرابط الجأش أن يحتفظ بموقف «حيادٍ تام وعدم اهتمام سياسي تام». وقد رفض مجلس النواب حتى تخصيص تمويل لبناء سفارة أمريكية رسمية في إسطنبول. وقام السفير جون ليشمان شخصيًّا بتمويل المشروع، وتلقَّى تعويضًا عنه فقط بعد أن هزم المتحدث باسم مجلس النواب جوزيف كانون على مائدة القمار.

وكان تحوُّل أمريكا نحو الانعزالية في مواقفها تجاه الشرق الأوسط قد تجسَّد عام ١٩٠٩، عندما كوَّنت وزارة الخارجية قطاعَ شئون الشرق الأدنى. ومع أن المتعلمين في

المنطقة كانوا قد بدءوا في الإشارة إلى أنفسهم باسم «الشرق أوسطيِّين»، فإن الدبلوماسيِّين الأمريكيِّين أصروا على الاحتفاظ بالاسم التقليدي للمنطقة، وضموا إليها اليونان وإيطاليا والحبشة والبلقان ضمن حدودها. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن بإمكان أي من موظفي قطاع شئون الشرق الأدنى التحدُّث بإحدى لغاته، أو رسم خريطة معاصرة للمنطقة. وبدلًا من التوصية بسياساتٍ لمخاطبة التقلبات العنيفة التي هزَّت الدولة العثمانية، قام القطاع بمراقبة المصالح الخاصة برجال الكنيسة ورجال الأعمال الأمريكيِّين. وبناءً على طلب مجموعة من المستثمرين الأمريكيِّين، استطلع القِطاع إمكانية شراء تل الغبطة الطوباوية، في قِطاع الجليل الفلسطيني، وهو مسرح عِظة المسيح على الجبل.

والحقيقة أن بعض الأفراد الأمريكيِّين كانوا بالفعل يسعون إلى تفاعلٍ أكبرَ مع الشرق الأوسط، ولكنَّ محاولاتهم تلك أُحبطت من قِبل أوروبا. وكانت العطاءات المقدَّمة من الشركة العثمانية الأمريكية، التي كُوِّنَت عام ١٩١٣ بغرض بناء سكك حديدية عبْر سوريا والأناضول، قد سُحقت من قِبل المستشارين الألمان للسلطان. وبنفس الطريقة، عمل الروس على طرد محامٍ أمريكي شاب مثالي اسمه مورجان شوستر، كان قد حاول إصلاحَ النظام السياسي الفارسي. وصاح موظف روسي بعد طردِ شوستر: «لقد كان مجيء الأمريكيِّين إلى هذا البلد خطأً كبيرًا. أنا أعرف ما يؤمنون به، ولن يتلاءموا مع الوضع هنا أبدًا.» ولم يتخذ البيت الأبيض ولا وزارة الخارجية أيَّ إجراءات لحماية هذه المبادرات أو للاعتراض على الإلغاء. وخلَص مساعد وزير الخارجية فرنسيس هنتنجتون ويلسون إلى أنه «سيكون من الجنون إثارةُ حَنَق أي حكومة بسبب المسألة الفارسية»، رغم أن التردُّد في التدخل كان نموذجًا لموقف أمريكا من الشرق الأوسط عامة. فقال: «إنه ليس مكانًا نضيِّع فيه ذخيرتنا.»[11]

ومرَّت أكثر من ثلاثين سنة منذ فجر شهر يونيو عندما ظهرت ملامح لسفن حربية بريطانية قرب السواحل المصرية. وفي تلك الفترة، كان الأمريكيون يناقشون مزايا ومثالب الاستعمار؛ فوائده الروحية والمادية مقابل مثالبه الأخلاقية. ومع أن معظمهم استمر — مثل روزفلت — في دعم الاستعمار واعتباره شرعيًّا، إن لم يكن فرضًا دينيًّا، فإن آخرين أخذوا جانبَ مارك توين في التنديدِ بسياسة الاستعمار لأنها لا تعبِّر عن الروح الأمريكية، وأمرٌ سيئ السُّمعة. وكان يمكن لهذا الجدل أن يستمر بلا نهاية لولا تدخُّل الأحداث العالمية. فمع اتجاه العالم نحو الحرب، تعيَّن على الأمريكيِّين مرة أخرى أن يتدخلوا في الشرق الأوسط للاختيار بين ولائهم للغرب أو تعاطفهم مع الشعوب المحلية، وبين

البروتستانتية والعقلانية، وبين الصهيونية والقومية العربية. وحين هبطت كارثة عظيمة على المنطقة، تضاربت الآراء الأمريكية مرةً أخرى مع مقتضيات السلطة والقوة، وكُسِف الخيال تمامًا.

الباب الخامس

أمريكا والشرق الأوسط والحرب العظمى



الفصل السابع عشر

متابعون للكارثة

كتب المؤلف الروائي فيليب روث: «التاريخ هو حيث يؤرَّخ كلُّ شيء غير متوقَّع في زمانه في صفحة باعتباره أمرًا حتميًّا.» وقد تنبأ عدد قليل من المراقبين في صيف ١٩١٤ بأن إعلان إمبراطورية النمسا والمجر للحرب على صربيا سيؤدي إلى إشعال سلسلة من ردود الفعل الحتمية التي سارعت فيها روسيا إلى الدفاع عن صربيا، وسارعت ألمانيا إلى نجدة النمسا. ولم يتنبأ أحدٌ بأن فرنسا ستسارع إلى التحالف مع روسيا، وأن تأخذ بريطانيا جانب فرنسا. وكذلك لم يتنبأ أحد بأن تفشل مجهودات تركيا في الابتعاد عن النزاعات والصراعات، وأن تُقاد إلى تحالف مع ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر — اللتين كانتا قوًى مركزية حينئذٍ — ضد التحالف الثلاثي لروسيا وبريطانيا وفرنسا. ولكن حدَثت الصدمة غير المتوقَّعة. فقد اشتعلت الحرب العالمية الأولى، وهو الطوفان الذي استمر أربع سنوات كاملة، وأدَّى إلى انهيار إمبراطوريات، وإلى حدوث تحوُّل جذري في الشرق الأوسط. وخلَص روث إلى أن «الخوف من المجهول هو ما يخفيه علم التاريخ، وهو ما يحوِّل الكارثة إلى ملحمة بطولية».

تابع الأمريكيون هذا الاتجاه الحتمي نحو الحرب باندهاش ممتزج بالتباعد. فهم أيضًا كانوا مندهشين بسبب سلسلة الأحداث غير المتوقَّعة التي أدَّت إلى تلك الكارثة، ولكن على عكس الأوروبيِّين والأتراك، لم يكن الأمريكيون يتحملون أيًّا من العواقب بسبب قِصَر نظرهم. وعملًا بمبدأ التجاهل الأمريكي المعتاد للنزاعات الأجنبية، أقسم الرئيس وودرو ويلسون على الحفاظ على الحياد التام بين المتنازعين، وعلى الاحتفاظ بعلاقات جيدة، إن لم تكن ودودة أو حارة، مع كل الأطراف.

ولكن تبيَّن أن الاحتفاظ بعلاقات صداقة مع تركيا أمرٌ معقَّد؛ لأن العلاقات بين الولايات المتحدة والباب العالي كانت قد اهترأت منذ زمن. وكان المصدر الدائم للاحتكاكات

هو اضطهاد الأرمن المسيحيِّين. ومع أن مجموعة من شباب الأتراك المحدَثين — الذين كان العديد منهم من خريجي كلية روبرت — كانوا قد استولوا على السلطة في إسطنبول عام ١٩٠٨، ووعدوا بحقوقٍ متساوية لكل مواطني الدولة، فلم يكد يمرُّ عام واحد إلا واستؤنفت مجازرُ الأرمن مرةً أخرى. فقد قامت القوات التركية بذبحِ أكثر من ٣٠٠٠٠ منهم في جنوب ووسط الأناضول. حتى قالت هيلين ديفنبورت جيبونز، زوجةُ مراسل جريدة «نيويورك هيرالد» في طرسوس: «الفَرق الوحيد بين الأتراك القدامى وشباب الأتراك هو أن شباب الأتراك أكثر نشاطًا واجتهادًا في مذابحهم.» وسرعان ما انهار الحكم الجمهوري الظاهري في تركيا، واستولى المجلس العسكري على الحكم في عام ١٩١١. وكان ردُّ فعل أمريكا هو إظهار اشمئزازها من هذه الأحداث، ولإظهار وتسجيل اعتراضها، أرسلت السفينتين الحربيتين «مونتانا» و«نورث كارولينا» في استعراضٍ للقوة قبالة السواحل التركية.[1]

وكاد الغضب حول المذابح الأرمينية أن يؤديَ إلى قطعِ العلاقات الأمريكية التركية، لكن ازدهار التجارة بينهما حال دون ذلك. وكان التعاون الاقتصادي بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية قد توسَّع كثيرًا منذ بداية القرن، وبحلول عام ١٩١٤ كان نصيب أمريكا وحدها نحو ٢٣٪ من الصادرات التركية. فبجانب التبغ والتين وعِرق السوس (الذي كانت أمريكا تستورد منه ٥٠٠٠٠ طنٍّ سنويًّا لاستخدامها في صناعة الحلوى واللبان)، كان الأمريكيون يسعون وراء منتَج جديد من منتجات الشرق الأوسط، هو البترول. ومع أن الولايات المتحدة ظلَّت المنتِج الأكبر للبترول، ومصدرة لمشتقاته إلى الشرق الأوسط، فإن الآبار المحلية لم تَعُد كافية لتلبية طلب الصناعة الأمريكية، ومالكي السيارات، والجيش. وقد بدأت شركة ستاندارد أويل للبترول من نيوجيرسي في التنقيب في بلاد الرافدين بدايةً من عام ١٩١٠، وذلك بناءً على أدلةٍ على وجود مخزون بترولي ضخم في الشرق الأوسط. وبعدها بثلاث سنوات، حصل فرع الشركة بنيويورك على حقوق التنقيب والحفر في سوريا وفلسطين وأجزاء من آسيا الصغرى. وكانت البنية الأساسية لمضخات البترول قد تأسَّست، وكان التنقيب قد بدأ عندما نشِبت الحرب العالمية.

وأصبح البترول في نهاية الأمر مصدرَ هوس بالنسبة إلى صانعي السياسات الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، ولكن عشيةَ الحرب العالمية الأولى كان الاهتمام الرئيسي للبلاد في المنطقة لا يزال خيريًّا. فقد كان عدد مؤسَّسات الإرساليات الأمريكية قد تضاعف بصورةٍ مذهلة فترة ما قبل الحرب، وأصبح يتضمَّن مستشفياتٍ وكليات على مستوًى عالمي،

بالإضافة إلى ما يزيد على ٤٠٠ مدرسة. وكانت هذه المؤسَّسات تندمج بعمقٍ في نسيج المجتمع العثماني، ولا تخدم المسيحيِّين فقط، بل الطبقة الراقية من الأتراك أيضًا. وقد كتب وزير الخارجية الأمريكية ويليام جيننجز براين إلى السفير الأمريكي في إسطنبول في أكتوبر عام ١٩١٤: «أنا ممتنٌّ للغاية لسماع أن ترتيباتٍ قد تمَّت لتعليم شقيق وزير الحربية التركي وأبنائه في كلية روبرت. هذه إشارة ممتازة.» وكان براين يأمُل أنه عن طريق تلقي تعليم أمريكي سيتمكَّن الأتراك أيضًا من تعلُّم تقبُّل الأرمينيِّين وغيرهم من الأقليات في الشرق الأوسط، مع إعادة البلاد إلى مسارها الديمقراطي السابق.[2]

ولكنَّ نشوب الحرب أدَّى إلى تقوية الهيمنة العسكرية في إسطنبول، وهدَّد سلامة المؤسَّسات الأمريكية هناك. لذلك قامت إدارة الرئيس ويلسون — «من أجل مصلحة الإنسانية وليس لأي اعتبارات سياسية» — بحثِّ تركيا على إعلان حيادها في ذلك الصراع. وحذَّر الدبلوماسيون الأمريكيون من أن الأتراك ليسوا على قدمِ المساواة مع الحلفاء المسيطرين على البحر المتوسط، الذين بإمكانهم ببساطة الاستيلاءُ على المدن الساحلية، من سميرنا إلى يافا. ولكنَّ هذه النصيحة لم تَجِد أيَّ صدًى. فما إن انضمت تركيا إلى القوى المركزية إلا وبادرت بحملةٍ لطردِ كلِّ المواطنين الفرنسيِّين والبريطانيِّين من الدولة العثمانية. وأبطلت المعاهدات التي ظلت قرونًا طويلة تمنح مزايا خاصةً للغربيِّين في الدولة العثمانية، وأُلغي التعامل باللغة الإنجليزية باعتبارها «لغة معادية». وقد تحوَّل وضعُ الأمريكيِّين المضطرب في الشرق الأوسط بالفعل إلى مرحلة الخطر عندما أعلنت الحكومة التركية حربًا مقدَّسة أو جهادًا ضد جميع الحلفاء المسيحيِّين.[3]

وخوفًا من حدوثِ مذابحَ يقوم بها المسلمون الهائجون، ناشدت الإرساليات واشنطن أن تساعدها. وأوضح رئيس الكلية السورية البروتستانتية دانييل بليس الوضعَ لوزير الخارجية براين، مؤكدًا «ضرورةَ وأهمية حماية حياة الأمريكيِّين وممتلكاتهم»، وحثَّه على إرسال سفن حربية أمريكية إلى بيروت وسميرنا فورًا. وتوالت نداءات مماثلة من يافا والقدس، التي أرسلت تقريرًا باستيلاء قوات الأتراك على كمٍّ كبير من المؤن، و«بسيادة إرهاب حربي وعسكري». وردًّا على ذلك، أرسل وودرو ويلسون السفينتين الحربيتين نورث كارولينا وتينيسي بإمدادات ومؤن وأموال ضرورية للإرساليات. وزادت مخاوفُ أمريكا عندما انطلقت قذائف تركية من سميرنا على مقدمة السفينة «تينيسي». وفي ١٢ ديسمبر وافق ويلسون على إجراءٍ ينصح كلَّ الأمريكيِّين بمغادرة الشرق الأوسط «من أي مكان لا يشعرون فيه بالأمن أو السلامة».

وفي غضون ذلك زادت حدةُ الاختلافات على المستوى الدبلوماسي، عن طريق تبادُل متلاحق للكلمات اللاذعة بين الحكومتين. وحذَّرت واشنطن من أنه «إذا حدثت أيُّ مجازر منظَّمة، فإن الحكومة التركية ستفقد حسنَ سُمعتها ومصداقيتها لدى الولايات المتحدة»، وحذَّرت أيضًا من أن «فقدان حياة أي شخص أو ممتلكات من الإرساليات» سيفجر ردودَ فعل أمريكية عنيفة. وأقسم جمال باشا، الحاكم العسكري الشهير لسوريا بدوره أنه «مقابل كل مسلم يُقتل في الغارات التي تُشَنُّ على المدن سيُقتل ثلاثة من الرعايا الفرنسيِّين أو البريطانيِّين»، وأخلى مسئوليته تمامًا «في حالةِ ما إذا أدَّت الغارات إلى مذابحَ ضد المسيحيِّين». وردَّت الصحافة الأمريكية بهجومٍ غاضب على تركيا، وأصدرت نداءاتٍ بضرورة استيلاء الفرنسيِّين والبريطانيِّين على الشرق الأوسط. وفي رسالةٍ مشحونة بالغضب إلى جريدة «واشنطن ستار»، اتَّهم السفير أحمد رستم بك الولايات المتحدة بالنفاق بسبب إدانتها لتركيا وتغاضيها عن روسيا، «التي منحت العالم عشرين مذبحة، وليس واحدة فقط، ضد الجنس اليهودي البريء»، وأيضًا تغاضيها عن الفرنسيِّين «الذين يقومون بحرق الجزائريِّين المحاربين من أجل الاستقلال»، وأيضًا لتغاضيها عن البريطانيِّين «الذين يعاقبون المتمرِّدين الهنود بنسفهم ببنادقهم نسفًا». وذكَّر رستم الأمريكيِّين أيضًا بالمذابح «اليومية» ضد الزنوج في بلادهم، وبتعذيبهم للمتمردين الفلبينيِّين. وبناءً على ذلك أعلن أن رستم شخصية غير مرغوب فيها، فاضطُر إلى مغادرة البلاد.

في خريف عام ١٩١٤ كانت العلاقات الأمريكية التركية على وشْك الانهيار التام، عندما تحسَّنت فجأةً وبصورة ملحوظة. فخوفًا من إبعاد بلد غربي غير مشارك في الحرب، أصرَّ كبار المسئولين في إسطنبول على أنهم «لم يشكُّوا قطُّ في صداقة أمريكا الحقيقية لتركيا» وأن الولايات المتحدة «ستظل القوة الكبرى الوحيدة التي ليس لها أيُّ غرض خفي تجاه تركيا». وأعادت تركيا الوضعَ المتميز الذي كان يتمتَّع به رجال الأعمال الأمريكيون، واعتذرت عن أي مضايقات واجهها المبشِّرون. ومع أن اللغة الإنجليزية كانت لا تزال محظورة، فإن مواطني الولايات المتحدة كان مسموحًا لهم من الآن فصاعدًا أن يتراسلوا باللغة «الأمريكية». وقامت واشنطن من جانبها بإلغاء مخطَّط لإجلاء مواطنيها من الشرق الأوسط، وعرضت بدلًا من ذلك أن ترسل ١٣ مستشفًى متحركًا تابعًا للصليب الأحمر، للعناية بالمرضى والمصابين الأتراك. واستمر القناصل الثمانية والأربعون في تركيا في مناصبهم، واستمر الممثلون الأتراك في سان فرانسيسكو وشيكاجو وبوسطن ونيويورك في مواقعهم. وبانتهاء العام كان الحلفاء قد استعدُّوا للنزول بكثافة في شبه جزيرة جاليبولي

التركية — وهي خطوة فاشلة كلَّفتهم ربع مليون قتيل، وأطالت الصراع والقتال في الشرق الأوسط سنواتٍ عديدة — ولكنَّ الأمريكيِّين اكتفَوا بالوقوف على الحياد، دون تدخُّل.[4]

ولكن لم يكن بإمكان الأمريكيِّين أن يظلوا منسلخين إلى الأبد. فقد انضمت الولايات المتحدة إلى الصراع في الشرق الأوسط، وفُرض عليها التحرك على عدة مستويات: دبلوماسيًّا وإنسانيًّا، وحتى عسكريًّا. وتصارعت الاعتبارات الدينية والاستراتيجية مرةً أخرى على الهيمنة على إقرار سياسات أمريكا تجاه المنطقة، في حين اختفت تمامًا أيُّ أوهام شعبية حول الشرق الأوسط، بعد أن غطَّت عليها المجاعات والمذابح.

أبشعُ الجرائم في تاريخ الإنسانية

حكَت التقارير الأولى — بدءًا من ديسمبر عام ١٩١٤ — عن مذابحَ تُقام ضد المسيحيِّين في بيتليس بشرق تركيا، بالإضافة إلى شنقِ المئات من الأرمن في شوارع إرزيروم. وجُنِّد الذكور الأرمن من سن العشرين إلى الستين في كتائب أشغال إجبارية، لتشييد الطُّرق وحمل المؤن للجيش التركي. وفي الشهر التالي، وبعد هزيمتهم أمام القوات الروسية في القوقاز، خفَّفت القوات التركية من وقعِ الهزيمة عن طريق نهب المدن الأرمنية وإعدام العمال الأرمن. وفي أوائل الربيع، حاصر الجنود الأتراك مدينةَ فان الأرمنية بشرق الأناضول، وبدءوا أولَ حملة من حملاتٍ لا حصرَ لها من عمليات النقل والترحيل القصري المكثَّفة. واستمرت المذابح واتجهت غربًا نحو إسطنبول، حيث شنقت قوات الأمن في يوم ٢٤ من أبريل ٢٥٠ قائدًا أرمنيًّا، وحرقت الأحياءَ الأرمنية. وأبلغ وزير الداخلية طلعت باشا البطريرك الأرمنيَّ أنه «لا يوجد مكان للمسيحيِّين في تركيا» ونصحه وأتباعَ كنيسته «بالخروج من البلد».[5]

ولم يكن هذا تهديدًا أجوفَ، حسب شهادات شهود أمريكيِّين. فشهد ليسلي ديفيز، القنصل الأمريكي في خربوط بشرق الأناضول، الذي تلقَّى تعليمه في جامعة كورنيل، في أوائل عام ١٩١٥ أنه يبدو أن «المسلمين في تعصُّبهم مصرون ليس فقط على القضاء على المسيحيِّين، بل أيضًا على إزالة أي أثر لدينهم و... حضارتهم». ووصف جيسي جاكسون، نظير ديفيز في حلب بسوريا، سلسلةً لا نهاية لها من قطارات السكك الحديدية المكدَّسة بالأرمن الذين أُجبروا على الرحيل، وقدَّر أنه لن يُقدَّر البقاء لأكثر من ١٥٪ منهم في هذه الرحلة. وتذكَّرت آنا هارلو بيرج، وهي شاهدةٌ أمريكية أخرى على هذه القطارات، تذكَّرت أنها شاهدت «رجالًا ونساء كبارًا في السن وأمهات شابات وأطفالهن الرُّضع ... والصغار، كلهم مكوَّمون معًا مثل الخراف أو الخنازير؛ أي إنهم كانوا بشرًا يتلقون معاملةً أسوأ

من الماشية». وفي أورميا، وصف المبشِّر ويليام شيد إعدامَ الحاكم جودت بك ٨٠٠ قروي، معظمهم من كبار السن والشابات، وقد قيل عن هذا الحاكم أنه كان يسعد بدقِّ حُدوة الجياد في أقدام ضحاياه. وكان مبشِّر من الجيل الثالث هو هنري ريجز قد قسَّم التعذيبَ أنواعًا: «الضرب والتجويع، وخلع الأسنان، والكي بالحديد الساخن، وغرز أدوات حادة في الوجه، وحرق الشَّعر والذقن»، وكلها أنواع من التعذيب كان الأرمن في جنوب شرق تركيا يتعرضون لها. وفي تقرير من القوقاز، كتب د. ريتشارد هيل أنه رأى «أطفالًا … يموتون بالمئات، وكانت أمهاتهم المقهورات يرمينهم في الحقول، بحيث لا يرين عذابهم وهم يموتون».

وقد أصرَّ القادة الأتراك وقتَها — كما يصرُّ قادتهم اليوم — على أن تعذيب الأرمن كان نتيجةَ العنف الذي ساد كل جبهات الحرب العالمية الأولى. ويدَّعون أيضًا أن الأرمن كانوا يتعاطفون مع الحلفاء، ويتعاونون مع الغزاة الروس. وفي الحقيقة أن معظم المذابح لم تقع بالقرب من ميادين القتال، وظلَّت الأغلبية الساحقة من الأرمن على ولائها للدولة التركية. ويتَّفق معظم المراقبين المعاصرين على أن المذابح كانت نادرًا ما ترتبط بالحرب، بل كانت تمثل برنامجًا مخططًا ومنفذًا بنظام لإبادة شعب بالكامل. وبالفعل، كان الجنود الأتراك يقودون قرًى أرمنية كاملة نحو أنهارٍ متجمِّدة، ويحرقونهم في كنائس يشعلون النار بها، أو ببساطة يسيِّرونهم نحو الصحاري ويتركونهم يلقون حتفهم عطشًا هناك، في سابقة على الإبادة العِرقية التي قام بها النازيون تجاه اليهود بعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا. وكتب طلعت باشا في رسالة أرسلت في سبتمبر عام ١٩١٥: «قرَّرت الحكومة التركية أن تدمِّر تمامًا كل الأشخاص (الأرمن) المشار إليهم المقيمين في تركيا. إذ لا بد أن ينتهيَ وجودهم تمامًا … ولا يُوضع الجنس أو السن أو أي نوازع للضمير في الاعتبار.» وبنهاية الصيف، كان حوالي ٨٠٠٠٠٠ أرميني قد قُتلوا، وأُجبِر عدد آخر لا حصرَ له على التحول قسرًا إلى الإسلام».[6]

وعلى عكس أعمال وحشية سابقة ارتُكِبَت في بلاد العثمانيين، وظهرت تفاصيلها ببطء، كانت أخبار التطهير العرقي للأرمن تنتقل الآن وبسرعة بالتلغراف والهاتف إلى الغرب. وكان وصف عنف ووحشية الأتراك، وصور الضحايا تُنشر على نطاق واسع. وتحت ضغط هذا الكشف اضطُرت بريطانيا وفرنسا وروسيا إلى إصدار بيان مشترك في ٢٤ من مايو تتعهَّد فيه بتحميل القادة الأتراك ومَن يتعاون معهم «مسئولية شخصية عن هذه المجازر». ولكن لأن جيوشها كانت متورطة في حرب راكدة، ولأن مواطنيها كانوا

قد طُردوا من الشرق الأوسط، لم يكن بإمكان الحلفاء التدخل عسكريًّا أو إنسانيًّا. وحتى نداء البابا بنيديكت الخامس عشر الذي أرسله مباشرة إلى السلطان محمد الخامس لم يكن له تأثير يُذكر، من حيث إثارة أي مشاعر عطف وشفقة أو رحمة تجاه الأرمن.

وكان الأمريكيون من بين الغربيِّين القلائل الذين استجابوا لتلك الكارثة، وذلك بسبب اهتمامهم بشئون الأرمن منذ زمن طويل. ففي خربوط، قام الزوجان المبشِّران تاك وهنري أكنسن بتقليد الدعاة الأمريكيِّين الأوائل إلى إلغاء الرِّق وتحرير العبيد، وذلك عن طريق تسيير قطار أنفاق لتهريب الأرمن إلى كردستان. وفي نفس الوقت في مدينة وان، كان د. كلارنس وإليزابيت أشر والممرضتان جريزل ماكلارين وميرتل أو شاين يعملون بلا هوادة لرعاية المئات من المصابين والمرضى الذين امتلأت بهم عياداتهم، وكذلك في العناية بالأرمن الهاربين إلى روسيا، وهم «متعبون وجوعى ويصرخون ويولولون كالأطفال الجوعى التائهين». وقد توفيت إليزابيت أشر متأثرةً بمرض التيفود، وكاد زوجها يموت بنفس المرض. لكنه تمكَّن من إرسال رسالة استغاثة إلى وزارة الخارجية يحذِّر فيها من أن «حياة الأمريكيِّين في خطر» ويناشد حكومة الولايات المتحدة سرعة التحرك.

ولكن الولايات المتحدة لم تكن لديها أي نية للتدخل بين الأتراك والأرمن. ومع أن الصحافة الأمريكية كانت تقوم بتغطية المذابح على صفحاتها الأولى؛ إذ كتبت الكثير من العناوين تقول «وزارة الخارجية تكشف اغتصاب ربع مليون سيدة»، وفي حين كانت نيويورك مسرحًا للمسيرات والمظاهرات المناهضة للأتراك، كانت الحكومة تتصرف بحيطة وحذر تجاه تلك المذابح. فقد افترضت إدارة الرئيس ويلسون أن أي انتقاد صريح لتركيا قد يؤدي إلى الانتقام من المواطنين الأمريكيِّين والمؤسَّسات الأمريكية في شتى أنحاء الشرق الأوسط، فيتدمر قرن كامل من العمل والمجهودات الجادة. وكانت هناك مخاوفُ من أن يقوم العامة — المهتاجون بسبب تقارير الفظائع التي تُرتَكَب — بالضغط من أجل اضطلاع أمريكا بدور فعَّال أكثر في الحرب. وطالب وزير الخارجية الأمريكي براين الحكومةَ الألمانية بهدوء أن تساعد في حماية «غير المحاربين والأجانب غير المسلمين» من «فورات التعصب الديني بين المسلمين»، لكنه أحجم عن الاعتراض رسميًّا لدى الباب العالي.[7]

الآن كانت مخاطر الانجراف في الحرب بصورة غير مباشرة — عن طريق الباب الخلفي للشرق الأوسط — تُوزَن مقابل المخاطر المعنوية لمراقبة عمليات الإبادة العرقية بكل سلبية. تعيَّن مقارنة قيمة المدارس والمستشفيات التبشيرية الأمريكية بقيمة حياة الناس الذين كانت تلك المؤسسات تهدُف إلى خدمتهم.

داعٍ إلى الأمركة

كان أحد الأمريكيِّين، وهو هنري مورجنتاو، مصرًّا على محاولة إيجاد تصالح بين تلك المصالح المتضاربة، وعلى حل الصراعات في سياسات بلاده تجاه الشرق الأوسط. ولكن مؤهلاته للقيام بذلك لم تكن مبشِّرة. إذ لم يكن يملك أيَّ خبرات دبلوماسية، ولم يكن قد عمل في المنطقة من قبل. وبالإضافة إلى ذلك، كان دِينه يضعه في موقف حرج، ليس فقط عند التعامل مع الحكام المسلمين، بل مع العديد من المسئولين في الولايات المتحدة أيضًا. ولكن مورجنتاو كان قد اعتاد ألا تقف أمامه أيُّ عقبة، وهو الألمانيُّ اليهوديُّ الذي هاجر إلى نيويورك مع والديه وإخوته الأحد عشر عام ١٨٧٠، عندما كان في الثانية عشرة من عمره، ولم يكن عندها يعرف كلمةً واحدة من اللغة الإنجليزية.

ولكن بعد ذلك بعامين دخل مورجنتاو مدرسةَ مدينة نيويورك، ثم تخرَّج بعدها في كلية الحقوق بجامعة كولومبيا. وحقَّق نجاحًا مذهلًا في عمله محاميًا ورجل أعمال، وأصبح زعيمًا للجالية اليهودية الإصلاحية بنيويورك، ومتبرعًا سخيًّا للحزب الديمقراطي. وعندما وصل إلى مرحلة منتصف العمر، وأصبح له لحية بيضاء مشذَّبة ويرتدي نظارة فضية لا إطار لها، كان مورجنتاو قد أصبح له شكل أَبويٌّ، كما كان محبًّا للاقتباس من الإنجيل. وكان مغرمًا بصورة خاصة بالرسل، وبتركيزهم على العدل الاجتماعي والأعمال الخيرية، وكان معجبًا بمبادئ جمعية الأصدقاء القائمة على الوسطية والعدل والعمل الجاد. وادَّعى مورجنتاو أن «الضمير» وليس «الكرامة» هو الدافع والمحرِّك وراء تصرفاته، وأن «عقيدته الحقيقية هي خدمة الديمقراطية».

كان من أنصار الرئيس ويلسون؛ لذلك افترض أنه سيشغل منصبًا حكوميًا بعد فوز الديمقراطيين عام ١٩١٢، ولكن الرئيس المنتخَب كانت له خطط أخرى بشأنه. ومثل اليهوديين الأمريكيين الشهيرين أوسكار ستراوس وسولومون هيرش من قبله، كان مورجنتاو سيتولى منصب سفير أمريكا إلى تركيا. ولكن على عكس سابقيه، الذين فرحوا كثيرًا بهذا المنصب، كان افتراض أن اليهود يمثِّلون جسرًا طبيعيًّا بين المسلمين الأتراك والمسيحيِّين الأمريكيِّين يستفز مورجنتاو. فقال: «هل يمكن أن يقال لأي معمداني أو بروتستانتي منهجي شهير إن هناك «منصبًا» ينتظر طائفته، فليبحث من بينها عن شخص مناسب ليشغله؟» وردًّا على ذلك قام ويلسون بطمأنة مورجنتاو إلى أن إسطنبول «هي النقطة التي يتركز عندها اهتمام اليهود الأمريكيِّين بمصلحة اليهود في فلسطين، وأنه لا يمكن لأحد أن يحل محلَّ يهودي في هذا المنصب».[8] ومع أن مورجنتاو شخصيًّا لم

يكن صهيونيًّا، فإنه كان مهتمًّا للغاية بالمحنة التي يمر بها أبناء ديانته، وكان متحمسًا للغاية أيضًا لإرضاء رئيسه، فقبِل المنصبَ.

وفي تكرارٍ لتجارب العديد من المبعوثين الأمريكيِّين إلى الشرق الأوسط، وجد مورجنتاو في البداية عاصمةَ الدولة العثمانية «فاسدة ومتدهورة للغاية»، وكأنها مشهدٌ من مشاهد كتاب «ألف ليلة وليلة». فكتب يقول: «من المؤكَّد أن هذه ستكون تجربة مثيرة للغاية لي.» ولكنَّ عامًا واحدًا آخر بعدها كان كافيًا لإصابته بخيبة أمل وإحباط، بسبب الآليات السياسية للأتراك وإدمانهم على «الغش والخداع والإرهاب والاغتيال». ولكن كما تغيَّرت صورة تركيا في ذهنه، كذلك تغيَّرت فكرته عن المبشِّرين البروتستانت الأمريكيِّين العاملين في الشرق الأوسط. وتذكَّر قائلًا: «كانت لدي حتى الآن فكرة مبهمة عن أن المبشِّرين دعاة متحمسون لدِين طائفي. ولكني اكتشفت أنهم في الحقيقة دعاةُ حضارة، ويمثلون نماذج للروح الأمريكية في أفضل حالاتها.» وسرعان ما اندهش السفير عندما وجد نفسه يتصرف باعتباره ممثلًا للمبشِّرين لدى الباب العالي، ويساعدهم على نشر «بشارة الأمركة». وتغيَّرت صورة الأرمن في عينَي مورجنتاو، من «تجار سجَّاد» كما عرفهم في نيويورك إلى شعبٍ يشبه اليهود كثيرًا، متمسكًا بدينه بصورةٍ لا تتزعزع ومملوءًا بالفخر بثقافته.

وكوَّن المسئولون الأتراك والمبشِّرون الأمريكيون والأرمن معًا مثلثًا معقدًا وخطيرًا، وجب على مورجنتاو أن يناور من حوله. فقال: «ها أنا ذا يهودي يمثِّل أكبرَ أمة مسيحية في العالم في عاصمة أكبر أمة مسلمة ستصبح عما قريب بسبب موقعها الاستراتيجي أحد مراكز الدبلوماسية العالمية. ها هي ذي إمبراطورية متدهورة، تتمسك في أنفاسها الأخيرة بتلابيب شعوب أخرى داخل قبضتها المميتة.»[9] وكانت مجابهة تلك التحديات قد أثبتَت أنها صعبة للغاية، حتى تحت الظروف السلمية. وبنشوب الحرب وتصاعد الأدلة على المذابح أصبحت تلك المهمة ضخمة وهائلة.

كانت التقارير تصل إلى مكتب مورجنتاو يوميًّا في البداية، ثم على مدار الساعة. فقد أخبره القنصل ديفيز بخبر إغلاق المدارس التبشيرية في خربوط، ووصف جاكسون «خطة نهب واسعة النطاق» ضد الشعب الأرميني في حلب. وحكى القنصلان أوسكار هايزر في مدينة طرابزون ودبليو بيتر في مدينة سمسون عن ترحيل جماعي وعن إطلاق للنار وعن بواخر صغيرة تغادر متجهةً إلى البحر الأسود القريب محمَّلة بالأرمن، لكنها كانت تعود خاوية. وشاهد لويس أينستاين، وهو دبلوماسي أمريكي يهودي بالسفارة الأمريكية في إسطنبول، شاهد امرأةً تركية تستعير مسدس أحد الضباط، ثم تطلق النار على رأس

لاجئ أرميني مارٍّ من أمامها، فقط من أجل اللَّهو والتسلية. ولكن مُحي العديد من قصص التعذيب وأعمال العنف ضد الأرمن من قِبل الرقابة التركية، وقال وزير الداخلية طلعت بك عن البقية إنها مجرد إشاعات أو حالات فردية «لعنف الغوغاء». وتناوب المسئولون الألمان نفيَ حدوث أي مذابح وإخلاء مسئوليتهم عنها. ولكن بحلول شهر يوليو كان تدفُّق الأخبار وتدفُّق الناجين الأرمن الذين جاءوا إلى مكتبه قد أقنع مورجنتاو بأن الحكومة التركية قد بدأت في اتباع سياسة متعمَّدة «للإبادة العرقية». وفي رسالة إلى وزير الخارجية الجديد روبرت لانسنج أعدَّ مورجنتاو قائمة «بحالات التعذيب الفظيع والترحيل والطرد الجماعي، وحالات الاغتصاب والنهب والمذابح العديدة» التي تهدُف إلى إبادة الشعب الأرميني. وحذَّر مورجنتاو من «مآسٍ وأمراض ومجاعات ومذابح لا حصر لها ستمرُّ دون حساب» إلا إذا تدخَّلت أمريكا.[10]

وكان رد فعل أمريكا على برقية مورجنتاو مليئًا بالقلق، لكنه لم يتعدَّ ذلك. ومع أنه يقال إن ويلسون أخبر صديقًا مبشِّرًا له بأنه «يمكنك أن تتأكد من أننا نقوم بكلِّ ما في وسعنا دبلوماسيًّا لوقف هذه العمليات البشعة»، فإن سياسة أمريكا ظلَّت سياسةَ حياد وعدم تدخل. وعبَّر لانسنج، بشكلٍ متزمت لا يمكن تصوره، عن تعاطفه مع قلق الأتراك في فترة الحرب وعن استيائهم من «عدم ولاء الأرمن المعلوم للحكومة العثمانية». وعلى أقصى حد، كانت الإدارة الأمريكية على استعداد لإبلاغ الباب العالي بأن أعمال العنف «أثارت مشاعر قوية لدى الشعب الأمريكي» وأن استمرارها سيؤدي إلى «تهديد للمشاعر الطيبة التي تكنها الولايات المتحدة لتركيا». وفشل ذلك التصريح في كشف مدى جدية وحرج الوضع، وهو ما كان مورجنتاو يحتاج إليه بشدة. وقد انتهى إلى أنه لا شيء «أقل من استخدام القوة هو ما يناسب هذا الوضع»، وصمَّم على التصرف اعتمادًا على نفسه.

وحذَّر مورجنتاو طلعت بك قائلًا: «شعبنا لن ينسى هذه المذابح. فأنتم تتحدَّون أيَّ فكرة عن العدل كما نفهمه في بلادنا.» ولكن وزير الداخلية لم يحرك ساكنًا. فلم يَعُد يحاول إخفاء قتل الأرمن بلا تمييز أو حتى سعادته بمداه. وقال: «لقد أنجزت الكثير في مجال حلِّ المشكلة الأرمينية في ثلاثة أشهر، أكثر بكثير مما أنجزه السلطان عبد الحميد في ثلاثين عامًا!» وسأل طلعت بك مورجنتاو عن الأسباب التي حدَت به، وهو اليهودي، إلى القلق والاهتمام بأسلوب معاملة المسيحيِّين. وشرح له مورجنتاو أنه يتصرف «ليس باعتباره يهوديًّا، ولكن كسفير أمريكي، وليس باسم أي عِرق أو دين، بل فقط كإنسان». ولكن طلعت كان أقلَّ اهتمامًا بدوافع مورجنتاو عن اهتمامه ببوالص التأمين الأمريكية

التي كان يدَّعي أن الكثير من الأرمن يمتلكونها. فقال: «كلهم ميتون الآن، والحكومة هي المستفيدة.»[11]

أوصلت هذه الغلطة مورجنتاو إلى حالة من الغليان، فكان على شفا الانفجار. وكتب يقول: «من الصعب أن أتحكَّم في نفسي!» ومع ذلك، وباعتباره ممثلًا لدولة صديقة، وممنوعًا من التدخل في شئون دولة ذات سيادة، فإن القنوات المتاحة له للتعبير عن ذلك الغضب كانت قليلة ومحدودة للغاية. وفي أفضل الحالات كان بإمكانه أن يحاول رفع معاناة الأرمن أو التخفيف منها عن طريق طلب المساعدة من جيمس بارتون، سكرتير المجلس الأمريكي للبعثات الخارجية، وكذلك مساعدة رجل الخير كليفلاند دودج. اقترح مورجنتاو إنشاء صندوق ضخم لشراء الغذاء والملابس ومأوى مؤقت للناجين من المذابح. وتجاوب كلٌّ من دودج وبارتون بحماسة وجنَّدا معارفهما من ذوي النفوذ لتكوين لجنة حول أعمال العنف ضد الأرمن. وتأسَّس مجلس إدارة هذه اللجنة، بالتعاون مع الأسقف الكنسي ديفيد جرير والقادة اليهود أوسكار ستراوس وأيزاك (إسحاق) سيليجمان. وجرى ضم القائد الصهيوني الأمريكي الحاخام ستيفن فايتس جنبًا إلى جنب مع تشارلز كرين، وهو أحد دعاة ومناصري القومية العربية. وفي ردٍّ فعل للعجز السياسي لبلادهم، اتَّحد الأمريكيون بصورة غير مسبوقة. وتمكَّنت هذه المؤسسة — التي ضُمَّت فيما بعد لمجلس النواب تحت اسم «لجنة إغاثة الشرق الأدنى» — من جمع ١٠٠ مليون دولار، وهو ما يوازي مليار دولار اليوم.

ومع ذلك فلم يتوقَّف مورجنتاو عند مجرد جمع التبرعات. فعن طريق صداقته بأدولف أوكس، ناشر جريدة «نيويورك تايمز»، تأكَّد من استمرار تغطية صحفية مكثَّفة للمذابح، وصلت إلى ١٤٥ مقالًا عام ١٩١٥ وحده. وتبرَّع بمليون دولار من ماله الخاص لإعادة توطين أكثر من ٥٠٠ ألف لاجئ في الغرب الأمريكي. وقال مورجنتاو، ربما متأثرًا بتجربته الشخصية في الهجرة: «قد تكون الولايات المتحدة هي موسى الذي يقود الشعب الأرمني للخروج من هذا العذاب. فهو شعب نظيف ومنتِج ونشيط وذكي، وأفضل فئات المهاجرين والمزارعين والعمال.» ولكن في النهاية رفضت تركيا — وليست الولايات المتحدة — هذه الخطة.[12]

في تلك الأثناء كان إيقاع إبادة الأرمن يتسارع. فقضت مذبحةٌ دبَّرها مزارعون أتراك في مدينة مارسيوان على الكلية الأمريكية ومدرسة البنات، فوُضِع الكثير من التلاميذ في حفر وأُطلقت النار عليهم. ويتذكَّر القس جورج وايت، مدير المدرسة المولود في أيوا:

«طلبت مجموعة من تلاميذ المدرسة السماح لهم بالغناء قبل أن يموتوا، وغنوا أغنية: «اقتربنا يا رب منك» قبل إطلاق النيران عليهم.» وببلاغة اكتسبها من عمله صحفيًّا سابقًا، وصف ليسلي ديفيز الطريقَ إلى بحيرة كولجك، وهي من منابع نهر دجلة، وهو محفوف «بأيدٍ وسيقان وحتى رءوس ظاهرة من الأرض. وقد نهشت الكلاب معظمها». أما تحت سطح الماء، فلاحظ وجود «مئات من الجثث والكثير من العظام»، بالإضافة إلى تلك الملقاة على الشواطئ، وقدُرها كلها نحو عشرة آلاف جثة. وللحفاظ على ذخيرتهم، كان الأتراك يلجئون كثيرًا إلى السهام والسيوف والفئوس للتخلُّص من ضحاياهم. وذكر الناجون رؤيتهم طوابيرَ كاملة من الشابات صُلِبْنَ عرايا، وآخرين مُثِّل بهم لهوًا ولعبًا. وتذكَّرت ميرتل شين في بيتليس: «كانت النساء الهاربات يعدن ليشحذن على أبوابنا، وقد قطعت أصابعهن أو أيديهن، أو شُوهت وجوههن أو أجسادهن.»[13]

كانت تلك المشاهد الكابوسية كثيرًا ما تصبح أكبرَ من احتمال مشاهديها. فقد كان والتر جيديس مثلًا، وهو وكيل لاستيراد عِرق السوس من نيويورك، في زيارة عمل لحلب، فشاهد آلاف الأرمن الذين رُحِّلوا، وقد ماتوا من أثر التعرُّض للأوضاع غير الصحية وبسبب الجوع. وعاد إلى سميرنا فقدَّم تقريرًا عن هذه المشاهد، وأطلق النار على رأسه. وكذلك أصيب مبشِّر أمريكي اسمه إف إتش ليسلي، والذي كان يحل محلَّ القنصل الأمريكي في مدينة أورفا في الجنوب الشرقي لتركيا، بمرض عقلي واعتل جسده، بسب مجهوداته التي لم تؤتِ ثمارًا لإنقاذ الأطفال والنساء الأرمن. وقد قُبِض عليه وعُذِّب بتهمة مساعدة اللاجئين؛ فانتحر في السجن.

أما مورجنتاو فكان يُطيق هذا العذاب؛ فقد كان المسئولون الأتراك يتباهون أمامه بأساليب التعذيب الجديدة التي ابتكروها من أجل الأرمن، والتي كان بعضها مستقًى من سجلات محاكم التفتيش الإسبانية. وادعى أنور باشا أن المساعدات الأمريكية كانت تشجِّع الأرمن على الثورة؛ لذلك سعى إلى وقفها. وكتب السفير الغاضب قائلًا: «تاريخ الإنسانية جمعاء لا يتضمن حلقات مرعبة كتلك.» فتركيا التي كانت يومًا ما جذابة تحولت إلى «مكان مرعب» له. واعترف قائلًا: «لقد استنفدت كل طاقاتي، ووجدت أن لقاءاتي اليومية مع الرجال، مهما كانوا خلوقين، لم أعُد أحتملها، خاصة إذا كنت لا أزال أشم فيهم رائحة دم نحو مليون شخص.» وبسبب اشمئزازه وإرهاقه من جراء ٢٦ شهرًا من الصراع، قدَّم مورجنتاو في النهاية استقالته.[14]

واستمرَّت المذابح دون هوادة. وحلَّ إبرام إلكوس، وهو محامٍ يهودي آخر من نيويورك، محلَّ مورجنتاو سفيرًا لأمريكا في تركيا، وأبلغ وزارة الخارجية الأمريكية أن

الأتراك يتبعون «سياسةَ إبادة بلا رادع عن طريق أساليب التجويع والإرهاق والتعذيب والمعاملة العنيفة السيئة التي ليس لها مثيل حتى في التاريخ التركي». وفي المجمل قُتِل نحو مليون ونصف مليون أرميني عن طريق حملة الإبادة العرقية التي لم تعترف الحكومة التركية بها قط، ولم تعلن ندمَها عليها قط. ولكن إلكوس كان عليه معالجة كوارث أخرى، منها الهجمات التركية المتصاعدة ضد الجالية اليونانية في سميرنا وغرب الأناضول، بالإضافة إلى نقل وترحيل العرب من المدن الحدودية. وأكَّدت مذكرة لوزارة الخارجية الأمريكية أنه يبدو أن «السلطات التركية تتبع سياسة أتركة سوريا والبلدان العربية المجاورة»، وقدَّرت أن النية تتجه إلى ترحيل ونقل ٢٥٠٠٠٠ أسرة عربية وإحلال أسر تركية محلها.

وكأن أعمال العنف هذه لم تكن مرعبة بما يكفي؛ فقد انتشرت مجاعة رهيبة في الشرق الأوسط في ذلك الوقت. إذ لقي عدد يقدَّر بنحو ٢٠٠٠٠٠ شخص في إسطنبول وحدَها حتفَهم، وأضعاف هذا العدد في الأقاليم من مصر وحتى سوريا. كتب بايارد — وهو ابن كليفلاند دودج — رئيس الكلية السورية البروتستانتية في بيروت: «كانت الأجواء مشحونةً بأصوات الأجراس التي تُقرع من أجل الجنازات وبأصوات الأطفال الباكين والصارخين من أجل كسرة خبز يأكلونها.» ومرة أخرى تحرَّك فاعلو الخير الأمريكيون لمواجهة تلك الكارثة، مستخدمين السفن الحربية «دي موين» و«سيزر» لتوصيل الإمدادات العاجلة، في مثالٍ آخر على استخدام السلطة والقوة لخدمة العقيدة والإيمان. كان وصول تلك السفن يمثِّل لمئات الآلاف من المدنيِّين الفرقَ بين النجاة والموت المحقَّق بسبب المجاعات والأمراض. وحكَت مارجريت ماكجيلفاري، وهي متطوِّعة شابة في مطبعة الإرسالية الأمريكية بلبنان: «كانت البلد كلها تعيش فعليًّا على تلك الإعانات. كنا في سوريا نحارب في الحرب العالمية، تمامًا مثل مواطنينا المحاربين على الجبهة الغربية.» ولكن تركيا استمرت في نفي وجود أي طوارئ إنسانية في إمبراطوريتها، وكثيرًا ما أغلقت الأبواب وسدَّت الطرق أمام وصول المؤن والمساعدات. وأكَّد تقرير قنصلي أمريكي أنه «مع مجهودات لجان [الإغاثة الأمريكية]، فإن عدد الوفيات يتصاعد بسرعة رهيبة».[15]

رغم كل محاولات فصل الأمريكيِّين أنفسَهم عن هذا الصراع وتبعاته، فقد وجدوا أنهم وسط واحدة من أسوأ المجازر في تاريخ الشرق الأوسط، شاهدين على تصرُّفات غير إنسانية، كانت رهيبة ومقزِّزة حتى بمعايير الحرب العالمية. وقد خفَّف من حجم تلك الأفعال الشنيعة المجهودات الحثيثة التي قام بها عمال الإغاثة والمبشِّرون. ولكن قدرة

الأمريكيِّين على تخفيف المعاناة في الشرق الأوسط ظلَّت محدودة باستمرار طالما نأت الولايات المتحدة بنفسها عن الحرب وعن التدخُّل وتمسَّكت بسياسة الحياد.

الفصل الثامن عشر

تحرُّك أم جمود؟

عبر المحيط الأطلسي البارد، وفي ليلة ٢٥ من فبراير عام ١٩١٧، كانت السفينة البخارية «لاكونيا» تتجه نحو ليفربول. كانت السفينة التابعة لخطوط كونارد للشحن تحمل ١٨٠٠٠ طنٍّ من المؤن والمعدَّات الحربية، و٢١٦ بحَّارًا، و٧٣ مسافرًا، كان ستة منهم أمريكيِّين. وكان كلُّ مَن على متن السفينة يعي أن الرحلة تحمل بعض المخاطر. كانت ألمانيا قد قرَّرت حديثًا البدء بهجوم غير محدود بالغواصات ضد السفن التجارية الأمريكية، وكان هذا أكبر وأخطر تهديد لأسطول النقل البحري الأمريكي منذ حروب الساحل البربري. وفي الساعة العاشرة والنصف وقرب سواحل أيرلندا، حطَّمت طوربيداتٌ ألمانية مقدِّمة السفينة «لاكونيا»، ودمَّرت غرفة المحركات. ويتذكَّر فلويد جيبونز، الصحفي بجريدة «شيكاجو هيرالد تريبيون» أن «الأمر كان أشبه بالكابوس الجنوني» وهو يصف الهجوم العنيف على قوارب النجاة، عندما أمر القبطان بمغادرة السفينة. وبعدها بأربعين دقيقة كانت السفينة «لاكونيا» قد غرقت. وقال جيبونز في مذكِّراته: «كانت السفينة تغرق سريعًا، وارتفعت بعد ذلك مقدِّمتها في الهواء. ثم انزلقت ببطء مبتعدةً عن الأنظار، كانت تتلاشى في منظر مذهل.» ومن بين اثنين وعشرين شخصًا قُتلوا في هذا الهجوم، كان هناك اثنان من الأمريكيِّين، أم وابنتها.

بعد ذلك بخمسة أسابيع، في الثاني من أبريل، طلب الرئيس ويلسون — الذي كان قد أُعيد انتخابه بناء على برنامجٍ يضمن حيادَ أمريكا — من مجلس النواب إعلانَ الحرب. وقد اتهم ألمانيا بخوض «حربٍ ضد الإنسانية»، مندِّدًا «بالتدمير التام والشامل لحياة المدنيِّين من الرجال والنساء والأطفال». واتهمها أيضًا بالقيام «بأعمالٍ تسيء إلى جذور الحياة الإنسانية وأسسها». وأنكر ويلسون أن يكون للولايات المتحدة أيُّ طموحات مادية أو إقليمية في الحرب. بل أعلن أنها تطمح فقط إلى الحفاظ على الحقوق العالمية، وإلى

حفظ الديمقراطية، وضمان مستقبل السلام عن طريق انسجام الأمم الديمقراطية. وأنهى ويلسون كلامه بأن أمريكا «تتشرَّف بتقديم دمائها وقوَّتها من أجل المبادئ التي منحتها وجودها وسعادتها والسلام الذي تقدِّره كثيرًا».

وحسب الأعراف الدولية، وتماشيًا مع نمط الحرب العالمية الأولى، عندما كانت إحدى الدول تعلن الحربَ على دولة أخرى، فإنها كانت بذلك تعلن الحرب أيضًا على حلفاء تلك الدولة. وأما أمريكا، فقد كان ذلك يعني إعلانَ حالة الحرب على كل القوى المركزية، ومن بينها بلغاريا، وإمبراطورية النمسا والمجر، وتركيا. ولكن الرئيس عبَّر في خطابه بوضوح عن رفضه حمل أي ضغينة تجاه حلفاء ألمانيا، ولم يُشِر بالمرة إلى تركيا. وبدلًا من ذلك قال «إننا ندخل هذه الحرب فقط مضطرين لأنه لا يوجد أي أسلوب آخر يمكِّننا من الدفاع عن حقوقنا». وكان المعنى الذي يقصده واضحًا؛ فالقوات الأمريكية كانت قد أُجبرت على القتال في خنادق أوروبا، لكنها لن تُجبر على ذلك في صحاري وشواطئ الشرق الأوسط.

ومع أن قرار الولايات المتحدة بعدم خوض حرب ضد تركيا كان محاطًا بالمبادئ، فإنه كان في الحقيقة نتاجَ ثقلٍ كبير للحقائق والوقائع. إذ لم يكن ويلسون مقتنعًا بأن لدى الولايات المتحدة من الأسباب ما يكفي لإعلان مثل تلك الحرب. وقال: «إنهم [الأتراك] لا يعيقون الطريقَ المباشر للخطوات التنفيذية الضرورية.» ومن ناحية أخرى، كان الرئيس وأعضاء آخرون من إدارته يؤمنون بأن إسطنبول كانت تتلقى أوامرها مباشرةً من برلين، وأن أي محاولة للتمييز بين الاثنين تُعدُّ زائفة. وأكَّد كبير مستشاري السياسة الخارجية العقيد إدوارد ماندل هاوس أن «الإمبراطورية المركزية تمتد من بحر البلطيق إلى مضيق الدردنيل، وأن أي شيء يأتي من مسئول في الحكومة التركية فهو موضع شك أنه بإملاء من ألمانيا.» وقد ثبتت صحة هذا الافتراض، عندما قطعت تركيا علاقاتها مع الولايات المتحدة، ردًّا على إعلان أمريكا الحرب على ألمانيا.

ومع ذلك، وحتى حينما كان السفير الأمريكي يغادر العاصمة التركية، كان الأتراك يقومون بحركات مبهمة لاسترضاء الولايات المتحدة. فتساءل جاويد باشا، وزير المالية: «ما الذي نتوقَّع أن نجنيه من مشاركتنا في حرب ضد الولايات المتحدة؟ لا شيء على الإطلاق.» وأشار إلى أن أمريكا هي الوحيدة من بين القوى الكبرى التي لم يكن لها مطامع في الأراضي التركية، وأنها «أمل تركيا الوحيد» لإعادة التعمير في فترةٍ ما بعد الحرب. وأصرَّ طلعت باشا على أن الصداقة التركية الأمريكية مستمرة، بصرف النظر عن اشتراك أمريكا في الحرب من عدمه، وأمر برقابة ومصادرة أي كتابات تتضمن مشاعرَ

عدائية ضد الأمريكيِّين، خاصة من الصحافة المملوكة والمراقبة من قِبل الدولة. وخلَص السفير الأمريكي إلكوس إلى أن «علاقاتنا مع تركيا ستظل طبيعية، وربما أكثر وديةً مما سبق. وتركيا لن تعلن الحرب على أمريكا».[1]

وحتى إذا كانت تركيا قد أظهرت عداء للولايات المتحدة، وكان تحالفها مع ألمانيا أمرًا لا يمكن تجاهله، فإن كيفية اشتراك القوات الأمريكية في حرب الشرق الأوسط كان لا يزال أمرًا غامضًا مبهمًا. وكان إلكوس واثقًا بأن المدن التركية الرئيسية يمكن ضربها بسهولة من البحر، ومن ثَم غزو الدولة كلها بسهولة. فكتب في إحدى المقالات: «تركيا هي حلقة الوصل الأضعف في سلسلة القوى المركزية، وهي على وشْك الانهيار. إن شعب تركيا يحتاج فقط إلى مبرِّر وذريعة لإجباره [على التوقيع على] معاهدة سلام منفصلة.» وقد اتفق معه في ذلك بعض كبار العسكريِّين الأمريكيِّين، مؤكدين على العديد من المزايا السياسية والعسكرية التي يمكن للبلاد تحقيقها عن طريق المساهمة بقوات في مسرح عمليات الشرق الأوسط.

ولكن من وجهة نظر ويلسون كانت مهمة التدخل في الشرق الأوسط أصعبَ بكثير. فالجيش لم يكن مستعدًّا بالمرة للقتال على أي جبهة، وبالأخص إذا كانت تلك الجبهة تبعُد عن الوطن ضعف مسافة البعد عن أوروبا، وفي بيئة غير مألوفة بالمرة. فخطوط الإمداد والتموين والاتصال ستكون طويلة وممتدة للغاية، ومكشوفة أمام هجمات الغواصات. وحتى إذا تيسَّر إنزال القوات بنجاح في الشرق الأوسط، فما هي الضمانات لأن يؤدي هذا التدخل إلى النصر؟ ومع أن الحلفاء كانوا قد حققوا بعض الانتصارات الحيوية عام ١٩١٧، ومنها الاستيلاء على بغداد، فإن الجيش التركي كان أبعد ما يكون عن الهزيمة. فلمواجهة تهديد أمريكي جديد، كان الأتراك سيسعون في الأغلب إلى مشاركةٍ أكبرَ من جانب ألمانيا، وسيقومان معًا بمقاومة مشتركة قوية وصامدة. وإذا كان ويلسون قد رأى أي فرصة أو احتمال لانتصارٍ بريطاني أمريكي في المنطقة، فإنه كان يرى أيضًا احتمالًا لأن يلقى مئات الآلاف من الجنود الأمريكيِّين حتفَهم جنبًا إلى جنب مع إخوانهم البريطانيِّين، تحت تراب ورمال الشرق الأوسط.

وبسبب التعقيدات الفنية المرتبطة بالهجوم على تركيا، وبسبب عدم قيام تركيا بهجوم أو عدوان صريح، فإن أهم الأسباب التي دعت إلى تدخل عسكري أمريكي في الشرق الأوسط كانت إنسانية. إذ كان الأتراك قد ذبحوا مليون شخص، وبدَوا وكأنهم على أتمِّ الاستعداد لقتل المزيد. وقال كورنيليوس فان إنجرت، وهو دبلوماسي أمريكي سابق

في الشرق الأوسط، إن حمَّام الدم هذا سيتوقف فقط بتدخُّل مكثَّف من جانب الولايات المتحدة. وأضاف: «إن هجومًا قويًا ومستمرًّا فقط على فلسطين والعراق هو ما سيحقق هذا الهدف.» وكتب ويليام نسبت تشامبرز، المبشِّر الأبرشاني، إلى الرئيس ويلسون من مدينة أضنة التركية، معبرًا عن أمنيته أن «تقوم دولة قوية كالولايات المتحدة بهجوم بري وبحري، يجعل الأتراك لا يجرءون أبدًا على العودة إلى مثل هذه الجرائم البشعة، وأن أمريكا، وهي تحمل في يدها سلاحًا قويًّا والإنجيل في يدها الأخرى» ستأتي لنجدة الأرمن. أما أكثر الأمريكيِّين رغبةً في القتال فكان الرئيس السابق لكلية مدينة نيويورك، جون فينلي، الذي كان أيضًا رئيسَ هيئة الصليب الأحمر في فلسطين وقت الحرب، والذي قال: «يا أمريكا، لا يجب أن ترسلي الصليبَ الأحمر فقط إلى هذه الجبهة. بل يجب أن ترسلي ما قال المسيح إنه جاء ليأتي به، أي السيف، وأن تشتركي مع قوى العدل ضد شياطين القسوة والتعذيب.»

لكنَّ الدعوة إلى شن حرب ضد تركيا بوازع الضمير لم تقتصر فقط على الأمريكيِّين العاملين في المنطقة. فأعضاء مجلسي النواب والشيوخ من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانوا أيضًا يدعون الرئيس إلى القيام بخطوة رادعة. فأعلن هنري كابوت لودج، رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب: «أنا بصفتي أمريكيًّا سأكون آسفًا ... عندما تنتهي هذه الحرب ... ثم نظهر في مجلس عصبة الأمم ونحن لا نزال أصدقاء لتركيا.» وصرَّح المتحدث باسم المجلس جيمس بوشامب كلارك وهو من الجمهوريِّين بأن «الوضع الشاذ الحالي ... مدمِّر للمعنويات تمامًا. فمن السخافة أن نحاربَ نصف العدوِّ ونترك نصفه الآخر». وقال زعيم الأقلية، فريدريك جيليت: «كانت تحركات تركيا في الحرب من الوضاعة بحيث إنني لا أعتقد أننا يجب أن نتردَّد ... في إعلان الحرب عليها.» وتوقَّعت جريدة «نيويورك تايمز» أنه لا يوجد عضو في مجلس الشيوخ أو النواب يؤيد حفظ السلام مع تركيا.

وكان أكثرَ منه صراحةً في انتقاد الحياد الأمريكي الرئيسُ السابق المثير للجدل تيودور روزفلت. فقال بصوتٍ مدوٍّ: «علينا أن نعلن الحرب على تركيا دون أي تأخير.» وبتأكيده أن الإمبراطورية التركية كانت قد «تعدَّت حتى ظلم وجور ألمانيا نفسها عن طريق ما فعلته بالرعايا المسيحيِّين في آسيا»، حذَّر روزفلت من أن شعار «تهيئة العالم من أجل الديمقراطية» سيتحول إلى شعارٍ أجوف بسبب السلبية الأمريكية في الشرق الأوسط. وأضاف معللًا: «لدينا فرصة وحيدة للتدخل بقوة السلاح لصالح الشعوب التي تئنُّ تحت نِير الحكم التركي. فسيكون الأمر مهانةً دائمة لأمتنا إذا استمر فشلنا هذا.»[2]

ولكن توصيات لودج وروزفلت وآخرين بإعلان الحرب لاقت معارضةً من أمريكي آخر كان قبل الحرب قد دعا إلى نهاية الإمبراطورية العثمانية. ففي خطاب إلى ويلسون من صديقه الوفي وعرَّابه السياسي وزميله في جامعة برينستون، كتب كليفلاند دودج يقول: «أنا متردِّد في التدخل في شئون الدولة.» وبعد الاعتذار عن ردِّه الصارم هذا، عارض دودج فكرةَ خوض حرب ضد تركيا، محذرًا من انتقام واسع المدى ضد الأمريكيِّين العاملين هناك، ومن مذابحَ متصاعدة ضد الشعوب التي يحاول الأمريكيون حمايتها. وأضاف هذا الرجل الإنساني: «سيكون إعلان الحرب ... أمرًا خطيرًا على مصالحنا. ومن بين كل القصص التي نسمعها نرى أن الأتراك يعاملون أبناءنا معاملة طيبة، بل ودودة.» وأكَّد دودج أن آراءه قد تكوَّنت بصرف النظر عن سلامة ابنته، التي كانت تقوم بالتدريس في كلية روبرت، أو سلامة ابنه، الذي كان يعمل في بيروت. فاهتمامه الوحيد كان يدور حول الحفاظ على «المؤسسات العظيمة للتعليم والتبشير وأعمال الإغاثة في الإمبراطورية التركية».

ورد ويلسون متعاطفًا مع «كل كلمة» من خطاب دودج. فقال: «لقد فكَّرت أكثر من مرة فى عائلتك المقيمة في تركيا، ويعترينى قلقٌ عميق بشأنهم ... وقلبي معك!» ولكن نبذ أمريكيون آخرون المخاوفَ التي أثارها دودج، واعترضوا بشدة على رد ويلسون. فقال روزفلت: «نحن متهمون بخَصلة خاصة من خصال النفاق المقوتة عندما نقرُّ بصداقتنا لأرمينيا وغيرها من الشعوب المضطهَدة في تركيا، ثم لا نحارب تركيا من أجلهم.» وأضاف مؤكدًا: «لقد كانت مذبحة الأرمن من أكبر جرائم هذه الحرب، وسلبيتنا في التعامل مع تركيا بهذا الشأن يعني تغاضينا عنها.» واتهم رئيس الأركان، الذي كان قد أرسل أكثرَ من مرة سفنًا حربية أمريكية إلى الشرق الأوسط لحماية المبشِّرين وإنقاذ المختطفين والأسرى، اتهم الآن الكنيسة والعاملين في مؤسسات الإغاثة «بالإهمال المعنوي الجسيم» بسبب عدم مغادرتهم المنطقة حين كان ذلك باستطاعتهم، وبسبب إحباطهم للتدخل الأمريكي. وقال يوبِّخ دودج: «وجود المبشِّرين التابعين لنا ... لم يمنع تركيا من ذبحِ ما يتراوح بين نصف مليون إلى مليون أرمني وسوري ويوناني ويهودي. وإعلاننا الحرب الآن لن يُصلِح ولا واحد بالمائة من الأضرار التي لحِقت بنا من جراء تقاعسنا عن خوض الحرب فيما مضى.»

كان دودج وروزفلت يتنازعان على أفضل الطرق لمعارضة الدكتاتورية وحفظ حقوق الأقليات، وحول أفضل طرق الحفاظ على قواعد العقيدة الأمريكية عن طريق الحفاظ على وسطائها الرئيسيِّين، وهم المبشِّرون. ولكن الاعتبارات التقليدية للقوة، مثل البترول

وطرق التجارة، ومناطق النفوذ، التي كانت تجبر القوى الأوروبية على شن حرب ضد تركيا والسعي وراء غزو مناطقها نادرًا ما أُقحِمَت في ذلك الجدل الأمريكي الداخلي. فقد كان السؤال الجوهري المحوري عند الأمريكيِّين بسيطًا وهو: كيف يمكن للولايات المتحدة أن تتصرف بصورة إنسانية؟

وفي النهاية انحاز ويلسون إلى جانب دودج. كان الرئيس ابنًا لقس مشيخي، ورجلًا ملتزمًا للغاية، تكوَّنت نظرته الشاملة في مجال التبشير، فلم يستطِع أن يتخلى عن الأمريكيِّين الذين كانوا يجازفون بحياتهم من أجل القيم التي كان يقدِّسها. ولم يكن بإمكانه أيضًا أن يسمح بالنتيجة شبه الأكيدة لهذا التخلي، وهي موت عدة آلاف من البشر الذين كانوا يعتمدون على الإغاثة الأمريكية من أجل الغذاء والمأوى والرعاية الطبية. وفي حين كان الرئيس يسعى نحو إعلان الحرب على إمبراطورية النمسا والمجر في ديسمبر عام ١٩١٧، وهو ما حدث بالفعل، وكان يفكر جديًّا أيضًا في شن حرب ضد بلغاريا، لكنه لم يجِد قط عن الحفاظ على الوضع القائم مع تركيا.

أحدث هذا القرار ارتباكًا واضطرابًا في صفوف البريطانيِّين والفرنسيِّين، الذين لم يفهموا كيف يمكن للولايات المتحدة أن تستفيد من حيادها، سواء عسكريًّا أو سياسيًّا، وأسباب عدم مساعدتها لهم في إلحاق الهزيمة بعدوٍّ على هذا القدْر من الخسة والوضاعة. وأصروا على أن المنطقة بحاجة إلى السلاح الأمريكي، وليس المساعدات الأمريكية. ووافقهم روزفلت على ذلك تمامًا فاشتكى قائلًا: «من المؤلم أن نظن أن الأنانية الباردة وانعدام كل الصفات الأخلاقية في ويلسون هي التي جعلتنا مجرَّد متفرجين ومتابعين لتدمير الإمبراطورية التركية، بدلًا من أن نشارك في الحرب بشجاعة.» ولكن ويلسون ظل صامدًا على موقفه. وقد تعهَّد لكليفلاند بالقيام بكل ما في وسعه لردع مجلس النواب عن «اتباع أهوائه وميوله» في شن حرب على تركيا. وأضاف: «أتمنى من كل قلبي أن أحقِّق هذا.»[3]

وقد نجح ويلسون بالفعل، متخطيًا معارضةً قوية من الصحافة، ومن كلا مجلسي الكونجرس، ومن قادة الجيش، ومن رئيسٍ سابق له شعبية طاغية. فلم تدخل أمريكا حربًا ضد تركيا قط. وقد كان القلق بشأن المؤسسات التبشيرية والعديد من الشعوب التي تخدمها تلك المؤسسات يفوق كل الاعتبارات الاستراتيجية الأخرى في تفكير ويلسون. ومع ذلك، فعند اتخاذ قرار بالتخلي عن استخدام القوة في الشرق الأوسط، كان الرئيس يقلل للغاية من وضع أمريكا ومقامها في المنطقة، ويحدُّ كثيرًا من قدرته على التأثير في مستقبلها.

وفي نفس التوقيت الذي كان ويلسون يقرِّر فيه عدمَ شن حرب على تركيا، كانت قوى التحالف تتآمر لتقسيم الأراضي العثمانية فيما بينها. فمن خلال سلسلة من الاتفاقات السرية التي بدأت باتفاقية سايكس بيكو في مايو عام ١٩١٦، وضعت بريطانيا يدها على مناطق شاسعة ما بين نهر الأردن والخليج العربي. واحتفظت فرنسا لنفسها بحق السيطرة على سوريا والموصل، وقسَّمت روسيا وإيطاليا شرق وجنوب غرب الأناضول فيما بينهما، على التوالي. وفي مجملها أكَّدت هذه الاتفاقات أنه بنهاية الحرب لن تختفي الإمبراطورية العثمانية فحسب، بل الدولة التركية ذاتها.

وكطرف غير مشترك في حرب الشرق الأوسط، كانت أمريكا تفتقد لمؤهلات المشاركة في هذه المحادثات. علاوة على ذلك، وحيث كانت أمريكا تعارض تقسيم مناطق الشرق الأوسط معارضةً شديدة دون اعتبار لرغبات سكانها، قاطعت الولايات المتحدة تلك المحادثات على أي حال. ولكن غياب أي مداخلات أمريكية في التخطيط لشرق أوسط ما بعد الحرب كان يعني أن ويلسون لن يستطيع تطبيقَ مبادئه الخاصة بالحرية والديمقراطية في المنطقة بفعالية. لا شك أنه كان جادًّا في التزامه بحماية «حقوق وحريات الأمم الصغيرة» و«تحرير العالم بأسره في نهاية المطاف» ولكن من دون شن حرب على تركيا لم يكن بإمكانه الدفاع عن حقوق دويلات الشرق الأوسط تلك، التي كان يعتبرها ضمن أقل دول العالم تحررًا.

سلام وهمي

ظهر تأثير رفض أمريكا المشاركة في الحرب في الشرق الأوسط عن طريق فشل إحدى محاولاتها لإقرار السلام فيه. فقد جاءت المبادرة في أواخر ربيع عام ١٩١٧ استجابةً لتقاريرَ تشير إلى تنامي الشعور بالتذمر تجاه تعاظم النفوذ الألماني في إسطنبول، ورغبة تركيا في اتباع سياسة خارجية مستقلة. وأشارت إحدى المصادر إلى أن المسئولين الأتراك يمكن إغراؤهم بأن يسمحوا لغواصات قوات التحالف بالمرور من مضيق الدردنيل وتدمير السفن الحربية الألمانية الراسية في بحر البوسفور.

وقد رحَّب هنري مورجنتاو بهذه الأخبار بكل حماسة. ومع أن تركيا كانت في نظره «السرطان الذي يمتص الحياة من العالم» والذي يجب «معالجته بطريقة حاسمة» فإنه كان يؤمن دائمًا بأن العلاج سيكون دبلوماسيًّا وليس عسكريًّا. كان مقتنعًا تمامًا الآن أن الأتراك قد «وصلوا إلى ذروة تذمرهم واستيائهم من سادتهم الألمان»، ومن ثَم

اقترح مورجنتاو القيام بمهمة وساطة سرية. فمقابل تلقِّي ضمانات باستمرار هيمنتها وسيادتها على الأناضول والمضائق، كان على تركيا سحب قواتها من الحرب. وعبَّر لانسنج عن تشككه في نجاح هذه الخطة، وأخبر ويلسون مع ذلك بأنه «إذا كانت هناك فرصة نجاح واحدة من بين خمسين فرصة، فإنني لن أترك حجرًا إلا وقلبته، إذا كان في ذلك تقليل لقوة وسلطة ألمانيا». وكان الرئيس بدوره متشككًا، لكنه لم يرَ أيَّ خطر في القيام بالوساطة الأمريكية. وقال مفترضًا: «إذا نجحت الوساطة فسيكون ذلك عاملًا حاسمًا في الحرب. وإذا فشلت فلن يسوء الأمر أكثرَ مما كان عليه قبل ذلك.»

غادر مورجنتاو نيويورك في ٢١ من يونيو عام ١٩١٧، فيما سمي بمحاولةٍ لتقصي مأزق اليهود الفلسطينيين. ولتأكيد هذا التبرير، رافق مورجنتاو الصهيوني الشهير فيليكس فرانكفورتر. كان فرانكفورتر أستاذًا ممتازًا وشخصية فذة بكلية حقوق جامعة هارفارد، ومستشارًا في وزارة الحربية الأمريكية في عهد الرئيس ويلسون، وكان فرانكفورتر يحتقر مورجنتاو؛ إذ كان يجده بغيضًا ومليئًا «بالتُّرهات» عن تركيا. وكان الهدف الرئيسي للرجل الحقوقي هو ضمان ألا ينجح مورجنتاو في السماح لتركيا بالخروج من الحرب وهي لا تزال مسيطرة على فلسطين. فقد كان هذا الصهيوني يأمُل أن يغزو البريطانيون الأرض المقدسة عما قريب، ثم يعملون على تحويلها إلى وطن قومي لليهود.

كان عمل فرانكفورتر مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بأشهر قائد صهيوني في ذلك الوقت، وهو الكيميائي البريطاني المولود في روسيا حاييم فايتسمان. كان أصلع وذا أنف معقوف، وله جاذبية طاغية ومركز مرموق، وكان فايتسمان قد كوَّن علاقة قوية ومتينة مع وزير الخارجية البريطاني، آرثر بلفور. ومثل العديد من البريطانيِّين الاستعاديِّين، مزج بلفور بين العقيدة الدينية الحماسية وحسٍّ قوي بالواقع السياسي؛ وعلى ذلك كان يؤمن أنه إذا مُنِح اليهودُ فلسطين فلن يأتي المسيح فقط، بل سيخدم ذلك أيضًا مصالحَ بريطانيا الاستعمارية. وكان بلفور يشارك الصهاينة اهتمامهم وقلقهم بشأن تخلي تركيا عن الحرب قبل وصول القوات البريطانية إلى القدس، وعيَّن فايتسمان المبعوث البريطاني الرسمي إلى مورجنتاو. وقال الوزير للعالم: «تحدَّث إلى مورجنتاو، واستمِرَّ في الحديث إليه حتى تقنعه بالتخلي عن مهمته.»

تقابل فايتسمان ومورجنتاو وفرانكفورتر على صخرة جبل طارق. وحضر هذه المقابلة أيضًا أرشاج شمافونيان، المستشار الأرميني للسفارة الأمريكية في تركيا. وأخبر فايتسمان مورجنتاو بكل غلظة وصراحة أن مجهوداته مبكِّرة للغاية، وأن القوى الكبرى

المركزية ستفسِّر تلك المجهودات على أنها علامة على ضَعف الحلفاء، فتضاعف من التزامها لقتالهم. وضغط على مورجنتاو للحصول على ضماناتٍ بأنه «على أي حال من الأحوال لن يحدث الربط بين المؤسسة الصهيونية أو الخلط بينها وبين أضعف محاولات إقرار سلام منفصل.» فالسلام سيأتي — حسب كلام فايتسمان وتأييدًا للرأي البريطاني — ولكن فقط بعد هزيمة تركيا وتنازلها عن أرمينيا وسوريا وفلسطين.

كانت ملاحظات فايتسمان قاتلة ومخزية لمورجنتاو، وإن لم يكن ذلك بنفس القدْر الذي أحدثته الرسالة التي حملها شمافونيان. فقد قال شمافونيان إن الأتراك كانوا غاضبين بسبب حوارٍ قال فيه مورجنتاو إن الباب العالي مستعد لبيع فلسطين لليهود. واتهموه أيضًا بالتفاخر بمهمةٍ المفترَض أن تكون سرية، تتمثَّل في إثارة ردود فعل حادة في الصحافة الغربية. واعترض متحدِّث باسم الأرمن قائلًا: «هل يعني ذلك أنه يمكن الوثوق بعصبة الشباب الأتراك مرةً أخرى فيما يخص الأرمن والعرب واليهود الصهاينة؟» ونتيجةً لذلك اعتبر مورجنتاو منذ تلك اللحظة شخصًا غير مرغوب فيه في إسطنبول، وعلى أي حال، لم يكن لدى إسطنبول النيةُ لإنهاء تحالفها مع ألمانيا.

في ضوء هذه المناقشات المدمِّرة لم يرَ مورجنتاو أيَّ معنًى للاستمرار في مهمته. فأرسل برقيةً إلى واشنطن قال فيها: «الوقت غير مناسب للدخول في مفاوضات. لذلك لا أرى أي فائدة تُرجى من الذهاب إلى تركيا.» ووافقته وزارة الخارجية على ذلك، وأرسلت تعليماتها إليه بمغادرة جبل طارق على الفور. أما فرانكفورتر، فكانت التجربة عنده برُمَّتها أشبه بـ «حملة ميئوس منها»، وندم ويلسون بدوره على المجهودات والمحاولات المبذولة، واصفًا إياها بأنها «وهمية وفوائدها مختلف عليها، حتى إذا تم تحقيقها». وبذلك ظهرت الولايات المتحدة في أول محاولة كبيرة لها لإحلال السلام في الشرق الأوسط بمظهر الساذجة البعيدة عن اللباقة. وأثبَت مورجنتاو، منقذ الشعب الأرميني والخائب الأمل بأنه مفاوض دون مستوى التوقعات، وشخصية ساذجة وسهلة الانخداع. وكتب العقيد هاوس في مذكِّراته: «تحوَّلت رحلة مورجنتاو إلى إخفاق تام.»

فشلُ بعثة مورجنتاو ختمَ سياسة الولايات المتحدة تجاه تركيا بقية فترة الحرب العالمية الأولى، وقوَّى مركز أمريكا الحيادي في الشرق الأوسط. وظلَّ الأتراك يقدِّرون ذلك الحياد، شاكرين له، عندما تراجعت قواتهم أمام هجوم الحلفاء. وكان البريطانيون أيضًا سعداء بعدم مشاركة أمريكا لهم في المجد والانتصار، عندما دخلت قواتهم القدس في ديسمبر عام ١٩١٧. أما أسعد الأطراف على الإطلاق فكانوا المبشِّرين والعاملين في مجال

الإغاثة، الذين نجَوا في الحرب، جزئيًّا بسبب الحياد الأمريكي، وكانوا يعيشون في ظل احتلال متعاطف معهم. ومن وجهة نظرهم كان انهيار الحكم العثماني في الأرض المقدسة وكأنه نبوءة بالتعويض. فقال كليفلاند دودج مخاطبًا ويلسون: «سعادتنا لا توصف في الأيام السابقة بسبب الأنباء التي وصلتنا ... من فلسطين. وأنا شاكر لكم بسبب الأسلوب الحكيم الصبور الذي اتبعتموه سواء باتخاذ خطوات تنفيذية أو عدمه.»[4]

لم يكن المبشِّرون الأمريكيون ومساندوهم وحدهم مَن رحَّب وهتف لنتيجة الحرب. فالصهاينة أيضًا كانوا يحلِّقون في أجواء من السعادة. ولكن إذا كان الصهاينة والمبشِّرون قد سعدوا فيما سبق لنفس الأسباب — وهي فرصة إعادة فلسطين لليهود — فإنهم كانوا يحتفلون الآن لأسباب متباينة وغير متوافقة بالمرة. كان المبشِّرون قد تخلَّوا عن هدفهم الأصلي الخاص بإعادة اليهود إلى فلسطين لمصلحة القومية العربية، وكانوا يرون نهاية الحرب باعتبارها مقدِّمة لتحرير كل الدول العربية، ومنها فلسطين. أما الصهاينة، فكانوا على العكس من ذلك، يرون في هزيمة تركيا الخطوة الأولى نحو تحقيق أمل اليهود وادعاءاتهم الأحقية في أرض إسرائيل. ولم يكن الصهاينة وحدهم المتعلِّقين بذلك الأمل وتلك الرؤية. فقد كان يقف معهم ملايين الأمريكيِّين المسيحيِّين، ولأول مرة، يقف معهم أيضًا عدد صغير لكنه متنامٍ من اليهود الأمريكيِّين.

الفصل التاسع عشر

ميلاد حركة أمريكية

كان تحوُّل عدد كبير من اليهود الأمريكيِّين إلى صهاينة أمريكيِّين عمليةً بطيئة ومليئة بالاضطرابات. وكانت أسباب ذلك التقلب لا علاقة لها بوجود شعب آخر في فلسطين، بل لأسباب خاصة بالجالية اليهودية. فخوفًا من إثارة المشاعر المعادية للسامية الراكدة تحت سطح المجتمع الأمريكي، كان غالبية اليهود ما زالوا ينظرون إلى فكرة إعادة تكوين دولة يهودية باعتبارها فكرة غير عصرية، إن لم تكن خطيرة. وحذَّر الحاخام الإصلاحي الشهير رودلف جروسمان عام ١٨٩٧ من أن «الصهيونية تُعدُّ ضربةً قاتلة لوطنية وولاء اليهود للبلد الذي يعيشون تحت حمايته». وكانَ جوليوس كان، عضو مجلس النواب عن كاليفورنيا، وعضو الجالية الإصلاحية، يخشى أيضًا من أن تُعرِّض الصهيونية اليهودَ الأمريكيِّين لاتهامات «بأنهم مجرد مقيمين مؤقتين في الولايات المتحدة، يستغلون المزايا التي يحصلون عليها بالإقامة هناك، وهدفهم النهائي هو أن يصبحوا فلسطينيِّين ومقيمين في الدولة اليهودية».

كانت مشاعر العداء للسامية لا تقتصر على اليهود الإصلاحيِّين. فقد كان اليهود الأرثوذكس يعارضون تلك الحركة أيضًا — ليس بسبب تركيزها على الدولة اليهودية، ولكن بسبب صبغتها العلمانية. فقد كان الصهاينة يمثلون «أكثر الأعداء الذين ظهروا بين الشعب اليهودي إرهابًا»، وذلك حسب ما قالت الجمعية الأرثوذكسية أجوداث إسرائيل. وقال الحاخام الشهير شالوم دوف بير شنيرسن إن «جلَّ رغبتهم … التخلص من فكرة التوراة … والتمسك بقوميتهم فقط». وأما الصفوف المتنامية من اليهود الاشتراكيِّين الذين لم يكونوا يرون أنفسهم كأفراد في شعب متميز، بل كأعضاء من طبقة العمال الكادحة الدولية، فكانت الصهيونية عندهم أيضًا فكرة مبغوضة. كانت كراهية فكرة الصهيونية أحدَ الأفكار القليلة بالفعل التي التفَّ حولها اليهود الأمريكيون في أوائل عام ١٩٠٠.

كانت الأحداث العنيفة مطلوبة لفصل ولو جزءًا صغيرًا من هذا المجتمع عن موقفه المعارض للصهيونية. وكانت المذابح الروسية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، التي لقي فيها عشرات الآلاف من اليهود حتفهم، قد أقنعت اليهود الأمريكيِّين بحاجتهم إلى نشاط متعاون ومنسَّق، في حين ذكَّرتهم محاكمة دريفوس في التسعينيات من القرن التاسع عشر في فرنسا بأن معاداة السامية مستمرة في التقيح حتى في أوروبا التي يفترض أنها متنورة. وبسبب نظرة غرب أوروبا غير المرحِّبة، واكتظاظ المدن الأمريكية بالمهاجرين، بدأ قادة اليهود الأمريكيون في التفكير في خيارات أخرى. وكان أحد تلك الخيارات هي فلسطين، التي كانت ذات أجواء قاسية وبها مشكلات سياسية. وكتب أوسكار ستراوس، السفير السابق في إسطنبول، إلى سيمون وولف، القنصل الأمريكي السابق في الإسكندرية: «أنا أؤيد أيَّ مخرج لأي جزء من اليهود الروس. فأي فشل، مهما عظُم، لا يمكنه أن ينتِج وضعًا مشابهًا للوضع اليهودي في روسيا.» ولكن مساندة إعادة استيطان اليهود الروس في الأرض المقدَّسة كان أمرًا، وتحويل تلك الأرض إلى دولة يهودية — وهو تحرُّك عارضه كلٌّ من «ستراوس» و«وولف» — كان أمرًا آخر تمامًا. لذلك كان أدولف أوكس ذاته، الذي قام بتغطية المذابح الأرمينية على الصفحات الأولى لجريدة «نيويورك تايمز»، هو مَن سعى إلى منع كل المقالات عن الصهيونية.

ومع ذلك ازداد عدد أتباع الصهيونية، خاصة بين اليهود الشرقيِّين الوافدين حديثًا إلى الولايات المتحدة. وعام ١٨٩٧ تكوَّن اتحاد الصهاينة الأمريكيِّين. وعلى عكس الاتحادات الصهيونية في روسيا وبولندا التي كانت تحض أعضاءها على الانتقال إلى فلسطين، لم يدعُ الاتحاد الأمريكي قط إلى هجرة اليهود من الولايات المتحدة. بل ظلت الصهيونية كما كانت في مفهوم إيما لازاروس: ملجأ وواحة ليهود أوروبا المضطهدين. وقال ريتشارد جوتهايل، أستاذ الساميَّات بجامعة كولومبيا، الذي كان أول رئيس للاتحاد الصهيوني: «إننا نؤمن أن مثل هذا الوطن من الطبيعي أن يكون في بلد آبائهم.» وأضاف: «ولكن هذا لا يعني ضرورة عودة كل اليهود إلى فلسطين.» وكان من بين أنشط تلاميذ جوتهايل تلميذٌ اسمه ستيفن وايز، وكان أحد الحاخامات الإصلاحيِّين القلائل الداعين إلى تكوين «مجتمع يهودي صغير داخل فلسطين»، كما قال إن اليهود الأمريكيِّين «لا يشتاقون إلى فلسطين»، لكنهم «يفضِّلون منْحَ ولائهم لهذا البلد الذي يمكنه وحده تلبيةَ مطلبهم في الحرية». أما هؤلاء اليهود الذين غادروا الولايات المتحدة بالفعل متجهين إلى فلسطين — ومن بينهم جولدا مايرسون (مائير فيما بعد) وهنرييتا زولد، وكلتاهما ستُعرض شخصيتها في فصل لاحق — فقد كانوا من القلة النادرة.[1]

ورغم نجاح فكرة الصهيونية في إعادة تعريف ذاتها بمصطلحات أمريكية خالصة، فإنها بإعادة إحياء الدولة اليهودية جذبت فقط جزءًا من اليهود الأمريكيِّين. فمن بين نحو ثلاثة ملايين يهودي كانوا يعيشون في الولايات المتحدة عام ١٩١٤، سدَّد ١٥ ألفًا فقط مستحقات الاتحاد الصهيوني، الذي كانت ميزانيته بالكاد تتعدى ١٢٠٠٠ دولار. وظلَّت الصهيونية حركةً أوروبية بصورة أساسية، يقع مركزها الرئيسي في مدينة برلين. ويبدو أن السؤال الذي طرحه مؤسسها تيودور هيرتزل: «هل سينسى يهود أمريكا … في جنة الحرية التي يعيشون فيها، ما يرزح إخوانهم تحته من عبودية ثقيلة؟» قد كُتِب عليه أن يظل بلا إجابة.

ومع أن الصهاينة الأمريكيِّين كانوا ضئيلي الحجم قليلي العدد بحسب الإحصاءات، فإنهم كان لهم تأثير واسع النطاق، لا يتناسب مع أعدادهم القليلة. فقد نجح قادتهم، الذين تميزوا بالبلاغة والموهبة، من أمثال جوتهايل ووايز وفيليكس فرانكفورتر، في الوصول إلى متخذي القرار الأمريكيِّين وإلى الخيرين من اليهود، الذين كانوا على استعداد للتعاون مع الصهاينة لإنقاذ اليهود، رغم معارضتهم فكرةَ إقامة دولة يهودية. وعلى عكس اليهود المهمَّشين في أوروبا، الذين كانت الصهيونية تمثل حلًّا لإحساسهم المتفاقم بعدم الأمان، كان هؤلاء اليهود الأمريكيون الممتزجون في نسيج المجتمع ينظرون إلى الصهيونية باعتبارها تعبيرًا عن ثقة متزايدة يستشعرونها بصفتهم مواطنين أمريكيِّين. وكانت نفس الإجراءات العلمانية والتحديثية التي تؤدي إلى تغريب المسيحيِّين الأمريكيِّين وإبعادهم عن فكرة إعادة استيطان اليهود في فلسطين هي التي تحرِّر وتقوِّي وتشجِّع العديد من اليهود الأمريكيِّين على تبنيها. فعن طريق التغلُّب على مشاعر العداء للسامية، والأعداد المحدودة للقبول في الجامعات، والقيود الاجتماعية، كان اليهود قد نجحوا في كسر معاقل السلطة البروتستانتية ليصبحوا أفرادًا محترمين — وإن لم يكونوا مقبولين تمامًا — في الطبقة العليا الأمريكية. ومثل غيرهم من الأقليات التي كانت قد نجحت في الامتزاج بأهل البلد الأصليين، كان اليهود الأمريكيون لا يرون تناقضًا بين الفخر بعِرقهم والولاء لعَلَم بلادهم. وتساءل الأستاذ الجامعي جوتهايل: «هل يُعدُّ الأمريكي الألماني أمريكيًّا بدرجة أقلَّ لأنه يتحدَّث الألمانية ويهتم بإخوانه الألمان في موطنه الأصلي؟ وهل الأمريكي الأيرلندي أمريكيًّا بدرجة أقلَّ لأنه يجمع الأموال لمساعدة إخوانه المناضلين في جرين آيل؟»[2]

لم يكن من بين هذا النسل الناشئ من اليهود الأمريكيِّين المتعلمين تعليمًا متميزًا والمترابطين معًا، مَن هو أكثر فعالية من لويس ديمبتز برانديس في المزج بين الأهداف

الصهيونية وأهداف الولايات المتحدة. سمِّي برانديس على اسم عمٍّ له كان قد ساعد على ترشيح لنكولن رئيسًا عام ١٨٦٠ وكان قد وُلِد في قلب ولاية كنتاكي الأمريكية، ولم تكن له أي علاقة بالعادات اليهودية أو الدِّين اليهودي، فكان يَعُدُّ نفسه أمريكيًّا خالصًا. كتب عنه وايز فيما بعد: «أصالة الرأي وسلامة الفكر والوضوح والنبل كانت كلها من صفاته. ما رأيته إلا وشكرت الله على وجوده بيننا.» كان أيضًا وسيمًا وله ملامح جميلة وذكيًّا ذكاء خارقًا. وقد أنهى دراسته المدرسية في سن الرابعة عشرة، وكان الأول على دفعته بكلية حقوق جامعة هارفارد بعدها بست سنوات فقط. كان النجاح طبيعيًّا لبرانديس، بوصفه أستاذًا للقانون ومحاميًا. وعندما وصل إلى مرحلة منتصف العمر، كان قد أسَّس سمعة باعتباره شخصًا لطيفًا كيِّسًا، وإن يكن أحيانًا متسلطًا، يمتلك تفانيًا والتزامًا بمبادئ المساواة العنصرية والاجتماعية، وبدور أمريكا في تحرير العالم.

آمن برانديس بانسجام هذه القناعات تمامًا مع الصهيونية. وقد التقى تلك الفكرة في البداية في جامعة هارفارد، حيث تم تكوين جمعية صهيونية، رغم القيود المحكمة المفروضة ضد التحاق اليهود، وقام بتشجيعها عددٌ من الأساتذة المؤمنين بفكرة الاستعادية. ورأى المحامي الشاب توازيًا بين سكان الحدود العاملين بجِد في أمريكا الاستعمارية والرواد الصهاينة في فلسطين؛ «الآباء الحُجاج اليهود، الذين يجب ألا يجد أبناء الآباء الأمريكيِّين صعوبةً في فهمهم والتعاطف معهم». وحين كان يقوم بالتحكيم في إضراب عمال يهود بشركة نسيج في نيويورك عام ١٩١٠، تعرَّف برانديس لأول مرة على تقاليد شعبه ومنظورهم. واستنتج من ذلك أن اليهود كانوا ديمقراطيِّين بطبيعتهم، «ويمتلكون حسًّا أخلاقيًّا عاليًا، وأيضًا حسًّا عميقًا بأخوَّة البشر»، وعلى ذلك يستحقون الحفاظ على هويتهم العِرقية والقومية. وبعد ذلك بسنتين، أثناء حديثٍ مع جاكوب دي هاس، وهو زميل قديم لهيرتزل، وكان قد أصبح محرِّر جريدة صهيونية في بوسطن، سمِع برانديس عن المزرعة الصهيونية التجريبية التي كانت وزارة الزراعة قد ساعدت على تأسيسها قُرب حيفا، وسمع عن القومية اليهودية لعمِّه ديمبتز. وقد أثارت أهداف «أولئك الحالمين» إعجابه، فقرَّر الانضمام إلى الاتحاد الصهيوني. وعام ١٩١٤، وكانت سنُّه حينها ٥٨ عامًا، انتُخب بالإجماع رئيسًا له.

لم يكن برانديس صاحبَ فكر جديد أو مبتكر حول أمور القومية اليهودية. فقال مرددًا كلماتِ وايز وجوتهايل وأفكارهما: «لا يوجد تناقضٌ بين الولاء لأمريكا والولاء لليهودية. فكل يهودي أمريكي يساعد على تقدُّم المستوطنات اليهودية في فلسطين … حتى

لو لم يكن هو ولا نسله سيقيمون هناك أبدًا ... سيصبح إنسانًا أفضل وأمريكيًّا أفضل عن طريق قيامه بذلك.» كان الصهاينة الأوروبيون، الذين فضَّلوا بناء المستوطنات البسيطة على الأفكار التجريدية، يرون أن برانديس مرتبط بصورة مبالغ فيها بالنظريات، وغير مستعد لتغيير رأيه من خلال الحقائق الواقعية.[3] ولكن في حين كان الأوروبيون يمدون تلك المستوطنات بالمعاول والمجاريف، كان برانديس، الصهيوني الأمريكي النموذجي، يمد الحركة بأكثرِ ما كانت تحتاج إليه؛ أي بالسلطة والقوة. فقد كان برانديس مستشارًا قريبًا من ويلسون، وسرعان ما أصبح أولَ قاضٍ يهودي في المحكمة العليا. لذلك كانت له اتصالات بأعلى مستويات الدوائر في الحكومة الأمريكية. وبانتقال مركز الصهيونية العالمية من مدينة برلين المحاربة إلى مدينة نيويورك المحايدة، أصبح هذا المدخل ضروريًّا ليس فقط لإنعاش الأحوال الاقتصادية ليهود فلسطين، بل لبقائهم أحياءً في كثير من الأحيان أيضًا.

صهيون الجديد ينقذ القديم

كان اليهود الفلسطينيون قد عاشوا طويلًا تحت ظروفٍ غير مستقرة، غير موثوق بهم وكثيرًا ما عاشوا تحت الاضطهاد. وكانت السلطات التركية لا تفرِّق بين الجالية الدينية اليهودية القديمة المعوزة، والجالية الجديدة — «اليشوف» — من المزارعين الصهاينة. بل إنها كانت تظن أن كل اليهود يتآمرون ويخطِّطون لتكوين دولة مستقلة والانفصال عن الإمبراطورية العثمانية. لذلك سعى الباب العالي إلى تقليص هجرة اليهود وشرائهم للأراضي في فلسطين، وهي سياساتٌ اعتبرتها الولايات المتحدة سياساتٍ عنصرية. ولكن الإجراءات المعادية لليهود استمرَّت في فلسطين في الأعوام التي انتهت بعام ١٩١٤، وتكثَّفت في الحرب. ومِثل الأرمن، تم اتهام اليهود بالتجسُّس لمصلحة الحلفاء وتمهيد الطريق لهم، وهُدِّدوا بمصيرٍ مماثل. ومع التحذير بمخاطر ذلك على المسيحيِّين الفرنسيِّين والبريطانيِّين والروس الذين مكثوا في فلسطين، تنبَّأ لانسينج بأنه ستكون هناك «مذبحة عامة لكل اليهود».

وبالفعل بدَت الأحداث في فلسطين وكأنها تتجه نحو كارثة كبرى. وكتب القس أوتيس جليزبروك، القنصل الأمريكي في القدس، بالتفصيل عن أعمال نهب وسلب وتخريب على نطاق واسع ضد يهود المنطقة، بالإضافة إلى الاستيلاء على ممتلكاتهم وإغلاق مصارفهم. وكانت السلطات التركية قد جرَّدت المستوطنات اليهودية من أسلحتها الدفاعية، مع تسليح

القبائل العربية المجاورة وتشجيعها على شن حرب مقدَّسة ضد الكفار. ومع أن اللغة العبرية لم تكن من لغات الحلفاء، إلا أنها حُرِّمت ومُنع استخدامها أيضًا، ومن بينها أيُّ أختام عبرية أو فواتير تمثِّل عروضَ أسعار لعمليات تجارية داخلية بين «اليشوف». ومع ذلك كان أكثر تلك القرارات تدميرًا هو قرار الطرد المزمع لنحو ٥٠ ألف يهودي روسي؛ أي ثلاثة أرباع الجالية اليهودية كلها، الذين كان الأتراك يعتبرونهم الآن من الأعداء. وحذَّر جليزبروك من أن تدمير المشروع الصهيوني يبدو وشيكًا، وكان جليزبروك قسًّا سابقًا من جورجيا، وأستاذًا بكلية اللاهوت بجامعة برينستون، وقد عيَّنه الرئيس ويلسون شخصيًّا. وكان يخشى من أن «ضربة قوية» ستوجَّه قريبًا إلى «الطموحات الدينية لليهود في العالم أجمع» وإلى «رسالة الأمل التي جعلتهم يشعرون فجأة بالروح القومية».

ولأن الدول الغربية الأخرى كانت إمَّا متحالفة معًا أو في حرب ضد تركيا، ولأن اليهود الأوروبيِّين كانوا منقسمين حسب ساحات القتال ومنشغلين بالبقاء على قيد الحياة، لم يتبقَّ سوى قوة واحدة يمكن ليهود فلسطين اللجوء إليها. وكانوا يتضرعون: «باسم الأرض المقدَّسة وباسم الكتاب الذي أحيينا لغته والذي نسعى لتحقيق روحه، فإننا نناشد الأمةَ الأمريكية القوية النبيلة أن تستخدم نفوذها لإنقاذ مشروع المستوطنات اليهودية في فلسطين».

وكانت الاستجابة لهذا النداء تمثِّل مشكلة معقَّدة للولايات المتحدة؛ فقد كانت دولةً على الحياد، وليس لديها أي مبرِّر للتدخل في أي منطقة عثمانية، وبالأخص فلسطين. وعلى عكس الأنشطة التبشيرية والطبية والثقافية القديمة في مناطقَ أخرى من الشرق الأوسط، كان لدى الأمريكيِّين وجودٌ محدود فقط في فلسطين. ولكنَّ مجرد عدم وجود مؤسسات لم يكن ليوقف أو يردع رئيسًا له صلاتٌ دينية قوية بالأرض المقدَّسة وبالشعب المختار. كما لم يستطِع ويلسون، الذي لم يكن فقط رجلًا روحانيًّا بل سياسيًّا ماكرًا أيضًا، تفويتَ تلك الفرصة لاستقطاب أصوات اليهود الأمريكيين، الذين كانت أصواتهم قد أصبحت ذات ثِقَل وتأثير في الانتخابات. فقال أثناء حملته الانتخابية عام ١٩١٢: «إذا أُتيحت لي الفرصة للمساعدة في إعادة استيطان الشعب اليهودي في فلسطين فسأقوم بذلك بكل تأكيد»[4]

ولم يكن هذا وعدًا فارغًا، كما أثبت ويلسون بعد انتخابه بفترة قصيرة. فقد أخبر مورجنتاو أن «أي شيء يمكنك القيام به من أجل مصيرٍ أفضل لإخوانك في الدِّين سينعكس بالإيجاب على أمريكا. ويمكنك أن تعتمد على الدعم الكامل ومساندة الإدارة الأمريكية.» وقد ثبت فعليًّا ضرورة هذا الدعم بعد أن قام يهودٌ أمريكيون أثرياء بالتبرُّع بمئات

الآلاف من الدولارات من أجل الإغاثة ومن أجل طوارئ طبية وأغذية في فلسطين، ولكنهم مُنعوا من توصيلها بسبب حصار الحلفاء وبسبب المقاومة التركية للصهيونية. وبموافقة ويلسون، قام برانديس بتنشيط آليات العلاقات الخارجية لأمريكا؛ بعثتها الرسمية، ونظَّم الاتصالات بها، وشفراتها، وجنَّدها لخدمة القضية الصهيونية. وكان المسئولون الأتراك يتلقون تأكيداتٍ بولاء الصهاينة غير المشروط وغير المحدود، وكانوا حذرين من أن الشعب الأمريكي سيحمِّلهم شخصيًّا «المسئولية عن حياة وممتلكات اليهود والمسيحيِّين في حالة حدوث أي مذبحة أو سلب أو نهب». ووعدت تركيا البريطانيِّين والفرنسيِّين بأن الطعام والذهب والبنزين المقدَّم لليهود لن يُحَوَّل إلى المجهود الحربي التركي. وبعد استرضاء جميع الأطراف، حُمِّلَت المؤن على سفن البحرية الأمريكية ونُقلت إلى يافا لتوزيعها. ومُلئت بعض هذه السفن في رحلة العودة بمنتجاتٍ من المستوطنات اليهودية — خمور الكرمل وبرتقال — من أجل تصديرها.

ومع كل التعقيدات، فإن إدخال وإخراج الشحنات من فلسطين كان أقلَّ إرهاقًا من نقل اليهود «الأعداء» بجوازات سفر روسية أو أي جنسيات أخرى من الحلفاء. وعن طريق تدخُّل مورجنتاو، مُنِح هؤلاء اليهود مهلةٌ قدرها شهر واحد للتخلي عن جنسيتهم الأصلية ليصبحوا مواطنين عثمانيِّين. وقبِل العديد منهم هذا الخيار، ولكنَّ آخرين إما فضلوا النفي على الجنسية التركية، أو لم يتمكنوا من دفع قيمة التجنُّس وهي عشرة دولارات. ومرة أخرى تدخَّل برانديس والصهاينة الأمريكيون ونظَّموا نقل هؤلاء اليهود المعرَّضين للخطر إلى مصر، التي كانت تحت الوصاية البريطانية. واشتركت أربع سفن تابعة للبحرية الأمريكية ومعها عدد من السفن التي تحمل أعلامًا حيادية في عملية الإنقاذ، وظلَّت مدة سبعة أشهر تتنقل في بحار مناطق الحرب ما بين يافا والإسكندرية. وفي أغسطس من عام ١٩١٥، قدَّمت لجنةٌ تمثِّل الستة آلاف يهودي الذين أُنْقِذوا ونُقلوا على متن السفينة «تينيسي» لقبطانها صينيةً فضيةً هدية، قائلين إنها تقديرٌ لعملٍ نبيل «سيبقى طويلًا في أذهان الشعب اليهودي وذاكرته». وردَّ القبطان بنتون ديكر بإعلان أن الصهيونية «بلا شك هي إحدى كبرى الحركات في العالم»، وقبِل الهدية باسم الشعب الأمريكي «الذي يقف في تلك الأوقات الحالكة المضطربة إلى جانب مصالح الإنسانية».

وبعدما كان اليهود يستقلون السفن في يافا، كثيرًا ما كانت تلك السفن تنطلق شمالًا نحو بيروت، لتستقلها أعدادٌ من المبشِّرين والحجاج وأساتذة الكلية السورية البروتستانتية. وبذلك كان يتقابل على متن السفن الحربية — رمز القوة الأمريكية — أبناءُ مسيحيي

القرن التاسع عشر المساندين لإعادة استيطان اليهود في فلسطين ويهود القرن العشرين الذين كانوا الآن بصدد تلبية وتنفيذ تلك الدعوة. ومن بين تلك الفئة الأخيرة كان ألكسندر وريفكا آرنسن، وهما أخٌ وأخته من المزرعة التجريبية الصهيونية، كانا قد اتُّهما بالانتماء إلى شبكة تجسس لمصلحة البريطانيين. واضطُرا إلى الهرب إلى لبنان، حيث آوتهما عائلة بليس، حتى تمكَّنا أخيرًا من الصعود على متن السفينة الأمريكية «دي موين». وتذكَّر ألكسندر أن «صيحةَ وداعٍ عالية صدرت من اللاجئين» حين همَّت السفينة بمغادرة الميناء، و«هي صيحةٌ امتزج فيها الترحيب بالحرية بالخوف والأمل في المستقبل». رفعت السفينة أعلامها، في حين وقف ركَّابها «الذين تحركت مشاعرهم بأحاسيسَ قوية بالحب والاحترام» في صمت.

ولكن العقوبات ضد يهود فلسطين استمرَّت، وازدادت سوءًا بتقدُّم الحرب. وأثناء تراجع الجنود الأتراك أمام القوات البريطانية كانوا ينهبون مزارعَ اليهود المجردة من كل شيء أصلًا، ثم قاموا بطرد البقية الباقية من اليهود الموجودين في يافا. وكان استمرار اليشوف وبقاؤهم يرجع بصورةٍ أساسية إلى تدخُّل الولايات المتحدة وإلى مخاوف تركيا من استفزاز الولايات المتحدة. واعترف تقرير للجمعية الصهيونية عام ١٩٢١ بأن «أمريكا كانت هي الدولة الوحيدة التي تمكَّنت من إنقاذ فلسطين من الانهيار التام إلى الأبد».[5] وبذلك لم تكن الولايات المتحدة قد قامت فقط بالحفاظ على الأسس الاقتصادية والاجتماعية للدولة اليهودية المستقبلية، بل قامت أيضًا بإنقاذ العديد من قادتها، ومنهم ناشط شابٌّ من العمال اسمه ديفيد بن جوريون.

ابن الأبرشية واليهود

كان حافز أمريكا على مساعدة يهود فلسطين إنسانيًّا في المقام الأول، وليس سياسيًّا. وتعاملت الولايات المتحدة مع مأزق اليهود كما تعاملت مع أزمة الأرمن، معتبرةً أنَّ ما حدَث لهما وحشيةٌ وظلم وقعا على شعبين يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بمصالح أمريكا الخيرية والدينية، في منطقةٍ من العالم تتمتع بمعزَّة خاصة. وكما مدَّت إدارة الرئيس ويلسون يدَ المساعدة للأرمن بصرف النظر عن طموحاتهم السياسية، قامت أيضًا بمد يد المساعدة لليشوف، دون أن تتخذ موقفًا محددًا من الصهيونية. ولكن حين كان جنود المشاة الأمريكيِّين يسيرون نحو جبهة القتال في أوروبا، وحين كان رجال الدولة الأوروبيون

يعيدون سرًّا رسمَ خرائط الشرق الأوسط في مرحلةِ ما بعد الحرب، وجدت واشنطن أنه لا يمكنها البقاء على الحياد فيما يخص فلسطين.

كان الصهاينة الأمريكيون، أكثر من أي عامل آخر، مسئولين عن تحريك البيت الأبيض بعيدًا عن موقفه الحيادي. ومع بداية عام ١٩١٧، كان قادة الصهيونية، الذين أصبحوا يمثلون فئةً انتخابية سريعة النمو، يضغطون على البيت الأبيض لتبنِّي قضيتهم رسميًّا. فأخبر الكولونيل هاوس الرئيسَ ويلسون أن «اليهود من جميع الجماعات هبطوا علينا بكل قوة، ويبدو أنهم مصممون على الدخول بقوة السلاح إن لم يجرِ إدخالهم بالحسنى». ولكنَّ اليهود الأمريكيِّين لم يكونوا وحدهم مَن مارس هذه الضغوط؛ فالبروتستانت المؤمنون بإعادة اليهود إلى فلسطين كانوا يطالبون أيضًا بمصادقة رئاسية أمريكية على الصهيونية. وأعلن رئيس كلية ويتون تشارلز بلانشارد أنه «في السنوات الأخيرة أثَّرت الحركة الصهيونية كثيرًا على عدد كبير من طلاب العلوم الدينية، بدايةً لتحقيق السلسلة العظيمة من النبوءات». وانضم ويليام بلاكستون، كاتب مذكرة عام ١٨٩١ المساندة لإقامة دولة يهودية، إلى عدد من القساوسة البروتستانت في نشر وتوزيع التماس جديد مؤيِّد للصهيونية. وفازت جهودهم بدعم ومساندة عدد من الشخصيات العامة الهامة، من بينها نورمان هابجود، وهو مدافع عن حقوق المرأة ومحرِّر مجلة «هاربر» الأسبوعية، وكذلك بمساندة الرئيس السابق ويليام تافت. وكتب تيدي روزفلت: «يبدو لي أنه من السليم تمامًا بدءُ تأسيس دولة صهيونية حول القدس.» وأكَّد أيضًا أنه «لن يكون هناك سلام حقيقي» حتى يُمنح العرب والأرمن استقلالهم، وحتى «يُمنح اليهود حقَّ السيطرة على فلسطين».

لم تأتِ الضغوط على ويلسون للتصريح بمساندته للصهيونية علنًا فقط من داخل البلاد، بل أيضًا من الحكومة البريطانية المساندة للصهيونية. ومع أنه كان قد وافق سرًّا على الاتفاق مع فرنسا على وضع فلسطين تحت الانتداب الدولي، فإن وزير الخارجية البريطاني بلفور كان يأمُل في قيام الولايات المتحدة بإدارة الأرض المقدَّسة، إما وحدها أو بمشاركة بريطانيا. وكانت المزايا المزدوجة للخطة تكمُن في منح قناة السويس حمايةً أكبر، مع إشراك أمريكا رسميًّا في مساعي تأسيس وطن قومي لليهود. ولكن بلفور كان لديه أسباب أخرى أقل عقلانية للسعي وراء إعلان أمريكي بريطاني بدعم الصهيونية. فقد آمن أن مثل هذا التصريح سيُقنِع اليهود الأمريكيِّين من ذوي السلطة والنفوذ — الذين كان كثيرون منهم لا يزالون مرتبطين ثقافيًّا بألمانيا — بالمصادقة على اشتراك أمريكا في الحرب. وكان ذلك سيؤدي أيضًا إلى إقناع الشيوعيِّين الروس — الذين كانت

قوَّتهم تتنامى، وكان يبدو أن عددًا كبيرًا منهم من اليهود — بعدم السعي وراء سلام منفصل.

وسعيًا وراء تحقيق تلك الأهداف — الواقعية منها والوهمية — وصل بلفور إلى الولايات المتحدة في أبريل عام ١٩١٧. وقد اتَّجهت نيَّته إلى استعراض أفكاره حول فلسطين، عن طريق حديث «رجل لرجل» مع ويلسون عن الاتفاقات السرية للحلفاء حول الشرق الأوسط. كان بلفور قد وُلِد أثناء قمة القوة البريطانية، في عام ١٨٤٨، وكانت آراؤه تقليدية ومحافظة للغاية، وكان بلفور ينتمي إلى مدرسة «مسئوليات وأعباء الرجل الأبيض» في مجال العلاقات الخارجية. وكان ذلك الموقف كثيرًا ما يثير تناقضًا في واشنطن، بالضرب على أوتار التفوق الأنجلوساكسوني من ناحية، ومعاداة الاستعمار من ناحية أخرى. ومع ذلك فلم يُظهِر الكولونيل هاوس أيًّا من مشاعر عدم الثقة تلك. وكتب، بعد علمه بخطط وزير الخارجية البريطاني: «كلها سيئة، وقد أخبرت بلفور بذلك. إنهم يجعلون من الشرق الأوسط مكانًا لتوليد حرب مستقبلية.» وكانت أشدَّ الأمور إثارةً لغضب واشمئزاز هاوس اقتراحٌ بانتداب أمريكا على فلسطين. فخمَّن أن «الإنجليز يريدون بالطبع سدَّ الطريق إلى مصر والهند، ولن يستنكفوا أن يستغلونا لتنفيذ تلك الخطة».

كان الخيار أصعبَ بالنسبة إلى ويلسون، الذي كان من أشد المعجبين ببريطانيا منذ زمن طويل، لكن كان له ردُّ فعل سلبي أيضًا. فقد بدت له اتفاقية سايكس بيكو، وهي الاتفاقية الأوروبية السرية لتقسيم الإمبراطورية العثمانية، مثل علامة شاي تجارية، فقال: «[إنها] مثال جيد للدبلوماسية القديمة، ويمكنها أن تؤدي إلى تهدئة الحماسة [الأمريكية] للحرب. وإن شعبنا ومجلسنا النيابي لن يكافحا من أجل أي هدف أناني من جانب أي طرف مشترِك في الحرب ... خاصة من أجل تقسيم المناطق، كما جرى التفكير بشأن آسيا الصغرى مثلًا.» وأضاف أن أمريكا تعارض كل المحاولات السرية والخفية لتقسيم الشرق الأوسط، ومن بينها اقتراحات بريطانيا بشأن فلسطين.[6]

بعد صدمة بلفور في الإدارة الأمريكية، اتَّجه إلى برانديس. وحيَّاه أثناء المقابلة قائلًا: «لقد سمعت الكثيرَ عنك، وأرغب في الحديث إليك»، وقال بلفور عن برانديس إنه ربما يكون «أكثر الأمريكان تميزًا» قابله في حياته. بل الواقع أن بلفور عرف القليل من برانديس مما لم يكن يعرفه من قبل. ومع أن الصهاينة الأمريكيِّين كانوا يفضلون بناء دولتهم القومية تحت رعايةٍ أنجلوأمريكية، فإنهم كانوا واثقين من أن الولايات المتحدة لن توافق أبدًا على أهداف بريطانيا الاستعمارية، ولن تقوم بأي دور استعماري في فلسطين. ولكن برانديس

كان مؤمنًا بأن الرئيس ويلسون سيساند ويدعم أيَّ إعلان بريطاني بصيغةٍ عامة يساند الأهداف الصهيونية. وأكَّد ذلك قائلًا:

«غالبية الرأي المسيحي في هذا البلد، خاصة الكنائس البروتستانتية، تساند فكرتنا.»

وكان بلفور سعيدًا بذلك كلَّ السعادة. فبالعمل عن طريق برانديس كان سيحصل على تأييد أمريكي رسمي، وإن يكن غير مباشر، لطموحات بريطانيا في الشرق الأوسط. وأعلن بلفور: «أنا صهيوني.»

واجه التحالف الوثيق بين بريطانيا والصهيونية ويلسون بمعضلة أساسية: كيف تجري معارضة الاستعمار، وفي نفس الوقت مساندة فكرة وطن قومي لليهود؟ وزاد القرار تعقيدًا بسبب مشاعر ويلسون المتناقضة نحو اليهود والصهيونية. ومع أن ويلسون كان يحترم اليهود المتميزين من أمثال برانديس وفرانكفورتر، فإنه كان يصغي أيضًا إلى المقولات الشعبية المعادية للسامية حول سلطة اليهود وحبهم للمال وطمعهم وجشعهم. لكنه كان يؤمن أيضًا بأن إعادة فلسطين لليهود لها تبِعات دينية، وليس فقط سياسية، وأنه قد قدَّر له هو، وودرو ويلسون، تسهيل لَمِّ الشمل هذا. فأخبر الحاخام وايز ذات مرة: «إنني أنا ابن الأبرشية يجب أن أكون قادرًا على المساعدة في إعادة الأرض المقدَّسة لشعبها.» وكانت محاولة التوفيق بين مشاعره المتناقضة نحو اليهود والصهيونية، وبين الصهيونية والحاجة إلى رسم سياسة خارجية مستقلة عن أوروبا، هي الشغل الشاغل لويلسون، ومن بين أولوياته الأولى، ومن بين أهم التحديات التي واجهها في الحرب وما بعدها.

واتضحت صعوبةُ التغلُّب على هذا التحدي بجلاء في ٩ من مايو ١٩١٧، في لقاءٍ استمر ٤٥ دقيقة بين ويلسون وبراندیس. وقد عبَّر الرئيس فيه عن إعجابه بالحركة الصهيونية وهدفها الخاص بإنشاء «وطن آمن قانونيًّا ورسمي للشعب اليهودي في فلسطين». وقد تعهَّد بأنه يومًا ما سيعلن تلك المشاعر على الملأ، ولكن نظرًا لواقع أن الولايات المتحدة لم تحارب تركيا وأن العديد من الحلفاء كانت لديهم خطط أخرى بشأن الشرق الأوسط، فضَّل ويلسون اتباعَ سياسة الصمت. ولكنه وعد براندیس بأنه سيضع مسوَّدة للتصريح الرئاسي بشأن الصهيونية عندما يأتي الوقت المناسب للإعلان عن ذلك.

ولكن شخصيات أخرى في الإدارة الأمريكية، وعلى رأسها وزير الخارجية روبرت لانسينج، كانت تعارض إعلان أيَّ تصريحات حول الصهيونية على الإطلاق. وقد حذَّر الكولونيل هاوس ويلسون من «العديد من المخاطر الكامنة» في إصدار مثل هذا التصريح. وكانت النتيجة سلسلة من الرسائل المتناقضة الصادرة من البيت الأبيض، بدأت بمقاومة

فكرة وطن لليهود تحت رعاية البريطانيِّين، وانتهت بقبولها. ولكن في كل الأحوال طالب ويلسون بعدم ذكر دوره في المناقشات المحيطة بالوثيقة الخاصة بهذا الموضوع. ولكن يبدو أن براندیس لم يتأثَّر بهذا التحفُّظ، واستمر في التأكيد لقادة الصهيونية بأن الرئيس «متعاطف للغاية» مع قضيتهم. وأصبحت اتصالاته، حسب قول فايتسمان، «أحدَ أهم العوامل في قرار الحكومة البريطانية إعلانَ تصريحها بشأن الصهيونية».

وقد تشجَّع بلفور بالفعل لِما اعتقد أنه مساندة ويلسون الضمنية، وعمل على وضع الصيغة النهائية للنص. وفي الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧، نشرت الحكومة البريطانية ما أصبح فيما بعدُ أكثرَ وثائق القرن تأثيرًا وإثارة للجدل. كان وعد بلفور، كما أُطلق عليه، في الحقيقة رسالةً من بلفور إلى المالي الصهيوني ليونيل والتر روتشيلد، وكان أكثر ما ميَّز تلك الرسالة الواجبات التي فرضتها والأشخاص الذين تمكَّنت من تخطيهم. الحكومة البريطانية «نظرت بعين الرضا» إلى تأسيس دولة قومية لليهود في فلسطين، لكنها لم تَعِد بتحويل فلسطين إلى دولة يهودية ذات سيادة. بالإضافة إلى أن القادة البريطانيِّين تعهَّدوا — في تنازل لكلٍّ من وزارة الخارجية واليهود غير الصهاينة — بأن تأسيس وطن قومي لليهود لن يؤثِّر على «الحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين» أو على «الوضع الذي يتمتَّع به اليهود في أي بلد آخر».[7]

وعلى الرغم مما يلفُّ وعد بلفور من غموض وتنازُل، فقد فُسِّر على نطاق واسع بأنه التزام بضمان دولة يهودية، وأنه انتصار لا مثيل له للصهيونية. وآمن اليهود في جميع أنحاء العالم أنه لم يكن بالإمكان صياغةُ ذلك الوعد دون موافقة ويلسون. وقيل إن ١٠٠ ألف يهودي رقصوا شكرًا وعرفانًا بالجميل خارج القنصلية الأمريكية في مدينة أوديسا الروسية. وقام عدد آخر بنفس مظاهر الفرح أمام مقارِّ البعثات الأمريكية في اليونان والصين وأستراليا. ووصلت تلال من تلغرافات الشكر إلى البيت الأبيض.

وربما يأتي أكثر التعابير وضوحًا عن موافقة ويلسون على وعد بلفور في هيئة الدعم الأمريكي للكتيبة اليهودية. كانت هذه الكتيبة إحدى وحدات الجيش البريطاني، وكان تنظيمها يقع على عاتق قائد صهيوني شديد المراس هو فلاديمير جابوتنسكي، وكانت مكوَّنة من يهودٍ من دولٍ شتَّى. ومع أن القانون الفيدرالي كان يحرِّم على الجيوش الأجنبية التجنيد على الأراضي الأمريكية، فإن إدارة الرئيس ويلسون لم تعترض عندما بدأ جابوتنسكي في تجنيد اليهود الأمريكيِّين. ومع بن جوريون وغيره من اللاجئين الفلسطينيِّين الذين وجدوا ملجأ في الولايات المتحدة، تطوَّع ١٧٢٠ يهوديًّا أمريكيًّا، مكوِّنين

بذلك أكبرَ كتيبة عِرقية في الجيش. وفي نيويورك وبالتيمور وبوسطن غنَّى المجندون النشيد القومي الصهيوني «هيكفاه» بمعنى الأمل، وهم يسيرون بجانب فِرق الموسيقى ذوي الآلات النحاسية، والخطباء السياسيِّين، وحشود من العضوات التابعات لجمعية النساء الصهيونيات «هداسا» اللاتي كن يوزعن الهدايا في الطريق إلى السفن التي كانت ستحملهم إلى معسكرات في كندا. أُسِّسَت تلك الكتيبة باعتبارها الوحدة التاسعة والثلاثين للمشاة الملكية، وهي الوحدة التي لم تشارك في القتال إلا في سبتمبر عام ١٩١٨، عندما خاضت نهر الأردن بالقرب من أريحا تحت وابل من النيران، وكان ذلك قبل وقف إطلاق النار بشهر واحد. ومع ذلك، فإنَّ مجرد وجود قوة قتالية يهودية — وكانت الأولى منذ ما يقرُب من ألفي سنة — تحمل أعلامًا وشعاراتٍ عليها نجمة داود قد منح اليشوف الذين يتعرَّضون للضغط الشديد دفعةً قوية، بالإضافة إلى أنه قدَّم نموذجًا للمؤسسات الصهيونية الدفاعية فيما بعد. وكان الأمريكيون منهم بصورة خاصة قد كوَّنوا سمعة بالشجاعة والثبات. وعلَّق جابوتنسكي على ذلك قائلًا: «جاء الأمريكيون باهتمام قوي حماسي بفلسطين، وكل ما هو فلسطيني.» ومن بين المحاربين الأمريكيِّين القدامى في تلك الكتيبة كان النحَّات جيكوب إيبستاين، وعمدة القدس المستقبلي جيرشون أجرون (أجرونسكي) ونيحيميا رابين، الذي قاد ابنه إسحاق فيما بعدُ الجيشَ والدولة اليهودية كلَّها.[8]

ولكن بعض الأمريكيِّين كانوا أقل سعادة بالانطباع السائد بأن هذا التصريح أو الوعد بدأ أولًا من واشنطن، وليس من لندن. فحثَّ لانسينج مثلًا الولايات المتحدة على إبقاء مسافة بينها وبين تلك السياسة، وألا تقوم بأي خطوة رسمية أو علنية لإقرارها. كانت أمريكا مهدَّدة بأن تصبح طرفًا في الاستيلاء على المناطق التركية، وفي التحالف مع الأقلية اليهودية الصهيونية ضد الأغلبية المعارضة للصهيونية. وفي كلمة أخيرة، حذَّر لانسينج من أن «العديد من الطوائف المسيحية والأفراد المسيحيِّين سيستاءون بلا شك من تحويل الأرض المقدَّسة إلى السلطة المطلقة لعِرق عُرف عنه أنه قتل المسيح».

شارك دبلوماسيون أمريكيون آخرون لانسينج في تحفظاته بشأن الصهيونية. فقد وصف صامويل إديلمان، رئيس وحدة مخابرات الشرق الأدنى بوزارة الخارجية، وكان يهوديًّا من أصلٍ ألماني، وصف الصهيونية بأنها نتاج يهود شرق أوروبا المبتذلين الذين كان لهم تأثير «ملوِّث وغير مقبول» على فلسطين. أما سفير الولايات المتحدة لدى بريطانيا، والتر هاينز بيج، فقد اعتبر الصهيونية فكرةً «عاطفية ودينية ... وخيالية وشاذَّة»، وأوصى بألا تعيرها الولايات المتحدة أيَّ اهتمام أو تضعها في الاعتبار أكثرَ من ذلك. واقتنع هنري

مورجنتاو أيضًا بتحذيرات لانسينج. فهو لم يكن يومًا من دعاة الصهيونية، ونادرًا ما قرَّبته معارضته من الحركة بفعل مساعيه للسلام مع تركيا، والآن كان مورجنتاو يزعم أن أي محاولة لمنح فلسطين لليهود ستثير «٤٠٠ مليون مسيحي» على الثورة.

وقلةٌ من مسئولي الشئون الخارجية هم مَن كانوا أكثرَ صراحةً من ويليام ييل في معارضتهم للصهيونية. كان ييل في الثلاثين من عمره، ومتخرِّجًا في جامعةٍ تحمل الاسم نفسه، وكان قوي البنية وزير نساء بحسب وصفه لنفسه، دائمًا ما يحمل في جيبه «بُرجُميَّة»، وكان قد جاب الشرق الأوسط باعتباره ممثلًا لشركة ستاندارد أويل. ولكن عام ١٩١٧ ترك مجال البترول ليصبح عميلًا خاصًّا في وزارة الخارجية، ملحقًا بالجيش البريطاني في فلسطين وسوريا. وتزامن تعيينه مع إصدار وعد بلفور، وكان تقدير ييل لتأثير تلك الوثيقة محملًا بالتحيُّز وبُعد النظر. فقد وصف غضب «شباب المسلمين والحماسيِّين منهم الذين كانت خططهم لا تحمل أيَّ بشرى لسلام في فلسطين»، ووصف غرور «شباب اليهود المتحمسين» الذين يمثِّلون «النوع البغيض … من هذا العِرق، والذين كانوا في كثير من الأحوال مجموعةً من المحتالين الطائشين والجهلة». ولكن ييل تنبأ أيضًا بردة فعل من المسلمين على مستوى العالم أجمع، ضد كلٍّ من بريطانيا والولايات المتحدة، انتقامًا لمساندتهما للصهيونية. وأضاف أن «التعصب الديني والقومي» من جانب كلٍّ من اليهود والعرب سيؤدي إلى «خصومة عنيفة» في كل المجالات السياسية والاجتماعية. وتنبأ ييل في تشاؤمٍ بأنه «إذا أُسِّسَت دولة يهودية في فلسطين، فإن ذلك يجب أن يكون بقوة السلاح، وأن يُحافظ عليها بقوة السلاح أيضًا وسط شعوب عدائية للغاية».

لم يفُت الرئيس ويلسون بالطبع مثل هذه التحذيرات المتوقدة. فأخبر لانسينج أنه «لا يرغب، ولكنه مضطرٌّ إلى الموافقة» وذلك بشأن وجود مخاطر من الدعم الصريح للصهيونية. وكان من بين تلك المخاطر الرئيسية احتمالُ أن يسعى الأتراك إلى الانتقام من الإرساليات التبشيرية الأمريكية وعمال الإغاثة، وهي نفس المخاوف التي كانت قد حالت بين الولايات المتحدة والاشتراك في حرب الشرق الأوسط. ولكن ويلسون كان مؤمنًا أيضًا بأن وعد بلفور أُعلن جزئيًّا بناءً على موافقته، وأنه بمرور الوقت سيتعين عليه أن يجهر بموافقته ودعمه.

وجاءت تلك اللحظة في ٦ سبتمبر عام ١٩١٨، وهي عشية رأس السنة اليهودية. كانت الحرب في الشرق الأوسط تقترب من نهايتها، وكان التهديد للمبشِّرين الأمريكيِّين وعمال الإغاثة قد تضاءل كثيرًا. وشعر ويلسون بأنه قادرٌ على الوفاء بوعده لبرانديس.

فتمنى للمواطنين اليهود سنةً سعيدة، وكانت تلك في حدٍّ ذاتها حركة خارقة للعادة، فعبَّر ويلسون عن استشعاره «الرضا بالتقدُّم الذي تحقِّقه الحركة الصهيونية» في بلاده، وكذلك بالرضا عن «موافقة بريطانيا على تأسيس وطنٍ قومي للشعب اليهودي في فلسطين».[9] ومع أن الرئيس الأمريكي وعد بالحفاظ على «الحقوق الدينية والمدنية» لغير اليهود في فلسطين وعلى وضع اليهود المستمرين في الشتات، فقد ربط رسميًّا بين الصهيونية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة.

منذ البدايات الأولى للصهيونية منذ مطلع القرن وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت الحركة قد حقَّقت مكاسبَ مؤثِّرة. فوصل عدد أعضاء الاتحاد الصهيوني في أمريكا إلى ٢٠٠ ألف عضو، ووصلت ميزانيتها إلى عدة ملايين من الدولارات. وكان ويلسون قد منح الحركة موافقته، وكذلك فعل العديد من الشخصيات غير اليهودية ذات النفوذ في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى بعض أهم الشخصيات اليهودية الأمريكية المبجَّلة.

كان الكثير من الفضل في تحقيق تلك الإنجازات يعود إلى الرجل الذي كان قد قضى معظم حياته بعيدًا عن أي زاوية من زوايا الحياة اليهودية. ولكن التاريخ سيذكر برانديس دائمًا باعتباره أبًا للصهيونية الأمريكية، النبيل خريج جامعة هارفارد، الذي منح الشرعية والهيبة لحركةٍ كانت تُعدُّ قبل ذلك مجرد حركة هامشية، إن لم تكن مريبة. وظل برانديس نشطًا من أجل القضية الصهيونية حتى وفاته عام ١٩٤١، وفيما بعدُ أُطلِق اسمه على إحدى المستوطَنات، وهي مستوطَنة عين هاشوفيت — أي عين القاضي — في فلسطين. وقد أثبتت مساهماته أهميتَها خلال الحرب العالمية الأولى. وبعد ذلك تغيَّرت أهداف الصهيونية. وشيئًا فشيئًا تراجعت رؤية برانديس لتأسيس وطن يهودي غير محدَّد الملامح مترابط من خلال علاقات اقتصادية وثقافية، لتُفسِح المجال أمام صراع من أجل كيان سياسي مستقل له جنسية وحدود. وظهر قادة صهاينة جدد يسعون ليس فقط إلى إيجاد مأوًى للاجئين في أرض إسرائيل، بل إلى تكوين دولة ذات سلطة وسيادة.

كانت الصهيونية تتغير، وكذلك كانت التحديات التي تواجهها. وكان أهمُّ تلك التحديات عائقًا، من الغريب أن لم يلحظه برانديس وجيله. فقد صرَّح برانديس أثناء زيارته الوحيدة لفلسطين عام ١٩١٩ أن «العرب في فلسطين لا يمثلون عائقًا جِديًّا. وفي رأيي أن المسألة العربية ستَحُلُّ نفسها بنفسها إذا عالجناها معالجةً سليمة».[10] ولكنَّ أمريكيِّين آخرين، مثل لانسينج وإيدلمان وييل، كانوا قد بدءوا يختلفون مع هذه الفرضية. وكذلك كان عدد متنامٍ من العرب يختلفون معها.

الفصل العشرون

تنبَّهوا واستفيقوا أيها العرب

في حرم الجامعات وفي شوارع المدن المكتظَّة، وعلى صفحات الجرائد وفي وقائع جلسات النوادي الأدبية، كانت الفكرة تتعمق رويدًا رويدًا. كانت الأمة العربية موجودة دائمًا، ومن خلال مزيج من الثورات الداخلية والدبلوماسية الدولية، أكَّدت هذه الأمة ذاتها مرةً أخرى في شكل دولة موحَّدة مستقلة. وعلينا ألا ننسى في هذا السياق أن مفهومَ القومية العربية نشأ أصلًا في الأيديولوجيات القومية والوطنية للغرب، واخترق الشرق الأوسط بمساعدة مدارس الإرساليات وكلياتها، التي كان الكثير منها أمريكيًّا. وبَّخ جمال باشا، والي سوريا، القنصلَ الأمريكي في دمشق قائلًا: «أنا أدري لماذا الأتراك مكروهون في هذا البلد. الكلية السورية البروتستانتية تسبِّب الاحتقار للأتراك ... والكتب التي تدرِّسها تلك المؤسسات ... تبثُّ تلك الروح». وقد كان من الطبيعي أن يصبح العرب المسيحيون، الذين كان عدد كبير منهم قد انتظم في الدراسة في تلك المدارس، مناصرين للقومية العربية، وعملوا على تكوين روابطَ وأواصرَ مشتركة مع الغالبية المسلمة المحيطة بهم.

ولكنَّ العرب المسلمين الذين كثيرًا ما رفضوا التعاليم الدينية للمبشِّرين، لم يشعروا بأي تعاطف مع أفكارهم العلمانية الغربية. فقد كانوا يمتلكون قوميةً بالفعل — هي الأمة الإسلامية، التي كانت تمثِّلها الإمبراطورية العثمانية. وقد سعى القليلون منهم لإيجاد هوية مشتركة مع المسيحيِّين، وإيجاد فرصة للانضمام إليهم في رفض الحكم العثماني. وبدلًا من الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية، فضَّلوا الحصول على حقوق إضافية داخل نطاقها مع تحقيق الوحدة، ليس عن طريق فلسفة غريبة عنهم، ولكن من خلال العودة إلى دينهم الإسلامي. ونادرًا ما عرَّف هؤلاء أنفسهم على أنهم عرب؛ فقد ظلُّوا في نظر أنفسهم أولًا وأخيرًا، مسلمين. وعلى العكس من ذلك، كان المقيمون في الشرق الأوسط والذين ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم عربًا في الأساس — بغضِّ النظر عن هويتهم

الدينية — ويتطلعون إلى دولة منفصلة، ظلُّوا يمثلون أقليةً صغيرة. وكانت هذه الأقلية تتكوَّن من مجموعات صغيرة من المفكِّرين والمثقفين الذين تلقَّوا تعليمًا غربيًا، والذين كان معظمهم من المسيحيِّين في سوريا، وكذلك المغتربين العرب في أوروبا. وبحلول بداية القرن التالي لم يكن نداء «تنبَّهوا واستفيقوا أيها العرب» الذي رفعه إبراهيم اليازجي، خرِّيج الكلية السورية البروتستانتية في عام ١٨٦٨، قد لفت الانتباه بعدُ.[1]

ظلَّ الوضع على ما هو عليه حتى قام شباب الأتراك بثورتهم في عام ١٩٠٨. إذ تحولت فجأةً الإمبراطورية العثمانية التي ظلت قرونًا طويلة هي حصن الإسلام وحامية اللغة العربية وثقافتها إلى أداةٍ لفرض هوية تركية علمانية. قوَّت الثورة الميول الوطنية للعرب المسيحيِّين، وأجبرت العرب المسلمين لأول مرة على التساؤل عن ولائهم وإخلاصهم لإسطنبول. ففي الجمعيات السرية في القاهرة ودمشق وبغداد قام فلاسفةٌ مسلمون، من أمثال عبد الله النديم والضابط الشاب نوري السعيد، بالانضمام إلى مواطنيهم المسيحيِّين، وناقشوا احتمالات استقلال العرب عن الباب العالي. وشهد نفس ذلك العام مظاهراتٍ شعبية ضد الحكم البريطاني في مصر، وفي فلسطين ظهرت أولى بوادر المقاومة العربية للصهيونية.

ورغم أنهم كانوا قد استفادوا من الفرص المتزايدة للتجارة والعمل التي أتاحتها لهم المستوطنات اليهودية الجديدة، فإن قلق العرب الفلسطينيِّين بشأن ازدياد الهجرة اليهودية وشراء أراضي العرب كان قد تصاعد. وظهر الاستياء على السطح في مارس ١٩٠٨، عندما أدى احتفالٌ لليهود بعيد بوريم إلى نشوب شجار مع متفرِّجين عرب في يافا. وفي نفس الوقت في حيفا، أسَّس المحرِّر الأدبي نجيب نصار جريدةً جديدة باسم «الكرمل»، وكرَّسها لكشف التهديد الصهيوني. ومثل نصار، الذي كان متحولًا حديثًا من الطائفة اليونانية الأرثوذكسية إلى البروتستانتية، كان معظم المعارضين الأوائل للصهيونية من المسيحيِّين. وكان عدد كبير منهم قد اكتسب حسَّه بالقومية في المدارس الأمريكية والكلية السورية البروتستانتية. وقد حذَّروا من أن مخاطر الصهيونية لا تهدِّد العرب الفلسطينيِّين فقط، بل الأمةَ العربية بأسرِها.

ولكنَّ المسلمين العرب أيضًا كانوا قد أصبحوا متيقظين للتحدي الصهيوني. وفي فلسطين خاصة، خشيت الجالية المسلمة التي عاشت هناك قرونًا طويلة من الانفصال عن الأمة الإسلامية أن تجِد نفسها أقليةً من الدرجة الثانية في دولة يهودية. فكتب أحدهم من القدس وهو خليل السكاكيني في عام ١٩١٤: «لقد انتهى حقُّ اليهود في فلسطين بمرور

الزمن. أما حقُّنا فقائم ولا جدال فيه. فماذا سيفعل اليهود إذا ثار الحسُّ القومي للعرب؟ وكيف سيتمكنون من مقاومتهم؟»

وشغَل مستقبل فلسطين — ومستقبل الشرق الأوسط عامة — المفكرين القوميِّين كلما ازداد اشتعال الحرب في المنطقة. وتجاوب العرب المسلمون عامة بحماسة لنداء الباب العالي من أجل خوض حرب مقدسة، وخدم عدة آلاف منهم في صفوف الجيش التركي. وفي حين تمكَّن البريطانيون من إشعال شرارة ثورة عربية ضد تركيا، ومن جمعِ كثير من الوطنيِّين حول قضيتها، كان التمرُّد في الحقيقة قد اشتعل بسبب الرغبة في إحياء خلافة عربية نقية مستقلة عن الأتراك المستغربين وليس بسبب القومية العربية. وكان قائد هذا التمرد، الشريف حسين، رأس القبيلة الهاشمية وحامي مكة، يؤمن بأن العرب بإمكانهم التوحُّد فقط تحت راية الإسلام، وليس تحت أي راية أخرى عِرقية أو ثقافية.[2]

وظلَّت القومية العربية غير ناضجة خلال السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى رغم أنه قُدِّر لها أن تصبح قوةً بناءة في الشرق الأوسط. واقتصرت الحركة بصورة كبيرة على هوامش المجتمع العربي، وقام الأتراك بقمعها بكل عنف. ولكن الحرب ساعدت على تمهيد الطريق لازدهار القومية العربية. وفي حين تمَّت معظم تلك الاستعدادات في الشرق الأوسط، كان عددٌ لا يُستهان به منها يتم في الولايات المتحدة، من خلال مجموعات ملهَمة من العرب الأمريكيِّين.

عن الرُّسل والقضاة

بين عامي ١٨٨٠ و١٩١٤، وصل ما يقرب من ١٠٠٠٠٠ شخص يتحدث العربية إلى الولايات المتحدة، وأقاموا بصفة أساسية في الشمال الشرقي، لكنهم كوَّنوا أيضًا جاليات صغيرة في كل ولايات الاتحاد. هاجر معظمهم من سوريا، وجاء آخرون من جنوب الأناضول وفلسطين ومصر، بحثًا عن التحرُّر من الاضطهاد الديني وهروبًا من المجاعات. كان ما يقرُب من ٩٠٪ منهم مسيحيون، وعمل عددٌ منهم باعةً جائلين، يحملون مستلزمات منزلية مثل الخيط والكبريت والشمع والأدوات المنزلية إلى المنازل والمدن الأمريكية. كانوا يسافرون مسافاتٍ بعيدة، مكوِّنين أفكارًا وانطباعات عن وطنهم الجديد تتسم بالرومانسية إلى حد بعيد، تمامًا كالتي كان يحملها الأمريكيون عن الشرق الأوسط. قال أحدهم، وهو سلوم رزق متذكرًا: «بلد الأمل ... بلد الرضا ... بلد الحرية ... حيث

تتحقَّق أحلام المرء. بإمكاني أن أرى أمريكا ... تنير ظلمات جهلي، تندفع شواطئها الكبيرة من بين الضباب الذي كان بداخلي».

ربما كان المهاجرون سعداء لمغادرتهم الشرق الأوسط المضطرب من أجل السلام والفرص المتاحة في أمريكا، لكنهم ظلوا موالين للغتهم وثقافتهم الأصلية. كان العديد من هؤلاء العرب الأمريكيِّين قد تلقَّوا تعليمهم في مدارس الإرساليات، التي ركَّزت على التدريس باللغة العربية، أو استفادوا بأي شكل آخر من الكتب الدراسية المكتوبة باللغة العربية والقواميس التي كان المبشِّرون ينتجونها. ومنذ عام ١٨٩٢ صدرت في نيويورك أولُ جريدة عربية باسم «كوكب أمريكا»، وبنهاية الحرب العالمية الأولى كانت تسع جرائد عربية تُوزَّع هناك. كما تأسَّست جمعياتٌ أدبية في العديد من المدن الأمريكية، وكانت بمثابة المختَبَرات لطلائع الشعراء وكتَّاب المقالات والمسرحيات العرب.

كان الأشهر من بين هؤلاء جبران خليل جبران. كان مارونيًّا هادئًا، ضئيلَ الحجم، ذا شوارب، جاء من شمال لبنان، واستقر في منطقة جنوب بوسطن الفقيرة في عام ١٨٩٥. وبعد عودته إلى لبنان لاستكمال دراسة اللغة العربية، أبحر جبران مرةً أخرى إلى الولايات المتحدة خلال الحرب ليصبح ناشطًا من أجل التحرر العربي. وقد دعا العرب — مسلمين ومسيحيِّين — إلى الاتحاد في صراعهم المسلَّح ضد الحكم التركي، متسائلًا: «إلى متى سيظل الهلال والصليب متفرقَين أمام عين الرب؟» ولكنَّ الشعر — وليس السياسة — هو ما جلب له الشهرة في مهجره المختار. وقد احتفى به مجتمع بوسطن، مقتنعًا بأن صوره المجازية تتضمَّن نظرات ثاقبة عن الحب والطبيعة والله. وبحثًا عن معانيه الخفية، كثيرًا ما غاب عن قرائه موضوعاتُ الهوية القومية والتوق للاستقلال التي كانت تتخلَّل سطور شعره. وأعلن جبران في ملحمته الكلاسيكية «النبي»: «عندما تفقد الحرية قيودها وأغلالها تصبح هي ذاتها قيدًا لحريةٍ أكبر».[3]

وربما كان صديق جبران المقرَّب وشريكه الأدبي أحيانًا أمين الريحاني أقلَّ شهرة على الصعيد الفني، لكنه أثبت أن له تأثيرًا سياسيًّا يفوق تأثير جبران بكثير. ومثل جبران كان الريحاني مارونيًّا لبنانيًّا انتقل مع عائلته وهو في الثانية عشرة من عمره إلى الولايات المتحدة، لكنه عاد فترةً قصيرة إلى بيروت لاستكمال تعليمه العربي. وبتأثُّره كثيرًا بكِتاب واشنطن إيرفنج «حكايات الحمراء»، بكلِّ ما حمله من صور صوفية عن إسبانيا المسلمة، طمح الريحاني إلى تكوين مزيج أدبي من الثقافتين العربية والغربية. كان يوصي السفن الداخلة والمغادرة ميناء نيويورك: «احملوا للشرق بعضَ نشاط الغرب،

واحملوا للغرب بعضَ سكون الشرق. أوصِلوا لمصر وسوريا الكثيرَ من علومكم الهندسية، واجلبوا من عندكم كومةً من الصفات العربية النبيلة». ومثل جبران أيضًا، كان الريحاني شغوفًا بالحرية، خاصة «روح الحرية الأمريكية» المطبوعة عليه من خلال الكلية السورية البروتستانتية، فقال: «من بين كل المؤسسات التعليمية في سوريا التي تشجِّع على هذه الرؤية الروحية السامية، تأتي الكلية الأمريكية ببيروت في المقام الأول».

كان الريحاني داكنَ البشرة أنيقًا ونشيطًا، كما كان خطيبًا جذابًا ساحرًا، وقد أعلن عشقه لحريات «العالم الجديد» أمام جمهور من العرب الأمريكيِّين، حاثًّا إياهم على المساعدة في تحقيق تلك الحريات لأوطانهم في الشرق الأوسط. وشرح ذلك بقوله: «في بلد لم تتحقَّق فيه حرية المواطن بعد، يمكن للإنسان أن يخدم بلده بطريقة أفضل من مسافة آمنة». ولكن الريحاني لم يكن يسعى للأمان؛ لأنه بدخول أمريكا الحربَ العالمية الأولى، نادى الريحاني في كل مهاجري الشرق الأوسط أن يتطوعوا للقتال. وصرَّح في خطاب لتيدي روزفلت: «واجبنا الأول هو نحو مهجرنا المختار، الذي ستصبح مُثله السياسية هي مُثل كل أمة في العالم. أنا لم أكن فخورًا يومًا بكوني مواطنًا أمريكيًّا كما أنا اليوم». ولكن هذا الفخر كثيرًا ما أثبت أنه مُبالَغ فيه وخطر أيضًا. فأثناء محاولته استقطاب مهاجرين سوريِّين ولبنانيِّين في المكسيك للانضمام إلى الجيش الأمريكي، اعتُقِل الكاتب وطُرِد من البلاد.

كان حبُّ الريحاني للولايات المتحدة لا ينفصل عن إعجابه بالعالم العربي، ورغم ذلك كان قاسيًا في نقده لقصور هذا العالم. فالجهل والانقسام الطائفي والتعصُّب الديني كانت كلها — من وجهة نظره — فقط بعض الأمراض المتوطنة في الشرق الأوسط. وقال هوارد بليس، بعد الاستماع إلى أحد انتقادات الريحاني، معاتبًا: «من المؤسف أن تلمِّح إلى بعض العلل أو المآخذ في الإسلام، في وقتٍ يحاول فيه أفضل الناس أن يتحدوا من أجل صالح ... الإمبراطورية». ولكن انتقادات الريحاني كانت موجهةً في الحقيقة فقط إلى تلك الزوايا من المجتمع العربي التي شعر أنها بحاجة إلى تعديل جذري. ستتم مثل هذه التغييرات من خلال حركات وطنية — من بينها الحركة الوهابية، الأمر الذي يُعَد غير مألوف، حيث كان الريحاني يرى أنها «دليلٌ على قدرة روح العربي وطموحه نحو الحرية، والطبيعة المرنة لنسيجه الديني» — وكذلك من خلال الولايات المتحدة المحسِنة الخيِّرة. «مقدَّر لصوت أمريكا أن يصبح صوتَ العالم».

واجه تحوُّل الشعب العربي الذي استشرفه الريحاني عقباتٍ عديدة. وكان أشدها إصدار وعد أو تصريح بلفور في نوفمبر ١٩١٧. إذ قال الريحاني ساخرًا: «بالفعل أصبحت

أرض الميعاد أرضًا موعودة أكثر من اللازم». وفرَّق الريحاني بين «اليهود الأصليِّين» في فلسطين، الذين اعتبرهم عربًا، وبين الصهاينة الأوروبيِّين، الذين اعتبرهم في الأساس رجعيِّين «يريدون العودة إلى زمنِ ما قبل الرومان». واقترح أن يقوم اللاجئون اليهود الروس بالانتقال إلى تكساس بدلًا من فلسطين؛ فهي منطقة شاسعة غير مأهولة بالسكان، حيث يمكن إعادة توطينهم — حسب رأي الريحاني — «دون التجنِّي على الحقوق الدينية والمدنية للجاليات والمجتمعات غير اليهودية المقيمة هناك».

وخلال الشهر التالي جاءت صدمةٌ لم تكن أقلَّ شأنًا من سابقتها. فقد قامت الحكومة البلشفية في روسيا — في أولى خطواتها بعد الاستيلاء على السلطة في موسكو وتوقيعها على وقف إطلاقٍ للنار منفصل مع ألمانيا — قامت بنشر اتفاقات الحلفاء السرية مع الدولة العثمانية. وعرف العالم فجأةً أن القوى الكبرى كانت تخطِّط لإعادة تقسيم الشرق الأوسط، وأن وعدَ بريطانيا الخادع بتأسيس دولة عربية مستقلة — وهو المقابل أو المكافأة عن قيام العرب بالثورة على الدولة العثمانية — كان على غير أساس. كان هذا الكشف مدمرًا للقوميِّين العرب في كل أنحاء الشرق الأوسط، ومؤلمًا للغاية بالنسبة إلى الريحاني. وكانت رؤيته حول دولة عربية قوية وموحَّدة قد استُعيض عنها فجأةً «بحلم عن إمبراطورية، تساندها الأموال الأمريكية والأسلحة الإنجليزية». وحذَّر الريحاني من التبعات الكارثية في حالة حرمان العرب من حريتهم: حذَّر من ثورات وحروب قد تجر الولايات المتحدة إليها، وهي ممزَّقة بين الضغوط السياسية الداخلية ومصالحها المتنامية في الشرق الأوسط.[4]

كان الريحاني هو المرادف العربي لبرانديس؛ فقد كان مثقفًا نشيطًا، وجَّه قوة أمريكا المعنوية وضميرها لخدمة دعوته القومية. ولأن نظرته كانت علمانية أيضًا مثل برانديس، فقد التزم كلا الرجلان بنشر عقيدة أمريكا المدنية في الشرق الأوسط. ولم يرَ أيٌّ منهما تناقضًا بين ولائه للولايات المتحدة والدعوة لاستقلال شعبه. ولكن على عكس برانديس، الذي كان يمتلك قاعدة تنظيمية قوية وصلات سياسية ونحو عدة ملايين من اليهود الأمريكيِّين التابعين له والمؤيدين لفكره، لم يكن الريحاني يمتلك وصولًا للسلطة، كما كان عدد أتباعه قليلًا، سواء كانوا فعليِّين أو محتمَلين. ورغم ذلك كانت القومية العربية قد بدأت في جذب مناصرين ومتعاطفين من ذوي نفوذ في الولايات المتحدة، سواء داخل أو خارج الحكومة.

فقد اعترف الكولونيل هاوس في مذكراته بأنه «يكنُّ مشاعر طيبة للعرب وسيضع نفوذه في خدمتهم كلما كانوا على حق». ولكن مستشار الرئيس لم يكن وحدَه المتعاطف

مع أهداف العرب السياسية. فقد كانت هناك مجموعة صغيرة، لكنها ذات نفوذ سياسي، من رجال الصناعة — من العاملين في مجال البترول بوجه خاص — متخوِّفة من المنافسة البريطانية الفرنسية، فكانت تسعى إلى تحالف مربحٍ للطرفين، بين الولايات المتحدة والقومية العربية. وكان بعض العاملين في وزارة الخارجية الأمريكية، الذين كان العديد منهم من أبناء المبشِّرين الأمريكيِّين الذين كانوا قد صاغوا مفهوم القومية العربية، قد انضموا إلى المبشِّرين العاملين في الشرق الأوسط لتصوير القومية العربية باعتبارها من مصالح أمريكا على المدى الطويل. وظهر هذا المزيج الجديد ذو التأثير المتنامي بين مصالح عالم الأعمال والدبلوماسية والدِّين في مثال تشارلز كرين، رجل الأعمال والخيِّر الذي أصبح من أكبر مناصري العرب في أمريكا.

وُلد كرين في شيكاجو في عام ١٨٨٨ وهو ابنُ أحد أقطاب مجال تجهيزات المراحيض، وسرعان ما ملَّ كرين من العمل في نفس هذا المجال، وبدلًا من ذلك وقع أسيرًا لهوى وانبهار بآسيا، امتد معه طوال حياته. وكان أيضًا رجلًا متدينًا، وعضوًا مخلصًا تابعًا للكنيسة المشيخية. وامتزج هذان الاهتمامان بالنسبة إلى كرين في الشرق الأوسط، حيث خدم في مجالس إدارات كلية روبرت وكلية القسطنطينية النسائية، كما ساعد في تمويل بعثات إرسالية جديدة. كان وجهه طفوليًّا ومنطويًا، وقد صوَّره غلافٌ لمجلة «تايم» وهو مستغرق تمامًا في التفكير خلال لعبة «سوليتير»، ولكن كان كرين في الحقيقة يمتلك ذكاءً ودهاءً سياسيًّا كبيرين. كان يساند المرشح الجمهوري تافت للرئاسة في عام ١٩٠٩، وبعد ذلك بأربع سنوات أصبح أحد أكثر المساهمين سخاءً في حملة ويلسون. وقد شغَل ابنه ريتشارد منصب السكرتير الشخصي لروبرت لانسينج.

كان كرين أيضًا من أوائل الدعاة إلى استقلال العرب. وفي عام ١٩١٤ رعى سلسلة من المحاضرات حول تاريخ العرب وثقافتهم في نخبة الجامعات الأمريكية. وإذا كان برانديس قد نظر للصهاينة باعتبارهم تجسيدًا للمستوطنين الأوائل المجتهدين، فإن كرين كان مؤمنًا بالصورة الشعبية الأمريكية عن العرب باعتبارهم محبِّين للحرية ونابذين للتطرف، أي إنهم كانوا بمثابة «الموحِّدين في الصحراء». وقد رعى عددًا من المفكرين والمثقفين العرب، من المسلمين والمسيحيِّين على السواء، منهم جورج أنطونيوس، المؤرخ الشهير. وأهدى أنطونيوس دراسته عن الحركة القومية العربية باسم «يقظة العرب» إلى «تشارلز كرين، الذي أطلق عليه «هارون الرشيد»»، في إشارة إلى الخليفة الشهير في قصة «ألف ليلة وليلة».

كان ينافس إعجابَ كرين بالعرب فقط نفورُه من الصهيونية واليهود. وعلى عكس رعاة الإرساليات التبشيرية الأمريكية في القرن التاسع عشر، لم يكن كرين يمتلك أيَّ حماسة أو قناعة تجاه فكرة الاسترجاعية، ولم يكن يملك سوى احتقارِ ما اعتبره «تهديد اليهودي الحديث الانتهازي الذي يمارس ضغوطًا». كان مدافعًا عن مذابح القيصر الروسي ضد اليهود، ومعجبًا بثورة هنري فورد ضد «اليهودي الدولي». لذلك اعتبر كرين مصطلح «معاداة السامية» وسامَ شرف. ورغم أنه رُشِّح لمنصب سفير أمريكا في الصين، فإن كراهيته الصريحة والصارخة لليهود جعلت الرئيس تافت مضطرًّا إلى إلغاء هذا الترشيح.[5]

ولكن معاداة السامية لم تظهر بوضوح في الفكر القومي العربي خلال تلك الفترة. بل على العكس، كان النشطاء في تلك الحركة كثيرًا ما يتعمَّدون التعبير عن الأخوَّة مع يهود الشرق الأوسط. حتى إنهم أعلنوا في إحدى المرات قبولَهم لفكرة التعايش مع الصهيونية. وقد حارب على الأقل مائة يهودي من بغداد مع العرب في ثورتهم، وشاركوا في الاحتفالات عندما استسلم الأتراك أخيرًا في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨.

وبعد ذلك بشهر واحد انتهت الحرب العالمية الأولى، تاركةً واضعي السياسات الأمريكيِّين في اضطراباتٍ بسبب معضلاتِ ما بعد الحرب. ومن بين أكثر المشكلات تعقيدًا كانت المسائل المتعلِّقة بالشرق الأوسط. ولم يكن بالإمكان الاستمرار في تجاهل القومية العربية، التي كانت يومًا ما قوةً سياسية يُستهان بها. ولكن نفس الشيء كان ينطبق على الصهيونية أيضًا. وكان لحلفاء أمريكا — بريطانيا وفرنسا — اللذين كان تعاونهما ضروريًّا وحيويًّا لتأسيس النظام العالمي الجديد، مطالبُ أيضًا في الشرق الأوسط، بل مطالب بعيدة المدى والأثر. وكان التحدي الضخم الذي ينتظر الرئيس ويلسون خلال مؤتمر السلام الدولي بباريس هو كيفية التواؤم مع كل تلك الطموحات المتزامنة والمتناقضة في آنٍ واحد مع الحفاظ على مبادئ أمريكا ومصالحها. وانضم إليه هناك أمريكيون آخرون: برانديس وفرانكفورتر والريحاني وكرين، وكانوا يمثلون قافلةً من القضاة والرسل، يهدُف كلٌّ منهم إلى إعادة تشكيل المنطقة حسب أهداف فريقه. ولكن القرارات النهائية بقيت في يد ويلسون، الرئيس الذي كان يرى نفسه أيضًا من خلال منظار العهد القديم للتوراة: محقِّق العدالة وكيَّال العِقاب.

الفصل الحادي والعشرون

أول عملية سلام في الشرق الأوسط

يمكن أن نعزوَ كثيرًا من الحروب والثورات التي زلزلت الشرق الأوسط المعاصر بالإضافة إلى أحلام وإحباطات سكَّانه إلى مؤتمر باريس للسلام لعام ١٩١٩، وإلى أكثر مشاركيه إلهامًا ثم إحباطًا.

جاء وودرو ويلسون إلى باريس، ليس فقط بصفته الرئاسية، ولكن أيضًا بكثير من المفاهيم والهموم الأيديولوجية والشخصية والدينية. وقد تدبَّر مليًا ذات مرة «كيف لا يمكن لصبي صغير ألا يتخطى أبدًا فترة الصبا، وكيف لا يمكنه أبدًا تغيير تلك التأثيرات الخفية التي أصبحت جزءًا منه». فقد قضى ويلسون سنواته الأولى بين الخراب والحرمان في جنوب الولايات المتحدة خلال فترة ما بعد الحرب. وتركت فيه تلك الذكرى كرهًا دائمًا للحرب ودمارها، وتصميمًا على حفظ السلام كلما وأينما استطاع. وفي نفس الوقت كان والده وجَده، وكلاهما من القساوسة، قد بثَّا فيه إيمانًا بأهمية الأخوة المسيحية بين الأفراد وأيضًا بين الأمم، وحسًّا بأن قدرَه يحتِّم عليه تحقيق ذلك. ولاحقًا في فترة شبابه، وخلال تَرحاله عبْر بريطانيا، أصبح ويلسون مغرمًا بالحضارة الأنجلو سكسونية وقدرتها على «القيام بالتفكير نيابةً عن العالم أجمع». وكانت ثقته في نزاهة الولايات المتحدة قد قادته وهو رئيس جامعة برينستون وحاكم نيوجيرسي، إلى الدعوة إلى سياسة خارجية نشطة بناءً على مُثُل جمهورية أساسية. وكان ويلسون يرى أن رسالة أمريكا هي «الذهاب إلى أقاصي الأرض، حاملةً الضمير والمبادئ التي تحضُّ على السلوك القويم» لتحمل الديموقراطية والاستقرار للعالم.[1]

أثَّرت هذه الأفكار على مفهوم ويلسون لنظامِ ما بعد الحرب، خاصة أنه كان ينطبق على الشرق الأوسط. كان يتعاطف مع شعوب المنطقة التي كانت قد عانت بشدة خلال القتال، ويدرك احتياجها إلى الكرامة والاستقلال. ولمساعدتها على تحقيق هذه الأهداف

ولضمان السلام العالمي، كانت رؤية ويلسون تتَّجه إلى تكوين عصبة للأمم، وهو تجمُّع دولي تسوده القيم الأنجلو ساكسونية. وحسب هذه الرؤية يظهر الشرق الأوسط من بين رماد المجاعات والإبادة العرقية مجموعةً من الأمم الحرة، عينُها على الغرب، وتسير على نموذج الولايات المتحدة بدعم من رئيسها الثامن والعشرين.

ولكن ويلسون جاء إلى باريس ومعه أكثر من القيم والمُثل: فقد جاء معه بأفكاره المسبقة. كان يحتقر كلَّ أشكال الاستعمار الأوروبي، ومنها الاستعمار البريطاني، وأظهر نفورًا خاصًّا للأتراك. ومنذ عام ١٨٨٩ كان يصف الإمبراطورية العثمانية بأنها «غير طبيعية» و«مثال بالٍ على الأشكال غير المتقنة للسياسة التي تجاوزتها أوروبا». وكان الأتراك من وجهة نظره «شعبًا سهلَ الانقياد» يجب «إخلاء» البلقان وغرب تراقيا منهم. وأكَّد ويلسون للكولونيل هاوس في عام ١٩١٢ أنه إذا دخل العالم الحرب «فلن يكون هناك وجودٌ لتركيا».

كان يقود ويلسون مجموعةٌ من المبادئ العليا، وينفِّره الاستعمار وبعض ضحاياه، وقد جاء إلى باريس بذهنٍ متسامٍ، لكنه كان مشوَّشًا كثيرًا. فمن ناحية، كان يتطلع إلى حل الإمبراطورية العثمانية وتأسيس دول مستقلة في أجزائها المتفرقة. وكانت النقطة رقم ١٢ من خطته ذات النقاط الأربع عشرة، التي عرضها على مجلس النواب في يناير ١٩١٨ تَعِد «بضمان للحياة لا شك فيه، وفرصة لا تشوبها شائبة للتطور المستقل» لـ «أعراق ترزح الآن تحت الحكم التركي». ولكن بعد أقلَّ من عام أخبر ويلسون وزارة الخارجية «أن أمريكا تؤمن بمساعدة كل الإمبراطورية العثمانية للوصول إلى حكم جيد وعلى مزايا الحضارة الحديثة، وأن هذا وضع لا يمكن مهاجمته». وبالإضافة إلى ذلك، لم يحدِّد الرئيس قط أيُّ من الشعوب العديدة في الشرق الأوسط يستحق حقَّ تقرير المصير، وكيفية تحقيق هذا الحق. فقد كان لا يعرف عن جغرافية المنطقة وثقافتها وتقاليدها أكثرَ مما قرأ في الإنجيل.[2]

كان تشوُّش ويلسون بشأن مستقبل الشرق الأوسط قد أصبح واضحًا لوالتر ليبمان، المحرِّر السابق بجريدة «نيو ريبوبليك» الذي كان يشغل منصبَ مساعد وزير الدفاع قبل انعقاد مؤتمر السلام بباريس بستة أشهر. ففي مذكرة داخلية في مايو ١٩١٨، حذَّر ليبمان من أن أمريكا يمكنها أن «تفوز في الحرب وتخسر السلام»، إلا إذا وجدت «العبقرية البحتة الرائعة» الضرورية للتوفيق بين خطط ويلسون المتناقضة بشأن الشرق الأوسط. وانصياعًا لتحذيره، قامت الحكومة بتأسيس قوة مهام سرية، مقرُّها الرئيسي

في مكتبة نيويورك العامة، ولها اسم سري هو «لجنة التحقيق». وأُدرِج اسم أكثر من مائة عالِم في هذه المجموعة، قادة في مجالات متنوِّعة كالهندسة وعلم المصريات وثقافات السكان الأصليِّين لأمريكا. ولكن لا أحد منهم كان متخصصًا في الشرق الأوسط. بل كان «خبراء» لجنة التحقيق يراجعون الموسوعات وكتب الرحلات ومنشورات المبشِّرين — أي كل شيء بخلاف النصوص العربية والتركية — لصياغة خططهم للمنطقة. واتَّبع آخرون خططًا شخصية. فتقدَّم سكرتير المجلس الأمريكي جيمس بارتون مثلًا باقتراح يقضي بأن تُوضَع الإمبراطورية العثمانية بأسرها تحت رعاية أمريكا، تحت القيادة الروحية والأخلاقية للمدارس والكليات التبشيرية.

ولكن ابتكرَت لجنة التحقيق عددًا من المفاهيم طُبِّقت في الشرق الأوسط. وكان معظمها ينبع من «قسم غرب آسيا» التابع للمشروع، تحت القيادة الدءوبة لويليام ويسترمان، أستاذ التاريخ القديم بجامعة ويسكونسن. آمن ويسترمان بأن خطط أوروبا السرية بشأن الشرق الأوسط يجب «أن تُلقى في صناديق القمامة»، وبأنه على الولايات المتحدة أن تأخذ بزمام القيادة في إعادة تنظيم المنطقة بأسرِها. وبذلك يُحافَظ على منطقة الأناضول التركية كيانًا مستقلًّا، ويُدبَّر تنظيمٌ دولي لإسطنبول ومضيق الدردنيل ودولة أرمينيا الجديدة. كانت الوصاية الأجنبية أيضًا ضرورية لربط الشعوب القبَلية في سوريا وبلاد الرافدين بعضها ببعض وتحويلها إلى أممٍ مترابطة متماسكة ولضمان الحرية الدينية أيضًا. أما فلسطين فكان يُحتفظ بها لليهود. «لأنها مهد وموطن عِرقهم الحيوي، الذي قدَّم إسهاماتٍ روحية كبيرة للإنسانية، ولأنها هي البلد الوحيد الذي يمكنهم أن يأمُلوا في إيجاد موطن خاص بهم فيها». ولكن من خلال تعرُّفهم على الحاجة إلى ضمان حقوق سكان المنطقة من غير اليهود، وبسبب إمكانية وجود «تعصب وخلافات دينية مريرة»، اقترحت «لجنة التحقيق» أن تُوضَع فلسطين أيضًا تحت إشراف الغرب، ومن الأفضل أن يكون تحت إشراف بريطانيا.[3]

جُمعت التوصيات الخاصة بالشرق الأوسط من «لجنة التحقيق» في تقرير باسم «الحدود العملية العادلة للإمبراطورية التركية» في نوفمبر ١٩١٨، وهو شهر توقيع وقف إطلاق النار. ولكن ويلسون اختار ألا يُطلِع الحلفاء عليها. وكانت النتيجة هي تكثيف حُجُب عدم الثقة حول سياسات الرئيس. بالنسبة إلى بريطانيا وفرنسا كانت هذه التوصيات تبدو أقلَّ اهتمامًا بمعاقبة الهجوم التركي عن اهتمامها بمنع المنتصرين من الحصول على غنائم الحرب التي استحقوها عن جدارة. كما كان الأمر نفسه بالنسبة

إلى لانسينج أيضًا، الذي كان قد اختلف مع الرئيس كثيرًا، وأيضًا بالنسبة إلى الكولونيل هاوس، الذي ابتعد عنه كثيرًا، كان لديهما في أفضل الأحوال فهمٌ مبهم لخطة ويلسون من أجل تطبيق مبدأ حق تقرير المصير. لذلك قال وزير الخارجية متأملًا: «ألن يعتمد مسلمو سوريا وفلسطين، وربما أيضًا مسلمو المغرب وطرابلس عليها؟ فكيف يمكن إيجاد توافق بينها وبين الصهيونية، التي التزم بها الرئيس عمليًّا؟»

ومن ناحية أخرى كانت شعوب المنطقة من اليهود والعرب والأرمن والأكراد وحتى الأتراك جميعًا منتشية من السعادة بسبب النقاط الأربع عشرة، وفي منتهى الامتنان لواضعها. فحيًّا القائد الوطني المصري سعد زغلول الرئيسَ ويلسون قائلًا: «لم يشعر شعبٌ ... بالمشاعر البهيجة المصاحبة لميلاد عهد جديد ... (مثلما شعر المصريون) بفضل تصرُّفكم الرجولي ... هذا العهد الذي سينشر عما قريب فوائدَ السلام ومزاياه».[4] كانت مناطق كثيرة من الغرب تنظر إلى ويلسون باعتباره حالِمًا خطيرًا، وكان كثير من مناطق الشرق الأوسط ينظر إليه باعتباره منقذها، أما ويلسون، الذي لم يكن يبدو حالمًا ولا مخلصًا، بل ذا مظهر كنسي صارم بسبب نظارته وتصلُّبه وقبَّعته العالية، فاتخذ طريقه إلى محادثات السلام بباريس.

غنيمة الحرب الكبرى

وصل ويلسون إلى باريس في ١٢ ديسمبر ١٩١٨، وكان بذلك أولَ رئيس يخرج عن نطاق النصف الغربي للكرة الأرضية خلال فترة رئاسته، وقد حظي باستقبال حافل. ولكن الحشود التي خرجت لاستقباله كانت مجرد تغطية على المخاطر العديدة التي تنتظره خلال المحادثات. ورغم أن فرنسا وبريطانيا كانتا قد ألزمتا نفسيهما علانيةً «بالتحرير التام والأكيد للشعوب التي طالما اضطهدها الأتراك، وبتأسيس حكومات وطنية تستقي سلطتها من الاختيار الحر للشعوب المحلية» فقد كانت القوتان لا تزالان تعقدان خططًا سرية لاستعمار الشرق الأوسط. كان رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج متلهفًا على مد إمبراطورية بلاده من مصر وحتى الخليج العربي، وعلى استخدام الولايات المتحدة كحصن ضد التعديات الفرنسية والروسية. أما نظيره الفرنسي، جورج كليمنصو الماكر الانتقامي الداهية، فقد كان مصممًا على احتفاظ فرنسا بسوريا، وعلى وضع فلسطين تحت حكم نظام دولي. وفضَّل كلا الزعيمين تقسيمَ الأناضول، مع الاحتفاظ بقطاعاتٍ للإيطاليِّين واليونانيِّين، وعدم منح تركيا أيَّ دور. وسأل جان جوسران، الدبلوماسي الفرنسي الكبير،

لانسينج: «أليس من الأفضل أن يحدِّد الحلفاء مصيرَ الإمبراطورية العثمانية السابقة دون إعاقة المحادثات معها؟» كما اعترض البريطانيون أيضًا على أي مناقشة حول فارس، البلد الذي كانت الولايات المتحدة تعتبره محايدًا، والذي قرَّرت بريطانيا أن تضمه إلى مناطق مصالحها الحصرية، أو إلى الحماية البريطانية في مصر. أما بالنسبة إلى معظم المشاركين في المؤتمر، فكان الشرق الأوسط — حسب كلمات الأستاذ الجامعي ويسترمان — «الغنيمة الكبرى للحرب».

وجاء ويلسون إلى المؤتمر مصممًا على معارضة أي استيلاء جماعي على الشرق الأوسط. وقالت إحدى توصياته: «تنوي الولايات المتحدة أن تتجاهل تمامًا هذه الاتفاقات الأوروبية، إلا إذا حدَث بمحض المصادفة أن تضمَّنت شروطًا معينة نعتبرها نحن عادلة وملائمة». كما كان الرئيس مصممًا كذلك على الحفاظ على مصالح أمريكا الاقتصادية والثقافية في المنطقة، ولكن دون تحمُّل مسئوليات إضافية سياسية وعسكرية.

كانت قدرته على تحقيق تلك الأهداف تبدو للوهلة الأولى مذهلة. فقد كانت الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي خرج غير مجهد من الحرب، وبجيشٍ قوامه مليون جندي سليم. ولكن هذا التميز انكسر في الشرق الأوسط الذي كان خاليًا تمامًا من أي قوات أمريكية، باستثناء بضع مئات من المتطوعين في الأسطول اليهودي. وتذكَّر ويسترمان أن «عدم إعلاننا الحرب على تركيا جعل منَّا دائمًا طرفًا خارجيًّا، غير قادر على التأثير على المسار الفعلي للمحادثات، أو على وضع بصمتنا على القرارات التي تُتَّخذ». وعلى العكس من ذلك كان حوالي ٢٠٠ ألف جندي بريطاني يحتلون المدن الاستراتيجية في الشرق الأوسط، من بغداد إلى دمشق، ويسيطرون على غرب الأناضول. وتفاخر لويد جورج، عديم الضمير والمبادئ ذو الوجه الشيطاني قائلًا: «كان على الحكومات الأخرى فقط أن تضع بضعة رجال شرطة من الزنوج لتتأكد أننا لم نسرق الضريح المقدس». ولكن بالانضمام إلى الحرب، كان ويلسون يأمُل في الحصول على تصريح بحضور مؤتمر السلام، وألا يتعين عليه «أن ينظر من خلال ثقب الباب»، ولكن في الشرق الأوسط، حيث اختار حماية المبشِّرين الأمريكيِّين بدلًا من استعراض القوة الأمريكية، ظل الباب مغلقًا في وجهه بطريقة مثيرة للإحباط.[5]

وكشفت أمريكا عن يدٍ ضعيفة نسبيًّا في مسائل الشرق الأوسط في ٣٠ يناير ١٩١٩، عندما تناول المؤتمر أخيرًا مسألةَ الإمبراطورية العثمانية. رفض الحلفاء الأوروبيون تطبيقَ مفهوم ويلسون لمبدأ حق تقرير المصير على المنطقة، وأن يتخلوا عن ادعاءاتهم في الحق في قطاعاتٍ عريضة من المناطق. واتَّهم ويلسون تلك القوى بأنها تسعى إلى ضم الشرق

الأوسط إليها، ومن ثَم تقويض رؤيته لعصبة الأمم. وقال ويليام ييل، الذي كان يشغَل وقتئذٍ منصبَ أحد مستشاري ويلسون: «بالرغم من … الدعاية بشأن تحرير الأعراق المضطهَدة، فإن البريطانيِّين والفرنسيِّين … يعملون فقط من أجل مصالحهم في الشرق الأدنى». وأكَّد وزير المستعمرات الفرنسية السابق جاستون دومرج هذا الاتهام، صارخًا: «العقبة الوحيدة أمامنا هي أمريكا!»

كُسِرت تلك العقبة بأسلوب مناسب عندما ابتكر جان سموتس، وهو رجل دولة جنوب أفريقي نحيل (وهو أيضًا مبتكِر كلمتي «شمولي» و«تمييز عنصري» باللغة الإنجليزية) مفهومَ «الانتداب». وحسب هذا المفهوم، تقوم عصبةُ الأمم بمنح حق السيطرة على الأقاليم العدوة السابقة لعدة قوًى، بهدف إعداد شعوبها للحكم الذاتي. وترابطت تلك الفكرة بتوصيات «لجنة التحقيق» من أجل مستقبل الشرق الأوسط، ولاقت ترحيبًا من المسئولين الأوروبيِّين المتلهفين على الحصول على مستعمراتٍ تحت ستار مستنير أُقرَّ دوليًّا.

بعد ذلك صوَّت مجلسٌ تمثيلي مكوَّن من عشر دول من الحلفاء، لوضع أرمينيا وسوريا والعراق وفلسطين والجزيرة العربية تحت الانتداب. ولكن لم يُفكِّر تفكيرًا كافيًا في كيفية تقسيم ذلك الانتداب، أو ما إذا كانت شعوبها راغبة فيه. فالبريطانيون مثلًا، كانوا لا يزالون متلهفين على إبعاد الفرنسيِّين عن قناة السويس، وإخراج نظام الحكم السوفييتي الجديد تمامًا من الشرق الأوسط، كما كانوا يريدون أن تصبح الولايات المتحدة هي سلطة الانتداب في سوريا وأرمينيا. فقال لورد كيرزون، وزير الخارجية البريطاني الجديد: «علينا أن نلعب لعبةَ حق تقرير المصير بأي ثمن؛ لأننا نعرف في قرارة أنفسنا أننا سنستفيد من ذلك أكثرَ من أي طرف آخر». وشاركه في سخريته اللاذعة اللواء تاسكر بليس، الذي كان لواءً في الجيش ولغويًّا ودبلوماسيًّا ماهرًا يشغَل منصب المستشار العسكري الرئيسي للرئيس ويلسون، فقال: «أينما كان الانتداب يغطي آبار بترول ومناجم ذهب فإن بريطانيا العظمى ستحصُل عليه. وسنطلب من الولايات المتحدة أن تقوم بالانتداب على كل أكوام الحجارة وتلال الرمال المتبقية».

ولكن بالنسبة إلى ويلسون كانت مسألة الانتداب الأمريكي لا تزال موضعَ نقاش. ورغم أنه شخصيًّا رحَّب باقتراح الانتداب الأمريكي على أرمينيا، حيث كان للولايات المتحدة الكثير من الاستثمارات الثقافية، إلا أن ويلسون شكَّك فيما إذا كانت أغلبية أبناء بلاده ستتَّفق معه على ذلك. وشرح ذلك قائلًا: «لا أعتقد أنَّ هناك ما يميل الشعب الأمريكي إلى النفور منه أكثر من المسئولية العسكرية في آسيا». وأضاف ويلسون أنه ليس بإمكان أي

رجل واحد أن يتخذ قرارَ ما إذا كانت الولايات المتحدة ستقبل القيام بمثل هذه المهمة الضخمة، حتى لو كان الرئيس شخصيًّا، فقط مجلس النواب كان هو القادر على اتخاذ مثل هذا القرار. ورغم ذلك ظل الحلفاء يضغطون على ويلسون في هذا الموضوع، وإن يكن ذلك فقط ليوازنوا تردُّد أمريكا في قبول أعباء الانتداب في الشرق الأوسط مع استعداد أوروبا لتحملها.[6]

وفي نفس الوقت الذي كان ويلسون فيه يتصارع يتصدَّى لمطالب الحلفاء، كان يتعرَّض من ناحية أخرى لمحاولات مضنية من قِبل مجموعات المصالح والضغط الدينية والعرقية في الولايات المتحدة. وكان أفضل تلك المجموعات تنظيمًا هم الصهاينة، الذين احتفظوا بسيل متدفِّق من المعلومات لمساندةِ ما أسموه بـ «الكومنولث اليهودي» في فلسطين — وهو ما كان أقل من دولة، ولكن أكثر من مجرد وطن قومي. وكانت وجهة نظر اليهود هي أن هذا الكومنولث سينمو من خلال هجرة وتدفُّق ٨٠ ألف مهاجر يهودي سنويًّا؛ لذلك سرعان ما سيعتبر تمثيلًا لأغلبية سكان فلسطين، مما يجعله محققًا وملبيًا لمفهوم ويلسون لحق تقرير المصير.

نجح هذا التبرير في إقناع العديد من المشاركين في المؤتمر، ومنهم على غير المتوقَّع فيصل ابن الشريف حسين وقائد الثورة العربية. وعندما زار فيلكس فرانكفورتر الأميرَ في بيته خارج باريس، أكَّد له أن اليهود ليس لديهم رغبة في حرمان العرب من حقوقهم الوطنية، وأن الحركتين يمكنهما التعايش معًا في سلام، بما يحقِّق صالحهما معًا. ويتذكر فرانكفورتر ضئيل الحجم قائلًا: «ها أنا ذا الضئيلُ الحجم أقابل الأمير»، ملاحظًا كيف أن نفس هذا الأمير قدَّم له القهوة بكل لطف. وقد أثَّر كرم الضيافة العربي هذا في فرانكفورتر، وأضاف إلى سعادته أن فيصل ظلَّ يمدح اليهود باعتبارهم «أولاد عمومة في العِرق» وتمنَّى لهم أن يجدوا «ترحيبًا حارًّا بعودتهم» كما عبَّر عن «عميق تعاطفه» مع الطموحات الصهيونية، التي وصفها بأنها «معقولة ومعتدِلة» و«قومية وليست استعمارية». واختتم الأمير بأن سوريا رحْبة بما يكفي لاستيعاب الصهيونية والقومية العربية. وقال: «أعتقد بالفعل أن أيًّا منهما لا يمكن أن يحقِّق نجاحًا دون الآخر».

أنكر فيصل لاحقًا إدلاءه بهذه الإفادات، لكنَّ إسهاماته في القضية الصهيونية كانت باتَّةً. إلا أن فيصل نفسه هذا كان مبجَّلًا لدى الأمريكيين المساندين للموقف العربي في باريس. ومن خلال إنصاته إلى هذا «المستبصِر الجليل نصير المسلمين» الذي كانت سلوكياته تدُل «على هدوء وسكون الصحراء»، تحوَّل لانسينج الصامت عادةً إلى شخص

حالمٍ حُلمًا مألوفًا لكل المسافرين الأمريكيِّين إلى الشرق الأوسط. فقال: «يبدو صوته وكأنه يبثُّ عطر اللبان ويوحي بوجود الأرائك الزاهية الألوان، والعمامات الخضراء وبريق الذهب والمجوهرات». زعم فيصل أن ١٠٠ ألف عربي قد اشتركوا في ثورته — ورأى ييل أن الأقرب إلى الواقع أنهم كانوا ٢٠٠٠ — وتنبأ بأن العرب سيشيِّدون يومًا ما تماثيلَ احتفاءً وتكريمًا للولايات المتحدة. ولكن هذه المبالغات زادت من جاذبية الأمير الهاشمي بالنسبة إلى الأمريكيِّين. فتحدَّثت السيدة الأولى إديث ويلسون عن «الشبه القوي بينه ... وصور المسيح»، وحتى ويليام ويسترمان، الرجل الشمالي والأكاديمي الرصين في «لجنة التحقيق» كان متأثِّرًا به بشدَّة. إذ قال: «فيصل رجل عظيم. لقد اعتنقت دينًا جديدًا».

وقدَّم لانسينج وويسترمان توازنًا مؤثرًا للتأثير الصهيوني في باريس، ولكن أصواتهما لم تكن الوحيدة. فقد أُغرقت البعثة الأمريكية بخطاباتٍ تطالب بعدم تكوين كومنولث يهودي، ولم تأتِ هذه الخطابات من العرب الأمريكيِّين فقط، ولكن أيضًا من اليهود الأمريكيِّين ومن الأرثوذكس والإصلاحيِّين على السواء. وقدَّم هنري مورجنتاو مذكرةً موقَّعة من ٢٩٩ من «أبرز اليهود الأمريكيِّين» الذين ندَّدوا بالصهيونية في محاولة لتفنيد ولائهم للولايات المتحدة. ولكن أكبر الضربات الموجَّهة للحملة الصهيونية جاءت من قِطاع من الجمهور الأمريكي كان في السابق مغرمًا بفكرة الدولة اليهودية. فقد حذَّر أوتيس جليزبروك، قس القدس والقنصل الذي عبَّر عن تعاطفه مع اليهود في بداية الحرب، والذي أصبحت كلماتُه الآن تردِّد صدى سلفه المعارض للصهيونية سيلا ميريل، حذَّر من أن «معارضة المسلمين والمسيحيِّين لمنح مزايا استثنائية لليهود في فلسطين أمرٌ حقيقي ومكثف وعالمي». وتنبأ جليزبروك بأن اليهود الروس سيأتون بالبلشفية إلى فلسطين، وأن اليهود المتحدِّثين باللغة اليديشية موالون للألمان. «ستلتهب القدس سريعًا — أما نابلس والخليل فهي نقاط الخطر الحقيقية».

كان جليزبروك ينتمي إلى جيل المبشِّرين التابعين لهنري جيسوب ودانييل بليس، الذين غامروا إلى الشرق الأوسط من أجل تحويل العرب عن ديانتهم، ولكنهم في النهاية تحولوا إلى أنصار للقومية العربية. وبانفصال أهداف القومية العربية عن أهداف الصهيونية بل وتضاربهما، أصبح الصدع بين المبشِّرين والصهاينة غيرَ قابل للرأب. وحدَثت أوضحُ مظاهر ذلك الانشقاق في ١٣ فبراير، عندما مَثُل هوارد بليس أمام مجلس العشرة.

كان رجلًا طويل القامة، نحيلًا، مضموم الكتفين، له شعر رمادي، فقد كان في التاسعة والستين من عمره، وقام هذا الرجل الكبير بكثير من الاستعطاف والمناشدة من

أجل العرب. فأكَّد قائلًا: «إنهم أذكياء ومهرة وكرماء ومحبوبون. ولكن لديهم كل نقائص الشعوب التي طال اضطهادها: الجبن والتملُّق والأساليب الملتوية»، لكنه أكَّد بعد ذلك لمستمعيه أن السكان العرب لسوريا سيتمكنون بمرور الوقت وببعض الإرشاد والتوجيه من «تنمية القدرة على تقرير المصير والاستقلال». وحثَّ البعثات على سؤال العرب عما يفضِّلون: الحكم الأجنبي أو الحكم الذاتي. وأضاف أن ما يفضِّلونه بالتأكيد هو سوريا حرة، ومعها فلسطين، تحت حماية الولايات المتحدة.[7]

ولكن لم يكن لدى ويلسون الوقت الكافي للتفكير في اقتراح بليس. ففي اليوم التالي، ومن خلال مسوَّدة معاهدة في يده لعصبة الأمم، غادر داعية السلام المستقبلي متجهًا إلى الولايات المتحدة. وكانت تنتظره هناك كتلة قوية من النواب المعارضين لعضوية أمريكا في تلك العصبة. كان هنري كابوت لودج والعديد من النواب الذين كانوا فيما سبق قد أصروا على تدخُّل الولايات المتحدة في الحرب ضد تركيا يريدون الآن أن تتراجع الولايات المتحدة عن أي تدخل في حل ذلك الصراع. فقد كان لودج وزملاؤه يخشون أن تقوم عصبة الأمم بتقليص سيادة أمريكا ورهن أمنِها لكتل مكوَّنة من مقاطعات صغيرة غير ديمقراطية.

كان معارضو ويلسون مهتمين خِصِّيصى بشئون الشرق الأوسط. فقد أدَّت سنوات من التقارير الصحفية عن المذابح الأرمينية وغيرها من أعمال العنف إلى تقوية كراهية الشعب الأمريكي التقليدية لتركيا والدين الإسلامي. فقال هنري مورجنتاو غاضبًا: «طالما أن القرآن يسمح بالقتل في إطار الدين الإسلامي، فيجب ألا يسمح للمسلمين أن يحكموا المسيحيِّين أو اليهود». كما زارت إديث وارتون، الروائية الأرستقراطية المحترمة، الشرق الأوسط خلال الحرب ونشرت تقاريرَ مريرة للغاية. قالت فيها «لا شيء يُحتَمل في الإسلام سوى ما تركه القصور الإنساني». واتهمت الشرق الأوسط برُمَّته «من فارس إلى المغرب» بأنه مبني على «الرِّق وتعدُّد الزوجات والتمييز ضد النساء». وأدَّت أجواء الكراهية تلك إلى زيادة اقتناع مجلس النواب بعدم الموافقة على أجزاء من اتفاقاتٍ ما قبل الحرب المتعلقة بالشرق الأوسط، أو قبول أي مسئوليات انتداب هناك. واعترض ويلسون قائلًا: «لا يمكنني أن أتخيَّل كيف يمكن لهؤلاء السادة أن يعيشوا في أجواء هذا العالم. فأمريكا هي الدولة الوحيدة التي يمكنها أن تقوم بهذا الانتداب، وأن تجعل بقيةَ العالم تؤمن أن ذلك يتم بنيةٍ صافية، وأننا لا ننوي البقاء هناك».

وفي ٢٠ مارس ١٩١٩ عاد الرئيس إلى باريس وإلى معضلات ومشكلات إضافية. وبمساندة البريطانيِّين طالب فيصل بالاستقلال لكل الجزيرة العربية باستثناء أجزاء من

لبنان وفلسطين، مع انتداب أمريكي محتَمل على سوريا. وأخرجت فرنسا ممثلين سوريِّين لها شهدوا لصالح سيطرة فرنسا على بلادهم. وكان لانسينج يرسم صورًا كاريكاتيرية وهم يتحدثون، أما ويلسون فكان يحدِّق من النافذة بغير اهتمام. وكتب مثيرًا الاضطرابَ في الشرق الأوسط الهادئ الراكد: «الإمبراطورية التركية في الوقت الحالي في وضعٍ سائل وكأنها مصنوعة من الزئبق. النِّمسا انقسمت إلى أقاليم، ولكن الإمبراطورية التركية في وضعٍ سائل غير متماسك بالمرة». وقال ويلسون إنه من أجل غزو سوريا يتعين على الفرنسيِّين أن يسحقوا جيش فيصل المكوَّن من ١٠٠ ألف جندي وأن يخاطروا بصِدام مع بريطانيا أيضًا. وحذَّر الكولونيل هاوس من «متاعب واسعة الانتشار ذات صبغة دينية وعرقية» توشك على الانفجار في سوريا وفلسطين.[8]

ولتجنُّب هذا «الكسر» كما أسماه، وافق ويلسون على اقتراح بليس بإرسال بعثة تقصي حقائق دولية إلى سوريا للتأكد من رغبات سكانها. ووافقت بريطانيا وفرنسا على ذلك، على شرط ألا يقوم المحقِّقون بتغطية سوريا فقط، بل أيضًا كل المناطق المقترحة للانتداب. وقبِل ويلسون بهذا الشرط، ولكن بعدها رفض كليمنصو المشاركة في هذا المشروع ما دام الجنود البريطانيون يحتلون سوريا، وقال لويد جورج إنه إذا قاطعت فرنسا البعثة، فستقوم بريطانيا بالمثل. واستمرت تلك المكائد بباريس، بحيث تحوَّل ما بدأ مجهوداتٍ متعدِّدةَ الأطراف إلى مجرد خطة أمريكية حصرية.

ولتنفيذ تلك الخطة قام ويلسون بتعيين شخصين، ادَّعى أنهما «لا يعرفان شيئًا» عن الشرق الأوسط، وعلى ذلك يمكنهما تقديمُ رأي محايد موضوعي. ولم يكن من الممكن أن تكون هذه التأكيدات بريئة أو مخلصة. وكان المبعوث الأول، د. هنري تشرشل كينج، رغم أنه رئيس كلية أوبرلين، قد تدرَّب ليكون قسًّا أبرشانيًّا ومن مسئولي جمعية الشبان المسيحيين، وكان قد جاب الأرض المقدسة كثيرًا. أما الثاني فكان مؤيدًا للقومية العربية ومعاديًا للسامية، وهو تشارلز كرين، الذي كان «رجلًا ذا خبرة عريضة ومواطنًا عالميًّا» حسب وصف ويلسون. كما انضم إلى موظفي البعثة ويليام ييل، الذي كانت تحفُّظاته بشأن الصهيونية والخطط الأوروبية معروفة جيدًا، بالإضافة إلى ألبرت ليبير، الأستاذ بكلية روبرت.

كان تعيين بعثة بهذا القدْر من الميل ضد أهداف الأوروبيِّين والصهيونية في الشرق الأوسط يُعدُّ تحركًا غريبًا من ويلسون، الذي كان — رغم العديد من الهواجس والشكوك — قد ساند فيما مضى نظامَ الانتداب وتصريح بلفور ووعده. ولكنَّ المبشِّرين كانوا قد

انقلبوا الآن على الصهيونية وأصبحوا يعارضون الاستعمار البريطاني، وكان تأثيرهم على ويلسون كبيرًا، كما أثبتت الأحداث مرةً أخرى. فاعترف قائلًا: «حكوماتنا [المتحالفة] أخذت على عاتقها التزامًا نحو اليهود بتأسيس شيء يشبه دولةً إسرائيلية في فلسطين، يعارضها العرب جدًّا». وهذه العقلية نفسها التي يقودها الإيمان والتي كانت قد منعت ويلسون من شن حرب على تركيا قادته الآن إلى اتخاذ جانب بليس في السعي نحو تأسيس سوريا عربية موحَّدة، تضم فلسطين، ويفضَّل أن تكون تحت الانتداب الأمريكي.

لذلك كانت تلك البعثة تمثل رعبًا للصهاينة. فأطلق عليها فرانكفورتر «فكرة جنونية» وخطة «لغش وخداع يهود فلسطين». وكان الفرنسيون غاضبين أيضًا، ومصرُّون على أن الأمريكيِّين «مستقيمون وصادقون لدرجةٍ تجعل تعاملهم مع الشرقيِّين صعبًا». فقط فيصل كان سعيدًا منتشيًا. فقال إن «بليس هو جذر كل خير في الشرق الأدنى!» وإن أمريكا، بولاياتها الثماني والعشرين، ستكون الحامية والنموذج القدوة للاتحاد العربي المستقبلي. وأكَّد لويلسون أنه «واثق من أنه عندما تزور البعثة سوريا، فإنها ستجد بلدًا موحدًا في حبِّه وامتنانه لأمريكا». وقد تذوَّق الأمير العربي الشمبانيا لأول مرة في حياته حين شرب نَخْب النجاح الوشيك الذي ستحقِّقه اللجنة.[9]

خسوف البعثة الأمريكية

ولكنَّ تفاؤل فيصل كان على غير أساس. فقد أخَّر الخلاف حول الإرشادات رحيلَ البعثة مرة بعد مرة، كما أدَّت نزاعات الحلفاء حول مصير غرب الأناضول إلى نفس النتيجة. وفي محاولةٍ لدعم ادعائهم في الحق في المنطقة، بدأ الإيطاليون في شهر أبريل في إنزال قواتهم قرب أنطاليا، على ساحل البحر المتوسط، مما شجَّع اليونانيِّين على حذو حذوهم. وقام ويلسون — من خلال إحياء تقاليد فيلهيلينية قديمة وإثارة موضوع حقوق اليونانيِّين المقيمين في سميرنا في تقرير المصير — بالانضمام إلى لويد وكليمنصو في دعم مطالب اليونان من أجل الاستيلاء على هذه المدينة. وقام أسطول للحلفاء تضمَّن السفينة «أريزونا» وأربع مدمِّرات للبحرية بمصاحبة قوات الغزو اليونانية التي سرعان ما احتلت سميرنا، لكنها انقلبت بعد ذلك على الأقلية التركية فيها. ويتذكَّر جون ماكدونالد، قبطان السفينة «أريزونا» أن «كبار السن غير المسلَّحين وغيرهم من المدنيِّين الأتراك قُتلوا طعنًا بالسكاكين والخناجر والحِراب. ثم كانوا يُجرَّدون من ممتلكاتهم وملابسهم ويُلقون في البحر». وكان يُعرَض الجنود الأتراك — بعد استسلامهم بعد قتال عنيف — أمامَ الجمهور، ثم يُقتلون.

وكان الأمريكيون المقيمون في المدينة يُجبَرون على اتخاذ مأوًى من المدمِّرات، في حين يقوم مشاة البحرية مرة أخرى بالهرولة إلى الشاطئ لتأمين المؤسسات الأمريكية.

وكانت الحرب التي بدأت بمحاولاتٍ من قِبل أفراد أمريكيِّين لمنع ذبح المسيحيِّين على يد المسلمين قد انتهت بمذبحةٍ للمسلمين على يد المسيحيِّين، وهي أعمال عنف سهَّلتها الولايات المتحدة ولو بغير قصد. وكان أعضاء البعثة الأمريكية مشمئزين بالفعل من هذه الجريمة، ولكنَّ رئيسَي الوزارة الفرنسي والبريطاني رحَّبا بفرصة تحويل انتباه الأمريكيِّين بعيدًا عن مسألة البلاد العربية وتركيزها على تركيا. واستغل كليمنصو ولويد هذه اللحظة فأعادا فتح موضوع الانتداب الأمريكي على أرمينيا وأجزاء من آسيا الصغرى. وكان ويلسون لا يزال يتمنَّى «من كل قلبه أن يوافق الشعب على تولينا الانتداب على أرمينيا»، لكنه طلب إرجاءَ المناقشة الأخيرة لهذا الموضوع حتى ٢٧ يونيو، مانحًا مجلس الشيوخ وقتًا كافيًا لاتخاذ قرار.

وعندما تركَّز انتباه المؤتمر على تركيا، شرع الحلفاء في تقسيم الشرق الأوسط إلى «مناطق عدوة محتلة» تتوافق مع حدود الانتداب المتوقَّعة. فتنازلت فرنسا لبريطانيا عن فلسطين، ومن بينها إسرائيل وأردن اليوم، بالإضافة إلى الموصل فيما أصبح فيما بعدُ العراق، مقابلَ إطلاق يدها في سوريا. واعترض ويلسون قائلًا: «أنا شخصيًّا لم أفهم قط بأيِّ حقٍّ تمنح فرنسا وبريطانيا هذه البلاد لأي دولة أخرى»، وأقسم ألا يعترفَ بهذه المناطق. ولكن بعيدًا عن هذه الخُطَب، لم تقُم الولايات المتحدة بالكثير للطعن في أحقية القوى في الشرق الأوسط أو للتأكد مما يفضِّله السكان الأصليون لتلك المناطق. واشتكى د. كينج من أن «الأمر كان أشبه بفضيحة»، عندما كان عليه وعلى أمريكيِّين آخرين معيَّنين للتحقيق في الوضع في سوريا مغادرة باريس.[10] وأخيرًا وافق ويلسون، وفي ٢٩ مايو، أي بعد أكثر من ثلاثة أشهر من تأسيسها، غادر القسم الأمريكي من بعثة الحلفاء على مناطق الانتداب من محطة قطار ليون متجهًا إلى بوخاريست، في الطريق إلى الشرق الأوسط.

وخلال الأربعين يومًا التالية، زار أعضاء البعثة نحو ستين مدينة وقرية في سوريا وفلسطين. ولم يتَّبعوا أيَّ أسلوب رسمي لتقصِّي الرأي العام — أي لا استقصاء ولا أي صيغة أخرى لجمع الإحصائيات. وكان كينج عالمًا ضئيل الحجم له سَحنة عسكرية واضحة، وقد حزم عدة كتب «تتماشى مع الأجواء»، منها «رباعيات الخيام»، و«التعويذة»، وهي ملحمة السير والتر سكوت عن الحروب الصليبية، و«ألف ليلة وليلة». هذه وغيرها

من الانطباعات المأخوذة من مئات اللقاءات مع السكان كانت بمثابة القاعدة والأساس للخلاصات والنتائج التي أثبتَت أنها واضحة للغاية.

واكتشف كرين وكينج أن «شعوب المنطقة قد أعلنت بالإجماع تأييدَها سوريا متَّحدة، واستقلالها التام». وباستثناء المَوَارِنة وولائهم لفرنسا الممتد قرونًا طويلة فإن كل الطوائف التي استُقصي رأيها، والتي تضمَّنت السُّنة والدروز والمسيحيِّين الأرثوذكس والبروتستانت واليهود، فضَّلت العيش تحت انتداب بريطاني أو أمريكي، وعبَّرت عن نفورها الذي لا يضاهيه نفور من الفرنسيين. وفضَّل فيصل إدارةً أمريكية للجزيرة العربية. وباعتباره «محبًّا كبيرًا للمسيحيِّين» فقد عرض السماح بافتتاح مدرسة للنساء على نمط مدارس الإرساليات في مكة، وترك بذلك انطباعًا لدى أعضاء البعثة بأنه «سياسي مرن لين طيِّع»، إذا «مُنح قدرًا مناسبًا من التعاطف» فإنه «لن يتخذ أيَّ خطوة دون موافقة أنجلو سكسونية».

وسواء تحت رعاية بريطانيا أو أمريكا، فإن العرب كانوا يتوقَّعون الحصول على حريتهم بنفس القدْر من الجِدية التي وُعِدوا بها من قِبل الحلفاء ومن خلال نقاط ويلسون الأربع عشرة. ولم يكن بإمكان العالَم تجاهُل هذه الرغبة، أو تجاهُل حقيقة وواقع أن سوريا وفلسطين، «مهد الديانات السماوية الثلاث التي تتضمن أماكن مقدسة لها جميعًا» كانت «محطَّ اهتمام العالم المتحضِّر أجمع». وحذَّر أعضاء البعثة من أن أي حل لا يعترف بهذه الحقيقة وهذا الواقع، أو يخاطب احتياجات مجموعة عرقية واحدة فقط، سيواجه بالفشل لا محالة. وأن سياسة «البرنامج الصهيوني المتطرف لتحويل فلسطين إلى دولة يهودية بوضوح» هي من أكثر السياسات فشلًا، وقد تؤدي إلى أعمال عنف واسعة النطاق.

كان اهتمام البعثة يرتكز على الصهيونية، إن لم يكن هو الموضوع المهيمن. وقد ادعى واضعو التقرير أنهم بدءوا دراستهم «بحسٍّ عميق بالتعاطف نحو قضية اليهود وأذهانهم تميل لصالحها»، لكنهم «أُجبِروا» على معارضتها بفعلِ ما خلَصوا إليه من نتائج. «فالحقوق الدينية والمدنية» للعرب الذين كانوا يمثلون غالبية سكان فلسطين لم يكن بالإمكان — كما نص وعد أو تصريح بلفور — حمايتها من خلال حركة صهيونية تخطِّط لطرد هؤلاء السكان من خلال الهجرة وشراء الأراضي. كما لم يكن بإمكان «حق» اليهود في فلسطين — بناءً على احتلالٍ وقع منذ ألفي عام — «أن يؤخذ في الاعتبار بجِدية». بالإضافة إلى ذلك، عبَّر أعضاء اللجنة عن تشكُّكهم فيما إذا كان بإمكان اليهود أن

يكونوا أهلًا للثقة حراسًا ورعاةً للأرض المقدَّسة ومواقعها العديدة المقدسة. «فببساطة من المستحيل بالنسبة إلى المسيحيِّين والمسلمين أن يشعروا بالرضا عندما تكون هذه المواقع في أيدٍ يهودية». وقد وجد أعضاء اللجنة أن رفض العرب للصهيونية كان «عميقًا ومكثفًا». وقد اتفقوا مع العديد من الضباط البريطانيِّين الذين أجروا معهم لقاءات وأحاديثَ على أن «قوةً لا يقل قوامها عن ٥٠ ألف جندي ستكون مطلوبة وضرورية لمجرد المبادرة» بتأسيس وطن قومي لليهود.

ورغم قسوتها، لم يكن ثمة إجماعٌ على النتائج التي توصَّلت إليها اللجنة. فقال ويليام ييل في انقلابٍ مفاجئ لوجهات النظر: «في حين يمكن إلحاقُ الظلم بالأفراد الذين يسكنون فلسطين، فإن الظلم لا يمكن أن يلحق بأمةٍ بأكملها. ولكن رغبات وأمنيات ١٤٠٠٠٠٠٠ يهودي لهم تاريخ قومي وتقاليد قومية ومشاعر قومية قوية يجب أن تؤخذ في الاعتبار». وبسبب اندهاشه وصدمته من عدم اتباع اللجنةِ أيَّ منهج علمي، وبسبب الانطباع الجيد الذي خلَّفته لديه المستعمرات التي زارها، أصرَّ ييل الذي كان في السابق ينظر إلى الصهيونية باعتبارها مصدرَ حمَّامات دم لا نهاية لها، على أن يحفظ الحلفاء وعودهم للصهيونية وينفذوها، «مع الضرب بيدٍ قوية على أي مظاهرات ضد اليهود». وامتدح العميل الخاص الإسهامات التي يمكن «للطاقة اليهودية والعبقرية اليهودية والمالية اليهودية» أن تضيفها إلى الشرق الأوسط، ومزايا تأسيس «نقطة حدودية للثقافة الغربية» في المنطقة. وآمن ييل أنه بالنسبة إلى الولايات المتحدة خصِّيصًى فإن تأسيس دولة يهودية «مشبَّعة» بالمُثُل الأمريكية والحضارة الأمريكية سيكون له مزايا تعليمية واستراتيجية لا تُحصى.

ولكن تبريرات ييل، رغم أنها صيغت بحماسة، لم تستطِع لفْت كرين وكينج عن التوصل إلى نتائجَ واضحة جلية. «فبسبب عدد سكانها الكبير من اليهود ذوي النفوذ» الذين سيطالبون بتحقيق الصهيونية، ونظرًا للمقاومة الأنجلو فرنسية وتردُّد الشعب الأمريكي في تحمُّل أعباء خارجية، يجب على الولايات المتحدة ألا تقومَ بالانتداب على سوريا. وأكَّد أعضاء اللجنة أن هذا الدور سيتحقَّق على أفضل وجه من خلال بريطانيا، عبر إشرافها على حكومة عربية تحت حكم فيصل. في تلك الأثناء كان على أمريكا أن تركز على مناطق خارج الشرق الأوسط المتحدِّث بالعربية. «إذ لا يمكن لأي قوة أخرى أن تأتي إلى آسيا الصغرى، ويدها حرة لإصدار أحكام غير متحيزة على كل الشعوب التي يجري الحديث عنها». كما أوصت اللجنة أيضًا بتأسيسِ أرمينيا مستقلة، وحفظِ تركيا كيانًا مستقلًّا.[11]

وتنبَّأت لجنة كرين-كينج بالعديد من الموضوعات المحورية للسياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط في فترةٍ ما بعد الحرب العالمية الأولى: تعاطف مع القومية العربية، وتباين كبير في الآراء ما بين مؤيِّد ومعارض للصهيونية، ونفور من الاستعمار الأوروبي. ولكن لم يُفِد التعرُّف بتلك الأنماط في التأثير على الموقف الأمريكي خلال مؤتمر السلام. فبعد الاجتماع من أجل «مسألة شرقية حقيقية» في قصر فيصل بدمشق، اكتملت بموسيقى عربية ورقص بالسيوف وأزياء بدوية لكل الضيوف الأمريكيِّين، قام أعضاء اللجنة بإعداد المسوَّدة لتقريرهم النهائي.

وصل التقرير إلى باريس خلال الأسبوع الأخير من أغسطس ١٩١٩، بعد توقيع معاهدة فرساي. واعتقد كثير من المراقبين أنه بدلًا من السلام كان مؤتمر باريس قد فرض ببساطة قيودًا مستحيلة على ألمانيا، ومهَّد الطريق لحرب مستقبلية. وبشأن الشرق الأوسط أيضًا بدا وكأن هذا المؤتمر قد أشعل صراعًا بدلًا من أن يخمِده. فبسبب غضبه من محاولات البريطانيِّين إخراج فرنسا من الأناضول صاح كليمنصو: «لويد جورج مخادع غشاش!» ودعا رئيس الوزراء البريطاني إلى المبارزة. ولكن في حين كان قادة أوروبا يتبادلون الاتهامات بالتحايل في الشرق الأوسط، فقد هاجموا أيضًا ويلسون بعنف شديد، بسبب جهله بالمنطقة وتحذلقه وإصراره على أنه على حق. وقال كليمنصو معلقًا: «الله ذاته اكتفى بعشر وصايا فقط. أما ويلسون ... فقد فرض علينا ... ١٤ وصية لا معنى لها على الإطلاق!»[12]

وبسبب هذا التوتُّر فقدت نتائجُ لجنة كرين وكينج الكثيرَ من قيمتها، وتفاقم ذلك الوضع من خلال الجدل الدائر حول الانتداب الأمريكي المقترح على آسيا الصغرى وأرمينيا وإسطنبول. وندَّد لانسينج بالخطة، محركًا عنصرًا انعزاليًّا في السياسة الخارجية الأمريكية، وواصفًا تلك الخطة بأنها «اقتراح غير مجدٍ وغير مفيد بالمرة»، سيؤدي فقط إلى توريط الولايات المتحدة في صراعات أوروبا التي لا تنتهي ويجعل منها محتلًّا للشعوب الأصلية لتلك المنطقة. ووافقه فرانك بولك، أول نائب لوزير الخارجية، ونصح ويلسون بالخروج «من هذه الفوضى المقزِّزة» في الشرق الأوسط. وحتى هربرت هوفر، المسئول الأمريكي المنوط بإغاثة الأرمن، والرئيس الأمريكي المستقبلي، رفضا خطة الانتداب على أساس أنها ستكلف دافعي الضرائب الأمريكيِّين على الأقل ١٠٠ مليون دولار للتمويل، بالإضافة إلى ١٠٠ ألف جندي. وعلى العكس من ذلك، في إسطنبول، حيث كانت سفن الإغاثة راسية إلى جانب السفن الحربية لبريطانيا وفرنسا، كان الخبازون الأتراك يزيِّنون الأرغفة برموز العلم الأمريكي من نجوم وخطوط صغيرة، وكان السلطان يناشد الولايات

المتحدة توليَّ زمام السيطرة على المدينة. وكانت الكاتبة النسائية الرائدة في تركيا خالدة أديب قد قالت إن «أمريكا وحدها هي التي تعرف ... كيف يتم تكوين حكومة شعبية ... هي التي يمكنها تكوين تركيا جديدة يحمل فيها كل فرد ... استقلالًا حقيقيًّا في رأسه كما في جيبه».

وبينما كانت إدارة ويلسون ممزَّقة بين هذين القطبين المؤيد والمعارض للانتداب، أرسلت بعثة تقصي حقائق أخرى إلى الشرق الأوسط. فبدأ فريق من الخبراء، برئاسة رئيس أركان الجيش الأمريكي اللواء جيمس هاربورد، في القيام بجولة في المناطق الأرمنية لشرق الأناضول وسواحل البحر الأسود. وعدَّد تقرير هاربورد ١٣ سببًا لعدم قبول الانتداب (مثل التكلفة ومخاطر التنافس مع قوًى أجنبية)، بالإضافة إلى ١٣ سببًا مؤيدًا للانتداب (مثل الأسباب الإنسانية، والحاجة إلى حماية المؤسَّسات الأمريكية في المنطقة). أما السبب الرابع عشر المؤيِّد للانتداب فلم يجِد له الفريق أيَّ سبب معارض. وقال هاربورد ذو الفك العريض والصارم للغاية: «ها هي ذي مهمة يقول العالم كله إن الأمريكيِّين هم أفضل مَن يقوم بها عن أي طرَف آخر. إذا رفضنا الاضطلاع بها ... فسيعتقد ملايين البشر أننا تركنا المهمة التي دخلنا من أجلها الحرب دون استكمال، وأننا خدعنا آمالهم».[13]

وتغلَّبت المُثُل والمبادئ مرةً أخرى على الاعتبارات الاستراتيجية في تحديد سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط لآخر مرة خلال فترة ولاية ويلسون. ووصل تقرير هاربورد إلى باريس، ولكن ويلسون كان قد غادر المدينة مرة أخرى، بادئًا جولة أمريكية قزَّم نطاقها — الذي يصل إلى ثمانية آلاف ميل و٢٩ مدينة خلال ثلاثة أسابيع — ما قامت به لجنتا كينج كرين وهاربورد. وكان هدفه الأساسي هو جمع الدعم والتأييد الشعبي لعضوية أمريكا في عصبة الأمم. وفي حين طالب ويلسون كليفلاند دودج وقادة بروتستانت آخرين بدعم مجهوداته، لم يذكر ويلسون الشرق الأوسط إلا فيما ندر. ولكنَّ معارضيه استغلوا الجدل حول الانتداب وسيلةً لمهاجمة دعوةِ ويلسون للانضمام إلى عصبة الأمم. وعلى ذلك ندَّد المؤتمر القومي الجمهوري لعام ١٩٢٠ بويلسون لسعيه لانتداب أمريكي على أرمينيا. كما هاجم هنري كابوت لودج فكرةَ أن على الأمريكيِّين «واجب الحفاظ على الاستقلال السياسي أو تكامل مناطق أي دولة». وتنبأ لانسينج بأنه «سيتعيَّن على الرئيس أن يتخلى عن أي خطة ... لتحمُّل الوصاية أو الانتداب على أرمينيا أو القسطنطينية»، مضيفًا أنه ليس الجمهوريون فقط، بل «الكثير من الديموقراطيِّين ... لديهم نفس الشعور».

ولكن الجدل حول الانتداب سرعان ما ثَبَت أنه لا ضرورة له. حيث كان ويلسون قد انتهى لتوه من تذكير جمهور مستمعيه في بويبلو بكولورادو في ٢٥ من شهر سبتمبر، بأن «الشعب الأمريكي ... دومًا ما يمد يده نحو ... حقيقة العدل والحرية والسلام»، عندما أصيب بأزمة قلبية كادت تقضي عليه.[14] ورغم أن زوجته تمكَّنت من إخفاء الخبر عن الجمهور، إلا أن ويلسون أصابه العجز بعدها، ولم يستطِع استكمال حملته من أجل انضمام الولايات المتحدة لعصبة الأمم، ودعوته للانتداب الأمريكي على أرمينيا وغيرها. وفي ١٩ نوفمبر صوَّت مجلس الشيوخ ضد انضمام أمريكا إلى عصبة الأمم، ونجح في رفض لعب أي دور هام في إعادة تشكيل الشرق الأوسط.

تشريحُ جثةِ ما بعد الحرب

ولكنَّ مهمةَ إعادة تجميع المنطقة استمرت أولًا في باريس، ثم في أبريل ١٩٢٠ في سان ريمو، على شاطئ الريفييرا الإيطالي. وبعد أن جلس مندوبو الدول يتناقشون ويتحاورون ويفكِّرون على الشاطئ توصَّلوا إلى صيغة نهائية للانتداب البريطاني على فلسطين والعراق، والانتداب الفرنسي على سوريا، التي سرعان ما طُرِدت قوات فيصل منها بعد ذلك بقليل، كما فُصل لبنان عنها. ووُضِع مضيق الدردنيل تحت سيطرة لجنة دولية، ومُنحت اليونان حق السيطرة على سميرنا وشرق تراقيا، وتسلَّمت كلٌّ من فرنسا وإيطاليا مناطق في جنوب الأناضول لإدارتها. أما في الشرق فقرَّر الحلفاء استقلال الدولة الأرمينية والمناطق الكردية. وبذلك مُحيت الإمبراطورية العثمانية، التي ظلت قرونًا طويلة كيانًا سياسيًّا له هيبة وسطوة، والتي سيطرت على التقاء الطرق وتقاطعها في العالم، باثَّة الرعب في الغربيِّين — ومنهم الأمريكيُّون — أحيانًا، وملهمةً إياهم في أحيان أخرى.

ولكن ذلك لم ينطبق على تركيا. فقد رفض جنرال في الأربعين من عمره اسمه مصطفى كمال، وهو بطل من أبطال موقعة جاليبولي، قبولَ ما جاء في وثيقة سان ريمو وجمع الجيش كله ضدها. وبعدها بثلاث سنوات نجح كمال — الذي حصل على لقب أتاتورك (أي أبو الأتراك) فيما بعدُ — في طرد القوات الأجنبية من الأناضول. وبتعاونه مع السوفييت، سحق كمال حركةَ الاستقلال الأرمينية وأخمد الأكراد الانفصاليِّين. وفي منطقة سميرنا قُتل عشرات الآلاف من الأرمن واليونانيِّين، وشُرِّد ٢٥٠٠٠٠ شخص عندما هاجمت القوات التركية المدينةَ وأحرقتها. ومرةً أخرى جاء جنود مشاة البحرية الأمريكية لحماية المؤسسات الأمريكية، التي أصبحت تضم الآن مكاتبَ شركة ستاندارد أويل، كما ساعدوا

في نقل مئات من اللاجئين. ولكنَّ عددًا أكبر منهم تناثروا في أحواض السفن في الموانئ، معرَّضين للهيب نيران الحرائق المنتشرة. وقد شهِد ميلفين جونسون، البحَّار على متن إحدى المدمِّرتين الأمريكيتين اللتين ساعدتا في عمليات الإخلاء قائلًا: «لن أنسى ما حييتُ أصوات الصراخ. كان الكثيرون منهم يقفزون إلينا، مقدِمين على الانتحار». أما بالنسبة إلى جورج هورتون، الروائي صاحب أنجح المبيعات والناقد الأدبي ومراسل جريدة شيكاجو هيرالد الذي كان أيضًا قنصل أمريكا في سميرنا، فكانت المذبحة تمثِّل قمة سنوات من أعمال العنف التي لا توصف، واصفًا إياها بأنها «نهاية شيطانية وبشِعة لهذه المأساة الفظيعة».

ورغم أنهم صُدموا مرةً أخرى من أعمال العنف التركية، فإن البريطانيِّين والفرنسيِّين خشُوا أيضًا شراسةَ الأتراك واقتراب السوفييت من المضائق، وسعَوا أيضًا إلى السلام. ووقِّعت الاتفاقية في ٢٤ يوليو ١٩٢٣، في مدينة لوزان السويسرية. ونتيجةً لذلك نهضت الجمهورية التركية من قلب الدولة العثمانية المتهالكة، ونشأت مدينة حديثة هي إزمير على أطلال مدينة سميرنا. وهدأت العواصف التي أثارتها الحرب العالمية الأولى، ولكن ليس قبل رسم حدود جديدة في المنطقة، وصنع هويات جديدة، وكشف مكامن الخطأ في عددٍ لا يُحصى من التقلبات المستقبلية.

وتابعت غالبية الأمريكيِّين هذه الأحداث كما تابعت قبل ذلك المراحل المبكِّرة من الحرب، من مقاعد المتفرجين. وأرسلت الولايات المتحدة مراقبًا إلى سان ريمو، هو روبرت أندرووود جونسون، الشاعر والروائي الشهير، الذي قضى غالبيةَ فترة المؤتمر في الفناء، يقرأ الصحف، وإلى لوزان. وكان هدف أمريكا خلال هذه القمم هو بمنتهى التواضع ضمان باب مفتوح إلى الشرق الأوسط للشركات الأمريكية، والحفاظ على المدارس والمستشفيات الأمريكية. وبقي دافعٌ غامض «لإيجاد وسائل إزالة فورية لأسباب هذا الهدر للحياة الإنسانية والمعاناة الإنسانية» — وهو من آثار وبقايا نظرة ويلسون للعالم — والعمل على تكوين «وطن قومي أرميني». ولكن بسبب غياب أي حضور عسكري للولايات المتحدة في المنطقة، أو حتى وجود مقعد لها في مؤتمراتِ ما بعد الحرب، لم يكن لها أي قوة فعَّالة تُذكر. واعترف وارن هاردنج — السياسي الجمهوري الباهت المؤيد للسوق الحرة، الذي فاز بانتصار كاسح في انتخابات عام ١٩٢٠ الرئاسية، بناءً على مذكرةٍ سُمِّيت «الاستفتاء الجاد» على قرار رفض الانضمام إلى عصبة الأمم — اعترف أخيرًا بتلك الحقيقة. فكتب يقول في كلمات رصينة: «أكثر المؤيدين حماسةً للأرمن في أمريكا لن يترددوا في الموافقة على إقرار حرب مسلحة من أجل تأسيس منطقة منفصلة للأرمن».[15]

تباينَ تقييم عملية السلام الأولى في الشرق الأوسط ما بين سيئ ومروِّع. فقد خرج منها كليمنصو شاعرًا بأن لويد جورج خدعه، وأنكر لويد جورج على ويلسون خذلانه إياه في شأن الانتداب على أرمينيا. أما داخل المنطقة، فتساءل الكثيرون عن أسباب عدم تضمينهم في وعد ويلسون في حق تقرير المصير، وأسباب ترك شعوب الشرق الأوسط من المغرب وحتى مصر تعاني تحت وطأة الحكم الاستعماري. وكان الأمريكيون أيضًا يشعرون بالمرارة. فندب وناح الأستاذ الجامعي ويسترمان قائلًا: «في حين كان بإمكان الشجاعة والثقة في قوة نزاهتنا السياسية والمساندة الجادة لمثالٍ سياسي جديد أن تنقذ أرمينيا ومعها الشرق الأدنى كله، تراجعنا وتردَّدنا. وحين كان بإمكاننا أن نقود في ساعة الصفر منتهزين تلك الفرص السياسية، تداعينا ورفضنا أن نعبر إلى هناك». وحتى لانسينج القاسي تنبأ بأنه «تم نثر بذور عدم الرضا والكراهية في تربة خصبة» وأنه بمرور الوقت «ستزهر تلك البذور وتحمل الثمرة المرة للصراع». أما أكثرهم صرامةً فكان الجنرال بليس الذي تمنَّى «عدم وجود حرب من البداية — أو أنها استمرت وقتًا أطول؛ لأن السلام يبدو أسوأ من الحرب».

ويتَّفق الكثيرون من مؤرخي تلك الفترة على أن جهود بناء شرق أوسط جديد من رُكام الحرب العالمية الأولى قد واجهت فشلًا ذريعًا — وأنها تسبَّبت في الكثير من حمَّامات الدم فيما بعد. وقد لاحظوا أن النتائج التي توصَّلت إليها لجنة هاربورد لم تخرج إلى حيز التنفيذ قط، وأن نتائج لجنة كرين كينج لم تُنشر حتى عام ١٩٢٢. أما فكرة منْح جميع شعوب الشرق الأوسط حقًّا غير قابل للانتهاك لتقرير المصير فلم تُفَّذ ولو جزئيًّا. ونفس المؤسسات التي كان ويلسون يأمُل في حمايتها — الكنائس والمدارس والمستشفيات — والتي من أجلها امتنع عن دخول حرب ضد تركيا، كان معظمها قد أغلق بنهاية الحرب. وكانت نسبة كبيرة من المبشِّرين قد طُردت أو قُتلت.

ولكنَّ الحكم القاسي على أداء أمريكا في دبلوماسية الحرب العالمية الأولى يتجاهل عددًا من الإنجازات المبهرة الطويلة الأمد. فحسب توصيات «لجنة التحقيق» فُكِّكت الإمبراطورية العثمانية، ولكن حوفِظ على سيادة تركيا. وكانت أُسس الدولة اليهودية المستقبلية قد وُضعت في فلسطين التي كانت تحت الإدارة البريطانية، وفي مناطق الانتداب في سوريا والعراق. وفي ذلك الوقت كانت بريطانيا قد كوَّنت إمارة عربية منفصلة شرقي نهر الأردن، أما الفرنسيون ففصلوا لبنان ذا الغالبية المارونية عن سوريا، ومنحوا كلًّا منهما حقَّ تقرير المصير. (انظر خريطة ٢) ورغم عدم تطبيق حق الأرمن في الاستقلال إلا بعد سبعين عامًا أخرى، إلا أنه اعترِف به عالميًّا لأول مرة.

ورغم القيود الكبيرة خلال الحرب، فإن الأنشطة التبشيرية في وقت السلم استُؤنفت، بل وازدهرت أيضًا. وفي عام ١٩١٩، أسَّس المبشِّرون البروتستانت الجامعة الأمريكية في القاهرة، بهدف تحقيق الإثراء الثقافي وتحديث مصر. وخلال العام التالي غيَّرت الكلية السورية البروتستانتية اسمَها إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، وأصبحت أولَ جامعة في الشرق الأوسط تسمح للنساء بالانضمام إليها. وكتب زائرٌ لسوريا خلال فترةٍ ما بعد الحرب: «ليس من الممكن أن يحقِّق الأمريكي الاحترامَ والإيمان والعاطفة التي يُنظَر بها إلى بلادنا في هذه المنطقة. فالتبشير المحايد الموضوعي والأثر التعليمي الذي بُثَّ خلال قرن كامل هو العقيدة الوحيدة التي يتمسك بها المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، سواء كان أميرًا أو فلاحًا في الشرق الأدنى».

ولكن لم تواسِ وودرو ويلسون أيٌّ من هذه الإنجازات، ولا حتى فوزه بجائزة نوبل لإسهاماته في تحقيق السلام. كان قد حلَم بتكوين عالم مختلف، غير ملطَّخ بإمبراطوريات جشعة، واتفاقات سرية وحروب. ورغم ذلك كان النظام العالمي الجديد الذي نشأ من خلال ساحات قتال الحرب العالمية يبدو غير مميز عن النظام القديم الذي فجَّر هذه التغييرات الجذرية. وأحبط ويلسون وخاب أملُه في الشرق الأوسط خصوصًا، الذي تمنَّى تنويره بالديموقراطية الأمريكية وأنوار المدنية والفضيلة. والآن بدلًا من الاستمتاع بفترة من التطوير السلمي وعلاقات الود والصداقة بين الدول، كانت المنطقة قد وقعت في براثن اضطرابات قاسية على المستويين المحلي والدولي. ودليلًا على فشله وتحذيرًا للرؤساء المستقبليِّين الذين كانوا سيدَّعون أنهم ورَثته، علَّق ويلسون صورةً للاجئة أرمينية شابة على رف الموقد في بيته بواشنطن. كانت عيونها الواسعة المثيرة للشجن مستمرة في مناشدة الزائرين، مذكِّرة إياهم برؤية أمريكا غير المتحقَّقة لشعوب الشرق الأوسط.[16]

الفصل الثاني والعشرون

إحياء الخيالات

ذُبح جيل كامل من الرجال الأوروبيِّين تقريبًا. أما مَن نجا منهم فكانوا معاقين مشوَّهين، إما جسديًّا أو عاطفيًّا أو كليهما. وقُدِّر أن حوالي ١٠ ملايين مدني لقُوا حتفَهم أيضًا، ضحايا للجوع والمرض والنهب والإبادة الجماعية. ورغم أن القوات الأمريكية شاركت في القتال قبل ستة أشهر فقط من وقف إطلاق النار، فإن أكثر من ٥٣٠٠٠ جندي أمريكي قُتلوا فيه، وهو ما يوازي تقريبًا عدد قتلى حرب فيتنام كاملة. كما أُصيب حوالي ٣٢٠٠٠٠ منهم. ورغم الحديث عن «القتلى المقدَّسين»، و«التضحيات من أجل الديموقراطية» فلم يكن هناك في الحقيقة أيُّ نبل بشأن هذه المذابح. فكما أنتج العصر الحديث السيارات والطائرات والصور المتحركة، فإنه أنتج أيضًا الدبابات والطائرات الحربية والمدافع الآلية. وأما حقول فلاندرز (بلجيكا) التي كانت يومًا تزخر بالرائحة العذبة لزهور اللافندر والخشخاش فكانت قد تحوَّلت إلى مجموعة من الحُفَر الناتجة عن القذائف والخنادق، التي تحيطها الأسلاك الشائكة وبقايا الجثث، وهو منظر رهيب وكأنه لوحة مرعبة من رسم هيرونيموس بوش.

وعندما كانت الحرب العالمية الأولى تأذن بترك جروح في خيال الإنسانية تمامًا كساحات القتال، ظهرت صورة أخرى تتميز بالشجاعة والإقدام والرجولة والالتزام، والأهم من كل ذلك أنها تميَّزت بصفةِ «ما قبل الحداثة». فبدلًا من أن يعرُج على عكَّازين كان يظهر في ثوبٍ لا تشوبه شائبة، وعلى رأسه كوفية بدلًا من الخوذة، ويحمل خنجرًا في حزامه بدلًا من المسدس. انطلق من الشرق الأوسط، وهي منطقةٌ معروفة بمخلِّصيها، وبوجهه الشاحب الصبياني وعينيه الزرقاوين وشعره الأشقر — وهي صورة ربط الكثير من الغربيِّين بينها وبين المسيح. لذلك كان من أكثر المرشَّحين ليكون المسيح المنتظَر.

كان توماس إدوارد لورنس ابنًا غير شرعي لأرستقراطي بريطاني صغير ومن نسل سير والتر رولي. كان يوصف بأنه غير ناضج وأنثوي وقصير القامة، فقد كان طوله خمسة أقدام وأربعة إنشات، وكان رأسه كبيرًا وصوته ذا نبرة عالية، لذلك كان مظهره أبعدَ ما يكون عن التفاخر أو التهور. لكنه كان مصرًّا على جعل نفسه أحد هؤلاء، ومن أجل تحقيق ذلك الهدف، قضى لورنس ساعات طوال في اختبار مدى قوة تحمُّله وفي بناء قوَّته البدنية، وكذلك في تعلُّم الرماية واللغة العربية. كتب عنه المؤرخ ديفيد فرومكين: «كما يسعى الرجال الآخرون نحو السلطة أو الثروة أو النساء، كان لورنس يتوق إلى أن يلاحظه الآخرون وإلى أن يتذكَّروه».

وفي عام ١٩١٦ أُرسل لورنس — الذي كان حينذاك في الثامنة والعشرين من عمره — إلى القاهرة بصفته رسامَ خرائط تابعًا للجيش، وكذلك ضابط مخابرات. لكنه سرعان ما وجد نفسه مرتبطًا بالأمير فيصل وبالثورة العربية الموالية لبريطانيا ضد الأتراك. وإذا كانت تلك الثورة قد كانت ذات قيمة سياسية في كبت دعوة ونداء العثمانيِّين للجهاد المقدس، فإنها أثبتت أنها غير قادرة على تحريك الأتراك من أي جزء من الجزيرة العربية. كما لم يحقق لورنس أيَّ انتصارات أيضًا، لكنه تمكَّن بمساعدة القبائل البدوية المتمردة من الاستيلاء على ميناء العقبة على البحر الأحمر. وبناءً على ذلك تمكَّنت السفن البريطانية من نقل قوات فيصل من الجزيرة العربية إلى شرق الأردن، حيث أنهكت خطوط التوريد الخاصة بالأعداء إلى دمشق. كان البريطانيون يأمُلون أن يحرِّر فيصل المدينة، وأن يعلن مملكة عربية موالية للبريطانيِّين، وأن يمنع سيطرة فرنسا على سوريا. ولكن حتى هذه الخطة لم تنجح عندما وصلت القوات الأسترالية إلى دمشق أولًا. وكان حُلم بريطانيا في حكم سوريا من خلال فيصل قد تحطَّم أخيرًا بمؤتمر السلام، حيث نجح الفرنسيون في تحقيق مطالبهم بالحصول على الانتداب. أما لورنس، الذي لعِب لعبة مزدوجة بتشجيع علني لاستقلال العرب مع استغلال وتحريك فيصل من أجل بريطانيا، ففشل في المهمتين.

وحيث لم يحقِّق لورنس النجاح لا على الصعيد السياسي ولا العسكري، فقد كان من السهل أن يطويه النسيان. ولكن العالم في هذا الوقت الكئيب كان متعطشًا لوجود بطل، وكان هذا الجنرال المختلف، الذي كان يرتدي كوفيةً حريرية خضراء ويضع على رأسه عقالًا عربيًّا خلال محادثات باريس، يبدو مهيأً تمامًا لملء هذا الفراغ وتلبية تلك الحاجة. أطلق عليه الأستاذ الجامعي جيمس شوتويل، مستشار ويلسون «الوريث الأصغر لمحمد، وأكثر البريطانيِّين الأحياء إثارةً». وسرعان ما أصبح لورنس بؤرةَ الاهتمام العام، والمفضَّل

لدى الصحافة، وصديق شخصيات أدبية شهيرة مثل روبرت جريفز وجورج برنارد شو، اللذين شبَّهاه براقصة الباليه الأولى التي تتبَعها «أضواء التاريخ». ولم يبذل لورنس أيَّ جهد لتقليل هذا الاهتمام، بل على العكس، فقد نمَّاه أكثرَ وأكثر من خلال نسخ من مآثره منمَّقة جدًّا. واعترف قائلًا: «إنني على العموم أفضِّل الأكاذيب أكثرَ من الحقيقة، خاصة عندما تتعلَّق بي. فالتاريخ ما هو إلا سلسلة من الأكاذيب المقبولة».

قُدِّم الدليل على هذا التفضيل في كتاب «أعمدة الحكمة السبعة»، الصادر في عام ١٩٢٢، وهو نصٌّ لورنس الأدبي حول الثورة العربية، الذي كانت الحقائق التاريخية فيه تعمل محطاتِ انطلاقٍ لخياله الشخصي الخصب. ونُسيت الكبوات العديدة في الصحراء وسط الوصف المبهر للجِمال أثناء الهجوم وبعثات التجسس والقطارات التركية التي تُفجَّر بألغامٍ زُرعت بيدِ المؤلِّف الجسور.[1] وقوبل الكتاب بحماسة كبيرة، ولكن برغم كل الهدايا التي كانت تُوزَّع للدعاية، إلا أن لورنس لم يكن ليتحول إلى لورنس العرب إلا بمساعدة صحفي أمريكي يميل إلى الدعاية.

كان لويل توماس نفسه — وهو متخصِّص في صناعة الأساطير — رجلًا غير عادي. نشأ في كريبل كريك بكولورادو، وعمل في مناجم الذهب، وطبَّاخًا قبل أن يُعيَّن مراسلًا صحفيًّا لجريدة «شيكاجو جورنال». كان طويلًا وأنيقًا، له شعر أسود فاحم وشارب رفيع، وكانت له سمعة بأنه مجدِّد وذلق، كما كانت له تجاربُ بشفافات العرض عن أماكنَ بعيدة مثل ألاسكا. وانتقل بعد ذلك إلى جامعة برينستون، حيث درس الخطابة ودرَّسها، وهناك عثر عليه الرئيس ويلسون في عام ١٩١٧، وطلب منه إنتاج أفلام دعائية لصالح الحرب. وغادر توماس وآلة التصوير في يده، متجهًا إلى أوروبا، ولكن الخنادق والأراضي المقفِرة كانت موضوعاتٍ كئيبة للغاية بالنسبة إليه. وبحثا عن قصصٍ أكثرَ إلهامًا، استمر في التوجُّه شرقًا نحو فلسطين، لتوثيق تقدُّم البريطانيِّين تحت قيادة اللواء ألنبي.

وصل أولًا إلى القدس، واستقر هناك مع عائلة سبافورد في فندق أميريكان كولوني، وكان يُكثِر من التجوُّل خلال طرق البلدة القديمة. وخلال إحدى تلك الجولات، وفي ملتقى شارعين، لمح توماس فجأةً الجنرال مرتديًا ثوبًا أنيقًا. فقال: «كان يسير بسرعة ويداه معقودتان، أما عيناه فكانتا لا تعيان ما حوله، وكان ذهنه مشغولًا بأفكار بداخله. ولأول وهلة ظننت أنه قد يكون أحدَ صغار الحواريِّين وقد عاد إلى الحياة». وجذبته قوة هذه الصورة الخيالية فطلب توماس السماح له بزيارة لورنس والبدو المتمردين، وأن يتمكَّن من مصاحبتهم في إحدى هجماتهم.

قضى توماس يومين فقط في الصحراء، لكنهما كانا كافيَين لإنتاج مذكِّرات ضخمة باسم «مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب»، نُشرت في عام ١٩٢٤. ورغم أنه ربما لم يرَ لورنس وهو يقاتل بالفعل، إلا أن توماس رغم ذلك صوَّره محاربًا مغوارًا لا يخشى شيئًا تحت خط النار، وأنه قادر على قتل «٤٠٠ تركي» بـ «سلاح أمريكي حديث ثقيل»، لكنه كان في نفس الوقت قادرًا على إظهار التعاطف مع أسراه. بالنسبة إلى توماس كان لورنس شخصيةً مختارة من «ألف ليلة وليلة»، و«إعادة إحياء لنبي من الزمن القديم»، و«أحد أكثر شخصيات العصر الحديث تنوعًا وإثارة»، والذي كان قدَره أن «يُكتَب عنه على صفحات التاريخ الخيالية». والأهم بالنسبة إلى هذا الصحفي الأمريكي أن لورنس كان «سبْقًا رائعًا».

ولكنَّ توماس لم يكن راضيًا بمجرد خلْق بطل. لذلك حاول ونجح في تحويل هذا البطل الإنجليزي العريق إلى بطل على النمط الأمريكي. لذلك كان لورنس الذي أكَّد لرؤسائه أن الثورة العربية «ستفتِّت «الكتلة» الإسلامية» وتحوِّل الشرق الأوسط إلى «مجموعة من الإمارات المتناحرة غير القادرة على التماسك معًا» هو نفسه الذي تحوَّل — حسب رواية توماس — إلى مقاتل من أجل الحرية «وحَّد قبائل الصحراء الرحَّل» وأقنعها «بخيار الموت من أجل تحرير العالم العربي كله من اضطهاد العثمانيِّين». لورنس هذا هو نفسه الذي انتقد مدارس التبشيريِّين بأنها «بغير قصد درَّست الثورة» لتلاميذها العرب، والذي «ضحِك وسط الصحراء» عندما سمع بنقاط ويلسون الأربع عشرة، وهو مَن صُوِّر على أنه «جورج واشنطن الجزيرة العربية» الذي يجاهد لخلق ولايات متحدة من الشرق الأوسط على أساس مُثُل ومبادئ دستورية. وبذلك حوَّل توماس لورنس من مسيحي غير تقي لا صبر لديه على شعائر دينه ولا على دين اليهود، إلى محارب صليبي حديث يجاهد من أجل الأرض المقدَّسة وأحد المتحمسين من أجل الصهيونية.

قوبل كتاب «مع لورنس في الجزيرة العربية» بنجاح تجاري فوري، ولكن مُنقِّب الذهب السابق من كولورادو كان لديه خبرة في التنقيب عن الذهب. فبمساعدة أجهزة العرض والفوانيس السحرية أقام توماس تجربةً بدائية لعرض الصوت والضوء مبنيةً على كتابه. وبدأ توماس العرض بمصاحبة موسيقى عربية بقوله: «تعالوا معي إلى أرض التاريخ والسحر والغموض والخيال. إن ما ستشاهدونه الآن هو قصة لم تُحكَ، جزءٌ منها قديم كالزمان، وجزء منها تاريخ يحدُث الآن». ثم كان توماس يخطو في دائرة الضوء، ويحكي قصةَ لورنس كما عاصرها هو فقط؛ العاطفة والدم. وفي لندن وحدَها شاهد

مليونُ شخص العرضَ، ولكن في الولايات المتحدة تحوَّل لورنس إلى هوس قومي. وامتلأت أكبر المسارح في نيويورك وسان فرانسيسكو، وجذب العرضُ جماهيرَ غفيرة حتى في أبعد مدن الغرب الأوسط. ولم يكن الجمهور الأمريكي قد تعرَّض لسحر الشرق بهذه الكثافة منذ ما يقرُب من ثلاثين عامًا؛ أي أثناء عروض الرقص الشرقي وركوب الجمال في معرض شيكاجو، وإلى نفس الأجواء الساحرة التي أحاطت بفيصل في باريس.

ومن بين كل هؤلاء المشاهدين لعرض توماس كان واحد فقط غير راضٍ صراحةً. إذ كتب لورنس لتوماس، موبِّخًا إيَّاه على أكاذيبه ومبالغاته: «لقد شاهدتُ عرضك بالأمس، وأحمد الله أن الإضاءة كانت مطفأة». لم يستطِع الرمز الغريب الذي أصبح متمرِّسًا في ابتكار نفسه أن يتحمَّل أن يصنعه شخص آخر غيره. لكنه اعترف لصديق قديم له من الجيش بأنه «لا يحمل ضغينة لتوماس. فقد اخترع وهمًا غبيًّا في لباسٍ مزركَش، يقوم بأمور غبية ويسمَّى «خياليًّا»».

واستمرَّ توماس في تقديم عرضه غيرَ آسفٍ أمام مسارح ممتلئة عن آخرها عَقدًا كاملًا تقريبًا. وكتب بالإضافة إلى ذلك حوالي خمسة وخمسين كتابًا، وحقَّق شهرة واسعة في عمله مراسلًا لمحطة سي بي إس نيوز، وهو منصب ظل يشغَله قُرابة نصف قرن كامل. وعلى العكس من ذلك كان لورنس يبحث عن الاختباء من الآخرين وألا يتعرفوا عليه. فانضم أولًا إلى سلاح الدبابات ثم إلى القوات الجوية الملكية جنديًّا صغيرًا، مغيِّرًا اسمه في كل مرة. وتوفي لورنس في عام ١٩٣٥، جرَّاء حادث دراجة بخارية، هاربًا من وهمٍ كان قد تعاون في خلقِه، ولو جزئيًّا.

وخلال تلك الفترة كانت أسطورة لورنس قد اكتسبت حياةً خاصة بها، خصوصًا في ذلك الجزء من الولايات المتحدة الأقدر على خلق الأساطير. ففي عام ١٩١٥ أنتج كاتب السيناريو والمخرج سيسل دي ميل في هوليوود فيلم «العربي»، وهي مأساة منمَّقة عن الحب بين راعي غنم بدوي وفتاة أمريكية من التبشيريِّين. وقد قامت القصة على نظرة أمريكية شعبية للشرق الأوسط في القرن التاسع عشر بعدِّه منطقةَ الإثارة الحسية، وللعربي بعدِّه النموذجَ الكامل للرجولة. ولكن هذه الحبكة كانت أقلَّ إثارة بالنسبة إلى جمهور القرن العشرين، الذين نعتوا الفيلم بالفشل. ولكن جاء بعد ذلك لويل توماس والهوس بلورنس، وفجأة استيقظ الأمريكيون مرةً أخرى على نداء الرومانسيات العربية. لذلك حقَّق فيلم «الشيخ» الذي أُنتج في عام ١٩٢١ على نفس النمط والغرار — البدوي الحسي الذي يستولي على الفتاة الغربية البريئة — حقَّق نجاحًا مذهلًا بين يوم وليلة، ونقل

بطله رودلف فالنتينو إلى مصافِّ النجوم. وسارعت هوليوود إلى استثمار ذلك النجاح، منتِجةً سلسلة أفلام «شيخ الجزيرة العربية» و«ابن الشيخ» و«لص بغداد». وكان في كلٍّ منها مزيج من فتيات الحريم، وفتيات لا حول لهن ولا قوة، وعرب قساة فاسقين.[2]

وسرعان ما دخل هذا الاتجاه الاستشراقي الذي بدأ بلورنس في نسيج العديد من مجالات الثقافة الأمريكية، وليس فقط في مجال السينما. ففي روايتها الكلاسيكية، «أنطونيا الخاصة بي» الصادرة في عام ١٩١٨ وصفت الروائية ويلا كيثر إحدى الشخصيات التي تتزيَّن بدبوس يعبِّر عن انتمائها لأخوية بأنها «محفورة أكثر من المسلة المصرية»، كما وصفت شخصيةً أخرى بأنها مثل «ذقن شيخ عربي». وزاد هذا الهوس باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون المتخَمة بالكنوز في عام ١٩٢٢. وبدأت الشابات في ابتكار قصَّات للشعر على غرار كليوباترا، كما زُيِّنت المباني العامة بديكورات مصرية. وعندما لم يكن الأمريكيون ينفِّسون عن خيالاتهم الشرق أوسطية من خلال القصص الخيالية والملابس والفن، كانوا يتغنَّون بكلمات تقول:

أنا شيخ العرب
وحبك ملكي أنا.
في الليل وأنت نائمة
سأتسلل إلى داخل خيمتك.[3]

وبحلول عام ١٩٢٠ كانت الأفلام والتسجيلات قد حلَّت محلَّ نشرات السفريات باعتبارها الوسيلةَ الرئيسية لنقل انطباعات عن الشرق الأوسط للأمريكيِّين. وعلى عكس الأوروبيين، الذين كان عدد كبير منهم قد أُصيب بالإحباط بسبب الحرب، كان الأمريكيون لا يزالون قادرين على الحُلم. وعبْر العقود التالية استمرت الأساطير المحيطة بالشرق الأوسط في إثارة، بل وإلهاب أذهان الأمريكيِّين، ملوِّنة الرأيَ العام ومؤثِّرة على واضعي السياسات. وكانت الاستثمارات المادية لأميركا في هذا المجال قد تضاعفت خلال تلك الفترة. فبالإضافة إلى بناء المدارس التبشيرية والقيام بنزهات نيلية، كان الأمريكيون يقيمون مضخَّات للبترول ويوقِّعون اتفاقيات مع الحكام العرب. ووجب إيجادُ توافق بين السعي وراء المُثُل والمبادئ الأمريكية في المنطقة، وبين المصالح الاستراتيجية والاقتصادية المتنامية. وبصورة تدريجية، حلَّ فخُّ سلطة القرن العشرين وقوَّته محلَّ العلامات المميِّزة لأكثر من قرن كامل من الإيمان والخيال الأمريكي في الشرق الأوسط.

الباب السادس

نفط وحرب وهيمنة



الفصل الثالث والعشرون

من الإنجيل إلى مضخَّات النفط

لم تثمر تسوياتُ ما بعد الحرب في الشرق الأوسط عن جلب الوئام أو الاستقرار إلى المنطقة — حسبما كان مخطَّطًا — بل أثمرت عن صراعات متوطنة بها فقط. حيث كانت عشرينيات القرن العشرين زمنًا تصاعدت فيه المقاومة ضد الحكم الأوروبي في المنطقة، فقد اندلعت الثورات المضادة للبريطانيِّين في مصر والعراق، وماجت سوريا بالعصيان ضد الحكم الفرنسي. كما ستصبح فلسطين أيضًا بؤرة دائمة لسفك الدماء. وبسبب انعزال شبه الجزيرة العربية بعيدًا عن تلك الاضطرابات، نسيتها القوى الاستعمارية، ونسيها أيضًا أصحاب النزعة القومية الذين سعَوا حثيثًا لطرد هؤلاء المستعمرين من بلادهم. بدَت منطقة شبه الجزيرة العربية — بأرضها المقفِرة وبرمالها الصلدة الداكنة وبصخورها وبمسطحاتها الملحية — وكأنها خالية من أهم الموارد الطبيعية الأساسية. كان مصدرها الرئيسي للدخل هو حجَّ المسلمين إلى مدينتي مكة والمدينة المقدَّستين، اللتين تقعان في غرب شبه الجزيرة في منطقة معروفة باسم الحجاز. وقنَع البريطانيون بترك حكم الحجاز لحلفائهم الهاشميِّين وتجاهل بقية شبه الجزيرة، أما الفرنسيون فكانوا غيرَ مبالين بالمرة.

وكما كانت أوروبا غير مهتمة بالجزيرة العربية، لم تكن الولايات المتحدة أكثرَ منها اهتمامًا؛ إذ لم تُبدِ وزارة الخارجية تقريبًا أيَّ ردٍّ فعل عام ١٩٢٣، عندما استولى تحالف قبَلي بقيادة عبد العزيز بن سعود (١٨٨٠–١٩٥٣) — تسانده الحركة الوهابية المقاتلة — على المدن المقدسة وطردَ الهاشميِّين منها. وقال أحد الخبراء بقطاع شئون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية آنذاك إن المنطقة «ليس لها أهمية تجارية تُذكر»، في حين شعر آخر في الوزارة أن ولعَ السعوديِّين بالحرب «يظهر أن العرب … لم يتحسَّن حالهم عما كانوا عليه قبل ١٣ قرنًا». وأعلن ابن سعود فيما بعدُ نفسَه ملِكًا على الدولة الجديدة؛

المملكة العربية السعودية، ولكن الولايات المتحدة رفضت الاعتراف الرسمي بها، ورفضت أيضًا إرسال سفير لها هناك.

على أن الأمريكيِّين لم يكونوا جميعهم على نفس القدْر من اللامبالاة التي اتَّبعتها وزارة الخارجية تجاه المملكة العربية السعودية. فقد استمر المبشِّرون في العمل الجهيد بالمنطقة. ويكفينا أن نتذكَّر أنه قبل انتهاء القرن أسَّس المبشِّر الأمريكي صامويل زويمر أولَ مستوصف طبي حديث في شبه الجزيرة، وجاء بطبيب أمريكي هو الدكتور بول هاريسون ليرأسه. كان الطبيب ذا شخصية جذابة أنيقة يشبه الممثل الأمريكي رودولف فالنتينو، يميل إلى ارتداء الملابس البدوية، لكنه في الحقيقة لم يكن يأبه كثيرًا بالثقافة المحلية العربية. فقال: «حتى دينهم لم يتمكَّن من توحيدهم في دولة واحدة مستقرة فترةً طويلة.» وعدَّد تتابُع «الخيانات والاغتيالات والثورات وأحداث الشغب والحروب كبيرها وصغيرها» التي كان تاريخ العرب يمتلئ بها. ولكن مثل هذا القصور لم يكن ليثني هاريسون عن قيامه بواجبه الطبي تجاه السكان المحليِّين، أو عن السعي إلى إنقاذ أرواحهم من الجحيم. فاعترف قائلًا: «نريدهم أن يتحولوا إلى المسيحية، ولكن في شبه الجزيرة العربية تكون تلك عملية بطيئة للغاية.»

وللإسراع بعملية التحول هذه، توسَّع هاريسون في تقديم خدماته الطبية في سنواتِ ما قبل الحرب العالمية الأولى، فأسَّس فروعًا للمستوصف في الكويت وعمان والبحرين. وأضيف أطباء جدد إلى المستوصف، من بينهم عددٌ من السيدات الأمريكيات. وحكَت إليانور كالفرلي قصةَ وصولها إلى الجزيرة العربية عام ١٩١٢ الذي حدث على نحوٍ غير مخطَّط، قائلة: «إن ما بدا حتى تلك اللحظة تضحيةً مأساوية أصبح فجأة الشيءَ الوحيد في العالم الذي أريد أن أقوم به … لم أشعر قط بمثل تلك الفرحة!» ووجدت طبيبةٌ أخرى، هي ماري أليسون، أن الوصول إلى ميناء جدة كان لها بمنزلة «ميلاد جديد»، وتجربة عميقة روحيًّا وحسيًّا. فقالت: «عرفت مذاق النشوة؛ أن أصل إلى مكان أحلامي.»

لم تكن تجربة أليسون هي الوحيدة في هذا المضمار. فقد انجذب العديد من المبشِّرين إلى الجزيرة العربية بسبب قناعاتهم الدينية، فسحرتهم الصحراء بجَمالها الخالد وبقصص قبائلها الرحَّالة. وكان القليل من سِمات الجزيرة العربية يفتن الأمريكيِّين على نحوٍ يفوق فتنتهم بملِكها ابن سعود. فقد أَسَرَ المبشِّرين بقامته التي تزيد على ستة أقدام وأربع بوصات، وعباءاته الفضفاضة، وشَعره المجدول، وأسنانه اللامعة، وعينيه السوداوين المتلألئتين. ويتذكَّر أحد هؤلاء المبشِّرين قائلًا: «كان كلُّ ما فيه يعبِّر عن ذكاء

وحيوية وتصميم وقوة دامغة.» أما حقيقة أن ابن سعود كان له ١٢٥ زوجة وأنه كان يرافقه حرسٌ يحملون مدافع رشاشة، وأنه كان متحالفًا مع الوهابيِّين الكارهين للكفار، فلم تفلح في أن تحرِّر المبشِّرين من قيد سحره.

ولكن ابن سعود لم يكن مهتمًّا بإبهار الغربيِّين بقدْر اهتمامه بالحصول على رعاية طبية فعَّالة. فقد سمِع لأول مرة عن الأطباء الأمريكيِّين عام ١٩١١، عندما قدَّم الأطباء المبشِّرون في البحرين الرعايةَ الطبية لعشرة من رجاله كانوا قد أصيبوا بطلقات نارية في نزاعٍ حول صيد اللؤلؤ. وعام ١٩١٤ أرسل ابن سعود بعضَ أفراد من عشيرته المصابين بالملاريا ليتلقوا العلاج بالمستوصف الأمريكي بالكويت، وبعدها بثلاث سنوات دعا هاريسون إلى الرياض. حيَّاه العاهل قائلًا: «أنا أعلم أنك مسيحي، ولكن الرجال الشرفاء دائمًا يكونون أصدقاء مع اختلاف ديانتهم.» ثم أصيب ابن سعود نفسه بمرض التهاب النسيج الخلوي في وجهه في نوفمبر الثاني عام ١٩٢٣، فاستدعى الملِك من الكويت طبيبًا أمريكيًّا آخرَ هو لويس دام. كان هذا الطبيب داكنَ البشرة ممتلئ الجسد وله لحية سوداء مشذَّبة، وقد اندمج دام بسهولة مع السكان المحليِّين، وظنَّه الكثيرون شيخًا بدويًّا حين امتطى جملًا لما يقرُب من أربعين ساعة حتى وصل إلى الرياض. وقد عالج ابن سعود في أسبوع واحد. وعبْر ربع قرن من الزمان عالج دام وهاريسون وغيرهما من الأطباء المبشِّرين نحو ٣٠٠ ألف من سكان الجزيرة العربية، من بينهم العديد من السعوديِّين الذين قدَّروا ذلك الجميل.[1]

وسرعان ما أثبت هذا العرفان بالجميل أهميتَه في قرار ابن سعود لاختيار حليف غربي. فقد كان ناقمًا على البريطانيِّين الذين وقفوا أمام توسُّعه في إمارة شرق الأردن وفي جنوب العراق، وكان بطبيعته لا يثق بالفرنسيِّين؛ لذلك توجَّه إلى الدولة التي كان مواطنوها قد عملوا بمنتهى الإيثار من أجل صالح شعبه. وعندما ظهر احتمالُ أن بلاده لا تحتوي على صخور ورمال فحسب، بل أيضًا ينابيع من أكثر السوائل التي يسعى العالم وراءها، تذكَّر الملك هاريسون ودام.

البحث عن «الطين السائل»

في حين كان المبشِّرون الأمريكيون يعملون بجِد في الصحراء العربية القاحلة، كان بنو وطنهم هناك في الولايات المتحدة يتعطَّشون بالفعل للنفط. فمع مطلع العشرينيات من القرن الماضي تسبَّبت زيادةُ وتيرة التصنيع والإنتاج المكثف للسيارات وإنارة المنازل

في زيادة الطلب على النفط في الولايات المتحدة على نحو يفوق كثيرًا طاقتها الإنتاجية. واضطُرت شركات النفط الأمريكية إلى البحث بلهفة شديدة عن مخزونات نفطية خارج الولايات المتحدة، وعقَدت أكبرَ آمالها على الشرق الأوسط. ولكن بجانب الصعوبات الفنية للتعرف على أماكن الآبار في هذه المنطقة النائية من العالم التي يصعُب الوصول إليها، كانت هناك العديد من المعوِّقات السياسية أمام تنقيب الأمريكيِّين عن النفط. كان لدى إيران أكبرُ احتياطي معروف منه، ولكن شركة النفط البريطانية الوطنية كانت قد حصلت بالفعل على حق احتكار التنقيب في الجزء الجنوبي من البلاد، في حين هيمن الاتحاد السوفييتي المؤسَّس حديثًا على الجزء الشمالي. وفي سوريا والعراق وفلسطين، حيث كان المنقِّبون الأمريكيون يبحثون عن النفط قبل الحرب العالمية الأولى، ادَّعت فرنسا وبريطانيا أن انتدابهما بموجب قرار عصبة الأمم — وهي المنظمة التي قاطعتها الولايات المتحدة — يمنحهما حقوقَ تنقيب حصرية. لذلك اشتكى السفير الأمريكي في باريس، هيو والاس، قائلًا: «التحالف الأنجلوفرنسي مُصِرٌّ على إبعاد الشركات الأمريكية عن حقول النفط الجديدة في الشرق الأدنى.» على أن محاولات والاس — لتذكير حلفاء الولايات المتحدة السابقين أنه لولا تدخُّل الولايات المتحدة في خنادق أوروبا لما كان هناك وجود لعصبة الأمم ولا لفكرة الانتداب أصلًا — اتضح أنها غير مقنِعة بالمرة.

وبسبب حرص الحكومة الأمريكية على كسر احتكار الدول الأوروبية لنفط الشرق الأوسط، أصبح لها لأول مرة نشاطٌ فعال في مجال تجارة النفط. ففي عام ١٩٢١ جمع وزير التجارة الأمريكي، هربرت هوفر، الذي كان مديرًا محنكًا في مجال مجهودات الإغاثة الدولية، الشركاتِ الأمريكية السبع الأبرزَ في مجال النفط وهم: نيوجيرسي (التي تحوَّلت فيما بعدُ إلى إسو/إكسون)، وتكساس (التي تحوَّلت فيما بعدُ إلى تكساكو)، وسنكلير، ومكسيكان، وأتلانتيك، وجولف ونيويورك (سوكوني وتحوَّلت فيما بعدُ إلى موبيل) وحوَّلها إلى اتحاد فعَّال. وبسبب انزعاجها الشديد من هذه الجبهة المتحدة، خضعت الشركات الأوروبية ودعت الأمريكيِّين إلى مشاركتها في تكوين اتحاد احتكاري جديد أُطلق عليه اسم «شركة نفط العراق». حصل الأمريكيون على ٢٣٫٧٥٪ من مجموع النفط المستخرَج من الشرق الأوسط مقابل التنازل عن حقِّهم في التنقيب عن النفط بما لا يخالف القواعدَ المنظِّمة لعمل شركة نفط العراق (سُمِّي هذا البند بندَ نكران الذات). وكانت هذه الصيغة التي تلبي الاحتياجات المتزايدة للطاقة في أمريكا، دون تكبيلها بمسئوليات سياسية في الشرق الأوسط، تُعَد انتصارًا للدبلوماسية ومنجمَ ثراء للنفط الأمريكي. جرى الكشف

عن ضخامة الثروات الكامنة تحت رمال العراق إلى حدٍّ ما في أكتوبر عام ١٩٢٧، عندما اكتشف المنقِّبون في مدينة كركوك الشمالية نبعَ نفط كان من القوة بحيث قتل اثنين منهم.

ومع ذلك استمرَّت التساؤلات بشأن النطاق الجغرافي لعقد شركة نفط العراق، والحدود الدقيقة للشرق الأوسط، فهل كان الاتفاق يشمل مثلًا العراق وسوريا وفلسطين فقط، أم أنه ينطبق أيضًا على شبه الجزيرة العربية؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات، أخذ رؤساء الاتحاد بنصيحة رجل الأعمال الأرمني الأصل المنغمس في اللذات وذي العبقرية المالية كالوست كولبنكيان، الذي نجح في الحصول لنفسه على نسبة ٥٪ كاملة من أسهم شركة نفط العراق. ففي اجتماع مع المديرين التنفيذيِّين للشركة في يوليو عام ١٩٢٨، بسط صاحب نسبة الخمسة بالمائة — كما كان يحلو للأمريكيِّين أن يلقِّبوه — أمام المديرين التنفيذيِّين خريطةً للشرق الأوسط، وبقلم أحمر برَّاق رسم دوائر حول كلٍّ من تركيا وشبه الجزيرة العربية ومناطق الانتداب. وشرح كولبنكيان ذو الجسد القصير الممتلئ قائلًا: «كانت هذه هي الإمبراطورية العثمانية القديمة التي عرفتها عام ١٩١٤. ولي حقُّ المعرفة بها، فقد وُلدت فيها وعشت فيها وخدمت فيها.»

قصَرت اتفاقية الخط الأحمر أعمالَ التنقيب عن النفط في الشرق الأوسط على الأعضاء في شركة نفط العراق. وكانت هذه أخبارًا في غاية السوء لابن سعود؛ إذ إن الانخفاض المفاجئ في عدد الحجاج المسلمين إلى المدن المقدَّسة كان قد جعل الملك ابن سعود يعاني ضائقةً مالية شديدة، ومع ذلك فقد تردَّد في السماح للمهندسين البريطانيِّين التابعين لشركة نفط العراق بالتنقيب عن النفط وغيره من الموارد المعدنية في المملكة. وقد فضَّل العمل مع دولٍ تحترم سيادة المملكة، ومع محترفين من أمثال هاريسون ودام، الخالين من أي نوايا أوروبية استعمارية.

قدَّم المستشار الرئيسي للملك ابن سعود — هاري سانت جون فيلبي — حلًّا لتلك المعضلة في فبراير عام ١٩٣١. كان فيلبي مستكشفًا بريطانيًّا موهوبًا وغير تقليدي، وقد اعتنق الإسلام وأصبح من أشد المنتقدين لسياسات بريطانيا في الشرق الأوسط، وقد فطِن إلى احتياجات الملك ومخاوفه، بالإضافة إلى وجود احتمالات لتحقيق مكاسب شخصية لنفسه. حصل فيلبي على الحق الحصري لبيع سيارات فورد في المملكة، ليزيد هذا من ثروته ويصله أكثرَ بالصناعة الأمريكية. واقترح فيلبي على ابن سعود حلًّا للأزمة الاقتصادية المتفاقمة، أن يتوجَّه إلى الولايات المتحدة لمساعدته، وإلى واحد من أكثر الأمريكيِّين قربًا من الإسلام والعالم العربي.

لم يكن فشلُ قادة العالم في تطبيق التوصيات التي كان تشارلز كرين — الرجل المحسن الذي طالما دافع عن القومية العربية — قد توصَّل إليها مع السيد هنري كينج لإعادة تنظيم الشرق الأوسط في مرحلةٍ ما بعد الحرب، قد ثبَّط من همَّته وعزيمته. فاستمر في عشرينيات القرن العشرين في تمويل برامج الدراسات المعنية بشئون الشرق الأوسط في الولايات المتحدة، وفي العمل مبعوثًا للنوايا الحسنة بين أمريكا وحكام العراق وإمارة شرق الأردن واليمن. وفي أثناء رحلته عبْر الصحراء العربية عام ١٩٢٩، هاجمت جماعاتٌ من الوهابيِّين كرين ورفيقَ سفره القس هنري بيلكرت، الذي قُتل على يدهم. وفي أثناء تعافي كرين من جروحه، تلقَّى رسالة من ابن سعود يعبِّر فيها عن أسفه من أن «يُهاجَم صديقُ العرب في بلاد العرب» ودعاه إلى زيارة الرياض.

وحققت الزيارة نجاحًا مدويًا. فعلى مدارِ أربعة أيام احتُفي بكرين عن طريق احتفالات بدوية وسباقات للخيل وللهجن واستعراضات للحرس الملكي. وفي لحظةٍ معينة طلب ابن سعود من ضيفه أن يبقى في المملكة، وأن يعتنق الإسلام، وأن يكون مؤذن المسجد الحرام في مكة. لم يكن الهدف الحقيقي من الاجتماع هو مجرد الاحتفال، بقدرِ ما كان اجتماع عمل، وسأل فيه ابن سعود ضيفَه إن كان بإمكانه تمويل إجراء دراسة جيولوجية لبلاده، على أن يقوم بها مهندسون أمريكيون؟ وجاء الرد من كرين بالموافقة دون قيد أو شرط، وغادر كرين الرياض في ٣ مارس وبصحبته اثنان من أفضل خيل الملك، وإذن بالسماح ببدء أول دراسة مسحية أمريكية لشبه الجزيرة العربية.[2]

واختار كرين لقيادة تلك البعثة مهندسًا كان قد عمِل معه في اليمن من قبل، وهو شخص هادئ الطباع من ولاية فيرمونت اسمه كارل تويتشيل. ومع أن تويتشيل كان مقدَّرًا له أن يكون صاحب البذرة الأولى في العلاقات الأمريكية السعودية، فإن هذا الرجل ذا القد النحيف والقامة الطويلة والعيون التي يبدو عليها الحزن لم يكن من ذلك الصِّنف من البشر الذي يمكن أن يؤسِّس مثل هذه العلاقات. كان يبدو أن أهم مميزاته هي احترامه العميق لابن سعود؛ إذ وصفه بأنه «رجل حكيم ومستقيم ... وعادل وسخي ومضياف ... ويُعدُّ من أهم شخصيات ذلك العصر»، كما تميَّز تويتشيل بثقته التي لا تتزعزع في القدرة الاقتصادية لشبه الجزيرة العربية. ومن تجربته في اليمن كان يعرف أنه حتى أشد الصحاري قفرًا قد تخفي في باطنها آبارًا ارتوازية ومخزونًا من الموارد المعدنية الثمينة.

ولإثبات صحة حَدْسه بدأ تويتشيل رحلةً من ميناء جدة على البحر الأحمر في فبراير عام ١٩٣٢، وسار مسافةً تزيد على أربعمائة ميل متوغلًا في عمق البلاد. وعلى مشارف

المدينة المنورة نجح في اكتشاف منجم قديم للذهب أعاد تشغيله فيما بعدُ، ووصل بمعدَّل الإنتاج فيه إلى معدَّل مربح. ولكن عائدات المنجم المالية لم تكن لتعوِّض السعوديِّين عن فقدان عائدات موسم الحج، وكان شبح الإفلاس لا يزال يواجه المملكة. عاود تويتشيل بحثَه، قاطعًا ستمائة ميل أخرى حتى وصل إلى الخليج العربي، من دون العثور على مورد واحد ذي قيمة، ولا حتى بئر ماء. وبدا الموقف وكأنه لا علاج له، ولكن في الأول من يونيو من نفس العام عثر مهندسون من شركة ستاندارد أويل كومباني أوف كاليفورنيا (سوكول) فجأةً على النفط في جزيرة البحرين المقفِرة على الخليج العربي.[3]

وكان هذا الاكتشاف فألًا حسنًا لتويتشيل. فقد كانت البحرين لا تبعُد عن الأراضي السعودية سوى ١٢ ميلًا، وكانت مرتبطة جغرافيًّا بشبه الجزيرة العربية؛ لذلك كان من الممكن افتراضُ أنه إذا احتوت جزيرة البحرين على النفط فإن الساحل المتاخم لها سيحتوي عليه أيضًا. وبناءً على هذا الافتراض عاد تويتشيل إلى الولايات المتحدة، وقابل ممثِّلي شركة نفط العراق. ولكن الشركات الأمريكية كانت ملتزمةً بموجب اتفاقية الخط الأحمر بالعمل جماعيًّا في شبه الجزيرة العربية وليس منفردين؛ لذا رفضت أن تعمل في أي مشروعات على نحوٍ منفرد. واشتكى تويتشيل قائلًا: «تعتقد بعض تلك الشركات أن الحجاز هو اسم مشروب جديد.» وكانت شركة سوكول، التي لم تكن عضوًا في شركة نفط العراق، هي الوحيدة المستعدة لقبول المجازفة. عاد تويتشيل وبصحبته محامي شركة سوكول — لويد هاملتون — إلى جدة في فبراير عام ١٩٣٣، وطلب فور وصوله الحصولَ على امتياز ملكي بالتنقيب في منطقة الأحساء، على حافة الساحل المواجه للبحرين.

لم يكن الأمريكيون قد اشتركوا في مباحثاتٍ بهذه الدرجة من القوة والعلاقات المباشرة مع حكومةٍ شرق أوسطية منذ تلك المباحثات السرية التي أجرَتها إدارة الرئيس جاكسون مع العثمانيِّين عام ١٨٣٠، وقد اتضح من جديد أن تلك المحادثات غايةٌ في التعقيد. فما إن فتح هاملتون وتويتشيل بابَ المناقشات مع وزير مالية ابن سعود عبد الله سليمان — الذي يتميز بالنظر الثاقب وثبات الجَنَان — إلا وبدأ سليمان في التفاوض مع محامين من شركة نفط العراق. وبدأت حرب المزايدة في الأسعار، تبارى فيها الطرفان في عرضِ دفعِ مبالغ خرافية رفضها السعوديون في استحياء مصطَنع. انتصر الأمريكيون في النهاية بفضل استعدادهم لدفع القيمة ذهبًا (في حين عرضت شركة نفط العراق الدفع بالروبية) ولمنحهم فيلبي، الذي عمِل مستشارًا لشركة سوكول، راتبًا سنويًّا قدره ألف جنيه. وحتى عند ذلك أوشكت الصفقة كلُّها على الانهيار، عندما منعت الحكومة الأمريكية أيَّ تصدير للذهب استجابةً لأزمة العملة التي فجَّرتها أحداث أزمة الكساد الكبير.

وجرى الحصول على الذهب في اللحظة الأخيرة — للمفارقة — من بنك بريطاني. ففي يوم ٢٥ من أغسطس بجدة — وأمام عينَي سليمان الثاقبتين — عدَّ تويتشيل ٣٥٠٠٠ جنيه ذهبي، وهو ما يوازي ١٥٫٥ مليون دولار بأموال اليوم، وعرض على السعوديِّين قروضًا تصل إلى عدة ملايين أخرى.[4]

كان الاتفاق مع ابن سعود يمثِّل نقطةَ تحوُّل في علاقات أمريكا بشبه الجزيرة العربية، بل بالشرق الأوسط بأكمله. فباقتحام منطقةٍ كان يُنظر إليها من قبلُ على أنها منطقة يستأثر بها البريطانيون، يكون الأمريكيون قد ارتبطوا بعلاقة ثنائية ملزِمة مع ملك عربي محترَم، ووضعوا حجرَ الأساس لروابط اقتصادية دائمة. ولكن القيمة الاستراتيجية والمالية لتلك الاتفاقية كانت لا تزال في مهب الريح. إذ إنه في ظل عدم وجود طرق ممهَّدة أو استطلاع جوي أو حتى توافر أبسط الاحتياجات الأساسية كان يجب على المهندسين الأمريكيِّين أن يمسحوا منطقةً مساحتها ٣٢٠٠٠٠ ميل مربع في صحراء مجهولة تمامًا.

وصل أولُ فريقِ عمل لتويتشيل — الذي تكوَّن من شايلر هنري وبيرت ميلر — في سبتمبر عام ١٩٣٣، وكان كلاهما من المحنَّكين الذين شاركوا في عمليات التنقيب في البحرين العام الماضي. وتبِعهما العشرات، ليس من المهندسين فقط، بل أيضًا من الحفَّارين والمنقِّبين والميكانيكيِّين والموظفين الإداريين والطباخين. كانوا يعيشون في البداية في خيامٍ مصنوعة من وبر الجِمال قُرب ميناء الجُبَيْل، ثم قاموا ببناء منازل واستيراد رفاهيات أمريكية، مثل أجهزة التكييف والمذياع وحتى حمَّامات السباحة. وقام عدد من العاملين باستقدام زوجاتهم أيضًا. وبمزيج من الانبهار والاحتقار كتب فيلبي عن الأمريكيِّين «الذين هبطوا من السماء على بساطهم الطائر ومعهم أجهزةٌ غريبة يحاولون بها اكتشافَ باطن الأرض بحثًا عن الطين السائل الذي يتهافت عليه العالَم للإبقاء على حياة آلاته التي لا تشبع». ومع ذلك فقد كانت الحياة في الصحراء العربية — المليئة بعواصفها الرملية ومائها المالح ومسئوليها المحليِّين الفاسدين، ودرجة حرارتها التي تصل إلى ١٢٠ درجة — نادرًا ما نظر إليها هؤلاء الأمريكيون على أنها حياة شاعرية. فقد كانت هناك اختلافاتٌ ثقافية عميقة تفصلهم تمامًا عن السكان المحليِّين الذين وصل بهم الأمر إلى حد الامتعاض من بعض عادات الأمريكيِّين الفظَّة مثل السِّباب. على أن الامتعاض لم يكن من جانب واحد وإنما كان متبادَلًا في كثير من الأحيان. فقد رفض المهندس توماس بارجر — القادم من نورث داكوتا الذي سيصبح بعد ذلك رئيسًا لإحدى شركات النفط — ممارسةَ إحدى

عادات البدو الموغلة في القِدم في أكل الجراد. فقال: «إنهم يقومون بغليه، ثم تجفيفه في الشمس، ودقِّه في مهراس، وصُنع ضرب من ضروب عصيدة الجراد. أما أنا فأعتقد أنني سأكتفي بالشوفان الذي أتناوله كلَّ يوم.»

لم ينزعج الأمريكيون من أيٍّ من تلك التحديات البيئية أو الثقافية قدْر انزعاجهم من مسألة اختيار موقعٍ بعينه في الصحراء الشاسعة المقفرة، ثم الحفر والتنقيب بعمق آلاف الأقدام في الرمال والصخور الصلبة بحثًا عن بحيرة نفطية. وتعلَّم المهندسون من تجاربهم في البحرين أن يبحثوا عن التلال — أو الجبال بالعربية — التي تتجمَّع تحتها الهيدروكربونات في بعض الأحيان. ووُجِدت أكثرُ الدلائل المبشِّرة في مكان ناتئ على شكل قبة يوجد في الدَّمام بالقرب من الجُبَيل. وبدءًا من عام ١٩٣٥ حُفِرَت ستُّ آبار في تلك القبة، وفي حين ظهر النفط في بعضها، لم ينتِج أيٌّ منها العددَ المطلوب من مئات البراميل يوميًّا والضروري لتحقيق ربح. على أن المخاوف بدأت تنتاب بشدة المديرين التنفيذيِّين في شركة سوكول الذين في غمرة تفاؤلهم قد غيَّروا اسم الشركة إلى شركة ستاندارد العربية الكاليفورنية للنفط (كاسوك) التي عُرفت فيما بعدُ باسم شيفرون. إذ إن الشركة أنفقت أموالًا ضخمة — في ذروة أزمة الكساد الكبير — على مشروعٍ بدا وكأنه مات فور ولادته. وكانت نهاية الشركة الجديدة وانهيار العلاقات الوليدة بين المملكة السعودية والولايات المتحدة تبدو وشيكة.

ومع ذلك، وتحديًا لتلك المخاطر، فقد حُفِرَت آخر بئر وهي رقم ٧. بدأ الحفر في نهاية ديسمبر عام ١٩٣٧، وبعدها بثلاثة أشهر، على عمقٍ يزيد على نصف ميل، لامست آلة الحفر نفطًا. وضُخَّ ٣٦٩٠ برميلًا في يوم واحد، هو الرابع من مارس. ووُجِدت كميات مشابهة على أعماقٍ متقاربة في البئرين رقمي ٢ و٤. وبنهاية العام كانت الآبار السعودية تنتِج نصفَ مليون طن من النفط، وهي كمية هائلة وجب معها مدُّ خط أنابيب جديد متجه إلى الواحة الساحلية في الخُبَر حتى يمكن ضخُّ النفط الخام إلى ناقلات النفط الأمريكية الراسية بالقرب من الشاطئ.

حظي بشرف أول تشغيل لصمَّام خط أنابيب الخُبَر الملك ابن سعود، الذي وصل إلى الموقع بمصاحبةِ حاشيته المكوَّنة من ٥٠٠ سيارة وألفي فرد. كان الملك سعيدًا للغاية بإنجازات الأمريكيِّين، وأعلن استعداده للتفاوض على حقوق التنقيب في بقية شبه الجزيرة. ومرةً أخرى وجدت شركة كاسكوك نفسَها تتنافس مع شركة نفط العراق، كما تنافست مع الحكومتين الفاشيتين في ألمانيا واليابان اللتين كانتا بحاجة إلى وقود لمعداتهما الحربية.

نجح مزيج من حسن النوايا والذهب — ٩٠٠٠٠٠ دولار في صورة منحٍ و«رسوم تأجير» — في منحِ الأمريكيِّين نصرًا آخرَ في هذا المجال. فأصبحوا يمتلكون الآن إذنًا بالتنقيب في مساحة ١٢٠ ألف ميل مربع على الحدود الجنوبية والشمالية ستين عامًا.[5]

مدٌّ وجَزر

بثَّ النفط السعودي والعقود السعودية الحياةَ في صناعة أمريكية طال إجهادها نتيجةَ معدَّل هائل للبطالة وكساد اقتصادي. ولكنَّ ردَّ فعل الحكومة الأمريكية ظل متبلدًا. وانتهت وزارة الخارجية في مايو عام ١٩٣٧، إلى رفض مبادرة جديدة لإقامة علاقات دبلوماسية مع المملكة، قائلة: «علينا أن نبقيَ الأمور على ما هي عليه، حتى يأتي يوم تكون المصالح الأمريكية في المملكة السعودية قد حقَّقت تطورات أخرى.» وكان الأمريكيون لا يزالون يستثمرون في مدارس الإرساليات والكنائس (نحو ٤٫٥ ملايين دولار سنويًّا) استثماراتٍ تفوق استثماراتهم في التنقيب عن النفط في الشرق الأوسط. واستمرت وزارة الخارجية في رفضها فكرةَ التنقيب في منطقةٍ لا تزال تُعدُّ منطقةَ نفوذ بريطانية، ورفضت كذلك فتح قنصلية أمريكية هناك لمجرد خدمة موظفي شركة أمريكية وحيدة.

ومع ذلك فلم يستطِع حتى عناد وزارة الخارجية أن يخفيَ حقيقةَ أن إنتاج آبار الخليج العربي قد ارتفع بنسبة ٩٠٠٪ منذ ١٩٢٠، وأن الولايات المتحدة أصبحت تحصُل على ١٤٪ من نفطها من الشرق الأوسط. وكان النفط قد اكتُشف أيضًا بكميات اقتصادية في الكويت، عن طريق مشروع أنجلوأمريكي، وأشارت الدلائل إلى وجود مخزون وفير في إمارة خليجية أخرى هي قطر. وثابر موظفو شركة النفط على تذكير واضعي السياسات الأمريكيِّين بالقوة الاقتصادية الهائلة لشبه الجزيرة العربية والخليج العربي، مؤكِّدين الصلاتِ العديدةَ الثقافية والسياسية بين شعوب الخليج وشعب الولايات المتحدة.

وقال كارل تويتشيل: «مع أن الحكومة السعودية تبدو في الظاهر استبداديةً من عدة وجوه، فإنها تظهِر جوانبَ ديمقراطية عديدة.» وكان تويتشيل واحدًا فقط من الأمريكيِّين الذين عادوا إلى الولايات المتحدة بعد انقضاء مهامِّ عملهم في المملكة السعودية في ثلاثينيات القرن العشرين وهم يفيضون بالمديح لملكها ورعاياه المتسامحين المحبِّين للحرية المناصرين للأمريكيِّين. أما تشارلز كرين فكان من أكثرِ الأمريكيِّين إعجابًا بتلك السِّمات السعودية المفترضة. كانت تلك هي السنوات الأخيرة في حياته؛ فقد توفي عام ١٩٣٩، وكان في غاية الإعجاب بالزعيم الألماني أدولف هتلر، وأسماه «الحصن الحقيقي

للثقافة المسيحية»، وظل كرين أيضًا داعيةً متحمسًا لإقامة علاقات وثيقة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية التي كان يُظهِر قدرًا هائلًا من التأييد لملكها. وأكَّد للرئيس روزفلت أن «ابن سعود هو أهم رجل ظهر في شبه الجزيرة العربية منذ عصر النبي محمد»، قبل ذلك بثلاثة عشر قرنًا.

يمكن وصف كل أو بعض الآراء العديدة التي أثَّرت بشدة على ابن سعود ومملكته أنها آراء بُنيت على مبالغات. فلم تكن هناك ديمقراطية في المملكة العربية السعودية، وإنما تسامح مشروط مع غير المسلمين، فقال ابن سعود لدبلوماسي أمريكي بكل وضوح وبما لا يدَع مجالًا للشك: «نحن المسلمين لدينا العقيدة الواحدة الصادقة. نعم سنستخدم حديدكم، ولكن لا تمسوا عقيدتنا.» وفي حين كان ابن سعود يميل إلى الولايات المتحدة، فإنه لم يمانع في التفاوض مع بريطانيا وفرنسا حتى ينتزع من الأمريكيِّين مبالغَ أكبر. وبالفعل، فعندما سأله المفاوضون الأمريكيون عن أسباب تفضيله للولايات المتحدة على الأوروبيِّين، أجاب ابن سعود بكل صراحة: «أنتم بعيدون للغاية!»

ومع واقع شبه الجزيرة العربية غير المغري، فقد استمرت في إثارة إعجاب الكثيرين من الأمريكيِّين العاملين هناك. وكان من بين هؤلاء ممثِّلون عن نموذج جديد يضم مزيجًا من المبشِّرين ورجال الأعمال والدبلوماسيِّين. وبسبب حاجة شركات النفط إلى تنفيذيِّين على علم ودراية بالشرق الأوسط ومتحدثين بلغاته، فإنها كانت متلهفة على توظيف المبشِّرين وأحفادهم. فنجد على سبيل المثال لويس دام يترك مستوصف الإرسالية ليصبح طبيب شركة كاسوك، وأدَّى ذلك إلى وجود علاقة تعايشية تكافلية بين صناعة النفط والتبشير بالمسيحية. فكتب تويتشيل، الذي كان يساعد في مدِّ مدارس الإرساليات بكرات القدم والكراسات حينما كان لا يقوم بالتنقيب: «قد تكون المملكة السعودية هي الدولة الوحيدة في العالم التي دخلت وتطوَّرت في مجال النفط والتعدين نتيجةَ مشاعر خيرية محضة». كما سعَت وزارة الخارجية أيضًا إلى تحويل المبشِّرين إلى دبلوماسيِّين في الشرق الأوسط. وبدورها وظَّفت شركاتُ النفط تنفيذيِّين دبلوماسيِّين للعمل فيها. فعمل ويليام إيدي، سليلُ عائلة مبشِّرة في لبنان سفيرًا لأمريكا في الرياض، وعمل فيما بعدُ مستشارًا لإحدى شركات النفط.

نال المزيج بين تلك العوامل الثلاثة — الرومانسية والدِّين والاقتصاد — المكوِّنة لصورة المملكة السعودية لدى أمريكا شهرةً فائقة عن طريق والاس ستيجنر الروائي الفائز بجائزة بوليتزر. فقد كلَّفه القائمون على صناعة النفط عام ١٩٥٥ بكتابة تاريخ

البحث عن النفط الخام في الصحراء العربية، وقارن ستيجنر بين الصحراء السعودية وبين أدغال الغرب الأمريكي القديم، وقارن بين المغامرين الباحثين عن النفط في بقاعٍ مجهولة من العالم من أمثال تويتشيل وبارجر، وبين المبشِّرين والرواد الأمريكيِّين قائلًا: «إذا كان الإيمان المطلَق بشكلٍ ما من أشكال الحياة يمثِّل العنصر الأساسي في التبشير بالمسيحية، فإن هؤلاء الرجال كانوا مبشِّرين، مثلهم مثل المسيحيِّين من أتباع د. هاريسون في البحرين.»[6]

وبحلول عام ١٩٣٩ كان النفط يتدفَّق من الآبار السعودية بمقدار ٥ ملايين برميل سنويًّا وأصبحت تلك الآبار من مصالح أمريكا الملموسة بلا جدال. ولكن هذا الاستثمار تعرَّض للخطر في سبتمبر من العام نفسه، بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومع أن حكومة المملكة السعودية كانت في الظاهر على الحياد في هذا الصراع، فقد قيل إنها «تتفهم القسوة الألمانية» وتتعاطف مع دول المحور. وقيل إن ممثلين عن الحزب النازي الألماني أجرَوا اتصالات مع ابن سعود وعرضوا عليه أسعارًا تنافسية للحصول على نفط بلاده. وأصيبت شركات النفط الأمريكية بالتوتُّر والقلق حول مستقبل أعمالها في السعودية، وضاعفت من ضغوطها على وزارة الخارجية لإضفاء صفة الرسمية على علاقتها مع الرياض. وأخيرًا خضعت وزارة الخارجية للضغوط ومدَّت نطاق عمل سفيرها في القاهرة — بيرت فيش — إلى المملكة السعودية أيضًا. فزار فيش المملكةَ مرة واحدة فقط، ولكن تلك التجربة تركت فيه أثرًا لا يُمحى. فكتب يقول: «يمكن القول بسهولة إن المصالح الاقتصادية الأمريكية في المملكة العربية السعودية أصبحت الآن تفوق مصالحها في أي دولة شرق أوسطية أخرى.»[7]

ومع ذلك لم تسفر إشاعةُ تملُّق الألمان لابن سعود ولا حماسة تقرير فيش عن أي تغيير في السياسة الأمريكية الرسمية تجاه المملكة السعودية. وكانت المملكة السعودية تترنح بسبب النكسات الاقتصادية نتيجةً للحرب؛ لذلك طلب ابن سعود من واشنطن قرضًا لمواجهة الطوارئ قدره ١٠ ملايين دولار وفقًا لقانون الإعارة والتأجير الأمريكي. وحذَّر التنفيذيون القائمون على شركات النفط من أن المملكة السعودية وربما العالَم العربي كله سيسقط في فوضى شاملة، ومن ثَم سيلقي بنفسه في أحضان دول المحور، إن لم يُقدم لها هذا النوع من الدعم. ولكنَّ حكومة الرئيس روزفلت أجابت بأن المساعدات وفقًا لقانون الإعارة والتأجير تستهدف على نحوٍ محدَّد دعمَ التحرُّر من الطغيان وأن «منْحَ مساعدات مالية لمجتمع متخلِّف وفاسد وغير ديمقراطي» يتعارض مع المصالح

القومية الأمريكية. واستمرَّت وزارة الخارجية في النظر إلى المملكة السعودية باعتبارها مسئولية بريطانيا وليس أمريكا، وأنَّ تمويل ملِكها بما يحتاج إليه يقع ضمن واجبات بريطانيا وحدَها.

كان رفضُ أمريكا طلبَ ابن سعود منْحَه مساعداتٍ مالية قد أزعج الملك أيَّما إزعاج. ولكن الاختلافات في المسائل النقدية لن تظل هي المصدر الرئيسي للتوتر بين المملكة السعودية وأمريكا. إذ ستشهد السنوات التالية مسألةً ملتهبة ستثير توترًا غير مسبوق بين البيت الأبيض والملك، وبين الولايات المتحدة والحكومات العربية بوجه عام. فقال ابن سعود واعظًا وزارةَ الخارجية الأمريكية: «اليهود يعادون العربَ منذ زمن النبي محمد. وبسبب ثرواتهم الضخمة ونفوذهم في بريطانيا والولايات المتحدة لا يزالون يتعدَّون على العرب.» وكان هذا التعدي المزعوم يقع في فلسطين، وهي البلد الذي كان الملِك «بصفته أبرزَ العرب والمسلمين» يَعُدُّ الحفاظَ عليها مسئوليةً سامية.[8]

وفي الأعوام العشرين السابقة على ذلك، ومنذ نهاية مؤتمر باريس للسلام، كانت العلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين، وبين كلا الفريقين والسلطات الحاكمة البريطانية، تتدهور على نحوٍ منتظِم. وقد حدث هذا التدهور نتيجةَ النمط المتزايد للهجرة اليهودية إلى فلسطين الذي أشعل شرارة عداء العرب، وأدَّت المقاومة العربية إلى تخلي بريطانيا عن التزاماتها نحو اليهود. وكان الحياد التام هو سِمة موقف أمريكا تجاه هذا الصراع المتأجِّج. ولكن عندما تخلَّت بريطانيا عن التزاماتها في فلسطين، وجدت أمريكا نفسها منجذبة — رغمًا عنها وبالمخالفة لسياساتها المعلنة — نحو العلاقات العربية اليهودية الشائكة.

الفصل الرابع والعشرون

نشوب صراع لا حلَّ له

تمكَّن العرب واليهود في فلسطين — بالرغم من أحداث التوتر المتفرِّقة — من تجنُّب حدوث صِدامات داخلية عنيفة خلال الفترة التي سبقت الحربَ العالمية الأولى. واستمر المجتمع الصهيوني — المعروف باسم يشوف — في التوسع، وبنهاية الحرب وصل عددهم ٧٥٠٠٠ شخص، كان الكثير منهم يقيمون في مزارعَ جماعية تُعرف باسم «الكيبوتز» أو مزارع تعاونية تُعرف باسم «موشاف»، أو في تل أبيب، وهي أول مدينة يهودية في التاريخ الحديث. وأُقيمت مؤسَّسات وطنية حديثة للمساعدة في عمليات الاستيطان وتطوير البنية التحتية ونشرِ الثقافة العبرية الناهضة. وأزالت هزيمةُ العثمانيِّين آخرَ العقبات أمام هجرة اليهود وشرائهم الأراضي. وعليه اشترى اليهود رقعًا كبيرة من الأرض في منطقة الجليل وعلى طول الساحل، واستقروا فيها بسرعة. وعلى الصعيد الدبلوماسي أيضًا بدا وكأن الحركة الصهيونية قد حقَّقت نصرًا واضحًا. فقد أُدمج نصُّ وعد بلفور — الصادر عام ١٩١٧ الذي وعد بمساندة تأسيس وطن قومي لليهود — ضمن تقسيم عصبة الأمم للانتداب، الذي حكَمت بريطانيا فلسطين بموجبه. وبدا أن حُلم هيرتزل بتكوين دولة يهودية مستقلة على أرض إسرائيل يوشك أن يصبح حقيقة.

ولكن نصف المليون عربي في فلسطين لم يكن لهم مكان في رؤية هيرتزل، فلم يحتفلوا بازدهار المجتمع الصهيوني، أو بالتأييد الذي منحه البريطانيون إياه. ومع أنهم انجذبوا إلى المزايا الاقتصادية التي نتجَت عن الاستيطان الصهيوني — إذ سيدخل فلسطين نحو ٣٠٠ ألف عربي البلاد من الدول المجاورة — فإن آلاف الفلاحين الفلسطينيِّين قد تشردوا عندما اشترى اليهود الأراضي، وهُمِّش العمال في المدن وحلَّ محلهم عمالٌ يهود أكثر معرفةً بالتكنولوجيا الحديثة. وراقب العرب، في ظل توتُّر متصاعد، نشوءَ كيان يهودي علماني

بدرجة كبيرة على النمط الغربي بينما يضرب بجذوره في قلب بلاد الإسلام. وبدأ عرب فلسطين في الاتحاد ضد المشروع الصهيوني، مستقين إلهامَهم من ذات الأفكار الوطنية التي كانت تشعِل حماسة الثورات المضادة للاستعمار في مصر وسوريا والعراق، وتحت تأثير إعادة إحياء الأفكار الإسلامية التي كانت تزدهر في المنطقة. وبدءًا من عام ١٩١٩ أقيم عددٌ من المؤتمرات الوطنية للمطالبة باستقلال العرب في فلسطين، ولتنسيق أعمال المقاومة ضد الصهيونية.

وتزامنت صحوة الوعي الوطني العربي في فلسطين مع اندلاع موجة جديدة من المذابح في جنوب روسيا وأوكرانيا. واضطُر عشرات الآلاف من اليهود إلى البحث عن ملجأ خارج البلاد. في السابق كان العديد من هؤلاء الضحايا يجدون ملجأهم في الولايات المتحدة، ولكن التطبيق الصارم لقانون الهجرة الأمريكي الذي شرعه الكونجرس والذي حدَّد حصصًا لأعداد المهاجرين من كل دولة أدَّى إلى تقليص الهجرة إليها ووجَّه هؤلاء المشردين وجهتهم نحو فلسطين. ولقيت هذه الموجة الجديدة من اليهود ترحيبَ اليشوف، لكنها لم تلقَ من جانب العرب سوى الاستياء والخشية منها. فهاجم العربُ الأحياءَ والمزارع اليهودية مرتين — الأولى في مارس عام ١٩٢٠ والثانية في مايو عام ١٩٢١ — متسبِّبين في قتل وجَرح العشرات.

وكانت حدةُ ردِّ الفعل العربي قد صدمت بريطانيا. فقد اكتشف البريطانيون فجأة أن الوطن القومي لليهود لا يمكن أن يُبنى دون إثارة غضب عرب الشرق الأوسط، بالإضافة إلى ملايين المسلمين في أنحاء الإمبراطورية البريطانية. وفي تقريره المعروف باسم الكتاب الأبيض عام ١٩٢٢، أوصى وزير المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل بتقليص الهجرة اليهودية إلى البلاد، وأكَّد للعرب أن بريطانيا ليس لديها أيُّ نية لتحويل فلسطين إلى دولة يهودية. ولتأكيد صدقِهم، عيَّن البريطانيون أحدَ أبرز الشباب الفلسطينيين — الحاج محمد أمين الحسيني، الذي كان من أشد المعارضين للصهيونية وسُجِن بسبب دوره في المظاهرات — في منصب المفتي الأكبر الذي أقيم لذلك الغرض خاصة.

وندَّد اليهود بما عدُّوه تراجعَ بريطانيا عن وعد بلفور ونكوصها عن تهدئة العنف العربي ضدهم. فقاموا بمجهودات ضخمة بلا كلل ولا ملل لإزالة قيود الهجرة عن أعدادهم ونظَّموا سرًّا جيشَهم الخاص، المسمَّى بالهاجاناه، وهي كلمة تعني الدفاع. واعترض قطاعٌ آخر من المجتمع الصهيوني أُطلق عليهم «المجدِّدون» بقيادة القائد العنيد الصلب فلاديمير (زائيف) جابوتنسكي، على قرار بريطانيا بفصل إمارة شرق الأردن عن فلسطين، وطالبوا

بالتأسيس الفوري لدولة يهودية، «على كلتا ضفتي نهر الأردن». وفي حين أثارت بريطانيا حفيظةَ اليهود فإنها فشلت في ذات الوقت في إرضاء العرب. فقد أصر المفتي على وقف جميع أنواع هجرة اليهود فورًا، وأن يُرفع الانتداب أيضًا، تمهيدًا لإقامة دولة عربية مستقلة.

وبحلول منتصف العشرينيات من القرن العشرين كان الصراع في فلسطين قد اتَّبع نمطًا يصعب السيطرة عليه. فقد شجَّعت معاداة السامية في أوروبا على هجرة اليهود إلى فلسطين، وهو ما حفز بدوره المقاومة العربية. ولم تنجح المحاولات البريطانية المتتالية لتهدئة العرب سوى في إثارة حَنَق اليهود وتشجيع العرب على الضغط لتحقيق مطلبهم في الاستقلال.

وعاود نفس النمط ظهوره عام ١٩٢٤، عندما تسبَّبت موجة أخرى من مذابح اليهود في فرار ٦٧٠٠٠ يهودي بولندي إلى فلسطين. خشي العرب من هذا الطوفان الهائل من البشر الذي حلَّ عليهم، وثارت ثائرتهم بسبب الشائعات التي روَّج أغلبها المفتي، ومُفادها بأن جابوتنسكي ومؤيديه من المجددين يخطِّطون للاستيلاء على الحرم القدسي الشريف (جبل الهيكل)، وهو ثالث أقدس مكان في الإسلام. وعليه هاجمت جماعاتٌ من العرب المجتمعاتِ الصهيونية حول القدس وفي الخليل وغزة وصفد، وقابلت الهاجاناه الهجومَ بهجوم مضاد، وبعد أسبوع من المناوشات، كان عدد القتلى من العرب ١١٦ ومن اليهود ١٣٣. وتمثَّل ردُّ فعل البريطانيِّين على هذه المذبحة في إجراء تحقيق آخر، وإصدار كتابٍ أبيض جديد يوصي بفرض قيود على هجرة اليهود، وبمضاعفة الجهود لتهدئة مخاوف العرب. واعترض اليهود بشدة، في حين جدَّد المفتي نداءه ودعوته لوضع نهاية للمشروع الصهيوني ورفع الانتداب، وهكذا نشأ من هذا النمط صراعٌ استمر قرنًا كاملًا من الزمان بين الصهيونية والعرب في الشرق الأوسط.[1]

لم يكن لدى الولايات المتحدة النيةُ ولا الرغبة في أن تتورَّط في هذا الصراع، بل على العكس كانت مصرَّة على أن تظل على حيادها تجاه جميع الأطراف. ومع أن الكثير من الأمريكيِّين واليهود والمسيحيِّين المؤمنين بفكرة وجوب إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين كانوا لا يزالون يأمُلون في إعادة سيادة اليهود على الأرض المقدَّسة، فإن السياسة الرسمية للحكومة الأمريكية في فترة الحرب كانت إحدى السياسات تجاه فلسطين التي تتصف بحياد لا يتزعزع. وفسَّر القادة الأمريكيون موقفَهم بأن هذه المسألة تقع ضمن صلاحيات عصبة الأمم، التي لم تنضم الولايات المتحدة إليها قط، وأنها تقع داخل سلطة انتداب بريطانيا العظمى أيضًا. ومع مجهودات الولايات المتحدة في محاولة البقاء بعيدًا

عن هذا الصراع، فقد وجدت نفسها مجرورة إلى الدوامة المتصاعدة للعداء بين العرب واليهود، وإلى الفراغ الذي تركه الانسحاب البريطاني.

التمسُّك بالحياد

أسدى آلان دالاس، رئيس قطاع شئون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية النصيحة التالية إلى حكومته: «إن التزام حكومتنا بمساندة الصهاينة في هذه اللحظة بالذات سيكون أمرًا غير ملائم على نحوٍ خاص.» كان دالاس قد تلقى تعليمه في جامعة برنستون، وكان جَده لأبيه هو أحدَ المبشِّرين التابعين للكنيسة المشيخية، وابن شقيقة روبرت لانسينج، لكل ذلك كان دالاس مثالًا للدبلوماسي المحترف، الذي بحلول العشرينيات من القرن العشرين قد أحلَّ اليهود الأمريكيِّين وسطاءَ للبلاد في التعامل مع الشرق الأوسط. ورِث دالاس من المبشِّرين نفورَهم من الصهيونية؛ إذ إنهم نظروا إلى الحركة الصهيونية على أنها ضارة ومؤذية وعدوانية وتتخطى كونها جبهةً شيوعية. لذلك خمَّن أحد القناصل الأمريكيِّين قائلًا: «سوف يتحول الصهاينة ليصبحوا أمثال ليون تروتسكي إذا لم يصلوا إلى فلسطين.» وسرعان ما حوَّل هؤلاء المحترفون وزارةَ الخارجية إلى نادٍ خاصٍّ بهم، كان — حتى بمعايير وزارة الخارجية البريطانية — «يحمل مشاعرَ مضادة لليهودية». وفي ظل عدم وجود كيان عربي أمريكي يماثل الرابطة الأمريكية الصهيونية، ظهرت وزارة الخارجية الأمريكية في فترةِ ما بعد الحرب العالمية الأولى باعتبارها أكثرَ القوى حُنكةً وأعلاها صوتًا في معارضة إقامة وطن قومي لليهود. فعندما قُتل أمريكيان، هما ياكوف تاكر وزئيف شارف — وكلاهما ممن قاتلوا في الحرب العالمية الأولى — أثناء مقاومتهما هجومًا عربيًّا على مستوطنة تل حي اليهودية في مارس ١٩٢٠، صمتَت وزارة الخارجية الأمريكية على نحوٍ لافت للنظر.

ولكن هذا النفور والعداء تجاه الصهيونية لم يُترجَم إلى دعوة لمساندة العرب. فالتقرير البريطاني نفسه الذي اتهم وزارة الخارجية الأمريكية بمعاداة السامية وصفَها أيضًا بأنها «معادية للصهيونية على نحوٍ يفوق مناصرتها للعرب». وفي حين احتفظ الكثيرون من هؤلاء الدبلوماسيِّين المحترفين في قرارة أنفسهم بالتعاطف التبشيري مع القومية العربية، فإنهم جاهروا بالاعتراف بالمخاوف الأمريكية المعتادة من التورط في صراعات خارجية، وكانت هذه المخاوف قد زادت منذ الحرب، مما حدا بإدارة وارن هاردينج وكالفين كوليدج وهيربرت هوفر إلى التوجُّه إلى الداخل، متقوقعين بعيدًا عن أي

التزامات خارجية. وعندما استشعرت وزارة الخارجية ذلك، أوصت بأن تحتفظ الولايات المتحدة بحيادها تجاه القضية الفلسطينية، وقال دالاس: «علينا أن نتجنَّب أيَّ خطوة قد تُفسَّر على أنها دعمٌ رسمي سواء للصهاينة أو للعرب أو للمناهضين للصهيونية.»

اتَّصف أيضًا موقفُ الكونجرس الأمريكي من فلسطين بسياسة العزلة تلك. فعلى عكس وزارة الخارجية، التي ادَّعى موظفوها غير المنتخَبين أنهم يمثلون المصالح الأمريكية بعيدًا عن أي «مؤثرات سياسية داخلية» — وهو تعبير مهذَّب كان يُستخدم للإشارة إلى الضغط اليهودي — كان الكونجرس أكثرَ حساسية فيما يتعلَّق بأصوات اليهود الانتخابية، ولهذا كان أكثرَ ميلًا إلى الصهيونية. فأعلن النائب هنري كابوت لودج، مدافعًا عن قرارٍ مشترك لمجلسي النواب والشيوخ صدر في سبتمبر ١٩٢٢ أكَّد موافقةَ الكونجرس على وعد بلفور: «إننا نتفهم تمامًا أن يرغب الشعب اليهودي في جميع أنحاء العالم في إقامة وطن قومي له في الأرض التي شهدت منشأهم الأول.» ولكن هذا الرجل نفسه الذي قاد المعارضة ضد اقتراحِ وضعِ أرمينيا تحت الانتداب الأمريكي لم يكن على استعداد لأن يدفع بلاده إلى ما عدَّه فخًّا شرقَ أوسطي آخرَ. ومنحت المعاهدة الأنجلوأمريكية حول فلسطين، التي أقرَّها الكونجرس عام ١٩٢٥، الحمايةَ للمصالح والأعمال الخيرية الأمريكية في الأرض المقدَّسة، وفيما عدا ذلك حصلت بريطانيا العظمى على السلطة الكاملة هناك.[2]

ولكنَّ أعمال الشغب التي اندلعت عام ١٩٢٩ فاقت في مداها أيَّ اضطرابات أخرى سابقة لدرجةِ أنها هدَّدت بهدم أركان السياسة الانعزالية للولايات المتحدة. فمن بين اليهود القتلى كان هناك ثمانية من الأمريكيِّين، معظمهم من الطلبة المتدينين. وأعاد وصف أعمال الشغب إلى الأذهان المذابحَ الأرمينية التي كانت قد حدَثت قريبًا آنذاك، وشهدت امرأة أمريكية نجَت من مذبحة الخليل قائلة:

> «اقتحمت مجموعةٌ من العرب المتوحشين الباب، كان الحاخام هو أول القتلى، وبعده جاء دور الشباب غير المسلَّحين والعاجزين عن الدفاع عن أنفسهم فأخذوا يتلون صلوات الموت. ولقد رأيت نفرًا من أعزِّ أصدقائي يُقتلون أمام ناظري. ثم أُصِبت أنا أيضًا، وفقدت الوعي، ووجدت نفسي مدفونةً تحت كومة من الجثث.»

وصلَت إلى وزارة الخارجية تقاريرُ مماثلة، بالإضافة إلى خطاباتٍ كثيرة تطالب بالتدخل الأمريكي في فلسطين، ولم تأتِ هذه الخطابات من اليهود الأمريكيِّين فقط. فقد اتَّحدت الرابطة الأمريكية الموالية لفلسطين والمكوَّنة من رجال دين مسيحيِّين يؤمنون

بفكرة وجوب إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مع جماعات صهيونية في طلب المساعدة من أجل يهود فلسطين. ومع أن النائب هاملتون فيش الابن من نيويورك كان من أشدِّ الداعين إلى السياسة الانعزالية، فإنه ضغط على حكومته «لحماية أرواح وحياة وممتلكات المواطنين الأمريكيِّين المهدَّدين من رعاعٍ متعصِّبين متمردين على القانون، عن طريق إصدار أوامرها إلى أقربِ السفن الأمريكية إلى فلسطين بالتوجُّه إلى هناك، وعن طريق عرض إرسال جنود المشاة إلى هناك.» ولكن هذه المطالب المتوسلة المؤيدة لمصالح اليهود لم تحقق تأثيرها الكامل بسبب الأصوات المعادية للصهيونية التي رفعها بعض موظفي وزارة الخارجية، وعلى رأسهم بول نابنشو القنصل العام في القدس.

كان مظهر بول نابنشو الخارجي يتَّصف بالجِدية والصرامة ويشي بالجانب الرياضي فيه — فقد كان ينظِّم مباريات البيسبول في أعياد الاستقلال الأمريكية في الرابع من يوليو في مدينة القدس — لكن هذا المظهر كان يتجهَّم عندما يتعلَّق الأمر بالصهيونية. كان نابنشو نموذجًا لعدد من موظفي وزارة الخارجية الذين عُرفوا إجمالًا فيما بعدُ — وعلى نحوٍ تهكمي — باسم «المستعربين»، وهم دبلوماسيُّون عمِلوا سنواتٍ عدة في الشرق الأوسط، وألمُّوا باللغة العربية، واحتقروا الحركةَ الصهيونية. كان نابنشو لا يأبه بوثيقة وعد بلفور بِعدِّها نتاجَ «التأثير المالي اليهودي» من وجهة نظره، وأنكر أيضًا أن يكون لحائط البراق (الجدار الغربي) أيُّ قيمة بخلاف كونه أثرًا رومانيًّا قديمًا، وزعم أن هذا الحائط لا يمُتُّ لليهود بأيِّ صلة. وادَّعى نابنشو أن اليهود بسبب سلوكياتهم المستفزة قد استثاروا العرب «الملتزمين بالقانون» للقيام بأعمال شغب، تمامًا كما كانوا قد تسبَّبوا في المذابح الروسية لليهود. وقال: «اليهود هم المسئولون دائمًا، وهم يتسبَّبون لأنفسهم في المشاكل دائمًا.»

وبناءً على ذلك اتهم القادة الأمريكيون اليهودُ نابنشو بمعاداة السامية، وأصرُّوا على سحبه من منصبه فورًا. وأرسلوا مذكرةً لوزير الخارجية الأمريكي هنري ستمسون، يعترضون فيها على فشل بريطانيا في حماية يهود فلسطين ويطالبون بتبنِّي سياسةٍ أكثرَ فعالية في مساندة الصهيونية. واستجاب ستمسون ونقل نابنشو إلى بغداد، وأصدر تصريحًا يعيد تأكيدَ التعاطف الأمريكي مع الصهيونية، ولكنَّ موقفه الأساسي ظل ثابتًا لا يتزحزح.[3] فقد أكَّد أن فلسطين هي مسئولية بريطانيا العظمى، وليس الولايات المتحدة.

وكان هذا الخلاف بين الأمريكيِّين المؤيدين للصهيونية وموظفي وزارة الخارجية من أمثال نابنشو يمثِّل صراعًا آخرَ بين تفسيرات متنافسة للعقيدة. فقد كان الفريق الأول يؤمن بأن قيمَ أمريكا المدنية — إن لم يكن تراثها الديني — يفرض عليها المساعدة في

إقامة وطن قومي لليهود، في حين استغل الفريق الآخر تلك المبررات نفسها في معارضة المشروع نفسه. وتصاعد ذلك التوتر فيما بعدُ تماشيًا مع تصاعد الخلافات العربية اليهودية. ولكن في معظم فترات العَقد التالي، وقَع الأمريكيون في محنٍ داخلية أخرى. فبعد أربعة أشهر من اضطرابات عام ١٩٢٩ انهارت سوق الأسهم وتعرَّضت الأحوال الاقتصادية لاضطراب هائل. وهكذا أصبح مستقبل فلسطين شأنًا لا أهميةَ له لملايين الأمريكيِّين المنشغلين بتأمين حصولهم على حاجتهم من الطعام.

أدَّت أزمة الكساد الكبير أيضًا إلى تقليل قدرة الصهاينة الأمريكيِّين على التأثير في السياسة الحكومية تجاه فلسطين. وتسبَّب الانهيار الاقتصادي في إصابة اليهود بصورةٍ خاصة بالدمار — الذين كان عددٌ كبير منهم مستثمرين ورجال أعمال — ولم يَعُد باستطاعتهم المشاركة في السياسة والأعمال الخيرية. وسرعان ما أصبحوا هدفًا لأعداء السامية، من أمثال هنري فورد والأب تشارلز كافلين، اللذين اتَّهما «اليهودية الدولية» بالتخطيط لحدوث الكساد الكبير من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة، ودَعَوَا المسيحيِّين الأمريكيِّين إلى التضامن ضد التأثير اليهودي الخبيث. وقالت مجلة «فورتشن» في هذا الصدد: «الأمريكيون يتفوَّقون على النازيِّين في كراهيتهم لليهود»، إشارةً إلى استقصاء للرأي أظهر أن أكثرَ من نصف الشعب الأمريكي يؤمن بمعتقدات معادية للسامية عميقة الجذور. وإلى جانب خشية الأمريكيِّين الصهاينة من هذا التحامل عليهم، ازدادت القيودُ عليهم بعد انتخاب فرانكلين ديلانو روزفلت لمنصب الرئاسة عام ١٩٣٣. وبصرف النظر عن مواقف روزفلت حول فلسطين، كان بإمكانه الاعتماد على دعم ومساندة الجالية اليهودية الأمريكية الليبرالية والديموقراطية، وظل صامدًا أمام جماعات الضغط الصهيونية.

وفي أبريل عام ١٩٣٦، اجتمعت هذه العوامل الثلاثة — الحياد الأمريكي فيما يخص فلسطين، ومعارضة وزارة الخارجية للصهيونية، واستضعاف اليهود الأمريكيِّين — عندما نشِبت أعمالُ العنف مرة أخرى في الأرض المقدسة. فقد ثارت ثائرةُ العرب في فلسطين بوصول ١٦٤٠٠٠ لاجئ يهودي فِرارًا من ألمانيا النازية، وطالبوا مرة أخرى بوضع حد للهجرة اليهودية ولشراء الأراضي. ودعا المفتي — الذي كان آنذاك يرأس ما يسمَّى «اللجنة العربية العليا» التي ضمَّت قوًى سياسية مختلفة — إلى تنظيم إضراب واحتجاج عام، ولكن هذه الإجراءات السلبية سرعان ما أفسحت المجالَ أمام هجمات مسلَّحة ضد أهداف بريطانية ويهودية معًا. واصطفت في كثير من شوارع فلسطين سيارات ومركبات متفحِّمة ومليئة بثقوب الرصاصات بعد وقوعها ضحيةً لأكمنة العرب، واتَّشحت الحقول بالسواد بعد احتراقها وتبعثرت في أرجاء الريف خطوطُ أنابيب نقل النفط المدمَّرة. وكتب جورج

وادزورث، القنصل الأمريكي في القدس، وهو من المستعربين الذين لم يتعاطفوا قط مع الصهاينة: «يهود فلسطين الذين عاشوا شهورًا طويلة في ظل الإرهاب شاهدوا أفرادًا من جاليتهم مطعونين في شوارع المدينة، أو مقتولين في الحقول، أو حتى وجدوهم قتلى في منازلهم». وقد قُتِل في هذه الأحداث ٤١٥ يهوديًّا.

وتمثَّل ردُّ بريطانيا على هذه الثورة العربية — وهو الاسم الذي أُطلق عليها — في القيام بإجراء تحقيق آخر، وإعداد تقرير آخر. وأوصت لجنةٌ ملكية ترأَّسها اللورد بيل بتأسيس دولة عربية في معظم أراضي فلسطين بما في ذلك غزة والضفة الغربية، وتأسيس دولة يهودية في السهول الساحلية ومنطقة الجليل. على أن تحتفظ بريطانيا بمنطقةٍ حول القدس وبمنفذ إلى ميناء يافا. واقترحت اللجنة أيضًا أن تقتصر الهجرة اليهودية على ١٢ ألف مهاجر في السنة، وكتب طالبٌ بارع يدرُس في السنة النهائية بجامعة هارفارد يُدعى جون فيتزجيرالد كينيدي مؤيدًا تلك الخطة قائلًا: «يبدو لي أن الشيء الوحيد الذي سيؤتي أُكله هو تقسيم البلد إلى مقاطعتين مستقلتين بذاتهما.» وبعد جولات كينيدي في فلسطين ومشاهدته أعمالَ العنف على الطبيعة أصبح مقتنعًا بأن التقسيم هو السبيل الوحيد لإيجاد التوافق بين «الموقف المتعجرف لليهود» الرامي إلى «الهيمنة الكاملة» على البلاد والمخاوف العربية من كل من «تفوق» اليهود والوعود البريطانية المتضاربة لكلا الطرفين. فعلَّق قائلًا: «من الصعب للغاية التعامل مع الموقف برُمَّته.»

ولكن هذا الموقف ازداد سوءًا بازدياد الهجمات على اليهود في شرق ووسط أوروبا، وانتهى إلى مذبحة نوفمبر عام ١٩٣٨ الشهيرة التي عُرفت باسم مذبحة «ليلة الكريستال». فقد قامت أعمال شغب بإيعاز ودعم حكومي في كلٍّ من ألمانيا والنمسا وإقليم السوديت، مخلفةً وراءها نحو مائة قتيل يهودي وآلاف الجرحى. ودُمِّر أكثر من ألف معبد يهودي و٧٥٠٠ منشأة تجارية يهودية، وأُلقي القبض على ٣٠٠٠٠ يهودي ثم رُحِّلوا إلى معسكرات الاعتقال. ونَدَّدت الولايات المتحدة بشدة بهذه الإجراءات التعسفية، لكنها أحجمت عن مدِّ يد العون لضحاياها. وفي مؤتمر إفيان بفرنسا، اجتمع ممثلو الولايات المتحدة بالإضافة إلى ممثلي ٣٢ بلدًا آخرَ ليدرُسوا البدائلَ المختلفة للتخفيف من معاناة العدد المتزايد من المهاجرين إلى أوروبا، ولكنهم في النهاية لم يتوصَّلوا إلى حلٍّ. ولمَّا كانت أبواب فلسطين موصدةً في وجه اليهود من الناحية الفعلية، شعروا بأنهم آلوا إلى الضياع.

وخوفًا من احتمال تعرُّض شعبٍ بأكمله للتدمير، تخلَّى العديد من اليهود الأمريكيِّين — صهاينة كانوا أو غير صهاينة — عن القيود التي فرضتها عليهم فترة الكساد الكبير،

واستنفروا معترضين على توصيات اللورد بيل. فأُرسلت الرسائل إلى مئات النواب في الكونجرس، تحثُّهم على الاحتجاج على «هذا التخلي الجذري — إن لم يكن تراجعًا تامًّا — عن سياسة الانتداب على فلسطين»، ودعوهم إلى «الحفاظ على الوطن القومي لليهود باعتباره خيطَ الأمل الأساسي» للضحايا اليهود المعذبين في أوروبا. كانت نتيجة هذه الحملة تبدو مبشِّرة في البداية. وأكَّد النائب دونالد أوتول للزعيم الصهيوني ستيفن وايز، أنه «كونه من نسل الأيرلنديِّين الذين حاربوا مئات السنين لتأسيس دولة لأنفسهم، فإنه سيحارب بكل [ما أُوتي من] شجاعة وذكاء وقدرة ضد موافقة الولايات المتحدة بأي صورة من الصور على هذا التقسيم». وقدَّم ١٢ نائبًا مذكرة للرئيس روزفلت ليثني بريطانيا عن فكرة تعديل الانتداب من جانب واحد.

ربما كانت الحكومة لتستجيب لمطالبهم، ولكن الصهاينة لم يكونوا الطرَف الوحيد الذي يمارس الضغوط عليها. فلم تظهِر وزارة الخارجية أيَّ اعتراض على مقترحات تقرير بيل، وحذَّرت من إظهار أي تعاطف مدمِّر مع اليهود. وأكَّد والاس موراي، وهو رئيس قطاع شئون الشرق الأدنى بالوزارة، وكان أيضًا معروفًا بكراهيته للصهيونية قائلًا: «في أمريكا هناك عُقدة متنامية اسمها عقدة هتلر، ولكن بين العرب هناك عقدة كريهة جدًّا متنامية أيضًا اسمها عقدة روزفلت.» واقترح والاس أن تُغيَّر وجهةُ يهود أوروبا إلى أبعدِ ما يكون عن الشرق الأوسط، كأن يذهبوا مثلًا إلى مدغشقر أو الكاميرون أو أنجولا. وإلى جانب والاس، حذَّر القادة المبشِّرون من اتباع سياساتٍ منحازة إلى الصهيونية، وهو الأمر نفسه الذي حذَّر منه رؤساء مجالس إدارات شركات النفط. وحذَّر أحدُ المسئولين التنفيذين في شركة كاسكوك قائلًا: «أيُّ انحياز من جانب هذه الحكومة لمساندة المزاعم اليهودية في ... فلسطين قد يكون له تبِعات خطيرة على مصالح شركات النفط الأمريكية في المملكة العربية السعودية. وقد يؤدي ذلك إلى طردها.»[4]

وفي حقيقة الأمر فإنِّ اتخاذ قرار بالتوسُّط في هذا الصراع الذي يبدو بلا حل والانحياز إلى أيِّ طرَف فيه لم يكن في يد الكونجرس أو وزارة الخارجية أو حتى الشركات الكبرى. وإنما ظل في يد الرئيس وحدَه، الذي كان يقود شئون دولته الخارجية متمتعًا بسلطة قوية مع أنه كان يفعل ذلك من كرسي متحرك.

وعلى الرغم من إعاقة فرانكلين ديلانو روزفلت، فقد كان أَخَّاذًا بسِحره الذي يبعث على الطمأنينة، وبسلوكه الأرستقراطي، وقد اعتاد أن يدخن السجائر من حاملٍ معدني كان يبرز من فمه عندما يبتسم ابتسامته العريضة، لكنه كان أيضًا سياسيًّا ماكرًا للغاية،

ورجل دولة يفهم حدودَ السلطة وإمكانياتها. تأرجح روزفلت خلال مسار عمله العام بين الاتجاه الدولي للرئيس الأمريكي ويلسون والانشغال بالشئون الداخلية، وبين السعي لاتباع سياسة قائمة على القيم والمُثل الأمريكية، واتباع سياسة قائمة على الاعتبارات السياسية الواقعية. وقال عنه سلفُه هربرت هوفر: «إنه متلوِّن كالحرباء»، أما بشأن القضية الفلسطينية بصورة خاصة فكان روزفلت مترددًا للغاية.

كان الصهاينة الأمريكيون مقتنعين بأن الرئيس يساندهم بقوة، وحتى كبار المسئولين آمنوا بأنه يؤيد سرًّا إقامةَ دولة يهودية، وقد عبَّر الرئيس روزفلت لوزير خارجيته كورديل هال عن إحباطه من محاولات بريطانيا تقليلَ الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقال متحدِّيًا: «إنه أمر يستحيل أن توافق عليه الولايات المتحدة.» ولكن روزفلت كان أيضًا متخوفًا من أن ذلك قد يفتح الباب لانطلاقِ ما أسماه «الجهاد المقدس» من جانب العالم العربي تجاه فلسطين، مفضلًا أن يستوطن اليهود اللاجئون أيَّ مكان آخر؛ باراجواي مثلًا أو إثيوبيا. واعترف لوزير خزانته هنري مورجنتاو الابن، الأمريكي اليهودي وابن السفير الأمريكي السابق لدى تركيا: «لو كان الأمر بيدي لوضعت سورًا ذا سلك شائك حول فلسطين. ولتركت القدس على حالها، ولجعلت إدارتها في يد لجنة مشتركة تضم الكنيسةَ الكاثوليكية اليونانية الأرثوذكسية والبروتستانت واليهود.» وحيث كان مقتنعًا بأن «حق العرب الفلسطينيِّين في القدس أقلُّ من حق اليهود»، اقترح أنه يمكن «بقليل من البقشيش» إغراءُ مئات الآلاف منهم بالرحيل والاستيطان في العراق.

ولكن روزفلت بوصفه رجلَ دولة كان يحظى بالكثير من الحُنكة التي جعلته ينأى عن إقحام بلاده في صراعٍ بدا أنه لا نهاية له، ولا سيما في ظل مواجهة بلاده أزماتٍ مالية، وأيضًا في ظل عالَم يسير في طريقه نحو الحرب. ولَمَّا كان روزفلت من أتباع الكنيسة الأسقفية، التي لم تكن قد تبنَّت قط فكرةَ وجوب إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، لم يرَ فائدة كبيرة من إعادة توطين اليهود في فلسطين على حساب إغضاب العرب. ومع أن الرئيس كان أحيانًا في جلساته الخاصة يعبِّر عن استحسانه فكرةَ إقامة دولة يهودية مستقلة، فإنه لم يجِد أمامه سوى قليل من المنافع — ومخاطر عديدة أيضًا — مما صرَفه عن تنفيذ تلك الفكرة.[5]

واستجابت الولايات المتحدة للأزمة الفلسطينية عن طريق الالتزام مرةً أخرى بالحياد. وكتب هال إلى وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن يقول: «طوال سنواتٍ اهتمَّت قطاعاتٌ عريضة من الشعب الأمريكي بإنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين.»

وأشار إلى القلق العميق الذي تستشعره «الدوائر اليهودية ذات النفوذ في الولايات المتحدة» تجاه موضوع الهجرة، ولكن بدلًا من تأكيد الحاجةِ إلى السماح لعدد أكبر من اليهود بدخول فلسطين، طلب هال ضمانَ أمن وسلامة المواطنين الأمريكيِّين المقيمين هناك فقط. واختتم هال خطابه بطمأنة إيدن بأنه «بالطبع لن يحاول التدخُّل بأي طريقة في السياسة التي ستنتهجها بريطانيا العظمى»، وهو ما أكَّد تحفُّظ أمريكا.

شعر المسئولون البريطانيون بالارتياح بسبب افتقاد الموقف الأمريكي للقوة والتشدُّد. «إذ لم يكن الأمر يستحق أن يؤخذ بجِدية» كما علَّق أحد موظفي وزارة الخارجية البريطانية على مراسلات هال، مع إيضاح أن «العِرق القديم» — أي اليهود — «ليست لهم شعبيةٌ كبيرة في أمريكا» وأنهم يعجزون عن التأثير في السياسة. على أن رضا البريطانيِّين عن الحياد الأمريكي لم يمنعهم من سحق ثورة العرب، وهو ما أدى إلى وقوع ضحايا بلغ عددُهم عشرين ألف شخص، ونُفِيَ المفتي من فلسطين إلى جزيرة سيشيل. وبعد قهرِ آمال العرب في فلسطين وإخمادها، سعى البريطانيون إلى هدم آمال اليهود. ففي ١٧ من مايو عام ١٩٣٩ أصدرت حكومة جلالة ملك بريطانيا وثيقةً بيضاء أُلغي بموجبها عمليًّا شراء اليهود للأراضي في فلسطين، وحُدِّد عدد اليهود القادمين إلى فلسطين بنحو خمسة وسبعين ألف شخص في السنوات الخمس التالية، ومُنح العرب حقَّ الاعتراض على أي عدد آخر من المهاجرين. ونُزِع سلاح الهاجاناه التي كانت قد ساعدت الجيش البريطاني في إخماد ثورة العرب، وجُرِّمت بسبب محاولاتها تهريبَ لاجئين يهود إلى داخل فلسطين. ومن العراق، علَّق القنصل الأمريكي بول نابنشو مثنيًا على تلك الخطوة: «الوثيقة البيضاء انتصار مؤكَّد للعرب. والسياسة البريطانية الجديدة ... تجعل من المستحيل إنشاء دولة يهودية.»

ومرةً أخرى أثارت الوثيقة البيضاء ثائرةَ أنصار الصهيونية في الولايات المتحدة، ولكن الحكومة ظلَّت على تباعُدها وعنادها. فمن وجهة نظر واشنطن كانت فلسطين لا تزال مسألة بريطانية، أما مسألة يهود أوروبا فهي مسألة تخصُّ العالم أجمع. ووقعت مهمةُ منع اللاجئين اليهود من الوصول إلى سواحل أمريكا على عاتق بريكنريدج لونج، وهو خرِّيجٌ آخر من خريجي جامعة برنستون كان يعمل بوزارة الخارجية، وكان يعتبر اليهود «مروجين للشيوعية والفوضى». وتمكَّن لونج من منع اليهود — باستثناء عدد قليل منهم — من الحصول على تأشيراتٍ لدخول الولايات المتحدة متعللًا بأن العديد من اللاجئين كانوا عملاء للسوفييت أو النازيين. وأثارت سياسته تلك بعضَ الاعتراضات داخل

الحكومة، في حين ادَّعى لونج أن روزفلت «كان متفقًا بنسبة ١٠٠٪ مع أفكاري».[6] آمن يهود أمريكا — خوفًا من الهجوم على رئيس محبوب في زمنٍ تزايد فيه العداء للسامية في الولايات المتحدة، واتَّجه فيه الاهتمام القومي إلى اقتراب العالم من الحرب — بأنهم لم يعودوا قادرين على مساعدة إخوانهم في الدين سواء في فلسطين أو أوروبا. وهكذا اتَّجه اليهود الأمريكيون إلى الوهم بعد أن وجدوا أنفسهم مجرَّدين من السلطة في الوقت الذي تردَّدوا فيه أن يعوِّلوا على عقيدتهم الدينية فحسب.

كان أكثر الأجنحة جاذبيةً في معرض نيويورك العالمي الذي كان يقدِّم عروضًا شرق أوسطية أخرى، هو جناح فلسطين. وقد أهداه عالِم الفيزياء ألبرت أينشتاين في الشهر نفسه الذي صدرت فيه الوثيقة البيضاء، وكان الجناح يضم مقهًى على شاكلة مقاهي تل أبيب، «المتخصِّصة في تقديم الأطباق الفلسطينية الشهية»، بالإضافة إلى نموذجٍ لهيكل سليمان، وجداريات تصوِّر إنجازات الصهيونية في مجالات الزراعة والعلوم والفنون. تولَّت مهمة الترحيب بزوار الجناح فتاةٌ شابة كانت جندية في الهاجاناه وتعمل في إحدى المزارع التعاونية، ووُصفت بأنها «أجمل فتاة في فلسطين». وبجانب الملذات البصرية وتذوُّق الأطعمة، كان الزوار يتلقَّون أيضًا رسالة سياسية تقول: «في الوقت الذي يُستخدم وطننا لعبةً لتحقيق مآربَ بعينها في خِضم الدسائس الدولية، يكشف التنوير الذي يقدمه هذا الجناح أن أهداف اليهود وآمالهم في أرض إسرائيل له أهمية قصوى.»

وبحلول عام ١٩٤٠ كان أكثر من ثلاثة ملايين أمريكي قد زاروا الجناح الفلسطيني؛ أي أكثر من مجموع زائري العروض «الشرقية» في المعرض الكولومبي عام ١٨٩٣. وقدَّم سول بلوم — العقل المفكر للعروض المبهرة التي قُدمت في معرض كولومبيا الذي أصبح آنذاك نائبًا في الكونجرس عن نيويورك — يدَ المساعدة للحصول على التصاريح اللازمة لإقامة المعرض. زعم بلوم أن اليشوف في إسرائيل هو إعادة إحياء للغرب الأمريكي القديم، وتجسيدًا لروح الريادة. وقد نُبِّه زائرٌ آخر للمعرض — هو عمدة مدينة نيويورك فيوريللو لا جوارديا — لأمر «المجهودات الضخمة وروح التضحية التي يجب أن يمتلكها الرواد لكي يحقِّقوا النجاح». ولم تتضمَّن هذه التصريحات أيَّ إشارة إلى العرب — الذين كان غيابهم واضحًا؛ إذ لم يشاركوا في أيٍّ من هذه العروض المقامة في الجناح — أو إلى تصميمهم على معارضة المزاعم البريطانية واليهودية في فلسطين.

تبيَّن في نهاية الأمر فشلُ كلٍّ من المشاعر التي أثارها الجناح الفلسطيني والتصريحات التي أدلى بها الساسة الموالون للصهيونية في زحزحة الولايات المتحدة عن حيادها الصلب.

فقد كانت أمريكا لا تزال على سلبيتها وهي ترى — بعد صدور الوثيقة البيضاء بأربعة أشهر — غزوَ ألمانيا لبولندا التي كان بها أكثرُ من ثلاثة ملايين يهودي. وعن طريق منع هؤلاء اليهود من الذهاب إلى ملجئهم الأخير المتاح في فلسطين، كسر البريطانيون نمطَ العداء للسامية الذي تسبَّب في موجات الهجرة اليهودية والثورات العربية المضادة لهذه الهجرات. وفي السنوات الست التالية، وعندما أحاطت عاصفة الحرب العالمية الثانية بالعالم من لندن إلى سنغافورة، ومن موسكو إلى بحر الجنوب في الصين، نُسِيَت هذه القطعة الصغيرة من الشرق الأوسط المسمَّاة فلسطين. وأبدى جورج وادزورث ملحوظة وهو حزين في القدس، مُفادها «تظل الأرض المقدسة المهضومة جحيمًا حقيقيًّا لكلِّ مَن فيها، سواء كانوا من العرب أو اليهود أو البريطانيِّين».[7]

جوانب الحياة في فلسطين

كانت فلسطين لمعظم الأمريكيِّين في فترةٍ ما بين الحربين العالميتين — سواء كانوا من الصهاينة أو من المستعربين بوزارة الخارجية — مجرَّد شيء نظري ومجرد موضوع يُطرح للنقاش في المناظرات المحلية أو ملاذًا بعيدًا يلوذ إليه اللاجئون. ولكن التساؤلات بشأن مستقبل فلسطين تجاوزت بكثير أمورَ السياسة والأعمال الخيرية للأمريكيِّين المقيمين بصورة مؤقتة أو دائمة في فلسطين الذين بلغ عددهم نحو ألف وتسعمائة مواطن أمريكي، وهو عددٌ يتجاوز عددَ الأمريكيِّين الموجودين في جميع مناطق الشرق الأوسط مجتمعة. مثَّلت فلسطين لهؤلاء الأمريكيِّين التزامًا عاطفيًّا وأحيانًا ماديًّا كبيرًا، كما مثَّلت لهم التضحيةَ والنضال على المستوى الفردي أو القومي. ومع ضآلة هذا العدد بالمقارنة بإجمالي عدد السكان، فقد كان لهؤلاء الأمريكيِّين تأثيرٌ كبير على تطور فلسطين تعليميًّا وتكنولوجيًّا وزراعيًّا، وكانت لهم أهمية كبيرة في النضال الذي حدَّد وضعها النهائي.

كان أكثر من ثلثي الأمريكيِّين المقيمين في فلسطين من اليهود، وكان لدى معظمهم دافع شخصي كبير للوجود هناك، فكانوا مستعدين — مثلهم مثل المسيحيِّين المستوطنين في القرن التاسع عشر — للتخلي عن المباهج ووسائل الراحة في «عالمهم الجديد» لكي يعملوا ويستقروا في الأرض. كان بعضهم قد خدم في الفيلق اليهودي وظلوا في فلسطين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، في حين كان البعض الآخر قد فرَّ من مساكن اليهود البائسة في أمريكا بحثًا عن حياةٍ تمنحهم قدرًا أكبرَ من الرضا والصحة. وكان عدد مذهل من هؤلاء المهاجرين من النساء سواء كن متزوجات أوغير متزوجات، اللاتي كن متلهفات

على التحرر من قيود التقاليد وعلى التمسُّك بوعدٍ — لم يكن يُنفَّذ على الدوام — يضمن لهم الهروب من التمييز والحصول على المساواة الصهيونية. كان من المقدَّر لواحدة من هؤلاء النساء أن تشتهر بين قريناتها، وهي خياطةٌ سابقة وتعمل في سلك التعليم المدرسي اسمها جولدا مابوفيتز.

تذكَّرت جولدا وصولَها من مدينة كييف الأوكرانية وهي طفلة عام ١٩٠٦، إلى مدينة ميلووكي بولاية ويسكونسن الأمريكية، فقالت: «طعام جديد، وأصوات محيِّرة للغة غير مألوفة لي تمامًا. لا أزال أتذكَّر وقوفي في الشارع وتساؤلي: مَن أنا وأين أنا.» ولمَّا كانت جولدا تخفي خلف مظهرها الحزين بديهةً سريعة وحماسة متقدة سابقة لأوانها، فقد تواءمت بسرعة مع الحياة الأمريكية، وشاركت في أنشطة نوادي المدارس الثانوية في الوقت الذي كانت تعمل فيه من أجل تخفيف حدة فقر عائلتها. كانت مدينة ميلووكي مثل كثير من المجتمعات اليهودية في ذلك الوقت بمنزلة الإناء الذي تغلي فيه حركات أيديولوجية متنافسة هي الحركة اليهودية الاشتراكية وحركة حزب البوند اليهودي والحركة الصهيونية. وقد جذبتها الحركة الصهيونية بشدة، فأصبحت ناشطةً في الجناح الصهيوني الاشتراكي. وعام ١٩٢١، بعد زواجها من موريس مايرسون، غادرت ولايةَ ويسكونسن متجهة إلى فلسطين.

تسترجع جولدا فيما بعدُ ذكرياتها السعيدة قائلة: «أدين لأمريكا بالكثير. وأنا لم أتركها هاربةً من الاضطهاد أو عدم الإحساس بالأمان وإنما تركتها من أجل المشاركة في الإعداد لاستقلال وأمان شعبي.» وعلى متن سفينة غير لائقة وغير صالحة للإبحار اسمها بوكاهونتاس، كانت رحلتها إلى فلسطين التي استغرقت شهرًا كاملًا من المشقة لتصل في النهاية إلى ميناء الإسكندرية بمصر. شعرت جولدا بالصدمة عند وصولها؛ إذ شعرت في أول احتكاك لها بالشرق الأوسط بما ردَّدته أجيال من المسافرين الأمريكيِّين عنه: «جموع من الشحاذين، رجال ونساء وأطفال يرتدون الأسمال البالية والذباب يغطيهم»، فسارعت إلى اللحاق بالقطار المتجه إلى يافا. لكنها عندما وصلت هناك والتقت بالرواد الصهاينة من شرق أوروبا، شعرت بخيبة أمل من نوع آخر. وقالت: «لقد نظروا إلينا — نحن المهاجرين من الولايات المتحدة — على أننا «ناعمون» ومدلَّلون، ورأوا أننا لن نحتمل البقاءَ في فلسطين وسنهرب منها بعد بضعة أسابيع.» وفيما بعد، وفي مرج ابن عامر، عندما أصبحت عضوة في المزرعة التعاونية مرحافيا، المكوَّنة من مجموعة من الأكواخ المتاخمة للمستنقعات، قاست جولدا من فقرٍ أسوأ بكثير مما قاسته في ميلووكي. فقالت: «لم يكن

هناك سوى أقل القليل لنأكله، وما كان متاحًا من الطعام كان مذاقه فظيعًا.» ومع ذلك، فإن العمل عشر ساعات في الحقول وفي أقفاص تربية الدواجن أسهم في خلق مشاعر الرضا الشديد داخل نفس هذه السيدة القوية الشكيمة العريضة العظام التي تميل نحو المثالية، وأمدَّتها بشعور بالانتماء وبالهدف، فقالت: «كنت في غاية السعادة.»

ولكن جولدا لم تبقَ في مزارع الكيبوتز. فسرعان ما قادتها إجادتها للغة الإنجليزية ومهاراتها التنظيمية إلى مواقعَ عديدة في اتحاد العمال الصهيوني الرئيسي، وإلى القيام بجولات سريعة للولايات المتحدة لجمع التبرعات. وأنَّبتها رئيسة إحدى جماعات الأختية قائلة: «انظري يا جولدا، أنت تتحدثين جيدًا، لكنك تتحدثين كرجل، ولا أحدَ يبكي من أثرِ حديثك.» وبعد أن انفصلت جولدا عن زوجها وتخلَّت تقريبًا عن تربية طفليها تبوأت مناصبَ مرموقة في الحركة العمالية. وبصلاتها الوثيقة بزعماء الصهيونية — يقال إن كثيرين منهم أصبحوا من عشَّاقها — كشفت جولدا عن شخصيةٍ سياسية ماكرة، فظة وسريعة البديهة في آنٍ واحد، أما طموحها فكان بلا حدود. وبعد تأسيس الدولة اليهودية، غيَّرت جزءًا من اسمها ليكون باللغة العبرية وأصبحت وزيرة خارجية جديرة بمنصبها في الفترة من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٥، ثم أصبحت رئيسةَ وزراء مثيرة للجدل في الفترة من عام ١٩٦٩ حتى عام ١٩٧٤ قبل وفاتها عام ١٩٧٨.[8] واليوم، بعد قرن من وصولها إلى الولايات المتحدة، تظل جولدا مائير الشخصيةَ الصهيونية الأكثر شهرةً بين الأمريكيِّين، التي دارت حول حياتها أحداث أحد أفلام هوليوود، ومنذ قريب قُدمت على مسارح برودواي مسرحية عن حياتها مثَّلتها ممثلة واحدة.

لم تكن جولدا مائير هي المرأة الأمريكية اليهودية الوحيدة التي تركت أثرًا ملموسًا في أرض إسرائيل. إذ كانت هناك أيضًا هنريتا سولد، الراقية البرجوازية ذات التعليم المتميز، التي لم تكن تمتلك أي كفاءة سياسية ولا أي حظ في الحب، لكن الأثر الذي تركته لم يكن ليختلف كثيرًا عن أثر جولدا مائير. وُلدت هنريتا في بالتيمور ابنة لحاخام شهير، ونشأت في بيئة يهودية متحررة وعلى مبادئ جمعية الأصدقاء الدينية التي تُعرف باسم كويكرز. وأثناء عملها معلِّمةً للتاريخ وعلم النبات واللغات الأوروبية، بدأت في كتابة عمود صحفي واسع الانتشار هاجمت فيه الاستعمار ودعت إلى حفظ حقوق الأقليات. وبعد ذلك، عندما أصبحت رئيسة الجمعية اليهودية للنشر، ألقَت محاضرة في معرض شيكاجو الدولي عام ١٨٩٣. لم يكن النشاط السياسي هو ما فتن هنريتا بالصهيونية — مثلما كانت الحال مع جولدا مائير — وإنما جاء افتتانها على النحو الذي حدث مع الشاعرة

الأمريكية اليهودية إيما لازاروس؛ إذ جاء وهي تقدِّم مساعدات الإغاثة للاجئين اليهود القادمين من روسيا. كتبت هنريتا تقول: «أنا آكل وأنام وأشرب مع الروس» وقد تشرَّبت أيضًا أفكارهم غير التقليدية ولا سيما فيما يتعلَّق بالصهيونية. وتباهت قائلة: «أصبحت صهيونية عام ١٨٩١، أي قبل هرتزل بخمس سنوات»، ولكن ستمر عشرون سنة كاملة قبل أن تقوم بأول زيارة لها لفلسطين.

كانت التجربة صادمة لهنريتا وملهمة لها في آنٍ واحد. فقد انبهرت بالالتزام والعمل الجاد للمستوطنين اليهود في الجليل، لكن وبنفس قدْر انبهارها كان تأفُّفها من الأحوال المتردية للمدن الفلسطينية سواء بين العرب أو بين اليهود كما تأفَّفت بوجه خاص من الظروف المؤسفة التي تعانيها النساء. واعترفت قائلة: «أعتقد أن الصهيونية هدف صعب التحقيق أكثر بكثير مما كنت أعتقد قبل ذلك»، لكنها أصرَّت على أنها «مقتنعة أكثر من أي وقت مضى بأنه إن لم تكن الصهيونية، فلا شيء آخر غيرها». وعادت مصمَّمة على التخفيف من المعاناة التي شهدتها، ومن أجل تحقيق هذا الهدف عقدت اجتماعًا في ٢٤ من فبراير عام ١٩١٢ في نيويورك لأول مؤسسة نسائية صهيونية. وكان الهدف الأساسي لها هو تمويل إرسال ممرضتين مدرَّبتين إلى القدس، لكن هذه المؤسسة كبُر حجمها بسرعة، وبحلول الحرب العالمية الأولى كانت تمدُّ فلسطين بفريق مكوَّن من ٤٥ فردًا ما بين طبيب وممرض و٤٠٠ طن من المؤن. كانت هنريتا — شأنها شأن كلارا بارتون — تنظر إلى تقديم الرعاية الصحية الحديثة على أنه بمنزلة هدية أمريكية فريدة للشرق الأوسط، وأشار الاسم الذي منحته لهذه المؤسسة — بنات صهيون الأمريكيات — إلى هذه النظرة الوطنية. وفيما بعد استخدمت هنريتا سولد اسمًا تقليديًّا أكثر لهذه المؤسسة مأخوذًا من الاسم العبري الأصلي للملكة إستير، هو «هاداسا».

ازدهرت هذه المؤسسة فيما بعدُ لتصبح أكبرَ مؤسسة صهيونية أمريكية، وشاركت في عدد من النشاطات الاجتماعية والسياسية، ولكن تقديم العلاج والمستشفى اليهودي في القدس الذي تحمل اسمه ظلَّ بؤرة اهتمامها الأول. على أن هنريتا كانت ترى أن منظمة الهاداسا ليست سوى نقطة البداية. انفطر قلب هنريتا عندما بلغت سنَّ التاسعة والخمسين بعد فشل قصة حبها مع أحد علماء التلمود الذي كان يصغرها سنًّا، وقررت أن تنتقل لتعيش في فلسطين بصورة دائمة. وقامت بمجهودات كبيرة للعناية بالأطفال اللاجئين القادمين من ألمانيا، فكانت تستقبل كلَّ سفينة عند رسوها في ميناء حيفا، وتساعد في بناء البنية التحتية للخدمات الاجتماعية للدولة اليهودية التي كانت لا تزال في طور

الجنين. ومع أن هنريتا سولد لم تكن قط سياسية محنَّكة كمائير، فإنها كانت تدانيها في العناد وقوة التحمُّل البدنية. فكانت — حسبما أقرَّت بنفسها — «تعمل بجد» ومهيأة «ببنية جسدية قوية والتزام بالواجب وقدرة هائلة على الانحياز للحق ورفع الظلم». وكان تصاعُد الصراع داخل فلسطين هو أكثر ما يثير حفيظتها. فأكَّدت أنها «كانت دائمًا تؤمن بأن العلاقات بين العرب واليهود يجب أن تكون في بؤرة اهتمام التفكير الصهيوني».

وفي مظهرٍ آخر من مظاهر الاختلاف بينها وبين جولدا مائير — التي اشتهرت بإنكار وجود الشعب الفلسطيني وذلك بصفتها زعيمة وطنية — آمنت هنريتا سولد بأن العرب القاطنين تلك البلاد يمثِّلون في الحقيقة أمةً منفصلة لها مطلب شرعي يتمثل في الاستقلال. فبدأت في الدعوة إلى تعليم اللغة العربية إلزاميًّا في المدارس اليهودية، وبعد اندلاع الثورة العربية، دعت إلى التقارب بين الصهيونية والقومية العربية. ورَثَت الوضع القائم قائلة: «الحسابات السياسية تُصَفَّى بالقنابل. ونحن مهدَّدون بأن تنسل الحرية والضمير وحرية التعبير من بين أيدينا.» ولتجنُّب هذه المأساة، اقترحت «سيدة فلسطين الأولى» — كما كانت هنريتا تلقَّب أحيانًا — تكوين دولة مزدوجة القومية، يكون للعرب واليهود فيها أوضاعٌ وفرص متساوية».[9] وأدَّى موقفها هذا إلى أن يُنظر إليها وفقًا للآراء السياسية في المجتمع الصهيوني في فلسطين على أنها دخيلة عليهم مما زاد من عزلتها. لكن هذه العزلة لم تكن وقفًا عليها وحدَها.

لم يَفُق أحدٌ من اليهود الفلسطينيِّين يهودا لايب ماجنيس في الفترة الطويلة التي قضاها يناضل من أجل تأسيس الدولة المزدوجة القومية أو في تعلُّق هذه المسألة باسمه. وُلِد هو أيضًا في الولايات المتحدة، عام ١٨٧٧، بمدينة أوكلاند بولاية كاليفورنيا، حيث تميَّز محرِّرًا في المجلة التي كانت تصدرها المدرسة الثانوية التي درس بها، وبأنه الرامي الأول لفريق البيسبول بالمدرسة. على أن ماجنيس لم ينجذب إلى الأدب أو الرياضة بل انجذب إلى أن يكون حاخامًا وإلى الصهيونية.

كان يهودا ماجنيس رقيق القسمات وذا مواهب خطابية مبهرة، وسرعان ما ارتقى ليشغَل منصب رئيس الاتحاد الصهيوني الأمريكي، وارتقى أيضًا ليكون حاخامَ أهم المعابد اليهودية الإصلاحية وأشهرها في نيويورك وهو معبد إيمانو-إل. وفي إشارة إلى الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة أكَّد ماجنيس التناغمَ بين إيمانه بالله وإيمانه بمزايا الديمقراطية والتعددية، فقال: «لقد تعلَّمت من الرسل العبرانيِّين كيف أن دِين إسرائيل كان يعني لهم تدخُّلهم في الشئون السياسية للدولة.» وباعتباره رئيسًا لإحدى المنظمات

المعنية بشئون اليهود في نيويورك، طبَّق ماجنيس هذه المبادئ ليُحدث التقارب بين الفِرق اليهودية المختلفة في المدينة. ولكن هذه المبادئ المثالية دفعته أيضًا خلال الحرب العالمية الأولى إلى الإعلان بأنه من دعاة السِّلم المناهضين للحرب، ودفعته أيضًا لأن ينأى بنفسه بعيدًا عن غالبية الصهاينة الأمريكيِّين الراغبين في الاستقلال على «أرض إسرائيل». على أن ماجنيس كان يرتبط بصلات وثيقة مع جماعة من النخبة اليهودية القليلي العدد، وكانوا ينظرون إلى فلسطين على أنها مركز ثقافي وديني لليهود، وليست بالضرورة دولة سياسية لهم.

لم يأبه ماجنيس بالانتقادات التي وُجِّهت لآرائه السياسية، بل انتقل إلى القدس عام ١٩٢٢، ليصبح مستشارًا للجامعة العبرية الجديدة ثم رئيسًا لها فيما بعدُ. ومع أن ماجنيس ارتبط بحركة بريت شالوم «اتفاق السلام» — وهي حركة ثقافية فكرية ضمَّت بين أعضائها ألبرت أينشتاين والفيلسوف مارتن بوبر، ودعت إلى إقامة دولة مزدوجة القومية باعتبارها الحل لصراعات فلسطين — فإنه نأى بنفسه وبالجامعة عن أمور السياسة. ولكن اضطرابات عام ١٩٢٩ اضطرَّته إلى التدخل، فكتب يقول: «قد يُضطر اليهودي إلى العيش في بلادٍ أخرى تحت حماية السلاح، لكنه يجب ألا يرغب في وطن يهودي لا يمكن الحفاظ عليه على المدى الطويل إلا بالقهر الشديد للشعوب العربية والمسلمة.» وكانت الثورات التي رأى صهاينة شرق أوروبا أنها مجرَّد مذبحة أخرى قد بدت لماجنيس أنها ليست سوى صراع بين الجاليات، يشبه صراعَ تلك الجماعات التي كان يحاول التوسط وعقد صلح بينها في نيويورك. وادَّعى أن الحل يكمُن في إنشاء كونجرس فلسطيني ذي مجلسين على النمط الأمريكي، يتكوَّن أحد المجلسين من نواب منتخبين بالأحزاب، ويتكون المجلس الآخر من عددٍ متساوٍ من العرب واليهود. وأكَّد ماجنيس أنه «لن يمكننا تأسيسُ وطن في فلسطين إلا إذا كنا صادقين مع أنفسنا بصفتنا ديمقراطيِّين ومؤمنين بالتعاون والمحبة بين شعوب العالم. هناك فرصة أفضلُ لتجنُّب سفك الدماء إذا بذلنا كلَّ ما في وسعنا للعمل يدًا بيد — نحن المعلمين والمساعدين والأصدقاء — مع هذا العالم العربي الناهض.»

على أن النداءات المتكررة لماجنيس لم تَجِد أحدًا على استعداد لأن يُنصت لها. وفي حوارات سرية مع المؤرخ جورج أنطونيوس، ورئيس الوزراء العراقي نوري السعيد، وسانت جون فيلبي المستشار السعودي الذي اعتنق الإسلام، قدَّم ماجنيس خطته للمجلسين التشريعيَّين، وناقش فكرةَ تكوين مقاطعة يهودية مستقلة داخل حدود دولة عربية مستقلة أكبر. ولكن أنطونيوس ونوري السعيد أصرَّا على الحفاظ على الأغلبية

العربية في فلسطين عن طريق الحد من الهجرة اليهودية، مطالبين بقيود مشدَّدة على شراء الأراضي. وعرض فيلبي إمكانيةَ أن ينعَم اليهود في فلسطين بحماية ابن سعود بشرط حصول السعودية على قرضٍ قيمته مائة ألف جنيه إسترليني. ولم يعلن أيٌّ ممن أجرى معهم ماجنيس حواراته تأييده تلك الأفكار علنًا، أو حتى اعترف بأن تلك المحادثات قد جرَت بالفعل. وفي تلك الأثناء كان المفتي وأتباعه قد ندَّدوا بأي اتفاق يكون فيه مظهر من مظاهر الحل الوسط. وأعلن جمال الحسيني، رئيس الحزب العربي الفلسطيني التابع للمفتي: «نعلم أن الأرض لا تسعُ كلينا. فإما أن نطردهم وإما أن يطردونا.»

نظر القادة الصهاينة من جانبهم إلى ماجنيس باعتباره مفاوضًا ساذجًا مغرورًا ولن يؤدي تلهُّفه على التنازل عن الوطن القومي لليهود إلا إلى التشجيع على المزيد من أعمال العنف. وحذَّر فايتسمان من «أن العرب يفسِّرون أفكار ماجنيس على أن الأمر لا يحتاج إلا إلى مذبحة صغيرة أخرى تجعلنا نرحل». ولكن ماجنيس اشتكى من أن أكبر عائق في الجانب العربي هو الافتقار إلى الشجاعة الأدبية، وأنه «لم يُشر إليَّ بأصابع الاحتقار إلا بسبب عدم وقوف شخص عربي واحد بجانبي». وفي نهاية الأمر فإن ارتياب اليهود لم يحبِط ماجنيس بقدْر ما أحبطه خوفُ العرب.

ومع خيبة الأمل تلك، فإن ماجنيس لم يفقد قط حُلمه «ببلد مزدوج القومية ثلاثي الديانة، يحظى فيه الجميع بحقوق متساوية»، حتى عندما حلَّت الحرب على فلسطين وعلى العالم أجمع.[10] فقد ثابر على حملته من أجل وطن مزدوج القومية، ومعه العديد من اليهود ذوي الشأن، الذين انجذبوا إلى إيمانه الراسخ بضرورة الاهتمام بشئون الآخرين دون النظر إلى التحالفات القومية، وكانت من بينهم هنريتا سولد. أما الغالبية العظمى من العرب واليهود المتناحرون في صراع مرير فقد رأت أن الأوهام هي ما أوحت بهذا النوع من الإيمان.

استضافت أرض فلسطين أمريكيِّين آخرين ممن ينزِعون إلى المثالية، وهم أشخاص لم يسعَوا إلى تهدئة الأزمة فيها عن طريق الوساطة بين شعبها، بل عن طريق زراعة أراضيها بطريقة علمية. ففي فترةِ ما بين الحربين العالميتين، أمدَّت الولايات المتحدة إسرائيل بعدد كبير من الخبراء الفنيِّين الذين ساعدوا المجتمع الصهيوني على التطور زراعيًّا وعلى الازدهار في بعض المجالات. وعلى عكس جولدا مائير ويهودا ماجنيس وهنريتا سولد، لم يكن لدى الكثيرين من هؤلاء الاختصاصيِّين أيُّ علاقة سابقة بالصهيونية، ولم ينظروا إلى فلسطين قط على أنها وطنهم. بل لم يكن اثنان من أكثرهم تأثيرًا ونفوذًا يَدينون باليهودية.

كان إلوود ميد معروفًا بأنه رائد وخبير في الموارد المائية، والمهندس الرئيسي لسد هوفر بالولايات المتحدة، وصانع بحيرة ولاية نيفادا وقد أُطلق عليها اسمه فيما بعد، وأغلب الظن أن ميد لم يكن قد سمِع عن الصهيونية أثناء سنوات طفولته التي قضاها في مدينة باتريوت بولاية إنديانا، أو أثناء دراسته الجامعية في جامعة «أيوا ستيت» وجامعة «بوردو». اتجهت أنظار قادة الصهيونية إليه بعد نجاحه في استعمال أساليب الري الحديثة في منطقة إمبريال فالي بولاية كاليفورنيا — وهي منطقة تتشابه جغرافيًّا ومناخيًّا مع فلسطين — وكذا بعد تعيينه رئيسًا للمكتب الفيدرالي لاستصلاح الأراضي. فدعوه مرتين في عامي ١٩٢٣ و١٩٢٧ لزيارة فلسطين، لإثبات أن فلسطين — على عكس المزاعم البريطانية — بإمكانها استيعابُ الملايين من اليهود.

ولم يخيِّب ميد ظنَّهم. فمثلما كان جورج بيركنز مارش، وهو رائد التوجه الأمريكي للحفاظ على البيئة، مستاءً من الدمار الشديد للريف الفلسطيني في القرن التاسع عشر، كان ميد أيضًا مستاءً من نفس المسألة. فقد شعر أن قرونًا طويلة من الإهمال وإساءة استخدام البيئة من ملاك الأرض العرب والعثمانيِّين غير المبالين قد أدَّت إلى تجريد الأرض من الأشجار وإفراغها من مواردها الحيوية. وكان الأمل الوحيد الباقي يكمُن في المستوطنات اليهودية، التي تنبأ ميد بأنها «تبشِّر بأن تكون نسخة مكررة من جنوب كاليفورنيا»، وقال إن تل أبيب لها «نفس جاذبية لوس أنجلوس وحداثتها».

كان ميد مهووسًا بالنظام بنفس قدْر هوسه بالزراعة، وكانت العدوانية تبدو عليه بعبوسه المزعج وهو يرتدي نظَّارته ذات الإطار الذهبي، لكنه قدَّم لزعماء الصهيونية خطة محكمة لتطوير مرج ابن عامر ووادي الأردن. وقد أوصى أنه بدلًا من محاولة تشييد عدد من المستوطنات الصغيرة، فإنه يجب على الصهاينة تجميعُ مزارعهم الصغيرة في تعاونيات كبيرة أكثر إنتاجًا، وحذَّر من المبالغة في دعم المزارعين خشيةَ أن يصبحوا «عالة على المؤسَّسة الصهيونية». وكان مَيل الصهاينة إلى الاهتمام بالقيم الاشتراكية أكثرَ من الممارسات الزراعية السليمة يثير حفيظةَ ميد واضطرابه للغاية. فسألهم: «كيف ستحدِّدون قيمةَ العمل كاملًا إلا إذا بدأتم بالتفكير في قيمة مالية محدَّدة تُدفع نظير العمل في اليوم الواحد؟» أما تقريره النهائي الذي يذكِّرنا بتقرير ويليام فرانسيس لينش عام ١٨٤٨، فقد شدَّد على أهمية الزراعة الكثيفة في فلسطين، والتقدُّم الذي يمكن أن تحقِّقه دولة يهودية حديثة للعالم العربي بأسرِه. وأكَّد أن «الحركة الصهيونية في يد مجموعة من القادة المستنيرين الأكفاء، وبإمكانهم إنشاءُ منتجعات على ساحل البحر المتوسط تنافس منتجعاتِ كان ونيس بفرنسا».[11]

ولم تتلقَّ القيادة الصهيونية من ميد دليلًا إرشاديًّا للتطوير القومي فقط، بل حصلت منه أيضًا على أداةٍ ترويجية قوية، كان لها أهميتها في تلك الأوقات التي كثُر فيها النزاع. وجرى تطوير هذه الأداة بعد ذلك على يد الدكتور والتر كلاي لودرميلك، الاختصاصي البارز في مجال التربة بوزارة الزراعة. كان لودرميلك من ولاية نورث كارولينا، وحصل على منحة دراسية من رجل الأعمال البريطاني سيسيل رودس، وكان من المتعصبين للكنيسة الميثودية البروتستانتية، حقَّق حُلم حياته بزيارة فلسطين لأول مرة عام ١٩٣٨. ومن قبيل المفارقة أن هدفه من الزيارة لم يكن تطبيق الخبرات الأمريكية في مجال ازدهار الصحراء، بل كان هدفه هو تمشيط الشرق الأوسط بحثًا عن أدلة تشير إلى المكان الذي تهبُّ منه العواصف الرملية التي تتسبَّب في جفاف منطقة الوسط الغربي في الولايات المتحدة.

لم تختلف انطباعات لودرميلك الأولى عن المنطقة عن انطباعات ميد. فقد وجد أن «مشرحة الحضارات» في الشرق الأوسط هي نتيجة «تعصُّب المسلمين بإيمانهم القدري أن ما يحدُث إنما هو مشيئة الله». وأصيب لودرميلك بالإحباط من جرَّاء هذا «التدهور العام» للأحوال، لكنه تحمَّس مع ذلك بسبب «هذا الالتزام الرائع بضرورة استصلاح الأراضي الذي لم يكن قد رآه في أي بلد من بلدان العالم القديم أو الحديث»، مشيرًا بذلك إلى المستوطنات اليهودية في فلسطين. إذ نجح المزارعون الصهاينة — باستخدام أساليب حديثة في الزراعة، وتحديث التربة وإعادة التشجير — في إعادة الأرض إلى حالتها الخصبة التي كان لودرميلك يؤمن بأنها حالتها المذكورة في الإنجيل. وبالإضافة إلى ذلك، وجد عالم الزراعة هذا — الممتلئ العريض الوجنتين — مجالًا لمزيد من التقدم. إذ كان الصهاينة بحاجة إلى مشروع قومي للري، وكان لدى لودرميلك النموذج المثالي لذلك.

كانت هيئة وادي نهر التينيسي التي تأسَّست عام ١٩٣٣ لتوفير الكهرباء لسبع ولايات أمريكية والتحكم بالفيضانات، هي الأساس الذي وضع عليه لودرميلك مشروعه لري منطقة الجليل ووادي الأردن، مع قنوات من نهر الأردن وفروعه. وقد فكَّر بأنه عندما تُروى فلسطين كما ينبغي فإنها يمكن أن تكفي لإطعام أربعة ملايين نسمة لتصبح بذلك «الرافعة التي سترفع الشرق الأدنى من حالته الراهنة المتردية ليتبوأ مكانة مرموقة وسط العالم الحر». وفي كتابه «فلسطين: أرض الميعاد» الذي كان بمنزلة بيان صهيوني، لم يربط لودرميلك بين المستوطنين اليهود وسكان الحدود الأمريكيِّين فحسب، بل ربط أيضًا بين مجتمع اليشوف وبين الصفقة الجديدة التي تبنَّاها روزفلت (وهي مجموعة برامج اقتصادية تركَّزت على الإغاثة والإنعاش والإصلاح).[12]

كان ميد ولودرميلك يمثلان قناةَ تواصل بين القيادة الصهيونية والحكومة الأمريكية التي تخطَّت وزارة الخارجية المعادية للصهيونية، وذلك باقتناعهم بالمشروع الصهيوني ولا مبالاتهم بعرب فلسطين — إن لم يكن ازدراءهم. وقد ساعدا أيضًا في إقناع القادة الصهاينة — الذين تشكَّلت نظرتهم للعالم في ظل الإمبراطورية البريطانية — بأن مستقبل فلسطين لن يتحدَّد في لندن وحدها، بل في عاصمة قوة عظمى أخرى. وكان أبرز هؤلاء القادة هو ديفيد بن جوريون الذي يعدُّ أحد أكثر الصهاينة تميزًا في فلسطين، والوحيد بينهم الذي لم يكن مواطنًا أمريكيًّا.

على أن بن جوريون عاش أيضًا في الولايات المتحدة. فقد وُلد في مدينة بلونسك ببولندا عام ١٨٨٦، وكرَّس الكثير من سنوات صباه للأنشطة الصهيونية، وفي سن العشرين هاجر إلى فلسطين. وسرعان ما ارتقى إلى مناصب قيادية سواء في الاتحاد العمالي أو في المستعمرة اليهودية أو في حركة الدفاع، مرسخًا سُمعته عن طريق بصيرته النافذة ومثابرته، وقامته السياسية التي كانت أكبر بكثير من جسده الضئيل. وبعد إجلائه من فلسطين عام ١٩١٥، أبحر بن جوريون إلى الولايات المتحدة، فعلَّم نفسه الإنجليزية وهو في الطريق، ووصل إلى أمريكا ملطَّخ الثياب وكان الطربوش العثماني لا يزال على رأسه. بدت ناطحات السحاب في نيويورك — عندما رآها أولَ مرة — «غريبةً وتشبه الأقفاص»، ومع ذلك فقد كانت المدينة «نشيطة ومنتِجة ومادية»، مما أبهر بن جوريون أيضًا، كما أثاره «نبض الحياة الحديثة لأعظم الدول ديمقراطيةً وتطورًا». ومثل لودرميلك وميد، رأى هذا الشخص المتعصِّب للصهيونية أوجه شبه بين سكان الحدود الأمريكيِّين في الغرب الأمريكي القديم وبين الرواد اليهود في الشرق الأوسط. فقال: «نحن — الذين نسعى إلى بناء أرض جديدة وسط الحطام والخراب — يجب أن نرى كيف تحوَّلت المنافي التي كان يفر إليها المضطهدون في بريطانيا إلى دولة غنية وقوية وفريدة في مواردها وقدرتها الإبداعية.»

وفي السنوات الثلاث التالية جال بن جوريون في أرجاء الولايات المتحدة، في محاولة للترويج للصهيونية العمالية ولتجنيد أعضاء جدد في الفيلق اليهودي. وعندما لا يكون في رحلة من هذه الرحلات، كان يحبس نفسَه في مكتبة نيويورك العامة ويعكف على قراءة كتب حول الفكر الديمقراطي والنظام السياسي الأمريكي. وقد انجذب بن جوريون لتلك الأفكار كما انجذب إلى بعض القادة الصهاينة الأمريكيِّين ولا سيما لويس برانديس، الذي أكَّد أهميةَ تحقيق إنجازات عملية للحركة وضرورةَ انفصالها عن تاريخ اليهود السلبي.

وقد أكَّد أن هؤلاء الصهاينة بإمكانهم حشد الرأي العام ضد سياسة الحياد التي تتخذها الولايات المتحدة فيما يتعلَّق بفلسطين والتي تشبه الساق الصناعية وبحيث يزيلون هذه الساق عن موضعها باستمرار. لم يَعُد بن جوريون إلى فلسطين عام ١٩١٨ وبصحبته عروسه الأمريكية بولا مونفيز فحسب، بل اصطحب معه توجُّهًا استراتيجيًّا جديدًا. فأكَّد أنه على الرغم من أن «لندن لا تزال هي مركز العالم ... فإنها ليست مركزَ آمالنا نحن؛ فقوةُ مشروعنا تكمُن في أمريكا».[13]

كان هذا التوجُّه لبن جوريون يخالف توجُّه جابوتنسكي، الغارق في اليهودية البولندية، والأهم أنه سارَ على عكس منظور حاييم فايتسمان الذي يرى أن بريطانيا هي المركز السياسي للعالم. ولكن بحلول عام ١٩٣٥، كان بن جوريون قد حلَّ محلَّ فايتسمان باعتباره الشخصية الصهيونية الأهم، وظهر باعتباره الرجل العجوز الزاهد صاحب الهالة من الشعر الأبيض، الذي لا يَكل من وضع الحسابات، والذي سيهيمن على سياسة الحركة الصهيونية عدةَ عقود. وبعدها بأربع سنوات وباندلاع الحرب العالمية الثانية وإصدار بريطانيا للكتاب الأبيض عام ١٩٣٩، أقسم بن جوريون على محاربة النازيِّين كأنه لم يكن هناك وثيقة بيضاء، وأن يحارب الوثيقة كأنه لا وجود للحرب. كان حلُّ هذا اللغز يكمُن في البلد الذي ترك انطباعًا جيدًا عليه بمخزونه المستمر من القوة مع أنه لا يزال على الحياد تجاه فلسطين وتجاه الصراع العالمي الناشئ. وآمن بن جوريون بأن الولايات المتحدة، التي شهدت ميلادًا للتوجهات الصهيونية لجولدا مائير وهنريتا سولد ولماجنيس وميد ولودرميلك يمكنها أن تشرف على ميلاد الدولة اليهودية.

اتخاذ قرار في بيلتمور

في تلك الأثناء كانت الحرب قد تفشَّت في معظم مناطق العالم بما فيها منطقة الشرق الأوسط. وفي حين كانت القوات اليابانية تنتقل من نصر إلى نصر على بريطانيا وحلفائها في آسيا، استولت ألمانيا النازية على معظم أوروبا. وكانت حكومة فيشي الشكلية، التي شُكِّلَت بعد سقوط فرنسا في يونيو عام ١٩٤٠، تحكم المغرب وتونس والجزائر — التي تمثل في مجموعها مليونَ ميل مربع — بالإضافة إلى مناطق الانتداب في سوريا ولبنان. وأصبحت ليبيا أيضًا تحت الحكم الفاشي بعد دخول إيطاليا الحرب. ورحَّب العالم العربي عامة بهذه التطورات. وبحلول ربيع عام ١٩٤١ وقعت في العراق ثورة موالية لدول المحور يقود جزءًا منها المفتي الأكبر المنفي الحاج أمين الحسيني، وقد سَحقت القوات البريطانية في

العراق هذه الثورة. ونَهب مثيرو الشغب منشآت شركة نفط العراق التي يملك الأمريكيون بعضها، وحاصروا القنصلية الأمريكية في بغداد حيث أصيب بول نابنشو — الذي كان يومًا ما بطلَ القومية العربية — بعدوى وتوفي على أثرها. وعقد المفتي معاهدةً مع هتلر، معلنًا رغبته في «حل المشكلة اليهودية بنفس الطريقة التي تُحل المسألة بها الآن في دول المحور»، وجنَّد مسلمين من دول البلقان ليخدموا مع القوات النازية. وفي تلك الأثناء كانت الجماهير في مصر تهتف مساندةً لفيلق الصحراء (فيلق أفريقيا الألماني) وهو يخترق الصحراء الغربية متجهًا نحو قناة السويس.

لم يكن بالإمكان أن يكون الخطر الذي يتهدَّد فلسطين اليهودية أكثرَ حدة، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية أحدَث صدعًا عميقًا بين صفوف اليهود الأمريكيِّين، وبين الصهاينة وغير الصهاينة، وحتى بين صفوف الصهاينة أنفسهم. وأحدثَ أكبر تلك الانشطارات انشقاق القادة اليهود، مكوِّنين مجموعة من تسعة من اليهود الفلسطينيِّين تحت القيادة المبدعة والمؤثِّرة لهيليل كوك، المعروف باسم بيتر بيرجسون. كانوا جميعًا أعضاءً في حركة جابوتنسكي المجددة، وأُرسل بيرجسون وفريقه إلى أمريكا في يوليو عام ١٩٤٠ لحشد الدعم والتأييد لقوة قتالية يهودية تساعد في الدفاع عن فلسطين. وادَّعى بيرجسون أن «جيشًا بهذه الروح المعنوية يمكنه بالفعل تغيير مسار الحرب في أفريقيا. إنَّ بإمكانهم تحقيق النصر!» ولهذا الغرض استخدم بيرجسون أساليبَ تعدُّ عادية اليوم، لكنها كانت تعدُّ حينئذٍ جريئة. فقد نشر نحو ٢٠٠ إعلان في الصحف الأمريكية، يقول أحدها الذي نُشر في جريدة «نيويورك تايمز»: «اليهود يقاتلون لأجل حقهم في القتال» وبنى تحالفاتٍ مع الحزبين الرئيسين في الكونجرس الأمريكي مؤيدةً لتكوين جيش يهودي، وبحلول نهاية الحرب، كان يحصل على مساندات من العديد من نجوم هوليوود، منهم فرانك سيناترا وجيري لويس ومارلون براندو.

ولكن جرأة بيرجسون أخافت أيضًا مؤسساتٍ يهودية أمريكية. فقد استاء رؤساء اللجنة الأمريكية اليهودية من غير الصهاينة من الجهود المبذولة للضغط على روزفلت للتخلي عن موقفه الحيادي حول فلسطين، وعارضت المؤسسة الصهيونية بقيادة الحاخام ستيفن وايز والمتحالفة مع الصهيونية العمالية أيضًا هذا التعدي من الجناح اليميني الصهيوني. وهاجمه وايز بيرجسون بالعبرية قائلًا: «مَن مَنحك تلك السلطة؟» وبعدها وجد أعضاءٌ من مجموعة بيرجسون أنفسهم قيد التحقيق والاستجواب من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالي ومصلحة الضرائب الأمريكية، اللذين هدَّدا بترحيلهم خارج الولايات المتحدة.[14]

كان اليهود الأمريكيون لا يزالون يراوغون ويعترضون في يونيو عام ١٩٤١ عندما اقتحمت القوات الألمانية روسيا السوفييتية وبدأت بتطبيق خطة «الحل الأخير». للتخلص من اليهود وإبادتهم؛ فقد أُلقي القبض على ١٫٦ مليون يهودي من قِبل فِرق القتل النازية وأعوانها المحليِّين، وأُرغموا على حفر قبورهم بأيديهم ثم قُتلوا رميًا بالرصاص. أما مئات الآلاف الآخرون الذين احتُجزوا في أحياءٍ فقيرة قذرة فقد ماتوا من الجوع والمرض أثناء انتظار ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال. وأخيرًا وصلت أخبارُ تلك المذابح إلى الولايات المتحدة، ولكن القادة اليهود الأمريكيِّين ظلوا على تشكُّكهم في صحة الأنباء، ولم تضَع الصحف أنباء المذابح في صدر صفحاتها وإنما وضعتها في الصفحات الأخيرة. وفي ديسمبر، جرى من جديد إسكات الضجة المثارة حول الهولوكوست بفعالية فائقة عن طريق إعلان روزفلت الحربَ على اليابان بعد مهاجمة الطائرات الحربية اليابانية لميناء بيرل هاربر الأمريكي. وهكذا تحوَّل النضال لإنقاذ اليهود ولضمان تأسيس دولة لهم فجأةً إلى مرتبة أدنى وأقل أهمية من المجهودات الأمريكية الشاملة للانتصار في الحرب.

ولكن الصهاينة لم يتمكنوا من التغاضي عن حقيقةِ أن الولايات المتحدة كانت الآن هي القوة المهيمنة بين الحلفاء، والعنصر الفاصل في الحرب، والمخطِّط للفترةِ التي بعدها. وشرح بن جوريون أنه «حاليًّا، لا توجد أي مساعدة خارجية إلا من الولايات المتحدة. فالمساعدات الضخمة التي نحتاج إليها لتأسيس جيش واستعادة الأرض والاستقرار فيها والحفاظ على وضعنا لا يمكن أن تأتي إلا من … أمريكا». وكانت الحاجة إلى إنقاذ يهود أوروبا مع استغلال وضع أمريكا الجديد قد دفعت قادةَ الصهيونية إلى غض الطرف عن كثير من خلافاتهم وإلى الاتفاق على خطة ثورية.

وفي مايو عام ١٩٤٢، اجتمع مندوبون عن المنظَّمات الصهيونية في فندق بيلتمور بنيويورك في قاعات الطعام المبنية على الأسلوب المعماري المعروف باسم أرت ديكو، وفي هذا المؤتمر وافقوا على خطة من ثماني نقاط، دعت لأول مرة صراحةً إلى تأسيس «دولة ديمقراطية يهودية تندمج في نسيج العالم الديمقراطي الجديد». وبذلك لم يَعُد هناك وجود للمبادرات غير الواضحة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وأيضًا لم يَعُد هناك وجود للمبادرات الداعية إلى إنشاء دولة يهودية صغيرة أو للتخطيط لتأسيس مناطقَ تنعَم بالحكم الذاتي داخل حدود دولة عربية كبيرة مهيمنة. وكما ذهب كلُّ ما سبق أدراجَ الرياح، فقد ذهب أيضًا الافتراضُ الصهيوني الذي ظل قائمًا فترةً طويلة من الزمن، القائلُ إن مصير فلسطين سيتحدَّد في لندن. وبدلًا من ذلك، اتفق المندوبون

على أن الولايات المتحدة تمثِّل «ساحة المعركة» الجديدة للحركة الصهيونية، وأن واشنطن ستكون لها الكلمة العليا في الصراع من أجل حصول اليهود على دولة ذات سيادة. ومنذ ذلك الحين، ستسعى الحركة الصهيونية إلى استقلالٍ تام لليهود في فلسطين، وإلى إقامةِ دولةٍ لها حدودٌ معترَف بها ومؤسسات جمهورية وجيش ذو سيادة، وأن يحدُث كل ذلك بالتعاون مع أمريكا.

ومع ذلك فلم يرحِّب كل الصهاينة بتلك القرارات. فقد هاجم فايتسمان، الموالي للبريطانيِّين، تلك القرارات، ورفضها أصحابُ فكرة القومية المزدوجة في دولة واحدة، من أمثال سولد وماجنيس، وأعلنوا انفصالَهم لتأسيس حزب خاص بهم، هو حزب الإيشود (الوحدة)، الذي دعا إلى كيان اتحادي عربي يهودي. على أن المعارضين لبرنامج أو مؤتمر بيلتمور كانوا يمثلون نسبةً ضئيلة من الحركة الصهيونية. أما الأغلبية الساحقة من الصهاينة، سواء من الأمريكيِّين أو الفلسطينيِّين، فأيدوا المبادرات الساعية لإقامة دولة يهودية مستقلة. وكانت هذه الأغلبية غيرَ مستعدة لأن تقف موقفًا سلبيًّا وهي ترى إدارة روزفلت تتجاهل الإبادة العِرقية لليهود في أوروبا وتظل على الحياد فيما يتعلَّق بفلسطين. وباستخدام استراتيجيات سريعة وقصيرة المدى بدأها وأجادها بيتر بيرجسون تمامًا، مارسَ الصهاينة الأمريكيون ضغوطَهم من أجل قضيتهم بتصاعد مستمر، سواء في الكونجرس أو في وسائل الإعلام الأمريكية. وهكذا بدأت مرحلةٌ جديدة في علاقة أمريكا بالقضية الفلسطينية.

على أن روزفلت لم يُبدِ اهتمامًا كبيرًا — إن لم يكن قد أبدى لا مبالاة — بهذا التغير. وناشده الصهاينة الأمريكيون أن يدعَم خطة بيلتمور، ودعاه العاملون بوزارة الخارجية إلى أن يتنصل منها. ولكن الرئيس لم يُبدِ رأيًا سواء بتأييده للخطة أو معارضته لها. إذ قال: «كلما فكَّرت في المسألة، ازداد شعوري بأننا يجب ألا نتفوه بكلمة حول الشرق الأدنى أو فلسطين أو العرب في الوقت الحالي. لأننا إذا ربَّتنا على ظهر أي مجموعة منهم، فسنثير المتاعب تلقائيًّا.»[15]

وفي حين كان مؤيدو الدولة اليهودية والمعارضون لها يتصارعون حول مستقبل فلسطين، ظلَّ اهتمام روزفلت موجهًا إلى منطقة مختلفة تمامًا من العالم العربي. ففي نوفمبر عام ١٩٤٢، وعندما كان ممثلو الحركة الصهيونية يعلنون موافقتهم على المسوَّدة الأخيرة لقرارات بيلتمور، اتجهت أكبرُ قوة بحرية في العصر الحديث نحو الساحل الأسمر لشمال أفريقيا. وبعد شهور عديدة من نزوع وزارتي الخارجية والحربية الأمريكيتين إلى

الشك، ومن الخلافات بين دول الحلفاء، ومن تردُّد البيت الأبيض، دخلت الولايات المتحدة أخيرًا الحرب في أوروبا، عن طريق الشرق الأوسط.

الفصل الخامس والعشرون

شعلة من أجل الشرق الأوسط

لم يكن في مقدور الجنود أن يبتهجوا برؤية الشاطئ يلوح في الأفق، وذلك بسبب الضَّعف الذي أصابهم نتيجةً لقضائهم ثلاثة أسابيع في عُرض البحر مثقلين بخوذات من الصلب يضعونها فوق رءوسهم، وعلى أكتافهم أحزمةٌ عريضة توضع فيها الذخيرة، ويحملون سترات النجاة وأقنعة الغاز ومعدَّات لحفر الخنادق. وكان عددهم نحو أربعة وسبعين ألف جندي، معظمهم من مشاة البرية المشاركين في أول إنزال للحلفاء منذ بدء الحرب. لم تكن فرنسا هي مقصدَ هؤلاء الجنود — كما كان الروس وكثير من الجنرالات الأمريكيِّين يُؤْثِرون — وإنما كان مقصدهم هو الشرق الأوسط. وسرعان ما دخل ساحةَ القتال أولئك الجنود أبناء مزارعي الذرة البيضاء في ولاية كنساس إلى جانب طهاة الوجبات السريعة من حي برونكس بنيويورك اختيروا على عجالةٍ ليقاتلوا في الأحياء القديمة للدار البيضاء، وفي وديان الصحراء التونسية التي شكَّلتها الرياح.

ونتيجةً لإدراك المسئولين بفداحة هذا التباين بين الولايات المتحدة وبين هذه الأراضي، أعدَّت وزارة الحرب في واشنطن كتيبًا إرشاديًّا صُمِّم بغرض تعريف الأمريكيِّين بهذا «البلد الغريب». وفى حالةِ ما إذا نفر الجندي من النظر إلى المآذن الرائعة والمنازل المطلية باللون الأبيض التي تلوح في الأفق وتبدو أكبرَ حجمًا عند الاقتراب من الشاطئ فما كان عليه إلا تصفُّح الصفحات الخمسين للكتيِّب ليحصُل على بعض المعلومات القيمة والغريبة عن الشرق الأوسط. فمثلًا سيعرف أن المسلمين يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم الأفضل والأعلى مقامًا من اليهود والمسيحيِّين، وأنه ليس في مقدورهم ممارسةُ هذه السيادة فقط إلا على يهود الشرق الأوسط العزَّل. وسيعرف كذلك أن المسلمين، على عكس ما يقوم عليه جيشه الأمريكي من التفرقة العِرقية والطبقية، «لا يفرِّقون بين البشر على أساس ألوانهم»، وأنهم يحسنون معاملةَ مَن يخدمونهم، إضافةً إلى كونهم «ديمقراطيِّين للغاية».

وكان يقال للمجنَّد أيضًا إن الرجال العرب الذين يسيرون وكلٌّ منهم يمسك بيد الآخر «ليسوا من الشواذ»، وأنهم عادةً عندما يرقصون «يلتصقون قليلًا بعضهم ببعض». وفي حالةِ ما إذا لم تكن هذه اللمحات كافية، كان يجري إمداد جنود المشاة بقائمة مفصَّلة بما يجوز وما لا يجوز فعله:

> «إذا قدَّم لك مضيِّفك المحلي مشروبًا فعليك ألا ترفضه أو أن تلقي بأي كمية منه. ومن الكياسة قبولُ ثلاثة أكواب إذا عُرضت عليك، ولكن لا يجب تحت أي ظرف قبول الكوب الرابع.
>
> لا تدخل المساجد، ولا تقدِّم مشروبات كحولية للمسلمين، ويجب عدم الإشارة إليهم بكلمة كفَّار، فهم شديدو التديُّن.
>
> لا تحملق في امرأة مسلمة أبدًا، ولا تحتكَّ بها في الزحام، ولا تتحدَّث إليها علنًا، والأهم لا تحاول أبدًا أن تخلع نقابها.»

كان هذا الكتيب يمثل محاولةً جادة — وإن كانت غير تقليدية — لتخفيف حدة مشكلة انتقال الجنود الأمريكيِّين من المجتمعات الصناعية والطبقة المتوسطة التي عاشوا فيها إلى مجتمعات الشرق الأوسط التي لا تعيش وفقًا للمدنية الحديثة. لكنها كانت أيضًا علامةً دالة على نهاية تردُّد أمريكا حول ما إذا كانت ستدخل الحرب في هذه المنطقة أم لا.

في فترةِ ما قبل الهجوم الياباني على بيرل هاربور، كان صانعو السياسات الأمريكيون يراقبون مساعي بريطانيا لحماية مصالحها في الشرق الأوسط عن طريق تدمير الأسطول الفرنسي الموجود في ميناء المرسى الكبير بالجزائر حتى لا يقع في يد الألمان، واحتلال سوريا ولبنان اللتين كانتا تحت سيطرة حكومة فيشي. وكان تشرشل — وقد أصبح رئيس وزراء بريطانيا — قد حذَّر الولايات المتحدة من مخاطر فقدان نفط الشرق الأوسط وقناة السويس التي تمثِّل حلقةَ الاتصال بين الشرق والغرب، لكن بعض القادة الأمريكيِّين كانوا لا يزالون متردِّدين. وهو الموقف الذي عبَّر عنه هاري هوبكنز أحدُ أقرب مساعدي روزفلت عندما قال لتشرشل: «نحن في الولايات المتحدة لا نفهم مشكلتكم في الشرق الأوسط.» وأضاف شارحًا لوجهة نظره: إنه مع وجود كل تلك الثروة الهائلة في المنطقة فإنها لا تستحق كلَّ الموارد التي كانت بريطانيا تستثمرها فيها. ورأى أنه من الأفضل تركُ ألمانيا تحصل على تلك المنطقة لأنه سيجعل خطوط المؤن الألمانية طويلةً وعرضةً للخطر، في حين سيقصِّر طول خطوط المؤن البريطانية. أما الرئيس روزفلت فقد أعطى

من جانبه الأولويةَ لإعادة الإمداد والتموين لبريطانيا في الأيام العصيبة التي وقعت أثناءها الغارات الجوية الألمانية المتواصلة عليها. وقرَّر أنه «يجب علينا ألا ننزلق إلى أيٍّ من تلك الموضوعات الجانبية، مثل إرسال كل سفننا التجارية إلى الشرق الأوسط». وتراجع الكثيرُ من الأمريكيِّين عن الارتباط بحملةٍ ساورهم الشك في أن هدفها الأساسي هو حماية الإمبراطورية البريطانية أكثرَ منه الانتصار في الحرب. فقال والاس موراي: «سُمعتنا في العالم العربي قائمة على النيات الحسنة والثقة بدوافعنا، وهي ميزة لم يَعُد البريطانيون يتمتعون بها.»

وكانت الخلافات الأنجلوأمريكية حول الشرق الأوسط قد تفاقمت أكثرَ وأكثر بسبب إصرار روزفلت على الاحتفاظ بعلاقات رسمية مع حكومة فيشي. وعن طريق مندوبه الشخصي — روبرت ميرفي المتوسط العمر الضعيف البنية الجسدية ومع ذلك فلا يبدو عليه تعبٌ أو كلل — وافق الرئيس على تلبية الاحتياجات الأساسية لشمال أفريقيا من الطعام والوقود، وعلى المساعدة في تمويل إدارة المستعمرات. ومقابل ذلك، كان يتوقَّع من سلطات فيشي أن تتوقف عن التعاون مع ألمانيا وأن تسمح للجواسيس الأمريكيِّين بالعمل تحت الحماية القنصلية. وحسبما جاء في إحدى البرقيات النازية التي ضُبطت، فإن «نواب القناصل الذين يرأسهم ميرفي يمثِّلون صورةً مثالية لمزيج من الأعراق والسمات في هذا الخليط الجامح الذي يُطلق عليه اسم الولايات المتحدة الأمريكية. إلى جانب أن خطر وصولهم إلى شمال أفريقيا يعدُّ صفرًا». وفي حقيقة الأمر فقد تبين أن المعلومات التي قدَّمها هؤلاء العملاء ذات قيمة كبيرة عندما وطئت القوات الأمريكية بأقدامها أرضَ شمال أفريقيا.[1]

وكان الأمريكيون مكتفين وراضين بإبقاء فرنسا خارج نطاق القتال في شمال أفريقيا، وبمراقبة أنشطة ألمانيا في المنطقة، واستمر ذلك حتى بعد الذي حدث في بيرل هاربور وإعلان هتلر الحرب على الولايات المتحدة. واستمرَّ روزفلت في رفض طلب تشرشل بتدخل أمريكي مكثَّف في الشرق الأوسط؛ إذ كان يؤمن أن بريطانيا وحدَها هي المسئولة عنه. وشرح الرئيس أن القوات الأمريكية ستدخل الحرب عبر الساحل الغربي لفرنسا، وليس عبر شمال أفريقيا. وردَّ رئيس الوزراء على ذلك متسائلًا: «لماذا تضع رأسك في فم التمساح في مدينة بريست وفي إمكانك أن تذهب إلى البحر المتوسط وتشق ذلك البطنَ الناعم للتمساح؟» لكن حديثه هذا لم يكن مجديًا. فقد كانت وزارة الحرب لا تزال ترى أن أي حملة شرق أوسطية يمكنها أن تخدم مصالح بريطانيا الاستعمارية، لكنها على أقصى تقدير لن تسفر عن «مساهمة مباشرة في هزيمة النازيِّين».

ولكن هذا الرأي تغيَّر تمامًا في يونيو عام ١٩٤٢، عندما غزت القوات الألمانية الاتحادَ السوفييتي، وطاردت الجيش البريطاني نحو ستين ميلًا من ميناء الإسكندرية بمصر. ولأن قوات المحور كانت تسيطر فعليًّا على اليونان ويوغوسلافيا وجزيرة كريت، فإنها تأهَّبت للسيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط بالكامل، قاطعةً الطريق على الإمدادات المتجهة إلى جنوب روسيا، بالإضافة إلى اعتراضها الاتصالات بين ساحات المعارك في الغرب وفي الشرق الأقصى. وللتخفيف من بعض الضغوط على السوفييت وافقت الولايات المتحدة على فتحِ جبهة ثانية ضد الألمان، ولكن قوَّاتها كانت لا تزال تعوزها وسيلةٌ تسمح لعدد ضخم من الجنود بعبور بحر المانش (القناة الإنجليزية). وبريطانيا لم يكن لديها وقتٌ للانتظار. وفي يوم ٣٠ من يوليو، أبلغ روزفلت كبارَ مستشاريه أن شمال أفريقيا «أصبحت الآن هدفنا الرئيسي» الذي يجب أن نحقِّقه «في أقرب وقت ممكن».

تطلَّبت العملية التي أُطلق عليها الاسم الكودي «الشعلة» إنزالًا مكثفًا قُرب الموانئ الرئيسية في المغرب والجزائر. ومن هناك، كان على قوات الحلفاء أن تتقدَّم شرقًا نحو تونس، مكوِّنة فخًّا للفيلق الألماني المعروف باسم فيلق الصحراء الذي ستحاصره عندئذٍ هذه القوات من جانب، وقوات الجيش الثامن البريطاني المتقدِّم من جهة الغرب من الجانب الآخر. على أن هذه المناورة البسيطة ظاهريًّا تحوَّلت إلى مسألة في غاية التعقيد بسبب نقص القدرات القتالية للجيش الأمريكي أو غيابها كليًّا، وبسبب الخلافات الدائمة بين قادة الجيش الأمريكي وقادة جيوش الحلفاء، وبسبب تضاريس أقلَّ ما يمكن أن يقال عنها إنها كانت وعرة، وأسوأ ما يمكن أن يقال عنها إن المرء ليعجز عن اجتيازها. ولكن الصعاب التي واجهتها عملية الشعلة لم تتمكَّن من تغيير الواقع القائل إن الولايات المتحدة كانت وقتها قد ألزمت نفسها بالحرب الفعلية ضد ألمانيا، وبأنها رسَّخت تحالفها مع بريطانيا العظمى، وبدأت في تأسيس خطوط إمداد لإنقاذ الاتحاد السوفييتي المحاصَر. ومنذ حروب البربر لم يكن الأمريكيون قد قاموا بحملة شرق أوسطية شاملة وحاسمة مثل هذه الحملة.

لم تكن حلقة الربط بين حروب البربر وغزو شمال أفريقيا خافيةً على المراقبين الأمريكيِّين. فقد لاحظ بعضهم اشتراكَ السفينة الحربية «فيلادلفيا» في أسطول الحلفاء الغازي، كما لاحظوا أن المسار الذي سارت فيه قوات الجيش البريطاني الثامن وهي في طريقها من مصر إلى مدينة درنة الساحلية في ليبيا هو نفس المسار الذي سارَ فيه جنود المشاة الأمريكيِّين عام ١٨٠٥. وتذكَّر اللواء جورج باتون وهو يقود ثلاث كتائب إلى

المغرب كيف منح أحدُ أسلاف السلطان الحالي أقدمَ مبنًى قنصلي أمريكي في طنجة إلى جورج واشنطن. على أن أكثرَ حلقات الربط إلهامًا قدَّمها مؤلفو الكتيب الإرشادي لشمال أفريقيا الذي أعدَّته وزارة الحرب لمجنِّدي الجيش الأمريكي. فقد جاء في الكتيب: «في الأيام الأولى للجمهورية، حارب الأمريكيون على هذه الأرض نفسها من أجل شرف بلادهم ومن أجل مبدأ حريَّة البِحار.» وذكَّر الكتيب قرَّاءه ببريبل وديكاتور ووبليام إيتون، الذين «حارب جيشهم البدائي في الصحراء لكسب الاحترام للولايات المتحدة». وأكَّد لهم الكتيب أنه مع كونهم يواجهون الآن «عدوًّا أقوى بكثير»، فإنهم «يدافعون عن نفس المبادئ». وقرَّر الكتيب أن الأمريكيِّين قد عادوا إلى الشرق الأوسط، ليس من أجل أي مكسب مادي أو غزوٍ للأراضي، بل فقط من أجل ضمان «أن يكون الإنسان حرًّا وأن تُتاح للإنسانية فرصةُ العيش الكريم».[2]

الموازنة بين القوة والإخلاص

تشابهت عملية الشعلة من الناحية العسكرية في بادئ الأمر مع غارات أمريكا القديمة ضد البربر. وكانت مفاوضات ميرفي مع حكومة فيشي قد أثبتَت فعاليتها في تخفيف حدة المعارضة الفرنسية لعمليات الإنزال مما أسهم في تقليل عدد الخسائر البشرية بين الأمريكيِّين إلى ٣٣٧ قتيلًا و٦٣٧ جريحًا. ولكن مثلما ضُلِّل الأمريكيون عام ١٨٠١ بانتصاراتهم الحربية الأولى على القراصنة وظنوا أن النصر الساحق بات أمرًا وشيك الحدوث، أدَّت سهولة ويسر غزو شمال أفريقيا إلى زرعِ بذور إحساس زائف فيهم بأن الأمر لا يحتاج إلى أي جهود إضافية. على أن الجيش الأمريكي الموحَّد كان عليه في الحقيقة أن يشتبك مع الجيش الألماني الذي صلَّبته وحنَّكته المعارك. ومع قلة عدد الألمان وقلة عتادهم وسلاحهم، وأنهم كانوا لا يزالون يقاسون من تبعات هزيمتهم الأخيرة على يد البريطانيِّين في معركة «العلمين» بالصحراء المصرية أواخر عام ١٩٤٢، فإنهم سحقوا القوات الأمريكية في معركة «ممر قصرين» بتونس، وقتلوا ما يزيد على ستة آلاف أمريكي. ولكن سرعان ما استعادت القوات الأمريكية صلابتَها وحسَّها القتالي اللازمين للهجوم على فيلق الصحراء الألماني، وذلك في اشتباكاتٍ متوالية وأجبرته على الاستسلام في مايو عام ١٩٤٣. وهكذا فإذا كانت حروب البربر قد مثَّلت أول تحدٍّ واجهه الأمريكيون بصفتهم أمةً واحدة، يصبح الأمر كما عبَّر عنه المؤرخ ريك أتكنسن قائلًا: «كان شمال أفريقيا المكان

الذي بدأت الولايات المتحدة منه في التصرف بصفتها قوة عظمى؛ عسكريًّا ودبلوماسيًّا واستراتيجيًّا وتكتيكيًّا.»

على أن إلحاقَ الأمريكيِّين الهزيمةَ بالألمان لم يكن سوى العقبة الأولى أمام القوات الأمريكية لتحقيق الانتصار في شمال أفريقيا. فقد كان جلُّ ما أصاب الأمريكيِّين بالإحباط هم الفرنسيون؛ إذ كانوا في غاية الانقسام؛ ففريق منهم كان يَدين بالولاء لحكومة فيشي، ويَدين فريق آخر بالولاء لقوات فرنسا الحرة التي يقودها الجنرال شارل ديجول، كما أُحبط الأمريكيون من البريطانيِّين الذين كانت عداوتهم للفرنسيِّين كثيرًا ما تفوق كراهيتهم للنازيين. ويحكي الجنرال مارك كلارك، نائب القائد العسكري لعملية الشعلة: «وُكِلت إليَّ مهمة منع نشوب حرب ضد الفرنسيِّين، ومتابعة الحرب ضد دول المحور بأقصى سرعة ممكنة. وكان هذا يعني أن أحاول إنقاذ عدد كبير من حيوات الأمريكيِّين والبريطانيِّين والفرنسيِّين.» وتمكَّن كلارك ورئيسه الجنرال دوايت أيزنهاور من التغلب على معظم العقبات المحيطة بعلاقات أمريكا وفرنسا من ناحية، وأمريكا وبريطانيا من ناحية أخرى. ولكن أراضي شمال أفريقيا كانت تخبِّئ عقباتٍ أكبر للأمريكيِّين، تمثلت في علاقتهم بالسكان المحليين.

وفي حين كان عشرات الآلاف من المجندين الأمريكيِّين يصلون إلى سواحل الشرق الأوسط، كانت الطائرات الأمريكية تلقي بأعداد ضخمة من المنشورات في داخل البلاد. وكانت هذه المنشورات تتضمن نصائحَ باللغة العربية «لأبناء المغرب»، وتبلغهم أن «الجنود الأمريكيِّين المقدَّسين قد وصلوا لخوض الجهاد العظيم من أجل الحرية». ومع أن ذلك قد يبدو صادمًا بالنسبة إلى القارئ الأمريكي في القرن الحادي والعشرين، فإن استخدام هذه اللغة المجازية الإسلامية عام ١٩٤٢ كان له أضعف الأثر على مسلمي شمال أفريقيا البالغ عددهم ٢٥ مليونًا. فالحرب العالمية الثانية كانت عندهم مجردَ مرحلة جديدة في الصراع بين المسيحيِّين لاحتلال الأراضي الإسلامية. ورأوا أن الحلفاء لم يأتوا لتحرير هذه البلاد وإنما ليعيدوها إلى الحكم الفرنسي، كما رأوا أن الألمان — مع كل حديثهم عن تحرير الشرق الأوسط — كانوا ينظرون إلى سكانه باعتبارهم جنسًا أدنى. اقتصر الاهتمام المحلي بالحرب على مشاهدة القتال بين جنود الحلفاء والمحور — وقد شبَّههم أحدُ الكتَّاب بمشاهدي مباراة للتنس، تتحرك رءوسهم جيئةً وذهابًا مع كل ضربة كرة، بالإضافة إلى سرقة المؤن من الجانبين.

وأثبتت نظرة المسلمين للسياسة الأمريكية صحَّتها ودقَّتها. ففي حين أنها كانت ملتزمة بمساعدة السكان المحليِّين بصورة مادية إذ كانت تلبي احتياجاتهم العلاجية

والغذائية، فإنها أحجمت منذ البداية عن تشجيع الحركات القومية التي ازدهرت عبر شمال أفريقيا. فقد شعرت واشنطن أن مثل هذا التشجيع لن ينجح سوى في إثارة ثائرة الفرنسيِّين وإعاقة أعمال القتال ضد الألمان. وتذكَّر الجنرال كلارك: «كان عليَّ أن أطمئن الفرنسيين باستمرار حول نوايا الولايات المتحدة. وكان عليَّ أن أكون حريصًا على ألا أمنح رؤساء القبائل المحلية أيَّ انطباع خاطئ بأن الولايات المتحدة ستساعدهم على التخلص من الفرنسيين.»[3] وقد أدَّت المهمة المزدوجة بتهدئة الفرنسيِّين مع تجنُّب توجيه أي إساءة إلى المسلمين إلى تبني الأمريكيِّين سياساتٍ غير تقليدية، وإن كانت تثير شبهاتٍ أخلاقية. فقد كانت الولايات المتحدة ستحافظ على الحكومة الموالية للفيشية، أما الأسوأ من هذا فهو أنها كانت ستحافظ على التشريع العنصري ضد يهود شمال أفريقيا.

كان هناك نحو ٣٥٠ ألف يهودي يعيشون في المنطقة، أبناء جاليات كانت قد استقرت في شمال أفريقيا قبل ظهور الإسلام بنحو ألف سنة، وعاشوا منذ الغزو الإسلامي في القرن السابع الميلادي بصفتهم أقليةً تنعَم بالحماية وإن كانت تتعرض أحيانًا للاضطهاد. حصل هؤلاء اليهود على حقوق متساوية على يد الإدارة الأوروبية لكنهم فقدوها على يد حكومة فيشي والقوات الفاشية في ليبيا وتونس. وطُرِد اليهود من كل المؤسسات الحكومية ومن المدارس واقتيدوا إلى معسكراتٍ للأشغال الشاقة، وفي بعض الحالات كان يُفرض عليهم أن يضعوا نجمةً صفراء على ثيابهم. وكان العديد منهم سيتعرَّض للإبادة لولا عملية «الشعلة»، ولهذا السبب رحَّب اليهود بالأمريكيِّين ونظروا إليهم باعتبارهم محرريهم. ولم تشاركهم الأغلبية المسلمة هذه الحماسة والترحيب، وقاومت بقوة أيَّ محاولات لإلغاء القوانين المناهضة لليهود. وعندما جاء إيه جاي ليبلنج، مراسل جريدة «نيويوركر»، إلى مدينة الجزائر، قال إنه نُظر إلى كل إشارات الترحيب بالمجندين الأمريكيِّين على أنها «أمثلة للذوق اليهودي الكريه»، وأنه «كانت هناك منافسة عنيفة على تدمير منازل اليهود». وأدَّى هذا الغزو أيضًا إلى سلسلة من المذابح لليهود في الدار البيضاء، حيث ظن العرب خطأً — حسبما وردَ على لسان كينيث كراوفولد المحرِّر بصحيفة «ذا نيشن» — أن بعض المجندين الأمريكيِّين الذين يقودون سياراتٍ مزينةً بنجوم العلم الأمريكي هم «جنود يقاتلون تحت راية نجمة داود»، ورأوا وجوبَ القضاء عليهم بالقوة.

وكانت مسألة إعادة اليهود إلى وضعِ ما قبل الحرب تمثل للولايات المتحدة المعضلةَ الأولى بين العديد من المعضلات التي واجهتها باعتبارها قوةً شرق أوسطية، مما اضطرها إلى تفضيل مصالحها الاستراتيجية القصيرة المدى على مُثُلها وقيَمها الديمقراطية الأساسية.

وأرسل باتون لأيزنهاور يقول: «العرب لا يمانعون وجود المسيحيِّين، لكنهم يحتقرون اليهودَ تمامًا. إذا حابَيْنا ... اليهودَ فسنكون قد أثرنا المتاعب وربما حربًا أهلية.» وفي وزارة الخارجية حذَّر موراي من أن منح اليهود أيَّ مزايا غير مستحقة سيؤكد ادعاءات النازيِّين بأن الحلفاء يهدفون إلى فرض الحكم اليهودي على شمال أفريقيا، مما سيحرِّض السكان المحليِّين على الثورة. بالإضافة إلى أن الفرنسيِّين قد رفضوا أيضًا فكرةَ إعادة اليهود إلى وضعهم السابق. وقال الحاكم العام للمغرب — أوجست بول نوجيس — لروزفلت معربًا عن أسفه: «سيكون من المحزن للفرنسيِّين أن ينتصروا في الحرب لمجرد أن يفتحوا الطريق أمام اليهود للسيطرة على عالَم المهن والأعمال في شمال أفريقيا.» ووافقه الرئيس على ذلك، واقترح بلؤم أن يُمنع عددٌ كبير من اليهود من مزاولة المهن الطبية والقضائية «لوقف تكرار الشكاوى التي يقدِّمها الألمان ضد اليهود في ألمانيا». ومن جانبه كان أيزنهاور مقتنعًا بأن قوات الحلفاء لا يمكنها أن تُظهِر رغبتها في تحقيق العدل لليهود وتفوز في الحرب في الشرق الأوسط في آنٍ واحد. فقال القائد لزوجته مامي: «إن الهدف من كثير من الأمور التي تحدُث هنا وتبدو غريبةً هو منع اندلاع ثورة العرب. فنحن نجلس على فوَّهة بركان يغلي.» ومع أن الولايات المتحدة أنقذت يهود شمال أفريقيا من الترحيل، فإنها لم تُعِدْ لهم قط حقوقهم كما كانت في فترةٍ ما قبل الحرب.

كانت متطلبات النفوذ قد اضطرت الولايات المتحدة إلى التخلي عن سياستها المستوحاة من الإيمان التي اتبعتها منذ عهد الرئيس لنكولن، وهي سياسة حماية يهود شمال أفريقيا. ومع ذلك، فمثلما مكَّنت هزيمة دول البربر الولايات المتحدة من التركيز على أعمالها التعليمية والطبية في الشرق الأوسط، فإن تقهقر قوات المحور مهَّد الطريق نحو العودة إلى وضعٍ أمريكي تحكمه المبادئ. فقال هال: «إنَّ قرنًا كاملًا من العمل التبشيري الأمريكي والمجهودات الخيرية والتعليمية التي لم تدنِّسها أيُّ دوافع أو مصالح مادية كانت قد أثمرت عن نوايا حسنة تجاه الولايات المتحدة» وقناعة راسخة بأن أمريكا ستقود المنطقة إلى الاستقلال. والآن، وبكل هدوء، كان المسئولون العسكريون والمدنيون الأمريكيون قد بدءوا في تحقيق تلك التوقعات.

كان ذلك التغيير واضحًا للغاية لدى روزفلت. فعندما كانت لديه حريةُ الاختيار بين السياسات الموالية للاستعمار التي اتَّبعها ابن عمِّه تيودور، أو السياسات القائمة على قيم التحرير المثالية التي كان يتبعها سلفُه وودرو ويلسون، كان الرئيس يختار دائمًا الخيار الأخير. وتمثل هذا التفضيل في ميثاق الأطلسي الذي وضع إطاره بالاشتراك مع تشرشل

رئيس وزراء بريطانيا العظمى في يوليو عام ١٩٤١، والذي كان يقضي بحماية كل شعوب العالم من الغزو الأجنبي ويَعِدها بمنحها حقَّ الحكم الذاتي. ومع أن تشرشل قد طبَّق تلك الضمانات على الدول الأوروبية المحتلة فقط، فإن روزفلت أصرَّ على أنها تنطبق على جميع الشعوب، ومن بينها شعوب الشرق الأوسط.

لم يضيِّع روزفلت وقتًا في تنفيذ تفسيره لميثاق الأطلسي. فمنذ يناير عام ١٩٤٣ في مؤتمر قادة الحلفاء المنعقد في الدار البيضاء، دعا روزفلت السلطان محمد الخامس إلى العشاء. وحضره أيضًا ولي العهد الحسن الثاني، بالإضافة إلى تشرشل ونوجيس وإليوت ابن الرئيس الأمريكي. وكانت تلك هي المرة الأولى تحت الحكم الفرنسي الاستعماري التي يقابل فيها عاهلٌ مغربي رؤساءَ دول من غير الفرنسيين، فكان نوجيس يتابع السلطان بقلق وهو يثير مع روزفلت عددًا من المسائل السياسية. وتساءل كيف يمكن للمغرب أن يحافظ على ثروته القومية، ومن ثَمَّ يرفع المستوى الصحي والتعليمي لشعبه؟ ونصح الزعيم الأمريكي المغربَ بأن يتبنى إجراءاتٍ تمنع «رجال الأعمال الفرنسيِّين والبريطانيِّين من إخراج خيراته إلى الخارج»، ولمَّح إلى أن سياسات أمريكا تجاه قضايا الاستعمار «ستختلف جذريًّا» في فترةِ ما بعد الحرب عن ما قبلها. أما تشرشل — الذي كان غاضبًا بسبب عدم وجود أي مشروبات كحولية على المائدة — فقد سعل بصوتٍ عالٍ وحاول تغييرَ الموضوع. ولكن السلطان، الذي كان ضئيل الحجم لكنه قوي العزيمة، لم يَلِن. فتساءل عمَّا يعنيه الرئيس «باختلاف جذري». ودقَّق روزفلت في كوب الماء الموضوع أمامه، واقترح أن تقوم الشركات الأمريكية بالتنقيب عن النفط في المغرب، وأن يُدَرَّب مهندسون مغاربة في الولايات المتحدة، وأن يقوم الكونجرس الأمريكي بعد الحرب بتقديم مساعدات مالية كبيرة للمغرب. وكان محمد الخامس في غاية السعادة. وصاح: «مستقبل جديد لبلادي!» وعلَّق إليوت على ذلك الموقف قائلًا: «كان تشرشل متجهمًا، يقضم سيجاره، ويتمتم محاولًا ألا ينصت إلى الحديث الدائر.»

ومع أن المغرب لم يحصُل على وعود محدَّدة، فإن المغاربة كانوا مقتنعين بأن روزفلت قد ضمِن لهم استقلالهم. وبقدرٍ ضئيل من السرية والكتمان بدأ القادة المغاربة — مثل الصدر الأعظم محمد المقري، والناشطَين الوطنيَّين محمد اليزيدي وأحمد بلافريج — يتقرَّبون من المسئولين الأمريكيِّين طالبِين مساعدتهم السياسية. وفي الجزائر أيضًا كان البطل القومي فرحات عباس يمدح دورَ الولايات المتحدة في ضمان حرية بلاده، وفي تونس كانت الجماهير تحتشد على الطريق لتحية المجندين الأمريكيِّين القادمين إلى البلاد.

ويتذكر المراسل الحربي الشهير إرني بايل أن «مئات المزارعين العرب كانوا يحيُّون الجنودَ أو يشيرون بأصابعهم بعلامة النصر. وعن طريق قيادتي السيارة نصفَ يوم فقط رأيت علاماتِ نصرٍ أكثرَ مما شاهدته طوال الفترة التي قضيتها في إنجلترا.»[4]. ولم تَعُد شعوب شمال أفريقيا غيرَ مبالية بالوجود الأمريكي، بل كانت الآن ترحِّب به باعتباره المرحلة الأولى في خلاصهم النهائي من فرنسا.

لم يتصرَّف روزفلت تصرُّفًا من شأنه أن يغيِّر من ذلك المنظور، وفي الفترة ما بين مؤتمر الحلفاء في الدار البيضاء ومؤتمرَي القاهرة وطهران نهاية عام ١٩٤٣، أمر روزفلت بإعداد استقصاء شبه سري للحركات الوطنية في الشرق الأوسط. وترأس تلك الدراسة باتريك هيرلي، وهو شخصٌ اجتماعي مفتول العضلات من أوكلاهوما مفتون بقبَّعات رعاة البقر وأحذيتهم؛ كان هيرلي جنرالًا ووزيرًا سابقًا للحرب، تدرَّج من العمل في المناجم إلى أن اشتُهر محاميًا ودبلوماسيًّا ومدافعًا عن حقوق الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليِّين. ولأن روزفلت كان لا يثق في قدرة وزارة الخارجية على إمداده بتقييم موضوعي عن الشرق الأوسط، فقد عيَّن هيرلي مبعوثًا شخصيًّا له في المنطقة. وعن ذكرياته قال الجنرال: «كانت مهمتي هي استقصاء الحقيقة من أرض الواقع.» وبعد أن قطعَ رحلةً طولها ثلاثة آلاف ميل من شمال أفريقيا إلى الهلال الخصيب والخليج العربي، كشف هيرلي بالفعل عن الكثير من حالة الغليان الوطني التي كانت تدور تحت سطح الشرق الأوسط، وعن الكثير من التحديات التي واجهتها أمريكا في التوصُّل إلى توازنٍ بين قوَّتها العسكرية وإخلاصها لمبادئها.

وقال هيرلي للوزير الأول المغربي: «إن رئيسنا — مثله مثل الشعب الأمريكي — يعترف بالقيادة الأخلاقية للمسيح»، مؤكدًا له أن الولايات المتحدة ستقف إلى جانب المسلمين الذين يخشون الله أمام تهديد الشيوعية الملحدة. لكنه أيضًا أبلغ بن جوريون أن الولايات المتحدة لن تتعاون في عملية تهجير مليون عربي — وهي حسب رأيه النتيجةُ الحتمية لتكوين دولة صهيونية — وأن «أمريكا لا يمكن أن تلتزم بالتفسيرات اليهودية لنصوص العهد القديم». وقد أكَّد هذه النقطة نفسها بصورة أوضحَ لابن سعود، واعدًا إياه بأن حكومته لن تدعَم استقلال اليهود بفلسطين أبدًا، وشاركه قلقه بشأن «بعض اليهود الأغنياء ذوي النفوذ والسلطة الذين يسيئون استغلالَ حرية التعبير في أمريكا للقيام بحملات دعائية لليهود». وفي خُطبة رسمية أمام الملك، عبَّر هيرلي — وهو بزي الأمراء العرب — عن ثقته بأن السعوديِّين يومًا ما سيكونون الدافع وراء تأسيس اتحاد للدول العربية يقوم على «مبادئَ شبيهةٍ بتلك الموجودة في الدستور الأمريكي».

وتابع هيرلي مهمتَه، فزار مصر ولبنان وسوريا، مدققًا في أخذ البيانات ومقدِّمًا ملاحظاته. ولكن أهم مساهماته كانت تتمثل في أكبر منطقة غير عربية زارها. كانت أمريكا تنظر إلى إيران عادةً «بعدم اهتمام بالحصول على صداقتها» حتى جاء أغسطس ١٩٤١، عندما كانت بريطانيا والاتحاد السوفييتي يحتلانها. ومنذ ذلك الحين أصبحت إيران «معبرًا» لنقل نحو ٥ ملايين طن من المؤن والذخيرة إلى الجبهة الشرقية المحاصَرة، وهو مجهود اشترك فيه ثلاثون ألف جندي أمريكي. ومع ذلك فقد اتبعت أمريكا سياسةَ تجنُّب التدخل في الشئون الداخلية لإيران. ولذلك لم يستجِب روزفلت لمناشدات القادة الإيرانيِّين لمساعدتهم على التحرُّر من الاحتلال الأجنبي. وصل هيرلي إلى إيران في نوفمبر عام ١٩٤٣، وأقام في السفارة السوفييتية بدلًا من قصر محمد رضا شاه، وهو قرارٌ أثار الكثير من الامتعاض داخل إيران. ولكن هيرلي لم يواجه صعوباتٍ مع الإيرانيِّين أو حتى مع الروس. ولكنه كان ينظر إلى البريطانيِّين باعتبارهم التهديدَ الأكبر لمهمته ولنجاح سياسة أمريكا في الشرق الأوسط بصفة عامة.

وفي حين كان هيرلي في غاية التحفظ فيما يخصُّ إظهار مشاعر الكراهية التي يكنُّها للشيوعية، فإنه كان ليبراليًّا يجاهر ببغضه الشديد للاستعمار. وقد قرَّر أن «اقتصاد الإمبريالية الاستعمارية هو اقتصادٌ متعفِّن بطَل استعماله، وقد فشل أن يكون نظامًا اقتصاديًّا»، وتساءل: «هل يمكن تبرير تعدي دولةٍ ما على حقوق دولة أضعف منها بمبررات الجشع أو الطمع أو الحاجة الماسَّة؟» وكان هيرلي يمتلك بالطبع إجابةً قاطعة عن هذا السؤال. وبسبب غضبه من أحد كبار المسئولين البريطانيِّين أخبره أن «المجاعة هي أسهلُ طريق لقمع الإيرانيين»، بدأ هيرلي في وضع مسوَّدة لاستقلال إيران. فكتب يقول: «إن هدف الولايات المتحدة هو دعمُ إيران دولةً حرة، ومنْح الشعب الإيراني فرصةَ التمتُّع بحقوق الإنسان كما وردت في الدستور الأمريكي وميثاق الأطلسي.» ولهذا الغرض اقترح هيرلي الاستثمار بكثافة في مجالات الصناعة والنقل في إيران، مع إرسال خبراء أمريكيِّين للمساعدة في تكوين مؤسسات ديمقراطية. وكان هيرلي يؤمن بأن إيران عندما تحقق النجاح المنشود يمكنها أن تكون النموذج والمثال لسياسات أمريكا في فترةٍ ما بعد الحرب، داعيةً «إلى تأسيس حكوماتٍ حرة واقتصاد حر»، ووضع حدٍّ «للاستغلال والاستعمار» في جميع أنحاء العالم.

كان روزفلت من أشد الدعاة حماسةً لمفهوم هيرلي عن «سياسة أمريكية غير أنانية». فقال لابنه إليوت: «النظام الاستعماري يعني الحرب.» ولكن كان البريطانيون أقلَّ ترحيبًا

بهذه الخطة بالطبع، وحتى وزارة الخارجية الأمريكية اعتبرتها «هوسًا بإنقاذ العالم».[5] أفاق روزفلت على هذه الاستجابات، فانضم إلى تشرشل والزعيم السوفييتي ستالين في تأكيد استقلال إيران باستخدام كلماتٍ مبهمة، لكنه فيما عدا ذلك لم ينفِّذ شيئًا من مقترحات هيرلي. رغم كراهية الرئيس الأمريكي للاستعمار في الشرق الأوسط وغيره من المناطق، فإنه كان واقعيًّا؛ فقد كانت الولايات المتحدة لا تزال تخوض حربًا ولا تزال بحاجة إلى حلفائها.

ومع ذلك فحتى بعد أن أظهرت الولايات المتحدة مخالبَها العسكرية في غرب أوروبا والمحيط الهادي، استمرَّت في الترويج لمسألة الاستقلال الوطني في الشرق الأوسط. وتقابل «المستعرب» وضابط مكتب الخدمات الاستراتيجية كيم روزفلت مع الزعماء الوطنيِّين المصريِّين، ووعدهم «بصفقة جديدة» من الحرية. وقال روزفلت — حفيد الرئيس الذي كان قد مدح احتلال بريطانيا لمصر — للملك فاروق: «ستكون أولَ حاكم لمصر حرة بعد ألفي عام من الاحتلال.» وفي تونس مدَّ القنصل الأمريكي — الذي يحمل اسمًا بغيضًا هو هوكر دوليتل، وهو شخص أرستقراطي ذو شعر أبيض — إطارَ الحماية الأمريكية على الزعيم الوطني التونسي الحبيب بورقيبة، الذي سعى الفرنسيون إلى اعتقاله. واستمر الفرنسيون في مطاردته إلى أن ساعد دوليتل في مارس عام ١٩٤٥ بورقيبة على الفِرار إلى مصر حيث الأمان، ثم منحه تأشيرة دخول للولايات المتحدة لحضور افتتاح مقر الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو.

وكانت أوضح مظاهر المساندة والدعم الأمريكي لتحرير الشرق الأوسط من الاستعمار قد ظهرت في سوريا ولبنان. فمع أن الولايات المتحدة كانت رسميًّا تساند حكومةَ فرنسا الحرة التي ثبَّتتها بريطانيا عام ١٩٤١، فإن الجامعة الأمريكية ببيروت ظلَّت «مهد القومية العربية المناهضة للفرنسيِّين» حسبما جاء على لسان رئيسها بايارد دودج. وكانت الثورات قد بلغت مداها في المطالبة بإنهاء الانتداب الفرنسي، وتردَّد صداها أخيرًا لدى إدارة الرئيس روزفلت، التي أعلنت في نهاية عام ١٩٤٣ بأن شعبَي لبنان وسوريا «مستعدان لبذل جهد ملموس في إدارة شئونهما إذا مُنحا الفرصة لذلك». ولكنَّ الفرنسيِّين لم يوافقوا على هذا الرأي، واعتقلوا القادةَ اللبنانيِّين الذين أعلنوا استقلالهم من جانب واحد. وغضب الرئيس روزفلت غضبًا شديدًا، وضغط على ديجول للإفراج عن المعتقلين فورًا، ثم أعلن اعترافه بسيادة لبنان فيما بعد.[6]

وعلى الرغم من الضغوط العسكرية والسياسية أثناء فترة الحرب، فإن الولايات المتحدة دعَّمت الحركات الوطنية الساعية إلى الاستقلال في جميع أنحاء الشرق الأوسط،

من المغرب حتى إيران. ولم يكن بإمكان الأمريكيِّين أن يوجِّهوا طاقاتهم الكاملة لتحرير الشرق الأوسط حتى يكتمل لهم النصر في أوروبا. وفي تلك المدة كانوا يسعون إلى دعم شعوب المنطقة ومساندتها عن طريق أكبرِ مشروع تنموي شهده العالم، وباتباع أدق التوازنات بين قوة أمريكا من ناحية، وبين مُثُلها وقيَمها من ناحية أخرى.

تحويل السيوف إلى شفرات للمحاريث

مساحة الشرق الأوسط تزيد عن مساحة الولايات المتحدة؛ إذ تبلغ مساحته أربعة ملايين ميل مربع، تمتد من المغرب إلى شبه الجزيرة العربية ومن الصحراء السودانية حتى إيران، ويقطنها سبعون مليون نسمة؛ كان ذلك هو المدى الهائل لِما عُرف باسم «مركز تموين الشرق الأوسط». أسَّسته بريطانيا في ربيع عام ١٩٤١، لحماية قاطني الشرق الأوسط من مجاعات الحرب العالمية الثانية المدمِّرة وحتى تظل شعوب المنطقة معتمدة على سلع الحلفاء وليس سلع دول المحور. وقد أدار البريطانيون عمليةَ التوزيع؛ أما الإمدادات التي كانت أطنانًا لا تُحصى من السلع الغذائية والمنسوجات والآلات الزراعية والمعدات الثقيلة فكان معظمها يأتي من الولايات المتحدة. وفي توجيهاتٍ رسمية رئاسية صدرت قبل عدة أشهر من الهجمات اليابانية على بيرل هاربور، سمح روزفلت بزيادة ضخمة في الإمدادات المرسَلة إلى المنطقة وفقًا لقانون الإعارة والتأجير، كما سمح بتأسيس قاعدتين؛ إحداهما في البصرة والأخرى في القاهرة للإشراف على توصيل هذه الإمدادات إلى المنطقة. على أن الولايات المتحدة لم ترسل ممثلًا رسميًّا عنها إلى المقر الرئيسي لمركز تموين الشرق الأوسط في مصر إلا في شهر يوليو عام ١٩٤٢، ولكنه لم يكد يصل حتى رحل مع الضباط البريطانيِّين الفارين من الهجوم الألماني.

تغيَّر موقف أمريكا تجاه إمدادات الشرق الأوسط وسياساتها فيما يخص الحركات الوطنية المحلية، في أعقاب عملية الشعلة واستسلام فيلق أفريقيا الألماني. وفي الوقت الذي استمر فيه البريطانيون في النظر إلى مركز تموين الشرق الأوسط باعتباره إطارًا للحفاظ على هيمنتهم الإقليمية، تغيَّرت نظرة الولايات المتحدة له باعتباره أداةً لتطوير الشرق الأوسط وتنميته، ولتحقيق اكتفائه الذاتي وبحيث يحقِّق في نهاية الأمر استقلال المنطقة من الاستعمار. جسَّد هذا التحول جيمس ماكولي لانديس، الذي أصبح أولَ مدير أمريكي لهذا المركز، كما جسَّد بزوغ نجم الولايات المتحدة في المنطقة.

كان لانديس مثالًا للكثير من الأمريكيِّين الذين خدموا في الشرق الأوسط، فقد كان ابنًا لمبشِّرين، وخريجًا في جامعة برنستون، يمقت الاستعمار الأوروبي ويعارض أهداف الصهيونية. وعلى عكس زملائه في وزارة الخارجية، الذين قضى العديد منهم سنواتٍ طويلة في المنطقة، لم يكن للانديس أيُّ احتكاك سابق بالسياسة في الشرق الأوسط، بل كان مؤهلًا للعمل محاميًا، ومن قبيل المفارقة أنه كان تلميذًا لبرانديس وفرانكفورتر. كان محاميًا متميزًا وعميدًا لكلية الحقوق بجامعة هارفارد، وقد هجر العمل بالمحاماة ليصبح رئيسَ لجنة الأوراق المالية والبورصات، كما ترأس هيئةَ الدفاع المدني، وأصبح من أشد أنصار «الصفقة الجديدة» التي أعلن عنها روزفلت. كان لانديس من كبار المسئولين وذا مظهر أنيق، يهوى الملذات والمتع الحسية، وكان ممتلئ الشفاه وذا حاجبين مرتفعين وعينين تعبِّران في الصور الفوتوغرافية التي التُقطت له عن الغطرسة، على أنه في الوقت ذاته كان لا يَكل ولا يَمل الدفاع عن حقوق الأقليات وتحقيق العدالة الاجتماعية. أقرَّ لانديس قائلًا: «لقد اتُّهمت بأنني شيوعي واشتراكي. ولكن … هدفي هو أن أسير بهذا النظام الرأسمالي لما يجب أن يكون عليه.»

لم يزعج مشاعرَ لانديسي النبيلة شيءٌ قدْرَ ما أزعجته تلك المشاهد التي رآها في الشرق الأوسط. إذ صُدم بشدة بعد توليه منصبَه في أكتوبر عام ١٩٤٣ عندما رأى مشاهدَ المرض والفقر التي قابلها في عواصم الدول مثل القاهرة وبغداد ودمشق، وكمَّ التبذير الهائل في مركز تموين الشرق الأوسط. فاشتكى قائلًا: «المشكلة هي أننا ليس لدينا سياسة في الشرق الأوسط. فالشرق الأوسط لم ينَل الاهتمام الكافي من سياستنا الخارجية.» وأضاف أن العالم العربي كان مليئًا «بالطموحات الديمقراطية»، ولكن بدلًا من تحقيقها، كانت الولايات المتحدة تساعد الاستعمارَ على قمعها. وتساءل لانديس: «هل سنقف مكتوفِي الأيدي ونقول للعرب حاربوا معركتكم وحدَكم، أم سنساعدهم على تحقيق مصيرهم الشرعي؟»

وفي ردٍّ حاسم بدأ لانديس في فحص مركز تموين الشرق الأوسط بدقة، وبدأ بمشروعات إقليمية واسعة النطاق، مثل نقل القمح الإثيوبي إلى المملكة السعودية، ومكافحة آفة الجراد في مصر، والقيام بعمليات إنزال جوي لنقل أدوية منقِذة للأرواح إلى إيران، وفي الوقت ذاته كان يشجع سرًّا الحركات القومية في المنطقة. وقد تمكَّن الاقتصاديون الأمريكيون من كسرِ الاحتكار البريطاني وفتح أسواق أمام رجال الأعمال المحليِّين ولا سيما في القاهرة حيث نجح لانديس في مصادقة الملك فاروق الممتلئ الجسد ذي التصرفات الطفولية (حيث كانا يستمتعان برشِّ بعضهما بعضًا بالخمور). وأكَّد

لانديس أن «انتشار السلطة والتخلُّص من الأمور البيروقراطية غير اللازمة في العالم» أمرٌ ضروري للاستقلال.

كان لدى لانديس آمالٌ عريضة من أجل الشرق الأوسط، لكنه كان واعيًا أيضًا بأخطارها. ففي ٦ نوفمبر ١٩٤٤، رفض بأسلوب مهذَّب عرضًا من اللورد موين، الوزير البريطاني في مصر بأن يصعد في سيارته لتوصيله، وما حدث هو أن الوزير البريطاني اغتيل بإطلاق النار عليه بعد ركوبه السيارةَ بقليل على يد متطرفين يهود من فلسطين معارضين لسياسة بريطانيا. أما في إيران فكانت عمليات الإغاثة الأمريكية تتعطل باستمرار بسبب الدسائس البريطانية والروسية، وبسبب القتال والتناحر الداخليَّين. وقد حاول أحد المستشارين الأمريكيِّين للحكومة الإيرانية، وهو العدواني والمستبد آرثر ميلزبو، القيامَ بإصلاحات شاملة للنظام المالي والضريبي لإيران، فواجه مقاومةً شاملة من قِبل أصحاب الأراضي والموظفين ودعاة التحرر الوطني الذين كان يقودهم محامٍ شابٌّ اسمه محمد مصدَّق. وأعلن ميلزبو بعد تقديم استقالته بقليل: «الحكومة الإيرانية هي حكومة الفاسدين وصنيعة الفاسدين وتخدم الفاسدين.»[7]

ومع ذلك فقد حقَّق لانديس وغيره من الأمريكيِّين تقدُّمًا ملحوظًا، وإن لم يكن يرقى إلى إنجازاتٍ خارقة في العديد من مناطق الشرق الأوسط. فقد زادت فلسطين مثلًا وارداتها من الدول العربية المجاورة بنسبة ٣٠٪. في حين قامت بعثةُ تنفيذ أحكام القانون برئاسة الكولونيل إتش نورمان شوارتسكوف — وهو والد جنرال أمريكي سيلعب أيضًا دورًا حيويًّا في الشرق الأوسط فيما بعد — بتحديث قوة الشرطة الإيرانية.[8] ولاحقًا سيُرجِع بعض المؤرخين الفضلَ لمركز تموين الشرق الأوسط في تقديم نموذج المؤسسات الإقليمية المستقبلية، ومنها الجامعة العربية، التي تأسَّست في مارس ١٩٤٥ بمباركة أمريكا.

وحيث أصبح أكثر تأثُّرًا بالإنجيل، أعلن لانديس قُربَ نهاية الحرب: «آنَ الأوان أن نطبع سيوفنا سككًا.» ولأن صانعي السياسات كانوا قد قدَّموا إسهامات كبيرة في التنمية الاقتصادية للشرق الأوسط، فقد وجَّهوا اهتمامهم في واشنطن إلى حماية المصالح الأمريكية في المنطقة، وأهمها المتطلبات العالية للوقود أثناء الحرب. فلكي تتحرَّك كتيبة دبابات أمريكية مسافة مائة ميل مثلًا، كانت تحتاج إلى ١٧٠٠٠ جالون من النفط، في حين استخدم الأسطول الخامس ٣٫٨ مليارات جالون من الوقود في العام الواحد. لذلك قامت الولايات المتحدة بجهود مكثفة لشراء النفط من إيران، وهي الجهود التي أحبطتها روسيا وبريطانيا والمعارضة الوطنية. فلم يتبقَّ أمام الولايات المتحدة إلا بديل واحد فقط للحصول على النفط من المنطقة، هذا البديل هو المملكة العربية السعودية.

كثيرًا ما نظر واضعو السياسات الأمريكية إلى المملكة السعودية على أنها من أعظم الممالك تأثيرًا ونفوذًا في العالم الإسلامي، وفي ذات الوقت فقد اشتُهرت المملكة السعودية بأنها المصدر الرئيسي للنفط الذي تحصُل عليه الولايات المتحدة من الشرق الأوسط. ومع أن المملكة لم تَعُد مهدَّدة من جانب دول المحور فإنها ظلت محورَ اهتمام شركات البترول البريطانية الساعية نحو احتكار نفطها. وبناءً على قناعةٍ بأن «النفط السعودي يمثل أحدَ أهم ثروات العالم، وأن هناك منافسةً سرية بغيضة تسود الشرق الأوسط لتوزيع هذه الثروة»، أوصى وزير الخارجية هال باتخاذ إجراءات طويلة المدى لدعم وضع أمريكا في الرياض. وكانت مهمةُ تنسيق تلك الخطوات قد انتهت إلى وزير الداخلية، هارولد أيكس، أولِ قياصرة الطاقة في أمريكا.

كان أيكس باعترافه سريعَ الغضب ومعارضًا لهيمنة الشركات الكبيرة، لكنه مع ذلك كوَّن علاقة حميمة مع شركات البترول الأمريكية العاملة في المملكة السعودية. وتحت رعايته حصلت شركة أرامكو (خليفة شركة كاسكوك) على تصريح يسمح لها بمدِّ مئات الأميال من خطوط أنابيب نقل النفط للربط بين مصافي التكرير السعودية بالبحر المتوسط والبحرين، وبدأ الجيش الأمريكي في بناء قاعدة جوية بالقرب من مستودع نفط أمريكي بالظهران. واستُدعي كارل تويتشيل، مهندس العلاقات الأمريكية السعودية، مرةً أخرى للقيام بمسحٍّ مكثَّف للكشف عن المياه في الصحراء حول مدينة الرياض، وتولَّى ويليام إيدي منصبَ أول سفير أمريكي مفوَّض في الرياض. ولكن أكثر إسهامات أيكس الملموسة كانت الحصول على الموافقة على مدِّ المساعدات الممنوحة وفقًا لقانون الإعارة والتأجير لتشمل المملكة العربية السعودية. وعلَّق هاري هوبكنز بقلق: «لا أعرف كيف يمكننا أن نطلق على ذلك ديمقراطية؟» ولكن أيكس، بالتعاون مع خبراء وزارة الخارجية ومسئولي النفط، انتصروا عليه.[9] وبسبب التزامهم بمصالح الشركات ذات النفوذ والأصوات المؤثِّرة في الحكومة تدعمها ملايين الدولارات في مجال البناء والمساعدات المالية، أُبرِمَ تحالفٌ بين الولايات المتحدة والمملكة السعودية.

وفي جميع أنحاء الشرق الأوسط نجحت الولايات المتحدة في تحويل الأسلحة إلى أدوات زراعية وبِنية تحتية صناعية. ومع كثير من التشجيع الخفي والعلني للحركات الوطنية التحررية أعدَّت الدفعة الأمريكية للتنمية السياسية والاقتصادية المنطقةَ لمقاومة الاستعمار ولتحمُّل أعباء الاستقلال. وكانت القوة العسكرية قد امتزجت بمُثُل ومبادئ المساواة لإعداد شعوب المنطقة لتتولي مسئوليات جديدة وللتواؤم مع الواقع الجديد. ولكن كانت الفجوة

بين الشرق الأوسط الواقعي والمثالي للعديد من الأمريكيِّين العاملين في المنطقة لا تزال واسعة للغاية. فقد لقي الآلاف من المجندين الأمريكيِّين حتفَهم في ساحات المعارك الجافة المتربة، وكذلك لقي كثير من الخرافات والأساطير حول المنطقة المصير نفسه.

مزجٌ بين الإنجيل وهوليوود

نَشر الرسام بيتر أرنو رسمًا كاريكاتيريًّا عشيةَ الحرب العالمية الثانية بجريدة «نيويوركر»، على شكل عربة أمريكية فارهة تسير بسرعةٍ في أرضٍ شرق أوسطية بها مآذن وقباب، وتمرُّ بجانب رجل عربي ذي لحية وأنف معقوف وهو ساجد يصلي. يجلس في السيارة اثنان من الأمريكيِّين: سيدة أنيقة ترتدي قبعةً مستديرة وزوجها يرتدي هو الآخر قبعةً على شكل خوذة من القش. ودون أن يتوقَّف يصيح الأمريكي في العربي قائلًا: «يا رجل، أيُّ الطرق يؤدي إلى مكة؟» وقد نجح الرسم الكاريكاتيري في توصيل معاني التعالي والنقد الذاتي في آنٍ واحد، مستخدمًا صورًا شعبية وخرافية للغاية للمنطقة دعائمَ لتوضيح الجهل الأمريكي بشعوب المنطقة وثقافاتها. وسرعان ما واجه الأمريكيون مشاهدَ أكثرَ قربًا لحقيقة الشرق الأوسط عندما قادوا سياراتٍ رباعية الدفع ونصف النقل، وكانت خوذاتهم هذه المرة من الحديد. وفي وسط فوضى القتال وفي بيئةٍ غريبة عليهم كانوا هم أيضًا بدورهم يسعون إلى البحث عن طريق للوصول إلى مكة، وإلى تونس والقاهرة وطهران أيضًا.

وباستثناء أغانٍ شهيرة لِفرق غنائية كبيرة، مثل أغاني «كارافان» و«ليلة في تونس» وعرض أفلام رومانسية مثل «كازبلانكا» و«علي بابا والأربعون حرامي»، فإن الأمريكيِّين في أربعينيات القرن العشرين لم يكن لديهم في الحقيقة أيُّ احتكاك آخر بالشرق الأوسط. قالت إحدى النشرات التي أصدرتها وزارة الحرب محذِّرة مجنديها في العراق: «لقد شاهدتم أفلامًا عن الحياة الزاهية في الصحراء وعن أسواق الشرق. لكنكم عندما تصلون إلى هناك ستبحثون بلا جدوى عن الأشياء التي توقعتموها. ستلمسون وتستنشقون الكثيرَ من الأشياء التي لم تحذِّركم الأفلام منها.» ودون وعي لهذا الواقع كان الجنود يتلقَّون أوامرهم بالذهاب إلى المنطقة بما يشبه فرحة الأطفال. فقد تخيَّل المراسل الحربي سيسيل براون أنه سينتقل إلى عالم «علاء الدين والبساط السحري» وكان إيراسموس كلومان، وهو قائد بمكتب الخدمات الاستراتيجية، يرى مصر باعتبارها «بلد العجائب». لم تختلف هذه الأحلام عن أحلام طفل حقيقي، هو نورمان شوارتسكوف الذي كان في العاشرة

من عمره وتصوَّر والده مسافرًا إلى «مكانٍ سحري بعيد، إلى بلد ألف ليلة وليلة، حيث يرتدي الناس عباءاتٍ وأثوابًا طويلة ويحملون الخناجر في أحزمتهم ويركبون الجمال عبر الصحراء». وحتى الجنرال باتون قاسي القلب انصاع لرومانسيةِ أول نظرة ألقاها على مدينة الدار البيضاء، قائلًا: «هي مدينة تجمع بين هوليوود والإنجيل.»

ولكن قُدِّر لمعظم هؤلاء الحالمين أن يعيدوا تجربة المسافرين الأمريكيِّين إلى الشرق الأوسط منذ زمن جون ليديارد، ليفيقوا بعنفٍ ويصابوا بالإحباط. فكانت القاهرة مثلًا عند الطيار المقاتل هال مارتنج «بالتأكيد مكانًا قذرًا وآخرَ مكان أتمنى العيش فيه». واشتكى بصورة لاذعة من البيئة المحيطة به، ومن الحر المستمر، ومن رمال الصحراء التي تدخل بين أسنانه ليلًا ونهارًا. وأضاف: «حتى شراب الشعير طعمه مترب.» ولم يجِد الجنرال شوارتسكوف سحرًا ولا أساطير في إيران، وإنما وجد فقرًا وجهلًا وضياعًا فقط. وتساءل رجالُ كتيبة الرقيب إرنست وايتهيد باستمرار: «ماذا نفعل في هذه الحفرة القذرة؟» وتذكَّر وايتهيد أن الإجابة عن هذا السؤال كانت عادة: «الحفاظ على حياة» القوات البريطانية الاستعمارية.

ولكن لم يمرَّ كلُّ الأمريكيِّين بتجربة محوِ أفكارهم المسبقة عن الشرق الأوسط، بل تأكدت تلك الأفكار لدى الكثيرين منهم. فقد فُتن الجنرال كلارك بهندسة قصر السلطان في المغرب، وبالأقواس والفسيفساء الملوَّنة، «مثل صور من حُلم قديم منسي لعلاء الدين». ووجد أيزنهاور أن الجزائر «جميلة وفاتنة» تكلِّلها أشجار النخيل والموز، وأحواض الزهور والجهنمية في «نظام منسَّق وجميل للغاية». وفي مجال الطبوغرافيا لم يبدُ الشرق الأوسط غريبًا للعديد من الجنود الذين وجدوا البيئةَ المحيطة بهم تشبه الغرب الأمريكي كثيرًا. فقال المجند بيل فيلبس الذي ينتمي إلى مدينة تونتيناين بالمس بكاليفورنيا: «هذا المكان يشبه بيئةَ الوطن تمامًا. لكن لا يوجد لدينا عرب.»[10]

ظلَّت كلمة «العرب» للمجندين الأمريكيِّين هي الكلمة الجامعة لكل شعوب الشرق الأوسط. وكانت شكوى المجندين من السكان المحليِّين هي نفسها أيضًا. وكانت الصفات التي نعتوا بها العربَ كما جاء على لسان أحد المراسلين الحربيِّين المتجهمين لا تخرج عن كونهم «عديمي الأخلاق، لا يمتون إلى الجَمال والوسامة بصلة، جاحظي العينين، فاشلين، يبعثون على الأسى». وأضاف لذلك أحد قادة الجيش: «غير مفيدين، لا قيمة لهم، جهلة، غير أمناء ومرضى.» وكان نقص الوعي الصحي أمرًا يثير اشمئزاز الأمريكيِّين بصورة خاصة. فعبَّر الرقيب وايتهيد عن اشمئزازه من استخدام المجاري العامة حمَّاماتٍ، في حين فُجع

جان جوردون بيلتييه الضابط التابع للفرقة الأولى للمشاة من كيفية «عيش الحيوانات في نفس الغرفة مع الناس». ومع معارضة أيزنهاور عامةً للبحث عن أخطاء الغير، فإنه أيضًا صرخ قائلًا: «إن العرب يوجِّهون اهتمامًا قليلًا للغاية للنظافة الشخصية.»

ومثل العديد من الزوار الأمريكيِّين للشرق الأوسط منذ زمنِ سارة هايت وجون لويد ستيفنز، صُدمت الجيوش فيما اعتبروه إساءة معاملة النساء المحليات. فتذكَّر وايتهيد أن «الرجال العرب كانوا يسيرون على الطريق راكبين بِغالهم، ثم تأتي خمس أو ست من نسائهم يسرن أمام البغل، وهن يحملن حمولاتٍ على رءوسهن وظهورهن. جنودنا لم يعتادوا هذا قط». وصُدم آخرون من منظر النساء وهن يسرن أمام أزواجهن راكبي الحمير — وهو إجراء احتياطي منهم ضد الألغام — وذلك حسب قول القائد البحري راي مارس. وظنَّ الجنرال باتون أن «هذا الإذلال التام للنساء من الأسباب الرئيسية لتخلُّف العرب»، وكان السبب الرئيسي لبقاء المسلمين في العصور الوسطى. ولكن بالإضافة إلى هذا الكره للنساء، كان الأمريكيون يحتقرون العرب بسبب نقص معارفهم الفنية، وبسبب تخلُّف أساليبهم الزراعية، والقسوة التي يظهرونها للحيوانات العاملة معهم. فكتب بيلتييه: «الرجال يقضون ثلثي الوقت في ضرب تلك الحيوانات، وثلث الوقت في إدارة المحراث.» على أن أكثرَ ما انتقده الأمريكيون في العرب كان موجَّهًا إلى ميلهم إلى السرقة ونهب مخازن المؤن والتمثيل بجثث الأمريكيِّين. واشتكى أحد المجندين من أن «أثوابهم الفضفاضة الصوفية تمكِّنهم من إخفاء سيارة جيب إذا تُرك لهم وقتٌ كافٍ للعمل على تفاصيل هذا التمويه»، واشتكى آخر قائلًا: «سيسرقون الهواء من إطارات السيارات إذا أُتيح لهم ذلك.»

وكانت قلة الاحترام للسكان المحليِّين تؤدي أحيانًا إلى المساس بشرفهم وتهديد حياتهم. فقال الجنرال باتون عن قائده البريطاني الجنرال أندرسون: «أفضِّل أن يصدر لي عربي أوامره. وأنا أظن أن العرب أقلُّ من لا شيء.» وفي حادث رمزي قيل إنه حدث عند أحد حواجز الطرق خارج القاهرة، أوقف أحدُ رجال الشرطة العسكرية الأمريكيِّين سيارةً سوداء يستقلها مصري أنيق يرتدي طربوشًا. وعرَّف الراكب نفسه بأنه النحاس باشا، رئيس وزراء مصر، ولكن جندي الشرطة العسكرية رفض السماح له بالمرور قائلًا: «قد يكون الأمر كذلك، ولكن، من وجهة نظري، أنت مجرَّد أفريقي ملعون.» وقيل عن مجند آخر أنه قال إنه وزملاءه كثيرًا ما أطلقوا الرصاص على العرب، وأنهم «طرائدُ مستحلَّة مثلهم مثل الأرانب البرية في الولايات المتحدة في موسم الصيد». وقال قائد إنساين مارس

له إنه إذا كان له الخيار بين إطلاق النار على عربي أو حمار، «فاقتل العربي واترك الحمار». وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة ترسل ملايين الدولارات لضمان بقاء أهالي شمال أفريقيا على قيد الحياة، كان طياروها يقتلون الآلاف منهم في غاراتهم الجوية التي كانت تخطئ هدفها.

ومع ذلك فلم يكن كل جنود القوات الأمريكية نافرين أو غير مبالين بالسكان المحليِّين. فقد بذل بعض الجنود مجهودًا لفهم الثقافة المحلية، والتواصل مع هؤلاء «العرب»، وأحيانًا كانوا يصادقونهم. وقدَّمت لنا مذكرات الحرب وصفًا مؤثرًا للجنود العرب الأمريكيِّين الذين كانوا يقومون بدور المترجمين في مناسبات خاصة، وكذلك للجنود اليهود الأمريكيِّين الذين كانوا يحاولون — بلا جدوى — التحدُّث إلى يهود شمال أفريقيا باللغة اليديشية المستخدمة في أوروبا. وكانت أكثر الفئات انجذابًا للمجندين الأمريكيِّين هم أطفال شمال أفريقيا المستفيدين من الكرم الأمريكي المتمثل في الحلوى واللبان. وكان الجنود بدورهم يعبِّرون عن إعجابهم بالطريقة التي يجلس بها القرويون على أعقابهم ويتحدثون في السياسة ساعاتٍ طوالًا، والتي أطلق عليها أحدُ الجنود «الطبعة الصباحية للأخبار اليومية»، أو طريقة رعيهم لأغنامهم أثناء غارات بالقنابل. وعلى عكس ممارسات أمريكية قديمة أصبح بعض الجنود يكنُّون الاحترام للإسلام. فقد اتخذ باتون موقفًا عدائيًّا مما اعتبره إساءةَ معاملة المسلمين لنسائهم، لكنه كان أيضًا يقرأ القرآن ويجده ملهمًا ومثيرًا للاهتمام. وانبهر جانر سبايك ميليجان — ربما بصورة أقل ولعًا — بكيفية «توجُّه العرب نحو مكة عند غروب الشمس ليقوموا بعبادتهم»، مضيفًا أن ذلك «أكثر مما أستطيع قوله فيما يتعلَّق بنا، فالمرة الوحيدة التي نركع فيها تكون لتناول أموال وقعت على الأرض».

وبعد أكثر من سنتين من الخدمة في المنطقة، كان كثير من الأمريكيِّين قد عرفوا اتجاه مكة — على عكس كاريكاتير بيتر أرنو — وكيفية الانتباه إلى ما يجوز وما لا يجوز من القائمة الواردة في كتيب وزارة الحرب، ولكن القليل منهم أصبح يُظهِر التقدير للشرق الأوسط. وعندما سألتهم صحيفة القوات المسلحة، المسمَّاة ستارز أند سترايبس، عما إذا كانوا قد نجحوا في إتقان اللغة العربية، أجاب العرِّيف جيسي هيلارد من مدينة هاسكيل بتكساس، بأنه تعلَّم فقط كلمة واحدة هي «سعيدة» التي يمكن أن تعني من وجهة نظره «أهلًا أو وداعًا أو كيف حالك»، وزعم الرقيب جورج طومسون من إلينوي أن «تعلُّم هذه اللغة يجعل كل تركيز المرء في حلقه». وأثبتَت نساء العرب أيضًا أنهن بعيدات

المنال للغاية. فمع أن النساء السوريات اشتهرن بـ «قوة البنيان»، حسب تقدير المجند تشارلز هيل من فرجينيا، فإنه لم يفكِّر في الزواج بإحداهن. وبرَّر ذلك قائلًا: «خلفيتهن وعاداتهن وتقاليدهن مختلفة للغاية.» ومن ناحية أخرى بدا وكأن الجنود الأمريكيِّين يظنون أنهم قاموا بإسهامات كبيرة في الشرق الأوسط، ليس فقط فيما يخص الطعام والطرق والمصانع، بل فيما يخص الموسيقى، وهذا أهمُّ بكثير في نظرهم. فقد كتبت جريدة ستارز أند سترايبس مقالًا عام ١٩٤٢ بعنوان «بنات فرعون الراقصات يقمن الآن برقصة البوجي ووجي». وجاء فيه:

> «علَّق الرقيب ويليام بيل من مدينة ديترويت بميشيجان قائلًا: «لم يعلِّم أحدٌ قط الفتاةَ الصغيرة موسيقى السوينج، لكنني عرفت على الفور حينئذٍ أننا — نحن الجنود الأمريكيِّين — علينا مهمة ضخمة». والآن، في كل ليلة، عندما تغرُب الشمس ويبزغ القمر، يصدر صوتٌ غريب باتجاه الأهرامات؛ لأن فتيات مصر أصابتهن تلك العدوى. فلم يَعُد من المستغرَب أن نسمع أن إحدى الشرقيات الجميلات اللاتي تتدلى شعورهن على أعينهن وتدبدب أقدامهن حسب الإيقاع يقلن شيئًا مثل: هيا يا جاكسون، لنرقص على إيقاع موسيقى السوينج.»[11]

وربما كان الرقيب بيل يحلُم أن يرقص رقصةَ جيترباج — وهي إحدى أنواع رقصات موسيقى السوينج — تحت سفح الأهرامات، لكن بقرب نهاية شتاء ١٩٤٥ وبانتهاء الحرب في الشرق الأوسط منذ زمن طويل وقُرب نهاية الصراع في أوروبا، كانت مثل تلك الخيالات تتضاءل وتشحب رويدًا رويدًا. كانت الولايات المتحدة تستيقظ على واقعٍ جديد في المنطقة، ليس فيه قصورُ علاء الدين أو راقصات ممتلئات الصدور، لكنه كان ساحةً لسياسات القوى العظمى والتناحر بين الأديان والجاليات، ومنافسة شرسة على النفط. وبناء على وعيه بتلك التغييرات — وبتأثيرها على تميُّز وظهور أمريكا في فترةِ ما بعد الحرب — توجَّه روزفلت نحو الشرق الأوسط.

صرخة على ضفاف البحيرة المرة الكبرى

نُوقش العديد من الموضوعات الملتهبة في يالطا: هيكل الأمم المتحدة، ومستقبل ألمانيا وأوروبا الشرقية، ومسألة التعويضات وجرائم الحرب. ولكن الشرق الأوسط لم يكن من بينها. ومع ذلك فعندما أنهى مؤتمر دول الحلفاء المنعقد على ساحل شبه جزيرة القرم

أعماله في ١١ فبراير عام ١٩٤٥، أذهل روزفلت كلًّا من تشرشل وستالين عندما أطلعهم على خطته لزيارة المنطقة. زعم الرئيس أنه كان مهتمًّا بالشرق الأوسط ولا سيما الوضع في فلسطين، وأضاف أن تعاطفه يتجه الآن تمامًا إلى اليهود. لم يهتم ستالين بالخبر، ولكن تشرشل انزعج بسببه؛ لأنه كان قلقًا بشأنِ ما يمكن أن تخطِّط له أمريكا فيما يتعلق بالإمبراطورية البريطانية. وصُدم أيضًا هنري هوبكنز، ليس بسبب مرض روزفلت الذي شُخِّص على أنه مرحلة متقدمة من مرض بالقلب ونُصح بعدم الذهاب إلى يالطا، والامتناع تمامًا عن الإبحار في البحر المتوسط. أما ما صَدم هوبكنز في الواقع فهو هذه الفكرة التي رفضها تمامًا معتبرًا إياها «لعبة» ومحاولة من روزفلت «للتمتع للغاية بالأبهة التي يعيش فيها حكامُ ذلك الجزء من العالم الذين ... يظنون أن الولايات المتحدة ربما يمكنها علاجُ كل متاعبهم وحل كل مشكلاتهم».

على أن هوبكنز لم يكن على درايةٍ بمدى الخطر الذي يشكِّله الصراع الفلسطيني على مصادر أمريكا الجديدة من النفط، الصراع الذي احتدم أثناء فترات كثيرة في الحرب. وبدءًا من معركة بيرل هاربور وخاصة بعد عملية الشعلة، كانت إدارة الرئيس روزفلت تحاول حثيثًا غضَّ الطرْف عن المأساة التي يعيشها يهود أوروبا، ورغبة البقية الباقية منهم في الوصول إلى فلسطين. فمع انتقاد الرئيس وتحفُّظاته على الوثيقة البيضاء لعام ١٩٣٩، فإنه سعى إلى الحفاظ على جبهة موحَّدة مع بريطانيا، وعلى النيات الحسنة مع العرب الذين كانت عدة آلاف من الأمريكيِّين يخدمون في بلادهم. وقد أكَّد للحاخام ستيفن وايز وغيره من قادة الصهيونية أن أسرع سبيل لحماية يهود أوروبا هو إلحاق الهزيمة بألمانيا النازية. وقال: «طواحين الآلهة تطحن ببطء، لكنها لا تُبقي ولا تذر.»

أما بعض اليهود الأمريكيِّين، فقد تبيَّن لهم أن عملية الطحن هذه أثبتت بطأها الشديد، في الوقت الذي لم يَبدُ فيه روزفلت إلهًا. وبعد أن نجح بيتر برجسون في تخطي معارضة المؤسسة اليهودية الأمريكية، استمر مع مجموعته الشديدة التصميم من يهود فلسطين في إثارة المشاعر من أجل مجهودات إنقاذ حكومية ودعم لا مثيل له للصهيونية، فنشر عددًا أكبرَ من إعلانات الصحف التي احتلت صفحة كاملة ونداءات والتماسات إلى الكونجرس الأمريكي، وأصدر مجلةً تحمل شعار «١٧٧٦ هو فلسطين». وتمكَّن برجسون أيضًا من عرض مسرحية غنائية مسانِدة لليهود، باسم «لن نموت أبدًا»، كتبها كاتب السيناريو الهوليودي بن هيكت وأخرجها موس هارت وتوزيع موسيقي بيد كيرت وايل، وبيعت جميع تذاكر العرض الذي قُدم في ميدان ماديسون سكوير جاردين. ساعدت

هذه التكتيكات على حشد جالية أمريكية يهودية، كانت من أشد المناصرين للصهيونية، وكانوا جميعًا من أصول أوروبية شرقية، إن لم يكونوا من الطبقة العليا الألمانية. ونتيجةً لذلك وبحلول عام ١٩٤٥ كان الحزبان الديمقراطي والجمهوري قد تبنيا منصاتٍ مؤيدة للصهيونية، وقرَّرا أن فلسطين يجب أن «تُفتح أمام الدخول الحر لليهود ... وأن [يُعاد] تأسيسُ البلد دولةً يهودية ديمقراطية حرة».

كان للنشاط الأمريكي اليهودي أيضًا أثره على روزفلت. فقد عدَّل من سياسته السابقة، التي اقتضت تأجيلَ معالجة موضوع اللاجئين لِما بعد تحقيق النصر، مع الاحتفاظ بالحياد فيما يتعلَّق بفلسطين، وشكَّل الرئيس ما عُرف باسم «مجلس لاجئي الحرب» للتخطيط من أجل إعادة توطين اليهود، وأعلن أيضًا التزامه بمساندة فكرة الدولة الديمقراطية اليهودية. ولكن مرة أخرى لم تكن الصهيونية القوةَ الوحيدة المؤثِّرة على البيت الأبيض. وقد تنبأت وزارة الخارجية بأن موافقة البيت الأبيض ودعمه للدولة اليهودية سيكون له عواقبُ وخيمة ومدمِّرة على وضع أمريكا في جميع أنحاء الشرق الأوسط. وحذَّر إدوارد ستيتينيوس، الذي حلَّ محل كورديل هال وزيرًا للخارجية في نوفمبر عام ١٩٤٤، من أن ذلك «سيؤثِّر سلبًا بصورة كبيرة على قدرتنا على حماية المصالح الأمريكية الاقتصادية والتجارية والثقافية والخيرية في جميع أنحاء المنطقة». وقد أكَّد القادة العرب هذه التحذيرات، عندما احتجُّوا علنًا لأول مرة على نصرة أمريكا للصهيونية. فتحدَّث رئيس الوزراء السوري سعد الله الجابري عن الدمار «المعنوي والمادي» لصورة أمريكا في بلاده، الذي تسبَّبت فيه سياساتها، وتحدَّث الملك عبد الله عن «الامتيازات الاقتصادية التي يمكن منعها» في شرق الأردن. وفي خطاب إلى روزفلت عبَّرت إحدى جمعيات مشاهير المثقفين العرب عن عدم تصديقها بأن «أمريكا الديمقراطية قادرة على ... نبذ صداقاتها في العالم العربي ... من أجل عِرق متناثر في أنحاء العالم ... ويعتمد على قوة وسلطة المال في تحقيق مخططاته».

كان النفط هو أكثرَ المصالح الأمريكية المهدَّدة بالخطر بسبب الصراع في فلسطين، ولم يحدُث أن تملَّق التيار الأمريكي الصهيوني أيَّ شخصية عربية بقدْرِ ما تملَّق الملك ابن سعود. فمنذ البدايات الأولى للحرب كانت الإدارة الأمريكية تأمُل في أن يستخدم الملك وضعه المميز الفريد في الشرق الأوسط للمساعدة في إخماد احتجاجات العرب ضد الصهيونية. ولكن هذه الآمال تحطَّمت في مايو عام ١٩٤٣، بسبب مذكِّرة غاضبة موجَّهة إلى روزفلت. فقد أصرَّ ابن سعود على أن «اليهود ليس لهم أي حق في فلسطين»، وحذَّر

من ردود أفعال عنيفة ضد المصالح الأمريكية في جميع أنحاء الشرق الأوسط، قائلًا «إذا قُدِّر للحلفاء — لا قدَّر الله — أن يتوِّجوا نصرهم في نهاية صراعهم بترحيل العرب من وطنهم».

وردًّا على ذلك أعلن روزفلت أن الولايات المتحدة لن تتخذ موقفًا محددًا حول فلسطين دون استشارة ابن سعود وغيره من القادة العرب أولًا، ولكن الملك لم يهدأ. وتطلب إنقاذ هذه العلاقة الحيوية الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والمملكة السعودية لفتةً مميزة للغاية. فربما بدَت رحلة روزفلت إلى الشرق الأوسط «لعبةً» لهوبكنز، لكنها كانت تمثِّل للرئيس آخرَ محاولة للحفاظ على وضع أمريكا الاقتصادي والاستراتيجي في المنطقة.[12]

وعلى متن الباخرة «كوينسي» أحدَث باخرة في أمريكا، عبَر روزفلت الجزءَ الشرق أوسطي من البحر المتوسط ودخل قناة السويس من بورسعيد. ورست السفينة في البحيرة المرة الكبرى، حيث استقبل روزفلت أولًا فاروق ملك مصر، ثم هيلا سيلاسي إمبراطور إثيوبيا خلال اليومين التاليَين. كان فاروق يرتدي زيَّ قائد الأسطول، وقد استمع بتهذيب والرئيس الأمريكي يتحدَّث عن موضوعين تقليديِّين من موضوعات الاهتمام الأمريكي في مصر، هما القطن طويل التيلة والسياحة. وتنبأ الرئيس بأن السياحة ستتوسَّع باطراد بنهاية الحرب، مثلها مثل الطلب العالمي على المنسوجات. أما فاروق فأكَّد ترحيبه الحار بكل الزائرين الأمريكيِّين، ووعد بإنتاجٍ أكبر من القطن، ولكن الحديث انتهى دون التطرق لأكثر الموضوعات بروزًا وإلحاحًا، وهو استقلال مصر. أما الإمبراطور الإثيوبي الضئيل الحجم الذي كان يرتدي حُلة عسكرية أكبرَ من مقاسه وقبَّعة، فقد كان أوفر حظًّا؛ إذ حصل على تأكيدات من روزفلت على رفضه إعادة الحكم الاستعماري الإيطالي لإثيوبيا. وغادر الزعيمان السفينةَ محمَّلين بهدايا قيمة؛ سيارة ذات محركين لفاروق، وأربع عربات استطلاع عسكرية لهيلا سيلاسي.

كانت هاتان المقابلتان مجرَّد تدريب على قمة عيد الحب التي عقدها روزفلت مع الملك السعودي. كان روزفلت ضعيفًا شاحب اللون وهو ينتظر ضيفَه تحت مدافع السفينة، يجلس على كرسي متحرك مرتديًا عباءةً سوداء كبيرة تدثِّر كتفيه. أما ابن سعود — الذي لم يكن أفضل منه صحةً — فلم يتمكَّن من صعود سلَّم المدمِّرة الأمريكية ميرفي التي كانت قد جاءت به من جدة، فجلس في أحد قوارب النجاة ورُفع برافعة إلى السفينة كوينسي. وكانت تساعده حاشية مكوَّنة من نحو ستين رجلًا، منهم حرسُه الخاص النوبيون حاملو السيوف المعقوفة، الذين كانوا «ذوي أجساد ممشوقة سمراء وعيون سوداء فتاكة»، حسب

وصف أحد البحَّارة، والذي أضاف: «كانوا يبدون وكأن بإمكانهم الاستمتاع بحفرِ أحرفِ أسمائهم الأولى على أجساد أعدائهم.» وأحيط هذا الحدث بسرية تامة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها الملك ابن سعود بلاده، وخوفًا من قيام ثورات إبَّان غيابه، كان الملك قد غادرها متخفيًا، وجرى القيام بغارات جوية لإبقاء السكان داخل منازلهم. وعمل روزفلت أيضًا على عدم الإعلان عن تلك الزيارة. بل إنه تمكَّن من إقناع ابنته آنا بمغادرة السفينة قبل وصول ابن سعود، قائلًا لها إن «المسلم لا يسمح بوجود سيدات في حضرته عندما يتحدَّث إلى غيره من الرجال ... وعندما يرى سيدة في مثل هذا المقام فإنه يسبيها».

حيَّا روزفلت ابن سعود بحرس شرف كامل ومجموعة من الأعلام المرفرفة. واحترامًا لضيفه امتنع عن التدخين، في حين قدَّم له الملك القهوة في تحية عربية تقليدية. بدأت المناقشات بصورة ودية، وقد دبَّت الحيوية في روزفلت وهو يصف رؤية أمريكا الراسخة حول نقل التكنولوجيا الحديثة إلى الشرق الأوسط، وتحويل صحاري الجزيرة العربية إلى حدائق غنَّاء. وذكَّر ابن سعود روزفلت بكل لطف بأنه محارب وليس مزارعًا، وأنه لا يهتم بتعديل أساليب حياة شعبه الممتدة عبْر الزمن.

وكان من الممكن أن يتوقَّف المزاح عند هذا الحد، لولا ترجمة ويليام إيدي، سفير أمريكا في جدة. كان مستعربًا تخرَّج في جامعة برنستون، وهو سليل مبشِّرين عملوا في الشرق الأوسط، وفي التاسعة والأربعين من عمره كان قائدًا بحريًّا سابقًا نال أوسمة ونياشين وكان رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية، وبذلك جمع بين الإيمان والقوة. ومع أن مهمته كانت تنحصر ببساطة في التحقُّق من «الأفكار والمطالب والاحتياجات والطموحات السياسية وغير السياسية» للعرب، فإنه كان يرى أن دوره هو تقوية الروابط الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والمملكة السعودية. وآمن إيدي بأن الولايات المتحدة بإمكانها عن طريق تحالفها مع ابن سعود أن تضمن «صداقة ثلاثمائة مليون مسلم ونياتهم الحسنة ومواردهم»، وفي الوقت نفسه تحمي «أثمن جوهرة» في الشرق الأوسط.

ولكن حماية هذه الجوهرة أثبتَت أنها تمثِّل تحديًا كبيرًا لإيدي، عندما انتقل موضوع الحوار والمناقشة على متن السفينة كوينسي من المحاصيل والكهرباء إلى فلسطين. فقد عبَّر روزفلت عن تعاطفه مع اليهود الناجين من النازيين، واحترامه لليهود الذين حاربوا ضد هتلر والذين صارعوا من أجل تحويل صحراء فلسطين إلى جنة مزدهرة. وتساءل: هل يوافق السعوديون على السماح بدخول أعداد أكبر من اليهود إلى فلسطين؟ وأجاب الملك بجفاف وغلظة بالنفي. وقال إن ملايين الدولارات من رأسماليِّين أمريكيِّين وبريطانيِّين هي

التي غيَّرت وجهَ الصحراء، وليس الزراعة اليهودية. وتساءل: كيف يمكن لهذه الزراعات أن تفيد العرب إذا «كان هذا الازدهار سيورَّث لليهود [فقط]؟» وزعم الملك أيضًا أن الجنود اليهود لا يحاربون ألمانيا في أوروبا، وإنما العرب، وأنهم بدلًا من منحهم فلسطين فيجب على اللاجئين اليهود أن يُمنحوا «أخيرًا» المنازل الألمانية. وأصرَّ قائلًا: «اجعلوا العدو والطاغية يدفع الثمن، فهذه هي الطريقة التي نحارب بها نحن العرب. فالتعويضات يجب أن تأتي من المجرم، وليس من المتفرِّج البريء.» وحاول روزفلت مراتٍ ومراتٍ أن يثير مسألة اللاجئين، مذكرًا ابن سعود بأن ثلاثة ملايين يهودي قُتِلوا في بولندا وحدها. ولكن في كل مرة كان الملك يزداد إصرارًا على موقفه. وردَّ قائلًا: إذا كان ثلاثة ملايين يهودي قد قُتلوا في بولندا، فهذا معناه توافر مكانهم الشاغر لثلاثة ملايين يهودي آخرين.

وفي حين كان الموقف بين روزفلت وابن سعود قد تحوَّل إلى البرودة والجفاء، كان الهواء في مكان آخر على السفينة يزداد سخونة. فإن خدم الملك ذبحوا عددًا من الخراف المائة التي جلبوها معهم إلى السفينة وكانوا يقومون بشيها قرب مخازن الذخيرة. وكان أعضاء آخرون من الحاشية يقومون بتجربة إطلاق النار من مدافع السفينة كوينسي، محدِثين جلبةً في مياه البحر حول السفينة، ثلاثين دقيقة، قبل أن يقرِّر القبطان أن «أضرارًا جمَّة قد تحدُث» واستطاع أن يوقفهم. في تلك الأثناء كانت أجزاء كبيرة من السفينة قد غُطِّيَت بسجاجيد فارسية — فقدَما الملك لم تطأ الأرضيات المعدنية قط — وأُقيمت خيمةٌ بها وسائد حريرية ومقاعد مطلية بالذهب. ولم يحدُث من قبل أن امتزجت القوة العسكرية الأمريكية بالجو الأسطوري للشرق الأوسط كما حدث في تلك المرة. كان كلُّ ما ينقصه هو الحريم الذي نجح إيدي في إقناع الملك بتركه في بلاده، محذرًا إياه أن حركة السفينة قد تزيح نقاب السيدات.

كان التقارب بين البحَّارة والسعوديِّين على السفينة قد ازداد حميمية ودفئًا، كما حدث فجأة أيضًا بين الملك وروزفلت. فقد تنازل روزفلت فجأةً عن طلبه السابق بالتعاون فيما يخص فلسطين، وبدلًا من ذلك وعد ابن سعود بألا يساعد اليهود أبدًا على حساب العرب. وأكَّد التزامَه بالدفاع عن المملكة السعودية، وأن يقوم بكلِّ ما في وسعه «باستثناء الحرب» لدعم الاستقلال السوري واللبناني. واعترف الرئيس بأن الشعب الأمريكي كانت لديه «معلومات مغلوطة وأنه كان مضللًا» فيما يخص الشرق الأوسط، وأضاف بعد ذلك في مؤتمر صحفي أنه تعلَّم عن المنطقة في خمس دقائق قضاها مع ابن سعود أكثرَ مما تعلَّمه من عشرات الرسائل الدبلوماسية.

وكان اللقاء التاريخي بين الرئيس والملك السعودي قد انتهى إيجابيًّا، بل حتى وديًّا، ولكن النيات الحسنة تلك شابتها بعضُ الأحداث الصغيرة المؤسفة على متن السفينة. فقد دُعي أميران سعوديان لمشاهدة أحدث الأفلام الكوميدية التي أنتجتها هوليوود، فصُدما عندما مُزِّعت ملابس البطلة لوسيل بول. تمامًا كما ذُهل البحَّارة الأمريكيون المكلَّفون بغسل دماء الخراف من ظهر السفينة وبقايا طعام السعوديِّين الذين يفضِّلون البحر على أسرار السفن والبحرية واضطُر ابن سعود إلى الفرار مبللًا عندما أغرقت موجةٌ عالية خيمته، وأن يبحث عن مأوًى في كابينة القبطان. ولكن في النهاية كانت هذه المناسبة ذكرى لا تُنسى للطرفين. وقدَّم الملك لروزفلت مجموعةً من العباءات العربية وسيفًا مرصعًا بالماس، ووزَّع بسخاء شديد خناجرَ وساعاتٍ ذهبية ونقودًا على البحَّارة وضبَّاط السفينة على حد سواء. وعاد ابن سعود إلى جدة محمَّلًا بكرسيٍّ متحرك، معلنًا أنه «أغلى مقتنياتي لأنه هدية من صديقي العظيم الرئيس روزفلت، يرحمه الله».

لم يكن الجميع سعداء بهذه القمة السعودية–الأمريكية الأولى. فقد رأى هوبكنز أن روزفلت قد «تأثَّر تأثُّرًا مفرطًا» — ربما بسبب مرضه — فتخلى بسهولة عن دعمه للصهيونية ومساندته لها. أما الصهاينة فكانوا بالطبع مدمَّرين بسبب المحادثات، وحانقين على محاولات الإدارة الأمريكية وصفَ تلك المحادثات بأنها «تمثيل خبيث» لالتزامهم المستمر بالاستيطان اليهودي. وبنفس الطريقة، سعِد القادة العرب بهذا الاجتماع، الذي كان يمثِّل أعظم إنجازاتهم في فلسطين منذ الوثيقة البيضاء لعام ١٩٣٩. وتناثرت الروايات حول شجاعة ابن سعود في محادثاته مع روزفلت. قال عبد الرحمن عزام، الأمين العام للجامعة العربية، إن الملك أقسم للرئيس قائلًا «لن يهدأ لي بالٌ حتى أُقتل أنا وأبنائي جميعًا دفاعًا عن فلسطين»، ثم أجبر الرئيس الأمريكي أن يقسم هو الآخر أنه «لن يساند الصهاينة أبدًا».

وفيما بعدُ اعتبر الكثير من المؤرخين لقاءَ ابن سعود وروزفلت علامةً من علامات صعود نجم الولايات المتحدة وهيمنتها على المنطقة. ولكنَّ عددًا أقلَّ هو مَن رأى أن الحقيقة هي أن رئيس أعظم دولة ديمقراطية في العالم انصاع لأوامر زعيم قبَليٍّ عربي. ولكن اللقاء كان لروزفلت مصدرًا للترفيه أكثرَ منه أمرًا ذا أهمية استراتيجية. فكتب لابنة عمِّه مارجريت ساكلي: «الحفل بأكمله كان مدعاةً للسعادة!»[13]

لعلَّ ردَّ الفعل المناسب للحديث الذي دار بين روزفلت وابن سعود كان يجب أن يتصف بالحدة وليس الاستحسان. ففي حين كانت الولايات المتحدة قد رسَّخت تحالفها

مع المملكة السعودية، ظلَّ موقفها من فلسطين، أكثرَ موضوعات الشرق الأوسط تقلبًا وتحولًا، مبهمًا غير واضح، وعُرضة لتفسيرات متناقضة. وسرعان ما أصبح هذا الغموض يكتنف القادةَ الأمريكيين، مما وضع الكونجرس الأمريكي في موقفٍ مضاد للرئيس، والرئيس في موقف مضاد لوزارة الخارجية، وفي النهاية انقسم البيت الأبيض على نفسه. ولكن روزفلت لم يعرف بهذه الانشقاقات قط. فبعد شهرين من لقائه بالملك السعودي على متن السفينة كوينسي، تُوفي روزفلت في منتجعه بمدينة وورم سبرنجز بولاية جورجيا، وبعد وفاته بأقلَّ من أربعة أسابيع انتهت الحرب في أوروبا.

أثبَت تراث انخراط أمريكا في الشرق الأوسط في الحرب العالمية الثانية أن ذلك الانخراط كان مستمرًّا وعميقًا في آنٍ واحد. فعلى عكس الصراع العالمي السابق، الذي قدَّمت أمريكا عن طريقه منافعَ ومزايا عديدة للشرق الأوسط لكنها في النهاية كان ينقصها الوجود العسكري والدعم المحلي لتقديمها، وعد الأمريكيون في الحرب العالمية الثانية بإحداث تغييرات إيجابية في المنطقة، ودعموا ذلك الوعد بقوات ومساعدات مادية. وبتشجيع أمريكي بدأت دول شمال أفريقيا طريقًا أدَّى في النهاية إلى حصولها على الاستقلال، وحرَّرت كلٌّ من سوريا ولبنان نفسيهما من الحكم الفرنسي. وساعدت الولايات المتحدة أيضًا في إعداد إيران لنيل استقلالها نهائيًّا ودعَّمت الحركة الوطنية في مصر. فعام ١٨٨٦ كان التمثال الذي صُمِّم أساسًا من أجل الشرق الأوسط قد أصبح منارة لملايين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الباحثين عن الحرية، ولكن عملية الشعلة التي تمَّت بعدها بنحو ستين عامًا، كانت قد أنارت سبلًا عديدة للحرية للكثير من شعوب الشرق الأوسط.

أما شبه الجزيرة العربية وفلسطين فأصبحتا، على صعيدٍ أقلَّ مواتاة، جزءًا لا يتجزأ من انخراط أمريكا في الشرق الأوسط. فقد تعيَّن على كل رئيس بعد روزفلت أن يتعامل معهما، محاولًا فصلهما ومصالحتهما، مع التصارع مع غيرهما من التحديات الشاقة في المنطقة. أما أكثرُ مَن واجه التعجيز الناتج عن ذلك فكان خليفة روزفلت التالي له مباشرة. ولقُرابة مائتي عام ظل الأمريكيون يحلُمون بتحويل الشرق الأوسط إلى نسخة من الولايات المتحدة؛ ديمقراطي ومتفتح الذهن وحر. ولكن النظر إلى مرآة الشرق الأوسط على الضوء الشاحب لفترةٍ ما بعد الحرب جعل ذلك الرئيس يرى نفسه وحدَه فقط: قصيرًا عريض الكتفين وذا نظارة مذهبة وقبَّعة صغيرة رمادية تتجه أطرافها لأعلى، راسمًا ابتسامة صريحة على شفتيه تقول: «ثِق بي.»

الفصل السادس والعشرون

الشرق الأوسط والرجل القادم من ميسوري

بدَت الرئاسة في البداية تحديًا يصعُب مجابهته لهاري ترومان، ولم ترجع هذه الصعوبة فقط إلى عدم لباقته أو طريقته الخنفاء في الحديث أو عدم حصوله على مؤهل جامعي. وقد قال ذات مرة لمراسلين صحفيِّين: «كنت أشعر وكأن القمر والنجوم وجميع الكواكب قد سقطت فوق رأسي.» كان ترومان قد ورِث هذا المنصب من الرئيس روزفلت الذي كان قد انتُخب أربع مرات والذي كان يتمتَّع أيضًا بإعجاب جماهيري تام؛ أما ترومان فقد تقلَّد المنصبَ بدعم وثقة قليلين نسبيًّا من الجماهير، وكانت تسبقه سُمعته بصفته عضوًا غيرَ مؤثِّر في الكونجرس، وكان وجوده في البيت الأبيض نتيجةً لآليات سياسية أكثرَ منها بسبب مواهبه القيادية أو تعبيرًا عن رغبة وإرادة شعبية. وقد تركَّز معظم النقد العنيف الذي وُجِّه لترومان على انعدام خبرته في مجال الشئون الخارجية وعلى واقع عدم دعوة روزفلت له من قبلُ ولو مرةً واحدة إلى غرفة الخرائط بالبيت الأبيض، إضافةً الى عدم استشارته في قرارات مؤثِّرة عالميًّا. وقد وصف الرئيس التنفيذي لهيئة وادي نهر تينيسي، ديفيد ليلينتال، تولِّي ترومان للرئاسة بأنها «طامة كبرى»، موضحًا الألمَ والعذاب الذي تسبَّب فيه ذلك للعديد من الأمريكيِّين، خاصة أولئك المقرَّبين من مراكز القوة. وقال ليلينتال صارخًا: «أمريكا والعالم كله لا يستحقان ذلك. فليساعدنا الرب جميعًا!»

وكان الظهور غير المؤثِّر لهذا الرجل الذي عمِل من قبلُ مزارعًا وموظفًا في مصرف وبائع خردوات، أمرًا خادعًا للغاية. فقد تضمَّنت إنجازاته المحلية مجهوداتٍ جمَّة للتخلُّص من الفقر وتحديث نظام التأمينات الاجتماعية وتقوية القوات المسلَّحة الأمريكية. ولكن إنجازاته في مجال السياسة الخارجية كانت مبهرة تمامًا، مع أنها المجال الرئيسي الذي كان يُتوقع له أن يفشل فيه. فبالإضافة إلى متابعته للهزيمة الأخيرة التي مُنيت بها ألمانيا

واليابان، أشرف ترومان على عملية تأسيس الأمم المتحدة ومنظمة حلف شمال الأطلسي، وواجه الشيوعية في برلين وكوريا الجنوبية، وأعاد تعميرَ أوروبا التي دمَّرتها الحرب، ومن الأمور التي قام بها وأثارت جدلًا كبيرًا تقديمُ الأسلحة النووية للعالم. كما غيَّر أيضًا في الشرق الأوسط بما لم يفعل أيُّ أمريكي من قبل.

وقد عكست سياسةُ ترومان في الشرق الأوسط مزيجَ العنف والدهاء السياسي نفسه الذي كان يطبِّقه على غيره من موضوعات السياسة الخارجية. وكانت دروس المثابرة التي تعلَّمها بصفته ضابطَ مدفعية على الخطوط الأمامية أثناء الحرب العالمية الأولى وفي الكواليس الخلفية للحزب الديمقراطي قد أثَّرت على مواقفه تجاه المنطقة، تمامًا مثل قراءاته المكثَّفة حول الأدوار التاريخية لرجال ونساء عظماء. ومن الواضح أن تفكير ترومان بشأن الشرق الأوسط كان مصبوغًا بنشأته المعمدانية. فقد كان على دراية تامة بالإنجيل وما ورد فيه عن الأماكن المقدسة، وكان ترومان، مثله مثل العديد من الرؤساء الأمريكيِّين السابقين، يمتلك معرفة مفصَّلة عن جغرافية الشرق الأوسط. يستحضر ترومان: «ليس فقط الجزء الإنجيلي لفلسطين هو ما يثير اهتمامي. فتاريخ هذا الجزء من العالم هو الأعقد والأكثر إثارةً للاهتمام في العالم أجمع». ووضح هذا التحمُّس جليًّا في المكتب البيضاوي، حيث أذهل الرئيس الجنرال أيزنهاور ونائب وزير الخارجية دين أشيسون، اللذين كانا يظنانه جاهلًا بالموضوع، وذلك عندما أطال في الحديث إليهما حول الأهمية الاستراتيجية للشرق الأوسط، مع الاستعانة بخريطته القديمة والمهلهلة.

كان الإيمان لدى ترومان لا يعني الثقةَ بالله فحسب، بل أيضًا الالتزام بالمبادئ المدنية التي كان يرى فيها هِبةً من الله. وقد أكَّد أن الديمقراطية «أمرٌ يتعلَّق بالعقيدة والإيمان؛ إيمان بروح الإنسان وإيمان بحقوق الإنسان»، وأن الولايات المتحدة هي نتاجُ العناية الإلهية. وأكَّد أن «الله قد خلقنا ومنحنا مركزنا الحالي ... لحكمة عظيمة. فقد منحنا الله إياه للدفاع عن القيم الروحية ضد قوى الشر الكبيرة التي تسعى لتدميرها». وكثيرًا ما أكَّد ترومان أن إنجاز تلك المهمة له أولوية فوق أي اعتبارات أخرى، سواء كانت تملُّق أصوات الناخبين أو مراضاة الحلفاء، أو حتى حماية إمدادات النفط الأمريكية.[1]

كان ترومان مثل شخصيات مارك توين رجلًا لكل المواقف، تصبغه واقعية الرؤساء جيفرسون وجاكسون وتيدي روزفلت، ويشبه الرئيس ويلسون في كثيرٍ من مبادئه ومُثُله. لذلك كان ترومان مثبتًا لجدية الكثير من المواقف التي اعتاد الأمريكيون أن يتعاملوا بها بصورة تقليدية مع الشرق الأوسط. وقد كانت تلك المواقف تحت الاختبار بشدة في الأعوام

الأولى من رئاسته، عندما اضطُر هذا الرجل القادم من ميسوري إلى الصراع مع أزماتٍ متتالية في الشرق الأوسط.

نجمٌ يسطَع في سماء الشرق

كان الشرق الأوسط في أبريل عام ١٩٤٥ منطقةَ اضطرابات لا تهدأ. فقد احتلَّت القوات البريطانية والفرنسية سوريا، وسيطرت القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية على شمال أفريقيا. أما فلسطين وشرق الأردن والعراق فظلَّت تحت قيادة بريطانية خالصة، وكانت إيران مقسَّمة بين بريطانيا والاتحاد السوفييتي. وكان هذا زمنَ تغيراتٍ جذرية، بسبب ضَعف الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية، وإحلال النفوذ السوفييتي والأمريكي محلَّهما، وكان أيضًا زمن الأحلاف التي تتغيَّر بسرعة. وكان التحالف الإنجليزي الأمريكي الفرنسي السوفييتي الذي نجح في وقف الزحف الألماني في المنطقة ينهار بلا رجعة. ومن ناحية أخرى، واجهت الولايات المتحدة بريطانيا في بعض مناطق الشرق الأوسط، في حين تحالفت في مناطق أخرى مع البريطانيِّين ضد الفرنسيِّين، وفي ثالثة تحالفت مع بريطانيا وفرنسا لمعارضة روسيا. وكان من المتوقَّع أن يتمكَّن ترومان من إدارة هذا الموقف غير الثابت، وأن يستجيب للمطالب الوطنية من أجل التحرر من الهيمنة الأوروبية، مع الحفاظ على ائتلاف غربي ضد التهديد السوفييتي المتصاعد. وقد اتفق ترومان مع لوي هندرسون، الرئيس الجديد لقطاع شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية، على أن شعوب الشرق الأوسط المستعمرة كانت «الأكثر استحقاقًا للاستقلال السياسي في فترةِ ما بعد الحرب». ولكنَّ الرئيس وضع في حسبانه أيضًا تحذيرات وزارة الخارجية بأن الاتحاد السوفييتي كان «مصمِّمًا على ... اكتساح تركيا ... وإيران والخليج العربي حتى المحيط الهندي».

وكان أول اختبار لدهاء ولباقة ترومان الدبلوماسية قد بدأ في سوريا أوائل يونيو عام ١٩٤٥؛ أي بعد ثلاثة أسابيع فقط من يوم النصر في أوروبا. فعندما أخلَّت الحكومة الفرنسية بوعودها باحترام استقلال سوريا، ورفضت أن تخليَ مواقعها العسكرية في البلاد، وحين تصاعدت الاحتجاجات في دمشق وحماة وحلب، كان رد الفرنسيِّين هو إطلاق نيران المدفعية والطائرات الحربية. فسُوِّيَت أحياءٌ قديمة بالأرض، وهوجِم سكانها بنيران الرشاشات، مخلِّفة وراءها أكثرَ من أربعمائة قتيل. واحتجَّت سوريا لدى واشنطن «إن بلادكم قد شجَّعتنا في موقفنا الرافض لمنح مزايا خاصة لفرنسا أو أي دولة أخرى.

والآن يقوم الفرنسيون بضربنا بذخيرة من برنامج المِنح المعطاة لاستخدامها ضد عدونا المشترك». وأحدَث الاحتجاج أثرَه المطلوب. فقد عبَّر مسئولو وزارة الخارجية عن ندمهم بسبب فشل أمريكا في ضمان الحريات لسوريا، التي وعدهم بها ميثاق الأطلنطي وميثاق الأمم المتحدة، وعبَّروا عن ذعرهم من خطر أن تتوجه سوريا إلى موسكو لطلب المساعدة. وقال هندرسون إنَّ «رفضَنا تلبية الطلبات السورية الحالية يمكن أن يسبِّب حالة من الإحباط المخيِّب للآمال في جميع أنحاء الشرق الأوسط مثل حالة الإحباط التي حدثت بسبب عودة الولايات المتحدة إلى حالة الانعزال بعد الحرب العالمية الأولى».

ولكن ترومان لم يكن بحاجة إلى حثٍّ وتشجيع. فقد كان يَعُدُّ سوريا، التي أعلنت الحرب على دول المحور في فبراير عام ١٩٤٥، حليفًا لأمريكا، بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي بسبب أنابيب النفط الحيوية التي تمتد في أراضيها. وبالتعاون مع تشرشل أرسل الرئيس الأمريكي برقيةً شديدة اللَّهجة لديجول، محذِّرًا إياه من تدخُّل وشيك للقوات البريطانية في المنطقة دفاعًا عن السوريين. وقال: «لكي نتجنَّب صِدامًا بين القوات البريطانية والفرنسية فإننا نطالبكم بعودة القوات الفرنسية فورًا إلى ثكناتها، ووقف إطلاق النار إلا في حالة الدفاع عن النفس.»[2] وخضع ديجول مرة أخرى، وتحت ضغط إضافي من الولايات المتحدة عن طريق مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وافق على إجلاءِ آخرِ جندي فرنسي من سوريا.

لم يكد ترومان يطفئ الثورة في سوريا حتى واجهته أزمةٌ أكبر في ليبيا. فبعد تحرُّرها من الاستعمار الإيطالي الفاشي، كانت ليبيا في يوليو عام ١٩٤٥ لا تزال تقبع تحت نيران احتلال القوات البريطانية والفرنسية في الوقت الذي كان فيه قادة الحلفاء يجتمعون في بتسوم بألمانيا. وكان الوطنيون الليبيون الذين اجتمعوا خلف مِلكهم إدريس الذي استعاد عرشه، يتوقون إلى استقلالهم، ولكن القوى الكبرى اعترضت على ذلك. وقد اتفقوا على أن ليبيا المكوَّنة من ثلاث مقاطعات رئيسية — هي طرابلس وفزان وبرقة — ينقصها الالتحام الداخلي اللازم للاستقلال، بجانب الموارد الطبيعية الأساسية. وبالفعل كان أكبر مورد ليبي للدخل يأتي من بيع حُطام المركبات الحربية المتبقية من الحرب العالمية الثانية خردةً. وكان أمام الحلفاء خيار إما إعادة ليبيا إلى الحكم الإيطالي أو وضعها تحت الإشراف الدولي.

كان ترومان كارهًا للاستعمار بفطرته، وقد تردَّد في إعادة ليبيا إلى إيطاليا، مفضلًا وصايةً دولية عليها. ولكن ستالين فاجأه بطلب انتداب سوفييتي على طرابلس. وكان

هذا الطلب بمنزلةِ مصدرِ إمداد للأسطول الأحمر بأول ميناء في بحارٍ دافئة، مما يمنع الولايات المتحدة من الوصول إلى قاعدة ويلوس الجوية، ذات الأهمية الاستراتيجية، التي تقع بالقرب من طرابلس. وكان الفرنسيون يمارسون ضغوطًا من أجل الحصول على قطعة من ليبيا، مثلما طالب الوطنيون في مصر ولم يكن أيٌّ من هذه الخيارات ملائمًا من وجهة نظر ترومان. وكان مترددًا بين تعاطفه مع تحرير شمال أفريقيا ومخاوفه من أجل سلامة الشرق الأوسط؛ لذلك اختار طريقًا متعقلًا وثوريًّا في آنٍ معًا. فقد اقترح أن توضع ليبيا تحت رعاية الأمم المتحدة المؤسَّسة حديثًا. نجحت التجربة، وفي ديسمبر عام ١٩٥١ — أي بعد ١٥٠ عامًا من إعلان طرابلس الحربَ على الولايات المتحدة — اعترفت أمريكا باستقلال ليبيا.[3]

ولم يكد الصِّدام مع روسيا ينتهي وإزاحة ليبيا من الطريق، حتى لاح في الافق صِدامٌ آخر أكثر دمارًا بين السوفييت والغرب متمثلًا في إيران. ففي ديسمبر عام ١٩٤٥ كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد بدأتا في سحب قواتهما من إيران، موفين بذلك بوعودهما باحترام سيادة البلاد بعد الحرب. لكن السوفييت توانوا عن ذلك. فعن طريق حزب تودة الموالي للشيوعية أعاد السوفييت توطيدَ نفوذهم في الحكومة الإيرانية وروَّجوا لانفصال الجمهوريات السوفييتية المجاورة في كردستان وآذربيجان. وكان ستالين على استعدادٍ لقطع وصول أمريكا إلى مصادر النفط الإيراني ولتهديد حقول النفط في كلٍّ من المملكة العربية السعودية والبحرين والكويت. وفي تقرير من تبريز ادَّعى مراسل وكالة أنباء «أسوشيتد برس»، جوزيف جودوين، أنه بالكاد يستطيع سماعَ الموجة القصيرة على مذياعه بسبب أصوات الدبابات السوفييتية التي تهدِر وهي تمرُّ. وتزامنت الأزمة الإيرانية مع استيلاء السوفييت على دول البلطيق وشرق أوروبا، مما جعل تلك الأزمة تبدو وكأنها جبهةٌ إضافية في الحرب الباردة التي كانت تتطور بسرعة بين الغرب والكتلة الشيوعية. وحسبما جاء في تقرير المحلِّل جورج كينان، فقد نصح خبراء وزارة الخارجية الحكومةَ بمواجهة التهديدات السوفييتية في إيران — كما في أي مكان آخر — بمزيج من الدبلوماسية الحاسمة واستعراض العضلات العسكري، وهي سياسة عُرفت فيما بعدُ باسم «الاحتواء» أو «منع انتشار القوة».

ووافق ترومان وقال: «علينا أن نعترض بكلِّ ما نملك من قوة على البرنامج الروسي في إيران.» وتذكَّر ترومان إسهامات إيران المحورية في المجهود الحربي، وأقسم بلغة شديدة اللَّهجة أن يطرد الروس من الخليج العربي «بيدٍ من حديد». وفي الأشهر الأولى

من عام ١٩٤٦ كان الممثلون الأمريكيون يمارسون ضغوطًا شديدة لضمان إدانة الأمم المتحدة للتصلب السوفييتي. ولكن الكرملين ازداد تشبُّثًا بموقفه، وسرعان ما كانت القوات السوفييتية تتحرَّك من شمال شرق إيران باتجاه طهران والحدود العراقية. وأقسم جيمس بيرنز، وزير الخارجية الذي لم يُعرف عنه الفظاظة في خلاف هذا الموقف، وهو يضرب كفًّا بكفٍّ: «الآن سنعاملهم بأشد قوة ممكنة». واقترح بيرنز إرسال أسطول أمريكي إلى المنطقة، ولكن في أبريل من العام نفسه تراجع السوفييت. فقد خشي ستالين من إدانة مجلس الأمن، وبسبب ثقته في قدرته على الحصول على امتيازات نفط حصرية في العراق، أمر بسحب قواته. وسرعان ما انهارت جمهوريات أذربيجان وكردستان من دون الدعم السوفييتي. وصوَّت المجلس النيابي الإيراني بعدها لمصلحة منع منح أي حقوق نفطية لروسيا.[4]

كانت بعض الشرارات الأولى للحرب الباردة قد انطلقت مجازًا من الشرق الأوسط، ومنه اختبر ترومان لأول مرة آليةَ إدارة الأزمات الخاصة بالأمم المتحدة. وكانت النتيجة انتصارًا أمريكيًّا واضحًا. ولكن لأنه لم يكن يرغب في الاعتماد على هذا الإنجاز وحدَه، فقد أرسل ترومان «قوات البحر المتوسط البحرية» المُنشأة حديثًا — التي تغيَّر اسمها فيما بعدُ إلى الأسطول السادس — لتفقُّد شرق البحر المتوسط والقيام بدوريات استكشافية هناك. ولم تكن الولايات المتحدة قد استعرضت قوَّتها في الشرق الأوسط بهذا الشكل المكثَّف والمستمر منذ عهد ستيفن ديكاتور في أوائل القرن التاسع عشر.

ولكن الضغط السوفييتي على ما يسمَّى بدول النطاق الشمالي المكوَّن من إيران والعراق وتركيا لم يهدأ، وأثبتَت الأمم المتحدة عدمَ قدرتها على تخفيفه. فما كادت القوات السوفييتية تستكمل جلاءها من إيران في أغسطس عام ١٩٤٦، حتى بدأت في التجمع على الحدود التركية. وكان ستالين يتوق إلى الحصول على ممرٍّ موصِّل للبحر المتوسط بدلًا من الذي فقده في ليبيا، فعرض مطلبًا على القادة الأتراك بوصاية مشتركة على مضيق الدردنيل. وفي الوقت نفسه هدَّد الثوار اليونانيون، بدعمٍ من الشيوعيِّين، بقلب نظام الحكم الموالي للغرب هناك. ومع أن بريطانيا كانت تتحمَّل مسئولية الدفاع عن الجبهة التركية اليونانية، فإن اقتصادها الذي دمَّرته الحرب لم يمكِّنها من تمويل هذا العبء. ولم يكن هناك سوى الولايات المتحدة.

جاء في أحد التقارير الرسمية المرفوعة إلى الرئيس: «تمثِّل تركيا واليونان العقبةَ الوحيدة أمام الهيمنة السوفييتية على شرق البحر المتوسط، التي تعدُّ منطقةً ذات أهمية

كبيرة اقتصاديًّا واستراتيجيًّا». وقد اتفقت وزارتا الخارجية والحربية على أن سقوط البلدين سيسرِّع بالغزو الشيوعي لجميع أنحاء الشرق الأوسط، بكل موارده النفطية، وسيؤدي في النهاية إلى انهيار غرب أوروبا. ولكن الخطر لم يكن عسكريًّا فقط. فقد أضاف تحليل إداري مشترك أنه: «يوجد عند هذا المنعطف من تاريخ العالم صراعٌ بين أسلوبين من أساليب الحياة: بين الدكتاتورية والحرية، وبين خدمة الأغلبية للأقلية وحرية السعي وراء تحقيق تقدُّم.» فإذا استسلمت اليونان وتركيا يمكن للسوفييت أن ينجحوا في تكوين إمبراطورية عالمية، وفي عزل الولايات المتحدة.

في الأزمة الأخيرة التي شملت تركيا واليونان قبل نحو قرن كامل، كان على الرئيس جيمس مونرو أن يختار بين مساعدة المتمردين اليونانيِّين ضد الأتراك أو السعي وراء اتفاقية مثمرة مع تركيا، أي بين الوفاء لمُثُل وقيم أمريكا أو الالتزام بمصالحها الاقتصادية. ولكن المسألة لم تكن عند ترومان هي مساندة أيٍّ من الجانبين: اليونانيين أو الأتراك، أو ما إذا كان عليه أن يمنح الأولوية للأيديولوجيات والعقائد أم للماديات، بل كان السؤال هو ما إذا كان يجب على الولايات المتحدة تحمُّل مسئولية وعبء الدفاع عن الشرق الأوسط من عدمه. أما ترومان فقد كان مصمِّمًا على «إيضاح موقف أمريكا للسوفييت بكل جلاء ودون مواربة» وفق تعبيره، ولكن لتحقيق ذلك كان عليه أولًا أن يُقنع الشعب الأمريكي بأن الشرق الأوسط يستحق الدفاع عنه. وكانت تلك مهمةً صعبة، في ظل التضحيات التي قُدمت في الحرب ونقص الموارد الناتجة عنها والخسائر التي مُنيت بها أمريكا في تلك الحرب. وإذا كان مونرو قبْله قد احتاج إلى مذهب وتعاليم، فإن ترومان لم يكن أقلَّ حاجةً إليهما.

ألقى ترومان خطابًا في جلسة مشتركة للكونجرس في ١٢ مارس عام ١٩٤٧، وفيه التمس مساعداتٍ عاجلة من أجل يونان «ديمقراطية» وتركيا «محبة للحرية». وقال إن سلامة البلدين «ضرورية لحفظ النظام في الشرق الأوسط» ومن أجل سلامة وأمان الغرب ككل. ولضمان «حياة خالية من القهر» لشعوب الشرق الأوسط ولدعم الأمم المتحدة، طلب ترومان موافقةَ الكونجرس على مساعداتٍ عسكرية ومدنية كبيرة لتركيا واليونان، تتضمَّن تدريب قواتهما المسلَّحة. وحذَّر من «أننا إذا فشلنا في قيادتنا فقد نخاطر بسلام العالم أجمع. وسنخاطر بالتأكيد برفاهية أمتنا».

عن طريق مناشدة الواجبات المعنوية لأمريكا، بالإضافة إلى التذكير بمصالحها الاستراتيجية كسبَ ترومان إلى صفه جمهورًا ومجلسَ نواب كانا متشكِّكين في البداية.

وزادت المساعدات العسكرية لليونان وتركيا، وانطلقت نحو ساحل بحر إيجة السفينة الحربية «ميسوري» — المسمَّاة تيمنًا بموطن ترومان، التي كانت قد قبِلت استسلام اليابان. وقال النائب الشاب عن ولاية ماساتشوستس، جون كينيدي، مادحًا قرار ترومان: «إن سياستنا الخارجية هي ذاتها كما كانت منذ أيام مونرو عندما استنَّ مبدأه. ويعني هذا ببساطة أن الزمان والمكان قد جاءا بتفسيرٍ جديد لهذه الوثيقة التاريخية.»

ومرَّت سنتان بعد إعلان هاري ترومان أن السماء قد سقطت عليه كِسفًا، وكانت تلك فترة تقلبات لا تهدأ، خاصة في الشرق الأوسط. ووجد الشعب الأمريكي نفسه الآن — بعد أجيال كاملة من المواقف الازدواجية تجاه الاستعمار الأوروبي للمنطقة — محملًا بالكثير من الواجبات الاستعمارية نفسها التي حملتها فرنسا وبريطانيا، وكذلك بمهمة إحباط المخططات الروسية. وقد تشكَّك بعض المسئولين الأمريكيِّين في قدرة الولايات المتحدة على حماية هذه المنطقة الشاسعة من الفوضى الداخلية ومن التوغلات العدائية. وتساءلوا عما إذا كان «النجم الصاعد في الشرق» — حسبما جاء على لسان موراي والاس — سيكون سوفييتيًّا أم أمريكيًّا.[5] ولكن ترومان كان يشدِّد أنه في المستقبل القريب المنظور على الأقل لن تهيمن نجوم العلم الأمريكي فقط، بل خطوطه أيضًا، على الشرق الأوسط. وعلى عكس القوى الاستعمارية في الماضي، عملت الولايات المتحدة على ضمان استقلال عدد من دول الشرق الأوسط، وليس حرمانها منه، وعلى تحصين وحماية دول أخرى ضد أي عدوان.

كان ترومان قد نجح حتى الآن في تعامله مع الشرق الأوسط في خلق توازن وانسجام بين مصالح أمريكا الاستراتيجية ومبادئها ومُثُلها الأخلاقية، وذلك من أجل صيانة التحالف الغربي، وفي الوقت نفسه وقف المد الاستعماري الفرنسي والتدخل السوفييتي. ولكن الحفاظ على هذا التوازن أثبت أنه أقربُ إلى المستحيل، خاصة في ظل الأزمة الكبرى التالية التي حدثت في المنطقة. كان ترومان قد تعامل بحصافة ولباقة مع أزمات وتقلبات في شمال أفريقيا وإيران وبلاد الشام، ولكن تلك الأزمات كانت مجرد اختلاجات بسيطة مقارنةً بفلسطين، أكثر الخلافات ضراوةً، التي رجَّت الشرق الأوسط رجًّا.

السؤال الأكثر أهمية

لمعظم الأمريكيِّين كان مشهد عشرات الآلاف من اليهود الذين يقاسون في معسكرات للنازحين في أوروبا المتحررة بعد الحرب أكثر فظاعةً من مشهد شعوب الشرق الأوسط الرازحة تحت حكم الاستعمار أو من مشهد القوات السوفييتية وهي تهبط باتجاه مضيق

البوسفور. لم يكن لدى اليهود الناجين من النازيِّين أدنى رغبة في العودة إلى أوطانهم ومنازلهم — فمعظم تلك المنازل كانت قد تهدَّمت — بل كانوا يفضِّلون مغادرةَ أوروبا تمامًا. واستولت قضيةُ هؤلاء اللاجئين بصورة متزايدة على اهتمام الرأي العام في أمريكا، وظلَّت تطارد الرئيس في أحلامه كلَّ ليلة. وقال لنفسه: «لا يمكن للحكومة الأمريكية أن تقف متفرِّجة متكاسلة، وضحايا جنون هتلر ليس مسموحًا لهم ببناء حياة جديدة. فاليهود بحاجة إلى مكانٍ يمكنهم الذهاب للعيش فيه.»

ولكن أين؟ كانت أكثر الأماكن وضوحًا هي فلسطين، نتيجةً لرفض وتردُّد معظم الدول غير الأوروبية في استيعاب هؤلاء اللاجئين. ولكن الوثيقة البيضاء لعام ١٩٣٩ كانت لا تزال سارية، ولم يكن أيُّ زعيم بريطاني — ولا حتى تشرشل المناصر للصهيونية — على استعداد للمخاطرة بإثارةِ ملايين المسلمين عن طريق إلغائها. وبدلًا من ذلك اعترضت القوارب الحربية البريطانية سفن الهاجاناه المكتظَّة بالناجين من معسكرات الموت النازية الذين يحاولون الوصول إلى فلسطين، مرسلةً إياهم مرةً أخرى إلى ألمانيا أو إلى سجون مؤقتة في العراء في جزيرة قبرص. وبكت إليانور روزفلت — أرملة الرئيس الأمريكي — قائلة: «لا يمكن أن أتحمل مجرد التفكير في يهود أوروبا الذين قضَوا سنواتٍ طويلة في معسكرات الاعتقال وراء الأسلاك الشائكة» لكن وزارة الخارجية لم تشاركها تلك المشاعر. بل اتفق هندرسون ومختصون آخرون من مكتب شئون الشرق الأدنى مع بريطانيا على أن إغراق فلسطين باليهود سيؤدي إلى عدم استقرار الشرق الأوسط كله، وهو ما سيؤدي بدوره إلى تصاعد النفوذ السوفييتي في المنطقة، وخسارة موارد النفط لا يمكن إيجاد بديل لها.

وكانت مشاهد معاناة اللاجئين وسيناريوهات غضب المسلمين قد وضعت ترومان وجهًا لوجه أمام المعضلة الأمريكية الشهيرة في الشرق الأوسط وهي تحديد الأولوية، هل لحفظ المصالح أم لحماية المبادئ. على أن ازدواجية ترومان نفسه تجاه اليهود والصهيونية زادت من تعقيد هذا القرار. كان ترومان — شأنه شأن ويلسون وروزفلت من قبله — يَعُدُّ اليهود من أقرب مساعديه، خاصة صديقَه العسكري القديم وزميله في متجر الخردوات إيدي جاكبسون. ولكونه سليلًا لمزارعين أُجْلوا بسبب الحرب الأهلية وكانوا هدفًا للعنصريِّين الجنوبيِّين الكارهين لآرائه الليبرالية، تعاطف مع ضحايا النازيِّين الذين اضطُروا إلى هجر منازلهم وأوطانهم. وقال: «كل إنسان أُجبر على ترك بلده لديه مكان آخر يذهب إليه، لكن اليهود لا يوجد أمامهم مكان يذهبون إليه.» وكانت قراءاته

للإنجيل قد قادته إلى تقبُّل فكرة إعادة اليهود إلى أرض الميعاد، كما قادته إلى الانضمام عام ١٩٤١ إلى لجنة فلسطين الأمريكية المسيحية ذات التوجه الصهيوني. ومع ذلك — ومثل سابقِيه الديمقراطيِّين — فكثيرًا ما كان ترومان يترك العِنان لمشاعره المعادية للسامية؛ إذ لم يُدعَ آل جاكبسون ولو مرة واحدة للعشاء في البيت الأبيض، كما عبَّر بصراحة عن مشاعره تجاه الهجرات الجماعية لليهود. وكان أيضًا قلقًا بشأنِ ما إذا كانت الدولة اليهودية المستقبلية ستكون دينية، وما إذا كان سيجري استدعاء القوات الأمريكية للدفاع عنها. ومن اللافت للنظر أنه عندما صوَّت ٧٧ عضوًا من الكونجرس مؤيدين قرارَ الدولة اليهودية عام ١٩٤٤، لم يكن ترومان من بينهم. وفسَّر ذلك قائلًا: «إنني أتعاطف مع اليهود لكنني لا أرغب في فعل شيء يجلب المشاكل.»

لكل هذه الأسباب فضَّل ترومان «جعْلَ العالم كله مكانًا آمنًا لليهود»، وليس بالضرورة إعادة توطينهم في فلسطين. ولكنَّ الرئيس الثالث والثلاثين كان يَعدُّ نفسه دائمًا سياسيًّا في المقام الأول، ورجل دولة بعد ذلك. وكان يستطيع بالكاد أن يتجاهل نداءات الكونجرس من أجل بناء دولة يهودية، ولا التلغرافات المؤيدة للصهيونية التي أغرقت البيت الأبيض في نهاية الحرب مع اليابان. وأصبح قادة العرب يصرحون أيضًا بآرائهم علانية، مفتتحين مكتبًا للمعلومات في واشنطن، ونشر ابن سعود الوعودَ التي وعدها إياه روزفلت. ولكن كل تلك الإجراءات لم يكن لها إلا أثر ضئيل على ترومان، فقال: «أنا مسئول أمام مئات الآلاف التواقين إلى إنجاح الصهيونية. عِلاوة على أن دوائري الانتخابية لا تحتوي على مئات الآلاف من العرب.» وفي محاولة لتلبية تلك الطلبات، طلب ترومان من إيرل هاريسون، عميد كلية الحقوق بجامعة بنسلفانيا، أن يتحرَّى موقف اللاجئين. وكان هاريسون مسئولًا سابقًا بهيئة الهجرة، وليست له أي روابط سابقة بالصهيونية؛ لذلك كان من المتوقَّع أن يصدر تقريرًا صادقًا وحياديًّا.

ولكن هاريسون لم يكن مستعدًّا للمشاهد الفظيعة التي قابلته عند وصوله إلى أوروبا في يوليو ١٩٤٥. فكتب يقول: «يبدو أننا نعامل اليهود كما كان النازيون يعاملونهم، والفارق الوحيد هو أننا لا نبيدهم.» ومع أن هاريسون كان ضخم الجثة قوي البنية، فإنه تأثَّر بشدة بمشهد اليهود البائسين المنهكين بدنيًّا وذهنيًّا والذين كانوا لا يزالون ينظرون من وراء أسلاك شائكة تحت حراسة القوات الأمريكية. فقال: «إن المرء ليتساءل عمَّا إذا كان الشعب الألماني عندما يرى ذلك المشهد يمكن أن يعتقد أننا نناصر النازية.» وأربكت مثل هذه الملاحظات ترومان، ولكن ليس بنفس القدر الذي أربكته به النتائج التي انتهى

إليها هاريسون. فقد أكَّد هاريسون أن اللاجئين غير راغبين في العودة إلى ديارهم، أو في السماح لهم باللجوء إلى الولايات المتحدة. بل هم يطالبون بالحق في الهجرة إلى فلسطين. مدفوعين إلى ذلك بـ «حب ذلك البلد والوفاء للمُثُل الصهيونية»، كان هؤلاء اليهود يشعرون بأن المكان الوحيد في العالم الذي «سيلقون فيه الترحيبَ المناسب ويجدون فيه السلام والسكينة، وسيمنحون فيه فرصة للعيش والعمل هو فلسطين».[6]

وحثَّ هاريسون على مطالبة بريطانيا بفتح أبواب فلسطين أمام ١٠٠ ألف يهودي، كان نصفهم قد وصل بالفعل إلى قِطاع الاحتلال الأمريكي بمساعدة منظمات صهيونية. ولكن كليمنت أتلي، عضو حزب العمال اللبق الذي حلَّ محل تشرشل رئيسًا للوزراء عام ١٩٤٥، لم يُظهِر أيَّ استعداد لتعديل سياسة بريطانيا. فأخبر ترومان بكل هدوء أن اليهود يجب معاملتهم مثل أي مجموعة أخرى، وحذَّره من أن مطالبة الولايات المتحدة بالسماح لهم بدخول فلسطين ستتسبَّب في ثورة المسلمين في العالم أجمع، ودعم الشيوعية، بالإضافة إلى «الإضرار الجسيم بالعلاقات بين بلدينا». وكان إرنست بيفن السمين وهو وزير خارجية أتلي، وكان عاملًا سابقًا في الميناء وعضوًا في النقابات العمالية، فكان أقلَّ لباقةً ورقيًّا. فقد وبَّخ اليهود بسبب إصرارهم على التدافع «للوصول إلى أول الصف» من أجل الحصول على مساعدات دولية، ووبَّخ الأمريكيِّين أيضًا بسبب تفضيلهم إعادة توطين اليهود في فلسطين «لأنهم لا يرغبون في وجود عدد كبير منهم في نيويورك».

أدَّت ردود الأفعال هذه إلى تقوية عزم ترومان، بدلًا من تليين عريكته. فأبلغ أتلي في نهاية أغسطس أن الشعب الأمريكي «يؤمن بشدة بأن باب الهجرة إلى فلسطين يجب ألا يُغلق وأن تلك الخطوة يجب ألا تتأخر». وزاد الانتقاد العام لبريطانيا، وعندما زار بيفن نيويورك رفض الحمَّالون والتباعون في الميناء حمْلَ حقائبه، ونهضت الجماهير في استاد يانكي للهتاف ضده. ورغبةً منه في إنهاء ذلك الموقف المخزي اقترح أتلي تكوين لجنة أنجلوأمريكية للتحقيق في قضية اللاجئين وآثارها المحتمَلة على فلسطين. وكان ترومان يشكُّ في أن اللجنة ستوافق تلقائيًّا على السياسة البريطانية الحالية، ولكن بسبب غياب أي خطة بديلة كان عليه أن يوافق عليها.[7]

وقد بدأت اللجنة المكوَّنة من ستة موفَدين أمريكيِّين وستة موفَدين بريطانيِّين عملها في يناير عام ١٩٤٦، فسافر هؤلاء الأعضاء إلى شتى أنحاء أوروبا والشرق الأوسط، واستمعوا إلى شهادات عدد كبير من الشهود: عاملين في مجال الإغاثة، ومسئولين عسكريين، وسياسيين، وأكاديميين، وعرب ويهود. وشرح ماجنيس، ممثلًا عن حركة التوحيد، وجهةَ

نظره القائلة بإقامة دولة ذات قوميتين، في حين دافع كلٌّ من بن جوريون وجولدا مائير ووالتر لودرميلك بحرارة عن وجهة نظرهم القائلة بإقامة دولة يهودية خالصة. وأكَّد الصهاينة للجنة أن ٩٦٫٨٪ من اللاجئين يفضِّلون إعادة الاستيطان في فلسطين، ولكن جمال الحسيني أصرَّ على أن العرب سيقاومون الهجرةَ اليهودية وسيحاربون من أجل تحويل فلسطين إلى دولة عربية. وانتهت اللجنة إلى أن «وضع بريطانيا العظمى كانتداب ليس وضعًا جيدًا»، وأشارت إلى تصاعُد هجمات الميليشيات اليهودية ضد أهداف بريطانية، التي لم تقتصر على جماعات المجدِّدين وحسب وإنما من قوات الهاجاناه أيضًا. ومع ذلك قرَّرت اللجنة أن «فلسطين لن تكون دولة عربية أو يهودية»، وأوصت بوضعها تحت وصاية دائمة من الأمم المتحدة. وللتخفيف من مأساة اللاجئين اقترحت اللجنة السماحَ لمائة ألف يهودي بدخول فلسطين دفعةً واحدة، مع رفع الحدود التي قرَّرتها الوثيقة البيضاء على شراء اليهود للأراضي في فلسطين.

ونجح التقرير — الذي نُشر في أبريل — في إثارة غضب الفئات الثلاث المتناحرة في فلسطين. فقد اتَّهم الصهاينة اللجنة بالتضحية بطموحاتهم السياسية من أجل الأعمال الخيرية، وهاجم العرب اللجنةَ لموافقتها على هجرة اليهود وشرائهم الأراضي. ومع رضا البريطانيِّين عن الفقرة المقرَّرة لاستمرار الانتداب فإنهم وقفوا أمام رقم المائة ألف يهودي الموصَى بالسماح لهم بالهجرة. كان ترومان فقط هو الذي يبدو راضيًا. فقد رحَّب بإلغاء الوثيقة البيضاء، وأصدر تعليماته لوزارة الدفاع بإعداد عملية لنقل اللاجئين إلى فلسطين. ومن أجل تهدئة المخاوف البريطانية عيَّن دبلوماسيًّا هو هنري جرادي لمقابلة هربرت موريسون، البريطاني المسئول عن شئون فلسطين، من أجل تقصي توصيات اللجنة.

وقد صدرت خطة جرادي وموريسون في ٣١ يوليو ١٩٤٦، وأحدثت ضجةً فور صدورها. فبجانب منْح ١٠٠ ألف يهودي حقَّ دخول فلسطين، أوصت الخطة بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقاليم تنعَم جميعها بالحكم الذاتي: إقليم بريطاني يضم القدس التي تمثِّل نحو نصف مساحة البلد، ثم جيب عربي أصغر، ومقاطعة يهودية تتضمن أقلَّ من ٢٠٪ من مساحة فلسطين. وكان من المقرَّر أن تنضم الأقاليم الثلاثة في اتحاد فيدرالي واحد تحت وصاية الأمم المتحدة بالاشتراك مع بريطانيا. وأصابت المرارة الصهاينةَ بسبب تقليص حجم الإقليم المخصَّص لهم، ومنعهم من الاستقلال به؛ لذلك رفضوا مقترحات الخطة تمامًا. وصاح الحاخام آبا هليل سيلفر، خليفة ستيفن وايز، باعتباره صوتَ الصهيونية الأمريكية: «ينحصر الحل من وجهة نظر يهود أوروبا في فلسطين أو الموت.

أما يهود فلسطين فالخيار الآن بين الحرية أو الموت.» ومن جانبهم رفض العرب مجرَّد التفكير في الخطة. ولكن ترومان رحَّب بمقترحات موريسون وجرادي، باعتبارها أفضل الطرق لتأسيس «أرض الميعاد لبني إسرائيل، وأيسر السبل إليها ليهود أوروبا النازحين». وبدا الأمر وكأنه يمكن الوصول إلى حل وسط أخيرًا.

أو هكذا ظن ترومان. فقد انفجرت قضية فلسطين — الشديدة التقلبات — عام ١٩٤٧، مع أنه كان يظن أنها قابلة للاحتواء في العام الأول من رئاسته. فقد اعترض الصهاينة الأمريكيون بشدة على ما استشعروا أنه انجرافُ الإدارة الأمريكية بعيدًا عن مساندتها السابقة للدولة اليهودية، وأغرقوا البيتَ الأبيض مرةً أخرى برسائل وتلغرافات غاضبة. وتسبَّبت هذه المواجهة بين ترومان واليهود الأمريكيِّين في الضغط على إيدي جاكبسون، القصير الأصلع ذي الجسم الممتلئ، ودفعه إلى الخطوط الأمامية، وجنَّده القادة الصهاينة في محاولة لإقناع الرئيس بالإنصات إلى مطالبهم. وقال صاحب متجر الخردوات السابق: «هاري، إن شعبي بحاجة إلى مساعدة، وأنا أناشدك مساعدتهم.» تأثَّر ترومان بهذه المناشدة، ولكنه سرعان ما ندِم على صبره وتحمُّله. فقد اقتحم الحاخام سيلفر المكتبَ البيضاوي محتجًّا على سياسات ترومان، ضاربًا بقبضةِ يده على مكتب الرئيس.

وتمتم ترومان قائلًا: «الخوف وسيلفر هما الأسباب المساهمة في بعض — إن لم يكن كل — متاعبنا.» ورفض استقبال أيِّ مندوبين صهاينة بعد ذلك، وادعى أنه أحرق كومةً كاملة من تلغرافات اليهود الأمريكيِّين. وقال: «حتى يسوع المسيح لم يتمكَّن من إرضائهم عندما كان يعيش على ظهر الأرض، فكيف يمكن لأي شخص أن يتوقَّع أن يحالفني الحظ في ذلك؟»[8]

لم يكن اليهود فقط هم مَن يطاردون ترومان، ولكن طارده الأمريكيون المسيحيون أيضًا. فقد ذكَّر معهد مودي لدراسات الكتاب المقدَّس في شيكاجو مثلًا الأتباع المخلصين بأن «صكوك الملكية» التي تَمنح فلسطين لليهود لا تزال «باقية في ملايين النسخ من الأناجيل حول العالم». وقد أثَّر ضحايا معسكرات النازيِّين أكثرَ في الصحافة، ومن بينها جريدة «نيويورك تايمز»، التي قدَّمت في أحد الأيام أكبرَ تغطية صحفية عن الصهيونية، ودعت إلى صورة من صور المساندة والدعم لاستقلال اليهود في فلسطين. ووجدت استقصاءات للرأي جرى القيام بها عام ١٩٤٧ أن الأمريكيِّين يؤيدون بنسبة واحد إلى اثنين إقامةَ دولة يهودية. أما بعض أكثر الضغوط كثافةً على ترومان فلم يكن منبعها الأجواء العامة، بل قادة الحزب الديمقراطي الذين حذَّروه من أن الفشل في دعم أهداف الصهيونية سيكلف الحزب مقاعدَ الأغلبية في الكونجرس، وربما مقعد الرئاسة أيضًا.

وكان كبار الدبلوماسيِّين ومسئولي وزارة الدفاع هم الذين يوازنون تلك التأثيرات، عن طريق التنبؤ بتبعات كارثية للولايات المتحدة إذا اتبعت مسارًا مواليًا للصهيونية، وكذلك كان مناصرو المؤسَّسات الخيرية في الشرق الأوسط، الذين تنبئوا بمحو «مجهودات وتضحيات أجيال كاملة من المبشِّرين والمعلمين». واستمرت التطورات في العالم العربي في تعزيز هذه المخاوف. فقد هدَّد المسئولون السعوديون بالانتقام اقتصاديًّا من الولايات المتحدة، وألمحوا إلى احتمال «حرب عصابات ضد أمريكا في جميع أنحاء العالم العربي». ولأول مرة في تاريخ المنطقة تتظاهر الجماهير في مصر وسوريا والعراق ضد السياسة الأمريكية، وتشعل النيران في مركز المعلومات الأمريكي في بيروت. وتذكَّر آتشيسون أنه بسبب فلسطين كانت الولايات المتحدة قد حلَّت محل بريطانيا في كونها «أكبر قوة ممقوتة في الشرق الأوسط».

وأعلن ترومان، رجل الدولة، التزامَه بالترفُّع عن التيارات الحزبية المتقاطعة والاحتجاجات العربية، وأن يقوم بصياغة سياسته تجاه فلسطين «ليس في ضوء النفط، وإنما في ضوء العدالة». لكنه بوصفه سياسيًّا لم يكن ليستطيع التصرُّف على أساس المبادئ وحدها. واتباعًا لسابقةٍ قام بها ويلسون عندما خاطبَ يهود أمريكا عشيةَ أقدس أيامهم، يوم الغفران، كرَّر ترومان يوم ٤ أكتوبر نداءه بالسماح لمائة ألف يهودي بدخول فلسطين، لكنه دعا أيضًا إلى تكوين «دولة يهودية قابلة للاستمرار على مساحة كافية من فلسطين».

مثَّل تصريح يوم الغفران أولَ سابقة يقوم فيها رئيس أمريكي رسميًّا بدعم مطالب يهودية بإقامة دولة لهم، وأثار بذلك حَنَق كلِّ معارضي تلك المطالب في الولايات المتحدة والشرق الأوسط. ولكن بسبب فشله في تعريف مصطلح «مساحة كافية» أثار ترومان أيضًا ثائرة الجماعات الصهيونية. وبذلك أثبتت هذه اللفتة في النهاية أنها كانت غيرَ ذات جدوى، وكان أداء الديمقراطيِّين في انتخابات المجالس النيابية لعام ١٩٤٦ سيئًا، مما خلَّف في ترومان مرارة وغضبًا. وكان يغلي غضبًا من اليهود «المعتوهين الغريبي الأطوار» الذين ادَّعى أنهم «سيقدمون البلد [فلسطين] إلى ستالين إذا أُتيحت لهم الفرصة للقيام بذلك»، وأنهم يخططون «للقضاء على تاريخ الولايات المتحدة أو تاريخي أنا شخصيًّا». لكنه وجَّه أيضًا نقدًا لاذعًا لمسئولي وزارة الخارجية، الذين بدَوا من وجهة نظره «مهتمين برد الفعل العربي أكثرَ من اهتمامهم بمعاناة اليهود» والذين كثيرًا ما كانوا معادين للسامية.

ولكن غضب ترومان لم يكن ليخفي حقيقةَ أن قضية فلسطين كانت قد أدَّت إلى اغتراب قطاع كبير من الكونجرس والجمهور الأمريكي عن مؤسسة السياسة الخارجية. فمنذ بدايات عام ١٩٤٧ كان هذا الانشقاق قد بدأ في إحداث انقسام في البيت الأبيض. وكان اثنان من مستشاري الرئيس الأساسيِّين: المستشار اللبق الأنيق كلارك كليفورد وديفيد نايلز، الذي كان أكثرَ انكبابًا على الكتب وأكثر تحفظًا، الأول بروتستانتي والثاني يهودي، يحثان ترومان على تبني وجهات نظر موالية لليهود، لأسباب سياسية وأخلاقية. وعلى عكسهم كان ائتلاف قوي يقوده جيمس فوريستال، وزير الدفاع الكئيب القوي الشكيمة، وجورج مارشال، جنرال أركان حرب الجيش الوقور، الذي قيل عنه إنه أكثر الشخصيات الأمريكية احترامًا. وكان فوريستال ومارشال يؤكدان أن المعايير الديمقراطية الأساسية تملي بأن يحكم فلسطين العربُ الذين يمثلون الأغلبية بها، وأن تحكم الاعتبارات الاستراتيجية — وليس السياسة الداخلية — سياسةَ الرئيس.

وثار هذا الجدال داخل وخارج البيت الأبيض، في حين كان الوضع في فلسطين ينحدر نحو حرب مفتوحة. وتحالفت الهاجاناه مع حركة المجدِّدين متغلبتين على سنواتٍ من الصراع الداخلي، في القيام بهجمات متصاعدة ضد الأرتال والجسور والقطارات البريطانية. وردَّ البريطانيون في يونيو بتمشيط المناطق اليهودية في فلسطين بحثًا عن أسلحةٍ غير مرخَّصة وقبضوا على ٢٥٠٠٠ يهودي، من بينهم معظم القادة الصهاينة. وفي ٤ يوليو عام ١٩٤٦ اغتيل ٤٠ لاجئًا يهوديًّا في مذبحة في كالسي ببولندا، مما أكَّد استحالةَ إعادة اليهود إلى أوطانهم السابقة. وجاءت الاستجابة اليهودية لتلك الأحداث بعد أقل من ٣ أسابيع، عندما انفجرت قنبلة في المقر الرئيسي للبريطانيِّين في فندق كينج ديفيد بالقدس، وكان الهجوم — الذي خطَّطت له الهاجاناه، ونفَّذته ميليشيا إرجون المجددة بقيادة مناحم بيجين، الذي ادَّعى أنه حذَّر البريطانيِّين مرارًا وتكرارًا — قد أسفر عن مقتل ٩١ شخصًا، منهم ١٧ يهوديًّا. ودُفن تحت رُكام الفندق آخرَ أمل في حدوث تصالح بين بريطانيا ويهود فلسطين، أو في تفادي حرب واسعة النطاق بين اليهود وعرب فلسطين.

وهدَّد توسُّع أعمال العنف بالتغلب على محاولات ترومان للتوصل إلى استراتيجية محكمة بشأن فلسطين والتغلب أيضًا على الخلافات بين مستشاريه الرئيسيِّين حول مستقبل البلاد. وببداية عام ١٩٤٧، ظل التوجُّه الذي اتخذته السياسة الأمريكية تجاه هذه القضية مترددًا وغير حاسم، ممثلًا، حسب كلمات ترومان، «السؤال الأكثر أهمية».[9] وتصاعد هذا الاضطراب والارتباك فجأةً في فبراير عندما اعترفت بريطانيا أخيرًا — بعد

إجهاد جيوشها واقتصادها — بأنها غير قادرة على الاستمرار في إدارة فلسطين. وتحوَّلت مسئولية اقتراح حل لهذا الصراع المعقَّد المتشابك إلى الأمم المتحدة.

صراعات حول التقسيم والاعتراف

تجاوبت الأمم المتحدة مع قرار بريطانيا بتكوين «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين» مكوَّنة من مندوبين عن ١١ دولة من أعضاء الأمم المتحدة. وبداية من مايو عام ١٩٤٧، سافرت اللجنة إلى الشرق الأوسط، وتحدَّثت مع مسئولين عرب ويهود. وتحدَّث إليها القائد الصهيوني العجوز حاييم فايتسمان عن «آلاف السنين من الاستشهاد والشتات» للشعب اليهودي، وتوقه إلى أن يكون له دولته الصغيرة، في حين حذَّر بن جوريون من أن اللاجئين اليهود مصمِّمون على الوصول إلى فلسطين، حتى لو كان عليهم أن يبحروا إلى هناك على متن «قوارب صغيرة». وتجسيدًا لقوله قامت سفينة أخرى من سفن الهاجاناه المسمَّاة باسم «إكسودس ١٩٤٧» بمحاولة لكسر الحظر البريطاني، لكنها مُنعت وأُعيد ركَّابها مرةً أخرى إلى أوروبا. ودُعيت اللجنة لترى بنفسها على أرض الواقع القوات البريطانية وهي تقود كالقطيع أكثرَ من أربعة آلاف وخمسمائة من اليهود الناجين من معسكرات الموت النازية — في أسوأ حال صحيًّا وبدنيًّا، لكن في معنويات مرتفعة متحدية — إلى إحدى السفن مُرحلة إياهم إلى هامبورج بألمانيا. وعلى العكس من ذلك، قاطع العرب اللجنةَ رسميًّا. ومع ذلك، أدلى الحكام العرب بتصريحات غير رسمية إلى أعضاء اللجنة أكَّدوا فيها معارضتهم وجودَ «رأس جسر ساحلي» في الشرق الأوسط، وأكَّدوا إصرارهم على تأسيس دولة عربية فقط في فلسطين.

كان لتجربة اللجنة في فلسطين أثرٌ عميق على النتائج التي خلَصت إليها وقدَّمتها في الأول من سبتمبر. ومع أن ثلاثة من أعضائها أوصوا بأن تصبح فلسطين دولةً اتحادية مزدوجة القومية، فإن الأغلبية وهم ثمانية أعضاء دعت إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين منفصلتين — يهودية وعربية — مع وجود تنظيم دولي للقدس. وكان على الدولتين أن تحقِّقا استقلالهما في عامين وأن يُربطا معًا عن طريق اتحادٍ اقتصادي. (انظر خريطة ٣).

ومع أن هذه الخطة تركت الدولةَ اليهودية بحدود ملتوية — إذ كانت أغلبية السكان قبل وصول المهاجرين من العرب — فإن الصهاينة تبنَوا فكرةَ التقسيم بِعَدِّها تحقيقًا لحُلم استمر ألفي عام. وندَّد العرب سواء في فلسطين أو في سائر الشرق الأوسط بالخطة ونظروا إليها باعتبارها أحدَث محاولة غربية للاستيلاء على الأراضي العربية واستعمارها

بأجانب. أما الجامعة العربية فقد أعلنت التزامها بدعم ومساندة عرب فلسطين في «حربها التي لا تهدأ» ضد التقسيم، وذلك بعد استشارة المفتي، الذي كان في منفاه في مصر، وأعلنت التزامها أيضًا بمدٍّ عرب فلسطين «بالرجال والذخيرة والأموال».

ومع مساندة ترومان لتقرير هاريسون، وتقرير موريسون جرادي والتقرير الأنجلوأمريكي، فإنه كان مؤرَّقًا بسبب النتائج التي توصلت إليها اللجنة. فقد كان يخشى أن تُجرجَر الولايات المتحدة إلى تطبيق التقسيم، أو يحدُث ما هو أسوأ، وهو أن يطالب الاتحاد السوفييتي بدور في التقسيم، مما يمنحه قاعدةً في الشرق الأوسط عن طريق فلسطين بعد أن حُرم من ذلك في تركيا وليبيا وإيران. وكان الرئيس قلقًا أيضًا بشأن ما إذا كان المستوطنون الصهاينة — المشهورون بزراعاتهم وسياستهم اليسارية المتطرفة — يمكن أن يظهروا دولةً مواليةً للسوفييت أو ما إذا كان من الممكن أن يؤدي يأس العرب من الغرب إلى التحالف مع موسكو. أما أكثر ما كان يخشاه ترومان فكان فكرة أن تتغلَّب القوات العربية على الهاجاناه، وأن يتطلب الأمر تدخُّل الولايات المتحدة عسكريًّا في فلسطين، لمنع حدوث محرقة أخرى. وقدَّرت وزارة الدفاع الأمريكية أن الأمر سيتطلب نحو ٢٠٠٠٠٠ جندي لتنفيذ التقسيم، مما لا يُبقي جنديًّا واحدًا للدفاع عن اليونان وتركيا أو غرب أوروبا.

وفي ضوء هذه المخاوف، ماطل ترومان في اتخاذ قرار، فلم يتبنَّ فكرة التقسيم ولم يرفضها. كان قد تدخل مرةً من قبلُ في الشأن الفلسطيني، «ولا ينوي تكرار هذه التجربة مرة ثانية». ولكن الأحداث توالت لإجباره على تبني موقفٍ أكثرَ حسمًا. ومع عداء الاتحاد السوفييتي التقليدي لفكرة إنشاء وطن قومي لليهود، فإنه اقتنع فجأةً أنه سيحقِّق مكاسبَ أكبر بطرد البريطانيِّين من قلب الشرق الأوسط الاستراتيجي، عما سيحققه بالتنديد «بالسفاحين الصهاينة». ولذلك أعلن الكرملين في ١٣ أكتوبر مساندته لفكرة التقسيم. وبعد ذلك بأقل من شهر قرَّرت الحكومة البريطانية الواهنة أنها لن تتمكَّن من الحفاظ على النظام في فلسطين في فترة الانتقال التي ستستمر سنتين، وعلى ذلك ستسحب قواتها في مايو عام ١٩٤٨.[10] وفي ظل مساندة السوفييت الصريحة للصهاينة واقتراب نهاية الانتداب البريطاني، لم يَعُد ترومان يملك حرية الخيار الدبلوماسي ولا رفاهية استمرار موقفه المبهم حيال التقسيم.

في تلك الأثناء تصاعدت الضغوط الصهيونية على الرئيس. ومرةً أخرى أُغرق البيت الأبيض بآلاف الرسائل التي تحثُّه على تبنِّي موقف واضح موالٍ للتقسيم. واعترف ترومان

في مذكراته قائلًا: «أنا أرى أن اليهود في غاية الأنانية، فلا هتلر ولا ستالين عاملاهم معاملةً سيئة أو عنيفة.» ومع ذلك فقد تمكَّن من الاحتفاظ بتلك الأفكار لنفسه، وساند نتائجَ اللجنة علنًا. وأصدر ترومان توجيهاته لمندوب أمريكا في الأمم المتحدة بـ «حصد أكبر عدد من الأصوات»، وذلك عندما عُرضت فكرة التقسيم على الجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر نوفمبر.

تحوَّل مقرُّ الأمم المتحدة — الذي كان يقع عندئذٍ في قرية «ليك ساكسس» في لونج أيلاند — إلى ساحة للضغط المكثَّف، ووصل الأمر إلى الممارسات القهرية وليِّ الذراع، من قِبل الصهاينة. وهُدِّدت الدول التي بدت أنها ميَّالة إلى الاعتراض على القرار أو الامتناع عن التصويت عليه — مثل كوبا وهايتي وإثيوبيا — بفقد الدعم السياسي والمالي الأمريكي إذا لم تصوِّت بالموافقة على القرار. وقيل إن عشرة من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي اتحدوا معًا للضغط على الفلبين، واتحد ٣١ منهم للضغط على اليونان. أما رئيس ليبيريا فقد تلقَّى رسالة من هارفي فايرستون، يخبره فيها بضرورة مساندته للتقسيم وإلا سيكون مهددًا بفقدان عقود تصدير المطاط ذات القيمة المالية الكبيرة، وتلقى اتصالًا هاتفيًّا أيضًا من عضو الكونجرس سول بلوم يلحُّ عليه بضرورة مساندة التقسيم. وعملت الدول العربية كذلك بجدٍّ لإقناع المندوبين المتردِّدين في معارضة خطة التقسيم، لكن مجهوداتهم كانت أقلَّ فعاليةً وتأثيرًا من الصهاينة. ونجح القليل من تلك المحاولات والمجهودات — سواء العربية أو الصهيونية — في تغيير مواقف المندوبين. وعند اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ من نوفمبر، وافقت على القرار رقم ١٨١ بأغلبية ٣٣ صوتًا إلى ١٣، مع امتناع عشر دول عن التصويت. وكانت دولتان مستقلتان على وشْك الظهور في فلسطين — واحدة عربية والأخرى يهودية — بموافقة الأمم المتحدة وبتصريح من الولايات المتحدة.[11]

وبعد أن وضع ترومان إدارته صراحةً وراء دعم خطة التقسيم، كان يتوقَّع الانتقال إلى قضايا عالمية أخرى، ولكن الاقتراع في الأمم المتحدة أدَّى فقط إلى تفاقم الأزمة. فقد خرَّبت الجماهير الغاضبة السفارةَ الأمريكية في دمشق، وفجَّر متطرفون إسلاميون القنصلية الأمريكية في القدس. وفي أماكنَ أخرى من القدس أطلق قناصةٌ عرب النيرانَ على سيارة إسعاف وهي صاعدة جبل المشارف في الطريق إلى مستشفى هاداسا، أما في الشمال فعبَر تسعمائة عربي من الجنود غير النظاميِّين الحدودَ السورية للاعتداء على مستوطنة كفار سولد، وهي المستوطنة التي سُميت على اسم هنريتا سولد مؤسِّسة هاداسا. ووجهت

وزارة الخارجية بالتعاون مع أركان الحرب المشتركة ووكالة الاستخبارات المركزية الأنظارَ إلى تلك الأحداث باعتبارها دليلًا على أن التقسيم ليس «عمليًّا» وأن إعادة النظام إلى البلاد يمكن أن يكون فقط عن طريق تدخُّل القوات الأمريكية والسوفييتية معًا، وهي أسوأ نتيجة كان من الممكن تخيُّلها.

تزايدت أيضًا الضغوط الصهيونية على البيت الأبيض، بدلًا من أن تهدأ، بعد الاقتراع في الأمم المتحدة، كإجراء احتياطي ضد أي تراجع رئاسي بشأن التقسيم. ونجحت تلك الإجراءات العنيفة فقط في إبعاد ترومان أكثرَ وأكثر عن الصهاينة، لدرجةِ أنه رفض التحدث إلى أيٍّ من قادتهم. وما حدث هو أن الإدارة الأمريكية أعلنت في ديسمبر تعليقَ جميع مبيعات الأسلحة الأمريكية إلى الشرق الأوسط. ولم يكن لهذا الحظر أيُّ تأثير يُذكر على القوات العربية، التي كانت عادةً تتسلح بأسلحة أوروبية، لكنه حرم يهود فلسطين من موردٍ حيوي للسلاح. ونتيجةً لذلك بدأت القيادة الصهيونية في حملة عالمية للحصول على أسلحة من كل الأنواع. ورأس تيدي كوليك، عمدة القدس فيما بعدُ والمولود في فيينا، تلك العملية في الولايات المتحدة، فحصل على تمويل من شخصيات سيئة السمعة مثل باجزي سيجل، وعدد من نجوم هوليوود، من بينهم فرانك سيناترا. ولكن هذه التبرعات — على سخائها — لم تستطِع تعويضَ نقص المدفعية والدبابات والطائرات الحربية لدى الهاجاناه.

وأصبح هذا النقص شديدًا بسبب عبور عصابات من الجنود غير النظاميِّين العرب إلى فلسطين للانضمام إلى الميليشيات العربية الفلسطينية في القيام بهجوم شامل على المستوطنين الصهاينة. أصدر بن جوريون أوامره لقواته بممارسة ضبط النفس والاستمرار على حالة الدفاع وليس الهجوم خوفًا من أن يؤدي تفشي حرب أهلية في فلسطين إلى ذعر عالمي يؤدي بدوره إلى إعادة النظر في موافقته السابقة على التقسيم. ولكن هذه السياسة كان لها مردود عكسي. فقد نجحت القوات العربية في عزل وحصار المستوطنات اليهودية وتحويل الطرق الجبلية الملتوية نحو القدس إلى فخٍّ قاتل للمركبات اليهودية. وبدا الأمر وكأن الجالية اليهودية قد لا تتمكَّن من الصمود حتى ١٥ مايو، وهو التاريخ المحدَّد لانسحاب بريطانيا من فلسطين، وواجه بن جوريون خيارًا صعبًا: فإما القتال والمخاطرة بالمساندة العالمية له، أو البقاء سلبيًّا والمخاطرة بالإبادة التامة لشعبه.

كان الموقف يزداد انهيارًا في فلسطين، مما أدَّى إلى تعميق حس ترومان بالفزع. واعترف لإيدي جاكوبسون بأن «الوضع كان صداعًا في رأسي مدة سنتين ونصف السنة.

فاليهود انفعاليون للغاية، ومن الصعب أن تتحدث إلى العرب، بحيث يصبح من المستحيل إنجاز أي شيء. وبالطبع فإن البريطانيِّين على أعلى درجة من عدم التعاون». ويأسًا من الوصول إلى أي طريقة أخرى لحقن الدماء وافق الرئيس على مراجعةِ الجمعية العامة للأمم المتحدة قضيةَ فلسطين، وطلب من وزارة الخارجية اقتراحَ توجهات بديلة للسياسة الأمريكية، بعيدًا عن أي «عناصر سياسية».

وبدأت وزارة الخارجية في ابتكار تنظيم جديد للوصاية على فلسطين، بحيث تُديرها الولايات المتحدة بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا. وقال لوي هندرسون اللبق القادم من منطقة الوسط الغربي الأمريكي إن الخطة ستقرر «بصورة حاسمة» أن الولايات المتحدة لن «تسمح لنفسها» بأن تسيطر عليها الصهيونية، وهو ما «سينتج عنه تحرير اليهود الأمريكيِّين من هيمنة الأمريكيِّين المتطرفين». وظل موقف ترومان تجاه الوصاية غيرَ واضح، مع أنه كان يبدو وكأنه ينظر إليها على أنها بشارة للتقسيم وليست بديلًا عنه، كما كانت وزارة الخارجية تفضِّل. وبالتأكيد لم تكن نيته هي تحويلها إلى سياسة كما فعل غير عامد، مع العديد من الوثائق التي وُضعت أمامه على متن يخت الرئاسة ويليامزبرج، أثناء إبحاره إلى سان كرواه في فبراير.

عندما عاد ترومان إلى واشنطن استمرَّ في إلقاء اللوم على «العناد البريطاني وتطرُّف يهود نيويورك» على صداع فلسطين الذي أصابه في رأسه، وعلى تدهور كل الاجتماعات التي عقَدها مع القادة الصهاينة. ومع ذلك فلم يستطِع أن يجبر نفسه على توبيخ إيدي جاكوبسون. فقد طلب صديق الرئيس القديم منه طلبًا واحدًا فقط، هو الحديث إلى حاييم فايتسمان. كان ترومان قد قابل فايتسمان مرةً واحدة من قبل، في نوفمبر السابق، وكان فايتسمان قد أقنعه بضم صحراء النقب ضمن حدود الدولة اليهودية المقترحة. ولكن القضية الآن لم تَعُد حدودَ هذه الدولة، بل بقاءها. قاوم ترومان الفكرة، ولكن جاكوبسون أشار عندها إلى تمثال لأندرو جاكسون. وذكره قائلًا: «هاري، طوال حياتك كان لك مثال أعلى، وأنا أيضًا لديَّ مثال أعلى». وضحِك ترومان قائلًا: «لك ما تريد، أيها الوغد الأصلع.» دخل فايتسمان البيت الأبيض سرًّا في ١٨ من مارس، وأخبر فايتسمان ترومان أن الشعب اليهودي يقف بين خياري الدولة ذات الحكم الذاتي أو الإبادة، وليس أمامه خيار سوى القتال من أجل الاستقلال. وعبَّر ترومان عن رغبته في تجنُّب مزيد من سفك الدماء في فلسطين، لكن قيل إنه أكَّد لفايتسمان أنه يمكنه «الاعتماد» على الولايات المتحدة. وأضاف: «أنا مع التقسيم.»

في اليوم التالي وفي إشارة إلى الوثيقة التي وقَّعها ترومان على نحوٍ أعمى على يخته، أخبر السفير وارن أوستن الجمعية العامة للأمم المتحدة أن الولايات المتحدة لم تَعُد تساند التقسيم وتفضِّل الآن فرض الوصاية على فلسطين. صُدم الصهاينة، وقال الحاخام سيلفر إن هذا الخطاب يمثل «انقلابًا مروعًا» و«تراجعًا مميتًا» لليهود، أما بن جوريون فرأى ذلك «استسلامًا للإرهاب العربي». ولكن المرارة التي أصابت الصهاينة لم تكن أكثرَ من مرارة ترومان، فقال الرئيس غاضبًا إن وزارة الخارجية «قد سحبت البساط من تحت قدميه» وحوَّلته إلى «كاذب ومخادع». وكان إعلان أوستن مجرَّد دليل إضافي على أن «الصبيان المتكلِّفين بالرسميات» — كما كان ترومان يطلق على المسئولين في وزارة الخارجية — «كانوا يريدون دومًا قطعَ رقبته».[12]

كانت حكومة الولايات المتحدة منقسمةً الآن بلا رجعة بين مسئولين يميلون إلى خطة الوصاية خوفًا على قوة أمريكا، وآخرين لا يزالون يساندون التقسيمَ مسترشدين بالمبادئ والاعتبارات السياسية. وزاد اتساع هذه الهوة في شهر أبريل، عندما غرقت فلسطين في فوضى أشدَّ.

تخلَّت الهاجاناه عن سياسة ضبط النفس واستعرضت أسلحةً تشيكية حصلت عليها حديثًا؛ لذلك اتجهت إلى الهجوم بدلًا من الدفاع فقط. فحرَّرت القوات اليهودية المستعمرات المحاصرة واخترقت حصار القدس. وهوجمت عشرات القرى العربية، وفي بعض الحالات طُرد سكانها. ووصلت أعمال العنف إلى ذروتها في دير ياسين بالقرب من القدس في التاسع من أبريل، عندما ذبح رجال ميليشيات من المجددين أكثرَ من مائة مدني عربي كان من بينهم نساء وأطفال. وعندما دخل جاك دي رينييه، الممثل السويسري للصليب الأحمر الدولي، رأى «جثثًا متناثرة. لقد «أبادوهم» ببنادقهم وقنابلهم، وأجهزوا على البقية بسكاكينهم.» وبعد أقل من أسبوع واحد، أعدَّ مسلحون عرب كمينًا لقافلة تابعة لمستشفى هاداسا، وقتلوا ٧٧ طبيبًا وممرضة ومريضًا. وقالت صحيفة «نيويورك تايمز» في تقرير لها: «عندما اشتعلت النيران في الحافلات، أُطلقت النار على الركَّاب وهم يحاولون الهرب منها. وبعد ظهيرة ذلك اليوم كانت الجثث متناثرة في الشوارع.» وفي نفس الوقت بدأ الفيلق العربي في شرق الأردن تحت قيادة ضباط بريطانيِّين في احتلال الضفة الغربية، وهي منطقة خصَّصتها الأمم المتحدة ضمن الدولة العربية المستقلة. وتجنبًا لمواجهة مع إمارة شرق الأردن، أرسل بن جوريون جولدا مائير في بعثة سلام سرية إلى الملك عبد الله، الذي رفض السلام واختار الحرب. واقتحم الفيلق بعد ذلك كتلةَ إتزيون التابعة للجاليات

اليهودية والواقعة بين القدس والخليل، فقتلت ١٥٧ من المدافعين عنها، معظمهم بعد استسلامهم.

وأحدث الانهيار التام للنظام في فلسطين ردودَ فعل متباينة بين العرب واليهود. فقد بدأت أعداد كبيرة من العرب في الفرار من فلسطين، بعد الرعب الذي أصابهم في دير ياسين، وبسبب شائعات بحدوث أعمال عنف أخرى في المستقبل، وبسبب تخلي الكثيرين من زعمائهم عنهم. اختنقت الطرق المؤدية شمالًا إلى سوريا ولبنان بآلاف العائلات الفلسطينية، وقد حملوا متاعهم بسرعة على حمير أو على رءوسهم، وعبروا نهر الأردن باتجاه الشرق، أو ازدحمت بهم مراكب الصيد المتجهة إلى غزة. وأبلغت وزارة الخارجية ترومان «أنهم لا يملكون أيَّ أمتعة وبدون مأوًى مناسب أو إمدادات طبية مناسبة أو غذاء. وحصص الطعام اليومية لهم، والمكوَّنة من الخبز فقط، توازي فقط ٦٠٠ سعر حراري». ولم يَقُم القادة العرب بأي شيء لوقف هذه الهجرة. بل إن اهتمامهم بفقد سكان فلسطين العرب كان أقلَّ من اهتمامهم بالأراضي التي حصل عليها الملك عبد الله في الضفة الغربية. ورغبةً منهم في مقاومة المزايا التي حصل عليها شرق الأردن، بدأ حكام مصر وسوريا والعراق في التفكير في القيام بغارات عسكرية خاصة بهم في فلسطين.

لم يكن أمام اليهود خيار التقهقر ولا القدرة العسكرية لمقاومة هجوم عربي عام. ولذلك وجَّهوا طاقاتهم نحو إعادة دعم دفاعات المستوطنات، وتخزين أسلحة خفيفة، وتهريب شحنات من الذخيرة وأسلحة ثقيلة وإمدادات طبية. في تلك الأثناء كانت القيادة الصهيونية في حالةٍ من التفاؤل الذي لا أساس له، وقد أعدَّت أرضَ اليهود لتصبح دولة. فأسَّست وزارات حكومية بها خطوط للهاتف ومكاتب، وأُصدرت طوابع وعملات ورقية بسرعة. وكان ينقصهم فقط اسم الدولة المرتقبة؛ كان من بين الاقتراحات أسماء صهيون وهيرتزليا ويهودا. وكان هناك اقتراح آخر باسم «إسرائيل».

في ضوء هذه الأحداث أصبحت مسألةُ ما إذا كان يجب على الولايات المتحدة أن تساند التقسيمَ أم الوصاية أمرًا لا أهمية له ولا جدوى منه. وبحلول الأسبوع الثاني من شهر مايو، ظل الغموض يكتنف مسألتين فقط: ما إذا كانت الدولة اليهودية الناشئة قادرة على مقاومة الهجوم العربي، وإذا كان الأمر كذلك، فهل تعترف أمريكا بالدولة اليهودية. وفي محاولة لتجنُّب كلتا المسألتين، اقترحت وزارة الخارجية أن يؤجَّل الإعلان عن استقلال الدولة اليهودية إلى أجلٍ غير محدَّد، وأن تُعلن هدنة عامة. وقبِل بن جوريون الهدنةَ، لكنه لم يوافق على تأجيل إعلان الاستقلال. في حين وافق العرب على وقف إطلاق النار، على

شرط إلغاء التقسيم. وبما أنه لم يتبقَّ خيار سوى الحرب، فكَّرت الإدارة الأمريكية في مدى قدرة اليهود على مقاومة غزوٍ من عدة جهات. ومع اختلاف التقديرات، فقد آمن مارشال، الذي كان أكثرَ المسئولين خبرةً في المجال العسكري، أن العرب هم الذين سينتصرون في النهاية. فسأل أحد كبار المسئولين الصهاينة: «ماذا سيحدث إذا كان هناك غزو مطوَّل؟ إنه سيضعفكم.»

وحضر مارشال ومعه روبرت لوفيت نائب الوزير اجتماعًا دعا إليه ترومان في ١٢ مايو حول قضية الاعتراف بالدولة اليهودية. وحضَره أيضًا المستشاران كلارك كليفورد وديفيد نايلز. وجلس الرئيس بينهم: الدبلوماسيون عن يمينه والمستشارون عن يساره. وافتتح لوفيت الاجتماعَ بملخَّص للتبريرات المألوفة التي تسوقها وزارة الخارجية ضد فكرة إنشاء وطن قومي لليهود، مستعرضًا المخاطرَ التي يمثلها ذلك لمصالح أمريكا الحيوية في الشرق الأوسط، والعبء الذي سيمثله على قوات أمريكا الدفاعية. وحذَّر من أن الرئيس قد يُنظر إليه على أنه متورط «في محاولة واضحة للغاية لكسب أصوات الناخبين اليهود». وشدَّد على الخطر الذي تمثله الصهيونية «البلشفية» والعملاء السوفييت الذين زُرِعوا — حسب ادعاء لوفيت — وسط اللاجئين. وأضاف أن الولايات المتحدة يجب ألا تتسرع في الاعتراف بما قد يتبين أنه دولة شيوعية، وبذلك تكون كمن اشترى «سمكًا في ماء». ولم يعترض مارشال على هذا التشبيه الغريب من لوفيت، لكنه اعترض على وجود مستشارين سياسيِّين في هذا الاجتماع الحاسم بشأن السياسة الخارجية. ثم قال، في ملاحظة صدمت نائبَ وزير الخارجية: «إذا كان الرئيس سيتبع نصيحةَ السيد كليفورد، وإذا كان عليَّ أن أصوِّت في الانتخابات، فسأصوت ضد الرئيس.»

وكان التهديد بالاختلاف مع مارشال المحترم الوقور قد أثار بالتأكيد فزع ترومان. فقد كانت شعبيته تشهد تراجعًا في استطلاعات الرأي الخاصة بانتخابات عام ١٩٤٨. لكن وجهه ظلَّ لا يعبِّر عن شيء، وأعطى الكلمة لكليفورد. بدأ كليفورد بتفنيد كل تبرير من تبريرات وزارة الخارجية، مؤكدًا أن العرب بحاجة إلى الأموال أكثرَ من حاجة الولايات المتحدة إلى نفطهم، وأن الاعتراف السريع بالدولة اليهودية هو أفضل السبل لدعم سمعة أمريكا في العالم، مع التفوق على الاتحاد السوفييتي في الوقت ذاته. واستوعب ترومان هذا التحليل أيضًا، لكنه لم يكن قد حسم رأيه بعدُ. وعندما سأله الصحفيون فيما بعدُ عن قراره بشأن الاعتراف، قال ترومان مسوِّفًا: «سأعبر الجسر عندما أصل إليه.»

ولاح الجسر في الأفق بعدها بيومين، في ١٤ من مايو، عندما كان البريطانيون يستعدون لإجلاء آخرِ جندي من فلسطين، وذلك عندما تجمَّع ٣٨ عضوًا في الحكومة

اليهودية المفترَضة في متحف تل أبيب. وقف الحضور عندما عزف أوركسترا فلسطين السيمفوني، وأدَّوا النشيد الوطني «هتكفاه»، بقيادة ممثليهم، ومن بينهم بن جوريون وجولدا مائير، ثم اصطفوا للتوقيع على وثيقة الاستقلال. كانت تلك الوثيقة تصف أرض إسرائيل بأنها موطن الشعب اليهودي ومحلُّ ميلاده، ومهد ثقافته الدينية والقومية، ومنبع عطاياه الروحية للعالم أجمع. وذكَّرهم ذلك بمحطات ومراحل الحركة الصهيونية، منذ تكوين المستعمرات اليهودية الأولى وحتى إعلان وعد بلفور، ثم مقاومتهم للنازية، وقرار الأمم المتحدة الصادر بالتقسيم. وتذكَّروا أيضًا معسكرات الاعتقال والإبادة، وعرضوا السلام على دول الجوار، وعلى عرب فلسطين الذين سيقبلون بالسيادة اليهودية. وتعهَّدت الوثيقة — ربما انعكاسًا لزيارة بن جوريون للولايات المتحدة وقراءاته المكثفة عن الديمقراطية الأمريكية — بالالتزام «بمبادئ حرية الضمير والعبادة والتعليم والثقافة»، وبضمان «المساواة الاجتماعية والسياسية لكل المواطنين، دون تفرقة على أساس العِرق أو الدِّين أو الجنس»، واتفق الموقِّعون على أن يكون اسم الدولة الجديدة إسرائيل.

وصلت أنباء ميلاد إسرائيل إلى واشنطن في الساعة السادسة من مساء يوم ١٤ مايو. في تلك الأثناء كانت جيوش مصر ولبنان وسوريا والعراق تحتشد «من أجل إحلال السلام والأمن في فلسطين» عن طريق غزو الدولة الوليدة، وكانت الطائرات المصرية قد قصفت بالفعل مدينةَ تل أبيب، واستمر اللاجئون العرب في الفرار من فلسطين، خوفًا أو بسبب إخراج القوات اليهودية لهم. وفي نيويورك، كان الوفد الأمريكي للأمم المتحدة لا يزال يمارس ضغوطَه من أجل الوصاية، في حين كانت الجاليات اليهودية وغير اليهودية المسانِدة للصهيونية في شتى المدن الأمريكية تقيم الاحتفالات. وظل السؤال قائمًا حول ما إذا كانت الولايات المتحدة ستعترف بدولة إسرائيل وحكومتها التي نصَّبت نفسها أم لا.

وحيدًا في البيت الأبيض، فكَّر ترومان في التبعات العديدة والمؤثِّرة لهذا القرار. واعترف في رسالة شخصية قصيرة إلى دين ألفانج، وهو ناشط عمالي مولود في إسطنبول كان يدعم القضية الصهيونية: «إن هدفي الوحيد في فلسطين كان وقف نزيف الدم. ومما تبدو عليه الأمور اليوم فمن الواضح أننا لم ننجح في ذلك. لا يوجد أحدٌ في أمريكا منح هذه المشكلة من وقته وفكره أكثرَ مما فعلت أنا.» كان على الرئيس أن يوازن بين الضرر المتوقَّع من جراء اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل على صورة أمريكا في العالم العربي، والحافز الذي سيمنحه ذلك للسوفييت، والأعباء المهولة التي سيضعها على عاتق الدفاعات الغربية، وبين الحاجة إلى إقامة العدل للناجين من الإبادة على يد النازية والاستجابة للتعاطف الشعبي مع الصهيونية. وكان عليه أن يضع في الاعتبار تورُّط أمريكا السابق

في الشرقِ الأوسط — وهو ميراث يتضمن مساندةَ الحركات الوطنية العربية واليهودية على السواء، وكذلك ضحايا الحرب والاضطهاد — بالإضافة إلى مصالح أمريكا الحيوية في المنطقة في الحاضر والمستقبل.

وفي السادسة وإحدى عشرة دقيقة ظهر متحدث باسم الإدارة الأمريكية أمام الصحفيِّين في البيت الأبيض، وقال للصحفيِّين بلا أي انفعال: «أُبلِغت الحكومة أنه قد أُعلنت حكومة يهودية في فلسطين، وأن الحكومة المؤقتة طلبت الاعتراف بها.» ثم قرأ المتحدث الرسمي من نصٍّ مطبوع، مهوِّنًا من شأن الرسالة وأهميتها، فقال: «تعلن الولايات المتحدة اعترافها بالحكومة المؤقتة باعتبارها السلطة الفعلية لدولة إسرائيل.»

أنا كورش!

تحقَّقت نبوءة عودة الدولة اليهودية التي وصفها ليفي بارسونز وبليني فيسك من منبر الوعظ بكنيسة «أولد ساوث» قبل ذلك بمائة وثلاثين عامًا، وكانت تلك النبوءة قد شجَّعت أناسًا من أمثال إيما لازاروس وويليام بلاكستون ولويس برانديس ومارك توين، على اختلاف توجهاتهم. على أن هذا لم يمنع في ذات الوقت من تحقق بعض المخاوف التي عبَّر عنها سيلاه ميريل عام ١٨٨٠، وتشارلز كرين وهوارد بليس بعد الحرب العالمية الأولى، ثم عبَّر عنها فيما بعد آلان دالاس وعدد كبير من المسئولين الحكوميِّين. ولسوف تصبح إسرائيل تدريجيًّا حليفًا قويًّا من الناحية العسكرية للولايات المتحدة ويتزايد باضطراد تقديرها واحترامها له، وستصبح دولة ديمقراطية نابضة بالحياة وإن كانت غالبًا ما تثير الضجيج. ولم تتحوَّل تلك الدولة قط إلى البلشفية أو احتاجت إلى قواتٍ أمريكية للدفاع عنها، على أن تلك الدولة اليهودية سوف تنشر العداء في شتى أنحاء الشرق الأوسط، وستصبح سببًا من أسباب عداوة المسلمين للغرب قرونًا طويلة. وسوف يمثل اللاجئون العرب الذين حملوا اسم «فلسطينيين» معهم إلى المنفى قضيةً أساسية في الصراع العربي الإسرائيلي المستمر، وسوف ينظرون إلى الولايات المتحدة باعتبارها السببَ في محنتهم. وعلى عكس توقعات وزارة الخارجية فقد استمرَّت كمياتٌ هائلة من النفط العربي في التدفُّق على الولايات المتحدة بعد اعترافها بإسرائيل وإن كان قد تدفَّق أيضًا الغضب العربي عليها.

أثار تأسيس دولة إسرائيل توقُّعاتٍ متفائلة بين العديد من الأمريكيِّين، ومخاوف متشائمة في آخرين، وفرحًا وخوفًا. وتردَّد هاري ترومان بين الاستجابتين. ولما كان ترومان

يوصف بأنه شخص يستطيع أن يسير ذهنه في اتجاهين مختلفين على الأقل في نفس الوقت وبكل إخلاص، فقد لعن الصهاينة ومسانديهم الأمريكيِّين مقلدًا في كثير من الأحيان أولئك المعادين للسامية الذين يحتقرهم. على أنه تسامى في الوقت ذاته فوق حدة غضبه وأفكاره المسبقة، وساند حقَّ اللاجئين اليهود في الهجرة إلى فلسطين، وساند التقسيم، واعترف باستقلال إسرائيل. ومع أنه كثيرًا ما انتقد سياسات إسرائيل، وخاصة رفْضَها السماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين، فإنه لم يندم قط على قراره باعترافه بإسرائيل الذي اتخذه في ١٤ مايو. بل على العكس، فقد بدا أنه وجد متعةً بالغة في إعادة اليهود إلى وطنهم وفي الدور الذي لعبه فيها، وهو المعمداني البسيط الذي أتى من ميسوري. وعندما قدَّمه إيدي جاكوبسون إلى وفد من اليهود الأمريكيين، باعتباره الزعيم الذي ساعد في تأسيس دولة إسرائيل، انتفض ترومان صارخًا: «ماذا تعني بقولك ساعد في التأسيس؟ أنا كورش، أنا المؤسِّس!»[13]

لم يكن تفاخُر ترومان مجرَّد حديث مرْسَل في نوبة غضب؛ فالملك الفارسي كورش الكبير (٥٧٦–٥٢٩ ق.م) لم يُعِد اليهودَ من المنفى سامحًا بإعادة بناء دولة يهودية فحسب، بل سيطر أيضًا على إمبراطوريةٍ شرق أوسطية مترامية الأطراف. كانت الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي قوةٌ لا ندَّ لها في الشرق الأوسط؛ لم تكن إمبراطورية بالمعنى المألوف للكلمة، لكنها كانت قوةً مهيمنة وكيانًا عسكريًّا وسياسيًّا ضخمًا قادرًا على حماية حدود المنطقة ودعم الدول الوليدة. كانت الولايات المتحدة قد حقَّقت تلك الهيمنة في وقت قصير يثير الدهشة، في أثناء هذا الوقت كان الأمريكيون قد حوَّلوا أنفسهم من مجرد مراقبين سلبيِّين لشئون الشرق الأوسط إلى المسئولين الرئيسيِّين عن تخطيط المنطقة والمحكِّمين لما يبدُر فيها من نزاعات.

كانت تلك هي الدولة التي قضى ممثلوها الوقت في قراءة الجرائد أثناء جلسات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠، وهي أيضًا الدولة التي رفض صانعو سياساتها الاعترافَ بالمملكة السعودية عندما أُعلن تأسيسها، وهي أيضًا الدولة التي كانت تنظر إلى فلسطين — بل إلى معظم الشرق الأوسط — باعتباره من الممتلكات الأوروبية التي يجب عدم انتهاك حُرمتها. ولكن بعد ذلك بخمس وعشرين سنة كان للولايات المتحدة نفوذٌ اقتصادي واستراتيجي لا مثيل له في شتى أنحاء المنطقة. كان سكان المنطقة، ومعظمهم كان لا يزال يرزح تحت نِير الاستعمار، ينظرون إلى الولايات المتحدة باعتبارها الملهمَ والمحرِّر من السيطرة الأجنبية. وتَدين العديد من دول الشرق الأوسط للولايات المتحدة باستقلالها، وقد أصبح

بعضها فيما بعدُ من ألد أعدائها، في حين تلقَّت دولٌ أخرى مساعدات اقتصادية أو بنية تحتية أو إرشادات سياسية، وتُعَدُّ كلها أحجار البناء لسيادة أي دولة، وكانت جميعها هدايا من الشعب الأمريكي.

وكان معلِّمو القرن التاسع عشر الأمريكيون قد ساعدوا في تحديد هوية عربية جديدة للعديد من شعوب الشرق الأوسط، وفي الفترة ما بين مؤتمر السلام بباريس وتأسيس دولة إسرائيل كان الجنود ورجال الدولة الأمريكيون قد ساعدوا في إعادة تشكيل المنطقة. وفي حين كانت المنطقة أبعدَ ما تكون عن اتحاد فيدرالي بين دول ديمقراطية مستنيرة كالذي كانت تتخيَّله أجيال عديدة من الأمريكيين، كان الشرق الأوسط يبعُد بالقدْر نفسه عن حالة الركود والتخلف التي كان عليها في ظل حكم العثمانيين، أو حالة الخليط من المستعمرات الأوروبية التي كان عليها في فترةِ ما قبل الحرب العالمية الثانية. وبنهاية أربعينيات القرن العشرين كان هناك شرق أوسط مختلف تمامًا — ناهض وغير قابل للقمع ومتردد بين الأصالة والمعاصرة — يتفاعل مع ولايات متحدة مختلفة وأشد قوة، ولكن هذا التفاعل لم يسِر دائمًا على نحوٍ ودي.

فمع المساعدات التي قدَّمتها الولايات المتحدة لدول الشرق الأوسط الوليدة، أصبح العديد منها ينظر إليها باعتبارها خليفة أوروبا الإمبريالية، أي قوة استعمارية تتحدَّث عن التنمية والديمقراطية، في حين أنها تستغل موارد المنطقة وتساند أنظمة الحكم المحلية القمعية. وهاجم دعاةُ التحرُّر الوطني من العرب الولايات المتحدة قائلين إنها لا تساند الحركاتِ الوطنيةَ إلا عندما تتفق هذه الحركات مع أيدولوجيتها، وندَّد الأصوليون الإسلاميون بالولايات المتحدة باعتبارها تجسيدًا لليبرالية الغربية والعلمانية والفساد. ولأكثر من قرن كامل، ظلَّ الأمريكيون يمدُّون الشرق الأوسط بمساعداتٍ خيرية وتوجيهات أيديولوجية، ولكن بدءًا من فترةِ ما بعد الحرب أصبحوا أيضًا هدفًا للكراهية العميقة والاستياء الشديد من قِبل سكان المنطقة.

بعد عام ١٩٤٨ قضى الأمريكيون العقودَ الستة التالية يناضلون من أجل إحداث التوازن بين المزايا التي منحوها للمنطقة والموارد والمزايا العسكرية التي يحصلون عليها منها، وذلك لتحسين صورتهم بوصفهم معلِّمين ورجالَ خير وصُناع سلام بدلًا من السمعة التي اكتسبوها في المنطقة بوصفهم طفيليِّين متعجرفين وأنانيِّين. وكان عليهم أن يوائموا بين التزامهم بمبادئ حق تقرير المصير واحترام سيادة الدول من ناحية وبين الحاجة إلى مواجهة تحديات عالمية — من الشيوعية السوفييتية أولًا وفيما بعدُ من التطرف

الإسلامي — من ناحيةٍ أخرى. وكان على الأمريكيِّين أن يفيقوا من أوهامهم بشأن الشرق الأوسط التي طالما احتفظوا بها: من صحارٍ حالمة وجوارٍ مثيرة للشهوة، لكي يتعاملوا مع مخاطرَ حقيقية تهدِّد أمنهم وسلامتهم. فقصة الانخراط الأمريكي في الشرق الأوسط في فترةِ ما بعد الحرب هي قصة محاولات جادة قام بها رجال دولة وجنود ومواطنون عاديون لإحداث هذا الانسجام والتوازن، ولتأمين المصالح الحيوية، ودعم المُثُل الجديرة بالتقدير والتفرقة بين الحقيقة والخيال.

الباب السابع

البحث عن سلامٍ في ظل الهيمنة الأمريكية



الفصل السابع والعشرون

الانسجام والهيمنة

درست الفصول السابقة بالتفصيل الطرقَ المختلفة التي تفاعلت بها الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط منذ عام ١٧٧٦. وكان الهدف هو توضيح ثراء وجوهر هذا التاريخ واستكشاف أسس انخراط أمريكا في المنطقة اليوم. وكان هناك هدفٌ آخر هو ملء الفراغ في الكتابات التي تناولت العلاقة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط في الأعوام المائة والخمسين التي تفصل بين الثورة الأمريكية ونهاية الحرب العالمية الثانية.

يتناول هذا القسم الأخير العقودَ الستة الأخيرة، بدءًا من بوادر الحرب الباردة وحتى الحرب في العراق، وهو زمن انخراط أمريكي مكثَّف في الشرق الأوسط. وعلى عكس الفترة ما بين ١٧٧٦–١٩٤٥، التي يوجد عنها أعمالٌ قليلة نسبيًّا، فقد صدر عددٌ هائل من الكتب والمقالات عن المرحلة المعاصرة. وأُجريت العديد من الدراسات الجيدة حول المساعي الأمريكية للتوسط في إحلال السلام بين العرب والإسرائيليِّين قبل حرب ١٩٧٣ — على سبيل المثال — أو حول تطوير التحالف السعودي الأمريكي في الخمسينيات والستينيات، ولن تضيف أيُّ أبحاث جديدة الكثير إليها. ومن ناحية أخرى، يعوق غيابُ أي وثائق حكومية — التي تعدُّ أساسَ أي بحث جاد — تحليلَ الأحداث الرئيسية للثلاثين عامًا الماضية؛ إذ إنها لا تزال تعدُّ سريةً ولا يُسمح بنشرها. وأيُّ محاولة لفهم التورط الأمريكي في الشرق الأوسط من عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر تخاطر إما بتكرار ما كُتِب بالفعل، أو افتراض ما لم نعرفه جيدًا حتى الآن.

وفي ضوء هذه الصعاب، يحاول هذا الجزء الأخير تقديمَ نظرة شاملة على التوجهات ونقاط التحول الخطيرة التي حدثت في هذه الفترة، وليس دراسة عميقة وشاملة عنها. ويركز على علاقة الاستمرارية التي تربط بين فترةِ ما بعد الحرب العالمية الثانية من هذا التاريخ وبين المراحل المبكِّرة عنها، وأيضًا على فكرة القوة والإيمان والخيال المستمرة.

وسنوضِّح كيف أن واضعي السياسات الأمريكيِّين حاولوا التعاملَ مع العديد من التحديات نفسها التي واجهها أسلافهم خلال فترةٍ ما قبل الحرب، وكيف جاهدوا مثلهم للتوفيق بين مصالحهم الاستراتيجية والأيديولوجية في المنطقة. وفي غضون ذلك ظلت الصور الخيالية عن الشرق الأوسط تمثل أساسَ الثقافة الأمريكية الشعبية.

وبالتركيز على استمرارِ انخراط أمريكا في هذه المنطقة الحيوية، وبوضع انخراطها الحالي هناك في إطار تاريخي، يهدُف هذا الفصل إلى تعميق فهمِ طبيعة العلاقات بين أمريكا والشرق الأوسط. والهدف من هذا هو أن نجعل بإمكان الأمريكيِّين القراءة حول القتال في العراق وسماع صدى صوت حروب البربر وعملية الشعلة، أو تتبُّع الجهود الرئاسية للتوسط بين الفلسطينيِّين والإسرائيليِّين ورؤية ظلال تيدي روزفلت وودرو ويلسون. وسيعرف القارئ أن نفس الأوهام التي أغرَت جون ليديارد باستكشاف الشرق الأوسط لا تزال تغري الأمريكيِّين بحضور أفلام تتحدَّث عن الشرق الأوسط. فبعد أكثرَ من مائتي عام، ظل التفاعل بين الولايات المتحدة وشعوب وأراضي الشرق الأوسط نابضًا بالحياة ومتعدِّد الجوانب وديناميكيًّا وعميقًا بصورة ملحوظة.

ما بين الشيوعية والقومية

لبعض الوقت، بدا أن هاري ترومان قد نجح في تحقيق التوافق بين مكانة أمريكا الجديدة بعدِّها القوةَ المسيطرة في الشرق الأوسط ودورها التقليدي محرِّرةً وصانعةَ سلام. وعلى أملِ علاج الجِراح التي أحدثها تأسيس الدولة اليهودية، ساند الرئيس جهود الأمم المتحدة لتحقيق السلام بين إسرائيل والعرب. ووقع عبء تنفيذ تلك المهمة على رالف بانش، المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى فلسطين، الذي كان نجمًا من نجوم كرة السلة بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس ومحررًا قديرًا وأحد أول الأمريكيِّين الأفارقة الذين حصلوا على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد. وقد قال بانش الذي كان لبقًا وصريحًا في حديثه للوفدَين العربي والإسرائيلي اللذين كانا يتناولان العشاءَ معه على جزيرة رودس: «انظروا إلى هذه الأطباق الرائعة! إذا توصلتم إلى اتفاق، فسيحصل كلٌّ منكم على واحد منها ليأخذها وهو عائد إلى منزله، أما إذا لم تتفقوا، فسأحطِّمها على رءوسكم!» وبحلول شهر يوليو ١٩٤٩، كان بانش قد نجح في التوصل إلى هدنةٍ بين إسرائيل والدول العربية المجاورة مصر ولبنان والأردن وسوريا، وأسَّس سابقة لمعاهدات أكثرَ استمرارية. وقد أوصلته إنجازاته للحصول على جائزة نوبل للسلام، وبدَت كأنها تعيد لأمريكا سُمعتها وسيطًا ذا مبادئ.[1]

سعى ترومان أيضًا إلى تحقيق توازن بين مخاوف الحرب الباردة ومدِّ القومية المتصاعد في الشرق الأوسط. وجاء أول اختبار لشجاعة الرئيس في إيران؛ حيث أعلن رئيس الوزراء محمد مصدق، وهو محامٍ يبلغ من العمر سبعين عامًا تلقَّى تعليمه في سويسرا، أعلن نفسه نصيرًا للشعب وعدوًّا لكل صور الهيمنة الأجنبية. وعمل على إبعاد بلاده عن النفوذ السوفييتي، لكنه راوغ أيضًا لإخراج البريطانيِّين من إيران عن طريق تأميم شركة النفط الأنجلو إيرانية.

كان مصدق من دعاة حركة عدم الانحياز، التي تكوَّنت أساسًا من دولٍ نامية أعلنت حيادَها في الحرب الباردة، ولم تنضم إلى الاتحاد السوفييتي ولا الغرب. كان من الممكن أن يثير هذا الموقف عداء الولايات المتحدة بسهولة، ولكن على عكس ذلك أصبح مصدق بطلًا لدى الأمريكيِّين. فقد كانت إيران، في عيون كثير من الأمريكيِّين، لا تزال بلدًا من كتاب «ألف ليلة وليلة» الفاتن. واستمروا في التهافت على حضور أفلام خيالية عن الشرق الأوسط، مثل «ابن علي بابا» (١٩٥٢)، و«الرحلة السابعة لسندباد» (١٩٥٣)، وكذلك مسرحية «قسمت» («المصير» باللغة التركية) المؤثِّرة التي عُرضت على أحد مسارح برودواي عام ١٩٥٣، وفيها كان الخليفة الغارق في الحب يدندن لجارية عراقية رشيقة: «خذي بيدي، فأنا غريب في الجنة». وظل الأمريكيون مفتونين بأسطورة الرجل من الشرق الأوسط الذي كان محبًّا للحرية، وبدا أن مصدق يجسِّد هذه الشخصية. ولهذا قارنته الصحافة الأمريكية بتوماس بين وجيفرسون، واختارته مجلة تايم ليكون «رجل العام» لسنة ١٩٥١. ودعا ترومان رئيس الوزراء إلى البيت الأبيض، وساند مَطالبه بأحقيته في النفط الإيراني، مما أثار غضب بريطانيا.

جاء مثال آخر على قدرة ترومان على تحقيق التوازن مع المصالح الاستراتيجية والأيديولوجية في مصر. فهناك أيضًا حشدت الحركة الوطنية قواها لطرد البريطانيِّين، وحلِّ مجلس النواب، والإطاحة بالملك فاروق. وفي مشاهد تذكِّر بثورة عرابي قبل ذلك بسبعين عامًا، عصف محدِثو الشغب بشوارع القاهرة والإسكندرية في يناير ١٩٥٢، مضرمين النيرانَ في المباني التي يمتلكها أجانب. وكان من بين المنشآت الكلاسيكية التي دُمرت فندق شيبرد، الذي استضاف مارك توين في يوم من الأيام. وخشي ترومان من أن يستغل الاتحاد السوفييتي هذه الفوضى للتدخل سياسيًّا في مصر. فكلَّف كيرميت روزفلت وعملاء آخرين من وكالة الاستخبارات المركزية بالبحث عن شخصية وطنية مصرية، أي «بيلي جراهام مسلم»، يمكنها إعادةُ النظام إلى البلاد وضمها إلى منظمة دفاع عن الشرق

الأوسط على طراز حلف الناتو. وقادهم هذا البحث إلى خليةٍ تطلق على نفسها «الضباط الأحرار» كانت تخطِّط لتنفيذ انقلابٍ وإلى قائدهم وهو مقدَّم في الرابعة والثلاثين من عمره، اسمه جمال عبد الناصر.[2]

كان ناصر فصيحًا وشديد الوسامة ويبدو مثل نسخة حديثة من عرابي، وكان كذلك بطلًا خرج من صفحات كتاب «ألف ليلة وليلة». وكان أيضًا نتاجَ الأفكار الوطنية التي أدخلها المحاربون الأمريكيون الذين شاركوا في الحرب الأهلية إلى مصر، وكذلك العرب خريجو الكلية السورية البروتستانتية. وبدا أن ناصر بالفعل هو القائد الذي تسعى وكالة الاستخبارات المركزية، لأول مرة في عملياتها في الشرق الأوسط، إلى تنصيبه، وأكَّدت الوكالة له ولزملائه المتآمرين دعمَ أمريكا السرِّي لهم. وبعد أن بثَّ هذا الدعم الشجاعةَ في عروقهم، استولى الضباط على المباني الحكومية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وقاموا بحل مجلس النواب، وأرسلوا الملك فاروق على متن يخت إلى أوروبا. شعر البريطانيون بالذعر لما حدث، ولكن الولايات المتحدة اعترفت فورًا بنظام الحكم الجديد، وبادرت بإقامة مباحثات مع ناصر.

وبحلول العام الأخير لرئاسة ترومان، كان قد نجح في التوسط بين العرب والإسرائيليِّين، ومساندة الحركات الوطنية، ووقف العدوان السوفييتي. وبدا فجأةً وكأن «السلام الأمريكي» في الشرق الأوسط قريب المنال. ولكن ثبت أن هذا مجرد سراب. فقد أعلنت الدول العربية أن الهدنة لم تكن أكثرَ من هدنة مؤقتة، وأن حالة الحرب مستمرة بينهم وبين إسرائيل. ومنعت مصر سفن الشحن المتجهة إلى إسرائيل من عبور قناة السويس، أو من عبور مضيق تيران عند مدخل البحر الأحمر، إلى ميناء إسرائيل الجنوبي إيلات. ومنع الأردنيون الإسرائيليِّين من دخول المدينة القديمة في القدس الشرقية، التي تُعَد موطن أقدس المعابد اليهودية، الحائط الغربي (حائط البراق)، خارقةً بذلك الهدنة. ومن ناحيتها رفضت إسرائيل إعادةَ اللاجئين الفلسطينيِّين بدون اتفاق سلام، وثأرت لتسلل الفلسطينيِّين عبر حدودها بغارات واسعة النطاق على الأراضي العربية.

ومرة أخرى امتلأت الأرض التي يقدِّسها الملايين بالمركبات المحترقة والجثث التي اخترقها الرصاص. ولم تكن المشاهد في المناطق الأخرى من الشرق الأوسط أقل رعبًا. فقد اضطرب جزءٌ كبير من المنطقة من المغرب إلى العراق بمظاهرات وطنية وهجمات متقطعة ضد السلطات الفرنسية والبريطانية. وتزامنت هذه الاضطرابات مع تجدُّد الاستفزازات السوفييتية ضد العراق وإيران، وبقرار الكرملين بتبني الحركات الوطنية في الشرق

الأوسط، التي نأى بنفسه عنها من قبلُ باعتبارها حركات «برجوازية خانعة»، كحلفاء طبيعيِّين لها في الحرب الباردة. وعرَّض التقاءُ الشيوعية والحركات الوطنية المتطرفة نفطَ الشرق الأوسط، الذي كان الغرب يعتمد عليه من أجل رفاهيته، بل وحتى بقائه، للخطر.

كان عجزُ الحلفاء الغربيِّين عن تحقيق الاستقرار، فضلًا عن حل الصراعات العديدة التي كانت تهزُّ الشرق الأوسط واضحًا منذ عام ١٩٥٠، عندما أصدرت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة «الإعلان الثلاثي». وقد اعترفت الوثيقة ضمنيًّا بتصاعد إحباط وخيبة أمل القوى الثلاث في مجهودات السلام العربي الإسرائيلي، ودعت الطرفين المتنازعين إلى ضبط النفس. وبدلًا من توجيههم أسلحتهم بعضهم إلى بعض دعت القوى الثلاث كلَّ دول الشرق الأوسط إلى تصويب أسلحتها نحو عدوِّها السوفييتي المشترك عن طريق التعاون في الدفاع عن المنطقة.

وكان الإعلان الثلاثي يمثل محاولةً أخرى للتوفيق بين العناصر المتعارضة في سياسة أمريكا تجاه الشرق الأوسط. فقد صدَّقت إدارة ترومان بسذاجة أن الولايات المتحدة يمكنها أن تقيم علاقات صداقة بين كلٍّ من إسرائيل والعالم العربي، وأنه يمكنها دعمُ مطالب الاستقلال في الشرق الأوسط مع توقُّع أن تدافع فرنسا وبريطانيا عن المنطقة ضد الشيوعية. ولكن هذه الافتراضات لم يكن لها أساس، وبحلول عام ١٩٥٢، مع تصاعد التوتر العربي الإسرائيلي ونشوب الثورات الوطنية واجهت الولايات المتحدة مرةً أخرى اختيارات مؤلمة. فكان عليها إما أن تستمر في مساندة إسرائيل، وأن تزيد بذلك من حدة الغضب العربي، أو أن تتراجع عن مساندة الدولة اليهودية فتحصل بذلك على ودِّ العرب ورضاهم. وكان بإمكان أمريكا إما أن تقف بجانب بريطانيا وفرنسا في حماية الشرق الأوسط من العدوان السوفييتي، أو أن تتخلَّى عنهما لصالح الحركات الوطنية المحلية، التي كان بعضها على اتصال بالكرملين بالفعل.

ولم يكن على ترومان اتخاذ هذه القرارات. ففي يناير من عام ١٩٥٣ انتقل البيت الأبيض الديموقراطي إلى أيدٍ جمهورية، تحت قيادة بطل الحرب العالمية الثانية الجنرال السابق العريض الفكين دوايت ديفيد أيزنهاور. قال أيزنهاور، وهو من كنساس، في أول خطاب له عند تولِّي الرئاسة: «نحن الأحرار علينا أن نؤكِّد إيمانَنا من جديد.» وكانت كلمة «إيمان»، التي ظهرت ما لا يقل عن ١٤ مرة في هذا النص، تعني للرئيس الجديد الثقةَ بقدرة أمريكا على حماية الحرية في جميع أنحاء العالم مع احترام «الإرث الخاص لكل أمة». لقد حقَّقت الولايات المتحدة أخيرًا التفوقَ اللازم لنشر قيَمها حول العالم، ولكن

كان هذا ينطبق على الاتحاد السوفييتي أيضًا. وكان «الإرث الخاص» لتلك الأمم، الذي لا يزال يرزح تحت حكم استعماري يحمل على الأقل للغرب كراهيةً بقدْر ما يحمل خوفًا من أي عدوان سوفييتي. وأعلن أيزنهاور أن «الإيمان يحدِّد نظرتنا الشاملة إلى الحياة»، ولكن كان هذا المنظور العالمي لا يزال يتغاضى عن التناقض بين دعم الوطنية ومحاربة الشيوعية في الشرق الأوسط الذي يزداد تعقيدًا.

دالاس

لم يكن أيزنهاور خبيرًا في السياسة الخارجية، فوكل مسئوليةَ الشرق الأوسط — وأجزاء أخرى كثيرة من العالم — إلى وزير خارجيته جون فوستر دالاس. كان دالاس صارمًا مغرورًا، وله نظرة باردة من وراء زجاج نظارته ذات الإطار الحديدي والغليون يمنع ابتسامته، وكان مشهورًا بأنه لا يعرف التعاطف. وقد وصفه ونستون تشرشل، الذي أصبح مرة أخرى رئيسًا للوزراء في أوائل الخمسينيات: «ممل، وممل، وممل». كان وزير الخارجية، الذي تخرَّج في جامعة برنستون والذي كان مشيخيًّا متدينًا، يتَّبع نهج الرئيس ويلسون في كراهيته للاستعمار، والرئيس جاكسون في تصميمه على حماية مصالح أمريكا بالخارج. وكان يَعُدُّ الشيوعية شرًّا عالميًّا، ويرى أن دول عدم الانحياز مثل الهند وإندونيسيا تشجِّع هذا الشر. وكان دالاس يَعُدُّ أيضًا القوميِّين المتطرفين خطرًا. فقال لمجلس الشيوخ: «سواء في الهند الصينية أو سيام (تايلاندا) أو المغرب أو مصر أو الجزيرة العربية أو إيران ... وقعت القوى المثيرة للقلاقل في قبضة الشيوعيِّين السوفييت.» وبمشاركة أخيه آلن دالاس، المسئول السابق بوزارة الخارجية ورئيس وكالة الاستخبارات المركزية، تعهَّد دالاس بتخليص الشرق الأوسط من هؤلاء الذين يمهِّدون لدخول الروس.

كان أول هدف لهذه الحملة هو محمد مصدق. ففي عام ١٩٥٣، طرح رئيس الوزراء الإيراني عباءةَ الود والتعاون جانبًا، وظهر في صورة رجل إيران القوي. فقطع العلاقات مع بريطانيا، واستولى على الجيش، وعقدَ تحالفات مع حزب توده الشيوعي. واضطُر الشاه محمد رضا، الشاه غير المؤثِّر الموالي للغرب، أن يفرَّ من البلاد. وفي نظر دالاس كانت تلك الأحداث تنبئ بالسقوط الوشيك للخليج العربي برُمَّته إلى ائتلاف وطني شيوعي، وخسارة نفط الشرق الأوسط الذي لا يمكن تعويضه. وكان دالاس عاقدَ العزم على منع هذه الكارثة، فتعاون مع بريطانيا في التخطيط للإطاحة بمصدق. ونفَّذ تلك العملية، التي كانت تحمل الاسم الكودي «أجاكس»، كيرميت روزفلت ضابط وكالة الاستخبارات

المركزية الأمريكية، بمساعدة لوي هندرسون، الذي كان يتقلَّد في ذلك الوقت منصبَ سفير أمريكا في طهران، والجنرال نورمان شوارتزكوف، الذين كانوا جميعًا يساندون التيار الوطني الإيراني في الماضي. شنَّ المتآمرون هجومًا شرسًا على مصدق في الصحافة الإيرانية، وحرَّضوا على أعمال الشغب ضد الحكومة في الشوارع. وهدَّدت الحرب الأهلية بتقسيم إيران، عندما نجحت الخطة أجاكس في ١٩ أغسطس ١٩٥٣. فاستعاد الشاه عرشه وتخلَّص من المئات من مؤيدي مصدق. ووُضِعَ رئيس الوزراء المخلوع تحت الإقامة الجبرية بمنزله حتى وفاته عام ١٩٦٧.[3]

وكان الانقلاب الإيراني سابقةً لإطاحة وكالة الاستخبارات المركزية المنظَّم برئيس جواتيمالا جاكوبو أربنز جوزمان عام ١٩٥٤. ومع ذلك فقد استمرت الولايات المتحدة في دعم الحركات الوطنية في البلدان التي لم ترَ أن استيلاء الشيوعيِّين عليها أمر خطير، وكان ذلك يحدث حتى على حساب حلفائها الأوروبيين. وهذا ما حدث في شمال أفريقيا. فقد أكَّدت وزارة الخارجية عام ١٩٥٥: «لا يمكننا أن نمنح الفرنسيِّين المساندة التي يرغبون فيها من أجل سياساتهم في شمال أفريقيا، دون حصد عداوة الشعوب المحلية.» وقال عضو مجلس الشيوخ الجمهوري من ولاية نيفادا جورج مالون غاضبًا: «الفرنسيون يديرون دولةً بوليسية في شمال أفريقيا»، وهاجم الولايات المتحدة بسبب تورُّطها في «أعمال مساندة الرِّق الاستعماري القذرة» عن طريق مساعدة فرنسا. وفي الواقع مارست الولايات المتحدة ضغوطًا من أجل إعادة الملك محمد الخامس ملك المغرب والوطني التونسي حبيب بورقيبة، اللذين نفاهما الفرنسيون من البلاد، وساعدت بلديهما على تحقيق الاستقلال عام ١٩٥٦. وحثَّت إدارة الرئيس أيزنهاور فرنسا أيضًا على ضبط النفس في قمعها للوطنيِّين الجزائريين. وقال الرئيس: «نظرًا لأن الولايات المتحدة قد قطعت شوطًا في محاولة حماية استقلال الدول العربية، فإنها لم تكن ترغب في مساندة الموقف الفرنسي الذي قد يدمر كلَّ ما حققناه من قبل.»

وترسَّخ الاستياء من دور أمريكا في الانقلاب ضد مصدق بين كثير من الإيرانيين، ولكن نما شعور بالمرارة في بريطانيا وفرنسا بسبب دعم أمريكا لاستقلال دول الشرق الأوسط الأخرى. وأظهر أحد كبار المسئولين البريطانيِّين أسفه على أن «بعض الأمريكيِّين يرون دائمًا شخصيةَ جورج واشنطن تظهر في كل حركة منشقة أو ثورية»، وانتقد آخر «الحُلم المثالي» بتكوين «سلسلة من الدول الإسلامية المستقلة من المحيط الأطلسي حتى المحيط الهندي، تتعاون بامتنان مع المحرِّرين الأمريكيِّين.» وانتقد اللواء الفرنسي ألفونس

جوين «المؤامرة الكبرى» التي «اجتمع فيها التعصب الديني والخوف من الأجانب في الشرق الأوسط مع المعاداة الأمريكية للاستعمار» لطرد الفرنسيِّين من شمال أفريقيا.[4]

كان الإحباط بسبب سياسات أمريكا المتردِّدة في الشرق الأوسط يثير الأوروبيِّين باستمرار، وفي النهاية انفجر الموقف في مصر. فقد توطَّدت العلاقات بين الولايات المتحدة ومجلس الضباط الأحرار تحت إدارة أيزنهاور. وعندما عاد دالاس من جولة في القاهرة وغيرها من عواصم الشرق الأوسط في مايو ١٩٥٣، أعلن مساندته لمطالب ناصر بالانسحاب الكامل للقوات البريطانية من مصر. وكتب أيزنهاور إلى تشرشل: «من ملاحظات فوستر الشخصية، توصَّلت إلى أنه يجب اتخاذ خطوةٍ ما قريبًا للتوفيق بين الحد الأدنى لاحتياجاتنا الدفاعية والمشاعر الوطنية القوية لحكومة مصر وشعبها.» وكان دالاس مقتنعًا بأن مصر ستنضم طواعيةً إلى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط بعد تحرُّرها من بريطانيا. ولكن البريطانيِّين كانوا يؤمنون بأن «ناصر» معادٍ للغرب بطبيعته، وأن الولايات المتحدة بدعمها له ستقلل من شأن منظمة الدفاع بدلًا من تقويتها. واشتكى دالاس قائلًا: «الموقف الاستعماري القديم تجاه السكان المحليِّين سيقودهم إلى أيدي الشيوعيِّين.» وفي حين كان الجنود البريطانيون يتعرضون لهجمات متكررة من رجال حروب العصابات المصريين، كثَّف دالاس ضغوطه على لندن. وأخيرًا في يوليو عام ١٩٥٤، أذعن تشرشل ووافق على إجلاء جميع القوات البريطانية من مصر. وبذلك انتهت فترة احتلال دامت سبعين عامًا نتجت جزئيًّا عن صعود وانهيار أسعار القطن في أثناء الحرب الأهلية وبعدها.[5]

ولكن مصر لم تنضم إلى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط. وفسَّر ناصر ذلك بأنه ما زال هناك عائق آخر أمام عضوية مصر في المنظمة: وهو الصراع مع إسرائيل. فقد كانت الصِّدامات بين القوات المصرية والإسرائيلية قد تصاعدت في أعقاب انسحاب القوات البريطانية، وهدَّدت بإشعال المنطقة بأسرها. وقال ناصر لدالاس إنَّ على أمريكا تقييدَ الإسرائيليِّين وإجبارهم على التخلي عن بعض المناطق عربونًا للسلام، وعندها ستنضم مصر بالتأكيد إلى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط.

وأُعجب دالاس كثيرًا بهذا العرض. فقد كان، على غرار العديد من مسئولي وزارة الخارجية الذين كانوا من نسل مبشِّرين، يكره الدولةَ اليهودية، وكان يطلِق عليها «العبء الثقيل»، وكان بصفةٍ عامة متعاطفًا مع العرب. وقد اتفق مع وزارة الخارجية في تقييمها بأن إسرائيل يمكنها تحقيقُ السلام عن طريق التنازل عن مناطقَ كثيرة للعرب. ولكن السلام من وجهة نظر دالاس لم يكن وسيلةً لضمان الدفاع عن الشرق الأوسط فحسب،

بل غايةً سامية في حد ذاته. ونظرًا لأن تربيته الدينية كانت تجعله يشعر بارتباط خاص بفلسطين، فقد شعر الوزير أنه ملزم أخلاقيًّا، إن لم يكن مفوَّضًا إلهيًّا، بأن يعيد السكينة إلى الأرض المقدَّسة.

قاد المزيج من هذه الدوافع الاستراتيجية والدينية دالاس إلى دعوة البريطانيِّين بعد أسابيع فقط من مساعدته على إجلائهم عن مصر، إلى المشاركة في محاولة للتوسط بين مصر وإسرائيل. وبنهاية عام ١٩٥٤، كان فريق تخطيط أنجلو أمريكي قد وضع خطة أطلق عليها «ألفا»، وهي خطة سريَّة تتنازل إسرائيل بمقتضاها عن مناطقَ لمصر، وتَعِدُ مصر في المقابل بعدم الاعتداء على إسرائيل. وكما هو متوقَّع رفض رئيس الوزراء الإسرائيلي بن جوريون الاقتراح، وبرَّر ذلك بأن مصر يجب ألا تكافأ على اعتداءات عام ١٩٤٨، ولكن دالاس كان مستعدًّا للضغط عليه للالتزام بالخطة. وكان كل ما يحتاج إليه هو موافقة ناصر.

كان الزعيم المصري في ذلك الوقت قد بدأ لتوه مشروعًا طموحًا لترسيخ مكانته الهامة في الساحة السياسية العربية، وريادته في حركة عدم الانحياز، جنبًا إلى جنب مع جواهر لال نهرو، رئيس وزراء الهند. وقد أضاع الهدفُ الأول أيَّ فرصة لأن يعقد ناصر اتفاق سلام مع عدو العرب اللدود، في حين نفى الهدفُ الثاني أيَّ إمكانية لعضوية مصر في المنظمة. وبعد أن رفض ناصر شروط الخطة «ألفا»، عارض تحالف بريطانيا العسكري مع تركيا وباكستان وإيران والعراق، ما يطلق عليه «حلف بغداد»، وبادر بالاعتراف بالصين الشعبية. وفي سبتمبر عام ١٩٥٥ اشترى كمياتٍ ضخمة من الأسلحة السوفييتية عبر تشيكوسلوفاكيا. ومع ذلك، قام دالاس بمبادرة سلام ثانية، سُميت هذه المرة «جاما»؛ وفيها قام مبعوث رئاسي خاص برحلات مكُّوكية بين ناصر وبن جوريون في محاولة لترتيب عقد اجتماع بينهما. ووصل هذا المبعوث، وهو وزير الدفاع السابق روبرت بي أندرسون، إلى المنطقة في أوائل ربيع عام ١٩٥٦ ليجد أن ناصر ليست لديه أيُّ نية لمناقشة السلام، وليس مهتمًّا كثيرًا باستقباله.

فقام دالاس، الذي غضب غضبًا شديدًا بسبب هذه الإهانة، بالموافقة على عملية أخرى، سُميت «أوميجا»، صُمِّمت لتغيير النظام الحاكم في مصر بأي وسيلة سوى الاغتيال. وبالإضافة إلى تقوية الحكومات الصديقة في الأردن ولبنان، والتخطيط لانقلابٍ موالٍ للغرب في سوريا، سعت الخطة «أوميجا» إلى الإعلاء من شأن الملك سعود ليحل محل ناصر قائدًا للعرب. أما أقسى بنود أوميجا فكان منْعَ المساعدات الأمريكية لتشييد السد

العالي بأسوان. وكان هذا المشروع، الذي اقترحه لأول مرة المستكشفُ العسكري الأمريكي إيراستوس سبارو بيردي عام ١٨٧٤، هو مصدر فخر الحاكم المصري.[6]

ولكنَّ ناصر رفض الانصياع للعقوبات، وفي يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٦ أذهل العالم بإعلان تأميم شركة قناة السويس. وكانت تلك الضربة موجَّهة، كما فسَّر ناصر، إلى «الاستغلاليِّين والمستعمرين وعملاء الإمبريالية» الذين تآمروا لتقليل شأن مصر عن طريق إعاقة انتشار نفوذها ومنع تمويل السد العالي بأسوان. وأصبح ناصر في نظر البريطانيِّين، وهم من كبار حملة الأسهم في شركة قناة السويس، هتلر آخرَ، وشبَّهوا استيلاءه على قناة السويس باستيلاء النازيِّين على النمسا. وتعهَّد رئيس الوزراء البريطاني أنطوني إيدن قائلًا: «هدفي هو التخلص من الكولونيل ناصر ونظام حكمه.» وكان ناصر أيضًا يموِّل رجال حرب العصابات الجزائريِّين، وهو الأمر الذي لم يجعله محبوبًا لدى الفرنسيِّين. وحذَّر وزير الخارجية كريستيان بينو من باريس من أنه إذا أفلتت مصر بخطة التأميم، فإن فرنسا سيتقلص شأنها إلى قوة من الدرجة الثالثة، وستصبح أوروبا «معتمدة تمامًا على مشاعر العرب الودية».[7] وبدأ القادة الفرنسيون والبريطانيون على الفور في وضع خطةٍ لهجوم عسكري ضد مصر، وسعَوا إلى الحصول، ضمنًا أو صراحة، على ضوءٍ أخضر من الولايات المتحدة لشن الهجوم.

وضعت أزمةُ قناة السويس الولايات المتحدة مرةً أخرى في مواجهة خيارات صعبة: إما مساندة زعيم قومي من دول عدم الانحياز تربطه علاقات قوية بموسكو، أو الوقوف إلى جانب القوتين القادرتين على حماية الشرق الأوسط. وقد منح الأمريكيون المخاوفَ الاستراتيجية الأولوية على حساب تلك الأخلاقية في إيران، بالتواطؤ مع بريطانيا لخلع مصدق، ولكن في حالة مصر تغلَّب الجانب الأيديولوجي عليهم. فادَّعى دالاس أن الصراع ليس بين ناصر والغرب، بل بين الحركات القومية في الشرق الأوسط والاستعمار الأوروبي. وكان من رأيه أنه «لا يمكن توقُّع أن تنحاز الولايات المتحدة مائةً بالمائة إما مع القوى الاستعمارية أو القوة التي تهتم فقط بمشكلة الحصول على الاستقلال التام بأسرع طريقة ممكنة.» ومع أنه أكَّد سرًّا لبريطانيا وفرنسا أنه لم يستبعد قط خيار استخدام القوة ضد مصر، فقد عارض دالاس علانيةً أي لجوء لاستخدام السلاح.

واعترض إيدن قائلًا: «هذا الاستخفاف بالحلفاء يدمِّر الشراكة الحقيقية.» وفي الواقع اتهم بينو الولايات المتحدة بالتعاون مع الكرملين لإبقاء ناصر في السلطة، ومنع ظهور ديموقراطية مصرية حقيقية. وبسبب غضبها من حديث دالاس المخادع بدأت فرنسا سرًّا

في تسليح إسرائيل وتشجيعها على مهاجمة مصر أولًا. ورحَّب بن جوريون بالاقتراح؛ إذ كان مقتنعًا أن جيش ناصر الذي سلَّحه السوفييت يمثل خطرًا قاتلًا على الدولة اليهودية. وفي البداية تردَّدت بريطانيا، التي لم تتقبل قط فكرةَ وجود إسرائيل، ولكن بحلول شهر سبتمبر انضمت أيضًا إلى المؤامرة. وكانت الخطة تقتضي أن توجِّه القوات الإسرائيلية الضربةَ الأولى بالقرب من قناة السويس، وتوجد بذلك ذريعة لتدخل فرنسا وإنجلترا «لحماية» المجرى المائي الحيوي.

وبمجرد بزوغ شمس يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ امتلأت السماء فوق ممر متلا بسيناء، الذي يبعُد ٢٥ ميلًا عن القناة، بمظلات هابطة. وبعد هبوطهم خاض جنود المظلات الإسرائيليون معركةً شرسة مع الوحدات المصرية في الممر، في حين قامت قوات إسرائيلية مدرعة بتدمير قوات الدفاع المصرية في طريقها إلى السويس وغزة. وعندها هدَّدت فرنسا وبريطانيا بالتدخل عسكريًّا إذا لم تنسحب جميع القوات الإسرائيلية والمصرية من منطقة القناة. وكما هو متوقَّع، رفضت مصر هذا الإنذار، فاستعد أسطول فرنسي-إنجليزي للإبحار. وأكَّد إيدن لدالاس أن هذا الغزو الجماعي ليس «عودة لمفاهيم الاستعمار والاحتلال القديمة»، لكنه محاولة «لتقوية أضعف نقطة في خط الدفاع ضد الشيوعية.» ولكن دالاس كان يستشيط غضبًا. واتهم حلفاءهم في الحرب العالمية الثانية بالتصرف بوحشية تفوق وحشيةَ السوفييت الذين كانت دباباتهم في ذلك الوقت تقمع ثورةً ضد الشيوعية في المجر. وصاح الوزير قائلًا: «الولايات المتحدة ستبقى أو تندثر على أساس مصير الاستعمار. في حالة النصر أو الخسارة، سنشارك في مصير فرنسا وبريطانيا.»

وفي حين كانت الطائرات الفرنسية والبريطانية تقذف المطارات المصرية، كان الأمريكيون والسوفييت يوافقون على قرارٍ صادر من الجمعية العامة يندِّد بالعدوان على مصر ويفوِّض نشر قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة على طول شاطئ القناة. وتجاهلت القوات البريطانية والفرنسية القرار، وهبطت على الأراضي المصرية في ٥ نوفمبر بنيةِ احتلال القناة خلال أسبوع. ولكن بعد يومين ووسط مقاومة مصرية عنيفة، هدَّد السوفييت بالتدخل عسكريًّا ضد الغزاة، ومارست الولايات المتحدة ضغوطًا اقتصادية شديدة على بريطانيا. وبعد أن بثَّ هذا الذعرَ في عروقها، اضطُرت الحملة الفرنسية-الإنجليزية إلى الانسحاب تجرُّ أذيالَ الخيبة، تاركةً قناة السويس تحت سيطرة مصرية خالصة. وأذعنت إسرائيل أيضًا تحت تهديد العقوبات الأمريكية وسحبت قواتها من سيناء وغزة. وعلى الرغم من استمرار قوات الأمم المتحدة في حفظ السلام في تلك

المناطق، ومع أن السفن الإسرائيلية أصبحت تمرُّ دون عائق خلال مضيق تيران، فقد اعتبر العرب انسحابَ إسرائيل انتصارًا لهم. ونتيجةً لما قامت به الولايات المتحدة، برز ناصر من أزمة السويس في صورة قائد المنطقة بلا منازع.[8]

وبدافعِ مفاهيمَ رومانسيةٍ عن القومية في الشرق الأوسط وعقيدةٍ مناوئة للاستعمار، اتَّحدت الولايات المتحدة مع عدوِّها السوفييتي الدائم ضد أصدقائها الأوروبيِّين وأنقذت ديكتاتورًا مصريًّا كان دالاس قد خطَّط لخلعه. وفي مقابل اتِّباعها هذا النهج المتعرج، حصدت أمريكا الازدراءَ من الاتحاد السوفييتي، وحِدَّةً وقسوة من بريطانيا وفرنسا، وعداءً من الكثير من العرب. وبدلًا من التعبير عن امتنانه للدولة التي أنقذته، شجب ناصر الولايات المتحدة باعتبارها القوةَ الاستعمارية الجديدة في الشرق الأوسط. وقال أنور السادات، المتحدث الرسمي الشاب باسم ناصر: «هناك ما يحث الولايات المتحدة على أن تستوليَ على مكان بريطانيا وفرنسا المفلستين العاجزتين، وعلى فرض نفوذها على الشرق الأوسط.» وفي غضون عام واحد من أزمة قناة السويس، كانت الحماسة والمد الناصري يضعفان الحكومات الموالية للغرب في المنطقة.

ولكن أمريكا في الواقع كانت لا حول لها ولا قوة في مقاومة هذا الهجوم. فبعد أن استكمل أيزنهاور العملَ الذي بدأه ترومان في تخليص الشرق الأوسط من الاستعمار الأوروبي، وجد نفسه الآن مثقلًا بأعباء حلفائه، ولكن دون وسيلة لحمل هذه الأعباء. ولم تكن الولايات المتحدة تحتفظ بقوات كبيرة في الشرق الأوسط، ولم يكن لديها أساس قانوني للتدخل بقوة في المنطقة. وقال أيزنهاور لدالاس: «علينا إما أن نتصرف الآن أو نغادر الشرق الأوسط. وخسارة هذه المنطقة بسبب السلبية ستكون أسوأ بكثير من الخسارة في الصين، بسبب موقع [الشرق الأوسط] الاستراتيجي.» ومثل ترومان من قبله، كان أيزنهاور بحاجة إلى مبدأ. وهكذا طلب الرئيس من الكونجرس في ٥ يناير ١٩٥٧ أن يمنحه ٤٠٠ مليون دولار للمساعدة في تحصين دول الشرق الأوسط ضد أي دولة «تسيطر عليها الشيوعية الدولية»، وأن يسمح له بإرسال قوات أمريكية للدفاع عنها. وأكَّد قائلًا: «نادرًا ما حدث في التاريخ أن اختُبر مدى التزام أمة بمبادئها بهذه القسوة كما يحدث لنا»، ووافق الكونجرس بأغلبية ساحقة.

وبالفعل تعرَّض التزام أمريكا للاختبار في صيف عام ١٩٥٨، عندما أطاحت الجماهير في بغداد بالحكومة العراقية بوحشية، ومزَّقت علانيةً جسدَي الملك ورئيس وزرائه. كما واجهت الحكومات المحافظة في الأردن ولبنان ثوراتٍ مناوئةً للغرب. وخوفًا من فكرة

استيلاء مصري بدعم سوفييتي على الشرق الأوسط برُمَّته، عاد أيزنهاور يستعين بمبدئه. فأُرسلت طائرات تابعة لسلاح الجو الأمريكي لإعادة تموين جنود المظلات البريطانيِّين الذين كانوا يتدخلون في الأردن، وأُرسلت قوات أمريكية لدعم الحكومة اللبنانية المحاصرة. وفي صباح يوم حارق من أيام يوليو، انتشر نحو ٨٥٠٠ من الجنود الأمريكيِّين على الشواطئ بالقرب من بيروت. وعلى عكس مواقف الهبوط الأمريكي البرمائي السابقة في المنطقة، لم يواجه الأمريكيون هذه المرة أي مقاومة. وجاء آلاف المتفرجين لمشاهدة عملية الإنزال، كما جاء عشراتٌ من باعة الطعام والهدايا التذكارية الذين كانوا ينادون على بضاعتهم أمام الجنود الخارجين من البحر على شرائها.

وهكذا مثَّلت عملية لبنان نهايةً مشئومة لفترة معقَّدة في سياسات أمريكا في الشرق الأوسط. فقد تعاونت الولايات المتحدة أولًا مع بريطانيا للإطاحة بقائدٍ ذي شعبية واسعة في إيران، ثم ضغطت على بريطانيا للجلاء عن مصر؛ وساندت الحركات القومية في شمال أفريقيا ضد فرنسا، ولكنها خطَّطت للإطاحة بناصر، راعي الحركات القومية؛ وأنقذت ناصر من غزو فرنسي-بريطاني في السويس، ثم تدخَّلت بعدها مع بريطانيا لحماية الحكومات العربية من ناصر. لقد نفَّذت إدارة أيزنهاور، وهي ممزَّقة بين تناقض مبادئها وسياساتها التي يفرضها الواقع، سلسلةً محيِّرة من الأفعال المتناقضة في المنطقة، مثيرةً حنق حلفائها ومستفزَّة عداء أعدائها أكثر. ومع ذلك كان الأمريكيون يعتقدون أن حكومتهم قد تصرَّفت كما ينبغي وبحكمة في إيران وشمال أفريقيا ومصر، محافظةً على مصالحها الحيوية ومروِّجة لمبادئها الديمقراطية. وظلوا، كما صوَّرهم مارك توين ذات مرة بأنهم أبرياء في الخارج في الشرق الأوسط، مع أنهم أحيانًا كانوا يتصرفون وكأنهم «مخرِّبون أمريكيون».

وانعكست البراءة والسذاجة التي استمر الأمريكيون في النظر بها إلى الشرق الأوسط الغامض أخلاقيًّا الذي يزداد تعقيدًا، في فيلم بن هور، وهو فيلمٌ أنتجته هوليود في ١٩٥٩. وكان الفيلم، المقتبَس من رواية كُتبت قبل ذلك بثمانين عامًا بقلم لو والاس، سفير أمريكا لدى الباب العالي، إعادةً لفيلمٍ صامت سابق، لكن هذه النسخة الجديدة كانت تحتوي على رسالة سياسية حزينة. قام سيناريو الفيلم على شخصية جودا بن هور، وهو أميرٌ يهودي وطني، يصادق شيخًا عربيًّا اسمه إلدريم، ويقاومان معًا عدوَّهما المشترك، ميسالا الضابط الروماني. وفي الفيلم يلقي إلدريم (الذي قام بدوره الممثل البريطاني هيو جريفيث) بدوره في الحوار بلهجة شرق أوسطية عامة، ولكن بن هور (تشارلتون هيستون) يتحدث مثل

أي أمريكي من الغرب الأوسط — الدمج مرة أخرى بين الأمريكي الجديد واليهودي القديم. أما الرومان فكانت لهجتهم أقربَ إلى النبلاء البريطانيِّين. وكما هو متوقَّع انتصر جودا وإلدريم، وكسرا شوكةَ ميسالا الحاقد.[9] ولكن في الشرق الأوسط الحقيقي لم تكن هناك علاقةٌ قوية بين إسرائيل اليهودية القومية وحكومة الولايات المتحدة، كما لم يكن العرب يكنُّون أيَّ عواطف لأي منهما. بالإضافة إلى أنه بالنسبة إلى الكثيرين من سكان المنطقة كان ضباط القوى الاستعمارية ليسوا بريطانيين، بل أمريكيِّون بكل وضوح.

ولكن سرعان ما سمعت شعوب الشرق الأوسط تغيرًا جديدًا في نبرة خطاب الولايات المتحدة، وهو تغيُّر جمع بين دماثة العالم القديم وواجبات النبل الحديثة. ووصف هذا الصوت الجديد رؤيةً مختلفة لعلاقات أمريكا بالمنطقة، وشراكةً قائمة على المساواة وليس الهيمنة، وعلى الحلول السلمية للصراعات، والاحترام المتبادل بين القادة. وكان صدى هذا الصوت الذي وصل إلى المصريِّين والأردنيِّين والفلسطينيِّين والإسرائيليِّين على السواء هو اللكنةَ المميزة لبراهمة بوسطن التي كان جون فيتزجيرالد كينيدي يتحدث بها.

كاميلوت يأتي إلى الشرق الأوسط

رغم نشأته على مبدأي الكاثوليكية الرومانية، اعتنق كينيدي المفهوم البروتستانتي لأمريكا «منارةً للأمل»، والالتزام التبشيري بنشر القيم الأمريكية في جميع أنحاء العالم وتشجيع استقلال الشعوب. وكان كينيدي قد أعلن وهو لا يزال عضوًا في مجلس الشيوخ: «الاختبار الأهم للسياسة الخارجية الأمريكية اليوم هو كيف نواجه الإمبريالية. وفي هذا الاختبار تحديدًا دون غيره ستحكم الملايين من الشعوب غير المقيَّدة بأيديولوجيا في آسيا وأفريقيا على هذه الأمة بصورة مصيرية.» وفي الشرق الأوسط، كان بإمكان أمريكا مواجهةُ هذا الاختبار عن طريق دعم الحركات الوطنية القليلة الباقية التي كان لا يزال يتعيَّن عليها أن تنجح في التخلص من الحكم الأوروبي، وعن طريق التوصل إلى طريقة للتعايش مع نظم الحكم التي نالت استقلالها حديثًا والتي كانت لا تزال غير منحازة. وبوصوله إلى السلطة في يناير ١٩٦١، دعم كينيدي مطلبَ الجزائر للحصول على الاستقلال عن فرنسا وأعاد النظر في عداوة أمريكا لناصر.

وكان من أول ما قام به كينيدي بعد توليه منصبَه هو كتابة رسالة للزعيم المصري، عارضًا عليه إحياء الصداقة بين البلدين التي كانت قد نشأت بعد الحرب الأهلية. وذكَّر كينيدي ناصر بأن الولايات المتحدة كانت في يوم من الأيام مثل العالم العربي: مجموعة

من المستعمرات المحرَّرة التي تتوق إلى التجمع في كيان واحد. وهنأ ناصر بعيد تكوين الجمهورية العربية المتحدة، وهو الاتحاد القصير الأجل بين مصر وسوريا، في ٢٢ فبراير، وهو «تاريخ ميلاد رئيسنا الأول، جورج واشنطن». وقد قوبل خطابه على الفور بود وحماسة. وعبَّر ناصر عن «رضاه وتقديره العميقين» لرسالة كينيدي، مؤكدًا «الحبَّ والإعجاب» اللذين ينظر بهما هو وشعبه الأمريكيِّين دائمًا.

ويبدو أن كاميلوت، وهو بلاط الملك آرثر الذي أصبحت الإدارة المثالية غالبًا ما يتم تشبيهها به، قد فتحت فصلًا جديدًا ووديًّا في علاقات الشرق الأوسط بأمريكا. وكان من أبرز مظاهر هذا النبل المساعداتُ الاقتصادية الضخمة وشحنات القمح؛ وسرعان ما أصبح ٦٠٪ من المصريِّين يتلقَّون خبزهم اليومي هديةً من الولايات المتحدة. وقد اتضح إحياء الصداقة بين ناصر والولايات المتحدة، ونزعة أمريكا الرومانسية المستمرة لشخصية البدوي الذي لا تثقل كاهله أيُّ أعباء في صناعة السينما في الفيلم الكلاسيكي «لورنس العرب»، وهو من أبرزِ ما أُنتج في عام ١٩٦٢. وفي أحد المشاهد المميزة يعلن صحفي أمريكي شديد الثقة بنفسه اسمه بنتلي، كان من الواضح أنه يجسِّد شخصية لويل توماس، مساندتَه للأمير فيصل ولصراع العرب من أجل الاستقلال في الحرب العالمية الأولى. فيقول بينتلي لفيصل: «جلالتك، كنا نحن الأمريكيِّين في يومٍ ما شعبًا استعماريًّا، ومن الطبيعي أن نشعر بالتعاطف مع أي شعب في أي مكان يصارع من أجل حريته.» فيجيبه الأمير، الذي يلعب دوره الممثل الوقور أليك جينيس، قائلًا: «أمرٌ مُرضٍ للغاية.»

وعلى أي حال، فقد تباعد واقع الشرق الأوسط عن أسطورة هوليوود مرةً أخرى في عام ١٩٦٢ نفسه، بانهيار مبادرة كينيدي في مصر. وقد بدأ الانهيار بالإطاحة بإمام اليمن الموالي للغرب على يدِ مجموعة من الضباط الأحرار المقرَّبين من ناصر. وعندما تدخلت المملكة السعودية لإعادة الملَكية، ردَّ ناصر بإرسال عشرات الآلاف من قواته إلى اليمن. وبدأت الطائرات المصرية أيضًا في قصف أهدافٍ سعودية، بعضها بالغاز المسمَّم. وكان مشهد الجيش المسلَّح بسلاح سوفييتي ويستشير مستشارين سوفييت وهو يقترب من مخزون النفط الذي يعتمد عليه اقتصاد أمريكا أثار غضب إدارة كينيدي، التي لم تكن قد أفاقت تمامًا بعدُ من أزمة الصواريخ الكوبية. ومع أن كينيدي لم يكن يميل لمصلحة السعوديين، الذين كان يشعر أنهم «يمثلون بوجهٍ ما الأمسَ وليس الغد»؛ فقد كان عليه أن يختار بين تصالحه مع الناصرية والدفاعِ عن الخليج العربي. وفي النهاية، فُرض عليه الخيار عندما قام ناصر بانتهاك وقف إطلاق النار الذي توسَّطت فيه أمريكا.

وفي نوفمبر ١٩٦٣، أي بعد عامين من إرسال أول خطاب له إلى القاهرة، أرسل كينيدي طائرات حربية للدفاع عن الرياض.[10]

بعد أن خابت محاولات كينيدي في إقامة علاقات ودية مع ناصر، أعاد تركيزَ قواه على إسرائيل وخلافها المستمر مع العرب. فمنذ فشلِ عمليتَي «ألفا» و«جاما» في الخمسينيات، توصَّل واضعو السياسات الأمريكيون إلى أنه لا توجد أي فرصة للسلام في المنطقة. وقرروا بدلًا من هذا إبقاءَ الصراع العربي الإسرائيلي «مجمدًا»، بمنع نشوب حرب أخرى. وقد أضفى الأمريكيون الطابع الخيالي على هذا الصراع لجذلهم بصورة آري بن كنعان في فيلم «الخروج» الذي لاقى رواجًا شديدًا في عام ١٩٦٠، والذي لعب دوره الممثل بول نيومان المفتول العضلات، حيث كان يقود الإسرائيليِّين الشجعان في مواجهة العرب غير الشجعان الذين لا يتصفون بصفات الأبطال. ولكن كينيدي، الذي لم ينسَ قط العنف الذي شهده وهو شاب في القدس في عام ١٩٣٩، كان له منظور أكثر اختلافًا. وكخطوة أولى تجاه حلِّ هذا النزاع، اقترح إعادةَ توطين آلاف اللاجئين الفلسطينيِّين في وادي الأردن القاحل، الذي ستُستخدم مياه نهر الأردن في رَيِّه. ولكن أعاق بن جوريون تنفيذَ ذلك الاقتراح معارضًا أن تتشارك إسرائيل أهمَّ مورد مائي مع أعدائها، في حين رفض القادة العرب مجردَ التفكير في أي تعاون مع إسرائيل. وبعد أن أصيب كينيدي بالإحباط بسبب فشل محاولته لإحلال السلام، وجَّه مجهوداته نحو منع إراقة المزيد من الدماء بين العرب وإسرائيل. وكان قلقًا خاصة من إنتاج إسرائيل السرِّي للأسلحة النووية، وهو مشروع كان يخشى أن يسرِّع من نشوب سباق تسلُّح لا يمكن كبحُ جماحه في الشرق الأوسط.

قال كينيدي لبن جوريون أثناء مقابلتهما في فندق والدورف أستوريا بنيويورك في مايو ١٩٦١: «لا يكفي أن تكونَ المرأة عفيفة فحسب، بل أن يدُل مظهرها على ذلك أيضًا.» وكان الرئيس يتمتع بعلاقات ممتازة مع الجالية اليهودية الأمريكية، التي كان دعمها سببًا في وصوله إلى السلطة بفارق صغير أثناء انتخابات ١٩٦٠، كذا كانت علاقاته مع إسرائيل وديةً بوضوح للجميع. ولكن بصورة غير رسمية، رفض كينيدي الادعاءَ بأن إسرائيل تطوِّر قوة نووية لأغراض سلمية فقط، وثار على رفض بن جوريون السماح لمفتشين أمريكيِّين بالتحقُّق من «نزاهة» المفاعل الإسرائيلي في ديمونة. ونصح كينيدي بن جوريون الأكبر سنًّا والأقصر قامة والأقل جاذبية بكثير بأنه «من مصلحتنا المشتركة ألا تعتقد أيُّ دولة أن إسرائيل تسهم في إنتاج الأسلحة الذرية.» ولكن رجل الدولة الإسرائيلي الأكثر حنكةً أمَّن مخاوف الرئيس جانبًا. فطمأن مضيِّفه إلى نوايا إسرائيل السلمية وهو يخبره كيف أن ناصر إذا ما حدث وانتصر «سيفعل باليهود ما فعله هتلر بهم».

وظل موضوع قدرات إسرائيل الذرية، الذي لم يُحَل، مصدرًا للخلاف في علاقة كينيدي بإسرائيل. وفي محاولة لتهدئة مخاوف بن جوريون من مصر، عرض الرئيس إمداده بصواريخ هوك أرض-جو، في سابقة لمبيعات الأسلحة الأمريكية لإسرائيل. ونشر بن جوريون تلك الصواريخ حول ديمونة فقط، واستمر في منع التفتيش الأمريكي. وبحلول صيف عام ١٩٦٣، كان كينيدي الذي تملَّك منه الغضب يحذِّر الإسرائيليِّين من أن علاقاتهم بالولايات المتحدة معرَّضة «لخطر شديد» بسبب عنادهم في المسألة النووية.[11]

وقد شرع جاك كينيدي في تمييز سياساته تجاه الشرق الأوسط عن سياسات سابقه فقط ليصيبه الإحباط مرةً تلو الأخرى. فقد جاهد للتصالح مع ناصر وإلى عقد اتفاق على عدم انتشار الأسلحة النووية مع بن جوريون، لكنه تعرَّض للصد بوقاحة من الجانبين. وظل الصلح العربي الإسرائيلي حُلمًا أمريكيًّا يصعب تحقيقه. وفي النهاية أجبرت خيبات الأمل المتكررة كينيدي على التخلي عن سياساته الفاضلة لمصلحة معايير عهد أيزنهاور لحماية المنطقة من الشيوعية ولضمان استمرار تدفُّق النفط. وفشل سحرُ كاميلوت في الشرق الأوسط، ربما أوضح من أي عالم آخر.

كان الرئيس، الذي هبط في مطار لوف فيلد في دالاس في صباح يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣، قد يئس من تحقيق أي تقدم في أي مجال من مجالات العلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط. وسيتذكَّر كثيرون اغتيال كينيدي في وقت لاحق من ذلك اليوم باعتباره نقطةَ تحوُّل في تاريخ الولايات المتحدة، مفجِّرة فيضانًا من التغييرات الثورية داخل المجتمع الأمريكي وسلسلة من الكوارث في مجال الشئون الخارجية للدولة. وعلى أي حال، لم يكن لكل هذه الاضطرابات أثر يُذكر على علاقة أمريكا بالشرق الأوسط. فقد انحدرت أنظمةُ ما بعد الاستعمار في كلٍّ من مصر وسوريا والعراق إلى أنظمة دكتاتورية عسكرية قمعية، معادية للغرب ولبعضها بعضًا. ورسمت الخطوط الفاصلة بين الحكام الذين يدعمهم السوفييت مثل ناصر، والأنظمة الملكية الموالية للغرب في الأردن والخليج العربي، بصورة قاطعة. وربما كان العامة لا يزالون مسحورين بمشهد باربرا إيدن وهي لا تكاد ترتدي شيئًا وتخرج من مصباحٍ يشبه مصباح علاء الدين في مسلسل تليفزيوني كوميدي في منتصف الستينيات يحمل اسم «أحلُم بجني»، ولكنَّ واضعي السياسات الأمريكيِّين سئموا مثل هذه الأساطير. وقبل أن تنتهي عند حائط برلين، التهمت الجبهة في الحرب الباردة أدغال فيتنام الوحشية سريعًا إلى واحات وتلال الشرق الأوسط التي تبدو مسالمةً بطريقة خادعة.

من ألامو إلى العلمين

لم يكن الرئيس السادس والثلاثون رومانسيَّ الرؤية. بل كان طموحًا بصورة يصعُب فهمهما، وداهيةً، وعلى القدْر نفسه من الإصرار في كفاحه من أجل الحقوق المدنية في بلاده وفي صراعه الذي انتهى نهايةً مريرة ضد الشيوعية في جنوب شرق آسيا، ولم يبدُ على ليندون باينز جونسون أيٌّ من ولع كينيدي بأوهام الشرق الأوسط. كما كانت الأحداث في المنطقة لا تدعو إلى الاستغراق في أحلام اليقظة. فقد كان ناصر يشن حربًا دعائية ضارية ضد حليفتي أمريكا الأردن والسعودية، ويتعاون على نحوٍ سافر مع السوفييت، ويلح من أجل إغلاق قاعدة ويلوس الجوية التي كانت تُعدُّ المصدر الاستراتيجي الوحيد لقوة أمريكا في ليبيا. وفي نوفمبر ١٩٦٤ قام مشاغبون في القاهرة بإحراق مكتبة السفارة الأمريكية. وعندما احتجَّ السفير الأمريكي على هذا التخريب المتعمَّد، قال له ناصر «اذهب واشرب من البحر»، وهدَّده «بقطع لسان» كلِّ مَن يتحدث بسوء عن مصر. وقال: «لن نقبل بلطجةَ رعاة البقر» مشيرًا إلى الرئيس الأمريكي الذي ترجع جذوره إلى تكساس. وردًّا على ذلك أوقف جونسون كل شحنات القمح إلى مصر.[12]

وأسلوب جونسون المتعنت تجاه المنطقة لم يمنعه من إظهار عاطفة مفرطة تجاه إسرائيل. فقد قال لدبلوماسي إسرائيلي بعد وقت قصير من اغتيال كينيدي: «لقد خسرتم صديقًا عظيمًا. ولكنكم حصلتم على صديقٍ أفضل.» وكان بعض أقرب مستشاري الرئيس الجديد من اليهود الأمريكيِّين، ولهم آراء معلنة موالية لإسرائيل، منهم وكيل وزارة الخارجية يوجين روستو، وسفير أمريكا لدى الأمم المتحدة آرثر جولدبرج. وعلى المستوى السياسي، كانت مشاعر جونسون تجاه إسرائيل تنبع من امتنانه للدعم الكبير الذي استمر اليهود الأمريكيون في إظهاره للحزب الديموقراطي، وقد استمرت هذه العاطفة الجياشة رغم معارضة اليهود الأمريكيِّين المتصاعدة لحرب فيتنام. أما السبب الأعمق لسياسات جونسون الموالية لإسرائيل فكان يكمُن في الدِّين. فقد نصحه جَده المعمداني الصارم «اعتنِ باليهود، فهم شعب الله المختار»، كما حذَّرته عمَّته قائلة: «إذا دُمرت إسرائيل، فسينتهي العالم.» وعلى عكس ذلك، استمرت وزارة الخارجية في التحذير من أن علاقة أمريكا بإسرائيل ستُبعد العرب وتهدِّد إمدادات النفط، ولكن الرئيس استمر على موقفه. فبالنسبة إليه كانت إسرائيل مثلَ قلعة آلامو حديثة، محاطة من كل الجهات بأعداءٍ لا يعرفون الرحمة، أما ناصر فكان إعادةَ تجسيد لسانتا آنا، اللواء المكسيكي الذي حاصر تلك القلعة.[13]

وأصبح هذا التشبيه مناسبًا بدرجة مخيفة في ١٥ مايو ١٩٦٧، وهو اليوم الذي جعل فيه ناصر بلدَه تستعد للحرب. فقد كان التوتر يتصاعد في المنطقة بدرجةٍ لا يمكن منعها نتيجةَ هجمات رجال العصابات الفلسطينيِّين على إسرائيل التي كانت تنفِّذها منظمة فتح التي تدعمها سوريا، بقيادة مهندس سابق حليق الوجه رابط الجأش اسمه ياسر عرفات. وردًّا على هذا التحدي لزعامة مصر للعالم العربي، أسَّس ناصر حركةً منافِسة، هي منظمة التحرير الفلسطينية، وأصدر إليها تعليماتٍ بتنفيذ عمليات خاصة بها. وأدى الانتقام الإسرائيلي ردًّا على تلك العمليات إلى صِدامات واسعة النطاق مع القوات السورية على مرتفعات الجولان، المطلة على شمال إسرائيل، وفي النهاية إلى ادعاءات سوفييتية بغزوٍ إسرائيلي وشيك لسوريا. ومع أن ناصر سريعًا ما تحقَّق من عدم صحة هذه التوقعات، فقد استغلَّها مبرِّرًا لإجلاء قوات حفظ السلام التي كانت الأمم المتحدة قد احتفظت بها في سيناء وقطاع غزة منذ انتهاء أزمة قناة السويس. وبعدها بأسبوع واحد، أغلق ناصر مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية، وعقدَ معاهدات عسكرية مع الأردن وسوريا والعراق. وقامت مظاهرات حاشدة في جميع أنحاء العالم العربي، داعيةً إلى حرب شاملة. وأعلن الرئيس العراقي عارف: «هدفنا واضح، وهو مسح إسرائيل من على الخريطة.»

ولكن مَن سيطلق النار أولًا؟ فمع وجود نحو نصف مليون جندي عربي على حدودها، وتشجيع السوفييت لهم بالهجوم، كانت إسرائيل تواجه موقفًا مصيريًّا. فبدأت المستشفيات الإسرائيلية تخزِّن الضمادات وأكياس الدم بسرعة واضطراب، في حين قامت السلطات الدينية بحفر آلاف القبور للضحايا المتوقَّع سقوطهم في الحرب القادمة. وزاد القرار المفاجئ الذي اتخذته فرنسا، الحليفُ السابق لإسرائيل، بالتحول إلى مناصرة العرب من احتياج إسرائيل إلى التخلص من الخطر الذي يمثله ناصر فورًا. ولكن كان كلٌّ من ليفي إشكول، وهو رئيس وزراء إسرائيل المتَّزِن العقل غير المثير للاهتمام، وأبا إيبان وزير الخارجية المهذب، كانا قلقين من ردِّ الفعل الأمريكي. فهل كانت الولايات المتحدة ستتصرف كما فعلت في ١٩٥٦، وتنقذ ناصر وتجبر الإسرائيليِّين على التراجع؟

ومع أن جونسون كان يشارك الإسرائيليِّين قلقهم، فقد عارض في الواقع توجيهَ ضربة وقائية، خشيةَ أن تجرَّ الشرق الأوسط بأكمله، وربما العالَم كله، إلى الحرب. وقال لأبا إيبان مرةً بعد الأخرى في البيت الأبيض في ٢٦ مايو إن «إسرائيل لن تكون وحدَها إلا إذا قرَّرت أن تذهب وحدَها.» وحذَّره وزير الخارجية دين راسك من أنه «إذا أطلقت إسرائيل النار أولًا، فعليها أن تنسى الولايات المتحدة.» وفي محاولة يائسة لتجنُّب

حرب محفوفة بالمخاطر، اقترح الرئيس جمع أسطول من السفن من ٢٤ دولة والإبحار بها عبر مضيق تيران المغلق إلى إيلات. فإذا فتح المصريون النيران على القافلة، تقوم سفن وطائرات الأسطول السادس الأمريكي بقصف أهداف استراتيجية في مصر. وأُعجب الإسرائيليون بالخطة، التي أطلق عليها سرًّا «ريجاتا»، ووافقوا على إرجاء هجومهم لمنح جونسون وقتًا لتنفيذها. ولكن الكونجرس الذي كان يترنَّح بسبب تورُّط أمريكا في فيتنام، أحجم عن تنفيذ أي عملية قد تؤدي إلى أي وضع خارجي معقَّد. أما الأوروبيون فرفضوا الاقتراح تمامًا، رفضًا يذكِّر برفض أسلافهم الانضمامَ إلى اتحادٍ بقيادة الولايات المتحدة ضد القراصنة البربر. واعترف جونسون لمساعديه مشيرًا إلى الإسرائيليِّين: «لقد فشلت. سيفعلونها، سيبدءون الهجوم. ولا يمكننا القيام بشيء إزاء ذلك.»

جاء عزاء جونسون الوحيد من أجهزة الاستخبارات الأمريكية التي تنبأت بأن إسرائيل ستتغلَّب بسرعة على مصر أو أي اتحاد من الجيوش العربية. وقد أكَّد الإسرائيليون بقوة تلك النبوءة. ففي هجوم مفاجئ بدأ في الثامنة من صباح يوم ٥ يونيو، هاجمت الطائرات الإسرائيلية وقصفت الطائرات الحربية المصرية، التي لم يغادر معظمها الأرض، مدمِّرين ٢٨٦ طائرة منها. وقامت الدبابات الإسرائيلية والوحدات الميكانيكية باختراق الخطوط المصرية المحصَّنة في سيناء وغزة. وعملًا باتفاقياتها مع ناصر، انضمت القوات السورية والأردنية إلى القتال، لتدمِّرها الهجمات الإسرائيلية المضادة. وامتد طابور طويل من المركبات المصرية المدمَّرة على طول سيناء، في حين كانت القوات السورية والأردنية المتقهقرة تجرُّ ذيلًا من دخان الدبابات المحترقة والرِّفاق الذين سقطوا على مرتفعات الجولان وعلى طول الضفة الغربية وشرق القدس. وعلى النقيض، كان الجنود الإسرائيليون يرفعون العلمَ الإسرائيلي على قمة جبل الشيخ، ويخوضون مياه قناة السويس رافعين أسلحتهم، ويرقصون، وعلى أكتافهم أحزمةُ الذخيرة بدلًا من شيلان الصلاة، أمام الحائط الغربي.

أثنى جونسون، سرًّا على الأقل، على انتصار إسرائيل. وفي حين كان يؤكد للسوفييت أن أمريكا لا تدخر جهدًا لوقف القتال، كان الرئيس في الحقيقة يراوغ لتأجيل الموافقة على وقف إطلاق النار بقرارٍ من الأمم المتحدة حتى يتأكد من هزيمة العرب. وحتى بعد أن أطلقت الطائرات النفاثة وزوارق الصواريخ الإسرائيلية النارَ خطأً على سفينة التجسس الأمريكية «يو إس إس ليبرتي» يوم ٨ يونيو، فقتلت ٣٤ بحَّارًا وأصابت ١٧١ آخرين، ظل موقف الرئيس مواليًا لإسرائيل بشدة. واختُبِر ولاؤه لإسرائيل مرة أخرى في

اليوم التالي عندما أعلن السوفييت، في تحرُّك شبيه بأزمة ١٩٥٦، نيتَهم التدخل عسكريًّا. ولكن جونسون لم يطرِف له جَفن. وأصدر تعليماته لمستشاريه قائلًا: «ابحثوا عن موقع الأسطول السادس بالتحديد، وأخبروه بتحويل اتجاهه فورًا.» وتراجع السوفييت واستمروا في مشاهدة إسرائيل تكمل هزيمتها النكراء على العرب.

كانت حرب الأيام الستة، كما عُرفت في إسرائيل والغرب، تمثِّل أكبرَ انتصار عسكري في الشرق الأوسط منذ هزيمة بريطانيا للألمان في العلمين قبل ذلك بخمسة وعشرين عامًا. وفجأةً أصبحت إسرائيل تسيطر على منطقةٍ تعادل أكثر من ثلاثة أضعاف مساحتها الأصلية، ووضعت على الأقل مليوني عربي فلسطيني من سكان شرق القدس والضفة الغربية وغزة تحت الاحتلال. وكانت معظم نتائج الحرب الجغرافية والسياسية والإنسانية تعود إلى قرارات جونسون، وأيضًا مجهودات السلام التي تبِعت القتال. فبمجرد أن قُبل وقف إطلاق النار، طلب الرئيس من وكيل وزارة الخارجية روستو أن يضع خطةَ سلام شامل. وقال روستو لفريق عمله: «دعونا لا ننسى أن أي أزمة هي فرصة أيضًا. فالكثير من الأنماط تصبح مرنة، وتُفتح الأبواب. أطلِقوا لخيالكم العِنان.»[14]

كانت المعادلة الأمريكية تدعو إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة مقابل اعتراف العرب بحق كل دول المنطقة أن تعيش في سلام «داخل حدود آمنة معترف بها». كما أشار الاقتراح أيضًا إلى الحاجة إلى «تسوية عادلة» لمشكلة اللاجئين الفلسطينيِّين. وعُدَّ ذلك الاقتراح دليلَ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، الصادر في نوفمبر، ونقطةَ بداية لما أصبح معروفًا بعملية السلام. وعلى أي حال، لم تبدُ فرص نجاح المبادرة مبشِّرة. فمع أن إسرائيل عرضت التخلي عن سيناء ومرتفعات الجولان بالكامل مقابل اتفاقيات سلام رسمية مع مصر وسوريا، فقد ضمَّت أيضًا القدس الشرقية بصورة منفردة. وأصدرت الدول العربية في اجتماعها في الخرطوم «اللاءات الثلاث» الشهيرة: لا مفاوضات مع إسرائيل، لا سلام معها، ولا اعتراف بها. وكان الفلسطينيون غاضبين بسبب إهمال القرار ٢٤٢ ذكْرَ حقِّهم في تقرير مصيرهم، وقرروا الاستمرار في الصراع المسلح لمحو إسرائيل. وستقود تلك المجهودات منظمة التحرير الفلسطينية التي، بعد تحرُّرها من السيطرة المصرية، انضمت تحت لواء فتح ورئاسة ياسر عرفات.

كانت حرب ١٩٦٧، التي لا تزال أصداؤها تهزُّ المنطقة، نقطةً أساسية في تكوين الشرق الأوسط الحديث. لقد عانت القومية العربية، وهي أيديولوجية علمانية إلى حد كبير، نكسةً لن تتعافى منها أبدًا، وهو ما سرَّع ظهورَ منافسها التطرُّف الإسلامي. وعلى النقيض،

زادت قوة الصهيونية بانتصار إسرائيل، وتدفَّقت في عروق الشعب اليهودي موجةٌ قوية من الحماسة الدينية بعد اتحاده من جديد مع وطنه الروحي في القدس والضفة الغربية. وكانت الحرب أيضًا بالغة الأهمية في علاقة أمريكا بالمنطقة. ففي نظر ملايين الأمريكيِّين الإنجيليِّين الذين كانوا يقدِّرون إسرائيل باعتبارها تحقيقًا لنبوءات الإنجيل، كانت حرب الأيام الستة تدخلًا إلهيًّا للإسراع بقدوم عصر المسيح. ولكن هذا الانتصار أقنع واضعي السياسات الأمريكيِّين أيضًا، الذين كان العديد منهم من قبلُ لا ينصحون بإقامة علاقات قوية مع الدولة اليهودية، أن ينظروا إلى إسرائيل باعتبارها كتيبةَ أمريكا الصغيرة القوية في الحرب الباردة.

ولم يخفَ على العرب تحوُّل إسرائيل في عيون الأمريكيِّين من صديق بعيد إلى حليف فعلي. فرغم مجهودات جونسون لتحقيق السلام وإعادة أراضيهم المغتصَبة، تبِعت ست دول عربية مصر في قطع علاقاتها بواشنطن. وبدأ ناصر شنَّ حرب استنزاف، كانت القوات المصرية والإسرائيلية فيها تواجه بعضها عبْر قناة السويس وتتبادل يوميًّا وابلًا من القذائف ذات القوة التفجيرية الشديدة ونيران القناصة والقصف الجوي. ومن الأردن كانت وحدات منظمة التحرير الفلسطينية تقصف بانتظام المدن والمستوطنات الإسرائيلية الحدودية. وإذا كان الهدف من تلك الهجمات هو إعاقة العلاقات التي تزداد قوة بين القدس وواشنطن، فقد أدَّت إلى العكس تمامًا. فقد باع جونسون ١٥٠ طائرة حربية للقوات الجوية الإسرائيلية، مكملًا بذلك العمليةَ التي حلت الولايات المتحدة بها محلَّ فرنسا باعتبارها المورِّد الرئيسي للسلاح لإسرائيل.

ومع أن هذه التطورات لم تكن تشجِّع على بدء مجهودات توسط بين الطرفين، فقد بدا أنها تزيد من تصميم جونسون على بذل جهود سلام كبرى في الشرق الأوسط عام ١٩٦٨. وتأكَّدت الحاجة إلى مثل هذه المبادرة باغتيال روبرت إف كينيدي، الأخ الأصغر للرئيس السابق وأحد المنافسين على الرئاسة، على يد فلسطينيٍّ مضطربٍ اسمه سرحان سرحان. وقد حدث الاغتيال في الذكرى السنوية الأولى لحرب الأيام الستة، ولكن في ذلك الوقت كان جونسون قد خرج من سباق الرئاسة، ضحيةَ النتائج المحلية لحرب فيتنام. وبذلك انتهت فترة رئاسة جونسون التي كانت فترةً مضطربة تنافست فيها اعتبارات الحرب الباردة مع الدوافع الدينية في رسمِ سياسات أمريكا في الشرق الأوسط. وعلى أي حال، لن يلعب الإيمان سوى دور بسيط، أو لن يكون له دور على الإطلاق في تشكيل موقف الإدارة التالية تجاه المنطقة، وكذلك الأوهام الخيالية. فمنذ عام ١٩٦٩ أفسح الإيمان والخيال المجالَ أمام تركيزٍ عقلاني شبهِ أعمى على القوة.

ميترنيخ أمريكي في الشرق الأوسط

كان الشرق الأوسط الذي وِرثه ريتشارد ميلهاوس نيكسون مكانًا كئيبًا ممزَّقًا أيديولوجيًّا دمَّرته الحرب، ولكن الرئيس كان يملك شخصيةً كئيبة غير مترابطة تناسبه. ومع أنه نشأ في عائلة تقيَّة تنتمي إلى جمعية الأصدقاء الدينية، فإنَّ الدِّين لم يكن له دور يُذكر في تعامل نيكسون مع شئون الشرق الأوسط. بل كان إحساسه بالتهديد السوفييتي الذي يواجه المنطقة والقوة التي تحتاج إليها أمريكا لمواجهة هذا التهديد فقط هو ما يحدِّد سياساته. وأصبحت كل الأهداف الأخرى، من تحقيق سلام عربي إسرائيلي أو توسيع قاعدة التفاهم العربي الأمريكي، تأتي بعد مقتضيات الحرب الباردة في تفكير نيكسون الكئيب.

كان يشارك نيكسون نظرتَه للعالم إلى حدٍّ بعيد مستشاره لشئون الأمن القومي العبقري الغامض دكتور هنري إيه كيسنجر. كان كيسنجر يعلم مخاطرَ الفوضى السياسية، وكذلك، على النقيض، القيمة السامية للاستقرار؛ إذ إنه كان مراهقًا يهوديًّا لاجئًا من ألمانيا النازية. وكان بطلُ رسالته للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد هو ميترنيخ، الأمير النمساوي البارع الذي تمكَّن من الحفاظ على مصالح بلاده طوال فترة الاضطرابات العنيفة في أوروبا في عصرِ ما بعد نابليون، والحفاظ على توازنٍ يعمل بصورة ممتازة بين القوى. وسعى كيسنجر لتكرار إنجازات ميترنيخ على نطاق عالمي، مقويًا دورَ أمريكا عالميًّا، ومحققًا توازنًا دائمًا مع موسكو.

ولم يكن هذا بالتحدي الهيِّن على الإطلاق، خاصة في الشرق الأوسط.

وفسَّر نيكسون ذلك قائلًا: «الفَرق بين هدفنا وهدف السوفييت في الشرق الأوسط بسيطٌ للغاية. نحن نريد السلام وهم يريدون الشرق الأوسط.» لذلك سعت الإدارة الأمريكية إلى منعِ نشوب حرب عربية إسرائيلية أخرى، كانت ستجعل العربَ أكثرَ اعتمادًا على السلاح السوفييتي والمستشارين السوفييت، وأيضًا لحماية الحكومات الصديقة في كلٍّ من الأردن وإيران والمملكة السعودية. كما كان أمن إسرائيل يشغَل ذهن الرئيس أيضًا. وكان ارتباطه بالدولة اليهودية لا يعود إلى ميراثه من جمعية الأصدقاء الدينية، أو إلى رغبته في الحصول على دعم الناخبين اليهود؛ فقد صوَّت أقل من ٨٪ من يهود أمريكا لصالحه، ولكن مرة أخرى إلى حاجته لصد السوفييت. فقد قال لوفد من كبار المشرعين: «إسرائيل هي أكبر صِمام أمان فعَّال في الوقت الحاضر لقوة الشرق الأوسط للسوفييت. وأنا أساند إسرائيل لأن هذا في مصلحة الولايات المتحدة.» ولكن نيكسون كان يؤمن أيضًا

أن إسرائيل عندما تشعر بالأمان في تحالفها مع أمريكا ستتحمل المخاطرَ اللازمة للتوصل إلى سلام. وبعد أقلَّ من عام من توليه منصبَه، فوَّض الرئيس وزير خارجيته ويليام بي روجرز في التوسط لإنهاء القتال بين مصر وإسرائيل، وللضغط على إسرائيل لقبول اتفاق الأرض مقابل السلام على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢. وتماشيًا مع روح تخفيف حدة التوتر الدولي، دعا نيكسون السوفييت إلى المشاركة في رعاية المبادرة.

كان نيكسون قد شرع في اتباع نهجٍ محسوب ويؤدي إلى تغيرات في الشرق الأوسط، ولكن الأحداث اجتمعت لتُخرِج تطوُّر هذا النهج عن مساره. ففي ليبيا أطاح العقيد الجريء والموهوم غالبًا معمر القذافي بالملك إدريس وأغلق قاعدة ويلوس الجوية، وعقد تحالفاتٍ قوية مع الكرملين. وتدفَّقت الأسلحة السوفييتية على الجزائر والسودان، وانتشر آلاف المستشارين من الجيش الأحمر في مصر واليمن الجنوبي وسوريا والعراق. وتمكَّن روجرز من التوصل إلى وقفٍ لإطلاق النار بين مصر وإسرائيل، ولكن ناصر خرقه بنقل صواريخ سوفييتية الصنع إلى منطقة الهدنة. وسعِدت رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير — أو سابقًا جولدا مايرسون من ميلووكي — بتلقي مساعدة روجرز في إنهاء حرب الاستنزاف، ورحَّبت بلهفةٍ بعرض نيكسون بيعها مزيدًا من الأسلحة. ولكنها رفضت التخلي عن الأراضي التي استولت عليها إسرائيل في ١٩٦٧ مقابل أي شيء أقلَّ من السلام الكامل. وكان ناصر لا يزال رافضًا لفكرة التفاوض مع إسرائيل، فضلًا عن فكرة التصالح معها.[15]

وتمثَّل فشلُ الإدارة الأمريكية في تحقيق الحد الأدنى من أهدافها السياسية في الشرق الأوسط في تصاعد الفوضى في الأردن. فقد كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أسَّست دولة فعلية داخل الدولة في الأردن، وكانت ترسل بانتظام رجال العصابات عبْر نهر الأردن إلى الضفة الغربية المحتلة، وتطلق الصواريخ على المستوطنات الحدودية الإسرائيلية. وكانت إسرائيل تردُّ بعنف على هذه الغارات، مما أدخلها مجددًا في دائرةٍ لا تنتهي من العنف المتصاعد. ولكن التوتر اتخذ منحًى دوليًّا أشدَّ حدةً في ٦ سبتمبر ١٩٧٠، عندما ترصَّد رجال العصابات الفلسطينيون لثلاث طائرات تابعة لشركات ترانس وورلد أيرلاينز، وسويس إير، وبان آم، واختطفوها وأجبروها على الهبوط في الصحراء الأردنية. واحتجز المختطفون ٥٤ رهينة، منهم ٣٤ من الأمريكيِّين، واحتجزوهم في مخبأ في عمان. ثم قاموا بتوصيل متفجرات تحت الطائرات وفجَّروها مصوِّرين إياها بآلات تصوير.

أشعلت هذه التفجيرات المواجهةَ التي كانت تغلي تحت السطح منذ وقت طويل بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، وهي الفترة التي يطلِق عليها الفلسطينيون

«أيلول الأسود». فقد نشِب قتال عنيف بين الميلشيا الفلسطينية والقوات الموالية للملك حسين ملكِ الأردن الصغير الجسم. وسرعان ما تغلَّبت القوات الملكية على المتمردين، ولكن هدَّد السوريون بالتدخل لمصلحة الفلسطينيِّين. واستنجد حسين المذعور بالولايات المتحدة لتنقذه من الجيش السوري الذي يتفوَّق عليه في العدد، لكن الإدارة الأمريكية رفضت. فمع أن نيكسون كان معجبًا بالملك حسين ومقدِّرًا لقيمة الأردن في الحرب الباردة، فقد كان يخشى أن تؤدي أيُّ محاولة لمساعدة المملكة الأردنية عسكريًّا إلى استفزاز السوفييت للتدخل مع سوريا، مما قد يؤدي إلى صِدامٍ مباشر بين القوى العظمى. ولم يتبقَّ سوى خيار واحد. وعبْر خط هاتف سرِّي كان قد وُصِل بين البيت الأبيض والسفارة الإسرائيلية سأل كيسنجر السفير إسحاق رابين، الذي كان رئيس الأركان الإسرائيلي خلال حرب الأيام الستة وابن أحد مواطني نيويورك فيما مضى، عما إذا كانت إسرائيل ستحرِّك جيشها إلى شمال الأردن لوقف تقدُّم السوريين. أي إنه كان يطلب من القوات اليهودية التضحيةَ بحياتها من أجل ملكٍ عربي ومن أجل أمن الولايات المتحدة. ونقل رابين الطلب إلى مائير في القدس، التي وافقت عليه فورًا.

كانت المساعدة الإسرائيلية، كما اتضح فيما بعدُ، غيرَ ضرورية. فقد دمَّرت الطائرات الأردنية النفاثة تشكيلاتِ الدبابات السورية وهي تعبُر الحدود. ونُفي عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان، واستمر الملك حسين في حكمه بصفته الملكَ الهاشمي المظفَّر. ولكن البيت الأبيض مع ذلك سيظل يتذكَّر لوقت طويل استعدادَ إسرائيل للقتال بناءً على طلب أمريكا. وعلى مدار السنوات الثلاث التالية تضاعفت المساعدات العسكرية الأمريكية إلى الدولة اليهودية عشرة أضعاف، وتوقَّفت تمامًا أي ضغوط على إسرائيل للتنازل عن الأراضي.

وقد ترك التحالف الناشئ بين إسرائيل والقوة العظمى البارزة في العالم انطباعًا مؤثرًا على الحكام العرب. ففي حين كان الاتحاد السوفييتي يمدُّهم بعُدة وعتاد الحرب، كانت الولايات المتحدة وحدَها هي القادرة على تقديم النفوذ الدبلوماسي اللازم لانتزاع الأراضي العربية المحتلة من قبضة إسرائيل. لكن عددًا قليلًا فقط من القادة العرب هو مَن فهِم هذا التغيُّر الدقيق، كان أخطرهم أنور السادات. لقد كان الكثيرون ينظرون إلى السادات الأسمر البشرة الطويل الجسد النحيف، الذي ارتقى إلى سُدة الحكم بعد وفاة ناصر إثر تعرُّضه لأزمة قلبية انتابته وهو يحاول حلَّ أزمة أيلول الأسود، على أنه تابع ضعيف. وكانت أحاديثه المعادية للولايات المتحدة كثيرةً للغاية. ولكن سرعان ما سيتضح

أن السادات سياسي محنَّك بعيد النظر، رجل له رؤية وقادر على التنبؤ بأهمية إبعاد الأمريكيِّين عن إسرائيل وجذبهم إلى صف العرب مرةً أخرى. وأدرك السادات أن الطريق إلى سيناء لا يمرُّ عبْر دمشق أو موسكو، بل من خلال عاصمة الولايات المتحدة.

لم يضيِّع السادات وقتًا في توضيح إمكانية تعاونه مع واشنطن. فأبلغ نيكسون قائلًا: «تكون مخطئًا لو ظننت أن [مصر] تخضع للنفوذ السوفييتي»، وأكَّد له أنه إذا «أثبتت الولايات المتحدة صداقتها لنا، فسنقابل صداقتها بعشرة أضعاف من الود والصداقة.» وأشار السادات أيضًا إلى أنه في مقابل عقد اتفاق مؤقَّت يسهِّل إعادةَ فتح قناة السويس المغلقة منذ حرب الأيام الستة، وعودةَ عدد رمزي من القوات المصرية إلى سيناء، فإنه على استعداد لطرد المستشارين السوفييت من مصر. وقال: «لا يوجد سببٌ يجبر العرب على التحيز إلى الاتحاد السوفييتي. فشعبي يفضِّل الغرب.» وأطلق السادات على عام ١٩٧١ عام الحسم، مؤكدًا أن الاتجاه الذي ستسلكه مصر، سواء أكان نحو السلام أم نحو الحرب، يتوقف أساسًا على أمريكا.

كان نيكسون يتوق للغاية لاستكشاف نوايا السادات، ولكن الأحداث، على المستوى الدولي والإقليمي والمحلي، تآمرت مرةً أخرى لإعاقته. فقد تجنَّبت الإدارة أي سياسات قد تؤدي إلى إثارة غضب موسكو، وهي التي كانت غارقةً لأذنيها في مفاوضاتٍ سرية لإنهاء حرب فيتنام، وفي محاولات للوصول إلى اتفاق مع السوفييت لوضع حد للأسلحة النووية. وبدلًا من هذا تعاهدت القوى الكبرى في مايو ١٩٧١ على العمل معًا لإيجاد تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي. ولكن بعدها بعام واحد فقط طرد السادات فجأةً نحو ١٥٠٠٠ مستشار سوفييتي من مصر، ولكن هذه الضربة المفاجأة فشلت في إحداث أي تغيير في السياسة الأمريكية. فقد كان حلُّ الأزمة الدولية مع السوفييت لا يزال له الأولوية على السلام العربي الإسرائيلي.

وتضاءلت فرص أي تقدُّم دبلوماسي أكثر وأكثر على مدار عام ١٩٧٢. وكان من بين أكبر العقبات أمام السلام عمليات منظمة التحرير الفلسطينية وغيرها من المنظمات الفلسطينية التي حظيت عقب هزيمة ١٩٦٧ بمكانة بطولية جديدة في نظر العرب. وقد شنَّ الفلسطينيون، الذين كانوا متلهفين لزيادة هذه الشعبية وجذب انتباه العالم إلى قضيتهم، سلسلةً من الهجمات التي تزداد دمويةً ضد أهداف إسرائيلية. وبلغت تلك الهجمات ذروتها في سبتمبر ١٩٧٢، عندما قتل أعضاءٌ مقنَّعون من مجموعة «أيلول الأسود» — وهي فرع من منظمة التحرير الفلسطينية سُميت على اسم حرب العام

السابق في الأردن — ١١ رياضيًّا إسرائيليًّا في دورة الألعاب الأوليمبية بميونيخ. وكانت مذبحة ميونيخ هي أول هجمة إرهابية كبرى تُبث مباشرة على التليفزيون، وشاهدها كثيرون في أمريكا. كما كانت نذيرًا لعنفٍ أكثرَ دموية يلوح في الأفق. ولكن كان ردُّ فعل نيكسون لما حدث في ميونيخ غير مبالٍ، فرفض التنديد بالعرب أو السوفييت المساندين لمنظمة التحرير الفلسطينية، أو حتى تنكيس العلم على البيت الأبيض رثاءً للموتى. فقد كان الأكثر أهميةً للرئيس في ذلك الوقت هو الحاجة إلى مواجهة الاتهامات بوجود فساد يضرب بجذوره إلى حدود بعيدة في البيت الأبيض، واتهامات بأن فريق عمله قد سطا على مكاتب اللجنة القومية للحزب الديموقراطي في فندق ووترجيت بواشنطن.

وما دامت الولايات المتحدة ملتزمةً بدبلوماسية مشتركة مع السوفييت، ومع اشتعال الموقف في جزء كبير من الشرق الأوسط، والرئيس الأمريكي موثوق اليدين سياسيًّا، لم يأمُل السادات في تحقيق اتفاق عن طريق المفاوضات. واقترح كيسنجر، الذي خلف روجرز وزيرًا للخارجية في سبتمبر ١٩٧٣، عمليةً تدريجية مكوَّنة من عدة خطوات من التزام مصر بالأمن الإسرائيلي واعتراف إسرائيل بسيادة مصر على سيناء، ولكن مجهوداته جاءت متأخرة.[16] ففي الثانية من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر، بعد يوم واحد من مناقشة كيسنجر خطتَه مع وزير الخارجية المصري، شنَّت مصر الحرب.

كان الهجوم قد فاجأ الولايات المتحدة تمامًا؛ إذ تم بالتنسيق مع هجوم سوري على مرتفعات الجولان المحتلة. وكان اهتمام البلد بالكامل منصبًّا على قضية ووترجيت، وتركَ نيكسون، الذي عاد إلى منزله في فلوريدا، الكثيرَ من صنع القرارات في يد كيسنجر. وكان الوزير قد تقبَّل تقديرات أجهزة الاستخبارات بأن فرص الحرب في الشرق الأوسط ضئيلة للغاية، وقد اشتكى أحد المسئولين الأمريكيِّين من أن «الإسرائيليِّين قاموا بإجراء عملية غسيل مخٍّ لنا، بعد أن أجرَوا عملية غسيل مخ لأنفسهم»، ونجح السادات في تضليله. ولم تكن الصدمة التي تعرَّض لها الإسرائيليون أخفَّ؛ فقد كان معظمهم يقضون هذا اليوم في منازلهم أو في المعبد يحتفلون بأقدس يوم لدى اليهود، وهو يوم الغفران. وكانت رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير قد تلقَّت قبلها تحذيراتٍ عن الهجوم، وفكَّرت في توجيه ضربة استباقية لمصر كما فعلت في ١٩٦٧، ولكن كيسنجر أقنعها بالعدول عن ذلك. مبرِّرًا ذلك بأن المجتمع الدولي لم يَعُد ينظر إلى إسرائيل باعتبارها داود يحارب جالوت العربي؛ ولذلك فسيشجب إسرائيل لأنها باغية. ووافقته مائير، وكان ثَمن قرارها هذا باهظًا للغاية. فتحتَ مظلةٍ كثيفة ومحكمة من قذائف المدفعية وصواريخ أرض جو، قام نحو ٨٠ ألفًا

من القوات المصرية بالهجوم على جسور ومعديات عبر قناة السويس. وسحقوا القوات الإسرائيلية غير المستعدة والأقل منهم عددًا، ورسَّخوا وجودهم في سيناء. في تلك الأثناء كانت مئات الدبابات السورية تحرث حقول الألغام والحصون على مرتفعات الجولان. وعاد مشهد الطرق الصحراوية المليئة بالدبابات المحترقة والجثث المتفحمة مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت معظم الخسائر على الجانب الإسرائيلي.

كانت حرب يوم الغفران، أو كما سمَّاها العرب حرب أكتوبر، اختبارًا قاسيًا لأسلوب كيسنجر الواقعي لفهم سياسات الشرق الأوسط. وكانت له ثلاثة أهداف خلال تلك الأزمة: وقف إراقة الدماء بأقصى سرعة، ومنع السوفييت من تحقيق أي مزايا سياسية من الأزمة، ووضع أساس لوساطة أمريكية بعد الحرب. وكانت الولايات المتحدة ستضع ثِقلها الدبلوماسي وراء جهود الأمم المتحدة للتوصل إلى وقفٍ لإطلاق النار ولاستعراض قوَّتها العسكرية لتمنع السوفييت من التدخل في الحرب. ومع أنه كان من المتوقَّع أن تلمَّ إسرائيل شعثَها وتصد الغزاة العرب سريعًا؛ فقد أخذت الإدارة الأمريكية على عاتقها أنها ستقدِّم تنازلات عن أجزاءٍ كبيرة من الأرض عند وقف القتال. وقال كيسنجر: «لم يكن بإمكاننا أن نجعل سياساتنا رهنًا بإسرائيل»، مؤكدًا أن النزعة المعادية لأمريكا في العالم العربي في مصلحة إسرائيل، إلا أنها تمثل «كارثة» بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

ولكن الأحداث في الميدان لم تتماشَ مرةً أخرى مع الأجندة الأمريكية. إذ لم يقع الهجوم الإسرائيلي المضاد المتوقَّع، وسرعان ما اكتشفت الدولة اليهودية التي تستعد للحرب نقصَ إمداداتها نقصًا كبيرًا. وعلى النقيض كان العرب يتلقَّون شحنات مستمرة من السلاح والذخيرة من السوفييت. وأخذ كيسنجر يفكِّر فيما إذا كان عليه أن يردَّ على ذلك التحرك السوفييتي أم لا؛ وزعمت وزارة الدفاع أن إعادة تسليح إسرائيل ستضر بالمجهودات الحربية الأمريكية في فيتنام. ولكن فكرة انتصار السلاح الشيوعي كانت مخيفةً بما يكفي لإخراج ريتشارد نيكسون من عزلته. وأصدر الرئيس أوامره قائلًا: «مهما كانت التكلفة، أنقذوا إسرائيل.» وبناءً على ذلك قطعت طائرات جالاكسي وستارليفتر مسافة ستة الآلاف ميل إلى تل أبيب نحو ٣٠٠ مرة، في عمليةٍ تحمل اسم «نيكل جراس»، ونقلت أكثر من ٢٢٠٠٠ طن من الذخيرة الحربية. وقلبت القوات الإسرائيلية المزودة بالسلاح الكِفءَ بعناد، طاردةً القوات السورية مرة أخرى إلى دمشق خلال أسبوع، ومحاصرةً القوات المصرية في سيناء.

ورحَّبت واشنطن في البداية بهذا التحول في أرض المعركة، حتى تسبَّبت في نتيجتين مشئومتين غير متوقعتين. فأولًا، قام منتجو النفط العرب، الذين تلقَّت عائلاتهم العلاج

على يد أطباء مبشِّرين أمريكيِّين، وامتلأت خزائن أموالهم بأموال شركات النفط الأمريكي وحرص كل رئيس أمريكي على حمايتهم، بقطع إمدادات النفط عن الولايات المتحدة وغيرها من الدول الصناعية، ردًّا على مساندتها لإسرائيل. فأغلقت كل خطوط الإنتاج ومحطات الكهرباء، وانتظرت طوابيرُ طويلة من السيارات وخزاناتها خالية من الوقود في محطات الوقود الفارغة بدورها في جميع أنحاء أمريكا. ولكن الأسوأ من استخدام العرب لسلاح النفط كان قرار السوفييت بوضع قواتهم الأرضية والبحرية في حالة تأهُّب قصوى، مهدِّدين بقتال نووي.

وفجأةً كان على الولايات المتحدة أن تواجه شبحَ اقتصادٍ أمريكي مصاب بالشلل بسبب نقص الوقود، وكابوسًا أسوأ هو حرب عالمية مع روسيا. وأذعن كيسنجر قائلًا: «ربما علينا أن نواجه السوفييت. علينا أن نكون بصلابة الحديد الآن.» وإثباتًا لهذا العناد أُعلنت حالة الاستعداد للحرب من الدرجة الثالثة للقوات الأمريكية في أوروبا وللأسطول السادس في شرق البحر المتوسط. وفي الوقت نفسه مارس البيت الأبيض ضغوطًا مكثفة على الإسرائيليِّين لوقف تقدُّمهم نحو دمشق ولتخفيف قبضتهم على الجيش المصري. وانهارت عدة محاولات لوقف إطلاق النار، وكانت السفن الحربية الأمريكية والسوفييتية على شفا الالتحام في معركة. ولكن بحلول ٢٨ أكتوبر كان الجنود الإسرائيليون يقدِّمون زجاجات المياه لنظرائهم المصريِّين ويتعاونون معهم في اتخاذ إجراءات للحد من التوتر. وأصدر مجلس الأمن قراره رقم ٣٣٨، داعيًا إلى «سلام دائم وعادل» على أساس القرار رقم ٢٤٢، وممهدًا لمؤتمر دولي لتحقيق ذلك. وقدَّم كيسنجر تقريره لنيكسون وهو مبتهج قائلًا: «كان ذلك انتصارًا رائعًا.»[17]

وربما كان وزير الخارجية مبالغًا قليلًا في مدح نفسه. فبسبب تركيز الولايات المتحدة على عواملَ استراتيجية عالمية فقط تقريبًا، فشلت في منع صراع إقليمي، وبتوانيها في الجهود الدبلوماسية ربما تكون قد سرَّعت بنشوبها. ولقي نحو ١٥ ألفًا حتفَهم، وأكثر من ٢٥٠٠ إسرائيلي. كما كشفت الحرب النقابَ عن صدوع خطيرة بين الحلفاء الغربيين، حيث قامت عدة دول أعضاء في منظمة حلف شمال الأطلنطي بإغلاق مجالها الجوي أمام الطائرات الأمريكية المتوجهة إلى إسرائيل. وعلَّق كيسنجر فيما بعدُ على ذلك قائلًا: «كان الأوروبيون يتصرفون كالضباع. وكان سلوكهم مخزيًا للغاية.»

هل كان يمكن أن تكفي الواقعية وحدَها لإصلاح هذا الدمار وتمهيد الطريق أمام تحقيق السلام؟ جاءت الإجابة المثبطة في جنيف في ديسمبر ١٩٧٣ حيث عقد المؤتمر الدولي

للسلام. فقد رفضت الوفود العربية مناقشةَ تسوية سياسية قبل الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي المحتلة، وقاطعت سوريا الجلسات تمامًا. وفي تلك الأثناء كانت أسعار النفط قد قفزت لما يقرُب من ٤٠٠٪ بسبب الحظر العربي، ونفَّذت المنظمات الفلسطينية التي أُبعدت عن حضور المؤتمر مذابحَ في مدينتين في شمال إسرائيل. كانت هذه هي البيئة غير المستقرة التي نفَّذ فيها كيسنجر أدقَّ مهامه الدبلوماسية.

بعد خمسين عامًا من ابتعاد وزارة الخارجية عن تعيين يهودٍ مهاجرين من ألمانيا مثل سيمون وولف وأوسكار ستراوس وهنري مورجنتاو وسطاءَ بين أمريكا والعالم الإسلامي، واستبدالهم بأبناء المبشِّرين، كان يهودي أمريكي مولود في ألمانيا يقوم بالوساطة في الشرق الأوسط. وباستخدام الوسائل التي أسَّسها روبرت بي. أندرسون في الخمسينيات، كان الوزير يقوم برحلات مكُّوكية بين العواصم العربية والعاصمة الإسرائيلية في محاولاتٍ تدريجية لفصل الجيوش المتحاربة. ولكن على عكس أندرسون الذي كان يسافر دون الإعلان عن ذلك، كان كيسنجر يسافر علنًا. فكان يومه يبدأ عادةً بزيارة للقاهرة وتلقي قبلات تحية من السادات، يتبعها توقُّف في دمشق، وتقبيل الرئيس السوري حافظ الأسد، ثم ينتهي بزيارة لتل أبيب، حيث يعانق رئيسة الوزراء جولدا مائير، التي تمازحه قائلة: «لم أكن أعلم أنك تقبِّل النساء أيضًا يا سيادة الوزير!» ولكن وراء تلك اللقاءات الودية، كانت المفاوضات متوترة، خاصة مع الإسرائيليِّين، الذين كان كيسنجر كثيرًا ما يُضطر إلى تهديدهم ليذعنوا له. وكانت النتيجة التوصل لاتفاقيات لفصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية، وتجديد العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا والعالم العربي.

وبعد أن شدَّت هذه النجاحات من أزر كيسنجر، كان مستعدًّا للمضي قُدمًا نحو اتفاقيات عربية إسرائيلية بعيدة المدى والتأثير، ولكن العقبات ظهرت في طريقه. وصل نيكسون، الذي كان في أشد الحاجة لفترة راحة من فضيحة ووترجيت وللاستمتاع بآخر نجاحاته الدبلوماسية، إلى الشرق الأوسط في يونيو ١٩٧٤. وخرجت جماهيرُ حاشدة لاستقبال الرئيس في مصر وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية، وعامله الإسرائيليون باحترام. ولكن هذا التملُّق لم يساعد كثيرًا على تحسين موقفه في وطنه، واستقال نيكسون بعد عودته بوقت قصير. ولم يكن لخلفه، جيرالد فورد الذي كان دمث الخلق ولكن تعوزه الألمعية، خبرةٌ كافية في إدارة شئون البلاد، وغير محنَّك بصفة عامة في أمور الشرق الأوسط. أما جولدا مائير التي استقالت بعد نيكسون بأربعة أشهر فخلفها إسحاق رابين، الذي كان سياسيًّا هادئًا بصورةٍ خادعة والذي أثبت أنه على القدْر نفسه من الشراسة عندما

يتعلق الأمر بموضوع الأرض. وأثمر المزيج غير المتناسق لفورد ورابين أسوأ أزمة في علاقة أمريكا بإسرائيل منذ أزمة السويس، وذلك عندما أعلن فورد عن «إعادة تقييم» الدعم الأمريكي للدولة اليهودية. وردَّ رابين بحشد لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية، وهي اللوبي المساند لإسرائيل، ضد الرئيس الأمريكي. ومع أن اللجنة تأسَّست في عام ١٩٥٣، فإنها لم تحقِّق النفوذَ المالي والسياسي الكافي للتأثير على رأي الكونجرس إلا في منتصف السبعينيات. وألغى فورد «إعادة التقييم» عندما قوبل بالمعارضة من جناحي الكونجرس بسبب ضغوط تلك اللجنة.

ومع ذلك، نجح كيسنجر، الذي ظل يشغَل منصب وزير الخارجية في عهد الرئيس فورد، في التوسط لعقد معاهدة ثانية بين مصر وإسرائيل في سبتمبر ١٩٧٥. ووافقت إسرائيل بمقتضاها على التراجع عن مناطقَ أخرى من سيناء مقابل تعهُّد مصر بإيقاف حالة الحرب معها وضمانات أمنية أمريكية. ولا يعود الفضل في نجاح عقد الاتفاق إلى منهج كيسنجر الذي يقتدي فيه بميترنيخ بقدرِ ما يعود إلى رغبةٍ عميقة لدى إسرائيل ومصر في السلام. وهناك مثالٌ آخر أسوأ شهرة لدبلوماسية كيسنجر العقلانية غير المتحيزة في الشرق الأوسط في العام نفسه أثناء خلاف حدودي بين إيران والعراق، عندما شجَّع الوزير سرًّا أكرادَ العراق على الثورة ضد الحكم العراقي. وبالفعل تمرَّد الأكراد، ولكن الشاه وصدَّام حسين سرعان ما حلَّا خلافاتهما، وتفرَّغ الجيش العراقي لقمع التمرد. وناشد الأكراد كيسنجر أن يساعدهم، ولكن وزير الخارجية لم يستجِب لهم. وقال: «يجب ألا نخلط بين الأعمال السرية والعمل التبشيري.»[18]

وعلى مدارِ سبع سنوات خلال فترة رئاسة نيكسون وفورد تعرَّضت الولايات المتحدة لاضطرابات قاسية في الشرق الأوسط. فقد واجهت إعصارًا من المعارك والانقلابات والمقاطعات وتجنَّبت نزاعات مع السوفييت. وسعى الرئيسان إلى استعادة مكانة أمريكا في العالم العربي وتقييد مكانة روسيا، وفي الوقت نفسه تحقيق توازن استراتيجي دقيق. وكانت إنجازاتهم في النهاية مبهرة. فقد أُعيدت مصر، الدولة العربية الزعيمة، إلى المدار الأمريكي، واحتُوي النفوذ السوفييتي في المنطقة، مع أنه استمر قويًّا في كلٍّ من سوريا والعراق وليبيا. ووقَّع العرب والإسرائيليون لأول مرة منذ الهدنة عام ١٩٤٩ اتفاقياتٍ دبلوماسية، ورفضوا فكرةَ اللجوء إلى الحرب. وكان السلام ممكنًا في نظر العديد من أطراف النزاع، ولكن ليس تحت رقابة الأمم المتحدة أو الاتحاد السوفييتي، بل فقط تحت رعاية الولايات المتحدة.

ورغم ذلك ظلَّ السلام وجهةً بعيدة كان على القادة الأمريكيِّين أن يقطعوا مسافةً طويلة إليها. فكانت إسرائيل قد بدأت بالفعل في بناء مستوطنات في المناطق التي احتلتها في عام ١٩٦٧، في إشارة إلى رفضها للتنازلات التي أشار إليها القرار رقم ٢٤٢. وأرسل حافظ الأسد ٤٠ ألف جندي سوري إلى لبنان الذي مزَّقته الحرب الأهلية، بادئًا بذلك فترةَ احتلال عنيفة دامت ثلاثين عامًا. وسرعان ما طالت الأمريكيِّين أيضًا يدُ الإرهاب الذي بدأ ضد الإسرائيليِّين. فاختطفت منظمة التحرير الفلسطينية كليو آلين نويل الابن، سفير أمريكا في السودان والقائم بأعماله جورج كيرتيس مور، ثم قتلتهم في مارس ١٩٧٣، وكان أحد مطالبها إطلاق سراح سرحان سرحان. وبعد ذلك بثلاث سنوات قتل مسلحون فلسطينيون السفيرَ فرانسيس ميلوي والمستشار الاقتصادي روبرت وارنج في بيروت. وفي الثامن من سبتمبر ١٩٧٤، فُجِّرت طائرة تابعة لشركة ترانس وورلد إيرلاينز في طريقها من تل أبيب إلى نيويورك في الجو بقنبلة وُضعت في حجرة البضائع، وقُتل جميع ركابها البالغ عددهم ٨٨ شخصًا. وكان المتطرفون الإسلاميون يستشيطون غضبًا في جميع أنحاء المنطقة، وزاد من غضبهم فشلُ العرب في هزيمة إسرائيل عسكريًّا، وأيضًا بسبب سيطرة النُّظم الديكتاتورية التي كانت أمريكا تساند بعضها. وكان الحصول على هدنات مؤقتة في مثل هذه البيئة، فضلًا عن «سلام أمريكي»، لا يتطلب واقعيةً فقط، بل أخلاقًا وخيالًا أيضًا. وهذه المواصفات بالتحديد هي ما ميَّز خليفة فورد، الذي كان أكثرَ رئيسٍ يقوده الإيمان ومشبَّعًا بالخيال حتى اليوم.

شمامسة وعمداء وشاهات

كان جيمي كارتر قد عمل في عدة مجالات قبل انتخابه الرئيسَ التاسع والثلاثين لأمريكا؛ فقد كان مزارعًا للفول السوداني، وفردًا في طاقم العمل بالغواصات تلقى تدريباته في أنابوليس، وكان محافظًا لجورجيا. وطوال تلك المراحل استمر كارتر مسيحيًّا مؤمنًا، وشمَّاسًا معمدانيًّا، ويواظب على قراءة الإنجيل يوميًّا. وقد اعترف قائلًا: «أريد أن أملأ حياتي بالمسيح أكثرَ من أي شيء آخر — حتى السياسة.» واستمر ذلك الورَع حتى بعد دخول كارتر البيتَ الأبيض في يناير ١٩٧٧. وعلى غرار وودرو ويلسون، كان يحلُم بتأسيس «أخوَّة في الإيمان» في العلاقات الدولية، وباتباع سياسة إنسانية في الخارج. وغالبًا ما كان أسلوبه «البابوي» تجاه الشئون الخارجية يبدو غريبًا بالنسبة إلى قادة العالم،

حتى أولئك الذين كانوا يشاركونه استقامته. ويتذكَّر البابا يوحنا بولس الثاني: «بعد قضاء ساعتين مع الرئيس كارتر، انتابني شعور بأن قائدَين دينيَّين كانا يتحاوران.»

كانت حماسة كارتر الدينية واضحة أيضًا في استحواذ الشرق الأوسط على تركيزه. فقد كانت المنطقة تضم الأرض المقدسة، التي كانت دائمًا تبثُّ في صدر الرئيس الجديد عاطفة جياشة، وكانت تضم كذلك دولةَ إسرائيل التي كان يَعُدُّ مساندتها «مبدأً أخلاقيًّا مهمًّا». وقد ظلَّ لهذه الآراء شعبيةٌ كبيرة بين المسيحيِّين الإنجيليِّين، الذين أصبحت تجمُّعاتهم تفوق تلك التي في الكنائس البروتستانتية التي تمثِّل الاتجاه الرئيسي، من ناحية الحجم والنفوذ السياسي. وعادت فكرة عودة المسيحية إلى أصولها في تعاليم الكنيسة القديمة إلى الحياة مرة أخرى، وكذلك مفهوم أن الإسلام أداة يستخدمها المسيخ الدجال الذي كان منتشرًا في أمريكا عندما كانت تحت الاستعمار. ولكن كارتر كان يعارض تلك المعتقدات في نقده لسياسات إسرائيل في الضفة الغربية وغزة، وتعاطفه مع مأساة الفلسطينيِّين. وعلى عكس نيكسون وكيسنجر اللذين تعاملا مع هذا الصراع فقط من منطلق القوة، سعى كارتر إلى مصالحة المتناحرين على أساس التديُّن المشترك. وصرَّح كارتر بأن «دم إبراهيم ... لا يزال يتدفَّق في عروق العرب واليهود والمسيحيِّين. والدم المُراق في الأرض المقدَّسة لا يزال يصرخ إلى الرب صرخةَ ألم من أجل السلام.»[19]

واستجابةً لذلك النداء تنازل كارتر عن احتكار أمريكا لعملية التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط، التي كانت الإدارة السابقة قد حرصت على بنائها بكل دقة. ودعا السوفييت إلى الانضمام إليه في استضافة مؤتمر دولي آخر للسلام، وأعلن نيته السعي وراء انسحاب إسرائيل من كل الأراضي المحتلة. وكان أكثر ما أثار الدهشة هو تعهُّد كارتر بالحصول على «حقوق الفلسطينيِّين الشرعية»، أي تكوين دولة فلسطينية، وبالتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية بمجرد قبولها القرار رقم ٢٤٢.

ولم تقرِّب هذه الإجراءات كارتر من قلوب القادة الإنجيليِّين الذين أعلنوا في إعلانات نُشرت على نطاق واسع: «لقد حان الوقت كي يؤكِّد المسيحيون الإنجيليون إيمانهم بنبوءة الإنجيل وبحق إسرائيل الإلهي في هذه الأرض.» كما جلبت مواقف الرئيس له عداوة مناحم بيجين، قائد ميليشيا إرجون في عام ١٩٤٨، وزعيم حزب الليكود اليميني، الذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل المنتخَب حديثًا. ولكن في حين نجح كارتر في إبعاد الإنجيليِّين والكثير من الإسرائيليِّين، فقد فشل في إثارة إعجاب السادات. فقد أصيب الحاكم المصري بالهلع بسبب استعداد كارتر مرة أخرى لإخضاع عملية السلام لنزوات السوفييت والسوريِّين

ومنظمة التحرير الفلسطينية، وبسبب معارضته الواضحة لِلي ذراع الإسرائيليِّين. وبدلًا من انتظار حدوث تغيير في سياسات واشنطن، فتح السادات قنواتِ اتصال سرية مباشرة مع بيجين. وأذيعت نتائج تلك المحادثات للعالم في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، عندما وصل السادات إلى مطار تل أبيب تحت ضوء المئات من عدسات التصوير ليصبح أولَ قائد عربي يزور الدولة اليهودية.

ولم يكن للولايات المتحدة تقريبًا أيُّ دور في هذا الحدث التاريخي، كما لم تكن شريكة في المحادثات التي تلته حول عقد معاهدة بين بيجين والسادات. ولكن المحادثات سرعان ما وصلت إلى طريقٍ مسدود، وتوصَّل الطرفان إلى أن أيَّ تقدُّم نحو السلام لا يمكن تحقيقه دون توسط أمريكا على أعلى مستوى. ومن ثَم أصبح كارتر أول رئيس أمريكي يشارك شخصيًّا في عملية التوسط في الشرق الأوسط منذ ترأس تيدي روزفلت مؤتمرَ الجزيرة الخضراء في عام ١٩٠٦، وأول مَن سمَّى نفسه «شريكًا كاملًا» مع العرب والإسرائيليِّين، سعيًا وراء إيجاد أساس مشترك.

كانت مهمة العثور على هذا الأساس شاقة للغاية. فقد طالب السادات بجلاء الإسرائيليين عن جميع الأراضي المحتلة، ومنْحِ الفلسطينيِّين حقَّ تقرير المصير. ولم يقبل بيجين مجرَّد سماع فكرة التخلي عن الضفة الغربية وغزة والجولان، وأصرَّ على احتفاظ إسرائيل بمواقعها في سيناء أيضًا. وقبِل كارتر الموقف المصري دون تحفُّظ تقريبًا وجدَّ في رفض موقف إسرائيل. وكان من أكثرِ ما أثار حنق كارتر هو المستوطنات الإسرائيلية التي كان عددها يتضاعف في الأراضي المحتلة. ويتذكَّر مستشار الأمن القومي زبجنيف برزيزنسكي قائلًا: «كنا جميعًا نشعر أن القائد المصري يخاطر لدفع عملية السلام في المنطقة، وأن بيجين يحاول إفساد تلك المحاولات.» ولكن بعيدًا عن الخلافات الخاصة بالسياسات، أوضح الرئيس وجودَ نفور شخصي من حدة بيجين وديموقراطية إسرائيل القاسية التي لا تتقيد بقوانين. وكان يفضِّل السادات بشخصيته الودودة، الذي كان غير مقيَّد في اتخاذ قراراته، والذي ينتخبه بانتظام أكثرُ من ٩٥٪ من مواطنيه؛ أي إنه نموذج آخر للبدوي النبيل الحر. وأضاف برزيزنسكي: «كان هناك بعض الإعجاب بالبطل القدوة» وهو يتذكَّر كيف أخبر كارتر السادات بأنه «على الأرجح أكثرُ رجل سياسة محبوب في الولايات المتحدة.»

وقد اتَّحد إخلاص كارتر للسلام من أجل السلام في حد ذاته، وليس وسيلةً للتقليل من شأن السوفييت، مع إعجابه بالسادات في كامب ديفيد في سبتمبر ١٩٧٨. فقد دعا

قادة المصريِّين والإسرائيليِّين إلى المنتجع الرئاسي في محاولة أخيرة مكثفة للتوصل إلى حلٍّ وسطٍ بينهما. وهدَّد كارتر، وهو يقوم برحلات مكُّوكية بين المنزلين الصغيرين بدلًا من العاصمتين، بيجين بقطع المساعدات الأمريكية لإسرائيل، وتقرَّب للسادات بوعده بمزيد من الدعم. وقد أتى هذا المزيج من التحذير والسخاء بثماره، منتِجًا اتفاقيتين مرتبطتين تحملان معًا اسم «اتفاقيات كامب ديفيد». في الأولى الخاصة بتحقيق السلام بين إسرائيل ومصر، وافقت إسرائيل على الانسحاب الكامل من سيناء مقابل تطبيع العلاقات مع مصر، وهذا يشمل وضعَ حدٍّ للتحريض ضد إسرائيل في الصحافة المصرية. وقامت الولايات المتحدة بدور الضامن على الاتفاق عن طريق الاحتفاظ بمراقبين على الحدود المصرية الإسرائيلية، ومنْحِ مليارات الدولارات مساعداتٍ سنوية للبلدين. أما الاتفاقية الثانية فقدَّمت إطارًا للسلام بين إسرائيل والدول العربية الأخرى، وحلًّا للمشكلة الفلسطينية. واقتضت بأن تكون هناك فترة خمس سنوات من الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة، تتبعها محادثاتٌ حول الوضع النهائي لتلك المناطق، وهو ما قد يؤدي في النهاية إلى إقامة دولة فلسطينية.

وأصبحت المصافحة الثلاثية التي اختتم بيجين والسادات وكارتر توقيعَ الاتفاقية بها على عشب البيت الأبيض في مارس ١٩٧٩ رمزًا لتفوق الولايات المتحدة في جهود تحقيق السلام في الشرق الأوسط وأقصى ما سيطمح الرؤساء اللاحقون إلى تحقيقه. وعلَّق كارتر قائلًا: «أصبحت اتفاقيتا كامب ديفيد الآن تقريبًا كالكتاب المقدس»، ولكن يبدو أنه كان وحدَه مَن يعتبرهما نصوصًا مقدسة. فقد وافقت إسرائيل على منح الحكم الذاتي للسكان الفلسطينيِّين المقيمين في تلك المناطق، ولكن ليس على الأرض، التي استمرت إسرائيل في زرعها بالمستوطنات. ولم يقُم المصريون قط بتطبيع العلاقات مع إسرائيل أو بإنهاء التحريض ضدها، وضد اليهود عامة، في الإعلام الحكومي. وفي غضون ذلك شجب معظم العالم العربي، بقيادة سوريا والعراق وليبيا، الاتفاقيةَ معتبرًا إياها خيانة، ومعلنين مقاطعتهم التامة لمصر. كما رفض عرفات خطةَ الحكم الذاتي، ودعا إلى اغتيال السادات. ولم يكن الإسلاميون المتطرفون، الذين كان نفوذهم يتزايد في سائر أنحاء الشرق الأوسط، أقلَّ قسوةً في التنديد بالاتفاقية. وأثناء مشاهدته عرضًا عسكريًّا في القاهرة في الذكرى الثامنة لحرب أكتوبر في عام ١٩٨١، أطلق مسلحون مصريون من جماعة الجهاد الإسلامي النارَ على السادات صائحين: «الموت للفرعون!» وهم يمزِّقون جسده بالرصاص.[20]

جاء كارتر إلى الشرق الأوسط ملتزمًا بالمُثل المسيحية والأمريكية، ولكنه، باستثناء لحظة واحدة مبهرة على عشب البيت الأبيض، لم يستطِع تحقيق أيٍّ منها. بل ظلت المنطقة في دوامة من التوتر بين الدول العربية، وضغوط الحرب الباردة، والصِّدامات بين العرب والإسرائيليِّين، والمعارضة الأصولية المتزايدة للحكومات الاستبدادية المتقلقلة. وكانت الحالة المضطربة للشرق الأوسط في السبعينيات من الممكن أن تبدِّد أيَّ أوهام مستمرة عن المنطقة، ومنها بالتأكيد الهالة الجنسية التي كان الغربيون قد أحاطوها بها. ولكن الخرافة أثبتت مرةً أخرى أنها أكثر قدرةً على الاستمرار من الواقع، خاصةً بين كبار عمداء هوليوود صانعي الأساطير.

وقد عاد أحدُ أهم أحلام اليقظة تلك، وهو حُلم العربي الحر الذي يهرب مع فتاة غربية شقراء، ليشد انتباه الجماهير مرةً أخرى في عام ١٩٧٥. فكان فيلم «الريح والأسد» يفتخر بأنه قائم على قصة حقيقية، هي قصة اختطاف إيون بيرديكاريس على يد رئيس القبيلة البربري رايسولي قبل سبعين عامًا. ولكن مظهر رايسولي، الذي قام به الممثل الشديد الجاذبية دائمًا شون كونري، لم يكن يخدم الإثارةَ الدرامية، فبدت وكأنها تفر مع رجل أعمال في الرابعة والستين من العمر ممتلئ الجسم بدأ الصلع يشقُّ طريقَه إليه؛ لذا فقد حوَّل الفيلم إيون بيرديكاريس إلى إيدن بيرديكاريس، وهو الدور الذي أدَّته كانديس بيرجن ببراعة فائقة. واختلف الفيلم أيضًا عن التاريخ الواقعي عندما أظهر الرئيس تيدي روزفلت وهو يرسل مشاةَ البحرية الأمريكية إلى المغرب لإنقاذ بيرديكاريس، ولكن ليس قبل أن تبدأ قصةٌ رومانسية بينها وبين رايسولي الشجاع القوي.

كما كانت صورة الشرق الأوسط باعتباره عالمًا من الحياة الجنسية المبهمة التي لا تعرف حدودًا مصدرَ إلهام لواحدة من أشهر الأغنيات الأمريكية في السبعينيات، هي أغنية «منتصف الليل في الواحة» التي غنَّتها المطربة المثيرة ماريا ميلدور. وكان موضوع الأغنية هو نفسه موضوع فيلم «شيخ الجزيرة العربية» الذي عُرِض قبلها بخمسين عامًا، ولكن الاختلاف كان يكمُن فقط في أن الإغواء هذه المرة كان على يد امرأة. فكانت تقول بصوتٍ ناعم: «لن تحتاج إلى حريم يا حبيبي عندما أكون بجانبك. ولن تحتاج إلى جَمل عندما آخذك في رحلة.» ومع ذلك لم تستطِع صناعة السينما ألا تتأثر بالاضطرابات التي تهزُّ الشرق الأوسط. فالأمريكيون في السبعينيات، مثل أسلافهم قبل ذلك بمائتي عام، لم تكن تثيرهم الخيالات حول المنطقة فقط، بل كانوا يصابون بالذعر من تهديداتها. ففي الفيلم المثير «الأحد الأسود» (١٩٧٧)، ألقت هوليوود الضوءَ لأول مرة على موضوع الإرهاب

الفلسطيني. ففي الفيلم يسعى خبيرُ قنابل اسمه محمد فصيل (الذي لعب دوره ممثل بوسني اسمه بيكيم فاهيمو) للانتقام من التحالف الإسرائيلي الأمريكي عن طريق تفجير مناطيد شركة جوديير فوق إحدى دورات مسابقة كرة القدم الأمريكية. ومع أن المخطَّط قد أُحبط في الدقيقة الأخيرة على يد عملاء إسرائيليِّين، فقد غَرست فكرةُ ارتكاب متطرفين من الشرق الأوسط مذابحَ جماعية على أرض أمريكية في خيال الجماهير.

تعايشت الصورتان المتناقضتان عن الشرق الأوسط، إحداهما رومانسية والأخرى واقعية بوحشية، مرةً أخرى جنبًا إلى جنب في العقل الأمريكي. ولكن كان هناك انقسامٌ جوهري في تفسير ثقافات الشرق الأوسط وسياساته يظهر في الجامعات. فقد كان هناك عالِمان بارزان يعرضان وجهتَي نظر متناقضتين عن المنطقة، إحداهما متطرفة ومتعاطفة بالشكل المعتاد، والأخرى تقليدية وانتقادية.

كان إدوارد سعيد، وهو مسيحي عربي نشأ في القاهرة والقدس، قد تلقى تعليمه الجامعي في جامعتَي برنستون وهارفارد قبل أن يصبح أستاذًا للغة الإنجليزية بجامعة كولومبيا. كان وسيمًا وفصيحًا ويتمتع بموهبة موسيقية، واشتهر بأنه ناقد أدبي ومدافع عن الحقوق الفلسطينية. وفي عام ١٩٧٨ ترك سعيد الأدبَ والسياسة ونشر كتاب «الاستشراق»، وهو هجوم على التفسيرات الأكاديمية التقليدية للشرق الأوسط. ويقول فيه إنه نظرًا «لأني لا أجد أيَّ فترة في التاريخ الأوروبي أو الأمريكي … كان يُنظر فيها … إلى الإسلام «خارجَ» إطارٍ شكَّلتْه العاطفةُ والتحيُّز والمصالح السياسية»، فقد اتهم الباحثين والأكاديميِّين الغربيِّين باختراع مكانٍ أسموه الشرق الأوسط، وهو عبارة عن «آخر» أدنى ثقافيًّا وعدواني سياسيًّا. وأكَّد سعيد أنه من خلال تشريح وتحليل هذه المنطقة سهَّل هؤلاء الخبراء على الغرب غزوَها.

تاريخيًّا، كان من الصعب مساندة نظرية سعيد، فلم يكن إدوارد سالزبوري، أولُ أستاذ للغة العربية في أمريكا في عام ١٨٤١ استعماريًّا، ومع ذلك فقد ساعد كتاب «الاستشراق» في كشف التحامل الذي طالما أفسد الكتابات الغربية عن الشرق الأوسط، كما ظهر في أعمال ميلفيل ومارك توين وإديث وارتون. كما جذب الكتاب أيضًا جيلًا من الأكاديميِّين الأمريكيِّين الذين، في ردِّ فعل على إخفاق أمريكا في فيتنام واستغلال الغرب للدول النامية، أصبحوا يتشككون في أخلاق حضارتهم. واتفقوا مع سعيد في أن حقل دراسات الشرق الأوسط لم يكن أكثرَ من ملحق للاستعمار، وأن العالم الحقيقي بشئون الشرق الأوسط هو مَن يظل «مرتبطًا ومتعاطفًا … مع العالم الإسلامي»، وهو من «يفهم

... العرب جيدًا». أما أولئك الذين فشلوا في استيفاء تلك المعايير فكان يستبعدهم ويطلق عليهم «مستشرقين»، بدءًا ببرنارد لويس، أفضلِ مثال للمستشرقين.

هاجر لويس، الذي كان يهوديًّا وُلد في بريطانيا، إلى الولايات المتحدة، والتحق بكلية دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون، حيث شغَل المنصب الذي سُمي على اسم كليفلاند دودج، رجلِ الخير ذي العقلية التبشيرية. وألَّف لويس عدة كتب عن التاريخ العثماني وظهور العالم العربي، لتصبح من أول المراجع عن شئون الشرق الأوسط في أمريكا. ولكن على عكس سعيد، الذي كان يعزو معظمَ عيوب الشرق الأوسط إلى الغرب، كان لويس المهذَّب الفصيح يتهم المنطقةَ بالتسبب في كلِّ ما أصابها من ضَعف واضطراب، ثم اتهام أوروبا وأمريكا بذلك. فكتب: «مقارنةً بالعالم المسيحي، منافسِه عبر القرون، فإن العالم الإسلامي أصبح فقيرًا وضعيفًا وجاهلًا.» وأكَّد لويس أن الولايات المتحدة لا تتحمل أيَّ مسئولية عن هذه الإخفاقات، مع أنه باستطاعتها المساعدةُ في إصلاحها عن طريق إحلال جمهوريات على النمط الأمريكي محلَّ ديكتاتوريات الشرق الأوسط.

كانت هذه الادعاءات، في نظر سعيد، قمةَ الاحتقار الاستشراقي. واتَّهم لويس بافتراضِ «تأكيداتٍ سياسية جازمة في شكل جدل علمي» وبإخفاء هويَّته الحقيقية بأنه «مدافع ومروِّج تحت مظلة الاحترام الأكاديمي». وحقيقة أن لويس كان صريحًا في دعمه لإسرائيل، التي اعتبرها سعيد مثالًا على الاستعمار الغربي، أضعفَت الثقةَ في آرائه كثرًا. وردَّ لويس بوصف كتاب «الاستشراق» بأنه مأساةٌ «تتناول مشكلة حقيقية ... وتهبط بها إلى مستوى الجدل السياسي والإساءة الشخصية.»[21]

ونشِب جدالٌ في الجامعات الأمريكية حول الأساليب المختلفة للنظر إلى الشرق الأوسط، ثم انتشر منها إلى المجتمع الأمريكي بأكمله. وكان أحد الآراء يقول إن إنشاء العيادات والجامعات وتفسير الأساطير كانت فقط مؤشراتٍ للغزو، وأنه، كي يخلِّص الأمريكيون أنفسهم من هذه الشرور، عليهم أن ينأوا بأنفسهم عن ميراث الاستعمار الأوروبي والإسرائيلي، وأن يمتنعوا عن أي استعراض للقوة. ولكن رأت مدرسة أخرى أن الأمريكيِّين قد أثرَوا المنطقة برؤيتهم ومعتقداتهم، ويمكنهم تعزيزُ ذلك أكثر بقوَّتهم، عن طريق تحرير الشرق الأوسط من الحكم الاستبدادي.

حاول جيمي كارتر أن يتخذ طريقًا وسطًا بين الطريقين المختلفين. فعبَّر عن تعاطفه مع شعوب الشرق الأوسط وتجنَّب استخدام القوة. ولكنه أصر على أن المبادئ الأمريكية يمكنها إصلاحُ الكثير من عيوب المنطقة، في حين يمكن للقوة الأمريكية، الدبلوماسية

والمالية، حلُّ معظم صراعاتها المتعذَّر الوصول إلى حلٍّ لها. ولكن منهجه لم يأتِ إلا بنجاح مؤقت في التوسط بين العرب والإسرائيليين، وفشل تمامًا في جميع المواقف الأخرى. ولم يظهر مدى هذا الفشلِ بوضوح كما ظهر في إيران.

رغم تعهداته بالعمل على نشرِ الحرية والديموقراطية في جميع أنحاء العالم تغاضى كارتر عن انتهاكاتِ حقوق الإنسان المنتشرة التي ترتكبها بعضُ دول الشرق الأوسط الصديقة مثل مصر والسعودية. وعلى أي حال، فلا توجد الكثير من الحكومات التي كانت تمارس هذا القدْر من القهر على شعبها باستمرار وعلى هذه العلاقة القوية بالولايات المتحدة مثلما كانت إيران. فبعد أن أعاده الانقلاب الذي نظَّمته وكالة الاستخبارات المركزية ضد مصدق عام ١٩٥٣ إلى عرشه، أثبَت الشاه أنه معادٍ شرس للسوفييت، لكنه كان أيضًا لا يعرف الرحمة مع أي إيراني يَعُدُّه غيرَ مخلص. وكان جهاز استخباراته «سافاك» يعذِّب ويصفِّي الآلاف. ومع ذلك استمرَّت إدارة كارتر في اتباع سياسة الإدارات السابقة بدعم ومساندة الشاه سياسيًّا، وزيادة رفاهية حياته المترفة، وإمداده بأحدث الأسلحة. وفي احتفال في طهران في يوم ٣١ ديسمبر ١٩٧٧، شرب كارتر نَخب إيران «جزيرةً للاستقرار» في الشرق الأوسط، ومدح قائدها على حكمته وحساسيته وبصيرته.

وظلَّت مساندة كارتر للشاه قويةً طوال عام ١٩٧٨، حتى عندما نشِبت ثورة شعبية ضده. وأخيرًا في ١٦ يناير ١٩٧٩ اضطُر الشاه إلى الفرار من البلاد، وبعدها بأسبوعين عاد آية الله روح الله الخوميني، الإمام الشيعي المتجهِّم الوجه الذي حرَّض على الثورة من خارج البلاد، منتصرًا من منفاه إلى طهران. وأعلن: «علاقتنا بالولايات المتحدة هي علاقة المقهور بالطاغية، وعلاقة المنهوب بالناهب.» وكانت كلماته تبثُّ شعورًا أقربَ إلى النشوة بين مؤيديه الذين لا حصر لهم، والذين لم يبدُ أن أيًّا منهم يتذكَّر دورَ أمريكا في استقلال إيران بعد الحرب العالمية الثانية. فساروا في الشوارع يهتفون «الموت لناشري الفساد الثلاثة: السادات وكارتر وبيجين!» و«الموت لإبليس الأكبر!» إشارةً إلى الولايات المتحدة.

وعلى غرار الرؤساء السابقين، ذهل كارتر من ظهور زعيم شعبي في الشرق الأوسط، لا يُظهِر ودًّا للغرب، مع أنه لم يكن قط محبًّا للسوفييت. وزادت حَيرته بسبب رفض رجل متدين مثل الخوميني احترامَ حتى حقوق الإنسان الأساسية. فكتب: «من المستحيل تقريبًا التعامل مع رجل مجنون.» وعندما يئس الرئيس من فرص التفاوض مع الجمهورية الإسلامية المعلَنة حديثًا، سمح للشاه الذي أصيب بمرض السرطان بتلقي العلاج في الولايات

المتحدة. وبدَت هذه لفتةً نبيلة لمعظم الأمريكيين، وأنها أقلُّ ما يمكن أن يفعله كارتر من أجل حليف مريض ومنفيٍّ، ولكن ثارت ثائرة الإيرانيِّين من استضافة الديكتاتور الهارب الذي كانوا يَعُدُّونه مجرمَ حرب.

وفي الرابع من نوفمبر ١٩٧٩، قفز مئات من الطلاب الإيرانيِّين فوق أسوار المجمع الذي يضم السفارة الأمريكية في طهران، صائحين «الله أكبر» وملوِّحين بصور الخوميني. فاقتحموا مباني السفارة والسكن، وألقَوا القبض على ٦٦ أمريكيًّا؛ دبلوماسيِّين وموظفين إداريِّين وحراس من مشاة البحرية الأمريكية ومسئولين من وكالة الاستخبارات المركزية. وقد صاح بهم أحد الطلاب: «سنعلِّمكم مَن هو الله. سنعلِّم وكالة الاستخبارات المركزية ألا تتدخل في بلادنا.» ومقابل تحرير المحتجزين طالب المختطفون بتسليم الشاه ونقل ممتلكاته في أمريكا إلى طهران. كما أصروا أيضًا على أن يعتذر الرئيس الأمريكي عن قائمة طويلة من الجرائم الأمريكية ضد الشعب الإيراني، بدءًا من الإطاحة بمصدق.

واجهت كارتر في أزمة الرهائن الإيرانية، كما أصبحت تُعرف، معضلةٌ لم تكن أقلَّ ترويعًا من التي أرَّقت توماس جيفرسون قبل ذلك بمائتي عام. فكان على الرئيس إما أن يحاول التوصل إلى حلٍّ عقلاني مع الحكومة التي تنتهج نهجَ القراصنة ويشتري حرية الرهائن، أو التخلي عن أي مفاوضات واللجوء للقتال. وباتباع نهج جيفرسون، حاول كارتر أولًا فتح قنوات اتصال خلفية مع الحكومة العدوانية في الشرق الأوسط. واعترف بأن «شعب الولايات المتحدة يرغب في إقامة علاقات مع إيران قائمة على المساواة والاحترام المتبادل والصداقة»، ووافق على تكوين لجنة من الأمم المتحدة للتحقيق في الظلم الأمريكي لإيران. ولكن الخوميني رفض هذه المبادرات، متفاخرًا بكيف «قلَّلت الثورة الإيرانية من الهيمنة السياسية والاقتصادية والاستراتيجية لأمريكا في المنطقة.» وبعد أن سئم الرئيس من هذا الإيمان الفاسد، قرَّر أخيرًا اللجوء إلى القوة. فقطع علاقاته بطهران، وجمَّد أرصدتها في أمريكا، ومنع استيراد النفط الإيراني. ولكن فشلت اقتراحاته بفرض مقاطعة على نطاقٍ أكبرَ على إيران في كسب تأييد دولي، حتى من الأوروبيِّين.

في غضون ذلك، ظل الرهائن الأمريكيون في أيدي الإيرانيِّين، محتجزين في أجواء بدائية، حيث كانوا كثيرًا ما يستجوبونهم، وأحيانًا يتعرضون للتهديد بالإعدام. وبدا أن القوة وحدَها ستعيد إليهم حريتهم. درس كارتر عدةَ خيارات، بدءًا بتدمير مصافي النفط وتفجير الموانئ الإيرانية إلى إلقاء قنبلة نووية على طهران. وقرَّر في النهاية تنفيذَ عملية إنقاذ لم تكن أقلَّ جرأة من تلك التي قام بها ويليام إيتون عبر الصحراء ضد طرابلس في

عام ١٨٠٥. وكانت الخطة تقضي بنقل مجموعة من رجال العمليات الخاصة الأمريكيِّين المدرَّبين على متن طائرات هليكوبتر إلى طهران، والاستيلاء على مجمع السفارة الأمريكية، ثم الفرار بالرهائن المحرَّرين.

وبدأ تدريب مكثَّف للبعثة فورًا واستمر عدة أشهر ظلَّت خلالها مكانة أمريكا في الشرق الأوسط في التدهور. وشهدت الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٧٩ ظهورَ حركة وهابية متطرفة في المملكة السعودية، قُتِل خلالها المئات في محاولة للاستيلاء على المسجد الحرام في مكة. وفي العراق استولى صدَّام حسين، الديكتاتور العنيد الذي يدعمه السوفييت، على السلطة في انقلاب دموي، وبدأ في تصفية منافسيه. ولكن كان أسوأ الأمور على الإدارة الأمريكية هو الغزو السوفييتي لأفغانستان. إذ كان وجود حشود من الجنود والدبابات السوفييتية على طول حدود الشرق الأوسط قد أحيا كابوس ترومان باستيلاء الجيش الأحمر على الظهران وغيرها من المناطق الغنية بالنفط. وقد واجه كارتر الكونجرس قائلًا إن: «أي محاولة من قِبل قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج العربي سيُنظر إليها على أنها هجوم على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية»، محذرًا من أن مثل هذه المحاولات سيتم «صدُّها بأي وسيلة ممكنة، ومنها القوة العسكرية.» ومرة أخرى يعلن رئيس أمريكي مذهبًا للتعامل مع الشرق الأوسط، ولكن تأثيره على الأحداث أصبح في الإمكان تجاهله الآن. واستمرت كماشة من القوى الموالية للسوفييت والقوى الإسلامية المتطرفة في محاصرة مصالح أمريكا في المنطقة، في حين استمرت معاناة الرهائن الأمريكيِّين في الأسر.

وكان الأمل الوحيد في تحسين هذا الموقف هو عملية مخلب النسر، وهي هجوم لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيِّين، التي نُفذت ليلة ٢٤ أبريل ١٩٨٠. وبعد هبوطها في الصحراء الإيرانية، استعدَّت قوات دلتا ورجال العمليات الخاصة لملء خزانات وقود طائرات الهليكوبتر من طراز سي ستاليون للتحليق إلى طهران. ولكن عاصفة رملية مفاجئة دمَّرت طائرتين واصطدمت ثالثة بطائرة بضائع من طراز سي - ١٣٠، محدِثة كرة من اللَّهب التهمت الطائرتين. وترك الأمريكيون وراءهم سبع طائرات هليكوبتر، بعضها يحتوي وثائق سرية للغاية، بالإضافة إلى الجثث المحترقة لثمانية من الجنود الأمريكيِّين.[22] وعرضت السلطات الإيرانية بعضَ الجثث في مؤتمر صحفي، وهو ما يذكِّرنا مرة أخرى بحروب البربر، عندما عرض باشا طرابلس بقايا جثث البحَّارة الأمريكيِّين الذين قُتلوا في انفجار «إنتربيد». حفَّزت تلك الوحشية جيفرسون على بدء فترة رئاسته الثانية عاقدًا العزم على هزيمة القراصنة بمساعدة ستيفن ديكاتور وغيره من المحاربين

الأشداء. ولكن لم يكن لدى جيمي كارتر أي ديكاتور، ولم تكن هناك أيضًا فترة رئاسة ثانية.

فقد حجب الغبار الذي أثارته طائرات الهليكوبتر الأمريكية وهي تفرُّ من إيران والدبابات السوفييتية وهي تُخضِع أفغانستان ضوءَ إسهامات كارتر في تحقيق السلام العربي الإسرائيلي. وأصبح الناخبون في انتخابات عام ١٩٨٠ الرئاسية أقلَّ تأثرًا بسياساته النابعة من الإيمان من مخاطر إظهار الضَّعف في الشرق الأوسط. ومن المناسب أن آخرَ ما قام به كارتر في منصبه هو التفاوض لوضع نهاية لأزمة الرهائن. ولم يَعُد أسلوبه يذكِّر الأمريكيِّين بجيفرسون، بل بجون آدامز. عرض كارتر عبر الجزائر، دولة القراصنة سابقًا، بصفتها وسيطًا دفْعَ المقابل الحديث للجزية عن طريق فكِّ تجميد الأرصدة الإيرانية في الولايات المتحدة، وتأمين إيران من أي قضايا قد يرفعها الرهائن في المستقبل. ورضي الإيرانيون بذلك مؤقتًا، وأنهَوا احتجازهم للرهائن الذي دام ٤٤٤ يومًا، وهو أقل من فترة سجن القبطان بينبريدج وطاقم السفينة «فيلادلفيا» في طرابلس بمائة يوم، وإن لم يكن أقلَّ إيلامًا للأمريكيِّين.

مثَّلت نهاية أزمة الرهائن انتهاءَ فصل من علاقة أمريكا بعد الحرب بالشرق الأوسط. وعلى مدار الثلاثين عامًا السابقة، تصارعت الولايات المتحدة مع تهديدين متزامنين، هما العدوان السوفييتي واشتعال الحركات الوطنية في المنطقة، وهي تشقُّ طريقها بصورة خطرة بين الاثنين. وسعَت إدارات متعاقبة إلى وضع أمريكا في صورةِ أكبرِ معادٍ للاستعمار، وفي بعض الأحيان وقفت في صف قادة محليِّين وطنيِّين في صراعهم مع بريطانيا وفرنسا. ولكنَّ كثيرًا من الناس في الشرق الأوسط كانوا لا يرون فارقًا كبيرًا بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة التي، في نظرهم، قد فاقت أوروبا في كونها أكبرَ قوة استعمارية. وكان دعم أمريكا للدولة اليهودية قد زاد من الهوة بين العرب وأمريكا، خاصة بعد حرب ١٩٦٧، عندما توقَّفت الولايات المتحدة عن النظر لإسرائيل على أنها عبء في الحرب الباردة، وبدأت تنظر إليها على أنها مصدر قوة لها. وكانت محاولات كل الرؤساء، بدءًا بترومان، لحل الصراع العربي الإسرائيلي قد أدَّت إلى تشويه صورة أمريكا في المنطقة، بدلًا من صقلها.

ومع ذلك ثابر واضعو السياسات في واشنطن على مجهوداتهم لإحلال السلام على مدار الفترة بعد عام ١٩٨٠، ومستمرين أيضًا في مساندة إسرائيل التي تكون متمردةً وعنيدة في كثير من الأحيان. وكانت الولايات المتحدة لا تزال تسعى لتحقيق توازن بين

الحفاظ على هيمنتها في الشرق الأوسط وبين الحفاظ على قيَمها الأساسية. ولكن طبيعة التهديد للمصالح الأمريكية كان يتغيَّر. إذ لم ينجح الديكتاتوريون على نمط حزب البعث ولا الملوك التقليديون في انتشال شعوب المنطقة من حالة الضَّعف السياسي والاقتصادي. بل على العكس، كانت مظاهر التخلف والقهر وعدم الكفاءة العسكرية قد تضاعفت تحت حكم الأنظمة المتطرِّفة أو المحافظة. ولكن نهضت الآن حركةُ بعثٍ لتستغل الاستياء الذي ولَّده ثلاثمائة سنة من إذلال المسلمين على يد الغرب، ومن المعاناة التي سبَّبتها الأنظمة الاستبدادية في الشرق الأوسط، والصفاقة التي تسبَّبت فيها الحداثة المنحلة غير اللائقة. وبدءًا من عام ١٩٧٩ حلَّ التطرف الإسلامي محلَّ الاشتراكية الوطنية والملكية المحافظة ليكون أكثرَ قوى الشرق الأوسط السياسية حركةً وتأثيرًا، وليمثل أيضًا أكبر تحدٍّ للتفوق الأمريكي في المنطقة. وفي تلك الأثناء استمر ائتلاف الحرب الباردة مع أوروبا في التفكك، تاركًا الولايات المتحدة دون مساعدة في مواجهة هذا العدوِّ الجديد العنيد. وبعد مائتي عام من المحاضرة التي ألقاها مبعوثُ طرابلس عبد الرحمن على جيفرسون وآدامز حول فرض الإسلام محاربةَ «كل الأمم التي لا تعترف بسلطة المسلمين» كانت أمريكا ستخوض معركةً وحدَها مع المجاهدين مرةً أخرى.

الفصل الثامن والعشرون

حرب الثلاثين عامًا

سيذكر التاريخ العَقد الذي بدأ من عام ١٩٨١ باعتباره زمنَ الكوارث المهولة، بدءًا بانفجار المكُّوك الفضائي «تشالنجر» إلى انتشار وباء الإيدز. وربما سيتذكَّر التاريخ، ولكن ليس بالقوة نفسها، تميُّز هذا العَقد بفترة من التقلبات المستمرة في علاقة أمريكا بالشرق الأوسط. فقد تميَّزت هذه الفترة بضربات وقائية، وصراعات إقليمية، وثورات، ومؤامرات دولية، وهجمات إرهابية أثارت سلسلةً من ردود الأفعال المتزايدة في العنف من واشنطن. وعلى مدار هذه السنوات العشر كانت صورة الشرق الأوسط في الولايات المتحدة تتحوَّل بانتظام من كتلة من الدول التي تُعَد مصدرَ خطر بصورة غامضة إلى كتيبة من الأنظمة المتعطشة للدماء التي تستهدف الأمريكيِّين بالتحديد.

وسيثبت أن التعامل مع هذا التحول مهمةٌ شاقة لا تنتهي لخليفة كارتر، وهو رجلٌ له معتقداتٌ لا تقلُّ تشددًا عن كارتر، وشغفٌ أكبر بالأساطير التي تنسجها هوليوود. بعد أن نُصِّب رونالد ريجان، الذي كان حاكمًا سابقًا لكاليفورنيا وممثلًا في أكثر من ٢٥ فيلمًا سينمائيًّا و٥٠ عملًا تلفزيونيًّا، في اليوم نفسه الذي أُطلق فيه سراح الرهائن الأمريكيِّين في إيران، تولَّى مسئولية إصلاح إخفاقات أمريكا في الشرق الأوسط. وأوضح الرئيس الجديد نيتَه بالعودة إلى استراتيجيات الحرب الباردة الصارمة القائمة على تقييد انتهاكات السوفييت في المنطقة ومحاولة وقفها، والعودة للسير على نهج جيفرسون في مقاومة الإرهاب. فقال: «لا أعتقد أننا ينبغي أن ندفع فديةً لأناسٍ يختطفهم همجيون.»

عَقدُ الفوضى

لم يكد ريجان يستقر في البيت الأبيض حتى ظهر التحدي الأول له في الشرق الأوسط. فقد كان معمر القذافي، الذي كان اشتراكيًّا بدأت نبرةٌ دينية جديدة تظهر في خُطَبه، يمثِّل

التحول من موالاة السوفييت إلى التوجُّه الإسلامي الذي كان يحوِّل في الخفاء سياسات العالم العربي. وقد اتضح هذا التحوُّل في مايو عام ١٩٨١، عندما أعلن الزعيم الليبي دعمَه لصراع إيران ضد «إبليس الأكبر» وأصدر تعليماته لمجموعة من الحشود بإحراق السفارة الأمريكية في طرابلس. وقد قال عنه ريجان، الذي كانت بشَرته الوردية ونبرته الهادئة تتناقضان تمامًا مع القذافي الداكن البشرة الصاخب الصوت: «إنه ليس بربريًّا فقط، بل غريب الأطوار أيضًا.» وردًّا على طرد السفارة الأمريكية، أغلق ريجان مكتب الجماهيرية الليبية في واشنطن، ومنع استيراد النفط منها. ولكن القذافي استفزَّ الولايات المتحدة مرةً أخرى عن طريق مدِّ المياه الإقليمية الليبية لمسافة ٢٠ كيلومترًا إضافية في البحر المتوسط. وقبِل ريجان التحدي، فأمر قوةً بحرية بالتوجه إلى خليج سدرة القريب من الساحل الليبي. فخرج سربٌ من الطائرات المقاتلة من طراز إس يو-٢٢ التي أمدَّهم بها السوفييت لتحدي الأسطول الأمريكي الصغير، ولكن سرعان ما أسقط طيارو البحرية اثنتين منها. وللمرة الأولى منذ إدارة ماديسون التحم الجنود الأمريكيون في قتال مع عدوٍّ عربي.

ونجحت المعركة الجوية فوق سدرة في إنهاء خلاف أمريكا مع ليبيا لفترة قصيرة. ولكن بعد أقل من شهر، في السابع من يونيو، كان تشكيل من طائرات إف ١٦ يتحرَّك للهجوم، هذه المرة ضد العراق. وبدلًا من النجوم الأمريكية ذات الأطراف الخمسة، كانت هذه الطائرات مزدانةً بالنجوم السداسية الزرقاء المميزة للقوات الجوية الإسرائيلية. كان هدفها هو المفاعل النووي أوزيراك، على بُعد ١٨ ميلًا جنوب بغداد. وبعد أن قطع مسافة ١١٠٠ ميل عبْر المجال الجوي للعدوِّ، ألقى الطيارون الإسرائيليون حمولتهم على المنشأة التي بناها الفرنسيون، وخلال ثمانين ثانية حوَّلوها إلى رُكام يتصاعد منه الدخان. وكانت هذه العملية، التي تحمل الاسم الكودي «عملية أوبرا»، أحدَ أجرأ الغارات الجوية في التاريخ، ولكن بتدمير المنشأة العراقية بطائرات حربية مشتراة من الولايات المتحدة، وضعت إسرائيل الولايات المتحدة في مأزق.

علاقة ريجان بإسرائيل كانت وظلَّت معقَّدة. فكان لا يزال يَعُدُّ النفط أهمَّ مصالح أمريكا في الشرق الأوسط، وقاوم أيَّ عمل إسرائيلي قد يهدد تلك المصلحة. ففي عام ١٩٨١ مثلًا أمدَّ المملكة العربية السعودية بطائرات أواكس الاستطلاعية، محبطًا بذلك مجهوداتٍ جمَّة قامت بها لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية لمنع تلك الصفقة، وعندما أبدى منتجو النفط العرب اعتراضَهم على خطوات إسرائيلية لضم مرتفعات الجولان المحتلة

علَّق الرئيس اتفاقيةَ تعاون استراتيجي مع إسرائيل. واشتكى رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين من أن أمريكا تعامل إسرائيل وكأنها «إحدى جمهوريات الموز»، ولكن كان ريجان في الواقع يحترم الدولة اليهودية. وكان إعجابه ينبع من آرائه المانوية عن الحرب الباردة، التي تحالفت فيها إسرائيل مع الغرب ضد الإمبراطورية السوفييتية الشريرة. والأهم من ذلك أن ريجان كان أيضًا مرتبطًا دينيًّا بإسرائيل فقد ترعرع في كنيسة «أتباع المسيح» التي تؤمن بمبدأ إعادة اليهود إلى فلسطين، وارتبط ارتباطًا وثيقًا بالإنجيليِّين الأمريكيِّين المؤيدين للصهيونية. وكان دائمًا ما يوافق على إجراءات تقوية إسرائيل عسكريًّا واقتصاديًّا، وكذلك مساعدة اليهود الروس (والإثيوبيِّين فيما بعد) على الهجرة إلى وطن أجدادهم.

كان قصف إسرائيل لمفاعل أوزيراك النووي تحديًا لذلك الالتزام. وبسبب صِدامه الذي وقع حديثًا مع القذافي كان ريجان يتعاطف مع مخاوف إسرائيل من رئيس عربي يسانده السوفييت كصدَّام حسين، لكنه كان يقدِّر أيضًا حقيقةَ أن العراق كان قد شنَّ حديثًا حربًا شاملة على إيران. فتحوَّل عدوُّ العدوِّ الأمريكي في الشرق الأوسط تلقائيًّا إلى صديق لها. ونظرًا لحرص ريجان على نفي شبهة وجود أي تآمر في الهجوم على حليف أمريكا الفعلي الجديد، أجَّل تسليم المزيد من الطائرات الحربية النفاثة إلى إسرائيل. وسمح لسفيرته العنيدة في الأمم المتحدة، جين كيركباتريك، بالتباحث مع نظيرها العراقي في وضع مسوَّدة لقرار شجب مجلس الأمن الهجوم. وفي النهاية لم يفسِد الهجوم على المفاعل النووي أوزيراك العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، بل وسيشكر رؤساء أمريكيون فيما بعدُ إسرائيلَ على حرمان العراق من امتلاك قدرات نووية، ولكنه بدأ تكوين علاقات بين أمريكا وصدَّام حسين.[1]

مرة أخرى وضعت الولايات المتحدة ثقتَها في قائد عربي قومي، ولكن ليس بصفته حصنًا ضد الشيوعية، بل بصفته حائطَ دفاع قوي ضد التطرف الإسلامي. ولكن أثبتَت سياسة مساندة العرب العلمانيِّين ضد المسلمين المتطرفين من ناحية، ومساندة إسرائيل ضد أنصار السوفييت من ناحية أخرى، أنها متضاربة. وقد انكشف النقاب عن التناقضات بين الاثنين بصورة مأساوية بعد عام من الهجوم على مفاعل أوزيراك، عند غزو إسرائيل للبنان.

كانت إسرائيل تحضِّر لذلك الهجوم منذ زمن طويل. فقد كانت منظمة التحرير الفلسطينية، التي نقلت «الدولة داخل الدولة» من الأردن إلى جنوب لبنان، تشنُّ هجمات

منتظمة على المستوطنات الإسرائيلية في منطقة الجليل. ولكن إلى جانب التخلص من هذا التهديد، كان أرييل شارون، وزير الدفاع الإسرائيلي الشرس الممتلئ الجسم، يسعى إلى محو منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها منافسًا على السيطرة على الضفة الغربية وغزة. وكان شارون، وهو قائد جريء قاد غارات إسرائيل الانتقامية في الخمسينيات وهو العقل المدبِّر وراء حصار القوات المصرية عام ١٩٧٣، يؤيد تنفيذ ضربة خاطفة لطرد كلٍّ من عرفات والسوريين، وتعيين حكومة صديقة في بيروت. وتسبَّبت تلك الخطة في حدوث انشقاق كبير في إدارة ريجان. فكان وزير الخارجية أليكسندر هيج، المعادي الشرس للشيوعية، يفضِّل أي تحرُّك قد يؤدي إلى الإضرار بالسوفييت وعملائهم في العالم العربي. ومن ناحيةٍ أخرى فإن كاسبار واينبرجر، وزير الدفاع، الذي كان عمليًّا بصورةٍ أكبر وأقل ميلًا للقتال، كان قلقًا بشأن الأضرار التي ستسبِّبها الحرب على مكانة أمريكا في الشرق الأوسط. ولكن ذلك الجدال أصبح عديم الجدوى في الثالث من يونيو ١٩٨٢، عندما أطلق مسلَّحون فلسطينيون النارَ على السفير الإسرائيلي في لندن وأصابوه بجروح خطيرة. وبعدها بثلاثة أيام غزت إسرائيل لبنان.

وباختراق البلد في هجومٍ يتكوَّن من شقَّين، هاجم نحو ٣٠ ألف جندي إسرائيلي الساحلَ ومنه إلى المناطق الجبلية الداخلية للبنان، مدمِّرين في طريقهم ما يقرُب من ٥٠٠ دبابة سورية و١٠٠ طائرة، ودافعين بنحو ٦٠٠٠ فلسطيني شمالًا إلى بيروت. وعندما طاردتهم القوات الإسرائيلية حاصرت المدينة، واستمرَّت في قصف مواقع منظمة التحرير الفلسطينية ومقرِّها. وبدا الأمر كأن حجابًا قاتمًا من الدخان الكثيف قد علِق فوق المدينة، تضيئه من الخلف النيران، وتخترقه فقط جولات لإضرام المزيد من النيران. لقد تطوَّرت «عملية السلام من أجل الجليل»، التي وُصفت في الأصل بأنها غارة محدودة لتأمين حدود إسرائيل الشمالية، بسرعة إلى حصار شديد على عاصمة عربية كبرى يسكنها عشرات الآلاف من المدنيِّين.

وقد وبَّخ الرئيس ريجان مناحم بيجين قائلًا: «مهما كان عنف الهجوم على سفير إسرائيل في لندن، فإنه لا يبرِّر قيام إسرائيل بهجوم وحشي كهذا على بيروت.» وكانت صور المناطق السكنية التي دمَّرتها القنابل، والأطفال المقطَّعين، والشوارع التي تموج باللاجئين تمحو أيَّ احترام كان العالم العربي لا يزال يكنُّه لأمريكا. ولكن الأخطر من ذلك هو أن هزيمة الفلسطينيِّين والسوريِّين الموالين لموسكو أعادت مخاطرَ تدخُّل سوفييتي مباشر في الصراع. وكتب ريجان: «إننا نسير على حبل مشدود». وأصرَّ على أن يوقِف

الإسرائيليون قصفَهم على الفور، وأن يسحبوا قواتهم من بيروت. ومع ذلك، قوبلت هذه المطالب بالتجاهل إلى حدٍّ كبير، بصرف النظر عن دفع هيج للاستقالة. وزادت كثافة القصف الإسرائيلي. وأخيرًا بعد أن يئس من نزع فتيل الأزمة، عرض ريجان الإشراف على نقل عرفات وأتباعه إلى تونس. فبعد ثمانين عامًا من إرسال تيدي روزفلت قوات مشاة البحرية إلى بيروت لحماية الأمريكيِّين المقيمين هناك، كان ريجان يرسلهم مرةً أخرى إلى المدينة للإشراف على لجوء الفلسطينيِّين.

حقَّقت عملية نقل مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية وأفرادها على يد مشاة البحرية الأمريكية بالتعاون مع القوات الفرنسية والإيطالية نجاحًا كبيرًا. وقد عبَّر ريجان عن أهمية هذا الحدث بتقديم خطة جديدة للسلام في الشرق الأوسط. فأعلن أن إسرائيل ستسحب قواتها من الضفة الغربية وغزة اللتين ستنضمان إلى الأردن. ومن ثَم أرسل الرئيس مبعوثًا شخصيًّا، هو الدبلوماسي العربي الأمريكي الدَّمث الأخلاق فيليب حبيب، في محاولة لتنفيذ هذا البرنامج. وبدأ حبيب مهمته تحت ظروفٍ بدت مواتية. فقد تُجنِّبت كارثة كانت تلوح في الأفق في لبنان وظهر بريقٌ يمكن أن يتحقق عبْره السلام. وغادر مشاة البحرية الأمريكية إلى الزوارق التي أنزلتهم في لبنان تحت أعلام تقول «أحسنتم صنعًا».

لكنهم عادوا بعد أقلَّ من ثلاثة أسابيع. ففي أثناء فترة وساطة حبيب، في ١٤ سبتمبر عام ١٩٨٢، اغتال السوريون الرئيسَ اللبناني بشير الجُمَيِّل، الزعيم الماروني الذي كان الإسرائيليون يأمُلون في توقيع معاهدة معه. ودفع الاغتيال الإسرائيليِّين لاحتلال جزء كبير من القطاع المسلم في بيروت والسماح لرجال الميليشيا من المارونيِّين بدخول معسكرات صابرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيِّين؛ حيث ذبحوا ٨٠٠ من المدنيِّين على الأقل. وقد قوبلت هذه المذبحة البشعة باحتجاجٍ دولي عنيف، فأجبر أرييل شارون على الاستقالة، وكذلك بمطالبات بالتدخل الأمريكي لحماية الفلسطينيِّين من أي اعتداءات أخرى. فأصدر ريجان، الذي لم يستطِع مقاومةَ هذا الضغط، أوامره إلى مشاة البحرية بالعودة إلى بيروت التي مزَّقتها الحرب.

لم يكن هدف مشاة البحرية هذه المرة هو تخليص الفلسطينيِّين، بل دعم حكومة أمين الجُمَيِّل، شقيق بشير الجُمَيِّل، المحاصَرة. ومرة أخرى لعِب مشاة البحرية دورَ الأبرياء في الخارج، واعتبروا أنفسهم المدافعين عن الديمقراطية، ولكنَّ السوريِّين والشيعة والدروز كانوا يَعُدُّون ذلك التدخُّلَ محاولةً لفرضِ سلطة الأقلية المارونية المقاتلة. وعلى

غرار الإيرانيِّين، نَسيت هذه الطوائف إسهامات أمريكا في حصول لبنان وسوريا على استقلالهما، وبدلًا من ذلك اعتبرت الولايات المتحدة شريكةً في الحرب الأهلية الطويلة في لبنان. وبمجرد هبوطهم، تعرَّض رجال مشاة البحرية إلى وابل من النيران الكثيفة، مما اضطرهم إلى الرد بالمدفعية والدبابات، وإلى قصف العديد من المناطق السكنية نفسها التي قصفتها إسرائيل مؤخرًا. ومنذ الحرب العالمية الثانية لم تشترك القوات البرية الأمريكية في قتالٍ عنيف إلى هذا الحد في الشرق الأوسط. ولكن حتى قوة نيرانهم أثبتت أنها غير كافية، فتعيَّن إرسال وحدات من الجيش لدعم مشاة البحرية المشتركين في القتال، واستعدَّت السفن الحربية التابعة للأسطول السادس لدكِّ معاقل العدو في جبل الشوف المطل على بيروت.

وردَّ العدو بضربات غير تقليدية وأكثر قوة. وفي منتصف يوم الثالث عشر من أبريل عام ١٩٨٣، قاد انتحاري من حزب الله — التنظيم الشيعي الذي تدعمه إيران — شاحنةً محمَّلة بالمتفجرات إلى داخل السفارة الأمريكية في بيروت. قُتل في تلك العملية ١٧ أمريكيًّا، العديد منهم من وكالة الاستخبارات المركزية، بالإضافة إلى أكثر من ٤٠ لبنانيًّا. وبعدها بستة أشهر، في ٢٣ أكتوبر، قتل أحدُ مفجري القنابل بحزب الله ٢٤١ من القوات الأمريكية في المركز الرئيسي لمشاة البحرية الذي لم يكن تحت حراسة قوية، وذلك في أكبر عملية فردية ضد الأمريكيِّين في فترةٍ ما بعد الحرب. وقد شاهد الأمريكيون في التليفزيون في منازلهم وهم يشعرون بالذعر طاقمَ الإنقاذ وهم يستخرجون الجثث المشوَّهة من تحت الأنقاض، واستمعوا إلى ريجان يقسم «أن يقاوم أولئك الذين يسعون إلى طردنا من المنطقة». في البداية بدا ريجان مصمِّمًا على الوفاء بهذا الوعد. فهاجمت طائرات مقاتلة من الحاملتين «كينيدي» و«إنديبيندنس» أهدافًا سورية، وقد أُسقطت طائرتان وأُسِرَ أحد الطيارين بصورة مهينة، ثم أطلقت السفينة الحربية «نيوجيرسي» مدافعها المدوية من عيار ست عشرة بوصة على جبل الشوف. ولكن ببداية شهر فبراير من عام ١٩٨٤، أدرك ريجان أن لبنان في طريقه إلى أن يصبح مأزقًا شبيهًا بفيتنام، وأمر جميع القوات الأمريكية بالعودة.[2]

ورفض ريجان الاتهامات بأن أمريكا «قد لاذت بالفرار» من لبنان، ولكن ظلَّت الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن الولايات المتحدة فشلت في مهمة كبح جماح سوريا وحلفائها، وبعد اندحارها من إيران بدا وكأن الولايات المتحدة تنسحب من الشرق الأوسط. وكان انحسار الهيمنة الأمريكية في المنطقة قد تأكد بإلغاء لبنان لاتفاقية السلام

مع إسرائيل، التي كانت الولايات المتحدة قد توسَّطت فيها، والأكثر من هذا في سلسلة من الهجمات الإرهابية المتعاقبة ضد مواطنين أمريكيِّين ومؤسسات أمريكية. فقد فجَّر إرهابيون، ينتمون على الأرجح إلى حزب الله، السفارةَ الأمريكية في الكويت في ١٢ ديسمبر عام ١٩٨٣، وفي شهر سبتمبر التالي فجَّروا ملحقًا للسفارة الأمريكية ببيروت فقتلوا جنديَّين أمريكيَّين. وقتلت قنابل حزب الله ١٨ أمريكيًّا في مطعم في توريخون بإسبانيا في أبريل عام ١٩٨٤، و٢٢ شخصًا في انفجارٍ آخر للسفارة الأمريكية في سبتمبر من نفس العام.

وفجأةً عادت عمليات اختطاف الطائرات والهجوم على المباني بالمطارات للظهور على الساحة. فأعدم إرهابيون من جماعة حزب الله اثنين من الأمريكيِّين، عندما أجبروا طائرة كويتية على الهبوط في طهران في ديسمبر ١٩٨٤، وبعدها بستة أشهر اختطفوا طائرةً تابعة لشركة طيران ترانس وورلد إيرلاينز كانت في طريقها إلى بيروت، حيث عذبوا روبرت دين ستيثيم ثم قتلوه، الغواص بالبحرية الأمريكية، ثم ألقَوا بجثته على مهبط الطائرات. وقُتل أيضًا خمسة أمريكيِّين في هجوم بالقنابل والمدافع الآلية شنَّته منظَّمة أبو نضال الفلسطينية، في مطاري روما وفيينا في ديسمبر ١٩٨٥. وفي شهر مارس من ذلك العام، وضع فلسطينيون قنبلةً على متن طائرة متوجِّهة إلى أثينا، فقتلوا أربعة أمريكيِّين آخرين.

وبدا الموقف كأنه لا يمكن أن يمرَّ شهر دون أن يسمع الأمريكيون خبرَ مقتل بعضٍ من بني وطنهم على يد سفَّاحين مجهولي الهوية من الشرق الأوسط. وبرز انتشار الإرهاب العربي، وضَعف الأمريكيين، بقوةٍ في عملية الاستيلاء على السفينة الإيطالية «أكيلي لاورو». فقد استولى أعضاء من جبهة تحرير فلسطين على السفينة، بأسلوب يحاكي القراصنة المغاربة الذين كانوا على متن المركب الشراعي بتسي قبل ٢٠١ عام، واحتجزوا ركَّابها الأمريكيِّين الاثني عشر رهائنَ تحت تهديد السلاح. ولكن على عكس مختطفي السفينة «بيتسي»، لم يكتفِ أعضاء جبهة التحرير الفلسطينية بسَجن الرهائن الأمريكيِّين فقط، بل جعلوا إحدى الرهائن عِبرة. ووقع اختيارهم على مواطنٍ معاق من نيويورك في التاسعة والستين من عمره اسمه ليون كلينجهوفر، وهو يهودي أمريكي. دفع المختطفون كرسي كلينجهوفر المتحرك إلى حافة السفينة، وأطلقوا النار على ظهره، ثم ألقَوا بجسده الذي كان لا يزال ينتفض في البحر.

وكتب ريجان في مذكراته: «مرةً أخرى كانت لدينا أزمة في الشرق الأوسط، حياة الأمريكيِّين فيها معرَّضة للخطر.» وكانت قدرة أمريكا على الرد على هذا التهديد محدودة

بسبب غياب رادع معقول، وبسبب غياب أيِّ حلفاء يمكن الاعتماد عليهم. فبدلًا من القبض على مختطِفي السفينة أكيلي لاورو، عرضت مصر عليهم توصيلهم بأمان إلى المقر الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية في تونس. ولكن اعترضت طائرات البحرية الأمريكية المقاتلة طريقَ الطائرة المصرية التي تقلُّ القائد الفلسطيني أبو عباس، وأجبرتها على الهبوط في صقلية، ولكن السلطات الإيطالية أفرجت عن السجين على الفور. وبدا أنه على أمريكا أن تتعامل مع إرهاب الشرق الأوسط وحدَها.

وبالفعل تصرَّفت الولايات المتحدة وحدَها عندما واجهت ليبيا، الراعيَ الرئيسي لمنظَّمة أبو نضال، مرةً أخرى في مارس ١٩٨٦. وأملًا في استفزاز القذافي وجرِّه إلى مواجهة عسكرية، أصدر ريجان أوامرَه للبحرية الأمريكية بتجديد دورياتها قرب الساحل الليبي. وفسَّر ذلك قائلًا: «أي دولة وقعت ضحيةً للإرهاب لديها حقٌّ طبيعي في الرد بقوة لردع أي أعمال إرهابية جديدة. وشعرت أننا يجب أن نُري القذافي أننا … لن ندعَه يُفلِت بفَعلته.» وابتلع القذافي الطُّعم. فعندما فتحت زوارق الصواريخ الليبية النار على الأسطول الأمريكي، فجَّر مقاتلو البحرية الأمريكية السفن بالصواريخ، وقصفوا مواقع الرادار الأرضية أيضًا.

اقتصَّ ريجان لأعمال العنف التي قامت بها منظَّمة أبو نضال، ولكن القذافي لم يرتدع. فبعد أسبوعين فقط من الصِّدام في سدرة، قتل عملاء ليبيون اثنين من القوات الأمريكية وأصابوا خمسين عن طريق زرع قنبلة في ملهًى للرقص ببرلين. وانتقم ريجان بإصدار أوامره بإلقاء أكثر من ستين طنًّا من المتفجرات على طرابلس وبنغازي. وقد أخطأت بعض القذائف هدفها وقتلت عددًا من المدنيِّين، منهم — حسب بعض التقارير — ابنة القذافي بالتبني. وقد أثارت عملية «وادي الدورادو»، كما أُطلق عليها، غضبَ حلفاء أمريكا مرة أخرى؛ فرفضت كلٌّ من إسبانيا وفرنسا السماح للمقاتلات الأمريكية بالطيران عبْر مجالهما الجوي في الطريق إلى ليبيا. ولكنَّ تعاطُف أوروبا مع القذافي لم يمنعه من القيام بهجمة إرهابية أخرى عليها، وكانت أقوى هجماته على الإطلاق. ففي ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ انفجرت قنبلة زرعها عملاء ليبيون، حسبما يقال، على متن طائرة تابعة لشركة طيران بان آم في رحلتها رقم ١٠٣ فوق لوكربي باسكتلندا، فقتلت جميعَ ركَّابها البالغ عددهم ٢٥٩ راكبًا، من بينهم ٣٧ طالبًا أمريكيًّا، بالإضافة إلى أحد عشر قرويًّا على الأرض.

استعرضت الولايات المتحدة قوَّتها مرة أخرى، دون مساعدات أوروبية، ضد عدوٍّ لها من شمال أفريقيا. ولكن على عكس يوسف القره مانلي، وهو حاكم طرابلس في

أوائل القرن التاسع عشر، كان بإمكان القذافي الردُّ بتوجيه ضربات تقريبًا لأي مكان في العالم، وينجو بفَعلته. ولم يكن هناك مكانٌ أفضل من لبنان لتوجيه ضربة لأمريكا يسهُل تنفيذها ببراعة. وفي خطوة انتقامية أخرى على تفجيرات ليبيا، طالب القذافي بإعدام بيتر كيلبرن، أمين مكتبة بالجامعة الأمريكية ببيروت، الذي كان حزب الله قد احتجزه سنتين، ولبَّى حزب الله طلبه.

كان اختطاف كيلبرن وقتْله أحدَ أعراض وباء عمليات الاختطاف والاغتيال الذي أصاب الأمريكيِّين المقيمين في لبنان قي الثمانينيات. فقد أصبح مواطنو الولايات المتحدة، الذين كانوا بين المِطْرقة والسَّنْدان بين الطوائف المتناحرة في الحرب الأهلية العنيفة، ضحيةً سهلة لآلاف من رجال الميليشيا المسلحين المقنَّعين، الذين كانوا يجوبون بين أنقاض بيروت. وكان أول مَن اختُطِف هو ديفيد دودج، رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت، وحفيد مؤسس الجامعة، دانيال بليس. فقد اختطفه حزب الله عام ١٩٨١، واحتجزه عامًا كاملًا، قبل أن يُفْرج عنه دون أن يصاب بسوء، ولكن خليفته مالكولم كير كان أقلَّ حظًّا. كان كير أيضًا أحدَ أبناء المبشِّرين الذين جاءوا إلى الشرق الأوسط وعالِمًا شهيرًا في مجال الشئون العربية، وعندما كان كير يغادر مكتبه بالجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٩٨٤، اقترب منه عضوان من حزب الله، وأطلقا النارَ على رأسه. وفي العام التالي، اختطف حزب الله رئيسَ مكتب الاستخبارات المركزية في بيروت، ويليام باكلي، وعذَّبه وأعدمه، وفي عام ١٩٨٨ اختطف وشنق أيضًا ويليام هيجينز وهو عقيد أمريكي في قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في لبنان.

واحتجزت طوائفُ لبنانية تسعة أمريكيِّين آخرين في العَقد ما بين عامي ١٩٨١–١٩٩١، وقد احتُجز أحدهم، وهو مراسل وكالة أنباء «أسوشيتد برس»، تيري أندرسون، سبعَ سنوات كاملة. يتذكَّر أندرسون محنتَه قائلًا: «لا ضجيج، ولا حديث، حتى التقلُّب من جنب إلى آخر ... لتخفيف حدة تقلُّص العضلات بسبب النوم بلا حَراك ساعاتٍ طوالًا كان يتسبَّب في لطمةٍ على الوجه أو وكزة بالبندقية.»[3] وكانت أزمة الرهائن تثير سخط القادة الأمريكيِّين أكثرَ من تفجير منشآت أمريكية أو اغتيال مواطنين أمريكيِّين. فقد بدَت الدولة المسلحة بعدد لا يُحصى من الدبابات والطائرات الحربية والسفن الحربية والكتائب المستعدة للقتال عاجزةً في وجه بضعة مختطفين مسلَّحين بأسلحة خفيفة في الشرق الأوسط.

كان تيدي روزفلت قد أرسل في الماضي برقيةً إلى الحكومة المغربية قال فيها: «إننا نريد بيرديكاريس حيَّة أو رايسولي ميتًا»، ولكن بالنسبة إلى ريجان الذي كان يواجه دولةً

تؤمن بمبادئ الفيلسوف توماس هوبس، فلم تكن أمامه حكومة ليخاطبها. وكان البديل الوحيد أمامه هو ردع الدول الراعية للمختطفين، وعلى رأسها إيران، بوسائل اقتصادية وعسكرية، ولكن لم ينجح أيٌّ من هذه الإجراءات. فقضى ريجان معظمَ الفترة الثانية من رئاسته مرتبكًا بسبب اللغز الإيراني، وغيرَ واثق مما إذا كان عليه أن يرهب القادة هناك أم يعمل على استرضائهم. ثم في صيف عام ١٩٨٥ عرضت إسرائيل عليه حلًّا. فقد زعمت أن العناصر المعتدلة في صفوف القيادة الإيرانية يمكنها أن تعمل على الإفراج عن الرهائن مقابلَ الحصول على صواريخ مضادة للدبابات تحتاج إليها بشدة في حربها ضد العراق. وجذب هذا الاتفاق انتباهَ ريجان، فرسم خطةً تمدُّ إسرائيل بمقتضاها طهران بالصواريخ سرًّا، ثم تعيد الولايات المتحدة ملء مخازن إسرائيل. وبرَّر الرئيس الموقف لنفسه قائلًا: «إننا لن نشحن أيَّ أسلحة للإيرانيِّين. وأنا لم أنظر إلى العملية باعتبارها … صفقة «سلاح مقابل الرهائن»؛ لأنها لم تكن كذلك بالفعل.»

وفي الليل، بدأت إسرائيل في نقل الصواريخ في صناديقَ لا تحمل علامات في سفن تحمل أعلام دول محايدة. وبحلول شهر أغسطس، كان قد وصل إيران ستمائة صاروخ، وبحلول ديسمبر كان قد وصلها ١٥٠٠ صاروخ آخرين. ومع أن هذه الصفقات أعادت الاتصالات إلى حدٍّ ما بين تل أبيب وطهران، فقد أحدثت انشقاقًا بين واضعي السياسات في واشنطن. ففي حين كانت وكالة الاستخبارات المركزية وهيئة الأمن القومي تؤيدان العملية، فإن فكرة شراء الرضاء الإيراني بالسلاح كانت بغيضةً لجورج شولتز، وزيرِ الخزانة السابق البدين الجسد، مدير شركة بكتل الذي كان قد حلَّ محل هيج وزيرًا للخارجية في إدارة ريجان. ومع ذلك فقد استمر الرئيس في الموافقة على نقل الأسلحة، حتى بعد نوفمبر ١٩٨٦، عندما سرَّبت الصحافة خبرًا عن العملية. وفي البداية أنكر ريجان أنه باع صواريخَ لحكومةٍ ترعى الإرهاب، ولكن بعدها بأسبوع عكس ريجان موقفه واعترف أن الولايات المتحدة أمدَّت إيران بالفعل «ببعض الأسلحة الدفاعية»، وإن كان لهدف نبيل. وأصرَّ على أن «حكومتنا تتَّبع سياسةً حازمة بعدم الاستسلام لمطالب الإرهابيِّين، ونحن لم نقايض — وأكرِّر لم نقايض — السلاح أو أي شيء آخر مقابل الرهائن، ولن نفعل ذلك.»

ولكن مراوغات ريجان كلَّفته كثيرًا من مصداقيته بين الأمريكيِّين، وفي الوقت نفسه لم تؤدِّ إلى تقدير طهران له. فقد رفض الإيرانيون كبْحَ جماح حزب الله في لبنان، وفي الخليج استمرَّت في شن هجماتٍ بقوارب الصواريخ ضد ناقلات النفط الكويتية غير المسلحة.

لقد تجاهل ريجان الدرسَ الأساسي في حروب البربر: وهو أن إمدادَ دول القراصنة في الشرق الأوسط بالسلاح يؤدي فقط إلى مزيدٍ من أعمال القرصنة. وللدفاع عن إمدادات النفط الأمريكية من الكويت، اضطُر الرئيس إلى إرسال البحرية مرةً أخرى للعمل. وعلى مدار عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨ أغرقت السفن الحربية الأمريكية عددًا من القوارب البحرية الإيرانية، ورافقت السفن الكويتية المعرَّضة للخطر. وفي إطار تلك العمليات، أسقطت المدمِّرة الأمريكية يو إس إس فينسن طائرةَ ركاب إيرانية مدنية عن طريق الخطأ، متسببة في مقتل جميع ركابها البالغ عددهم ٢٩٠ فردًا.

وفي حين كان الجنود الأمريكيون يحاربون الإيرانيِّين في الخليج، كانت شحنات الأسلحة الأمريكية للنظام الإسلامي قد فجَّرت فضيحةً مدوية في واشنطن. اتضح أن عائدات مبيعات الصواريخ وُجِّهت إلى مقاتلي الكونترا المناهضين للشيوعية في نيكاراجوا، وذلك خرقًا لقوانين الكونجرس. وخضعت الإدارة الأمريكية لتحقيق شامل بُثَّ على التليفزيون في جميع أنحاء البلاد، ولكن ذلك لم يُقنِع ريجان بالعدول عن اتباع سياسات مثيرة للجدل، ومتناقضة، في الشرق الأوسط. ففي الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تقوم بتسليح إيران بصواريخ مضادة للطائرات، كانت أيضًا تقوم بإمداد أعداء إيران في بغداد بالمروحيات وقذائف الهاون وأقمار التجسس الصناعية.

ومع أن العراق لم يكن أقلَّ مساندةً لمنظَّمة أبو نضال وغيرها من الجماعات الإرهابية من ليبيا، فقد شطب ريجان العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب. وأرسل مرتين — في عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤ — المبعوثَ الرئاسي دونالد رامسفيلد لمقابلة صدَّام حسين، متجاهلًا أدلةً على أن الرئيس العراقي قد استخدم الغاز السام ضد آلافٍ من أعدائه. فقد أكَّدت وثيقة من وزارة الدفاع أنه «لا يساور أحدًا أيُّ شك حول استمرار تورُّط العراقيِّين في الإرهاب. وكان السبب الحقيقي هو مساعدتهم على الانتصار في حربهم ضد إيران.» وفي حين كان رامسفيلد يستنكر بوضوح استخدامَ العراق للأسلحة الكيماوية، أكَّد رامسفيلد أيضًا لصدَّام أن الولايات المتحدة لا تزال تقف وراءه في صراعه ضد آيات الله الشيعيِّين، وأنها ترغب في «تحسين العلاقات الثنائية بين البلدين، حسب الإيقاع الذي يختاره العراق». واستمرَّت العلاقات بين واشنطن وبغداد تزداد قوةً حتى بعد أن أطلقت طائرة ميراج عراقية النيرانَ خطأً على الفرقاطة الأمريكية «ستارك»، التي كانت تقوم بدوريات في الخليج العربي في مارس ١٩٨٧، فقتلت ٣٧ بحارًا.

وكانت مجهودات الإدارة الأمريكية لاحتواء النفوذ الإيراني في الخليج قد تزامنت مع حملةٍ سرية لتقديم الأسلحة والمستشارين العسكريِّين والمساعدات المالية للقوات العربية

غير النظامية المناهضة للاحتلال السوفييتي لأفغانستان. وكان مسئولو الإدارة الأمريكية يميلون إلى إضفاء صبغةٍ حالمة على تلك المقاومة، رافضين الاعترافَ بنظرة الاحتقار التي ينظر بها هؤلاء المجاهدون إلى الولايات المتحدة. وكان الأمريكيون يأبَون أيضًا الاعترافَ بالكراهية المتَّقدة ضد ثقافتهم في المملكة العربية السعودية، أو باستعداد السلطات السعودية لتحويل انتقاداتِ الإسلاميِّين المتطرفين لإسرافها إلى الولايات المتحدة. وقد ادَّعى أحد الشرائط الدينية السعودية التي روَّجت على نطاق واسع أن أمريكا هي عدوٌّ كل المسلمين، إنها «أمَّةٌ من البهائم والزناة، تأكل الطعام الفاسد». ولم يُصَب بالذعر في واشنطن إلا قليل من المسئولين؛ لأن بلدهم كانت تغذِّي انتشار هذه الدعاية المناوئة لأمريكا عن طريق شراء النفط العربي وتمويل بعض أكثر الإسلاميِّين عداءً، ومنهم نجلُ رجل أعمال سعودي ثري، اسمه أسامة بن لادن.[4]

وأصبحت إدارة الرئيس ريجان نفسها، التي اشتهرت بأنها تسلك مسارًا مباشرًا في سياساتها تجاه الاتحاد السوفييتي، تشتهر بأنها لا تحقِّق شيئًا في الشرق الأوسط. فقد قادتها المخاوف الأمنية إلى الهجوم على ليبيا وهي تدلل العراق، وتسلِّح كلًّا من صدَّام حسين وزعماء الثورة الإيرانية في آنٍ واحد. وبسبب غرقها حتى أذنيها في خرافات الشرق الأوسط، كانت تقدِّم إمدادات للعرب المقاتلين من أجل الحرية في أفغانستان، وساعدت الحكومةَ الدينية السعودية مع تجاهُل التهديدات التي يمثلها كلاهما لها. في البداية ساند البيت الأبيض، الذي كان يتردَّد بين اعتبارات الأمن والمعتقَد، غزوَ إسرائيل للبنان ثم احتجَّ عليه، وسارعت الولايات المتحدة بإرسال شحنات من الأسلحة إلى الدولة اليهودية، ثم أجَّلتها، وتعاونت مع المخابرات الإسرائيلية في خطةٍ مثيرة للجدل لمبادلة الأسلحة بالرهائن، لكنها عادت عام ١٩٨٥ وحاكمت جوناثان بولارد المحلِّل في الاستخبارات البحرية الأمريكية، بتهمة التجسس لصالح إسرائيل. وقد ساعد ريجان في عملية إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، ثم قاطع المنظمةَ بعد ذلك، ثم غيَّر موقفه مرة أخرى، وشارك في محادثات دبلوماسية مع عرفات.

كانت المحادثات مع الزعيم الفلسطيني تمثِّل خروجًا حادًّا عن السياسة الأمريكية السابقة. فمع أن كل إدارة منذ عهد نيكسون كانت تقوم باتصالات سرية مع منظمة التحرير الفلسطينية، وعادةً ما يكون ذلك محاولةً لحماية الأمريكيِّين من أعمال العنف الفلسطينية، فقد رفضت الولايات المتحدة رسميًّا الاعترافَ بالجماعة، ما دامت تقوم بأعمال إرهابية وترفض حقَّ إسرائيل في الوجود. وقد تمسَّك ريجان بتلك السياسة بقوة

— وقاد شولتز جلسةً في لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية كان الشعار فيها: «لا لمنظمة التحرير الفلسطينية!» — حتى ديسمبر ١٩٨٧ عندما قامت انتفاضة فلسطينية واسعة النطاق في الضفة الغربية وغزة. وكانت مشاهد الشباب الفلسطينيِّين وهم يقذفون الدبابات الإسرائيلية بالحجارة قد فاجأت الأمريكيِّين والإسرائيليِّين، لكنها أذهلت عرفات أيضًا. فلم يكن القادة المحليون الشباب للثورة يتلقَّون تعليماتهم مباشرةً من «الرجل العجوز»، كما كان يُعرف، في تونس. ولكن استعاد عرفات زمامَ المبادرة في ديسمبر التالي، عندما أعلن فجأةً شجْبَه للإرهاب واعترافه بالقرار رقم ٢٤٢. ولأن منظمة التحرير الفلسطينية كانت بهذا قد نفَّذت الشروط الأمريكية لقبولها، لم يجد الرئيس ريجان بدًّا من الاعتراف بها ممثلةً للشعب الفلسطيني، ومن فتحِ قنوات اتصال مع عرفات. وقد غطَّت المحادثات بين وزارة الخارجية الأمريكية والمسئولين الفلسطينيِّين نطاقًا واسعًا من الموضوعات، من بينها إمكانية تكوين دولة فلسطينية في الأراضي المحتلة. ولكن تحطَّم الأمل في أن يتوِّج الرئيس سجلَ هزائمه المتتابعة في الشرق الأوسط بنجاحٍ في تحقيق السلام، بسبب هجوم إرهابي على شاطئ إسرائيلي بقيادة أبو عباس، قائدِ الغارة على السفينة «أكيلي لاورو». ورفضَ عرفات التنديد بالهجوم، فعلَّقت واشنطن المحادثات.[5]

كان عجز أمريكا عن الاستمرار في حوارٍ بنَّاء حول خلافات الشرق الأوسط، فضلًا عن حلِّها، أحدَ أعراض مرض مزمن. فمع أن ريجان نال الكثير من التقدير بسبب انتصاره في الحرب الباردة، فقد أثبت أنه غير قادر على أن يتماشى مع تعقيدات الصراع العربي الإسرائيلي، وحرب العراق وإيران، والتوتر السائد بين الأنظمة الإسلامية والعلمانية. ولم تكن رؤية تأسيس سلام أمريكي في المنطقة أسرعَ زوالًا قط مما كانت عليه في تلك الفترة.

ولكن يبدو أن الأمريكيِّين كانوا غير واعين إلى حدٍّ كبير لهذا التشوش الذهني. فقد كان انتباههم موجَّهًا إلى المشاهد المذهلة للملايين الذين يتظاهرون مطالبين بالحرية في شرق أوروبا، ويدمِّرون جدارَ برلين. وهلَّل جمهور السينما عندما قَتل مايكل جيه فوكس في فيلم «العودة إلى المستقبل» (١٩٨٥) وتوم كروز في فيلم «من الطراز الأول» (١٩٨٦) المهاجمين الليبيِّين بسهولة، وعندما رسم إنديانا جونز (هاريسون فورد) ابتسامةً متكلَّفة على شفتيه ثم أطلق النار على عربي يستخدم السيفَ ببراعة في الفيلم الذي حقَّق نجاحًا رائعًا «سارقو الفُلك الضائع» (١٩٨١). وجذِلوا أيضًا عندما لعِبت الممثلة الجذابة بروك شيلدز دورَ أمريكية مثيرة ساذجة في فيلم «الصحراء» (١٩٨٣) وقد اجتاح فارس عربي متَّشح بالسواد كيانها. وضحكوا أيضًا على الإرهابيِّين المسلمين الذين كانوا يُجرُون تجربةً

مع انتحاريِّين ويخطِّطون لتفجير برجَي نيويورك التوءمين في الفيلم الكوميدي «الخطأ صواب» الذي أُنتج عام ١٩٨٢.

لقد كانت هوليوود مرةً أخرى منغمسةً في خيالات الشرق وتدمجها مع الحقائق عن الشرق الأوسط. وبدا الرئيس ريجان نفسه مرتبكًا. فقد ظهرت عليه أولى بوادر مرض ألزهايمر الذي قضى على حياته فيما بعد، فكان يخلِط في بعض الأحيان بين مشاهد من أفلامه القديمة وأحداث العالم الواقعي. ولكن هذه الحَيرة كانت تصبح عبئًا على الأمريكيين. لقد انتهى عَقد من الفوضى في الشرق الأوسط، ولكن كان عَقد آخر يبزغ، ومعه الحرب.

سيوف ودروع في الرمال

كان احتمال نشوب صراع واسع النطاق في الشرق الأوسط يبدو بعيدًا في ذلك اليوم من عام ١٩٨٩ الذي سقط فيه لقب «نائب» رئيس الولايات المتحدة عن جورج إتش دبليو بوش ليصبح الرئيس الحادي والأربعين لأمريكا. كان بوش بطلَ حرب سابقًا، ورجلًا أنيقًا وقائد فريق البيسبول بجامعة ييل ومدير وكالة الاستخبارات المركزية، فكان يجسِّد القوة والمهارة اللتين ستتعامل بهما الولايات المتحدة مع أزمات المنطقة. وكان الطريق يبدو ممهدًا لنجاحه. فقد انهارت الكتلة الشيوعية، فحُرِم العديد من الحكام الديكتاتوريِّين العرب من الدعم السياسي السوفييتي ومن مصدرٍ يعتمدون عليه للذخيرة. وفي الخليج العربي، كانت جيوش إيران والعراق، التي أُنهكت قواها بعد عشر سنوات من القتال وسقوط أكثر من مليون ضحية، قد استسلمت لفترة من الجمود غير المستقر. وكان يبدو أن الانتفاضة الفلسطينية أيضًا قد استنفدت طاقتها، وأن منظمة التحرير الفلسطينية أصبحت لا تلعب أي دور. ومع أن السلام كان لا يزال بعيدًا، فإن الشرق الأوسط كان على الأقل قد هدأ إلى الحد الذي يستطيع معه واضعو السياسات الأمريكيون التفكيرَ في التخلص من بعض صراعاته الأكثر تقلبًا، مع تمهيد الطريق أمام استقرار المنطقة.

ولكن سريعًا ما اتضح المظهر الخادع للهدوء في الشرق الأوسط. فقد بدأ صدَّام حسين، الذي كان يثقل كاهلَه ديونُ حرب تقترب قيمتها من تريليون دولار، يبحث بجنون عن مصدر للمال، ووجده في جارته الكويت. وقد ادَّعى صدَّام أن هذه الإمارة الغنية بالنفط قد فصلها الاستعمار البريطاني عن العراق، ومن ثَم فقد طالب صدَّام بحقه في «المحافظة العراقية التاسعة عشرة». واتباعًا للمنهج الأصولي الذي كان يجتاح العالَم

العربي ارتدى صدَّام زعيم حزب البعث العلماني عباءةَ صلاح الدين على الطراز الحديث، وأعلن حربًا مقدسة ضد السعوديِّين الآثمين، الذين كان يَدين لهم بمليارات الدولارات. وبدءًا من شهر يوليو ١٩٩٠ بدأت آلاف الدبابات والقوات العراقية التي لا حصرَ لها في التجمع عند الحدود الكويتية، واستعدَّ العالَم كلُّه للغزو العراقي الوشيك للكويت. وربما للجزيرة العربية بأكملها، وواجهت حكومة بوش أولى أزماتها في الشرق الأوسط.

واجه الرئيس معضلةً أيضًا؛ فعلى عكس جون كوينسي آدامز، الذي كان عليه أن يختار بين تأكيد المُثُل الأمريكية عن طريق مساعدة اليونان في صراعها من أجل الاستقلال، وبين حماية الاستثمارات الأمريكية التجارية في تركيا، كان على بوش أن يختار بين اثنين من الأصول الاستراتيجية. صحيح أن الكويت كانت تمدُّ الولايات المتحدة بالنفط، ولكن إسهامات العراق في رفاهية البلاد لم تكن أقلَّ أهمية. وقد جاء في توجيهات الأمن القومي التي صدرت عام ١٩٩٠: «العلاقات الطبيعية بين الولايات المتحدة والعراق ... تدعَم الاستقرار في كلٍّ من الخليج والشرق الأوسط.» واستمرَّ البيت الأبيض في تقدير دور العراق باعتباره وسيلةً لتقييد إيران، ومؤثِّرًا متوسط المستوى على الفلسطينيِّين. ولأنها لم تستطِع أن تحدِّد أيًّا من الحليفين تساند في الحرب العراقية الكويتية، سعَت واشنطن إلى الالتزام بموقف الحياد. إذ يُزعَم أن أبريل جلاسبي، ممثلة أمريكا في العراق وأول سفيرة لها في الشرق الأوسط، قالت لصدَّام حسين مؤكدة: «ليس لنا رأي في الصراعات بين العرب. وكلُّ ما نأمُله هو أن تُحل هذه القضايا على وجه السرعة.»

كان الأمريكيون في الماضي يحاولون البقاءَ خارج ساحة الخلافات في الشرق الأوسط، كما فعلوا مثلًا في فلسطين قبل عام ١٩٤٨، فقط ليجدوا أنفسهم يتورَّطون فيها بعنف، ولم يكن الصراع في الخليج استثناءً. لذلك فعندما غزا جيش صدَّام الكويت في الثاني من أغسطس وبدأ في نهبها، تبخَّر أيُّ أملٍ لبوش في إيجاد حلٍّ سلمي للأزمة مع اشتداد قوة شبح الهيمنة العراقية على منطقة الخليج. ولم يَعُد الحياد خيارًا أمام أمريكا. فدعا بوش مجلس الأمن للانعقاد، وطالب باتخاذ خطوات لتحرير الكويت من كل القوات الأجنبية، وأصدر تعليماته للبحرية الأمريكية بإرسال أسطول إلى الشرق الأوسط في العملية التي عُرفت باسم «عملية درع الصحراء». وأكَّد بوش «لا يمكن أن نسمح لموردٍ بهذا القدْر من الأهمية أن يسيطر عليه أحدٌ بهذا القدْر من القسوة، ولن نفعل.»

وبدأ بوش بكل صبر وهمَّة في محاولة الوصول إلى إجماع عالمي على التدخل العسكري في الكويت. وكانت كل الردود قدَرًا إيجابية. فعلى عكس معارضتهم السابقة في التعاون مع

أمريكا في صراعها ضد الإرهاب، كان الأوروبيون يتلهفون للانضمام إلى أي مساعٍ لحماية نفط الشرق الأوسط. والمفاجأة الأكبر كانت استعداد العديد من الحكام العرب بسبب التهديد العراقي لأنظمتهم، للاشتراك في تحالفٍ ضد صدَّام. وكانت شروطهم الوحيدة هي أن تمدَّهم الولايات المتحدة بملايين الدولارات في هيئة مساعدات في فترةِ ما بعد الحرب، واستثناء إسرائيل من هذا التحالف. وتشجَّع بوش بهذا التضامن الدولي، فأصدر سلسلة من قرارات الأمم المتحدة تسمح باستخدام «كل الوسائل الضرورية» لإجلاء العراقيِّين عن الكويت.

وفي تشكيل عسكري أكبرَ عشر مرات تقريبًا من عملية الشعلة قبل ذلك بثمانية وأربعين عامًا، تمركز حشدٌ يتكوَّن من أكثر من نصف مليون جندي أمريكي، بالإضافة إلى أعداد ضخمة من الدبابات والطائرات والبنادق ومركبات الدعم حول الكويت. وانضمت إليها قوات من ٣٤ دولة، لتكوِّن معًا أكبرَ عرض على الإطلاق للمعدات العسكرية التي تتجمع في الشرق الأوسط. ومع ذلك أحجم بوش عن استخدام هذه القوة الساحقة، مانحًا صدَّام فرصةً أخيرة للانسحاب. وفي عدة اجتماعات حظيت بتغطية إعلامية كبيرة، أكَّد وزير الخارجية جيمس بيكر، وهو رجل قليل الحديث من تكساس، على نظيره العراقي الثرثار طارق عزيز، ضرورةَ الجلاء عن الكويت. ولكن جهوده ذهبت سدًى. فقد رفض صدَّام سحبَ قواته، بل على العكس مدَّ نطاق حربه المقدسة لتشمل إسرائيل والولايات المتحدة، وأقسم أن يشنَّ «أم المعارك» للاحتفاظ «بالمحافظة التاسعة عشرة». وبناءً على ذلك حدَّدت الأمم المتحدة الخامس عشر من يناير ١٩٩١ ليكون آخر موعد يمكن لصدَّام فيه إما أن يستجيب لقراراتها أو يجلب على نفسه غضبَ الاتحاد.

كان أداء بوش نموذجيًا في أول تجربة له في الشرق الأوسط، ولكن كانت أكبر عقبة لا تزال قائمة أمامه. فقد كانت مهمة الرئيس في إقناع الشعب الأمريكي بضرورة خوض الحرب أكثرَ صعوبةً من الحفاظ على تحالف دولي، ودعم جيش بأكمله في الصحراء العربية. فقد ظلت هناك مهمة إقناع الكثيرين الذين يشكون أن الشباب الأمريكي لن يحارب من أجل تحرير الكويت، وإنما من أجل نفطٍ يصل بأمان وبأسعار مناسبة. لذلك ألغى بوش تمامًا أي إشارة إلى النفط في أحاديثه، وشدَّد بدلًا من ذلك على الخطر الذي يمثله العراق على الشعوب المستقلة في كل مكان. وحذَّر الرئيسُ من أن «كل يوم يمر يقرِّب صدَّام خطوة من تحقيق هدفه المتمثل في امتلاك ترسانة نووية. وهو لم يمتلك قطُّ سلاحًا إلا واستخدمه». كان الزعماء البريطانيون قد قارنوا في يوم من الأيام ناصر بهتلر،

ولكن صدَّام، حسب وصف بوش، قد فاق هتلر في وحشيته. وحتى في ذلك الوقت، ظل الكونجرس منقسمًا حول ما إذا كان سيسمح للرئيس بتخليص الكويت من العراقيِّين. وبأغلبية خمسة أصوات فقط في مجلس الشيوخ، اتَّجهت أمريكا لخوض الحرب.

بدأت عملية «عاصفة الصحراء» في مساء ١٧ يناير بغارات جوية مدمِّرة على بغداد وغيرها من مراكز القيادة العراقية. وتحوَّلت المطارات وأجهزة الرادار وشبكات الاتصالات إلى نيران وأنقاض تحت تأثير الصواريخ الموجهة بدقة والقنابل العنقودية الساحقة. وبدا العراقيون مستعدين لهذا الهجوم. فقد تابع المشاهدون على شاشات التليفزيون في جميع أنحاء العالَم وابلًا من النيران العراقية المضادة للطائرات، التي كانت تحوَّلت إلى كتل خضراء في كاميرات التصوير الليلية. ولكن هذا الوابل العراقي لم يجدِ نفعًا في إسقاط طائرات التحالف، وبدلًا من القتال مع العدو، هربت الطائرات الحربية العراقية جميعًا إلى طهران. والأخطر من هذا أن صدَّام أطلق صواريخ سكود على معسكرات التحالف في السعودية، فقتلت في إحدى المرات ٢٨ جنديًّا.

لم يكن الهدف الرئيسي لصواريخ سكود هو الأمريكيِّين، بل الإسرائيليِّين. فقد وجَّه صدَّام، الذي كان يتوق إلى جذبِ إسرائيل إلى ساحة القتال لتنسحب مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية من الائتلاف، ٣٩ صاروخًا سوفييتيَّ الصنع على تل أبيب وحيفا، مدمرًا منازلَ ومصيبًا البلاد بشلل اقتصادي. فوضع الإسرائيليون الأقنعة الواقية من الغاز ببساطة واختبئوا في غرفٍ محصَّنة ضد الهجمات الكيماوية والبيولوجية، ولكن لم يكن صبرهم بلا حدود. فمع أن الرئيس بوش كان قد ناشد القادة الإسرائيليِّين بألا يردوا على استفزازات صدَّام، فقد استعد الجيش الإسرائيلي لحملة للبحث عن منصات إطلاق الصواريخ في غرب العراق وتدميرها. كان جنود المظلات الإسرائيليون في المطارات بالفعل استعدادًا للمغادرة، عندما توصَّل الرئيس أخيرًا إلى حل. ستتجه صواريخ باتريوت الأمريكية المضادة للصواريخ الباليستية وأطقم العمل المسئولة عن التعامل معها إلى إسرائيل، وستُنشر للتصدي لصواريخ سكود القادمة من العراق. ومع أن معظم صواريخ باتريوت لم تُصِب هدفها فإن مشهد وجود عسكريِّين أمريكيِّين على أراضي الإسرائيليِّين لأول مرة رفع من روحهم المعنوية كثيرًا. وقد قال مايكل وودز، قائد أحد الأطقم: «أنا في الجيش منذ ستة عشر عامًا، ولم يُرَحَّب بي في بلدٍ ما مثلما حدَث هنا. إنه ترحيب غامر.»

ولكن الأكثر تدميرًا بكثير من استخدام صواريخ سكود كان استخدام صدَّام لسلاح النفط. فعلى عكس الحكام العرب الذين سعَوا عام ١٩٧٣ إلى كسر شوكة الغرب سياسيًّا عن طريق حرمانه من منتجات البترول الحيوية لاقتصاده، سعى القائد العراقي إلى وقف

تقدُّم التحالف عن طريق إغراقه بالنفط حرفيًّا. فقد ألقت القوات العراقية أكثرَ من مليون طن من النفط الخام في الخليج، وأشعلت النار في مصافي النفط الكويتية، مكوِّنةً بذلك أكبرَ تسريب للنفط في التاريخ، بالإضافة إلى حقولٍ من اللَّهب الذي لا يمكن إطفاؤه. وقد تسبَّب تلوُّث الجو وتلوث المياه في نفوقِ أعدادٍ لا حصر لها من الأسماك والطيور البحرية المختلفة، وانتشار الأوبئة بين جنود التحالف. وبذلك كانت الكارثة البيئية في الشرق الأوسط التي حاول جورج بيركنز مارش، مؤسِّس حركة الحفاظ على البيئة، منْعَها.

وفي خضم هذه الفظائع ورغم استراتيجيات التأخير التي يستخدمها صدَّام، فقد بدأ التحالف حملتَه البرية المسمَّاة «سيف الصحراء» في ٢٤ فبراير. وقد أثبت هذا الهجوم أن إيقاعه سريع كالبرق، وأكثر تدميرًا مما كان يتنبأ مخطِّطوه. فقد اقتحمت قوات المدرعات والمدفعية الكويت وجنوب العراق، والتفَّت حول الحرس الجمهوري، المزعوم أنه صفوة مقاتلي صدَّام، وقضت عليه، وأبادت سلاح الدبابات. وقال قائد عملية عاصفة الصحراء، الجنرال نورمان شوارتزكوف، الذي كان والده قد أسهم في الإطاحة بزعيم شرقي في إيران في السابق: «كان صدَّام هو ما يطلِق عليه المنظِّرون العسكريون «مركزَ جاذبية معاديًا»، فإذا دُمِّر، أفقدَ العدوَّ الرغبةَ في القتال.» وفي غضون مائة ساعة كانت مدينة الكويت قد أُمِّنت، وتحوَّل جزء كبير من الجيش العراقي الذي حوصر في كمين أثناء تراجعه على ما يطلق عليه «طريق الموت»، وهو اسم مناسب، إلى رماد. وقيل إن جنود مشاة البحرية وهم يتقدمون كانوا يردِّدون أغنية جعلتها فرقة الروك «كلاش» شهيرة وكانت تحكي عن قنابل تنفجر بين المآذن، وعن مؤذِّنين يرفعون الآذان بتحدٍّ. وكان الجنود ينشدون «دك حصون القصبة» وهم يقضون على آخر معاقل المقاومة العراقية.

وكان على القادة الأمريكيِّين في ذلك الوقت أن يقرروا ما إذا كانوا سيمدون هجومهم إلى داخل الأراضي العراقية للإطاحة بنظام صدَّام أم لا. وكان الجنرال كولين باول، رئيس مجلس رؤساء الأركان المشترك الذي كان يشرف على الحملة، ضد مد نطاق الحرب. وكان باول، الذي كان رجلًا دمث الخلق صعِد السُّلم من بدايته، من أصول متواضعة من جامايكا تسكن في حي برونكس بنيويورك، يستند في المقام الأول على أسسٍ إنسانية. وكان رأيه أن المعركة قد أصبحت «استغلالًا لضَعف العدوِّ»، وأن الولايات المتحدة ستلطِّخ سمعتها أخلاقيًّا إذا استمرت في ذبح العراقيين. لكن باول كان أيضًا استراتيجيًّا محنكًا يرى أن العراق، الذي تعرَّض للعِقاب ولكن لا يزال يتمتع بقدرات عسكرية، ذو قيمة لأمريكا. وقد شرح ذلك قائلًا: «كانت نيتنا العملية هي ترك ما يكفي من قوة لبغداد كي

تظل تهديدًا لإيران التي لا تزال عدوًّا لا يعرف الرحمة للولايات المتحدة»، ووافقته إدارة بوش على ذلك. فسمحت لبقايا جيش صدَّام بالعودة مترنِّحة إلى العراق دون التعرُّض لها. ولكن بمجرد عودة الجيش إلى هناك، وجَّه ما تبقى معه من سلاح إلى الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب، الذين كانوا قد تمرَّدوا على النظام البعثي بتشجيع خفي من الولايات المتحدة. وبرباطة جأش تشبه تلك التي تعامل بها كيسنجر مع الأكراد من قبلُ عندما تخلَّى عنهم، وقفَ بوش يتفرَّج بسلبية، والجماعتان تواجهان الهلاك.

نفَّذت عملية «وداع الصحراء» التي بدأت في العاشر من مارس الانسحابَ السريع للقوات الأمريكية من منطقة الحرب. وقد خلَّفت وراءها الكويتَ المنهوبة، لكنها محرَّرة، وعشرات الآلاف من الضحايا الأكراد والشيعة نتيجةَ وحشية حزب البعث، بالإضافة إلى ٤٠٠ ألف فلسطيني طردتهم الكويت زاعمةً أنهم كانوا يساندون صدَّام، وعراقًا محرومًا من أي بنية تحتية مدنية، ولكن الجيش لا يزال بقوَّته إلى حدٍّ بعيد. وأصبح العديد من زعماء الخليج العربي ينظرون إلى أمريكا الآن باعتبارها منقِذتهم. أما ضحايا صدَّام الذين لا يُحصَون في العراق، فكانوا ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها خائنة. ولكن كان الأسوأ من هذا هو ذلك الاستياء الذي تجيش به صدور المجاهدين العرب، ومن بينهم أسامة بن لادن الذي لم يكن نجمه قد سطع بعد، والذي كان قد نجح أخيرًا في طرد الكفار السوفييت من أفغانستان ليجد الكفار الأمريكيِّين يعسكرون قرب مكة والمدينة. فقال المجاهدون، مساوين بين الغرب وأمريكا: «المسألة ليست أن العالم ضد العراق. بل إن المسالة أن الغرب ضد الإسلام.»

أما التبعات الطويلة الأمد لهذا الصراع الذي عُرف فيما بعدُ باسم «حرب الخليج الأولى» فلم تكن تعني الأمريكيِّين كثيرًا. فقد كان الأمريكيون، الذين حجب عنهم المراقبون العسكريون رؤيةَ الجوانب البشعة للقتال والذين شعروا بالارتياح بسبب العدد القليل نسبيًّا من الضحايا (فقط ١٤٧ قتيلًا أمريكيًّا على أرض المعركة)، وباستعداد أعضاء التحالف للمساعدة في دفع قيمة فاتورة الحرب التي بلغت ٦١ مليار دولار، يفتخرون بقوة بلادهم. وقال بيكر وزير الخارجية: «ما قام به الرئيس في الخليج كان ببساطةٍ أمرًا صائبًا. فقد اختار جورج بوش الخيارات الصعبة التي يتوقعها العالم من قيادات أمريكا.» ولكن كانت مكانة أمريكا قد وصلت إلى ذروتها بعد الحرب، ليس في الوطن فقط، بل في الخارج أيضًا، وذلك بفضل سياسات بوش في الشرق الأوسط. فقد اعترف جزء كبير من العالم بهيمنة أمريكا على المنطقة، وحقَّقوا توافقًا مع أهدافها. وعلى عكس

وودرو ويلسون، الذي أدَّى رفضه خوضَ حرب ضد الإمبراطورية العثمانية إلى إضعاف مكانة أمريكا في مؤتمر باريس للسلام، قدَّم الرئيس بوش جزءًا كبيرًا من جيشه للخليج ووقف رابط الجأش لتحديد مستقبله. فأعلن أن «الأمريكيِّين هم أكثر شعوب الأرض تدينًا. وكنا نشعر دائمًا بفطرتنا أن هدف الرب مرتبط بقضية الحرية.» وبعد أن لوَّح الرئيس بقوة أمريكا، أصبح يلوِّح بالمُثُل الأمريكية.

«يمكننا أن نرى عالَمًا جديدًا يلوح في الأفق، عالَمًا تجد فيه الحرية واحترام حقوق الإنسان موطنًا بين كل الأمم.» بهذه الكلمات كشف بوش عن رؤيته للنظام العالمي الجديد؛ ألفية من السلام والأخوة العالمية التي ستبدأ في الشرق الأوسط. وبدأ الرئيس في رسم خطته للاحتفاظ بوجود دائم للأسطول الأمريكي في الخليج، ولتقديم التمويل اللازم لتنمية الشرق الأوسط، ولوضع إجراءات وقائية ضد انتشار الأسلحة غير التقليدية. ولكن محور هذا البرنامج هو عَقد اتفاقية بين العرب وإسرائيل بناءً على مبدأ الأرض مقابل السلام ومنح الشعب الفلسطيني حقوقه.[6]

وكخطوة أولى تجاه تحقيق هذا الهدف النبيل أعلن بوش عزْمَه على إعادة عقد مؤتمر السلام الدولي، ولكن هذه المرة في مدريد. وجاب وزير الخارجية جيمس بيكر العالَم العربي لحشد المساندة لتلك القمة، وللضغط على إسرائيل للتنازل عن الأرض وإزالة المستوطنات. وقد أثارت مجهوداته حنقَ إسحاق شامير، القائد السرِّي السابق الضئيل الحجم القوي الإرادة الذي حلَّ محلَّ بيجين رئيسًا للوزراء. وأسرع شامير في عملية بناء المستوطنات في الضفة الغربية وغزة، وقاوم كل الاقتراحات الخاصة بالتفاوض مع عرفات. وكتب بيكر بكلمات مريرة: «من الصعب ألا نصدق أن حكومة شامير كانت تعبِّر عن ازدرائها للمصالح الأمريكية». وبعد أن منع الوزير ضمانات قروض إعادة توطين المهاجرين اليهود السوفييت إلى إسرائيل، أبلغ الكونجرس أن شامير يمكنه الاتصال به عندما يكون مهتمًّا بالسلام، حتى إنه أعطاهم رقم هاتفه في البيت الأبيض: (٢٠٢–٤٥٦–١٤١٤). ووافق الإسرائيليون أخيرًا، بعد أن أرهبهم ما قام به الوزير، على حضور المؤتمر، ولكن على شرط ألا يُدعى عرفات. وقبِل بوش هذا الطلب بسرور؛ فقد كان عرفات هو القائد العربي الوحيد تقريبًا الذي وقف بجانب صدَّام أثناء الحرب.

وبدأت فعاليات مؤتمر السلام، الذي عُقد وسط زخم من الدعاية والتفاخر، في ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ في العاصمة الإسبانية. وسعِد الملايين حول العالم لرؤية الزعماء العرب والإسرائيليِّين مجتمعين في القصر الملكي، المقام على طراز روكوكو (الذي أُزيلت منه على

وجه السرعة صورةٌ للملك تشارلز الخامس وهو يذبح البربر)، وجالسين إلى نفس المائدة المزخرفة. وقد ابتهج بيكر قائلًا: «مثل جدران أريحا، انهارت الحواجز النفسية لنصف قرنٍ انهيارًا مدويًا.» ولكن هذا التقدُّم الظاهري لم يؤدِّ إلا لطريق مسدود. فقد وجَّه فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري السريع الغضب، جميعَ ملاحظاته للحط من قدْر شامير، وعرض شامير حوافزَ عديمة القيمة من الأراضي المحتلة للممثلين الفلسطينيين. لكن الوفد الأمريكي تمكَّن مع ذلك من التوصل إلى إطار عمل من مستويين لمحادثات سلام ثنائية، ومناقشات متعددة الأطراف حول قضايا، مثل مصادر المياه، والتحكم بالسلاح، وإعادة توطين اللاجئين. ولكن انهارت المحادثات الثنائية بسبب رفض إسرائيل تقديمَ تنازلات عن الأراضي في الضفة الغربية وغزة، وأيضًا بسبب رفض الفلسطينيِّين قبولَ أي شيء أقل من دولة تديرها منظمة التحرير الفلسطينية في المنطقتين. واعترض شامير على إعادة مرتفعات الجولان بالكامل إلى سوريا، ولم يرغب السوريون من جانبهم في عرض سلام حقيقي. وفي غياب أي تقدُّم على المستوى الثنائي، رفض الكثير من الوفود العربية مجردَ التفكير في القضايا التي ستناقشها أطراف متعددة.

وخلَص بيكر إلى أن مدريد «كانت قصة مليئة بالتصميم، والبدايات الخاطئة، والشجاعة الشخصية والسياسية، والتحالفات العمياء، والمثابرة، وسوء التقدير، ونوبات الغضب، ومفاوضات لا نهاية لها، وعشرات من الحلول الوسط المبتكرة، والنوايا السيئة والجيدة.» وكانت قمة مدريد أيضًا فاشلة. فبنهاية عام ١٩٩١ وصلت عملية السلام مرة أخرى إلى طريق مسدود. وألقى بوش، الذي كان يواجه منافسةً عنيفة على الرئاسة، باللوم في الوصول إلى هذا الطريق المسدود على إسرائيل. وأعلن أن الولايات المتحدة قد قدَّمت «نحو ١٠٠٠ دولار [في هيئة مساعدات] لكل رجل وامرأة وطفل إسرائيلي»، ولكنها لم تتلقَّ سوى التعنُّت في المقابل. ولكن مثل هذه التهم لم تستطِع التغطية على حقيقة أن الإدارة الأمريكية كانت قد وجَّهت كل ثقلها ونفوذها تجاه سد الفجوة بين العرب والإسرائيليِّين، ولكنها لم تنجح حتى في تضييقها.[7]

لقد هزمت الأسلحة الأمريكية غازيًا شرسًا في الشرق الأوسط وحرَّرت حليفًا يكنُّ لها الولاء. ولكنها أعادت أيضًا الحُكم القَبَلي للكويت، بدلًا من تأسيس حكومة نيابية، ومكَّنت صدَّام من الاحتفاظ بنظامه الدموي القاتل. وعقَدت مؤتمر سلام التفتت إليه أنظار العالم بأسرِه، فقط لتواجه فشلًا في عَقد حتى الاتفاقيات التمهيدية. ومع أن بوش قد تجنَّب معارضةَ ويلسون إرسال قواته إلى الشرق الأوسط، فقد شارك ويلسون خيبةَ

أمله في محاولة تغيير المنطقة حسب النمط الديمقراطي الأمريكي. وظل السلام الأمريكي الذي وعد به الرئيس يبدو بعيدَ المنال كما كان في فترةٍ ما قبل الحرب، وبدا النظام العالمي الجديد لا فرق بينه وبين القديم. ويقال إن أكبر وأهم تغيير لم يحدُث في الشرق الأوسط ولكن في البيت الأبيض الذي خرجت منه عائلة بوش في يناير ١٩٩٣، ليفسحوا الطريقَ لبيل وهيلاري كلينتون.

صِدام الرؤى والحقيقة

أتيت من بلدٍ بعيد، من مكان بعيد؛
حيث تسير قوافل الجِمال،
حيث يقطعون أُذنك
إذا لم يَرُق لهم وجهك،
إنه أمرٌ وحشيٌّ، ولكن هذا هو الوطن

بهذه الكلمات التي لا تحمل أي قدْر من الاحترام، افتتحت شركة إنتاج والت ديزني فيلم كوميديا الرسوم المتحركة علاء الدين (١٩٩٢)، وهي قصة أخرى مستقاة من ألف ليلة وليلة. لقد كان الاستخفاف بالقسوة المفترَضة لثقافات الشرق الأوسط مقبولًا في يومٍ ما، بل إنه جدير بالثناء في الولايات المتحدة، ولكنَّ نشْر كتاب «الاستشراق» وبداية التصحيح السياسي جعلا مثل هذا الذمَّ غير لائق. وغضبًا مما اعتبرته مجموعات الأمريكيِّين العرب آخرَ محاولة لهوليوود للاستخفاف بميراثهم، اعترضت بعنف على تلك الأغنية. وقد أذعنت شركة ديزني هذه المرة. فسرعان ما غيَّر كاتبو كلمات الأغنية المقطعَ المُهين الذي يقول «حيث يقطعون أذنك إذا لم يَرُق لهم وجهك»، إلى «حيث الأرض مسطَّحة وواسعة، والحرارة عالية». ولكن استمرت صناعة السينما في إهانة الأمريكيِّين من ذوي الجذور العربية والإيرانية والتركية عن طريق الاستمرار في نشر صور سلبية عن شعوب الشرق الأوسط. وأصبح الإرهابيُّ العربيُّ الغاضبُ، الذي يحاول تفجير مدينة أمريكية في الفيلم الكوميدي «أكاذيب حقيقية» إنتاج عام ١٩٩٤ الذي قام ببطولته أرنولد شوارزنيجر، صورةً أساسية.

كان الانقسام العميق في تصوير الشرق الأوسط في دُور السينما يزداد أيضًا في المكتبات وقاعات المحاضرات. وشهد مجال دراسات الشرق الأوسط ازدهارًا في الولايات المتحدة في

التسعينيات. فقدَّمت أكثرُ من مائة كلية وجامعة دوراتٍ دراسية عن موضوعات متعلقة بالشرق الأوسط، وكانت رابطة دراسات الشرق الأوسط — التي تأسست عام ١٩٦٦م — تفتخر بأن عدد أعضائها أكثرُ من ٢٦٠٠ عضو. وبسبب نشأتهم على نظريات التعدد الثقافي وما بعد عصر الاستعمار، فقد عبَّر كثير من هؤلاء الدارسين عن استهجانهم الشديد لسياسات أمريكا في الشرق الأوسط، خاصةً مساندتها لإسرائيل وللحكام العرب المستبدِّين. ومارسوا ضغوطًا من أجل اعتراف صريح بمنظمة التحرير الفلسطينية وبقوى المعارضة الديمقراطية في المنطقة، واحتفَوا في بعض الحالات بالقادة المعارضين لأمريكا في دمشق وطهران. ولكن لم تَعُد مثل هذه المشاعر مقتصرة على أقسام دراسات الشرق الأوسط، بل انتشرت في جميع أقسام العلوم الإنسانية، وحتى بعض فروع الدراسات العلمية أيضًا. وقال نعوم تشومسكي، اللغوي الكبير من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا والاشتراكي الليبرالي الشهير الذي وُلد عام ١٩٢٨ لأبوين صهيونيَّين في فيلادلفيا: «لقد ساندت الولايات المتحدة أنظمةَ حكم ظالمة ومستبدة وقاسية، وأعاقت المبادرات الديمقراطية. فالولايات المتحدة تدلي ببيان صريح تقول فيه: الولايات المتحدة ستدير هذه المنطقة من العالم بالقوة، لذلك ابتعدوا عن الطريق.»

وكانت آراء برنارد لويس أقلَّ انتشارًا، وهو الذي استمرَّ في الدفاع عن إقامة علاقات قوية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ورأى أن أمريكا هي أملُ الشرق الأوسط الرئيسي، إن لم يكن الوحيد، من أجل تحوُّل ديمقراطي. ومن بين العلماء الدارسين القلائل الذين ساندوا تقييم لويس المتشائم للوضع في الشرق الأوسط علانيةً كان صامويل بي هنتنجتون، وهو متخصص في دراسات أنظمة الحكم بجامعة هارفارد. وفي كتابه الذي يحمل اسم «صراع الحضارات» الصادر عام ١٩٩٣ يصف هنتنجتون، الذي يبدو ظاهريًّا هادئًا وخجولًا، عالَمًا لم تَعُد تقسِّمه الأفكار الشيوعية والرأسمالية المتنافسة، بل يمزِّقه صراعٌ عميق بين الدول الغربية ذات الغالبية المسيحية، والإسلام. فكتب يقول: «المشكلة الحقيقية للغرب ليست الأصولية الإسلامية. بل هي الإسلام الذي يمثِّل حضارةً مختلفة أتباعها مقتنعون بتفوق ثقافتهم وتنتابهم هواجسُ بشأن دونية قوَّتهم.» ولكن على عكس لويس، لم يتنبأ هنتنجتون بدور رئيسي للولايات المتحدة في الحيلولة دون ذلك الصِّدام. لكنها ستكون ضحيته الرئيسية.[8]

وبدا أن نظرية هنتنجتون تتأكد في صباح يوم ٢٦ فبراير ١٩٩٣، عندما دخلت شاحنة مليئة بالمتفجرات إلى مرأب السيارات تحت الأرض التابع لمركز التجارة العالمي

في مانهاتن. كان قائد السيارة هو الكويتي رمزي يوسف، ولكن صانع القنبلة كان العراقي عبد الرحمن ياسين. وكان كلاهما ينفِّذ تعليمات شيخ كفيف مصري اسمه عمر عبد الرحمن، كان يتزعم من مسجده ببروكلين جماعةً إسلامية متطرفة تربطها علاقاتٌ بتنظيم القاعدة التابع لأسامة بن لادن. وكان عبد الرحمن يأمُل، بإسقاط برجَي مركز التجارة العالمي التوءمين وهما أطول مبنيَين في نيويورك وأحد أبرز رموز السيادة الأمريكية، في شن حرب مقدسة شاملة ضد الغرب. أشعل رمزي فتيلَ القنبلة التي تزن ١٣١٠ أرطال، وهرب من المرأب سيرًا على قدميه. ونتجت عن الانفجار الذي حدث بعد الظهيرة بقليل فجوةٌ قطرها ٩٠ قدمًا في أربعة أدوار كاملة من الخرسانة، وأدَّى إلى مقتل ستة أشخاص وإصابة أكثر من ألف. وقُبِض على ستة من المتآمرين، وصدرت ضدهم أحكامٌ بالسَّجن مددًا يصل مجموعها إلى ٢٤٠ عامًا.

كان تفجير برجَي مركز التجارة العالمي أولَ هجوم إرهابي كبير على أرض الولايات المتحدة، ومع أن الحكومة الفيدرالية كانت تواجه بوضوح تهديدًا غير مسبوق من الشرق الأوسط، فقد امتنعت عن تعبئة كل قواها العسكرية والاستخباراتية. وقررت إدارة الرئيس كلينتون التي كان عمرها شهرًا واحدًا أن تتعامل مع الإرهاب على أنه جريمةٌ وليس تهديدًا للأمن القومي. وقد تأكَّدت معارضة الرئيس للالتحام مع الإرهابيِّين المسلمين في قتال عسكري في أكتوبر ١٩٩٣، عند مقتل ١٨ جنديًّا أمريكيًّا في محاولة فاشلة للقبض على جنرال الحرب الصومالي محمد فرح عيديد، في حادثةٍ عُرفت باسم «إسقاط الصقر الأسود». وكان مقتل ١٦٨ مدنيًّا بعد ذلك بثمانية عشر شهرًا على يد مفجِّر قنابل ينتمي لجماعات استعلاء البِيض في انفجار المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي قد زاد من إصرار كلينتون على محاربة الإرهاب برجال الشرطة بدلًا من رجال الجيش. وكتب يقول: «كنت سعيدًا بفعالية عمل أجهزة تنفيذ القانون، وقلِقًا بسبب عِظَم مخاطر تعرُّض مجتمعنا للإرهاب.»

ومع أن كلينتون كان حاصلًا على منحة رودس للالتحاق بجامعة أكسفورد، وأستاذًا في القانون، وحاكمًا لولاية أركنساس، فإنه لم تكن لديه خبرة كبيرة في الشئون الخارجية، وكانت معرفته بالشرق الأوسط سطحية. إلا أنه كان يعرف أن هزيمة بوش في انتخابات عام ١٩٩٢ ترجع جزئيًّا إلى انشغاله بالعراق والوساطة بين العرب وإسرائيل، وفشله في التركيز على القضايا الداخلية. وفي عموم الأمر رحَّب الأمريكيون الذين تمتعوا بفترة من الازدهار الذي بدا لا نهائيًّا، باهتمام الرئيس بالشئون الداخلية. فقد كانوا يشاركون

كلينتون قناعته بأنه يمكن هزيمة الإرهاب عن طريق التخلص من الفقر والجهل اللذين ولَّداه، وأيضًا عن طريق عزل الدول المموِّلة له. وبعد أن تخلَّص مواطنو الولايات المتحدة من أعباء محاربة القاعدة والجماعات المتطرفة الأخرى عسكريًّا، أصبح بإمكانهم أن يستمتعوا بثمار العَقد الأخير المزدهر من القرن.

وفي الشرق الأوسط، كان منهج كلينتون هو تجنُّب المبادرات الكبرى، سواء العسكرية أو الدبلوماسية، والحفاظ على الوضع الراهن في الخليج العربي. وباتباع سياسة «الاحتواء المزدوج»، كانت الولايات المتحدة تطبِّق عقوبات اقتصادية على إيران والعراق وتستمر في الضغط على صدَّام. وبالإضافة إلى فرض «حظر الطيران» الذي يمنع الطائرات العراقية من التحليق فوق المناطق الكردية والشيعية، أصدر كلينتون أوامره مرتين بتوجيه ضربات صاروخية إلى منشآت عراقية: الأولى ردًّا على محاولة صدَّام اغتيال الرئيس السابق بوش عام ١٩٩٣، والثانية بعدها بخمس سنوات، عقابًا على منعه مفتِّشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة من تنفيذ عملهم. وكان كلينتون يؤيد بوجه خاص مساعي المفتشين لكشف أسلحة الدمار الشامل في العراق. وكان يعتقد أن نظام حزب البعث الحاكم يمثل رأس «محور شرير من الإرهاب وتجارة المخدرات والجريمة الدولية المنظمة» التي ستصبح «مهلكة بصورة أكبر إذا سمحنا لها ببناء ترسانة من الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية.»[9]

ولكن بصفة عامة امتنع كلينتون عن اللجوء إلى القوة وسيلةً لحماية مصالح أمريكا في الشرق الأوسط. إذ بدا أنه لا توجد حاجة ماسَّة لذلك. فقد طوى النسيان التحدي السوفييتي، وانتهت الحركات الوطنية. وصحيح أن التفجيرات الإرهابية قد أزهقت أرواحَ كثير من الضحايا في الولايات المتحدة، لكن كلينتون كان يشعر أن التهديد الإسلامي يمكن مواجهته بالحذر وليس بالقوة. كما أنه لم يشعر بوجودِ ما يجبره على التوسط بين العرب والإسرائيليِّين. ومع أنه نشأ معمدانيًّا، وحذَّره قَس في طفولته من أن «الرب لن يغفر لك أبدًا إذا لم تقف بجانب إسرائيل»، فقد كان راضيًا بإقامة علاقات ودية مع الدولة اليهودية دون إضاعة وقته الرئاسي الثمين على عملية سلامٍ لا طائل من ورائها. وكان يمكن لهذا الوضع أن يستمر لولا مكالمة هاتفية من رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين في التاسع من سبتمبر ١٩٩٣، يبلغه فيها بأن إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية قد توصَّلتا إلى اتفاقٍ سرِّي، بعد عقود من إراقة الدماء على الجانبين.

وفي حين كان على الولايات المتحدة أن تعاود الحديثَ مع المنظمة الفلسطينية، كان ممثلون عن حكومة رابين التي انتُخبت حديثًا يتفاوضون سرًّا مع مساعدي عرفات في

العاصمة النرويجية أوسلو. وبعد أن وُضعت الخطوط العريضة للاتفاقية، سعى رابين وعرفات إلى ختمِها بختم رئاسي. وإذا كان كلينتون قد انزعج بسبب حقيقة أن أيًّا من الجهتين لم ترَ أنه من المناسب أن تستشيره بشأن المحادثات، فقد كان مع ذلك سعيدًا لأن يكون الأب الروحي لمعاهدتهم. وتبِع ذلك ترتيبات عاجلة لتوقيع علني في البيت الأبيض بعدها بأربعة أيام فقط، وتقلَّص دور الرئيس إلى مجرد ضمان حضور الرئيسين للحدث، وأن عرفات لن يحاول تقبيلَ وجنتي رئيس الوزراء الإسرائيلي المتحفِّظ. وقضى كلينتون ليلة مؤرقة قبل الاحتفال يقرأ كتاب «يوشع»، وهو تأريخ لغزو اليهود — وهذا متناقض تمامًا مع المناسبة، وفي الصباح ارتدى ربطةَ عنق تزينها أبواق ذهبية لتذكِّره بالأبواق التي نفخ فيها يوشع لإسقاط جدران أريحا. وفكَّر: «الآن ستعلِن الأبواق حلولَ سلام سيعيد أريحا إلى الفلسطينيِّين.» وفي اليوم التالي، في حضور آلاف العرب والإسرائيليِّين والأمريكيِّين المباركين لهذا الاتفاق، أعاد كلينتون بوجه مشرق المصافحةَ الثلاثية التاريخية التي قام بها الرئيس كارتر. وقال للموقِّعين: «سلام» باللغات العبرية والعربية والإنجليزية، وأضاف: «اذهبوا وأنتم صانعو سلام.»

وعلى غرار السادات وبيجين، تلقَّى عرفات ورابين جائزةَ نوبل للسلام، ولكن إعلان المبادئ الذي وقَّعاه بالأحرف الأولى في ذلك اليوم على عشب البيت الأبيض كان أبعدَ ما يكون عن اتفاقيةٍ متكاملة. فعدا الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وعدا شجْب الإرهاب والمحرِّضين عليه، وعدا المَنْح التدريجي للحقوق الوطنية الفلسطينية، لم يحدِّد ما يُطلَق عليه اتفاق أوسلو توقيتًا لإخلاء إسرائيل للضفة الغربية وغزة، أو كيف ستعود تلك المناطق إلى الحكم العربي. وتأجل أي قرار بشأن الوضع النهائي للقدس، التي يدَّعي الطرفان أنها عاصمتهما، وبشأن ملايين اللاجئين الفلسطينيِّين وأبنائهم المشتَّتين حول العالم أجمع، إلى أجلٍ غير مسمًّى. وقد استغل الإسرائيليون ذلك الغموض للتوسُّع في إقامة المستوطنات في تلك المناطق، في حين قام عرفات والسلطة الفلسطينية التي أوجدتها اتفاقية أوسلو بمحاولاتٍ متخبطة لمنع الإرهاب أو تعليم السلام للفلسطينيِّين.

وعندما واجه كلينتون عدمَ قدرة المفاوضين العرب والإسرائيليِّين على الانتقال من المبادئ العامة إلى ترتيبات سلام حقيقية، اضطُر، كما اضطُر كارتر، إلى التوسط بين الجانبين. وحُذف كثير من الأشياء من جدول الرئيس الذي كُرِّس لمحاولة التوصل إلى اتفاقيات مؤقتة بين الطرفين. واستضاف البيت الأبيض عرفات الذي يرتدي زيَّ الحرب عدة مرات، حتى إن نقَّاد كلينتون، الذين تذكَّروا سنواتِ تطرُّفه عندما كان طالبًا، اتهموه

بأنه يحاول أن يعيش مجددًا أوهامَ الستينيات لقادة حرب العصابات في العالم الثالث. ولكن في الحقيقة لم يحدُث قط أيُّ تقارب بين الرئيس وعرفات. في حين نشأت علاقة وطيدة بينه وبين الملك حسين، ملك الأردن، وزوجته الأمريكية الفاتنة الملكة نور التي تلقَّت تعليمها في جامعة برنستون. أما عاطفة كلينتون العميقة الحقيقية فكانت باتجاه رابين، المحارب الهادئ والسياسي الجسور، الذي كان كلينتون يَعُدُّه الأب الذي لم يحظَ به. وتذكَّره كلينتون: «أصبحنا أصدقاء بذلك الأسلوب الفريد الذي يصبح به الناس أصدقاء عندما يكونون في صراعٍ يعتقدون أنه عظيم ورفيع. وفي كل مقابلة كان احترامي له واهتمامي به يزيدان.» وبحضور الملك حسين ورئيس الوزراء رابين وآلاف الضيوف إلى جانب الإعلام الدولي في صحراء يهودا في أكتوبر ١٩٩٤، ترأس كلينتون توقيعَ اتفاق سلام أردني إسرائيلي. وكانت مجموعات البالونات الزرقاء والبيضاء والخضراء التي أُطلقت فوق سماء الاحتفال تؤذن ببدء مساعٍ أخرى للسلام، عندما بدأ كلينتون يستكشف إمكانيةَ مبادلة مرتفعات الجولان التي تسيطر عليها إسرائيل مقابل تصالح سوريا مع إسرائيل.

ولكنَّ فكرة التضحية بالجولان وغزة والضفة الغربية أثارت غضبَ أولئك الإسرائيليِّين الذين كانوا يبجِّلون هذه المناطق ويعتبرونها مقدَّسة وحيوية للدفاع عن دولتهم. واحتشدت الجماهير تندِّد بسياسات رابين وتتهمه بالخيانة. وفشلُ عرفات في كبحِ جماح الجماعات الإرهابية، الذي ثبَت بأول تفجير لحافلة في القدس في أغسطس ١٩٩٥، زاد المعارضةَ اشتعالًا. وبعد حضور تجمُّع من أجل السلام في تل أبيب في الرابع من نوفمبر، أطلق مسلَّح يهودي النارَ على رابين، وتوفِّي بعدها بقليل. وظهر كلينتون شاحبًا وذاهلًا أمام الصحفيِّين في البيت الأبيض، ليكونَ أول رئيس يرثيه بالعبرية، قائلًا: «الوداع يا صديقي».[10]

وخلفَ رابين في رئاسة الوزراء شيمون بيريز، الذي تولَّى منصب وزير خارجية إسرائيل وقتًا طويلًا، وكان المهندس الرئيسي لاتفاق أوسلو، وحاول استعادةَ زخم عملية السلام. ولكن استمرار التفجيرات قوَّض مجهوداته، وأدَّى إلى هزيمته في انتخابات عام ١٩٩٦ أمام بنيامين نتنياهو، زعيم حزب الليكود الذي درس بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا. وتطلَّب المزيجُ بين الحكومة اليمينية في إسرائيل والسلطة الفلسطينية التي تموج بالفساد والانقسامات بين الفصائل بالضرورة، المزيدَ من الجهود من جانب كلينتون. ونتج عنها اتفاقٌ مؤقت آخر تفاوضوا عليه في مزرعة واي بميريلاند، في أكتوبر ١٩٩٨، تنازلت بمقتضاه إسرائيل عن مناطقَ أخرى وتلقَّت مزيدًا من الوعود الفلسطينية بالسلام. ولكن في ذلك الوقت كانت الجهود من أجل تحقيق اتفاقيات سلام فلسطينية إسرائيلية قد

بدأت تتنحى جانبًا مفسحةً المجال للحاجة إلى الدفاع عن الأمريكيِّين ضد هجوم آخر من إرهاب الشرق الأوسط.

بدأت الموجة الأخيرة من الهجمات في العاشرة من مساء ٢٥ يونيو ١٩٩٦، عندما فجَّرت شاحنة وقود تحمل ٥٠٠٠ رطل من الديناميت أبراجَ الخُبر، وهو مبنًى يُستخدم لإيواء الجنود الأمريكيِّين في مدينة الظهران بالمملكة العربية السعودية. وأسفر الحادث الذي أُلقيت مسئوليته على حزب الله وتنظيم القاعدة عن ١٩ قتيلًا أمريكيًّا و٣٧٢ مصابًا. وبعدها بعامين، في السابع من أغسطس ١٩٩٨، قَتل تنظيم القاعدة ٢٤٤ شخصًا وأصاب أكثر من ٤٠٠٠ في تفجيراتٍ متزامنة لسفارتي أمريكا في كينيا وتنزانيا. وأصبحت مشاهدُ رجال الإنقاذ المنهكين وهم يبحثون عن الجثث في الأنقاض، التي شوهدت أولَ مرة في بيروت في الثمانينيات، ومشاهدُ صفوف التوابيت الملفوفة بالأعلام وهي تُنقَل إلى طائرات الشحن الأمريكية، مشهدًا معتادًا ومتكررًا. وأعلن بن لادن وهو مبتهج ميلادَ تنظيم جديد يحمل اسم الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيِّين، وأعلن حربًا مفتوحة على الولايات المتحدة. وأصدر أمرًا أن «كل مسلم … في أي بلد» واجب عليه «قتل ومحاربة الأمريكيِّين وحلفائهم، سواء من المدنيِّين أو العسكريِّين.»

وكانت أجهزة الاستخبارات الأمريكية مقتنعة بأن تنظيم القاعدة سيشن هجومًا كبيرًا داخل الولايات المتحدة، ولكنَّ ردَّ فعل كلينتون ظلَّ في نطاق الحد الأدنى. وكان الرئيس، وهو ملزم بحظر على الاغتيالات السياسية أصدرته إدارة الرئيس فورد، يفضِّل إلقاء القبض على بن لادن وليس قتله، أو تشجيع عملاء مصريِّين أو أفغان على تصفيته. وفي تلك الأثناء كانت القوات الأمريكية مشغولةً بالفعل في كوسوفو، تحمي الألبان من الصرب، وتقصف بلجراد، واعتقد كلينتون أن الشعب لن يساند أيَّ عملية كبيرة في الشرق الأوسط. وكان الرئيس يتعرض بالفعل للهجوم من الكونجرس بسبب محاولته إخفاءَ عبثه مع متدرِّبة بالبيت الأبيض. وبسبب القيود القانونية والسياسية عليه، أصدر كلينتون أوامره بضربة انتقامية محدودة على تفجير السفارتين بإطلاق صواريخ كروز ضد معسكرات تدريب القاعدة في أفغانستان ومصنع أدوية سوداني يُشتبه في أنه يصنِّع أسلحة كيماوية. وأكَّد أن معركة أمريكا تستهدف «المتطرفين والقتلة»، وليس الإسلام، وأنها ستكون «صراعًا طويلًا ممتدًّا». ولكن حتى هذا الرد المحدود شجبه نقَّاد كلينتون باعتباره محاولةً لإبعاد الضوء عن التهم الموجَّهة إليه، وفسَّره الإرهابيون على أنه علامة على الضَّعف. ونجا بن لادن دون أن يصاب بأذًى من ذلك الهجوم، ومع أن الصواريخ دمَّرت المصنع السوداني، فإنه لم يُعثر على أي أثر لموادَّ سامَّة بين أنقاضه.

وبنهاية سنواته الثماني في المنصب، كان كلينتون قد أصبح خبيرًا محنكًا بصورة استثنائية في شئون الشرق الأوسط، وأصيب بجُرح غائر لا يُمحى منه. وقد امتنع كلما كان ذلك ممكنًا عن استعراض القوة العسكرية الأمريكية ضد المتطرفين الإسلاميِّين، لكنه اكتشف أن المتطرفين كانوا عاقدين العزمَ على نقل معركتهم إلى الولايات المتحدة. وقد جاهد، تأييدًا لأسمى المبادئ الأمريكية، لتحقيق السلام بين الإسرائيليِّين والفلسطينيِّين، فقط ليصاب بالإحباط مرةً تلو الأخرى. وكان التحالف بين الولايات المتحدة والأنظمة العربية أقوى مما كان من قبل، خاصة في منطقة الخليج العربي، في حين كانت الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد في الشرق الأوسط. وكانت رؤية كلينتون الأصلية في اتحاد الشعب الأمريكي مع شعوب المنطقة بحثًا عن حلولٍ غير عنيفة لخلافاتهم، وسعيًا وراء الإنماء العادل أيضًا، قد تحطَّمت تمامًا بنهاية عام ١٩٩٩، ضحيةً لخلافات عنيدة وحسابات اقتصادية باردة. واختُتمت تجربة كلينتون في الشرق الأوسط، كما ينبغي، بمزيدٍ من الإحباط والألم، وفشل الإيمان والقوة.

وفي محاولةٍ أخيرة يائسة لإنقاذ اتفاق أوسلو، وافق كلينتون على طلبٍ لرئيس وزراء إسرائيل الجديد إيهود باراك، القائد العسكري السابق الذي يميل إلى اليسار، بإجراء محادثات لعَقد اتفاقية سلام نهائية مع عرفات. ودعا كلينتون الزعيمَين إلى كامب ديفيد في شهر يوليو عام ٢٠٠٠، أي قبل ستة أشهر فقط من نهاية فترة رئاسته، وقضى كلينتون نحو أسبوعين في صراع لتضييق الفجوة بينهما. وحسب أقوال المشاركين الأمريكيِّين والإسرائيليِّين، قُدِّم عرضٌ للفلسطينيِّين بإقامة دولة مستقلة في ٩٠٪ (زادت فيما بعدُ إلى ٩٥٪) من مساحة الضفة الغربية وكامل غزة وفي النصف الشرقي من مدينة القدس. وكانت إسرائيل بموجب الاتفاق ستتنازل أيضًا عن جزء صغير من صحراء النقب لغزة. وكان سيجري جمْع المستوطنات الإسرائيلية في كتلٍ متاخمة لحدود ١٩٦٧، ويحصل اللاجئون الفلسطينيون على تعويضاتٍ مالية مناسبة. ولكن عرفات أكَّد أن كلينتون وباراك لم يعرضا عليه سوى مناطقَ غير متجاورة، وكأنها مناطق للعزل العنصري، في الضفة الغربية، ورفضا منْحَه السيادةَ على الحرم الشريف في القدس، أو جبل الهيكل كما يُطلِق عليه اليهود، ومعه الحائط الغربي. وفشلت اقتراحات كلينتون لسد فجوة الخلاف أيضًا في منْحِ اللاجئين حقَّ عودة كاملة إلى إسرائيل. وغادر عرفات كامب ديفيد، ولم يتوقف إلا لتوجيه الشكر لكلينتون على عظَمته. فتنهَّد كلينتون وردَّ عليه قائلًا: «أنا لست عظيمًا. بل أنا فاشل، وأنتم مَن جعلتموني فاشلًا.»

وفي سبتمبر من ذلك العام، بعد زيارة قام بها أرييل شارون، الذي أصبح زعيم المعارضة الإسرائيلية، لجبل الهيكل اتَّهم الفلسطينيون الإسرائيليِّين بمحاولة تدمير المسجد الأقصى في الحرم الشريف وبدءوا انتفاضتهم الثانية. ولكن على عكس الانتفاضة الأولى، التي كانت غير عنيفة إلى حدٍّ بعيد، كانت هذه الثورة مليئة بالتفجيرات الانتحارية والكمائن التي سرعان ما حصدت حياةَ مئات الإسرائيليِّين. وردَّ الإسرائيليون بقوة وعنف بتدمير مباني السلطة الفلسطينية وعزل مدن الضفة الغربية واغتيال الزعماء العسكريين. ومحَت حمَّامات الدم هذه أيَّ رؤية مشرِقة لسلام عربي إسرائيلي، وأنذرت بأعمال العنف التي سرعان ما غطَّت المنطقة بأكملها. وكرَّس كلينتون الأسابيع الأخيرة له في الرئاسة في جهودٍ خطيرة لوقف إطلاق النار والبدء في المحادثات من جديد. وركضت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت، تتأرجح على حذائها ذي الكعب العالي وراء الرئيس عرفات وهو يخرج مندفعًا من السفارة الأمريكية بباريس حيث كانت تجري محادثات الهدنة. وصاحت في الحراس من مشاة البحرية: «أغلقوا الأبواب»، وكأن إغلاقَ المدخل لن يوقف عرفات فقط، بل سيوقف أيَّ تدهور للأوضاع في الشرق الأوسط. وصاحت مرةً أخرى «أغلقوا الأبواب»، ولكن بلا جدوى.

أما الأمريكيون، الذين كانوا منشغلين بالانتخابات الرئاسية المتقاربة النتائج بصورة مريرة، فلم يعيروا هذه الأحداث انتباهًا كبيرًا. وكان الاهتمام المحدود الذي أولوه للشرق الأوسط قد استحوذ عليه انتحاريٌّ تابعٌ لتنظيم القاعدة اصطدم بقوة في ١٢ أكتوبر بقارب بخاري بالمدمِّرة الأمريكية كول التي كانت ترسو في ميناء يمني. وكان على متن القارب ما يكفي من المتفجرات لقتل ١٧ بحَّارًا وإصابة ٣٤ آخرين. وصاح جورج تينيت رئيس وكالة الاستخبارات المركزية: «نحن في حالة حرب. لا أريد أن نبخل بأي رجال أو مورد على هذه المجهودات.»[11] ومع ذلك فقد أبدى قليل من أبناء وطنه حيرةً بسبب إحجام الحكومة عن إعلان حرب على الإرهاب أو عن دعم الدفاع الوطني. وقد بدَت الفجوة، التي بلغ قطرها أربعين قدمًا ضرب ستين قدمًا في هيكل المدمِّرة كول، وكأنها تمثل الفجوةَ في تفكير أمريكا الاستراتيجي بشأن الشرق الأوسط. فعلى غرار ويلسون وكينيدي وكارتر، كان كلينتون يفضِّل المُثُل على القوة في تعامله مع المنطقة، وأظهر في هذا الشأن ميلًا للخرافات. ولكن لم تُثبِت كل هذه السياسات فعاليتَها، لا في تحقيق السلام ولا في منع الإرهاب. ولم تنتقم الولايات المتحدة قط للهجوم على المدمِّرة كول، وهي حقيقة لوحظت بقوة في أفغانستان التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة نظام طالبان المتشدد، وأيضًا في المقر الرئيسي لتنظيم القاعدة.

نارٌ هوجاء

أطلَّ القرن الحادي والعشرون على أمريكا وهي متحمِّسة بآمالها للمستقبل، ولكنها ممزقة بعمق أيضًا جراء عدد من الموضوعات المعاصرة المطروحة للنقاش؛ رأسمالية السوق الحرة مقابل دولة الرفاهية، والطلب على الطاقة مقابل الرغبة في الحفاظ على البيئة، والعلاقة بين الحكومة والكنيسة. وظهرت الخلافات أيضًا حول انخراط أمريكا في الشرق الأوسط، وحول تحالفها مع إسرائيل، وحول العلاقات بين شركات الأعمال الكبرى والنفط العربي. وعلى العكس من ذلك، لم تَدُر إلا مناقشات قليلة حول التهديدات والمخاطر التي يمثلها التطرف الإسلامي، والسُّبل التي يمكن للولايات المتحدة الدفاع بها عن نفسها. وبدا أن الأمريكيِّين منشغلون بتأثير الألفية على الحواسيب، متمثلة في مشكلة عام ٢٠٠٠، أكثر من فكرة وقوع هجوم إرهابي على وطنهم. في الماضي، في عام ١٧٨٩، كان الخوف من هجوم قراصنة الشرق الأوسط على شواطئ الأمة الجديدة قد حفز الأمريكيِّين على الإقرار بالدستور والاتحاد معًا. ولكن عام ٢٠٠٠، لم يهتمَّ مواطنو الولايات المتحدة بتهديد هجوم إرهابي داخل الولايات المتحدة؛ لأنهم كانوا منشغلين بمناقشة قضايا أساسية.

ولكن كان موضوع الإرهاب ضد أمريكا على رأس قائمة أولويات وتفكير أسامة بن لادن. وكان قد أصدر أوامره بالفعل بتنفيذ عملية يجري فيها إيقاظ الخلايا النائمة لتنظيم القاعدة، واختطاف طائرات أمريكية، ثم الاصطدام بها بمبانٍ تجارية وحكومية كبرى في أمريكا. فبتمويل وافر من الجمعيات الخيرية في المملكة العربية السعودية وفي الخليج العربي، نجح على الأقل تسعة عشر إرهابيًّا في التسلل إلى مدنٍ أمريكية، وانتحال هويات جديدة، والالتحاق، في العديد من الحالات، ببرامج تدريب على الطيران.

وكانت وكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من أجهزة الاستخبارات قد تلقَّت العديد من التحذيرات بشأن أنشطة تنظيم القاعدة. ويتذكَّر تينيت قائلًا: «كان النظام يصدر إشارات حمراء.» ولكن يبدو أن المسئولين الأمريكيِّين كانوا يغطُّون في سُبات عميق. فقد جاء جورج دبليو بوش الابن إلى الرئاسة، معلنًا نيَّته محاربةَ الإرهاب بشدة، ولكنه في الحقيقة لم يتخذ سوى بضع خطوات لتقوية دفاعات الدولة. ولم ينجح البيت الأبيض في إقناع اليمن بالتعاون في مطاردة مهاجمي المدمِّرة كول، وكان كارهًا للضغط على السعودية لاتخاذ إجراءات صارمة بشأن الجمعيات الخيرية المموِّلة للإرهاب. وحتى بعد إلقاء القبض على المواطن الفرنسي من أصلٍ مغربي زكريا موسوي في مدرسة مينسوتا للطيران في أغسطس ٢٠٠١، والعثور معه على كتيباتٍ خاصة بطائرات من طراز ٧٤٧،

كان ردُّ فعل الإدارة الأمريكية بطيئًا. فرفع بوش درجةَ التأهب إلى الدرجة القصوى في السفارات الأمريكية، ووافق على خطة لإطلاق صواريخ محمولة بطائرات مسيَّرة على بن لادن في أفغانستان، لكنه امتنع عن تحسين الأمن الداخلي. وقرَّرت لجنة حكومية فيما بعدُ أن «أهم فشل واجهناه كان في تصوراتنا. فلا نعتقد أن القادة قد فهموا مدى خطورة التهديد.»

وكان يجب على الشعب الأمريكي أيضًا أن ينتبه إلى هذا الخطر. فالهجمات الإرهابية، التي كان آخرها على المدمِّرة كول، وقبل ذلك حوادث اختطاف الطائرات والاغتيالات في بداية السبعينيات، أصبحت حقيقةً في الحياة الأمريكية. وقد انعكست هذه الحقيقة في الثقافة العامة في أفلام مثل «الحصار» (١٩٩٨)، الذي تتعرَّض فيه نيويورك للدمار على يد مفجِّرو قنابل إسلاميون، وتخضع للأحكام العرفية، وأيضًا فيلم «ثلاثة ملوك» (١٩٩٩) الذي ظهر فيه جنودٌ أمريكيون أبرياء يتعرضون للتعذيب بسادية في العراق. وانتشرت صورٌ توحي بالخطر عن الشرق الأوسط، مثل تلك التي رسمها لويس وهنتنجتون. ومع ذلك، وبسبب ثقتهم بجيشهم، فقد كان الأمريكيون لا يزالون يواجهون صعوبةً في فهم كيف يمكن لمجموعة من الرجال غير المدرَّبين من مصر والسعودية ولبنان اختراق بلادهم ومهاجمة عاصمتهم وأهمَّ مدنهم. وكان البعض الآخر، تحت تأثير نظريات إدوارد سعيد وتشومسكي، يؤمنون بأن العرب والإيرانيِّين يجب أن يخشَوا الأمريكيِّين أكثرَ مما يجب على الأمريكيِّين أن يخشوهم. وكان آخرون لا يزالون يعيشون في عالَم الخيالات. فقد انبهر ملايين الأمريكيِّين عام ٢٠٠٠ بفيلم «الليالي العربية» المنتَج للعرض على التليفزيون والفائز بجائزة إيمي، واكتملت ملامح الفيلم بظهور شهرزاد التي تقصُّ الحكايات، والشخصية المثيرة علي بابا، والسندباد البحري. وربما تساءل كثيرون ممن شاهدو الفيلم عن الأسباب التي حدَت بسكان أرضٍ غامضة كهذه أن يطيروا بطائرات بدلًا من البساط السحري ويهاجموا الولايات المتحدة، وهي الدولة التي لم تسبِّب لهم أيَّ ضرر قط.

ولكن هذه الخرافات حول الشرق الأوسط ماتت فجأةً في الساعة الثامنة وستٍّ وأربعين دقيقة من صباح ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ ففي تلك اللحظة اصطدمت بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي طائرةٌ تابعة لشركة طيران أمريكان أيرلاينز كانت متجهة إلى لوس أنجلوس يقودها إرهابيون من تنظيم القاعدة، وعلى متنها ٩٢ راكبًا و١٠٠٠٠ جالون من الوقود. ولن ينمحي من الذاكرة الأمريكية أبدًا مشهدُ ألسنة اللَّهب وهي تخرج من جانبي المبنى، وأطنان الأنقاض والأشياء والبشر يسقطون على الشوارع بالأسفل. وكذلك لن

ينمحي الرعبُ الذي انتشر عندما ضربت طائرة يونايتد إيرلاينز رقم ١٧٥ البرجَ الجنوبي بعد سبع عشرة دقيقة. قال براين سويني، أحد الركَّاب على متن الطائرة في رسالةٍ لزوجته قبل الاصطدام بلحظات: «تمتَّعي بحياتك وعيشيها بأفضل وجه. واعلمي أني أحبك، وأنه مهما حدث سوف أراكِ مرة أخرى.» وفي أقل من نصف ساعة اصطدمت طائرة مدنية ثالثة بالجناح الغربي للبنتاجون في واشنطن، في حين سقطت طائرة رابعة، يبدو أنها كانت تستهدف البيت الأبيض أو الكونجرس، في حقل ببنسلفانيا بفضل شجاعة ركَّابها. وفي الساعة العاشرة والنصف كان البرجان التوءمان قد انهارا، والمباني من حولهما تهتز. وغلَّفت سحابة من الدخان الأبيض الكثيف الجزء الجنوبي من مانهاتن، وهو نفس المكان الذي غادرت منه السفينة يو إس إس إسيكس قبل مائتي عام لتخوض أولى حروب أمريكا في الشرق الأوسط.

قُتل نحو ٣٠٠٠ أمريكي في الهجمات، وهي أكبر مذبحة للمدنيِّين في تاريخ أمريكا. وكان رد الفعل الأول هو الصدمة. وغلَّف الغموض هويةَ مرتكبي الحادث وهدفهم وأسلوب عملهم. وتساءل الناس بجنونٍ هل لا تزال هناك خلايا إرهابيةً أخرى موجودة، وإذا كان الأمر كذلك، فما أهدافهم التالية؟ وفي محاكاةٍ لما حدَث في فيلم الحصار، أوقفت قوات الأمن جميعَ رحلات الطيران، وأغلقت الجسور والأنفاق، واعتقلت مئات الأمريكيِّين المسلمين والعرب. ووُضِعَت الأنصابُ التذكارية القومية تحت حراسة مشدَّدة، ومن بينها السفينة «يو إس إس كونستيتيوشن» الرابضة في خليج بوسطن، التي خشيت السلطات أن تُستهدف بسبب دورها في الانتصار على البربر.

كان من الممكن أن يكون ردُّ فعل الأمريكيِّين على هذا الهجوم في عصر سابق هو تحميل جميع المسلمين المسئوليةَ وإعلان الحرب على الإسلام. ولم يكن من الممكن توضيح صراع الحضارات الذي تنبأ به هنتنجتون بصورة أكثر من مشهد اصطدام الطائرات المختطفة. ومع ذلك فقد نفر الأمريكيون عامة من وضع الغالبية العظمى من المسلمين الذين يلتزمون بالسلام مع قتلة الحادي عشر من سبتمبر في فئة واحدة. وقال توم كلانسي، الروائي الذي كتب رواية يتنبأ فيها بمخطَّط هجوم إرهابي لضرب الكونجرس بطائرة، في حديث لقناة سي إن إن في وقت لاحق من ذلك الصباح: «إذا كان هؤلاء إرهابيِّين إسلاميِّين ... فقد أساءوا لدينهم بأيديهم؛ فالإسلام لا يجيز الانتحار. بل يتوعَّد فاعله بالنار إذا فعله.»[12] وحقيقة أنهم يستشيرون كلانسي، كاتب الروايات الخيالية، بصفته خبيرًا في الإرهاب، تشير إلى مدى اختلاط الخيال بالواقع في نظرة الأمريكيِّين إلى الشرق الأوسط.

ولكن البيت الأبيض أكَّد أيضًا أن عدوَّ الأمة هو التطرف الإسلامي، وليس المسلمين أو الدين الإسلامي.

ومع ذلك، كانت الولايات المتحدة في حالة حرب. وكانت الأسئلة العاجلة هي: مع مَن، وأين، وكيف يمكن للأمريكيِّين ردُّ الضربة؟ وكان الرئيس هو الوحيد القادر على تقديم إجابات، وهو رجل مرتبط بالشرق الأوسط بقوة وبصور متنوِّعة، ويَدين له كثيرون بالولاء وكذلك يعارضه كثيرون بشدة. فقد كان الرئيس، الذي فاز في الانتخابات بعد منافسة انتخابية طاحنة، يحترمه بعضُ الأمريكيِّين بسبب دفاعه عن قيم العائلة وسياساته الاقتصادية والاجتماعية المحافظة، في حين كان آخرون يكرهونه بسبب سذاجته وعدم حساسيته لقضايا البيئة والرفاهية، وورعه الساذج. ومع ذلك، فقد التفَّ الأمريكيون، في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، حول جورج بوش الابن وتطلَّعوا إليه لقيادتهم. واستجاب لهم الرئيس على الفور, وبذلك حدَّد بوش، أكثرَ من أي رئيس آخر في فترةٍ ما بعد الحرب، النَّهج الذي ستسير عليه علاقةُ أمريكا بالشرق الأوسط التي لم تَسِر على خط مستقيم.

لقد كان جورج بوش يمثل مجموع خبرات أمريكا المتنوعة في المنطقة؛ فقد كان دبلوماسيًّا محاربًا مثل جورج بيثون إنجليش، وإنجيليًّا محاربًا مثل ويليام فرنسيس لينش؛ أي مزيجًا من هذين. وعلى نفس نهج جيفرسون وتيودور روزفلت، لم يشعر بوش بالكثير من تأنيب الضمير بشأن استخدام القوة ضد أعداء أمريكا في المنطقة، أو بشأن الإطاحة بأنظمة الحكم العدائية. وأقسم بوش بعد ١١ سبتمبر بأن «الولايات المتحدة ستطارد وتعاقب أولئك المسئولين عن هذه الأعمال الجديرة بالازدراء» وتعهَّد بألا «يفرِّق بين الإرهابيِّين الذين ارتكبوا تلك الجرائمَ وأولئك الذين يؤوونهم.» ولكن على غرار فرانكلين ابن عم تيدي روزفلت، كان بوش يقدِّر للغاية قيمةَ النفط ورافضًا لإبعاد مورِّديه، خاصةً في المملكة العربية السعودية. وكان بوش يشارك أندرو جاكسون قلقه على علاقات أمريكا التجارية مع الشرق الأوسط، وحافظ على علاقة والده بالشركات الأمريكية التي تعمل هناك. ولكن على عكس جورج بوش الأب، البروتستانتي المتزمت، كان الابن أكثرَ انجذابًا نحو الكنائس الإنجيلية، أكثرِ الكنائس شعبيةً ونفوذًا على الصعيد السياسي. وقد جعله ذلك الوريث الروحي للأستاذ الجامعي جورج بوش، الذي دعا في أربعينيات القرن التاسع عشر إلى تكوين دولة يهودية وليس مجرد أنه من نسل عائلته، وكذا وريثًا لرجال الدين الاستعماريِّين الذين حذَّروا من مخاطر الإسلام العدواني. ولم

يكن وصف بوش للصراع ضد الإرهاب الإسلامي بأنه «حملة صليبية لتخليص العالم من الأشرار» غير متعمَّد. فإلى جانب هذه الحماسة الدينية، كان الرئيس يملك أيضًا الحماسة العلمانية للمحافظين الجدد، الذين كان كثير منهم من الليبراليِّين السابقين الذين نفروا من نبذ اليسار لإسرائيل وتهاونه مع جرائم الشيوعية، والذين كانوا يدعون إلى تطهير الشرق الأوسط بالديمقراطية. كان هذا المزيج بين المهام المقدسة والمدنية في ذهن بوش قد وضعه بإحكام على مسار ويلسون. ولكن الإيمان نفسه الذي منع ويلسون من الدخول في علاقات عدائية في الشرق الأوسط حفز بوش على اتخاذ قرار الحرب.

اختير المكان الذي ستوجِّه إليه أمريكا ضربتها الانتقامية في كامب ديفيد في ١٥ سبتمبر. فقد دعا نائب وزير الدفاع بول ولفيتز، أحدُ المحافظين الجدد الذي يتمتع بصيت ذائع، إلى الانتقام من العراق، الذي كان يؤمن وقتها بأنه قَطعًا مرتبط بتنظيم القاعدة. ولكن كولين باول، الذي كان قد أصبح وزيرًا للخارجية، انضم إلى نائب الرئيس ديك تشيني ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس في التوصية بالحرب ضد أفغانستان، حيث كانت طالبان لا تزال تؤوي أسامة بن لادن. واتفق بوش مع باول، وبدأ في الإعداد لتكرار التحالف المتعدد الجنسيات الذي جمعه والده قبل ذلك بعشر سنوات. وأصبح تخليص أفغانستان من الطغيان والإرهاب حملةً عالمية، وليست أمريكية.

بدأت الهجمات الجوية ضد مواقع طالبان في أفغانستان بعد أقلَّ من شهر من هجمات ١١ سبتمبر. وقدَّمت الطائرات الأمريكية المقاتلة التي كانت تحلِّق على مستوًى منخفض دعمًا للقوى المحلية المعادية لطالبان المسمَّاة بالتحالف الشمالي، وهي تتقدم نحو المدن الرئيسية كابول وجلال آباد وقندهار. وبنهاية شهر نوفمبر كان جنود مشاة البحرية الأمريكية يشتركون في القتال في أفغانستان أيضًا، مما أدَّى إلى تقليل عدد جيوب المقاومة لطالبان، ويطاردون بن لادن على طول الحدود الباكستانية الجبلية. وتمكَّن بوش من إقناع ١٨ دولة، من بينها بريطانيا وروسيا وألمانيا وفرنسا، بالمساهمة بقوات في الحملة وبالمشاركة في إعادة تعمير أفغانستان بعد الحرب. ومع أن بن لادن تمكَّن في النهاية من الهرب، واستمرت طالبان في القتال من وراء حصون لا يمكن الوصول إليها، فقد اعتبرت عملية «الحرية الدائمة» ناجحة. وبعد أن اكتملت المراحل العسكرية للحرب، كان بإمكان الولايات المتحدة التركيز مرة أخرى على قضايا الإيمان. فساعد الأمريكيون في وضع دستور أفغاني، وفي إجراء انتخابات ترشحت فيها المرأة الأفغانية للبرلمان لأول مرة في تاريخ أفغانستان.

وكان يمكن أن يكون تحرير أفغانستان كافيًا للانتقام لأحداث ١١ سبتمبر، ولكن بوش كان مقتنعًا بأن أمريكا متورطة في حرب طويلة المدى على الإرهاب، استعادت فيها الولايات المتحدة بدرجة ضئيلة زمامَ المبادرة فقط، ولكن لا يزال عليها الاحتفاظ به. فقد رأى بوش أن سياسات الردع والاحتواء التي استُخدمَت أولًا ضد السوفييت في الشرق الأوسط، وفيما بعدُ ضد إيران والعراق، لم تَعُد كافية لمواجهة الخلايا الإرهابية التي تعمل داخل الولايات المتحدة، التي من المحتمل أنها تلوِّح باستعمال أسلحة الدمار الشامل. وباتباع نهج ترومان وأيزنهاور وكارتر، الذين تبنَّى كلٌّ منهم أساليبَ جديدة لمواجهة التهديدات الأمنية القادمة من المنطقة، ابتكر بوش مبدأ جديدًا. فالولايات المتحدة لن تنتظر وترد على الهجمات الإرهابية، لكنها ستحارب أيَّ منظمة أو دولة تشترك في أعمال الإرهاب أو تروِّج لها. لقد أصبح أسلوب الضربات الوقائية الذي عارضه كلٌّ من نيكسون وجونسون عندما انتهجته إسرائيل، سياسةَ أمريكا. وستكرِّس الولايات المتحدة طاقتها لترسيخ الديمقراطية في الشرق الأوسط باعتبارها مبدأ وأفضل وسيلة للتخلُّص من الكراهية والتخلُّف اللذين يزدهر الإرهاب في ظلِّهما. وقد قال بوش لطلابٍ عسكريِّين في حفل تخرُّج بكلية ويست بوينت في يونيو ٢٠٠٢: «أمريكا ليست لديها إمبراطورية تريد أن تتوسَّع فيها أو مدينة فاضلة لتؤسسها. إننا فقط نتمنى للآخرين ما نتمناه لأنفسنا؛ الأمان من العنف، وثمار الحرية، والأمل في حياة أفضل.» ومرة أخرى، كان الأمريكيون سيجاهدون لإعادة تشكيل الشرق الأوسط على صورتهم، بدءًا بالعراق الذي يحكمه حزب البعث.

ومع أن الأدلة على وجود رابطة بين صدَّام وبن لادن كانت ضعيفة، فقد قرَّر بوش أن يجعل العراق حالةَ اختبار لمذهبه الجديد. ولم يكن بوش يفتقر إلى مبرِّرات للحرب. فصدَّام حاول اغتيال والده عام ١٩٩٣، وكان ينتهك بانتظام مناطقَ حظر الطيران. ولكن المبرر الأقوى لبوش كان محاولات العراق المستمرة لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، وإخفائها عن مفتشي الأمم المتحدة. ومثل هذه التصرفات تشير إلى احتقار لقوة أمريكا يشبه ذلك الذي تبديه القاعدة لها، وتضع العراق جنبًا إلى جنب مع إيران وكوريا الشمالية في «محور الشر». وبدأ بوش الاستعداد للحرب، بعد أن وصف صدَّام بأنه «خطر جسيم يزداد قوة» على السلام العالمي.

وعلى مدار عام ٢٠٠٢، شنَّت القوات الأمريكية هجماتٍ جوية على أجهزة الرادار العراقي ومنشآته الدفاعية، ووسَّعت من وجودها في منطقة الخليج. وأقيمت مخازن

ضخمة للوقود والذخيرة في الصحراء الكويتية، وأُقيمت مدن كاملة من الخيام العسكرية مكيفة الهواء. وعلى المستوى الدبلوماسي، شجَّعت الإدارة الأمريكية العراقيِّين المنفيِّين المعارضين لصدَّام، من بينهم الشيعي أحمد الجلبي، خريج معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، على تشكيل حكومة ديمقراطية موالية للغرب في المنفى. وكان بوش منشغلًا داخليًّا أيضًا بإقناع الأمريكيِّين بضرورة خوض هذه الحرب. ومن أجل هذا الهدف، سرَّب البيت الأبيض تقاريرَ سرية لوكالة الاستخبارات المركزية حول برامج عراقية موجودة بالفعل لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، وأشارت إلى أن صدَّام كان يتآمر لامتلاك قدراتٍ نووية أيضًا. وقد اختلف بعض الأمريكيِّين مع تلك الادعاءات، ولكن الشعب الأمريكي عامة، الذي كان يتوق لمساندة الرئيس بعد وقت قصير من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لم يكن بحاجة إلى كثير من الإقناع. وكذلك كانت حال الكونجرس أيضًا. فبأغلبية ساحقة وافق كلٌّ من الكونجرس ومجلس الشيوخ في أكتوبر على الاستخدام المكثَّف للقوة العسكرية ضد العراق. وقد صرَّح بوش قائلًا: «إن الأيام التي كان فيها العراق يستهزئ بإرادة العالم ويتعامل مع شعبه بوحشية، ويرهب جيرانه يجب أن تنتهي، وستنتهي. فإما أن يلتزم العراق بجميع قرارات الأمم المتحدة، ويتخلَّص من أسلحة الدمار الشامل، ويتوقف عن مساندة الإرهابيِّين، أو أننا سنجبره على ذلك.»[13]

وعلى عكس حرب الخليج الأولى، التي عارضها كثيرٌ من الأمريكيِّين ووافق عليها الكونجرس بفارق ضئيل للغاية، نالت الحرب الثانية ضد العراق دعمًا محليًّا واسع النطاق، ولكن في حين انضم المجتمع العالمي للولايات المتحدة في هزيمة صدَّام عام ١٩٩١، رفض العديد من الدول الانضمامَ إلى آخر «ائتلاف للراغبين في المشاركة» نادى به بوش. ومع أن الكويت والسعودية سمحتا على مضضٍ باستخدام صحرائهما قواعدَ انطلاق للهجوم الأمريكي، فإنه لم تسهم أي دولة عربية بجنود في القوات الغازية، ولم تشارك بفعالية في الإطاحة بصدَّام. وقد تلقَّت مساعي بوش في تكوين تحالف لطمةً أقوى عندما عارضت روسيا وعددٌ من دول غرب أوروبا، على رأسها فرنسا وألمانيا الانضمامَ إليه. فمع أن العديد من الدول الأوروبية قد انضمت إلى أمريكا في تحرير الكويت عام ١٩٩١ وفي أفغانستان بعد ذلك بعشر سنوات، فقد أبدَت الآن تحفظات قوية حول الغزو المقترح للعراق. ورفضت محاولات أمريكا تقييدَ تعاملاتها التجارية مع العراق، عن طريق العقوبات الدولية، وعبَّرت عن استيائها من سياسات بوش الاقتصادية والبيئية الأحادية. وعندما بدأت صورة انهيار برجَي مركز التجارة العالمي تخبو، استأنفت حكومتا فرنسا

وألمانيا مساعيهما القديمة لإبعاد نفسيهما عن استراتيجيات أمريكا المضادة للإرهاب في الشرق الأوسط، وللتعامل مع المنطقة على أساس مستقل دون مواجهات.

وقد تعمَّقت الانقسامات بين أوروبا والولايات المتحدة حول قضية الشرق الأوسط أكثرَ بسبب دعم بوش لإسرائيل وآرييل شارون، الذي أصبح رئيسًا للوزراء عام ٢٠٠١. ومع أن الكثيرين توقَّعوا انتقامًا فوريًّا ضد الانتحاريِّين الفلسطينيِّين، فقد انتظر شارون أكثرَ من عام، وهو يعمل على تقوية علاقاته مع بوش، قبل أن يشن هجومًا مضادًّا كبيرًا في الضفة الغربية. في ذلك الهجوم، قتلت القوات الإسرائيلية المئات من أعضاء جماعات حماس والجهاد الإسلامي وكتائب شهداء الأقصى، واعتقلت الآلاف. واحتُجِز عرفات في مركز القيادة شبه المُدمَّر في رام الله، حيث ظل حتى وفاته بعدها بعامين. وردَّ بوش على ذلك بالاعتراف بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها، وإعاقة قرارات مجلس الأمن الساعية إلى التدخل. وقد أسعدت مواقفه الموالية لإسرائيل غالبيةَ الأمريكيِّين الذين استمروا في تفضيل الدولة اليهودية، ومنهم الإنجيليون، لكنها أغضبت كثيرًا من الأوروبيِّين الغربيِّين. فبدأ أعضاء الاتحاد الأوروبي، الذين كانوا ملتزمين ببقاء السلطة الفلسطينية ومهتمين بالاستياء المتصاعد بين مواطنيهم من المسلمين، يبعدون أنفسهم عن الجبهة الإسرائيلية الأمريكية. فاتخذ بوش بعضَ الخطوات اللازمة للتخفيف من حدة هذا الغضب بأن أصبح أولَ رئيس في التاريخ يساند علانيةً تكوين دولة فلسطينية، وعن طريق عرض العمل مع الاتحاد الأوروبي على رسم «خارطة طريق» لحل هذا الصراع. ولكن ذلك لم يُرضِ الأوروبيِّين. فقد احتشد المتظاهرون في شوارع بروكسل وأنتويرب وباريس، حاملين لافتاتٍ تحمل صور بوش وشارون وتنتقدهما بأنهما «محور الشر» وتشبِّههما بهتلر.

وباقتراب موعد التصويت في مجلس الأمن على حرب العراق في فبراير٢٠٠٣، كان باستطاعة بوش الاعتماد على بريطانيا العظمى فقط لمساندة خطته لغزو العراق. وفي محاولةٍ أخيرة لحشد الدعم الدولي لهذا القرار، أكَّد بوش التهديدَ الذي تمثله أسلحة العراق البيولوجية والكيماوية. وقال وزير الخارجية كولين باول في عرض متعدِّد الوسائط أمام المجلس: «إنَّ تَرْك صدَّام حسين يمتلك أسلحةَ الدمار الشامل بضعة أشهر أو سنواتٍ أخرى ليس خيارًا مطروحًا، ليس في عالَم ما بعد ١١ سبتمبر.» وقدَّم وزير الخارجية شرائطَ لبثٍّ تم اعتراضه، وصورًا بالأقمار الصناعية، من المفترض أنها تثبت بالوثائق وجودَ أسلحة دمار شامل في العراق. وادَّعى باول أن صدَّام قد تعاون مع تنظيم القاعدة، وتآمر للحصول على قنابل نووية.

ومع ذلك ظل مجلس الأمن متشككًا. فلم يكن السؤال ما إذا كان صدَّام يمتلك أسلحة دمار شامل أم لا، فحتى هانز بليكس، كبير مفتشي الأمم المتحدة، كان يؤمن بأنه يمتلكها، ولكن ما إذا كانت المراقبة الدولية والعقوبات تَحُدُّ من هذا التهديد بفعالية أم لا. وقد اتفق غالبية أعضاء مجلس الأمن مع بليكس في أن الإجراءات الحالية تحقق نجاحًا، وأن الحرب ليست ضرورية ولا مطلوبة. ولكن بوش الذي شعر بالحيرة قرَّر المضي قُدمًا في خطته، بصرف النظر عن موقف الأمم المتحدة، وفي ١٨ مارس أصدر إنذارًا يمنح صدَّام مهلة ٤٨ ساعة لمغادرة البلاد وإلا سيواجه غزوًا شاملًا لبلاده.

وبعدها بيومين كان ربع مليون جندي، أكثر من ٩٠٪ منهم من الأمريكيِّين، يجتاحون العراق. ونظرًا لأن تركيا منعتهم من دخول شمال العراق عبْر أراضيها، بدأت تلك القوات هجومها من الكويت، في أقصى الجنوب الشرقي. وحطَّم جنود مشاة البحرية الرقم القياسي الذي سجَّله إيتون ورجاله في الصحراء الغربية وقطعوا مسافةً تتجاوز الخمسمائة ميل في بيئة وحشية يصعُب اجتيازها لملاقاة العدوِّ. وقد اشتبكوا مع العدوِّ بلا رحمة وسحقوا قوات صدَّام المدرَّعة وأفضل فِرقه العسكرية على ما يبدو. واستولت كتيبة خاصة من مشاة البحرية، أُطلِق عليها اسم «قوة طرابلس» إحياءً لذكرى حروب البربر، على مدينة تكريت، مسقط رأس صدَّام. وفي تلك الأثناء كانت طائرات الائتلاف الحربية وصواريخ جوالة تكرِّر قصف عام ١٩٩١ المكثَّف على بغداد ومواقع استراتيجية أخرى، في هجوم مكثَّف اسمه الكودي «الصدمة والرعب». ولمعت شاشات التليفزيون حول العالم مرةً أخرى باللون المائل للخضرة المميز للأسلحة العراقية المضادة للطائرات وهي تنير السماء في الليل بلا جدوى. ولكن الصور المرعبة لمصافي النفط المشتعلة والمياه الملوَّثة باللون الأسود لم تتكرَّر، بسبب الوحدات الأمريكية والبريطانية السريعة التحرك التي استولت على حقول النفط ومعامل التكرير العراقية. وقد أمَّنت فرقٌ أخرى الجسور والمطارات الاستراتيجية، مما سهَّل تقدم القوات البرية.

تحقَّق النصر سريعًا، وإن لم يكن بنفس السهولة وعدم المقاومة التي شهدتهما حرب الخليج الأولى. فكانت العواصف الرملية العنيفة تضرب صفوفَ قوات التحالف والقناصة العراقيِّين يصطادونهم وهم يتقدمون ببطء في مدن النجف والكوفة والناصرية. ولكن لا الرمال ولا سيل الرصاصات وقذائف الأر بي جي كانت لتبطئ الهجوم الشرس. وفي حين استمر وزير الإعلام العراقي المثير للضحك محمد سعيد الصحاف، الذي تعرِّفه الصحافة باسم «بوب بغداد»، في الإصرار على أن الأمريكيِّين كانوا «حياتٍ تسعى في الصحراء» وأنه

«لا وجود للكافرين في المدينة»، كان الغزاة يلتقون في العاصمة. وفي التاسع من أبريل التفَّ العراقيون حول العرِّيف البحري إدوارد تشين، وهو يلف سلكًا من الصلب حول تمثال صدَّام حسين الذي لفَّه بالعلم أمريكي. لقد احتفل الأمريكيون في نهاية القرن التاسع عشر بتفوقهم بأن نصبوا مسلةً فرعونية في سنترال بارك، وأعلنوا عن مبادئهم ببناء تمثال ضخم يحمل شعلة مضيئة، كان في الأصل سيقام في مدينة السويس، في جزيرة بيدلو. لكنهم الآن، في بداية القرن الحادي والعشرين، يتباهون بقوَّتهم ويعلنون عن مُثُلهم عن طريق الإطاحة بتمثال صدَّام في العراق. وثبَّت تشين السلك بكلَّاب في دبابته من طراز إم ٨٨، وأسقط تمثال صدَّام من قاعدته، في حين كان العراقيون يزغردون ويرقصون.

وللحظة واحدة متوهجة، بدا وكأن أمريكا قد نجحت في التوفيق بين القضايا المتناقضة في تورطها في الشرق الأوسط. فقد كان الجنود المنتصرون يجوبون الآن المدينة الأسطورية من ألف ليلة وليلة، ويستعدون لتحرير شعبٍ يتوق إلى الحرية. وبعد خيبة الأمل التي تسبَّب فيها مصدق وناصر ومبدأهما بعدم الانحياز، والسادات المستبد، وعرفات حامل السلاح، كانت أمريكا مستعدة لتحقيق حُلمها بقيادة علمانية للشرق الأوسط، ملتزمة بالديمقراطية ونبذ العنف، وموالية للغرب. ولأول مرة أصبحت رؤية سلام أمريكي يشعُّ من العراق وينير المنطقة بأسرِها، تبدو وشيكة. وهبط بوش، من فوق متن طائرة من طراز فايكينج على ظهر السفينة «إبراهام لينكولن» وكأنه منقذ اللحظات الأخيرة الذي يظهر في المسرحيات، في أول مايو، على ظهر السفينة «أبراهام لينكولن» معلنًا نهايةَ عملية الحرية العراقية.

وفي الحقيقة، كانت المعركة الحقيقية قد بدأت لتوها. فما إن حُرِّرت بغداد حتى بدأ اللصوص في نهب وسرقة مبانيها، وانهارت خدماتها الحيوية، كالمياه والكهرباء والرعاية الصحية. ومع أن صدَّام قد اعْتُقِل وقُتل نجلاه سيئا السُّمعة قصي وعدي، تصاعدت المقاومة ضد المحتلين. وانضم آلاف من جنود الجيش العراقي السابق، الذين سُرِّحوا في ظل سياسةٍ غير حكيمة للتخلص من حزب البعث، إلى صفوف المتمردين، في حين كانت القوات الأمريكية تصارع من أجل حفظ النظام في دولةٍ مساحتها ضِعف مساحة أيداهو، وعدد سكانها يصل إلى ٢٦ مليونًا. ويوميًّا وبهجمات أكثر فتكًا، كانت القوات الأمريكية تُقذف بقنابل يدوية الصنع، وتُنصب لها كمائن في الشوارع. واختُطف عدد كبير من المدنيِّين الأمريكيِّين، كثيرٌ منهم من المشاركين في إعادة إعمار العراق، وتم تصويرهم والإسلاميون يحملون الخناجر ويقطعون بها رءوسهم. وساءت العلاقات بين

الإدارة الأمريكية والمعارضة العراقية، فحوَّل أحمد الجلبي ولاءه إلى السيد علي حسيني السيستاني، القائد الشيعي في العراق. ورغم البحث المكثَّف في سائر أنحاء البلاد، لم يُعثر على دليل واحد دامغ على وجود أسلحة دمار شامل.

ومع ذلك، فقد نتج عن تدخل أمريكا في العراق عدة نتائج إيجابية، بعضها في غاية الأهمية. ففي تحدٍّ للتهديدات بالقتل من قِبل المتمردين، نجح الشعب العراقي في وضع دستور وإجراء انتخابات حرة. وقام معمر القذافي، الذي طالما كان مصدر إزعاج لرؤساء أمريكيِّين متتالين، من تلقاء نفسه بوقف أبحاث بلاده في مجال الأسلحة النووية وسعى إلى تجديد علاقاته بالولايات المتحدة. وبفضل النموذج العراقي، اجتاحت موجة من الديمقراطية سائرَ أنحاء الشرق الأوسط، في مصر والسعودية، حيث بدأت الجماعات المعارضة في الظهور، وفي لبنان، الذي نجح أخيرًا في التحرر من الاحتلال السوري المباشر. وقال بوش، وهو يثني على هذه الإنجازات: «إننا نؤمن أن الحرية يمكنها أن تطوِّر وتغيِّر حياة الكثيرين في الشرق الأوسط الأكبر. فمتى مُنح الناس خيارًا في هذا الشأن، فإنهم يفضِّلون حياةَ الحرية على حياة الخوف.»

وسرعان ما سحقت الحكومتان المصرية والسعودية هذه الحركات الديمقراطية، كما ظل لبنان تحت السيطرة السورية بصورةٍ غير مباشرة. وحصلت الأحزاب الإسلامية المتطرفة مثل حماس، التي سيطرت على الانتخابات الفلسطينية الديمقراطية عام ٢٠٠٦، على شعبية جارفة في سائر المنطقة على حساب الحركات العلمانية المحدثة. وتخلَّت ليبيا عن برنامجها النووي، ولكن إيران بادرت ببرنامج نووي أكبر وأقوى في دفاعاته وأكثر تهديدًا للمنطقة. وكان العراقيون قد اتحدوا تحت دستور وطني وقيادة واحدة، ولكن سرعان ما وقعت البلاد ضحيةً لصراعات دموية طائفية بين الشيعة والسُّنة، ثم بين الشيعة والسُّنة والأكراد. وفجأة، بالإضافة إلى نشر الديمقراطية، وجدت الولايات المتحدة نفسها متورطة في مهمة أصعبَ بكثير، هي إقامة دولة في الشرق الأوسط. فالقوات الأمريكية التي جاءت للإطاحة بديكتاتور كانت الآن تجاهد لتوحيد هذا الشعب، متحدِّين الشظايا وهم يشقون طريقَهم بين بقايا المساجد والأسواق التي دمَّرها القصف.

أكَّد أحد كتيبات وزارة الحربية الصادر أثناء الحرب العالمية الثانية للجنود الأمريكيِّين المتمركزين في العراق: «إنكم لا تخوضون الحرب لتغيير العراقيين. بل بالعكس. إننا نخوض هذه الحرب للحفاظ على مبدأ عِشْ ودَعِ الآخرين يعيشون.» وتضمَّن الكتيب القائمةَ المعتادة من المسموحات والمحظورات: «ابتعِد عن المساجد، وتجنَّب أيَّ مناقشات

سياسية أو دينية، لا تشرب الخمر أو تأكل لحم الخنزير، لا تضرب عراقيًّا أبدًا، ولا تقترب من امرأة مسلمة أو تحاول لفتَ انتباهها.» وبعد ذلك بستين عامًا، كانت المهمة التي كُلف بها رجال الجيش الأمريكي ونساؤه قد اختلفت تمامًا، ولكن التحذيرات ظلت متشابهة إلى حدٍّ كبير. فقد نصحتهم «البطاقة الذكية للثقافة العراقية»، التي صدرت للقوات الأمريكية في العراق «بالمصافحة باليد اليمنى فقط، وعدم تقديم خمور أو لحم خنزير لأي مسلم، وعدم الدخول في مناقشات دينية». ولكن على عكس منشور الحرب العالمية الثانية، منحت البطاقة الذكية أيضًا تفاصيلَ عن الطوائف العديدة المتناحرة في العراق، وتضمَّنت نصائحَ منقذة للحياة حول كيفية التفرقة بينها. ولكن حتى هذه المعلومات أثبتت أنها غير مناسبة عند التفاوض حول حقول الألغام العرقية في العراق وفي الحفاظ على حياة الأمريكيِّين. وقدَّم براين تيرنر، وهو شاعرٌ خدم بصفةِ ضابطٍ مشاة في العراق، دليلًا إرشاديًّا أكثرَ عملية، فكتب شعرًا يقول فيه:

إذا سمعتَ بعد ظهر الخميس طلقاتٍ
فيمكن أن يكون حفلَ زفاف أو تكون أنت المراد،
إن شاء الله تعني إذا أراد،
فأنصِت جيدًا إذا قيلت هذي الكلمات،
ستسمع صوت قذيفةٍ تتجه نحوك،
لكنك لن تسمعَ صوت القنبلة،
فالقنابل تحت المعابر،
وفي أكوام القمامة والحجارة والسيارات ...
الرجال المرتَدُون ستراتٍ محمَّلة بالمتفجرات
يتجهون إليك يلوِّحون ويقولون إن شاء الله،
هناك رجالٌ يتقاضون ثمانين دولارًا
كي يهاجموك، وكي يقتلوك خمسة آلاف دولار،
والصِّغار الذين يلعبون معك
أو الشيوخ الذين يتحدَّثون معك، والنساء اللاتي يعرضن عليك الشاي،
أي واحد من هؤلاء
قد يرقص غدًا على جثتك.

وقد كافحت القوات الأمريكية للحفاظ على وحدة العراق، في حين كان إجماع الآراء على الحرب في أمريكا يتقلَّص بسرعة. وتزايدت المعارضة للحرب بسبب تصاعد الخسائر بين الجنود الأمريكيِّين، وأيضًا بسبب الأدلة على المذابح التي تعرَّض لها المدنيون العراقيون على يد القوات الأمريكية، وبسبب الانتهاكات التي تعرَّض لها السجناء العراقيون في سجن أبو غريب. ونقَّاد الرئيس اتهموه بالمبالغة، بل وحتى تزوير الأدلة على امتلاك صدَّام أسلحةَ دمار شامل، وبانتهاك الحريات المدنية تحت شعار الأمن القومي. وردًّا على ذلك، احتشد مؤيدو بوش للتأكيد على أن أمريكا تحقِّق انتصارات في الحرب بالفعل، وأن الجيش العراقي قد أُعيد تكوينه بالفعل، وأن موجة التمرُّد في العراق آخذة في الانحسار. وهكذا شهدت الولايات التي عانت انقسامًا مؤلمًا من قبلُ في الحرب الأهلية، انقسامًا مرةً أخرى، ولكن هذه المرة حول تأييد الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري. وكان الانقسام تامًّا حتى إن المعلِّقين، عندما يكتبون عن العراق، يبدو أنهم يصفون بلادًا مختلفة تمامًا. فيرى فؤاد عجمي، دارس شئون الشرق الأوسط «لقد منحنا الحريةَ لمن لا يوليهم العالَم العربي اهتمامًا. لقد أسقطنا صرحًا من القوة المادية والمعنوية يعود إلى قرون ماضية.» ولكن فرانسيس فوكوياما، الفيلسوف الذي كان ينتمي إلى المحافظين الجدد فيما مضى، نعى «النبوءة الذاتية التحقيق» بأن بوش قد كوَّن في العراق بلدًا «يمكن للجهاديِّين التدرُّب فيه على أهداف أمريكية حية». وأثنى المفكر كريستوفر هيتشنز على «العراق الديمقراطي الفيدرالي» الذي «بإمكانه أن يكسر الاحتكار الثنائي السعودي والإيراني»، وأن يمنح الكرامة «لشعبٍ أفقرته ثلاثة عقود من الحرب والفاشية.» ولكن توماس فريدمان، الذي يكتب عمودًا في جريدة «نيويورك تايمز» والذي كان مناصرًا للحرب فيما مضى، ومنتقدًا عنيفًا لإدارتها، انتقد بقوة الرئيسَ بوش الذي يحرِّكه «الإيمان» لشن «حرب قائمة على الإيمان في العراق، على أساس معلومات استخباراتية قائمة على الإيمان، وخطة قائمة على الإيمان لإعادة إعمار العراق.»[14]

وكان الانقسام في الرأي العام بشأن العراق يشبه الاختلافاتِ العميقة في نظرة الشعب إلى الشرق الأوسط. وأصبحت الكليات تنقسم باستمرار بين الأساتذة الذين لا يزالون يُحمِّلون أمريكا مسئوليةَ مشكلات الشرق الأوسط، وبين الذين يهاجمون الجامعات بسبب صقل صورة تهديد الإسلاميِّين. وفي الوقت نفسه، استمرَّت صناعة السينما في النضال حول أفضل طريقة لتصوير الشرق الأوسط وسكانه. فيصوِّر فيلم «ميونيخ» الذي أُنتج عام ٢٠٠٦ بعضَ الإرهابيِّين الفلسطينيِّين على أنهم فصحاء وودودون، في حين

أن فيلم «الاتحاد ٩٣» الذي أُنتج في العام نفسه، يُظهِر المختطفين التابعين لتنظيم القاعدة قتلةً دمويِّين للغاية. ويَظهر في فيلم «سيريانا» (٢٠٠٥) العربُ طيبين وأشرارًا، وأيضًا انتحاريون وأمريكيون متفائلون، لكن الفيلم في النهاية يلقي باللوم في مشكلات الشرق الأوسط على شركات النفط الجشِعة، والقتلة من وكالة الاستخبارات المركزية. ومع ذلك استمرَّت الأساطير القديمة، حتى في سنواتِ ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. فيحكي فيلم «هيدالجو» (٢٠٠٤) قصةَ فرانك هوبكنز (الذي أدَّى دوره فيجو مورتنسن)، الذي يعمل في خدمة بريد الخيول السريع بوني إكسبريس والذي كان حزينًا للغاية على اختفاء الغرب القديم، حيث يجد حدودًا جديدة غير ملوَّثة في الواحات والكثبان الرملية والمخيمات التي تشبه الأحلام في الجزيرة العربية.

والجدال حول الطبيعة الحقيقية للشرق الأوسط وعلاقته بالولايات المتحدة مستمر ولا يظهر أي علامات على أنه ينحسر. فالشعب الأمريكي، الذي سعى دومًا لتحويل المنطقة إلى مرآة للولايات المتحدة، يمكنه اليوم أن يرى انعكاسه في وجه العراق الممزَّق. ومن المحتمل أن يزداد ذلك التمزُّق. فأمامنا تلوح احتمالاتٌ كثيرة لصِدامات واسعة النطاق مع إيران ومع كثير من الجماعات الإسلامية المتطرفة. وقد يجد الأمريكيون أنفسهم يتورطون مرةً أخرى في اندلاعٍ لأعمال العنف بين العرب والإسرائيليِّين. والنفط، مصدر الطاقة الذي لا يزال على العالم أن يبحث عن بديل له، والذي يصبح أقلَّ وأغلى كل عام، قد يستمر في إشعال نيران هوجاء تلتهم الثروة الأمريكية وقوَّتها البشرية. ومع أن الجدل المحلي حول العراق قد تحوَّل من مناقشة النصر في مقابل الهزيمة إلى الانسحاب الفوري في مقابل الانسحاب التدريجي؛ فمن المتوقَّع أن تظل القوات الأمريكية في العراق طوال عام ٢٠٠٨ على الأقل. فإذا حدث هذا، فستكون الولايات المتحدة قد أكملت ثلاثة عقود من صِدامات مستمرة في الشرق الأوسط، ولكن نهاية حرب الثلاثين عامًا قد تكون مجرد إعلان على اندلاع صراعات أخرى، قد تكون أكثرَ تدميرًا، وتستمر وقتًا طويلًا في القرن الحادي والعشرين.

ورغم هذه الكوارث، فمن المتوقَّع أن تستمر الولايات المتحدة في اتباع الأساليب التقليدية لعلاقتها بالشرق الأوسط. فسيستمر واضعو السياسات في رسالتهم المدنية وسطاءَ ومحرِّرين للمنطقة، وسيسعون إلى تحقيق سلام أمريكي. وستظل الكنائس الأمريكية والجماعات التبشيرية تسعى إلى إنقاذ المنطقة روحيًّا. ولن يفتقر منتجو الأفلام عن الشرق الغامض الخطير إلى جمهور. فالموضوعات التي نشأت على مدارِ أكثرَ من

قرنين من احتكاك أمريكا بالشرق الأوسط ستستمر في تمييز تلك العلاقات، وتربط بينها وتحرِّكها أجيالًا قادمة.

الخاتمة

بالغ الامتنان والتقدير

اتباعًا للتقليد الذي أرساه جون ليديارد وقت استقلال أمريكا، غادر ناثانيال فيك كليةَ دارتموث متجهًا إلى الشرق الأوسط. كان فيك يشبه ليديارد في مظهره، فكان طويلًا عريض المنكبين وأشقر، وكان له كذلك نصيب من ثقته بنفسه وقوَّته ومزاجه الهادئ. وعلى عكس ليديارد، فإن فيك لم يهرُب من دارتموث، بل كان في الواقع قد تخرَّج بمرتبة الشرف. ولم يغادر في قارب صغير مبحرًا في نهر كونكتكت، ولكن في حافلة متجهة إلى كوانتيكو بفرجينيا. وكان أيضًا ينضم إلى مشاة البحرية في جيش الولايات المتحدة، ولكن ليست مشاة البحرية الملكية مثل ليديارد. وبعد ٢٢٥ عامًا تقريبًا من وصول ليديارد إلى مصر، اتجه ناثانيال فيك إلى العراق.

يسترجع فيك انطباعاته الأولى عن المنطقة، التي شبَّهها «بقاعة من المرايا»، قائلًا: «كنت تائهًا تمامًا وأشعر بالضياع.» وبصفته قائدَ فصيلة عمليات خاصة، عبَر الكابتن فيك إلى الحدود الكويتية وهو يقود سيارة هامفي عليها مدفع رشاش من عيار خمسين، في ٢٠ مارس ٢٠٠٣، في طليعة الفرقة الأولى البحرية، لاستطلاع الدفاعات العراقية. وتساءل: «كيف يمكنك أن تدرك أين أنت عندما لا تستطيع قراءةَ حتى لافتات الشوارع؟» وكان هذا الشاب البالغ ستة وعشرين عامًا والقادم من بالتيمور يشاهد كبارَ السن في القرية وهم يضربون الأرض بأرجلهم ويبصقون، فقط ليخبره مترجمٌ محليٌّ أن الأهالي ممتنون للأمريكيِّين وسعداء بتحريرهم من صدَّام حسين.

وفي الواقع، كان الكثير من العراقيِّين ممتنين بالفعل لأمريكا في عام ٢٠٠٣ واحتفلوا بتقدم الأمريكيِّين. وقال أحد رجال فيك: «أعتقد أن هذا هو نفس الشعور الذي ساد في فرنسا عام ١٩٤٤». حتى إن أحد رعاة الأغنام عرض على رجال مشاة البحرية معزاةً هديةً. ولكن عندما بلغوا الناصرية توقف هذا التَّرحاب، حيث واجه الأمريكيون مقاومةً عنيفة، وكذلك في المدن خارج بغداد، فقد دخلوا كلًّا منها بقوة السلاح. وفيما بعد، وبعد سقوط العاصمة، أصبح فيك ورجاله أهدافًا لقذائف صاروخية وعبوات يدوية متفجِّرة، وهي العلامات التي تميز هجمات المتمردين العراقيِّين. ويتذكر فيك بحزن: «وأصبح لقب حاج، وهو لقب يدل على الاحترام يُطلَق على الرجال العرب، المصطلح السيئ الذي نستخدمه للإشارة إلى كل العراقيين. كان هذا هو اللقب المكافئ لـ «آسيوي وغد» في جيلنا.» ونظرًا لازدياد ارتباكهم حول الدور العسكري في هذا الصراع، وانقسام الجبهة الداخلية حول شرعية الحرب وترنُّح العراق بين الديمقراطية والفوضى، ركَّز ناثانيال فيك وزملاؤه الذين يصل عددهم إلى ١٣٠٠٠٠ جندي على البقاء على قيد الحياة، وعلى توفير حياة أفضل للعراقيِّين كلما سنحت الفرصة.

بحماية أنفسهم من تهديدات الشرق الأوسط، وفي الوقت نفسه محاولة مساعدة الشعوب المحلية، كانت القوات الأمريكية في العراق، عمليًّا، تعيد أحداثَ التدخل الأمريكي في الماضي في المنطقة. كانت الولايات المتحدة بالكاد قد حققت استقلالها عندما بدأت دول البربر في مهاجمة تجارتها وتهديد بقائها. ولكي تصمد، كان على الدولة الناشئة أن تتحد تحت حكومة مركزية قوية، وأن تكوِّن أسطولًا بحريًّا هائلًا، وأن تشنَّ حملة خطيرة تبعُد عن شواطئها بآلاف الأميال. واستمرت السفن الحربية الأمريكية تجوب مياه الشرق الأوسط بعد انتهاء حروب البربر، لتمكِّن التجار من تبادل خمور نيو إنجلاند وبضائعها المصنعة مقابل الأفيون والسجاد والتين. ووصلت الأناجيل أيضًا إلى الشرق الأوسط مع طابور طويل من المبشِّرين. ومع أن هدفهم الأساسي كان تحويل الشعوب المحلية إلى المسيحية وإعادة فلسطين إلى اليهود، فقد بنى هؤلاء المبشِّرون المدارس وطبعوا الكتب بهدف نشر التعليم على النمط الغربي بين تلاميذهم. وفيما بعدُ أسَّست تلك البعثات التبشيرية أول جامعات بالمنطقة، وقدمت مفاهيم الديمقراطية والقومية على النمط الأمريكي.

وبالإضافة إلى السعي وراء الأمن القومي والفرص الاقتصادية والمثوبة الروحية، أبحر الأمريكيون إلى الشرق الأوسط بحثًا عن المغامرة. فمنذ الأيام الأولى للجمهورية، كان

ساكنو المستعمرات السابقة قد بدءوا في استكشاف هذا العالم الخيالي، وأغرتهم على ذلك إشاعات عن الشهوات فيه فانجذبوا إلى مخاطره الغامضة. تلك الطليعة الرائدة القليلة وأولئك المغامرون سرعان ما أفسحوا الطريق لأفواجٍ من السائحين ولصوص الآثار. وقامت جماعات أخرى، بدافع مزيج من التهور والتديُّن، بتأسيس مستعمرات في الأرض المقدسة، وأبحروا في نهر الأردن، وكانوا روادًا في علم الآثار الدينية القديمة التي وردت في الإنجيل. وعندما عادوا إلى بلادهم، كتب الأمريكيون قصائد شعر وكتب رحلات عن تجاربهم، وأسسوا جماعةً أخوية لمرتدي الطربوش، وحركة لحماية البيئة، وسلاح الهجَّانة بالجيش. وبعد أقلَّ من قرن من وصول أول مواطن أمريكي بعد استقلال الولايات المتحدة إلى مياه نهر النيل، كان الأمريكيون قد اقتحموا فعليًّا كل شبر في المنطقة، وملئوها ببعثاتهم الدبلوماسية.

ولكن في ذلك الوقت، وعندما بدأت الروابط بين أمريكا والشرق الأوسط تترسخ، بدأ الاتحاد في التفكك. وقد كان للحرب الأهلية التي أنقذت الجمهورية في النهاية أثر بعيد المدى على سياسات الشرق الأوسط. فعاد الأعداء السابقون من الشمال والجنوب للاتحاد مرة أخرى ليجعلوا الجيش المصري باعثًا على التحديث وليكون طليعة حركة وطنية. وفي تلك الأثناء كانت تقلبات سوق القطن نتيجةً للحرب قد تسبَّبت في تحولات جذرية في الاقتصاد المصري، مما أدى إلى الاحتلال البريطاني للبلاد، وأسرع بغزو أوروبا للمنطقة. وكان التحوُّل الصناعي الذي حفزته الحرب قد مكَّن الولايات المتحدة من الحصول على مكانة قوة عالمية في الشرق الأوسط. أما مواطنوها، فمع أنهم كانوا قد فقدوا براءتهم بسبب أهوال الحرب، فقد ظلت بداخلهم رغبتهم الجامحة في تسلُّق الأهرامات والخوض في البحر الميت. ولكن في حين كانت بلادهم تتمتَّع بميلاد جديد للحرية، كانت الأرض بين المحيط الأطلنطي وقناة السويس ترزح تحت الحكم الأجنبي. وظهر تمثال الحرية، الذي لم يتمكَّن المصريون المفلسون من توفير نفقات بنائه، في ميناء نيويورك، بوابة الحرية التي لم يكن في مقدور جميع شعوب الشرق الأوسط إلا أن تتوق إليها.

كانت أمريكا قبل الحرب الأهلية قد واجهت معضلاتٍ في الشرق الأوسط، على سبيل المثال ما إذا كانت ستساند نضال اليونانيِّين المشروع ضد الاحتلال العثماني، أو السعي وراء مصالح اقتصادية مع الباب العالي، وزادت هذه المآزق في العصر الاستعماري. فهل يجب على الولايات المتحدة أن تقف إلى جانب ضحايا الاستعمار الذي حاربته هي من قبل، أم تنضم إلى حاملي شعلة الحضارة المنيرة ضد الإسلام الذي يُزعم أنه جامد؟ وقد تعاطف

معظم الأمريكيِّين مع مستعمري المنطقة واستحسنوا أداء رؤسائهم الذين أقاموا علاقاتهم الدبلوماسية بالسفن الحربية. ولكن أقلية منهم فقط ندَّدت باستخدام القوة العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط وعملت على استقلال شعوب المنطقة. وسعى آخرون لسيادة شعوب معينة في بلدان محددة، سواء كان اليهود في فلسطين أو العرب في سوريا وبلاد بين النهرين. ولكنَّ الأمريكيِّين كانوا بصفة عامة راضين بترك هذه الأمور لكنيستهم أو صحفهم، في حين كانوا يُظهِرون الانبهار بمواكب الفرس والمعارض المصرية «الأصيلة». ولكن سرعان ما انهار الانبهار بأحلام اليقظة أمام واقعِ الشرق الأوسط الكئيب. فقد مهَّدت جثث مئات الآلاف من الأرمن الطريقَ لمذابحَ أبشعَ في المنطقة، ومعضلات أمريكية أكثر حدة.

وعندما اشترك الأمريكيون في الحرب العالمية الأولى، تعيَّن عليهم أن يقرِّروا هل يبدءون الحرب ضد الأتراك أم يظلون محايدين في الصراع القاتل من أجل الشرق الأوسط. ولم يَعُد الأمر مسألةَ أخلاق في مقابل المصالح، بل مسألة أيهما أكثر أخلاقية: هزيمة إمبراطورية تمارس الإبادةَ الجماعية أم حماية المؤسسات التي كوَّنتها الجمعيات الخيرية الأمريكية طوال ما يقرُب من مائة عام. وفي النهاية أثبت التأثير المتراكم للمبشِّرين الأمريكيِّين ومؤيديهم على مدار ذلك القرن أنه أمرٌ حاسم. فلم ترسل الولايات المتحدة قط جيشًا إلى الشرق الأوسط، متنازلة عن ميزة كبيرة لفرنسا وبريطانيا، اللتين أرسلتا جيوشهما. ونتيجة لذلك فشل القادة الأمريكيون في أي محاولة لضمان حق تقرير المصير لشعوب الشرق الأوسط، إذا كان ذلك ممكنًا بالفعل، وبدلًا من ذلك دعموا نظام الانتداب الذي كان في حقيقته يجعل الحكم الأوروبي دائمًا. ومع أن عددًا كبيرًا من الأمريكيِّين حقَّق أحلامه بوضع أسس وطن لليهود في فلسطين، فلم تتحقَّق رغبة الكثيرين في منح الحقوق الوطنية للعرب.

وبسبب فزع الأمريكيِّين من ويلات الحرب العالمية الأولى ومساوئ تسويةِ ما بعد الحرب، أحجم الأمريكيون عن أي تدخُّل آخر في شئون العالم، خاصة في الشرق الأوسط. فبالنسبة إلى الغالبية العظمى من الأمريكيِّين كانت المنطقة تتقلص باستمرار لتكون فقط الصور الرومانسية التي ترسمها هوليوود أو الأغاني المتنوِّعة الفاسقة التي حلَّت محل الكتب لتكون المصدر الرئيسي للخرافات عن الشرق الأوسط. ومع ذلك ظلت قطاعات بارزة من المجتمع الأمريكي ترتبط بعلاقات قوية بالمنطقة. فقد احتشد البعض لدعم المشروع الصهيوني في فلسطين، ولزحزحة الحكومة الأمريكية عن موقفها الحيادي في

الصراع الدائر في تلك المنطقة. وأسَّست مجموعات أصغر، ولكن أكثر تأثيرًا، من المبشِّرين والمغامرين ورجال الأعمال علاقاتٍ تاريخية مع القبيلة السعودية في شبه الجزيرة العربية، واحتكروا ثروتها الثمينة الوحيدة الموجودة تحت الأرض.

وبحلول عام ١٩٣٩، أصبح النفط العربي مكوِّنًا مهمًّا للاقتصاد الأمريكي، ولكن الولايات المتحدة كانت لا تزال تمتنع عن أي تدخل دبلوماسي، فضلًا عن تدخل عسكري، في المنطقة. واستمرت هذه السياسة حتى بعد نشوب الحرب العالمية الثانية والهجوم الياباني على بيرل هاربر. ولم تحرِّك أمريكا ساكنًا حتى الغزو الألماني لكثير من دول حوض البحر المتوسط وتقدُّم دول المحور نحو قناة السويس. وقد هزمت القوات الأمريكية، بعد هبوطها «على شواطئ طرابلس» مرة أخرى، العدوَّ وانتشرت في أرض المعركة حتى وصلت إلى إيران شرقًا. وعلى عكس تقهقرها إلى حالة من العزلة بعد الحرب العالمية الأولى، خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية لتكون القوة المهيمنة على الشرق الأوسط، والداعية إلى تنميته وتطويره، والمدافعة عن حريته.

ومع القوة جاءت أيضًا المسئولية. فبعد أن فشلت الولايات المتحدة في إنقاذ يهود أوروبا من النازية، تحمَّلت عبء مئات الآلاف من الناجين من الهولوكوست، الذين أصروا على إعادة الاستيطان في فلسطين. ولكن تلبية ذلك المطلب أدَّى إلى دخول أمريكا في صراع مع الانتداب البريطاني على فلسطين، الذي عارض أي هجرات إضافية إلى البلاد وتحويلها إلى دولة يهودية. ومع أن الحكومة الأمريكية كانت بحاجة إلى مساعدة بريطانيا في الدفاع عن الشرق الأوسط ضد التهديد السوفييتي، فقد كان الشعب الأمريكي يَدين بالتزام قديم أيضًا تجاه الصهيونية. وفي النهاية أخذت أمريكا صفَّ اليهود، وفي مايو ١٩٤٨ أصبحت أول دولة تعترف بدولة إسرائيل، وبذلك أسرعت عملية تقهقر بريطانيا من المنطقة، وأثارت غضب كثير من العرب الذين كانوا يكنُّون العداء والكراهية للصهيونية أكثرَ مما كانوا يخشون الشيوعية السوفييتية، مع أنهم يشعرون بالامتنان لهذه النكسة التي مُني بها الاستعمار. وأدى نشوب الحرب الباردة، وتصاعُد الصراع العربي الإسرائيلي، وزيادة اعتماد أمريكا على النفط العربي إلى ظهور المشكلات المعقَّدة. هل بإمكان الولايات المتحدة الحفاظ على دعمها لإسرائيل وتحالفها مع بريطانيا وفرنسا، مع الحفاظ في الوقت نفسه على صداقتها مع العرب؟ وكيف يمكنها أن تجمع صفوف الشرق الأوسط الصعب المراس في مواجهة السوفييت؟

ولتجنُّب هذه المشكلات، اتبعت أمريكا مؤقتًا منهجًا قويًّا في المنطقة. فقد مدَّت سياسة أحد رؤسائها، التي كانت الأولى ضمن عدة سياسات متعلقة بأمن الشرق الأوسط،

مساعدات عسكرية حيوية إلى تركيا واليونان، وصدَّت خطوات أمريكية حاسمة في الأمم المتحدة السوفييت عن شمال أفريقيا وعن النصف الشمالي. وفي حين وقفت واشنطن بجانب حلفائها الأوروبيِّين ضد الشيوعية، فقد تحالفت مع الوطنيِّين المحليِّين ضد الاستعمار. وكانت ليبيا وسوريا وإيران من بين الدول التي يعود الفضل في استقلالها بصورة رئيسية أو جزئية إلى الولايات المتحدة. ولكن المتطلَّبات المتناقضة للحرب الباردة ومناهضة الاستعمار سرعان ما أثبتت أنها غير متوافقة. فقد تحالفت الولايات المتحدة مع بريطانيا في طرد زعيم إيراني شعبي عام ١٩٥٣، ولكن بعدها بثلاث سنوات انضمت إلى السوفييت في منع بريطانيا وفرنسا وإسرائيل من الإطاحة بحاكم مصري كانت أمريكا تسعى سرًّا للإطاحة به. وضغط القادة الأمريكيون على إسرائيل للتخلي عن برنامجها النووي، لكنهم فيما بعد ساندوها باعتبارها حصنًا منيعًا في مواجهة العدوان السوفييتي. وقد جعل هذا القرار الولايات المتحدة هدفًا لحظرٍ نفطي، وهدفًا للفلسطينيِّين الذين ازداد اتجاههم نحو الإرهاب، بعد أن أصيبوا بالإحباط نتيجةً لفشل المجهودات التقليدية في هزيمة إسرائيل. وبسبب حماستها لوقف هذه العداءات، عرضت أمريكا وساطتها، مطالبةً إسرائيل بإلحاحٍ بالتخلي عن أراضٍ محتلة في مقابل وعود عربية بالسلام.

وبعد ثلاثين عامًا من هيمنة الولايات المتحدة على الشرق الأوسط، كان بإمكان الأمريكيِّين الإشارةُ إلى بعض الإنجازات التي تدعو إلى الفخر، وأيضًا إلى بعض الإخفاقات المؤلمة. فقد كوَّنوا تحالفًا وثيقًا مع إسرائيل، وتفاوضوا على اتفاقية سلام بين القاهرة والقدس. ووضعوا حدًّا للتأثير السوفييتي على العالم العربي، وتزعَّموا المناداة بحقوق الإنسان. ومع ذلك، فقد ظلَّت الولايات المتحدة في عيون كثير من شعوب المنطقة مناصرة لحكومات استبدادية قمعية، وراعية لاستيطان الإسرائيليِّين في الضفة الغربية وغزة، ومروِّجة للتبذير القائم على الثروات التي يدرُّها النفط في دول الخليج العربي. وأدَّت السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط إلى حصولها على عددٍ من جوائز نوبل، وأيضًا إلى قائمة متزايدة من الهجمات الإرهابية. وبالفعل، أصبح الهجوم وليس الشكر هو ما يتلقَّاه الأمريكيون عادةً عندما انتقلت فترة التوتر بين الغرب والشرق إلى عصرٍ من الصِّدامات المكثفة بين الغرب والإسلام المتطرف.

وبدءًا من عام ١٩٧٩، ومنذ الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران، كان الأمريكيون موضعَ هجوم بصورة متكررة من الشرق الأوسط. فكانوا يتعرضون لاختطاف طائراتهم وتفجيرها، وأُطلِقت النيران عليهم في المطارات وفي البحار، وتمزَّقت أجسادهم في

تفجير ملاهٍ أوروبية، ودُفنوا تحت الأنقاض في بيروت. وردَّت أمريكا على هذه الهجمات، فأرسلت قواتها إلى ليبيا ولبنان، ولكن بلا أي تأثير سوى زيادة جرأة الإرهابيِّين. وبسبب الارتباك الذي أصابها نتيجةً للتحوُّل من الحرب الباردة إلى الحرب المقدسة، ساندت الولايات المتحدة ديكتاتورية عراقية ضد نظام حكم ديني في إيران، وسلَّحت طهران سرًّا ضد بغداد. وساندت الإسلاميِّين المعارضين لأمريكا في صراعهم ضد السوفييت في أفغانستان وتعاونوا مع السعوديِّين الذين كانوا ينشرون التطرف الإسلامي. وساندت أمريكا في البداية غزوَ إسرائيل للبنان ثم عارضته، وندَّدت في البداية بقصف إسرائيل للمفاعل النووي العراقي ثم استطيبته، وتعاونت مع إسرائيل في مخطَّط سري لمبادلة السلاح بالرهائن، فقط لتحكم على أمريكي بعد ذلك بالسجن مدى الحياة بتهمة التجسس لمصلحة إسرائيل. وفي حين كانت الحكومة تتَّبع هذه السياسات المتقلبة، كانت نظرة العامة للشرق الأوسط تتأرجح ما بين أرض الأحلام الشرقية وبين عالَم سفلي من المختطفين والسفاحين. وظهر جدال بين الباحثين حول ما إذا كان الشرق الأوسط يمثل تهديدًا قاتلًا على الأمريكيِّين مرة أخرى، أم إن الولايات المتحدة هي السبب وراء كل المشكلات التي يعانيها الشرق الأوسط.

وبدا أن هذه الأسئلة تتلقى إجابات، وإن كانت غير وافية، بحرب أمريكا ضد طاغية لا يعرف الرحمة في العراق، وحملتها لتحرير الكويت. وفرحًا بهذا النصر، وعدت الولايات المتحدة بوضع نظام عالمي جديد يمنح الشرق الأوسط الأمن والسلام. ولكن في الحقيقة لم تحصل المنطقة لا على سلام ولا على أمان. فمع أن واضعي السياسات الأمريكيِّين عملوا بجدٍّ للتوصل إلى اتفاقيات بين الفلسطينيِّين والإسرائيليِّين، ولمواجهة الإسلاميِّين دون اللجوء إلى العنف، فقد انهارت الاتفاقيات وأدَّت إلى حمَّامات للدماء، وحصد الإرهاب مرة أخرى حياةَ المئات. وبعد أن عارض الأمريكيون مواجهةَ الخطر في منابعه وبسبب ثقتهم الزائدة بجيشهم واستمرار أوهامهم عن خرافات الشرق الأوسط، لم يكن الأمريكيون مستعدين لأكبر هجمات الجهاديِّين. ولكن بانهيار برجَي مركز التجارة العالمي، جاء انهيار الأوهام الرومانسية وانهيار تماسك الأمريكيِّين لأنفسهم أيضًا.

سقطت كابول في أيدي القوات الأمريكية، وتبِعتها بغداد والفلوجة وتكريت. ولكن يبدو أن حرارة انتصار أمريكا على طالبان الأصولية وحزب البعث العلماني جمعت صفوفَ العناصر الدينية والوطنية في العراق وحوَّلتها إلى تمرُّد عنيف. ولبَّت الولايات المتحدة رغبتها التي راودتها قرونًا طويلة في غرس الديمقراطية على النمط الأمريكي في

الشرق الأوسط، ولكن جاء معها التفكُّك السريع. فبعد أن واجهت القوات الأمريكية في البداية هجمات ميليشيا السُّنة والشيعة العاقدين العزمَ على إخراجهم من البلاد، سريعًا ما وجدت نفسها محاصرة بين نيران السُّنة والشيعة الذين يهدُفون إلى تصفية بعضهم بعضًا. وعلى المستوى الدولي، وجدت الولايات المتحدة نفسها منعزلة عن دول غرب أوروبا التي امتنعت عن الانضمام إلى التحالف ضد العراق، تمامًا كما رفضت قبل مائتي عام أن تنضم إلى تحالف ضد البربر. وكذلك انقسم الشعب الأمريكي على نفسه مختلِفًا حول مبرِّرات الحرب وأسلوب إدارتها وتضحياتها عندما ارتفع معدَّل الخسائر بين العسكريِّين والمدنيِّين. وبذلك كان الشرق الأوسط الذي ساعد على توحيد الأمريكيِّين في نهاية القرن الثامن عشر يمزِّقهم في بداية القرن الحادي والعشرين.

قال ناثانيال فيك: «ارتكبنا أخطاءً فادحة. فشلنا في وقف النهب، وفشلنا في تأمين الحدود، وحللنا الجيش العراقي.» وكان كابتن مشاة البحرية المحنَّك قد نشر لتوه كتاب «قاب قوسَين أو أدنى» الذي نال إعجاب الكثيرين، وهو مذكِّرات خبراته العسكرية، وكان يدرُس للحصول على درجات متقدِّمة في مجال إدارة الأعمال ونظم الحكم بجامعة هارفارد. وأضاف: «لقد كنا عميانًا. كنا أقوياء لكننا لم نكن أذكياء.» وقد أطلعني على آرائه حول العراق والشرق الأوسط ودور أمريكا فيه ونحن جالسون في مقهًى بالقرب من حرم جامعة كامبريدج. أما في الخارج، فكان طلبةٌ متأنقون يُهرعون إلى حضور المحاضرات، ويكافحون رياحَ شهر فبراير وهم يتشبَّثون بكُتبهم للحصول على بعض الدفء. لقد كنا بعيدين للغاية عن جسر الناصرية الذي تلهبه أشعةُ الشمس الحارقة، حيث وقع فيك ورجاله تحت وابل من نيران القناصة، وكان عليهم أن يقطعوه عَدْوًا وهم يحنون أجسادهم فوق أسلحتهم. ومع ذلك فالحرب كانت لا تزال قريبة، ليس فقط في ذاكرة فيك، بل أيضًا في المخاوف والآمال اليومية لكل الأمريكيِّين.

قال فيك ولمحةٌ ساخرة تشوب ملاحظته: «لقد ذهبت إلى أربع دول في الشرق الأوسط، ولم أستخدم جواز سفر في أيٍّ منها.» ومع أنه كان قد استبدل الزيَّ العسكري ببِزَّة رجال الأعمال الرمادية منذ زمن طويل؛ فقد عاد جنديًّا مرة أخرى عندما كان يصف المعارك المسلَّحة الضارية التي خاضتها وحدتُه، وخيبةَ الأمل التي أصيب بها بسبب أسلوب إدارة الحرب، والحزنَ الذي شعر به جرَّاء مقتل العديد من رفاقه. ومع ذلك فقد ظل فخورًا بفترة خدمته في العراق، فقال بإصرار: «لقد كنت أومن بهذه الحرب ولا أزال»، ومتفائلًا

أيضًا بالشرق الأوسط. وقال فيك إن الولايات المتحدة بإمكانها بالفعل أن تساعد على نشر الديمقراطية في المنطقة، ولكن القرار يرجع في نهاية الأمر إلى الشعوب المحلية. واقترح يقول: «بإمكانهم إما أن يسيروا في طريق العصرية أو أن يسيروا في طريق ذلك الجزء من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. فالاختيار بأيديهم.»

كان يتحدث، ولوهلة تخيَّلت أنني أستمع بالفعل إلى جون ليديارد. فقد بدت أصوات بليني فيسك، وتشارلز بوميروي ستون، وكلارا بارتون، والعدد الذي لا يُحصى من الأمريكيِّين الذين خدموا في الشرق الأوسط تتردَّد في كلماته. وذكَّرت نفسي بأن تاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط ليس كله مليئًا بالطيبة المفرِطة والإيثار. فشركات النفط الأمريكية ضخَّت مليارات البراميل من النفط العربي ليس لتحسين أحوال الشعوب المحلية، بل من أجل إثراء نفسها. وساندت الإدارات الأمريكية المتتالية الأنظمةَ القمعية التي تدفع بالمصالح الأمريكية إلى الأمام وتآمرت على الإطاحة بزعماء شعبيِّين. ورغم ما به من عيوب، فإن سجل تعاملات الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط حافلٌ بالاحترام والنوايا الطيبة. فلا توجد دولة تنافس جهودَ الولايات المتحدة في إدخال نُظم التعليم الحديث والرعاية الصحية إلى المنطقة، وفي تقديم الإعانات في حالات الطوارئ وفي تشييد البنية التحتية، وفي تحرير الدول المستعمَرة، وفي محاولة تحقيق الأمن والسلام. وإذا وازنَّا بين الجانبين، فسنجد أن الولايات المتحدة تاريخيًّا قدَّمت للمنطقة فوائدَ أكثر من أضرار، وخيرًا أكثر بكثير من شرور.

والتحدي الذي يواجه أمريكا الآن هو أن تستمر على مستوى هذا الميراث وأن تزيده. فتدخُّلها في الشرق الأوسط قد لا يكون محدودًا على شنِّ حرب ضد العراق أو التوسط في الصراع العربي الإسرائيلي. ففي المستقبل القريب، سيتعيَّن على الأمريكيِّين أن يتعاملوا مع تهديدات إيران التوسعية، ومع مخاطر الجماعات المتفرِّقة التابعة لتنظيم القاعدة. وسيتعيَّن عليهم أيضًا الوصولُ إلى أسلوب جديد للتفاهم مع الإسلام، والاستثمار في بدائل عملية للنفط. وفوق كل هذا، سيتعيَّن عليهم البدء بشجاعة في فحص وإعادة النظر في علاقتهم بالشرق الأوسط، وعلاقتهم، من خلال ذلك، بالعالم أجمع.

كان ناثانيال فيك قد شرَع في هذه الرحلة بالفعل. ولكن على عكس جون ليديارد، الذي كان ينظر إلى رحلته إلى الشرق الأوسط نظرةً رومانسية على أنها «طريق إلى المجد»، كان فيك ينظر إلى تجاربه في المنطقة على أنها طريقٌ للوصول إلى تقديرٍ أعمقَ للولايات المتحدة ومواجهة أخطائها، والاعتراف بفضائلها أيضًا. فيقول: «شعرتُ ببالغ الامتنان

والتقدير للبلد الذي نشأت فيه.» أما إقناع شعوب الشرق الأوسط بمشاركة هذا التقدير فسيتطلب استعراضًا حازمًا ولكن حكيمًا لقوة أمريكا، وتطبيقًا صارمًا ولكن متسامحًا لإيمانها. وعن طريق استخدام قوَّتها بثقة ودعم مبادئها باستمرار، قد تنجح الولايات المتحدة في تغيير رؤيتها لعلاقات سلمية ومثمرة مع الشرق الأوسط من الخيال إلى الواقع.

كلمة ختامية للطبعة الجديدة

يقول القديس أوجسطينوس إن الحاضر ما هو إلا حدُّ سكين بين الماضي والمستقبل. وقليلة هي المناطق التي يكون فيها حدُّ السكين هذا أكثرَ حدةً من الشرق الأوسط. ففي حين تتكشَّف الأحداث في أماكنَ كثيرة من أمريكا الجنوبية وأفريقيا وشرق آسيا ببطءٍ وفي بعض الأحيان بصورة غير محسوسة، فإن الأزمات في الشرق الأوسط متفشِّية وفي بعض الأحيان تكون شديدةً ومتواصلة. ومِن ثَم فإن اختتام هذا الكتاب بإضفاء طابع «الحاضر» على الشرق الأوسط أمرٌ صعب وإشكالي، بل ويمكن القول إنه من المستحيل. ففي السنوات القليلة التي تلت نشْرَ هذا الكتاب عام ٢٠٠٧ على سبيل المثال، انتشرت في الشرق الأوسط من الحروب والاضطرابات والنزاعات والتطورات ما يكفي لملء عدة مجلَّدات من الكتب.

ففي يوم ١٢ من شهر يوليو لعام ٢٠٠٦، نشِب اضطرابٌ نموذجي عن الشرق الأوسط حين نصَب مسلَّحون تابعون لحزب الله كميناً لدورية حدودية إسرائيلية فقتلوا عشرة جنود. وردَّت إسرائيل بحملة قصف أوقعت إصابات واسعة النطاق بين المدنيِّين، ثم أطلق حزب الله آلاف الصواريخ على إسرائيل. وكان القادة الأمريكيون كثيرًا ما يواجهون خياراتٍ صعبة في الشرق الأوسط — بين العثمانيِّين والمتمردين اليونانيِّين في عشرينيات القرن التاسع عشر، وفي شمال أفريقيا في بواكير أربعينيات القرن العشرين بين بريطانيا وفرنسا الفيشية. والآن كان يتعيَّن على إدارة بوش الاختيارُ بين حليفين — هما إسرائيل ولبنان — وبين دعمها لإرساء الديمقراطية في الشرق الأوسط والكفاح في مواجهة الإرهاب. في نهاية المطاف، تعيَّن على الأمم المتحدة — مدفوعةً بمدى الدمار الحاصل — فرضُ وقف لإطلاق النار وإنشاء قوة دولية للإشراف عليه. ورغم ما عاناه حزب الله من ردعٍ وما تكبَّده

من دماء، فقد كانت مناطقُ كثيرة من الشرق الأوسط تنظر إليه وإلى داعميه من السوريِّين والإيرانيِّين على أنهم منتصرون، وإلى إسرائيل المدعومة من أمريكا على أنها مذلولة.

وكانت غزَّة أيضًا مسرحًا لعنفٍ دائم وموضعًا لخيارات صعبة بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فبعد أن انتصرت حماس في الانتخابات الفلسطينية في عام ٢٠٠٦، قامت في عام ٢٠٠٧ بالإطاحة بالسلطة التي تسيطر عليها حركة فتح في القطاع. وقد تعرَّض المئات من مسئولي حركة فتح للضرب والقتل والإلقاء من فوق المباني الشاهقة. كما أطلقت حماس أيضًا آلاف الصواريخ وقذائف الهاون على إسرائيل واختطفت جنديًّا إسرائيليًّا اسمه جلعاد شاليط. بدورها ضربت إسرائيل حصارًا على غزة من البر والبحر. وتفاقم التوتر حتى شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٨، حين رفضت حماس تمديدَ وقف إطلاق النار، فاقتحمت القوات الإسرائيلية القطاعَ للمرة الثالثة منذ عام ١٩٤٨. استعرَ القتال أسابيعَ في مناطقَ ذات كثافة سكانية عالية، وزاد الاستياء الدولي ثانية. وتعيَّن على صانعي السياسات الأمريكيِّين أن يختاروا بين الوقوف في ظهر حليفتهم إسرائيل أو التماشي مع الرأي العام العالمي المنزعج. وانتهت العملية في يوم ١٨ من شهر يناير بردع حماس، مثل حزب الله من قَبلها، وتثبيط شنِّها المزيدَ من الهجمات، لكن أيضًا بتأجُّج الغضب العربي تجاه إسرائيل، وكذلك أمريكا بحكم الضرورة.

ورغم ما شهدته غزة ولبنان من عنف، فلا توجد منطقة في الشرق الأوسط شهدت من سفك الدماء — ومن تركيز انتباه أمريكا عليها — مثل ما شهد العراق. فبحلول عام ٢٠٠٦، كان العراق يشهد مقتلَ مائة عراقي بالمتوسط بمعدَّل يومي، كما تخطَّى عدد قتلى الولايات المتحدة حاجزَ الثلاثة آلاف. فأصبحت مشاهد الأسواق المقصوفة والنسوة اللائي يولولن على أشلاء أطفالهن مألوفة ومعتادة، تمامًا كما أصبح من المألوف رؤيةُ التوابيت الملفوفة بالأعلام على مدرَّجات الطائرات. بل إن شنق صدَّام حسين في نهاية عام ٢٠٠٦ أتى بنتائجَ عكسية، وهو الحدث الذي كان المقصد منه استرضاء الشعب العراقي؛ إذ قال الجلَّادون للطاغية السابق أنْ «اذهب إلى الجحيم» وهو يهوي على المشنقة.

وسرعان ما أصبحت الحرب في العراق واحدةً من أكثر القضايا إثارةً للخلاف في السياسات الأمريكية منذ حرب فيتنام؛ إذ أعادت إلى الأذهان الجدالات اللاذعة حول ما إن كان يتعيَّن على الولايات المتحدة إعلانُ الحرب على تركيا في الحرب العالمية الأولى أم لا. يصرِّح عضو الكونجرس الديموقراطي جيمس كليبرن. قائلًا: «إن النصر الذي نسعى إليه … هو

استعادةُ دور أمريكا بوصفها داعيةً للسلام، لا محرِّضةً على الحرب»، ويعبِّر السيناتور الجمهوري تشاك هيجل عن أسفه لما أسماه «اللهو بحياة الأمريكيِّين.» وقد حذَّرت لجنة دراسة العراق الثنائية الحزب التي ترأسها وزير الخارجية السابق جيمس بيكر وعضو الكونجرس السابق لي هاملتون، حذَّرت من اندلاع حرب أهلية في العراق لن تكون لها نهاية ومن امتداد إرهاب القاعدة وانتشاره إذا ما أخفقت الولايات المتحدة في حمل القادة العراقيِّين على أن يرتقَوا إلى التزاماتهم الديموقراطية والدفاعية.

في تلك الأثناء، استمر مسئولون آخرون في الدفاع عن سياسات الولايات المتحدة في العراق، لكن لم يكن أيٌّ منهم أكثر إصرارًا على ذلك من الرئيس جورج دبليو بوش. إذ قال: «يمكن للبعض أن يقولوا إن انسحابنا من فيتنام لم يكن له كلفة على صعيد المصداقية الأمريكية، لكنَّ الإرهابيِّين يرون هذا الأمر بصورة مختلفة. لا بد أن ندحرهم في الخارج لكيلا نُضطر إلى مواجهتهم في الولايات المتحدة الأمريكية.»1 وفي حين كان بوش يسلِّم بتوصيات لجنة دراسة العراق ويقرُّ بها، أمر بإرسال عشرين ألف جندي إضافي إلى العراق — ما كان يُعرف باسم الموجة. وهناك، وعن طريق المزجِ بين تكتيكات القتال داخل المدن واتباع الدبلوماسية العشائرية الحساسة، استعاد الجنود السيطرةَ على بعض أكثر قطاعات الدولة التي انتشر فيها المتمرِّدون.

كانت أمريكا قد أضعفت شوكةَ التمرد في العراق، لكن وعلى طريقة السدود الهولندية الأسطورية، طرأت صدوعٌ جديدة في أماكن أخرى. إذ برزت القاعدة نشيطةً وعادت إليها الروحُ في لبنان واليمن وأفغانستان، وحاول الإرهابيون استهدافَ فورت ديكس بنيو جيرسي، ومطار كينيدي في نيويورك. وقطعت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس رحلاتٍ مكُّوكية يتجاوز عددها خمسًا وعشرين رحلة إلى الشرق الأوسط لتساعد في إنشاء دولة فلسطينية؛ إذ بذل رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت ما اعتقدت الوزيرة أنه عرضًا سخيًّا، لكن السلطة الفلسطينية برئاسة الرئيس محمود عبَّاس رفضَته. وقد رحَّب القائد الإيراني محمود أحمدي نجاد بشعور رايس بالخيبة؛ إذ أعلن أنه يكرِّس نفسه لخلق عالَم «من دون أمريكا والصهيونية»، عالَم تحلُّ فيه «كلمة القرآن» محلَّ الليبرالية والديموقراطية. وفي الوقت نفسه، كان البرنامج النووي الإيراني يحرِز تقدُّمًا دون ضابط ولا رادع. كما سجَّلت تركيا — التي أصبحت تحت حكومةٍ ذات توجُّه إسلامي — أعلى مستويات مشاعر معاداة أمريكا في المنطقة. وقد أبرز الخبير في الشئون التركية جوشوا ووكر أن هذه الروح العدائية «لا يمكن محوها ببساطة برئيس جديد يجري تنصيبه في يناير من عام ٢٠٠٩، أو من خلال مبعوثٍ خاص للعالم الإسلامي.»

وفي ذلك الشهر كان الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما — وهو الرئيس الرابع والأربعون لأمريكا — يحلف اليمين. وباعتماده على منصة التغيير، تعهَّد أوباما بجعل إصلاح علاقات أمريكا بالشرق الأوسط حجرَ الزاوية في سياساته الخارجية. وبعد أن تعهَّد بسحب القوات الأمريكية من العراق بسرعة، أعلن أوباما يقول «حان وقت إنهاء هذه الحرب» والتركيزُ على أفغانستان. وبالمثل، وعد بإغلاق منشأة قاعدة خليج جوانتانامو البحرية، حيثما يُحتجز الكثيرون من أبناء الشرق الأوسط الذين لهم صلاتٌ بالقاعدة أو طالبان، وأن تجري محاكمتهم أمام محاكمَ مدنية — في مقابل محاكمَ عسكرية. كما شدَّد على عزمه السعيَّ نحو التوصل إلى اتفاقٍ بين فلسطين وإسرائيل، وُصف بأنَّ الافتقار إليه يمثِّل «جُرحًا لا يندمل»، ولهذا الغرض عيَّن وسيطًا خاصًّا. وحيث كان أوباما ملتزمًا بالدفاع عن المواطنين الأمريكيِّين من الهجمات التي تنطلق من الشرق الأوسط، فقد عبَّر عن إصراره على إشراك النظامين السوري والإيراني؛ سعيًا منه لإقناعهم بالعدول عن دعم الإرهاب وتطوير أسلحة دمار شامل.

وقد أبدى أوباما استعداده في خطابِ تنصيبه فقال: «[نحن] نبحث عن سبيلٍ للمضي قُدمًا؛ بناءً على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل.» وبإبرازه إلى أنه وجد الإسلام «في ثلاث قارات» وأن اسمه الأول والأوسط عربيان، شدَّد أوباما على أن أمريكا ليست في خلاف مع الإسلام أو مع المسلمين، وأنها تسعى إلى تسوية الخلافات مع خصومها في الشرق الأوسط. وأورد يقول: «سنمدُّ يدنا إن كنتم على استعدادٍ لأن تبسطوا قبضتَكم.»

ولم يتلكأ أوباما في تنفيذِ ما تعهَّد به. إذ نصَّ أوَّل قرار تنفيذي اتخذه على إغلاقِ جوانتانامو ونقلِ سجنائه إلى سجون مدنية. وفي ذلك اليوم نفسه، عيَّن الرئيس جورج ميتشل وهو زعيم الأغلبية السابق في مجلس الشيوخ ووسيط مخضرم مبعوثًا خاصًّا لعملية السلام في الشرق الأوسط. وفي أول لقاء تلفزيوني له مع شبكة العربية ومقرُّها دبي، أكَّد أوباما يقول: «الأمريكيون ليسوا أعداءكم»، وفي أولى باكورة رحلاته خارج البلاد قال للتجمُّع الوطني التركي إن «الكثير من الأمريكيِّين»، ومن بينهم هو نفسه، «لديهم مسلمون في عائلاتهم أو عاشوا من قبلُ في دولٍ أغلبيتُها من المسلمين». وفي قرارٍ آخرَ غير مسبوق، عيَّن أوباما فرح بانديث، وهي أمريكيةٌ مسلمة، أوَّل ممثل خاص للأمة للمجتمعات الإسلامية.

ظهر تواصل الرئيس مع العالم الإسلامي بأكبر شكل له في القاهرة؛ حيث ألقى في يوم ٤ من شهر يونيو لعام ٢٠٠٩ خطابًا مهمًّا بعنوان «بداية جديدة». شدَّد الخطاب

على التشابه بين المبادئ الإسلامية والأمريكية والروابط التاريخية بينهما — بما في ذلك اتفاقياتُ الحِقبة البربرية وقرآن توماس جيفرسون. وفي حين أعاد أوباما تأكيدَ دعم أمريكا لإسرائيل، والتذكيرَ بمعاناة اليهود أثناء الهولوكوست، فإنه طالب بوقف إنشاء المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، وبإيجاد حل لمعاناة الفلسطينيِّين من خلال إنشاء دولة لهم. وكان أوباما صريحًا في شجبه لـ «المتطرفين الدمويِّين» الذين نفَّذوا أحداث الحادي عشر من سبتمبر وهجمات أخرى ضد المدنيِّين الأمريكيِّين، لكنه لم يكن أقلَّ صراحةً في التفريق بين القلة المسلحة والأغلبية الساحقة المعتدِلة. إذ صرَّح يقول: «إن الإيمان الراسخ لأكثر من مليون شخص لهو أكبرُ من الكراهية الضيقة الأفق الكامنة لدى البعض». وأكمل يقول: «إن الإسلام ... يُعدُّ جزءًا مهمًّا من عملية تعزيز السلام.» قبل ذلك بقرن من الزمن، كان ثيودور روزفلت قد أثار غضبَ الجماهير المصرية بخطابه المناهض للقومية، لكن الرئيس الأمريكي الجديد أثار في نفوس مستمعيه الدفء، بل وربما مشاعر الفرح حتى.

لعِب الإيمان — الذي يمثِّل إجلالًا صريحًا للإسلام بصفة خاصة — دورًا بارزًا في رؤية أوباما لتجديد العلاقات بين أمريكا والشرق الأوسط. إلا أن أحداثًا لاحقة في المنطقة اضطرت الرئيس للجوء إلى أشكال تقليدية أكثرَ من القوة — أشكال دبلوماسية واقتصادية وعسكرية.

رغم تأييده لمطالبة أوباما بتفعيل حلِّ الدولتين في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو يقاوم إصرارَ أوباما على التجميد التام لبناء المستوطنات في الضفة الغربية والقدس الشرقية. وقد تسبَّب الإعلان عن التخطيط لإنشاء مئات الوحدات الاستيطانية في حيٍّ يهودي متنازع عليه في القدس — والذي خرج أثناء زيارة جوزيف بايدن نائب الرئيس إلى إسرائيل في شهر مارس من عام ٢٠١٠ — في توتُّر العلاقات بين الدولتين الحليفتين. ورغم أن نتنياهو وافق في نهاية المطاف على وقفٍ غير مسبوق مدَّته عشرة أشهر لبناء المستوطنات الجديدة، فقد استمر الفلسطينيون في رفض المفاوضات المباشرة. في تلك الأثناء دفعت التهديدات المتصاعدة التي تتعرض لها إسرائيل من الدول المعادية لها ووكلائها الإرهابيِّين الإدارةَ الأمريكية إلى زيادة الدعم الأمريكي للدفاعات الإسرائيلية ليصل إلى مستوياتٍ غير مسبوقة. فبالإضافة إلى إجراء المناورات العسكرية المشتركة ومشاركة المعلومات الاستخباراتية، طوَّرت المؤسسات الدفاعية الأمريكية والإسرائيلية أكثرَ أنظمة مضادات الصواريخ الباليسيتية تقدُّمًا في العالم — نظام السهم ٣ ومقلاع داود — وقد موَّلته الولايات المتحدة بدرجة كبيرة. وفي

حين كانت الإدارة الأمريكية تحثُّ نتنياهو على إعادة فتح المعابر الحدودية إلى غزة، فقد أيَّدت حقَّ إسرائيل في الإبقاء على الحصار البحري على حماس، حتى حين تواجه تحدياتٍ من الأساطيل التي أطلقها حلفاؤها.

وكان للقوة أيضًا مكانةٌ بارزة في تعاملات أمريكا مع إيران. إذ حاول المبعوثون الأمريكيون إشراكَ القادة الإيرانيِّين فقط ليدركوا أن طهران لم تكن راغبة في النظر في إيقاف برنامجها النووي — وعِلاوة على ذلك، أنشأت منشآت تخصيب سرية. وليأسهم من التوصُّل إلى تفاهم مبكِّر، قادت الإدارة الأمريكية جهودًا دولية لفرض عقوبات على إيران. وفي الوقت نفسه، قدَّم أوباما مبيعات أسلحة ضخمة للسعودية ولدول خليجية أخرى لتدعيم دفاعاتها ضد إيران، وسعى لفصل سوريا عن مدار طهران بإرسال مبعوثين رفيعي المستوى — وبإعادة السفير الأمريكي — إلى دمشق. وكان أوباما في بداية الأمر مترددًا في دعم حركة معارضة إيرانية أطلقت شراراتها انتخاباتُ شهر يونيو عام ٢٠٠٩، لكنه بعد عام واحد أثنى على المتظاهرين وأعلن عن رؤيته لليوم «الذي تمثِّل فيه الحكومة الإيرانية ... طموحات شعبها لا خوفهم.»

في تلك الأثناء، تصاعد النشاط العسكري الأمريكي في المنطقة. إذ سحب الرئيس — كما وعد — القوات الأمريكية من العراق لكنه عزَّز من وجودهم بدرجة كبيرة في أفغانستان؛ حيث تحتشد طالبان — وهم المتطرفون الذين يؤوون تنظيمَ القاعدة. كما توسَّعت أيضًا الهجمات الصاروخية المحمولة بالمسيَّرات ضد أهداف إرهابية، ليس في باكستان وحدَها ولكن أيضًا في الصومال واليمن. ورغم أنه تعهَّد بالشروع في سحب القوات الأمريكية من أفغانستان في عام ٢٠١١، فقد اعترف أوباما أن «الكفاح ضد المتطرفين الدمويِّين لن ينتهيَ سريعًا، وسيمتد ليتجاوز أفانستان.»4 وقال إن الأمريكيِّين في حاجة «لأن يستعرضوا قوَّتهم» في الشرق الأوسط لفترة قادمة لا يمكن تحديدُ مدَّتها.

كان أوباما قد بدأ يدرك ما عرفه عددٌ من سابقيه بشأن علاقات التيه التي تتَّبعها أمريكا مع الشرق الأوسط. فقد حاول مثل كينيدي أن يتواصل مع الأنظمة المعادية ويشركها معه، فقط لتلقى محاولاته الرفضَ والإعراض. وسعى مثل كينيدي إلى أن ينأى بأمريكا عن سياسات الإدارات السابقة القائمة على القوة، لكنه لم يجد بدائلَ كثيرة لإبعاد التهديدات الآتية من الشرق الأوسط. وانضم أوباما إلى صفوف الرؤساء الكُثر الذين سعَوا جاهدين لإرساء السلام بين العرب وإسرائيل، فقط ليجد موانع تحقيق هذا الهدف.

لكن أبرز التحديات التي تواجهها صناعة السياسات في أمريكا في الشرق الأوسط لم تكن في المستقبل البعيد، بل كانت في الأشهر الأولى من عام ٢٠١١. إذ تسبَّب حرقُ

مواطن تونسي لنفسه اعتراضًا على بطالته وعلى الفساد والحكم الدكتاتوري في إشعال فتيل مظاهرات شديدة في أرجاء البلد. وبينما كان نظام الدكتاتور التونسي زين العابدين بن علي يتداعى، انتشرت الثورة لتصل إلى اليمن ثم إلى مصر؛ حيث عمدَت أعدادٌ لا تُحصى من المواطنين إلى ميدان التحرير في القاهرة. وتحت أنظار الجنود المصريين الصامتين وفي ظل أسلحتهم، طالب الشعب باستقالة الرئيس حسني مبارك، الحليفِ الدائم لأمريكا الذي حكم مصر طوال ثلاثين عامًا.

لم يواجه أيُّ رئيس أمريكي معضلةً عويصة يقف فيها الإيمان في مواجهة القوة منذ الوقت الذي تعيَّن على جون كوينسي آدامز فيه أن يختار بين الانحياز إلى كفاح اليونانيِّين للاستقلال ومصالح أمريكا التجارية والعسكرية في تركيا. فهل يجب على الولايات المتحدة الالتزام بمبادئ الديمقراطية بوصفها حقًّا للجميع والتي تأسَّست عليها أم الوقوف في صف نظامٍ ساعد في إرساء الاستقرار في المنطقة رغم ما يتمتَّع به من سُمعة استبدادية؟ هل تستطيع أمريكا أن تنأى بنفسها عن مبارك في حين أنها تدعم حكامًا شرق أوسطيين آخرين كانوا بالكاد أكثر ديمقراطيةً منه، وإن كانت تجمعها بهم علاقات صداقة؟ وماذا لو تبيَّن أن القادة الذين سيُنتخبون في مصر معادون للولايات المتحدة وللسلام مع إسرائيل وللكفاح ضد التطرف الديني — هل ستستطيع واشنطن أن تحترم اختيار الشعب؟

أعلن أوباما يقول وهو يكشف عن قراره: «لقد أعلن شعب مصر كلمته. لقد وصل صوتهم ولن تكون مصر كما كانت من قبل أبدًا.» ومن ثَم دعمت الإدارة الأمريكية حكومةً مؤقتة مكلَّفة بالتحول إلى الديمقراطية. لكن حتى حين بدا أن الأزمة المصرية في طريقها إلى الحل، اندلعت أزمات أخرى — في البحرين، تلك المملكة التي تتمتَّع بأهمية استراتيجية كبيرة والتي تحالفت مع أمريكا فترةً طويلة، وفي ليبيا، التي كانت ترزح تحت طغيان القذافي طوال أربعين عامًا. وهزَّت المظاهرات الأردن والمغرب أيضًا وهدَّدت بأن تجتاح الخليج.

حتى وقت كتابة هذه السطور، يمثِّل الشرق الأوسط مرجلًا للتغيير والاضطراب. ويبدو أن السلام الأمريكي الذي تبِع الحرب العالمية الثانية والذي ركَّز على الاستقرار والوصول غير المقيَّد للنفط يترنَّح ويتداعى. إن الملايين من الناس في الشرق الأوسط يعمدون إلى الشوارع، يهاجمون أمريكا لدعمها الأنظمةَ الديكتاتورية ويبجِّلونها باعتبارها نموذجًا للحرية في آنٍ معًا. وقد سقط لبنان تحت سيطرة إيران وسوريا، وحتى تركيا التي كانت صديقة لأمريكا منذ رفرف العلم الأمريكي ذو النجوم والخطوط أولَ مرة في إسطنبول

في عام ١٧٩٣، ولَّت وجهها عن الغرب لتستعيد مكانتها التقليدية بوصفها قوةً شرقَ أوسطية مهيمنة. وفي حين تتكشَّف كل هذه الأحداث التي تغيِّر مجرى التاريخ، تستمر أجهزة الطرد المركزي الإيرانية في الدوران لإنتاج اليورانيوم المخصَّب، بما يمثِّل تحديًا للعقوبات التي تقودها أمريكا عليها. وتقول دول شرق أوسطية أخرى إنهم هم أيضًا سيسعون عما قريب إلى الحصول على قدرات نووية.

وسط كل هذا، سيستمر الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط — على الأصعدة الاستراتيجية والمالية والثقافية والقدَريَّة. قد تعود القوات الأمريكية إلى الوطن من المنطقة، لكن تحدياتها ستتبعهم، سواء في شكل إرهاب «محلي» — الأمريكيِّين الذين ينزعون إلى التطرف بفعل أئمة الشرق الأوسط — أو في شكل خوف من الإسلام تعود جذوره إلى عمر الجمهورية نفسها. لقد يئس الكثير من الأمريكيِّين من إمكانية جعل المنطقة صورةً من بلادهم، في حين ينفر آخرون من انعكاس صورتهم في مرآة الشرق الأوسط. وما زال آخرون يحلُمون بخروج رجالٍ يشبهون جورج واشنطن من الشرق الأوسط يحوِّلون المنطقة إلى عصبة من الأمم المتحدة تحت لواء الديمقراطية والتي تنعم بالحرية والكرامة.

لا شك أن الأنماط التي تميَّز بها انخراط أمريكا في الشرق الأوسط أكثر من قرنين من الزمان ستستمر وتتواصل. ستستمر القوة في كونها عنصرًا مهمًّا في ذلك التفاعل، وسيكون الإيمان — في صورتيه الدينية والديمقراطية العلمانية — هو محرِّك السياسات الأمريكية. إن التصورات عن الشرق الأوسط التي استحثَّتها «ألف ليلة وليلة» في قرائها الاستعماريين لا تزال تأسر لبَّ المعاصرين من مشاهدي «أمير فارس»، وفانتازيا ديزني التي تدور أحداثها في إيران في العصور الوسطى. قد لا يتجاوز الحاضر كونه حدَّ سكين — كما رأى القديس أوجسطينوس — خاصة في منطقة سافعة كهذه. وبينما تذهب هذه الأفكار التي أوردتُها إلى المطبعة، ربما يكون بعضها قد أصبح بائدًا بالفعل. لكن أيًّا يكن ما يحمله المستقبل — من صراعات متواصلة وأزمات ومحنٍ وربما حتى من سلام — يمكن للأمريكيِّين أن يتفكَّروا في ماضي الشرق الأوسط الذي يكون في بعض الأحيان مرشدًا ومشوقًا وحاملًا للعِبر ومشرقًا.

واشنطن العاصمة

فبراير ٢٠١١



جون ليديارد: «شخصية جديدة في العالم»، وأول مواطني الولايات المتحدة المستقلة يستكشف الشرق الأوسط.

Ratification by Messrs Adams & Jefferson included.

Now Know Ye, that we the said John Adams & Thomas Jefferson Ministers Plenipotentiary aforesaid do approve and conclude the said Treaty and every Article and Clause therein contained, reserving the same nevertheless to the United States in Congress assembled for their final Ratification.

In Testimony whereof we have signed the same with our Names and Seals, at the places of our respective Residences and at the Dates expressed under our signatures respectively.

(signed) John Adams (L.S.)
London January 25th 1787
(signed) Thos Jefferson (L.S.)
Paris January 1st 1787

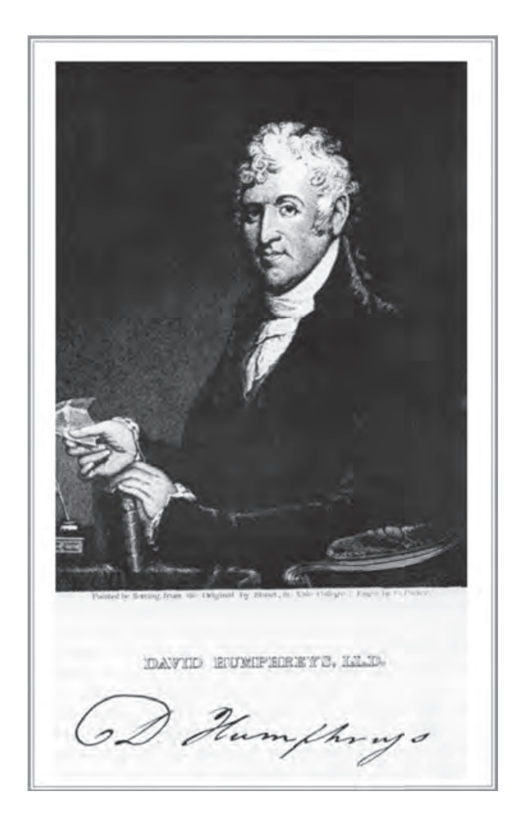
Done at Morocco the ninth day of the Month of Ramadan in the Year One thousand two hundred.

Thos Barclay

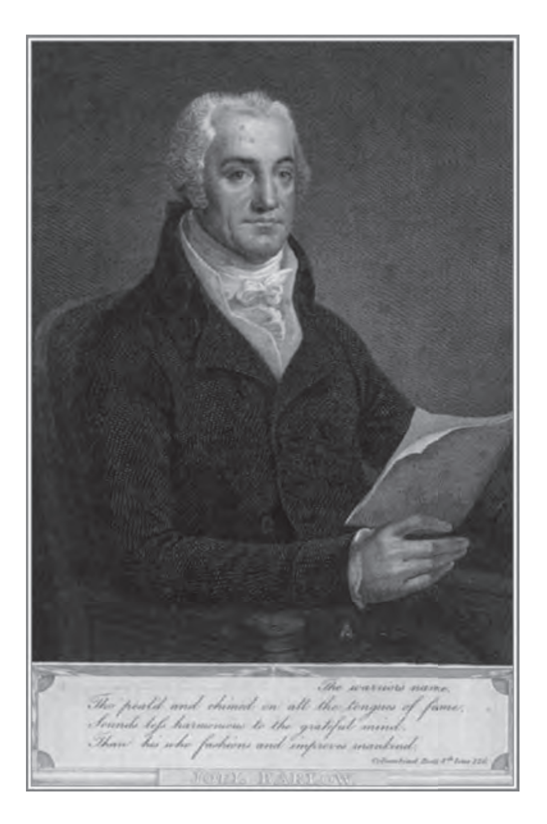
ثاني اتفاقية دولية أمريكية يوقِّعها توماس جيفرسون وجون آدامز، وتحمل الختم الإمبراطوري للمغرب بتاريخ هجري «رمضان ١٢٠٠».



جون لامب: تاجر الخيول والبغال، وأول مبعوث أمريكي إلى الشرق الأوسط، الذي كتب «أسير أمريكي» في أعقاب فشل بعثته المشئومة: «أتمنَّى ألا أرى الكابتن لامب في بلاد البربر أبدًا مرة أخرى إلا لشراء البغال والجياد.»



«يا إلهي، العصابات التي تعج بها بحارك، قد استولت على سفننا، وجعلت أحرارنا عبيدًا!»
الشاعر والدبلوماسي ديفيد همفريز الذي تفاوض بشأن الإفراج عن رهائنَ أمريكيين بالشرق الأوسط في ١٧٩٥.



جويل بارلو: المبعوث الأمريكي الخاص إلى قراصنة البربر، وقد حذَّره الداي الجزائري قائلًا: «سأكبلك بالأغلال، وأعلن الحرب.»



جون سانديز: أمين خزينة مستعمرة فرجينيا، ومن أوائل المرتزقة بالشرق الأوسط، الذي قال عن المنطقة: «أعتقد أنه لا يوجد مكانٌ كهذا في العالم يَعِد مَن يراه بالكثير، لكنه يخيِّب توقعات زائريه.»



جويل روبرتس بوانسيت: مستكشف إيران في ١٨٠٦ الذي تكهَّن بأن نفط الشرق الأوسط قد يُستخدم يومًا ما وقودًا، كما أنه مكتشف الزهرة التي تحمل اسمه.



ويليام بينبريدج: القبطان السيئ الطالع الذي أُجبر على نقل الإتاوة إلى الجزائر، والذي استولى قراصنة طرابلس على سفينته الحربية.

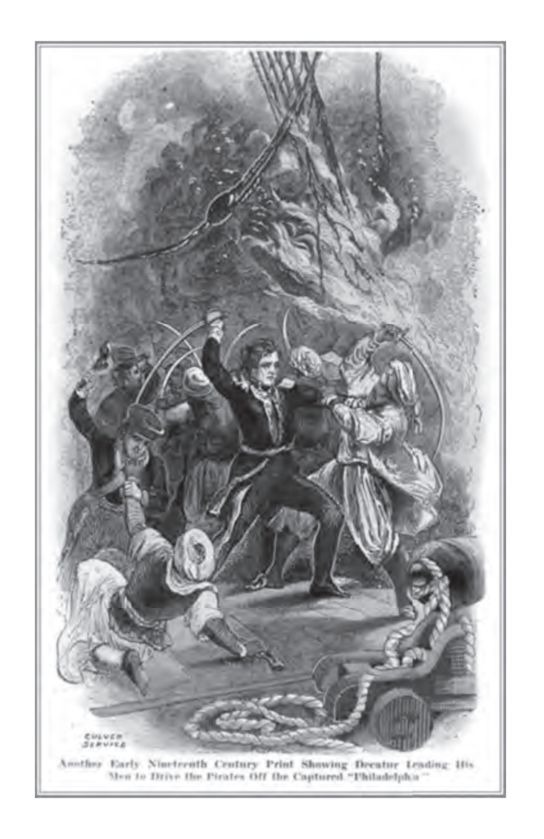




أقدم نُصب تذكاري للحرب في أمريكا، احتفاءً بالبحارة الذين ضحَّوا بحياتهم في حملة عام ١٨٠٥ ضد القراصنة البربر — مع صور رجال من الشرق الأوسط — في حرم أنابوليس التابع للأكاديمية البحرية الأمريكية.



ستيفن ديكاتور: أصغر قادة البحرية وبطل انتصار أمريكا في الشرق الأوسط في ١٨١٥ وصاحب مقولة: «وطني سواء على حق أو على باطل.»



ديكاتور في المعركة، ١٨٠٥، يدفع القراصنة بعيدًا عن سفينته فيلادلفيا.



موردخاي مانويل نوا: من أبطال الصهيونية الأوائل، والأول بين العديد من المبعوثين الأمريكان اليهود في الشرق الأوسط.



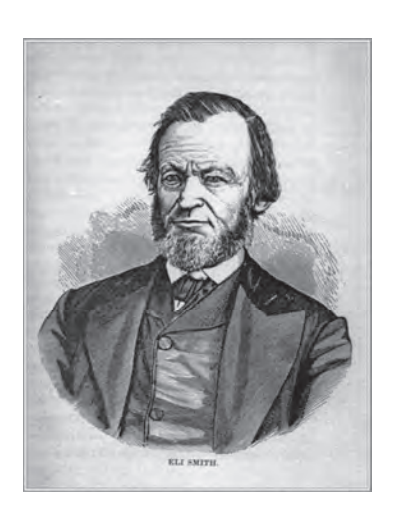
صورة لديفيد (سندباد) بورتر، رُسمت في أعقاب حروب البربر وقبل تعيينه أولَ سفير أمريكي إلى الدولة العثمانية، الذي قال بعد التقائه بالسلطان «إلقاء السلام عند الشرق أوسطيين أمرٌ يضايق بحق، لماذا لا يكتفون فقط بالتحية العادية؟»



هارييت ليفرمور: نجمة مجتمع واشنطن الداعية إلى إعادة الإحياء، التي حاولت تأسيس مستعمرة أمريكية بفلسطين في ١٨٣٧، والتي قال عنها كوينسي آدامز إنها «أكثر الخطباء الذين استمع إليهم بلاغة.»



سيروس هاملين: المبشِّر صاحب التوجه الصناعي، القادم من ماين، الذي انتقل إلى الشرق الأوسط في ١٨٤٢ وأسَّس أول جامعة حديثة بالمنطقة.



إيلي سميث: اللغوي ومبتكر الطباعة «العربية الأمريكية»، الذي أوصى بزيارات عديدة للسفن الحربية الأمريكية إلى الشرق الأوسط، قائلًا: «يجب أن يعرفوا أننا نمثِّل قوة.»



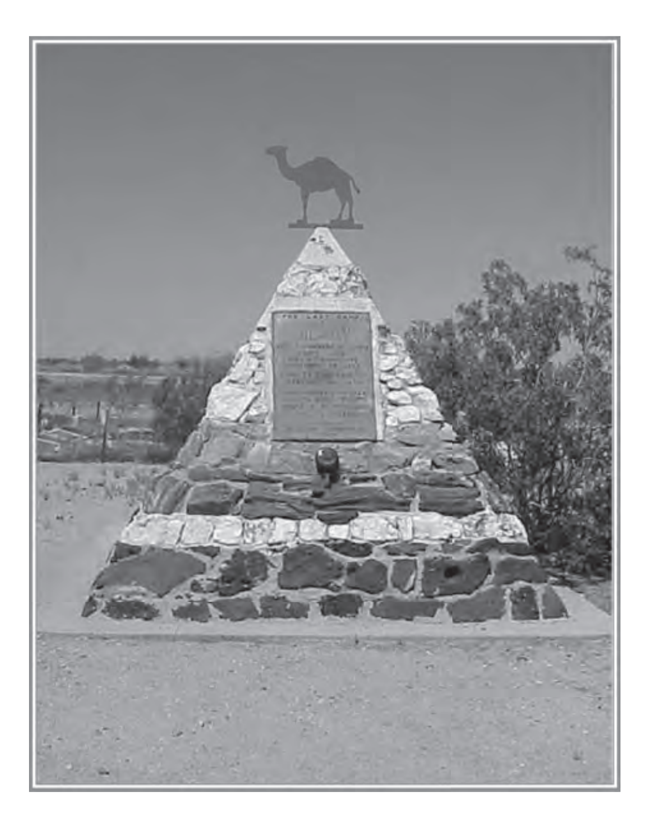
واردر كريسون: قنصل القدس الذي قال في ١٨٥٠ إنه بادل «نشارة خشب المسيحية بالجبن المعتق الأصيل الجيد»، وتحوَّل إلى اليهودية.



لدى عودته من رحلته في الشرق الأوسط عام ١٨٥٣، جاب الشاعر والمغامر بايارد تيلور أرجاء الولايات المتحدة في زيٍّ عربي وراح يُحدِّث الأمريكيِّين عن الإسلام.



جورج بيركنز مارش: الأب الأمريكي للمحافظة على البيئة، ومؤسِّس فيلق الجِمال بالجيش الأمريكي في ١٨٥٧ لتوجيه «تحيَّة إرهاب» إلى «الكومانش وغيرهم من بدو جبال روكي.»



نُصب تذكاري من الكوارتزايت بأريزونا، احتفالًا بفيلق الجِمال وقائده العربي الشهير الحاج علي، الذي أطلق الأمريكيون عليه «هاي جولي».



القبطان البحري ويليام فرانسيس لينش: «المسيحي الجاد المحب للمغامرة»، الذي أصبح في عام ١٨٤٧ أولَ غربي يجوب نهر الأردن من بحيرة طبرية إلى البحر الميت.



إسماعيل باشا: الخديوي المصري الذي عيَّن المحاربين القدامى في الحرب الأهلية الأمريكية لتحديث جيشه، قائلًا لهم: «عندما يتحقَّق ذلك، إن شاء الله، سأمنحكم أعلى مراتب الشرف.»

ويليام وينج لورينج (أولد بليزاردز): المحارب في خمسٍ وسبعين معركة، والمفتِّش العام للجيش المصري من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٥.



ثاديوس موت: المرتزق والعامل في مناجم الذهب الذي كان يقوم بالتجنيد من أجل جيشٍ شرق أوسطي.





تشارلز بومروي ستون: «درايفوس الأمريكي» و«جندي الحظ العاثر» في الحرب الأهلية الذي خدم رئيسًا لأركان الجيش المصري وكبيرًا للمهندسين في بناء تمثال الحرية.



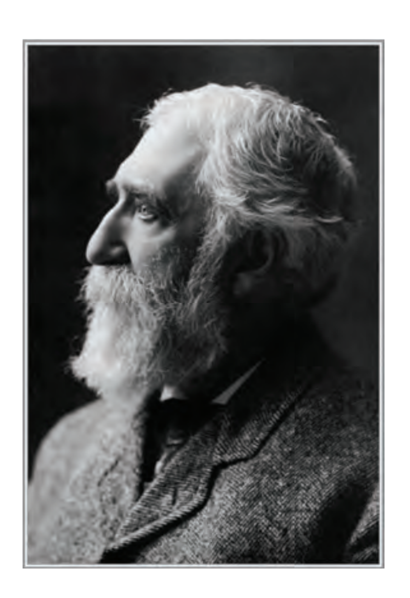
جيمس موريس مورجان: الحارس السابق لجيفرسون ديفيز، والجندي بالجيش المصري في نحو عام ١٨٧٠.



تشارلز شاييه-لونج: مستكشف النيل الضعيف البنية الذي حقَّق رغم ذلك نتائج جيدة، والذي أعلن أن: «كل حوض النيل أصبح تحت السيطرة المصرية، وأن الهدف الأساسي من البعثة قد تحقَّق.»



إيراستوس سبارو بيردي: الجندي ومستكشف السوادن.



تشارلز دادلي وارنر: الكاتب، وواحد من بين آلاف الأمريكيِّين الذين جابوا الشرق الأوسط في أعقاب الحرب الأهلية. وقال أحد المراقبين: «عادة ما يأتون في أفواج وجماعات، فيُحشرون في الفنادق كالسردين، ثم يُقادون في جولات عبر البلاد كقطعان الخِراف.»



سائحون أمريكيون يكشطون تذكارات من معبد مصري قديم «لإنقاذ بعض القطع الثمينة من الدمار المقدَّر لها».



ويليام هنري سيوارد: وزير الخارجية والمسافر الأمريكي إلى الشرق الأوسط، القائل: «تُعدُّ الولايات المتحدة هي فلسطين التي يأتي منها الخلاص السياسي لكل الجماهير المقهورة.»



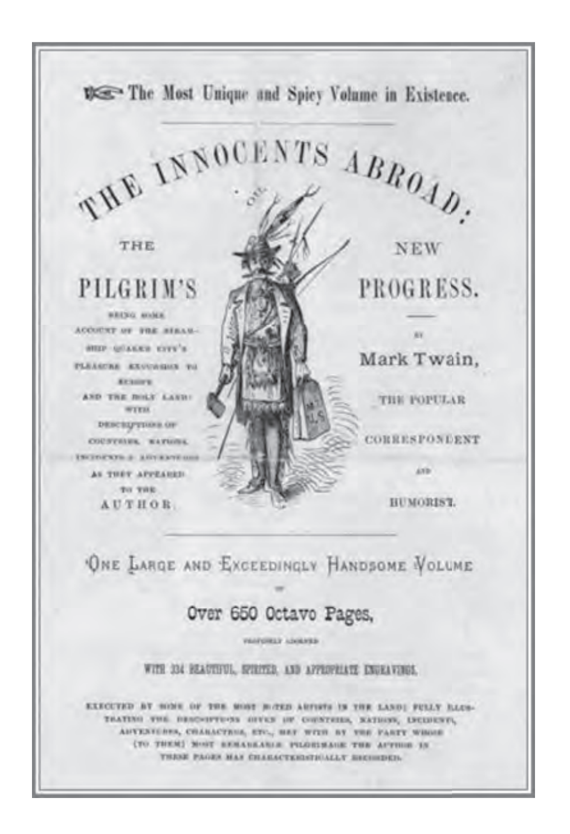
يوليسيس وجوليا جرانت خلال زيارتهما لمصر في ١٨٧٨ «في موكب فخم مجيد وبهي».



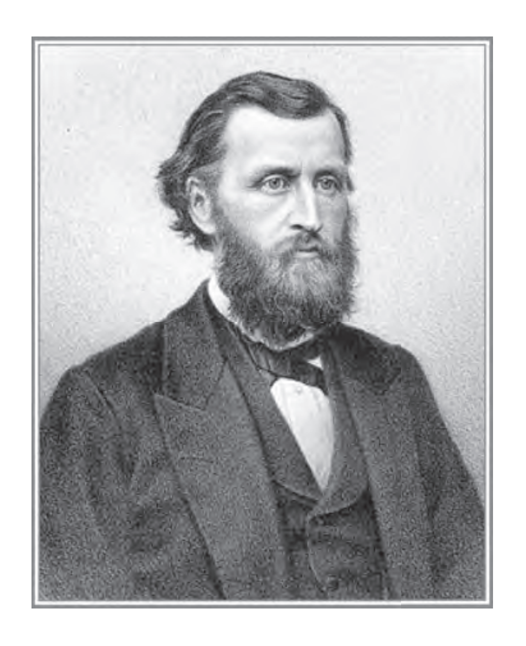
إدوارد ويلموت بلايدن: داعية سلام أمريكي من أصل أفريقي في الشرق الأوسط.



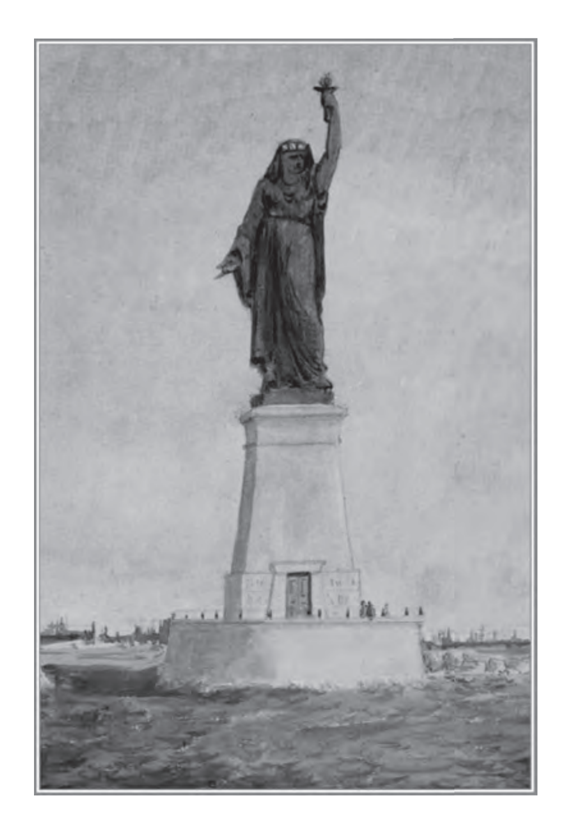
ليو والاس: بطل الحرب الأهلية وصائد جيسي جيمس، ومؤلف كتاب «بن هور»، وسفير أمريكا لدى الدولة العثمانية في ١٨٨١.



إعلان عن مذكرات رحلة مارك توين إلى الشرق الأوسط، التي بيع منها أكثر من نصف مليون نسخة، والتي قال عنها إنها «مثل مبيعات الإنجيل تمامًا».



إلبرت إيلي فارمان: القنصل الأمريكي في الإسكندرية الذي جلب مسلة «إبرة كليوباترا»، والمعارض العنيد للغزو البريطاني لمصر.



«مصر تجلب الضياء إلى آسيا»، أراد النحَّات الأول لتمثال الحرية، فريدريك أوجست بارتولدي، أن يزيِّن التمثال مدخل قناة السويس.



«استيقظي يا إسرائيل استيقظي»، إيما لازاروس، الشاعرة الأمريكية والمؤيِّدة للصهيونية الأمريكية.



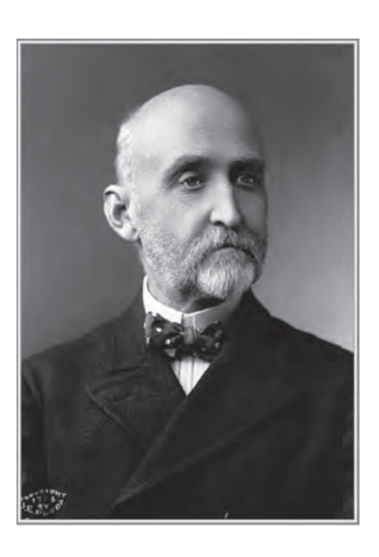
صامويل زويمر: المبشِّر الأمريكي في الجزيرة العربية في ١٨٩٠، ومؤسِّس العلاقات الأمريكية العربية.



«اعترتنا جميعًا الدهشة»، عروض الشرق الأوسط بمعرض كولومبيا العالمي بشيكاجو عام ١٨٩٣.



كلارا بارتون: ملاك ساحة المعارك ومؤسِّسة الصليب الأحمر الأمريكي، التي عملت على إنقاذ الأرمن بتركيا عام ١٨٩٦.



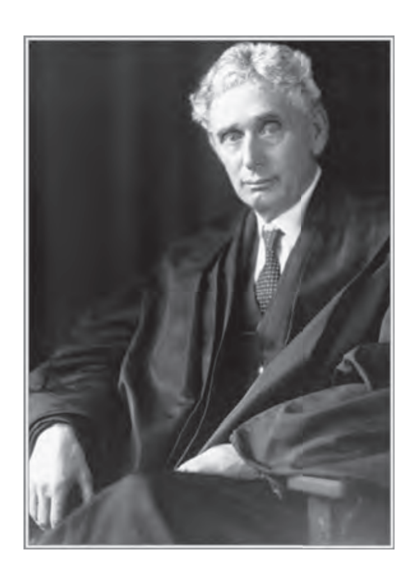
ألفريد ثاير ماهان: المؤرِّخ البحري الشهير الذي صك مصطلح «الشرق الأوسط».



ثيودور روزفلت أثناء زيارته مصر عام ١٩١٠، الذي كتب نقدًا عن «جموع المسلمين المتعصِّبين» وهو ما أثار عليه حَنق الكثيرين من مواطني الشرق الأوسط.



هنري مورجنتاو: السفير الأمريكي لدى الباب العالي خلال الإبادة العِرقية للأرمن (١٩١٤–١٩١٥)، صاحب مقولة: «شعبنا لن ينسى أبدًا هذه المجازر».



لويس دمبيتز برانديس: أول قاضٍ يهودي بالمحكمة العليا الأمريكية، وقد كتب: «لا يوجد تناقضٌ بين الولاء لأمريكا والولاء لليهودية.»

أمين الريحاني: صوت العروبة في أمريكا، الذي صمَّم على أن «يجلب إلى الغرب بعض سكينة الشرق».



جبران خليل جبران: الشاعر ومؤلف ديوان «النبي»، والداعي إلى القومية العربية.





تشارلز كرين: الأمريكي نصير العروبة والمناهض اللدود للصهيونية.



موجودون عند الميلاد: ويلسون (إلى اليمين) وبلفور (على يساره) خلال مؤتمر السلام بباريس في ١٩١٩، وميلاد الشرق الأوسط الجديد.



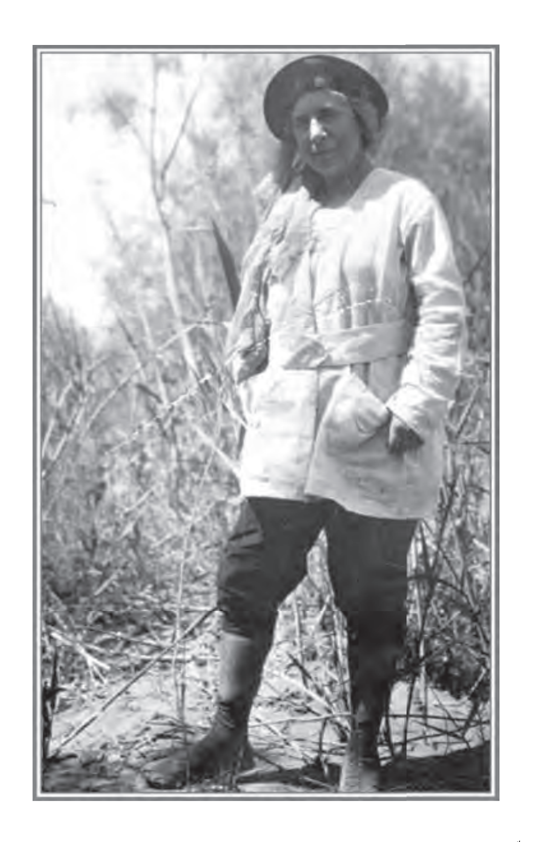
صانعا أسطورة الشرق الأوسط: تي إي لورنس (إلى اليسار)، وبجواره لويل توماس.



عبد العزيز بن سعود: مؤسِّس المملكة، الذي قيل عنه: «كلُّ ما فيه يعبِّر عن ذكاء وحيوية وقوة دامغة.»



جولدا مائير: نائب رئيس الفصل بمدرسة «ميلووكي ستيت نورمال سكول»، حسبما وُصفت في الكتاب السنوي للمدرسة عام ١٩١٧، التي قالت «لم أهرُب من اضطهاد في أمريكا، بل غادرت لأشارك في تأسيسِ استقلالِ شعبي.»



هنريتا سولد: مؤسِّسة منظمة هاداسا وصاحبة مقولة: «العلاقات العربية-اليهودية كان يجب أن تكون محورَ تفكيرنا الصهيوني.»



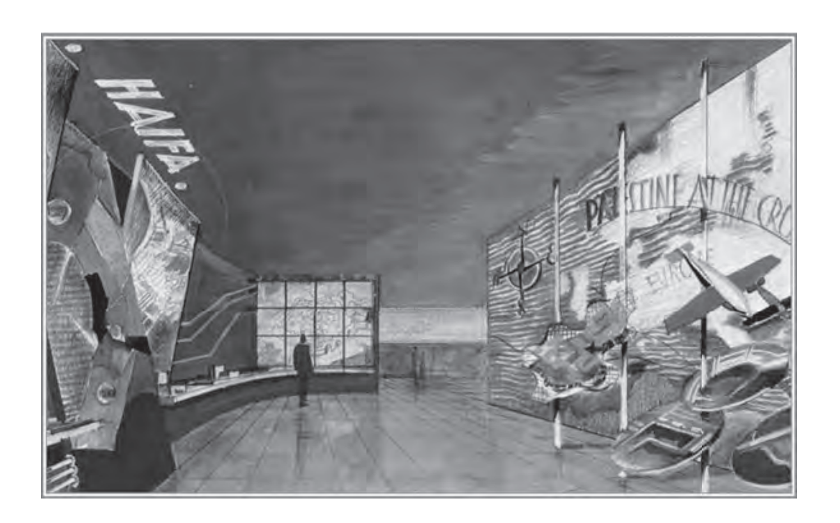
يهودا ماجنيس (مرتديًا قبَّعة): زعيم أمريكي صهيوني، من المنادين بإقامة دولة مزدوجةٍ للعرب واليهود بفلسطين القومية.



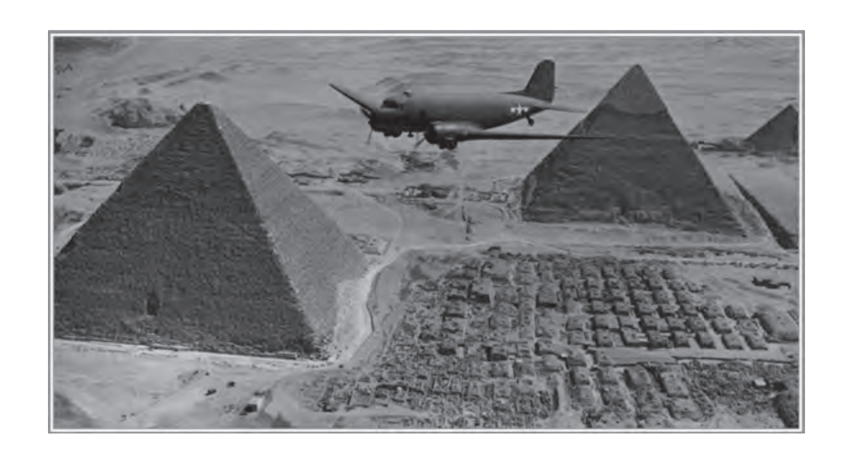
ديفيد بن جوريون: الزعيم الصهيوني مرتديًا زيَّ الفيلق اليهودي بعد وقت قصير من زيارته نيويورك، القائل: «قوة مشروعنا تكمُن في أمريكا.»



لوي هندرسون: الخبير الأنيق في وزارة الخارجية، المُعارض لإقامة الدولة اليهودية، والمتحمِّس لمناهضة الشيوعية.



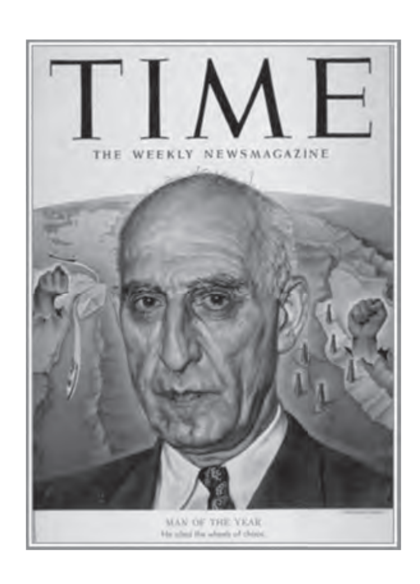
جناح فلسطين بمعرض نيويورك العالمي عام ١٩٣٩، وقد تم الاحتفال فيه بالزائرين بتقديم «أطباق فلسطينية شهية» مثل الشينتزيل، كما رحَّب بالضيوف «أجملُ فتاة بفلسطين»، وهي عضوةٌ بالهاجاناه.



«أصوات غريبة فوق الأهرامات»؛ القوات الأمريكية في مصر خلال الحرب العالمية الثانية.



الملك ابن سعود وفرنكلين ديلانو روزفلت في فبراير ١٩٤٥ على متن السفينة «يو إس إس كوينسي»، التي قال عنها روزفلت: «لقد حصلت على معلومات عن الشرق الأوسط من خلال الحديث إلى ابن سعود مدة خمس دقائق أكثر مما كان يمكن أن أحصل عليه لو تبادلنا أكثر من ثلاثين خطابًا.»



محمد مصدق: رئيس وزراء إيران، أهو وطنيٌّ من الوسط محبٌّ للحرية أم حليفٌ للشيوعية مناوئٌ لأمريكا؟



جولدا مائير وهنري كيسنجر إبَّان دبلوماسية الرحلات المكُّوكية في ١٩٧٤، وهنا تصيح جولدا مائير: «يا معالي الوزير، لم أكن أعرف أنك تقبِّل الفتيات أيضًا!»



اتفاقية كامب ديفيد: الرئيس المصري أنور السادات، والرئيس جيمي كارتر، ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين (من اليسار إلى اليمين)، قال عنها كارتر إنها «أصبحت الآن كالإنجيل تقريبًا.»



خيال الشرق الأوسط يغري هوليوود في بدايتها: الممثِّل رودلف فالنتينو في دور البدوي الخليع المحب للحرية، والممثِّلة فيلما بانكي في دور الغربية الساذجة في فيلم «ابن الشيخ» الذي أثار ضجةً عام ١٩٢٦.



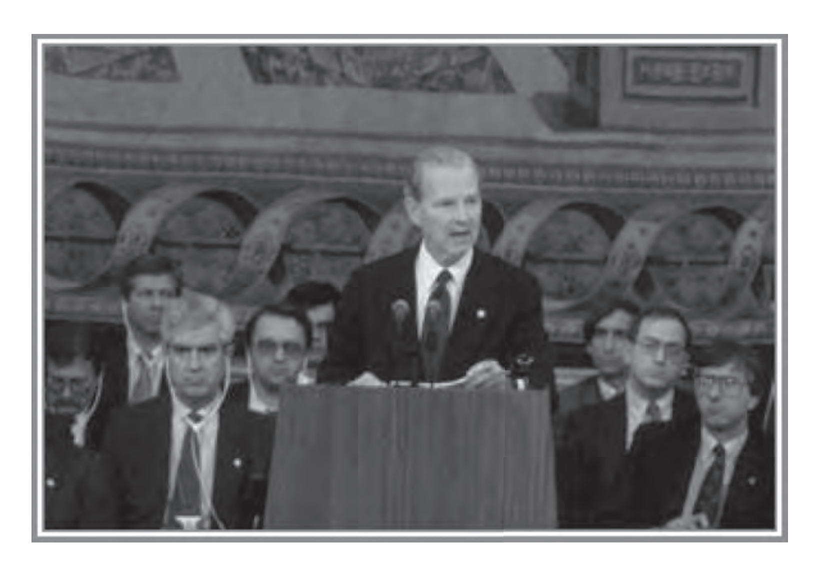
نوفمبر ١٩٧٩: رهائن أمريكيون بطهران خلال فترة احتجازهم التي امتدَّت إلى ٤٤٤ يومًا، والتي أنشد الإيرانيون خلالها «سنعلِّم وكالة الاستخبارات الأمريكية عدم التدخُّل في بلادنا، سنعلِّمهم مَن هو الله.»



ديسمبر ١٩٨٣: قصفُ مقر قوات المارينز ببيروت، الذي أودى بحياة ٢٤١ أمريكيًّا، وكان بداية مواجهة الولايات المتحدة للإرهاب على نطاق واسع.



القوات الأمريكية في الكويت حرب الخليج، ١٩٩١.



بحثًا عن نظام عالمي جديد: جيمس كارتر وزير الخارجية في إدارة الرئيس جورج بوش الأب بمؤتمر مدريد للسلام في ١٩٩١.



«شالوم، السلام، بيس: اذهبوا كصانعي سلام.» من اليسار إلى اليمين: رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، والرئيس بيل كلينتون، ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات يوقِّعون اتفاقَ إعلان المبادئ في سبتمبر ١٩٩٣.



الهجوم على المدمِّرة الأمريكية «يو إس إس كول» في أكتوبر ٢٠٠٠، وخلَصت وكالة الاستخبارات المركزية إلى القول «نحن في حالة حرب»، ولكن الإدارة الأمريكية ظلَّت على سلبيتها.



الحادي عشر من سبتمبر: اليوم الذي مات فيه الخيال (صورة التقطها نجلُ المؤلف، مؤسَّسة بروكلين هايتس).



الفصيل الثاني البحري الأمريكي «برافو كومباني»، التابع للكتيبة الاستطلاعية الأولى، صُوِّر بالعراق خلال حرب الخليج الثانية؛ ويقف الملازم أول ناثانيال فيك في الصف الثاني من الأسفل.

ملاحظات

A note on the notes: Because of the immense number of quotations and sources in need of citation, I have inserted endnotes at thematic breaks and transitions in the text.

مقدمة

(1) Jared Sparks, *The Life of John Ledyard, the American Traveller* (Cambridge: Hillard and Brown, 1828), pp. 1–70. Helen Augur, *Passage to Glory: John Ledyard's America* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1946), pp. 142, 157–58, 173. Henry Beston, *The Book of Gallant Vagabonds* (New York: George H. Doran, 1925), p. 23. Laurie Lawlor, *Magnificent Voyage: An American Adventurer on Captain James Cook's Final Expedition* (New York: Holiday House, 2002), p. 203 ("the greatest traveler"). See also Clanance Ashton Wood, "Southhold's John Ledyard" and "John Ledyard the Traveler," longislandgenealogy.com/Ledyard/one.htm.

(2) John Ledyard, *A Journal of Captain Cook's Last Voyage to the Pacific Ocean* (Hartford: Nathaniel Patten, 1783), pp. 33 ("dancing through life"), 72, 85, 157. Kenneth Munford, *John Ledyard: An American Marco Polo* (Portland: Binfords and Mort, 1939), p. 300. Beston, *Book of Gallant Vagabonds*, p. 43. James Zug, *American Traveler* (New York: Basic, 2005),

p. 152. Lawlor, *Magnificent Voyage*, pp. 5, 59, 143, 197–98. S. G. Mantel, *Explorer with a Dream, John Ledyard* (New York: Julian Messner, 1969), pp. 121–23. Thomas Jefferson, *Autobiography* (New York: Capricorn, 1959), p. 80. Lawlor, *Magnificent Voyage*, p. 199 ("my brother"). See also Stephen D. Watrous, ed., *John Ledyard's Journey through Russia and Siberia, 1787–1788: The Journal and Selected Letters* (Madison: Univ. of Wisconsin Press, 1966), and the website *Mutual Perceptions—Travel Accounts*, memory .loc.gov/intldl/mtfhtml/mfpercep/perceptledyard.html.

(3) Henry Beaufoy, "Some Accounts of Mr. Ledyard's Method of Traveling," *Ladies' Magazine*, July 1792 ("manliness of his person"). Zug, *American Traveler*, p. 216 ("An American face"). Larzer Ziff, *Return Passages: Great American Travel Writing*, 1780–1910 (New Haven: Yale Univ. Press, 2000), p. 36. Sparks, *Life of John Ledyard*, pp. 290, 293 ("My path will be"), p. 303. Augur, *Passage to Glory*, p. 268 ("Behold, I afford a new character"). Zug, *American Traveler*, pp. 173 ("I … do not think"), 220.

الباب الأول: أمريكا في أيامها الأولى تواجه الشرق الأوسط

الفصل الأول: تهديدٌ قاتلٌ ومخزٍ

(1) Evan Thomas, *John Paul Jones: Sailor, Hero, Father of the American Navy* (New York: Simon & Schuster, 2003), pp. 30–34. James A. Field Jr., *America and the Mediterranean World, 1776-1882* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1969), pp. 30–31. A. L. Tibawi, *American Interests in Syria, 1800–1901* (Oxford: Clarendon Press, 1966), pp. 1–2. Michael L. S. Kitzen, *Tripoli and the United States at War: A History of America's Relations with the Barbary States, 1785–1805* (Jefferson: McFarland, 1962), p. 10. Thomas A. Bryson, *American Diplomatic Relations with the Middle East*, 1784–1975 (Metuchen, N.J.: Scarecrow, 1977), pp. 1–2. David H. Finnie, *Pioneers*

East: The Early American Experience in the Middle East (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1967), pp. 244–45 ("Go where you will"). A. Uner Turgay, "Ottoman-American Trade during the Nineteenth Century," *Journal of Ottoman Studies* 3, no. 1 (1982): 193–94.

(2) Richard B. Parker, *Uncle Sam in Barbary: A Diplomatic History* (Gainesville: Univ. Press of Florida, 2004), pp. 5–6, 17—20. Robert Davis, *Christian Slaves, Muslim Masters* (New York: Palgrave Macmillan, 2003), pp. 4–5, 23, 36, 41–42, 74. Sir Godfrey Fisher, *Barbary Legend: War, Trade and Policy in North Africa, 1415-1830* (Oxford: Oxford Univ. Press, 1957), pp. 290–91. Max Boot, *The Savage Wars of Peace: Small Wars and the Rise of American Power* (New York: Basic, 2002), pp. 6—8. Maria Martin, *History of the Captivity and Sufferings of Maria Martin* (Philadelphia: Jacob Meyer, 1811), p. 37. Questions have been raised about the veracity of Martin's account, though her descriptions of the ordeals of captivity in North Africa accord with those of many other former prisoners. See James R. Lewis, "Savages of the Seas: Barbary Captivity Tales and Images of Muslims in the Early Republic," *Journal of American Culture* 13, no. 2 (Summer 1990): 68.

(3) Joseph Wheelan, *Jefferson's War: America's First War on Terror, 1801-1805* (New York: Carroll & Graf, 2003), p. 36. Parker, *Uncle Sam in Barbary*, pp. 33–34 ("We had already lost five"). Charles A. Goodwin, *Narrative of Joshua Gee of Boston, Mass., While He Was Captive in Algeria of the Barbary Pirates, 1680-1687* (Hartford: Wadsworth Atheneum, 1943), pp. 1—29. Simon Smith, "Piracy in Early British America," *History Today* 46 (May 1996).

(4) *Letters of Delegates to Congress, 1774-1789*, ed. Paul Smith (Washington, D.C.: Library of Congress, 1995): Pierse Long to John Langdon, Aug. 6, 1786, p. 433. Alexander DeConde, *A History of American Foreign Policy* (New York: Scribner, 1971), pp. 21, 41 ("The Americans cannot protect"). *The Revolutionary War Diplomatic Correspondences of the United States*. ed.

Francis Wharton (Washington, D.C.: GPO, 1889): Salva to Franklin, April 1, 1783, p. 357. Bradford Perkins, *The Cambridge History of American Foreign Relations*, vol. 1, *The Creation of a Republican Empire, 1776-1865* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1993), pp. 33 ("No nation can be trusted"), 46, 69. Robert J. Allison, *The Crescent Obscured: The United States and the Muslim World*, 1776–1815 (New York: Oxford Univ. Press, 1995), p. 3.

(5) E. Dupuy, *Américains et Barbaresques* (Paris: R. Roger et F. Chernoviz, 1910), p. 8 ("to use its best offices"). *The Writings of Benjamin Franklin*, vol. 10, ed. Albert Smyth (New York: Haskell House, 1970): Franklin to Robert Livingston, July 7, 1783, p. 71 ("If there were no Algiers"). See also The *Papers of George Mason, 1725-1792*, ed. Robert Rutland (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1970): George Mason to Hunter, Allison and Company, Aug. 8, 1783, pp. 788-89. Louis B. Wright and Julia H. Macleod, *The First Americans in North Africa: William Eaton's Struggle for a Vigorous Policy against the Barbary Pirates, 1799-1805* (New York: Greenwood, 1945), p. 15. Seton Dearden, *A Nest of Corsairs* (London: Butler and Tanner, 1976), p. 151. Parker, *Uncle Sam in Barbary*, pp. 218-19 ("there is no advantage").

(6) Paul Baepler, ed., *White Slaves, African Masters: An Anthology of American Barbary Captivity Narratives* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1999), pp. 77–80. Stephen Clissold, *The Barbary Slaves* (London: Paul Elek, 1977), p. 3 ("They made signs"). A. B. C. Whipple, *To the Shores of Tripoli: The Birth of the U.S. Navy and Marines* (New York: Morrow, 1991), p. 26. H. G. Barnby, *The Prisoners of Algiers: An Account of the Forgotten American-Algerian War, 1785-1797* (New York: Oxford Univ. Press, 1966), pp. 2-3. Gardner W. Allen, *Our Navy and the Barbary Corsairs* (Boston: Houghton Mifflin, 1905), pp. 8-9 ("sabers grasped"). Donald Barr Chidsey, *The Wars in Barbary: Arab Piracy and the Birth of the United States Navy* (New York: Crown, 1971), p. 7.

(7) *The Letters of Richard Henry Lee*, ed. James Ballagh (New York: Macmillan, 1914), vol. 2: Lee to Thomas Shippen, Oct. 14, 1785, p. 392 ("Curse and doubly curse"); Lee to Samuel Adams, Oct. 17, 1785, p. 396. John Jay Papers: 1968, 13031, Jay to William Bingham, Feb. 12, 1785; Jay to Bowen, May 24, 1786. *Naval Documents Related to the United States Wars with the Barbary Powers*, ed. Dudley Knox, 6 vols. (Washington, D.C.: GPO, 1939), vol. 1: O'Brien, Coffin, and Stevens to Thomas Jefferson, June 8, 1786, p. 2. David McCullough, *John Adams* (New York: Simon & Schuster, 2001), p. 352. Barnby, *Prisoners of Algiers*, pp. 3–9, 25–26. Allison, *Crescent Obscured*, pp. xiv–xv. Allen, *Our Navy*, pp. 13, 25, 21–22 ("perfectly dark"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 25–26, 69. *A Journal of the Captivity and Sufferings of John Foss* (Newburyport: Angier March, 1798), pp. 17 ("Now I have got you"), 20, 24, 33. DeConde, *History of American Foreign Policy*, p. 41 ("It will not be"). Lawrence A. Peskin, "The Lessons of Independence: How the Algerian Crisis Shaped Early American Identity," *Diplomatic History* 28, no. 3 (June 2004): 299–300 ("The ALgerians are cruising"). Walter A. McDougall, *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World since* 1776 (New York: Mariner Books, 1997), p. 37.

(8) *The Writings of Thomas Jefferson*, ed. Paul Ford (New York: Putnam, 1970): Jefferson to James Monroe, Nov. 11, 1783, pp. 10–11 ("We ought to begin"). Allen, *Our Navy*, p. 37 ("It will procure us"). See also Thomas Jefferson Papers: Gerard W. Gawalt, "America and the Barbary Pirates: An International Battle Against an Unconventional Foe," on memory.loc.gov/ammem/mtjhtml/mtjprece.html ("temper of my countrymen"). DeConde, *History of American Foreign Policy*, p. 83 ("sink us under them" and "erect and independent attitude"). Joseph J. Ellis, *American Sphinx. The Character of Thomas Jefferson* (New York: Vintage, 1998), p. 26 ("combined great depth"), and *Founding Brothers: The Revolutionary Generation* (New York: Vintage, 2002), pp. 233–42, William M. Fowler,

Jack Tars and Commodores: The American Navy, 1783–1815 (Boston: Houghton Mifflin, 1984), p. 5. I am aware of the controversy surrounding Jefferson's relationship with Sally Hemmings; geneticists have determined that Thomas Jefferson was almost certainly the father of Hemming's son, Eston.

(9) *The Emerging Nation: A Documentary History of the Foreign Relations of the United States under the Articles of Confederation, 1780–1789*, vol. 2, ed. Mary Giunta (Washington, D.C.: National Historical Publications and Records Commission, 1996): Thomas Jefferson to James Monroe, Feb. 6, 1785, p. 543. *The Papers of George Washington*, ed. W. W. Abbit (Charlottesville: Univ. Press of Virginia, 1995): Lafayette to Washington, Jan. 13, 1787, p. 514. *Lafayette in the Age of the American Revolution*, vol. 5, ed. Stanley Idzerda and Robert Crout (Ithaca: Cornell Univ. Press, 1983): Lafayette to Adams, Jefferson, and Franklin, April 8, 1785, p. 315.

(10) *Writings of Thomas Jefferson*, ed. Ford: Jefferson to James Monroe, Nov. 11, 1783, pp. 10–11 ("The states must see"). *The Writings of Thomas Jefferson*, ed. Andrew A. Lipscomb (Washington, D.C.: Thomas Jefferson Memorial Association, 1905): Jefferson to John Page, Aug. 20, 1785, p. 91 ("Honour as well as"). John Jay Papers: Jay to Jefferson, Adams, and Franklin, March 11, 1785 ("the Influence of … Courts"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 23.

(11) *Writings of Thomas Jefferson*, ed. Lipscomb: Jefferson to William Carmichael, Nov. 4, 1785, p. 194 ("His manners and appearance"). Barnby, *Prisoners of Algiers*, p. 75 ("I hope never to see"). Parker, *Uncle Sam in Barbary*, pp. 37–38, 217—19. Ray Irwin, *The Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers*, 1776—1816 (New York: Russell & Russell, 1970), pp. 49–50.

(12) *Emerging Nation*, vol. 1: John Adams to John Jay, Feb. 17, 1786, p. 96. The John Jay Papers: 4605, Jay to Congress, Aug. 2, 1787. Walter

Livingston Wright, “American Relations with Turkey to 1831” (Ph.D. diss., Princeton Univ., 1928), pp. 1–2 (“pestilence and war”). Allison, *Crescent Obscured*, pp. 8, 14—16. McCullough, *John Adams*, pp. 352–53. Allen, *Our Navy*, pp. 36–37.

(13) Wright, “American Relations with Turkey,” pp. 4–5 (“the Dignity of Congress”). *The Adams–Jefferson Letters: The Complete Correspondence between Thomas Jefferson and Abigail and John Adams*, ed. Lester J. Cappon (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1959): Adams to Jefferson, July 13, 1786, p. 139. *Emerging Nation*, vol. 1: Letter from John Adams to John Jay, June 27, 1786, p. 207; vol. 2: John Adams to John Jay, Dec. 15, 1784, p. 513 (“unfeeling tyrants”). McCullough, *John Adams*, p. 366 (“We ought not to fight”).

(14) *Emerging Nation*, vol. 3: Jefferson and Adams to John Jay, March 28, 1786, pp. 135–36 (“It was … written”). *Adams–Jefferson Letters:* Adams to Jefferson, June 6, 1786, p. 133. *Writings of Thomas Jefferson*, ed. Ford: Thomas Jefferson to James Monroe, Aug. 11, 1786, pp. 264–65 (“an angel sent on this business”). *Writings of Benjamin Franklin:* Franklin to William Carmichael, March 22, 1785, pp. 301–2. McCullough, *John Adams*, p. 354. Wright, “American Relations with Turkey,” pp. 7—10. Allen, *Our Navy*, pp. 30–31. Allison, *Crescent Obscured*, p. 12 (“a universal and horrible War”).

(15) *Revolutionary War Diplomatic Correspondences of the United States:* Franklin to Congress, May 26, 1779, pp. 192–93. *Diary and Autobiography of John Adams*, vol. 3, *Diary 1782-1804* (Cambridge: Harvard Univ. Press, Belknap Press, 1961), entries for March 19 and March 20, 1785, pp. 174–75. John Jay Papers: 3891, Jay to Congress, March 22, 1786. *Emerging Nation*, vol. 1: John Adams to John Jay, Feb. 16, 1786 (“Innocence and the Olive Branch”), p. 95. Jerome B. Weiner, “Foundations of U.S. Relations with Morocco and the Barbary States,” *Hespris–Tamuda [Morocco]* 20–21 (1982–83), pp. 165—82. Field, *America and the Mediterranean World*,

pp. 32–33, 40. Allen, *Our Navy*, pp. 27—30. Wright, "American Relations with Turkey," pp. 8–9. The text of the treaty is reproduced in J. C. Hurewitz, ed., *The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record*, vol. 1, *European Expansion, 1535–1914*, 2d ed. (New Haven: Yale Univ. Press, 1975), pp. 103—5.

(16) *The Writings of Thomas Jefferson:* Jefferson to Humphreys, Aug. 14, 1786, p. 400 ("public treasury"). *The Writings of George Washington from the Original Manuscript Sources, 1745–1799*, vol. 38, ed. John Fitzpatrick (Washington, D.C.: GPO, 1938): Washington to Lafayette, March 25, 1787, p. 185 ("the highest disgrace"); Washington to Lafayette, Aug. 15, 1786, p. 521 ("Would to Heaven"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 21. Boot, *Savage Wars of Peace*, p. 10. U.S. Naval History: *The Reestablishment of the Navy, 1787–1801*, on http://www.history.navy.mil/biblio/bibli04/bibli04a.htm. *The Documentary History of the Ratification of the Constitution*, ed. John Kaminksi and Gaspare Saladino (Madison: State Historical Society of Wisconsin, 2001): Russell to Adams, p. 47 ("Without a national system"). Parker, *Uncle Sam in Barbary*, p. 44 ("Our sufferings"). Field, *America and the Mediterranean World*, p. 33 ("See what dark prospect").

(17) *Documentary History of the Ratification of the Constitution:* Speech by James Madison before the Virginia Constitutional Convention, June 12, 1788, p. 1206. *Writings of George Washington:* Washington to Lafayette, Aug. 15, 1787, p. 260. *Letters of Delegates to Congress:* Virginia Delegates to Edmund Randolph, Nov. 3, 1787, p. 539. James Madison, *Notes of Debates in the Federal Convention of 1787* (Athens: Ohio Univ. Press, 1966), p. 549. Perkins, *Cambridge History of American Foreign Relations*, p. 69. See also Julia H. Macleod, "Jefferson and the Navy: A Defense," *Huntington Library Quarterly* 8 (Feb. 1945): 154.

(18) *Documentary History of the Ratification of the Constitution*, pp. 47, 160, 567 ("preposterous"), 1126 ("May not the Algerines"), 1417 ("our sailors … in Algiers"). *The Debate on the Constitution*, ed. Bernard Bailyn (Washington, D.C.: Library of America, 1993): Hugh Williamson's Speech, Nov. 8, 1787, p. 233. *The Republic of Letters: The Correspondence between Thomas Jefferson and James Madison, 1776–1826*, ed. James Morton Smith (New York: Norton, 1995): Jefferson to Madison, May 8, 1784, p. 314; Madison to Jefferson, Oct. 8, 1788, p. 555; Jefferson to Madison, Jan. 12, 1789, p. 583.

(19) Alexander Hamilton, John Jay and James Madison, *The Federalist Papers* (Cutchogue, N.Y.: Buccaneer Books, 1992), pp. 49–50 ("federal navy … of respectable"), 207–8 ("maritime strength" and "the rapacious demands"). John Jay Papers: 4572, Jay to Congress, May 29, 1786; 10876, Jay to Lafayette, Oct. 28, 1786; 4605, Jay to Congress, Aug. 2, 1787. Thomas A. Bailey, *A Diplomatic History of the American People* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice–Hall, 1980), p. 65 ("The more we are ill–treated"). See also George Pellew, *American Statesmen: John Jay* (Cambridge, Mass.: Riverside Press, 1890), p. 239.

(20) Mary Chrysostom Diebels, *Peter Markoe (1752–1792): A Philadelphia Writer* (Washington, D.C.: Catholic Univ. of America Press, 1944), pp. 1—3, 16, 50—61. Peter Markoe, *The Algerine Spy in Pennsylvania; or, Letters Written by a Native of Algiers on the Affairs of the United States in America, from the Close of the Year 1783 to the Meeting of the Convention* (Philadelphia: Prichard and Hall, 1787), pp. 25—30, 78–79, 104–5 ("totally ruined" and "plundered without"), 113–14. Bailey, *Diplomatic History of the American People*, p. 65. See also Lotfi Ben Rejeb, "Observing the Birth of a Nation: The Oriental Spy/Observer Genre and Nation Making in Early American Literature," in Abbas Amanat and Magnus T. Bernhardsson, eds.,

The United States and the Middle East: Cultural Encounters (New Haven: Yale Center for International and Area Studies, 2002), pp. 253–89.

(21) *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Jefferson to the Senate and the House of Representatives, Dec. 30, 1790, p. 22; Edward Church to Thomas Jefferson, Oct. 12, 1793, p. 45. *Writings of Thomas Jefferson*, ed. Lips-comb: Jefferson to the Board of Treasury, May 16, 1788, p. 11 ("sea-dogs"); Jefferson to John Jay, Aug. 11, 1788, p. 121 ("that pettifogging nest"). Ellis, *American Sphinx*, p. 162 ("Algerine"). Allison, *Crescent Obscured*, pp. 9-10 ("suspended between indignation").

(22) *Writings of Thomas Jefferson*, ed. Lipscomb: Jefferson to John Paul Jones, June 1, 1792, p. 355; Jefferson to Thomas Barclay, June 11, 1792, p. 367. Charles Stuart Kennedy, *The American Consul: A History of the United States Consular Service, 1776-1914* (New York: Greenwood, 1990), p. 29 ("as a great People"). *Writings of Thomas Jefferson*, ed. Paul Ford: Jefferson to James Monroe, Nov. 11, 1783, pp. 10-11 ("John Paul Jones").

(23) *Writings of Thomas Jefferson*, ed. Lipscomb: Jefferson to Thomas Barclay, June 11, 1792, p. 367. John Jay Papers: 5052, Temple to Jay, June 7, 1786. *The Papers of Alexander Hamilton*, ed. Harold Syrett, 27 vols. (New York: Columbia Univ. Press, 1961–87): Hamilton to William Seton, April 22, 1794, vol. 16, p. 312. *The Life and Correspondence of Rufus King*, ed. Charles King (New York: Putnam, 1894): John Alsop to Rufus King, Dec. 15, 1793, p. 505. Irwin, *Diplomatic Relations of the United States*, p. 80.

(24) *Writings of George Washington*, vol. 33: Washington to Jonathan Trumbull, Aug. 20, 1793, p. 125; President's Sixth Annual Address to Congress, Dec. 13, 1793, p. 166 ("If we desire").

(25) *Annals of the Congress of the United States: Third Congress* (Washington, D.C.: Gales and Seaton, 1849), pp. 433, 434 ("Bribery alone," "a Secretary of [the] Navy," and "we are no match"), 436 ("Our commerce is"), 439 ("at war with"), 447-48 ("pusillanimous measures"). Craig L. Symonds,

Navalists and Antinavalists: The Naval Policy Debate in the United States, 1785–1827 (Newark: Univ. of Delaware Press, 1980), pp. 27—37. See also *The Papers of Josiah Bartlett*, ed. Frank Mevers (Hanover: Univ. Press of New England, 1979): Paine Wingate to Josiah Bartlett, Feb. 24, 1794, p. 403.

(26) *Papers of Alexander Hamilton:* John Quincy Adams to Hamilton, Dec. 5, 1795, vol. 17, pp. 420–21; Edmund Randolph to Hamilton, William Bradford, and Henry Knox, vol. 16, pp. 498–99. *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Samuel Calder to David Pearce, Dec. 4, 1793, p. 57; George Washington to Congress, Feb. 8, 1795, p. 93; Joel Barlow to Jefferson, March 18, 1796, pp. 140–41. Allison, *Crescent Obscured*, pp. 31, 141 ("stigma on the American"). Frances Diane Robotti and James Vescovi, *The USS Essex and the Birth of the American Navy* (Holbrook, Mass.: Adams Media Corp., 1999), p. 12. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 7. Allen, *Our Navy*, p. 51 ("If I were to make peace").

(27) Among the gifts given Tunis by the United States were "1 Fusee, 6 feet long, mounted with gold set with diamonds; 4 set with gold mounting, ordinary length; 1 pr. of pistols mounted with gold, set with diamonds; 1 poniard, enameled, set with diamonds; 1 diamond ring; 1 gold repeating watch, with diamonds, chain the same, 6 pieces of brocade of gold; 30 pieces superfine cloth of different colors; 6 pieces Satin, different colors." See Irwin, *Diplomatic Relations of the United States*, pp. 100–1. Republic of Letters: Madison to Jefferson, Feb. 21, 1796, pp. 921–22; Jefferson to Madison, April 17, 1796, pp. 931–32. *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Barlow to Jefferson, March 18, 1796, pp. 140–41; O'Brien to Jefferson, Jan. 12, 1797, pp. 192–93 ("25 chests of tea"); Barlow to Jefferson, Aug. 18, 1797, p. 208 ("To what height"); Barlow to Jefferson, Aug. 24, 1797, p. 209 ("You are a liar"). Kennedy, *American Consul*, pp. 30—32. Allen, *Our Navy*, pp. 23–24, 53–54 ("Our people have conducted"), 56–57. Barnby, *Prisoner of Algiers*, pp. 304, 318. Foss, *Journal of the Captivity*,

p. 123 ("No nation of Christendom"). Milton Cantor, "Joel Barlow's Mission to Algiers," *Historian* 25 (1963). See also Library of Congress Country Studies, "Algeria, Relations with the United States," memory.loc.gov/cgi-bin/query/r?frd/cstdy:@field(DOCID+dz0025).

(28) Royall Tyler, *The Algerine Captive; or, The Life and Adventures of Doctor Updike Underhill, Six Years a Prisoner among the Algerines* (Hartford: Peter B. Gleason, 1816), pp. 196, 239. Anonymous, *The American in Algiers; or, The Patriot of Seventy-six in Captivity* (New York: J. Buel, 1797), p. 16 ("Does Columbia"). Susanna Rowson, *Slaves in Algiers; or, The Struggle for Freedom* (Philadelphia: Wrigley and Berriman, 1794), p. 48 ("What, give it up").

(29) James Leander Cathcart, *Tripoli* (LaPorte, Ind.: Herald Print, 1901): Cathcart to Pickering, Aug. 16, 1799, p. 67. *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Barlow to Jefferson, Aug. 24, 1797, p. 209. Kennedy, *American Consul*, pp. 2-3.

الفصل الثاني: الشرق الغامض والعداء

(1) George Sandys, *Description of the Ottoman Empire* (Amsterdam: Theatrum Orbis Terrarum, 1973), p. 36. Philip L. Barbour, *The Three Worlds of Captain John Smith* (Boston: Houghton Mifflin, 1964), pp. 45–49. Timothy Worthington Marr, "Imagining Ishmael: Studies of Islamic Orientalism from the Puritans to Melville" (Ph.D. diss., Yale Univ., 1997), pp. 1-2, 30–33, 70 ("an emissary of Satan"), 87–89. Douglas Little, *American Orientalism: The United States and the Middle East since 1945* (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 2002), pp. 12-13, 73-74. Allison, *Crescent Obscured*, pp. xiv-xviii, 45-46, 61–64. Josiah Strong, "Anglo-Saxon Predominance (1891)," http://xroads.virginia.edu/~DRBR/strong.html ("The Eastern nations sink"). *Translating the Untranslatable: A Survey of English*

Translations of the Quran, http://www.quranicstudies.com/article32.html. A. J. Arberry, *The Koran Interpreted* (New York: Macmillan, 1955), pp. 7 ("so viewing thine enemies"), 8 ("contradictions, blasphemies"), 10 ("attack the Koran"). Humphrey Prideaux, *The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of Mahomet* (Fairhaven, Vt.: James Lyon, 1798), p. 108.

(2) Henry Hugh Brackenridge and Philip Freneau, *Father Bombo's Pilgrimage to Mecca*, 1770, ed. Michael Davitt Bell (Princeton: Princeton Univ. Library, 1975), pp. 7 ("to change thy religion"), 92 ("I prostrated myself"). Ros Ballaster, *Fabulous Orients: Fictions of the East in England*, 1662–1785 (Oxford: Oxford Univ. Press, 2005), pp. 8, 33, 54–56, 72, 77. Alain Grosrichard, *The Sultan's Court: European Fantasies of the East* (London: Verso, 1998), p. 79. Mohammed Sharafuddin, *Islam and Romantic Orientalism: Literary Encounters with the Orient* (London: I. B. Tauris, 1994), pp. xxv–xxvi, 64, 107. Ben Rejeb, "Observing the Birth of a Nation," pp. 256–57. Claude Étienne Savary, *Letters on Egypt, Containing a Parallel between the Manners of Its Ancient and Modern Inhabitants* (London: G. G. J. and J. Robinson, 1787). Constantin-François Volney, *Voyage en Syrie et en Egypte, pendant les années 1783, 1784, et 1785* (Paris: Desenne et Volland, 1787).

(3) Daniel Beaumont, *Slave of Desire: Sex, Love and Death in 1,001 Nights* (Madison, N.J.: Fairleigh Dickinson Univ. Press, 2002), p. 42. Husain Haddawy, trans., *The Arabian Nights* (New York: Norton, 1990), pp. xv–xvii. *Novelists Magazine* 18 (Containing *The Arabian Nights Entertainment*) (London: Harrison, 1785). Adele L. Younis, "The Arabs Who Followed Columbus," *Arab World* 12, no. 3 (March 1966). Excerpt from *The Arabian Night Entertainment: Consisting of One Thousand and One Stories, the First American Edition, Freely Transcribed from the Original Translation by Galland* (Baltimore: H. & P. Rice and J. Rice, 1794). Susan Nance, "Crossing Over: A Cultural History of American Engagement with the Muslim World,

1830–1940" (Ph.D. diss., Univ. of California, Berkeley, 2003), p. 25. See also the *Arabian Nights Resource Center*, http://www.crock11.freeserve.co.uk/arabian.htm.

(4) Alexis de Tocqueville, *Democracy in America*, ed. J. P. Mayer, trans. George Lawrence (New York: Harper & Row, 1969), p. 536. Edward McNall Burns, *The American Idea of Mission: Concepts of National Purpose and Destiny* (New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1957), p. 125. Daniel Boorstin, *The Americans: The National Experience* (New York: Random House, 1965), pp. 219, 264. William H. Goetzmann, *New Lands, New Men: America and the Second Great Age of Discovery* (New York: Viking, 1986), pp. 1, 5, 14. Frederick Jackson Turner, *The Frontier in American History* (1920; reprint, New York: Henry Holt, 1947), pp. 2, 30, 37, 38.

(5) Sparks, *Life of John Ledyard*, p. 305 ("Alexandria at large"). P. J. Vatikiotis, *The History of Egypt: From Muhammad Ali to Sadat* (Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1980), pp. 30–38. Samir Khalaf, *Persistence and Change in 19th Century Lebanon* (Beirut: American Univ. of Beirut, 1979), pp. 16–31. Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London: Oxford Univ. Press, 1968), pp. 21–39, and *The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror* (New York: Modern Library, 2003), pp. 64-65.

(6) Augur, *Passage to Glory*, pp. 265, 276 ("The Mahometans [are] a superstitious"), 277–80. Zug, *American Traveler*, p. 222 ("infinitely below"). Sparks, *Life of John Ledyard*, pp. 306, 307 ("This was about" and "nothing merits more"), 309, 310 ("very, very humiliating"), 314-15. Finnie, *Pioneers East*, pp. 139-40 ("dust, hot"). See also Robert D. Kaplan, *The Arabists: The Romance of an American Elite* (New York: Free Press, 1993), pp. 16-17.

(7) Finnie, *Pioneers East*, p. 140 ("a bilious complaint"). Wood, "John Ledyard the Traveler," ("full and perfect health"). Significant disagreement surrounds the date of Ledyard's death. Augur places it on March 4, 1789, and Dr. Wood on Jan. 17. Sparks, the official biographer, speculates that the

time was late Nov. 1788 On the basis of Ledyard's last letter to Jefferson, I have remained with Sparks's date, albeit without certainty.

(8) "An Egyptian Anecdote," *Ladies' Magazine*, April 1793 ("although generally tender"); "An Account of Egypt and Alexandria," Feb. 1793 ("absorbed in surprise"). Augur, *Passage to Glory*, p. 282 ("That Man"). J. Fred Rippy, *Joel R. Poinsett: Versatile American* (Durham: Duke Univ. Press, 1935), pp. 27–29. Finnie, *Pioneers East*, p. 14 ("long red pantaloons"). George Barrell, *Letters from Asia: Written by a Gentleman of Boston, to His Friend in That Place* (New York: A. T. Goodrich, 1819), p. 35 ("having perused"). Bruce G. Tigger, "Egyprology, Ancient Egypt and the American Imagination," in Nancy Thomas, ed., *The American Discovery of Ancient Egypt* (New York: Abrams, 1995), pp. 21–22. Thomas Jefferson, *The Writings of Thomas Jefferson*, vol. 7 (Washington, D.C.: Thomas Jefferson Memorial Association of the United States, 1903), p. 78. Ziff, *Return Passages*, p. 53 ("Ledyard was a great favourite").

الفصل الثالث: بوتقة الهوية الأمريكية

(1) Thomas Harris, *The Life and Services of Commodore William Bainbridge, United States Navy* (Philadelphia: Carey Lea and Blanchard, 1837), pp. 37, 45 ("You pay me tribute"). Robotti and Vescovi, *USS Essex*, pp. 70–72. Finnie, *Pioneers East*, pp. 48–50. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 56. Allen, *Our Navy*, pp. 75, 80–81. Wright, "American Relations with Turkey," pp. 31 ("To save the peace), 32–33 ("mortifying degradations"), 35–36. Richard Zacks, *The Pirate Coast; Thomas Jefferson, the First Marines, and the Secret Mission of 1805* (New York: Hyperion, 2005), pp. 13–15, 24.

(2) Lord Kinross, *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire* (New York: Morrow Quill, 1977), pp. 429–36. Stanford

Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,* vol. 1, *Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire, 1280-1808* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1976), pp. 260–74. Henry A. S. Dearborn, *The Life of William Bainbridge, Esq., of the United States Navy* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1931), p. 20. Barnby, *Prisoner of Algiers*, pp. 37, 84. Henry S. Osborn, *Palestine, Past and Present* (Philadelphia: James Challen and Son, 1859), p. 505. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 114-15. Lewis, *Crisis of Islam*, p. 66 ("heavenly bodies"). Turgay, "Ottoman-American Trade," p. 205.

(3) Glenn Tucker, *Dawn like Thunder: The Barbary Wars and the Birth of the U.S. Navy* (New York: Bobbs-Merrill, 1963), pp. 15–18. Wright, "American Relations with Turkey," pp. 31-32 ("Had we 10 or 12"), 34 ("Did the United States know"), 37–41, 42 ("Capitaines Vilon"). Allen, *Our Navy*, pp. 85-86. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 115-16. Bainbridge letter to Stodder, in Robotti and Vescovi, *USS Essex*, p. 76. Harris, *Life and Services of Commodore William Bainbridge*, p. 60.

(4) *Republic of Letters:* Jefferson to Madison, Aug. 28, 1801, pp. 1193-94 ("enemy to all these" and "send the powder"). Thomas Jefferson Papers: Jefferson to Wilson Cary Nicholas, June 11, 1801 ("There is no end"). *The Writings of Albert Gallatin*, ed. Henry Adams, vol. 1 (New York: Antiquarian Press, 1960): Gallatin to Jefferson, Dec. 1802, pp. 104-5. Kenneth J. Hagan, *This People's Navy: The Making of American Sea Power* (New York: Free Press, 1991), p. 55 ("deeply affected"). *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Cathcart to Date, Sept. 17, 1801, Cathcart to Madison, April 18, 1802, p. 127 ("to buy peace").

(5) Field, *America and the Mediterranean World*, p. 49 ("sinking, burning"). Herbert E. Klingelhofer, "Abolish the Navy!" *Manuscripts* 33, no. 4 (Fall 1981): 279–83. Macleod, "Jefferson and the Navy," p. 170. Allen, *Our Navy*, pp. 89-90 ("a delay on your part"), 94, 112-13. Wright, "American

Relations with Turkey," pp. 31–36. Dumas Malone, *Jefferson the President: First Term, 1801-1805* (Boston: little, Brown, 1970), p. 98.

(6) The *Enterprise* was commanded by Lt. Andrew Sterrett. See *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: National Intelligencer, Nov. 18, 1801, p. 539. Allen, *Our Navy*, pp. 89–91, 92–93, 97–101. Robotti and Vescovi, *USS Essex*, pp. 78–79, 91–93. *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Dale to Cathcart, Aug. 25, 1801, p. 560 ("amuse"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 79. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 49. Boot, *Savage Wars of Peace*, pp. 13–14.

(7) *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Dale to the Acting Secretary of the Navy, July 30, 1801, p. 535 ("the whole tribe"). *Circular Letters of Congressmen to Their Constituents, 1789-1829*, ed. Noble Cunningham (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1978), vol. 1: Letter from John Stratton, April 22, 1802, p. 281. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 96 ("Shall we buy"). For a fuller discussion of the constitutional aspects of Jefferson's policy toward North Africa, see Robert F. Turner, "The War on Terrorism and the Modern Relevance of the Congressional Power to "Declare War," *Harvard Journal of Law & Public Policy* 25 (2002). See also Gordon Silverstein, *Imbalance of Powers: Constitutional Interpretation and the Making of American Foreign Policy* (Oxford: Oxford Univ. Press, 1997), and David N. Mayer, "By the Chains of the Constitution: Separation of Powers Theory and Jefferson's Conception of the Presidency," *Perspectives on Political Science* 26 (1997).

(8) *Republic of Letters:* Madison to Jefferson, March 17, 1802, p. 1265; Jefferson to Madison, March 22, 1802, p. 1267; Madison to Jefferson, July 22, 1802, p. 1231. Allen, *Our Navy*, pp. 89–93, 109–10, 130–31. Thomas Jefferson Papers: Jefferson to Albert Gallatin, March 28, 1803. *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 2: Murray to Captain Richard Morris, Aug. 20, 1802, p. 242; Excerpt from the Journal of

Henry Wadsworth, Feb. 26, 1803, p. 437 ("Twas good sport"); vol. 3: Captain Murray to Congressman Joseph Nicholson, Nov. 5, 1803, p. 201. Cathcart, *Tripoli*, p. 111 ("venal wretch"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 88, 90, 99. Boot, *Savage Wars of Peace*, pp. 14–15 ("best exertions").

(9) *The Republic of Letters:* Madison to Jefferson, July 22, 1802, p. 1231; Jefferson to Madison, Aug. 17, 1802, p. 1264; Jefferson to Madison, March 19, 1803, p. 1266. *Life and Correspondence of Rufus King:* King to Madison, July 19, 1802, p. 149 ("Our security"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 65 ("rest the safety"), 113. *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 3: Preble to the Secretary of the Navy, Sept. 22, 1803, p. 70 ("The Moors"); Preble to Cathcart, March 18, 1804, p. 501. Robotti and Vescovi, *USS Essex*, pp. 112–13 ("his savage highness").

(10) *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 3: Bainbridge to James Simpson, Aug. 29, 1803 ("I sincerely hope"); John Ridgeley to Susan Decatur, Nov. 10, 1826, p. 425. Robotti and Vescovi, *USS Essex*, p. 100. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 114, 121. Allen, *Our Navy*, pp. 147–48 ("It is with deep regret"), 152–53, 164–65. Zacks, *Pirate Coast*, p. 48 ("Gift of Allah"). Harris, *Life and Services of Commodore William Bainbridge*, pp. 81, 92. Mohamed El Mansour, "The Anachronism of Maritime Jihad: The U.S.–Moroccan Conflict of 1802–1803," in Jerome Bookin-Weiner and Mohamed El Mansour, eds., *The Atlantic Connection: 200 Years of Moroccan–American Relations, 1786–1986* (Rabat: Edino Press, 1990).

(11) *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 3: Preble to the Secretary of the Navy, Dec. 10, 1803, pp. 256–57 ("Would to God"). James Tertius De Kay, *A Rage for Glory: The Life of Commodore Stephen Decatur* (New York: Free Press, 2004), pp. 38 ("We are now about"), 56. Allen, *Our Navy*, pp. 157, 160–73 ("The flames … ascending"). Robotti and Vescovi, *USS Essex*, p. 102. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 121, 123, 136. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 60.

(12) MML: William Eaton, *Interesting Detail of the Operations of the American Fleet in the Mediterranean, Communicated in a Letter from W. E. Esq. to His Friend in the County of Hampshire* (Springfield, Mass.: Bliss & Brewer, 1804), p. 7 ("bayonet, spear"). De Kay, *Rage for Glory*, p. 67 ("Some of the Turks"). Allen, *Our Navy*, pp. 181–85, 192–94, 214, 217. *Niles' Weekly Register*, March 7, 1812, p. 12 ("done more for the cause"). Robotti and Vescovi, *USS Essex*, pp. 78–79, 91–93. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 142, 156. Harris, *Life and Services of Commodore William Bainbridge*, p. 116. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 60 ("The most bold"). *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 3: Preble to the Secretary of the Navy, Feb. 19, 1804, p. 439 ("spend [his] life"); John Hall to William Burrows, Dec. 7, 1803, p. 254 ("eight oz. of bread); vol. 4: Preble to the Secretary of the Navy, Sept. 18, 1804, p. 301 ("I cannot but regret"). Jonathan Cowdery, *American Captives in Tripoli* (Boston: Belcher & Armstrong, 1806), pp. 13, 17 ("Such attempts served").

(13) *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 4: Diary of Surgeon Jonathan Cowdery, entry for Aug. 10, 1804, pp. 64–65. Thomas A. Bryson, *Tars, Turks, and Tankers: The Role of the United States Navy in the Middle East, 1800–1979* (London: Scarecrow, 1980), p. 14. Allen, *Our Navy*, pp. 176–77, 203–9, 217–18. Boot, *Savage Wars of Peace*, p. 22 ("like so many planets"). Robotti and Vescovi, *USS Essex*, p. 123. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 149, 172, 221 ("You have done well").

(14) *Writings of Albert Gallatin:* Gallatin to Jefferson, Aug. 16, 1802, pp. 88–89; Gallatin to Jefferson Jan. 18, 1803, 116. *Republic of Letters:* Jefferson to Madison, April 27, 1804, pp. 1324–25 ("the most serious one," "begging alms," and "beat … [the Algerians'] town"). Thomas Jefferson Papers, Princeton Univ.: Jefferson to Robert Smith, April 27, 1804. Allen, *Our Navy*, p. 197. *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 1: Cathcart to Dale, Sept. 17, 1801, p. 572; Cathcart to Madison, April 18,

1802, p. 127. Nathan Schachner, *Thomas Jefferson: A Biography* (New York: Thomas Yoseloff, 1951), pp. 685–86.

(15) William Eaton Papers (WEP) (San Marino, Calif.: Huntington Library). Negociations of the United States with the Kingdom of Tunis: William Eaton [no recipient], Feb. 21, 1799, p. 37 ("No man will"); roll 1: Eaton to Pynchon, Oct. 12, 1799 ("a man not overly"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 177–78 ("a great bulldog"). Kitzen, *Tripoli and the United States at War*, pp. 25–26. Wright and Macleod, *First Americans in North Africa*, p. 19.

(16) WEP, Negociations of the United States with the Kingdom of Tunis: Remarks &c made at Algiers: Feb. 13, 1799, p. 28 ("Universal God"); William Eaton to "Honorable Secretary of the United States," April, 1799, 117 ("land of rapine," "Genius of my country!" and "There is but one"); Eaton to General Smith, Aug. 19, 1802 ("Are we then"); Continued Communications from Tunis in Barbary: Eaton to Cathcart, Aug. 8, 1802, p. 237 ("[The] Government may as well"). Zacks, *Pirate Coast*, p. 31 ("a *fiddle bow*"). Wright and Macleod, *First Americans in North Africa*, pp. 20–21, 49–50. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 41–42. Allen, *Our Navy*, pp. 68–69. Allison, *Crescent Obscured*, pp. 168, 177.

(17) WEP, Negociations of the United States with the Kingdom of Tunis: Eaton to William Smith, Nov. 13, 1800 ("a cowardly Jew"); Eaton to General Smith, Aug. 19, 1802; Madison to Eaton, Aug. 22, 1802 ("zeal … and calculations"); William Eaton Journal, Sept. 4, 1804, p. 59 ("A whipt Spaniel!"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 54, 94–95, 183. Eaton to William Smith, May 24, 1801 ("buy[ing] oil of rose").

(18) Eaton, *Interesting Detail of the Operations*, p. 29 ("sun-brown children"). See also R. C. Anderson, *Naval Wars in the Levant, 1559–1853* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1952), p. 405. WEP, Continued Communications from Tunis in Barbary: Eaton to the Department of State, Sept. 5,

1801; Eaton to Samuel Lyman, Oct. 12, 1801; Eaton to Mr. James Uphorn, Aug. 11, 1802; Eaton to Hamet Dec. 14, 1804 ("God ordained"). *Republic of Letters:* Jefferson to Madison, Aug. 28, 1801, p. 1193. Robotti and Vescovi, *USS Essex*, p. 88. Allen, *Our Navy*, pp. 57–66, 110–12, 187, 217.

(19) Zacks, *Pirate Coast*, pp. 184 "(Cash … is the only"), 188. WEP, William Eaton Journal, March 20, 1805, p. 20 ("o'er burning sands"); William Eaton Journal, March 30, 1805, p. 25 ("They have no sense"); Negociations of the United States with the Kingdom of Tunis: Eaton to the Governor of Derne, April 26, 1805 ("Let no difference"). Allen, *Our Navy*, pp. 229–32, 235–39, 243–44. Finnie, *Pioneers East*, p. 258. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 53–54.

(20) *Republic of Letters:* Madison to Jefferson, July 25, 1806, p. 1427; Madison to Jefferson, July 28, 1806, p. 1429; Madison to Jefferson, Sept. 4, 1806, p. 1438; Jefferson to Madison, Sept. 16, 1806, p. 1439. Robotti and Vescovi, *USS Essex*, p. 116. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 55 ("Georgia, a Greek"). Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 253 ("so unusually honorable").

(21) *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 2: Madison to Lear, July 14, 1805, p. 485. WEP, Negociations of the United States with the Kingdom of Tunis: Eaton to the Secretary of State, May 7, 1800; Eaton to Mr. Appleton, Feb. 18, 1800 ("covered with blood"); William Eaton to Corn. Rodgers, on board the U.S. frigate Constellation, off Derne: June 13, 1805 ("uttering shrieks"). Zacks, *Pirate Coast*, p. 175. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, pp. 235–37, 239, 244, 253. Harris, *Life and Services of Commodore William Bainbridge*, p. 123.

(22) WEP, Hamet Bashaw Caramali to Eaton, June 29, 1805; Eaton to the President of the United States, Feb. 12, 1808 ("Honor recoils"). *Republic of Letters:* Jefferson to Madison, Aug. 2, 1806, pp. 1431–32. Allen, *Our Navy*, pp. 252–53, 256 ("You have acquired").

(23) Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 221. Thomas Jefferson Papers: Jefferson's Report to Congress, Dec. 3, 1805.

(24) *Republic of Letters:* Jefferson to Madison, Sept. 1, 1807, p. 1494 ("to secure peace"). Perkins, *Cambridge History of American Foreign Relations*, pp. 145–46. Robotti and Vescovi, *USS Essex*, pp. 145–46. Hurewitz, *Middle East and North Africa*, p. 202. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 57. Allen, *Our Navy*, pp. 277 ("Should our differences"), 279 ("My policy"). *An Affecting Narrative of the Captivity and Suffering of Thomas Nicholson Who Has Been Six Years a Prisoner among the Algerines* (Boston: N. Coverly, 1818), pp. 5–6, 11.

(25) Jonathan D. Sarna, *Jacksonian Jew: The Two Worlds of Mordecai Noah* (New York: Holmes & Meier, 1981), pp. 13—27, 28 ("It might be well"), 29—33. Isaac Goldberg, *Major Noah: American-Jewish Frontier* (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1936), pp. 76—80, 117—26. See also Mordecai Manuel Noah, *Correspondence and Documents Relative to the Attempt to Negotiate for the Release of the American Captives at Algiers Including Remarks on Our Relations with that Regency* (Washington, D.C.: n.p., 1816). "Judaic Treasures of the Library of Congress: Mordecai Manuel Noah," http://www.us-israel.org/jsource/loc/noah.html. For David Franks, see Frederick C. Leiner, *The End of Barbary Terror: American's 1815 War against the Pirates of North Africa* (Oxford: Oxford Univ. Press, 2006), p. 30.

(26) Allen, *Our Navy*, pp. 283–84, 286–87, 289 ("swept from the seas "and "dictated from the mouths"). Field, *America and the Mediterranean World*, p. 58 ("liberal and enlightened"). Boot, *Savage Wars of Peace*, pp. 27–28 ("powder as tribute"). Leiner, *End of Barbary Terror*, pp. 46–47, 68–69 ("serious disasters"). William Shaler, *Sketches of Algiers* (Boston: Cummings, Hillard, 1826), pp. 38 ("worthless a power"), 101 ("Islamism"), 126–27, 167–68. For the Madison-dey correspondence see Hurewitz,

Middle East and North Africa, pp. 206–7. On the personality and foreign policy views of James Madison, see J. C. A. Stagg, *Mr. Madison's War: Politics, Diplomacy, and Warfare in the Early American Republic, 1783–1830* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1983), p. 506. Drew R. McCloy, *The Last of the Fathers: James Madison and the Republican Legacy* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1989), pp. 18, 22, 26. Robert A. Rutland, *The Presidency of James Madison* (Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1990), pp. 2, 18–20, 25–26.

(27) *Niles' Weekly Register*, April 15, 1815 ("The name of an American"); Oct. 15, 1815 ("energy which liberty"). Marshall Smelser, *The Democratic Republic* (New York: Harper & Row, 1968), p. 60. Boot, *Savage Wars of Peace*, p. 28. Allison, *Crescent Obscured*, pp. 33, 201–6. Allen, *Our Navy*, p. 295 ("It was not to be"). Irving Brant, *James Madison*, vol. 6 (New York: Bobbs-Merrill, 1961), p. 398. Dennis Caplan, "John Adams, Thomas Jefferson, and the Barbary Pirates: An Illustration of Relevant Costs for Decision Making," *Issues in Accounting Education* 18, no. 3 (2003). James Ellison, *The American Captive; or, The Siege of Tripoli: A Drama in Five Acts* (Boston: Joshua Belcher, 1812). Joseph Hanson, *The Musselmen Humbled; or, A Heroic Poem in Celebration of the Bravery Displayed by the American Tars, in the Contest with Tripoli* (New York; Southwick and Hardcastle, 1806).

(28) Jefferson to Adams, May 27, 1813, in *Adams-Jefferson Letters*, p. 325. See also *Adams-Jefferson Letters:* John Adams to Thomas Jefferson, June 11, 1813, pp. 328–29. WEP, Eaton to General Bradley, Jan. 15, 1810 ("I am closely besieged"). William Harlan Hale, "General Eaton and His Improbable Legion," *American Heritage* 11, no. 2 (Feb. 1960): 106. Whipple, *To the Shores of Tripoli*, p. 280. Allison, *Crescent Obscured*, pp. 205–6. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 336. Allen, *Our Navy*, pp. 265–66.

(29) *Naval Documents Related to the United States Wars*, vol. 3: Statement by Motdecai Noah, Nov. 8, 1826, p. 232. John Martin Baker, *A View*

of the Commerce of the Mediterranean (Washington, D.C.: Davis and Force, 1819), p. 67. Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 2. Finnie, *Pioneers East*, pp. 32–33 ("What a reproof"), 119, 258. Smelser, *Democratic Republic*, p. 313.

الفصل الرابع: تنوير العالم وتحريره

(1) *Levi Parsons, The Dereliction and Restoration of the Jews: A Sermon, Preached in Park-Street Church Boston, Sabbath, Oct. 31, 1819, Just before the Departure of the Palestine Mission* (Boston: Samuel T. Armstrong, 1819). Levi Parson, *The Memoir of Rev. Levi Parsons*, comp. Daniel Oliver Morton (New York: Arno Press, 1977), p. 219 ("The spirit of the missions"). Alvan Bond, *Memoir of the Rev. Pliny Fisk* (New York: Arno Press, 1977), pp. 63, 96–97 ("And now, behold"). Marty E. Martin, *Pilgrims in Their Own Land: 500 Years of Religion in America* (Boston: Little, Brown, 1984), pp. 146–47. Clifton Jackson Phillips, *Protestant America and the Pagan World: The First Half Century of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1810–1860* (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1969), p. 135. Finnie, *Pioneers East*, pp. 150–51. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 13—16. Kaplan, *Arabists*, p. 2l. Instructions to Fisk and Pliny, in Field, *America and the Mediterranean World*, p. 93.

(2) Barbara W. Tuchman, *Bible and Sword: England and Palestine from the Bronze Age to Balfour* (New York: Ballantine, 1956), pp. 80 ("the genius and history"), 81, 124–25. Edward Robinson, *Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea*, vol. 1 (Boston: Crocker and Brewster, 1841), p. 46. Yona Malachy, *American Fundamentalism and Israel: The Relation of Fundamentalist Churches to Zionism and the State of Israel* (Jerusalem: Graph Press, 1978). Everett Emerson, *Puritanism in America, 1620–1750* (Boston: Twayne, 1977), pp. 71–72, 90—92. Cecelia

Tichi, "The Puritan Historians and Their New Jerusalem," *Early American Literature* 6 (1971). John Davis, *The Landscape of Belief: Encountering the Holy Land in Nineteenth-Century American Art and Culture* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1996), p. 14 ("Jerusalem was"). Shalom Goldman, ed., *Hebrew and the Bible in America: The First Two Centuries*. (Hanover: Brandeis Univ. Press and Dartmouth College, 1993), pp. xv–xxii, 105, and *God's Sacred Tongue: Hebrew and the American Imagination* (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 2004), p. 29 ("[In] New England").

(3) Burns, *The American Idea of Mission*, pp. 5, 11, 18, 31, 261. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 12, 28–29. Willard Sterne Randall, *Alexander Hamilton: A Life* (New York: Perennial, 2003), p. 18. Ron Chernow, *Alexander Hamilton* (New York: Penguin, 2004), p. 18 ("entirely out of the ordinary"). Davis, *The Landscape of Belief*, p. 15 ("instead of the twelve"). Conrad Cherry, ed., *God's New Israel: Religious Interpretations of American Destiny* (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1998), pp. 40 ("City on the Hill"), 62–71, 82–85. Jon Meacham, *American Gospel: God, the Founding Fathers, and the Making of a Nation* (New York: Random House, 2006), pp. 79–84.

(4) Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 10. Bond, *Memoir of the Rev. Pliny Fisk*, p. 111 ("The Christian … ought"). Tocqueville, *Democracy in America*, pp. 418–19. Phillips, *Protestant America*, p. 8 ("We have now entered"), 12 ("the tabernacle of God"). Perkins, *Cambridge History of American Foreign Relations*, p. 4 ("an object so valuable"). Cherry, *God's New Israel*, p. 65 ("a great … design"). See also Brooke Allen, "Our Godless Constitution," *Nation*, Feb. 3, 2005.

(5) Kenneth Latourette, *Missions and the American Mind* (Indianapolis: National Foundation Press, 1949), pp. 28 ("Though you and I"), 31–34. Phillips, *Protestant America*, p. 20. Walter Russell Mead, *Special Providence:*

American Foreign Policy and How It Changed the World (New York: Routledge, 2002), pp. 151–52. Kaplan, *Arabists*, p. 19 ("Only the extension"). Rao H. Lindsay, *Nineteenth Century American Schools in the Levant: A Study of Purposes* (Ann Arbor: Univ. of Michigan School of Education, 1965), pp. 61—63, 67. Finnie, *Pioneers East*, pp. 50 ("the groans" and "Zion will now"), 114–15.

(6) Israel Finestein, "Early and Middle 19th–Century British Opinion on the Restoration of the Jews: Contrasts with America," in Moshe Davis, ed., *With Eyes toward Zion*, vol. 2: *Themes and Sources in the Archives of the United States, Great Britain, Turkey and Israel* (New York: Praeger, 1986), pp. 74—77, 79–80. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 34, 37. Martin, *Pilgrims in Their Own Land*, pp. 181–82. Tuchman, *Bible and Sword*, p. 121 ("transport lzraell's sons"). Lester I. Vogel, *To See a Promised Land: Americans and the Holy Land in the Nineteenth Century* (University Park: Pennsylvania State Univ. Press, 1993), pp. 125–26. Cherry, *God's New Israel*, p. 91 ("the return of the twelve"). Marr, "Imagining Ishmael," pp. 32–33, 35 ("When that empire falls"), 37—40, 61.

(7) *Niles' Weekly Register* Nov. 9, 1816, p. 168. Naomi Shepherd, *The Zealous Intruders: The Western Rediscovery of Palestine* (London: Collins, 1987), p. 39. Tibawi, *American interests in Syria*, pp. 5—8. Field, *America and the Mediterranean World*, 281. Elias Boudinot, *A Star in the West; or, A Humble Attempt to Discover the Long Lost Ten Tribes of Israel, Preparatory to Their Return to Their Beloved City, Jerusalem* (Trenton, N.J: Fenton, Hutchinson, and Dunham, 1816), p. 43. Michael Schuldiner and Daniel J. Kleinfeld, *The Selected Writings of Mordecai Noah* (London: Greenwood, 1999), p. 127 ("a hundred thousand").

(8) Twenty cities in the United States are named for Smyrna, which is twice mentioned in the New Testament (see Revelations 1:10–11 and 2:8). Papers of the American Board of Commissioners for Foreign Missions

(PABCFM), 5/515/0039, Mission to the Jews, vol. 3: Journal of Eli Smith, Jan. 23, 1827 ("There seems to be"). Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 13–14 ("Do nothing rashly"), 17, 23. Parsons, *Memoir*, pp. 222 ("With the spirit"), 240 ("The permission to"). Finnie, *Pioneers East*, p. 151 ("wear a turban").

(9) PABCFM, 5/515/0039, Mission to the Jews, vol. 3: Journal of Eli Smith, Dec. 12, 1826 (estimation of Jerusalem's Jewish population). Rev. Harvey Newcomb, *Cyclopedia of Missions* (New York: Scribner, 1854), p. 734. Parsons, *Memoir*, pp. 263, 363 ("no place in the world"), 385 ("The door is already"), 390 ("the present commotions"). Moshe Davis and Yehoshua Ben–Arieh, *With Eyes toward Zion*, vol. 5, *Jerusalem in the Mind of the Western World, 1800–1848* (New York: Praeger, 1997), pp. 95–96, 144. Finnie, *Pioneers East*, pp. 24, 151–52. Joseph L. Grabill, *Protestant Diplomacy and the Near East: Missionary Influence on American Policy, 1810–1927* (Minneapolis: Univ. of Minnesota Press, 1969), p. 7 ("Thy spirit, Parsons").

(10) Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 22 ("Suffer not your minds"). *The Missionary Herald: Reports from Ottoman Syria, 1819–1870,* vol. 1, ed. Kamal Salibi and Yusuf Khoury (Amman: Royal Institute for Inter–Faith Studies, 1995): Journal of Jonas King, May 10, 1825, p. 405 ("the Arabs poured down"). Isaac Bird, *Bible Work in Bible Lands* (Philadel–phia: Presbyterian Board of Publication, 1872), p. 15. Finnie, *Pioneers East*, pp. 154–55 ("He gave us").

(11) PABCFM, 5/515/0039, Mission to the Jews, vol. 3: Journal of Eli Smith, March 1, 1827 ("She was brought"); May 13, 1824; April 18, 1825 ("It is by no means"), Gridley to Anderson, Nov. 16, 1826 ("Scarcely ten"). Newcomb, *Cyclopedia of Missions*, p. 735 ("Druses, Maronites"). Burns, *American Idea of Mission*, p. 261. Shep–herd, *Zealous Intruders*, p. 40. Field,

America and the Mediterranean World, pp. 94–95, 103, 129 ("missionaries loaded with books"). Julius Richter, *History of Protestant Missions in the Near East* (New York: AMS Press, 1970), p. 187. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 28–29, 42. Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 8.

(12) Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 25–26, 32–35, 37–39. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 98–99, 103. Finnie, *Pioneers East*, pp. 152, 171, 191–92.

(13) George H. Scherer, *Mediterranean Missions, 1808–1870* (Beirut: Bible Lands Union for Christian Education, n.d.), p. 7. Adnan Abu-Ghazaleh, *American Missions in Syria: A Study in Missionary Contributions to Arab Nationalism in 19th Century Syria* (Brattleboro, Vt.: Amana Books, 1990), pp. 20–21. Kaplan, *Arabists*, p. 21 ("Christian workers"). Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 18 ("day of small things"), 35–37, 38 ("a wide and effectual"), 42.

الباب الثاني: الشرق الأوسط وأمريكا ما قبل الحرب الأهلية

الفصل الخامس: اندماج وصراع

(1) Pierre Crabites, *Americans in the Egyptian Army* (London: Routledge, 1938), p. 25 ("pale, delicate-looking"). Finnie, *Pioneers East*, pp. 144–45, 146–47 ("to the prosperity"). Wright, "American Relations with Turkey," pp. 95–96. George Bethune English, *A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennaar under the Command of His Excellence Ismael Pasha Undertaken by Order of His Highness Mehemmed Ali Pasha Viceroy of Egypt* (Boston: Wells and Lilly, 1823), p. 114 ("the land of the free"). George Bethune English, *The Grounds of Christianity Examined by Comparing the New Testament with the Old* (Boston: A.M., 1813), p. 113. George Bethune English, *A Letter to the Reverend Mr. Cary Containing Remarks upon His*

Review of the Grounds of Christianity Examined by Comparing the New Testament with the Old by the Author of That Work (Boston: Printed for the Author, 1813), pp. 76 ("worship of angels"), 118 ("infernal wickedness"). George Bethune English, *Letter Respectfully Addressed to the Reverend Mr. Channing Relative to His Two Sermons on Infidelity* (Boston: Printed for the Author, 1813), pp. 9, 30.

(2) English, *Narrative of the Expedition to Dongola and Sennaar*, pp. 18—20, 32 ("We are lost!"), 49, 59 ("luckless fornicators"), 61–62 ("monuments of his"). See also Finnie, *Pioneers East*, p. 147. Wright, "American Relations with Turkey," p. 96 ("Obstinate hostility to the truth"). *Adams–Jefferson Letters:* Adams to Jefferson, March 10, 1823, p. 591.

(3) *Adams–Jefferson Letters:* Adams to Jefferson, June 6, 1785, p. 133. Republic of Letters: Jefferson to Madison, April 15, 1804, p. 1309. Kennedy, *American Consul*, pp. 94–95. Barrell, *Letters from Asia*, pp. 13–14. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 118 ("bribery and brass"). Josiah Brewer, *A Residence at Constantinople in the Year 1827, with Notes to the Present Time* (New Haven: Durrie and Peck, 1830), p. 71. Bryson, *American Diplomatic Relations*, pp. 17–18. Wright, "American Relations with Turkey," pp. 58—63. Finnie, *Pioneers East*, pp. 26—29, 30 ("Imaginary Protection"). Ades Nimet Kurat, "Archival Documents concerning Relations between Turkey and the United States of America," *Journal of Historical Research* [Turkish] 5 (1964): 290 ("There is no benefit").

(4) John Lewis Gaddis, *Surprise, Security and the American Experience* (Cambridge: Harvard Univ. Press, 2004), p. 15. Mary W. M. Hargreaves, *The Presidency of John Quincy Adams* (Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1985), pp. 29–30, 38. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 119–20 ("preserve him"). Finnie, *Pioneers East*, pp. 51–52. Wright, "American Relations with Turkey," pp. 28, 78—81, 89. Kurat, "Archival Documents," pp. 292 ("Though once only"), 308–9 ("Their cannon foundries").

(5) Bryson, *American Diplomatic Relations*, p. 10 ("fellow-citizens of Penn"). Myrtle Cline, *American Attitude toward the Greek War of Independence, 1821-1828* (Atlanta: Higgins-McArthur, 1930), pp. 29 ("Sacred to the cause"), 63 ("My old imagination"), 98 ("Humanity, policy"). Edward Mead Earle, "Early American Policy Concerning Ottoman Minorities," *Political Science Quarterly* 42 (March 1927): 45 ("purge Greece"), 46 ("how spontaneously"), 47, 55-56. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 121 ("see the language"). Little, *American Orientalism*, p. 12 ("Wherever the arms"). Thomas Robbins, *Diaries, 1796-1854* (Boston: Thomas Todd, 1886): vol. 2, entry for April 11, 1829, p. 90. Samuel Gridely Howe, *An Historical Sketch of the Greek Revolution* (New York: n.p., 1828), pp. 36–38.

(6) Samuel Woodruff, *Journal of a Tour to Malta, Greece, Asia Minor, Carthage, Algiers, Port Mahon, and Spain* (Hartford: Cooke, 1831), p. 11. Bryson, *American Diplomatic Relations*, pp. 11-12 ("cherish[ed] sentiments"), 13–15. John Quincy Adams, *The American Annual Register, 1827-1829* (New York: Blunt, 1830), pp. 269 ("fanatic and fraudulent," "Ismael," and "doctrine [of] violence"), 274 ("the subjugation of others"), 299 ("the natural hatred"), 303. Samuel Flagg Bemis, *John Quincy Adams and the Foundations of American Foreign Policy* (New York: Knopf, 1956), p. 388. See also *American Philhellenes and the War for Independence*, http://www.ahepafamily.org/d5/Grk%20Inde-mar02.htm.

(7) Hargreaves, *Presidency of John Quincy Adams*, 86. Wright, "American Relations with Turkey," pp. 96-97 ("You will inform me" and "American Mussulman"), 109-10 ("much engaged" and "his good offices").

(8) Bemis, *John Quincy Adams*, p. 468. Hargreaves, *Presidency of John Quincy Adams*, pp. 85-86, 121. Finnie, *Pioneers East*, pp. 53–56. Wright, "American Relations with Turkey," pp. 109-10, 148 ("misconduct"). John Quincy Adams, *it Chronology, Documents and Bibliographical Aids*

(New York: Oceana Publications, 1970), p. 84 ("suffering Greeks"). Kurat, "Archival Documents," p. 293 ("See how these Franks").

(9) For general histories of the reign and policies of Muhammad Ali, see Henry H. Dodwell, *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad Ali* (1931; reprint, New York: AMS Press, 1977), and Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1984). See also Shimon Shamir, "Egyptian Rule (1832—1840) and the Beginning of the Modern Period in the History of Palestine," in Gabriel Baer and Amnon Cohen, eds., *Egypt and Palestine: A Millennium of Association (868-1948)* (New York: St. Martin's, 1984), pp. 214—31.

(10) The Senate approved the treaty, but objected to the provision of warships. Jackson chose to ignore the Senate's objections, and proceeded with arms sales to Turkey. Robert V. Remini, *Andrew Jackson and the Course of American Freedom, 1822-1832*, vol. 2 (New York: Harper & Row, 1981), p. 289 ("to leave no proper" and "the most friendly"). Kurat, "Archival Documents," pp. 293-94. John M. Belohlavek, *Let the Eagle Soar!: The Foreign Policy of Andrew Jackson* (Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1985), pp. 130—38. Donald B. Cole, *The Presidency of Andrew Jackson* (Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1993), p. 128. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 145-46 ("Americans will be"). Lester D. Langley, "Jacksonian America and the Ottoman Empire," *The Muslim World* (Hartford: Duncan Black Macdonald Center, Hartford Seminary Foundation, 1978), pp. 46—49. Tungay, "Ottoman-American Trade," pp. 208—11. Text of the U.S.-Ottoman Treaty can be found in Hurewitz, *Middle East and North Africa*, pp. 246-47.

(11) In appreciation of the sultan's purchases of his pistols. Samuel Colt presented him with a gold-plated revolver emblazoned with the images of George Washington and the Great Seal. The firearm, today valued at $5@ million, is on display at New York's Metropolitan Museum of

Art. Wright, "American Relations with Turkey," p. 138. Diplomatic Instructions of the Department of State, 1801–1906. Turkey. April 2, 1823–July 9, 1859. Microfilm 77, roll 162: John Forsyth to David Porter, May 16, 1837 ("improvement in seamanship"). Finnie, *Pioneers East*, pp. 16, 163–65, 175. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 168-69 ("balls without gunpowder"), 189 ("chairs and tables"), 191, 229. Sarah Rogers Haight, *Letters from the Old World by a Lady of New York* (New York: Harper, 1840), p. 193. Nathaniel Parker Willis, *Summer Cruise in the Mediterranean on an American Frigate* (New York: Scribner, 1853), p. 277. Brewer, *Residence at Constantinople*, p. 72. See also Thomas A. Bryson, *An American Consular Officer in the Middle East in the Jacksonian Era: A Biography of William Brown Hodgson, 1801-1871* (Atlanta: Resurgens, 1979), p. 42.

(12) Edmund Roberts, *Embassy to the Eastern Courts of Cochin-China, Siam, and Muscat, in the U.S. Sloop-of-War Peacock, during the Years 1832-3-4* (New York: Harper, 1837) (courtesy of the New Hampshire Historical Society and the Tuck Library), pp. 343–45 ("the scene of"), 361 ("A strict lover"), 362–64. *New England Merchants in Africa: A History through Documents, 1802-1865*, ed. Norman Bennett and George Brooks (Boston: Boston Univ. Press, 1965): Edmund Roberts to Louis Mclane, May 14, 1834, pp. 156-57. Michael A. Palmer, *Guardians of the Gulf: A History of America's Expanding Role in the Persian Gulf, 1833-1992* (New York: Free Press, 1992), pp. 3-4. Among the coins presented to Sultan Sa'id was an extremely rare 1804 silver dollar now known as the Watters-Childs specimen, which last sold for $4.4 million. See http://www.geocities.com/CollegePark/Union/8191/mcsh/Omanncss.html and http://www.coinfacts.com/silver_dollars/1804_dollars/1804_Draped_Bust_Silver_Dollar.htm.

(13) Finnie, *Pioneers East*, pp. 258 ("salutary effect"), 261 ("savage and uncivilized"). *Missionary Herald*, vol. 2: Letter from Eli Smith, Sept. 17,

1834, p. 431 (“multitude of Arab Christians”). John Israel and Henry Lundt, *Journal of a Cruize in the U.S. Ship Delaware 74 in the Mediterranean in the Years 1833 & 34* (1835; reprint, New York: Arno Press, 1977). George Jones, *Excursions to Cairo, Jerusalem, Damascus, and Balbec from the United States Ship* Delaware, *during Her Recent Cruise: With an Attempt to Discriminate between Truth and Error in Regard to the Sacred Places of the Holy City* (New York: Van Nostrand and Dwight, 1836). See also “An Audience with Sultan Abdul Mejud,” by An American, *Knickerbocker* 19 (June 1842).

(14) Frank E. Manuel, *The Realities of American-Palestine Relations* (1949; West-port, Conn.: Greenwood, 1975), pp. 9-10. Kennedy, *American Consul*, pp. 86—89, 97-98. Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 88. Finnie, *Pioneers East*, pp. 250—53 (“Our whole consular”). Luella J. Hall, *The United States and Morocco, 1776-1956* (Metuchen, N.J.: Scarecrow, 1971), pp. 90-91. Ruth Kark, “Annual Reports of the United States Consuls in the Holy Land as a Source for the Study of 19th Century Eretz Israel,” in Davis, *With Eyes toward Zion*, vol. 2, pp. 131-32.

(15) USNA, Dispatches from U.S. Ministers to Turkey, 1818—1906 (Microfilm M46): David Porter to Nicholas Navoni, Sept. 23, 1831. W. M. Churchill to the Secretary of State, Aug. 10, 1833. *The Papers of Daniel Webster*, ser. 3, *Diplomatic Papers*, vol. 1 (Hanover: Univ. Press of New England, 1983), pp. 23-24. David Long, *Nothing Too Daring: A Biography of Commodore David Porter, 1780-1843* (Annapolis: U.S. Naval Institute, 1970), pp. 17—21. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 3, 90. Archibald Douglas Turnbull, *Commodore David Porter, 1780-1843* (New York: Century, 1929), pp. 250-51. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 151, 168 (“There is no part”), 174. Finnie, *Pioneers East*, pp. 83—85 (“the head and neck”), 88 (“Salaams are”), 91, 94.

(16) Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 165–67, 170, 174. Finnie, *Pioneers East*, pp. 68, 71–73, 94-95 ("Had I the talent"), 259. Kennedy, *American Consul*, pp. 92–95. Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 3. Cary Corwin Conn, "John Porter Brown, Father of Turkish-American Relations: An Ohioan at the Sublime Porte, 1832–1872" (Ph.D. diss., Ohio State Univ., 1973), pp. 48-49.

(17) The pardon came too late, however, for two of the Syrians Jews, who were tortured to death. See Jonathan Frankel, *The Damascus Affair: "Ritual Murder," Politics, and the Jews in 1840* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1997). Sarna, *Jacksonian Jew*, pp. 123–25. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 3, 90. Malachy, *American Fundamentalism and Israel*, pp. 23–25. Diplomatic Instructions of the Department of State, 1801–1906. Turkey. April 2, 1823–July 9, 1859. Microfilm 77, roll 162: John Forsyth to David Porter, Aug. 17, 1840 ("atrocious cruelties").

(18) *Papers of Daniel Webster*, pp. 273-74 ("Avoid doing anything"), 277-78 ("Frank residents of Beyrout"), 280. Stephen Vincent Benet, *The Devil and Daniel Webster and Other Writings* (New York: Penguin, 2000). Irving H. Bartlett, *Daniel Webster* (New York: Norton, 1978), pp. 24, 44, 73, 85. Robert Seeger, *And Tyler Too: A Biography of John and Julia Gardiner Tyler* (New York: McGraw-Hill, 1963), pp. 104, 109. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 287–89, 350-51 ("A reading nation"). Finnie, *Pioneers East*, pp. 94–95, 126–27 ("at their own risk"). Franklin Steiner, *The Religious Beliefs of Our Presidents: From Washington to F.D.R.* (New York: Prometheus, 1995), pp. 95-97.

الفصل السادس: المصير الحتمي للشرق الأوسط

(1) Brewer, *Residence at Constantinople*, pp. 25, 65, 361, 370. Finnie, *Pioneers East*, 36–37 ("Our *Pilgrim mothers*").

(2) Newcomb, *Cyclopedia of Missions*, p. 737. Finnie, *Pioneers East*, pp. 50–51, 57, 171–72 ("I have not heard" and "roar of cannon"), 172–87. *Missionary Herald*, vol. 2: Journal of Mr. Thomson, April 16, 1834, p. 373 ("The Jordan"); Journal of Mr. Thomson [written in Nablus], April 23, 1834, p. 378 ("the wreck"); Whiting to Dodge, Nov. 17, 1834, p. 441. Davis, *Landscape of Belief*, p. 45. Newcomb, *Cyclopedia of Missions*, p. 737 ("not a single soul"). Yehoshua Ben-Arieh, *Painting the Holy Land in the 19th Century* (Jerusalem: Yad Izhak Ben-Zvi, 1997), p. 210. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 100–1. Bird, *Bible Work in Bible Lands*, p. 87 ("a land of devils"). See also Shamir, "Egyptian Rule," pp. 214—31.

(3) Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 40—43 ("The Turks … exhibit"). Board report in Newcomb, *Cyclopedia of Missions*, p. 737. Finnie, *Pioneers East*, pp. 35—38, 39 ("gloomy, austere"), 42 ("The thought of their"), 124, 193–94. Brewer, *Residence at Constantinople*, pp. 383–84.

(4) Horatio Southgate, *Narrative of a Tour through Armenia, Kurdistan, Persia, and Mesopotamia* (London: Appleton, 1840), pp. 300–1 ("the first Americans"). Kaplan, *Arabists*, pp. 22–23 ("every species"), 24–25. Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 79. Finnie, *Pioneers East*, pp. 208–9 ("I felt a stronger desire"), 216–17 ("The sick, the lame"), 196–97, 205—7, 214–15 ("his eye bright").

(5) Finnie, *Pioneers East*, 118–19, 205—9 ("Enfeebled health"), 238–39 ("Let us have"). Louisa Hawes, *Memoir of Mrs. M. E. Van Lennep, by Her Mother* (Hartford: Belknap and Hamersley, 1849), p. 325 ("I sometimes fear"). Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 73 ("The hour is near"). Hawes, *Memoir of Mrs. M. E. Van Lemep*, p. 325. *Missionary Herald*, vol. 2: Letter from Eli Smith, June 21, 1827, p. 247; Memoir of William Goodell, 1825, p. 431 ("a man's hat"). *The Reminiscences of Daniel Bliss* (New York: Revell, 1920), p. 106 ("You Americans think").

(6) Robert T. Handy, *The Holy Land in American Protestant Life, 1800-1948* (New York: Arno Press, 1981), 85–86 ("Whereas, but"). Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 56, 82–83, 121–22, 170—76. Finnie, *Pioneers East*, pp. 109 ("liberty, property"), 200–1 ("Not only do"). Stephen Penrose, *That They May Have Life: The Story of the American University of Beirut, 1866-1941* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1941), p. 6.

(7) *Missionary Herald*, vol. 2: Letter from Mr. Marsh, Feb. 25, 1851, p. 299. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 210 ("ought to know"), 250, 351 ("I do love"). Finnie, *Pioneers East*, p. 129 ("full extent" and "I am persuaded"). Phillips, *Protestant America*, p. 259. William Goodell, *Forty Years in the Turkish Empire* (New York: Robert Carter, 1883), p. 174 ("We have come") For insights into missionary views of Islam and Muhammad, see Thomas Laurie, *The Ely Volume; or, The Contributions of Our Foreign Missions to Science and Human Well-Being* (Boston: American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1881), pp. 320—22, and the anonymous *Life of Mohammad* (Bombay: American Mission Press, 1851). The semidiplomatic role of European missionaries is discussed in Derek Hopwood, *The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843-1914: Church and Politics in the Near East* (Oxford: Clarendon Press, 1969), p. 59.

(8) Cyrus Hamlin, *My Life and Times* (Boston: Pilgrim Press, 1893), pp. 30, 62. Cyrus Hamlin, *Among the Turks* (New York: Robert Carter, 1878), pp. 57 ("a decided impression"), 62 ("rather leaky"). Finnie, *Pioneers East*, pp. 99—108, 109 ("indomitably self-willed"). Field, *America and the Mediterranean World*, p. 297 ("querulous" and "despotic"), 347–48.

(9) Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 118–19. Latourette, *Missions and the American Mind*, p. 33. Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 4. Lindsay, *Nineteenth Century American Schools*, p. 66. Phillips, *Protestant America*, p. 316. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 97–98. Mead, *Special Providence*, pp. 143, 146—48, 150–51. Lewis, *Crisis of Islam*, p. 67 ("This

country is”). PABCFM: Eddy to the American Board, Sept. 7, 1867 (“There are no rail”). Benjamin Foster, “Yale and the Study of Near Eastern Languages in America, 1770–1930,” in Amanat and Bernhardsson, eds., *United States and the Middle East*, pp. 18 (“The countries of the West”), 19. Bruce Kuklick, *Puritans in Babylon: The Ancient Near East and American Intellectual Life, 1880-1930* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1996), pp. 5, 20–22. John Thornton Kirkland, “Letter on the Holy Land,” *Christian Examiner and General Review* 23, no. 2 (1842): 261. Elizabeth Cabot Kirkland, *Letters* (Cambridge: Massachusetts Historical Society, 1905), p. 503 (“These worthy people”).

(10) Robinson, *Biblical Researches Palestine*, vol. 1, pp. 23–25, 75, 133 (“strangeness and overpowering” and “Although not given”). William Thomson, *The Land and the Book; or, Biblical Illustrations Drawn from the Manners and Customs, the Scenes and Scenery, of the Holy Land*, vol. 1 (New York: Harper, 1886), p. 6. Manuel, *Realities*, pp. 6–12. Ruth Kark, *American Consuls in the Holy Land, 1832-1914* (Jerusalem: Magnes Press, Hebrew Univ., 1994), pp. 84, 95, 127 (“There is no other”). Obenzinger, *American Palestine*, p. xvii. Vivian D. Lipman, “American-Holy Land Material in British Archives, 1820–1930,” in Davis, *With Eyes toward Zion*, vol. 2, p. 28.

(11) Robinson, *Biblical Researches in Palestine*, vol. 1, pp. 23–25, 75, 132, 162 (“stagnation and moral darkness”), 176, 262-63, 266–68, 350, 374 (“vast mass of tradition”). Edward Robinson, *Later Biblical Researches in Palestine and Adjacent Regions: A journal of travels in the year 1852* (London: John Murray, 1856), p. 73. Shepherd, *Zealous Intruders*, pp. 80-83. Handy, *Holy Land*, pp. 2–19. Neal Asher Silberman, *Digging for God and Country: Archeology and the Secret Struggle for the Holy Land, 1799-1917* (New York: Knopf, 1982), pp. 40–47 Davis, *Landscape of Belief*, p. 36 (“American science”).

(12) William F. Lynch, *Narrative of the United States' Expedition to the River Jordan and the Dead Sea* (Philadelphia: Blanchard and Lea, 1853), pp. v ("teeming with sacred"), 18 ("hallowed by"), 76, 79 ("protection against"), 115 ("gun-shot wounds"), 119, 152 ("It must have been"), 230 ("wanderers in an unknown"), 259-60, 261, 284 ("The curse of God"), 293 ("in honour of), 287 ("the tents among"), 321 ("The thought of death"), 407. Edward P. Montague, *Narrative of the Late Expedition to the Dead Sea* (Philadelphia: Carey and Hart, 1849), pp. 116, 121-22 ("We Yankee boys"), 149, 218-19 ("float with perfect ease").

(13) Lynch, *Narrative of the United States' Expedition*, pp. 360 ("Fifty well-armed"), 415 ("destined to be"). American Geographical and Statistical Society, *Report and Memorial on Syrian Exploration* (New York: New York Univ., 1857), p. 7. Andrew C. A. Jampoler, *Sailors in the Holy Land: The 1848 American Expedition to the Dead Sea and the Search for Sodom and Gomorrah* (Annapolis: Naval Institute Press, 2005), pp. 60, 142. See also Robert Edward Rook, "Blueprints and Prophets: Americans and Water Resource Planning for the Jordan River Valley, 1860—1970" (Ph.D. diss., Kansas State Univ., 1996), pp. 22-23.

(14) Robbins, *Diaries, 1796-1854,* vol. 2, p. 573. Haight, *Letters from the Old World*, p. 110. George Bush, *The Valley of Vision* (New York: Saxton and Miles, 1844), pp. 17 ("the thralldom and oppression"), 39 ("carnal inducements"), 41 ("It will blaze"), 56 ("link of communication"). Shalom Goldman, "Professor George Bush: American Hebraist and Proto-Zionist," *American Jewish Archives* 43, no. 1 (1991): 58—69. "Bush on Ezekiel's Vision," *Princeton Review* 16, no. 3 (1844): 384. Elaine B. Prince, "The Patrilineal Descent of Vice-President Bush," *NEXUS: The Bimonthly Newsletter of the New England Genealogical Society* 3 (1986): 124-25.

(15) Truman G. Madsen, "The Holy Land and the Mormon Restoration," in Davis, *With Eyes toward Zion*, vol. 2, pp. 28-29. Obenzinger,

American Palestine, pp. xvii, 116, 121, 126–27, 160 ("very weak minded"). Warder Cresson, *The Key of David* (Philadelphia: Self-published, 1852), p. 15 ("There is no salvation"). Frank Fox, "Quaker, Shaker, Rabbi: Warder Cresson: The Story of a Philadelphia Mystic," *Pennsylvania Magazine of History and Biography* 95 (1971): 147 ("I left the wife"), 157—63. Vogel, *To See a Promised Land*, p. 170 ("capacity & probity"). Sarna, *Jacksonian Jew*, pp. 153—55. *Selected Writings of Mordecai Noah*, pp. 125–26. William Makepeace Thackeray, *From Cornhill to Grand Cairo* (London: George Routledge, 1888), pp. 225–26, 242 ("has no knowledge").

(16) Catherine A. Brekus, "Harriet Livermore, the Pilgrim Stranger: Female Preaching and Biblical Feminism in Early Nineteenth-Century America," *Journal of the Early Republic* 65 (Sept. 1996): 389—404. Elizabeth F. Hoxie, "Harriet Livermore: Vixen and Devotee," *New England Quarterly* 18 (March 1945): 41 ("Sick of the world"), 43 ("She is the most"). Diplomatic Instructions of the Department of State, 1801—1906. Turkey. April 2, 1823—July 9, 1859. Microfilm 77, roll 162: Louis Lane to David Porter, April 28, 1834 ("high character"). Finnie, *Pioneers East*, pp. 182–83 ("meet my lot"). Portraits of Lady Hester Stanhope can be found in Charles Lewis Meryon and Hester Lucy Stanhope, *The Travels of Lady Hester Stanhope* (London: H. Colburn, 1846). Michael Bruce, *The Nun of Lebanon* (London: Collins, 1951). "The Memoirs of Lady Stanhope," *Living Age* 6, no. 69 (Sept. 6, 1845).

(17) John T. Brown, ed., *Churches of Christ* (Louisville: John P. Morton, 1904), pp. 440–41 ("criminally modest" and "they could all"). James Turner Barclay, *The City of the Great King; or, Jerusalem As It Was, As It Is, and As It Is to Be* (Philadelphia: James Challen, 1857), pp. 608—10. Handy, *Holy Land*, p. 84 ("God hath not"). Vogel, *To See a Promised Land*, p. 107.

(18) Clorinda Minor, *Meshullam!; or, Tidings from Jerusalem: From the Journal of a Believer Recently Returned from the Holy Land* (Philadelphia: Self-published, 1851), pp. 52 ("His time to favor"), 91, 114 ("Many

Christians profess”). Catherine A. Brekus, *Strangers and Pilgrims: Female Preaching in America, 1740-1845* (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1998), p. 53 (“The conviction of my soul”). Henry L. Feingold, *Zion in America: The Jewish Experience from Colonial Times to the Present* (New York: Twayne, 1974), p. 199. Barbara Krieger, *Divine Expectations: An American Woman in 19th Century Palestine* (Athens: Ohio Univ. Press, 1999), pp. 38-39, 50, 113–16. Lipman, “American-Holy Land Material,” pp. 29–32.

(19) Field, *America and the Mediterranean World*, p. 280 (“the Modern Tabitha”). Tabitha—in Greek, Dorcas—was a righteous woman of Jaffa who, according to the New Testament (Acts 9:36–43), was resurrected after death by the apostle Peter. Yaron Perry, “John Steinbeck’s Roots in Nineteenth-Century Palestine,” *Steinbeck Studies* 15, no. 1 (Spring 2002): 51-52 (“our Hebrew friends”), 55. Abraham Karp, “The Zionism of Warder Cresson,” in Isadore Meyer, ed., *Early Zionism in America* (Philadelphia: American Jewish Historical Society, 1958), pp. 9–14. Warder Cresson Biography, http://www.us-israel.org/jsource/biography/Cresson.html. Vogel, *To See a Promised Land*, p. 132. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 281.

(20) PABCFM, 5/546/16.8.1, Syrian Mission, vol. 7: Eddy to the American Board, Sept. 7, 1867 (“Europe is striving”). Tocqueville, *Democracy in America*, vol. 1, pp. 269 (“all-pervading”), 318 (“unquiet passions”); vol. 2, p. 622 (“strange unrest” and “in the midst”).

الفصل السابع: تحت عيون الأمريكان

(1) Stanley T. Williams, ed., *Journal of Washington Irving, 1828 and Miscellaneous Notes on Moorish Legend and History* (New York: American Book Co., 1937), pp. 21–34. William H. Hedges, *The Old and New*

World Romanticism of Washington Irving (New York: Greenwood, 1986), pp. 20, 89–120. Philip Almond, "Western Images of Islam, 1700–1900," *Australian Journal of Politics and History* 49, no. 3 (2003). Fuad Shaban, *Islam and Arabs in Early American Thought: Roots of Orientalism in America* (Durham, N.C.: Acorn Press, 1991), p. 32. Malini Johar Schueller, *U.S. Orientalisms: Race, Nation, and Gender in Literature, 1790-1890* (Ann Arbor: Univ. of Michigan Press, 1998), pp. 68–70. Ahmed Mohamed Metwalli, "The Lure of the Levant: The American Literary Experience in Egypt and the Holy Land, 1800–1865," (Ph.D. diss., State Univ. of New York at Albany, 1971), p. 64 ("living in the Arabian"). Washington Irving and James Paulding, *Salmagundi* (Chicago: Belford, Clarke, 1807), pp. 34 ("positively assured"), 86 ("superlative ventosity"), 131 ("slangwhangging"). George S. Hellman, *Washington Irving, Esquire: Ambassador at Large from the New World to the Old* (New York: Knopf, 1925), pp. 155 ("A mighty potentate"), 207 ("a kind of Oriental"). Washington Irving, *The Conquest of Granada* (New York: Putnam, 1850), p. xx ("romantic adventures"). Washington Irving, *Alhambra* (Boston: Ginn, 1902), p. 90 ("naked realities").

(2) Barrell, *Letters from Asia*, p. 10. Wright, "American Relations with Turkey," p. 155. Finnie, *Pioneers East*, pp. 4, 12–13, 160–65. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 298. Joseph J. Malone, "America and the Arabian Peninsula: The First Two Hundred Years," *Middle East Journal* 30, no. 3 (Summer 1976): 407. Isaac M. Fein, *The Making of an American Jewish Community: The History of Baltimore Jewry from 1773 to 1920* (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1971), pp. 24–25. Tigger, "Egyptology, Ancient Egypt," pp. 21–22.

(3) Papers of William H. Seward: "Governor Seward's Journey from Egypt to Palestine," *New York Daily Tribune*, Dec. 24, 1859, p. 5 ("There are no berths"). Metwalli, "Lure of the Levant," p. 100. Prices to travel to the Middle East are listed in Warder Cresson, *King Solomon's Two*

Women and the Living and Dead Child or Messiah (Philadelphia: Self-published, 1852), pp. 343–44. John Lloyd Stephens, *Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petraea, and the Holy Land* (New York: Harper, 1855), pp. 4, 17–18. James Ewing Cooley, *The American in Egypt, with Rambles through Arabia Petra and the Holy Land during the Years 1839–1840* (New York: Appleton, 1842), pp. 16, 329. Wages in 1840 listed on "Senate Salaries since 1789," www.senate.gov/artandhistory/history/common/briefing/senate_salaries.htm and "Documenting the American South," http://docsouth.unc.edu/nc/helper/helper.html.

(4) David F. Dorr, *A Colored Man round the World by a Quadroon* (N.p: Printed for the author, 1858), pp. 38 ("head-choppers"), 186. Cooley, *American in Egypt*, pp. 15 ("narrow, gloomy streets"), 16 ("Arabs, Armenians"), 262 ("ignorance and superstition"), 313 ("lunatics, idiots"). Stephens, Incidents of Travel, pp. 18 ("splendor and opulence" and "the dashing Turk"), 103 ("bigoted Musselmans"), 104, 120 ("false religion" and "haughty and deluded"). Haight, *Letters from the Old World*, pp. 30 ("I only saw"), 269 ("Mohammedanism").

(5) Cooley, *American in Egypt*, pp. 259 ("civilized nations"). Stephens, *Incidents of Travel*, pp. 174–75 ("When I heard"), 345 ("life hangs"). Haight, *Letters from the Old World*, pp. 45 ("penetrate the darkness"), 269 ("political crusade"), 270 ("kick the beam"). Walter Cotton, *Visit to Constantinople and Athens*, vol. 2 (New York: Leavitt, Lord, 1836), pp. 105, 176–77 ("The same effort"), 181 ("Islamism"). Finnie, *Pioneers East*, pp. 155 ("There is a feeling"), 161. Valentine Mott, *Travels in Europe and the East* (New York: Harper, 1842), p. 269 ("His royal highness"). William H. Bartlett, *The Nile Boat; or, Glimpses of the Land of Egypt*. (London: Arthur Hall, Virtue, 1850), pp. 46 ("city of Saladin"), 135 ("Egypt, fallen"). Kirkland, *Letters*, pp. 480–81 ("a rich Jew"), 490 ("a man lying").

(6) Stephens, *Incidents of Travel*, pp. 146 ("yellow slippers"), 84–85 ("that precious fragment"), 216. Mott, *Travels in Europe and the East*, p. 327. Dorr, *Colored Man round the World*, pp. 123 ("I would have given"), 177 ("jingling and a screwing"). Willis, *Summer Cruise*, pp. 254 ("the camel-driver's wife"), 268 ("a graceful creature"), 285. On nineteenth-century Western sexual fantasies of the Middle East, see Edward Said, *Orientalism* (New York: Vintage, 1979), pp. 119, 181–90.

(7) Bayard Taylor, *The Lands of the Saracen; or, Pictures of Palestine, Asia Minor, Sicily, and Spain* (New York: Putnam, 1855), pp. 55 ("We kept our arms"), 56 ("heard the trumpets"). Finnie, *Pioneers East*, 181–83 ("plain man of steady habits"), 187, Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 195–96. Stephens, *Incidents of Travel*, pp. 163 ("Can it be"), 188 ("witness of that great"), 318 ("I never saw"). Haight, *Letters from the Old World*, vol. 2, pp. 10 ("her friends have"), 130 ("How deplorable"). Cooley, *American in Egypt*, pp. 45 ("Surely the serpent"), 60 ("He that dippeth"). Dorr, *Colored Man round the World*, p. 187 ("not worth"). Mott, *Travels in Europe and the East*, p. 330 ("Nothing denotes"). Kirkland, *Letters*, p. 491 ("I wore my").

(8) Davis, *Landscape of Belief*, pp. 33, 42. The review of Cooley's book can be found in *United States Democratic Review* 11, no. 50 (Aug. 1842): 219 ("a novelty quite unique"). Samuel Austin Allibone, *A Critical Dictionary of English Literature, and British and American Authors* (Philadelphia: Lippincott, 1871), pp. 415 ("replete with information"), 754 ("precious volumes"). *Cleveland Plain Dealer* archive, Sept. 20, 1858, p. 3 ("graphic and racy"). "A Kentuckian in the East," *Harper's New Monthly Magazine*, 6, no. 36, May 1853, p. 741. *The Works of the Late Edgar Allan Poe*, vol. 4 (New York: Arthur Gordon Pym, 1856), pp. 371–89. Washington Irving, *Mahomet and His Successors* (Chicago: Belford, Clarke, 1973), p. 200. J. Ross Browne,

Yusef or, The Journey of the Frangi: A Crusade in the West (New York: Harper, 1853), p. 177 ("Yes, sir").

(9) John Freeman, *Herman Melville* (New York: Macmillan, 1926), pp. 32–34, 63–65. Robert L. Gale, *A Herman Melville Encyclopedia* (Westport, Conn.: Greenwood, 1995), pp. 106–7, 127, 143, 400. Herman Melville, *Redburn* (New York: Literary Classics of the United States, 1983), p. 10. Herman Melville, *Moby Dick* (New York: Hendrick's House, 1952), p. 30. Obenzinger, *American Palestine*, p. 63. Herman Melville, *Journals*, ed. Howard C. Horsford and Lynn Horth (Chicago: Northwestern Univ. Press, 1989), pp. 56 ("Imagine an immense"), 58, 61 ("horrible grimy"), 62–63 ("Out of every"), 65 ("these millions"), 72–73 ("like a huge stick"), 75–76 ("Vapors below summits"). Herman Melville, *White-Jacket; or, The World in a Man-of-War* (Oxford: Oxford Univ. Press, 1990), p. 153. Metwalli, "Lure of the Levant," p. 353. Dorothee Metlitsky Finkelstein, *Melville's Orienda* (New Haven and London: Yale Univ. Press, 1961), pp. 3, 165–67, 189, 192.

(10) Warder Cresson, *Jerusalem: The Center and Joy of the Universe* (Philadelphia: Self-published, 1844), p. 23 ("God hath chosen"). Frank Fox, "Quaker, Shaker, Rabbi," pp. 174, 182. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 127, 133 ("sawdust of Christianity"), 134–35. Warder Cresson biography on http://www.us-israel.org/jsource/biography/Cresson.html ("settling forever"). Melville, *White-Jacket*, p. 153 ("peculiar chosen people"). Melville, *Journal*, pp. 83 ("It is against the will" and "Whitish mildew"), 85 ("An American turned Jew"), 87 ("confused and half-ruinous"), 90 ("No country" and "the color"), 91 ("Is the desolation" and "In the emptiness"), 94 ("preposterous Jew mania").

(11) Melville, *Journal*, pp. 81 ("exponent of her aspirations"), 92 ("broken-down machinist"), 93 ("H.M.: Have you settled"). Herman Melville, *Clarel: A Poem and Pilgrimage to the Holy Land* (Chicago: Northwestern Univ. Press, 1991), p. 413 ("in the name of Christ"). Finkelstein, *Melville's*

Orienda, pp. 60–61, 90. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 68–89. Walter Herbert, "The Force of Prejudice: Melville's Attack on Missions in *Typee,*" *Border States* 1 (1973). Perry, "John Steinbeck's Roots," pp. 52—55, 60–61 USNA, RG 59, Dispatches from the U.S. Consuls. Alexandria, Egypt, vol. 2: Gorham to Brown, Jan. 17, 1858: Testimony of Mary Steinbeck, Jan. 18, 1858 ("Oh! Father" and "We sat half"); Testimony of Caroline Dickson, Jan. 18, 1858. Vogel, *To See a Promised Land*, p. 133. Robert DeMott, "Steinbeck's Other Family: New Light on East of Eden?" *Steinbeck Newsletter* 7, no. 1 (Winter 1994).

(12) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls. Jerusalem, Palestine: De Leon to Bell, Jan. 27, 1858 ("prompt, stern"); De Leon to Cass, Feb. 22, 1858 ("unprotected heads"); De Leon to Cass, March 6, 1858 ("We regard the murder"); Gorham to Brown, Oct. 12, 1859; De Leon to Cass, July 28, 1860 ("It is the nature"). Edwin De Leon, *Thirty Yearsof My Life on Three Continents* (London: Ward and Downey, 1890), pp. 259 ("Are our countries"), 262 ("the Arab character"), 263 ("The audacity"). Feingold, *Zion in America*, p. 89. USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt:* The State Department to Edwin de Leon, April 16, 1858. Papers of William H. Seward, Reel 58: Trabulsi to Seward, Sept. [n.d.], 1859.

(13) Harold W. Felton, *Uriah Phillips Levy* (New York: Dodd, Mead, 1978), p. 34. Samuel Sobel, *Intrepid Soldier* (Philadelphia: Cresset, 1980), pp. 17, 15 ("I would rather serve"), 21. Sanford V. Sternlicht, *Uriah Phillips Levy: The Blue Star Commodore* (Norfolk: Norfolk Jewish Community Council, 1961), p. 41. Donovan Fitzpatrick and Saul Saphire, *Navy Maverick: Uriah Phillips Levy* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1963). Marc Leeson, *Saving Monticello: The Levy Family's Epic Quest to Rescue the House That Jefferson Built* (New York: Free Press, 2001). Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 292–93. Palmer, *Guardians of the Gulf*, pp. 6—8.

(14) Douglas H. Strong, *Dreamers and Defenders: American Conservationists* (Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1988), pp. 29–30. *Life and Letters of George Perkins Marsh* (New York: Scribner, 1888), p. 7. Jane Curtis, Will Curtis, and Frank Lieberman, *The World of George Perkins Marsh* (Woodstock: Countryman Press, 1982), pp. 65, 90, 102. David Lowenthal. *George Perkins Marsh: Versatile Vermonter* (New York: Columbia Univ. Press, 1958), pp. 120 ("wretched place"), 121–22, 126, 134—36, 178 ("the Comanches" and "strike with a salutary"). Rook, "Blueprints and Prophets," pp. 34–35, 39–40. Melville, *Journals*, pp. 69–70. *Ninth Annual Report of the Smithsonian Institution* (Washington, D.C.: Beverley Tucker, 1855), pp. 100 ("Ship of the desert"), 120.

(15) Younis, "Arabs Who Followed Columbus," p. 14. Felicity Allen, *Jefferson Davis: Unconquerable Heart* (Columbia: Univ. of Missouri Press, 1999), p. 210. Odie B. Faulk, *The U.S. Camel Corps* (New York: Oxford Univ. Press, 1976), pp. 30, 49, 102 ("What are these"), 185–86 ("Napoleon, when"), *The Papers of Jefferson Davis*, ed. Lynda Crist and Mary Dix, vol. 6 (Baton Rouge: Louisiana State Univ. Press, 1989), pp. 26–27, 87 ("These tests fully realize"), 385, 387. Ben Macintyre, *The Man Who Would Be King: The First American in Afghanistan* (New York; Farrar, Straus and Giroux, 2004). pp. 269—72. See also *U.S. Camel Corps Remembered in Quartzite Arizona*, http://www.outwestnewspaper.com/camels.html.

(16) Khalaf, *Persistence and Change*, pp. 89—93. PABCFM: W. W. Eddy to Board, June 5, 1860. Henry Jessup, *Fifty-three Years in Syria*, vol. 1 (New York: Revell, 1910), pp. 175 ("terror-stricken, hungry"), 187–88 ("the blood at length"). *Reminiscences of Daniel Bliss*, pp. 142, 146, 152. Melvin Urofsky, *The Levy Family and Monticello* (Monticello: Thomas Jefferson Foundation, 2001), p. 83. Perry, "John Steinbeck's Roots," p. 70. Malini Johar Schueller, ed., *David F. Dorr: A Colored Man round the World* (Ann Arbor: Univ. of Michigan Press, 1999), p. xi.

الباب الثالث: الحرب الأهلية وإعادة التعمير

الفصل الثامن: التصدُّع

(1) *Writings of Benjamin Franklin*, vol. 10; Historicus to the Editor of the *Federal Gazette*, March 23, 1790, pp. 87–91. Ellis, *Founding Brothers*, pp. 81–119.

(2) Lotfi Ben Rejeb, "America's Captive Freemen in North Africa: The Comparative Method in Abolitionist Persuasion" *Slavery and Abolition* 9 (1988): 60–61 ("If many thousands"). Arthur Zilversmit, *The First Emancipation: The Abolition of Slavery in the North* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1967), p. 171 ("doubtless shudder"). Marr, "Imagining Ishmael," p. 142 ("The American slaves") and ("the injustice and cruelty"). *The Family Letters of Thomas Jefferson*, ed. Edwin Bettis and James Bear Jr. (Columbia: Univ. of Missouri Press, 1966): Martha Jefferson to Thomas Jefferson, May 5, 1787, p. 39. *Documentary History of the Ratification of the Constitution:* Anonymous letter, Feb. 6, 1789, p. 872 ("six of one"). Tyler, *Algerine Captive*, pp. 98 ("like so many head"), 111 ("fly to"). Anonymous, *American in Algiers*, p. 24.

(3) James Stevens, *An Historical and Geographical Account of Algiers* (Philadelphia: Hogan and McElroy, 1797), p. 235 ("the execrable practice"). WEP, Negociations of the United States with the Kingdom of Tunis, roll 2: "Remarks &c Made at Algiers," Feb. 24, 1799, p. 38 ("Barbary is hell"). James Riley, *Sufferings in Africa: Captain Riley's Narrative* (New York: Potter, 1965), pp. 445 ("the cursed tree") 446–47 ("shiver in pieces"). Allison, *Crescent Obscured*, pp. 221–25. Gerald McMurty, "Influences of Riley's *Narrative* upon Abraham Lincoln," *Indiana Magazine of History* 30, no. 2 (June 1934): 136–38. Marr, "Imagining Ishmael," pp. 151–53. Charles Sumner, *White Slavery in the Barbary States* (Boston: J. P. Jewett, 1853), pp. 11, 12–13.

(4) *Missionary Herald:* Journal of Pliny Fisk, Mary 8, 1823, p. 156. Shaban, *Islam and Arabs in Early American Thought*. Albert J. Raboteau, “Black Americans,” in Davis, *With Eyes toward Zion*, vol. 2, pp. 312–14. Stephen Olin, *Travels in Egypt, Arabia Petra and the Holy Land* (New York: Harper, 1844), p. 318 (“great national calamities”). Handy, *Holy Land*, p. xiii (“A keen observer”).

(5) Ziff, *Return Passages*, p. 50. Mott, *Travels in Europe and the East*, pp. 390–91. Willis, *Summer Cruise*, pp. 282–83. Stephens, *Incidents of Travel*, p. 62. Cooley, *American in Egypt*, p. 349. Dorr, *Colored Man round the World*, p. 141.

(6) *FRUS*, 1861: Brown to Aali Pacha, June 26, 1861, pp. 391–92 (“continue to cultivate”); Brown to Seward, July 17, 1861, p. 391 (“friendly sympathies”); Thayer to Seward, June 29, 1861; 1862: Message of the President to the Two Houses of Congress, Dec. 5, 1862, p. 5. Seward to Morris, April 1, 1862, p. 783 (“accustomed as they are”); 1863, vol. 2: Thayer to Seward, Nov. 5, 1862, p. 1101. Phillip Shaw Paludan, *The Presidency of Abraham Lincoln* (Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1994), pp. 89–91, 218–19. Benjamin P. Thomas, *Abraham Lincoln: A Biography* (New York: Random House, 1968), pp. 281–83, 360. Wright, *United States Policy toward Egypt*, pp. 60–61. On the replacement of James Williams, see *Senate Executive Journal*, March 18, 1861, p. 310.

(7) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls. Tangier, Morocco, vol. 8: De Long to Seward; Feb. 15, 1862 (“so called Southern Confederacy”); De Long to Seward; Feb. 20, 1862 (“American Citizens”); De Long to Commander of the Sloop of War “Tuscarosa,” Feb. 20, 1862 (“I want the presence”); De Long to Bargash, Feb. 26, 1862; De Long to Seward, Feb. 27, 1862 (“at least three thousand”); De Long to the French, Italian, Swedish, Spanish, and Portuguese Consuls in Tangier, March 1, 1862 (“If temporary civil war”); De Long to Seward, March 6, 1862 (“I have heard”); De Long

to Seward, March 20, 1862 ("Moorish authorities"). *FRUS*, 1862: Bargash to De Long, Feb. 25, 1862, pp. 863–64. *Official Records of the Union and Confederate Navies in the War of the Rebellion*, ser. 1, vol. 1 (Washington, D.C.: GPO, 1894), pp. 310–20, 358–60, 392, 668, 676–79. Raphael Simmes, *Memoirs of a Service Afloat* (Baltimore: Baltimore Publishing Co., 1887), pp. 334–35, 336 ("political ignorance"), 337–40. Jay Monaghan, *Diplomat in Carpet Slippers: Abraham Lincoln Deals with Foreign Affairs* (Indianapolis: Bobbs–Merrill, 1945), pp. 215–17. On the Tangier lighthouse convention, see Peter Larsen, *Theodore Roosevelt and the Moroccan Crisis, 1904–1906* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1984), p. iv.

(8) *FRUS*, 1861: Thayer to Seward, July 20, 1861, p. 424; 1863, vol. 2: Thayer to Seward, Nov. 5, 1862, p. 1101; 1864, vol. 4: Thayer to Seward, Jan. 23, 1864, p. 405; Hale to Seward, Oct. 22, 1864, p. 408 ("generous contribution"); 1864, vol. 1: Message of the President to the Two Houses of Congress, Washington, Dec. 6, 1864, p. 4.

(9) *Studies in the National Military Victories of Egypt* [Arabic]. Cairo: Ministry of Information, 1984, pp. 153–63. FRUS, 1865, vol. 3: Hale to Seward, Aug. 26, 1865, p. 329 ("What the Pacha"). Wright, *United States Policy toward Egypt*, pp. 63–65. Bryson, *American Diplomatic Relations*, pp. 25–26. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 385. Arnold Blumberg, "William Seward and Egyptian Intervention in Mexico," *Smithsonian Journal of History* 1 (Winter 1966–67): 31–34, 44–45. Howard Kerner, "Turko–American Diplomatic Relations, 1860– 1880" (Ph.D. diss., Georgetown Univ., 1948), pp. 62–65.

(10) Allen C. Guelzo, *Abraham Lincoln: Redeemer President* (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1999), p. 434 ("How I should like"). USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt*, vol. 78: Seward to Hale, Dec. 4, 1866; Seward to Hale, Jan. 23, 1867 ("considerate and friendly"). Osborn Oldroyd, *The Assassination of Abraham Lincoln* (1901; reprint, Union, N.J.:

Lawbook Exchange,2001), pp. 65, 232–35,239, 266. Edward Steers, *Blood on the Moon: The Assassination of Abraham Lincoln* (Lexington: Univ. Press of Kentucky, 2001), pp. 231–32.

الفصل التاسع: الشماليون والجنوبيون على ضفاف نهر النيل

(1) Zachary Karabell, *Parting the Desert:The Creation of the Suez Canal* (New York: Knopf, 2003), p. 184 ("Practically every"). David Christy, *King Cotton* (Cincinnati: Moore, Wilstach, Keys, 1855), pp. 68–79. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 193–94 ("a Southern plantation"), 248–49. The goats given to Davis became the progenitors of prize Angora herds in Texas and Oregon; see *Texas Department of Agriculture*, http://www .agr.state.tx.us/education/teach/mkt_fibernet.htm, and *The First Farmers of Oregon*, http://www.gesswhoto.com/centennial-farniers.html.

(2) E. R. J. Owen, *Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914* (London: Oxford Univ. Press, 1969), pp. 89, 105. Edward M. Earle, "Egyptian Cotton and the American Civil War," *Political Science Quarterly* 41, no. 4 (Dec. 1926): 520–36. USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt*, vol. 78: William Seward to William Thayer, Dec. 16, 1862 ("The … increase of cotton"). *FRUS*, 1861: Thayer to Seward, July 20, 1861, p. 423; 1863; vol. 2: Seward to Morris, Dec. 13, 1862, pp. 1090–91. Vatikiotis, *History of Egypt*, pp. 73–77, 125–28. Karabell, *Parting the Desert*, pp. 183–84. Wright, *United States Policy toward Egypt*, pp. 66–70.

(3) Charles Dudley Warner, *Mummies and Moslems* (Toronto: Belford Brothers, 1876), p. 380. Wright, United States Policy toward Egypt. pp. 86–87 ("shorten by 2,000 leagues"), 219. USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt:* W. L. Marcy to Edwin de Leon, June 17, 1854 ("cheerfully received"). *FRUS*, 1861: Thayer to Seward, July 20, 1861, p. 424; 1862, vol. 2: Thayer to Seward, Nov. 5,1862, p. 1101; 1864, vol. 4: Thayer

to Seward, Jan. 23, 1864, p. 405; 1864, vol. 1: Message of the President to the Two Houses of Congress, Washington, Dec. 6, 1864, p. 4 ("Our relations with Egypt"); 1865, vol. 3: Hale to Seward, Dec. 22, 1864, p. 315.

(4) Pierre Crabitès, *Americans in the Egyptian Army* (London: Routledge, 1938), pp. 14, 39. Charles Chaillé-Long, *My Life in Four Continents*, vol. 1 (London: Hutchinson, 1912), pp. 17, 38, 231. William B. HesseLtine and HazeL C. Wolf, *The Blue and the Gray on the Nile* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1961), pp. 4 ("a soldier of misfortune"), 5–11, 18-19, 29–41, 43-44. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 395-96.

(5) John Marlowe, *Spoiling the Egyptians* (New York: St. Martin's, 1975), pp. 104–17. Wright, *United States Policy toward Egypt*, p. 70.

(6) James Morris Morgan, *Recollections of a Rebel Reefer* (Boston: Houghton Mifflin, 1917), pp. 268-69 ("That was about"), 270 ("An exact reproduction"). Chaillé-Long, *My Life*, pp. 20–22, 30–33. Crabités, *Americans in the Egyptian Army*, pp. 41-42, 44. Hesseltine and Wolf, *Blue and the Gray*, pp. 65-66 ("discretion, devotion"), 72-73, 93-94 ("The East with its"), 98–100, 150-51.

(7) William Wessels, *Born to Be a Soldier: The Military Career of William Wing Loring* (Fort Worth: Texas Christian Univ. Press, 1971), p. 78-79. Hesseltine and Wolf, *Blue and the Gray*, pp. 19-20, 51 ("The limits"), 66–72, 87 ("the express right" and "The army here"). Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 392-93, 397. Wright, *United States Policy toward Egypt*, p. 81. Chaillé-Long, *My Life*, p. 35. Morgan, *Recollections of a Rebel Reefer*, pp. 271 ("I looked so much"), 287. See also Olive Risley Seward, ed., *William H. Seward's Travels around the World* (New York: Appleton, 1873), pp. 545-46, 620. Ralph Kirshner, *The Class of 1861: Custer, Ames, and Their Classmates after West Point* (Carbondale: Southern ILLinois Univ. Press, 1999), pp. 6, 167. *Personal Memoirs of U.S. Grant*, vol. 1 (New York: C. L. Webster, 1885), p. 181.

(8) Morgan, *Recollections of a Rebel Reefer*, pp. 277–81, 291 ("Christian prejudices"). William Loring, *A Confederate Soldier in Egypt* (New York: Dodd, Mead, 1884), p. 69 ("the same barbarous"), 135 ("born of the sword"). Hesseltine and Wolf, *Blue and the Gray*, pp. 60 ("they are better"), 61–62, 64–65 ("Christian intolerance"), 89 ("The army, both officers"), 106, 116–17, 125–26. William Dye, *Moslem Egypt and Christian Abyssinia* (New York: Negro Universities Press, 1969), pp. 38–39, 45–46 ("imaginative soul"), 102.

(9) Frederick J. Cox, "The American Naval Mission in Egypt," *Journal of Modern History* 26, no. 2 (June 1954). Hesseltine and Wolf, *Blue and the Gray*, pp. 123–27, 130–34, 144–46, 147 ("In the philanthropist"), 220. Crabités, *Americans in the Egyptian Army*, pp. 74 ("Although lam prostrate"), 77, 81.

(10) Charles Chaillé-Long, *The Three Prophets: Chinese Gordon, Mohammed Ahmed (El Maahdi), Arabi Pasha* (New York: Appleton, 1884), pp. 25–27, and *My Life*, pp. 68, 91 ("Prostrate upon their faces,"), 94 ("number of warriors"), 97 ("The entire Nile"), 102–6, 158, 195 ("This young officer"). H. E. Wortham, *Chinese Gordon* (Boston: Little, Brown, 1933), p. 181. Godfrey Elton, *Gordon of Khartoum* (New York: Knopf, 1955), pp. 127, 135 ("on what he *has* done"). Crabités, *Americans in the Egyptian Army*, pp. 110–11 ("Give it to them"), 134–35, 151–62, 167–68 ("American pirate"), 167 ("My hair hung"), 185. See also David Icenogle, "The Expeditions of Chaille-Long," http://www.saudiaramcoworld.com/issue/197806/the.expeditions.of.chaille-long.htm, and "Americans in the Egyptian Army," http://www.home.earthlink.net/atomic_rom/officers.htm.

(11) William Loring, "The Egyptian Campaign in Abyssinia—From the Notes of a Staff Officer," *in Littell's Living Age* 34, no. 1729 (Aug. 4, 1877). Loring, *Confederate Soldier in Egypt*, p. 63 ("I need not repeat"). Hesseltine and Wolf, *Blue and the Gray*, pp. 176–82.

(12) Loring, *Confederate Soldier in Egypt*, pp. 416 (“morally and physically”), 417 (“a splendid place”), 401 (“in any other army”), 419 (“The Egyptians not only”), 414 (“alive with the moving”), 420–21 (“hideous…howls”), 435 (“No sooner had he”). Chaillé-Long, *My Life*, p. 195. Hesseltine and Wolf, *Blue and the Gray*, pp. 184–86, 194–95 (“Loring has blockhouse”), 205, 211–13, 224–25. Morgan, *Recollections of a Rebel Reefer*, pp. 309–10. Dye, *Moslem Egypt*, pp. 167 (“as shriveled with lechery”), 139–40 (“They escaped”), 219–22, 235, 270–71, 369 (“surgeons and sheiks”), 371 (“one unsightly mass”), 483, 487–88.

(13) *FRUS*, 1878: Farman to Evarts, July 3, 1878, pp. 922–23; Farman to Evarts, July 15, 1878, pp. 923–24. On the Ottomans’ purchase of Civil War surplus, see *FRUS*, 1877: Mr. Maynard to Mr. Evarts Constantinople, May 25, 1877, p. 572. James Raab, *W. W. Loring* (Manhattan, Kan.: Sunflower Univ. Press, 1997), pp. 833, 890. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 312, 422 (“a crime against humanity”). Loring, *Confederate Soldier in Egypt*, p. 448 (“During the ten years”). Hesseltine and Wolf, *Blue and the Gray*, pp. 213–14, 223, 229–30 (“The whole confounded”), 243–24 (“Egypt has been kind”), 251. Bryson, *American Diplomatic Relations*, p. 27. Wessels, *Born to Be a Soldier*, p. 94. Wright, *United States Policy toward Egypt*, p. 83 (“No intelligent foreigner”). Dye, *Moslem Egypt*, p. 1 (“They were men”).

الفصل العاشر: نفيرُ الإقدام إلى العلا

(1) Edward Wilmot Blyden, *Christianity, Islam and the Negro Race* (Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 1967), pp. 6, 10 (“self-reliant, productive”), 13, 19–21, 186, 254. Edward Wilmot Blyden, *The Elements of Permanent Influence: A Discourse Delivered at the 15th Street Presbyterian Church* (Washington, D.C.: R. I. Pendleton, 1890) (“the spirit” and “Not the author”). Obenzinger, *American Palestine*, pp. 230–31 (“with an awe”). Yvonne

Chireau and Nathaniel Deutsch, *Black Zion: African American Religious Encounters with Judaism* (New York: Oxford Univ. Press, 2000), p. 15 ("I would earnestly"). Edith Holden, *Blyden of Liberia* (New York: Vantage Press, 1966), pp. 141–44. Hollis Lynch, "A Black Nineteenth Century Response to Jews and Zionism: The Case of Edward Wilmot Blyden, 1832–1912," in Joseph Washington, ed., *Jews in Black Perspective* (Rutherford, N.J.: Fairleigh Dickinson Univ. Press, 1984), pp. 43–45. See also "Edward Wilmot Blyden and Africanism in America," http://www.columbia.edu/hcb8/EWB_Museum/EWBl.html, and George Bornstein, "A Forgotten Alliance: Africans, Americans, Zionists and Irish," *Times Literary Supplement*, March 4, 2005, p. 13.

(2) *FRUS*, 1862: Morris to Seward, Oct. 25, 1861, p. 787; Morris to Seward, Oct. 16, 1862, p. 791; 1864, vol. 4: Morris to Seward, May 21, 1863, p. 368. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 151 ("The providential history"), 170–76. Hanna F. Wissa, *Assiout: The Saga of an Egyptian Family* (Lewes, Sussex: Book Guild, 1994), pp. 93, 97, 105. Jessup, *Fifty-three Years in Syria*, p. 512 ("could place a Tammany"). Ellen Clare Miller, *Eastern Sketches* (New York: Arno Press, 1977), pp. 132–33. *Missionary Herald*, vol. 3: Letter from Mr. Perkins, Dec. 26, 1862, p. 341 ("This great struggle"). Harry N. Howard, "President Lincoln's Minister Resident to the Sublime Porte," *Balkan Studies* 5 (1964): 205–6.

(3) John A. DeNovo, *American Interests and Policies in the Middle East, 1900–1939* (Minneapolis: Univ. of Minnesota Press, 1963), p. 15. Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 34 ("Mohammedans, Muscovites"). Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 220–21 ("enjoy[ed] a liberty"), 272. Wright, *United States Policy toward Egypt*, pp. 146–47 ("We had the Gospel"), 219. The murderers of the two missionaries, the Reverends Merriam and Coffing, were later apprehended and executed. As a sign of gratitude, Secretary of State Seward presented the Ottoman grand vizier with a brace of silver

pistols. See *FRUS*, 1863, vol. 2: Morris to Seward, April 30, 1863, p. 1094; 1864, vol. 4: Morris to Seward, Dec. 4, 1863, p. 373; Seward to Morris, Jan. 11, 1864, p. 366; Morris to Seward, April 14, 1864, pp. 38 1–82.

(4) Jessup, *Fifty-three Years in Syria*, p. 597 ("semi-secular" and "letting in the light"). Taylor, *Lands of the Saracen*, p. 78. Tibawi, *American Interests in Syria*, p. 145 ("From the same battlefields"). Finnie, *Pioneers East*, p. 134 ("more converts"). Henry M. Field, *From Egypt to Japan*, 19th ed. (New York: Scribner 1905), p. 60 ("Christian Missions").

(5) John Freely, *A History of Robert College* (Istanbul: Y.K.Y, 2000), pp. 11-12. "The History of Robert College," http://www.robcol.k12.tr/admin/headmaster/history.htm. Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 355-56. Hamlin, *My Life and Times*, p. 286 ("The work has proved"), 446–49, 470–73. Marcia Stevens and Malcolm Stevens, *Against the Devil's Current: The Life and Times of Cyrus Hamlin* (Lanham, Md.: Univ. Press of America, 1988), pp. 246, 258 ("No one was about"), 269, 297-98, 330-31. Khalaf, *Persistence and Change*, p. 100.

(6) Carleton Coon, ed., *Daniel Bliss and the Founding of the American University of Beirut* (Washington, D.C.: Middle East Institute, 1989), pp. 35 ("Their faces"), 62-63, 67-68, 75 ("a home for jackals"), 79. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 161-62 ("necessary choice"). Jessup, *Fifty-three Years in Syria*, p. 595 ("the promised land"). Penrose, *That They May Have Life*, p. 23. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 357 ("a man white").

(7) Philip Hitti, *Lebanon in History from the Earliest Times to the Present* (London: Macmillan, 1962), pp. 450, 454, 462–67. *Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1962), pp. 243, 246–49. Holden, *Blyden of Liberia*, pp. 143-44 ("to the day"). Elie Kedourie, "The American University of Beirut," *Middle Eastern*

Studies 3 (1966): 75. Bernard Lewis, *The Arabs in History* (London: Hutchinson's Univ. Library, 1950), pp. 173–74. Abu Ghazaleh, *American Missions in Syria*, pp. 31, 41–42, 59, 67–68. George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 1938), pp. 42–43. *Missionary Herald:* "Recent Intelligence" (Mr. Wolcott), Feb. 1841, p. 255. Daniel Bliss, *Letters from a New Campus: Written to His Wife Abby and Their Four Children during Their Visit to Amherst, Massachusetts, 1873–1874* (Beirut: American Univ. of Beirut, 1994), pp. 159 ("Oh that all"), 280–81.

(8) USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt:* William Seward to Charles Hale, Nov. 16, 1867. Glyndon Van Deusen, *William Henry Seward* (New York: Oxford Univ. Press, 1967), pp. 212–13. *FRUS*, 1864, vol. 4: Seward to McMath, Dec. 9, 1863, p. 410 ("exert all proper").

(9) *A Maine Family's History*, http://www.calaisalumni.org/Maine/tales9.htm ("lips shut tight"). Reed M. Holmes, *The Forerunners* (Independence, Mo.: Herald, 1981), pp. 189 ("The great Restitution"). John Swift, *Going to Jericho* (New York: A. Roman, 1868), p. 201 ("Johnson's patent"). Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 135. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 181 ("The reign of Christ"), 182–83. Shlomo Eidelberg, "The Adams Colony in Jaffa (1866–1868)," *Midstream* 3 (Autumn 1957): 52–53. Peter Amann, "Prophet in Zion: The Saga of George J. Adams," *New England Quarterly* 37 (Dec. 1964): 481—86.

(10) In his response to the Reverend Monk, Lincoln also mentioned that his chiropodist and close confidant, Isachar Zacharie, was a Jew who had "put me upon my feet" so often that he would gladly aid the doctor's countrymen to "get a leg up" in moving to Palestine. Peter Grose, *Israel in the Mind of America* (New York: Knopf, 1983), pp. 25–26 ("There can be no"). See also Naphtali J. Rubinger, *Abraham Lincoln and the Jews* (New York: Jonathon David, 1962), p. 42, Bertram Korn, *American Jewry and the Civil War* (New York: Jewish Publication Society of America, 1951), p. 202,

and Steiner *Religious Beliefs*, pp. 110–45. Vogel, *To See a Promised Land*, p. 203. Little, *American Orientalism*, p. 13 ("We know far more"). Henry White Warren, *Sights and Insights; or, Knowledge by Travel* (New York: Nelson and Phillips, 1874), p. 246 ("This is the first country"). John Russell Young, *Around the World with General Grant: A Narrative of the Visit of General U. S. Grant, Ex-President of the United States, to Various Countries in Europe, Asia and Africa, in 1877, 1878, 1879* (New York: American News Co., 1879), p. 335 ("Somehow you always").

(11) Vogel, *To See a Promised Land*, p. 83 ("shall yet be brought home"), 220 ("So much has"). *Princeton Review* 38, no. 4 (1866): 670–74. Warren, *Sights and Insights*, pp. 283-84 ("the greatest temptation"). Philip Schaff, *Through the Bible Lands* (New York: American Tract Society, 1878), pp. 233, 237, 249 ("squalid and forbidding"). David S. Landes, "Passionate Pilgrims and Others: Visitors to the Holy Land in the 19th Century," in Davis, *With Eyes toward Zion*, vol. 2, pp. 10-11. Henry A. Riley, *The Restoration at the Second Coming of Christ: A Summary of Millenarian Doctrines* (Philadel-phia: Lippincott, 1868), pp. 41-42 ("be gathered from"). Sarah Barclay Johnson, *Hadji in Syria* (New York: Arno Press, 1977), pp. 16 ("rightful owner"), 119 ("the Hebrew race"). William C. Prime, *Tent Life in the Holy Land* (New York: Harper, 1857), pp. 2 ("cast in holy radiance"), 99-100 ("imported by Jaffa"). Henry W. Bellows, *Restatement of Christian Doctrines in 25 Sermons* (Boston: American Unitarian Association, 1869). Holmes, *Forerunners*, p. 19 ("The sons of Ephraim").

(12) Amann, "Prophet in Zion," p. 486 ("he would rather"). Eidelberg, "Adams Colony in Jaffa," pp. 55–60. Obenzinger, *American Palestine*, p. 183 ("The exhala tions") Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 281, 325 ("churches, hotels"). Holmes, *Forerunners*, pp. 119–21, 187 ("Put your faith"). Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 138 ("adventure; a char-latan"), 139 ("our warmest friends"), 140-41, 144 ("a monster in human"),

145–46, 147 (“We the colony”). Henry W. Bellows, *The Old World in Its New Face* (New York: Harper, 1869), pp. 262–63 (“religious fanatic”). Charles Elliot, *Remarkable Characters and Places in the Holy Land* (Hartford: J. B. Burr, 1867), p. 586 (“unprotected as they would be”). Swift, *Going to Jericho*, pp. 197–98 (“modern Mayflower”), 199–200 (“American eagle”), 201. On the death of Walter Cresson, see USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls. Jerusalem, Palestine: Page to Cass, Nov. 8, 1860.

(13) National Library of Israel, Jerusalem, Manuscript Archive, Miscellaneous File 519: Petition of Colonists to Governor Chamberlain, Aug. 31, 1867. USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt*, vol. 4: William Seward to Charles Hale, Oct. 7, 1867; RG 59, Dispatches from U.S. Consuls. Beirut, Lebanon, vol. 5: Letter for Jaffa Colonists to Beauboucher, March 20, 1867 (“How can we confide”); *Records of Foreign Service Posts: Jerusalem, Palestine*. March 8, 1857—Dec. 21, 1869, vol. 24: Johnson to Beauboucher, Dec. 3, 1867. Lipman, “American–Holy Land Material,” pp. 32–33 (“The failure of the”). Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 140 (“pale faced”), 147 (“recede and become”), 149. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 184–85 (“American citizens). Field, *America and the Mediterranean World*, p. 326 (“An Appeal!”). Eidelberg, “Adams Colony in Jaffa,” p. 61. Holmes, *Forerunners*, p. 226.

الفصل الحادي عشر: الهجوم الأمريكي

(1) USNA, RG 59, Dispatches from the U.S. Consuls. Alexandria, Egypt, vol. 2: De Leon to Appleton, July 5, 1859. Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 56, 59 (“The number of American”). Charles Dudley Warner, *Mummies and Moslems* (Toronto: Belford, 1876), p. 382 (“the perfumes of Arabia”). Jeffrey Alan Melton, *Mark Twain, Travel Books, and Tourism; The Tide of a Great Popular Movement* (Tuscaloosa: Univ. of Alabama Press, 2002), pp. 17, 18

("nomadic era"). Kark, "Annual Reports," p. 164 ("unfavorable for the foreigner"). *The Memoirs of Rose Eytinge* (New York: Frederick A. Stoke; 1905), p. 151 ("most irksome"). Schaff, *Through the Bible Lands*, p. 26. Goldman, *God's Sacred Tongue*, pp. 160–61 ("The few Englishmen"). Field, *From Egypt to Japan*, pp. 7–8 ("Ah, you Americans").

(2) Warner, *Mummies and Moslems*, pp. 357 ("Antiquity" Smith), 411 ("the conclusive verdict"). Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 88 ("with few ideas" and "These cousins"), 91–92 ("miserable fellaheen"), 177. Crabités, *Americans in the Egyptian Army*, p. 65 ("They usually come" and "They often think"). Morgan, *Recollections of a Rebel Reefer*, p. 267. Young, *Around the World*, pp. 301–2 ("Powell Tucker,"). *Journals of Ralph Waldo Emerson*, ed. Edward Emerson, vol. 10 (Boston: Houghton Mifflin, 1914), pp. 406, 407–8 ("The people…are"), 409 ("The lateen sail"). Frederick Douglass, *Autobiographies* (New York: Library of America, 1994), pp. 1006 ("combat American prejudice"), 1007 ("half brothers").

(3) Papers of William H. Seward, reel 58: Seward to Johnson, Sept. 28, 1859; "Governor Seward's Journey from Egypt to Palestine," *New York Daily Tribune*, Dec. 24, 1859, p. 5. Thornton Kirkland Lothrop, *William Henry Seward* (Boston: Houghton Mifflin, 1896), pp. 396–97. George E. Bake; ed., *The Life of William H. Seward with Selections from His Works* (New York: J. S. Redfield, 1855), p. 224 ("To the oppressed masses"). Frederic Bancroft, *The Life of William H. Seward*, vol. 2 (New York: Harpers, 1899), pp. 521–23. Walter LaFeber, *The Cambridge History of American Foreign Relations*, vol. 2, *The American Search for Opportunity, 1865–1913* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1993), p. 10. *William H. Seward's Travels around the World*, pp. 525–32, 616 ("double thralldom"), 634–35 ("former chief minister"), 654–55 ("a remarkable rabbi"). USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt*, vol. 78: Seward to Hale, Jan. 5, 1867. Olive Risley

Seward, *Around the World Stories* (Boston: D. Lothrop, 1889), pp. 265–80, 281 (“It used to be”), 282 (“It is not enough), 283—86.

(4) George B. McClellan, “A Winter on the Nile,” *Scribner’s Monthly* 13, no. 3 (Jan. 1877): 368—83; 13, no. 4 (March 1877): 670—77; “The Bombard-ment of Alexandria,” *North American Review* 142, no. 355 (June 1886): 593 (“so long as we”), 594 (“little but life”).

(5) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Cairo, Egypt, vol. 2: Beardsley to Fish, Jan. 22, 1872. William T. Sherman Family Papers, CSHR9/59: Sherman to Thomas Sherman, March 29, 1872 (“Their Faith in Mohamet” and “the most repulsive”). Michael Fellman, *Citizen Sherman: A Life of William Tecumseh Sherman* (New York: Random House, 1995), p. 307 (“a hard–looking” and “undertake to move”). Morgan, *Recollections of a Rebel Reefer*, p. 266. Chaillé–Long, My Life, p. 231. *Memoirs of Rose Eytinge*, p. 201. J. C. Audenreid, “General Sherman in Europe and the East,” *Harper’s New Monthly Magazine* 47, no. 280 (Sept. 1873): 232, 234–35, 236, 240, 486—95.

(6) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Cairo, Egypt, vol. 5: Farman to Evarts, Feb. 12, 1878. *The Papers of Julia Dent Grant*, ed. John Simon (New York: Putnam, 1975), pp. 220 (“One might easily think”), 221 (“We had only to clap”), 222–23, 224 (“One could not but”). Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 54–55 (“the most remarkable journey”). Young, *Around the World*, pp. 257 (“Welcome General Grant”), 299. Elbert Farman, *Along the Nile with General Grant* (New York: Grafton Press, 1904), pp. 26, 32–33, 92, 99. William McFeely, *Grant* (New York: Norton, 1981), pp. 466–67. Geoffrey Perret, *Ulysses S. Grant* (New York: Random House, 1997), p. 454 (“It looks as if” and “I have seen”). Dye, *Moslem Egypt*, p. 491. Wessels, *Born to Be a Soldier*, pp. 80–81 (“Why there’s Loring”). Hesseltine and Wolf, Blue and the Gray, pp. 232–33 (“I wouldn’t sit down”).

(7) *Papers of Julia Dent Grant*, p. 233 (“a gorgeous gleaming” and “a poor place”). Vogel, *To See a Promised Land*, p. 149. Young, *Around the World*, pp. 234–35, 329, 351. McFeely, *Grant*, p. 467. Perret, *Ulysses S. Grant*, p. 454. Steiner, *Religious Beliefs*, pp. 71–76. See also William N. Still, *American Sea Power in the Old World: The United States Navy in European and Near Eastern Waters, 1865–1917* (Westport, Conn.: Greenwood, 1980), p. 76.

(8) References to “Cairo,” “Turk,” “Arab,” and “Arabian Nights” in Twain’s writing, can be located on *Mark Twain and His Times*, http://etext.lib.virginia.edu/railton/about/srchmtf.html. Mark Twain website, http://www.boondocksnet.com/twaintexts/letters/letter67O607.html: Letter to Jane Clemens and Family, June 7, 1867 (“tired of staying”). “Mark Twain’s Correspondence with the San Francisco *Alta California*,” http://www.twainquotes.com/altaindex.html: April 9, 1867 (“Isn’t it a most attractive”). Dayton Duncan and Geoffrey C. Ward, *Mark Twain: An Illustrated Biography* (New York: Knopf, 2001), pp. 10,48 (“the necessary stock “), 54 (“permanently miserable”), 60–61. Mark Twain, *The Innocents Abroad; or, The New Pilgrims’ Progress: Being Some Account of the Steamship Quaker City’s Pleasure Excursion to Europe and the Holy Land* (Pleasantville, N.Y.: Reader’s Digest Association, 1990), pp. 11 (“picnic on a gigantic,” “scamper about the decks,” and “green spectacles”), 17 (“The Synagogue”), 418 (“a funeral without”). Albert Bigelow Paine, *Mark Twain: A Biography: The Personal and Literary Life of Samuel Langhorne Clemens* (New York: Harper; 1912), pp. 324—31.

(9) Twain, *Innocents Abroad*, pp. 51 (“Tangier is a foreign”), 52 (“The emperor of Morocco”), 53 (“Christian dogs”), 54 (“thinks he has five” and “They slice around”), 56, 419 (“strange horde”), 424 (“Travel is fatal”).

(10) Twain, *Innocents Abroad*, pp. 80–81 (“a short;stout”), 228 (“in all the outrageous”), 229 (“the three-legged woman”), 233, 239 (“nothing of

romance”), 262 (“The picture lacks”), 290–91 (“an island of pearls”), 284, 289–90 (“wretched nest”), 303 (“couldn’t smile”), 351 (“To glance at”).

(11) Twain, *Innocents Abroad*, pp. 302 (“The gods of my”), 306, 311, 317 (“If all the poetry”), 319–20, 324, 332 (“frescoed … with disks”), 342, 358, 361, 385, 391. Paine, *Mark Twain*, pp. 333–36, 337 (“Is it any wonder”), 338, 394 (“hopeless, dreary”). Justin Kaplan, *Mr. Clemens and Mr. Twain* (New York: Simon & Schuster, 1966), p. 52.

(12) USNA, RG 84, *Records of Foreign Service Posts. Cairo, Egypt*, vol. 78: William Seward to Charles Hale, Oct. 30, 1867. Twain, *Innocents Abroad*, pp. 1397–98 (“shamefully humbugged”), 401 (“Palestine is no more”), 406 (“American vandals”). Mark Twain website, http://www.boondocksnet .com/twaintexts/letters/Ietter670607.html: Twain to the San Francisco *Alta California*, Jan. 8, 1868 (“Moorish haiks”). Paine, *Mark Twain*, p. 341 (“gospel of sincerity”). Kaplan, *Mr. Clemens and Mr. Twain*, p. 233. Obenzinger, *American Palestine*, pp. x (“right along with”), 188, 256.

(13) “A Short History of the Shrine,” http://www.shrinershq.org/ shrine/shorthistory.html. Eric Davis, “Representations of the Middle East at American World Fairs, 1876–1904,” in Amanat and Bernhardsson, eds., *United States and the Middle East*, pp. 352–53, 354 (“the oldest peopLe”), 355–58, 359 (“from Tangiers”).

الفصل الثاني عشر: الصحوة

(1) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Damascus: Johnson to Seward, April 3, 1867 (“that Americans sympathize”); Governor General of Syria to John son, Oct. 3, 1868; Johnson to Seward, Oct. 10, 1868; Johnson to Seward, July 22, 1868; Johnson [L.] to Johnson [A], Oct. 31, 1868; Johnson to Seward, Nov. 12, 1868; Dillon to Johnson, Dec.19, 1868; Johnson to Seward, Dec. 31, 1868. *New York Times*, Dec. 7, 1880.

(2) *FRUS*, 1880: Evarts to Fairchild, March 12, 1880, pp. 893–94. USNA, Dispatches from U.S. Consuls, Tangiers: Cohen to Mathews, May 5, 1880 ("It is to America"); Dispatches from U.S. Consuls, Jerusalem: Meizel, Alexander and Lipkin to deHass, May 3, 1877. Bryson, *American Diplomatic Relations*, pp. 29, 47. Brainerd Dyer, *The Public Career of William M. Evarts* (Berkeley: Univ. of California Press, 1933), pp. 217–18. Cyrus Adler, *Jews in the Diplomatic Correspondence of the United States* (Baltimore: Friedenwald, 1906), pp. 39—45. Ron Bartur, "American Consular Assistance to the Jewish Community of the Land of Israel at the End of the Ottoman Period to the Outbreak of World War 1, 1856—1914 [Hebrew]" (Hebrew Univ., 1984), p. 364 ("The stars and stripes").

(3) David Harris, *Britain and the Bulgarian Horrors of 1876* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1939), p. 410 ("In Paniguischte"). *New York Times*, Sept. 9, 1876 ("the remains of babes"). Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 365—72. Bryson, *American Diplomatic Relations*, pp. 29–30. Sir Edwin Pears, *Forty Years in Constantinople*, 1873—1915 (New York: Appleton, 1916), pp. 16—18.

(4) Marty H. Krout, ed., *Lew Wallace: An Autobiography* (New York: Harper, 1906), pp. 962–63. See also "Meet Lew Wallace: American Minister to Turkey, 1881—1885," on http://www.ben-hus.com/meet_ambassador.html.

(5) *FRUS*, 1877: Mr. Maynard to Mr. Evarts, Nov. 26, 1877, p. 141; 1878, Mr. Heap to Mr. Hunter, Jan. 25, 1878, pp. 929—31; 1879: Farman to Evarts, May 22, 1879, p. 1003 ("long remain"); Message of the President, Dec. 1, 1879, p. xiv ("a generous mark"); 1880, Farman to Evarts, May 5, 1880, pp. 1108—12. Elbert Eli Farman, "Negotiating for the Obelisk," *Century Illustrated Monthly Magazine* 24 (Oct. 1882): 882–83 ("The population," "another souvenir," and "It is not for"). Elbert Farman, *Egypt and Its Betrayal* (New York: Grafton Press, 1908), pp. 148–49, 166. Seaton

Schroeder, *Fifty Years of Naval Service* (New York: Appleton, 1922), pp. 133–36, 140–43. Labib Habachi, *The Obelisks of Egypt* (Cairo: American Univ. in Cairo Press, 1984), pp. 176–78, 181–82. Bob Brier, "Saga of Cleopatra's Needles," *Archaeology* 55, no. 6 (Nov.–Dec. 2002): 48–51. Martina D'Alton, *The New York Obelisk* (New York: Metropolitan Museum of Art, 1993), pp. 2, 11 ("point the finger" and "It would be absurd"), 16–21, 63. James Field, "Near East Notes and Far East Queries," in John Fairbank, ed., *The Missionary Enterprise in China and America* (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1974).

الباب الرابع: عصر الاستعمار

الفصل الثالث عشر: فجر الإمبراطوريات

(1) Conn, "John Porter Brown," pp. 10–11. USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Algiers, Algeria: Lee to French Consul, Feb. 20, 1830 ("the Frenchman"); Lee to Van Buren, July 15, 1830; Porter to Van Buren, Sept. 22, 1830. Haight, *Letters from the Old World*, pp. 260, 262. *FRUS*, 1882: Wallace to Frelinghuysen, Feb. 1, 1882, p. 501. Akira lriye, *From Nationalism to Internationalism: U.S. Foreign Policy to 1914* (London: Routledge and Kegan Paul, 1977), p. 65 ("we cannot follow"). Potts, "National Boasting," *New York Times*, Nov. 26, 1852. E. J. Hobsbawm, *The Age of Empire, 1875-1914* (New York: Pantheon, 1987), p. 59.

(2) USNA, RG 59; Dispatches from U.S. Consuls, Tunis: Fish to Hunter April 22, 1881 ("It looks as though"); Fish to Hunter May 5, 1881 ("In plain Anglo-Saxon"). David M. Pletcher, *The Awkward Years: American Foreign Relations under Garfield and Arthur* (Columbia: Univ. of Missouri Press, 1962), pp. 224-25 ("Civilization gains"). General Lewal, "The French Army," *Harper's New Monthly Magazine* 82, no. 491 (April 1891): 657.

(3) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Cairo, Egypt: Beardsley to Page, April 24, 1874; Beardsley to Fish, Dec. 11, 1875. Wright, *United States Policy toward Egypt*, pp. 92, 108–9 ("What folly"), 120, 123. Adam Badeau, "The Bombardment of Alexandria," *North American Review* 142, no. 355 (June 1886): 592. "American Trade Opportunities in Egypt Destroyed," *Los Angeles Times*, July 26, 1882, p. 2 ("shameful act"). "A Mohammedan Revival," *New York Times*, Sept. 22, 1881, p. 4 ("fanatic … Arabs"); "The Conquest of Egypt," Sept. 15, 1882, p. 4 ("everlasting shame"); "The Bondage of Egypt," Feb. 6, 1882, p. 4 ("taxation without representation").

(4) Chaillé–Long, *My Life*, pp. 245–48, 251, 259 ("In the sea"), 271 ("Men, women"), 302–3 ("We dominate"), 307 ("the Americans … who"). Still, *American Sea Power*, pp. 83–84, 85 ("I corralled"), 86–87. Frederick J. Cox, "Arabi and Stone: Egypt's Military Rebellion, 1882," *Cahiers d'Histoire Egyptienne* 8 (April 1956): 173–74. *Messages and Papers of the Presidents, 1789–1897* , vol. 8, ed. James D. Richardson (New York: Bureau of National Literature, 1917): Second Annual Address of Chester Arthur to Congress, Dec. 4, 1882, p. 126. *FRUS*, 1882: Sackville West to Frederick I Frelinghuysen, Sept. 17, 1882, p. 325 ("sailors and marines").

(5) *Farman, Egypt and Its Betrayal*, pp. 286 ("evil genius"), 289 ("Shylock"), 290 ("aggressive European Powers"), 302 ("He was the idol"), 303 ("instigated by"). Egyptian State Information Service, "Orabi Pasha," http://216.239.41.104/search?q=cache:O8sDNNWobzsJ:www.sis.gov.eg/calendar/html/c1310397.htm+orabi&hl=en&start=2. For a reference to the Arabic roots of the name "'Urabi," see Hans Wehr, *A Dictionary of Modern Written Arabic* (Beirut: Librairie du Liban, 1980), p. 601

(6) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Cairo: Wolf to Blaine, Sept. 12, 1881 ("act cautiously"); Wolf to Blaine, Sept. 15, 1881 ("Here on this"); Wolf to Blaine, Oct. 29, 1881 ("the natives and owners"); Wolf to

Blaine, Nov. 11, 1881 ("in no way"); Urabi to Wolf (n.d.) ("management and wisdom"); Wolf to Frelinghuysen, March 21, 1882 ("There is scarcely"). Esther L. Panitz, *Simon Wolf: Private Conscience and Public Image* (Rutherford: Fairleigh Dickinson Univ. Press, 1987), pp. 71–78. *Selected Addresses and Papers of Simon Wolf* (New York: Bloch, 1926), pp. 15-16. Simon Wolf, *The Presidents I Have Known from 1860-1918* (Washington, D.C.: Byron S. Adams, 1918), pp. 124–30.

(7) Cox, "Arabi and Stone," pp. 155–58. Charles P. Stone, "Stone Pacha and the Secret Dispatch," *Journal of the Military Service Institution of the United States* 8, no. 29 (March 1887): 95. Fanny Stone, "The Diary of an American Girl in Cairo during the War of 1882," *Century Illustrated Monthly Magazine* 28, no. 2 (June 1883): 29 ("quietly eating"), 43 ("death to the Christians"), 38 ("There never lived"), 34 ("be brave"), 45 ("For once"). Crabitès, *Americans in the Egyptian Army*, p. 263. USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Cairo: Gomanos to Frelinghuysen, July 23, 1882.

(8) Chaillé-Lorig, *My Life*, pp. 139 ("Egypt for the Egyptians"), 201 ("a very bad soldier"). Farman, *Egypt and Its Betrayal*, p. 333 ("Tel el-Kebir"). USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Cairo: Wolf to Blaine, Oct. 29, 1881 ("The cup is full"). Later in life, Wolf seems to have altered his opinion of the British administration in Egypt, crediting it with bringing it into "new light." See Wolf, *Presidents I Have Known*, p. 134.

(9) Cox, "Arabi and Stone," p. 158 ("Egypt had become"). Berntd A. Weisberger, *Statue of Liberty: The First Hundred Years* (Boston: Houghton Mifflin, 1985), pp. 22-23 ("Granite beings"), 24-25, 33. Willadene Price, *Bartholdi and the Statue of Liberty* (Chicago: Rand McNally, 1959), pp. 27–29, 42–45, 63–65, 119-20. Marvin Trachtenberg, *The Statue of Liberty* (New York; Penguin, 1986), pp. 46, 53-54, 57. Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 56 ("When will you turn").

(10) On the use of the Middle East model by American imperialists in the Far East, see Field, "Near East Notes," pp. 24 ("The Muslim societies"), 25–27. Field also makes the remarkable observation (p. 41) that "all the countries in which women have recently exercised significant political power—Israel, India, Ceylon, and China—were nineteenth-century targets of American missionary endeavor" Mark Twain, "An Anti-Imperialist," *New York Herald*, Oct. 15, 1900.

الفصل الرابع عشر: تقوى الإمبراطورية

(1) Eve Merriam, *The Voice of Liberty: The Story of Emma Lazarus* (New York: Farrar, Straus and Cudahy, 1959), pp. 140-41. Mark A. Raider, *The Emergence of American Zionism* (New York: New York Univ. Press, 1998), pp. 12 ("We consider ourselves"), 70-71 ("Wake, Israel"). Bette Roth Young, "Emma Lazarus and Her Jewish Problem," *American Jewish History* 84 (Dec. 1996): 299 ("opens up such"), 309 ("a home for" and "artisans, warriors"). Martin Feinstein, *American Zionism, 1884-1904*(New York: Herzl Press, 1965), pp. 18, 58-59. Emma Lazarus, "Epistle to the Hebrews," *American Hebrew* 13 (Feb. 2, 1883): 137; "The Jewish Problem," *Century illustrated Monthly Magazine* 36, no. 6 (Feb. 1883). Daniel Maroin, "Who Is the 'Mother of Exiles'?: Jewish Aspects of Emma Lazarus's *The New Colossus," Prooftexts* 20, no. 3 2000: 250 ("renew their youth"). Abram S. lsaacs, "Will the Jews Return to Palestine," *Century* 26, no. 1 (May 1883). See also Ranen Omer-Sherman, "Emma Lazarus, Jewish American Poetics, and the Challenge of Modernity," *Journal of American Women Writers* 19 (2003). Gregory Eiselein, "Emotion and the Jewish Historical Poems of Emma Lazarus," *Mosaic* 37 (2004). Arthur Zeiger, "Emma Lazarus and Pre-Herzlian Zionism," in Shulamit Reinharz and Mark A. Raider; eds., *American Jewish Women and the Zionist Enterprise* (Waltham, Mass.: Brandeis Univ. Press, 2004), pp. 13–17.

(2) T. DeWitt Talmage, *Talmage on Palestine* (New York: W. D. Rowland, 1890), pp. 7, 10 (“that curse of nations”), 24 (“All the fingers” and “They would be foolish”). John Rusk, *The Authentic Life of T. DeWitt Talmage* (New York: L. G. Stahl, 1902), pp. 79—82, 104, 125–26. Handy, *Holy Land*, pp. 125—28. See also T. DeWitt Talmage, *New Tabernacle Sermons* (New York: George Munro, 1886).

(3) William E. Blackstone, *Jesus Is Coming* (Chicago: Revell, 1908), pp. 240–41. Paul Charles Merkley, *The Politics of Christian Zionism, 1891–1948* (London: Frank Cass, 1998), pp. 60—63, 69—71. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 268–69. Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 228–29. The full text of the Blackstone Memorial can be found in Joseph Celleni, ed., *Christian Protagonists for Jewish Restoration* (New York: Arno Press, 1977), pp. 13–14.

(4) In his first State of the Union Address, in 1885, Giover Cleveland assailed the Porte for its attempts to impose “religious tests as a condition of residence [in Palestine],” but otherwise refrained from endorsing the Jewish state idea. See *Messages and Papers of the Presidents: 1789–1897*, vol. 8 (Washington, D.C.: GPO, 1898), p. 335. *FRUS*, 1882: Wallace to Said Pasha, June 3, 1882, p. 508; Ascher and Weinberg to Wallace, June 13, 1882, pp. 517–18; 1885: Bayard to Cox, Oct. 15, 1885, p. 871; 1888: Straus to Said Pasha, May 17, 1888, p. 1589 (“inquisitorial”); Rives to Gilman, Oct. 12, 1888, p. 1618; 1898: Straus to Hay, Nov. 22, 1898, p. 1092. Merle Curti, *American Philanthropy Abroad* (New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1963), p. 108. Jacob M. Landau and Kemal Mim Oke, “Ottoman Perspectives on American Interests in the Holy Land,” in Davis, *With Eyes toward Zion*, vol. 2, pp. 269—72. Cyrus Adler, *Jacob H. Schiff: His Life and Letters*, vol. 2 (London: William Heinemann, 1929), pp. 162–63. Naomi Wiener Cohen, *A Dual Heritage: The Public Career of Oscar S. Straus* (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1969), pp. 88–89, 171, 283. Regina S. Sharif,

Non-Jewish Zionism: Its Roots in Western History (London: Zed Press, 1983), pp. 92-93.

(5) Bertha Spafford Vester, *Our Jerusalem: An American Family in the Holy City* (1950; reprint, New York: Arno Press, 1977), pp. 56-57, 63 ("American-made"), 98 ("He taught me"), 134, 158. Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 114 ("post-Protestant period"), 152-53 ("When sorrows"), 155 ("hoping to be").

(6) Supporters of the American Colony were also instrumental in securing the recall of Merrill's successor, Edwin S. Wallace. Wallace accused Mrs. Spafford of holding "such power over her victims as to make them swear to be true what they know to be false," and of "doing much harm to injure the good name of America in this part of the world." See USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls. Jerusalem: Wallace to Cridler, Dec. 7, 1897; Merrill to Wharton; Oct. 3, 1891 ("one of the wildest"); Merrill to Quincy, Aug. 17, 1893; Merrill to Cridler, Jan. 30, 1899; Merrill to Cridler, July 8, 1901 ("They hate the United"). Shalom Goldman, "The Holy Land Appropriated: The Careers of Selah Merrill, Nineteenth Century Christian Hebraist, Palestine Explorer, and U.S. Consul in Jerusalem," *American Jewish History* 85, no. 2 (June 1997): 152—67. Ruth Kark, "Annual Reports," pp. 173-74. Alexander Fume Ford, "Our American Colony at Jerusalem," *Appleton's Magazine* 8 (1906): 643—55.

(7) Carl Dolmetsch, *"Our Famous Guest"—Mark Twain in Vienna* (Athens: Univ. of Georgia Press, 1992), pp. 45, 128—31, 25, 270. Cynthia Ozick, "Mark Twain and the Jews," *Commentary* 99, no. 5 (May 1995): 56—62. Theodore Herzl, "Mark Twain and the British Ladies: A Feuilleton," *Commentary* 28, no. 3 (Sept. 1959): 243-44 ("a short, spare"). Twain, *Innocents Abroad*, p. 324. Amos Elon, *Herzl* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1975), pp. 66, 245. Obenzinger, *American Palestine*, pp. 266 ("The

difference between the brain"), 267–68 ("If that concentration"). "Concerning the Jews" first appeared in *Harper's New Monthly Mazagine* in Sept. 1899; see also Charles Neider, ed., *The Complete Essays of Mark Twain* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1963), pp. 235—50; and Dan Vogel, *Mark Twain's Jews* (Jersey City, N.J.: KTAV Publishing House, 2006), pp. 61—88.

(8) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Cairo: Wolf to Frelinghuysen, March 25, 1882. Field, *America and the Mediterrd'nean World*, p. 350. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 249–50, 275. DeNovo, *American Interests*, pp. 9, 13–14, 18, 31. Kaplan, *Arabists*f, pp. 39–40. Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 21. Wright, *United States Policy toward Egypt*, p. 229 ("Americans occupy Egypt").

(9) American diplomatic records are rife with correspondence describing assaults on, and even the murder of, missionaries. See, e.g., *FRUS*, 1901: Negotiations for the Settlement of Indemnity Claims of United States Citizens, Hay to Straus, Jan. 11, 1900, p. 906. Laurie, *Ely Volume*, pp. 84, 457. Cagri Erhan, "Ottoman Official Attitudes towards American Missionaries" in Amanat and Bernhardsson, eds., *United States and the Middle East*, pp. 317—19. Vogel, *To See a Promised Land*, pp. 116–17. Tibawi, *American Interests in Syria*, pp. 237, 269 ("In the war"), 275, 280. DeNovo, *American Interests*, pp. 12, 35 ("No man ever came"), 42. Wright, *United States Policy toward Egypt*, p. 331. Field, *America and the Mediterranean World*, p. 437. Grabill, *Protestant Diplomacy*, pp. 30–31 ("modern missionaries").

(10) J. Christy Wilson, *Apostle to Islam: A Biography of Samuel M. Zwemer* (Grand Rapids, Mich.: Baker Book House, 1952), pp. 40—44, 72–73. Henry Harris Jessup, *The Setting of the Crescent and the Rising of the Cross; or, Kamil Abdul Messiah, a Syrian Convert from Islam to Christianity* (Philadelphia: Westminster Press, 1898), pp. 51—53, 65, 72, 127, 137—39, 143. Alfred DeWitt Mason and Frederick J. Barny, *History of the Arabian*

Mission (New York: Board of Foreign Missions Reformed Church in America, 1926), pp. 76–77, 86 ("very heart of Islam"), 90–91. Samuel Zwemer and James Cantine, *The Golden Milestone: Reminiscences of Pioneer Days Fifty Years Ago in Arabia* (New York: Revell, 1938), pp. 18–19, 30, 43, 92, 135. A. E. Zwemer and S. M. Zwemer, *Zigzag Journeys in the Camel Country: Arabia in Picture and Story* (New York: Revell, 1911), pp. 27, 31 ("Pioneer journeys"), 50, 92, 103 ("A country [without]"). Paul W. Harrison, *Doctor in Arabia* (London: Robert Hale, 1943), p. 264. Stuart Knee, "Anglo–American Relations in Palestine, 1919—1925: An Experiment in Realpolitik," *Journal of American Studies of Turkey* 5 (1997): 5 ("American religious–philanthropic").

(11) Josiah Strong, *Our Country: Its Possible Future and Its Present Crisis* (New York: American Home Mission Society, 1885), pp. 218–19. USNA, RG 59, Diplomatic Instructions of the Department of State, Persia: Bayard to Pratt, Aug. 23, 1887; Bayard to Pratt, July 7, 1886. *FRUS*, 1881: Foster to Blaine, May 21, 1881, pp. 1016–17; Vol. XLII, 1883: Benjamin to Felinghuysen, June 13, 1883, pp. 703—6 ("the most brilliant"); 1886, Pratt to Bayard, Nov. 29, 1886, p. 913 ("iron, coal, copper"); 1887: Pratt to Bayard, May 4, 1887, pp. 916–17. Bryson, *American Diplomatic Relations*, pp. 39–40. Abraham Yeselson, *United States—Persia Diplomatic Relations, 1883-1921* (New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1956), pp. 23—25. Palmer; *Guardians of the Gulf*, pp. 6—9. DeNovo, *American Interests*, pp. 296–97. Michael Zirinsky, "American Presbyterian Missionaries at Urmia during the Great War," *Journal of Assyrian Academic Studies* 12, no. 1 (April 1998): 8—11.

(12) Field, "Near East Notes," pp. 51, 54. Still, *American Sea Power*, pp. 79 ("The wayward Turks"), 103–4 ("Even the head").

(13) USNA, RG 59, Dispatches from the U.S. Consuls, Erzerum: Chilton to Use, Oct. 9, 1895. *New York Times*, Dec. 28, 1894 ("if not by"). Peter Balakian, *The Burning Tigris: The Armenian Genocide and America's Response* (New York: HarperCollins, 2003), pp. 11 ("Armenian Holocaust"), 23, 64, 73, 93. Arman Kirakossian, ed., *The Armenian Massacres, 1894-1896: U.S. Media Testimony* (Detroit: Wayne State Univ. Press, 2004), pp. 37 ("blot upon civilization"), 47 ("Not all the perfume"). Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 43 ("the demon of damnable"). Clyde E. Buckingham, *Clara Barton: A Broad Humanity* (Alexandria, Va.: Mount Vernon Publishing, 1977), p. 262 ("the warships").

(14) Angell later served as president of the University of Michigan, where an impressive hall still bears his name. *FRUS*, 1900: Griscom to Hay, Dec. 12, 1900, p. 515. USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Constantinople: Judson Smith to Olney, Nov. 19, 1895; Olney to Terrill; Jan. 16, 1896. Frederick Davis Greene, *Armenian Massacres; or, The Sword of Mohammed* (Philadelphia: National Publishers Co., 1896), p. xvii ("The policy of the United"). Grabill, *Protestant Diplomacy*, pp. 41–44, 45 ("rattle the Sultan's"). Kirakossian, *Armenian Massacres*, p. 71 ("Yankees of the Orient"). Erhan, "Ottoman Official Attitudes," p. 332. Still, *American Sea Power*, pp. 99-100, 105-6, 107. George Washburn, *Fifty Years in Constantinople* (Boston: Houghton Mifflin, 1909), pp. 246–49. Washburn relates how one American sailor, an African American whom the Turks mistook for a Muslim, succeeded in saving large numbers of Armenians.

(15) Buckingham, *Clara Barton*, pp. 260–62. David H. Burton, *Clara Barton: In the Service of Humanity* (Westport, Conn.: Greenwood, 1995), pp. 128–30. Curti, *American Philanthropy Abroad*, pp. 124, 127 ("I shall never counsel"). Balakian, *Burning Tigris*, pp. 10, 62–65, 69-70. Kirakossian, *Armenian Massacres*, pp. 42-43. "Profiles in Caring: Clara Barton,"

http://www.nahc.org/NAHC/Val/Columns/SC1O-1.html ("perhaps the most perfect"). McDougall, *Promised Land*, pp. 104-5.

الفصل الخامس عشر: الأساطير الإمبراطورية

(1) Clarence Clough Buel, "Preliminary Glimpses of the Fair," *Century Illustrated Monthly Magazine* 45, no. 4 (Feb. 1893): 615. Davis, "Representations of the Middle East, 1876–1904," pp. 344–48, 370. Erik Larson, *The Devil in the White City: Murder, Magic and Madness at the Fair That Changed America* (New York: Vintage, 2003), pp. 247-48, 250-51, 265-67.

(2) *The Autobiography of Sol Bloom* (New York: Putnam, 1948), pp. 106 ("I came to realize"), 107-8 (I knew that"), 119 ("To have made"). Donna Carlton, *Looking for Little Egypt* (Bloomington, Ind.: IDD Books, 1994), p. 27. A superb description of the Middle Eastern exhibitions at the Paris fair can be found in Timothy Mitchell's *Colonising Egypt* (Berkeley: Univ. of California Press, 1988), p. 1.

(3) "The World's Columbian Exposition: Idea, Experience, Aftermath," http://xroads.virginia.edu/MA96/WCE/title.html ("the strange music"). Mark Stevens, *Six Months at the World's Fair* (Detroit: Detroit Free Press, 1895), pp. 101, 103 ("Cairo was strikingly"). Larkin, *Devil in the White City*, p. 236. Gustav Kobbe, "Sights at the Fair," *Century Illustrated Monthly Magazine* 46, no. 6 (Sept. 1893): 653 ("The Midway Plaisance"). Carlton, *Looking for Little Egypt*, pp. 27, 35, 39 ("Such a jaunt"). Norman Bolotin and Christine Laing, *The World's Columbian Exposition* (Urbana: Univ. of Illinois Press, 2002), p. 139. Robert Muccigrosso, *Celebrating the New World: Chicago's Columbian Exposition of 1893* (Chicago: Ivan R. Dee, 1993), p. 164. David Burg, *Chicago's White City of 1893* (Lexington: Univ. Press of Kentucky, 1976), pp. 105, 221.

(4) The cost of riding camels was twice that of riding donkeys–twenty-five cents. A quarter also gained admission to the Moorish Palace, the Persian Tent, the Turkish Pavilion, and the Bedouin encampment. See Bolotin and Laing, *World's Columbian Exposition*, p. 107. Stevens, *Six Months*, p. 102 ("This high art dancing"). Burg, *Chicago's White City*, pp. 221 ("splendid specimens"), 222 ("It is the coarse" and "Every motion"), 223 ("Now she revolves"). Carlton, *Looking for Little Egypt*, p. 23. Muccigrosso, *Celebrating the New World*, pp. 165, 166 ("genuine native muscle" and "a peaceful night's rest"), 167 ("simply horrid"). Larkin, *Devil in the White City*, pp. 311–12 ("whether the apprehensions").

(5) Daniel Burnham, ed., *Final Official Report of the Director of Works of the World's Columbian Exposition* (New York: Garland, 1989), p. 40. "None Can Compare with It," *New York Times*, June 19, 1893, p. 5 ("The denizens"). Mrs. Mark Stevens, *A Lecture on What You Missed in Not Visiting the World's Fair* (Flint: n.p., 1895), p. 6 ("New Jerusalem"). Buel, "Preliminary Glimpses," p. 626 ("Haroun al-Raschid"). Muccigrosso, *Celebrating the New World*, pp. 167–68 ("We were all knocked"). *Autobiography of Sol Bloom*, pp. 122–23, 135 ("The crowds poured in" and "a masterpiece of rhythm"), 136. Burg, *Chicago's White City*, p. 223.

(6) Blackstone's proposal for an international arbitrating organization, circulated at the 1893 fair, can be found in the William Blackstone Papers, collection 540, box 7, folder 1. Turner, *Frontier in American History*, p. 37.

الفصل السادس عشر: منطقة أُعيدَ تسميتها وتنظيمها

(1) A. T. Mahan, *Retrospect and Prospect* (Boston: Little, Brown, 1902), pp. 233, 237, 243. A. T. Mahan, *The Problem of Asia* (Boston: Little, Brown, 1900), pp. 80–81, 83 ("the neck of land"). Numerous studies exist on the Mahan's naval theories in general and on his concept of the Middle East

in particular. See, e.g., Roderic H. Davison, “Where Is the Middle East?” in Richard H. Nolte, ed., *The Modern Middle East* (New York: Atherton Press, 1963), pp. 15–17. Marwan R. Buheiry, “Alfred T. Mahan: Reflections on Sea Power and on the Middle East as a Strategic Concept,” in Lawrence I. Conrad, ed., *The Formation and Perception of the Modern Arab World* (Princeton: Darwin Press, 1990), pp. 157–62. W. D. Pulson, *The Life and Work of Captain Alfred Thayer Mahan* (New Haven: Yale Univ Press, 1939), pp. 41–42.

(2) Fareed Zakaria, *From Wealth to Power: The Unusual Origins of America's World Role* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1996), pp. 46, 127. Walter Zimmerman, *First Great Triumph: How Five Americans Made Their Country a World Power* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2002), pp. 24–25, 30–31, 34–37. Walter LaFeber, *The New Empire: An Interpretation of American Expansion, 1860-1898* (Ithaca: Cornell Univ. Press, 1998), pp. 99, 105. Ernest May, *Imperial Democracy: The Emergence of America as a Great Power* (Chicago: Imprint Publications, 1961), p. 6.

(3) Camel cigarettes first appeared in 1913, with a logo inspired by “Old Joe,” a camel in the Barnum and Bailey Circus. Other “Middle Eastern” brands soon appeared, with names like Aga, Kismet and Osman. See Nance, “Crossing Over,” pp. 98–102. DeNovo, *American Interests*, pp. 16–22, 39–40. Wright, *United States Policy toward Egypt*, pp. 206–7. Turgay, “Ottoman–American Trade,” p. 234 (“The newspapers”). Field, *America and the Mediterranean World*, pp. 327, 338. *The Complete Plays of Bernard Shaw* (London: Constable Press, 1931), pp. 320 (“As the search”), 323 (“The world”).

(4) *Theodore Roosevelt's Diaries of Boyhood and Youth* (New York: Scribner, 1928), pp. 227 (“I *felt* a great deal”), (“what we should call”), 276 (“How I gazed”), 278–79 (“the Arabs always talk”), 290, 304 (“a glimpse of”), 314–319. Theodore Roosevelt, *An Autobiography* (New York: Da Capo

Press, 1985), pp. 20, 398–99, 548 ("so utterly incompetent"), 550, 561 ("dreadful scourge"). Nathan Miller, *Theodore Roosevelt: A Life* (New York: Quill Books, 1992), p. 54. Edmund Morris, *The Rise of Theodore Roosevelt* (New York: Modern Library, 2001), pp. 37, 40–41. Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 45 ("Spain and Turkey"). Steiner, *Religious Beliefs*, pp. 152–56. John Milton Cooper, *The Warrior and the Priest: Woodrow Wilson and Theodore Roosevelt* (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1983), pp. 71–72 ("barbarous and semi-barbarous").

(5) *FRUS*, 1901, vol. 4: Leishman to Hay, Sept. 5, 1901, p997; Lazzaro to Dickinson, Sept. 5, 1901, p. 998 ("dressed like Turks"); Stone to Peet, Sept. 20, 1901, p. 1006; Eddy to Hay, Dec. 13 1901; Leishman to Hay, March 1, 1902. Teresa Carpenter, *The Miss Stone Affair: America's First Modern Hostage Crisis* (New York: Simon & Schuster, 2003), pp. 30–31 ("Women have no earthly"), 32—35, 56–57, 94—96, 140—42.

(6) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls, Constantinople: Leishman to Hay, Sept. 10, 1903. "Unspeakable Turk to Be Called Upon to Settle for the Murder of American Vice-Consul," *Los Angeles Times*, Aug. 28, 1903. "Turkish Minister to Confer with Hay," *New York Times*, Aug. 30, 1903 ("We have allowed"). Still, *American Sea Power*, p. 159. Erhan, "Ottoman Official Attitudes," p. 332.

(7) USNA, RG 59, Dispatches from U.S. Consuls. Tangier: Gummere to Hay, May 19, 1904 ("most prominent American"); Gummere to Hay, May 20, 1904; Gummere to Hay, June 15, 1904. *FRUS*, 1904: Hay to Gummere, June 9, 1904, pp. 498–99 ("Anything which may be regarded"). Edmund Morris, *Theodore Rex* (New York: HarperCollins, 2003), pp. 323, 324 ("all we hold sacred"), 329 ("PRESIDENT WISHES"), 325–26, 327 ("I had much rather"), 335 ("WE WANT PEDICARIS"), 337–38 ("that flag"). Baepler, *White Slaves*, pp. 291—97, 301 ("one of the most"). Peter Larsen, "Theodore Roosevelt

and the Moroccan Crisis, 1904–1906" (Ph.D. diss., Princeton Univ., 1984), pp. 1, 21–22 ("surrender to the demands"), 40–41, 64, 66.

(8) *FRUS*, 1906: International Diplomatic Conference at Algeciras: White to the Secretary of State, Jan. 30, 1906, pp. 1471–72. *The Letters of Theodore Roosevelt*, ed. Elting Morison (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1954): Roosevelt to Whitelaw Reid, June 27, 1906, pp. 318–19; Roosevelt to Joseph Cannon, Sept. 12, 1904, pp. 923–24 ("Do they object"). *Selections from the Correspondence of Theodore Roosevelt and Henry Cabot Lodge, 1884–1918* (New York: Scribner, 1925): Roosevelt to Lodge, July 11, 1905, p. 166. USNA, RG 59, Special Missions: Root to White, March 2, 1906 ("side with either"). Frederick W. Marks, *Velvet on Iron: The Diplomacy of Theodore Roosevelt* (lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1979), p. 69. Howard K. Beale, *Theodore Roosevelt and the Rise of America to World Power* (Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1986), pp. 356–62, 366, 370–74, 377–78, 381–88. Raymond A. Esthus, *Theodore Roosevelt and the International Rivalries* (Claremont: Regina Books, 1970), pp. 70–79, 83–89, 104–9, 111 ("It would be enormously").

(9) Franklin Matthews, *Back to Hampton Roads* (New York: B. W. Huebsch, 1909), pp. 282–83, 287–89, 290 ("We gave Cairo"). Roman J. Miller; *Around the World with the Battleships* (Chicago: A. C. McClurg, 1909), pp. 301–6, 308 ("About us swarmed"), 309, 315, 324–25. James A. Reckner, *Teddy Roosevelt's Great White Fleet* (Annapolis: Naval Institute Press, 1988), pp. 146–47. Robert A. Hart, *The Great White Fleet* (Boston: Little, Brown, 1965), pp. 272–74.

(10) *Letters of Theodore Roosevelt:* Roosevelt to George Otto Trevelyan, Oct. 11, 1910, pp. 349–51. Wright, *United States Policy toward Egypt*, pp. 168–69. Vatikiotis, *History of Egypt*, pp. 203–4. David H. Burton, *Theodore Roosevelt: Confident Imperialist* (Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 1968), pp. 180–85, 191 ("I should have things"). Sheikh Ali Yousuff,

“Egypt’s Reply to Colonel Roosevelt,” *North American Review* 191 (June 1910): 732–33, 755 (“Down with Roosevelt”), 737 (“when Egypt is”).

(11) Walter Scholes and Marie Scholes, *The Foreign Policies of the Taft Administration* (Columbia: Univ. of Missouri Press, 1970), pp. 30–31. Thomas Bentley Mott, *Twenty Years as Military Attaché* (1937, reprint, New York: Arno Press, 1979), pp. 171–74. DeNovo, *American Interests*, pp. 46–49, 52 (“an attitude”), 53 (“the veriest folly”), 76. Grose, *Israel in the Mind*, pp. 59–60. Robert A. McDaniel, *The Shuster Mission and the Persian Constitutional Revolution* (Minneapolis: Bibliotheca Islamica, 1974), pp. 115, 124–26, 134, 160–61, 170, 198 (“a monumental error”).

الباب الخامس: أمريكا والشرق الأوسط والحرب العظمى

الفصل السابع عشر: متابعون للكارثة

(1) Philip Roth, *The Plot against America* (Boston: Houghton Mifflin, 2004), p. 114. David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Avon, 1989), p. 534. Kinross, *Ottoman Centuries*, pp. 566–609. Stephen Hemsley Longrigg, *Oil in the Middle East: Its Discovery and Development* (London: Oxford Univ. Press, 1954), p. 25. Helen Davenport Gibbons, *The Red Rugs of Tarsus: A Woman’s Record of the Armenian Massacre of 1909* (New York: Century, 1917), pp. 170 (“The only difference”), 179.

(2) Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 38. DeNovo, *American Interests*, pp. 38, 96. *FRUS*, 1914, Supplement: Bryan to Morgenthau, Oct. 5, 1914, p. 9 (“I am much gratified”).

(3) *FRUS*, 1914, Supplement: Morgenthau to Bryan, Aug. 19, 1914, p. 758; Morgenthau to Bryan, Aug. 25, 1914, p. 75; Bryan to Morgenthau, Aug. 26, 1914, p. 77 (“in the interest”).

(4) *FRUS*, 1914, Supplement: Morgenthau to Bryan, Aug. 15, 1914, p. 66 ("grave immediate necessity"); Morgenthau to Bryan, Aug. 19, 1914, p. 758 ("reign of military terrorism"); Morgenthau to Bryan, Nov. 7, 1914, p. 139 ("never doubted"); Morgenthau to Bryan, Nov. 8, 1914, p. 781 ("For each Mussulman"); Lansing to Morgenthau, Nov. 18, 1914, p. 771 ("Should organized massacres"); Lansing to Morgenthau, Nov. 20, 1914, p. 771 ("any loss of life"); Bryan to Morgenthau, Dec. 20, 1914, pp. 777–78 ("it would be unsafe"); Morgenthan to bryan, Dec. 22, 1914, p. 778; 1914—20, Lansing Papers, vol. 1: Rusem to Bryan, Sept. 12, 1914, pp. 70–71 ("who gave the world"); Wilson to Lansing, Sept. 17, 1914, pp. 72–73. See also Robert Trask, *The United States Response to Turkish Nationalism and Reform, 1914-1939* (Minneapolis: Univ. of Minnesota Press, 1971), p. 13. Arthur S. Link, *Wilson: The Struggle for Neutrality* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1960), pp. 68–69. Robert L. Daniel, "The Armenian Question and American–Turkish Relations, 1914—1927," *Mississippi Valley Historical Review* 46 (Sept. 1959): 256.

(5) "Missionaries Tell of Terrible Conditions—Raids by Turks," *New York Times*, Dec. 5, 1914; "20,000 Christians in Peril," Dec. 15, 1914; "Fear of General Massacre in Constantinople" ("There was no room"). Balakian, *Burning Tigris*, pp. 177—80.

(6) Leslie A. Davis, *The Slaughterhouse Province: An American Diplomat's Report on the Armenian Genocide, 1915-1917* (New Rochelle: Aristide D. Caratzas, 1989), pp 46—54, 67—69, 79 ("The Mohammedans"). *Statement by the Rev. William A. Shedd, of the American (Presbyterian) Mission Station at Urmia*, "Beth Aram—The Aramean homepage in Germany," http://www.beth-aram.de/dokumente3.html. "Agonies of Armenians Described by DL Richard Hill in Letter from Caucuses," New York Times, Feb. 7, 1916. Henry H. Riggs, *Days of Tragedy in Armenia* (Ann Arbor: Gomidas Institute, 1917), p. 48. Balakian, *Burning Tigris*, pp. 193–94 ("old men and old"), 346 ("The Government"), 180, 196, 200–1.

(7) Jay Winter, ed., *America and the Armenian Genocide of 1915* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 2003), p. 192. Clarence Ussher and Grace Knapp, *An American Physician in Turkey* (Boston: Houghton Mifflin, 1917), pp. 236–44, 277. John D. Barrows, *In the Land of Ararat* (New York: Revell, 1916), pp. 128–34. *FRUS*, 1915, Supplement: Bryan to Gerard. March 12, 1915, p. 964 ("non-combatants"). "Turks Lock 1,000 in Wooden Building and Then Apply the Torch," *New York Times*, Sept. 3, 1915; "Spare Armenians Pope Asks Sultan," Oct. 13, 1915; "State Department Shows Quarter of a Million Women Violated," Oct. 22, 1915. Samantha Power, *A Problem from Hell: America and the Age of Genocide* (New York: Basic, 2002), pp. 4–6.

(8) Barbara Tuchman, "The Assimilationist Dilemma: Ambassador Morgenrhau's Story," *Commentary* 63, no. 5 (May 1977): 60. Henry Morgenthau III, *Mostly Morgenthau: A Family History* (New York: Ticknor & Fields, 1991), pp. 102-3, 127. *The Papers of Woodrow Wilson*, ed. Arthur Link (Princeton: Princeton Univ. Press, 1966–94), vol. 35: From the Diary of Colonel House, May 2, 1913, pp. 384–85; Henry Morgenthau to Woodrow Wilson, June 12, 1913 ("Would prominent Methodists"), p. 513. Central Zionist Archives (henceforth, CZA), A 243/150: Morgenthau to Wise, June 10, 1913; Wise to Morgenthau, Aug. 7, 1913.

(9) Balakian, *Burning Tigris*, pp. 222-23 ("dazzling" and "intrigue, intimidation"). CZA, A 243/150: Morgenthau to Wise, Nov. 28, 1913 ("This is undoubtedly"). Henry Morgenthau Papers, reel 22; undated speech ("few rug merchants"). Henry Morgenthau, *All in a Life-Time* (Garden City, N.Y.: Doubleday, Page, 1922), pp. 175-76 ("I had hitherto"), 196, 203 ("the American spirit"), 204 ("gospel of Americanism"), 209 ("Here was I"). Henry Morgenthau, *The Murder of a Nation* (New York: Armenian General Benevolent Union of America, 1974), p. 18.

(10) Lansing replaced Bryan, an adamant pacifist, who resigned in protest of Wilson's policies, which, he felt, were drawing America into the war. Balakian, *Burning Tigris*, pp. 227, 266–70. Merrill D. Peterson, *"Starving Armenians": America and the Armenian Genocide, 1915-1930 and After* (Charlottesville: Univ. of Virginia Press, 2004), p. 37 ("gigan-tic plundering"). "Armenians' Own Fault, Benstrof Now Says," *New York Times*, Sept. 29, 1915. Power, *Problem from Hell*, p. 6. Israel Charny, ed., *Encyclopedia of Genocide* (Santa Barbara: ABC-CLIO, 1999), p. 96. Lewis Einstein, *Inside Constantinople* (London; John Murray, 1917), p. 231. *FRUS*, 1915, Supplement: Morgenthau to the Secretary of State, July 10, 1915, p. 983 ("race extermination"); 1914–20, Lansing Papers, vol. 1: Lansing to Wilson, Nov. 15, 1916, p. 41.

(11) *Papers of Woodrow Wilson*, vol. 35, p. 349 ('You may be sure"). *FRUS*, 1914–20, Lansing Papers, vol. 1: Lansing to Wilson, Nov. 21, 1916, p. 42 ("well-known disloyalty"). Winter, *America and the Armenian Genocide*, p. 104. "Government Sends Plea for Armenia," *New York Tims*, Oct. 4, 1915 ("aroused strong sentiment"). Henry Morgenthau Papers, reel 7: Morgen-thau to the Secretary of State, July 16, 1915 ("Nothing short of"). Henry Morgenthau, *Ambassador Morgenthau's Story* (Garden City, N.Y.: Double-day, 1918), pp. 333-34 ("not … as a Jew"). Morgenthau, *Murder of a Nation*, pp. 64 ("Our people will"), 68 ("They are all dead").

(12) Henry Morgenthau Papers, reel 7: Morgenthau to Secretary of State, Aug. 11, 1915 ("It is difficult"). *FRUS*, 1915, Supplement, Morgen-thau to Secretary of State, Sept. 3, 1915, p. 988. USNA, RG 59, Morgenthau to the Secretary of State, Nov. 25, 1915; Morgenthau to the American Con-suls at Beiruth and Aleppo, Nov. 29, 1915. James Barton, *Story of Neat East Relief (1915-1930)* (New York: Macmillan, 1930), p. 4. Ralph Elliot Cook, "The United States and the Armenian Question, 1894–1924" (Ph.D. diss., Tufts Univ., 1957), pp. 131-32. Balakian, *Burning Tigris*, pp. 279-80, 282.

Power, *Problem from Hell*, pp. 9 , 11–12. CZA, CM 241/2—roll 44: Clipping from the St. Louis Dispatch, Sept. 15, 1915 ("The United States might be"). Some Americans also opposed Morgenthau's plan for resettling Armenians in the United States. "Nothing is more stupid ... than advocating that the solution of the Armenian question ... is in emigration *en masse* to America," wrote the *New York Herald* correspondent Herbert Gibbons. "Their wholesale emigration ... would mark the disappearance of the Armenians as a race and a nation." See Herbert A, Gibbons, *The Blackest Page of Modern History* (New York: Putnam, 1916), p. 50.

(13) Richard Kloian, *The Armenian Genocide: News Accounts from the American Press* (Berkeley: Auto Press, 1985), p. 219 ("One group"). Balakian, *Burning Tigris*, pp. 242–43 ("arms or legs" and "hundreds of bodies"), 246–47. James Barton, ed,, *"Turkish Atrocities": Statements of American Missionaries on the Destruction of Christian Communities in Ottoman Turkey, 1915–1917* (Ann Arbor: Gomidas Institute, 1998), p. 9 ("Women [who] escaped".)

(14) George Horton, *The Blight of Asia* (1926; reprint, Indianapolis: Bobbs–Merrill, 1953), pp. 54—57. Balakian, *Burning Tigris*, pp. 254–55. DeNovo, *American Interests*, p. 39. Morgenthau, *Ambassador Morgenthau's Story*, pp. 307, 321–22 ("The whole history"), 350. Morgenthau, *Murder of a Nation*, p. 114 ("I had reached"). See also *Marsovan 1915: The Diaries of Bertha B. Morley* (Ann Arbor: Gomidas Institute, 2000), p. 15.

(15) *FRUS*, 1916, Supplement: Philip to Lansing, May 21, 1916, p. 851 ("Turkish authorities appear"); Philip to Lansing, July 15, 1916, pp. 932–33 ("fri spite of"); Philip to Lansing, July 26, 1916, p. 934; Philip to Lansing, July 26, 1916, p. 935; 1914—20, Lansing Papers, vol. 2: Lansing to Wilson, May 17, 1917, pp. 17—19. Dennis R. Papazian, "Misplaced Credulity: Contemporary Turkish Attempts to Refute the Armenian Genocide," http://www.umd.umich.edu/dept/armenian/papazian/misplace.html

(“unchecked policy of extermination”). Kaplan, *Arabists*, p. 65 (“The air was filled”). See also Grace D. Guthrie, Legacy to Lebanon (Richmond, Va.: Self-published, 1984), p. 17. Margaret McGilvary, *The Dawn of a New Era in Syria* (New York: Revel), 1920, pp. 94 (“The whole country”), 110 (“In Syria we were”).

الفصل الثامن عشر: تحرُّك أم جمود؟

(1) *Papers of Woodrow Wilson*, vol. 35: House to Wilson, Nov. 11, 1915, p. 191 (“Anything coming”); House to Wilson, Feb. 3, 1916, p. 124 (“The Central Empire runs”); Woodrow Wilson’s State of the Union Address, Dec. 4, 1917, p. 200 (“do not yet stand”). *FRUS*, 1916, Supplement: Philip to Lansing, March 28, 1916, p. 849; 1914–20, Lansing Papers, vol. 1: Elkus to Lansing, Sept. 26, 1916, p. 782; Elkus to Lansing, March 2, 1917, pp. 787-88 (“What can we expect”); Elkus to Lansing, Feb. 11, 1917, p. 134 (“Our relations with Turkey”); Supplement 2: Secretary of State to Elkus, April 6, 1917, p. 11. See also Isaiah Friedman, *The Question of Palestine: British-Jewish-Arab Relations: 1914-1918* (New Brunswick: Transaction, 1992), p. 211.

(2) Wilson’s request for a congressional declaration of war appears on http://www.classbrain.com/artteenst/publish/article_86.shtml. Cornelius Engert Papers, box 1, folder 11.5: Engert to American Minister at The Hague, Nov. 11, 1917. *Papers of Woodrow Wilson*, vol. 35: Chambers to Wilson, Dec. 10, 1915, p. 337; vol. 45: Abram Elkus to Wilson, Nov. 14, 1917 (“Turkey is the weakest”). John H. Finley, *A Pilgrim in Palestine* (New York: Scribne; 1919), p. 55. “Senators Want War on Austria,” *New York Times*, Nov. 27, 1917 (“Turkey’s course”); Dec. 7, 1917 (“I should be sorry”). *Selections from the Correspondence of Theodore Roosevelt and Henry Cabot Lodge:* Lodge to Roosevelt, Oct. 2, 1918. *Letters of Theodore Roosevelt:*

Roosevelt to Lodge, Oct. 23, 1918 ("We ought to declare"); Roosevelt to Paul Shimmon, July 10, 1918 ("surpassed the iniquity").

(3) *Papers of Woodrow Wilson*, vol. 45: Dodge to Wilson, Dec. 2, 1917, pp. 185–86; Wilson to Dodge, Dec. 5, 1917 ("every word"); vol. 47: Lansing to Wilson, May 8, 1918, pp. 569–70; vol. 48: From the Diary of Colonel House, May 19, 1918, p. 70; Wilson to Lansing, May 24, 1918, p. 136; vol. 49: Sir William Wiseman to Sir Eric Drummond, Aug. 27, 1918, p. 365. DeNovo, *American Interests*, p. 106 ("I have thought"). *Letters of Theodore Roosevelt*, vol. 8: Roosevelt to Cleveland, May 11, 1918, pp. 1316–18 ("We are guilty"); Theodore Roosevelt to Andrew Fleming West, Dec. 28, 1918, p. 1418 ("It is rather bitter"). Joseph Grabill, "Cleveland H. Dodge, Woodrow Wilson and the Near East," *Journal of Presbyterian History* 48 (Winter 1970): 249–54. Fromkin, *Peace to End All Peace*, p. 260 ("following its inclination"). See also David E. Cronon, ed., *The Cabinet Diaries of Josephus Daniels, 1913–1921* (Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1963), p. 246.

(4) *FRUS*, 1914–20, Lansing Papers, vol. 2: Lansing to Wilson, May 17,1917, pp. 17–19; 1917, Supplement 2: Morgenthau and Frankfurter to Secretary of State, July 8, 1917, pp. 120–22. *Papers of Woodrow Wilson*,vol. 43: Memorandum from an interview with Wilson written by Sir William Wiseman, July 13, 1917, p. 172; vol. 45: Morgenthau to Wilson, Nov. 26, 1917, p. 123 ("was the cancer"); Wilson to Lansing, Nov. 28, 1917, p. 147; vol. 49: Dodge to Wilson, Sept. 28, 1918, pp. 151–52 ("in the seventh heaven"). Jehuda Reinharz, *Chaim Weizman: The Making of a Statesman* (New York: Oxford Univ. Press, 1993), pp. 153–54, 155 ("there was one chance"), 163 ("on no account"), 164–68. Richard Lebow, "The Morgenthau Peace Mission of 1917," *Jewish Social Studies* 32, no. 4 (Oct. 1970): 271 ("If it succeeds"), 272–80, 281 ("hot air impressions"), 284 ("wild goose chase"). William Yale, "Ambassador Henry Morgenthau's Special Mission of 1917," *World Politics* 1, no. 3 (April 1949): 311–15, 320 ("Morgenthau's

trip"). Manuel, *Realities*, 155–58. Chaim Weizmann, *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann* (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1949), pp. 196 ("Talk to Morgenthau"), 197–98.

الفصل التاسع عشر: ميلاد حركة أمريكية

(1) Raider, *Emergence of American Zionism*, p. 12. Feinstein, *American Zionism*, pp. 99 ("a fatal blow"), 125. Rafael Medoff, *Zionism and the Arabs: An American Jewish Dilemma, 1898–1948* (Westport, Coon.: Praeger, 1997), p. 12 ("of merely being"). Gideon Shimoni, *The Zionist Ideology* (Hanover: Univ. Press of New England, Brandeis Univ. Press, 1995), p. 137 ("Their entire desire"). Grose, *Israel in the Mind*, p. 72 ("the most formidable"). Arthur Hertzberg, ed., *The Zionist Idea: An Historical Analysis and Reader* (New York: Atheneum, 1972), p. 500 ("We believe that"). Melvin I. Urofsky, *American Zionism from Herzl to the Holocaust* (Garden City, N.Y.: Anchor Press, 1975), p. 98. Oscar Straus Papers, box 4: Straus to Wolf, April 24, 1906.

(2) Samuel Halperin, *The Political World of American Zionism* (Detroit: Wayne State Univ. Press, 1961), pp. 11–12 ("Will the Jews"). Hertzberg, *Zionist Idea*, p. 499 ("Is the German-American"). H. N. Hirsch, *The Enigma of Felix Frankfurter* (New York: Basic Books, 1981), p. 44. Michael E. Parrish, *Felix Frankfurter and His Times: The Reform Years* (New York: Free Press, 1982), pp. 129–30. Ben Halpern, "The Americanization of Zionism," *American Jewish History* 69, no. 1 (1979): 15–33. Melvin I. Urofsky, *A Voice That Spoke for Justice: The Life and Times of Stephen S. Wise* (Albany: State Univ. of New York Press, 1982).

(3) Raider, *Emergence of American Zionism*, pp. 21, 25, 27. Grose, *Israel in the Mind*, pp. 48 ("these so-called dreamers"), 52 ("deep moral feeling"). CZA, A 243/13, Stephen S. Wise Papers: Wise to Frankfurter, Oct. 10,

1936 ("Sanity, soundness"). Ezekiel Rabinowitz, *Justice Louis D. Brandeis: The Zionist Chapter of His Life* (New York: Philosophical Library, 1968), pp. 14, 31. Evyatar Freisel, "Brandeis' Role in American Zionism Reconsidered," in Jeffrey Gurock, ed., *American Jewish History: The Colonial and Early National Periods, 1654-1840* (New York: Routledge, 1998), pp. 42-43, 105. Allon Gal, "In Search of a New Zion: New Light on Brandeis' Road to Zionism," in Gurrock, *American Jewish History*, pp. 79, 88, 90-91 ("the descendants"). Ben Halpern, *A Clash of Heroes: Brandeis, Weizmann and American Zionism* (New York: Oxford Univ. Press, 1987), pp. 94-95, 100–5. Louis D. Brandeis, *The Jewish Problem: How to Solve It* (New York: Zionist Organization of America, 1919), pp. 19-20 ("There is no inconsistency").

(4) USNA, Ducker to the Secretary of the Navy—Report on the Conditions in Palestine with Reference to Zionism, Feb. 10, 1915. Lansing to Brandeis, Feb. 16, 1915 ("general massacre"); Alexandria Palestine Committee to the Secretary of State, Jan. 25, 1915 ("In name of"); *FRUS*, 1914, Supplement: Morgenthau to Bryan, Aug. 13, 1914, p. 757; 1914–20, Lansing Papers, vol. 1: Elkus to Lansing, Nov. 17, 1916, p. 784. Manuel, *Realities*, pp. 128–31, 136–40. Ruth L. Deech, "Jacob de Haas: A Biography," in Raphael Patai, ed., *Herzl Year Book 7* (New York: Henl Press, 1971), pp. 340-41 ("If ever I have").

(5) Morgenthau, *All in a Life-Time*, p. 175 ("Anything you can do"). Manuel, *Realities*, pp. 120–25, 126 ("unqualified loyalty"), 141–46. *FRUS*, 1916, Supplement: Morgenthau to Lansing, Dec. 1915, p. 830; Lansing to Glazebrook, Jan. 14, 1916, p. 925; Lansing to Philip, Sept. 13, 1916, p. 937. USNA, Ducker to the Secretary of the Navy—Report on the Conditions in Palestine with Reference to Zionism, Feb. 10, 1915 ("would long remain" and "undoubtedly one"). CZA, A 243/159, Correspondence on Matters of the Yishuv: Perlstein to Wise, Jan. 16, 1915; A 264/25, Papers of Felix Frankfurter: Primrose to Gaster, March 18, 1915. Alexander Aaronsohn,

With the Turks Palestine (Boston: Houghton Mifflin, 1916), p. 85. Leonard Stein, *The Balfour Declaration* (London: Vallentine, Mitchell, 1961), p. 191 ("America was"). Scuttled by a tsunami in Aug. 1916, with the loss of thirty-eight hands, the *Tennessee* was mourned by the Jews of Palestine as "an eternal blessing." See Davis, *With Eyes toward Zion*, vol. 2, pp. 238–39.

(6) Grose, *Israel in the Mind*, p. 68 ("The Jews from every"). Manuel, *Realities*, p. 83. *Letters of Theodore Roosevelt:* Roosevelt to Julian H. Miller; Sept. 16, 1918, p. 1372 ("It seems to me"); Roosevelt to Lioubomir Michailovitch, July 11, 1918, p. 1350 ("there can be"). *The Intimate Papers of Colonel House*, ed. Charles Seymour (Boston: Houghton Mifflin, 1928), vol. 1, pp. 43–44 ("It is all bad"). Ray Stannard Baker, *Woodrow Wilson and World Settlement* (Garden City. N.Y.: Doubleday, Page, 1923), p. 74 ("fine example"). Fromkin, *Peace to End All Peace*, pp. 257, 295 ("the English naturally want"). Stein, *Balfour Declaration*, p. 156. Elizabeth Monroe, *Britain's Moment in the Middle East, 1914–1956* (Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1963), p. 40 ("man to man"). Yaakov Ariel, *On Behalf of Israel: American Fundamentalist Attitudes toward Jews, Judaism and Zionism, 1865–1945* (Brooklyn: Carlson, 1991), p. 45 ("the Zionist movement").

(7) Grose, *Israel in the Mind*, pp. 63—66, 67 ("To think that"). *Cabinet Diaries of Josephus Daniels*, p. 267. Stein, *Balfour Declaration*, pp. 427–28, 505, 530. *The Letters of Louis D. Brandeis*, ed. Melvin I. Urofsky and David M. Levy (Albany: State Univ. of New York, 1973): Brandeis to de Hass, April 24, 1917, p. 283 ("I have heard much"), de Hass Memorandum, May 4, 1917, p. 286 ("a publicly assured"); Brandeis to de Hass, May 8, 1917, p. 288 ("I am a Zionist"); Brandeis to Weizmann, Sept. 24, 1917, p. 310 ("entire sympathy"). Richard Lebow, "Woodrow Wilson and the Balfour Declaration," *Journal of Modern History* 40, no. 4 (Dec. 1968): 501—13. Weizmann, *Trial and Error*, pp. 193–94, 208 ("one of the most important"). Manuel, *Realities*, p. 168

("the many dangers"). Merkley, *Politics of Christian Zionism*, p. 91 ("The vast mass").

(8) Ben Halpern and Jehuda Reinharz, *Zionism and the Creation of a New Society* (New York: Oxford Univ. Press, 1998), pp. 175–77, 180–82. Robert Silverberg, *If I Forget Thee, O Jerusalem: American Jews and the State of Israel* (New York: Morrow, 1970), pp. 104, 105-6 ("The Americans brought"), 176. Martin Watts, *The Jewish Legion and the First World War* (London: Palgrave Macmillan, 2004), pp. 147-48. Elias Gilner, *War and Hope: A History of the Jewish Legion* (New York: Herzl Press, 1969), pp. 165–67, 170-71, 177.

(9) Lansing's remark about Jewish guilt for the death of Christ was later leaked to the press, but the secretary denied having made it. *FRUS*, 1914–20, Lansing Papers, vol. 2: Lansing to Wilson, Dec. 13, 1917, p. 71 ("many Christian Sects"); Lansing Note, Dec. 14, 1917, p. 71 ("very unwillingly"). Selig Adler, "The Palestine Question in the Wilson Era," *Jewish Social Studies* 10, no. 4 (Oct. 1948): 313 ("polluting and intolerable"). Medoff, *Zionism and the Arabs*, pp. 21–25. Grose, *Israel in the Mind*, pp. 70, 83 ("sentimental, religious"). William Yale Oral History, Columbia Univ., pp. 10 ("playboy"), 14 ("brass knucks"). Manuel, *Realities*, pp. 171, 172 ("400 million Christians"), 176 ("satisfaction" and "in the progress"), 184 ("younger and more hot-headed"), 185 ("young, hot-headed Jews"), 186 ("Religious fanaticism" and "If a Jewish State"), 189 ("disagreeable … type"), 190. Monroe, *Britain's Moment in the Middle East*, pp. 44-45.

(10) Medoff, *Zionism and the Arabs*, pp. 21–25. Grose, *Israel in the Mind*, p. 81 ("The Arabs in Palestine").

الفصل العشرون: تنبَّهوا واستفيقوا أيها العرب

(1) John M. Munro, *A Mutual Concern: The Story of the American University of Beirut* (Delmar, N.Y.: Caravan Books, 1977), p. 65 ("I know

why the Turks"). The study of the origins of Arab nationalism has generated a great many books and articles. See, e.g., Ernest C. Dawn, "The Origins of Arab Nationalism," in Rashid Khalidi, ed., *The Origins of Arab Nationalism* (New York: Columbia Univ. Press, 1991), p. 3. Ernest C. Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism* (Urbana: Univ. of Illinois Press, 1973), pp. 132, 140. Adeed Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair* (Princeton: Princeton Univ. Press, 2003), Pp. 25–27, 32–34. Bassam Tibi, *Arab Nationalism: Between Islam and the Nation-State* (New York: St. Martin's, 1997), pp. 102–4. Eliezer Tauber, *The Emergence of the Arab Movements* (London: Frank Cass, 1993), pp. 15–18. Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism*, 3d ed. (Delmar, N.Y.: Caravan Books, 1973), pp. 45, 79, 106. See also George Antakly, "American Protestant Educational Missions: Their Influence on Syria and Arab Nationalism, 1820–1923" (Ph.D. diss., American Univ., 1976), pp. 111-12, 115, 120.

(2) Neville Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I* (Berkeley: Univ. of California Press, 1976), pp. 42–55, 85-86, 211-12 ("The Jews' … right"). Mary C. Wilson, "The Hashemites, the Arab Revolt and Arab Nationalism," in Khalidi, *Origins of Arab Nationalism*, pp. 205, 219. Dawisha, *Arab Nationalism*, p. 34. Muhammad Y. Muslih, *The Origins of Palestinian Nationalism* (New York: Columbia Univ. Press, 1988), pp. 54–60, 67, 79, 87.

(3) Alixa Naff, *The Arab Americans* (Philadelphia: Chelsea House, 1999), pp. 14, 33. Alixa Naff, "Arabs in America: A Historical Overview," in Sameer Abraham, ed., *Arabs in the New World: Studies in Arab-American Communities* (Detroit: Wayne State Univ., 1983), pp. 9-10, 13–19. Philip Keyal and Joseph Keyal, *The Syrian-Lebanese in America* (Boston: Twayne, 1975), pp. 34, 41, 63, 66, 82. Salon Rizk, *Syrian Yankee* (Garden City, N.Y.: Doubleday, Doran, 1943), p. 71 ("I could see America"). Because of a misspelling of his name in a Boston grammar school, Khalil Gibran's name is

sometimes rendered Kahlil Gibran. See “Khalil the Heretic” in Gregory Orfalea, ed., *Grape Leaves: A Century of Arab American Poetry* (Salt Lake City: Univ. of Utah Press, 1988), pp. 24–25. Gibran Khalil Gibran, *The Prophet* (New York: Knopf, 1952), pp. 48–49. For further reference, see the Gibran Khaki Gibran website, http://leb.net/gibran/.

(4) The Ameen Rihani Papers; From an unpublished manuscript, pp. 76 (“other educational institutions”), 111 (“proof of the aptitude”), 115 (“American spirit”), Bliss to Rihani, March 12, 1913 (“It was unfortunate”). Nada Najjar, “The Space In-between: The Ambivalence of Early Arab-American Writers” (Ph.D. diss., Univ. of Toledo, 1999), pp. 77, 96, 123, 126 (“Carry to the East”). *Theodore Roosevelt Papers:* Rihani to Roosevelt, April 20, 1917. Ameen Rihani, *The Path of Vision* (Beirut: Rihani House, 1970), pp. 97 (“in a land where”), 124 (“The voice of America”). Ameen Rihani, “Palestine and the Proposed Arab Federation,” *Annals of the American Academy of Political and Social Science* 164 (Nov. 1932): 66 (“The Land of Promise”). Ameen Rihani, *The Fate of Palestine* (Beirut: Rihani House, 1967), pp. 25, 37, 80, 85 (“without prejudicing”). See also Suheil B. Bushrui, *The Thoughts and Works of Ameen Rihani*, http://www.alhewar.com/Bushrui_Rihani.html.

(5) Laurence Evans, *United States Policy and the Partition of Turkey, 1914–1924* (Baltimore: Johns Hopkins Press, 1965), pp. 122 (“I have a kindly”). Stuart Knee, “The King-Crane Commission of 1919: The Articulation of Political Anti-Zionism,” in Gurrock, *American Jewish History*, pp. 182—88, 188 (“Unitarians of the desert”). Grabill, “Cleveland H. Dodge,” p. 254. Kaplan, *Arabists*, p. 70 (“the menace”). Frank W. Brecher, *Reluctant Ally: United States Foreign Policy toward the Jews from Wilson to Roosevelt* (New York: Greenwood, 1991), p. 19. David Philip-son, *My Life as an American Jew* (Cincinnati: John G. Kidd, 1941), pp. 173–74.

الفصل الحادي والعشرون: أول عملية سلام في الشرق الأوسط

(1) Studies on the origins of Wilsonian diplomacy abound. See, e.g., Thomas J. Knock, *To End All Wars: Woodrow Wilson and the Quest for a New World Order* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1992), pp. 3 ("A boy never gets"), 14, 33, 77. August Heckscher, *Woodrow Wilson* (New York: Scribner, 1991), pp. 294, 434. Louis Auchincloss, *Woodrow Wilson* (New York: Penguin, 2000), pp. 74, 92. Arthur Walworth, *Woodrow Wilson* (New York: Norton, 1978), pp. 343, 344 ("go to the ends"), 345 ("do the thinking"). Ray Stannard Baker, *Woodrow Wilson: Life and Letters*, 1856–1890 (Garden City, N.Y: Doubleday, 1927), pp. 49, 211, 312. Lloyd E. Ambrosius, *Woodrow Wilson and the American Diplomatic Tradition* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1987), pp. 1–2, 9. Cooper *Warrior and the Priest*, pp. 15, 273, 323. David M. Kennedy, "What 'W' Owes to 'WW,'" *Atlantic Monthly*, March 2005, p. 36.

(2) *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference Papers, vol. 5: Proceedings, April 21, 1919, p. 107; May 13, 1919, p. 584 ("docile people"); vol. 6: June 25, 1919, p. 676 ("cleared out"). *Intimate Papers of Colonel House*, vol. 1: Diary entry for Dec. 18, 1912, p. 96 ("There ain't going"). Harley Notter, *The Origins of the Foreign Policy of Woodrow Wilson* (Baltimore: Johns Hopkins Press, 1937), p. 46 ("abnormal"). Walworth, *Woodrow Wilson*, p. 497 ("America believes in helping").

(3) *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 1: Excerpt from "The Inquiry," Dec. 22, 1917, p. 52; Lippmann to the Secretary of War, May 16, 1918, pp. 97–98. Manuel, *Realities*, pp. 212, 213–14. William L. Westermann Paris Peace Conference Diaries, entry for Dec. 29, 1918, p. 14 ("thrown in the waste"). Lawrence E. Gelfand, *The Inquiry: American Preparations for Peace, 1917–1919* (New Haven: Yale Univ. Press, 1963), pp. 227, 231–32, 244, 248–49, 255 ("fanaticism and bitter"), 256 ("It was the cradle").

Taner Akçam, *A Shameful Act: The Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility* (New York: Metropolitan Books, 2006), pp. 227–30.

(4) Manuel, *Realities*, p. 217 ("Will not the Mohammedans"). George Noble, "The Voice of Egypt," *Nation* 110, no. 2844 (Jan. 3, 1920): 862 ("No people").

(5) *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 1: Jusserand to Lansing, Nov. 29, 1918, p. 367. *Papers of Woodrow Wilson*, vol. 47: Memorandum by William Westermann, April 17, 1919, p. 443 ("the great loot"). Link, Wilson, p. 414 ("call through a crack"). Margaret MacMillan, *Paris 1919: Six Months That Changed the World* (New York: Random House, 2002), pp. 30–32, 386 ("the complete and definite"). Edward House, ed., *What Really Happened at Paris* (New York: Scribner, 1921), pp. 178–79 ("Not having declared"). Fromkin, *Peace to End All Peace*, p. 373 ("The other governments").

(6) Grose, *Israel in the Mind*, p. 84 ("In spite of"). MacMillan, *Paris 1919*, p. 386 ("knowing in the bottom" and "The obstacle is"). Frederick Palmer, *Bliss, Peacemaker* (New York: Dodd, Mead, 1934), p. 418 ("Wherever a mandate"). *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 3: Proceedings, Jan. 30, 1919, p. 807 ("I can think of"). Smuts envisaged three types of mandates—A, B and C, where A mandates were intended for those territories most ready for independence. All of the Middle East mandates were type A. See F.S. Crafford, *Jan Smuts: A Biography* (Garden City. N.Y.: Doubleday, Doran, 1943), p. 148. H. C. Armstrong, Grey Steel (London: Arthur Barker, 1937), p. 316.

(7) *Felix Frankfurter Reminisces: Recorded in Talks with Harlan B. Phillips* (New York: Reynal, 1960), p. 156 ("Here was little me"). Joseph P. Lash, *From the Diaries of Felix Frankfurter* (New York: Norton, 1975), p. 26 ("cousins in race"). *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 3: Proceedings, Feb. 6, 1919, p. 891; Bliss Address to the Council of Ten on Feb. 13,

1919, pp. 1016–17; vol. 4: Proceedings, Feb. 27, 1919, p. 169 ("They are intelligent"). Walworth, *Woodrow Wilson*, p. 500 ("startling resemblance"). John Allen, "Inventing the Middle East," *On Wisconsin* (Winter 2004): 36–39. Paul C. Helmreich, *From Paris to Sèvres: The Partition of the Ottoman Empire at the Peace Conference of 1919–1920* (Columbus: Ohio State Univ. Press, 1974), p. 67. Robert Lansing, *The Big Four and Others of the Peace Conference* (Boston: Houghton Mifflin, 1921), pp. 163–64 ("ancient seer"), 169 ("His voice seemed"). Manuel, *Realities*, pp. 221–22, 229 ("prominent American Jews"), 234–35, 238 ("The opposition of the Moslems"), 257 ("Jerusalem will be").

(8) Helmreich, *From Paris to Sèvres*, pp. 22 ("So long as"), 67. Edith Wharton, In *Morocco* (New York: Scribner, 1920), pp. 79 ("Nothing endures in Islam"), 266 ("from Persia to Morocco"). Evans, *United States Policy*, p. 29. James ShotwelL, *At the Paris Peace Conference* (New York: Macmillan, 1937), pp. 130–31, 176–78. Harry N. Howard, *The King-Crane Commission* (Beirut: Khayats, 1963), pp. 50–51 ("widespread trouble"). MacMillan, *Paris 1919*, pp. 152–53, 154 ("I cannot imagine"). Walworth, *Woodrow Wilson*, p. 492 ("America is the only").

(9) *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 5: Proceedings, March 20, 1919, pp. 10 ("scrap"), 12; vol. 11: Minutes of Meeting, March 27, 1919, p. 133 ("knew nothing about"). Brecher, *Reluctant Ally*, pp. 19–20. Manuel, *Realities*, p. 245 ("a very experienced"). *Papers of Woodrow Wilson:* Feisal to Wilson, vol. 47: April 20, 1919, p. 525 ("I am confident"); vol. 48: Wilson Remark in Paris, May 3, 1919, p. 401 ("Our [Allied] governments"). *Felix Frankfurter Reminisces*, p. 151 ("A crazy idea"). Howard, *King-Crane Commission*, pp. 35, 37 ("is about to cheat"), 38–39, 44–45 ("too honest"). William L. Westermann Paris Peace Conference Diaries, entry for Jan. 12, 1919, pp. 19 ("the root of all good"), 24.

(10) Thomas Bailey, *Woodrow Wilson and the Great Betrayal* (New York: Macmillan, 1947), pp. 264–66. Justin McCarthy, Death and Exile: *The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims*, 1821–1922 (Princeton: Darwin Press, 1995), p. 263 ("Old men, unarmed"). MacMillan, *Paris 1919*, pp. 349, 353–54. Fromkin, *Peace to End All Peace*, pp. 393–95. Howard M. Sachar, *The Emergence of the Middle East*, 1914–1924 (New York: Knopf, 1969), p. 349. *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 5: Proceedings, May 14, 1919, p. 618; May 19, 1919, p. 708; May 22, 1919, p. 812. Grabill, *Protestant Diplomacy*, p. 260 ("with all my heart"). William L. Westermann Peace Conference Diaries, entry for May 22, 1919, p. 81. *Documents on British Foreign Policy*, 1919–1939, ed, Rohan Butler and J. P. T. Bury (London: Her Majesty's Stationery Office, 1963), vol. 13: Geddes to Curzon, May 11, 1919, pp. 70–71; Geddes to Curzon, May 19, 1919, p. 76. *Intimate Papers of Colonel House*, vol. 3: entry for May 20, 1919, p. 468 ("something of a scandal").

(11) Donald M. Love, *Henry Churchill King of Oberlin* (New Haven: Yale Univ. Press, 1956), pp. 215–16. Howard, *King-Crane Commission*, pp. 56, 221 ("Every part of the Turkish"). Manuel, *Realities*, pp. 249–51 ("Whereas injustice"). *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 12; Crane and King to the Commission to Negotiate Peace, July 10, 1919, pp. 749–50 ("A real great lover"); King-Crane Commission, pp. 792, 794 ("be seriously considered" and "It is simply impossible"), 797 ("On account of her" and "no other Power"), 799 ("The people of the area"), 801, 833 ("Constantinopolitan State"). William Yale Oral History, pp. 64, 70. For an overview of the commission, see James Gelvin, "The Ironic Legacy of the King-Crane Commission," in David Lesch, ed., *The Middle East and the United States* (Boulder: Westview Press, 1999), pp. 13–26.

(12) Erik Goldstein, "The Eastern Question; The Last Phase," in Michael Dockrill, ed., *The Paris Peace Conference, 1919: Peace without Victory* (New

York: Palgrave, 2001), p. 145 ("Lloyd George is a cheat!"). MacMililan, *Paris 1919*, pp. 33 ("God himself was content"), 145.

(13) *FRUS*, 1919, Paris Peace Conference, vol. 11: Proceedings, July 1, 1919, p. 184; July 8, 1919, p. 284 ("perfectly useless proposirion"). Lansing, Peace Negotiations, p. 149. Manuel, *Realities*, p. 255 ("whole disgusting scramble"). Herbert Hoover, The Memoirs of Herbert Hoover (New York: Macmillan, 1957), p. 385. William L. Westerniann Paris Peace Conference Diaries, p. 69. Feroz Ahmad, *The Making of Modern Turkey* (New York: Routledge, 1993), p. 55 ("America, which knows"). James B. Gidney, *A Mandate for Armenia* (Kent, Ohio: Kent State Univ. Press, 1967), pp. 17, 184–87, 188 ("Here is a man's job"). General James G. Harbord, *Conditions in the Near East: American Military Mission to Armenia* (Washington, D.C.: GPO, 1920).

(14) *Papers of Woodrow Wilson*, vol. 64: "The President's State of Health," Lansing Memorandum, Nov. 5. 1919, pp. 56–57. Henry Cabot Lodge, *The Senate and the League of Nations* (New York: Scribner, 1925), p. 184 ("obligation to preserve"). Sachar, *Emergence of the Middle East*, pp. 349, 361. Heckscher, *Woodrow Wilson*, p. 609 ("the American people").

(15) Marjorie Housepian Dobkin, *Smyrna 1922: The Destruction of a City* (Kent, Ohio: Kent State Univ. Press, 1988), pp. 101, 103, 112, 166 ("I'll never forget"). Horton, Blight of Asia, p. 113 ("a fittingly Lurid"). *FRUS*, 1923, vol. 2: Child and Grew to Hughes, Dec. 13, 1922, p. 921 ("find [the] means"); Child and Grew to Hughes, Jan. 3, 1923, p. 946; Harding to Hughes, Jan. 15, 1923, p. 950 ("The most ardent"). *Documents on British Foreign Policy, 1919–1939:* British Secretary's Notes, April 10, 1920, pp. 20–21; April 20, 1920, pp. 60–61. Daniel, "Armenian Question," p. 262.

(16) William L. Westermann Paris Peace Conference Diaries, pp. 179–80 ("When boldness"). Lansing, *Peace Negotiations*, p. 175 ("The seeds of discontent"). Palmer, *Bliss, Peacemaker*, p. 370 ("there never had been").

DeNovo, *American Interests*, pp. 299–301. Gelvin, "Ironic Legacy of the King-Crane Commission," p. 13 ("It is not possible"). Sachar, *Emergence of the Middle East*, p. 365.

الفصل الثاني والعشرون: إحياء الخيالات

(1) One could easily dedicate a book to the innumerable books written about Lawrence of Arabia. See, e.g., David Fromkin, "The Importance of T. E. Lawrence," *New Criterion 10*, no. 1 (Sept. 1995). John E. Mack, *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence* (Oxford: Oxford Univ. Press, 1990), pp. 221 ("limelight of history"), 265 ("On the whole"), 275. Phillip Knightley and Colin Simpson, *The Secret Lives of Lawrence of Arabia* (London: Thomas Nelson, 1969), pp. 52-53. Lawrence James, *The Golden Warrior* (New York: Paragon House, 1993), pp. 272, 276-77. See also Shotwell, *At the Paris Peace Conference*, p. 131 ("younger successor of Mohammed").

(2) Norman Bowen, *Lowell Thomas: The Stranger Everyone Knows* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1968), pp. 39–40. Lowell Thomas, *Good Evening Everybody* (New York: Morrow, 1976), pp. 131–39. Lowell Thomas, *With Lawrence in Arabia*, pp. 12 (the Uncrowned King" and "one of most picturesque"), 20 ("He walked rapidly"), 22 ("restored the sacred places"), 75 ("united the wandering tribes"), 76 ("reincarnation of a prophet"), 114 ("400 Turks"), 264 ("a great scoop"). Joel Hodson, *Lawrence of Arabia and American Culture* (Westport, Conn.: Greenwood, 1995), pp. 43, 61, 62 ("quite without intention" and "the George Washington"). Knightley, *Secret Lives*, p. 53 ("break up the Islamic"). Knock, *To End All Wars*, p. 213 ("chuckled in the desert"). Mack, *Prince of Our Disorder*, pp. 276 ("I saw your show"), 277 ("I don't bear him"). Hodson, *Lawrence of Arabia*, pp. 30, 43, 66 ("Come with me").

(3) Michael North, *Reading 1922: A Return to the Scene of the Modern* (New York: Oxford Univ. Press, 1999), pp. 21–24. Willa Sibert Cather, *My*

Ántonia (Boston: Houghton Mifflin, 1977), pp. 6 ("more inscribed"), 10 ("the beard of an Arabian"). Little, *American Orientalism*, pp. 17-18.

الباب السادس: نفط وحرب وهيمنة

الفصل الثالث والعشرون: من الإنجيل إلى مضخَّات النفط

(1) Harrison, *Doctor in Arabia*, pp. 24 ("not even their religion"), 30. DeNovo, *American Interests*, p. 361 ("of little commercial importance"). USNA, Records of the Department of State Relating to Internal Affairs of Saudi Arabia: Brandt to the Secretary of State, May 5, 1930 ("demonstrated that the Arabs"). Eleanor Calverley, *My Arabian Days and Nights* (New York: Crowell, 1958), p. 7 ("until that moment"). Mary B. Allison, *Doctor Mary in Arabia: Memoirs* (Austin: Univ. of Texas Press, 1994), p. 25 ("like being born"). Thomas W. Lippman, *Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia* (Boulder: Westview Press, 2004,) pp. 10-11 ("I know you are"). Paul L. Armerding, Doctors for the Kingdom: The Work of the American Mission Hospitals in the Kingdom of Saudi Arabia, 1913—1955 (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 2003), p. 115. See also Miriam Joyce, *Kuwait, 1945-1946: An Anglo-American Perspective* (London: Frank Cass, 1998), p. xviii, and Thomas Lippman, "The Pioneers," *Saudi Aramco World 55*, no. 3 (May—June 2004), and Eleanor A. Doumato, *Getting God's Ear: Women, Islam and Healing in Saudi Arabia and the Gulf* (New York: Columbia Univ. Press, 2000), pp. 43—48. According to Doumato, the most common ailment Harrison treated was "inability," i.e., male sexual dysfunction.

(2) Anthony Sampson, *The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Shaped* (New York: Bantam, 1991), p. 83. Longrigg, *Oil in the Middle East*, pp. 38-39. Bryson, *American Diplomatic Relations*, pp. 103—5.

Anthony C. Brown, *Oil, God and Gold: The Story of Aramco and the Saudi Kings* (Boston: Houghton Mifflin, 1999), pp. 24–28. Benjamin Shwadran, *The Middle East, Oil and the Great Powers* (Jerusalem: Israel Universities Press, 1973), pp. 237-38, 288. H. St. John Philby, *Saudi Arabia* (London: Ernest Benn, 1955), p. 330.

(3) In spite of his seminal role in the establishment of U.S.-Saudi relations, Twitchell has yet to be the subject of a serious study, and the descriptions of him remain fragmentary. See, e.g., William Yale, *The Near East: A Modern History* (Ann Arbor: Univ. of Michigan Press, 1958), p. 362. D. Van der Meulen, *The Wells of Ibn Saud* (New York: Praeger, 1957), p. 136. George Kheirallah, *Arabia Reborn* (Albuquerque: Univ. of New Mexico Press, 1952), pp. 239-40. Moukhtar Ani, *Saudi Arabia: Its People, Its Society, Its Culture* (New Haven: HRAF Press, 1959), p. 234.

(4) Daniel Yergin, *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money and Power* (New York: Touchstone, 1992), pp. 289–91. George Stocking, *Middle East Oil: A Study in Political and Economic Controversy* (Kingsport, Tenn.: Vanderbilt Univ. Press, 1970), p. 76. Sampson, *Seven Sisters*, pp. 109–11. Joseph W. Walt, "Saudi Arabia and the Americans, 1928–1951" (Ph.D. diss., Northwestern Univ., 1960), p. 87 ("Some of these firms"). H. J. B. Philby, *Arabian Oil Ventures* (Washington, D.C.: Middle East Institute, 1964), p. 124. Philby relates that the king in fact slept through much of the discussions on the agreement and that his—Philby's—advice weighed decisively in favor of the Americans.

(5) Sampson, *Seven Sisters*, p. 111 ("descending from the skies"). Wallace Stegner, *Discovery: The Search for Arabian Oil* (Beirut: Export Press, 1971), pp. 3–54.

(6) Aaron Miller, *Search for Security: Saudi Arabian Oil and American Foreign Policy, 1939-1949* (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1980), p. 25 ("We should let matters"), 26-27. Irvine H. Anderson,

ARAMCO, *the United States, and Saudi Arabia: A Study of the Dynamics of Foreign Oil Policy, 1933-1950* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1981), p. 25. Kaplan, *Arabists*, p. 71 ("the real bulwark"). DeNovo, *American Interests*, p. 337. Lippman, *Inside the Mirage*, p. 117 ("Saudi Arabia is presumably"). William Eddy Papers, box 17: Excerpt from Eddy's unpublished memoirs ("We Muslims"). Karl Twitchell Papers, box 5: Twitchell to Cleveland Dodge, March 3, 1932. Stegner, *Discovery*, p. 65 ("If utter faith").

(7) USNA, Records of the Department of State relating to the Internal Affairs of Saudi Arabia, 1930—1944: 890f.00/53, Fish to the State Department, April 12, 1940 ("German ruthlessness"); 890f.00/60, Twitchell to Murray, May 14, 1941; 890f.00/73, Memorandum on conditions in Saudi Arabia based on an interview with a reliable informant (American) returned recently from there Oct. 29, 1941. Parker T. Hart, *Saudi Arabia and the United States: Birth of a Security Partnership* (Bloomington: Indiana Univ. Press, 1998), p. 37. Rex J. Casillas, *Oil and Diplomacy: The Evolution of American Foreign Policy in Saudi Arabia, 1933-1945* (New York: Garland, 1987), pp. 33, 37, 40. Miller, *Search for Security*, pp. 33-34 ("It can easily").

(8) Shwadran, *Middle East*, p. 317. Brown, *Oil, God and Gold*, pp. 106-7 ("extending financial assistance"). USNA, Records of the Department of State relating to the Internal Affairs of Saudi Arabia, 1930—1944: 890f.00/73 Memorandum on Conditions in Saudi Arabia, Oct. 29, 1941; 890f.00/81, Strictly confidential for Secretary and Under Secretary, April 17, 1943 ("Jews had been hostile").

الفصل الرابع والعشرون: نشوب صراع لا حلَّ له

(1) The study of the origins of the Arab-Israeli conflict has generated innumerable books. Few of these, however, are free of an expressed bias toward one side or the other in the conflict. For a sample of some of the

more highly regarded scholarly works on the subject, see Philip Mattar, *The Mufti of Jerusalem: Al-Hajj Amin alHusayni and the Palestinian National Movement* (New York: Columbia Univ. Press, 1988), pp. 12–49. Christopher Sykes, *Crossroads to Israel, 1917-1948* (Bloomington: Indiana Univ. Press, 1973), pp. 41–232. J. C. Hurewtiz, The Struggle for Palestine (New York: Greenwood, 1968), pp. 3–94.

(2) Irwin Oder, “The United States and the Palestine Mandate, 1920–1948: A Study of the Impact of Interest Groups on Foreign Policy” (Ph.D. diss., Columbia Univ., 1956), pp. 75 (“an influential and noisy”), 320. Gideon Biger, “The American View of the Tel Hai Affair,” *Journal of Israeli History* 19, no. 1 (1998): 91–94. Manuel, *Realities*, pp. 272, 277 (“[We] should avoid”), 280–84, 291-92 (“They would turn Trotsky”), 293–99. Barry Rubin, *The Great Powers in the Middle East, 1941-1947* (London: Cass, 1980), p. 22 (“decidedly anti-Jewish”). See also Knee, “Anglo-American Relations,” pp. 13–17.

(3) Naomi Cohen, *The Year after the Riots: American Responses to the Palestine Crisis of 1929-30* (Detroit: Wayne State Univ. Press, 1988), pp. 22, 23 (“A crowd of savage Arabs”), 27-28, 29 (“ordinary law-abiding”), 33 (“The Jews are always”). USNA, RG 59: Palestine Internal Affairs: Knabenshue to Stimson (n.d.) (“Jewish financial influence”); Knabenshue to Stimson, Aug. 24, 1929 (“provocative acts”); Knabenshue to Stimson, Aug. 26, 1929; Hamilton Fish Jr. to Stimson, Aug. 28, 1929; Knabenshue to Stimson Oct. 19, 1929. CZA, A243/104, Stephen S. Wise Papers: Memorandum of Meeting of SSW with Secretary of State Stimson on the S.S. *Leviathan*, Sept. 1, 1931. Manuel, *Realities*, pp. 302-3. “Says Syria Admires Us,” *New York Times*, Jan. 11, 1929; “4th in Jerusalem Brings Out Throngs,” New York Times, July 5, 1929. “U.S. Investigates Palestine Consul,” *Washington Post*, Sept. 7, 1929. Oder, “United States and the Palestine Mandate,” p. 156.

(4) CZA, A 243/178, Stephen S. Wise Paliers: Wise to Frankfurter, July 29, 1937; O'Toole to Wise, July 30, 1937; Wise to Felix Frankfurter, Oct. 16, 1938. *FRUS*, 1937, vol. 4: Memorandum by Wallace Murray, July 12, 1937, p. 893 ("Any disposition"); 1938, vol. 2: Memorandum submitted to the Secretary of State by American Jewish Delegation, Oct. 14, 1938, p. 956 ("radical departure"). USNA, Palestine Internal Affairs: Wadsworth to Secretary of State, July 7, 1938 ("Palestinian Jews"); Murray to Secretary of State, Feb. 1, 1939 ("In America there is"); Wadsworth to Secretary of State, June 27, 1939. John Fitzgerald Kennedy Presidential Library, President's Office Files, box 135, Series: Special Events, Folder: 1939 ("It seems to me"): Letter Written to His Father following Trip to Palestine. Halperin, *Political World of American Zionism*, pp. 21–26. Louis Rapoport, *Shake Heaven and Earth: Peter Bergson and the Struggle to Rescue the Jews of Europe* (Jerusalem: Gefen, 1999), p. 43 ("Americans don't like Jews"), Philip J. Bararn, *The Department of State in the Middle East, 1919-1945* (Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 1978), pp. 263, 268.

(5) The proposal for transferring 300,000 Palestinian Arabs was first tabled by Edward Norman, a non-Zionist Jew and heir to a family fortune made from food concessions from the 1893 world's fair. The cost of the project was estimated at $ 300 million, to be contributed by the Western powers and wealthy American Jews. Neither Britain nor France, however, showed enthusiasm for the idea and Roosevelt made no real effort to implement it. See Rafael Medoff, *Baksheesh Diplomacy: Secret Negotiations between American Jewish Leaders and Arab Officials on the Eve of World War II* (Lanham, Md.: Lexington Books, 2001), pp. 3, 140 ("less right there"), 141–43. On Roosevelt's foreign policy in general, and toward Palestine in particular, see Robert Dallek, *Franklin D. Roosevelt and American Foreign Policy*, 1932–1945 (New York: Oxford Univ. Press, 1979), p. 20 ("a chameleon on plaid"). Willard Range, *Franklin D. Roosevelt's World*

Order (Athens: Univ. of Georgia Press, 1959), p. 8. James MacGregor Burns, *Roosevelt: The Soldier of Freedom* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1970), pp. 108, 397 ("I would put barbed"). Conrad Black, *Franklin Delano Roosevelt: Champion of Freedom* (London Weidenfeld & Nicolson, 2003), p. 928. Frederick W. Marks III, *Wind over Sand: The Diplomacy of Franklin Roosevelt* (Athens, Georgia: Univ. of Georgia Press, 1988), p. 253. William Roger Louis, *The British Empire in the Middle East*, 1945–1951 (New York: Oxford Univ. Press, 1984), p. 243 ("Holy Gehad"), *Memoirs of Cordell Hull*, vol. 2 (New York: Macmillan, 1948), p. 1530 ("It is something"). Steiner, *Religious Beliefs*, pp. 66–67. Grose, *Israel in the Mind*, pp. 113, 138–39 ("little baksheesh").

(6) *FRUS*, 1936, vol. 3: Secretary of State to Ambassador in the United Kingdom, July 27, 1936, p. 444 ("influential Jewish circles" and "of course presume"); 1937, vol. 2: Memorandum from Secretary of State to the American Ambassador in the United Kingdom to be delivered to the British, p. 890 ("Large sections"). Manuel, *Realities*, pp. 306–8. PRO, FO 371: Mr. Mallet to British Embassy. Sept. 21, 1936 ("[It] is hardly worth"); Sir R. Lindsay to Viscount Halifax. Nov. 25, 1938. Grose, *Israel in the Mind*, p. 100. USNA, Palestine Internal Affairs: Knabenshue to Murray, May 25, 1935 ("The White Paper"). Henry L. Feingold, *The Politics of Rescue: The Roosevelt Administration and the Holocaust, 1938-1945* (New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1970), pp. 126–31, 135 ("exponents of Communism"), 146 ("was 100%").

(7) CZA, L66/22: Letter to Zionist Delegates (n.d.) ("At this time"); Letter to Heads of Organizations (n.d.) ("specializing in delicious"); L66/24: Brainin to Weisgal, Sept. 20, 1938 ("the most beautiful girl"); L66/59: Memorandum on the Opening of the Palestine Pavilion, May 13, 1939; Brainin to Bloom, June 30, 1939; L66/77: Press Release for Tuesday, Feb. 27, 1940; L66/69: Letter for Palestine Book by F. H. La Guardia (n.d.). See also James

L. Gelvin, “Zionism and the Representation of Jewish Palestine at the New York World’s Fair 1939–40,” *International History Review 22*, no. 1 (2000): 37–64. USNA, Palestine Internal Affairs: Wadsworth to Secretary of State, Sept. 11, 1938.

(8) Golda Meir, *My Life* (New York: Putnam, 1975), pp. 30 (“New food”), 74 (“Crowds of beggars”), 81 (“I was profoundly happy”), 140 (“Look, Golda”). Ralph G. Martin, *Golda: Golda Meir, the Romantic Years* (New York: Scribner, 1988), p. 98 (“I owed America”).

(9) Edward Wagenknecht, *Daughters of the Covenant: Portraits of Six Jewish Women* (Amherst: Univ. of Massachusetts Press, 1983), pp. 153–56. Michael Brown, *The Israeli–American Connection: Its Roots in the Yishuv, 1914–1945* (Detroit: Wayne State Univ. Press, 1996), pp. 135–36, 141–45. Marvin Lowenthal, *Henrietta Szold: Life and Letters* (New York: Viking, 1942), pp. 244, 264. Simon Noveck, Great Jewish Personalities in Modern Times (Washington, D.C.: B’nai B’rith Department of Adult Jewish Education, 1960), pp. 324 (“first lady of Palestine”), 331. Michael Shire, *The Jewish Prophet: Visionary Words from Moses to Heschel* (London: Frances Lincoln, 2002), p. 93 (“Political scores”). CZA, Szold Papers, Speech before the Zionists of America Administration Committee, Jan. 9, 1936 (“I became a Zionist”). Jewish Women’s Archive, “JWA—Henrietta Szold—Building the Yishuv,” http://www.jwa.org/exhibits/wov/szold/yishuv.html (Oct. 6, 2005). See also Baila Round Shargel, “American Jewish Women in Palestine: Bessie Gotsfeld, Henrietta Szold and the Zionist Enterprise,” *American Jewish History 90, no. 2* (June 2002).

(10) Arthur Goren, *Dissenter in Zion: From the Writings of Judah L. Magnes* (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1982), pp. 4–16, 23–24, 32–40, 276 (“a country of two nations”), 277–78, 279 (“I have learned”). Daniel P. Kotzin, “An Attempt to Americanize the Yishuv: Judah L. Magnes in Mandatory Palestine,” Israel Studies 5, no. 1 (2000): 3–18. Neil Caplan,

Futile Diplomacy, vol. 2 (London: Frank Cass, 1983), pp. 36–37, 87–90. Susan L. Hattis, *The Bi-national Idea in Palestine during the Mandatory Times* ([Haifa]: Shikmona, 1970), pp. 65–66, 100, 144–48, 171, 184. Shalom Rarzabi, *Between Zionism and Judaism: The Radical Circle in Brith Shalom, 1925-1933* (Leiden: Brill, 2002),pp. 252–53. Hagit Lavsky, *Before Catastrophe: The Distinctive Path of German Zionism* (Detroit: Wayne State Univ. Press, 1996), pp. 211, 212, 213–17. Michael J. Cohen, "Secret Diplomacy and Rebellion in Palestine, 1936–1939," International Journal of Middle East Studies 8, no. 3 (July 1977): 380, 383, 400–1. Menahem Kaufman, *The Magnes-Philby Negotiations, 1929: The Historical Record* (Jerusalem: Magnes Press, 1998), pp. 18, 100–1, 113. "Judah Magnes," http://www.wzo.org.il/en/resources/view.asp?id=1349&subject=70, Oct. 11,2005 ("may have to live" and "We can establish").

(11) James R. Krugei, *Turning On Water with a Shovel: The Career of Elwood Mead* (Albuquerque: Univ. of New Mexico Press, 1992), pp. 103, 107–8, 109 ("wards of the organization"). Robert E. Rook, "An American in Palestine: Elwood Mead and Zionist Water Resource Planning, 1923–1936," Arab Studies Quarterly 22, no. 1 (Winter 2000): 71–79. Elwood Mead, "The New Palestine," American Review of Reviews 70, no. 6 (Dec. 1924): 624 ("promise to be a replica"), 626 ("is as attractive"), 628 ("The Zionist movement").

(12) Rook, "Blueprints and Prophets," pp. 91–92, 99 ("morgue of civilizations"), 101–10, 139–40. Walter C. Lowdermilk, *Palestine: Land of Promise* (New York: Harper, 1944), pp. 6–7 ("most remarkable devotion"), 8–24, 229 ("the lever that will lift"). Nathan Godfried, Bridging the Gap between Rich and Poor: American Economic Development Policy toward the Arab East, 1942–1949 (New York: Greenwood, 1987), p. 168. Rory Miller, "Bible and Soil: Walter Clay Lowdermilk, the Jordan Valley Project and the Palestine Debate," *Middle Eastern Studies 39*, no. 2 (April 2003): 56–63. See

also Walter C. Lowdermilk, *Conquest of the Land through Seven Thousand Years* (1948; reprint, Washington, D.C.: U.S. Department of Agriculture, Soil Conservation Service, 1953).

(13) Shabtai Teveth, *Ben Gurion: The Burning Ground*, 1886–1948 (Boston: Houghton Mifflin, 1987), pp. 97-98 ("absurd, resembling cages"), 109–20. Allon Gal, *David Ben-Gurion and the American Alignment for a Jewish State* (Bloomington: Indiana Univ. Press, 1991), pp. 15 ("bustling, industrious" and "We, who seek"), 16, 21, 103, 149, 196 ("London has not ceased"), 203, 216. See also Michael Bar-Zohar, *Ben-Gurion: A Biography*, translated by Peretz Kidron (New York: Adama Books, 1977). Dan Kurzman, *Ben-Gurion: Prophet of Fire* (New York: Simon & Schuster, 1983), pp. 115–19.

(14) David S. Wyman and Rafael Medoff, A Race against Death: Peter Bergson, America and the Holocaust (New York: New Press, 2004), pp. 19–29, 107 ("Mi samcha"). Rapoport, Shake Heaven and Earth, pp. 35–43, 56-57 ("An army with such"). 15. David Shapiro, *From Philanthropy to Activism: The Political Transformation of American Zionism in the Holocaust Years, 1933-1945* (Oxford: Pergamon Press, 1994), pp. 71, 84. Silverberg, If I Forget Thee, O Jerusalem, pp. 188–90, 206 ("The more I think"). Raider, *Emergence of American Zionism, pp. 205-6* ("battleground"). Halperin, Political World of *American Zionism*, p. 121. Gal, David BenGurion, p. 69 ("Right now"). Walter Laqueur, A History of Zionism (New York: Simon & Schuster, 1989), pp. 546-47. For a detailed dicussion of the *New York Times* treatment of the Holocaust, see Laurel Leff, *Buried by the Times: The Holocaust and America's Most Important Newspaper* (New York: Cambridge Univ. Press, 2005), pp. 2-3, 13, 42.

(15) A Pocket Guide to North Africa (Washington, D.C.: War and Navy Department, 1942), pp. 14, 19, 23, 28, 34, 39–41. William L. Langer and S. Everett Gleason, The Undeclared War, 1940–1941 (Gloucester: B. Smith,

1968), pp. 380–81, 590, 592 ("We in the United"), 778 ("We should not get"). Michael J. Cohen, "American Influence on British Policy in the Middle East during World War Two: First Attempts at Coordinating Allied Policy on Palestine," *American Jewish Historical Quarterly* 67, no. 1 (Sept. 1977): 51–52 ("Our reputation"). Robert Murphy, *Diplomat among Warriors* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1964), p. 66–68, 91 ("The vice consuls"). George F. Howe, *Northwest Africa: Seizing the Initiative in the West* (Washington, D.C.: Center of Military History, 1991), pp. 57–58. *FRUS*, 1941, vol. 3: British and Free French Invasion and Occupation of Syria and Lebanon; Good Offices of the United States in Arranging Armistice: Personal to the President, June 7, 1941, pp. 725–26.

الفصل الخامس والعشرون: شعلة من أجل الشرق الأوسط

(1) Dallek, *Franklin D. Roosevelt*, pp. 346–49, 262. Mark W. Clark, *Calculated Risk* (New York: Harpe 1950), pp. 50 ("Why stick your head"), 107. Rick Atkinson, *An Army at Dawn: The War in North Africa, 1942–1943* (New York: Henry Holt, 2002), pp. 12–13, 14 ("indirect contribution"), 16 ("was now our principal objective"), 17–18, 46–47. Hale, "General' Eaton," p. 28. George S. Patton, *War as I Knew It* (Boston: Houghton Mifflin, 1995), p. 16. *Pocket Guide to North Africa*, pp. 4–5.

(2) Arthur L. Funk, "Negotiating the 'Deal with Darlan," *Journal of Contemporary History* 8, no. 2 (April 1973): 81–117. Atkinson, *Army at Dawn*, pp. 3 ("North Africa was"), 287–88. Brown, *Oil, God and Gold*, pp. 104–5 ("sons of the Mughreb"). Carleton S. Coon, *A North Africa Story: The Anthropologist as OSS Agent* (Ipswich, Mass.: Gabmit Press, 1980), p. 14. Howe, *Northwest Africa*, pp. 108–9. Clark, *Calculated Risk*, pp. 155 ("I had constantly"), 269.

(3) A. J. Liebling, *The Road Back to Paris* (Garden City, N.Y.: Doubleday, Doran, 1944), pp. 225 ("as examples"), 290 ("a wild competition").

Kenneth G. Crawford, *Report on North Africa* (New York: Farrar and Rinehart, 1943), pp. 45–46 ("warriors fighting"). Richard Breitman, "The Allied War Effort and the Jews, 1942–1943," *Journal of Contemporary History* 20, no. 1 (Jan. 1985): 140–41, 142 ("Arabs don't mind Christians"). *The Conferences at Washington*, 1941–1942, and Casablanca, 1943 (Washington, D.C.: GPO, 1968): Conversation between President Roosevelt and General Nogués, Jan. 17, 1943, p. 608 ("eliminate … the understandable"). Carlo D'Este, *Eisenhower: A Soldier's Life* (New York: Henry Holt, 2002), p. 356 ("Many things done here"). There were few exceptions to the general Arab opposition to removing the wartime restrictions on Jews; see Robert Satloff, "In Search of 'Righteous Arabs," *Commentary* 118, no. 1 (July 2004).

(4) Gaddis Smith, *American Diplomacy during the Second World War*, 1941—1945 (New York: Knopf, 1985), pp. 96 ("A century"), 100—10. Stephane Bernard, *The Franco-Moroccan Conflict*, 1943—1953 (New Haven: Yale Univ. Press, 1968), p. 3. Annie Lacroix-Riz, *Les Protectorats d'Afrique du Nord entre Ia France et Washington: Du debarquement a l'independance, Maroc et Tunisie*, 1942—1956 (Paris: L'Harmatran, 1988), pp. 11—21. Benjamin Rivlin, "The United States and Moroccan International Status, 1943—1956: A Contributory Factor in Morocco's Reassertion of Independence from France," International Journal of *African Historical Studies 15*, no. 1 (1982): 64–65, 74. Egya N. Sangmuah, "Sultan Mohammed ben Youssef's American Strategy and the Diplomacy of North African Liberation, 1943—61," *Journal of Contemporary History* 27, no. 1 (Jan. 1992): 130. Kenneth Pendar, *Adventure in Diplomacy: The Emergence of General de Gaulle in North Africa* (London: Cassell, 1966), pp. 142, 146–47. Elliott Roosevelt, *As He Saw It* (New York: Duell, Sloan and Pierce, 1946), pp. 110 ("differ sharply), 111 ("French and British financiers"), 112 ("A new future" and "Glowering"). Ernie Pyle, *Here Is Your War* (New York: Henry Holt, 1943),

p. 44 ("Arab farmers"). *FRUS*, 1944, vol. 5: Mayer to the Secretary of State, Jan. 5, 1944, pp. 527–29.

(5) *FRUS*, 1945, vol. 8: Henderson to Truman, Nov. 10, 1945, p. 10 ("friendly disinterest"). Russell Buhite, *Patrick J. Hurley and American Foreign Policy* (Ithaca: Cornell Univ. Press, 1973), pp. 6–15, 27, 113 ("certain very rich"), 313. Don Lohbeck, Patrick J. Hurley (Chicago: H. Regnery, 1956), pp. 188-89, 190 ("Our President"), 191 ("My job"), 193 ("America could not"), 195 ("starvation was the easiest"), 210-11 ("the economy of colonial"). Franklin Delano Roosevelt Papers, Office Files, 1933–1945, Pt. 4: Subject Files, reel 19; Hurley to Roosevelt, May 5, 1943 ("exploitation and imperialism"); Hurley to Roosevelt, June 9, 1943 ("similar to those embodied"). Abbas Milani, "Hurley's Dream," *Hoover Digest*, no. 3 (2003): 149 ("It is the purpose" and "free governments"), 150 ("unselfish American Policy"). T. H. Vail Motter, *The Persian Corridor and Aid to Russia* (Washington, D.C.: Office of the Chief of Military History, 1952), pp. 6-7. See also Mark Hamilton Lytle, The Origins of the Iranian-American Alliance, 1941–1953 (New York: Holmes & Meier, 1987), pp. 48–59, 60 ("messianic globaloney"). William R. Louis, *Imperialism at Bay*, 1941–1945: *The United States and the Decolonization of the British Empire* (Oxford: Clarendon Press, 1977), p. 226 ("the colonial system").

(6) *FRUS*, 1943, vol. 4: Secretary of State to Wiley, Nov. 12, 1943, p. 1045; 1944, vol. 5: Morris to the Secretary of State, Oct. 9, 1944, p. 455. Phillip Baram, "Undermining the British: Department of State Policies in Egypt and the Suez Canal before and during World War II," *Historian* 40, no. 4 (Aug. 1978): 633–37, 641–45. Thomas A. Bryson, *Seeds of the Mideast Crisis: The United States Diplomatic Role in the Middle East during World War II* (Jefferson, NC.: McFarland, 1981), pp. 85–89, 98-99. Rubin, *Great Powers*, pp. 141-42. Walter L. Browne, *The Political History of Lebanon*, 1920–1950, vol. 2 (Salisbury, NC.: Documentary Publications,

1977), pp. 271, 386–87. Louis, *Imperialism at Bay*, p. 169. Steven L. Spiegel, *The Other Arab-Israeli Conflict: Making America's Middle East Policy, from Truman to Reagan* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1985), p. 13 ("New Deal" and "you will be"). On America's prewar refusal to encoirage Egyptian nationalists, see Erez Manela, "Friction from the Sidelines: Diplomacy, Religion and Culture in American-Egyptian Relations, 1919—1939," *The United States and the Middle East: Diplomatic and Economic Relations in Historical Perspective* (New Haven: Yale Center for International and Area Studies, 2000), pp. 28—35. On Hooker Doolittle's contribution to Tunisian independence, see David D. Newsom, "The Unsung Diplomat," *Christian Science Monitor*, April 12, 2000.

(7) *FRUS*, 1944, vol. 5: Roosevelt to Landis, March 6, 1944, p. 2. James M. Landis Papers, box 164: Excerpt from a "Round Table" at the Univ. of Chicago entitled "The Middle East Zone of Conflict?" July 22, 1945 ("The trouble is"). Donald A. Ritchie, *James M. Landis: Dean of the Regulators* (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1980), pp. 3 ("I've been called"), 121–23, 124 ("A diffusion of power"), 126, 130. Robert Vitalis, "The New Deal in Egypt; The Rise of Anglo-American Commercial Competition in World War II and the Fail of Neocolonialism," *Diplomatic History* 20, no. 2 (Spring 1996): 213, 220—24. Martin W. Wilmington, *The Middle East Supply Centre* (Albany: State Univ. of New York Press, 1971), pp. 4—7, 62—72, 167. Peter L Hahn, *The United States, Great Britain and Egypt, 1945-1956: Strategy and Diplomacy in the Early Cold War* (Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1991), pp. 14—17. Godfried, *Bridging the Gap*, pp. 483—90. Arthur C. Millspaugh, *Americans in Persia* (Washington. D.C.: Brookings Institution, 1946), pp. 55, 64, 84–85 ("The Persian government").

(8) Oder, "United States and the Palestine Mandate," pp. 326–27. On the Millspaugh and Schwarzkopf Missions, see *FRUS*, 1944, vol. 4: Ford to Secretary of State, Feb. 2, 1944, p. 391; Ford to Secretary of State, April 11,

1944, p. 395; Morris to Secretary of State Oct. 11, 1944, p. 430. James Bill, *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American-Iranian Relations* (New Haven: Yale Univ. Press, 1988), pp. 24–25, 27. Michael K. Sheehan, *Iran: The Impact of United States Interests and Policies*, 1941–1943 (Brooklyn: Theo Gaus' Sons, 1968), pp. 16–17. Lytle, *Origins of the Iranian-American Alliance*, pp. 112–16.

(9) Wilmington, *Middle East Supply Centre*, p. 167 ("the time has come"). *FRUS*, 1942, vol. 4: Welles to Kirk, Feb. 26, 1942, p. 564; 1943, vol. 4: Secretary of State to the Secretary of the Interior, Nov. 13, 1943, p. 942 ("the oil of Saudi Arabia"); 1944, vol. 5; Hull to Winnant, Oct. 17, 1944, p. 666 ("a covert contest"); Davies to Murray, Dec. 27, 1944, p. 9; 1944, vol. 5: Murray to the Under Secretary of State, Nov. 23, 1944, pp. 35–36. David Long, *The United States and Saudi Arabia* (Boulder: Westview Press, 1985), pp. 14–15, 76. Bryson, *Seeds of Mideast Crisis*, p. 39. Miller, *Search for Security*, pp. 30–31, 43 ("Just how we could"), 51–55, 60–63, 71, 121, 237. Hart, *Saudi Arabia*, p. 29. Lytle, *Origins of the Iranian-American Alliance*, pp. 64, 71. Longrigg, *Oil in the Middle East*, pp. 133–34. Shwadran, *Middle East*, pp. 330–33.

(10) Cecil Brown, *Suez to Singapore* (New York: Random House, 1942), p. 12 ("This is Baghdad"). Erasmus Kloman, *Assignment Algiers: With the OSS in the Mediterranean Theater* (Annapolis: Naval Institute Press, 2005), p. 17 ("never-never land"). Patton, *War as I Knew It*, p. 10 ("a city which combines"). Norman Schwarzkopf, *It Doesn't Take a Hero* (New York: Bantam, 1992), p. 11 ("magical, faraway"). Roger Cohen and Claudio Gatti, *In the Eye of the Storm: The Life of General H. Norman Schwarzkopf* (New York; Farrar, Straus and Giroux, 1991), pp. 48–49. Humphrey Wynn, *Desert Eagles* (Osceola, Wis.: Motorbooks International, 1993), pp. 9 ("certainly a dirty place"), 10 ("the last place"), 13 ("Even the beer"). Ernest D. Whitehead, *World War II: An Ex-Sergeant Remembers* (Kearney: Morris Publishing,

1996), 36 (“What are we doing”). *The Papers of Dwight David Eisenhower*, ed. Alfred Chandler (Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1970), vol. 2; Dwight Eisenhower to John Eisenhower, Nov. 20, 1942, p. 746 (“beautiful and picturesque”). Clark, *Calculated Risk*, p. 157 (“like illustrations”). Liebling, *Road Back to Paris*, p. 243 (“This is exactly”). “Hey, Jack, which way to Mecca?” appears in Peter Arno, *Peter Arno* (New York: Perennial Library, 1990). *A Short Guide to Iraq* (Washington, D.C.: War and Navy Departments, 1944), pp. 3–4 (“you have seen”).

(11) Atkinson, *Army at Dawn*, pp. 124 (“Scrofulous, unpicturesque”), 169 (“useless, worthless” and “If they could have”), 255, 462 (“they were open”). D’Este, *Eisenhower*, p. 400 (“I would rather”). Patton, *War as I Knew It*, pp. 5, 47 (“the morning edition”), 49 (“the utter degradation”). Whitehead, *World War II*, pp. 41, 44 (“The Arab men”). *World War II Diary of Jean Gordon Peltier* (Groveland, Calif.: Perfect Art, 2000), pp. 37 (“The men spend”), 38 (“the animals lived”). Howard Wriggins, *Picking Up the Pieces from Portugal to Palestine: Quaker Refugee Relief in World War II* (Lanham, Md.: Univ. Press of America, 2004), p. 79 (“That may be so”). K. Ray Marrs, *I Was There When the World Stood Still* (Bloomington: 1st Books, 2003), p. 301 (“Their long flowing” and “kill the Arab”). David Rame, *Road to Tunis* (New York: Macmillan, 1944), pp. 14–15, 36. Liebling, *Road Back to Paris*, pp. 279, 291. *Stars and Stripes* (Cairo edition), July 2, 1942 (“Nobody ever taught”); July 30, 1943 (“buxom”), Oct. 8, 1943 (“sayeeda”).

(12) *The White House Papers of Harry Hopkins*, ed. Robert Sherwood, vol. 2 (London: Lyre and Spottiswoode, 1949), p. 860 (“horseplay”). Burns, *Roosevelt*, pp. 395–96 (“The mills of the gods”). *FRUS*, 1943, vol. 4: *lbn Saud to Roosevelt*, May11, 1943, pp. 773–74 (“Jews have no right”); 1944, vol. 5: Stettenius to Roosevelt, p. 649 (“It would seriously prejudice”), Berle to the Secretary of State, Jan. 28, 1944, pp. 561–62 (“opened for the free entry”); Sanerthwaite to Secretary of State, Aug. 3, 1944, p. 607 (“moral

as well as material"); Secretary of State to Roosevelt, Dec. 13, 1944, p. 649 ("economic concessions") Secretary of State to Roosevelt, p. 655 (n.d.); Tuck to Secretary of State, Nov. 21, 1944, p. 640 ("Democratic America"). Manuel, *Realities*, pp. 310–12.

(13) Jim Bishop, *FDR's Last Year* (New York: Morrow, 1974), pp. 441, 443 ("the Moslem will not permit"), 435, 445 ("this prosperity" and "short of war"). John S. Keating, "Cruise of the USS *Flying Carpet*," *True* 33, no. 199 (Dec. 1953): 108–9, 110 ("lean and dark"), 111 ("serious damage"). William Eddy, *F.D.R. Meets Ibn Saud* (New York: American Friends of the Middle East, 1954), pp. 21, 30, 31 ("my most precious"), 34–35 ("Make the enemy"), 44–45 ("most precious pearl"). Black, *Franklin Delano Roosevelt*, p. 1068 ("whole party"). W. Barry McCarthy, "Ibn Saud's Voyage," *Life*, March 19, 1945, pp. 62–64. *FRUS*, 1944, vol. 5: Secretary of State to Jidda, April 18, 1944, p. 687 ("thoughts, wants, needs"). Range, *Franklin D. Roosevelt's World Order*, p. 149. Burns, *Roosevelt*, pp. 378–79, 578. *White House Papers of Harry Hopkins*, pp. 860–61 ("horseplay" and "overly impressed"). Manuel, *Realities*, pp. 314 ("I will never rest"), 316–17 ("malicious misrepresentation").

الفصل السادس والعشرون: الشرق الأوسط والرجل القادم من ميسوري

(1) Walter Isaacson and Evan Thomas, *The Wise Men: Six Friends and the World They Made* (New York: Touchstone, 1986), pp. 255–56. Deborah Welch Larson, *Origins of Containment: A Psychological Explanation* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1985), pp. 126–29, 134–35. Alonzo L. Hamby, *Man of the People: A Life of Harry S. Truman* (New York: Oxford Univ. Press, 1995), pp. 404–6. David McCullough, *Truman* (New York: Simon & Schuster, 1992), pp. 349 ("great, great tragedy"), 350, 353 ("I felt like the moon"), 597. Merle Miller, *Plain Speaking: An Oral Biography of Harry S. Truman*

(New York: Putnam, 1974), p. 215 ("It wasn't just"). Michael T. Benson, *Harry S. Truman and the Founding of Israel* (Westport, Conn.: Praeger, 1997), pp. 29–33, 34 ("God has created us"), 35–38, 39 ("a matter of faith"), 53-54.

(2) *FRUS*, 1945, vol. 8: Henderson to Matthews, Nov. 13, 1945, p. 1208; Acting Secretary of State to the Ambassador in France, May 23, 1945, p. 1092; 1946, vol. 7: Stettinius to Secretary of State, Feb. 7, 1946, p. 763; Secretary of State to Stettinius, Feb. 9, 1946, p. 766; Henderson to Truman, Nov. 10, 1945, pp. 10-11. Hahn, *United States, Great Britain, and Egypt*, pp. 20-21 ("the most deserving"), 26–29. David Lesch, *Syria and the United States: Eisenhower's Cold War in the Middle East* (Boulder: Westview Press, 1992), p. 17. G. W. Sand, ed., *Defending the West: The Truman-Churchill Correspondence*, 1945–1960 (Westport, Conn.: Praeger, 2004), pp. 92-93, 94. H. W. Brands, *Inside the Cold War: Loy Henderson and the Rise of the American Empire*, 1918–1961 (New York: Oxford Univ. Press, 1991), pp. 132 ("Your country has"), 134 ("Our refusal"). Robert Laffey, "United States Policy toward and Relations with Syria, 1941–1947" (Ph.D. diss., Univ. of Notre Dame, 1981), pp. 85-86. Irene L. Gendzier, *Notes from the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East*, 1945–1958 (Boulder: Westview Press, 1999), p. 51.

(3) Geoff Simons, *Libya and the West:* From Independence to Lockerbie (Oxford: Centre for Libyan Studies, 2003), p. 18. William Roger Louis, "American Anticolonialism and the Dissolution of the British Empire;" *International Affairs 61*, no. 3 (Summer 1985): 403–9. Scott L. Bills, *The Libyan Arena: The United States, Britain and the Council of Foreign Ministers*, 1945–1948 (Kent, Ohio: Kent State Univ. Press, 1995), pp. 8, 12, 24, 32. Ronald Bruce St. John, *Libya and the United States: Two Centuries of Strife* (Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 2002), pp. 40, 42-43.

(4) *FRUS*, 1945, vol. 8: Morris to the Secretary of State, Jan. 4, 1945, p. 359; Minor to Acheson, June 2, 1945, p. 376; Henderson to the Secretary of State, Aug. 23, 1945, pp. 27–28. Bruce R. *Kuniholm, The Origins of the Cold War in the Near East: Great Power Conflict and Diplomacy in Iran, Turkey and Greece* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1980), pp. 157—65. Lytle, *Origins of the Iranian–American Alliance*, pp. 120—68. John Gaddis, *The United States and the Origins of the Cold War* (New York: Columbia Univ. Press, 1992), pp. 200, 310–11 ("Now we'll give"). Barry *Rubin, Paved with Good Intentions: The American Experience and Iran* (New York: Penguin, 1981), pp. 33—36. Louise L. Fawcett, *Iran and the Cold War: The Azerbaijan Crisis of 1946* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1992), pp. 122—29, 139. Robert J. Donovan, *Conflict and Crisis: The Presidency of Harry S. Truman*, 1945—1948 (New York: Norton, 1977), pp. 194–95. Wihian Hillman and Harry Truman, *Mr. President: The First Publication from the Personal Diaries, Private Letters, Papers, and Revealing Interviews of Harry S. Truman, Thirty–second President of the United States of America* (New York: Farrar, Straus and Young, 1952), pp. 22–23: Truman to Byrnes, Jan. 5, 1946 ("We ought to protest").

(5) *FRUS*, 1945, vol. 8: Harriman to the Secretary of State Moscow, March 21, 1945, p. 1220; Wilson to the Secretary of State, Sept. 25, 1945, pp. 1249; 1947, vol. 5: Smith to the Secretary of State, Jan. 8, 1947, pp. 2–3; MacVeagh to the Secretary of State, Feb. 11, 1947, p. 17; Report of the State–War–Navy Coordinating Committee (n.d.), pp. 76–77 ("There is, at the present"). Joseph C. Satterthwaite, "The Truman Doctrine: Turkey," *Annals of the American Academy of Political and Social and Science 401* (May 1972): 74—84. Robert Frazier, "Acheson and Formulation of the Truman Doctrine," *Journal of Modern Greek Studies* 17, no. 2 (1999): 229—51. John Gaddis, *The Cold War: A New History* (New York: Penguin, 2005), p. 28. Kuniholm, *Origins of the Cold War*, p. 425. Fawcett, *Iran and the Cold*

War, p. 128. Donovan, *Conflict and Crisis*, p. 251 ("Greece and Turkey"). Lawrence S. Kaplan, "The Monroe Doctrine and the Truman Doctrine: The Case of Greece," *Journal of the Early Republic* 13, no. 1 (Spring 1993): 2 ("Our foreign policy"). Laffey, "United States Policy," p. 71 ("star rising"). The text of Truman's speech to Congress is available online, through Yale Law School's Avalon Project.

(6) James M. Burns and Susan Dunn, *The Three Roosevelts: Patrician Leaders Who Transformed America* (New York: Grove Press, 2001), p. 516 ("I cannot bear"). McCullough, Truman, p. 597 ("Everyone else"). Grose, *Israel in the Mind*, pp. 189 ("My sympathy"), 200 ("One is led"). Arnold Offner, *Another Such Victory: President Truman and the Cold War*, 1945–1953 (Palo Alto: Stanford Univ. Press, 2002), p. 275 ("to make the whole world"). *Louis, British Empire in the Middle East*, p. 240 ("I have to answer").

(7) Truman's policymaking on Palestine is one of the most lavishly researched subjects in modern Middle Eastern history. Notes relating to the episode contain a representative, but scarcely exhaustive, selection of these sources. Benson, *Harry S. Truman*, pp. 64–65 ("grievous harm"). Grose, *Israel in the Mind*, pp. 203 ("to the head"), 204 ("because they did not"). Zvi Ganin, *Truman, American Jewry, and Israel*, 1945–1948 (New York: Holmes & Meier, 1979), p. 39 ("firmly believe"). David Schoenbaum, *The United States and the State of Israel* (New York: Oxford Univ. Press, 1993), p. 44.

(8) Peter L. Hahn, *Caught in the Middle East: U.S. Policy toward the Arab–Israeli Conflict*, 1945–1961 (Chapel Hill; Univ. of North Carolina Press, 2004), pp. 33–36. Michael J. Cohen, *Palestine and the Great Powers*, 1945–1948 (Princeton: Princeton Univ. Press, 1982), pp. 96–112, 113 ("the further development"). Ganin, *Truman, American Jewry and Israel*, p. 80 ("For the Jews"). Harry S. Truman, Memoirs, vol. 2: *Years of Trial and Hope* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1956), p. 57 ("the promised Jewish

homeland"). Grose, *Israel in the Mind*, p. 206 ("Jesus Christ"). Truman Presidential Library: President's Secretary File: Jacobson to Truman, Oct. 7, 1947 ("Harry, my people"). Benson, *Harry S. Truman*, p. 96 ("Terror and Silver"). The Anglo-American Committee of Inquiry report is available on the Avalon Project website. See also Michael J. Cohen, ed., *The Anglo-American Committee on Palestine*, 1945-46, vol. 35 of *The Rise of Israel: A Documentary Record from the Nineteenth Century to 1948* (New York: Garland, 1987).

(9) *FRUS*, 1947, vol. 7: Memorandum of Fraser Wilkins, Jan. 14, 1947, pp. 1003-4; Marshall to the Embassy in the U.K., Jan. 14, 1947, pp. 1005-6; Memorandum of Dean Acheson, Jan. 21, 1947, pp. 1008–11. Grose, *Israel in the Mind*, pp. 202 ("more concerned"), 214 ("sacrificial labors" and "the title deeds"). Dean Acheson, *Present at the Creation: My Years in the State Department* (Toronto: George-McLeod, 1969), p. 175 ("the most disliked power"). Benson, *Harry S. Truman and the Founding of Israel*, pp. 81 ("not in the light"), 93 ("crackpots"). Hahn, *Caught in the Middle East*, pp. 29, 34, 36 ("underground guerrilla warfare"), 40. The Forrestal Diaries (New York: Viking, 1951), pp. 180, 245, 303-4, 342, 345. Offner, *Another Such Victory*, p. 274 ("sixty-four dollar question").

(10) Martin Gilbert, *Israel: A History* (London: Black Swan, 1998), p. 147 ("the thousands of years"). Cohen, *Palestine and the Great Powers*, p. 266 ("Zionist beachhead"). Manuel, *Realities*, p. 324 ("stuck his neck out"). Sykes, *Crossroads to Israel*, p. 325 ("relentless war"). *Forrestal Diaries*, p. 376. Mattar, Mufti of Jerusalem, p. 110. The minority UNSCOP plan was submitted by Iran, India and Yugoslavia; the majority plan by Australia, Canada, Czechoslovakia, Guatemala, the Netherlands, Peru, Sweden, and Uruguay.

(11) Truman Presidential Library: President's Diaries File, July 21, 1947 ("The Jews, I find"). *FRUS*, 1947, vol. 5: Marshall to Truman, April 29,

1947, p. 1080; Marshall to Certain Diplomatic Officers, June 13, 1947, p. 1103; Henderson to Marshall, Sept. 22, 1947, p. 1153; Memorandum of Paul Alling, Sept. 26, 1947, p. 1159; Wadsworth to Mattison, Nov. 13, 1947, p. 1257. Cohen, *Palestine and the Great Powers*, pp. 293–94, 295 (“get busy”). Hahn, *Caught in the Middle East*, pp. 39—41, 48.

(12) *FRUS*, Vol. V 1948: Kennan to Lovett, Feb. 12, 1948, pp. 589—92; Austin to Marshall, March 17, 1948, p. 736; Henderson to Lovett, April 22, 1948, pp. 841–42 (“decide once and for all”). Truman, *Years of Trial and Hope*, pp. 161, 164, 171, 173. Hahn, *Caught in the Middle East*, p. 46 (“British bullheadedness”). Truman Presidential Library: President’s Secretary’s File: Truman to Jacobson, Feb. 27, 1948 (“The situation has been”). Benson, *Harry S. Truman*, pp. 127 (“Harry”), 128 (“You win” and “bank”). McCullough, Truman, pp. 610–11 (“liar and a doublecrosser”). Cohen, *Palestine and the Great Powers*, p. 358 (“shocking reversal” and “surrender to Arab terror”). Dan Kurzman, *Genesis 1948: The First Arab–Israeli War* (New York: Da Capo Press, 1992), pp. 83, 97. On Zionist fundraising efforts in the United States, see Yossi Melman and Dan Raviv, *Friends in Deed: Inside the U.S.–Israel Alliance* (New York: Hyperion, 1994), pp. 40—45.

(13) *FRUS*, 1948, vol. 5: Rusk to Marshall, March 22, 1948, p. 751; Gross to Lovett, May 11, 1948, p. 959. Elsey Papers, May 12, 1948, p. 977 (“a very transparent attempt” and “pig in the poke”), State Department to Truman, Aug. 19, 1948, p. 1324 (“are destitute”). Howard M. Sachar, *A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time* (New York: Knopf, 1970), pp. 309, 310 (“What will happen”). Donovan, *Conflict and Crisis*, p. 383 (“If the President”). Grose, *Israel in the Mind*, pp. 290–91, 292 (“I will cross that bridge”), 293 (“What do you mean”). “34 Jews are Slain in Hospital Convoy,” *New York Times*, April 14, 1948. Larry Collins and Dominique Lapierre, *O Jerusalem* (New York: Simon & Schuster 1972), p. 278 (“there

were bodies”). The number of Arab victims of the Deir Yassin massacre remains a source of historical controversy. I have relied on Matthew Hogan, “The 1948 Massacre at Deir Yassin,” in *Historian* 63, no. 2 (2001).

الباب السابع: البحث عن سلامٍ في ظل الهيمنة الأمريكية

الفصل السابع والعشرون: الانسجام والهيمنة

(1) Brian Urquhart, *Ralph Bunche: An American Life* (New York: Norton, 1993), pp. 103, 122, 164. Charles P. Henry, *Ralph Bunche: Model Negro or American Other?* (New York: New York Univ., 1999), p. 145. Shabtai Rosenne, “Bunche at Rhodes: Diplomatic Negotiator,” in Benjamin Rivlin, ed., *Ralph Bunche: The Man and His Times* (New York: Holmes & Meier, 1990), p. 178. Eytan Walter, *The First Ten Years: A Diplomatic History of Israel* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1958), p. 31 (“Have a look”).

(2) Acheson, *Present at the Creation*, pp. 654–55. The CIA’s support of the Free Officers is discussed in a number of sources. See, e.g., Miles Copeland, *The Game of Nations: The Amorality of Power Politics* (New York: Simon & Schuster, 1969), and Wilbur Crane Eveland, *Ropes of Sand: Americas Failure in the Middle East* (New York: Norton, 1980). See also Anwar El Sadat, *Revolt on the Nile* (London: A. Windgate, 1957), pp. 117–18. Mohammad Naguib, *Egypt’s Destiny: A Personal Statement* (London: Gollancz, 1955), p. 121. Sayed Ahmed, *Nasser and American Foreign Policy*, 1952–1956 (London: LAAM, 1987), pp. 39–47. Holland, *America and Egypt*, p. 26 (“a Moslem Billy Graham”).

(3) Sources on Mossadegh and Operation Ajax abound. See, e.g., Rubin, *Paved with Good Intentions*, pp. 54–61, 62 (“Whether it is in Indo-China”), 63–90, and Mark Hamilton Lytle, *The Origins of the Iranian-American Alliance, 1941-1953* (New York: Holmes & Meier, 1987), pp. 192–209. See

also Stephen Kinzer, *All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror* (Hoboken, N.J.: John Wiley, 2003).

(4) *FRUS*, 1955—57, vol. 18: NSC 5436/1 United States Policy on French North Africa, June 1, 1955, pp. 92–93 ("we cannot give"). Matthew Connelly, *A Diplomatic Revolution: Algeria's Fight for Independence and the Origins of the Post-Cold War Era* (New York: Oxford Univ. Press, 2002), pp. 45, 50 ("The French are operating"), 52—58, 123 ("having gone so far"), 153–54. Matthew F. Holland, *America and Egypt: From Roosevelt to Eisenhower* (Westport, Conn.: Praeger, 1996), p. 30. Frederick Quinn, *The French Overseas Empire* (New York: Praeger, 2000), p. 227 ("a vast conspiracy").

(5) Dwight David Eisenhower Papers, White House Correspondence, box 3: Eisenhower to Dulles, June 16, 1953; Whitman File, International Series, box 15: Eisenhower to Churchill, April 7, 1953 ("From Foster's personal"). PRO, FO371/102732/14: Report of Lord Salisbury's Conversation with Mr. Dulles, July 11, 1953 ("The old colonial attitude"). Evelyn Shuckburgh, *Descent to Suez: Diaries, 1951-1956, ed.* John Charmley (New York: Norton 1986), p. 229. Hahn, *United States, Great Britain and Egypt*, pp. 161—64.

(6) I have written extensively on Alpha, Gamma, and the search for Arab-Israeli peace in the 1950s. See, e.g., *The Origins of the Second Arab-Israel War: Egypt, Israel and the Great Powers* (London: Frank Cass, 1992); "Escalation to Suez: The Egypt-Israel Border War, 1949—56," *Journal of Contemporary History* 24, no. 3 (1989); "Secret Efforts to Achieve an Egypt-Israel Settlement prior to the Suez Campaign," *Middle Eastern Studies* 26, no. 3 (1990); "The Diplomatic Struggle for the Negev," *Studies in Zionism* 2, no. 1 (1989). On Omega, see *FRUS*, 1955—1957, vol. 15: Memorandum from the Secretary of State to the President, March 28, 1956, p. 410; Diary Entry by the President, March 28, 1956, p. 425. Salim Yaqub,

Containing Arab Nationalism: The Eisenhower Doctrine and the Middle East (Chapel Hill: Univ. of North Carolina, 2004), pp. 42—45. On King Saud's visit to the United States, see Nathan J. Citino, *From Arab Nationalism to Opec: Eisenhower, King Saud and the Making of U.S.-Saudi Relations* (Bloomington: Indiana Univ., 2002), pp. 122-23, 135, and Rachel Bronson, Thicker Than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia (Oxford: Oxford Univ., 2006), pp. 74-75.

(7) PRO, CAB 128/30, July 27, 1956. USNA, 974.7301/7-2756: Paris to Department, July 27, 1956; 974.7301/6-158: Suez Canal Problem, 1954—58, June 1, 1958. Philip Ziegler, *Mountbatten* (London: Collins, 1985), pp. 537-38. Anthony Gorst and Scott W. Lucas, "Suez 1956: Strategy and the Diplomatic Process," *Journal of Strategic Studies* 23, no. 1 (1988): 399-400. Robert Rhodes James, *Anthony Eden* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1986), p. 166 ("My object"). Bernard Ménager et at., eds., *Guy Mollet: Un camarade en république* (Lille: Presses Universitaires de Lille, 1987), p. 476 ("totally dependent").

(8) DDE, Duties Papers, Subject Series, Telephofle Calls, box 5: Allen Dulles to Secretary Dulles, Oct. 30, 1956; Dulles to Eisenhower, Oct. 30, 1956; The Secretary to Allen Dulles, Oct. 30, 1956. PRO, PREM 11/1105: Washington to Foreign Office Oct. 30, 1956. DDF, III, 1956, 93—95.

(9) *British Broadcasting Company: Summary of World Broadcasts*, pt. 4, *The Arab World, Israel, Greece, Turkey, Persia:* Voice of the Arabs, Jan. 9, 1957; Voice of the Arabs, Jan. 18, 1957. Yaqub, *Containing Arab Nationalism*, pp. 71—90, 205—12, 221—23, 224, 225—36. Alan Dowty, *Middle East Crisis: U.S. Decision Making in 1958, 1970 and 1973* (Berkeley: Univ. of California Press, 1984), pp. 1, 27—35, 56, 80. See also Michael B, Oren, "Israel, the Great Powers, and the Middle East Crisis of 1958," *Studies in Zionism* 12, no. 2 (1992). For insights into the film *Ben Hur*, I am indebted to one of my Harvard students, John Taylor Hebden.

(10) Warren Bass, *Support Any Friend: Kennedy's Middle East and the Making of the U.S-Israel Alliance* (Oxford: Oxford Univ. Press, 2003), pp. 4, 73, 79 ("immense satisfaction"), 100, 111, 128. Douglas Little, "The New Frontier on the Nile: JFK, Nasser and Arab Nationalism," *Journal of American History* 75, no. 2 (1988): 500 ("somehow represented yester-day"), 502, 504, 510–13, 521–24. Robert Dallek, *An Unfinished Life: John F. Kennedy, 1917-1963* (Boston: Little, Brown, 2003), p. 222 ("The single most important"). Michael B. Oren, *Six Days of War: Jane 1967 and the Making of the Modern Middle East* (New York: Oxford Univ. Press, 2002), p. 14.

(11) Bass, *Support Any Friend*, pp. 145–49, 158, 185–90. Avner Cohen, *Israel and the Bomb* (New York: Columbia Univ. Press, 1998), pp. 99–107, 108 ("A woman should not"), 155 ("seriously jeopardized"). Mordechai Gazit, *President Kennedy's Policy toward the Arab States and Israel: Analysis and Documents* (Tel Aviv: Tel Aviv Univ., 1983), pp. 18, 33, 42, 46-47. Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, pp. 110–12. Oren, *Six Days of War*, pp. 16-17. The transcript of the Kennedy-Ben-Gurion meeting at the Waldorf is available online at http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/US-Israel/FRUS05_30_61.html.

(12) William J. Burns, *Economic Aid and American Policy toward Egypt, 1955-1981* (Albany: State Univ. Press of New York, 1985), p. 159 ("go drink"). Richard B. Parker, *The Politics of Miscalculation in the Middle East* (Bloomington: Indiana Univ., 1993), p. 105. P. J. Vatikiotis, *Nasser and His Generation* (New York: St. Martin's, 1978), pp. 202–12. Mahmoud Riad, *The Struggle for Peace in the Middle East* (New York: Quartet Books, 1981), pp. 15–17.

(13) Lyndon Baines Johnson Presidential Library, National Security file, Middle East, Israel boxes 140, 141: Conflicting U.S. Attitudes toward Military Aid to Israel, April 20, 1967; U.S.-Israel Relations, Nov. 3, 1967. USNA,

Middle East Crisis files, 1967, Lot file 68D135, box 1: United States Statements on Israel: Johnson Statements, June 1, 1964. William B. Quandt, "The Conflict in American Foreign Policy," in Itamar Rabinovich and Haim Shaked, eds., *From June to October: The Middle East between 1967 and 1973* (New Brunswick: Tansction, 1978), pp. 5-6. I. L. Kenen, *Israel's Defense Line: Her Friends and Foes in Washington* (Buffalo: Prometheus, 1981), p. 173 ("You have lost"). Douglas Little, "The Making of a Special Relationship: The United States and Israel, 1957—68," *International Journal of Middle East Studies 25, no. 4* (Nov. 1993): 27-75. Michael Karpin, *The Bomb in the Basement: How Israel Went Nuclear and What That Means for the World* (New York: Simon & Schuster, 2006), p. 243 ("Take care of the Jews" and "If Israel is destroyed").

(14) USNA, Middle East Crisis, Chronology June 4th—7th, box 15: Memorandum for the Middle East Task Force, May 29, 1967 ("Let us not forget"). LBJ, National Security File, History of the Middle East Conflict, box 17: Memorandum for the Record, The Arab-Israeli Crisis, May 27, 1967 ("If Israel fires first"); box 20: United States Policy and Diplomacy in the Middle East Crisis, May 15—June 10, 1967, pp. 56—59 ("Israel will not be alone" and "I failed"); History of the Middle East Conflict; box 19: Memorandum for the Record, Washington-Moscow "Hot-line" Exchange, Oct. 22, 1968; Kosygin to Johnson, June 10, 1967 (10:00 a.m.); Johnson to Kosygin (10:58 a.m.); Movements of Sixth Fleet, June 10, 1967; The President in the Middle East Crisis, Dec. 19, 1968; Richard Helms Oral History; Llewellyn Thompson Oral History. Oren, *Six Days of War*, pp. 102—16, 164 ("Our goal"), 262—71.

(15) Craig A. Daigle, "The Russians Are Going: Sadat, Nixon and the Soviet Presence in Egypt, 1970-1971," *Middle East Review of International Affairs* 8, no. 1 (March 2004): 3 ("The difference between"). William B. Quandt, *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict since 1967*, 3d ed. (Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2005),

pp. 67–68. Nadav Safran, *Israel: The Embattled Ally* (Cambridge: Belknap Press, 1978), p. 441. Thomas Wheelock, "Arms for Israel: The Limit of Leverage," *International Security* 3, no. 2 (1987): 124–26. FRUS, 1969–76, vol. E-5, Documents on Africa, 1969–72: Buchanan to the President, Feb. 18, 1970 ("Israel is the current"), on http://www.state.gov/r/pa/ho/FRUS/nixon/e5/54756.htm.

(16) Quandt, *Peace Process*, pp. 77, 89–102. Daigle, "Russians Are Going," pp. 4 ("You would be mistaken"), 7 ("There is no reason"). Henry A. Kissinger, *Diplomacy* (New York: Simon & Schuster, 1994), pp. 738–39. Henry A. Kissinger, *White House Years* (Boston: Little, Brown, 1979), pp. 596, 603, 622–23, 626.

(17) George Washington University, National Security Archive, "The October War and U.S. Policy," Document 63: Secretary's Staff Meeting, Oct. 23, 1973, p. 6 ("We could not make"), http://www.gwu.edu/nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB98/. Henry A. Kissinger, *Crisis: The Anatomy of Two Major Foreign Policy Crises* (New York: Simon & Schuster, 2003), pp. 43, 291, 317 ("It was a tremendous"), 340 ("We may have to take"). Alexander M. Haig Jr., with Charles McCarry, *Inner Circles: How America Changed the World: A Memoir* (New York: Warner, 1992), pp. 409, 411 ("Whatever it takes"), 412–17.

(18) Anwar El Sadat, *In Search of Identity: An Autobiography* (New York: Harper & Row, 1977), pp. 292–95. Abba Eban, *Personal Witness: Israel through My Eyes* (New York: Putnam, 1992), pp. 570–72. Kenneth W. Stein, *Heroic Diplomacy: Sadat, Kissinger, Carter, Begin, and the Quest for Arab-Israeli Peace* (New York: Routledge, 1999), pp. 146–63, 175–79. George Washington University, National Security Archive, "The October War and U.S. Policy," Document 63: Secretary's Staff Meeting, Oct. 23, 1973, p. 7 ("The Europeans behaved"), http://www.gwu.edu/nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB98/. Rashid Khalidi, *Resurrecting Empire: Western Footprints and*

America's Perilous Path in the Middle East (Boston; Beacon, 2005), pp. 43 ("covert action"), 131.

(19) Bill Adler, ed., *The Wit and Wisdom of Jimmy Earter* (Secaucus, N.J.: Citadel, 1977), pp. 68, 139 ("significant moral principle"). Jimmy Carter, *Living Faith* (New York: Three Rivers Press, 2001), pp. 22–24, 36 ("fellowship of faith"). Zbigniew Brzezinski, *Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser, 1977-1981* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1983), p. 27 ("After a couple of hours"). Douglas Brinkley, *The Unfinished Presidency: Jimmy Carter's Journey beyond the White House* (New York: Viking, 1998), p. 114. Seyom Brown, *The Faces of Power: Constancy and Change in United States Foreign Policy from Truman to Reagan* (New York: Columbia Univ., 1983), pp. 454–56. Jimmy Carter, *The Blood of Abraham: Insights into the Middle East, new ed.* (Fayetteville: Univ. of Arkansas Press, 1993), pp. 29, 193 ("The blood of Abraham").

(20) Brown, *Faces of Power*, pp. 482-83, 489, 502. Quandt, *Peace Process*, pp. 188–90, 198–203. Brzezinski, *Power and Principle*, pp. 83, 87, 100, 105, 110–11, 117, 237–38, 242, 254–71, 284 ("You are probably"). Jimmy Carter, *Keeping Faith: Memoirs of a President* (New York: Bantam, 1982), pp. 279, 293, 296-97, 496 ("The Camp David Accords"). Saadia Touval, *The Peace Brokers: Mediators in the Arab-Israeli Conflict, 1948-1979* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1982), pp. 291–314. Moshe Dayan, *Breakthrough: A Personal Account of the Egypt-Israel Peace Negotiations* (New York: Knopf, 1981), pp. 17, 89–99, 117, 126. On Carter's relationship with evangelical Christians, see Donald Wagner, "Evangelicals and Israel: Theological Roots of a Political Alliance," *Christian Century*, Nov. 4, 1998, p. 1024 ("The time has come").

(21) The lyrics for "Midnight at the Oasis," written by David Nichtern, can be found at http://www.webfitz.com/lyrics/Lyrics/1974/131974.html. Said, *Orientalism*, pp. 27, 204, 59-60, 316, 319, 322. Edward

W. Said, "Islam through Western Eyes," Nation, March 26, 1980. Meir Litvak and Joshua Teitelbaum, "Students, Teachers and Edward Said: Taking Stock of Orientalism," *Middle East Review of International Affairs* 10, no. 1 (March 2006): 3 ("to discover"). Bernard Lewis, *What Went Wrong: The Clash between Islam and Modernity in the Middle East* (New York: Perennial, 2003), pp. 151 ("Compared with its millennial"), 152–53. "Orientalism: An Exchange," *New York Review of Books*, Aug. 12, 1982, pp. 44 ("willful political assertions"), 46 ("beneath the umbrella"), 48 ("a genuine problem").

(22) Mark Bowden, *Guests of the Ayatollah: The First Battle in America's War with Militant Islam* (New York: Atlantic Monthly, 2006) pp. 33, 38, 69 ("undermined the political"), 115 ("island of stability"), 125 ("The people of the United States"), 211, 218, 287, 313 ("Death to the Three"), 360, 479, 563, 564. Kenneth M. Pollack, *The Persian Puzzle; The Conflict between Iran and America* (New York: Random House, 2004), pp. 153–80. Brown, *Faces of Power*, pp. 515 ("Our relations with"), 524, 560 ("An attempt by"). Carter, *Keeping Faith*, pp. 458 ("It's almost impossible"), 466–67, 569.

الفصل الثامن والعشرون: حرب الثلاثين عامًا

(1) Ronald Reagan, *Reagan, in His Own Hand*, ed. Kiron K. Skinne; Annelise Anderson, and Martin Anderson (New York: Simon & Schuster, 2001), p. 213. Ronald Reagan, *An American Life* (New York: Simon & Schuster, 1990), p. 518 ("He's not only a barbarian"). Alexander M. Haig Jr., *Caveat: Realism, Reagan and Foreign Policy* (New York: Macmillan, 1984), pp. 182–84. "Israeli Jews Destroy Iraqi Atomic Reactor; Attack Condemned by U.S. and Arab Nations," *New York Times*, June 9, 1981, p. 1.

(2) Reagan, *American Life*, pp. 442, 423 ("We're walking a tightrope"), 424 ("No matter how villainous"), 425–28, 430. Haig, *Caveat*, pp. 180–81, 186. Quandt, *Peace Process*, pp. 251, 252, 253–59. Spiegel, *Other*

Arab–Israeli Conflict, pp. 416–26. Fred Lawson, “The Reagan Administration in the Middle East,” *MERIP Reports*, no. 128 (Nov. 1984): 32. On the Arafat evacuation, see Barry Rubin and Judith CoIp Rubin, *Yasir Arafat: A Political Biography* (Oxford: Oxford Univ., 2003), pp. 77, 86–89. On the role of the USS New Jersey, visit the battleship’s website at http://www.battleshipnewjersey.org/history.html.

(3) Reagan, *American Life*, pp. 496 (“Once again”), 497–507, 518 (“Any nation victimized”). Terry A. Anderson, *Den of Lions: Memoirs of Seven Years* (New York: Crown, 1993). Numerous websites document the terrorist attacks against the United States in the 1980s; see, e.g., “Target America,” http://www.pbs.org/wgbhl/pages/frontline/shows/target/etc/cron.html, and “Lebanon: The Hostage Crisis,” http://www.country-data.com/cgi-bin/query/r-8105.html.

(4) Lawrence E. Walsh, *Iran-Contra: The Final Report* (New York: Times Books, 1994), pp. 1–3, 10–24. Reagan, *American Life*, pp. 505-6 (“We wouldn’t be shipping”), 516 (“I did not think”). Douglas A. Bore; “Inverse Engagement: Lessons from U.S-Iraq Relations, 1982–1990,” *Parameters* 33, no. 2 (2003): 52 (“No one had any doubts”), 53–56. Dana Priest, “Trip Followed Criticism of Chemical Arms’ Use,” Washington Post, Dec. 19, 2003, p. 42. Steve Coil, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001* (New York: Penguin, 2005), p. 229 (“nation of beasts”). Numerous documents on American support for Saddam have been posted on the Web; see, e.g., “Saddam’s Iron Grip: Intelligence Reports on Saddam Hussein’s Reign,” http://www.gwu.edu/nsarchiv/NSAEBB/NSAEBBI67/.

(5) Kathleen Christison, “The Arab-Israeli Policy of George Shultz,” *Journal of Palestine Studies* 18, no. 2 (1989): 29–47. Quandt, *Peace Process*, pp. 367–80. David Ignatius, “The Secret History of the U.S.-PLO Terror Talks,” *Washington Post*, Dec. 4, 1988.

(6) On Bush's comparisons of Saddam to Hitler and the protests they provoked from Jewish groups, see Allison Kaplan, "U.S Apologizes for Hitler Remark," Jerusalem Post, Nov. 7, 1991. Michael Kelly, *Martyrs' Day: Chronicle of a Small War* (New York: Vintage, 1993), pp. 120–21 ("I've been in the army"). H. Norman Schwarzkopf, with Peter Petre, *It Doesn't Take a Hero: The Autobiography* (New York: Bantam, 1992), p. 319 ("Saddam was what"). Cohn Powell, with Joseph F. Persaco, *My American Journey* (New York: Random House, 1995), pp. 461—71, 511—13. James Mann, *The Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet* (New York: Penguin, 2004), pp. 185—91, 193 ("Our practical intention"). Coll, Ghost Wars, p. 229 ("It is not the world"). James A. Baker III and Thomas M. Defrank, *The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace, 1989-1992* (New York: Putnam, 1995), pp. 262–63, 272–73, 277 ("What the President did"). "The Religion of George H. W. Bush," http://www.adherents.com/people/pb/George_HW_Bush.html ("Americans are the most religious"). Bush's "New World Order" speech is available online at "Bab—An Open Door to the Arab World," http://www.al-bab.com/arab/docs/pal/pa110.htm.

(7) Dennis Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004), pp. 68, 71—81. Baker and Defrank, *Politics of Diplomacy*, pp. 488 ("a rich tale"), 512 ("Like the walls"). David Horovitz, "Blunt Baker Urges Israel to Talk Peace," *Jerusalem Post*, June 14, 1990.

(8) *Aladdin* lyrics, original and altered, appeared on http://www.angelfire.com/movies/disneybroadway/aladdin.html. Martin Kramer, *Ivory Towers on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America* (Washington, D.C.: Washington Institute of Near East Policy, 2001), pp. 1,5. Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remarking of World Order* (New York: Simon & Schuster, 1996), pp. 217–18 ("The underlying problem").

(9) CoIl, *Ghost Wars*, pp. 249–56. “Text of Clinton Statement on Iraq, Feb. 17, 1998,” http://www.cnn.com/ALLPOLITICS/1998/02/17/transcripts/clinton.iraq/ (“unholy axis”). Bill Clinton, My Life; The Presidential Years (Westminster, Md.: Knopf, 2005), p. 40 (“I was pleased”). Laurie Mylroie, “U.S. Policy toward Iraq,” *Middle East Intelligence Bulletin* 3, no. 1 (Jan. 2001).

(10) Clinton, *My Life: The Presidential Years*, pp. 78–79, 100–1 (“Now the horns”), 102–3, 104 (“Shalom, salaam, peace”), 244–45, 281 (“We had become friends”). Bill Clinton, *My Life: The Early Years* (Westminster, Md.: Knopf, 2005), p. 466 (“God will never”). David Horovitz, ed., *Yitzhak Rabin: Solider of Peace* (London: Peter Halban, 1996), pp. 115–22. Shimon Peres, *Battling for Peace: Memoirs, ed.* David Landau (London: Weidenfeld & Nicolson, 1995), pp. 335–37, 343–44. Dennis Ross, *Missing Peace*, pp. 101–21. Quandt, *Peace Process*, pp. 327–31. Connie Bruck, “The Wounds of Peace,” *New Yorker*, Oct. 14, 1996.

(11) Clinton, *My Life: The Presidential Years*, pp. 448–49 (“fanatics and killers”), 634–35 (“I am not a great man”), 642–46. Madeleine Albright, with Bill Wood-ward, *Madam Secretary* (New York: Miramax, 2003), pp. 289, 291, 294–95, 317, 490–91, 497. Douglas WaIler, “A Frantic Hunt for Peace,” http://www.cnn.com/ALLPOLITICS/time/2000/10/16/peace.html (“Close the gate!”). See also Robert Malley and Hussein Agha, “Camp David: The Tragedy of Errors,” New York Review of Books, Aug. 9, 2001. Coll, Ghost Wars, pp. 329, 376–77, 379, 380 (“Every Muslim”), 395–96, 405–15, 436 (“We are at war”).

(12) Richard Bernstein et al., *Out of the Blue: The Story of September 11, 2001, from Jihad to Ground Zero* (New York: Times Books, 2002), pp. 7, 25–26, 120–21, 131–39, 184 (“Please have fun”). CNN Breaking News, Sept. 11,2001, Transcript 091174CN, p. 4 (“these are Islamic terrorists”).

(13) Bob Woodward, *Plan of Attack* (New York: Simon & Schuster, 2004), pp. 26, 89, 112, 132, 154, 293, 317. Michael R. Cordon and Bernard E. Trainor, *Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq* (New York: Pantheon, 2006), pp. 14–19, 36–40, 50–53, 93-94, 104, 108, 160–65. “Bush Delivers Graduation Speech at West Point,” http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/20020601-3.html. Bush’s statement on the Senate and House vote authorizing the war in Iraq can be found on the White House website, http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/10/20021016-11.html. Powell’s Feb. 5 testimony to the Security Council appears on the U.S. State Department website, http://www.state.gov/secretary/former/powell/remarks/2003/17300.htm.

(14) Gordon and Trainor, *Cobra II*, pp. 436-37. John Keegan, *Iraq War: The Military Offensive, from Victory in 21 Days to the Insurgent Aftermath* (Westminster, Md.: Knopf, 2005), pp. 204–10, 428, 448–50, 457–61, 475, 484-85, 493. L. Paul Bremer III, *My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope* (New York: Simon & Schuster, 2006), pp. 14, 39–42, 57. “President Outlines Steps to Help Iraq Achieve Democracy and Freedom,” http://www.whitehouse.gov/news/releases/2004/05/20040524-10.html. “Iraqi Smart Culture Card,” http://cryptome.orgliraq-culture.htm. *A Short Guide to Iraq* (Washington, D.C.: War and Navy Departments, 1943), p. 5. Brian Turner, “What Every Soldier Should Know,” Here, Bullet (Farmingron, Me.: Alice James Books, 2005), reprinted with the permission of Alice James Books. Fouad Ajami, “Heart of Darkness,” *Wall Street Journal*, Sept. 28, 2005. Francis Fukuyama, *America at the Crossroads: Democracy, Power and the Neoconservative Legacy* (New Haven: Yale Univ. Press, 2006), p. 181 (“a self-fulfilling prophecy”). Christopher Hitchens, “The Perils of Withdrawal,” Slate, Nov. 29, 2005. Thomas L. Friedman, “Budgets of Mass Destruction,” *New York Times*, Feb. 1, 2004.

المراجع

السجلات والمكتبات

Amin Rihani Papers, Library of Congress

Andrew Jackson Papers (microfilm) (Wilmington, Del.: Scholarly Resources, 1986)

Central Zionist Archives (CZA), Jerusalem

Cleveland Plain Dealer Archive

Cornelius Van H. Engert Papers, Georgetown Univ.

Cornell Univ. Library, Making of America Collection (MOA)

Franklin Delano Roosevelt Papers, Library of Congress

Harry S. Truman Presidential Museum and Library (online)

Henry Morgenthau Papers, Library of Congress

James M. Landis Papers, Library of Congress

Joel Barlow Papers, New York Public Library

John Fitzgerald Kennedy Presidential Library, Boston

John Jay Papers, Columbia Univ., New York

Karl S. Twitchell Papers, Princeton Univ.

Mariners' Museum Library, Washington, D.C.

New Hampshire Historical Society, Tuck Library

Oscar Straus Papers, Library of Congress

Papers of the American Board of Commissions for Foreign Missions (PABCFM), Bilkent Univ., Turkey

Public Record Office (PRO—British Foreign Office Documents), copies located at the Israel National Archives, Jerusalem

Thomas Jefferson Papers, American Memory Project, Library of Congress

Thomas Jefferson Papers, Princeton Univ.

United States National Archives (USNA)

William Blackstone Papers, Wheaton Univ.

William Eaton Papers (WEP), Huntington Library, San Marino, Calif.

William H. Seward Papers, Univ. of Rochester

William L. Westermann Paris Peace Conference Diaries, Columbia Univ.

William Tecumseh Sherman Papers, Notre Dame Univ.

William Yale Oral History, Columbia Univ.

الوثائق المنشورة

The *Adams-Jefferson Letters: The Complete Correspondence between Thomas Jefferson and Abigail and John Adams*. Edited by Lester J. Cappon. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1959.

Annals of the Congress of the United States: Third Congress. Washington, D.C.: Gales and Seaton, 1849.

Circular Letters of Congressmen to Their Constituents, 1789-1829. Edited by Noble Cunningham. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1978.

The Conferences at Washington, 1941-1942, and Casablanca, 1943. Washington, D.C.: GPO, 1968.

The Debate on the Constitution. Edited by Bernard Bailyn. Washington, D.C.: Library of America, 1993.

Defending the West: The Truman–Churchill Correspondence, 1945–1960. Edited by G. W Sand. Westport, Coon.: Praeger, 2004.

Diary and Autobiography of John Adams. vol. 3, *Diary 1782–1804*. Cambridge: Harvard Univ. Press, Belknap Press, 1961.

The Documentary History of the Ratification of the Constitution. Edited by John Kaminksi and Gaspare Saladino. Madison: State Historical Society of Wisconsin, 2001.

Documents on British Foreign Policy, 1919–1939. Edited by Rohan Butler and J. P. T. Bury. London: Her Majesty's Stationery Office, 1963.

The Emerging Nation: A Documentary History of the Foreign Relations of the United States under the Articles of Confederation, 1780–1789.–Edited by Mary Giunta. Washington, D.C.: National Historical Publications and Records Commission, 1996.

The Family Letters of Thomas Jefferson. Edited by Edwin Bettis and James Bear Jr. Columbia: Univ. of Missouri Press, 1966.

Foreign Relations of the United States (FRUS). vols. from 1861 to 1948. Washington, D.C.: GPO.

The Intimate Papers of Colonel House. Edited by Charles Seymour. 4 vols. Boston: Houghton Mifflin, 1926—28.

Lafayette in the Age of the American Revolution. Edited by Stanley Idzerda and Robert Crout. Ithaca; Cornell Univ. Press, 1983.

Letters of Delegates to Congress, 1774–1789. Edited by Paul Smith. Washington, D.C.: Library of Congress, 1995.

The Letters of Louis D. Brandeis. Edited by Melvin I. Urofsky and David M. Levy. Albany: State Univ. of New York, 1973.

The Letters of Richard Henry Lee. Edited by James Ballagh. New York: Macmillan, 1914.

The Letters of Theodore Roosevelt. Edited by Elting Morison. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1954.

The Life and Correspondence of Rufus King. Edited by Charles King. New York: Putnam, 1894.

Life and Letters of George Perkins Marsh. New York: Scribner, 1888.

Messages and Papers of the Presidents, 1789–1897. Edited by James D. Richardson. New York: Bureau of National Literature, 1917.

The Missionary Herald: Reports from Ottoman Syria, 1819–1870. Edited by Kamal Salibi and Yusuf Khoury. Amman: Royal Institute for Inter-faith Studies, 1995.

Naval Documents Related to the United States Wars with the Barbary Powers. 6 vols. Edited by Dudley Knox. Washington, D.C.: GPO, 1939–44.

New England Merchants in Africa: A History through Documents, 1802–1865. Edited by Norman Bennett and George Brooks. Boston: Boston Univ. Press, 1965.

Ninth Annual Report of the Smithsonian Institution. Washington, D.C.: Beverley Tucker, 1855.

Official Records of the Union and Confederate Navies in the War of the Rebellion. Washington, D.C.: GPO, 1894.

The Papers of Alexander Hamilton. Edited by Harold C. Syrett. 27 vols. New York: Columbia Univ. Press, 1961–87.

The Papers of Daniel Webster. Ser. 3, *Diplomatic Papers*. Vol. 1. Hanover: Univ. Press of New England, 1983.

The Papers of Dwight David Eisenhower. Edited by Alfred Chandler. Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1970.

The Papers of George Mason, 1725–1792. Edited by Robert Rutland. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1970.

The Papers of George Washington. Edited by W. W. Abbit. Charlottesville: Univ. Press of Virginia, 1995.

The Papers of James Madison: Secretary of State Series 1801. Charlottesville: Univ. Press of Virginia, 1986.

The Papers of Jefferson Davis. Vol. 6, 1856–1860. Edited by Lynda Crist and Mary Dix. Baton Rouge: Louisiana State Univ. Press, 1989.

The Papers of Josiah Bartlett. Edited by Frank Mevers. Hanover: Univ. Press of New England, 1979.

The Papers of Julia Dent Grant. Edited by John Simon. New York: Putnam, 1975.

The Papers of Woodrow Wilson. Edited by Arthur Link, 69 vols. Princeton; Princeton Univ. Press, 1966–94.

The Republic of Letters: The Correspondence between Thomas Jefferson and James Madison, 1776–1826. Edited by James Morton Smith, New York: Norton,

The Revolutionary War Diplomatic Correspondences of the United States. Edited by Francis Wharton. Washington, D.C.; GPO, 1889.

Selections from the Correspondence of Theodore Roosevelt and Henry Cabot Lodge, 1884–1918. New York: Scribner's, 1925.

Treaties and Other International Acts of the United States of America. Edited by Hunter Miller. Vol. 3. Washington, D.C.: GPO, 1933.

The White House Papers of Harry Hopkins. Edited by Robert Sherwood. London: Eyre and Spottiswoode, 1949.

The Writings of Albert Gallatin. Edited by Henry Adams. Vol. 1. New York: Antiquarian Press, 1960.

The Writings of Benjamin Franklin, 1789–1790. Edited by Albert Henry Smyth. New York: Macmillan, 1904. Reprint, New York: Haskell House, 1970.

The Writings of George Washington from the Original Manuscript Sources, 1745–1799. Edited by John C. Fitzpatrick. 39 vols. Washington, D.C.: GPO, 193144.

The Writings of Thomas Jefferson. Edited by Andrew A. Iipscornb. Washington, D.C.: Thomas Jefferson Memorial Association, 1905.

The Writings of Thomas Jefferson. Edited by Paul Ford. New York: Putnam, 1970.

الصحف والدوريات

Century Illustrated Monthly Magazine
Harpers New Monthly Magazine
Ladies' Magazine
Littell's Living Age
London Daily Mail
Los Angeles Times
New Englander and Yale Review
New York Daily Tribune
New York Times
Niles' Weekly Register
Princeton Review
Scribner's Monthly
Stars and Stripes (Cairo edition)
United States Democratic Review
Whig Review

الكتب

Aaronsohn, Alexander. *With the Turks in Palestine*. Boston: Houghton Mifflin, 1916.

Abraham, Sameer, ed. *Arabs in the New World: Studies in Arab-American Commitnities*. Detroit: Wayne State Univ., 1983.

Abu-Ghazaleh, Adnan. *American Missions in Syria: A Study of American Missionary Contributions to Arab Nationalism in 19th Century Syria*. Brattleboro, Vt.: Amana Books, 1990.

Acheson, Dean. *Present at the Creation: My Years in the State Department*. Toronto: George-McLeod, 1969.

Adler, Bill, ed. *The Wit and Wisdom of Jimmy Carter*. Secaucus, N.J.: Citadel, 1977.

Adler, Cyrus. *Jacob H. Schiff: His Life and Letters*. London: William Heinemann, 1929.

______. *Jews in the Diplomatic Correspondence of the United States*. Baltimore: Friedenwald, 1906.

Ahmad, Feroz. *The Making of Modern Turkey*. New York: Routledge, 1993.

Ahmed, Sayed. *Nasser and American Foreign Policy, 1752–1756*. London: LAAM, 1987.

Akçam, Taner. *A Shameful Act: The Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility*. New York: Metropolitan Books, 2006.

Albright, Madeleine, with Bill Woodward. *Madam Secretary*. New York: Miramax, 2003.

Allen, Felicity. *Jefferson Davis: Unconquerable Heart*. Columbia: Univ. of Missouri Press, 1999.

Allen, Gardner W. *Our Navy and the Barbary Corsairs*. Boston: Houghton Mifflin, 1905.

Allibone, Samuel Austin. *A Critical Dictionary of English Literature, and British and American Authors*. Philadelphia: Lippincott, 1871.

Allison, Mary B. *Doctor Mary in Arabia: Memoirs*. Edited by Sandra Shaw. Austin: Univ. of Texas Press, 1994.

Allison, Robert J. *The Crescent Obscured: The United States and the Muslim World, 1776–1815*. New York: Oxford Univ. Press, 1995.

Amanat, Abbas, and Magnus T. Bernhardsson, eds. *The United States and the Middle East: Cultural Encounters*. New Haven: Yale Center for International and Area Studies, 2002.

Ambrosius, Lloyd E. *Woodrow Wilson and the American Diplomatic Tradition*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1987.

The American Annual Register, 1827–1829. New York: Blunt, 1830.

American Geographical and Statistical Society. *Report and Memorial on Syrian Exploration*. New York: New York Univ., 1857.

The American in Algiers; or, The Patriot of Seventy-six in Captivity. New York: J. Buel, 1797.

Ammon, Harry. *James Monroe: The Quest for National Identity*. New York: McGraw-Hill, 1971.

Anderson, Irvine. *Aramco, the United States, and Saudi Arabia: A Study of the Dynamics of Foreign Oil Policy, 1933–1950*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1981.

Anderson, R. C. *Naval Wars in the Levant, 1559–1853*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1952.

Anderson, Terry A. *A Den of Lions: Memoirs of Seven Years*. New York: Crown, 1993.

Ani, Moukhtar. *Saudi Arabia: Its People, Its Society, Its Culture*. New Haven: HRAF Press, 1959.

Antonius, George. *The Arab Awakening*. London: Hamish Hamilton, 1938.

The Arabian Nights Entertainment: Consisting of One Thousand and One Stories, the First American Edition, Freely Transcribed from the Original Translation by Galland. Baltimore: H. & P. Rice and J. Rice, 1794.

Arberry, Arthur J. *The Koran Interpreted*. New York: Macmillan, 1955.

Ariel, Yaakov. *On Behalf of Israel: American Fundamentalist Attitudes toward Jews, Judaism, and Zionism, 1865–1945*. Brooklyn: Carlson, 1991.

Armerding, Paul L. *Doctors for the Kingdom: The Work of the American Mission Hospitals in the Kingdom of Saudi Arabia, 1913–1955*. Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 2003.

Armstrong, H. C. *Grey Steel: J. C. Smuts: A Study in Arrogance*. London: Arthur Barker, 1937.

Atkinson, Rick. *An Army at Dawn: The War in North Africa, 1942–1943*. New York: Henry Holt, 2002.

Auchincloss, Louis. *Woodrow Wilson*. New York: Penguin, 2000.

Augur, Helen. *Passage to Glory: John Ledyard's America*. Garden City, N.Y.: Doubleday 1946.

BaepLer, Paul, ed. *White Slaves, African Masters: An Anthology of American Barbary Captivity Narratives*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1999.

Baer, Gabriel, and Amnon Cohen, eds. *Egypt and Palestine: A Millennium of Association (868–1948)*. New York: St. Martin's. 1984.

Bailey, Thomas A. *A Diplomatic History of the American People*. Englewood Cliffs, N.f: Prentice–Hall, 1980.

______. *Woodrow Wilson and the Great Betrayal*. New York: Macmillan, 1947.

Baker, George E., ed. *The Life of William H. Seward, with Selections from His Works*. New York: J. S. Redfield, 1855.

Baker, James A., III, with Thomas M. DeFrank. *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989–1992*. New York: Putnam, 1995.

Baker, John Martin. *A View of the Commerce of the Mediterranean*. Washington, D.C.: Davis and Force, 1819.

Baker, Ray Stannard. *Woodrow Wilson: Life and Letters, 1856–1890*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1927.

______. *Woodrow Wilson and World Settlement*. Garden City, N.Y.: Doubleday, Page, 1923.

Balakian, Peter. *The Burning Tigris: The Armenian Genocide and America's Response*. New York: HarperCollins, 2003.

Ballaster, Ros. *Fabulous Orients: Fictions of the East in England, 1662–1785*. Oxford: Oxford Univ. Press, 2005.

Bancroft, Frederic. *The Life of William H. Seward*. New York: Harper, 1899.

Baram, Phillip J. *The Department of State in the Middle East, 1919–1945*. Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 1978.

Barbour, Philip L. *The Three Worlds of Captain John Smith*. Boston: Houghton Miffun, 1964.

Barclay, James Turner. *The City of the Great King; or, Jerusalem as It Was, as It Is, and as It Is to Be*. Philadelphia: James Challen, 1857.

Barnby, H. G. *The Prisoners of Algiers: An Account of the Forgotten American– Algerian War, 1785–1797*. New York: Oxford Univ. Press, 1966.

Barrell, George. *Letters from Asia: Written by a Gentleman of Boston, to His Friend in That Place*. New York: A. T. Goodrich, 1819.

Barrows, John D. *In the Land of Ararat*. New York: Revell, 1916.

Bartlett, Irving H. *Daniel Webster*. New York: Norton, 1978.

Bartlett, William H. *The Nile Boat; or, Glimpses of the Land of Egypt*. London: Arthur Hall, Virtue, 1850.

Barton, James. *Story of Near East Relief (1915–1930)*. New York: Macmillan, 1930.

______, ed. *"Turkish Atrocities": Statements of American Missionaries on the Destruction of Christian Communities in Ottoman Turkey, 1915–1917*. Ann Arbor: Gomidas Institute, 1998.

Bar-Zohar, Michael. *Ben-Gurion: A Biography*. Translated by Peretz Kidron. New York: Adama Books, 1977.

Bass, Warren. *Support Any Friend: Kennedy's Middle East and the Making of the U.S.–Israel Alliance*. Oxford: Oxford Univ. Press, 2003.

Beale, Howard K. *Theodore Roosevelt and the Rise of America to World Power*. Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1986.

Beaumont, Daniel. *Slave of Desire: Sex, Love, and Death in The 1,001 Nights*. Madison, N.J.: Fairleigh Dickinson Univ. Press, 2002.

Bellows, Henry W. *The Old World in Its New Face*. New York: Harper, 1869.

______. *Restatement of Christian Doctrines in 25 Sermons*. Boston:

American Unitarian Association, 1869.

Belohlavek, John M. *Let the Eagle Soar!: The Foreign Policy of Andrew Jackson*. Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1985.

Bemis, Samuel Flagg. *John Quincy Adams and the foundations of American Foreign Policy*. New York: Knopf, 1956.

Ben-Arieh, Yehoshua. *Painting the Holy Land in the 19th Century*. Jerusalem: Yad Izhak Ben-Zvi, 1997.

Bendt, Stephen Vincent. *The Devil and Daniel Webster and Other Writings*. New York: Penguin, 2000.

Benson, Michael T. *Harry S. Truman and the Founding of Israel*. Westport, Conn.: Praeger, 1997.

Bernard, Stephane. *The Franco-Moroccan Conflict, 1943-1953*. New Haven: Yale Univ. Press, 1968.

Bernstein, Richard, et al. *Out of the Blue: The Story of September 11, 2001, from Jihad to Ground Zero*. New York: Times Books, 2002.

Beston, Henry. *The Book of Gallant Vagabonds*. New York: George H. Doran, 1925.

Bill, James. *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American-Iranian Relations*. New Haven: Yale Univ. Press, 1988.

Bills, Scott L. *The Libyan Arena: The United States, Britain, and the Council of Foreign Ministers, 1945-1948*. Kent, Ohio: Kent State Univ. Press, 1995.

Bird, Isaac. *Bible Work in Bible Lands*. Philadelphia: Presbyterian Board of Publication, 1872.

Bishop, Jim. *FDR's Last Year*. New York: Morrow: 1974.

Black, Conrad. *Franklin Delano Roosevelt: Champion of Freedom*. London: Weidenfeld & Nicolson, 2003,

Blackstone, William E. *Jesus Is Coming*. Chicago: Revell, 1908.

Bliss, Daniel. *Letters from a New Campus: Written to His Wife Abby and Their Four Children during Their Visit to Amherst, Massachusetts, 1873-1874*. Beirut: American Univ. of Beirut, 1994.

______. *The Reminiscences of Daniel Bliss*. New York: Revell, 1920.

Bloom, Sol. *The Autobiography of Sol Bloom*. New York: Putnam, 1948.

Blyden, Edward Wilmot. *Christianity, Islam and the Negro Race*. Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 1967

Bolotin, Norman, and Christine Laing. *The World's Columbian Exposition*. Urbana: Univ. of Illinois Press, 2002.

Bond, Alvan. *Memoir of the Rev. Pliny Fisk*. New York: Arno Press, 1977.

Bookin-Weiner, Jerome, and Mohamed El Mansour, eds. *The Atlantic Connection: 200 Years of Moroccan-American Relations*. Rabat: Edino Press, 1990.

Boorstin, Daniel. *The Americans: The National Experience*. New York: Random House, 1965.

Boot, Max. *The Savage Wars of Peace: Small Wars and the Rise of American Power*. New York: Basic Books, 2002.

Boudinot, Elias. *A Star in the West; or, A Humble Attempt to Discover the Long Lost Ten Tribes of Israel, Preparatory to Their Return to Their Beloved City, Jerusalem*. Trenton, N.J: Fenton, Hutchinson, and Dunham, 1816.

Bowden, Mark, *Guest of the Ayatollah: The First Battle in America's War with Militant Islam*. New York: Atlantic Monthly, 2006.

Bowen, Norman. *Lowell Thomas: The Stranger Everyone Knows*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1968.

Brackenridge, Hugh Henry, and Philip Freneau. *Father Bimbo's Pilgrimage to Mecca in Arabia, 1770*. Edited by Michael Davitt Bell. Princeton: Princeton Univ. Library, 1975.

Brandeis, Louis D. *The Jewish Problem: How to Solve It*. New York: Zionist Organization of America, 1919.

Brands, H. W. *Inside the Cold War: Loy Henderson and the Rise of the American Empire, 1918–1961*. New York: Oxford Univ. Press, 1991.

Brant, Irving. *James Madison*. Vol. 6. New York: Bobbs–Merrill, 1961.

Brecher, Frank W. *Reluctant Ally: United States Foreign Policy toward the Jews from Wilson to Roosevelt*. New York: Greenwood, 1991.

Brekus, Catherine A. *Strangers and Pilgrims: Female Preaching in America, 1740–1845*. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1998.

Bremer, L. Paul, with Malcolm McConnell. *My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope*. New York: Simon & Schuster, 2006.

Brewer, Josiah. *A Residence at Constantinople in the Year 1827, with Notes to the Present Time*. New Haven: Durrie and Peck, 1830.

Brinkley, Douglas. *The Unfinished Presidency: Jimmy Carter's Journey beyond the White House*. New York: Viking, 1998.

Brinton, Jasper Yeates. *The American Effort in Egypt: A Chapter in Diplomatic History in the Nineteenth Century*. Alexandria, Va.: Private printing, 1972.

Bronson, Rachel. *Thicker than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia*. Oxford: Oxford Univ. Press, 2006.

Brown, Anthony C. *Oil, God, and Gold: The Story of Aramco and the Saudi Kings*. Boston: Houghton Mifflin, 1999.

Brown, Cecil. *Suez to Singapore*. New York: Random House, 1942.

Brown, John. T., ed. *Churches of Christ*. Louisville: John P. Morton, 1904.

Brown, Michael. *The Israeli-American Connection: Its Roots in the Yishuv, 1914-1945*. Detroit: Wayne State Univ. Press, 1996.

Brown, Seyom. *The Faces of Power: Constancy and Change in United States Foreign Policy from Truman to Reagan*. New York: Columbia Univ. Press, 1983.

Browne, J. Ross. *Yusef, or, The Journey of the Frangi: A Crusade in the West*. New York: Harper, 1853.

Browne, Walter L. *The Political History of Lebanon, 1920-1950*. Vol. 2. Salisbury, NC.: Documentary Publications, 1977.

Bruce, Michae. *The Nun of Lebanon*. London: Collins, 1951.

Bryson, Thomas A. *An American Consular Officer in the Middle East in the Jacksonian Era: A Biography of William Brown Hodgson, 1801-1871*. Atlanta: Resurgens Publications, 1979.

______. *American Diplomatic Relations with the Middle East, 1784-1975*. Metuchen, N.J.: Scarecrow Press, 1977.

______. *Seeds of the Mideast Crisis: The United States Diplomatic Role in the Middle East during World War II.* Jefferson, NC.: McFarland, 1981.

______. *Tars, Turks, and Tankers: The Role of the United States Navy in the Middle East, 1800-1979*. London: Scarecrow, 1980.

______. *United States/Middle East Diplomatic Relations, 1784-1978: An Annotated Bibliography*. Metuchen, N.J.: Scarecrow, 1979.

Brzezinski, Zbigniew. *Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser, 1977-1981*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1983.

Buckingham, Clyde E. *Clara Barton: A Broad Humanity*. Alexandria, Va.: Mount Vernon Publishing, 1977.

Buhite, Russell. *Patrick J. Hurley and American Foreign Policy*. Ithaca: Cornell Univ. Press, 1973.

Burg, David. *Chicago's White City of 1893*. Lexington: Univ. Press of Kentucky, 1976.

Burnham, Daniel, ed. *Final Official Report of the Director of Works of the World's Columbian Exposition*. New York: Garland Publishing, 1989.

Burns, Edward McNall. *The American Idea of Mission: Concepts of National purpose and Destiny*. New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1957.

Burns, James MacGregor. *Roosevelt: The Soldier of Freedom*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1970.

Burns, James MacGregor and Susan Dunn. *The Three Roosevelts: Patrician Leaders Who Transformed America*. New York: Grove Press, 2001.

Burns, William J. *Economic Aid and American Policy toward Egypt, 1955–1981*. Albany: State Univ. Press of New York, 1985.

Burton, David H. *Clara Barton: In the Service of Humanity*. Westport, Conn.: Greenwood, 1995.

______. *Theodore Roosevelt: Confident Imperialist*. Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 1968.

Bush, George. *The Valley of Vision*. New York: Saxton and Miles, 1844.

Bush, George, and Brent Snowcroft. *A World Transformed*. New York: Knopf, 1998.

Calverley, Eleanor. *My Arabian Days and Nights*. New York: Crowell, 1958.

Caplan, Neil. *Futile Diplomacy*. Vol. 1. London: Frank Cass, 1983.

Carlton, Donna. *Looking for Little Egypt*. Bloomington, Ind.: IDD Books, 1994.

Carpenter, Teresa. *The Miss Stone Affair: America's First Modern Hostage Crisis*. New York: Simon & Schuster, 2003.

Carter, Jimmy. *The Blood of Abraham: Insights into the Middle East*. New ed. Fayetteville: Univ. of Arkansas Press, 1993.

______. *Keeping Faith: Memoirs of a President*. New York: Bantam, 1982.

______. *Living Faith*. New York: Three Rivers Press, 2001.

Casillas, Rex J. *Oil and Diplomacy: The Evolution of American Foreign Policy in Saudi Arabia, 1933–1945*. New York: Garland, 1987.

Cathcart, James Leander. *Tripoli*. LaPorte, Ind.: Herald Print, 1901.

Celleni, Joseph, ed. *Christian Protagonists for Jewish Restoration*. New York: Arno Press, 1977.

Chaillé-Long, Charles. *My Life in Four Continents*. Vol. 1. London: Hutchinson, 1912.

______. *The Three Prophets: Chinese Gordon, Mohammed-Ahmed (El Maahdi), Arabi Pasha*. New York: Appleton, 1884.

Charny, Israel, ed. *Encyclopedia of Genocide*. Santa Barbara: ABC-CLIO, 1999.

Chernow, Ron. *Alexander Hamilton*. New York: Penguin Press, 2004.

Cherry, Conrad, ed. *Gods New Israel: Religious Interpretations of American Destiny*. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1998.

Chidsey, Donald Barr. *The Wars in Barbary: Arab Piracy and the Birth of the United States Navy*. New York: Crown, 1971.

Chireau, Yvonne, and Nathaniel Deutsch. *Black Zion: African American Religious Encounters with Judaism*. New York: Oxford Univ. Press, 2000.

Christy, David. *King Cotton*. Cincinnati: Moore, Wilstach, Keys, 1855.

Citino, Nathan J. *From Arab Nationalism to OPEC: Eisenhower, King Sa'ud, and the Making of U.S.-Saudi Relations*. Bloomington: Indiana Univ. Press, 2002.

Clark, Mark W. *Calculated Risk*. New York: Harper, 1950.

Cline, Myrtle. *American Attitude toward the Greek War of Independence, 1821-1828*. Atlanta: Higgins-McArthrn 1930.

Clinton, Bill. *My Life: The Early Years*. Westminster, Md.: Knopf, 2005.

______. *My Life: The Presidential Years*. Westminster, Md.: Knopf, 2005.

Clissold, Stephen. *The Barbary Slaves*. London: Paul Elek, 1977.

Cohen, Avner. *Israel and the Bomb*. New York: Columbia Univ. Press, 1998.

Cohen, Michael J. *Palestine and the Great Powers, 1945–1948*. Princeron: Princeton Univ. Press, 1982.

______, ed. *The Anglo-American Committee on Palestine, 1945–1946*. Vol. 35 of *The Rise of Israel: A Documentary Record from the Nineteenth Century to 1948*. Part 1. New York: Garland, 1987.

Cohen, Naomi Wiener. *A Dual Heritage: The Public Career of Oscar S. Straus*. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1969.

______. *The Year after the Riots: American Responses to the Palestine Crisis of 1929–30*. Detroit: Wayne State Univ., 1988.

Cohen, Roger, and Claudio Gatti. *In the Eye of the Storm: The Life of General H. Norman Schwarzkopf*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1991.

Cole, Donald B. *The Presidency of Andrew Jackson*. Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1993.

Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001*. New York: Penguin, 2005.

Collins, Larry, and Dominique Lapierre. *O Jerusalem*. New York: Simon & Schuster, 1972.

Colton, Walter. *Visit to Constantinople and Athens*. New York: Leavitt, Lord, 1836.

Connelly, Matthew. *A Diplomatic Revolution: Algeria's Fight for Independence and the Origins of the Post—Cold War Era*. New York: Oxford Univ. Press, 2002.

Conrad, Lawrence I., ed. *The Formation and Perception of the Modern Arab World*. Princeton, N.J.: Darwin Press, 1990.

Cooley, James Ewing. *The American in Egypt, with Rambles through Arabia Petra and the Holy Land during the Years 1839–1840*. New York: Appleton, 1842.

Coon, Carleton. *A North Africa Story: The Anthropologist as OSS Agent*. Ipswich, Mass.: Gambit Press, 1980.

______, ed. *Daniel Bliss and the Founding of the American Univ. of Beirut*. Washington, D.C: Middle East Institute, 1989.

Cooper, John Milton. *The Warrior and the Priest: Woodrow Wilson and Theodore Roosevelt*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1983.

Copeland, Miles. *The Game of Nations: The Amorality of Power Politics*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1969.

Cowdery, Jonathan. *American Captives in Tripoli*. Boston: Belcher & Armstrong, 1806.

Crabitès, Pierre. *Americans in the Egyptian Army*. London: Routledge, 1938.

Crafford, F. S. *Jan Smuts: A Biography*. Garden City, N.Y.: Doubleday, Doran, 1943.

Crawford, Kenneth C. *Report on North Africa*. New York: Farrar and Rinehart, 1943.

Cresson, Warder. *Jerusalem: The Center and Joy of the Universe*. Philadelphia: Self- published, 1844.

______. *The Key of David*. Philadelphia: Self-published, 1852.

______. *King Solomon's Two Women and the Living and Dead Child or Messiah*. Philadelphia: Self-published, 1852.

Cronon, David E., ed. *The Cabinet Diaries of Josephus Daniels, 1913-1921*. Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1963.

Curti, Merle. *American Philanthropy Abroad: A History*. New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1963.

Curtis, Jane, Will Curtis, and Frank Lieberman. *The World of George Perkins Marsh*. Woodstock: Countryman Press, 1982.

Dallek, Robert. *Franklin D. Roosevelt and American Foreign Policy, 1932-1945*. New York: Oxford Univ. Press, 1979.

______. *An Unfinished Life: John F. Kennedy, 1917–1963*. Boston: Little, Brown, 2003.

D'Alton, Martina. *The New York Obelisk*. New York: Metropolitan Museum of Art, 1993.

Davis, John. *The Landscape of Belief Encountering the Holy Land in Nineteenth-Century American Art and Culture*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1996.

Davis, Leslie A. *The Slaughterhouse Province: An American Diplomat's Report on the Armenian Genocide, 1915–1917*. New Rochelle, N.Y.: Aristide D. Caratzas, 1989.

Davis, Moshe, ed. *With Eyes toward Zion*. Vol. 2, *Themes and Sources in the Archives of the United States, Great Britain, Turkey and Israel*. New York: Praeger, 1986. Vol. 3 (with Yehoshua Ben-Arieh), *Western Societies and the Holy Land* (1991). Vol. 4, *America and the Holy Land* (1995). Vol. 5 (with Yehoshua Ben-Arieh), *Jerusalem in the Mind of the Western World, 1800–1948* (1997).

Davis, Robert. *Christian Slaves, Muslim Masters*. New York: Palgrave Macmillan, 2003.

Dawisha, Adeed. *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair*. Princeton: Princeton Univ. Press, 2003.

Dawn, Ernest C. *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism*. Urbana: Univ. of Illinois Press, 1973.

Dawson, Nelson, ed. *Brandeis and America*. Lexington: Univ. Press of Kentucky, 1989.

Dayan, Moshe, *Breakthrough: A Personal Account of the Egypt-Israel Peace Negotiations*. New York: Knopf, 1981.

Dearborn, Henry A. S. *The Life of William Bainbridge, Esq., of the United States Navy*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1931.

Dearden, Seton. *A Nest of Corsairs*. London: Butler and Tanner, 1976.

DeConde, Alexander. *A History of American Foreign Policy*. New York: Scribner, 1971.

De Kay, James Tertius. *A Rage for Glory: The Life of Commodore Stephen Decatur*. New York: Free Press, 2004.

De Leon, Edwin, *Thirty Years of My Life on Three Continents*. London: Ward and Downey, 1890.

DeNovo, John A. *American Interests and Policies in the Middle East, 1900–1939*. Minneapolis: Univ. of Minnesota Press, 1963.

D'Este, Carlo. *Eisenhower: A Soldier's Life*. New York: Henry Holt, 2002.

Diebels, Mary Chrysostom. *Peter Markoe (1752–1792): A Philadelphia Writer*. Washington, D.C.: Catholic Univ. of America Press, 1944.

Dillman, Richard, ed. *The Major Essays of Henry David Thoreau*. Albany: Whitsron, 2001.

Dobkin, Marjorie Housepian. *Smyrna 1922: The Destruction of a City*. Kent, Ohio: Kent State Univ. Press, 1988.

Dobson, John M. *America's Ascent: United States Becomes a Great Power, 1880–1914*. DeKalb: Northern Illinois Univ. Press, 1978.

Dockrill, Michael, ed. *The Paris Peace Conference, 1919: Peace without Victory*. New York: Palgrave, 2001.

Dodwell, Henry H. *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad 'Ali*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1931. Reprint, New York: AMS Press, 1977.

Dolmetsch, Carl. *"Our Famous Guest"—Mark Twain in Vienna*. Athens: Univ. of Georgia Press, 1992.

Donovan, Robert J. *Conflict and Crisis: The Presidency of Harry S. Truman, 1945–1948*. New York: Norton, 1977.

Dorr, David F. *A Colored Man round the World by a Quadroon*. Printed for the author, 1858.

Douglass, Frederick. *Autobiographies*. New York: Library 0f America, 1994.

Doumato, Eleanor A. *Getting God's Ear: Women, Islam, and Healing in Saudi Arabia and the Gulf*. New York: Columbia Univ. Press, 2000.

Dowty, Alan. *Middle East Crisis: U.S. Decision-making in 1958, 1970 and 1973*. Berkeley: Univ. of California Press, 1984.

Duncan, Dayton, and Geoffrey C. Ward. *Mark Twain: An Illustrated Biography*. New York: Knopf, 2001.

Dupuy, E. *Américains et Barbaresques*. Paris: R. Roger et F. Chernoviz, 1910.

Dye, William. *Moslem Egypt and Christian Abyssinia*. New York: Negro Universities Press, 1969.

Dyer, Brainerd. *The Public Career of William M. Evarts*. Berkeley: Univ. of California Press, 1933.

Eaton, William. *Interesting Detail of the Operations of the American Fleet in the Mediterranean, Communicated in a Letter from W.E. Esq. to His Friend in the County of Hampshire*. Springfield, Mass.: Bliss & Brewer, 1804.

Eban, Abba. *Personal Witness: Israel through My Eyes*. New York: Putnam, 1992.

Eddy, William A. *F.D.R. Meets Ibn Saud*. New York: American Friends of the Middle East, 1954.

Einstein, Lewis. *Inside Constantinople*. London: John Murray, 1917.

Elliot, Charles. *Remarkable Characters and Places in the Holy Land*. Hartford: J. B. Burr, 1867.

Ellis, Joseph J. *American Sphinx. The Character of Thomas Jefferson*. New York: Vintage, 1998.

______. *Founding Brothers: The Revolutionary Generation*. New York: Vintage, 2002.

Ellison, James. *The American Captive; or, The Siege of Tripoli: A Drama in Five Acts*. Boston: Joshua Belcher, 1812.

Elon, Amos. *Herzl*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1975.

Elsbree, Oliver Wendell. *The Rise of the Missionary Spirit in America, 1790–1815*. Williamsport, Pa.: Williamsport Printing and Binding Co., 1928.

Elton, Godfrey. *Gordon of Khartoum*. New York: Knopf, 1955.

Emerson, Everett. *Puritanism in America, 1620–1750*. Boston: Twayne, 1977.

English, George Bethune. *The Grounds of Christianity Examined by Comparing the New Testament with the Old*. Boston: A.M., 1813.

______. *A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennaar under the Command of His Excellence Ismael Pasha Undertaken by Order of His Highness Mehemmed Ali Pasha, Viceroy of Egypt*. Boston: Wells and Lilly, 1823.

Esthus, Raymond A. *Theodore Roosevelt and the International Rivalries*. Claremont: Regina Books, 1970.

Evans, Laurence. *United States Policy and the Partition of Turkey, 1914–1924*. Baltimore: Johns Hopkins Press, 1965.

Eveland, Wilbur Crane. *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East*. New York: Norton, 1980.

Eytan, Walter. *The First Ten Years: A Diplomatic History of Israel*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1958.

Eytinge, Rose. *The Memoirs of Rose Eytinge*. New York: Frederick A. Stoker, 1905.

Fairbank, John, ed. *The Missionary Enterprise in China and America*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1974.

Farman, Elbert. *Along the Nile with General Grant*. New York: Grafton Press, 1904.

______. *Egypt and Its Betrayal*. New York; Grafton Press, 1908.

Faulk, Odie B. *The U.S. Camel Corps*. New York: Oxford Univ. Press, 1976.

Fawcett, Louise L. *Iran and the Cold War: The Azerbai jan Crisis of 1946*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1992.

Fein, Isaac M. *The Making of an American Jewish Community: The History of Baltimore Jewry from 1773 to 1920*. Philadelphia; Jewish Publication Society, 1971.

Feingold, Henry L. *The Politics of Rescue: The Roosevelt Administration and the Holocaust, 1938–1945*. New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1970.

______. *Zion in America: The Jewish Experience from Colonial Times to the Present*. New York: Twayne, 1974.

Feinstein, Martin. *American Zionism, 1884–1904*. New York; Herzl Press, 1965.

Fellman, Michael. *Citizen Sherman: A Life of William Tecumseh Sherman*. New York: Random House, 1995.

Felton, Harold W. *Uriah Phillips Levy*. New York: Dodd, Mead, 1978.

Fick, Nathaniel. *One Bullet Away: The Making of a Marine Officer*. Boston: Houghton Mifflin, 2005.

Field, Henry M. *From Egypt to Japan*. 19th ed. New York: Scribner, 1905.

Field, James A., Jr. *America and the Mediterranean World, 1776–1882*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1969.

Finkelstein, Dorothee Metiltsky. *Melville's Orienda*. New Haven: Yale Univ. Press, 1961.

Finley, John H. *A Pilgrim in Palestine*. New York; Scribner, 1919.

Finnie, David H. *Pioneers East: The Early American Experience in the Middle East*. Cambridge; Harvard Univ. Press, 1967.

Fisher, Sir Godfrey. *Barbary Legend: War, Trade and Policy in North Africa, 1415–1830*. Oxford: Oxford Univ. Press, 1957.

Fitzpatrick, Donovan, and Saul Saphire. *Navy Maverick: Uriah Phillips Levy*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1963.

Forrestal, James. *The Forrestal Diaries*. New York; Viking, 1951.

Foss, John. *A Journal of the Captivity and Sufferings of John Foss*. Newburyport, Mass.: Angier March, 1798.

Fowler, William M. *Jack Tars and Commodores: The American Navy, 1783-1815*. Boston: Houghton Mifflin, 1984.

Frankel, Jonathan. *The Damascus Affair: "Ritual Murder," Politics, and the Jews in 1840*. Cambridge; Cambridge Univ. Press, 1997.

Frankfurter, Felix. *Felix Frankfurter Reminisces: Recorded in Talks with Harlan B. Phillips*. New York; Reynal, 1960.

Freely, John. *A History of Robert College*. Istanbul: Y.K.Y., 2000.

Freeman, John. *Herman Melville*. New York: Macmillan, 1926.

Friedman, Isaiah. *The Question of Palestine: British-Jewish-Arab Relations, 1914-1918*. New Brunswick; Transaction, 1992.

Fromkin, David. *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East*. New York: Avon, 1989.

Fukuyama, Francis. *America at the Crossraods: Democracy, Power, and the Neoconservative Legacy*. New Haven: Yale Univ. Pres, 2006.

Gaddis, John Lewis. *The Cold War: A New History*. New York: Penguin, 2005.

______. *Surprise, Security, and the American Experience*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 2004.

______. *The United States and the Origins of the Cold War*. New York: Columbia Univ. Press, 1992.

Gal, Allon. *David Ben-Gurion and the American Alignment for the Jewish State*. Bloomington: Indiana Univ. Press, 1991.

Gale, Robert L. *A Herman Melville Encyclopedia*. Westport, Conn.: Greenwood, 1995.

Ganin, Zvi. *Truman, American Jewry, and Israel, 1945-1948*. New York: HoLmes & Meier, 1979.

Gazit, Mordechai. *President Kennedy's Policy toward the Arab States and Israel: Analysis and Documents*. Tel Aviv: Tel Aviv Univ., 1983.

Gelfand, Lawrence E. *The Inquiry: American Preparations for Peace, 1917–1919*. New Haven: Yale Univ. Press, 1963.

Gendzier Irene L. *Notes from the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East, 1945–1958*. Boulder: Westview Press, 1999.

Gibbons, Helen Davenport. *The Red Rugs of Tarsus: A Woman's Record of the Armenian Massacre of 1909*. New York: Century, 1917.

Gibbons, Herbert A. *The Blackest Page of Modern History*. New York: Putnam, 1916.

Gibran, Gibran Khalil. *The Prophet*. New York: Knopf, 1952.

Gidney, James B. *A Mandate for Armenia*. Kent, Ohio: Kent State Univ. Press, 1967.

Gilbert, Martin. *Israel: A History*. London: Black Swan, 1998.

Gilner, Elias. *War and Hope: A History of the Jewish Legion*. New York: Herzl Press, 1969.

Godfried, Nathan. *Bridging the Gap between Rich and Poor: American Economic Development Policy toward the Arab East, 1942–1949*. New York: Greenwood, 1987.

Goetzmann, William. *New Lands, New Men*. New York: Viking, 1986.

______. *When the Eagle Screamed: America and the Second Great Age of Discovery*. Norman: Univ. of Oklahoma Press, 2000.

Goldberg, Isaac. *Major Noah: American–Jewish Frontier*. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1936.

Goldman, Shalom. *God's Sacred Tongue: Hebrew and the American Imagination*. Chapel Hill: Univ. of North CaroLina Press, 2004.

______, ed. *Hebrew and the Bible in America: The First Two Centuries*. Hanover: Brandeis Univ. Press and Dartmouth College, 1993.

Goodell, William. *Forty Years in the Turkish Empire*. New York: Robert Carter, 1883.

Goodwin, Charles. A. *Narrative of Joshua Gee of Boston, Mass., While He Was Captive in Algeria of the Barbary Pirates, 1680-1687*. Hartford: Wadsworth Atheneum, 1943.

Gordon, Leland James. *American Relations with Turkey, 1830-1930: An Economic Interpretation*. Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 1932.

Gordon, Michael R., and Bernard E. Trainor. *Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq*. New York; Pantheon, 2006.

Goren, Arthur, ed. *Dissenter in Zion: From the Writings of Judah L. Magnes*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1982.

Gowing, Lawrence. *Paintings of the Louvre*. London: Stewart, Tabori, & Chang, 1987.

Grabill, Joseph L. *Protestant Diplomacy and the Near East: Missionary Influence on American Policy, 1810-1927*. Minneapolis: Univ. of Minnesota Press, 1969.

Grant, Ulysses S. *Personal Memoirs of U.S. Grant*. New York: C. L. Webster, 1885.

Grayson, Benson Lee. *Saudi-American Relations*. Washington, D.C.: Univ. Press of America, 1982.

Greene, Frederick Davis. *Armenian Massacres, or, The Sword of Mohammed*. Philadelphia: National Publishers Co., 1896.

Greenville, John A. S., and George B. Young. *Politics, Strate, and American Diplomacy: Studies in Foreign Policy, 1873-1917*. New Haven: Yale Univ. Press, 1966.

Grenville, Vernon. *Yankee Doodle-Doo: A Collection of Songs of the Early American Stage*. New York: Payson & Clarke, 1927.

Grose, Peter. *Israel in the Mind of America*. New York: Knopf, 1983.

Grosrichard, Alain. *The Sultan's Court: European Fantasies of the East*. Translated by Liz Heron. London: Verso, 1998.

Guelzo, Allen C. *Abraham Lincoln: Redeemer President*. Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1999.

Gurock, Jeffrey S., ed. *American Jewish History: The Colonial and Early National Periods, 1654–1840*. New York: Routledge, 1998.

Guthrie, Grace D. *Legacy to Lebanon,* Richmond, Va.: Self-published, 1984.

Habachi, Labib. *The Obelisks of Egypt*. Cairo: American Univ. in Cairo Press, 1984.

Haddawy, Husain, trans. *The Arabian Nights*. New York: Norton, 1990.

Hagan, Kenneth J. *This People's Navy: The Making of American Sea Power*. New York: Free Press, 1991.

Hahn, Peter L. *Caught in the Middle East: U.S. Polkji toward the Arab-Israeli Conflict, 1945–1961*. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 2004.

______. *The United States, Great Britain, and Egypt, 1945–1956: Strategy and Diplomacy in the Early Cold War*. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1991.

Haig, Alexander M., Jr. *Caveat: Realism, Reagan, and Foreign Policy*. New York: Macmillan, 1984,

Haig, Alexander M., Jr., with Charles McCarry. *Inner Circles: How America Changed the World: A Memoir*. New York: Warner, 1992.

Haight, Sarah Rogers. *Letters from the Old World by a Lady of New York*. New York: Harper, 1840.

Hall, Luella J. *The United States and Morocco, 1776–1956*. Metuchen, N.J.: Scarecrow Press, 1971.

Halperin, Samuel. *The Political World of American Zionism*. Detroit: Wayne State Univ. Press, 1961.

Halpern, Ben. *A Clash of Heroes: Brandeis, Weizmann, and American Zionism*. New York: Oxford Univ. Press, 1987.

Halpern, Ben, and Jehuda Reinharz. *Zionism and the Creation of a New Society*. New York: Oxford Univ. Press, 1998.

Hamby, Alonzo L. *Man of the People: A Life of Harry S. Truman*. New York: Oxford Univ. Press, 1995.

Hamilton, Alexander, John Jay, and James Madison. *The Federalist Papers*. Cutchogue, N.Y.: Buccaneer Books, 1992.

Hamlin, Cyrus. *Among the Turks*. New York: Robert Carter, 1878.

______. *My Life and Times*. Boston: Pilgrim Press, 1893.

Handy, Robert T. *The Holy Land in American Protestant Life, 1800–1948*. New York: Arno Press, 1981.

Hanson, Joseph. *The Musselmen Humbled; or, A Heroic Poem in Celebration of the Bravery Displayed by the American Tars, in the Contest with Tripoli*. New York: Southwick and Hardcastle, 1806.

Harbord, James C. *Conditions in the Near East: American Military Mission to Armenia*. Washington, D.C.: GPO, 1920.

Hargreaves, Mary W. M. *The Presidency of John Quincy Adams*. Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1985.

Harris, David. *Britain and the Bulgarian Horrors of 1876*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1939.

Harris, Thomas. *The Life and Services of Commodore William Bainbridge, United States Navy*. Philadelphia: Carey Lea and Blanchard, 1837.

Harrison, Paul W. *Doctor in Arabia*. London: Robert Hale, 1943.

Harrison, Thomas Skelton. *The Homely Diary of a Diplomat in the East, 1897–1899*. Boston: Houghton Mifflin, 1917.

Hart, Parker T. *Saudi Arabia and the United States: Birth of a Security Partnership*. Bloomington: Indiana Univ. Press, 1998.

Hart, Robert A. *The Great White Fleet*. Boston: Little, Brown, 1965.

Hattis, Susan L. *The Bi-national Idea in Palestine during Mandatory Times*. Haifa: Shikmona, 1970.

Hawes, Louisa. *Memoir of Mrs. M. E. Van Lemep, by Her Mother*. Hartford: Belknap and Hamersley, 1849.

Heckscher, August. *Woodrow Wilson*. New York: Scribner, 1991.

Hedges, William H. *The Old and New World Romanticism of Washington Irving*. New York: Greenwood, 1986.

Hellman, George S. *Washington Irving, Esquire: Ambassador at Large from the New World to the Old*. New York: Knopf, 1925.

Helmreich, Paul C. *From Paris to Sèvres: The Partition of the Ottoman Empire at the Peace Conference of 1919-1920*. Columbus: Ohio State Univ. Press, 1974.

Henry, Charles P. *Ralph Bunche: Model Negro or American Other?* New York: New York Univ. Press, 1999.

Hertzberg, Arthur, ed. *The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader*. New York: Atheneum, 1972.

Hesseltine, William B., and Hazel Wolf. *The Blue and the Gray on the Nile*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1961.

Hietala, Thomas. *Manifest Design: Anxious Aggrandizement in Late Jacksonian America*. Ithaca: Cornell Univ. Press, 1985.

Hillman, William, and Harry Truman. Mr. *President: The First Publication from the Personal Diaries, Private Letters, Papers, and Revealing Interviews of Harry S. Truman, Thirty-second President of the United States of America*. New York: Farrar, Straus and Young, 1952,

Hirsch, H. N. *The Enigma of Felix Frankfurter*. New York: Basic Books, 1981.

Hirshson, Stanley. *The White Tecumseh: A Biography of General William T. Sherman*. New York: John Wiley, 1997.

Hitti, Philip. *Lebanon in History from the Earliest Times to the Present*. London: Macmillan, 1962.

Hobsbawm, E. J. *The Age of Empire, 1875-1914*. New York: Pantheon, 1987.

Hodson, Joel. *Lawrence of Arabia and American Culture*. Westport, Conn.: Greenwood, 1995.

Holden, Edith. *Blyden of Liberia*. New York: Vantage Press, 1966.

Holland, Matthew F. *America and Egypt: From Roosevelt to Eisenhower,* Westport, Conn.: Praeger, 1996.

Holmes, Oliver Wendell. *Ralph Waldo Emerson*. Boston: Houghton Mifflin, 1885.

Holmes, Reed M. *The Forerunners*. Independence, Mo.: Herald, 1981.

Hoover, Herbert. *The Memoirs of Herbert Hoover*. New York: Macmillan, 1957.

Hopwood, Derek. *The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843-1914: Church and Politics in the Near East*. Oxford: Clarendon Press, 1969.

Horovitz, David, ed. *Yitzhak Rabin: Soldier of Peace*. London: Peter Halban, 1996.

Horton, George. *The Blight of Asia: An Account of the Systematic Extermination of Christian Populations by Mohammedans…*. 1926. Reprint, Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1953.

Hourani, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1962.

House, Edward, ed. *What Really Happened at Paris*. New York: Scribner, 1921.

Howard, Harry N. *The King-Crane Commission: An American Inquiry in the Middle East*. Beirut: Khayats, 1963.

Howe, George F. *Northwest Africa: Seizing the Initiative in the West*. Washington, D.C.: Center of Military History, 1991.

Howe, Samuel G. *An Historical Sketch of the Greek Revolution*. New York: n.p., 1828.

Hull, Cordell. *The Memoirs of Cordell Hull. 2 vols*. New York: Macmillan, 1948.

Huntington. Samuel P. *The Clash of Civilizations and the Remaking the World Order*. New York: Simon & Schuster, 1996.

Hurewitz, J. C., ed. *The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record. Vol. 1, European Expansion, 1535–1914*. 2d ed. New Haven: Yale Univ. Press, 1975.

______. *The Struggle for Palestine*. New York: Greenwood, 1968.

lriye, Akin. *From Nationalism to Internationalism: U.S. Foreign Policy to 1914*. London: Routledge and Kegan Paul, 1977.

Irving, *Washington. Alhambra*. Boston: Ginn, 1902.

______. *The Conquest of Granada*. New York: Putnam, 1850.

______. *Mahomet and His Successors*. Chicago: Belford, Clarke, 1973.

Irving, Washington, William Irving, and James Paulding. *Salmagundi.* Chicago: Belford, Clarke, 1807.

Irwin, Ray. *The Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers, 1776–1816*. New York: Russell & Russell, 1970.

Isaacson, Walter, and Evan Thomas. *The Wise Men: Six Friends and the World They Made*. New York: Touchstone, 1986.

Israel, John, and Henry Lundt. *Journal of a Cruize in the U.S. Ship Delaware 74 in the Mediterranean in the Years 1833 & 1835*. Reprint, New York: Arno Press, 1977.

James, Lawrence. *The Golden Warrior*. New York: Paragon, 1993.

James, Robert Rhodes. *Anthony Eden*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1986.

Jampoler, Andrew C. A. *Sailors in the Holy Land: The 1848 American Expedition to the Dead Sea and the Search for Sodom and Gomorrah*. Annapolis: Naval Institute Press, 2005.

Jefferson, Thomas. *Autobiography*. New York: Capricorn, 1959.

Jessup, Henry Harris. *Fifty-three Years in Syria.* Vol. 2. New York: Revell, 1910.

______. *The Setting of the Crescent and the Rising of the Cross: or, Kamil Abdul Messiah, a Syrian Convert from Islam to Christianity.* Philadelphia: Westminster Press, 1898.

Johannsen, Robert W., et al. *Manifest Destiny and Empire: American Antebellum Expansionism*. Edited by Sam Haynes and Christopher Morris. Arlington: Univ. of Texas Press, 1997.

Johnson, Sarah Barclay. *Hadji in Syria*. New York: Arno Press, 1977.

Jones, George, A. M. *Excursions to Cairo, Jerusalem, Damascus, and Balbec from the United States Ship* Delaware, *during Her Recent Cruise: With an Attempt to Discriminate between Truth and Error in Regard to the Sacred Places of the Holy City*. New York: Van Nostrand and Dwight, 1836.

Jones, Kenneth V., ed. *Adams, John Quincy, 1767–1848: Chronology, Documents, Bibliographical Aids*. New York: Oceana Publications, 1970.

Joyce, Miriam. *Kuwait, 1945–1956: An Anglo-American Perspective*. London: Frank Cass, 1998.

Kaplan, Justin. *Mr. Clemens and Mr. Twain.* New York: Simon & Schuster, 1966.

Kaplan, Robert D. *The Arabists: The Romance of an American Elite*. New York: Free Press, 1993.

Karabell, Zachary. *Parting the Desert: The Creation of the Suez Canal*. New York: Knopf, 2003.

Kark, Ruth. *American Consuls in the Holy Land, 1832–1914*. Jerusalem: Magnes Press, Hebrew Univ., 1994.

Karpin, MichaeL. *The Bomb in the Basement: How Israel Went Nuclear and What That Means for the World*. New York: Simon & Schuster, 2006.

Kaufman, Menahem. *The Magnes-Philby Negotiations, 1929: The Historical Record*. Jerusalem: Magnes Press, 1998.

Kaufman, Menahem, and Mira Levine, eds. *Guide to America—Holy Land Studies, 1620-1948*. Vol. 4, Resource Material in British, Israeli and Turkish Repositories. New York: Praeger, 1984.

Keegan, John. *Iraq War: The Military Offensive, from Victory in 21 Days to the Insurgent Aftermath*. Westminster, Md.: Knopf, 2005.

Kelly, Michael. *Martyrs' Day: Chronicle of a Small War*. New York: Vintage, 1993.

Kenen, I. L. *Israel's Defense Line: Her Friends and Foes in Washington.* Buffalo: Prometheus, 1981.

Kennedy, Charles Stuart. *The American Consul: A History of the United States Consular Service, 1776-1914*. New York: Greenwood, 1990.

Keyal, Philip, and Joseph Keyal. *The Syrian-Lebanese in America*. Boston: Twayne, 1975.

Khalaf, Samir. *Persistence and Change in 19th Century Lebanon*. Beirut: American Univ. of Beirut, 1979.

Khalidi, Rashid, ed. *The Origins of Arab Nationalism*. New York: Columbia Univ. Press, 1991.

______. *Western Footprints and Americas Perilous Path in the Middle East*. Boston: Beacon Press, 2005.

Kheirallah, George. *Arabia Reborn*. Albuquerque: Univ. of New Mexico Press, 1952.

Kinross, Lord. *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire*. New York: Morrow Quill, 1977.

Kinzer, Stephen. *All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror*. Hoboken, N.J.: Wiley, 2003.

Kirakossian, Arman, ed. *The Armenian Massacres, 1894-1896: U.S. Media Testimony*. Detroit: Wayne State Univ. Press, 2004.

Kirk, George. *The Middle East in the War.* Survey of International Affairs, 1939–1946, Royal Institute of International Affairs. London: Oxford Univ. Press, 1952.

Kirkland, Elizabeth Cabot. *Letters*. Cambridge: Massachusetts Historical Society, 1905.

Kirshner, Ralph. *The Class of 1861: Custer, Ames, and Their Classmates after West Point*. Carbondale: Southern Illinois Univ. Press, 1999.

Kissinger, Henry A. *Crisis: The Anatomy of Two Major Foreign Policy Crises*. New York: Simon & Schuster, 2003.

______. *Diplomacy*. New York: Simon & Schuster, 1994.

______. *White House Years*. Boston: Little, Brown, 1979.

Kitzen, Michael L. S. *Tripoli and the United States at War: A History of America's Relations with the Barbary States, 1785–1805*. Jefferson, N.C.: McFarland, 1962.

Kloian, Richard. *The Armenian Genocide: News Accounts from the American Press*. Berkeley: Anto Press, 1985.

Kloman, Erasmus. *Assignment Algiers: With the OSS in the Mediterranean Theater*. Annapolis: Naval Institute Press, 2005.

Knightley, Philip, and Cohn Simpson. *The Secret Lives of Lawrence of Arabia*. London: Thomas Nelson, 1969.

Knock, Thomas J. *To End All Wars: Woodrow Wilson and the Quest for a New World Order*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1992.

Korn, Bertram. *American Jewry and the Civil War*. New York: Jewish Publication Society of America, 1951.

Kramer, Martin. *Ivory Towers on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America*. Washington, D.C.: Washington Institute of Near East Policy, 2001.

Krieger Barbara. *Divine Expectations: An American Woman in 19th Century Palestine*. Athens: Ohio Univ. Press, 1999.

Krout, Marty H., ed. *Lew Wallace, An Autobiography*. New York: Harper, 1906.

Kruger, James R. *Turning On Water with a Shovel: The Career of Elwood Mead*. Albuquerque: Univ. of New Mexico Press, 1992.

Kuklick, Bruce. *Puritans in Babylon: The Ancient Near East and American Intellectual Life, 1880–1930*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1996.

Kuniholm, Bruce R. *The Origins of the Cold War in the Near East: Great Power Conflict and Diplomacy in Iran, Turkey, and Greece*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1980.

Kurter, Dan. *Ben–Gurion: Prophet of Fire*. New York: Simon & Schuster, 1983.

Kurzman, Dan. *Genesis 1948: The First Arab–Israeli War*. New York: Da Capo Press, 1970.

Lacroix–Riz, Annie. *Les Protectorats d'Afrique du Nord entre Ia France et Washington: Du débarquement `a l'indépendance, Maroc et Tunisie, 1942–1956*. Paris: L'Harmattan, 1988.

LaFeber, Walter. *The Cambridge History of American Foreign Relations*. VoL. 2, *The American Search for Opportunity, 1865–1913.* Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1993.

______. *The New Empire: An Interpretation of American Expansion, 1860–1898*. Ithaca: Cornell Univ. Press, 1998.

Lane, Edward, and Edward Stanely Poole, eds. *The Thousand and One Nights: Commonly Called, in England, the Arabian Nights' Entertainments*. London: Bell Press, 1883.

Langer, William L., and S. Everett Gleason. *The Undeclared War, 1940–1941*. Gloucester; P. Smith, 1968.

Lansing, Robert. *The Big Four and Others of the Peace Conference*. Boston: Houghton Mifflin, 1921.

Laqueur, Walter. *A History of Zionism*. New York: Simon & Schustei 1989.

Larsen, Peter. *Theodore Roosevelt and the Moroccan Crisis, 1904–1906*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1984.

Larson, Deborah Welch. *Origins of Containment: A Psychological Explanation*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1985.

Larson, Erik. *The Devil in the White City: Murder, Magic, and Madness at the Fair That Changed America*. New York: Vintage, 2003.

Lash, Joseph P. *From the Diaries of Felix Frankfurter*. New York: Norton, 1975.

Latourette, Kenneth. *Missions and the American Mind*. Indianapolis: National Foundation Press, 1949.

Laurie, Thomas. *The Ely Volume; or, The Contributions of Our Foreign Missions to Science and Human Well-Being*. Boston: American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1881.

Lavsky, Hagit. *Before Catastrophe: The Distinctive Path of German Zionism*. Detroit: Wayne State Univ. Press, 1996.

Lawlor, Laurie. *Magnificent Voyage: An American Adventurer on Captain James Cook's Final Expedition*. New York: Holiday House, 2002.

Ledyard, John. *A Journal of Captain Cook's Last Voyage to the Pacific Ocean*. Hartford: Nathaniel Patten, 1783.

Leeson, Marc. *Saving Monticello: The Levy Family's Epic Quest to Rescue the House That Jefferson Built*. New York: Free Press, 2001.

Leff, Laurel. *Buried by the Times: The Holocaust and America's Most Important Newspaper*. New York: Cambridge Univ. Press, 2005.

Leiner, Frederick C. *The End of Barbary Terror: American's 1815 War against the Pirates of North Africa*. Oxford: Oxford Univ. Press, 2006.

Lenczowksi, George. *The Middle East in World Affairs*. Ithaca: Cornell Univ. Press, 1980.

Leo, Africanus. *The History and Description of Africa, and of All the Notable Things Therein Contained*. London: Hakluyt Society, 1896.

Lesch, David. *Syria and the United States: Eisenhower's Cold War in the Middle East*. Boulder: Westview Press, 1992.

______, ed. *The Middle East and the United States*. Boulder: Westview Press, 1999.

Lewis, Bernard. *The Arabs in History*. London: Hutchinson's Univ. Library, 1950.

______. *The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror*. New York: Modern Library, 2003.

______. *The Emergence of Modern Turkey*. London: Oxford Univ. Press, 1968.

______. *What Went Wrong: The Clash between Islam and Modernity in the Middle East*. New York: Perennial, 2003.

Liebling, A. J. *The Road Back to Paris*. Garden City, N.Y.: Doubleday, Doran, 1944.

Life of Mohammad. Bombay: American Mission Press, 1851.

Lindsay, Rao H. *Nineteenth-Century American Schools in the Levant: A Study of Purposes*. Ann Arbor: Univ. of Michigan School of Education, 1965.

link, Arthur S. *Wilson: The Struggle for Neutrality*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1960.

Lippman, Thomas W. *Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia*. Boulder: Westview Press, 2004.

Little, Douglas. *American Orientalism: The United States and the Middle East since 1945*. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 2002.

Lodge, Henry Cabot. *The Senate and the League of Nations*. New York: Scribner, 1925.

Lohbeck, Don. *Patrick J. Hurley*. Chicago: H. Regnery, 1956.

Long, David. *Nothing Too Daring: A Biography of Commodore David Porter, 1780–1843*. AnnapoLis: U.S. Naval Institute, 1970.

______. *The United States and Saudi Arabia*. Boulder: Westview Press, 1985.

Longrigg, Stephen Hemsley. *Oil in the Middle East: Its Discovery and Development*. London: Oxford Univ. Press, 1954.

Loring, William. *A Confederate Soldier in Egypt*. New York: Dodd, Mead, 1884.

Lothrop, Thornton Kirkland. *William Henry Seward*. Boston: Houghton Mifflin, 1896.

Louis, William R. *The British Empire in the Middle East, 1945–1951*. New York: Oxford Univ. Press, 1984.

Imperialism at Bay, 1941–1945: The United States and the Decolonization of the British Empire. Oxford: Clarendon Press, 1977.

Love, Donald M. *Henry Churchill King of Oberlin*. New Haven: Yale Univ. Press, 1956.

Lowdermilk, Walter C. *Conquest of the Land through Seven Thousand Years*. 1948. Reprint, Washington, D.C.: U.S. Department of Agriculture, Soil Conservation Service, 1953.

______, *Palestine; Land of Promise*. New York: Harper, 1944.

Lowenthal, David. *George Perkins Marsh: Versatile Vermonter*. New York: Columbia Univ. Press, 1958.

Lowenthal, Marvin. *Henrietta Szold, Life and Letters*. New York: Viking, 1942.

Lynch, William F. *Commerce and the Holy Land (A Lecture)*. Philadelphia: King and Baird, 1860.

______. *Narrative of the United States' Expedition to the River Jordan and the Dead Sea*. Philadelphia: Blanchard and Lea, 1853.

______. *Naval Life, Observations on Shore and Afloat the Midshipman*. New York: Scribner, 1851.

Lytle, Mark Hamilton. *The Origins of the Iranian–American Alliance, 1941–1953*. New York: Scribner, 1851.

Lytle, Mark Hamilton. *The Origins of the Iranian-American Alliance, 1941-1953*. New York; Holmes & Meier, 1987.

Macintyre, Ben. *The Man Who Would Be King: The First American in Afghanistan*. New York: Farra, Straus and Giroux, 2004.

Mack, John E. *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence*. Oxford: Oxford Univ. Press, 1990.

MacMillan, Margaret. *Paris 1919: Six Months That Changed the World*. New York: Random House, 2002.

Madison, James. *Notes of Debates in the Federal Convention of 1787*. Athens: Ohio Univ. Press, 1966.

Mahan, Alfred Thayer. *The Problem of Asia*. Boston: Little, Brown, 1900.

______. *Retrospect and Prospect*. Boston: Little, Brown, and Company, 1902.

Malachy, Yona. *American Fundamentalism and Israel: The Relation of Fundamentalist Churches to Zionism and the State of Israel*. Jerusalem: Graph Press, 1978.

Malloy, William M. *Treaties, Conventions, International Acts, Protocols and Agreements between the United States of American and Other Powers, 1779-1909*. Washington, D.C.: GPO, 1910.

Malone, Dumas. *Jefferson the President: First Term, 1801-1805*. Boston: Little, Brown, 1970.

Mandel, Neville. *The Arabs and Zionism before World War I*. Berkeley: Univ. 0f California Press, 1976.

Mann, James. *The Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet*. New York: Penguin, 2004.

Mantel, S. G. *Explorer with a Dream, John Ledyard*. New York: Julian Messner, 1969.

Manuel, Frank E. *The Realities of American-Palestine Relations. 1949*. Reprint, Westport, Conn.: Greenwood, 1975.

Markoe, Peter. *The Algerine Spy in Pennsylvania; or, Letters Written by a Native of Algiers on the Affairs of the United States in America, from the Close of the Year 1783 to the Meeting of the Convention*. Philadelphia: Prichard and Hall, 1787.

Marks, Frederick W., III. *Velvet on Iron: The Diplomacy of Theodore Roosevelt*. Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1979.

______. *Wind over Sand: The Diplomacy of Franklin Roosevelt*. Athens: Univ. of Georgia Press, 1988.

Marlowe, John. *Spoiling the Egyptians*. New York: St. Martin's, 1975.

Marrs, K. Ray. *I Was There When the World Stood Still*. Bloomington: 1st Books, 2003.

Marsot, Afaf Lutfi al-Sayyid. *Egypt in the Reign of Muhammad Ali*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1984.

Martin, Maria. *History of the Captivity and Sufferings of Maria Martin*. Philadelphia: Jacob Meyer, 1811.

Martin, Marty E. *Pilgrims in Their Own Land: 500 Years of Religion in America*. Boston: Little, Brown, 1984.

Martin, Ralph G. *Golda: Golda Meir, the Romantic Years*. New York: Scribner 1988.

Mason, Alfred DeWitt, and Frederick J. Barny. *History of the Arabian Mission*. New York: Board of Foreign Missions Reformed Church in America, 1926.

Mattar, Philip. *The Mufti of Jerusalem: Al-Hajj Amin al-Husayni and the Palestinian National Movement*. New York: Columbia Univ. Press, 1988.

Matthews, Franklin. *Back to Hampton Roads*. New York: B. W. Huebsch, 1909.

May, Ernest. *Imperial Democracy: The Emergence of America as a Great Power*. Chicago: Imprint Publications, 1961.

McCarthy, Justin. *Death and Exile: The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims, 1821–1922*. Princeton, N.J.: Darwin Press, 1995.

McCloy, Drew R. *The Last of the Fathers: James Madison and the Republican Legacy*. Cambridge: Cambridge Univeristy Press, 1989.

McCullough, David. *John Adams.* New York: Simon & Schuster, 2001.

______. *Truman*. New York: Simon & Schuster, 1992.

McDaniel, Robert A. *The Shuster Mission and the Persian Constitutional Revolution*. Minneapolis: Bibliotheca Islamica,1974.

McDougall, Walter A. *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World since 1776*. New York: Mariner Books, 1997.

McFeely, William. *Grant: A Biography*. New York: Norton, 1981.

McGilvary, Margaret. *The Dawn of a New Era in Syria*. New York: Revell, 1920.

Mckee, Christopher. *Edward Preble: A Naval Biography, 1761–1807*. Annapolis: Naval Institute Press, 1972.

Meacham, Jon. *American Gospel: God, the Founding Fathers, and the Making of a Nation*. New York: Random House, 2006.

Mead, Walter Russell. *Special Providence: American Foreign Policy and How It Changed the World*. New York: Routledge, 2002.

Medoff, Rafael. Baksheesh *Diplomacy: Secret Negotiations between American Jewish Leaders and Arab Officials on the Eve of World War II*. Lanham, Md.: Lexington Books, 2001.

______. *Zionism and the Arabs: An American Jewish Dilemma, 1898–1948*. Westport, Conn.: Praeger, 1997.

Meir, Golda, *My Life*. New York: Putnam, 1975.

Melman, Yossi, and Dan Raviv. *Friends in Deed: Inside the U.S.–Israel Alliance*. New York: Hyperion, 1994.

Melton, Jeffrey Alan. *Mark Twain, Travel Books, and Tourism: The Tide of a Great Popular Movement*. Tuscaloosa: Univ. of Alabama Press, 2002.

Melville, Herman. *Clarel: A Poem and Pilgrimage to the Holy Land*. Chicago: Northwestern Univ. Press, 1991.

______. *Journals*. Edited by Howard C. Horsford and Lynn Horth. Chicago: Northwestern Univ. Press, 1989.

______. *Moby Dick*. New York: Hendrick's House, 1952.

______. *Red burn*. New York: Literary Classics of the United States Inc., 1983.

______. *White-Jacket; or, The World in a Man-of-War*. Oxford: Oxford Univ. Press, 1990.

Ménager, Bernard, et al., eds. *Guy Mollet: Un camarade en république*. Lille: Presses Universitaires de Lille, 1987.

Merk, Frederick. *Manifest Destiny* and *Mission in American History*. New York: Knopf, 1963.

Merkley, Paul Charles. *The Politics of Christian Zionism, 1891-1948*. London: Frank Cass, 1998.

Merriam, Eve. *The Voice of Liberty: The Story of Emma Lazarus*. New York: Farrar, Straus and Cudahy, 1959.

Meryon, Charles Lewis, and Hester Lucy Stanhope. *The Travels of Lady Hester Stanhope*. London: H. Colburn, 1846.

Meyer, Isadore, ed. *Early Zionism in America*. Philadelphia: American Jewish Historical Society, 1958.

Miller, Aaron. *Search for Security: Saudi Arabian Oil and American Foreign Policy, 1939-1949*. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 1980.

Miller, Ellen Clare. *Eastern Sketches*. New York: Arno Press, 1977.

Miller, H., ed. *Treaties and Other International Acts of the United States of America*. Washington, D.C.: GPO, 1933.

Miller, Merle. *Plain Speaking: An Oral Biography of Harry S*. Truman. New York: Putnam, 1974.

Miller, Nathan. *Theodore Roosevelt: A Life*. New York: Morrow Quill, 1992.

Miller, Roman J. *Around the World with the Battleships*. Chicago: A. C. Mc-Clurg, 1909.

Millspaugh, Arthur C. *Americans in Persia*. Washington, D.C.: Brookings Institution, 1946.

Minor, Clorinda. *Meshullam!; or, Tidings from Jerusalem: From the Journal of a Believer Recently Returned from the Holy Land*. Philadelphia: Self-published, 1851.

Mitchell, Timothy. *Colonising Egypt*. Berkeley: Univ. of California Press, 1988.

Monaghan, Jay. *Diplomat in Carpet Slippers: Abraham Lincoln Deals with Foreign Affairs*. Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1945.

Monroe, Elizabeth. *Britain's Moment in the Middle East, 1914–1956*. Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1963.

Montague, Edward P. *Narrative of the Late Expedition to the Dead Sea*. Philadelphia: Carey and Hart, 1849.

Morgan, James Morris. *Recollections of a Rebel Reefer*. Boston: Houghton Mifflin, 1917.

Morgenthau, Henry. *All in a Life-Time*. Garden City, N.Y.: Doubleday, Page, 1922.

______. *Ambassador Morgenthau's Story*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1918.

______. *The Murder of a Nation*. New York: Armenian General Benevolent Union of America, 1974.

Morgenthau, Henry, III. *Mostly Morgenthau: A Family History*. New York: Ticknor & Fields, 1991.

Morley, Bertha B. *Marsovan 1915: The Diaries of Bertha B. Morley*. Ann Arbor: Gomidas Institute, 2000.

Morris, Edmund. *The Rise of Theodore Roosevelt*. New York: Modern Library, 2001.

______. *Theodore Rex*. New York: HarperCollins, 2003.

Morris, Edward Joy. *Notes of a Tour through Turkey, Greece, Egypt, Arabia Petrea, to the Holy Land*. Philadelphia: Carey and Hart, 1842.

Morse, Arthur D. *While Six Million Died*. London: Martin Secker and Warburg, 1968.

Mott, Thomas Bentley. *Twenty Years as Military Attaché*. 1937. Reprint, New York: Arno Press, 1979.

Mott, Valentine. *Travels in Europe and the East*. New York: Harper and Brothers, 1842.

Motter, T. H. Vail. *The Persian Corridor and Aid to Russia*. Washington, D.C.: Office of the Chief of Military History, 1952.

Muccigrosso, Robert. *Celebrating the New World: Chicago's Columbian Exposition of 1893*. Chicago: Ivan R. Dee, 1993.

Munford, Kenneth. *John Ledyard: An American Marco Polo*. Portland: Binfords and Mort, 1939.

Munro, John M. *A Mutual Concern: The Story of the American University of Beirut*. Delmar, N.Y.: Caravan Books, 1977.

Murphy, Robert. *Diplomat among Warriors*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1964.

Muslih, Muhammad Y. *The Origins of Palestinian Nationalism*. New York: Columbia Univ. Press, 1988.

Naff, Alixa. *The Arab Americans*. Philadelphia: Chelsea House, 1999.

Naguib, Mohammad. Egypt's Destiny: *A Personal Statement*. London: Gollancz, 1955.

Neider, Charles, ed. *The Complete Essays of Mark Twain*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1963.

Newcomb, Harvey. *Cyclopedia of Missions*. New York: Scribner, 1854.

Nicholson, Thomas. *An Affecting Narrative of the Captivity and Suffering of Thomas Nicholson Who Has Been Six Years a Prisoner among the Algerines*. Boston: N. Coverly, 1818.

Noah, Mordecai Manuel. *Correspondence and Documents Relative to the Attempt to Negotiate for the Release of the American Captives at Algiers, including Remarks on Our Relations with that Regency*. Washington, D.C.: n.p., 1816.

Nolte, Richard H., ed. *The Modern Middle East*. New York: Atherton Press, 1963.

North, Michael. *Reading 1922: A Return to the Scene of the Modern*. New York: Oxford Univ. Press, 1999.

Notter, Harley. *The Origins of the Foreign Policy of Woodrow Wilson*. Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1937.

Noveck, Simon, ed. *Great Jewish Personalities in Modern Times*. Washington, D.C.: B'nai B'rith Department of Adult Jewish Education, 1960.

Obenzinger, Hilton. *American Palestine: Melville, Twain, and the Holy Land Mania*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1999.

Offner, Arnold. *Another Such Victory: President Truman and the Cold War, 1945–1953*. Palo Alto: Stanford Univ. Press, 2002.

Oldroyd, Osborn. *The Assassination of Abraham Lincoln*. Union, N.J.: Lawbook Exchange, 2001.

Olin, Stephen. *Travels in Egypt, Arabia Petra and the Holy Land*. New York: Harper, 1844.

Oren, Michael B. *The Origins of the Second Arab–Israel War: Egypt, Israel, and the Great Powers, 1952–56*. London: Frank Cass, 1992.

______. *Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East*. New York: Oxford Univ. Press, 2002.

Orfalea, Gregory, ed. *Grape Leaves: A Century of Arab American Poetry*. Salt Lake City: Univ. of Utah Press, 1988.

Osborn, Henry S. *Palestine, Past and Present*. Philadelphia: James Challen and Son, 1859.

Owen, E. R. J. *Cotton and the Egyptian Economy: 1820–1914*. London: Oxford Univ. Press, 1969.

Packer, George. *The Assassin's Gate: America in Iraq*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2005.

Paine, Albert Bigelow. *Mark Twain: A Biography: The Personal and Literary Life of Samuel Langhorne Clemens*. New York: Harper, 1912.

Palmer, Frederick. *Bliss, Peacemaker*. New York: Dodd, Mead, 1934.

Palmer, Michael A. *Guardians of the Gulf: A History of America's Expanding Role in the Persian Gulf, 1833–1992*. New York: Free Press, 1992.

Paludan, Phillip Shaw. *The Presidency of Abraham Lincoln*. Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1994.

Panitz, Esther L. *Simon Wolf: Private Conscience and Public Image*. Rutherford: Fairleigh Dickinson Univ. Press, 1987.

Parker, Richard B. *The Politics of Miscalculation in the Middle East*. Bloomington: Indiana Univ. Press, 1993.

Parrish, Michael E. *Felix Frankfurter and His Times: The Reform Years*. New York: Free Press, 1982.

Parker, Richard B. *Uncle Sam in Barbary: A Diplomatic History*. Gainesville: Univ. Press of Florida, 2004.

Parsons, Levi. *The Dereliction and Restoration of the Jews: A Sermon, Preached in Park-Street Church Boston, Sabbath, Oct. 31, 1819, Just before the Departure of the Palestine Mission*. Boston: Samuel T. Armstrong, 1819.

______. *The Memoir of Rev. Levi Parsons*. Compiled by Daniel Oliver Morton. New York: Arno Press, 1977.

Patai, Raphael, ed. *Herzl Year Book 7*. New York: Herzl Press, 1971.

Patton, George S. *War as I Knew It*. Boston: Houghton Mifflin, 1995.

Paullin, Charles Oscar. *Diplomatic Negotiations of American Naval Officers, 1778–1883*. Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1912.

Pears, Sir Edwin. *Forty Years in Constantinople, 1873–1915*. New York: Appleton, 1916.

Pellew, George. *American Statesmen: John Jay*. Cambridge, Mass: Riverside Press, 1890.

Peltier, Jean G. *World War II Diary of Jean Gordon Peltier*. Croveland: Perfect Art, 2000.

Pendar, Kenneth. *Adventures in Diplomacy: The Emergence of General de Gaulle in North Africa*. London: Cassell, 1966.

Penrose, Stephen. *That They May Have Life: The Story of the American University of Beirut, 1866–1941*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1941.

Peres, Shimon. *Battling for Peace; Memoirs*. Edited by David Landau. London: Weidenfeld & Nicolson, 1995.

Perkins, Bradford. *The Cambridge History of American Foreign Relations*. Vol. 1, *The Creation of a Republican Empire, 1776–1865*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1993.

Perret, Geoffrey. *Ulysses S. Grant*. New York: Random House, 1997.

Peterson, Merrill D. *"Starving Armenians": America and the Armenian Genocide, 1915–1930 and After*. Charlottesville: Univ. of Virginia Press, 2004.

Philby, H. St. John. *Arabian Oil Ventures*. Washington, D.C.: Middle East Institute, 1964.

______. *Saudi Arabia*. London: Ernest Benn, 1955.

Philipson, David. *My Life as an American Jew*. Cincinnati: John G. Kidd, 1941.

Phillips, Clifton Jackson. *Protestant America and the Pagan World: The First Half Century of the American Board of Commissioners for Foreign Missions, 1810–1860*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1969.

Pletcher, David M. *The Awkward Years: American Foreign Relations under Garfield and Arthur*. Columbia: Univ. of Missouri Press, 1962.

A Pocket Guide to North Africa. Washington, D.C.: War and Navy Department, 1942.

Poe, Edgar Allan. *The Works of the Late Edgar Allan Poe*. Vol. 4. New York: Arthur Gordon Pym, 1856.

Pollack, Kenneth M. *The Persian Puzzle: The Conflict between Iran and America*. New York: Random House, 2004.

Porch, Douglas. *The Path to Victory: The Mediterranean Theater in World War II*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004.

Powell, Colin L., with Joseph E. Persico. *My American Journey*. New York: Random House, 1995.

Power, Samantha. *A Problem from Hell: America and the Age of Genocide*. New York: Basic Books, 2002.

Price, Willadene. *Bartholdi and the Statue of Liberty*. Chicago: Rand McNally, 1959.

Prideaux, Humphrey. *The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of Mahomet*. Fairhaven, Vt.: James Lyon, 1798.

Prime, William C. *Tent Life in the Holy Land*. New York: Harper, 1857.

Pulson, W. D. *The Life and Work of Captain Alfred Thayer Mahan*. New Haven: Yale Univ. Press, 1939.

Pyle, Ernie. *Here Is Your War*. New York: Henry Holt, 1943.

Quandt, William B. *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict since 1967*. 3d ed. Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2005.

Quinn, Frederick. *The French Overseas Empire*. New York: Praeger, 2000.

Raab, James. *W. W. Loring*. Manhattan, Kan.: Sunflower Univ. Press, 1997.

Rabinowitz, Ezekiel. *Justice Louis D. Brandeis: The Zionist Chapter of His Life*. New York: Philosophical Library, 1968.

Raider, Mark A. *The Emergence of American Zionism*. New York: New York Univ. Press, 1998.

Rame, David. *Road to Tunis*. New York: Macmillan, 1944.

Randall, Willard Sterne. *Alexander Hamilton: A Life*. New York: Perennial, 2003.

Range, Willard. *Franklin D. Roosevelt's World Order*. Athens: Univ. of Georgia Press, 1959.

Rapoport, Louis. *Shake Heaven and Earth: Peter Bergson and the Struggle to Rescue the Jews of Europe*. Jerusalem: Gefen, 1999.

Ratzabi, Shalom. *Between Zionism and Judaism: The Radical Circle in Brith Shalom, 1925–1933*. Leiden: Brill, 2002.

Reagan, Ronald. *An American Life*. New York: Simon & Schuster, 1990.

______. *Reagan, in His Own Hand*. Edited by Kiron K. Skinner, Annelise Anderson, and Martin Anderson. New York: Free Press, 2001.

Reckner, James A. *Teddy Roosevelt's Great White Fleet*. Annapolis: Naval Institute Press, 1988.

Reinharz, Jehuda. *Chaim Weizman: The Making of a Statesman*. New York: Oxford Univ. Press, 1993.

Reinharz, Shulamit, and Mark A. Raider, eds. *American Jewish Women and the Zionist Enterprise*. Waltham, Mass.: Brandeis Univ. Press, 2004.

Remini, Robert V. *Andrew Jackson and the Course of American Freedom, 1822–1832*. Vol. 2. New York: Harper & Row, 1981.

Riad, Mahmoud. *The Struggle for Peace in the Middle East*. New York: Quartet Books, 1981.

Richter, Julius. *History of Protestant Missions in the Near East*. 1910. Reprint, New York: AMS Press, 1970.

Riggs, Henry H. *Days of Tragedy in Armenia*. Ann Arbor: Gomidas Institute, 1917.

Rihani, Ameen. *The Fate of Palestine*. Beirut: Rihan House, 1967.

______. *The Path of Vision*. Beirut: Rihani House, 1970.

Riley, James. *Sufferings in Africa: Captain Riley's Narrative*. New York: Potter, 1965.

Riley, Henry A. *The Restoration at the Second Coming of Christ: A Summary of Millenarian Doctrines*. Philadelphia: Lippincott, 1868.

Rippy, J. Fred. *Joel R. Poinsett: Versatile American*. Durham: Duke Univ. Press, 1935.

Ritchie, Donald A. *James M. Landis: Dean of the Regulators*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1980.

Rizk, Salom. *Syrian Yankee*. Garden City. N.Y.: Doubleday, Doran, 1943.

Robbins, Thomas. *Diaries, 1796–1854*. Boston: Thomas Todd, 1886.

Roberts, Edmund. *Embassy to the Eastern Courts of Cochin-China, Siam, and Muscat, in the U.S. Sloop-of-War Peacock, during the Years 1832–3–4*. New York: Harper, 1837.

Robinson, Edward. *Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea: A Journal of Travels in the Year 1838 by E. Robinson and E. Smith, Undertaken in Reference to Biblical Geography*. 3 vols. Boston: Crocker & Brewster, 1841.

______. *Later Biblical Researches in Palestine and Adjacent Regions: A Journal of Travels in the Year 1852*. London: John Murray, 1856.

Robotti, Frances Diane, and James Vescovi. *The USS Essex and the Birth of the American Navy*. Holbrook, Mass.: Adams Media Corp., 1999.

Roosevelt, Elliott. *As He Saw It*. New York: Duell, Sloan and Pierce, 1946.

Roosevelt, Theodore. *An Autobiography*. New York: Da Capo Press, 1985.

______. *Theodore Roosevelt's Diaries of Boyhood and Youth*. New York: Scribner, 1928.

Ross, Dennis. *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004.

Roth, Philip. *The Plot Against America*. Boston and New York: Houghton Mifflin, 2004.

Rowson, Susanna. *Slaves in Algiers; or, The Struggle for Freedom*. Philadelphia: Wrigley and Berriman, 1794.

Rubin, Barry. *Paved with Good Intentions: The American Experience and Iran*. New York: Viking, 1981.

______. *The Great Powers in the Middle East, 1941–1947*. London: Cass, 1980.

Rubin, Barry, and Judith Colp Rubin. *Yasir Arafat: A Political Biography*. Oxford: Oxford Univ. Press, 2003.

Rubinger, Naphtali J. *Abraham Lincoln and the Jews*. New York: Jonathan David, 1962.

Rusk, John. *The Authentic Life of T. DeWitt Talmage*. New York: L. G. Stahl, 1902.

Rutland, Robert A. *The Presidency of James Madison*. Lawrence: Univ. Press of Kansas, 1990.

Sachar, Howard M. *The Emergence of the Middle East, 1914–1924*. New York: Knopf, 1969.

______. *A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time*. New York: Knopf, 1970.

Sadat, Anwar el-. *In Search of Identity: An Autobiography*. New York: Harper & Row, 1977.

______. *Revolt on the Nile*. Translated by Thomas Graham. London: A. Wingate, 1957.

Safran, Nadav. *Israel: The Embattled Ally*. Cambridge: Belknap Press, 1978.

Said, Edward. *Orientalism*. New York: Vintage, 1979.

Saikal, Amin. *The Rise and Fall of the Shah*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1980.

Sampson, Anthony. *The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Shaped*. New York: Bantam, 1991.

Sandys, George. *Description of the Ottoman Empire*. Amsterdam: Theatrum Orbis Terrarum, 1973.

Sarna, Jonathan D. *Jacksonian Jew: The Two Worlds of Mordecai Noah*. New York: Holmes & Meier, 1981.

Savary, Claude Etienne. *Letters on Egypt, Containing a Parallel between the Manners of Its Ancient and Modern Inhabitants*. London: G. G. J. and J. Robinson, 1787.

Schachner, Nathan. *Thomas Jefferson: A Biography*. New York: Thomas Yoseloff, 1951.

Schaff, Philip. *Through Bible Lands: Notes of Travel in Egypt, the Desert, and Palestine*. New York: American Tract Society, 1878.

Scherer, George H. *Mediterranean Missions, 1808–1870*. Beirut: Bible Lands Union for Christian Education, n.d.

Schlesinger, Arthur M., Jr. *The Age of Jackson*. Boston: Little, Brown, 1950.

Scholes, Walter, and Marie Scholes. *The Foreign Policies of the Taft Administration*. Columbia: Univ. of Missouri Press, 1970.

Schroeder, Seaton. *Fifty Years of Naval Service*. New York: Appleton, 1922.

Schueller, Malini Johar. *U.S. Orientalisms*. Ann Arbor: Univ. of Michigan Press, 1998.

______, ed. *David F. Dorr: A Colored Man round the World*. Ann Arbor: Univ. of Michigan Press, 1999.

Schuldiner, Michael, and Daniel J. Kleinfeld. *The Selected Writings of Mordecai Noah*. London: Greenwood, 1999.

Schwarzkopf, H. Norman, with Peter Petre. *It Doesn't Take a Hero: The Autobiography*. New York: Bantam, 1992.

Seeger, Robert. *And Tyler Too: A Biography of John and Julia Gardiner Tyler*. New York: McGraw-Hill, 1963.

Seward, Olive Risley. *Around the World Stories*. Boston: D. Lothrop, 1889.

______, ed. *William H. Seward's Travels around the World*. New York: Appleton, 1873.

Shaban, Fuad. *Islam and Arabs in Early American Thought: Roots of Orientalism in America*. Durham, N.C.: Acorn Press, 1991.

Shaler, William. *Sketches of Algiers*. Boston: Cummings, Hillard, 1826.

Sharafuddin, Mohammed. *Islam and Romantic Orientalism: Literary Encounters with the Orient*. London: I. B. Tauris, 1994.

Sharif, Regina S. *Non-Jewish Zionism: Its Roots in Western History*. London: Zed Press, 1983.

Shaw, George Bernard. *The Complete Plays of Bernard Shaw*. London: Constable Press, 1931.

Shaw, Stanford. *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*. Vol. 1, *Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire, 1280–1808*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1976.

Sheehan, Michael K. *Iran: The Impact of United States Interests and Policies, 1941–1943*. Brooklyn: Theo Gaus' Sons, 1968.

Shepherd, Naomi. *The Zealous Intruders: The Western Rediscovery of Palestine*. London: Collins, 1987.

Shimoni, Gideon. *The Zionist Ideology*. Hanover: Univ. Press of New England, Brandeis Univ. Press, 1995.

Shire, Michael. *The Jewish Prophet: Visionary Words from Moses to Heschel*. London: Frances Lincoln, 2002.

Schoenbaum, David. *The United States and the State of Israel*. New York: Oxford Univ. Press, 1993.

Shotwell, James. *At the Paris Peace Conference*. New York: Macmillan, 1937.

Shpiro, David. *From Philanthropy to Activism: The Political Transformation of American Zionism in the Holocaust Years, 1933–1945*. Oxford: Pergamon Press, 1994.

Shuckburgh, Evelyn. *Descent to Suez: Diaries, 1951–1956*. Edited by John Charmley. New York: Norton, 1986.

Shwadran, Benjamin. *The Middle East, Oil, and the Great Powers*. Jerusalem: Israel Univ. Press, 1973.

Silberman, Neal Asher. *Digging for God and Country: Archeology and the Secret Struggle for the Holy Land, 1799–1917*. New York: Knopf, 1982.

Silverberg, Robert. *If I Forget Thee, O Jerusalem: American Jews and the State of Israel*. New York: Morrow, 1970.

Silverstein, Gordon. *Imbalance of Powers: Constitutional Interpretation and the Making of American Foreign Policy*. Oxford: Oxford Univ. Press, 1997.

Simmes, Raphael. *Memoirs of a Service Afloat*. Baltimore: Baltimore Publishing Co., 1887.

Simons, Geoff. *Libya and the West: From Independence to Lockerbie*. Oxford: Centre for Libyan Studies, 2003.

Smelser, Marshall. *The Democratic Republic*. New York: Harper & Row, 1968.

Smith, Gaddis. *American Diplomacy during the Second World War, 1941–1945*. New York: Knopf, 1985.

Sobel, Samuel. *Intrepid Soldier*. Philadelphia: Cresset, 1980.

Southgate, Horatio. *Narrative of a Tour through Armenia, Kurdistan, Persia, and Mesopotamia*. London: Appleton, 1840.

Sparks, Jared. *The Life of John Ledyard, the American Traveller*. Cambridge: Hillard and Brown, 1828.

Spiegel, Steven L. *The Other Arab-Israeli Conflict: Making America's Middle East Policy, from Truman to Reagan*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1985.

Stagg, J. C. A. *Mr. Madison's War: Politics, Diplomacy, and Warfare in the Early American Republic, 1783-1830*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1983.

Steers, Edward. *Blood on the Moon: The Assassination of Abraham Lincoln*. Lexington: Univ. Press of Kentucky, 2001.

Stegner, Wallace. *Discovery: The Search for Arabian Oil*. Beirut: Export Press, 1971.

Stein, Kenneth W. *Heroic Diplomacy: Sadat, Kissinger, Carter, Begin, and the Quest for Arab-Israeli Peace*. New York: Routledge, 1999.

Stein, Leonard. *The Balfour Declaration*. London: Vallentine, Mitchell, 1961.

Steiner, Franklin. *The Religious Beliefs of Our Presidents: From Washington to F.D.R.* New York: Prometheus, 1995.

Stephens, John Lloyd. *Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petraea, and the Holy Land*. New York: Harper, 1855.

Sternlicht, Sanford V. *Uriah Phillips Levy: The Blue Star Commodore*. Norfolk, Va.: Norfolk Jewish Community Council, 1961.

Stevens, James. *An Historical and Geographical Account of Algiers*. Philadelphia: Hogan and McElroy, 1797.

Stevens, Marcia, and Malcolm Stevens. *Against the Devil's Current: The Life and Times of Cyrus Hamlin*. Lanham, Md.: Univ. Press of America, 1988.

Stevens, Mark. *Six Months at the World's Fair*. Detroit: Detroit Free Press, 1895.

Stevens, Mrs. Mark. *A Lecture on What You Missed in Not Visiting the World's Fair*. Flint: n.p., 1895.

Still, William N. *American Sea Power in the Old World: The United States Navy in European and Near Eastern Waters, 1865–1917*. Westport, Conn.: Greenwood, 1980.

St. John, Ronald Bruce. *Libya and the United States: Two Centuries of Strife*. Philadelphia: Univ. of Pennsylvania Press, 2002.

Strong, Douglas H. *Dreamers and Defenders: American Conservationists*. Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1988.

Strong, Josiah. *Our Country: Its Possible Future and Its Present Crisis*. New York: American Home Mission Society, 1885.

Strout, Cushing. *The American Image of the Old World*. New York: Harper & Row, 1963.

Studies in the National Military Victories of Egypt [Arabic]. Cairo: Ministry of Information, 1984.

Sumner, Charles. *White Slavery in the Barbary States*. Boston: J. P. Jewett, 1853.

Swift, John. *Going to Jericho*. New York: A. Roman, 1868.

Sykes, Christopher. *Crossroads to Israel, 1917–1948*. Bloomington: Indiana Univ. Press, 1973.

Symonds, Craig L. *Navalist and Antinavalists: The Naval Policy Debate in the United States, 1785–1827*. Newark: Univ. of Delaware Press, 1980.

Talmage, T. DeWitt. *New Tabernacle Sermons*. New York: George Munro, 1886.

______. *Talmage on Palestine: A Series of Sermons*. New York: W. D. Rowland, 1890.

Tauber, Eliezer. *The Emergence of the Arab Movements*. London: Frank Cass, 1993.

Taylor, Baynard. *The Lands of the Saracen; or, Pictures of Palestine, Asia Minor, Sicily, and Spain*. New York: Putnam, 1855.

Teveth, Shabtai. *Ben Gurion: The Burning Ground, 1886–1948*. Boston: Houghton Mifflin, 1987.

Thackery, William Makepeace. *From Cornhill to Grand Cairo*. London: George Routledge, 1888.

Thomas, Benjamin P. *Abraham Lincoln: A Biography*. New York: Random House, 1968.

Thomas, Evan. *John Paul Jones: Sailor, Hero, Father of the American Navy*. New York: Simon & Schuster, 2003.

Thomas, Lowell. *Good Evening Everybody*. New York: Morrow, 1976.

______. *With Lawrence in Arabia*. London: Hutchinson, n.d.

Thomas, Nancy, ed. *The American Discovery of Ancient Egypt*. New York: Abrams, 1995.

Thomson, William. *The Land and the Book; or, Biblical Illustrations Drawn from the Manners and Customs, the Scenes and Scenery, of the Holy Land*. Vol. 1. New York; Harper, 1886.

Tibawi, A. L. *American Interests in Syria, 1800–1901*. Oxford: Clarendon Press, 1966.

Tibi, Bassam. *Arab Nationalism: Between Islam and the Nation–State*. New York: St. Martin's, 1997

Tocqueville, Alexis de. *Democracy in America*. New York: Appleton, 1901.

Touval, Saadia. *The Peace Brokers: Mediators in the Arab–Israeli Conflict, 1948–1979*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1982.

Trachtenberg, Marvin. *The Statue of Liberty*. New York: Penguin, 1986.

Trask, Robert. *The United States Response to Turkish Nationalism and Reform, 1914–1939*. Minneapolis: Univ. of Minnesota, 1971.

Truman, Harry S. *Memoirs*. Vol. 2, *Years of Trial and Hope*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1956.

Tuchman, Barbara W. *Bible and Sword: England and Palestine from the Bronze Age to Balfour*. New York: Ballantine, 1956.

Tucker, Glenn. *Dawn like Thunder: The Barbary Wars and the Birth of the U.S. Navy*. New York: Bobbs–Merrill, 1963.

Turnbull, Archibald Douglas. *Commodore David Porter, 1780–1843*. New York: Century, 1929.

Turner, Brian. *Here, Bullet*. Farmington, Me.: Alice James Books, 2005.

Turner, Frederick Jackson. *The Frontier in American History*. 1920. Reprint, New York: Henry Holt, 1947.

Twain, Mark. *The Innocents Abroad; or, The New Pilgrims' Progress Being Some Account of the Steamwhip Quaker City's Pleasure Excursion to Europe and the Holy Land*. Pleasantville, N.Y.: Reader's Digest, 1990.

Tyler, Royall. *The Algerine Captive; or, The Life and Adventures of Doctor Updike Underhill, Six Years a Prisoner among the Algerines*. Hartford: Peter B. Gleason, 1816.

Urofsky, Melvin I. *American Zionism from Herzl to the Holocaust*. Garden City, N.Y.: Anchor, 1975.

______. *The Levy Family and Monticello*. Monticello: Thomas Jefferson Foundation, 2001.

______. *A Voice That Spoke for Justice: The Life and Times of Stephen S. Wise*. Albany: State Univ. of New York Press, 1982.

Urquhart, Brian. *Ralph Bunche: An American Life*. New York: Norton, 1993.

U.S. Department of the Army, the United States Army in World War II: The Middle East Theater. Washington, D.C.: GPO, 1953.

Ussher, Clarence, and Grace Knapp. *An American Physician in Turkey*. Boston: Houghton Mifflin, 1917.

Van der Meulen, D. *The Wells of Ibn Saud*. New York: Praeger, 1957.

Van Deusen, Glyndon. *William Henry Seward*. New York: Oxford Univ. Press, 1967.

Vandewalle, Dirk. *A History of Modern Libya*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 2006.

Van Dyke, Henry. *Out-of-Doors in the Holy Land: Impressions of Travel in Body and Spirit*. New York: Scribner, 1908.

Vatikiotis, P. J. *The History of Egypt: From Muhammad Ali to Sadat*. Baltimore: Johns Hopkins Univ. Press, 1980.

______. *Nasser and His Generation*. New York: St. Martin's, 1978.

Vester, Bertha Spafford. *Our Jerusalem: an American Family in the Holy City, 1881-1949*. 1950. Reprint, New York: Arno Press, 1977.

Vogel, Dan. *Mark Twain's Jews*. Jersey City, N.J.: KTAV Publishing House, 2006.

Vogel, Lester I. *To See a Promised Land: Americans and the Holy Land in the Nineteenth Century*. University Park: Pennsylvania State Univ. Press, 1993.

Volney, Constantin-François. *Voyage en Syrie et en Egypte, pendant les années 1783, 1784, et 1785*. Paris: Desenne et Volland, 1787.

Wagenknecht, Edward. *Daughters of the Covenant: Portraits of Six Jewish Women*. Amherst: Univ. of Massachusetts Press, 1983.

Walker, Charles T. *A Colored Man around the World: What He Saw and Heard in the Holy Land and Europe*. Augusta, Ga.: John M. Weigle, 1892.

Wallace, Edwin S. *Jerusalem the Holy: A Brief History of Ancient Jerusalem, with an Account of the Modern City and Its Conditions, Political, Religious and Social*. New York: Revell, 1898.

Walsh, Lawrence E. *Iran Contra: The Final Report*. New York: Times Books, 1994.

Walworth, Arthur. *Woodrow Wilson*. New York: Norton, 1978.

Warner, Charles Dudley. *Mummies and Moslems*. Toronto: Belford Brothers, 1876.

______. *My Winter on the Nile*. Hartford: American Publishing Co., 1876.

Warren, Henry White. *Sights and Insights; or, Knowledge by Travel*. New York: Nelson and Phillips, 1874.

Washburn, George. *Fifty Years in Constantinople*. Boston: Houghton Mifflin, 1909.

Washington, Joseph, ed. *Jews in Black Perspective*. Rutherford: Fairleigh Dickinson Univ. Press, 1984.

Watrous, Stephen D., ed. *John Ledyard's Journey through Russia and Siberia 1787–1788: The Journal and Selected Letters*. Madison: Univ. of Wisconsin Press, 1966.

Watts, Martin. *The Jewish Legion and the First World War*. London: Palgrave Macmillan, 2004.

Weinberg, Albert K. *Manifest Destiny: A Study of Nationalist Expansionism in American History*. 1935. Reprint, Chicago: Quadrangle, 1963.

Weisberger, Bernard A. *Statue of Liberty: The First Hundred Years*. Boston: Houghton Mifflin, 1985.

Weizmann, Chaim. *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann*. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1949.

Wessels, William. *Born to Be a Soldier: The Military Career of William Wing Loring*. Fort Worth: Texas Christian Univ. Press, 1971.

Wharton, Edith. *In Morocco*. New York: Scribner, 1920.

Wheelan, Joseph. *Jefferson's War: America's First War on Terror, 1801–1805*. New York: Carroll & Graf, 2003.

Whipple, A. B. C. *To the Shores of Tripoli: The Birth of the U.S. Navy and Marines*. New York: Morrow, 1991.

Whitehead, Ernest D. *World War II: An Ex-Sergeant Remembers*. Kearney, N.J.: Morris Publishing, 1996.

Williams, Stanley T., ed. *Journal of Washington Irving, 1828 and Miscellaneous Notes on Moorish Legend and History*. New York: American Book Co., 1937.

Williams, William Appleman. *The Shaping of American Diplomacy: Readings and Documents in American Foreign Policy, 1750–1955*. Chicago: Rand McNally, 1956.

Willis, Nathaniel Parker. *Summer Cruise in the Mediterranean on an American Frigate*. New York: Scribner, 1853.

Wilmington, Martin W. *The Middle East Supply Centre*. Albany: State Univ. of New York Press, 1971.

Wilson, J. Christy. *Apostle to Islam: A Biography of Samuel M. Zwemer*. Grand Rapids, Mich.: Baker Book House, 1952.

Winter, Jay, ed. *America and the Armenian Genocide of 1915*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 2003.

Wissa, Hanna F. *Assiout: The Saga of an Egyptian Family*. Sussex: Book Guild, 1994.

Wolf, Simon. *The Presidents I Have Known from 1860–1918*. Washington, D.C.: Byron S. Adams, 1918.

______. *Selected Addresses and Papers of Simon Wolf*. New York: Bloch, 1926.

Woodruff, Samuel. *Journal of a Tour to Malta, Greece, Asia Minor, Carthage, Algiers, Port Mahon, and Spain*. Hartford: Cooke, 1831.

Woodward, Bob. *Plan of Attack*. New York: Simon & Schuster, 2004.

Wortham, H. E. *Chinese Gordon*. Boston: Little, Brown, 1933.

Wriggins, Howard. *Picking Up the Pieces from Portugal to Palestine: Quaker Refugee Relief in World War II*. Lanham, Md.: Univ. Press of America, 2004.

Wright, L. C. *United States Policy toward Egypt, 1830–1914*. New York: Exposition Press, 1969.

Wright, Louis B., and Julia H. Macleod. *The First Americans in North Africa: William Eaton's Struggle for a Vigorous Policy against the Barbary Pirates, 1799–1805*. New York: Greenwood, 1945.

Wyman, David S., and Rafael Medoff. *A Race against Death: Peter Bergson, America, and the Holocaust*. New York: New Press, 2004.

Wynn, Humphrey. *Desert Eagles*. Osceola, Wis.: Motorbooks International, 1993.

Yale, William. *The Near East: A Modern History*. Ann Arbor: Univ. of Michigan Press, 1958.

Yaqub, Salim. *Containing Arab Nationalism: The Eisenhower Doctrine and the Middle East*. Chapel Hill: Univ. of North Carolina Press, 2004.

Yeselson, Abraham. *United States–Persia Diplomatic Relations, 1883–1921*. New Brunswick: Rutgers Univ. Press, 1956.

Young, John Russell. *Around the World with General Grant: A Narrative of the Visit of General U.S. Grant, Ex-President of the United States, to Various Countries in Europe, Asia and Africa, in 1877, 1878, 1879*. New York: American News Co., 1879.

Zacks, Richard. *The Pirate Coast: Thomas Jefferson, the First Marines, and the Secret Mission of 1805*. New York: Hyperion, 2005.

Zakaria, Fareed. *From Wealth to Power: The Unusual Origins of America's World Role*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1996.

Zeine, Zeine N. *The Emergence of Arab Nationalism*. 3d ed. Delmar, N.Y.: Caravan Books, 1973.

Ziegler, Philip. *Mountbatten*. London: Collins, 1985.

Ziff, Larzer. *Return Passages: Great American Travel Writing, 1780–1910*. New Haven: Yale Univ. Press, 2000.

Zilversmit, Arthur. *The First Emancipation: The Abolition of Slavery in the North*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1967.

Zimmerman, Walter. *First Great Triumph: How Five Americans Made Their Country a World Power*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2002.

Zug, James. *American Traveler*. New York: Basic Books, 2005.

Zwemer, A. E., and S. M. Zwemer. *Zigzag Journeys in the Camel Country: Arabia in Picture and Story*. New York: Revell, 1911.

Zwemer, Samuel, and James Cantine. *The Golden Milestone: Reminiscences of Pioneer Days Fifty Years Ago in Arabia*. New York: Revell, 1938.

المقالات

Adler, Selig. "The Palestine Question in the Wilson Era." *Jewish Social Studies* 10, no. 4 (Oct. 1948).

Allen, John. "Inventing the Middle East." *On Wisconsin* (Winter 2004).

Almond, Philip. "Western Images of Islam, 1700–1900." *Australian Journal of Politics and History* 49, no. 3 (2003).

Amann, Peter. "Prophet in Zion: The Saga of George J. Adams." *New England Quarterly* 37 (Dec. 1964).

An American. "An Audience with Sultan Abdul Mejud." *Knickerbocker* 19 (June 1842).

Audenreid, J. C. "General Sherman in Europe and the East." *Harper's New Monthly Magazine* 47, no. 280 (Sept. 1873).

Baram, Phillip. "Undermining the British: Department of State Policies in Egypt and the Suez Canal before and during World War II." *Historian* 40, no. 4 (Aug. 1978).

Ben Rejeb, Lotfi. "America's Captive Freemen in North Africa: The Comparative Method in Abolitionist Persuasion." *Slavery and Abolition* 9 (1988).

Berge, William H. "Voices for Imperialism: Josiah Strong and the Protestant Clergy." *Border States*, no. 1 (1973).

Biger, Gideon. "The American View of the Tel Hai Affair." *Journal of Israeli History* 19, no. 1 (1998).

Blumberg, Arnold. “William Seward and Egyptian Intervention in Mexico.” *Smithsonian Journal of History* 1 (Winter 1966–67).

Borer, Douglas A. “Inverse Engagement: Lessons from U.S.-Iraq Relations, 1982–1990.” *Parameters* 33, no. 2 (2003).

Bornstein, George. “A Forgotten Alliance: Africans, Americans, Zionists and Irish.” *Times Literary Supplement*, March 4, 2005.

Breitman, Richard. “The Allied War Effort and the Jews, 1942–1943,” *Journal of Contemporary History* 20, no. 1 (Jan. 1985).

Brekus, Catherine A. “Harriet Livermore, the Pilgrim Stranger: Female Preaching and Biblical Feminism in Early Nineteenth-Century America.” *Journal of the Early Republic* 65 (Sept. 1996).

Brier, Bob. “Saga of Cleopatra’s Needles,” *Archaeology* 55, no. 6 (Nov.-Dec. 2002).

Bruck, Connie. “The Wounds of Peace.” *New Yorker*, Oct. 14, 1996.

Buel, Clarence Clough. “Preliminary Glimpses of the Fair.” *Century* 45, no. 4 (Feb. 1893).

“Bush on Ezekiel’s Vision.” *Princeton Review* 16, no. 3 (1844).

Cantor, Milton. “Joel Barlow’s Mission to Algiers.” *Historian* 25 (1963).

Caplan, Dennis. “John Adams, Thomas Jefferson, and the Barbary Pirates: An Illustration of Relevant Costs for Decision Making.” *Issues in Accounting Education* 18, no. 3 (2003).

Christison, Kathleen. “The Arab-Israeli Policy of George Schultz.” *Journal of Palestine Studies* 18, no. 2 (1989).

Cohen, Michael J. “American Influence on British Policy in the Middle East during World War Two: First Attempts at Coordinating Allied Policy on Palestine.” *American Jewish Historical Quarterly* 67, no. 1 (Sept. 1977).

______. “Secret Diplomacy and Rebellion in Palestine, 1936–1939.” *International Journal of Middle East Studies* 8, no. 3 (July 1977).

Cox, Frederick J. “Arabi and Stone: Egypt’s Military Rebellion, 1882.” *Cahiers d’Histoire Egyptienne* 8 (April 1956).

______. “The American Naval Mission in Egypt.” *Journal of Modern History* 26, no. 2 (June 1954).

Daigle, Craig A. “The Russians Are Going: Sadat, Nixon and the Soviet Presence in Egypt, 1970–1971.” *Middle East Review of International Affairs* 8, no. 1 (March 2004).

Daniel, Robert L. “The Armenian Question and American-Turkish Relations, 1914–1927.” *Mississippi Valley Historical Review* 46 (Sept. 1959).

DeMott, Robert. “Steinbeck’s Other Family: New Light on East of Eden?” *Steinbeck Newsletter* 7, no. 1 (Winter 1994).

Earle, Edward M. “American Interest in the Greek Cause, 1821–1827,” *American Historical Review* 33, no. 1 (Oct. 1927).

______. “Early American Policy concerning Ottoman Minorities.” *Political Science Quarterly* 42, no. 3 (Sept. 1927).

______. “Egyptian Cotton and the American Civil War.” *Political Science Quarterly* 41, no. 4 (Dec. 1926).

Efimenco, Marbury N. “American Impact upon Middle East Leadership.” *Political Science Quarterly* 69, no. 2 (June 1954).

Eidelberg, Shlomo. “The Adams Colony in Jaffa (1866–1868).” *Midstream* 3 (Autumn 1957).

Eiselein, Gregory. “Emotion and the Jewish Historical Poems of Emma Lazarus.” *Mosaic* 37 (2004).

Farman, Elbert Eli. “Negotiating for the Obelisk.” *Century Illustrated Monthly Magazine* 24 (Oct. 1882).

Ford, Alexander Fume. “Our American Colony at Jerusalem.” *Appleton’s Magazine* 8 (1906).

Fox, Frank. “Quake; Shake; Rabbi: Warder Cresson: The Story of a Philadelphia Mystic.” *Pennsylvania Magazine of History and Biography* 95 (1971).

Frazier, Robert. “Acheson and Formulation of the Truman Doctrine.” *Journal of Modern Greek Studies* 17, no. 2 (1999).

Fromkin, David. “The Importance of T. E. Lawrence.” *New Criterion* 10, no. 1 (Sept. 1995).

Funk, Arthur L. “Negotiating the ‘Deal with Darlan.’” *Journal of Contemporary History* 8, no. 2 (April 1973).

Gelvin, James L. “Zionism and the Representation of Jewish Palestine at the New York World’s Fair, 1939–40.” *International History Review* 22, no. 1 (2000).

Gillespie, Joanna. “Mary Briscoe Baldwin (1811–1877), Single Woman Missionary and ‘Very Much My Own Mistress.’” *Anglican and Episcopal History* 57 (March 1988).

Goldman, Shalom. “Professor George Bush: American Hebraist and Proto-Zionist.” *American Jewish Archives* 43, no. 1 (1991).

Gorst, Anthony, and Scott W. Lucas. “Suez 1956: Strategy and the Diplomatic Process.” *Journal of Strategic Studies* 23, no. 1 (1988).

Grabill, Joseph. “Cleveland H. Dodge, Woodrow Wilson, and the Near East.” *Journat of Presbyterian History* 48 (Winter 1970).

Hale, William Harlan. ‘“General’ Eaton and His Improbable Legion.” *American Heritage* 11, no. 2 (Feb. 1960).

Halpern, Ben. “The Americanization of Zionism.” *American Jewish History* 69, no. 1 (1979).

Hamlin, Cyrus. “American Educatin in the Ottoman Empire.” *Arena* 22, no. 1 (Dec. 1899).

Herbert, T. Walter. “The Force of Prejudice: Melville’s Attack on Missions in Typee.” *Border States*, no. 1 (1973).

Herzl, Theodore. “Mark Twain and the British Ladies: A Feuilleton.” *Commentary* 28, no. 3 (Sept. 1959).

Hogan, Matthew. “The 1948 Massacre at Deir Yassin Revisited.” *Historian* 63, no. 2 (Winter 2001).

“The Holy Land Appropriated: The Careers of Selah Merrill, Nineteenth Century Christian Hebraist, Palestine Explorer, and U.S. Consul in Jerusalem.” *American Jewish History* 85, no. 2 (June 1997).

Howard, Harry N. “President Lincoln’s Minister Resident to the Sublime Porte.” *Balkan Studies* 5 (1964).

Hoxie, Elizabeth F. “Harriet Livermore: Vixen and Devotee.” *New England Quarterly* 18 (March 1945).

Isaacs, Abram S. “Will the Jews Return to Palestine.” *Century Illustrated Monthly Magazine* 26, no. 1 (May 1883).

J.L.C. “Trade to the Black Sea.” *National Register* 5, no. 12 (May 23, 1818).

Kaplan, Lawrence S. “The Monroe Doctrine and the Truman Doctrine: The Case of Greece.” *Journal of the Early Republic* 13, no. 1 (Spring 1993).

Keating, John S. “Cruise of the USS Flying Carpet.” *True* 33, no. 199 (Dec. 1953).

Kedourie, Elie. “The American University of Beirut.” *Middle Eastern Studies* 3 (1966).

Kennedy, David M. “What ‘W’ Owes to ‘WW.’” Atlantic Monthly, March 2005.

Kirkland, John Thornton. “Letter on the Holy Land.” *Christian Examiner and General Review* 23, no.2 (1842).

Klingelhofer, Herbert E. “Abolish the Navy!” *Manuscripts* 33, no. 4 (Fall 1981).

Knee, Stuart. “Anglo-American Relations in Palestine, 1919–1925: An Experiment in Realpolitik.” *Journal of American Studies of Turkey* 5 (1997).

Kobbe, Gustav. "Sights at the Fair." *Century Illustrated Monthly Magazine* 46, no. 6 (Sept. 1893).

Kotzin, Daniel P. "An Attempt to Americanize the Yishuv: Judah L. Magnes in Mandatory Palestine." *Israel Studies* 5, no. 1 (2000).

Langley, Lester D. "Jacksonian America and the Ottoman Empire." *Muslim World* (Duncan Black Macdonald Center, Hartford Seminary Foundation), 1978.

Lawson, Fred. "The Reagan Administration in the Middle East." *MERIP Reports*, no. 128 (Nov. 1984).

Lazarus, Emma. "Epistle to the Hebrews." *American Hebrew* 13 (Feb. 2, 1883).

______. "The Jewish Problem." *Century Illustrated Monthly Magazine* 36, no. 6 (Feb. 1883).

Lebow, Richard. "The Morgenthau Peace Mission of 1917." *Jewish Social Studies* 32, no. 4 (Oct. 1970).

______. "Woodrow Wilson and the Balfour Declaration." *Journal of Modern History* 40, no. 4 (Dec. 1968).

Lewis, James R. "Savages of the Seas: Barbary Captivity Tales and Images of Muslims in the Early Republic." *Journal of American Culture* 13, no. 2 (Summer 1990).

Little, Douglas. "The Making of a Special Relationship: The United States and Israel, 1957–68," *International Journal of Middle East Studies* 25, no. 4 (Nov. 1993).

______. "The New Frontier on the Nile: JFK, Nasser, and Arab Natinalism." *Journal of American History* 75, no. 2 (Sept. 1988).

Litvak, Meir, and Joshua Teitelbaum. "Students, Teachers and Edward Said: Taking Stock of Orientalism." *Middle East Review of International Affairs* 10, no. 1 (March 2006).

Louis, William Roger. “American Anti-colonialism and the Dissolution of the British Empire.” *international Affairs* 61, no. 3 (Summer 1985).

Macleod, Julia H. “Jefferson and the Navy: A Defense.” *Huntington Library Quarterly* 8 (Feb. 1945).

Malley, Robert, and Hussein Agha. “Camp David: The Tragedy of Errors.” *New York Review of Books*, Aug. 9, 2001.

Malone, Joseph J. “America and the Arabian Peninsula: The First Two Hundred Years.” *Middle East Journal* 30, no. 3 (Summer 1976).

Manela, Erez. “Friction from the Sidelines: Diplomacy, Religion and Culture in American-Egyptian Relations, 1919–1939.” *The United States and the Middle East: Diplomatic and Economic Relations in Historical Perspective*. New Haven: Yale Center for International and Area Studies (2000).

Marom, Daniel. “Who Is the ‘Mother of Exiles’?: Jewish Aspects of Emma Lazarus’s *The New Colossus*.” *Prooftexts* 20, no. 3 (2000).

Mayer, David N. “By the Chains of the Constitution: Separation of Powers Theory and Jefferson’s Conception of the Presidency.” *Perspectives on Political Science* 26 (1997).

McCarthy, W. Barry. “Ibn Saud’s Voyage.” *Life*, March 19, 1945.

McClellan, George B. “The Bombardment of Alexandria.” *North American Review* 142, no. 355 (June 1886).

______. “The War in Egypt.” *Century Illustrated Monthly Magazine* 24, no. 5 (Sept. 1882).

______. “A Winter on the Nile.” *Scribner’s Monthly* 13, nos. 3-4 (Jan.–March 1877).

McMurty, Gerald. “Influences of Riley’s *Narrative* upon Abraham Lincoln.” *Indiana Magazine of History* 30, no. 2 (June 1934).

Mead, Elwood. “The New Palestine.” *American Review of Reviews* 70, no. 6 (Dec. 1924).

Milani, Abbas. "Hurley's Dream." *Hoover Digest*, no. 3 (2003).

Miller, Rory. "Bible and Soil: Walter Clay Lowdermilk, the Jordan Valley Project and the Palestine Debate." *Middle Eastern Studies* 39, no. 2 (April 2003).

Mylroie, Laurie. "U.S. Policy toward Iraq." *Middle East Intelligence Bulletin* 3, no. 1 (Jan. 2001).

Novelists Magazine. Vol. 18 (Containing The Arabian Nights Entertainment). London: Harrison, 1785.

Omer-Sherman, Ranen. "Emma Lazarus, Jewish American Poetics, and the Challenge of Modernity." *Journal of American Women Writers* 19 (2003).

Oren, Michael B. "The Diplomatic Struggle for the Negev." *Studies in Zionism* 2, no. 1 (1989).

______. "Escalation to Suez: The Egypt-Israel Border War, 1949–56." *Journal of Contemporary History* 24, no. 3 (July 1989).

______. "Israel, the Great Powers, and the Middle East Crisis of 1958." *Studies in Zionism* 12, no. 2 (1992).

______. "Secret Efforts to Achieve an Egypt-Israel Settlement prior to the Suez Campaign." *Middle Eastern Studies* 26, no. 3 (1990).

Ozick, Cynthia. "Mark Twain and the Jews." *Commentary* 99, no. 5 (May 1995).

Quandt, William B. "The Conflict in American Foreign Policy." In *From June to October: The Middle East between 1967 and 1973*, edited by Itamar Rabinovich and Haim Shaked. New Brunswick: Transaction, 1978.

Perry, Yaron. "John Steinbeck's Roots in Nineteenth-Century Palestine," *Steinbeck Studies* 15, no. 1 (Spring 2002).

Peskin, Lawrence A. "The Lessons of Independence: How the Algerian Crisis Shaped Early American Identity." *Diplomatic History* 28, no. 3 (June 2004).

Pollack, Josh. “Saudi Arabia and the United States, 1931–2002.” *Middle East Review of International Affairs* 6, no. 3 (Sept. 2002).

Priest, Dana. “Trip Followed Criticism of Chemical Arms’ Use.” *Washington Post*, Dec. 19, 2003.

Prince, Elaine B. “The Patrilineal Descent of Vice-President Bush.” *NEXUS: The Bimonthly Newsletter of the New England Genealogical Society* 3 (1986).

Rihani, Ameen. “Palestine and the Proposed Arab Federation.” *Annals of the American Academy of Political and Social Science* 164 (Nov. 1932).

Rivlin, Benjamin. “The United States and Moroccan International Status, 1943–1956: A Contributory Factor in Morocco’s Reassertion of Independence from France.” *International Journal of African Historical Studies* 15, no, 1 (1982).

Rook, Robert E. “An American in Palestine: Elwood Mead and Zionist Water Resource Planning, 1923–1936.” *Arab Studies Quarterly* 22, no. I (Winter 2000).

Rosenne, Shabtai. “Bunche at Rhodes: Diplomatic Negotiator.” In *Ralph Bunche: The Man and His Times*, edited by Benjamin Rivlin. New York: Holmes & Meier, 1990.

Said, Edward. “Islam through Western Eyes.” *Nation*, March 26, 1980.

______. “Orientalism: An Exchange.” *New York Review of Books*, Aug. 12, 1982.

______. “Taking Stock of Orientalism.” *Middle East Review of International Affairs* 10, no. 1 (March 2006).

Sangmuah, Egya N. “Sultan Mohammed ben Youssef’s American Strategy and the Diplomacy of North African Liberation, 1943–61.” *Journal of Contemporary History* 27, no. 1 (Jan. 1992).

Satloff, Robert. “In Search of ‘Righteous Arabs.’” *Commentary* 118, no. 1 (July 2004).

Satterthwaite, Joseph C. “The Truman Doctrine: Turkey.” *Annals of the American Academy of Political and Social and Science* 401 (May 1972).

Schueller, Malini Johar. “Performing Whiteness, Performing Blackness: Dorr’s Cultural Capital and the Critique of Slavery.” *Criticism* 41, no. 2. (1999).

Shargel, Baila Round. “American Jewish Women in Palestine: Bessie Gotsfeld, Henrietta Szold, and the Zionist Enterprise.” *American Jewish History* 90, no. 2 (June 2002).

Smith, Simon. “Piracy in Early British America.” *History Today* 46 (May 1996).

Stone, Charles P. “Stone Pacha and the Secret Dispatch.” *Journal of the Military Service Institution of the United States* 8, no. 29 (March 1887).

Stone, Fanny. “The Diary of an American Girl in Cairo during the War of 1882.” *Century Illustrated Monthly Magazine* 28, no. 2 (June 1883).

Tichi, Cecelia. “The Puritan Historians and Their New Jerusalem” *Early American Literature* 6 (1971).

Tuchman, Barbara. “The Assimilationist Dilemma: Ambassador Morgenthau’s Story.” *Commentary* 63, no. 5 (May 1977).

Turgay, A. Uner. “Ottoman–American Trade during the Nineteenth Century.” *Journal of Ottoman Studies* 3, no. 1 (1982).

Turner, Robert F. “The War on Terrorism and the Modern Relevance of the Congressional Power to ‘Declare War.’” *Harvard Journal of Law & Public Policy* 25 (2002).

Vitalis, Robert. “The New Deal in Egypt: The Rise of Anglo–American Commercial Competition in World War II and the Fall of Neocolonialism.” *Diplomatic History* 20, no. 2 (Spring 1996).

Wagner, Donald. “Evangelicals and Israel: Theological Roots of a Political Alliance.” *Christian Century*, Nov. 4, 1998.

Weiner, Jerome B. “Foundations of U.S. Relations with Morocco and the Barbary States.” *Hespris-Tamuda* [Morocco] 20–21 (1982–83).

Wheelock, Thomas. “Arms for Israel: The Limit of Leverage.” *International Security* 3, no. 2 (1987).

Yale, William. “Ambassador Henry Morgenthau’s Special Mission of 1917.” *World Politics* 1, no. 3 (April 1949).

Young, Bette Roth. “Emma Lazarus and Her Jewish Problem.” *American Jewish History* 84 (Dec. 1996).

Younis, Adele L. “The Arabs Who Followed Columbus.” *Arab World* 12, no. 3 (March 1966).

Yousuff, Sheikh Ali. “Egypt’s Reply to Colonel Roosevelt.” *North American Review* 191 (June 1910).

Zirinsky, Michael. “American Presbyterian Missionaries at Urmia during the Great War.” *Journal of Assyrian Academic Studies* 12, no. 1 (April 1998).

الرسائل العلمية غير المنشورة

Antakly, George. “American Protestant Educational Missions: Their Influence on Syria and Arab Nationalism, 1820–1923.” American Univ., 1976.

Bartur, Ron. “American Consular Assistance to the Jewish Community of the Land of Israel at the End of the Ottoman Period to the Outbreak of World War I, 1856–1914.” [Hebrew]. Hebrew Univ., 1984.

Conn, Cary Corwin. “John Porter Brown, Father of Turkish-American Relations: An Ohioan at the Sublime Porte, 1832–1872.” Ohio State Univ., 1973.

Cook, Ralph Elliot. “The United States and the Armenian Question, 1894–1924.” Tufts Univ., 1957.

Hourihan, William James. “Roosevelt and the Sultans: The United States Navy in the Mediterranean, 1904.” Univ. of Massachusetts, 1975.

Kerner, Howard. “Turko-American Diplomatic Relations, 1860–1880.” Georgetown Univ., 1948.

Laffey, Robert. “United States Policy toward and Relations with Syria, 1941– 1947.” Univ. of Notre Dame, 1981.

Larsen, Peter. “Theodore Roosevelt and the Moroccan Crisis, 1904–1906.” Princeton Univ., 1984.

Marr, Timothy Worthington. “Imagining Ishmael: Studies of Islamic Orientalism from the Puritans to Melville.” Yale Univ., 1997.

Metwalli, Ahmed Mohamed. “The Lure of the Levant: The American Literary Experience in Egypt and the Holy Land, 1800–1865.” State Univ. of New York at Albany, 1971.

Najjar, Nada. “The Space In-between: The Ambivalence of Early Arab-American Writers.” Univ. of Toledo, 1999.

Nance, Susan. “Crossing Over: A Cultural History of American Engagement with the Muslim World, 1830–1940.” Univ. of California, Berkeley, 2003.

Oder, Irwin. “The United States and the Palestine Mandate, 1920–1948: A Study of the Impact of Interest Groups on Foreign Policy.” Columbia Univ., 1956.

Rook, Robert Edward. “Blueprints and Prophets: Americans and Water Resource Planning for the Jordan River Valley, 1860–1970.” Kansas State Univ., 1996.

Walt, Joseph W. “Saudi Arabia and the Americans: 1928–1951.” Northwestern Univ., 1960.

Wright, Walter Livingston. “American Relations with Turkey to 1831.” Princeton Univ., 1928.

مواقع الويب

Adams, Roger C. "Meet Lew Wallace: American Minister to Turkey, 1881–1885." http://www.ben-hur.com/meet_ambassador.html (accessed Sept. 8, 2005).

Anderson, Amy. "Thy Kingdom Come: Jonathan Edwards and the Millennium." Department of Philosophy and Religion Pages. Aug. 26, 2003. Hillsdale College. http://www.hillsdale.edu/oldacademics/phil/JE/Papers/98/AndersonA.html (accessed July 8, 2004).

Autry, Jaxon B. "Lynch's Holy Expedition to the Dead Sea and the Surrounding Area." Biography of William Francis Lynch. Dec. 2001. Colorado State Univ., Pueblo. http://chass.colostate-pueblo.edu/history/seminar/lynch/autry.htm (accessed July 8, 2004).

"Beth Aram—The Aramean homepage in Germany." http://www.beth-aram.de/dokumente3.html.

Blyden, Eluemuno-Chukuemeka. "Edward Wilmot Blyden and Africanism in America." Edward Wilmot Blyden Virtual Museum. 1992. Columbia Univ. www.columbia.edu/~hcb8/EWB_Museum/EWB1.html (accessed July 11, 2004).

Bushrui, Suheil B. "The Thoughts and Works of Ameen Rihani." http://www.alhewar.com/Bushrui_Rihani.html (accessed March 25, 2005).

Chryssis, George C. "American Philhellenes and the War for Independence." AHEPA Family Websites. March 20, 2002. Order of AHEPA. http://www.ahepafamily.org/d5/Grk%20Inde-mar02.htm (accessed July 11, 2004).

Crocker, John. "The Book of the Thousand and One Nights." Arabian Nights Resource Center. n.d. Arabian Nights Entertainments. http://www.crock11.freeserve.co.uk/arabian.htm (accessed July 8, 2004).

Declaration of War against Germany, 1917." http://www.classbrain.com/artteenst/publish/article_86.shtml (accessed May 18, 2004).

Defining the Common Good: Oman as a Model for Global Citizenship." History of Oman. 2001. Maryland Center for the Study of History. http://www.geocities.com/CollegePark/Union/8191/mcsh/Omanncss.html (accessed July 11, 2004).

"Documenting the American South." http://docsouth.unc.edu/nc/helper/helper.html.

Egyptian State Information Service. "Orabi Pasha." Aug. 2004. http://216.239.41.104/search?q=cache:O8sDNNWobzsJ:www.sis.gov.eg/calendar/html/c1310397.htm+orabi=enstart=2.

The First Farmers of Oregon. http://www.gesswhoto.com/centennial-farmers.html.

Friedman, S. Morgan. "The Inflation Calculator." Dec. 11, 2000. Morgan S. Friedman. http://www.westegg.com/inflation/infl.cgi (accessed July 11, 2004).

Gawalt, Gerard W. "America and the Barbary Pirates: An International Battle Against an Unconventional Foe." Thomas Jefferson Papers. Oct. 29, 2001. library of Congress. http://memory.loc.gov/ammem/mtjhtml/mtjprece.html (accessed July 8, 2004).

Gibran Khalil Gibran Hornepage. http://leb.net/gibran (accessed March 24, 2005).

"Henry Eckford." Virtual American Biographies. 2000. Virtualogy. http://www.famousamericans.net/henryeckford/ (accessed July 11, 2004).

Howell, Karen E. Smith. "Down East Tales IX." A Maine Family's History. June 6, 2004. Calais Alumni. http://www.calaisalumni.org/Maine/tales9.htm (accessed July 12, 2004).

Icenogle, David. "Americans in the Egyptian Army." http://www.home.earthlink.net/~atomic_rom/officers.htm.

______. The Expeditions of Chaille-Long." http://www.saudiaramcoworld.com/issue/197806/the.expeditions.of.chaille-long.htm.

"John Ledyard." Meeting of Frontiers: Mutual Perceptions—Travel Accounts—John Ledyard. n.d. Meeting of Frontiers. Library of Congress. http://memory.loc.gov/intldl/mtfhtml/mfpercep/perceptledyard.html (accessed July 8, 2004).

"Judah Magnes." http://www.wzo.org.il/en/resources/view.asp?id=1349&subject=70.

"JWA–Henrietta Szold—Building the Yishuv." Jewish Women's Archive, http://www.jwa.org/exhibits/wov/szold/yishuv.html.

Karp, Abraham J. "Judaic Treasures of the Library of Congress: Mordecai Manuel Noah." 1991. Jewish Virtual Library. American-Israeli Cooperative Enterprise. http://www.us-israel.org/jsource/loc/noah.html (accessed July 8, 2004).

Kidwai, A. R. "Translating the Untranslatable: A Survey of English Translations of the Quran," July 12, 2003. Quranic Studies. http://www.quranicstudies.com/article32.html (accessed July 11, 2004).

"Mark Twain and His Times." http://etext.lib.virginia.edu/railton/about/srchmtf.html.

Papazian, Dennis R. "Misplaced Credulity: Contemporary Turkish Attempts to Refute the Armenian Genocide." http://www.umd.umich.edu/dept/armenian/papazian/misplace.html.

"Profiles in Caring: Clara Barton." http://www.nahc.org/NAHC/Val/Columns/SC10-1.html (accessed Nov. 30, 2004).

Railton, Stephen. "Search MT's Works." Mark Twain in His Times and in His Texts. 2004. Univ. of Virginia Library. http://etext.lib.virginia.edu/railton/about/srchmtf.html (accessed July 12, 2004).

Robert College. "The History of Robert College." n.d. http://www.robcol.k12.tr/admin/headmaster/history.htm (accessed July 12, 2004).

Said, Edward. "Thoughts about America." *Counterpunch*, March 5, 2002. http://www.counterpunch.org/saidamerica.html.

Senate Salaries since 1789." http://www.senate.gov/artandhistory/history/common/briefing/senate_salaries.htm.

Shrine of North America. "A Short History of the Shrine." http://www.shrinershq.org/shrine/shorthistory.html (accessed Sept. 8, 2005).

"Sir Joseph Banks Biography, Bt, KCB, FRS." Australian National Botanic Gardens. n.d. Australian Government Department of the Environment and Heritage. http://www.anbg.gov.au/biography/banks.biography.html (accessed July 8, 2004).

Strong, Josiah. "Anglo-Saxon Predominance (1891)." http://xroads.virginia.edu/~DRBR/strong.html (accessed Jan. 15, 2005).

"Warder Cresson (1798–1860)." Jewish Virtual Library. 2004. American-Israeli Cooperative Enterprise. http://www.us-israel.org/jsource/biography/Cresson.html (accessed July 11, 2004).

Wood, Dr. Clanance Ashton. "John Ledyard the Traveler." Long Island Genealogy. Dec. 6, 2003. Long Island Historical and Genealogical Research Resource. http://longislandgenealogy.com/Ledyard/two.htm (accessed July 8, 2004).

______. "Southhold's John Ledyard." Long Island Genealogy. Dec. 6, 2003. Long Island Historical and Genealogical Research Resource. http://longislandgenealogy.com/Ledyard/one.htm (accessed July 8, 2004).

Woodbury, Chuck. "U.S. Camel Corps Remembered in Quartzite Arizona." The Army's Bold Experiment with the U.S. Camel Corps. 2003. Out West Newspaper. http://www.outwestnewspaper.com/camels.htm (accessed July 12, 2004).

"The World's Columbian Exposition: Idea, Experience, Aftermath." Aug. 1, 1996. http://xroads.virginia.edu/~MA96/WCE/title.html.

قائمة الصور

Frontispiece: From the Collection of William Stewart. Part III opener: Courtesy of the Fogg Museum, Harvard University. As most part opening images are repeated in the inserts, the credits for the other part openers ate listed below.

Insert One: John Ledyard, Courtesy of Ledyard Bank, New Hampshire; John Lamb, Courtesy of Lossing, Benjamin J. *The Pictorial Field Book of the American Revolution* (New York: Harper & Brothers, Inc., 1859. Vol. 2, p. 585); Joel Barlow, Courtesy of the British Library; George Sandys, Courtesy of Myles Sandys; Joel Roberts Poinsett, The Granger Collection, New York; William Bainbridge, Courtesy of the Mariners' Museum, Newport News, Virginia; Commodore Edward Preble, Courtesy of the Massachusetts Historical Society; Stephen Decatur, Courtesy of the Mariners' Museum, Newport News, Virginia; Mordechai Manuel Noah, Courtesy of the American Jewish Archives; Harriet Livermore, Courtesy of the Whittier Home, Amesbury, Massachusetts, photograph by Tom Hardiman; Cyrus Hamlin, Cyrus Hamlin Collection, George J. Mitchell Dept. of Special Collections & Archives, Bowdoin College Library, Brunswick, Maine; Eli Smith, Courtesy of *Reminiscences of Bureau County, Part Two* by N. Matson, published by Republican Book and Job Office. Princeton, Illinois,

1872; Warder Cresson, Courtesy of the American Jewish Historical Society, Newton Center, Massachusetts, and New York; James Turner Barclay, Courtesy of the Scottsville Museum; George Perkins Marsh, Courtesy of the Hood Museum of Art; Haji Ali, Courtesy of Cate Mueller/Mueller Media; William Francis Lynch, Courtesy of the Naval Historical Society; Ismail Pasha, Thaddeus Mott, William Wing Loring, Charles Pomeroy Stone, James Morris Morgan, Charles Chaillé– Long, and Erastus Sparrow Purdy, Courtesy of William B. Hesseltine and Hazel C. Wolf, *The Blue and the Gray on the Nile*, The University of Chicago Press, 1961; Charles Dudley Warner, Courtesy of Corbis/Visual Photos Israel; "American Tourists," reprinted from the July 26, 1890, edition of *Graphic Magazine*, Courtesy of the New York Public Library; Ulysses and Julia Grant, Image provided by the President and Fellows of Harvard College: from HOLLIS Edward Wilmot Blyden and Lew Wallace, Courtesy of Corbis/Visual Photos Israel; "Innocents Abroad," Courtesy of the Mark Twain Project, Bancroft Library, University of California, Berkeley; Elbert Eli Farman, Courtesy of the Warsaw Historical Society, Warsaw, New York.

Insert Two: "Egypt Bringing Light to Asia," Courtesy of Musée Bartholdi-Colmar, reproduction Chr. Kempf; Emma Lazarus, The Granger Collection, New York; Samuel Marinus Zwemer, Courtesy of the Western Theological Seminary Collection at the Joint Archives of Holland; Clara Barton, Alfred Thayer Mahan, Theodore Roosevelt, Henry Morgenthau, Louis Dembitz Brandeis, and Gibran Khalil Gibran, Courtesy of Corbis/Visual Photos Israel; Ameen Rihani, Courtesy of the Ameen Rihani Organization; Charles Crane, Courtesy of the Oberlin College Archives, Oberlin, Ohio; Wilson and Balfour, from *Panorama de Ia Guerre* volume 7–La Victoire, page 298, published by 'Librairie Illustrée Jules Tallandrier, Paris, 1919; T. E. Lawrence and Lowell Thomas, Courtesy of Corbis/Visual

Photos Israel; Golda Meir, University of Wisconsin-Milwaukee, Archives Department; Henrietta Szold, Courtesy of Hadassah, The Women's Zionist Organization of America, Inc; Judah Leib Magnes, Photograph by David Haris; David Ben-Gurion, Courtesy of the Ben-Gurion Archives; The Palestine Pavilion, Courtesy of the Central Zionist Archives; "A strange noise," and King ibn Saud and Franklin Delano Roosevelt, Corbis; Muhammad Mossadegh, Getty Images; Golda Meir and Henry Kissinger, Courtesy of Shmuel Rachmani; The Camp David Peace Accords, Courtesy of Corbis/Visual Photos Israel; *The Son of the Sheik*, Courtesy of Bettmann/Corbis; Hostages, Corbis; Beirut bombing, AP/Bill Foley; GIs in Kuwait and James Baker, Corbis; Rabin, Clinton, and Arafat, Courtesy of Corbis/Visual Photos Israel; USS *Cole*, Corbis; 9/11, Photograph by the author's son, from Brooklyn Heights; U.S. Marine Second Platoon Bravo Company, 1st Recon Battalion, Courtesy of Evan Wright.

